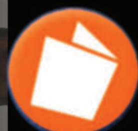
www.kotobarabia.com

رواية

الزوبعة

الجيل الثالث



www.kotobarabia.com

زياد قاسم

الزوبعـــة

الجزء الثالث

زياد قاسم

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

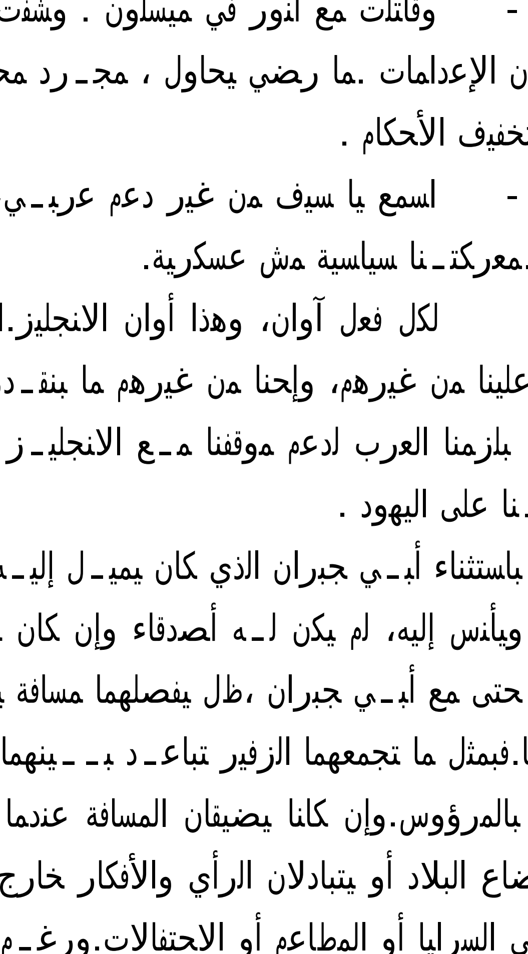
الفصل الأول

استولاه الإحباط لأشهر طويلـة. أحـس بالخـذلان لإخفاقه في وقف الإعدامات أو تغيير أحكامهـا ولـو إلـى السجن المؤبد. أصاب الشرخ صورة الحاج أمين الذي لم يعد يـختلف بنظره عن أنور. صاحب المنصـب لا يعنـى إلا بـمنصبه. لا الوطن ولا الوطنـية ولا الدين ولا القوميـة . صار يلمح في مقالاته إلى الحاج أمين دون أن يسميه .

فالوطن لا يتشكل خارج الذات وإن كـان منظـوراً حولـها ، إنها الذات التي تتشكل فيها تضاريس الطبـيعة وأحداث التاريخ، فتغدو تجليات غريزية وليسـت مرافعـات قضية. تغدو رسالة واجبة الأداء في كل الأوقـات. الـوطن غطاء وليس امتطاء، إنه إيمان وليس جاه ومال وسلطان .

فـي اللقـاءات التـي تجمعـه بالحـاج أمين،كـان الجُلسـاء يلاحظـون النبـرة البـاردة فـي محـاوراتهمـا.فبالقدر الـذي كـان فيـه الحـاج يتغلـب علـى صـدوده رغبـة باستبقاء سـيف إلـى جانبـه،كان سـيف يحـرص علـى أن لا ينفرد الحاج بالساحة:أنا ما بثق بالزعامات العربـية .

ـ كيف ما بتثق فيها وأنت قاتلت مع الثورة بقيادة فيصل .

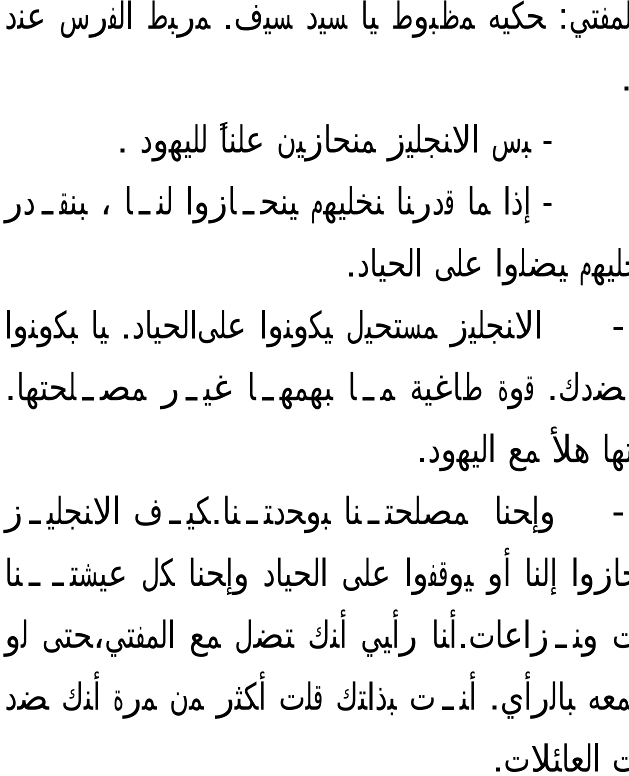


- وقاتلات مع أنور في ميسلون . وشفت شو قدم لنا منشان الإعدامات .ما رضي يحاول ، مجـرد محاولـة ، منشان تخفيف الأحكام .

- اسمع يا سيف من غير دعم عربـي،ما إلنـا أي أمل.معركتـنا سياسية مش عسكرية.

لكل فعل آوان، وهذا أوان الانجليز.اليهود ما بقدروا علينا من غيرهم، وإحنا من غيرهم ما بنقـدر علـى اليهود ، بلزمنا العرب لدعم موقفنا مـع الانجليـز ، مـش لنصرتـنا على اليهود .

باستثناء أبـي جبران الذي كان يميـل إليـه سـيف ويأتمنه ويأنس إليه، لم يكن لـه أصدقاء وإن كان معارفـه بالمئات حتى مع أبـي جبران ،ظل يفصلهما مسافة يصـعب تجاوزها.فبمثل ما تجمعهما الزفير تباعـد بـ ـينهما علاقـة الرئيس بالمرؤوس.وإن كانا يضيقان المسافة عندما يثرثران عن أوضاع البلاد أو يتبادلان الرأي والأفكار خارج نطـاق العمل في السرايا أو المطاعم أو الاحتفالات.ورغـم أن أبـا جبران كان يتلقى مقالات انطون سعاده بلهفة ويعطيها أولوية النشر دون تحريف أو بتر أو تعديل، إلا أنه في نقاشاته مـع



سيف كان يبدي عقلانـية وواقعية بعيدة عن الانفعال ، تُهدئ من سيف وتلين من صلابة مواقفه، ولاسيما عنـدما يتعلـق الأمر بالمفتي: حكيه مظبوط يا سيد سيف. مربط الفرس عند الانجليز.

- بس الانجليز منحازين علناً لليهود .

- إذا ما قدرنا نخليهم ينحـازوا لنـا ، بنقـدر نخليهم يضلوا على الحياد.

- الانجليز مستحيل يكونوا علىالحياد. يا بكونوا معك يا ضدك. قوة طاغية مـا بهمهـا غيـر مصـلحتها. ومصلحتها هلأ مع اليهود.

- وإحنا مصلحتـنا بوحدتـنا.كيـف الانجليـز بدهم ينحازوا إلنا أو يوقفوا على الحياد وإحنا كل عيشتـنا صراعات ونـزاعات.أنا رأيي أنك تضل مع المفتي،حتى لو اختلفت معه بالرأي. أنـت بذاتك قلت أكثر من مرة أنك ضد صراعات العائلات.

في البـيت يعيش حالة نفسية ومزاجيـة مختلفـة ، حتى ولو كانـت العائلة تسمع الأخبـار عبـر المـذياع، أو يتسامرون مع أقداح الشاي. فأمه زينات تـناقش أمور البلاد

العامة بـمقدار تأثيرها على مصلحة العائلة الخاصة. ففـي هذه المصلحة وجدت التعويض عـن الخيبـات والمـرارات والأحزان. أحكمت قبضتها على الميراث وكأنه دميتها التـي تعريها وتغسلها وتهندمها وفقاً لرغبتها. مسقطة عنها شـعور الذنب تجاه زوجها خالد وذكرى اختفاء سيف التي حفرت في نفسها عذاباً لا يقل عن عذاب الإجهاض.وكثيراً ما تتسـاءل، كيف تستطيع ثـائرة إرضاءه في كل الأحوال. حتى إنجابها للتوأمتين تقبله سيف بعرفان وامتـنان، وهو وحيـد عائلـة تحتاج الأبناء وليس البنات؟ ما ثقة النفس الغريـبة لـديها بحيث تعترف بأنها قد تكون مئناثاً مثـل أمهـا:بـ ـموت ، بـموت ، إذا بتجيـبـي كمان بنـت .

- كلّه قسمة ونصيب .

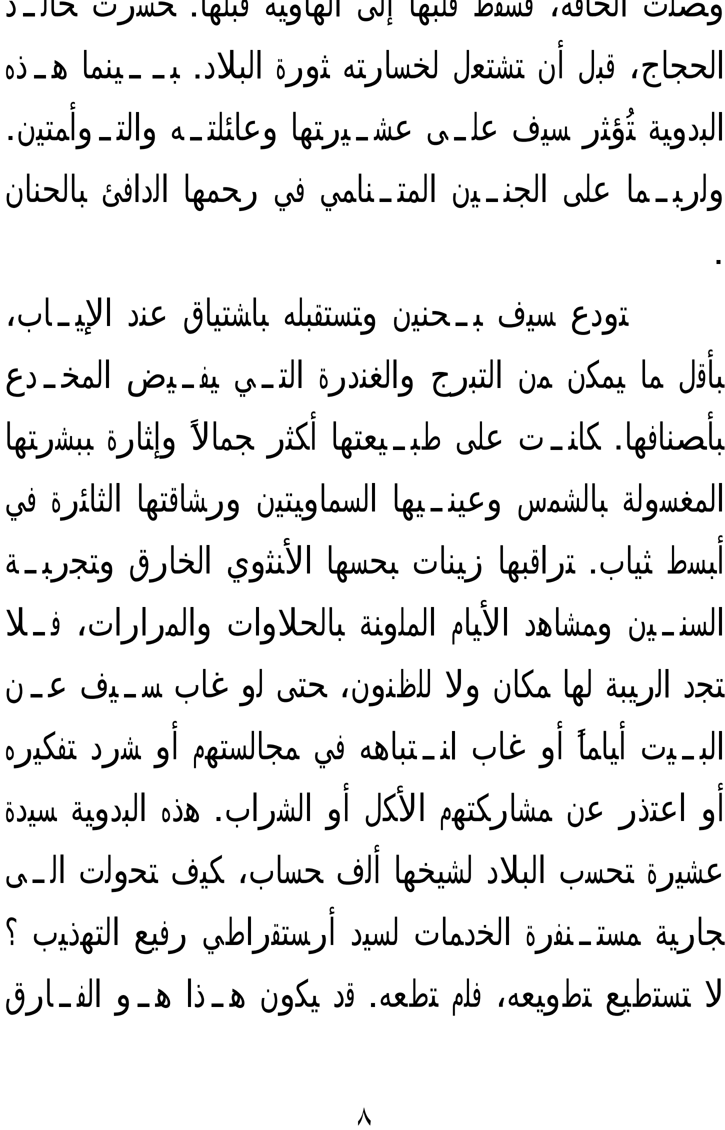
- ما بدنا هالقسمة والنصيب إذا كنـ ـت مثـل أمك .

- ويش بـيها أمي ؟.

- وبعدين يا أمي .. يضيف مؤنباً : مثـل مـا حكت إلك. كلّه قسمة ونصيب. شو الولد وشو البنـت .

في قرارة نفسه كان يخشى أن يتمخض بطن ثـائرة الآيل للانـتفاخ عن ابنة ثالثة . ستكون مصـيبة أكبـر لـو أنجبت توأمتين. لم تكن ثائرة أقل خشية منـه وإن كـان لا يحرجها ان يقال عن أمها مئنات. كانـت قادرة علـى كـبح غيرتها، على عكس زينات التي لم ينسـها تفرغهـا لإدارة أملاك العائلة وعدم تدخل سيف فيها ، من مشاكسـة ثـائرة والتدخل بشؤونها وفرض سلطتها على السرايا وكل ما فيهـا ومن فيها ، باعتبارها سيدتها ومالكتها وصاحبة الأمر والنهي فيها .

امتد تدخلها الى الزفير، وهي تـدقق بالمصـاريف وتسأل عن المبـيعات والإيرادات، وتذكر سيف بـما قامت به تجاه الشراشيـبـي. تصل بها الأمور الـى استـنطاق سيف عـن تـأخره أو غيابـه، وإذا عجـزت لا يعجزهـا الاستدراج، وكثيراً ما تساءلت كيف قبلت ثـائرة بـمدنية سيف وتأقلمت معها كأنها خبرت العيش في السرايا وليس في الخيام. يذكرها هذا بخيبتها مع خالد، وإخفاقها في تفهم نفسيته واحتياجاته، سواء في القدس أو باريس. إنها للآن ما تـزال تتعالى على آل الحجاج باعتبارها سليلة عائلة الـدوام. كـم



أساءت الظن بخالد وكم استخفت بنشاطاته ومقالاته إلى أن وصلت الحافة، فسقط قلبها إلى الهاوية قبلها. خسرت خالد الحجاج، قبل أن تشتعل لخسارته ثورة البلاد. بينما هذه البدوية تُؤثر سيف على عشيرتها وعائلته والتوأمتين. ولربما على الجنين المتنامي في رحمها الدافئ بالحنان .

تودع سيف بحنين وتستقبله باشتياق عند الإياب، بأقل ما يمكن من التبرج والغندرة التي يفيض المخدع بأصنافها. كانت على طبيعتها أكثر جمالاً وإثارة ببشرتها المغسولة بالشمس وعينيها السماويتين ورشاقتها الثائرة في أبسط ثياب. تراقبها زينات بحسها الأنثوي الخارق وتجربة السنين ومشاهد الأيام الملونة بالحلاوات والمرارات، فلا تجد الريبة لها مكان ولا للظنون، حتى لو غاب سيف عن البيت أياماً أو غاب انتباهه في مجالستهم أو شرد تفكيره أو اعتذر عن مشاركتهم الأكل أو الشراب. هذه البدوية سيدة عشيرة تحسب البلاد لشيخها ألف حساب، كيف تحولت الى جارية مستنفرة الخدمات لسيد أرستقراطي رفيع التهذيب ؟ لا تستطيع تطويعه، فلم تطعه. قد يكون هذا هو الفارق

بـينهما. فزينات أرادت مقاسمة خالد حياته ومهنـته وأن يستمد من أحلامها أحلامه، على العكس من ثائرة التي جاءت لتكمل هذه الأمور بالطاعة والاستجابة لا بالتحدي والمقارعة: طول عمرك نشمي. يخسوا .حنا ما نموت ولو خسرنا ميـة ميسلون.

بـينما تؤنبه زينات كلما دفعه الانفعال إلى الوعيـد والتهديد: حط عقلك براسك يا ابنـي. ما بكفي اللـي صـار معك؟. احمد ربك إنك بعدك عايش.

إذا استذكر بجلال أيام الحـرب، لا تخفـي زينـات حسرتها المحفورة فـي الأعمـاق بـينما تقـول ثـائرة: شوقتـنـي لهوا الصحرا يا ولد العم ... ولا تجـد حرجـاً باستذكار لقائها الأول مع سيف. كان أحلى لقاء وأغنى لقاء. فالحب لا يتدرج إلا عند المسنـين، وكان هذا يغيظ زينات، أما أيام الصبا فيحط الحب في قلب المرء منذ أول لقـاء: إن جا ولد، أسميه باسم هظاك اليوم .

- شو ..؟ سبت والا أحد ... تسـأل زينـات بسخرية واستخفاف.

- لا هاظ ولا هاظ... ترد ثائرة مبتهجـة غيـر عابئة وتضيف:اسميه لقاء ... بـينما كان سيف يرغب فـي تسميته خالد.

تذكر زينات أنها يوم حملـت بسـيف، استـنفرت عائلتها وعائلة زوجها لرعايتها. كانـت تعتقـد أن الجميـع مجبر على خدمتها والسهر على راحتها. بـينما حملت ثائرة في المرة الأولى دون ضجيج وكأنها لا تحمل فـي جسـدها سوى أحشائها التي تـنمو معها دونما خشية من الإسقاط أو حرص على الجنـين. حتى معالمها لم تتغير طيلة الأشـهر التسعة التي تغيرت فيها الأعمال والأمـوال وحالـة الـبلاد ومعيشة الناس. وسواء بقصد منها أم بعفوية، فإن ملازمـتها لارتـداء جلابـيبها أخفى انـتفاخ بطنها ، الأمر الذي جعل سيف يأتي لها بعشرات مثلها موشحة بأحلى التطاريز. حتى في الثياب تتفوق هذه البدوية على ابنة الدوام .

عندما حل الموعد، لم يكن سـيف فـي المنـزل فكابرت ثائرة م ع أوجاعها التي كـان يزيـد منهـا تـوتر زينات:وين راح. مش عارف إنك يمكن تلادي بـين سـاعة والثانـية.. في تلك اللحظة تعاطفت بكل جوانحها مع ثائرة: هيك الرجال. بعملوا اللي عليهم والباقي علينـا وعلـى رب العباد. لمُ تعلق ثائرة بكلمة إلا عند وصـول سـيف. قالـت والعرق يتصبب منها: قربت . قربت .

لم يطل الأمر في المخدع فبعد صرخات قليلة منهـا، دوى صراخ الوليد من خلف الباب، ودوت زغاريد زينـات في كل الدار: ولد. ولد مبروك يا أبو خالد.

- لأ .. أبو لقاء .

أمضت فترة النفاس القصيرة دون تمـارض أو دلال أو طول استرخاء،وهي التي ظلت طيلة تسعة أشهر تعـيش هاجس البنات. عادت إليها حيويتها سـريعاً، وعـادت إلـى طبـيعتها الفطرية تستحوذ على قلب سيف بالاستجابة وليس بالاستعلاء.

- أنا بقول يشبهك .. ؟

- ما يشبهنـي. يشبهك أنـت. أسمر مثلك وعيون كبـيرة وثـمه كبـير.

- قابل. بس فيه شبه من أبوك.

- بـيه منّوه ومنك. يرضينـي يطلـع مثلـه ومثلك. ترى نص الدنـيا جبـيلية ونصها الثانـي حجاج.

- واحنا وين رحنا.؟ ...

- كلنا ليك يا خالة... وتتحول عنها إلى الصـغير: لزوم تزور المحل اللي لأجله سماك أبوك لقاء.

حتى في أمور البـيت، لا تجد مأخذاً يقوي شكيمتها عليها. فثائرة تساهم في أعمال المنـزل رغم رعايتها للأبناء ووجود طاقم خدم وطهاة يكفيها هذه الخدمات . مـع هـذا تشرف على توضيب غرفتها وغرفة أبنائها وتساهم في طهي الطعام المدنـي، إضافة إلى تلك الأصناف البدوية التي تأنفها زينات ويحب مذاقها سيف والتوأمتان. تقتعد الأرض شـابكة يديها حول ركبته، تـنظر إليه مصغية بانـتباه أو مرتخيـة برأسها على فخذه وهو يقرأ مقالة أو قصيدة أو يصغي إلـى الأخبار أو أغنـية في الغرامافون أو الـمذياع. ممـا كـان

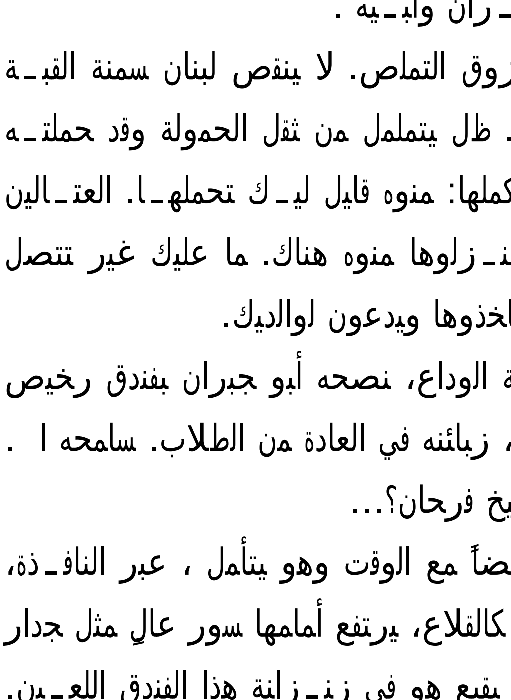
يثير زينات التي لا تقوى على مواصلة الجلسة. لا تتذكر أنها قدمت لخالد بعضاً من هذه الشـاعرية، كـم نامـت وخالـد متباعدين، وكم قذف الضجر أحدهما خارج المخـدع، وكـم أحس كل منهما بثقل الجوار. حتى لو كتم كل منهما الأنفاس. أما ثائرة وسيف فباب المخدع إذا ما انغلق عليهما لا ينفـتح إلاّ بهما ولهما. ولا تتذكر أن ثائرة سبقت سيفاً للنوم أو تلكأت باللحاق به.

عجز عن النهوض يوماً من مقعده ، بعـدما أحـس بظهره متيبساً عن الاستواء ، فتولت عن مداعبـة ابنـتيها وهي تسرع إليه ملهوفة تساعده وتماس براحتها ظهره: على هونك. على هونك.. شلون حاس هالساع؟... رافقتـه إلـى المخدع دون أن تسمح لأحد بالتـدخل أو الاقتـراب. حتـى ابنـتيها تبعدهما إذا أحست بضيق سيف منهما، ولا تتـدخل إذا ما عاقبهما. طاعته واجبة قبل إطاعتها: ليك ليـك كيـف بضربهم. عمري ضربتك والا قسيت عليك وأنـت صـغير. لكن زينات في خلوتها، وهي تحس بالوحدة والوحشة وثقـل السنـين، تتذكر أنها أهملت تربـيته. بل دفعته للتجسس على أبـيه.

فقدته منذ صغره ، فنشأ كما أراد أبوه أن ينشأ، إنـه نسخة طبق الأصل عنه، ترى، مع وجود هذه الثـائرة التـي تحكي الحكايا عن أمها وأبـيها، كيف سينشأ ابنها مع وجود المربـية المصرية التي جلبها سيف خصيصاً للقاء.؟..

٢

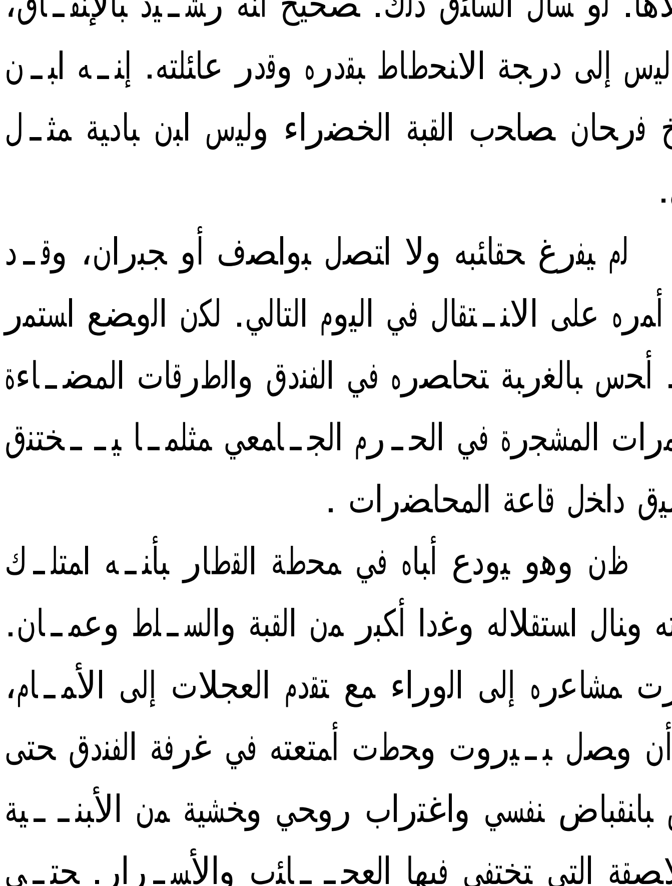
ليس إكراماً لروح الأب سمعان، وإنما إكراماً لروح رجا الصليبي الذي كان يجلّ سمعان ، أصر فرحان على مرزوق بحمل تنكة السمنة لواصف كنعان، أما التنكة الثانية فإكراماً لجبران وأبيه .



حاول مرزوق التملص. لا ينقص لبنان سمنة القبة ولا خيرات عمان. ظل يتململ من ثقل الحمولة وقد حملته أمه مؤونة سنة بأكملها: منوه قايل ليك تحملها. العتالين يشيلوها للترين وينزلوها منوه هناك. ما عليك غير تتصل بالاثنين يجوك ياخذوها ويدعون لوالديك.

خلال حفلة الوداع، نصحه أبو جبران بفندق رخيص قريب من الجامعة، زبائنه في العادة من الطلاب. سامحه ا . أهذا يليق بابن الشيخ فرحان؟...

ازداد انقباضاً مع الوقت وهو يتأمل ، عبر النافذة، المباني الشامخة كالقلاع، يرتفع أمامها سور عالٍ مثل جدار سجن كبير بينما يقبع هو في زنزانة هذا الفندق اللعين. ماذا يظن أبو جبران حتى ينصحه بهذا النزل البائس؟



ربما يعتقد أن أسوأ فندق في بيروت أكثر رقياً من القبة ومن فيها؟ ألا يعلم بأنه يستطيع النزول في أرقى الفنادق وأغلاها. لو سأل السائق ذلك. صحيح أنه رشيد بالإنفاق، لكن ليس إلى درجة الانحطاط بقدره وقدر عائلته. إنه ابن الشيخ فرحان صاحب القبة الخضراء وليس ابن بادية مثل فندي.

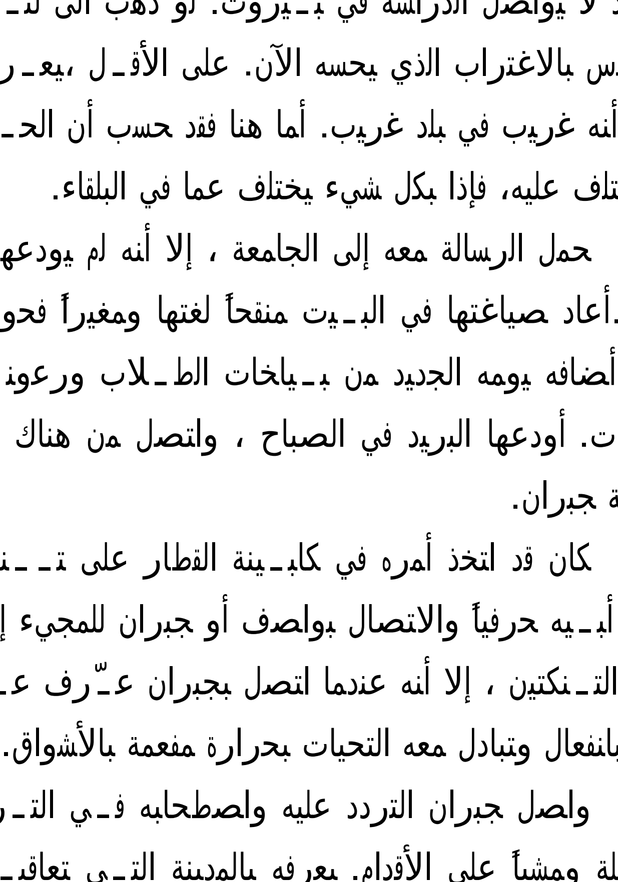
لم يفرغ حقائبه ولا اتصل بواصف أو جبران، وقد اتخذ أمره على الانتقال في اليوم التالي. لكن الوضع استمر أياماً. أحس بالغربة تحاصره في الفندق والطرقات المضاءة والممرات المشجرة في الحرم الجامعي مثلما يختنق بالضيق داخل قاعة المحاضرات .

ظن وهو يودع أباه في محطة القطار بأنه امتلك حريته ونال استقلاله وغدا أكبر من القبة والسلط وعمان. تقهقرت مشاعره إلى الوراء مع تقدم العجلات إلى الأمام، وما أن وصل بيروت وحطت أمتعته في غرفة الفندق حتى أحس بانقباض نفسي واغتراب روحي وخشية من الأبنية المتلاصقة التي تختفي فيها العجائب والأسرار. حتى ضجيج المركبات وزحام المشاة كان يزيد من شعوره

بالضياع، وكأنه في كوكب آخر يتوجب الحذر من كل شيء فيه.

في الليلة الأولى، قصد السوق طلباً للعشاء ، فأربكته الإنارة الكهربائية وحركة السيارات. توقـف أمـام العديد من المطاعم لكنه رفض دعوتها ولـم يتجـرأ علـى الدخول إليها، مكتفياً في نهاية المطاف بشطيرة مقالي بطاطا وباذنجان، تـناولها بنهم في غرفة الفندق وهو يواسي نفسـه بتذكر يومه الأول في مدرسة السلط.

ازداد الوضع صعوبة في الجامعـة، وهـو يشـعر بالأنظار تخترقه من جميع الجهات. أحس بالنقمة على نفسـه بسبب حرجه من مجموعات الطلبة المتـناثرة في كل مكان ولاسيما إذا كانـت لقاءاتهم حميمة كأنهم أصحاب المكـان ، أو إذا ضمت المجموعة ولو فستان. أما إذا صادف زوجاً من الجنسين، تزداد في نفسه مشاعر الإحباط. ماذا حصل لـه؟ بالأمس القريب كان جريئاً مع ساره، وعلـى مـرأى مـن أبويها، ماله الآن، يشيح نظره عن الفتيات ويحرجه التخاطب مع الفتيان .



كان يومه الأول عسيراً، خفف من وطأتـه كلمـات فاضت بالشوق الى ساره ، ضمنها مشاعر اغترابه، وأخبرها بأنه قد لا يواصل الدراسة في بـيروت. لو ذهب الى لنـدن لما أحس بالاغتراب الذي يحسه الآن. على الأقـل ،يعـرف هناك أنه غريب في بلد غريب. أما هنا فقد حسب أن الحـال لن يختلف عليه، فإذا بكل شيء يختلف عما في البلقاء.

حمل الرسالة معه إلى الجامعة ، إلا أنه لم يودعهـا البريد.أعاد صياغتها في البـيت منقحاً لغتها ومغيراً فحواها بـما أضافه يومه الجديد من بـياخات الطـلاب ورعونـة الطالبات. أودعها البريد في الصباح ، واتصل من هناك مع مدرسة جبران.

كان قد اتخذ أمره في كابـينة القطار على تـنفيذ رغبة أبـيه حرفياً والاتصال بواصف أو جبران للمجيء إليه وأخذ التـنكتين ، إلا أنه عندما اتصل بجبران عـّرف عـن نفسه بانفعال وتبادل معه التحيات بحرارة مفعمة بالأشواق.

واصل جبران التردد عليه واصطحابه فـي التـرام والحافلة ومشياً على الأقدام. يعرفه بالمدينة التـي تعاقبـت عليها الحضارات والبحر الذي شرع فيه الأرجوان وأبحرت

فوق مياهه أمجاد كنعان. في عطلة الأسبوع ذهب وإياه مـع تـنكة السمنة إلى ضهور الشوير.

لم يكن استقبال واصف أقل حفـاوة مـن اسـتقبال جبران. أصر عليه أن يبـيت ، فاعتذر مـرزوق برخـاوة، وطالت السهرة إلى ما بعد منـتصف الليل، أثقـل خلالهـا جبران الشراب، وقليلاً منه شرب واصف، بـينما رفـض مرزوق بإصرار تذوق رشفة منه .

وصلت من ساره ثلاث رسائل معاً بعد مضي شـهر على إرساله اثنـتين على التعاقب كتبها في فنـدق. انتقـل بعدها للسكن لدى عائلة لبنانية في بـيتٍ مطلٍ على البحـر، يبعد عن الجامعة نحو ثلاثة كيلو مترات، كان لجبران الفضل في العثور عليه .

منحه السكن الجديد شعوراً بالارتياح وأحس بالهدوء ودفء العائلة. ولاسيما أنـه حظـي بالاهتمـام والنظافـة والترتيب والأطعمة البـيروتية المتـنوعة. وكان قـد بـدأ اعتياد الواقع الجديد، الذي كلما ازداد تأقلماً معه ازداد ابتعاداً عن واصف وجبران، كما تلاشت حاجته لكتابـة مشـاعره،

منـتبهاً للدراسة بتركيز ومثابرة وفرتها لـه ظروف سـكنه المريح ، وهو ما استأثرت به رسالته الأخيرة إلى ساره .

في الأثناء صار يبدي بـروداً في استقبال جبـران، ويرفض دعوته للسهر أو التجوال. أما الذهاب إلى ضـهور الشوير فهذا أمر مستحيل. سأله جبران وهو يغادر إن كـان يحتاج شيئاً، فرد مرزوق باستعلاء: ويش انـت تحتـاج... كانـت نبرته جافة حادة جارحة أوقفت زيارات جبران ومن قبله واصف .

ثارت ثائرته عندما وصله الرد من ساره. فهـي لا تعاقبه على رسالته القصيرة، وإنما توبخه على كلماته الجافة الجامدة الخالية من المشاعر والعواطف. ماذا يعنـيها مـدة المحاضرة وكم من الوقت يقضـي فـي الدراسـة والنـوم وتـناول الطعام، وكم تكلفه المعيشة والأوراق والمكاتبـات. كأنه يكتب يومياته السخيفة إلى وريث حتى يبـيعها بعـد سنوات إلى مشترٍ في سوق الخردوات.

كتب الرد في ليلتهـا وكـل شـيء فيـه ينقـبض وينـتفض. سألها عما تظنه به ومن تظـن نفسـها؟ مـاذا بـينهما حتى تزيل الحواجز وتكتب بـمثل هـذه الصـفاقة

والوقاحة. يشرفها كتابته التي لا تستحقها.حتى هذا الرد الذي يريد منه أن يعرفها بنفسها لا تستحقه، بل لا تسـتحق ثمـن طابع البريد الذي سيحمله إليها .

انـتظر الصباح بلهفة حتى يكون أول رواد مكتـب البريد، لكنه بعدما انـتهى من ارتداء ثيابه تأمـل الرسـالة مطولاً بـين يديه قبل أن يمزقها فتاتاً ويلقيها في سلة الزبالة لتقتصر مراسلاته على أبـيه، شاكراً لـه فضله، ومطمئنـاً إياه باستلام النقود من محطة القطار.

٣

لم توقظ لقاءاته القلـيلة بزعل روح الماضي الغنـية بالحلاوات والمرارات. ذكرياتهما الطافحة بالأحداث كانـت تختفي سريعاً دون أن تترك خلفها من أثر سوى الاكتئـاب، مع أن صدره كان ينشرح في استحضارها مـع الآخـرين، وينقبض إذا باغتته في وحدته سواء أكانـت ذهبـية المواقع أو دموية الوقائع. كان استذكاره لها فـي مضـافة زعـل، يحسسه بأنه ما يزال موجوداً، بالقدر الذي يحسسه في خلوته، شأن زعل، بأن كل شيء ضاع هباء .

معاً، تاريخهما حكاية جميلـة. وفـي انفرادهمـا تأملات مقيتة ، وذكريات صدئة يزركشـانها بالمجاملـة ، وواقع مخنوق بالبؤس والذنب والضجر.

- تصدقوا يا الربع ، لما عبرنا اليـتم، تغبّـر الوادي مثل غبرة الأماية. تِذْكِر يا شيخ ؟

- إي .

- ولما أشرفنا على الترك حسبونا هوينا عليهم من السما.

- أيام وعدت .

- عدى الصعب يا شيخ.

- مِن يدري ؟.

تتبادل الوجوه النظرات، بعـد أن تكـون جميعهـا شاخصة بزعل الجامد مثل التمثال. هذا الرجل الذي يتربـع الشيخة، غدا بالنسبة لهم ساكن الحواس مسـكون الاشـباح. قضى عليه عشقه لامرأة تـنازعتها الطوائـف مـن بـدو وفلاحين لتـنـتهي غنـيمة للصحراء.

فـي استذكار المواقف الجليلـة، يسـتدفئ صـدره بـمثل ما تـنـتشي صـدور المسـتمعين. إلا أنـه عنـد انفضاض المجلس والانـتهاء إلى سكون الفـراش، يـنقض فضاء الصحراء الليلي على قلب زعل انقضاض عتمة القبر

على مدفون بالحياة، ويقنط صدر فرحان قنوط التائه بـين كثبان الرمال.

- ويش بـيك يا بو مرزوق؟

- شي .

- كل ما تزور الشيخ زعل تعاود مكمود.

- ويش دخل زعل ؟

- ما قلت دخله شي، قلت كل ما تزوره. إن ما ترتاح لرفقته أقصرها أو قال منها.

- ويش تقولي يا حرمة، لو يطلع بإيدي أبقـى عنده وما أعاود للقبة.

- لعاد هيك، القبة والا اللي في القبة؟.

- ما راح تفهمي اللي بـي يا حرمة.

- علّمنـي بـيه با عليك.

- يا ريت أقدر.

تتفرس بـملامحه التي تتقطع كآبة مع تماوج اللهيب في وجاق النار. تطرق برأسها للحظة ثم ترفعه خطفاً متهيئة للسؤال، لكن إرادتها على النطق تخبو وهي ترى في تمـاوج النار على وجهه هشاشتها وعجزها وإعاقة جسـدها. إنهـا

ترضى أن يوآخيها ويتزوج غيرها على أن يبقيها معه مهملاً أمرها .

تطرق من جديد وهي تتـنهد مع أنـ ـين مسـموع وهزة رأس ملحوظة، عسى أن يومض فيه بريق الحنـ ـين فيذوب الجليد وينجلي عن قلبه الصقيع الحزين. ترفع رأسها تتأمل وجه الفحل الذي كان سيدها وراكبها ومطعمها ومسقيها وحاميها. لماذا تولى عنها؟ لم تكن تشاهد في انعكاس اللهـب على وجهه تماوج البـيارق ولا تزاحم الطلقات ولا عشوائية القذائف. لم تكن تشاهد في عينيه آرومات القبة تلتهمها أوجة النـيران، ولا أرضها التي ما عادت كالأمس مقصد السائلين وريان الظامئين: " يا جوعان عيش الشيخ فرحان، يا عطشان مية فرحان " .

استصلح أبوه القبة وحده ، حتى يذيع اسـم فرحـان لدى القاصي والدانـي في أنحاء البلاد. لكنه الآن، وقـد آل إليه أموال وأطيان وأتباع، يعجز عن إرجاع القبة إلـى مـا كانـت عليه بـينما حولها أبوه بإرادته وقوة عزيمتـه مـن أرض موات إلى جنة خضراء دونها جنـات الشـام . أمـا هو فقد بذل الجهد والمال ولم يحقق من هـذا الحلـم سـوى

الجزء اليسير. حتى البـيت الذي أوصى أبوه علـى بنائـه، سقط مع أول هزة وسحق سقوطه ساق تمام ، والبئـر مـذ ردمها الزلزال لم يكلف نفسه تـنظيفها، بل هرب من عجزه بعيداً الى سيل عمان. أما النخلة التي احتضنـت مضـافته، ومن قبله مضافات زعل ورجا وعواد، فقـد غـدت نائيـة مهجـورة منفية، يزيد من وحشتها، نخيلها القزمي الذي يأبى الاستطالة رغم مرور سنوات.

كان يحس في قعدته بحركة تمام تزيـده انكماشـاً ، وبنظراتها تزيده كمداً. وإذا ما سقطت نظراته، رغماً عنـه، إلى قدمها المقففة كالطربوش يحس بذنب لا يكّفـر عنـه إلا بالسكوت. كان يمكن ان تقطع ساقها أو تموت بسبب عنـادٍ صيرته الحرب بقسوة الفولاذ، لكنه عندما يدير لها ظهره في الفراش، يتعلق بذريعة تشوهها حتى يتولى عنها بعدما تولت رغبته بالنساء ، بل تولت عنه كل الأحلام. القبة ترك أمرها للأجراء والقطاريز والمرابعين. والبـيت، جعله الترميم مثل بقرة رقعاء. أما ابنه فمنذ ولادته تطّير منه، ونشأ غريباً عنه .

- باكر يجينا ولدك تكتور.

- بعد قدامه سنين.

- غمض عين وفتح عين تلاقي السنة بلعت سنين.

لو تدري هذه المرأة بأنها تنطق بالحكمة التي لا تفهمها والعبرة التي لا تستوعبها. لو تدري هذه المرأة التي تستخف بمضي الأيام كم هو ثقيل انقضاؤها. ربما لن تعاني من هذا أبداً، مثلما سيعانيه أبداً. أيامها تتوازن بين الحلاوة والمرارة ، في أي اتجاه تميل تخفف بالدمع من ثقلها أو بالتقافز في موقعها: آني أقصد اللي أقوله يا شيخ .

- ويش اللي قلتيه؟.

- تخاويني وتاخذ ليك حرمة غيري.

- وان ما يلزمني خوات؟.

- يظل يلزمك حرمة.

- وأنت، ما يلزمك رجال؟.

- آني اكتفيت بمرزوق.

يهب قاعداً وهو يصرخ ضارباً براحته الفراش: إياك تقولي مرزوق حاف، فاهمة، التكتور مرزوق، يا أم التكتور.

ترتجف خوفاً وهي تهز رأسها بالإيجاب بعدما عقدت المباغتة لسانها. مـاذا قالت حتى تثور ثورته؟ هل يسخر من ابنه أم يغار منه؟. كأنه فهـم تـداعياتها أو أراحـه تفريـغ عصبـيته، فواصل مؤنباً بنبرة عتابٍ فهمتها اعتذاراً : ودك تقلدي هند اللطيفات وتجوزينـي من غير خاطري يا بنـت الجريمات، عمري شكيت لك يا أم لسانـين.

استكانـت في مرقدها سـاكنة الحركـة مغمضـة العينـين دون أن يواتيها النوم. بـينما انكمش فرحـان فـي رقاده بجانبها، فأحست به أصغر حجماً مما كان يوم زواجـه وأبعد عنها من مساحة فراشها.

٤

إبان العهد التركي، كانـت الدولة العليـة قـادرة خلال أيام على استـنفار آلاف الجنود وحشدها للقتال. إلا أن وصول هذه الأرتال إلى الصـحراء كـان يسـتلزم أحيانـاً أسابـيع. أما الآن فـإن سـرايا الفيلـق العربـي بقيـادة الانجليزي بك قادرة على الوصول إلى مضارب الجبـيلية في ساعات.

- ما عادت الأيام مثل أول يا الربع.

- إي با .

- الفلح يحتمون بالحكومة، وينطوها أكثر ممـا ينطونا.

- يا ريت وقفت عند هيش.هالحين الحكومـة تلاحق الغازي وتحبسه وتقطع إيديه.

- صارت المغانم مغارم بعد ما كانـت قسـمة من رب العاملين.

- أقلها نصل الفرات من غير ما يقول لينا أحد، وين على باب ا ؟.

- بعدك متذكر الفرات يا شيخ درداح.

- قصدي يا خـوي، كـان الفـارس بفرسـه وبارودته.

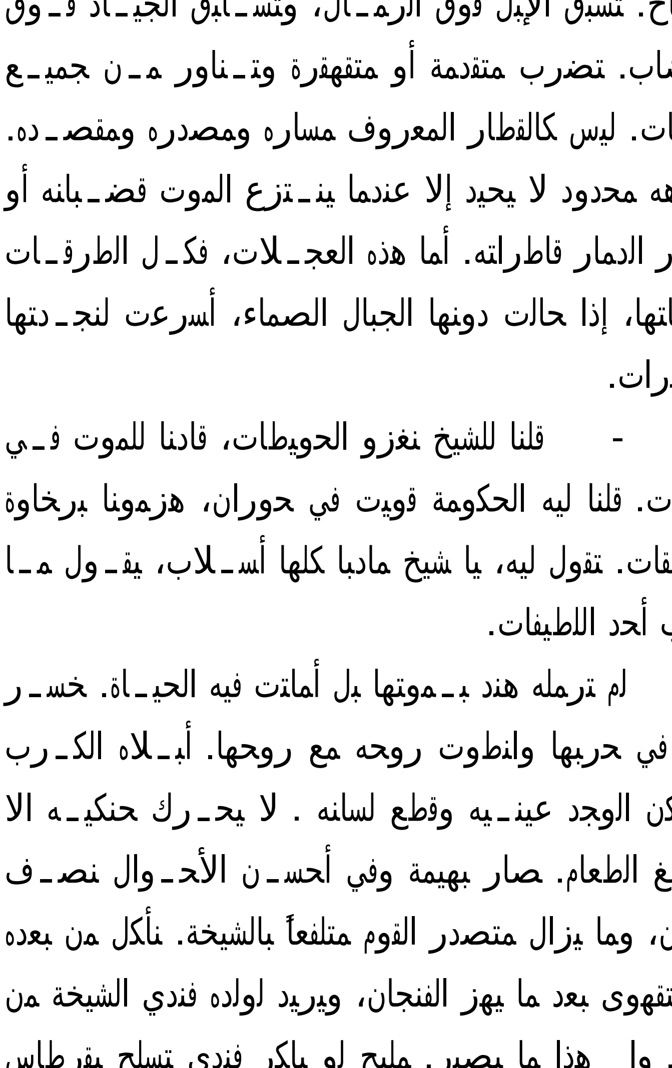
- وهالحين.؟

- هالحين ما تصهل الفرس يزمر الأوتومبـيل . وويش تـنفع البواريد قدام مدافع الانجليز؟!.

- قايدهم اللي اسمه بك.ما هو بـ ـيك.رمـاه الشيخ زعل بالمراح وما سأل أحد عليه.

- آه . كان زمان.

زمان، يا زمان. اختلفت الأمور في هـذا الزمـان. العجلات تـندفع براكبـيها أسرع مـن الخيـل الأصـيلة. الجرادات تهدر كالرعد في السماء، وترمي الموت مثل أطيار أبابـيل. لم تعد المدافع عبئاً على البهائم كما كان الحال أيام الأتراك. فعجلاتها أسرع من الحوافر وقذائفها أسـرع مـن



الرماح. تسبق الإبل فوق الرمال، وتسابق الجياد فوق الهضاب. تضرب متقدمة أو متقهقرة وتناور من جميع الجهات. ليس كالقطار المعروف مساره ومصدره ومقصده. اتجاهه محدود لا يحيد إلا عندما ينتزع الموت قضبانه أو يشطر الدمار قاطراته. أما هذه العجلات، فكل الطرقات طرقاتها، إذا حالت دونها الجبال الصماء، أسرعت لنجدتها الطائرات.

- قلنا للشيخ نغزو الحويطات، قادنا للموت في الفرات. قلنا ليه الحكومة قويت في حوران، هزمونا برخاوة الرقيقات. تقول ليه، يا شيخ مادبا كلها أسلاب، يقول ما يقرب أحد اللاطيفات.

لم ترمله هند بموتها بل أماتت فيه الحياة. خسر قلبه في حربها وانطوت روحه مع روحها. أبلاه الكرب وأسكن الوجد عينيه وقطع لسانه . لا يحرك حنكيه الا لمضغ الطعام. صار بهيمة وفي أحسن الأحوال نصف إنسان، وما يزال متصدر القوم متلفعاً بالشيخة. نأكل من بعده ونتقهوى بعد ما يهز الفنجان، ويريد لولده فندي الشيخة من بعده. وا هذا ما يصير. مليح لو باكر فندي تسلح بقرطاس

الحكومة وراح يحصي النفوس ويعد الرؤوس ويملي علينـا المكوس.

- باكر يموت.

- من ؟ زعل والا ولده ؟.

- انصت لي يا درداح.شقيقك مات من زمان، وما ينقصه غير الكفن وردم التراب.

- ويش تقولي يا حرمه؟ منـوه يقـدر يكفّـن بارودة ما تستـنى بـيها حبة النار.

- لعاد لا تظل تتمرجل بعد ما تـنطفي نـار المرجل.

- ويش قصدك.؟.

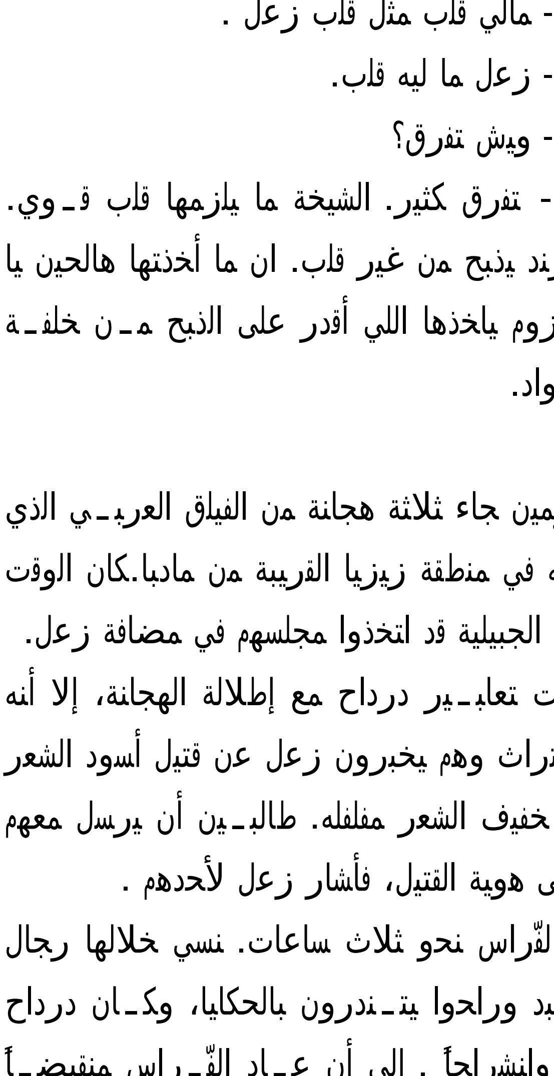
- قصدي، يا تأخذ الشيخة بزنودك، أو تظل تاكل وراه وتستـنى بعد ما يتقهوى يـجيك الفنجان.

- ودك ايانـي أذبحه ؟!.

- لويش الميت ينذبح يا فهيم، والا أغير حرف بالكلمة ما ترضيك. قلت ليك، زعل مات من زمـان وطـال تفصيل الكفن ليه. انبش قبر هند يسقط فطيسة بـيه .

- وان جانا فندي وايـّا الحكومة .

- ما يشيخ علـى الجبـيلية مـين يخـاف الحكومة.نسيت ويش سوى زعل بالانجليزي بك.



- مالي قلب مثل قلب زعل .

- زعل ما ليه قلب.

- ويش تفرق؟

- تفرق كثير. الشيخة ما يلزمها قلب قـوي. يلزمها زند يذبح من غير قلب. ان ما أخذتها هالحين يا درداح لازوم ياخذها اللي أقدر على الذبح مـن خلفـة الشيخ عواد.

بعد يومين جاء ثلاثة هجانة من الفيلق العربـي الذي أقام مخيماً لـه في منطقة زيزيا القريبة من مادبا.كان الوقت عصراً وشيوخ الجبيلية قد اتخذوا مجلسهم في مضافة زعل.

تشنجت تعابـير درداح مع إطلالة الهجانة، إلا أنه أبدى عدم الاكتراث وهم يخبرون زعل عن قتيل أسود الشعر محزز الخدود خفيف الشعر مفلفله. طالبـين أن يرسل معهم من يتعرف على هوية القتيل، فأشار زعل لأحدهم .

غاب الفّراس نحو ثلاث ساعات. نسي خلالها رجال زعل قصة العبد وراحوا يتـندرون بالحكايا، وكـان درداح أكثرهم ثرثرة وانشراحاً . إلى أن عـاد الفّـراس منقبضـاً

لتـنقبض باتجاهه الأجفان. إلا زعل ظل صـامتاً بعينـيه الثابتتين في الفضاء المفتوح على الصحراء.

أدار الفراس نظراته بـين الجلساء ، قبل ان تثبـت في وجه زعل الذي كان يلاحظه دون أن ينظـر إليـه. أدار الفّراس رأسه قليلاً نحو درداح،لتستدير معه جميع الرؤوس، إلا زعل.

حدجه درداح بنظرات شرسـة قاسـية، نـادراً مـا تـنطق بها عيناه: تحيا وتدوم يا شيخ درداح.

- من ؟... سأل أحد الجالسين بصـوت حـاد اختطفه من حنجرته .

- عبدك زغلول يا شيخ درداح.

هب درداح واقفاً ونهض معه البعض: ذبحوه بعد ما كتفوه .

- وين ؟.

- قرب ديرة اللطيفات .

- سووها نسايبنا النصارى ... عقـب درداح وهو يكز أسنانه .

- علامهم اللطيفات؟ ... سأل زعل بهدوء.

- ما اسمعت وين لقوه . أرسلته باكر ليهم يبـدل شوية سمن بفدن شعير ... وإلى الفراس : والناقة ؟

- لا سمن ولا ناقة .

- ذبحوه وسرقوه .

- ما تستعجل يا شيخ درداح ... قـال أحـدهم مهدئاً ، فلم يعره درداح اهتماماً وهو يتوجه بالسـؤال الـى الفراس : ويش قال قايد العسكر .

بـلع زعل ريقة بـينما النظرات تتـنـاقل خطفـاً بـينه وبـين درداح: يقول نستـنى التحقيق .

- آنـي ما استـنى... عقب درداح بغضـب وهو يخطف طرف عباتته إلى وسطه.

- اللطيفات بجيرتي ... قال زعل بنبرة تهديـد باهتة ونظرات ساكنة، عبر الشق، إلى النسوة يتحركن فـي تـنقلهن المعتاد، يحملن حزم الحطب أو جرار الماء بـينما الصبـية يتراكضون بـين الخيام وحول البهائم المربوطـة بالأوتاد .

- ما هم بجيرتي والعبد المذبوح عبدي .

- بس العهد عهدي وآنـي مـا زلـت شـيخ العربان .

- عهدك مـدفون بقبر نصرانـية، يحرم علـى الجبـيلي يندفن بـيه. وان ظلوا اللطيفات بجيرتك، ما تظل لي جيرة واياك .

خرج غاضباً يلحق به بعض من أثار إعجابهم بتحديه لهذا الزعل، وآخرون ملوا السكينة مع هذه الشيخة الملعونـة من الأموات .

تساءل آخرون ان كان ما دار ذلـك اليـوم مجـرد زوبعة في فنجان، ستخبو مع مجيء العساكر الذين يخشـاهم درداح، أم أن كل شيء سيدور مثل الأمامية التي لا تبقي على حاله أي فنجان.

لكن الذي حصل فاق كل حساب. حتـى زعـل لـم يتخيل أن يقدر درداح على تحديه والمغامرة بحمى القبـيلة ومغادرة الديار من غير رجال. فالبدوي بروحه حبة رمل لا تسبب الغصة في حنجرة طير، فكيف إذا كانـت هذه الحبـة برخاوة درداح. لكن زوبعة الرمـال قـادرة علـى طمـس الحواضر ودفن الغابات وزلزلة العمران. قوة البـدوي فـي

قبـيلته. من دونها حبة رمل قد تدمع العين لكنها لا تعميها، حتى لو كانـت صلبة مثل صلابته التي ورثها عن أبـيه عواد ولم يرث منها شيئاً درداح .

لهذا أخذت منه المباغتة وهو يسمع الضوضاء تـدب في عمق الليل داخل المضارب، ويأتيه صوت الهرج والمرج من قريب وبعيد ، مصحوبة تارة بنداءات الرجـال وتـارة بزغاريد النساء ، فقد شد درداح الرحال ومعه من العشـيرة مئات الخيام ، ممن ضاق ساكنوها بزعـل أو وجـدوا فـي درداح الرجاء للسمو وتحقيق الذات .

كما رافقه العديـد مـن الفرسـان الشـباب الـذين تستصرخهم أعماقهم للسلب والنهب وسبـي ديار اللاطيفـات العامرة بـيوتها وكنائسها بالذهب والفضة والشقراوات .

علق أحـد أتباع زعل على هذا الانشقاق بأن الشيخ كان أكثر حكمة منـه في كل أيام حياته لأنه لم يتصد لأخيه تلك الليلة ، وإلا أهلك الصدام القبـيلة وصـيرها عشـائر صغيرة.أبدى آخر من اتباع درداح استغرابه من حالة الجبن التي وصل إليها زعل.

قـارن زعل في قرارة نفسـه بـ ـين هنـد التـي لـملمت القبـيلة ولم تكن من دمه ولا دينه ، بـينما فرقتها زوجة درداح التي ورثت دينها ودماءها داخل الديار . ترى من يحكم الدنـيا. الرجال الذين يحبلون النسـاء أم النسـاء اللواتي يلدن الرجال. من الأقدر بـينهم ، آمـر مـأمور أم حاكم مقهور ؟

٥

لم يحقق ذاته بتوليه حاكمية ناعور ولم يأمن العـيش الهانئ الرغيد . أثقلت عليه مراجعـات الأهـالي وتكـرار مضامينها القريبة من الروتين، فازدادت وحشـيته وضـجره وفاض إحساسه بعبث الأشياء. انعكس هـذا علـى قصـائده القليلة التي نشرها أبو جبران على مضض لغلبـة الصـنعة عليها وغياب العفوية عنها. لكنه من رسائله النثريـة تعمـق بترجمة عنائه النفسي ، فنشر أبو جبران بعضاً منها." أحـس بأن وجودي يشوه الحياة ، وكأننـي جثة عفنة يترحم عليهـا الأحياء بـمثل ما يرفض قبولها الأموات. أعيش حالة مـن الضياع وكأننـي بحار طوى الشراع وأسـلم أمـر قاربـه للأمواج. ماذا يمكن أن تسمي اللحظة التي لا يعود المرء فيها مكترثاً بالموت ولا الحياة ؟. أهو اليأس أم البؤس أم الايمان ؟".

كلما قيم حاضره يتأسى على ماضيه. ففي المدرسـة كان معلماً خيراً منه مديراً، وكان مديراً خيراً منـه حاكمـاً لمنطقة شبه خالية، حتى في وضح النهار. نوافـذ مسـاكنها

كوات، ومعـابرها منغلقة الأبواب أو مـحتجبة وراء الخيش والبطانيات . قرويون عاداتهم أشد عليهم من وطأة القـانون. يتوجسون من أشعاره التي انـتشرت بـينهم بعـدما صـار حاكماً عليهم.لهذا كانوا يتـرددون فـي استضـافته مثلمـا يرتابون من أسئلته عن أفراد العائلة والأعمار حتى لو كانوا مختلفين فيما بـينهم متـنازعين على ملكية الأرض أو نبـع الماء أو الميراث. وقلما حظي في طريقه بـين سكنه وعمله بوجه حسناء.

لم يوفق باستئجار سكن له الا في قعر الوادي بعدما أحجم الأهالي عن تأجيره قريباً من مساكنهم. فهو وإن كـان حاكمهم، يظل عزابـياً خطراً على بناتهم ونسائهم، حتى لـو كان لديه زوجة وابن في حوران.

في عطلته الأسبوعية، تزداد كآبتـه ويحس بأنـها آخـر جمعـة فـي حياتـه، وهو يـأتي زوجتـه دونمـا اشتـهاء، ويضـطر لمجاملـة أفـراد العائلـة والعشـيرة والجيـران الـذين يضـجرونه بأسـئلتهم السـخيفة عـن عمــان، وتعليقاتهم الساذجة عن أوضاع البلاد. وأكثر ما يثير نقمتـه إلحـاحهم عليـه بقراءة الأشعار. لكنـه لا يمل ذلك مـع ابنـه مختـار الـذي حفظ الكثيـر مـن قصائده، ولاسيما تلك التي تعرّض بالحكومـة وتتـناقلها ألسنة المعارضـة. علموك في المدرسة عن المتـنبـي يا ولد؟.مين ؟.

- المتنبي، شاعر عظيم مثلي، تدري لويش ظل عظيم،لأنه طول حياته يحاول. من هيك ظل شاعر لآخر يوم بحياته .

- وإنت ، بعدك يا بوي بتحاول ؟

- أنا وقفت في ناعور .

- خذني إلها يا بوي .

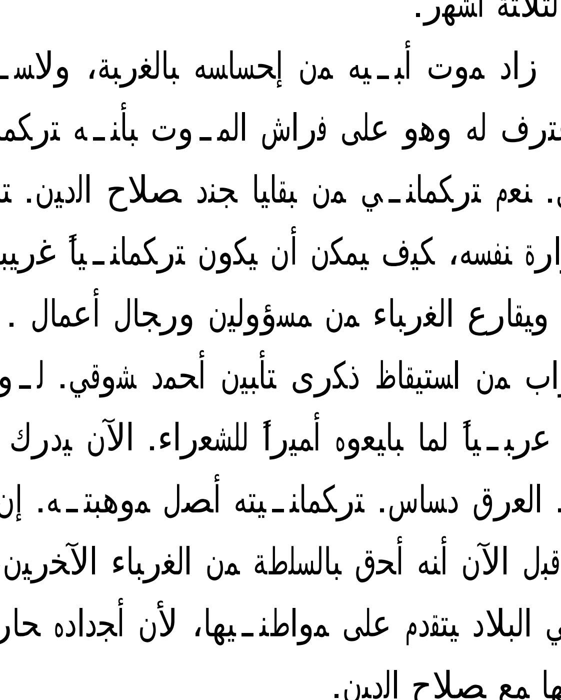
كان مختار يسأله ذلك في كل زيارة، وكان جرير يدرك أن ابنه مدفوع من أمه التي تريده زوجاً ويريدها أنثى. ولم تكن تخفي رغبتها عن حميها : كيف آخذها معي لناعور.

- ما هو، مش معقول تظل ساكن لحالك. يلزمك وحدة تخدمك .

- يا بوي، ما يلزمني حدا يخدمني .

- أنا شايف حالتك وفاهمك من غير ما تحكي .

وافق بعد أشهر على أن ينقلها للعيش معه خلال العطلة الصيفية لمختار. عانى ذلك الصيف من لهيب الجحيم حيناً، ومن برودة الصقيع حيناً آخر. فما أن انتهت العطلة حتى أعاد زوجته إلى إربد واقفة على عتبة الطلاق.كان



احتماله لها فوق ما يطاق، ولولا مختار الذي فتح الانتقال على عينيه دنيا جديدة غريبة لما أبقاها عنده لأيام ثلاثة وليس لثلاثة أشهر.

زاد موت أبيه من إحساسه بالغربة، ولاسيما أن أباه اعترف له وهو على فراش الموت بأنه تركماني الأصل. نعم تركماني من بقايا جند صلاح الدين. تساءل في قرارة نفسه، كيف يمكن أن يكون تركمانياً غريباً عن البلاد، ويقارع الغرباء من مسؤولين ورجال أعمال . جاءه الجواب من استيقاظ ذكرى تأبين أحمد شوقي. لو كان شوقي عربياً لما بايعوه أميراً للشعراء. الآن يدرك سبب نبوغه. العرق دساس. تركمانيته أصل موهبته. إن كان يعتبر قبل الآن أنه أحق بالسلطة من الغرباء الآخرين، فإن حقه في البلاد يتقدم على مواطنيها، لأن أجداده حاربوا في سبيلها مع صلاح الدين.

لكنه سرعان ما يستيقظ من محاوراته النفسية التي تمتص اسقاطاته، لينسى في غمرة انشغاله بمسؤوليته أصله وفصله، وهو يتصرف مع المراجعين بإقليميته المعهودة، فيؤثر أبناء البلد على سواهم من الوافدين، وفي خلوته

يتـنادم والعفاريت دون أن يشاركوه الشراب، فيتحاور معهم أخذاً وعطاء فلا يستفزونه بسذاجة السؤال ولا يثيرون سخطه بحمق الجواب. كما أنهم لا يتدخلون في خصوصيته إن بصق أو كسر صحناً أو سحق تحت نعله عقب سيجارة. يتركونـه يقول ما يريد ويكتب ما يريد ويقرأ كما يريد ويمزق الأوراق كما يريد. لا يفرضون عليه أوقات الأكل وأصناف الطعـام، ولا يبدون الضيق من ثمالته أو يقيدون حركته في الفـراش. آهذا ما آلت إليه أحوالك يا جرير؟ لو يظل الأمر على هـذه الحال ستـنسى مباهج الدنـيا وتـنسى متعة الكتابة وجمال الكتاب. أينه الآن في قفصه، من ذلك العندليب الذي كانـت أعضاؤه تروي الحكايات ودماؤه تتـنفس الأشـعار. أهـذا المأوى الموحش وحشة القبر أنسب إليك من كوخ المحبة.

تـنفس الصعداء، وهو يسـلم زوجتـه مـع ابنهـا وأغراضها لذويه صاغ سليم، كما قال لمقصود.

عند توليه منصبه في ناعور، شعر بالتعـالي لفترة من الوقت، فقيد نفسه بـمظاهر المركز ورسمياته إلى درجة أحس معها بالحرج يوم زاره مقصود بعربة الثيـران:

الحصان أهيب إلك يا مقصود... ويتحول عنه إلـى الأوراق مبدياً الانشغال:

- بعدين .

- دقيقة ، دقيقة يا مقصود.

- دقيقة شو، وصار إنـت ساعة ماسـك ورق، هادا لو ماسك فخذ قديش بدوه.

- وطي صوتك وبلاش مثل هاي الألفاظ. أنـت بدائرة رسمية يا بنـي آدم. شو؟ ناوي تفضحنـي .

ثم يسترضيـه، ويعده باللقاء في عمان ليستعيدا ليالي الـمجون مؤكداً عليه عدم استضافة آخرين، العيون منفتحـة عليه الآن. في لقاءاتهما القليلة داخل الكوخ، تبـدأ جلسـتهما بالأحاديث المقتضبة والضحكات المصطنعة، قبل أن تـنفجر شجون جرير مع ازدياد ثمالته فيأخذ بالشكوى والبكاء: تلحس أنـت ومدير... يقول مقصود ويصرخ به بأعلى صوته: مين قال أنـت اشتغل مدير.

- مدير وما معي ولا مليم.

تهيأ لمقصود أن جرير يقصده متـنفعاً. يأتيه بجيوب فارغة ومعدة خاوية، بـينما تشخص عينا مقصود به وهـو

يلتهم الطعام بشراهة ليتبـرزه كلمـات مهـذارة، ويتجـرع الشراب بغير إرتواء ليتبوله دموعاً مدرارة: كل تشابـيهك من وسخ السيل.

تراءى لـه الحل قبل ان يعيد زوجته إلـى إربـد . ليست مشكلته بسبب افتقاره لمن يؤنسه في ناعور، لقد ثبـت بالتجربة أنه لا يتـناسب مع لباس غير لباسـه، وبالتجربـة ثبت أيضاً أن الاستقرار مع امرأة بعينها فـي مكـان بعينـه يأسره ولا يطلقه. الأسر حسب ما كتب لآبـي جبران، حتى لو أمن فيه الطعام والشراب، أشد مرارة وأكثـر إذلالاً مـن السعي بحرية للسؤال والاستجداء: الحل إنـي أرحـل مـن ناعور.

- والشغل، كيف بدوه يروح ويجي.
- شو الشغل وبطيخ.
- كيف بدوه يروح ويجي أنا ما دخل.
- واك.
- لا تقول واك .

- طيب بلاش واك. باصات القدس عمان رايحة جاي على الخط .

تلك الليلة، انـتقلت العفاريت إلى بـ ـيت مقصـود، ظل ساهماً شارداً مبحلقاً بالسقف دون أن يواتيه الكرى رغم الشراب الذي نال منه قليله بعدما قضى جرير على معظمه حاملاً ما تبقى في الزجاجة معه إلى ناعور. تجـاوز الأمـر حدوده ويجب أن يوقف جرير عند حده.

فاجأ جرير في ناعور، التي وصلها مـع الضـحى، على صهوة جواد: اسمع ، أنا بدوه يبـيع أرض وكوخ.

- لويش؟

- هيكك أنا مصاري ما معه .

- هادا عائد إلك.

- منشان هادا لازم يضل أنـت في ناعور.

- شو دخل هادا بهادا؟

- كيف شو دخل؟ وين أنـت بدوه يسكن ؟.

إنه لا يفكر بالسكن في مكان ناءٍ تقبض وحشته على روحه كما هي حاله في ناعور. يريد أن يسـكن فـي قلـب عمان، حتى يسمع ضجيجها ويحس بحركتها ويطارد فتياتها.

والأهم، سيكون بـمقدوره الحصول على الخمر والسـجاير والحشيشة متى شاء. أما في ناعور فإنه يكابد حتى لا يخرج من باب البـيت ولو للتبول، خشية الضباع .

- ومين بدوه يدفع كله هادا ؟ حكومة؟

- حكومة شو يا بنـي آدم، ناسي إنـي باخـذ معاش.

- واك شو معاش ، وانـت دايـمـاً طفـران ، لـو ما أنا ، يمكن بـموت انـت من جوع .

- مش راح اقدر اقنعك خاص ... وصرخ بأعلى صوته فأجفل مقصود : واك كل معاشي رايـح مواصـلات وأجرة سكن الزفت في ناعور، اللي بدفعه هناك راح ادفعـه هون. فاهم ؟ .

لانـت نبرة مقصود وهو يسـأله بحميميـة : يعنـي ما فيه سلبط .

- ليش قالوا لك عنـي سلبطجي .

- لأ. بس ... حسبت .

- شو حسبت ؟

- ولا شـي ، بس أنا ما دخل ، مفهـوم . أنـا طفران . منشان هيك بدوه أنا يبـيع أرض كوخ .

لكنه لم يتوان عـن المساهمة في شراء أثـاث البـيت الذي اختاره قريباً من المشفى الطليانـي : كل يـوم بدوه هادا تريز يجي هون .

- كل ليلة يـا محتـرم ، بالنهـار لا سـكر ولا تعريص. مفهوم ؟. ترى بعدنـي حاكم نـاعور ومـا بـدي فضايح يا مقصود .

- إذا إنـت حاكم ، أنا شو .

-أنـت إقطاعي كـل الناس بتبوس اجـريك. ترضى تاخذ الحاكمية وتعطينـي الإقطاعية .

مع هذا لم تحل مشكلة جرير ، بل ازداد الأمر سوءاً وعناء ، إذ كان يتطلب منه الدوام الإبكـار فـي الاسـتيقاظ للالتحاق بالحافلة ، وغالباً ما يصل موقع عمله متأخراً ، وفي الإياب ينـتظر أحياناً ساعات قبل مرور الحافلـة ، فيصـل

عمان مهدوداً ضجراً متوتر الأعصاب . يزيد مـن تـوتره تعليقات مقصود الذي ندم على مساهمته في الأثـاث وغـدا أكثر تقتيراً ، بعـ ـدما خابت آماله في مجـيء أي تريـز ، طالما أن جرير يصل غير قادر على القيام بـأي مجهـود ، يتمنـي لو تلبـى رغباته وهو مستلقٍ في الفراش : يلعن أبو الشغل لأبـو ها لحياة ، حق سيجارة ما معي .

٦

انـتقاله للسكن في عمان، ضاعف من أعبائه، فصار مضطراً في لقاءاته مع المسؤولين إلى مجـاراتهم بالسـهر والبذخ. ولم يكن أمامه، بعد اقتصار زيارات مقصود علـى مطلع الشهر فحسب، سوى الاقتراض من أهالي ناعور.

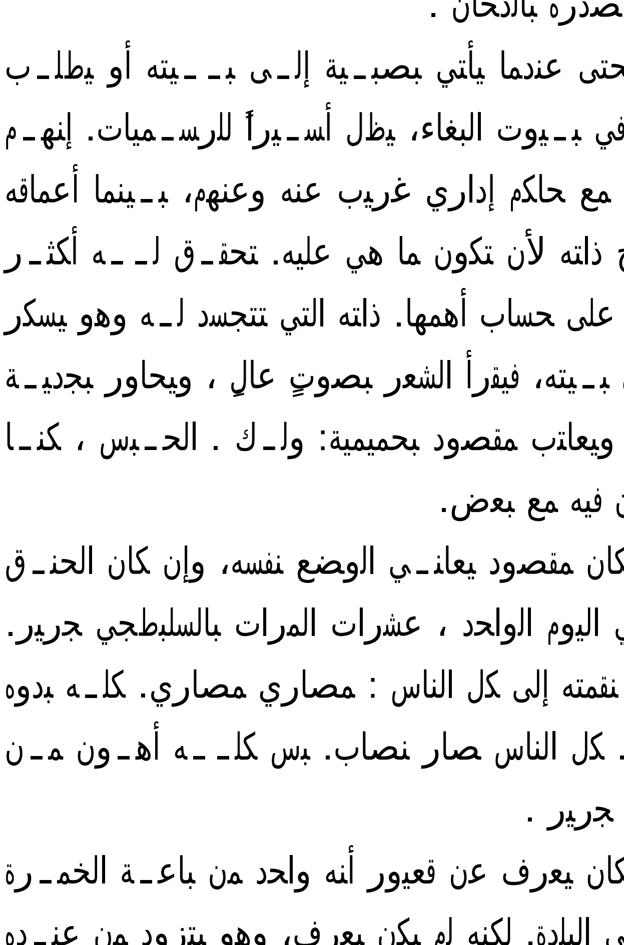
خلال فترة وجيزة عرف بعـدم الوفـاء، فصـاروا يحجمون عن إقراضه، الأمر الذي دفعه إلى عرقلة معاملاتهم بالرفض أو التأخير أو التعقيد، فوصلت شكاواهم إلى مفـتش الداخلية، لكنه يجد دائماً التبرير. وإذا أعجزه يلوح بسـلاحه عبر جريدة الزفير، فيتغاضى المسؤولون عن الشكاوى وعلى رأسهم المفتش العام، تجنباً من تحولهم إلى قصيدة يتغنى بها مرؤوسوهم قبل خصومهم .فتمكن جرير من موقعه الذي كفل له الاقتراض دون كفيل.

لحق سرور بـموكب الدائنـين، مقسـماً بتربـة أجداده، إنه ليس في عمان كلها ولربـما في العالم برمته من يبـيع الحشيشة على الحساب: المحل لو لي يا الأستاذ ، وا ما أخذ منك ولا مليم. بس أنـت عارف إنـي شقفة شغيل.

مع هذا لم يتوان يوماً عن الاستجابة، سواء بالحشيشة أو النقود، وكان جرير يثبت حسن نـيته مع مطلع كل شهر، فيسدد له جزءاً من حسابه، ليبدأ السحب من جديد.

كان وضعه مختلفاً في خمارة قعيور، فهو لا يـدفع شيئاً، إذا ما سهر بـمفرده، أو حمل حاجته من عنـده إلـى بـيته. دون أن يرد قعيور طلبه أو يسأله التسديد، طالما أنه يستفيد من رفقاء جرير الذين يدعون للسهر من حين لحـين. فجرير لا يدعو أحداً على حسابه، فإما أن يشرب وحـده أو يدفع الحساب الآخرون. لن يؤثر هذا على معاملـة قعيـور لزبائنه سواء بسواء، فإذا أثقل أحدهم بالشراب ولـيس لديـه وسيلة مواصلات ، يحمله بالحنـتور إلى باب بـيته . خدمة مجانـية ترضي الزبائن وتجنبهم الفضيحة والشرطة وتعـود على قعيور بالمزيد.

لم تحل البحبوحة مشكلة جرير، وإن تلاشت كآبتـه لتـنبعث بدلاً منها عصبـية يفجرها في وجوه المـراجعين والدائنـين . فالدعوات التي يأكل فيها بنهم ويشرب بظمأ لم تعد إليه نفسه التواقة إلى الانعتاق. ظل أسـيراً للرسـميات والمجاملات التي ازداد حصارها لـه لتحصر تفكيـره فـي



ترهات الجلساء، وتبلد أحاسيسه إلاّ من نظرات الاستخفاف، وتكتم فمه إلاّ عن الابتلاع والتثاؤب والتجشؤ والسعال إذا ما اختنق صدره بالدخان .

حتى عندما يأتي بصبية إلى بيته أو يطلب المجون في بيوت البغاء، يظل أسيراً للرسميات. إنهم يتعاملون مع حاكم إداري غريب عنه وعنهم، بينما أعماقه تستصرخ ذاته لأن تكون ما هي عليه. تحقق له أكثر الرغبات على حساب أهمها. ذاته التي تتجسد له وهو يسكر وحده في بيته، فيقرأ الشعر بصوتٍ عالٍ ، ويحاور بجدية وانفعال، ويعاتب مقصود بحميمية: ولك . الحبس ، كنا مبسوطين فيه مع بعض.

كان مقصود يعاني الوضع نفسه، وإن كان الحنق يذكره في اليوم الواحد ، عشرات المرات بالسلبطجي جرير. امتدت نقمته إلى كل الناس : مصاري مصاري. كله بدوه مصاري. كل الناس صار نصاب. بس كله أهون من سلبطجي جرير .

كان يعرف عن قعيور أنه واحد من باعة الخمرة القلائل في البلدة. لكنه لم يكن يعرف، وهو يتزود من عنده

بحاجته، إن جرير يسهر خلف الدكان في بـ ـيت صـاحبها الذي لا يتقبل إلاّ الأثرياء والمسؤولين. بل أنه كان يسـارع للاستجابة إلى مقصود قبل الآخرين حتى يتولى بثيرانه عـن باب الدكان وكأنه يكش عنها الذباب. فيسكر مقصـود حتـى الثمالة في زريبة الثيران، بعدما ضاق عليـه الكـوخ وكـاد يصيبه السهر وحده هناك بالجنون. فإذا كان جرير يتجه بـه الحصار إلى هذه الحال وهو يقرأ الشعر ويحاور الجـدران، فإن مقصود كان يتجه إليه وهو صامت صافن مبحلق أمامـه بوجه متجهم غضوب، لا يفك انقباضه إلاّ قبض حبل المشنقة على عنق جرير أو إلباسه ثياباً حمراء ورميه بـين الثيران. أحياناً يرخى جفن عينه قليلاً بـينما يتسع جفن الأخرى وهو يهز رأسه مهدداً متوعداً: فقط لو يـتمكن منـه الآن: خـود حاكمية وهات اقطاعية. حاكم خرا .

القطيعة بـينه وبـين جرير جلبت لـ ـه البحبوبـة أيضاً، إذ تراجع إنفاقـه كثيراً بعدما كفاه ا شر الابتـزاز: فيه مصاري فيه صاحب.ما فيه مصاري ما فيه صاحب...

لم تشغل النقود التي توافرت لديه الحيز الذي تركـه جرير : بس لو أمسك رقبة سلبطجي... فيقرر أن يذهب إليه

لاسترداد ما دفعه لقاء الأثاث: بـيع فراش. أنا ما دخـل... لكنه في اليوم التالي يتجنب الوصول بعربتـه إلـى شـارع الطليانـي، فيقودها وسط شارع المهاجرين مسبباً أزمة سير خانقة ، بـينما تتبع ثيرانه الحناتير والسيارات والـدراجات والترگّات التي تدوي زواميرها وصفافيرها وصراخ سائقيها، دون أن يؤثر ذلك في بلادة الثيران أو حمل مقصـود علـى الانحراف بها إلى الجانب.ثيرانه معروفة في عمان قبـل أن يدور فيها دولاب.حوافرها شقت الطرق ومهدتها وعبرتهـا. إنها أصيلة وكل المستحدثات غريبة.وإذا ما استشاط أحـدهم غيظاً واندفع إلى مقصود أو دفع إليه غيره للانحراف يمينـاً أو يساراً. تسكن الحركة في جسد مقصود ويتوقف الثـوران لساعة أو ساعتين، إلاّ إذا كان بـين الركب من خلفه وجيهاً شركسياً أو محظياً يمن عليه. حتى مخالفة السير، التي يتفق كل السائقين، بـمن فيهم مقصود، أن الانجليـز ابتـدعوها لخراب الديار. تصبح مطلباً شعبـياً ملحاً عندما تمر عربـة مقصود. مع هذا لا ينفك الازدحام إلاّ بعـد لأي. إذ يماطـل مقصود ويصيح ويحتج ويراوغ، ويبذل جهده للحيلولـة دون تحرير المخالفة بإمساك القلم أو خطـ ـف الـدفتر أو هـز

الشرطي الذي ما أن يستكمل بـيانتها حتى تبدأ معركة دفع قيمتها.

في البـيت، كانـت معاناة عائلته لا تقل عن معاناة عائلة جرير . مع الفارق الكبـير بـين الزوجتين وبـين الزوجين . فبـمثل ما يعانـي جرير من ضـعف زوجتـه ورعونـتها ، يعانـي مقصود من فظاظة زوجته وشراستها . وإذا أدى ابتعاد الأولى وسذاجتها إلى تقارب جرير وابنه ، فإن التـناحر اليومي في بـيت مقصود كان يدفعـه لصـب جام غضبه على ابنه تـو، فيضربه بقسوة وسـخط وحنـق على هروبه من المدرسة أو مشاجراته مع الأولاد أو ضربه لشقيقته أو تحطيمه الأوانـي وغيرها مـن الأسـباب التـي تقدمها نازلي عادة ، قبل أن تـندم على ذلك وتستـنجد بـأم مقصود لمساعدتها في تهدئة هيجان الأب وإسكات صـراخ الابن ، فقد قويت شكيمة مقصود منذ انقطاعه عـن جريـر وبقائه في البـيت طويلاً . وإذا سـهر ، ففـي البسـتان أو الزريبة : كل ما كنـت أسهر في الخارج تعملوا لي مشكلة . الآن لا أغادر إلا نادراً وتعملوا لي كل يوم ألـف مشـكلة . وا الحبس أحسن من العيش في هذا البـيت .

٧

تشكل مجلس تـنفيذي جديد للإدارة الحكوميـة فـي شرق الأردن، يستمد سلطته من المعتمد البريطانـي الـذي يشاع عنه بـين الأهالي أنه يتحكم في مجمل القرارات .

تـنادى معارضو الحكومة إلى عقد مؤتمر وطنـي للمطالبة بحكومة دسـتورية مسـتقلة، والتـنديد بالوعـد البريطانـي القاضي بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .

تعهد جرير بإلقاء قصيدة حماسـية تثيـر مشـاعر المؤتمرين المائة والخمسين، إلا أن إلهام الشعر لم يواته، كما قال لرئيس المؤتمر. فألقى كلمته نثراً هاجم فيهـا المجلـس التـنفيذي أكثر مما هاجم المعتمد البريطانـي . لكن الأكثر خطورة عليه، إحساسه بغياب موهبته بل تلاشيها، وكأنه يلقي كلمة كتبها شخص آخر. أمي يتحـدث بسـذاجة وسـطحية واضحة أمام مثقفين متنفذين. تجرأ أحدهم على القول بصوتٍ عالٍ: خلصنا يا أخي وخلي غيرك يحكي ...

في يـوم قبل هذا وفي ظروف مختلفة، كان إلهـام الشعر يباغته في أي وقت وأي مكان. كان يمكن أن تحـول

كلماته المؤتمر إلى ثورة شعبـية لا يقل أثرها وتأثيرها عن ثورته الماجدة. وكان يمكن أن يجعل هذا المتطفل الوقح الذي يصرخ به للتـنحي وإعطاء الكلام لسواه عبرة للمـؤتمرين، ويجعل من كلماته أكثر خلوداً من قصيدة العيد...

تـنحى عن المنصة بحرج وخجل ومذلة. لم يستمر بقاؤه في الصالة إلا بضع دقائق، بـينما الحماس يدب مـع الخطيـ ـب التـالي الـذي ابتـدأ كلمتـه بترديـد مقولـة الاستقـ ـلالي المصري مصطفى كامل "بلادي بلادي أنـت حبـي وفؤادي" .

غادر بخفة متسللاً يحاول جهده عدم لفت الأنظـار. طارده الحرج إلى بـيته حيث شعر بالندم على الامتثال لذاك الغبـي. كان عليه أن يرد عليه بقسوة ويأمره بالخروج بدلاً من الاستجابة لـه.

كانـت الساعة قد قاربت الثامنة، عنـدما اسـتغاث بالزجاجة، وما أن انـفرجت عقارب الحادية عشرة، حتـى تحول ندمه إلى سخط ونقمـة، وهو الذي كان يظل مرتـدياً ثيابه الرسمية إلى أن يقرر النوم وينـزعها بترو وملاطفـة

وينفضها ويعلقهـا بـ ـحرص وعناية، يخلعها الآن بحقـد وعصبـية ويرميها قطعاً هنا وهناك .

بلا حاكم بلا مؤتمر بلا بطيخ. نثر محتويات شنطته المرابضة في قاع الخزانة، من كتبها وأوراقها وثياب قديمـة عز عليه التخاص منها. اختار أقدمها وارتداها علـى عجـل مستكملاً وضع الحطة والعقال في الخارج وهو يحس بقلبـه يكاد ينفجر غيظاً .

وجد النـيران مشتعلة أمام بـيت مقصود السـاكن كالضريح. كل شيء في الدنـيـا يتغير إلا مقصود.

ازداد اهتياجاً ، فغيـبت ثمالته خدر جسده وبعثـت فيه نشاطاً كأنه في قمة الوعي والإدراك.

استيقظ الدب من سـبات الشـتاء، جائعـاً ظامئـاً شهوانـياً، يلتهم كل شيء في طريقه حتى التراب والأحجار، وهو يسدد حجراً إلى باب البـيت على أمل ان يطل مقصود.

انقضت لحظات وهو في مكانه البعيد عن النـيران. سدد حجراً آخراً مع انفتاح الباب، ليأتي الرد سـريعاً مـن بندقية مقصود، الذي أطل بشرواله وحذائه من تحت ردائـه، ومن خلفه نازلي. استدار راكضاً محتمياً بإحدى الأشـجار،

بـينما يتقدم مقصود ونازلي بحذر واستعداد، فخلـع جريـر حطته ولوح بها من خلف الشجرة: ولك أنا جرير...

عقدت المفاجأة لسان مقصود فنظر إلى نازلي التي لم تفهم الكلمات. جحظت عيناها بالحطة المتلوحة مـع تمـاوج لـهيب النـيران : هناك... قالت وهي تشـير إلـى جهـة الحطة: أضرب.

تردد مقصود وهو بـين مصدق ومكذب: جرير مين ؟.

- صاحبك يا حمار .

قبـل أن يفيق مقصود من حيرته، نازعتـه نـازلي على البندقية أعطينـي...أعطينـي ... ما أن استولت عليها حتى صاح جرير: ولك جرير. جرير... وأطلت من غرفـة أخرى أم مقصود .

وقف مقصـود أمـام نـازلي رافعـاً يديـه: هـذا صاحبـي... قالـها وهو يتقهقر أمامها، بـينما سـددت نازلي طلقة إلى الشجرة: ولك هادا صاحب... لكن ذلك لـم يمنعها عن التسديد من جديد، بـينما يركض مقصـود إلـى جهة الشجرة : ولك شـو بتسوي إنـت هون ؟.

- امشي امشي معي... وسمع الاثنان كبسة ديك البندقية التـي فرغت منهـا الطلقات... فأسرعا هاربـين قبل أن تلقمها نازلي: بنـت حرام. يمكن بدوه أنا يـموت مش أنـت. أم ضبع.

أمنا الخلاص بالابتعاد عن مرمـى النـار، فتهالـك جرير على الأرض مفـرع الرأس مقطع الأنفاس. بـينما مقصود الذي لم يكن يزعجه إلا الركض في ثيـاب النـوم، حامداً ربه على نباهته التي جعلته لا ينسى الرداء. قال وهو يعقد أزراره: ولك شو جابك إنـت نص ليل.

رد جرير بكلمات متباعدة المسافات، يجرح انقـذافها حلقة الجاف: جاي أعزمك نسهر.

- شو ؟ نسهر بنص ليل ...

- لعاد إيمته ؟ بنص النهار. ؟!

أحس مقصود بأنه اغتسل من الدنس، وقلبه ينـتشي من غير خمرة بـمسرة باغتته وهو على غير استعداد: وين ماخد أنا ...؟

- بدي أسهرك سهرة عمرك ما حلمت فيها .

- عند الطليان ؟.

- بلا طليان بلا عربان. أنـت بتمشي معاي، وما بتدخل بشي إلا الدفع .

- دفع شو ؟.

- كيف دفع شو.. ؟ بدك تسهر ببلاش.

رد مقصود بتشنج : من وين مصاري؟. كله هنـاك في بـيت.

لم يعلق قعيور عندما أخبره جرير بأن مقصود سوف يدفع لـه في الصباح الباكر.فقدم خدماته المتميزة لجريـر، رغم ثيابه التـنكرية. طالما أن ضيفه الشركسي سيدفع كـل الحساب . فتزاحمت على الطاولـة الزجاجـات والمـازات وأطباق الطعام .

ازداد اهتمام قعيور بهما بعدما حلف مقصود مـراراً أنه سيدفع الحساب دوبل لقاء هذه الحفاوة .

غادر آخر ضيف حوالي الثانـية صباحاً، فـدعاهما قعيور للانـتقال إلى البـيت، ولاسيما أنه للمرة الاولى يسمع

شدو جرير الذي لا يتوقف لسانه عن قول الشعر، إلا عنـدما يشرب أو يأكل أو تضحكه من الاعماق تعليقات مقصود.

ما أن أطل الفجر مع الأذان المنبعث مـن الجـامع الكبـير، حتى رفع مقصود راحتيه: خلـص. هـلأ حـرام شرب.

وافقه جـرير وأثـنى قعيور على ذلك خلاصاً مـن هذه الليلـة العصماء. فنقل بـحنـتوره ، في البداية، جرير: مش تـنسى تدفع لـه الحساب هه... وابتعد جرير في

خط متعرج نحو باب الدار. استدار قعيور بالحنـتور محاذياً السيل. بـينما يغني مقصود بالشركسية طيلة الطريق.

قال قعيور مع توقف الحنـتور قرب موقد النـيران الذي تحول إلى رماد: أنا مستـنـيك هون.

- مستـنـي شو..؟

- تجيب لي مصاري. وأضاف : الاسـتاذ قال راح تدفع لي الصبح.

- وين صبح.؟
- ا اكبر. مـا سـمعت الآذان. الدنـيا صارت صبح .

صرخ مقصود بأعلى صوته: واك شـو صار صبح.؟. من وين أجيب هلأ.

- من البـيت. حقي يا أخي .
- روح. روح... وقفز من الحنـتور.
- مش متحرك من هـون. بـدك تجيـب المصاري هسع. هسع. ؟.

- هسع .

- يعنـي هسع.؟.

- آ . هسع.

- هسع . هسع.

- لا تتخوث علي. ترى أنا مارر علي ألف واحد مثلك. روح جيب المصاري أحسن ما أدق بإيدي على أهـل البـيت.

- ليش بدوه أنـت يدق.؟... قـال ذلـك وهـو يحاوص مترنحاً متبـيناً الأرض حواليه وقد تسللت العتمـة بحياء أمام طلائع الضياء.

- شو بتسوي ...سأل قعيور وقد أوجـس مـن مقصود الذي التقط حجراً ملأ نصف كفه.

- إذا بترميه علي ، برميك في الحبس .

جحظت عيناه، مع إغماض مقصود لعينه اليسـرى، محاولاً التركيز وموازنة الحجر في اليمنـى قبل ان يقذفـه على باب غرفة نازلي .

ظل للحظة واقفاً بـينما أربكـت الحركـة قعيـور وحالت دون أي رد فعل منه، مع إسراع مقصود راكضاً الى

حيث الزريبة بـمجرد انشقاق الباب. رمى نفسه على كومة تبن وهو يقهقه من الأعماق ضارباً كفاً بكف : هسع ...

توقفت ضحكاته مرة واحدة مع دوي طلقـة أجفلـت الأبقار وبعض الجيران ممن كانوا يستغفرون بعـد إقـامتهم الصلاة .

أحس قعيور بأن أذنـه طارت من رأسـه، وأفقدتـه الزلزلة توازنه وحالت دون تـمكنه من السيطرة على اللجام بسبب اهتياج البغل من الدوي وجموحـه للنجـاة برفسـات سريعة متوالية أسقطت قعيور عن العربة التـي اسـتدارت وراء البغل المهرول خبباً في طريقه إلى الخمـارة ، دون ان يبالي بنداءات صاحبه وهو يركض خلفه بـ ـينما مقصـود مستلقياً على ظهره فوق التـبـ ـن وهـو يتكركـر بجـذلٍ وسرور: هسع. هسع .

لكن بهجته تلاشت مثلما تبخرت سكرته مع انفتـاح الباب. لتطل نازلي متسلحة بالبندقية تحاذيها أم مقصود وفي يدها هراوة .

أسرع حبواً على أربعته متجاوزاً الحاجز الخشبـ ـي أمام الأبقار، فراحت تتدافع من فوقه وهو يرجوهـا همسـاً: ولك أنا صاحب يا ثور... واستقر ساكناً بلا حراك.

- اط

- لع ... قالت نازلي بحزم.

- اطلع سرسري ... عقبت أمه بغضب.

- لا تريد أن تطلع؟ ... سألت نازلي بنبرة تحذير.

- اطلع أحسن لك ... هددت أمه .

- سأعد إلى ثلاثة. وإذا لم تطلع تشهد على روحـك... فأجفل مقصود مع دوي طلقة اخترقت قصب السقف: أنـت قال ثلاثة... بـينما اهتاجت الأبقار من فوقه وكادت تدوسـه بحوافرها وهو يتأخاخ مترجرجاً. اسـتقام جذعـه للأعلـى باسطاً كفيه ورافعاً ذراعيه في زاوية قائمة، وقد غمر وجهه حرج المخذول وطاعة المأسور:ما قدرت أمسك حرامي.

ظلتا تتفرسان بـه وهو يبلل شفتيه ويبلع ريقه وقـد عصي عليه مواصلة الكلام بالشركسية، فقـال بالعربـية: كيف حال أم تو...؟

٨

جمدت الزلزلة العديدين في مواقعهم أو أوقعتهم عن مقاعدهم، أو رمتهم بجانب أسرتهم، ودفعت عـدنان هاربـاً خارج المحل ليشاهد انهيار الجانب الأيسر من المبنى ساحقاً تحته محل شاميات وتصدع الجانب الأيمن من جميع الجهات .

لم يفد صابر اتهامه صقر بسوء التـنفيذ والتقتيـر باستخدام المواد. أشار صقر إلى المبانـي حواليه متسائلاً إن كان دمار البلدة جراء تقصيره .

قدر الختّام خسارته من البضاعة ومقتـنـيات الفندق والمطعم بألفي جنـيه، وقدر صقر كلفة الترميم بضعف هذا المبلغ، ولم يكن في حوزة الختام إلا جزءاً منه، بعدما استهلك المدينون بضائعه وأحجم معظمهم عن السداد بذريعة الزلزال .

كان قد مضى وقت على زيارته الأخيرة إلى الشـام. عندما وصلها هذه المرة، قال في نفسه، بأن أحوال الناس في ازدهار، وأحواله في انحسار. مسكرة على الآخر. حتى تولا

لم يجده في دمشق ، وإنما بديله الذي قابله بجلافة فيها مـن الاتهام أكثر من التأنـيب. اتهمه بالتقصير وعدم تقديم شيء منذ استقراره في عمان. لا معلومات عن الثائرين ولا عـن المتسللين ولم يقم بأي فعل تجاه المعارضين. ولـولا تعـاون السلطات البريطانـية لاشتعلت شرق الأردن بـالثورة ضـد الفرنسيين بدلاً من مواجهة البريطانـيين .

غادر دمشق مخذولاً دون أن يشرح مشكلته أو يسأل المساعدة . عرض على صقر أن يدفع لـه بعد الانـتهاء، فأصر صقر على الدفع مقدماً . فهو مثله لا يملـك سـيولة لتمويل أعماله بعدما تورط بـمشاريع عديدة . نصحه صقر بالاستدانة من مال النبـي، فتعوذ صـابر مـن الشـيطان. المرابـين اليهود أرحم ألف مرة .

لم يكن الاقتراض من مال النبـي يسيراً، فالضمانات التي يطلبها، أضعاف قيمة القرض ويجب ان ترهن باسـمه بـيعاً وشراء، أما الفائدة فتحددها حاجة الزبون. لكنها فـي كل الأحوال لا تقل عن ربع القيمة،بكفالة سند أمانـة يتجـدد سنوياً تحت طائلة الاستيلاء.

مع هذا ظل زبائنه في تـنامٍ، ولاسيما المـزارعين. وكان البنك العثمانـي، الوحيد في عمان، يرفض الإقـراض بضمانات الأراضي الزراعية. كما أن لديه سقفاً لا يتجـاوزه في التسهيلات التي يقدمها للتّجار والإعمار. فرفضت إدارته طلب الختّام، بعدما أكد تقرير الكشاف أن المبنى آيل للسقوط ولا يجدي معه الترميم.

دافع صقر عن نفسه بالادعاء أن تقديره للمبلغ كـان مجرد تخمين. نصح الختّام باللجوء إلى بنوك الشام: الشام!! ... قال صابر باستخفاف هو يتذكر مهانـته أمام بديل تولا. مع هذا ظلت كلمة البنك ترن في أذنه طيلة ليلته. لماذا البنك العثمانـي الهزيل في عمان، ولماذا بنوك الشـام ؟ إذا كـان الشوام معروفون بالرشد والمهارة التجارية، فهذا ما لا يعرفه البنك العثمانـي الانجليزي في عمان، لكنه حقيقة راسخة في قناعات أهـالي البـلاد.

سيلجأ إلى بنك متواضـع لا تحتشـد فـي صـالته طوابـير الزبائن مثل البنك العثماني. بل بنك يتلقفه أصحابه كأنه معجزة هبطت عليهم من السماء. وكانـت المعجزة أن توقفت به الحافلة في شارع يافا حيث يقع البنك الكنعانـي.

لم يكن بنكاً متواضعاً فحسب، بل بسيطاً كصاحبه، والأهم أنه كان الزبون الوحيد حينذاك، سبحان ا ، كيف تتحكم الأقدار: ضماناتك أكثر من كافية يا بـيك. ومـا عنـدي أي مـانع أعطيك القرض بس ...

- بس ؟

- بس ، لو كان إلنا فرع في عمـان. إذا فتحنـا فرع هناك، إن شاء ا ، بوعدك تكون أول زبون.

- وإيمته على خير راح تفتحوه؟ لما يضـربنا، إن شاء ا ، زلزال ثانـي ؟

امتص سليمان السخرية بالضحك: لا تحكـي ها الحكي يا رجال.ناقصنا زلزال ثانـي.

- لأ. ناقصنا فرع لبنككم عندنا . !.

تحول سليمان عن الموضوع ، وراح يسأله عن البلدة والناس والأعمال، فأفاض صابر بالحديث عن فندقه وتجارته وبضائعه التي دفنها الركام . أسهب، لإغراء سليمان بتجاوز النهر وقبول طلبه، طالما الإدارة واحدة فـي شـرق الأردن وفلسطين. كلنا تحت رحمة الانجليز: يا بـيك أنا مو عـاجز أدبر المبلغ هناك، بس ما بدي آخذ قرض بالربا .

- إحنا بناخذ فائدة كمان يا بـيك .

- قديش ، ستة سبعة ثمانـية.

- تسعة

- بتسمي هاي فائدة !. هـاي حلـوان للتعـاون بـينـي وبـينك. مال النبـي ا لا يصـبحه ولا يمسـيه بـياخذ خمسة وعشرين .

- طيب، والبنك العثمانـي .

- هادا بنك هادا. قول دكان .

- شو تشرب يا بـيك .

- هلأ شربنا قهوة .

- خلينا نشرب شاي .

رشف سليمان من قدحه بحرج، بـينما نظرات أبـيه شاخصة إليه بافتتان. وحتى يقطع عليه الطريق فـي طلـب شفّه، سأله وهو يتلمظ: ما إلنا قرايب بعمان؟

لم يسمعه أبـوه الذي كان شارداً مع جلسة يقدم فيها الشاي بأقداح ذهبـية : عمان... ردد بصوت عالٍ أجفل أباه.

- مالها ؟ .

- إلنا قرايب والا معارف فيها ؟.

- طبعاً إلنا معارف، مين ما سـمع فينـا لهـا الوقت ؟!!.

- جاوبنـي باللي بتعرفه ا يخليك .

- ليش أنا جاوبتك غير هيك . أم سـليمان، أم سليمان، شو بتسوي يا بنـت.

هز سليمان رأسه ولاذ بالصمت بـينما يتلفت أبوه إلى الوراء مغتاظاً . هم بتجرع رشفة، أجفل معها على صراخ أبـيه : أم الزفت، وين رحتِ .

جاءت مرتاعة، بـينما ارتج كل شيء فـي جسد سليمان: شو فيه ؟.

- كيف شو فيه؟ صار لي ساعتين بصـيح ...

وبصوت أعلى: وين كنـت صايعة؟

تلعثمت وهي تحاول الرد : كنـ ـت ..... قاطعهـا بحدة، وهو يسألها: في حدا ما بعرفنا بالبلاد كلها ؟.

- ليش ؟... اربكتها نظراته الشرسة، فتهربت من الأجابة قائلة: خليني أفكر.

- ولك جاوبي بس ، ممنوع تفكري...

وصرخ: جاوبي.

- مين ، مين ، مين بعرفنا بعمان .

هز رأسه مرخياً أجفانه بينما نسي سليمان القدح في يده : بس حتى تعرف قديش أبوك عنده صبر. علي الطلاق أنوه اللي تحملته من ها المخلوقة ما تحمله آدم من حوا.

- يابا ، ليش بدك تعمل مشكلة . ؟.

-أنا بدي أعمل مشكلة يا سليمان، وإلاّ ربنا حط لي .... وهو يشير إلى زوجته: مشكلة بها الدار. سمعتني شو سألتها وسمعتها شو جاوبت، مين، مين،مين ؟ تقول آ أو لا. بس ما بتقدر ما بتقدر يا سليمان. خاص، انقلعي من هون قبل ما يفور دمي وارمي ها الكلمتين .

- ما أنت رميتهم يابا .

- المهم، ليش بتسأل عن عمان.

- لأنـي رايح بكرة هناك.

٩

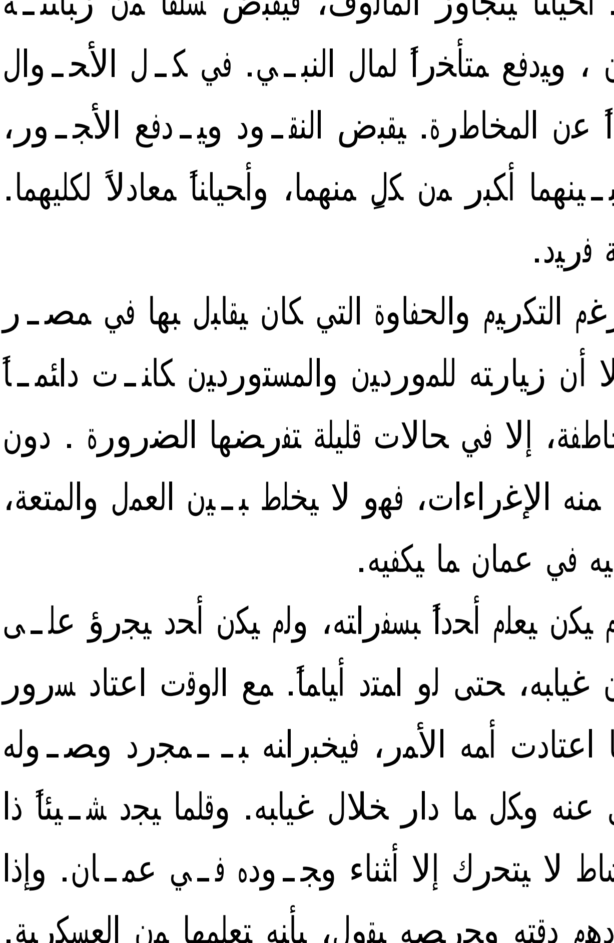
كان متيقناً من ذكائه الشديد وطموحه الكبير الذي يتجاوز كثيراً طموح مال النبي ومال قبان إلى مال الحكام بمن فيهم المعتمد البريطاني في عمان. كما لا تنقصه الجرأة ولا قوة الشخصية، فلم يظل تابعاً مقلداً في تصرفاته بعد ما ارتقت به ردود أفعاله. اتكأ على عصا أبيه في غضاضته وعندما استقل عنه وجد نفسه أسيراً لكلايتون. لتستقر حاله في نهاية المطاف مع أخ بليد وأم فاجرة.

حتى عندما ظن أنه خلص منها ومن أبيه وجد نفسه مكبلاً بقيود مال النبي ، فهو وإن كان يتعامل معه بندية إلاّ أن ذلك لا يشعره بالتحرر من قبضته. إنه في أحسن الأحوال ليس سوى وسيط بين الفرقاء وإن كان أكثرهم كسباً وجنياً للأرباح. شخصيته تروم الاستقلال لكنها للآن لم تجد تربتها التي تنمو فيها مستقلة دون الاستعانة بسقاية الآخرين .

كل ما خبرهم كان لهم آداؤهم الخاص ولو في مرحلة عابرة من حياتهم. سواء أكانت مطامحهم وهمية

مثل أبـيه شعبان، أو حقيقية مثل مال النبـي وصابر الختام. هذا جمع بـين التجارة والفندقة التي لم تشهد مثلها عمـان، وذاك تقنعت عملياته بـمال قبان. أما هو فيمتلـك مقهـى لا يختلف عن مقهى أبـيه سوى بـالموقع وحجـم العمليـات. صحيح أن أمواله تزداد ، إلاّ أنه تـنقصه المبادرات. حتـى سرور الذي تحول الى مستخدم عنده، ما يزال وفياً لجريـر وكأنه عبده، بعدما صار يؤدي عمله برتابة واضحة المعـالم محدودة الخطوات. سواء أكان ما يقـوم بـه مشـروعاً أو ممنوعاً ، حلالاً أم حراماً، ظاهراً أم خفياً.

غدا نشاطه رتيباً محـدد الاجـراءات. إذا اعتبـره الفرقاء في التهريب الحلقة الأقوى بـين الاستلام والتسـليم، فإن ذلك لا يجعله أكثر من وسيط يستطيع أن يقوم بـمهمته شخص آخر لديه الجرأة والجشع ويمتلك قدراً من النقـود أو النفوذ. ما يزال مقلداً في عملٍ يحتاج دائماً للتجديـد.كـل شيء يتم تلقائياً وكأن دوره محصور في قبض أجرته لقـاء التبليغ . فمال النبـي يعلمه بوصول الشحنة، وهـو بـدوره يدفع سرور لتسلمها قبل أن يدفع لمال النبـي قرشاً واحداً الاّ بعد تسليمها لأمه التي تتولى المـزج والخلـط والتكبـيس



والتعبئة في صفائح معدنية محكمة الأغلاق، لتمرر أثقال وزناً للناقلين من البدو الذين يحملونها إلى داخل الحدود المصرية. أحياناً يتجاوز المألوف، فيقبض سلفاً من زبائنه المصريين ، ويدفع متأخراً لمال النبي. في كل الأحوال يظل بعيداً عن المخاطرة. يقبض النقود ويدفع الأجور، والفارق بينهما أكبر من كلٍ منهما، وأحياناً معادلاً لكليهما. إنها حصة فريد.

رغم التكريم والحفاوة التي كان يقابل بها في مصر ولبنان، إلا أن زيارته للموردين والمستوردين كانت دائماً قصيرة خاطفة، إلا في حالات قليلة تفرضها الضرورة . دون أن تنال منه الإغراءات، فهو لا يخلط بين العمل والمتعة، كما أن لديه في عمان ما يكفيه.

لم يكن يعلم أحداً بسفراته، ولم يكن أحد يجرؤ على سؤاله عن غيابه، حتى لو امتد أياماً. مع الوقت اعتاد سرور بمثل ما اعتادت أمه الأمر، فيخبرانه بمجرد وصوله عمن سأل عنه وكل ما دار خلال غيابه. وقلما يجد شيئاً ذا بال، فالنشاط لا يتحرك إلا أثناء وجوده في عمان. وإذا امتدح أحدهم دقته وحرصه يقول، بأنه تعلمها من العسكرية.

وإذا قرأ الاستغراب في التعابـير ، يومض في ذهنه وجـه كلايتون وهو يقول، العبرة في الأفعال وليست في الأقـوال. وكلما تذكر مصير أبـيه يزداد حرصاً علـى أخيـه الـذي ساعده جرير في الحصول على شـهادة الابتدائيـة دونمـا انـتظام في المدرسة. كان الحافز وراء ذلك، انضمام عبـد اللطيف لأبـيه في مال قبان، فضغط على أخيه مـن أجـل مواصلة الدراسة . أغدق على جرير لمساعدته فـي إلحـاق وليد بالمدرسة الثانوية .

عمل جرير وسعه واستغل منصبه وشاعريته لأجـل الحساب المكشوف في المقهى الذي قد يتغطى بسواد سـرور إذا أخفق جرير في مساعدة وليد. لكن، هذه المرة ، على وليد الانـتظام في المدرسة الثانوية. لم يكن صعباً تذليل مشـكلة السن القانونية بعدما تجاوز وليد العشرين، فقبض جرير من فريد عشرين جنـيهاً، دفع نصفها لقاء شهادة نفوس جديـدة لوليد، وأنفق الباقي في بـيت الحلوانـي .

نطقت معالم مدير المدرسة بالريبـة. رغـم قبولـه التبرير الذي قدمه جرير: وليد طبـيعي جداً يـا أسـتاذ. إذا بدك إعمل لـه امتحان. أنا أستاذه ومربـيه على أيدي، بس

شو ممكن يطلع الولد لما أبوه يكون في العشرين وأمه فـي الأربعين. عمرها ما صارت. دايماً الأمور معكوسة إلا مـع هالمسكين. أبوه الغلبان أخذ مرة عمرها قد عمـره مـرتين منشان يحسن وضعه حبتين. لـو الأمـور معكوسـة مثـل حالـة عوايـلنا، كان هاذا المارد أجاك قزم صغير.

ظل وليد يتذمر من دراسته مع تلاميـذ يصـغرونه كثيراً وظل فريد يهدده ويتوعده ويضعه بـين خيار الدراسة مع من يصغرونه أو العمـل مـع مـن يكبرونه،وبالتحديـد سرور.

أذعن وليد مع الوقت، دون أن يبخـل عليـه فريـد بالدروس الخصوصية التي يجزل لأجلها على جرير وأساتذة ثانوية السلط التي يتخرج فيها أبناء العائلات، فهو على كـل ما وصل إليه من نفوذ وما امتلك من نقود، ظل أسير ضعفه العائلي الذي يذكره بحياة أبـيه وطريقة موته، وهذه العجوز الشمطاء التي يخجل أن يقول عنها أمه .

١٠

معظم عمليات الترميم احتاجت للحرف الصغيرة أكثر من حاجتها للمقاولات الكبيرة. قلّة من البيوت نجت من تحطم الزجاج وتفسخ الأبواب وانقلاع النوافذ وسقوط القصارة وتشقق الجدران.كما أن العديد من الفقراء الذين يعيشون على تقدمات الآخرين وجدوا أنفسهم فجأة من غير إعانة أو مساعدات، وكان على بعضهم ممن يتوخون السترة ويخشون انكشاف الحال، ان يبحثوا عن مصدر رزق يقيهم العوز والحاجة والجوع والسؤال. فبينما اقتصرت أعمال الترميم على من يقوى على إعادة البناء، وجد الكثيرون من أرباب الأسر أنفسهم بلا أعمال، فدفعت الحاجة عدداً منهم للسعي إلى تزويج بناتهم ولو على ضرائر. أما اللاواتي لا يستطعن الفلاحة من المتمدنات وترملن بسبب الزلزال وغير الزلزال، صرن نهباً للفلاحين الذي يتعهدون الأرض بأبخس الأسعار. وحتى تتجاوز الأرامل والعوائل وزوجات المتعطلين صدمة الطبيعة التي لم تحتملها إلا القليلات، عملت بعضهن غسالات وأخريات خادمات، أما اللواتي يأنفن

هذه المهن عمان بالتصويف والتطريز وخياطة الثياب فانفتح في عمان باب العمل للنساء.

هذا الوضع الذي صدمت به الغالبـية ممن يعيشون حد الكفاف، خلق فرصاً للبعض الآخر، فازدهرت مرابأة مال النبـي الذي صار يتهافت عليه المقترضون من أجل تـرميم مبانـيهم أو تحريك متاجرهم بعدما قضى الركـام والـدمار على بضائعهم. كما ازدهرت المهـن الصـغيرة المرتبطـة بحركة البناء من حدادة ونجارة وأعمال طوبار، وكان صقر أكبر المستفيدين من ذلك إلى درجة صار يرفض معها أعمال الترميم إلا إذا كان الأمر يتطلب الـهدم وإعادة البناء. كمـا انـتعش محل بشارة بأعمال النجارة بحيث صار يعمل ليـل نهار. يأتيه ابنه فؤاد بالأكل إلى الدكان وغاب عن مجالسات أصدقائه ومعارفه مستبدلاً بالمحاورات النظريـة أصـوات الشاكوش والمنشار والمبرد والمفك وحفحفة ورق الزجاج.

آخرون لم يكن أمامهم للخروج من هذا المأزق الذي لم يكن بالحسبان، سوى بـيع مقتـنـياتهم، فنشأت ظـاهرة باعة الشنطة الذين يتبادلون البضائع نقداً أو عيناً أو بالعمولة أو برسم البـيع ، فغصت الشوارع بالبسطات التي تـنوعت

فيها البضائع من غير ترتيب أو انسجام أو توافق بالأسعار، فظفر بشارة بماكينة خياطة يدوية من نوع سنجر مقابل أعمال النجارة لأحد البيوت، وكان ذلك بداية جديدة لم يتوقعها أو خطرت بباله يوماً. ورغم أنه أبهج زوجته بها في البداية، إلا أنه أحس بالندم بعدما قبعت الماكينة مثل مجسم حصان تزين الركن الذي وضعت فيه دونما فائدة ترتجى منها، اللهم إلا عندما تتحرك إبرتها لرتق ثياب فؤاد.

اتخذ أمره على بيعها لولا رفاقه الشيوعيون، إذ تعهدت إحدى الرفيقات بتعليم زوجته أسرار الماكينة وإمكانياتها وتدريبها عليها والتعاون معها، إذا ما قررت وزوجها تحويل البيت إلى مشغل لتعليم البنات فنون الخياطة .

ألهبت الفكرة حماس الجميع، ليس لجدواها فحسب، بل لأهميتها في نشر التعاليم الماركسية. سيكون المشغل شرارة الانطلاق والانتشار الجماهيري ، من خلال البنات اللواتي سيغدون أمهات.

لم يكن صعباً على بشارة اقتناء ماكينة خياطة أخرى وبالطريقة نفسها، بينما زوجته ورفيقاتها يروجن

لمشغل الخياطة الأول في عمان، فتعاقب عليه في شهر واحد ثمان فتيات، يتعلمن فنون الخياطة لقاء عشرة قـروش فـي الشهر إضافة إلى ما يستحق من ثمن القماش والخيطان.

مع انسياب الخيطان، انسابت في نفوس المتـدربات مشاعر الاستقلالية والتحرر واللـهفة إلـى تعلـم القـراءة والكتابة، وبخاصة اللواتي أكـرهن علـى الـزواج وهـن صغيرات.

لم يخل الأمر من الصـعوبات، عنـدما جـاء زوج إحداهن ثائراً هائجاً يقذف بشارة ومشغلـه بأحط الكلمات قبل أن يشج رأسه بخشبة سنديان .

اعتبر الرجل متعدياً. لا يتحمل بشارة ذنب عصـيان زوجة الرجل وتمردها وحرنها عند أهلـها، لكن ذلـك لـم يشفع لبشارة في تشغيل محلـه دونما ترخيص.

ساعدت الرخصة علـى إشهار محلـه بتعليق آرمة كبـيرة فوق الباب "مشغل خياطة". فازداد تدفق المتـدربات، والأهم الانـتقال من التدريب إلـى التشـغيل، إذ صـارت العديدات يأتين إلى المشغل لتفصيل الثيـاب ممـا زاد فـي تـنويع العمل مثلما ساعد فـي الإيراد. أما ساره التي جاءت

بها أمها في البداية لأخذ مقاساتها وتفصـيل فسـتان جديـد، عادت إلى المشغل بعد تسلمها الفستان بأسبوع، لتبدأ شـهراً من التدريب مع الأخريات .

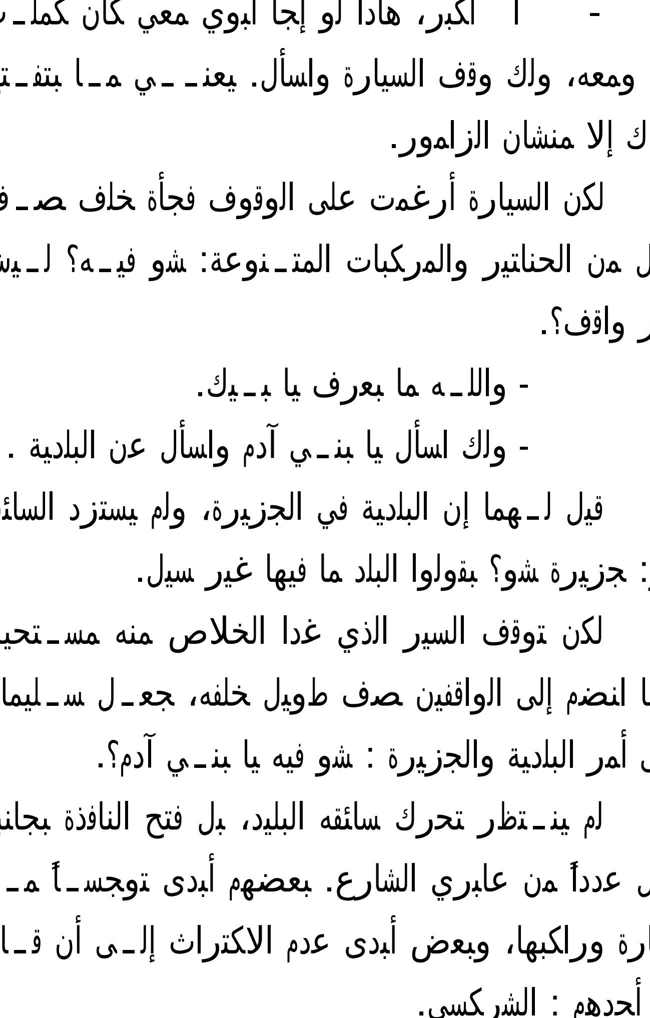
١١

كانـت حناتير البغال غالبة على وسائط النقل، ومن حين لحين يفرقع زامور أو عـادم دراجـة ناريـة. معظـم السيارات العسكرية مكشوفة وتركات، أما المدنـية فكانـت لندرتها تستوقف الناس وتجاب انـتباهم وتحـبس بالرهبـة نظراتهم،وهم يتأملون راكبـيها ، ولاسيما إذا كـان أحـدهم يضع برنـيطة ويرتدي بدلة إفرنجية أنـ ـيقة، وقـد أغلـق النوافذ بسبب غبار الطريق الترابـي الذي قيل للسائق بأنـه شارع المهاجرين. وأكثر ما كان يثير سليمان، فتح السـائق للنافذة حتى يضغط مطاطـة الزامـور، فينـ ـزاح المـارة مجفلين، وينـزاح معهم التراب ويعلو الغبار: ولك ادهسـه ويجعلـه ما سمع زامور.

- واللـه حرام يا بـيك نمشي بهيك سيارة في هيك طريق.

- بلاش تبرم ، واسأل وين البادية.

- ما انـت يا بـيك ما بدك أفتح الشباك.



- ا أكبر، هادا لو إجا أبوي معي كان كملـت معك ومعه، ولك وقف السيارة واسأل. يعنـ ـي مـ ـا بتفـ ـتح الشباك إلا منشان الزامور.

لكن السيارة أرغمت على الوقوف فجأة خلف صـ ـف طويل من الحناتير والمركبات المتـ ـنوعة: شو فيـ ـه؟ لـ ـيش السير واقف؟.

- واللـ ـه ما بعرف يا بـ ـيك.

- ولك اسأل يا بنـ ـي آدم واسأل عن البلدية .

قيل لـ ـهما إن البلدية في الجزيرة، ولم يستزد السائق أكثر: جزيرة شو؟ بقولوا البلد ما فيها غير سيل.

لكن توقف السير الذي غدا الخلاص منه مسـ ـتحيلاً بعدما انضم إلى الواقفين صف طويل خلفه، جعـ ـل سـ ـليمان ينسى أمر البلدية والجزيرة : شو فيه يا بنـ ـي آدم؟.

لم ينـ ـتظر تحرك سائقه البليد، بل فتح النافذة بجانبه وسأل عدداً من عابري الشارع. بعضهم أبدى توجسـ ـاً مـ ـن السيارة وراكبها، وبعض أبدى عدم الاكتراث إلـ ـى أن قـ ـال لـ ـه أحدهم : الشركسي.

بعد نحو الساعة تحرك السير، وكانـت الجزيـرة عبارة عن بناء من طابقين، أعيد ترميم بعض أجزائـه كمـا تدل ألوان الحجر، يتوسط ساحةً واسعةً تحيط به من جميـع الجهات.

رحب به رئيس البادية الذي وصلته أخبار السـيارة قبل أن يدفع إليه سليمان بطاقته الشخصية.

- أهلاً أهلاً ، يعنـي جاي من القدس.

هز سليمان رأسه وقـد بـدا عليـه الضـجر والإعياء: إن شاء الـلـه ما تغلبت في الطريق؟.

ما أخذت معي من القدس لعمان قد ما أخـذت معي من شارع المهاجرين لـهون .

- ولو. البادية ما بتضيع .

- المضبوط ما بتضيع ، بس بتخنق، شـو مـا عندكم بوليس ولا شرطة سير، كيف بتسمحوا لعرباية ثيران توقف ساعة كاملة بنص الطريق.

- ليش الشركسي كان هناك ؟

- أنـت بتعرفه ؟

- يا أخي ما حدا قادر لـه . إذا خالفنـاه بـدفع المخالفة بعد ما يخلي البلد كلـها تقـول أوف. وإذا حجزنـا عربايته، تانـي يوم بتواسط لـه صاحبه جرير.

- مين جرير.

- صعلوك متلـه. المهم .

رحب رئيس البلدية بفتح فرع للبنك فـي عمان،بـل شعر بازدياد مكانـته مع نمو البلدة التي أخـذت تسـتقطب الأعمال والعمال من فلسطين والشام ولبنان. لكن البت فـي هذا الأمر وإن كان من مسؤولية البلدية ، إلا ان التـرخيص، يتطلب موافقة المعتمد البريطانـي.

لم تثر بطاقـته اهتمام الـمعتمد البريطانـي، وكأنه معتاد على مثيلاتـها، فقابلـه باستخفاف وصافحه جالسـاً ، بـينما البطاقة التي وصلته مع الحارس ملقاة علـى طـرف الطاولـة. لجأ سليمان إلى فصاحته الانجليزية وهو ينطـق بلكنة أمريكية سريعة، سارعت بتفاقم سخط المعتمد، فأجـاب بلكنة انـجليزية مترفّـعة:يوجد في عمان بنـك يكفيهـا.لا نحتاج بنوك أخرى هنا،معذرة عندي موعد...وقرع جرسـاً ففتح الحارس الباب. ومع أن سليمان كان يريد أن يتـدارس

والمعنـيين الفكرة، ويسمع منهم عـن السـوق والنـاس والاجراءات فحسب.إلا أن جفاء المعتمد البريطانـي وجلافته واستخفافه، جعلـه يرتجل قراراً لم يكن بالحسـبان وهـو يطلب من السائق أن يتجه به إلى الديوان الأميري: اسأل وين الديوان ، وإذا قالوا في المهاجرين، بتكورب للقـدس علـى طول.

المفاجأة حركت حيويته ، بعدما سمح لـه بالـدخول فور إطلالة الحارس العسكري الذي حمل البطاقة إلى داخـل المبنى القريب من أطلال مدرج رومانـي:تفضل يـا باشـا تفضل.

أدهش التبجيل السائق أكثر ممـا أدهـش سـليمان. كلاهما توقعا صدوداً لا يقل عن صدود المعتمد وحرسه وإذا به يرقى إلى باشا ولم يعتّب المبنى بعد.

ترجل من السيارة ممسكاً جاكيتته وفي حسبانه أنـه سيقابل الأمير. لم يأت هنا طلباً للباشوية وإنما لافتتاح فـرع لبنكه خدمة لـهذا البلد الناشئ : أهلاً ، أهلاً سليمان باشا.

- مش معقول !!.

- ايش اللي مش معقول؟.

- أنـت !!.

- لا، لا ، أنا مش الأمير، أنا رئـيس الـديوان، يعنـي يا باشا إذا ما توفقت معك بجريدة النحلـة، مـا راح أتوفق بشغل تانـي.

- مش قصدي يا سيد جلال.

- بتصدق إنـي استفدت كثير بالشغل معك فـي نـيويورك، ودائماً بذكرك بالخير، أأمرنـي يا باشا.

- وأنـت صدقنـي، إنـي مش عارف من وين أبدا ، ما خطر ببالي إنوه جلال نحال، واللي كـان يشـتغل صحفي ، يصير سياسي.

- مش سياسي يا باشا، أنا إداري وتحت أمرك يا باشا.

- بس أنا مش باشا أستاذ جلال.

- هذا سهل ، وعد اقنع اك الأمير بإرادة مطاعة تصير باشا رسمي .

أصر على افتتاح الفرع، رغم اعتراض عـدد مـن أعضاء مجلس الإدارة، وتحفظ البعض الآخر. غدا الموضوع بالنسبة لـه شخصياً جداً . يريـد أن يفقـأ عـين المعتمـد البريطانـي الذي استخف به وأنهى مقابلتـه طـرداً علـى الطريقة الانجليزية. سيرد عليه بالطريقة العربـية. كرامتـه قبل بنكه. طلب أعضاء المجلس أن يسعى لإنجاح البنك فـي القدس أولاً، فأربكتهم ردة فعلـه العصبـية وهـو يصـرخ بتشنج، ضارباً الطاولة بكف يده: مين قال البنك في القـدس مش نـاجح. اللي مش مأمنـي على مصاريه هلأ بدفع لـه حق أسهمه... هدأ منه أحدهم وهو يقول بليونة، إن البنك ما يزال حديث العهد. ليتفرعوا أولاً في المـدن الفلسطينـية العامرة، قبل أن يتوسعوا في الخارج. وإذا كان لا بـد مـن ذلك، فليتدارسوا إمكانـية التفرع في دمشق وبـيروت،وليس في بلدة لم يسمع أهلـها بالبنوك.

- خلصت؟ ... سأل بحدة. وأضاف بنفاذ صـبر: اسمع. البلد اللي بتقول عن أهلـها إنهم ما سمعوا بـالبنوك. عندهم مرابـين بشتري الواحد فيهم عشر بنوك. يا جماعـة ردوا علي واعتبروها مغامرة. اللي ما بغامر ما بـربح يـا

ناس. قالـها ضاماً أصابع راحتيه، وأضاف مؤنباً: انـتو لما اشتركتوا معي، ما كنـتم عارفين إنوه تأسـيس البنـك فـي الأصل مغامرة ؟..

غلبهم الصمت للحظة وإن تباينــت تعابـيرهم.

فقال: عال. اتفقنا.

١٢

الرسالـة الأولى فاضت بـمشاعر الحنـين للسـلط والقبة ، وجاشت عباراتها بالشوق لساره، أجمل بنات عمان. كان مباشراً في التعبـير عن هيامه بهـا وشـوقه لرؤيتهـا وتقبـيل شفتيها. قرأتها مرات عديدة وهي تحس بالكلمـات تـنطبع فوق شفتيها وتبعث الدفء في قلبها وتثير الرغبة في جسدها.

كتبت الرد في ليلتها وهي تحـس بقلبهـا المأسـور ينبض باسم مرزوق، ومثلما أرسـل رسـالة أخـرى قبـل انـتظار الجواب ، أرسلت لـه رسالة ثانـية وثالثـة، دون اكتراث بتعليقات أمها على تربصها اليومي للبوسطجي، ولا بالاستفسار يومياً من أبـيها إن وصلـها إلى المحل مكاتيب.

لما وصلتها بعد نحو الشهر رسالة شحيحة بالعواطف أحست بالانقباض والغيظ والخذلان. إنه حتى لم يسألـها عن نفسها بل استأثر بالحديث عن نفسـه وجامعتـه ودراسـته وأوقات طعامه وشرابه، وكأنه يكتب لـها جدولاً بالأرقـام. فأرسلت لـه موبخة على جفاء كلماتـه وتحـول مشـاعره.

كتبتها بدافع الغيرة وقد هيئ لها أن هناك غريمة تنازعها. توقعت أن يصلها الرد سريعاً ولو تضمن التوبيخ والعتاب، لكن الانتظار طال فأرسلت من جديد رسالة أخرى، لم يختلف مصيرها عن سابقتها. تكرر الأمر في الرسالة الأخيرة، فأحست بالمهانة أكثر من الغضب، ولاسيما أنها اعتذرت عن ردها القاسي الذي لم تتلق عنه أي جواب.

عانت لأشهر من انعدام التقدير، واستولى عليها اكتئاب حاد أفقدها الاهتمام بالحاجات وجعلها تحس بالعجز عن الإنجاز. أدركت أمها بتلقائية سبب مشكلتها. خشيت عليها الاعتلال والاختلال، وهي تزداد انطواء يوماً بعد يوم. تحجم عن الطعام حتى لو زركشته أمها بالأطاييب ، فتعجز عن ازدراده إلا مع جرعات الماء. وكلما سأل أبوها عن أمرها تجيبه أمها بدلاً عنها: زهقانة من قعدة البيت... وإذا ما جاء الحديث عن مرزوق واستفسر عن رسائله، ترد أمها عنها أيضاً. ما لها ولمرزوق، إنها في عمان وهو في بيروت، ويعلم الله إن كان سيبقى هناك أم سيعود.

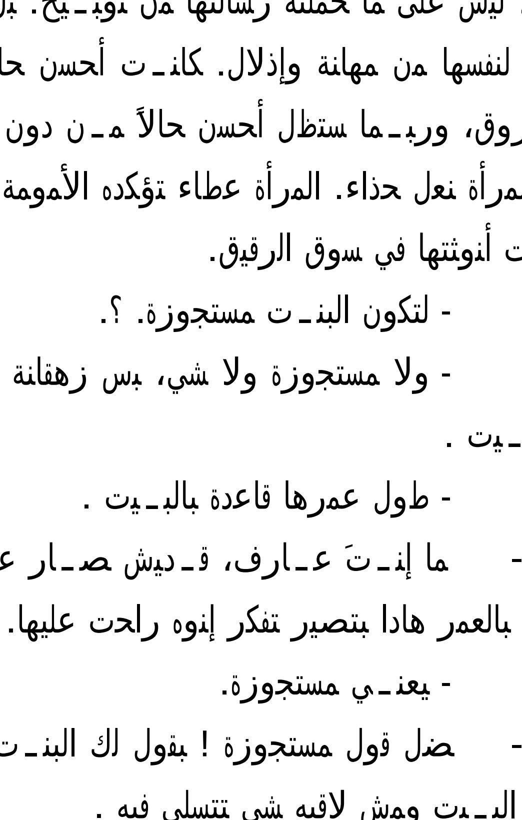
بـينما تظل ساره واجمة وكأن الأمـر لا يعنـيها، أو أن هناك أمراً آخر صار يعنـيها.

في غرفتها تحس بوحشة قاتلة ، وبالحاجة لكل شيء دون أن تهفو نفسها لشيء بعينه.

انجذبت لعذوبة الحب الفتّان، فغرقت على شاطئه في شبر ماء. بـمقدار ما ألـهب مشاعرها هذا البحر المترامي الأطراف وجعلـها تحس بعذوبة الحياة، فإن سطحه الأملس اللامع في ضوء النهار، كان يغطي أعماقاً معتمة تختـنق فيها الأنفاس. فالجمال لا يخفي البشـاعة كمـا قـرأت فـي التوراة، بل يختفي وراء الجمال العقاب والعـذاب. كانـت تظن بأن مرزوق مجرد صفقة بـين الأبوين، قد تؤول إلـى معاشرة أو مصاهرة. وكانـت تصرفات مرزوق تؤكد لـها هذه القناعة، إلى أن صارت تحس بانجـذاب نحـوه. مثلمـا تـنجذب أي فتاة أفاقت من نومها على نافـذة تطـل علـى ربـيع الحياة. لم تكن تعرف مقـدار الحيـز الـذي سـكن عواطفها إلا عندما أزمع على السفر، فأحست فـي وداعـه بالفراغ يغشاها. ولو لم يكتب لـها ويبثهـا لـواعج حبـه، لربـما حل محلـه من يستطيع أن يسليها أو ينسيها. كانـت

تحس قبل أن يغادر أنها جزء منه. في رسالته الأولى التـي خاطبها بكلمة حبـيبتي أحست أنها امتلكتـه بكلـ ـه، ولمـا قاطعها أحست باليتم والخذلان والخسران. غدت بلا حولٍ ولا قوة ولا إرادة ولا استطاعة ولا احترام للذات .

في النهار تظل ساهمة أمام النافذة. تسافر في وحشة الفضاء دون أن تلتقط عيناها الواجمتان صور الناس والبهائم والمركبات. في الليل تتكور تحت الغطاء كالجنـين. تظـل ساكنة مغمضة العينـين متيقظة الحواس لساعات، وإذا مـا أيقظها صوت الأذان أو صخب الشارع، يعتريهـا الضـيق والسأم والإثم والرغبة في الانـتقام، وأحيانـاً الانـ ـتحار. فتتململ وتتقلب مع تلاحق أنفاسها وضيق نفسيتها وضـجر أعضائها، قبل أن تـنام مهدودة متعبة بائسة. لتستيقظ أكثـر تعباً وبؤساً وانطواء فتظل ساكنة تحـت الغطـاء مغمضـة العينـين منكمشة الأعضـاء. لا تسـتجيب لنـداءات أمهـا ودعوتها للأكل إلا بعد تمنع وإحجام . عنـدما تغتسـل فـي الحمام تتأمل بحنق وجهها الذابل. تـتلمس بأسـى أجفانهـا المتـنفخة. كأنها عجوز منسية. تتسـاءل وهـي تطـرطش وجهها بالماء: لماذا؟ لماذا؟. كانـت بالأحرى تُسائل نفسـها



وتُوبخها، ليس على ما حملته رسالتها من توبـيخ. بل علـى ما جلبته لنفسها من مهانة وإذلال. كانـت أحسن حالاً مـن غير مرزوق، وربـما ستظل أحسن حالاً مـن دون رجـال يظنون المرأة نعل حذاء. المرأة عطاء تؤكده الأمومة، حتـى لو بـيعت أنوثتها في سوق الرقيق.

- لتكون البنـت مستجوزة. ؟.

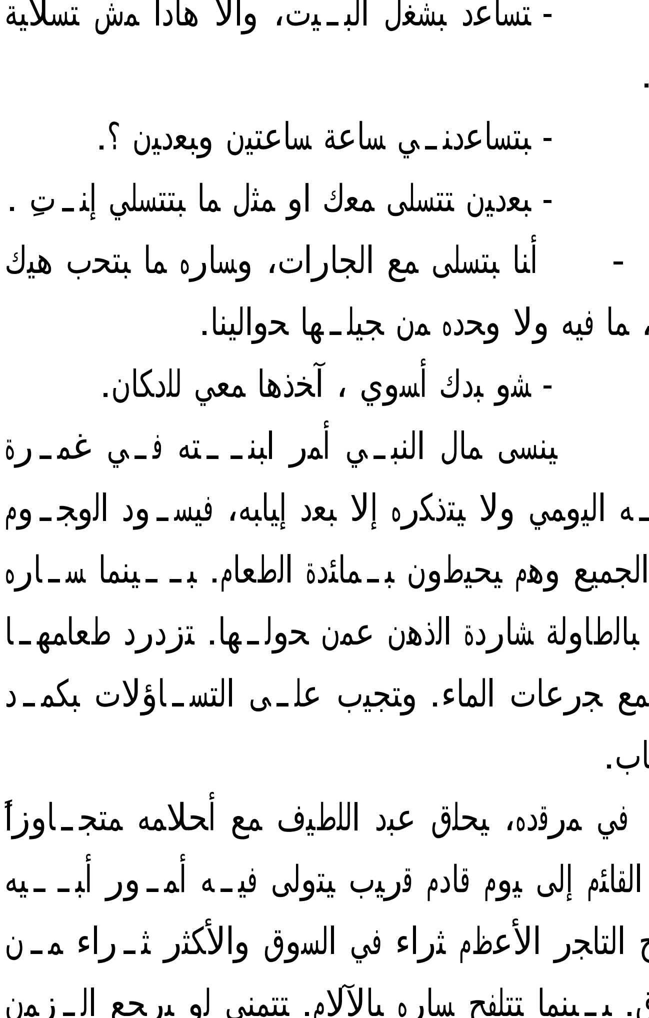
- ولا مستجوزة ولا شي، بس زهقانة من قعدة البـيت .

- طول عمرها قاعدة بالبـيت .

- ما إنـتَ عـارف، قـديش صـار عمرهـا، والبنـت بالعمر هادا بتصير تفكر إنوه راحت عليها.

- يعنـي مستجوزة.

- ضل قول مستجوزة ! بقول لك البنـت زهقانة من قعدة البـيت ومش لاقيه شي تتسلى فيه .



- تساعد بشغل البـيت، والا هادا مش تسلاية

.

- بتساعدنـي ساعة ساعتين وبعدين ؟.

- بعدين تتسلى معك او مثل ما بتتسلي إنـتِ .

- أنا بتسلى مع الجارات، وساره ما بتحب هيك قعدات، ما فيه ولا وحده من جيلـها حوالينا.

- شو بدك أسوي ، آخذها معي للدكان.

ينسى مال النبـي أمر ابنـتـه فـي غمـرة انشغالـه اليومي ولا يتذكره إلا بعد إيابه، فيسـود الوجـوم وجوه الجميع وهم يحيطون بـمائدة الطعام. بـينما سـاره صافنة بالطاولة شاردة الذهن عمن حولـها. تزدرد طعامهـا القليل مع جرعات الماء. وتجيب علـى التسـاؤلات بكمـد واقتضاب.

في مرقده، يحلق عبد اللطيف مع أحلامه متجـاوزاً الزمن القائم إلى يوم قادم قريب يتولى فيـه أمـور أبـيه ويصبح التاجر الأعظم ثراء في السوق والأكثر ثـراء مـن مرزوق. بـينما تتلفح ساره بالآلام. تتمنى لو يرجع الـزمن بها إلى الوراء، فيعيدها جنـيناً ثم نطفة ثم هبـاء، ويتكـرر

الحوار نفسه بـين مال النبـي وزوجته حول اكتئاب سـاره الذي امتد ظلـه إلى كل الأركان.

ظن بأنه وجد الحل، بعدما سدد لـه أحدهم فائدة دينه عقاراً وعفشاً آثر الاحتفاظ ببعضه لبـيته ومن ضمنه ماكينة خياطة.

- هاي جبنا لساره شغلـه تتسلى فيها... قالـها بفخامة. فسألت زوجته باستهجان: شو تتسلى فيها. ليش هي بتعرف تخّيط .

- هادي محاولة .

تمنعت ساره في البداية وأحجمت عن الماكينة، ولـو للتعرف على مزاياها. كما رفضت فكرة تعلم الخياطـة فـي المشغل الذي أخاط لـها فستانها الجديد .

بعد أيام، اقتعدت الأرض أمام الماكينـة، وراحـت تعبث بها لأكثر من ساعة ، وفي اليوم التالي عاودت الكـرة لفترة أطول، انقضت دون إحساس بالوقـت الثقيـل وكمـد الشرود، لتفاجئ أبويها بعد ذلك برغبتها في تعلم الخياطة. لقد راقت لـها الفكرة، ولربـما يكون الخروج مـن البـيت ، خروجاً من مشكلتها .

شعرت بالحرج والخجل وهي في غير مكانها المعتاد ، تجلس مثل تلميذة مبتدئة بـينما زوجة بشارة تغسل لـها دماغها بحلو الكلام الذي ينسـاب متواصـلاً مـع انسـياب الخيطان: لازم النسوان يتعلموا حتى يتساووا مع الرجال.

١٣

لم يؤثر انشقاق درداح وأتباعه كثيراً علـى جمـوع الجبـيلية. بقيت آلاف الخيام تستظل بشيخة زعـل ، رغـم الأنفس التواقة للالتحاق بدرداح واسـتعادة أمجـاد الغـزو والأسلاب .

كان زعل يعي الأمر، فلو تصدى لـدرداح لربـما انقسم الجبـيلية إلى قسمين يمكن أن يـؤدي سـفك الـدماء بـينهما إلى تشتيت شملـهما معاً. لما عرف بأن درداح حط ركابـه في مجاورة الشتيويات ، قال فـي المضـافة: هـا الـحين انفتحت طريق السلاب لدرداح...

كان الشتيويات من أفخاذ الجبـيلية، المنشـقين منـذ أيام الشيخ عواد بسبب نـزوعهم للسلب والنهب ومهاجمـة القوافل والحواضر وفرض الـخاوة على المزارعين باستثناء ما كان منها في حماية الشيخ عواد ومن بعده ابنـه زعـل . فوجد فناطل شيخ الشتيويـات في انشقاق درداح عن أخيـه ولجوئـه إلى أراضيه ، فرصة لا تعوض لتقـويض شـيخة عقب عواد وتحويل مشيخة الجبـيلية للشـتيويات : هـلا

ورحب بابن العم ... قال فناطل ، بـينما تـنحر أمـام المرتحلين النـياق، وتزغرد النساء في المضارب التي تعـد بضع مئات من الخيام وهي تـموج بالـهرج والمرج بعد أن قاربت الألف مع مجيء درداح.

- وشلون زعل ...؟ سأل فناطل بخبث، فأجابـه درداح وهو ينفض أصابعه : زعل استوى على نار حرمـة ويبغي يسوي الجبـيلية كِلـهم حريم .

أدار فناطل نظره في وجوه رجـال درداح الـذين تفاوتت تعابـيرهم بـين الحذر والتوجس والصرامة. إنـها المرة الأولى التي يسمعون بصوت عـالٍ اسـم زعـل دون إقرانه بالشيخه.مع أن عيونـهم كانـت توحي بالرضى مـن درداح والموافقة على هذا الخروج بعدمـا أمضوا سنوات ، منذ هزيـمتهم أمام الرقيقات، مأسورين لوحدة زعل وانكفائه وانطفاء روحه التي غدت أشد برودة من صقيع الصحراء.

- اللي تحكمه حرمة ما يليق بـيه يحكم قبـيلة ... عقب أحدهم

- لا تـنسى الحرمة مين يا قرابـة... علـق درداح .

تدخل فناطل: واللـه عجبه ، زعل الجبـيلي اللـي كنا نظنه فارس الفرسان ... فقاطعه درداح: منوه قال فارس الفرسان ؟ ما دريت بغزوته للعراق ؟ .

- منوه ما دري... تساءل فناطل مستـنكراً .

- بدل ما يقودنا للغنايم ، ضاع وضيعنا وظلينا أيام تايهين ندور على نقطة مي .

- ا يـخزيك يا زعل، ما عدت قـادر علـى الشيخة اتركها للي يقدر عليها. هلا، هـلا بـالربع، وهـلا ورحب بالشيخ درداح. اسمعوا يـا الربـع، آنـ ـي شـيخ الشتيويات، وكِلْنا جبـيلية، شيخنا درداح .

كانـت السرعة في المبايعة متفق عليها مسبقاً فـي المحرم بـين زوجة فناطل وزوجة درداح، فالجبـيلية لـن يرتضوا الشتيويات مشايخاً لـهم، وفناطـل الشـتيوي لـن يستطيع حيازتها إلا من خلال درداح، وبعدها يحلـها ألـف حلال: وهالحين تريد مغانم ما نـتيه بـيها وحنّا ندور على شربة مي . لويش تروح وراها للعراق وعندنا منهـا علـى مرمى العين.

- تقصد عمان ؟ ... سأل درداح

- عمان بـيها حكومة. الكسب منها ما هو كثير ، بس ان شاء اللـه يا شيخ درداح يلحقها النصيب، بعد مـا ناخذ حقنا من نصارى مادبا وماعين.

- وأولـهم اللطيفات .

- لع ، لع ، ما هو هالحين، كلـه بوقته ملـيح، ما نريد تصير المغانم مغارم. بعدهم اللطيفات بجيرة زعل .

- قلت لك . زعل مات من زمان .

- بس ما اندفن بعد يا شيخ درداح.

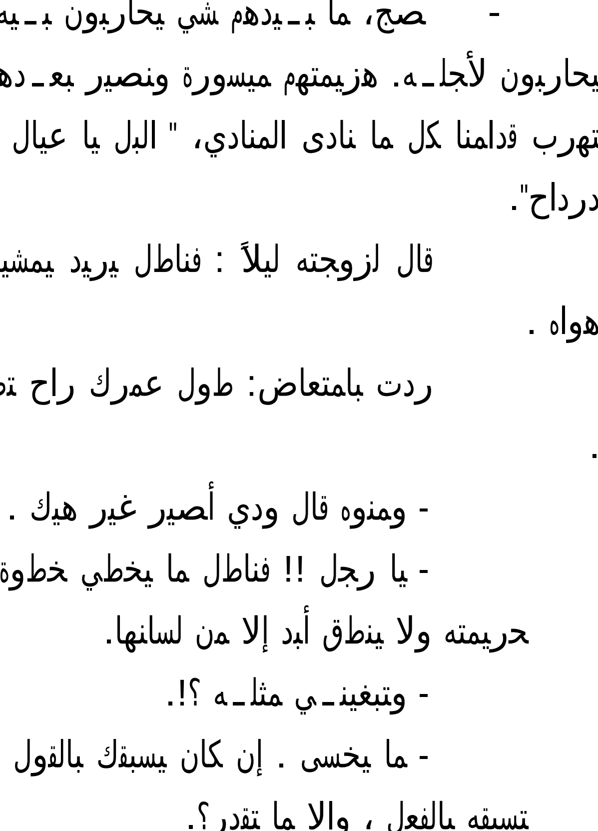
- آنـي ما يغمض لي جفن قبل ما اسمع ولولة العيال والنسوان في ديرة اللطيفات.

- اسمع منـي يا شيخ درداح، وخلي اللطيفـات لما يحين الميعاد. بعدين ويش اللطيفات قدام الفلح بـين القبة وذيبان .

- تبغي تسلب المقاطيع يا فناطل .

- لا باللـــ ـه.نبـــدا بـــالعجول، ونـــ ـتحلى بـاللطيفات، ويش قولك بالـخزاّفين.تراهم الأكبر.

- والأفقر.



- صج، ما بـيدهم شي يحاربون بـيه، ولا شي يحاربون لأجلـه. هزيمتهم ميسورة ونصير بعـدها غـيلان تهرب قدامنا كل ما نادى المنادي، " البل يا عيال من ربـع درداح".

قال لزوجته ليلاً : فناطل يريد يمشينـي على هواه .

ردت بامتعاض: طول عمرك راح تظل درداح .

- ومنوه قال ودي أصير غير هيك .

- يا رجل !! فناطل ما يخطي خطوة إلا بشور حريمته ولا ينطق أبد إلا من لسانها.

- وتبغينـي مثلـه ؟!.

- ما يخسى . إن كان يسبقك بالقول ، أريـدك تسبقه بالفعل ، والا ما تقدر؟.

في اليوم التالي، استيقظ فناطل على حركة الـهرج والمرج في المضارب بـينما الفرسـان يتسـارعون فـوق ركوباتهم هنا وهناك، ولما سأل عما يجـري، أفـادوه بـأن

درداح دعا من يرومون الكسب ان يلحقوا بـه إلـى ديـار الرياشين في تلال دبـين .

١٤

ظل للساط هوى في نفس فندي، فهو وإن كان مسكوناً بالبادية التي تمنحه حرية لا تقيدها سوى التقاليد ، إلا أن انتظامه في الدراسة واعتياده ارتداء الخاكي وحمل الكتب ومذاكرة الدروس، جعله يحس بالفراغ بعدما انتهى منها وحصل على شهادته ليتولى في غياب أبيه أمور القبيلة التي بدت الحياة فيها بطيئة رتيبة في فضاء مفتوح مترامي الأبعاد .

لم يشعر بالغيرة جراء التحاق مرزوق بالجامعة. يكفيه المدرسة التي جلبت عليه الأقاويل وعرضته للتجريح ، ولاسيما بعد هزيمة عشيرته أمام الرقيقات، وما تسببت له من إذلال أمام التلاميذ . ليس مثله في المدرسة من يفهم لغة العيون وتعابير الوجوه ، ولربما أقلة في الجبيلية يدركون دلالاتها مثله ومثل أبيه الذي قلما تفاهم معه باللسان، بل غالباً ما يدرك كل منهما المرام من نظرات الأعين وحركة الأعضاء .

انتهت أيام الدراسة، وسافر مرزوق إلى بيروت التي ربما ستنسيه ذكريات الصبا في السلط، أما هو فإنه استقر في البادية ليطل عبر فضائها الواسع على طريق المدرسة، ويتذكر جرأة الاستاذ جرير.

أثناء الدراسة كانت الإجازة الفصلية قصيرة ، لا تكاد تبدأ حتى تنتهي. وكانت الإجازة الصيفية أعظم اختراع تعليمي. كانت البادية خلالها، عروساً مشتهاة يزف إليها في فرح صاخب يمتد لأشهر ثلاثة. يكتشف فيها مفاتنها ويعيد اكتشافها دونما ضجر أو تعب أو قرف أو ملل. كانت الإجازة السنوية خروجاً على الرتابة، مما كان يشعره بالمتعة ويشحنه بالقوة ويهيؤه للقاء العام الدراسي الجديد بهمة وحيوية ونشاط. في الإجازة الصيفية يلهو مع الفتية ويرافق الفرسان وينضم لأبيه في مجالسة الحكماء. يطرب للقصيد ويفسره، وإذا ردده أسعد صدور المحيطين وبخاصة ما كان يحفظه من شعر جرير.

في فض النزاعات ، يأخذ عن أبيه حنكته وحزمه ، وفي المناسبات يتعلم منه الايماءات والاستجابات واحترام الذات. كانت الإجازة الصيفية تجعله يتعامل مع الآخرين

في فضاء مفتوح لا يعرف الحدود ، وفي المدرسة ينحصـر التعامل خلف الأسوار داخل الجدران. كانا نمطين مختلفـين من الحياة، يناسبانه معاً. إذا ضيق أحـدهما عليـه الخنـاق انشرح صدره مع الآخر .

الآن وقد انـتهت الدراسة وتلاشت الإجازات ، لـم يعد لديه سوى شمس واحدة تشرق برتابة فـوق المضـارب وتغرب عنها برتابة أشد. تدور القهوة المرة فـي المضـافة، وتتكرر الحكايات، بـينما أبوه زعل يتحدث بعينـيه أكثـر مما تـنطق شفتاه : لعاد سقا اللـه على أيام المترسة ... قال درداح ساخراً .

- إي ... رد فندي.

- ولويش ما لحقت ولد فرحان؟ كـان يمكـن ترجع لينا تكتور.

- مليح اللي خلصت الثانوية بالسلط .

- وا صح يا ولدي ... عقب رجـل عجـوز، واضاف : ما بـيه بالجبـيلية أحد درس مثلك لآخر الشوط.

- منوه قـال آخـر الشـوط... تسـاءل درداح معترضاً: لازوم يكمل ويا الولد مرزوق، مش باكر يعاود ولد

الفلاح للقبة تكتور وحنّا نقول واللـه تعلم ولد الشيخ زعـل بس قراية القرآن، ترى كثيرين حافظينه غيـب مـن غيـر دراسة وكتّاب .

- منوه قـال تعلمت القراية وبـس... تسـاءل مرزوق بامتعاض وأضاف: وشهادة المترك ؟.

- ويش سوت ليك يا عمي الشهادة اللي تقـول عنها ؟.

- تقدر تسوي كثير.

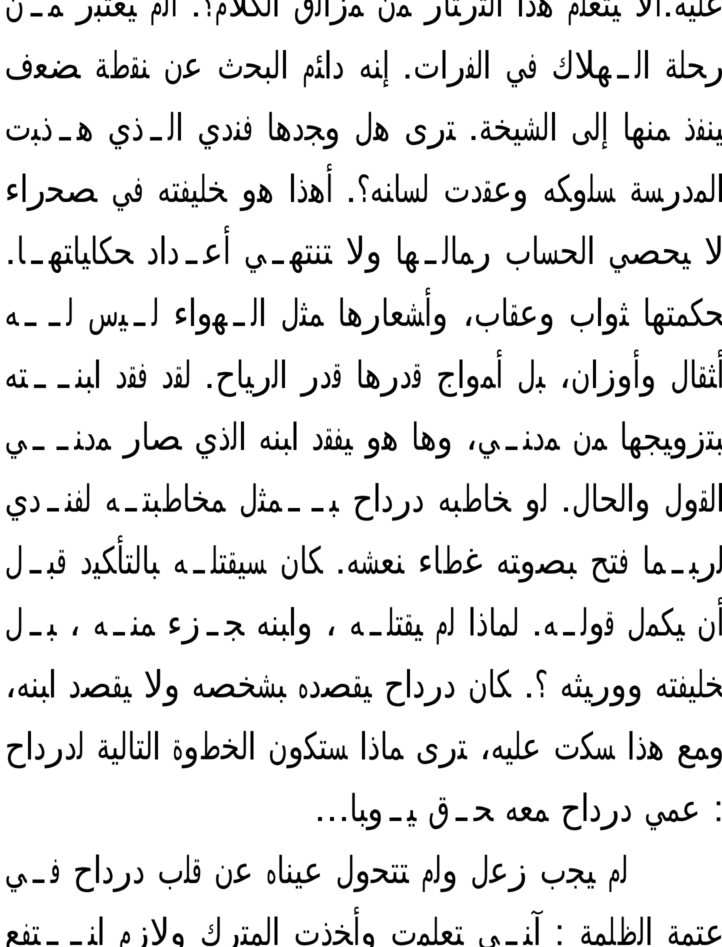
- مثل إيش ؟ تقرا لينا المكاتيب!.

- لو قصدت أقدر أشتغل أحسن شغلة بالحكومة .

- عال وا ، ولد الشيخ زعل يشتغل بالحكومة !.

لاذ فندي بالصمت، بـينما أشجن الحـديث بـ ـين الجالسين، وزعل متفرس أمامه في ظلمة يزيد سوادها علـى سواد عينـيه ويقل كثيراً عن السواد في قلب درداح.

إنه أخوه ، وكل شيء فيه مختلـف عنـه، اسـتحق الشيخة عن جدارة ويراها صخرة فوق أنفاسه وقيـداً حـول



أعضائه، بـينما يتطلع إليها درداح ولا يدرك أنها كبـيرة عليه.ألا يتعلم هذا الثرثار من مزالق الكلام؟. ألم يعتبر مـن رحلة الـهلاك في الفرات. إنه دائم البحث عن نقطة ضعف ينفذ منها إلى الشيخة. ترى هل وجدها فندي الـذي هـذبت المدرسة سلوكه وعقدت لسانه؟. أهذا هو خليفته في صحراء لا يحصي الحساب رمالـها ولا تنتهـي أعـداد حكاياتهـا. حكمتها ثواب وعقاب، وأشعارها مثل الـهواء لـيس لـه أثقال وأوزان، بل أمواج قدرها قدر الرياح. لقد فقد ابنـته بتزويجها من مدنـي، وها هو يفقد ابنه الذي صار مدنـي القول والحال. لو خاطبه درداح بـمثل مخاطبتـه لفنـدي لربـما فتح بصوته غطاء نعشه. كان سيقتلـه بالتأكيد قبـل أن يكمل قولـه. لماذا لم يقتلـه ، وابنه جـزء منـه ، بـل خليفته ووريثه ؟. كان درداح يقصده بشخصه ولا يقصد ابنه، ومع هذا سكت عليه، ترى ماذا ستكون الخطوة التالية لدرداح : عمي درداح معه حـق يـوبا...

لم يجب زعل ولم تتحول عيناه عن قلب درداح فـي عتمة الظلمة : آنـي تعلمت وأخذت المترك ولازم انـتفع

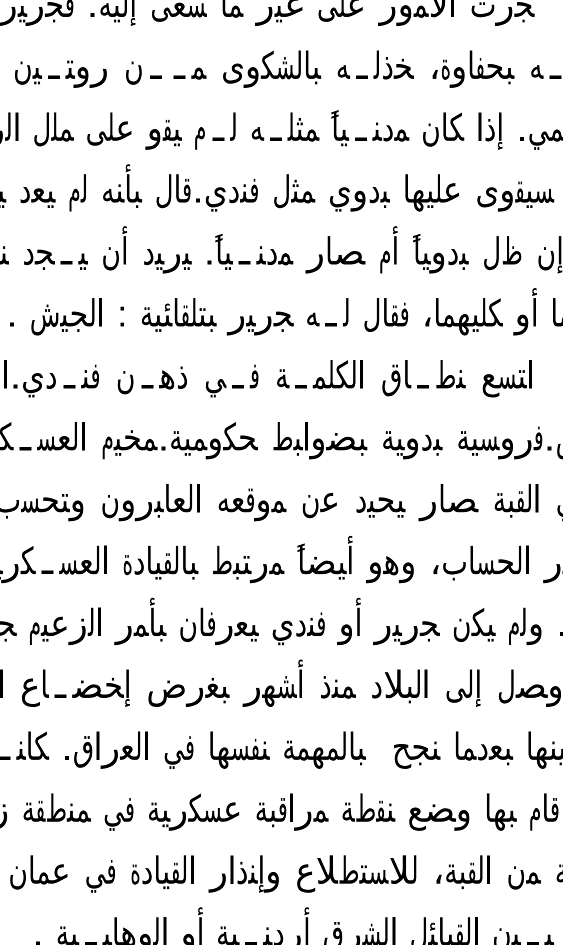
بالشهادة. لو تحكي لي مع رئيس الحكومة، يمكن ينطونـي مركز كبـير أقدر اخدمك بـيه وانفع الربع كلـه بعد .

لم ينظر إليه زعل ولا رنا عنه صـوت أو تغيـرت تعابـيره عن المعتاد . كأن المجلس بالتئامه وانفضاضه وما دار فيه، لا يعنـيه .

تلك الليلة باغتت ثائرة خيال فندي، فتبرأ منها بإبـاء كأنه يتبرأ من العار: أعوذ با ، منشان أصير قصة لدرداح. راح لجوز اخته يشغلـه عنده.

في طريقه إلى ناعور، لم يتذكر فندي صدود أبـيه وصمته القاسي ليلة حاول درداح النـيل منه أمام الجميـع، فأبوه ظل صامتاً أيضاً عند انشقاق القبـيلة وخروج درداح. لازمته صورة الركب المرتحل أياماً وليالٍ، وظل تمرد عمه درداح وخروجه على زعامة أبـيه مسيطراً على تفكيـره ، وهو يندفع بركوبته عبر السفوح الخضراء. سيثبت للجميـع أنه بشهادته وليس بقبـيلته.بشخصه وليس بشـيخة أبـيه، ستعلو قامته على بنـي قومه. إذا لم يكن الوحيد بـينهم الذي يعرف القراءة والكتابة، فهو الوحيد الـذي تـابع الدراسـة وتجاوز المترك بنجاح. سيحملـه هذا إلى أعلـى الـدرجات

الحكومية. ذلك ما يخيف درداح وإن تظاهر باحتقاره للمدينة واستخفافه بالعساكر والحكومة: السلام عليكم أستاذ جرير.



١٥

جرت الأمور على غير ما سعى إليه. فجرير الـذي استقبلـه بحفاوة، خذلـه بالشكوى مـــن روتـين العمـل الحكومي. إذا كان مدنـياً مثلـه لـم يقو على ملل الرتابـة، فكيف سيقوى عليها بدوي مثل فندي.قال بأنه لم يعد يعـرف نفسه إن ظل بدوياً أم صار مدنـياً. يريد أن يـجد نفسه في أحدهما أو كليهما، فقال لـه جرير بتلقائية : الجيش .

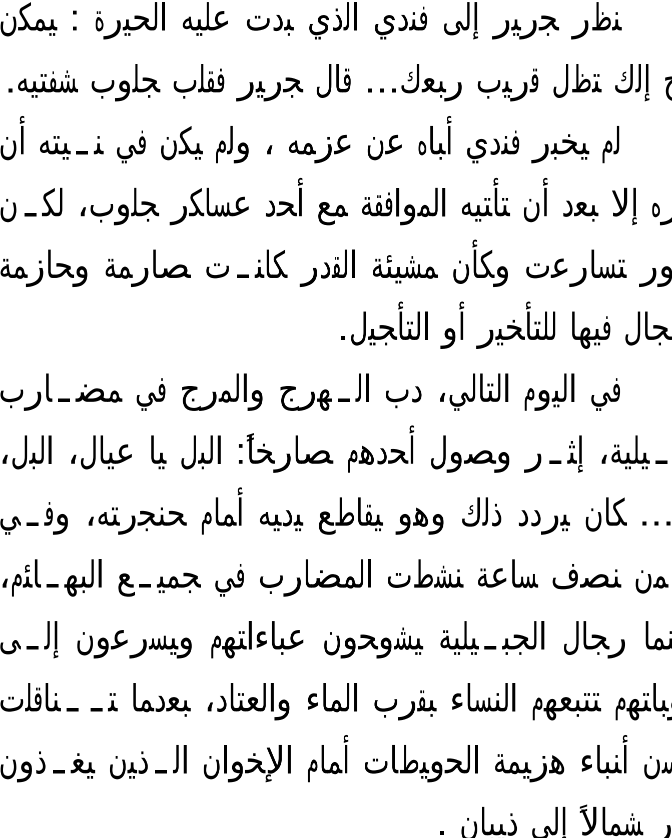
اتسع نطـاق الكلمـة فـي ذهـن فنـدي.الجـيش الجيش.فروسية بدوية بضوابط حكومية.مخيم العسـكر فـي نواحي القبة صار يحيد عن موقعه العابرون وتحسب لـــه العشائر الحساب، وهو أيضاً مرتبط بالقيادة العسـكرية فـي عمان. ولم يكن جرير أو فندي يعرفان بأمر الزعيم جلـوب، الذي وصل إلى البلاد منذ أشهر بغرض إخضـاع القبائـل وتوطينها بعدما نجح بالمهمة نفسها في العراق. كانـت أول مهمة قام بها وضع نقطة مراقبة عسكرية في منطقة زيزيـا، القريبة من القبة، للاستطلاع وإنذار القيادة في عمان عن أية غزوة بـين القبائل الشرق أردنـية أو الوهابـية .

علـى أبواب الثلاثين، أبـ ـيض البشـرة أخضـر العينـين، بشوش الوجه ، مشدود العضلات. ضـغط بقـوة على يد جرير الذي كابر على ألمه، وكذلك فنـدي ، وهـو يرحب بهما برطانة عربـية تلاحقت فيها الأحرف وكأنهـا نوتة موسيقية : هلـهلا هلـهلا.

قال إن التحاق فندي بـالفيلق العربـ ـي مرهـون بـموافقة قائده فريدريك بك، وإنـه سيضع توصـية علـى الطلب الـذي عبأ فندي بـياناته بـخط جميـل. تأملـ ـها جلوب بإعجاب بـينما يتأملـه جرير باستغراب وكأنـه لـم يشاهد رجلاً بثياب عسكرية من قبل .

ودعهما إلى الباب وقبل أن يتحولا عنه قـال بـأن الحكومة على وشك إنشاء قوة شرطة البادية، سائلاً فندي إن كان يرغب بذلك أم يؤثر الانضمام للفيلق العربـي، أجـاب عنه جرير بسؤال: وشو الفرق؟.

- الفرق .... قال جلوب بالانجليزيـة، وأضـاف برطانة عربـية: هون... مشيراً براحته جنوباً: مهمتـنا ... قالـها بالانجليزية ثم بالعربـية : في صـحراء هنـاك.... وبراحة الأخرى أشار غرباً: حدود نهر أردن.



نظر جرير إلى فندي الذي بدت عليه الحيرة : يمكن أريح إلك تظل قريب ربعك... قال جرير فقلب جلوب شفتيه.

لم يخبر فندي أباه عن عزمه ، ولم يكن في نـيته أن يخبره إلا بعد أن تأتيه الموافقة مع أحد عساكر جلوب، لكـن الأمور تسارعت وكأن مشيئة القدر كانـت صارمة وحازمة لا مجال فيها للتأخير أو التأجيل.

في اليوم التالي، دب الـهرج والمرج في مضـارب الجبـيلية، إثـر وصول أحدهم صارخاً: البل يا عيال، البل، البل... كان يردد ذلك وهو يقاطع يديه أمام حنجرته، وفـي أقل من نصف ساعة نشطت المضارب في جميـع البهـائم، بـينما رجال الجبـيلية يشوحون عباءاتهم ويسرعون إلـى ركوباتهم تتبعهم النساء بقرب الماء والعتاد، بعدما تـ ـناقلت الألسن أنباء هزيمة الحويطات أمام الإخوان الـذين يغـذون السير شمالاً إلى ذيبان .

ضرب العديد من الفرسان طوقاً حـول المضـارب بـينهم فندي عديم الخبرة بالقتال، بـينما أبوه زعـل علـى رأس جحافل الجبـيلية يبتعدون إلى الجنوب لمقابلة الإخوان بعيداً عن المضارب، فإذا زهد زعل بأمور الحياة فإنـه لـم

ينس فنون القتال وهو يتقدم إلى الغزاة بدلاً مـن انـتظار قدومهم .

اضطر إلى التوقف ثم العودة ، عندما انكشف الغبار من خلفه عن عدد من التركات التي تحمل جنوداً متسـلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة: اترك لنا أمـرهم يـا شـيخ... وأثارت العجلات هـذه المرة الفضاء المكشوف أمام زعـل فعاد الجبـيلية إلى ديارهم يتحصنون فيها ، تـاركين أمـر الوهابـين للعساكر.

تـمرس جلوب في العراق بقتال القبائل، وعرف عن تقاليدها وطرق عيشها وأساليب قتالـها، وكان أول ما فعلـه عند وصولـه شرق الأردن وتوليه مهمة إنشاء قوة شـرطة صحراويـة ، التعرف علـى القبائـل وأسـمائها وسـماتها المعيشية والحربـية ، التي كان قائده فريدريك بـك ملمـاً بـها نـتيجة مشاركته في القتال معها إبـان الثـورة علـى الأتراك.

عـرف جلوب أن تكتيك الوهابـيين يعتمد الإغـارة مع تباشير الصباح ، وأنهم يبـيتون في خطـوط مسـتقيمة حول البهائم بتشكيلات كالأسوار تساعدهم في الـرد علـى

الغارات . فما كان منه عندما تبـين للكشـافة مـواقعهم إلا محاصرتهم والحيلولة دون تقهقرهم غرباً أو شرقاً حتـى لا يستطيعون الوصول إلى العشب والماء ، مـما جعل البهـائم عبئاً عليهم. وقبل أن يتخذوا أمرهم بالتحرك بعدما تبـينوا استحكامات العساكر، جاءت طائرة راحت تصليهم بنـيران مدفعها الرشاش. دب الفزع والـهلع وثارت الفوضـى فـي صفوفهم، ولاسيما أن رشاشات العساكر الأرضـية أخـذت تطلق النـيران بـمجرد أن اختفت الطائرة ، فانسحبوا جنوباً بأسرع ما يستطيعون عندما تبـينوا جرادة قادمة من الشمال أخذت تكبر شيئاً فشيئاً قبل أن تمطرهم بأحجار سجيل.

طاردهم جلوب إلى أن اختفوا مبعثرين فـي جبـال الطبـيق العصية مسالكها على عجلات التركات. مـع هـذا ظل معسكراً برجالـه ليومين آخرين حتى أمن عدم عـودة الغزاة الذي نجحوا بالتسلل إلى داخـل الحـدود السـعودية. وكانـت الأخبار التي وصلت إلى الجبـيلية من العابرين، قد أثارت فيهم رهبة العساكر أكثر من خشية الغزاة ، ولاسـيما ما تعلق منها بالطائرات، فوصل جلوب إلى المضارب فـي سيارة بويك تتبعها لاندروفر تحمل مدفعاً رشاشاً .

استقبل في المضافة استقبالاً غير عادي، تذكر زعل في الأثناء يوم حبس القائد بك في مراح البهائم ، كما تـذكر الأمر جلوب. القصة ما تزال حية في الأذهان وتتـناقلـها الألسن في الحواضر والبوادي والأرياف. قدرة زعل علـى قراءة العيون وتعابـير الوجوه، أخبرته بأن هناك سراً بـين فندي وهذا الانجليزي:بدنا يا شيخ نسوي كمب كبـير جنبكم.

- قصده معسكر يوبا ... أوضح فندي.

- والعساكر اللي حد القبة ؟.

- هاذي نقطة بوليس. أنا قصدي كمب كبـير، لازم يتحرك بسرعة إذا إجا اخوان.

قبل أن يغادر بقليل أوضح الأمر الثانـي : بـدنا عسكر بدو من عندك وعند غيرك. إذا فيه حدا مستعد، راح نعطيه سلاح وثياب ومعاش كمان.

- معاش ... تساءل أحدهم.

- معاش كل شهر، وأكل وشرب وثيـاب علـى حساب جيش انجليز، ما عندك ولد يحب يصـير عسـكري، شيخ.

١٦

أخفق جرير في وساطته لمقصـود. فـلا مركـزه الإداري أفلح بالإفراج عنه، ولا الخوف من أشـعاره أرغـم ناظر الداخلية على إخلاء سبـيلـه .

كانـت وقعـة مقصود هذه المرة مع جلوب ، الذي أعاقت الثيران طريقه نحو الربع سـاعة، قبـل أن يقتـاد الـجنود مقصود مكبلاً بالأصـفاد ويصـادرون عربتـه وثوريها.

تعرض للضرب والإهانة قبل أن يرمى في نظـارة مستديرة معتمة. أمضى ليلة بائسة هـيئ لـه فيهـا أنهـم سيقتادونه إلى سجن جدة ثانـية . لكن هذه المـرة وحـده، بسبب ثيرانه وليست ثورته. هددوه بـمواصلة ضربه إذا لم يلتزم البقاء في الزاوية، فظل يدور فـي العتمـة، متلمسـاً الزاوية دون جدوى: ولك وين قرنة راح... ومن حين لحين يطل عليه الحارس الليلي من كوة الباب، صارخاً به للجلوس في القرنة، فيواصل البحث عنها متلمسـاً بـيديه إلـى أن

خارت قواه وكاد يفقد رشده. في الصـباح جـاءه جريـر، فصرخ به: ولك وين قرنة.؟.

- قرنة شو.؟... وأدار جرير عينـه بالنظـارة الدائرية. عندها أفاق مقصود إلى نفسه، وعبر وجهـه عـن المرارة والخذلان، فقال لـه جرير معتذراً ومؤنباً: ولك مـا لقيت توقع غير مع انجليزي بريجدير.

- شو هاد بريج ......

- يعنـي زعيم.

- إذا هو زعيم انجليز. أنا زعيم شركس...

قالـها مكابراً. أضاف وهو يشيح عن جرير: روح اعمل إلي واسطة والا بدوه يضل أنا هون.

- واسطة شو..؟ بقولوا إنوه أمر حبسك إجا من كلوب وما بفرجوا عنك إلا بأمر منوه. ولك ضل حدا بعمان بستعمل عربة ثيران.؟.

- يعنـي أخذوه .؟.

- ا لا يردها. المهم تطلع أنـت من هون .

- إيمته ؟.

- شو بعرفنـي.

- يعنـي ما بدوه تشوف هادا انجليز.

- كيف بـدي أشوفه وأنا ما التقيت معه إلا مرة واحدة. اللـه أعلم إذا بعده متذكرنـي.

لكنه تذكره بعدما واتت جرير الفرصة إلـى داخـل مكتبه، فذهب مع فندي للمراجعة بشأن طلبه. قال بأن أباه لا يعارض انضمامه لشرطة البادية، وكان زعل قد لاذ بالصمت بعدما أبدى فندي رغبته .

لم يأخذ الأمر أكثر من نصف ساعة، أفـرج بعـدها عن مقصود دون كفالة، لكن بتعهد شخصي ويمين باللـه أن لا يتـنقل بشوارع عمان في العربـة التـي أعيـدت لـه بثوريها.

انـتقامه من أهالي البلدة، ولاسيما أصحاب السيارات والحناتير والحوانـيت في شارع المهاجرين، لم يطل كثيراً.

قايض قطعة أرض زراعية بدراجـة ناريـة تـري سايكل ذات عجلات ثلاث وكابـينة جانبـية مكشوفة عـن مقعد فردي. وكان صاحب الدراجة قد كتـب اسـمه بخـط عريض أبـيض فوق مقدمة الكابـينة الأسود. فـذهب بهـا مقصود إلى دهان في شارع المحطة، بعدما اتخذ أمره علـى

تغيير لون الكابـينة إلى الأصفر، وكتابـة اسـمه بالأسـود العريض على مقـدمتها.لكـن بهجتـه العارمـة بالدراجـة والاستعجال لتسلمها استعجلـه للحفاوة بـها فوصل الـدهّان مخموراً، ليطلب منه كتابة اسم "مخاص" بدلاً من اسمه وهو يقهقه ويضرب كفاً بكف.

قادها دونما معرفة بالقيادة، إلا ما ذكره مالكها القديم الذي تعمد نسيان بعض الأشياء، مثلما نسي مقصود بعض ما سمعه منه، فارتاعت عمان ذلك اليوم بـينما الدراجة تحـط وتـنط وتزأر وتجعجع في منـتصف الطرقات وبـ ـمحاذاة الدكاكين. تشهد خلالـها جرير آلاف المرات، وأصر عليـه أن يتدرب على قيادتها قبل أن يـدعوه لركوبهـا، فانـ ـتقل مقصود للتدرب عليها في بـ ـيادر وادي السـير، مخربـاً الحدائق والبساتين، وهادماً السلاسل الحجرية ومثيـراً نقمـة الأهالي وذعر البهائم، قبل أن يتمكن منها ثانـية ويعود إلى ميكانـيكي أرمنـي، شد براغيها وأحكم ربـط صـماماتها وأعاد لـها حيويتها، لتـنـتقل إلى الإنعاش عند الدهان الذي قام بتجليس الكابـينة وإعادة لونها الأسود ، مخططـاً عليـه فوق مقدمتها بالأبـيض العريض اسم مخاص الـذي صـار

معروفـاً في طرقات عمان " وصـل مخلـص" . "هـ ـادا مـخاص". "ديرو بالكم من مخاص"." ملعون أبـ ـو هـ ـا المخاص". حتى رقباء السير الذين ابتدعهم الانجليـز، علـى رأي غالبـية أصحاب المركبات، صاروا يستوقفون مخاص، ويطاردون مخاص، ويخالفون مخاص.الجميع سمع بمخاص إلا نازلي التي تعرف من العربـية معرفة مقصود بالضباعية : هادا اسـم صاحب موتور.

لكن ذلك لم يكن ليخفى على أميرة، التـي حملقـت بالدراجة أمام البـيت وظلت سـاهمة طيلـة الجلسـة فـي المقصود من صاحبها الذي أوضح الأمر ببراءة شركسـية: اشتريتها هكذا. مالكها القديم خطط اسـمه عليهـا، وعنـدما يتوافر معي نقود سأخطط بدلاً منه، اسمي أو اسم تو.

لم يقنعها قولـه، فظلت التساؤلات تـ ـنقض عليهـا دون ان يتفتق ذهنها عن تفسير واحد إلا بعد عودتها لـوادي السير، واستغراق مخاص بالنوم إلى جانبهـا دون اكتـراث لثرثرتها وغليان أعصابها. فجأة هبت قاعـدة فـي الفـراش وضربت مخاص على بطنه، فهب بجانبها مذعوراً .

- بسم ا الرحمن الرحيم . بـ ـماذا حلمـت حبـيبتي ..؟

- وبـماذا يمكن أن أحلم يا خالص.

- ماذا حصل لك .. ؟

- وماذا يمكن أن يحصل لي كلما زرنا صهرك الخنـزير ..؟

- إنك تهلوسين بهذا المقصود ليل نهار.

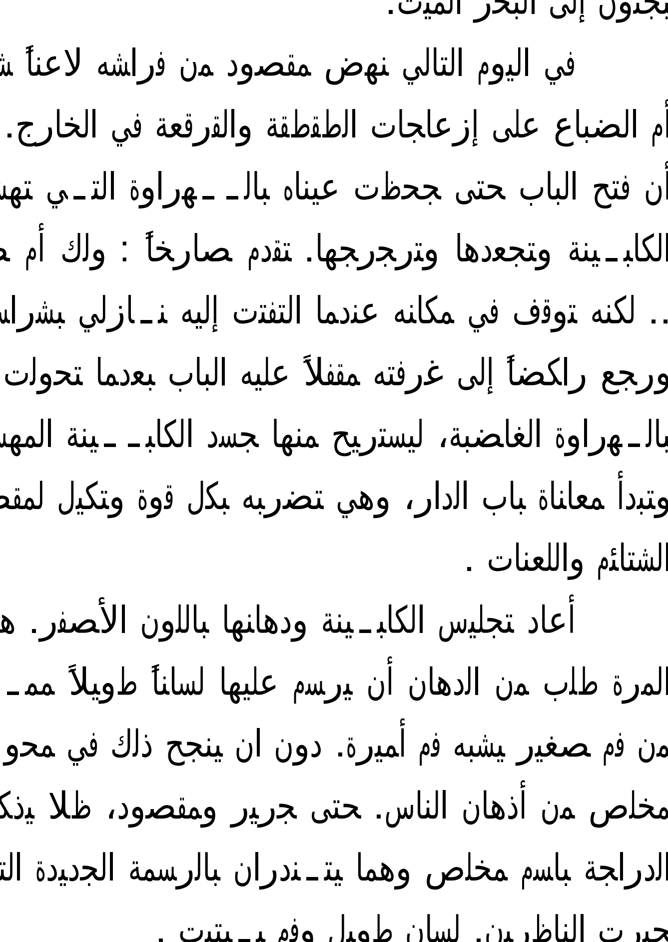
- وهل تريدنـي أن أهلوس بك يا عقيم.

- أنا ...

- نعم أنـت ... صرخت بوجهه، فأجفل ضاماً قبضتيه إلى صدره: الآن عرفت لماذا كتـب اسـمك علـى التراي سايكل .

- لماذا ..؟ ... قال وهو يتثاءب.

- حتى يقول للناس أنه لا يركب اختك فقط، وإنما يركبك أنـت أيضاً. سأقتلـه هذا المقصـود... وظـل فـم مخاص مفتوحاً على اتساع تثاؤبه، لكن دونما تثـاؤب، ولـم يتثاءب من حينها إلى حين مجيئه وأميرة ثانـية إلى عمـان، في الوقت الذي كان فيه مقصود وجرير يركبان مخاص وقد



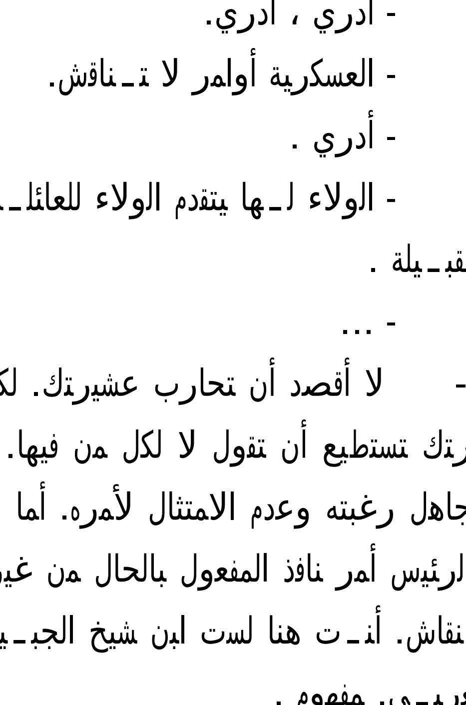
وضع كل منهما نظارة هوائية وغطى رأسه بغطاء جلدي أشبه بما يضعه الطيارون، بينما التراي سايكل ينحدر بجنون إلى البحر الميت.

في اليوم التالي نهض مقصود من فراشه لاعناً شاتماً أم الضباع على إزعاجات الطقطقة والقرقعة في الخارج. وما أن فتح الباب حتى جحظت عيناه بالهراوة التي تهشم الكابينة وتجعدها وترجرجها. تقدم صارخاً : ولك أم ضبع .. لكنه توقف في مكانه عندما التفتت إليه نازلي بشراسة ورجع راكضاً إلى غرفته مقفلاً عليه الباب بعدما تحولت اليه بالهراوة الغاضبة، ليستريح منها جسد الكابينة المهشم وتبدأ معاناة باب الدار، وهي تضربه بكل قوة وتكيل لمقصود الشتائم واللعنات .

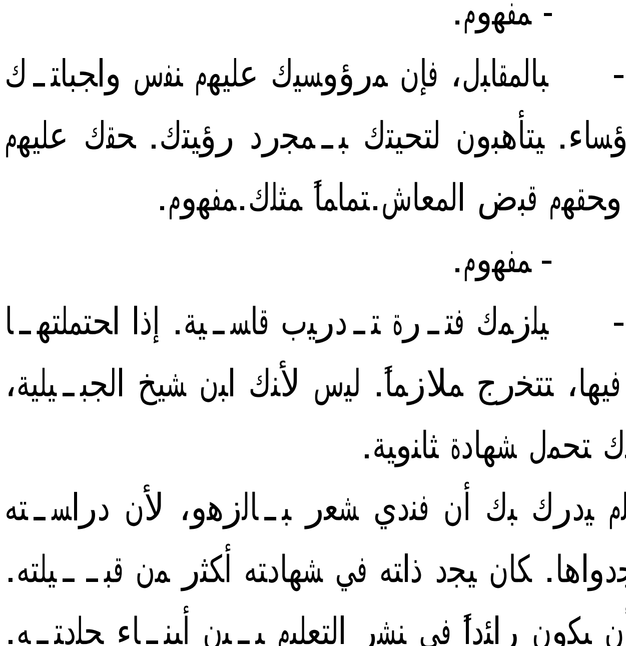
أعاد تجليس الكابينة ودهانها باللون الأصفر. هذه المرة طلب من الدهان أن يرسم عليها لساناً طويلاً ممدوداً من فم صغير يشبه فم أميرة. دون ان ينجح ذلك في محو أسم مخاص من أذهان الناس. حتى جرير ومقصود، ظلا يذكران الدراجة باسم مخاص وهما يتندران بالرسمة الجديدة التي حيرت الناظرين. لسان طويل وفم بيتيت .

١٧

انضم فندي إلى خفر الصحراء، مع بدايات تأسيسه، ولم يكن جلوب يقل سعاده بذلك عن قائده بك الـذي رقـص قلبه فرحاً وهو يتخيل فندي بزي جندي يحتويه كزنـزانة تقيد حركته، مثلما تقيد يوماً في مراح أبـيه. طلب مقابلتـه بنفسه بحضور نائبه جلوب الذي قام بدور المتـرجم بـين القائد الذي واتته الفرصة للرد على ما لحق به من إهانة. فمع أنه يعرف العربـية إلا أنه آثر التعالي عليهـا بالانجليزيـة وهو يخاطب الفتى الحائر بـين التسلح بالقبـيلة أو الشـهادة المدرسية: العسكرية نظام وانـتظام قبل أن تكون فروسـية وبندقية.



- أدري ، أدري.
- العسكرية أوامر لا تـناقش.
- أدري .
- الولاء لـها يتقدم الولاء للعائلـة والعشـيرة والقبـيلة .
- ...
- لا أقصد أن تحارب عشيرتك. لكن أقصد أنك في عشيرتك تستطيع أن تقول لا لكل من فيها. حتى أبـوك يمكنك تجاهل رغبته وعدم الامتثال لأمره. أما العسكرية فما يقولـه الرئيس أمر نافذ المفعول بالحال من غير سـؤال أو تردد أو نقاش. أنـت هنا لست ابن شيخ الجبـيلية وإنما ابن الفيلق العربـي. مفهوم .



- مفهوم.

- بالمقابل، فإن مرؤوسيك عليهم نفس واجباتك تجاه الرؤساء. يتأهبون لتحيتك بمجرد رؤيتك. حقك عليهم الطاعة، وحقهم قبض المعاش.تماماً مثلك.مفهوم.

- مفهوم.

- يلزمك فترة تدريب قاسية. إذا احتملتها ونجحت فيها، تتخرج ملازماً. ليس لأنك ابن شيخ الجبيلية، ولكن لأنك تحمل شهادة ثانوية.

لم يدرك بك أن فندي شعر بالزهو، لأن دراسته أعطت جدواها. كان يجد ذاته في شهادته أكثر من قبيلته. ويتمنى أن يكون رائداً في نشر التعليم بين أبناء جلدته. مثابراً بجدٍ وعناءٍ على التدريب العسكري والانضباط المسلكي لأشهر ثلاثة، غاب فيها بك عن المنطقة وحل محله جلوب في قياد الفيلق العربي، فأغدق من تجهيزاته على إقامة معسكر زيزيا وتحصينه وتسليحه وتزويده بالمؤن وصهاريج الماء، وإقامة أبراج المراقبة في مناطق متباعدة، ولاسيما الأرض المستوية التي صارت تستقبل الطائرات العسكرية القادمة من فلسطين والعراق، وما أن عاد بك من

إجازته الطويلة، حتى كان فوج المتدربـين جاهزاً للتخـرج. فارتدى فندي زيه متميزاً على أقرانه بنجمة منحته صـلاحية إعطاء الأوامر للجنود الأنفار، الذين كان يتعامل معهم بحزم تعامل جلاوب معه.

زار فندي المضارب مـرات عديـدة خـلال فتـرة التدريب، إلا أن زيارته لـهم بـالزي العسـكري، جعلـت الأنظار تـنشد إليه مشدوهة مدهوشة، وهو يمتطي جملـه بخيلاء مغطياً رأسه بحطة رقشاء بالأحمر والأبـيض يميزها عن المألوف من ألوان الحطات. وقد ارتدى ثوباً خاكياً طويلاً يصل الأرض، ومن تحته ردن أبيض التـف علـى وسـطه وشاح أحمر ذو شرابة جانبـية وفوقه حزام ذو جنادات مليئة بالعتاد، يتخللـها في الجانب الأيسر شبرية في جراب فضي، ويتدلى حول الكتف الأيسر إلى الخصر الأيمن حزام جلـدي يرتبط به بـيت مسدس محشو. وأكثر ما لفـت الانـتباه، انكشاف نعليه وهو يفحج مترجلاً عن ظهر الـهجين. ممـا حرك الحسد في قلوب العديد من الشـبان الـذين انـتبهوا لحظتها إلى حفائهم. أما الفتيات فلاحقنه بنظرات افتتان.

سارع في المضافة إلى تقبـيل يد أبـ ـيه، قبـل أن يتحول إلى الجلساء يصافحهم واحداً بعد الآخر، متخذاً مجلسه بجانب أبـيه الذي ظل يحملق مـن فتحـة بـ ـيت الشـعر بالرجال المشدوهين في الخارج والنسوة اللـواتي يختلسـن الأنظار، أهذا ما آلت إليه زعامتهم؟ ينشق درداح، وترحـل معه مئات الخيام ، وينضم بكره إلى الحكومة التي لا تعرف لـها صاحباً ويبقى هو في جفائه وانطوائه وعزوف ذاته عن الرغبات ، ساكناً في مضافته مثل رسـمة فـوق البسـاط. كانـت هند تؤنسه وكان القتال يسليه، أما الآن فليس بـ ـين زوجاتـه امرأة تغريـه، وليس من شيء حولـ ـه يسـتحق الاهتمام، بـينما كانـت يفاعتـه فضول وشبابـه مجازفات ورجولته مغامرات. الآن تدور القهوة ليل نـهار. يزيد مـن مرارتـها أحاديث الرجال ومبالغاتهم في الأخبار والحكايات والأغانـي والأشعار. وكلما ضاقت نفسـه يـوحي لـ ـمن حولـه بأنه ذاهب لقضاء حاجة وهو يتـرك المجلـس دون استئذان، ليلحق راجلاً بـماشيته. وما أن يصل إلى الراعـي حتى يتـناول منه العصا والشبابة ويستلم منه الزمام. فيهش أغنامه بكدر ويكشهم بعصبـية ثم يسترخي بـينهم قاعداً أو

مقرفصاً أو مستلقياً على جانبه وهو يعزف بالشـبابة علـى هواه. فيتذكر معها شنق والده عواد ومقتـل زوجتـه هنـد وبـيعه لابنـته ثائرة وفقدانه فندي، والأهم خسـارته أمـام درداح. بـل زوجة درداح.وهـل تـحكي النـاي سـوى الأحزان؟ لـهذا تجتمع حولـها الأغنام التي تعـيش خائفـة على الصغار مأسورة للكبار إلى أن يحين وقت الذبح والسلخ والتمثيل بالأعضاء. كل ذلك لقاء رعوة عشب تجود بـها السماء حتى تقتات عليها البهيمة التي يقتات عليها الإنسـان. أليس من طريقة أمثل لقطع الطريق بـين الموت والحياة ؟.

مع الغروب يعود بالقطيع إلى المراح ، ويتجه إلـى المحرم حيث يجد الطعام بانـتظاره، فيزدرده دون شـهية، وغالباً ما يغص بلبن الثريد. وفي تلبـية الدعوات يأكل ببطء متـناه يثير حفيظة المعازيم، لاضـطرارهم إلـى مواصـلة الأكل إلى أن يمسح يده بطرف الحطة ويـمدها للفداوي الذي يسرع إليه بالفنجان قبل أن يدور بـالقهوة علـى المتخمـين قسراً.

- وا   وصار للجلبـيلية فارس بالحكومة.

- الجبـيلي فارس من غير حكومة .

- آنـي الحكومة... يعقب زعل برخاوة، وكأنه يسخر من فندي ويلجم الآخرين عن الاسترسال بالمجاملات.

- وآنـي بارودتك تطخ بـيها يوبا ..

فتتجه عينا زعل إلى البارودة المعلقة إلـى واسـط الخيمة. لتـنقبض نفسه مع انقباض ذكراها وانكماش صيتها .

- وتعلمت تصوب بـيها يا ولد.؟.

- تريد تجربنـي يوبا.؟.

- الحر ما يتجرب.

- قصدي أجرب البارودة.

- ولا السلاح يتجرب بعد.

تستكين الأصوات وتـنقبض الوجوه ولا يحير فندي رداً. إنه لا يدري كيف يتعامل مع هـذا الأب. لا المدرسـة أرضته ولا التحاقه بالفرسان. لا التقرب إليه يقربه منـه ولا الابتعاد عنه ينسيه إياه. كل شيء فيه مسكون بالموت زاهـد بالحياة. لم يعد فيه ما يخيف سوى ماضيه العتيق. شبح يسبب الـهلع ولا يقوى على الأذى. أمعقول ذروة العنفوان، تؤول خمولاً وتردياً وانهياراً ؟.

قال فندي لجرير: قواك لويش ما عاد يرتاح لي ..؟

- وأنـت. مرتاح ليه؟.

- بطل بوي يا الاستاذ.

- وتظل ابنه. اسمع لي مليح يا فنـدي. تـرى أنـت ما بعدك عيل. صرت شب والعين عليك.

- لعاد لزوم يفخر بـي.

- هاظا لو بعد ربعك موالين ليه.

- كلـهم موالين.

- وعمك درداح ..؟

- ويش درداح وغيره. ما لحق بـيه غيـر الخاسيين.

- المهم لحقوا بـيه. وإنـت ها الـحين. ليك مضافة غير مضافته.

- آنـي؟!..

- ويش تقول لعاد بثوب الفرسان العسكر اللي شايلـه وشايلك..؟

١٨

رغم إهانة مرزوق لـه، إلا أن جبران لم يقاطعـه تماماً، بل ظل يعرج عليه من شهر لآخر: كنـت بطريقـي من هون، قلت آجي أسلم عليك...

كان جبران يحس في أعماقه بالجميل لفرحان الـذي آواه وأباه، مثلما آوى مئات الوطنـيين ووضـع اقطاعيتـه تحت تصرفهم في الكر والفر والإغـارة علـى الفرنسـيين. لـهذا ظل على تواصل مع مرزوق حتى نهاية العام. جـاء لـه يوم سفره بلوكس شمبر هدية لأبـ ـيه. ومـع عودتـه للدراسة في السنة الثانـية. جاء مرزوق ثانـية بتـنكة سمنة لجبران وأخرى لواصف. ومثلما حصل في المرة الأولـى، ساعده جبران في البحث عن بـيت يستأجره، بعـدما سـبقه آخرون إلى البـيت القديم .

قال لواصف بأنه يشعر بالسعادة عندما يترجم القـيم التي يعلمها للتلاميذ إلى سلوك شخصي. فمرزوق بنظره مـا يزال تلميذاً يحتاج للكثير كي يتعلم. مع أنه ليس من فـارق عمري كبـير بـينهما وإنما الفارق بالتجربة. تجربته مـع

فرحان وسيف الحجاج ثم تجربته بالتدريس. وهـي أمـور صفات فيه الكثير. في داخلـه كان مقتـنعاً بأنه يتشابه فـي معظم صفاته مع أبـيه، وإن كان يختلف عنه فـي التهـور والاندفاع.

كان كثير الاعتزاز بـما فعلـه وسيف الحجاج فـي سرايا غورو، وهو يرددها من حين لحين لرؤوف الصـغير وبإضافات وتحريفات تضحك رؤوف من الأعماق، ويرويها رؤوف بتعديلات كثيرة لرفاقـه فـي المدرسـ ـة ، دون أن يجرؤ جبران على ذكرها لتلاميذ مدرسته الأرثوذكسية، رغم جموحه لروايتها لـهم في يومٍ من الأيام .

دائماً يـجد الوقت لكل شيء حتـى داخـل غرفـة التدريس. لديه وقت للمرح مع التلاميذ، دون أن يخسروا من موضوع الدرس شيئاً، بل كان يحفزهم للانـتباه بـمداخلاته التاريخية عن أوغاريت وقرطاج وسفن كنعان.

بعد انـتهاء الدوام، يرتاح نحو الساعة لأجل تـناول الغداء وهو يطالع جريدة الصباح. ثم ينضم إلى طاقم المطبعة في صف الحروف وطي الورق والتجليد. وعند رواحه يعرج

على هذا الصديق أو ذاك. يتبادل معهم الآراء والأفكار والكتب والمجلات.

في البيت لا يواتيه النعاس إلا بعدما تخدر رأسه مئات الصفحات التي يقرأها بمتعة واهتمام. أما يوم الجمعة فله خصوصية عنده، لأنه يحرره من روتين العمل وقيود الوقت ويغادره الإحساس بالهامشية في صخب بيروت، ليغدو عنصراً فاعلاً قيادياً وهو يتنفس أنقى هواء لبنان في مرتفعات ضهور الشوير وبين غاباتها الخضراء، حيث تعيش عائلة كنعان..؟

الجلساء في معظمهم شبان متحمسون، يتسلحون بالقراءات المتواصلة حتى يتألق حضورهم ويستحقون مكانتهم. إلا أنهم يظلون دائماً دون مستوى الدكتور صبحي المر وهو يصحح معلوماتهم ويضيف إليها ويناقش تحليلاتهم ويصوبها ولا يتوقف عن الحديث أثناء العشاء الذي يشرب معه بضعة أقداح من العرق لتنشيط الدورة الدموية كما يدعي.

بينما يلحظ الآخرون النشاط في لسانه المستعد للعمل في آن واحد مع المقبلات والمأكولات وإلقاء الخطابات

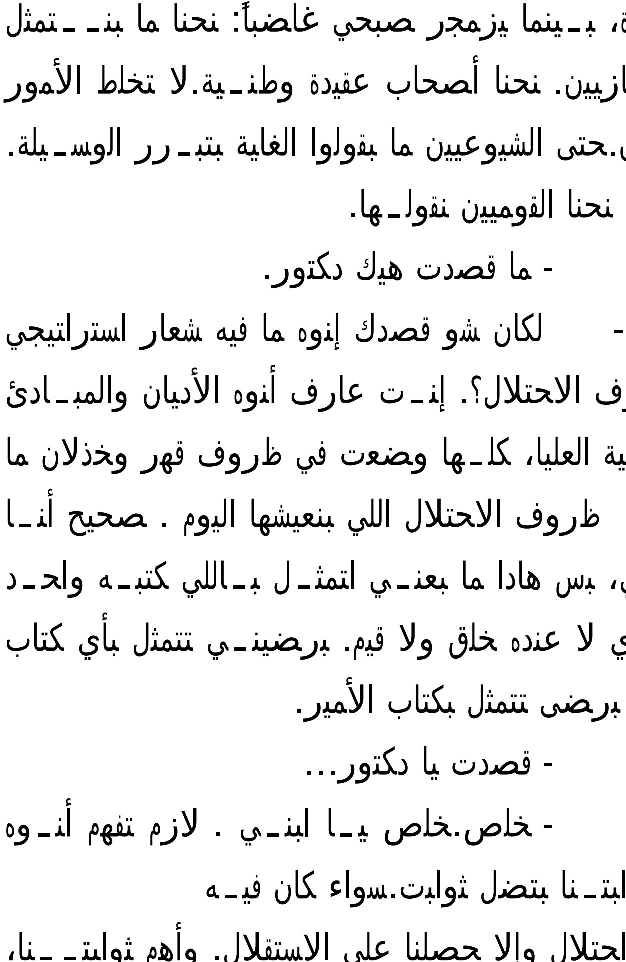
البلاغية طيلة تـناول الطعام وبعد الانـتهاء منـه إلـى أن تـنقضي السهرة وينفض المجـتمعون. لتبدأ سهرة واصف وجبران مع العرق وما تقدمه مارغو لـهما بهمـة وبهجـة وترحاب، وقد انبعث المجد الذي تمناه أبوها لبـيت كنعان .

كان موضوع الجلسة تلك الليلة تصريحات أنور باشا نائب رئيس وزراء العراق حـول وحـدة بـلاد الـهلال الخصيب.

قـال الدكتور صبحي بـأنه يرحب بالدعوة ، حتـى لو جاءت على لسان رجل معروف بارتباطه مع الانجليـز، لكنه يعارضها من حيث التدرج المطروح. فالتدرج يجب أن يكون عملية إجرائية وليس شعاراً استراتيجياً.

وافقه الجميع باستثناء جبران، الذي قال بأنه في ظل الاحتلال، ليس هناك شعار استراتيجي سوى المقاومة. عـدا ذلك فكل عملٍ تكتيكي هو إجرائي. وهو ما قرأه فـي أميـر ميكافيللي هذا الأسبوع.

للمـرة الأولى يثور الدكتور صبحي في وجه جبران ، فأصيب الجميع بالدهشة وسكنـت جميع الأصوات بـما فيها صوت رؤوف الصغير وأمـه مـارغو فـي الغرفـة



المجاورة، بينما يزمجر صبحي غاضباً: نحنا ما بنتمثل بالانتهازيين. نحنا أصحاب عقيدة وطنية.لا تخلط الأمور يا جبران.حتى الشيوعيين ما بقولوا الغاية بتبرر الوسيلة. بدك ايانا نحنا القوميين نقولها.

- ما قصدت هيك دكتور.

- لكان شو قصدك إنوه ما فيه شعار استراتيجي في ظروف الاحتلال؟. إنت عارف أنوه الأديان والمبادئ الإنسانية العليا، كلها وضعت في ظروف قهر وخذلان ما بتقل عن ظروف الاحتلال اللي بنعيشها اليوم . صحيح أنا علماني، بس هادا ما بعني اتمثل باللي كتبه واحد انتهازي لا عنده خلق ولا قيم. برضيني تتمثل بأي كتاب دين وما برضى تتمثل بكتاب الأمير.

- قصدت يا دكتور...

- خلاص.خلاص يا ابني . لازم تفهم أنوه ثوابتنا بتضل ثوابت.سواء كان فيه احتلال وإلا حصلنا على الاستقلال. وأهم ثوابتنا، بل الثابت الوحيد اللي ما ممكن يتغير، إنوه بلادنا بتشكل

وحدة طبـيعية لا يمكن تجزئتها ولو قسموها المحتلين ألـف قسم.

رفض جبران المبـيت عند واصف، كعادته في مثل هذا اليوم. أصر على العودة إلى بـيروت ولـو مشياً علـى الأقدام. لكن أحد المجتمعين لحق بـه بسـيارته واصـطحبه إلى بـيته .

لم يستطع القراءة ولا النوم ولا التركيز. كان يغلـي غضباً وهو يؤآخذ نفسه طيلة الوقت على جبنه وسكوته. ظل كذلك وهو يأتي على بطحة عرق في غضون ساعة. إنه ليس في حزب حتى يحتمل إهانة المسؤول، ولـيس فـي عمـل يفرض عليه احتمال المدير أو الرئيس أو من يكـون. إنـه يعرف واصف قبل الدكتور صبحي، ويعرف عمـه رؤوف، ويعرف عن تاريخ السوريين والرومان واليونان أكثـر مـن أساتذة الجامعات. لن يسمح لواحد مثل الدكتور صـبحي أن

يعاملـه كتلميذ ويعاقبه بالصراخ والعويل. إذا كان مسـتقبل سوريا متوقفاً على هذا الصالون المختبـئ فـي ضـهور الشوير. بلا منوه وبلا حلو ومر، وبلا هيك رفقـات تبعـون طبـيخ. والا شو بـجيب واحد عامل حالـه دكتـور مـن بـيروت لضهور الشوير منشان يجتمع مع هلافيـت مثلنـا. أهلاً أهلاً سوريا. بلا أهلاً بلا بطيخ. قول سلامة تسلمك يـا سوريا إذا اللي بدوه يحررك هيك صالون . قال صالون قال. ومع مين ..؟ مع صبحي المر.. وا لأمرر اك عيشتك يـا دكتور. هيدا وبعدنا ما عملنا شي. لا حزب ولا بطيخ. كاسين عرق عملوك قديس.هيدا لو شربت بطحة شو صار فيك. قال صبحي المر قال: مرمر زمانـي يا زمانـي، مرمرتـنـي لا بد ما تتمرمر. العمى،كل اللي قلناه إنوه هالحكي مكتـوب في كتاب الأمير، وعملها قصة وحكاية. هيدا لو قلت إنـ ـي جايب ها الحكي من راسبوتين شو كان عمل مرمر أفنـدي، وأنا اللي كنـت مفتكرك دكتور عن حق وحقيق. ثوابت. بلا ثوابت بلا بطيخ. وا ما ناقصك غير يثبتوك بالمسامير على الصليب. أروح أصاحب مرزوق الصليبـي أحسن لي مـن المرمرة مع اللي ا لا يصبحه ولا يمسيه . مين ؟.. مـين

..؟ واك بقول مين..؟ أختك مين ما تكون. مين..؟ الـ دكتور صبحي: يمسيك بالخير .

١٩

نشأ بكر مستقل الإرادة، على عكس أبيـه وأخيـه. منحازاً للمظلومين مدافعاً عنهم. فمن حيث لا يـدري فـتح زواج أمه من الشيخ مستور عينـيه على المظالم المسـتورة بشرعية استعباد النساء والأبـناء . فصار لا يرد استعـانة الجارات كلما ولولن داخل البـيوت المتلاصـقة المسـورة الموصدة الأبواب، فيسرع متسلحاً بزيه العسكري القادر على تجاوز العتبات، وأحياناً خلع الأقفال، وهو يمنـي النفس بأن يظفر يوماً بالشيخ مستور حتى يطوفه في كل شوارع الشـام منـتوف الشعر عاري الثياب.

إذا صادف في الزقاق فتيـة يتعـاركون، أو تعثـر بصبـي هارب، فإنه يتصدى للمطاردين ويذود عن الضعفاء المستكينـين المستسلمين. حتى لو كانوا يستحقون الضـرب والحبس والعقاب. كان يبرر لأمه تخليصه لـهم، ولو كـانوا خاطئين، بأن وراء كل سـرقة حاجـة ووراء كـل جنـوح حرمان. وهو الذي لـم يسـرق بـينما طفولتـه تـنبع بالحاجات؟ ولم يجنح رغم أعاصـير الحرمـان. بفضلـها

صمدت إرادته وظل مستيقظاً رشده. وهو الآن يعوض عن
حاجاته المنهوبة وحرمانه المرير بمد يد العون للآخرين.
ثم إن ا من عليه ، بعد كل هذا العناء والصبر الطويل ،
بالعسكرية التي جعلته حامياً بدلاً أن يكون سارقاً. كان يعبر
الحي شامخاً ببزته التي تحرص أمه على خياطتها بما
يتناسب وتغير حجمه ، بمثل ما تحرص على هندمتها
وكيها، حتى خلبت أناقته ووسامته قلوب الفتيات بالقدر
نفسه الذي حركت الغيرة في قلوب الفتيان. ولاسيما أولئك
الذين حولتهم البزة الى طغاة مفسدين. وتقدم بكر عليهم
بانضباطه وانتظامه وقيافته ، إضافة إلى تأدبه وحسن
سلوكه وسمو أخلاقه وطيب سمعته. دون أن يغفل تدريباته
العسكرية التي أبلى فيها أكثر من سواه، وتجاوز عناءها
وإذلالها بروح رياضية تعاونية وجدت صداها لدى قائد
الكتيبة الذي قربه منه وجعله مرافقاً له ورشحه لدورة
عسكرية في الجزائر. عاد بعدها برتبة ضابط أول في الجيش
بدلاً من الدرك، بعدما تم إلحاق كتيبة الفرسان بقيادة الجيش ،
ونقلت قواتها إلى منطقة مزيريب لمراقبة الحدود مع شرق
الأردن، وقطع الطريق على المتسللين، الذين كانوا بنظر

الفرنسيين مجرمين، سواء أكانوا لصوصـاً أم مهربـ ـين أم وطنـيين .

كانوا جميعـاً سـوريين ، والأهـم أنـ ـهم كـانوا مطاردين، يستحقون منه الحماية والمساعدة. صار يتصـدى للتوقيفات الجزافية ، ويرفض حجـز الموقـوفين إلا إذا آل التحقيق الذي يجريه بنفسه إلى التجريم. بالنسبة إليه، يقتضي ميزان العدل أثقالاً كبـيرة من الإدانات كي ترجح على كفة البراءة ...لم يكن هذا يرضي أقرانه ولا يقبل به رؤسـاؤه . كيد لـه ولم يـمض على تحولـه الى الجيش أشهر قليلـة. فألصقت به تـهمة التواطؤ مع الوطنـيين. ورغم هشاشـة التهمة ، الا أن الاحتراز منها كان ضـرورياً ، طالمـا أن الخط الفاصل بـين سوريا وشـرق الأردن أكثر هشاشة ولا يحتمل أي تراخٍ على الحدود .

نقل إلى معسكر المزة في نواحي دمشق ، ليفقد فيـه أهميته الذاتية، شأن السوريين المجندين فيه لخدمة نظـرائهم وأسيادهم الفرنسيين.

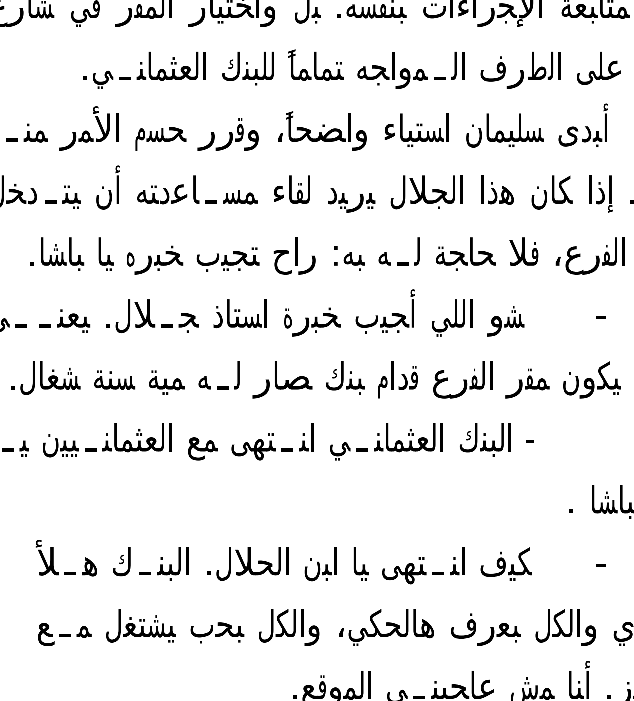
إثر مناوشة مع ضابط فرنسي، كادت تـنـتهي إلى العراك، وبخه قائد المعسكر وهدده: اسمع. يجب أن تشـكرنا

لأننا قبلناك بـين صفوفنا. لا أن يعلو صوتك على أسـيادك. إذا كررت هذا الأمر ثانـية، سأقدمك للمحاكمـة وأنـزع شاراتك وأسجنك مع المجرمين. تذكر دائماً أننـا فرنسـيون وأنـت سوري.

ظل يتذكر قولـه ليل نهار، مستسلماً للقهر والإحباط والخذلان، وبخاصة عندما يضطر للمرور أمام بـيت البغاء الذي يعج بالزبائن الفرنسيين والعاهرات السوريات.

حتى في بـيته ، عندما يسمع من أمه الحكايات التي تـتناقلـها الألسن عن تحرش الجنود الفرنسيين بالمدنـيين واضطهادهم للسوريين. يقول مستسلماً: هذا حقهـم. إنـهم فرنسيون. علينا حق إطاعتهم نحن السوريين.. يقـول ذلـك بـمرارة وغيظ. وإن كان يبدي الاستخفاف وعدم الاكتراث. لـهذا عندما وقعت في يده جريده الأيام، وفيها مقال لأنطون سعاده بعنوان " نحن أمة تامة". رمى الجريدة جانباً بـمجرد أن انـتهى من قراءة المقال: بلا تامة بـلا ناقصـة. قـول نايـمة. وكانـت أمه تشخر في مرقدها.

٢٠



نعم سليمان بالباشوية، وبترخيص بنكـي ، ليتـولى جلال متابعة الإجراءات بنفسه. بل واختيار المقر في شارع فيصل على الطرف الـمواجه تماماً للبنك العثمانـي.

أبدى سليمان استياء واضحاً، وقرر حسم الأمر منـذ البداية. إذا كان هذا الجلال يريد لقاء مسـاعدته أن يتـدخل بأمور الفرع، فلا حاجة لـه به: راح تجيب خبره يا باشا.

- شو اللي أجيب خبرة استاذ جـلال. يعنـي معقول يكون مقر الفرع قدام بنك صار لـه مية سنة شغال.

- البنك العثمانـي انـتهى مع العثمانـيين يـا باشا .

- كيف انـتهى يا ابن الحلال. البنـك هـلأ انجليزي والكل بعرف هالحكي، والكل بحب يشتغل مـع الانجليز. أنا مش عاجبنـي الموقع.

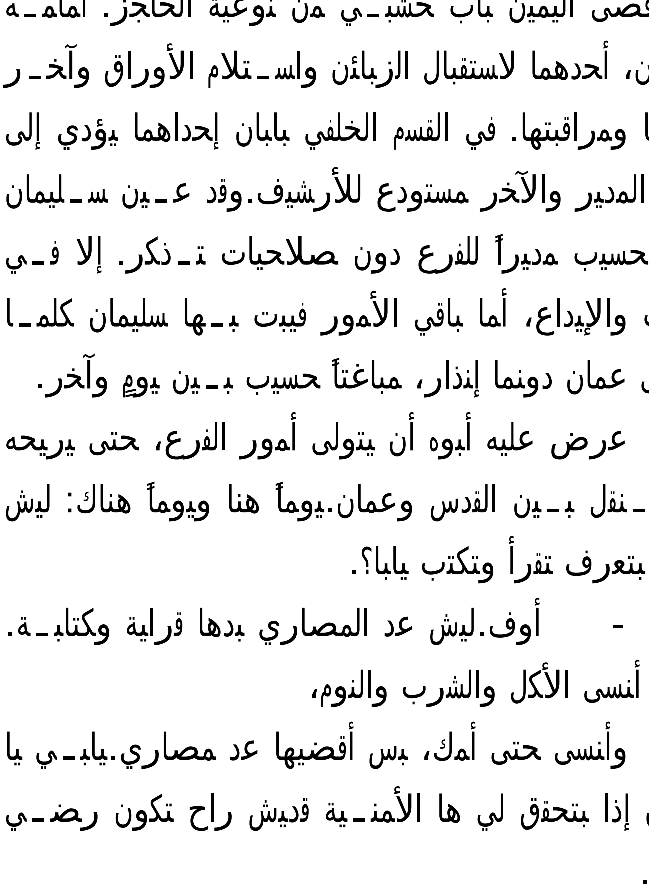
- هادا عائد إلك. بس فكر مليح يا باشـا. ويـن ممكن تحط مصاريك؟. في بنك يدال على هويتـك وإلا فـي بنك يدال على هوية الأتراك أو الانجليز .

اتخذ أمره على أن يحسم الأمر ويقول لـ ـجلال، ا يعطيك العافية اقبل منـي هذه الـهدية، وخلينـ ـي أشـوف عرض كتافك. ففاجأه جلال بطلب الـهدية: صدقنـي غيـر أخلي نص زبـاين البنك العثمانـي يتحولوا لعندك وما بدي منك غير تعاملنـي مثل غيري.

- معقول أعاملك مثل غيرك !.

-مثلي مثل غيري يا باشا، الفائدة اللي بتاخدها منهم بتاخذها منـي، والأرض والمعاش ضمانـ ـتي، مش معقول أكون رئيس ديوان الأمير وبـيتي خشـة من غرفتين .

بعد شهر من الإصلاحيات الإنشـائية والتجهيـزات المكتبـية، ارتفعت فوق مبنى صغير مؤلف من طابق واحد، آرمة كبيرة عكست بالخط العريض اسم البنك الكنعانـ ـي، بعدما قسم الداخل إلى قسمين. الأول صالة طويلة يمتد فـي


منـتصفها حاجز خشبـي من الـجدار إلى الجـدار، يقبـع خلفـه في أقصى اليسار أمين صندوق أمامه قاصة حديديـة وفي أقصى اليمين باب خشبـي من نوعية الحاجز. أمامـه موظفان، أحدهما لاستقبال الزبائن واسـتلام الأوراق وآخـر لتدقيقها ومراقبتها. في القسم الخلفي بابان إحداهما يؤدي إلى مكتب المدير والآخر مستودع للأرشيف.وقد عـين سـليمان نسيبه حسيب مديراً للفرع دون صلاحيات تـذكر. إلا فـي السحب والإيداع، أما باقي الأمور فيبت بـها سليمان كلمـا قدم إلى عمان دونما إنذار، مباغتاً حسيب بـين يومٍ وآخر.

عرض عليه أبوه أن يتولى أمور الفرع، حتى يريحه من التـنقل بـين القدس وعمان.يوماً هنا ويوماً هناك: ليش إنـت بتعرف تقرأ وتكتب يابا؟.

- أوف.ليش عد المصاري بدها قراية وكتابـة. مستعد أنسى الأكل والشرب والنوم،

وأنسى حتى أمك، بس أقضيها عد مصاري.يابـي يا سليمان إذا بتحقق لي ها الأمنـية قديش راح تكون رضـي والدين.

- مضبوط راح أكون رضي والدين ومطلـوب للشرطة منشان الدين. اعقل يابا وخلي عقلك بالزيتونات.

- دين الزيتون الأولانـي، إحنـا فتحنـا بنـك منشان أضل أنا بـين الزيتون، وحضـرتك رايـح جـاي بالمصاري بـين القدس وخربة عمان. خلينـي أرافقـك، ومستعد أحمل الشنطة عنك.

- شنطة شو... ؟
- كيف شنطة شو. شنطة المصاري..
- هاي الشنطة كلـها وراق.
- وراق !! وبتاخذها معك لبـيت الخارج.
- بحب أقراها هناك يا أخي.
- صرت أخوك يا ابن أم سليمان .
- شو اللي بدك إياه هسه.
- بدي تاخذنـي لعمان.

ندم سليمان خلال الطريق على استجابته. وندم أكثر بعدما وصلا الفرع، وصار أبوه يطلب من حسيب بنبرة آمرة أن يأتيه بالقهوة والشاي على الطالع والنـازل. لكـن عنـد

الظهيرة انصهر قناع الجليد في وجه سليمان بعـدما تخيـل نفسه في بلورة سحرية أعادته ثلاثة عقود إلى الوراء .

شخصت أنظاره بصقر الذي سكن كل شـيء فيـه بـمجرد أن تقدم خطـوة عبر الباب. بـينما أبـوه يسـحب دخان لفافة الـهيشة بانسجام واسترخاء، مبـدياً الغطرسـة، بـمجرد إن جاء حسيب يخبره بأمر المقاول الذي حدد لـه موعداً منذ الأمس.

كان صقر قد حظي بأكبر مقاولة عرفتهـا عمـان، بعدما قررت القيادة الانجليزية تعبـيد طريق المشاة الممتـد صعوداً من شارع الشابسوغ إلى هضبة القلعـة التاريخيـة، بغرض تسهيل حركة الآليـات العسـكرية مـن مصـفحات وتـنكان وسيارات إلى الأطلال التي يتحصن فيهـا الجنـود الانجليز. مما كان يستلزم حفر السفح الشمالي بطول يصـل إلى نحو ثلاثة كيلو مترات لولبـية، ورفع جدار استـنادي على امتداده. بارتفاع يصل أحياناً إلى سبعة أمتار.

يتطلب التـنفيذ نحو مئة عامل وعشرة بنائين إضافة إلى عشرات الأمتار الخشبـية ومئات العـوارض الحديديـة وأطنان الدبش التي سترتفع كبنـيان مرصـوص يسـتقر

الشارع فوقه مثل بلاطة صخرية تحتمل ثقـل الآليـات ولا تؤثر فيها الأمطار ولا سيول المنحدرات.

بـين أخذ ورد، وافق صقر على شروط مدير النقطة الرابعة الانجليزي المسؤول عن الانشاءات، رغم أنه اعتبـر السعر مجحفاً بحقه، إلا أنه على إمكانـياته المتواضعة التي تقتصر على تـنفيذ هذا العمل الكبـير، نسي نفسه في غمرة النشوة التي أحس بها لإيثاره على الآخرين، فوقع العقد بثقـة وغرور متيقناً من أن الشروع بالعمل مـع الانجليـز، ولـو بخساره ، سيفتح لـه طريق العمـل الكبـ ـير مـع كبـار الشياطين. فما الضير إذن من التعامل مع شـيطان صـغير: اللـه يمسيك بالخير يا خواجا.

- من وين الخير يا رجـل. واللـ ـه، اللـي بستوطن بها البلد عمره ما بشوف الخير.

- ول. ليش مسوده الدنـيا بوجهـك يـا أبـو العبد..؟.

- كيف ما بدها تسود وما فيه زبون ببـ ـيض الوجه؟!..

- ولا حتى أنا ...؟

- إنـت غير. ولو فيك كـم خصـلة بتخلـي الواحد يقول أحسن لـه ما يقرب منك ولا يتعامل معك .

تقلب صقر ليلتها، كعـادتـه، كلما اضطر للجـوء إلى مال النبـي. هـيئ لـه أن مـدير النقطـة الرابعـة، والـمقيم الانجليزي من زبائن مال النبـي أو شركاء لـه . ظل على حيرته طيلة ليلته. هل يعود إلى مال النبـي ويقول لـه، توكلنا على اللـه، أو يبحث عن غيره خـارج عمـان وإن تطلب الأمر خارج شرق الأردن. لربـما يكون الأولى الانسحاب من المقاولة والتضحية بالغرامة المحددة بالعقد.

في الصباح وهو يتجه إلـى مكتبـه مكتئبـاً ضـيق الصدر، استقرت عيناه على آرمة البنك الكنعانـ ـي وكأنـه يشاهدها للمرة الأولى، رغم أنه عرف عن البنك أثناء ترميم المبنى وشاهد العمال يعلقون الآرمة وسمع من النـاس عـن بنك جديد في عمان، فساقته قدماه دون وعي إليـه، ليخبـره حسيب أن الأمر بـيد مديره العام سليمان .

ما أن لاحظ أبا سليمان يجلس في كرسي أمام المكتب الذي يتصدره سليمان حتى تصلب في مكانه ساكن العينـين، كذلك سليمان الذي أحس ببنـيانه ينضـغط فـي سروالـ ـه

الضيق. بـينما أبو سليمان الذي لم تتغير ملامحه إلا قلـيلاً طيلة السنوات يدير نظره بـين برنـيطة ابنه التي لم يعتدها للآن،وبـين كوفيه صقر البـيضاء التي لا يتميز فيها عـن أي فلاح.

في تلك اللحظة تحرك الدفء فـي صـدر صـقر وسليمان، بـينما كاد أبو سليمان يتقيأ قرفاً من ابنـه الـذي انحط مستواه ، وهو يأخذ صقر بالأحضان ويعانقه بحـرارة واشتياق. حينها فقط أحس أبو سليمان بالخجل من ابنه الـذي لم تحولـه الغربة ولا المصاري ولا البدلة ولا السيارة إلـى سيد مدنـي، عليه أن يغسل يديه كلما صافح فلاحـاً. ظـل يتفرس به عابساً وهو يتحاور مع صقر بحميمية وانسجام.

سوف يرهن الآليات لأمر البنك، وسوف يحول إليـه كل مقبوضاته من زبائنه أولاً بأول. هذه هي ضماناته.

لم يعط سليمان إجابة بالرفض أو القبول، قـال بـأن حجم التمويل المطلوب من صلاحيات مجلـس الإدارة فقـال صقر: قدامنا مدينة يا سليمان بدهـا تـنبنـى. لا تخلـي الفرصة تروح علي وعليك. فكر مليح قبل مـا أروح للبنـك اللي قدامك.

لكن أباه غيب عنه التفكير طيلة الطريق وهو يحذره من هذا الدعي الذي ما يزال كما يتذكره ، عتالاً في الميناء. إلا أن سليمان صارع بكل ما يستطيع من حجة وقدرة لإقناع الـمجلس. القروض والتسهيلات التي ستمنح لصقر مجديـة ومربحة ومضمونة. إنـها عملية كبـيرة لصـقر وللبنـك، سيوقع صقر على كمبـيالات بكل قرش يقبضـه. كمـا أن البنك سيخصم قروضه مما يستحق لصقر في المبنى المزمع للفرع. وسوف يشترط

في الاتفاقية معه على حريـة البنـك فـي التعـديل والإلغاء في أي وقت يتبـين فيه عدم قـدرة صـقر علـى الاستمرار أو إنه يتلاعب بالأموال.وقدم لصقر قرضاً مبدئياً بـمبلغ خمسة آلاف جنـيه. كانـت كافية لصقر حتى يبـدأ مشواره محمولاً على العجلات .

أصبح يتـنقل بسهولة في شاحنـته من موقع إلـى موقع، ينقل العمال والمواد والآلات والمستلزمات. كما أنـه اشترى كمية كبـيرة من براميل الأسمنـت وقضبان الحديد قام بتخزينها في الحوش خلف دكانه. دون أن تختل ورشاتـه

الأخرى في مواقع عديدة . أعاد بناء المسجد الـذي دمـره الزلزال متضرعاً إلى اللـه في كل عمل يقوم بـه، بعـدما خلصته معجزة من براثن الشيطان الذي تحول إلـى زبـون عنده، يرجوه الاستعجال للانـتهاء من مبنى سينما القلعـة، حتى يتقدم بالافتتاح على الختّام.

استخدم مساعداً إضافة إلى ابنه كما استخدم مسـاحاً لبنانـياً ومحاسباً عراقياً سهلا عليه أمور العمل التي صارت تتحول إلى أوراق وفي السجلات إلى أرقام.

كبر صقر على البنك الكنعانـي، بعملـه المتسـارع تسارع عجلات الآليات، وبتضخم طاقمه العامل الذي ضـم العشرات من البنائين الدائمين وأضعافهم من العمال المهـرة والصنايعية من قصارين ونجارين وبليطة ودهّانة .

لم يعد الدكان الذي يستخدمه مركزاً كافياً ولا مناسباً ، فاستأجر قطعة أرض بعيدة عن مجرى السيل بـ ـمساحة خمسة دونمات جنوب سوق الحلال وعلى سفح جبلي قليـل الانحدار في المصدار. قام بتسويرها ورفع بناء من الطـوب فيها ووضع آرمة كبـيرة فوق بوابتها كتـب فيهـا بـالخط العريض المضاء " صقر للإنشاءات" .

٢١

تـنقل تو بـين الكتاتيب قبل أن يستقر عند أم خليل، المشهورة بالحزم والقسـوة وتـرويض الأولاد الشـياطين. أعطت هذه النقلة جدواها، إذ تعلّم تو فك الحـروف وحفـظ العديد من الآيات، ولم تصل إلى أمه طيلة شهرين شـكاوى عن شقاوة ابنها المعروف بـين الجارات بسـوء تربـيته وجموح طفولته التي تـنعكس في مشاجراته العنـيفة مـع أبناء السيل. فإذا لم يشق رأس أحدهم جـاء لأمـه مفشـوخ الرأس نازف الأنف أو متورم العين، وقلما سلم من أحجـاره زجاج النوافذ التي يعشق تكسيرها عشقه للتحـدي وإثبـات قدرته على التصويب، فتـنهال أمه عليه ضـرباً بـيديها وركلاً برجليها وهو يقسم أغلظ الأيمان، بأنه قصد طيـراً أو ثمرة أو ثعباناً. ورغم أن العائلـة تتـزود مـن أراضـيها بـمختلف أنواع الفاكهة والخضار، ولـديهم فـي البسـتان زريـبة للمواشي وأخرى للدجاج وبرجاً للحمام، إلا أن تـو كان يستمتع بالسطو على بساتين الجيران وسـرقة بـيض الدجاج وزغاليل الحمام، دون فائدة ترتجى من عقـاب أمـه

التي لم تكن تجير الشكوى لمقصـود إلا إذا وصـل الأمـر للخناقة مع الجيران، فيندفع مقصود نحوه كالثور الـ ـهائج، ولا ينفك عنه إلا بعدما تتدخل أمه وجدته والجيران .

يهدأ بعدها تو نحو أسبوع ليعاود سيرته التي جمعت حولـه عدداً من الصبـية الأشقياء، فما كـان مـن نازلي إلا الحجر عليه في الكتايب التي لم تحتمل شقاوته إلى أن استقر أخيراً عند أم خليل .

كان صيت أم خليل شـائعاً بـ ـين الأولاد، وتعايش تو معه على الطبـيعة وهو يحـس بخيزرانـ ـتها تختطف نظره وتطلق تأخأخاته حتى لو كان العقاب لسـواه. فأم خليل تساعدها ابنـتيها، في الضبط والانـتظام أو تحفيظ القرآن، تعاقب على الإخفاق في التعلم بـمثل ما تعاقب على التأخر أو الغياب أو كسر الأغراض أو السـرقة أو التعـدي والتبول في الثياب . لـهذا وجد تو فـي انـتقالـ ـه إلـى المدرسة الحكومية خلاصاً من رعب الخيزرانة التي تـنهال بها أم خليل على الأقدام الرقيقة المشدودة إلى الفلقة، بـ ـينما يبكي المعاقب ويستجدي بأشد الأصوات التي يرتجـف مـن دويها عتاة الأولاد .

لم يحظ تو بالخلاص من أم خليل، فالمدرسـة التـي تطورت بالتحاقه بها لغته العربـية نطقاً وقـراءة وكتابـة، طورت أيضاً شقاوته لاختلاطـه بـأولاد يكبرونـه عمـراً وخبرات، ليتفرغ للشقاوة طيلة العطلة الصيفية التـي تمتـد ثلاثة أشهر. إلا أن الحارة لم تحتملـه ثلاثة أيـام، فأعـادت أمه الحجر عليه عند أم خليل .

هذه المرة ألحق بها لإبعاده عن الحارة طيلة عطلـة الصيف، وليس لتعلم القراءة وحفظ الآيـات، فهـذه أمـور تحتاجها أخته شهيرة التي التحقت بالكتّاب معـه، وربـما كانـت سبباً في عدم تمادي أم خليل بـمعاقبته. فشهيرة على جمالـها، كانـت وديعة كطير أليف، متألقة متأنقة ليس فيها من تو إلا بـياض بشرته، فغضت أم خليل الطرف عن كثير من مخالفاته وتجاوزاته، كما أن وجوده عندها لن يطول أكثر من ثلاثة شهور، شأن العديد من الأولاد الذين يرسلون فـي العطلة إلى الكتاتيب. لكن تو الذي جاءها متسـلحاً بأجوبـة حاسمة للعديد من التساؤلات، وخبرة اكتسبها من الأشـقياء، كان لا بد أن يصل بأم خليل إلى ذروة الـهيجان، فرجـع يوماً غير قادر على المشي بسوية. قال بأنه وقع أثناء تقافزه

على الدبش الذي يضعه الناس في مجرى السيل. أنبته أمـه على كسلـه. لم العجلة. كان عليه أن يعود عبر القنطرة ولو أطالت عليه الطريق .

في اليوم التالي رفض العودة إلى أم خليل، متـذرعاً تارة بوجع قدميه، وتارة أخرى بقسوة أم خليل التي تعاقـب على الالتفات أو حك الوجه أو تحريك الأطـراف، وبـين الفينة والفينة يلتفت إلى شهيرة التي ترتعش مـن نظراتـه، وهي متهيئة الثياب .

لم يجد إصرار أمه ولا صراخها في حملـه علـى العودة إلى أم خليل. ثارت ثائرتها وهو يتربع فـي الزاويـة حرناً، رافضاً الاستجابة مهما كانـت الأسباب. كيف سيترك أخته تذهب وحدها؟ هل يرضيه أن ترافقهـا أمـه بالـذهاب والإياب؟. وكانـت حجته حاضرة في إحـراج أمـه وهـو يسألـها، من سيرافقها بعدما تـنـتهي العطلة؟ ومـن كـان يرافقها قبلـها؟.

- صرت تعرف تجاوب سرسري .
- أنا لست سرسرياً .

- سرسري ونص، كيـف لا تكـون سرسرياً، وأبوك أكبر سرسري في عمان .

صعق مقصود. إنه للآن لم يتدخل بتربـية الأبناء، ولا يهمه إن تعلما أو دارا في الحارات. يقبل كل شيء إلا أن يجرح به لأمر لا يخصه: أنا سرسري؟.. سألـها والشـرر يتطاير من عينـيه.

- ماذا اذن؟ وأنـت داير على رأسـك ليـل نهار.

- إذا كنـت داير على رأسـي علـى مـاذا تدورين؟.

- هذا بدلاً من أن تقول لي، يعطيك العافية على هذا الشقاء الذي تسببه لي أنـت وأبناؤك .

- أنا لا أسبب لك أي شقاء، أهرب من وجهـك في الصباح، ولا أعود إلا بعدما يصل شخيرك محطة الترين .

- هذا الذي تجيده، وتحسـب نفسـك رجلاً .

- أنا رجل غصب عن أهل كل وادي السير.

- احترم حالك ولا تجيب سيرة أهـل وادي السير.

- وأنـت، احترمي حالك ولا تقـولي أنـي لست رجلاً .

- إذا كنـت رجلاً، ارجع ابنك لعند أم خليل.

رفعه من شعره، فصرخ تو باستجداء، ثـم حملـ ـه وهو على قعدته دون أن يفك تو ترابط قدميـه أو ذراعيـه. ألقاه في كابـينة التراي سايكل، تلحق به شهيرة مع حقيبتهـا والسفرطاس، بـينما تو يجهش بالبكاء مسترحماً: بابا، هادي بتضل تضربنـي من غير ذنب....دفع الانفعال مقصود إلى عرين أم خليل، ليعود من عندها وبرفقته تو يصفعه ويركلـه إلى داخل المنـزل بـينما نازلي تحول دونه وهـي تسـأل بذهول: ماذا ؟ ماذا حصل؟ احكي لي؟ وصـرخت بـأعلى صوتها: أحكي لي.

- لماذا أحكي لك، دعيه هو يحكي... بـينما تو يغطي رأسه براحتيه وهو بجهش بألم وخجل: هل تعـرفين لماذا تضربه أم خليل؟.

- لماذا ؟.

- عدي على أصابعك، أولاً ضبطته يكشف عـن شيئه للأولاد. ابن الحرام. بعدين ضبطته مراراً يتلصـص على البنات في المرحاض. الكلاب. مـن الآن يقـوم بهـذه الأشياء، فماذا سيفعل عندما يكبر؟ والأهم يـا بنـ ـت وادي السير، أنها مسكته في بـيت الخارج، ملعون أبـو بـ ـيت الخارج، ومعه اثنـين يحاولون أن يلوطوا بابن. هل تعرفي ابن من.؟.

- من .؟.

- ابن مدير النافعة، بدوه يحبسنـ ـي ابن الحرام، وبعده ما أبلغ.

صعقت نازلي، ومع هذا لم تعقب بكلمة ولا صرخت أو ثارت ثائرتها بل تهاوت على الطراحة الأرضية وظلـت ساهمة لوهلة قبل أن تـنفجر بالبكـاء، بـ ـمجرد خـروج

مقصود غاضبـاً يلعنها ويلعن سوء تربـيتها لابنـيها: هذه آخرتـها. يتربى الولد مثل أولاد وادي السير...

ما أن زعق عادم الموتور حتى ترجرجت نازلي مع البكاء، بـينما تو متربعاً في زاوية الجدار مطأطئ الـرأس وهو يبكي بخجل واستحياء.

لم تعد شهيرة لأم خليل في اليوم التالي، وظلت مـع تو لأسبوع داخل البـيت، لا يغادرانه إلا لقضاء حاجـة أو عندما تطلب أمهما أمراً، فيتسابقان فـي الاسـتجابة كسـباً لرضاها .

لكن حرصاً على تعليم شهيرة قراءة القرآن وهو أكثر ما تطمع به نازلي، ألحقتها بكتّاب آخر في الجوفة، بـينما تحرر تو نهائياً من الكتاتيب، وصارت الحـارات تسـتدعيه بـمجرد أن يزعق العادم.

لم يـحد الدوام المدرسي من مغامراته، ولا أجـدى معه العقاب وهو يغيب من حين لحين مـع مجموعـة مـن التلاميذ، التفوا حولـه رغبة بالمغـامرة أو طمعـاً بـما يحملـه من زاد ونقود، فوصلوا إلى الـهضاب الموحشـة البعيدة حيث تقع برك رومانـية محفورة فـي الصـخور .

تمتلئ بالماء في الشتاء. ورغم الحكايات التي ترددها الألسن عن غرق العديد من الأولاد في مياهها الراكدة الخضراء، إلا أن ذلك لم يحل دون نـزول تـو إليها وتعلم السباحة فيهـا وهو يشتد عوداً ويزداد جموحاً مع الأيام.

٢٢

في غمرة انشغاله بالتأسيس نسي سليمان أمر الختّام. لم يستذكره إلا بعد افتتاح الفرع، عندما اتخذ أمره على النزول إلى البلدة والترويج لبنكه الجديد بين التجار. تماماً مثلما كانت بدايته في القدس. لكنه قبل أن يشرع جاءه صقر، ليكون أول المقترضين الكبار الذين ابتدأ بهم أعماله، بتمويل امتص حجماً كبيراً من سيولته النقدية، فقرر مجلس الإدارة إيقاف التسهيلات والتركيز على تنمية ودائع الفرع. مع هذا لم يسقط الختّام من برنامج زياراته التي كان يعد لها حسيب قبل وصوله .

أدهشه عند وصوله المبنى، العمل الدؤوب المتواصل فيه، ليس بالترميم وإعادة البناء فحسب، وإنما في نهوض الأعمدة الأسمنتية فوق المبنى لبناء طابق جديد.

استقبله الختّام بترحاب، لكن بغطرسة واضحة، وهو يحمد الله على عدم الاقتراض من البنوك. تيسرت أموره وأسعفه القدر بشريك لا تأكل ثروته النيران.

تم الانـتهاء من هدم الأجزاء الآيلة للسقوط، وتقوية الاساسات لرفع طابق ثالث جديد، سـيجعل المبنـى سـوقاً تجارياً. مشروعاً جديداً لا مثيل لـه في العاصمة الجديـدة، وعلى السطح ستقوم صالة مغلقة بالخشب لعـرض الأفـلام السينمائية. جاب، لتشغيلـها، موتوراً كهربائياً مـن حيفـا، سينـير المبنى بأكملـه.

بعد اخفاقه بالحصول على التمويل البنكي عاد إلـى دمشق، ليؤنبه بديل تولا على الإسراف، بنبرة متعالية جلفة. إنه مدين لفرنسا، ولم يقدم شيئاً لقاء ما أعطي مـن أمـوال وخدمات. أحس من النبرة الحادة وملامح الفرنسي القاسـية بالخطر يتهدده، فعاد في ليلتها إلى عمان. أفصح عن مخاوفه لزوجته، فهدأت منه. الفرنسي يلجأ الآن للعصا بعـدما قـدم الجزرة. لو كان يريد به شراً لاعتقلـه بالحال، أو حجر عليه في الشام. قرأ في جريدة اليوم التالي عن التعاون الأمنـي بـين سلطتي الانـتداب الفرنسية والانجليزية : رحنا دعس بـين الإجرين.

- لشو يا لطيف؟. لا انـت خـاين ولا مطلوب .

- قصدي العمارة ما راح تقـوم. كـل مصارينا بـمصرين الناس .

- أول على آخر بدك تسـتدهم، لشـو خايف ؟ .

- والعمارة، تضل هيك كوم حجار؟.

- إي متل ما أنـت مدين الناس، لاقي لك حدا يدينّك مثل الناس.

- أعوذ باللـه، مستعد أبـيعها ولا أتدين من هادا المرابـي .

- أنوه مرابـي .

على عكس عادته، استقبله مال النبـي بترحـاب. صافحه بحرارة وطلب من ابنه عبـد اللطيـف أن يوصـي سريعاً على الشاي. لم ينـتظر مال النبـي أن يبدأ الختـام، بل باغته دون مقدمات: درت، درت، ورجعت لعندي.

كانـت هذه التقدمة التي لا يعرف الختام مغزاهـا، يستخدمها مال النبـي عندما يتيقن من انعدام الخيارات لـدى مراجعيه. يكفي عودتهم إليه ثانـية موافقين علـى شـروطه دون تحفظ أو احتجـاج، كـي يفـاجئهم بتغيـر الظـروف

والأوضاع وحجم الأموال وضمانات التسديد، والأهم مقـدار الفائدة التي تتصاعد بـين ليلة وضحاها، هـذا هـو عـالم الأموال.

تمنى في قرارة نفسه أن يتأخر ابنه بالشـاي، حتـى ينشف ريق الختام فتستعصي عليه الكلمات ويسأل ويجيـب بالإيماءات، لكن عودة عبد اللطيف السريعة ليسألـه إن كان يرغب الشاي مع سكر أو بدونه بلبلت أفكاره، وبـمجرد أن نفضه بـيده قائلاً: كلـه واحد. أطل فريد .

مع أن الشراكة بـين الرجلين اقتصرت على تجارة المخدرات ، ولو تخللـها أحياناً صفقات إضافية عـابرة، إلا أنها ظلت وستظل بعيدة عن تجارة الأموال. هذا شأن خاص بـمال النبـي وحده لا يشارك به أحداً ولا حتى ابنه البليـد عبد اللطيف. بـيع الأموال بالنسبة إليه حالة فطريـة عنـد اليهود. غدت موروثاً حضارياً وقيمة أخلاقية، وهـو مـا لا يتوافر لفريد، وإن كان جشعاً طموحاً مغامراً يعشق السـلطة والمال. هذا يجعل نفسيته أقرب إلى رجال الأعمال أكثر منها إلى تجار الأموال. على عكس مال النبـي، الذي يعتبر نفسه حذراً في صك النقود، حريصاً بإبرام العقود. إنه يعتبر فريد

عجولاً يحاول استباق الوقت بالمغامرة، وهذا يتـ ـنافى مـع تجارة النقود التي تحتاج إلـى التمهـل واسـتثمار الوقـت بالمراوغة .

فريد لا يعي هذه المفارقة، ويظن بـأن القـوة فقـط بامتلاك النقود وسرعة الحصول عليها ولـو جـاءت بهـا الشياطين. بـينما مال النبـي، بحسه الفكري، يعتبر القـوة في إدارة النقود التي لا تشيخ بل تواصل الإنجاب مع مضي السنـين. هذا اليقين يجعلـه ينأى بنفسه عن الخشـية مـن فريد، ومع هذا عجز عن إخفاء حرجـه وارتباكـه لـ ـهذه الزيارة المفاجئة ولم يتمكن من فريسته بعد.

حياه فريد باستعلاء، كذلك حيا الختّام، واتخذ مجلسه على كرسي مقابل لـه: ما أكون قطعت عليكم الحكي.

- أبداً أبداً، انـت صاحب محل.

- كملوا كملوا ...

- ما فيه شي مستعجل ... عقب مـال النبـ ـي بـينما فريد يتـناول سيجارة ويمد البكيت إلى الختّام : شكراً ، ما بدخن .

- أحسن لك .... وأعاد البكيت إلى جيبه

- بتحب أمر عليك بعدين ... قال الختّـام لمـال النبـي ، وهو أكثر استعجالاً منه لإنهاء الأمر، بـينما يشعل فريد سيجارته.

- مثل ما بدك ...

نفث فريد الدخان في وجه الختّام : شو إذا حضـرت الشياطين هربت الملائكة... ورمى الختّـام بنظـرة قاسـية أربكته، فسارع الختّام إلى القول: لا، لا ، استغفر اللـ ـه ، كنـت جاي أدردش مع أبوالعبد عن مصلحة متفقين عليهـا من زمان. جحظت عينا مال النبـي: شو اللي اتفقنـا عليـه صابر بـيك.

- قصدي الحكي اللي صار بـينا قبل مدة ...

استرخى فريد في جلسته واضعاً ساقاً فوق الأخـرى وهو ينظر شزراً للختّام الذي بدا عليه الارتباك.

سادت لحظة صمت، ظل خلالـها الختّام ينظر فـي وجه مال النبـي وكأنه ينـتظر من ملامحه علامة ايجـاب. بـينما انشغل مال النبـي يتفقـد محتويـات درج مكتبـه، متصنعاً البحث عن شيء مرتبط بالحالة التي أدركها فريد من غير عناء. هب واقفاً فتعلقت به الأنظار وهو يستدير ويخطو

نحو الباب. توقف أمامه وسحب من سيجارته بعمق محملقـاً بالمارة، مبدياً عدم الاكتراث: شو قلت ؟ .. سأل الختّام.

- وا ... ما بتقدر تأجل الحكي بالموضـوع لبعدين.

التفت الختّام نحو فريد الذي أعطى ظهره لـهما، ثم قال بصوت سريع خفيف، امتصته بكل حروفه أذنـا فريـد: المهم بعدك على وعدك والا لأ.

- ما بقدر أحكي هلأ.

- يعنـي تراجعت ؟.

- قلت لك ، خلينا نحكي بعدين.

- شوف ، شوف.... قال فريد بصوتٍ عالٍ وهو يتجه بأنظاره إلى رجل يصفع صبـ ـياً يقـوده أمامـه ... فاتجهت أنظار مال النبـي الختّام نحو الباب: كأنك تراجعت.

- مـا تراجعت يا صابر بـيك، بس إزا بـدنا نحكي بالموضوع لازم نـتفق من أول وجديد... قـال وقـد انكمش الحذر في نفسه قليلاً .

- من أول وجديد؟... تساءل الختّام باسـتهجان أقرب إلى الدهشة.

-          يعنـي مش كل يوم مثل اللي قبلـه . أسعار السوق اليوم مش مثل الأسعار قبل أسبوع.

-          مين قال؟! ما تغيرت الأسعار مـن شـهر...

علاق فريد من موقعه، منهياً بذلك الحوار.

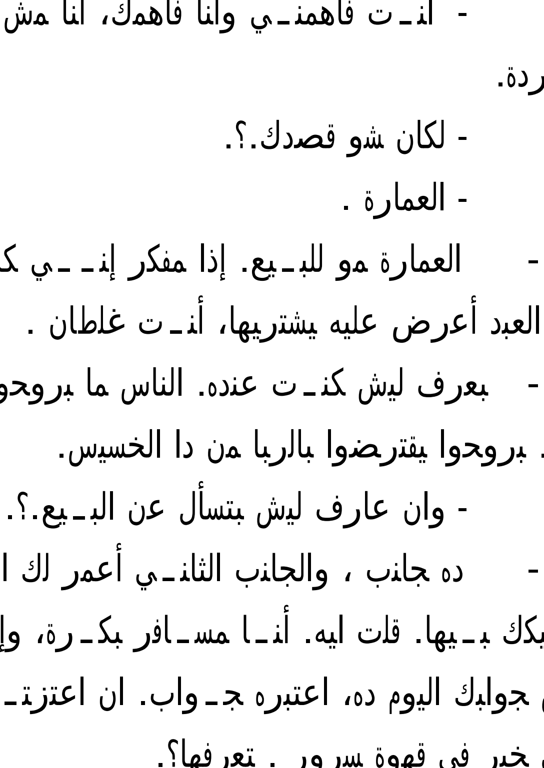
- ماشي

- فكر بالموضوع.

لكن فريد حول تفكير الختّام، ولم يمض علـى مغادرته المحل سوى ساعات. جاءه إلى المبنـى المتـداعي وهو يجلس حائراً بـين البضائع الناجية من الزلـزال وقـد عرضت بطريقة فوضوية في أحد الأركان التي لم يطالـ ـها الدمار.

حياه باستعلاء، بـينما يحملق به صابر متوجساً من رهبة شخصه الطاغية، وبـمجرد أن رد الختّام على التحية، قال فريد: اسمع ، من غير أخذ ورد. أنـا شـرا إن عـاوز تبـيع .

- كل شي معروض للبـيع... ومـد ذراعـه باستدارة باسطاً كفه باتجاه المعروضات.



- انـت فاهمنـي وأنا فاهمك، أنا مش بتـاع خردة.

- لكان شو قصدك.؟.

- العمارة .

- العمارة مو للبـيع. إذا مفكر إنـي كنـت عند أبو العبد أعرض عليه يشتريها، أنـت غلطان .

- بعرف ليش كنـت عنده. الناس ما بروحوا ليـه يبـيعوا. بروحوا يقترضوا بالربا من دا الخسيس.

- وان عارف ليش بتسأل عن البـيع.؟.

- ده جانب ، والجانب الثانـي أعمر لك البنايـة وأنا شريكك بـيها. قلت ايه. أنـا مسـافر بكـرة، وإن مـا استلمتش جوابك اليوم ده، اعتبره جـواب. ان اعتزتـنـي اترك لي خبر في قهوة سرور . تعرفها؟.

٢٣

كان يكره عمان ويتجنب المـرور فـي أسـواقها ، باستثناء سوق الـحلال غرب البلدة، حيـث يلتقـي بتجـار الحبوب والبهائم، فيشتري حاجته نقداً أو يبادلـها بالغلال.

قايض يومـاً شيخاً نوريـاً بـمئة صاع حنطة مقابل خمسة حمير أخذت عقل المتسوقين لحيويتها واهتياجها وهي تضرب حوافرها بالأرض وتتقافز في مرابطها تريد الإفلات، وكأنها جياد برية تقاوم الترويض. حسده البعض على هـذه الصفقة، وعبرت وجوه آخرين عـن مـرح يشـوبه هـزء واستخفاف.

أحس بالرضا وهو يقودها للقبة متقافزة مترافسة، تغذ السير مع الحبل المربوطة به إلى قربوس سرجه، متجـاوزة أحياناً سرعة الجواد. فيزداد الرضى في نفسه وهو يتخيلـها تخفف عن بغالـه أحمالـها. لكنه ولم يبتعد بها بضعة كيلـو مترات حتى تهاوى أولـها منهكاً بعد أن سلح روثه، كـذلك حل بالأربعة الباقين: يا شيخ، منوه يشتري من النور حمير.

يدگّوا فيها الفلفل اللي يخليها تـنط مثل الشياطين، وبعـدين القيامة ما تقومها .

آخذ نفسه على عباطته وازداد انكماشاً وانطواء وهو يهرب كل يوم من القبة إلى أراضي السـيل.حتـى الحميـر يعجز عن اختيارها بعدما أعجزته القبة عن إصلاحها، ومـا يزال يومض في ذهنه حلم أبـيه في تحويلـها إلى حاضرة مثل الشام، بـينما تـنشأ قريباً منها بلدة جديدة تزداد نمـواً مع الأيام .

كان يحس داخل نفسه بالخذلان، فهو وإن كان قـوي البنـية شديد البأس يزيد على أبـ ـيه تجربـة فـي القتـال والتجوال ، إلا أنه كان أضعف إرادة منه، وإلا كيف تحـول رجا الصليبـي إلى حكاية في المضافات. لم يكن لديه مـن الامكانـيات سوى زنديه. بـينما هو الـذي ورث الأمـوال والأطيان واستخدم الأدلاء والخبراء، لم ينجح إلا فـي حفـر بئر ماء وبناء هذه الدار التي ألحقت بعائلته الدمار. ربـ ـما كانـت الأرض كالإنسان، تعطي من تحب وتحجـم عمـن تكره. أحبت القبة رجا الصليبـ ـي الـذي منحهـا قدرتـه واقتداره. كان وفياً لـها فخضعت إليه وأغدقت عليه، وظلت

على وفائها بعدما صار صاحبها ومالكها. ولما عـز عليـه الدواء وخبا في قلبه الرجاء آثر أن يدفن من غير شاهد فيها، علّ فرحان يحييها " من غير شاهد من غير شاهد" . ولمـاذا يحتاج لشاهد على موته وقد ضاع حبه؟. لـو كـان مثلـ ـه يحبها، لما هجرها وراح يتلذذ بـملاحقة معاكسيها والانـتقام من معترضيها، بدلاً من أن يرث عن أبـيه وفاءه وهـواه. بـماذا يمكن أن تقابلـه وقد أفجعه موت أبـيه أكثـر ممـا أفجعه عناؤها وأنـينها؟. عاد إليها مغسولاً بالـدماء، وهـي تشتهي من السماء قطرة ماء. عاد إليهـا قـاتلاً، ليحولـ ـها لحظة وصولـه إلى جبانة بدلاً من أن يبعث فيها الحياة .

لقد خذل أباه قبل أن يخذلـها . لا يـريدها حاضرة مثل الشام، بل يقبل بها مثل عمان. إيه. ابتعاده عنهـا أقـام حاجزاً بـينه وبـينها، وخاق نفوراً لا تحتملـ ـه رفقتهمـا. القبة التي كانـت مطمع السلطان، صارت عجوزاً بـ ـينما تزداد نضارة وشباباً عمان. كانـت القبة بسـاطاً مصـبوغاً بلون الصليبـية، وإن تشرشبت أطرافه بالجبـيلية، أما عمان فإنـها سجادة عجمية، أصباغها متـنوعة وألوانها متعـددة، وشراشيبها تصل الشام وبـيروت والقدس وبغداد ومقصود.

إنه يكرهها، ولولا ضجره من شكاوى تـمام لما جاء إليهـا في الشهر مرة، ولربـما أناب عنه مسلم للتردد على سـوق الحلال. فكلما عبر طرقاتها تطل عليه ذكرى بـيع الملـح، وشراء الحمير. حتى أراضي السيل التي يهرب إليهـا مـن القبة وتمام ، ورثها عن أبـيه. فماذا ورث عنه مرزوق .؟.

كان يتجه بركوبته بـمحاذاة سكة الحديد، ليصل إلى شرق عمان دون عبور أسواقها أو محطتها، فيقضـي طيلـة يومه مع فلاحيه. يستقبلونه استقبال سيد مهيـب ويشـاركهم العمل كفلاح عنـيد، فيزداد هيبة وسطوة ويزدادون عمـلاً وانـتاجاً. يحس في هذه الإقطاعية النائية بلذة انجازه بـينما يحس في القبة بالإخفاق والخذلان .

- خاوينـي يا شيخ .
- بحق المسيح ما تظلي تسمعينـي هيك حكي.
- يلزمك حرمة مش منقوصة يا شيخ .
- متى ودك تـنـزل لينا يا يسـوع تزلـزل الأرض بـينا .
- زعلت لأنـي ابغي راحتك يا شيخ ؟ .
- راحتي تضبـي لسانك والا أقصه ليك .

- ما ظل غير تقص لسانـي بعد ...

- اسمعي يا أم مرزوق، آنـي ما ظل ببـالي شي. بحق المسيح لا تزيديها علي.

- هاظا اللي مخلينـي أتأسف ع حالي .

- لويش تتأسفي، عمـري شـكيت منـك يـا حرمة؟.

- ما هو هاظا اللي ذابحنـي، واللـه لو يطلع بإيدي غير أجوزك بروحي .

- ما واخذ عقلك غير سالفة هند اللاطيفات.

- ويش بـيها سالفة هند.؟.

- ما بـيها شي. بس حنا النصارى ما نقـدر على هيك حكي.

- لعاد نسلم وتتجوز علي.

- اشهد أن لا إلـه إلا ا . عاجبك، هـاي أنـا بكلمتين صرت مسلم. بخاطرك. ودي أنام بحوش الدار.

لكنه لم يذهب للنوم، بل اتجه إلى البايكة، حيث يأوي مسلم.نادى عليه من الباب فجاء مسلم مـذعوراً: اسـمع يـا مسلم، إنـت صار ليك عندنا سنـين، ما سألتك يـوم عـن

أصلك ولا فصلك ولا إنـت هرجت لي يوم عن ربعك. مـا أدري إن كنـت تركي ولو جيتـنـي بسلاح تركي، انطلـع بوجهي. ما قصدي أذكرك باللي سـويته ولا يهمنـ ـي إش ودك تسوي، ترى انـت لا قطروز ولا عبد. الحرب خلصت من سنـين. أخذت عنـي الفلاحة وانطيتـنـ ـي بدالـ ـها كثير. صرت من أهل الدار وتحكي حكي العربان. أنـت حر من يوم حطيت بديرتي وحر يوم ودك ترجع لديرتك، ويـش تقول؟

- تريدنـي أمشي يا شيخ ؟

- لا تضيق خلقي مثل خالتك أم مرزوق. إفهمني زين، إن كنـت تريد تعاود لربعك، أنا اللـي يوديـك، وإن تبغي تظل يمنا لزوم نجوزك يا ولد. ويش تقول؟.

- انـت اللي تقول يا شيخ.

- انا أشوف انك تتجوز، ومن هالساع، تدور ليك أم مرزوق على عروسة زين. فاهم؟ .

في غيابه تجرأ مسلم على الإفصاح. استجدى تـمام كي تخلصه من هذه الورطة. إنه لا يريد الزواج لكنه خشـي معارضة رغبة الشيخ . كاد يبكي وهو يقول: إن كـان وده

أمشي، أمشي على طول، بس جواز مانـي مسـتعد ليـه هالحين .

ضربت تـمام على صدرها بعد أن أدار لـها ظهره :كنا بواحد صرنا باثنـين.

إنها رغم يقينها من عفة فرحان، إلا أنها لم تسقط من ظنونها فحولته: اللي صاح لـه يتسلى مع فلاحات السـيل، وده يتطلع على وحده منقوصة. لكن عندما يصل فرحان مع الغروب منهكاً مكتئباً متسخ الثياب تـنـزاح عنها الظنـون لتستوليها الـهموم: ما عدت مثل أول يا شيخ.

- منوه قال ؟

- إجري اللي تقول.

- ويش بـيها، تمشي زين وتـنقلك زين.

- بس شكلي ما عاد زين.

- عاودنا للسالفة !.

- يلزمك حرمة غيري تدفيك يا شيخ.

- بحق المسيح ما تزيديها علي . قلت لك ميـة مرة مالي نفس بشي.

- ولا مسلم نفسه بشي.

صفن محملقاً بها، فأوضحت وهو تـنفض الغطـاء للأعلى : ما وده يتجوز.

- لويش ؟.

- ويش درانـي... عقبت وهـي تـنـزلق تحت الغطاء : يمكن خربان .

٢٤

تخيل أثناء الطريق، صوراً مشرقة للحارثيين. كانوا قوة الدولة العلّية على مدار قرنين من الزمان. يأمنون سلامة الطرق، ويحمون موظفي السلطنة، ويتصدون لنزول القراصنة على الشطآن. هيأ نفسه للقاء شيخهم نعمان، مثلما يفعل في مقابلة حميه الشيخ زعل. الشيخ شيخ، سواء أكان يقطن الصحراء أم المرتفعات أم هذا الوادي الخصيب المشهور بالترمس والبطيخ: ما ظنيت نلحق نرجع مع آذان المغرب...

عقب سيف: أصلاً ما راح يسمحوا لنا نرجع. أكيد راح يفطرونا معهم، ولو أني بحب أفطر في جمعة رمضان مع عيلتي .

كان المفتي، الذي قبض برئاسته للمجلس الإسلامي على مقدرات الأوقاف، وهيمن على القضاء الشرعي، قد

تعاظمت سلطته وازداد نفوذه، مما رفع وتيرة " جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ". أوكل لسيف رئاستها ليجوب مع أعضائها القرى الفلسطينـية من أجل توعيـة الفلاحـين بقضيتهم وحثهم على التمسك بأراضـيهم وتحـذيرهم مـن السماسرة المأجورين للانجليز واليهود.

ألقى هذا بـمسؤولية كبـيرة على سيف ،الذي صار يتـنقل باستمرار تاركاً أمر الجريدة لأبـي جبران، ومهملاً شؤون البـيت الذي تتولاه زوجته، وأمـلاك العائلـة التـي تتولاها أمه.

حقق بعض النجاحات مع قلة من الفلاحين، إلا أنـه، في الغالب، كان يخفق في مسعاه نظـراً لحـذق السماسـرة وضيق حال الفلاحين الذين يضطرون لبـيع بعض أراضيهم وأحياناً مجملـها ، إذا اضطرهم المحل لذلك أو فتكت الأوبئة بـمحاصيلـهم ومواشيهم. لـهذا لم يتأخر فـي الاسـتجابة للصرخة التي أرسلـها شيخ الحـارثيين مسـتغيثاً بـالمفتي لنجدته بعدما أشعرته سلطات الانـتداب بضـرورة إخـلاء الوادي المملوك لعائلة طيان اللبنانـية .

كانـت الطريق على انبساطها وعرة، تـنـتشر فيها مستـنقعات داكنة مثل طفح جلدي يتطاير حولـها بعـوض بحجم الفراش، وأزيز القمع يعلو على صوت محرك السيارة بـينما تعرق سيف وصحبه بسبب إحكام إغلاق النوافذ، وهي تتجاوز بـهم مساكن الـحارثيين المتوزعة في مجموعـات من خيام الخيش ورقع القماش، وأخرى من أعواد القصـب المهترئة وسعف النخيل القـذرة المسـودة. أمـا السـكان، فرجالـهم رثاث الثياب، بشرتهم حنطية، أقرب إلى الفلاحين منها إلى البدو، والنساء في ثياب مهلـهلة قذرة، سـافرات، يشع البؤس في وجوههن رغم سيماء الجمال، أما الصـغار فمعظمهم عراة أو شبه عـراة، وعلـى جانبـي الطريـق تجاورت كتل براز البشر مع روث الحيوانات .

هيئ لسيف ومرافقيه أن الزمان انـتقل بـهم إلـى الوراء: معقول هدول عايشين بـنص فلسـطين، وحـواليهم شواطىء وسهول وجبال بجيها السواح مـن كـل الدنـيا؟ معقول هدول عايشين بهاي الدنـيا يا جماعة؟ .

- ترى البرش يا اخوان يخليك تحلم بكل ما هو حلو، ويقوى الذاكرة ويطلق اللسان بالغنا والقصيد... وسحب

الشيخ نعمان نفساً من غليون يعمره لـه فتى أبـيض عاري الثياب .

- قلنا يمكن نلاقيكم صايمين ... قـال سـيف بامتعاض.

- إحنا نصوم عن الخمر برمضان، وعـن كـل شي يوم الجمعة، مش للمغرب وبس. للعشا يا أفندي.

- وهادا الدخان.؟.

- الدخان ما يفطّر، بعدين هادا ما هو دخـان، قلت لك برش ينعش الراس.

- يعنـي حضرتك بعدك صايم وراح تفطر مع أذان العشا.

- إي. مثلي مثل باقي الرجال. بس النسوان ما عليهم إثم لو أفطروا الجمعة. ترى العـادة نجـس كبـيـر، تـنفر الإنس والجن،كيف مع ملائكة الرحمن؟؟ إيش كنـت تقول أفندينا.

- لحقت تـنسى يا شيخ، على حساب، البرش يقوي الذاكرة ويقوي اللسان .

- إي باللـه ، تاخذ سحبة .

- اسحب لحالك... أضاف بحدة: أولاً أنا صايم، والصيام عندي كل شهر رمضان مش يـوم الجمعـة بـس. بعدين أنا ما بدخن لا تبغ ولا برش ولا سخام البـين.

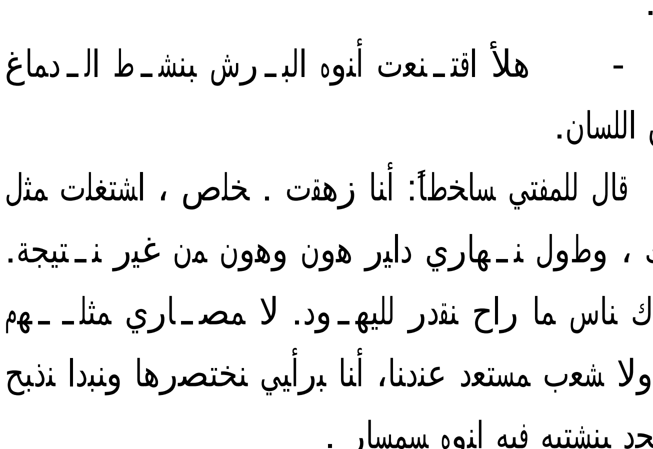
- إنـت حر.

- أنا حر. بس إنـت مش حر. عامل حالك شيخ وهادا البرش لا مخليك تفكر ولا تتذكر ولا تحكي، وحواليك مساكين مش لاقيين عجنة طحين. وتحت اجريـك عبـيد وغلمان بـيخدموك وإنـت متلقح مثل القتيل، وبتستـنجد فينا منشان نساعدك حتى ما يشلحوك اليهود أراضيك، خاف ربك يا رجل .

- أنا أخاف ربـي . بس شو أسوي؟ أحـارب الانجليز؟.

- لا تحارب الانجليز. حارب الشـيطان اللـي مرخيك. على حالك هادي، مليح اللي تذكرت أنوه فيه نـاس يمكن ينجدوك، ولما نوصلك بنلاقيك مفطر بالشهر الفضـيل وقاعد تدخن هادا البرش اللي مثل الأفيون .

- أفيون ايش وبطيخ ايش، لو ما ها البرش يمكن فقع قلبـي من اللي صار. كنا قاعدين مستريحين مسـتورين



لومـا عملة الطيان ورهنه أراضينا لليهود، قضيتـنا بـين إيدين المسلمين، يا تـنجدونا وتدفعوا الرهن يا راحت كلـها لليهود.

- هلأ اقتـنعت أنوه البـرش بنشـط الـدماغ وبطلق اللسان.

قال للمفتي ساخطاً: أنا زهقت . خاص ، اشتغلت مثل ما بدك ، وطول نـهاري داير هون وهون من غير نـتيجة. مع هيك ناس ما راح نقدر لليهـود. لا مصـاري مثلـهم معنا، ولا شعب مستعد عندنا، أنا برأيي نختصرها ونبدا نذبح كل واحد بنشتبه فيه إنوه سمسار .

٢٥

تداعت معنويات بكر في معسكر المـزة وانـتابه الحنـين إلى الدرك. حينئذاك، أضافت بزته العسكرية الكثير لروحه المعنوية وحياته الاجتماعية. أما في المزة ، فأصـغر رتبة فرنسية تأمر أعلى رتبة سورية. وإذا اضطره الواجـب للقاء قادته الفرنسيين فعليه أن يحمد ربه إذا تمخـض اللقـاء عن الزجر أو الإهانة فحسـب. إذ صـار عقـاب الجنـود السوريين يمتّع رؤساءهم الفرنسيين بـمثل ما يساعدهم فـي الترويض. غدا أسـلوباً عسكرياً معتاداً لدى الرؤساء الطغاة والمرؤوسين الذين يكلفون بأحقر المهمات. على العكس تماماً من الخدمة في الدرك، حيث كان أفراد القوة في مجمـوعهم من السوريين وإن تربع على رأسها قادة فرنسيون.

لم يعد يشعر بالعزة التي كانـت تتألق بها ملامحـه في طريقه بـين البـيت وموقع الخدمة. كما لم تعد دواخلـه تتلون بالأمجاد التي تعهدت بها الأحلام للآتي من الأيام. فهو لا يرى نفسه نصيراً للمظلومين، بل واحداً مـنهم، وإذا مـا أظلم يومه يلقي في عتمة ليلـه باللائمة على حظـه وسـوء

طالعه. إنه لا يعرف عن أبـيه إلا قصة شنقه التي تسـتيقظ في مخيلته من حين لحين. لكن ليس بالقدر الذي تستيقظ فيـه صرخات أمه في مهجع الشيخ الضرير. لا طفولة ولا صـبا ولا شباب. حتى العائلة اقتصرت على أمـه بعـد أن غـاب عدنان عن الشام أو سافر منها أو مات. أما تلـك الومضـة الخاطفة الكاذبة التي جعلتـه يصـدق أن بزتـه العسـكرية ستحملـه إلى مواقع الأسياد، فإنها نقلته إلى موقع الاستعباد .

توكل لـه أوضع المهمات مع تغير الأمزجة وفوران دم الرتب العسكرية التي تجد في الصغار أعمق الآبار لرمي ماحاق بهم من قذارات. كل ذلك أهون من تدرع الفرنسـيين به وأقرانه في إغارتهم على الأرياف كلما استـنجد بـ ـهم الدرك لقمـع عصـيان مدنـ ـي أو مطـاردة اللصـوص والخارجين على القانون. فيدفعون إلى المقدمة ليكونوا طعماً لـهؤلاء المتربصين، وكثيراً مـا سـقط مـن السـوريين برصاص السوريين قبل أن يطبق الفرنسيون على الكمـين. فليست مشاهد الموت هي التي تعذبه، وإنما شبح أبـيه الذي سيق إلى المشنقة وهو يصرخ: أنا بريء أنا بـريء. مـن يدري كم بريء قتله الفرنسيون؟. راودتـه مـراراً فكـرة

الارتداد والعصيان، وإذا ما تقيأت معدته من قسوة المعاملـة التي يلقاها المواطنون على يد الفرنسيين تراوده فكرة الفرار من الخدمة والانضمام إلى عصابات الأرياف ولو كانوا قطاع طرق ولصوص. فيصل البـيت مهدوداً، يزيد مـن نقمتـه تأنـيب أمـه لـه وهي تظن أنها تواسيه: يا حبـيبـي لـو مشيت مثل ما بدهم في مزيريب .. تثور ثائرته. ليس

لأنه نادم على سلوكه ولكـن لأنـه مثـل رؤسـائه الفرنسيين أو جنودهم المتميزين، لا يجد من يفـرغ شـحنة قهره إلا بهذه الأرض الرحبة التي أنبتته وستظل ترعاه حتى لو مال جذعه في خريف الأيام: ليش أنا شو سـويت؟ بـدك ايانـي أتبلى العالم، وإنت اللي بعدك بتشكي من ظلم الشيخ. لا تـزيديها علي، أنا ما عم بشكي . عم بحكي. فاهمة عـم بحكي وبس.

فـي اختلائه مع نفسه تـنتابه ومضات متـناقضة من الندم والاستسلام والرغبة في الانتقام. فهو وإن لم يخطر بباله يوماً ولوج مبنى البغاء القريب من المعسـكر، إلا أنـه كان يحس بالدونـية كلما مر من أمامه طالمـا أن ارتيـاده

قاصر على الفرنسيين ومحظور على السوريين، مع أن بغاياه في معظمهن سوريات. وأكثر ما يغيظه، أحاديث رفاقه، من أبناء جلدته، عن مومسات الطرقات اللواتي يؤثرن الفرنسيين ويتهافتن لامتاعهم ولو بالمجان، بينما لا تتوانى الواحدة فيهن عن فضح السوري وجمع الجيران عليه حتى لو كان متدرعاً ببزته التي ستجلب له العقاب بمثل ما ستعود عليه بالعار.

إذا ما لمح في طريقه الجنود الفرنسيين يؤمون بيت البغايا ضاحكين مستهزئين أو مغادرين سكارى مترنحين، تزداد في نفسه مشاعر النقمة على الزبائن والبائعات. وإذا ما أنزل عقاب السجن أو الجلد أو الطرد بالمجندين السوريين، تستكين بواطنه تحت ثقل الخذلان. مجنون من يستخف بهذه العظمة التي تبرطم شفاهها بأصوات أقرب إلى أصوات النساء. فالقوة ليست باللسان، وإنما بالأثقال المسلحة المصفحة التي استعبدت رجال سوريا واستباحت نساءها واستولت على خيراتها. ولولا المعاش الذي يقدم إليه مغموساً بالإذلال لانفتحت صفحات حكايته القديمة وعادت أمه لخدمة البيوت . وإذا

ما أوصدت دونـها، سيظل مفتوحاً على مصـراعيه بيـت العاهرات. فشرفه العسكري أهون عليه بكثير مـن شـرفه العائلي. هكذا هي طبيعته منذ الصغر أو أنه نشأ متطبعاً بها، فهل سيتغير وقد كبر؟. لقد تعلق مصيره برغيف يعجز عـن الوصول إليه بغير هذا المعاش الحقير.

عندما استدعاه النفير للتهيؤ والاستعداد، كان قد ابتدأ للتو استراحة الغداء التي تـنتهي بتـناول طعامه الـرديء من الخبز الجاف السميك والعدس الغنـي بالقمل .

حملت الشاحنة مفرزة فرنسية مسلحة ببنادق جنـيدر بيـنما تعلق على جوانبها من الخارج الجنـود السـوريون مستـنديـن بأرجلهم إلى رفراف خشبي مهترىء يـنخره السوس ومتسلحيـن ببنادق شنـيدر عتيقة. تتقـدمهم جيـب صغيرة جلس فيها ضابط فرنسي ومن خلفه جنديان فرنسيان مستحكمان خلف مدفع رشاش من نوع لويس.

اندلعت المظاهرات في دمشق ضد وزارة الشيخ تاج الديـن الذي سعى لإجراء انتخابات نـيابية وفقاً لترتيبـات الفرنسييـن، بغرض توقيع المعاهدة التـي تـربط السياسـة السورية بالسياسة الفرنسية.

كانت دهشـة بكـر لا تقـل عـن دهشـة رفاقـه السورييـن، وهم يشاهدون بيـن المتظاهريـن عشـرات النساء السافرات، يهتفن جنباً إلى جنب مع الرجال المناديـن بإسقاط الانتداب. أوصلت الجرأة إلى النساء ؟!.

أطلق الرصاص بـالهواء وانـدفع العسـاكر نحـو المتظاهريـن المبعثريـن هنا وهناك في مجموعات هاربـة حيـناً وملتئمة حيـناً آخر لتجديد التظاهر الهتاف. فما كـان من قائد القوة الفرنسية إلا أن يأمر بإطلاق الرصاص علـى الأقدام. اخترق بعضها صدور المواطنـيـن ، ليسقط عـدد من القتلى وأضعافهم من الجرحى، وقد اجتاحت حمى التوتر الجنود كافة بتحريضات متبايـنة.فبيـنما وجد الفرنسيون في هذا التظاهر تحد لإرادتهم وجده الجنود السورييـن امتهانـاً لكرامتهم، فتهاونوا في تفريق المتظاهريـن وبعضهم سـاعد في فرارهم، مثلما فعل بكر الذي ضلل العساكر بإبعادهم إلى بوابة الصالحية. مشيراً بانفعال: هنـاك هنـاك .. بيـنما مجموعة المتظاهريـن تتوارى في شارع الشهداء .

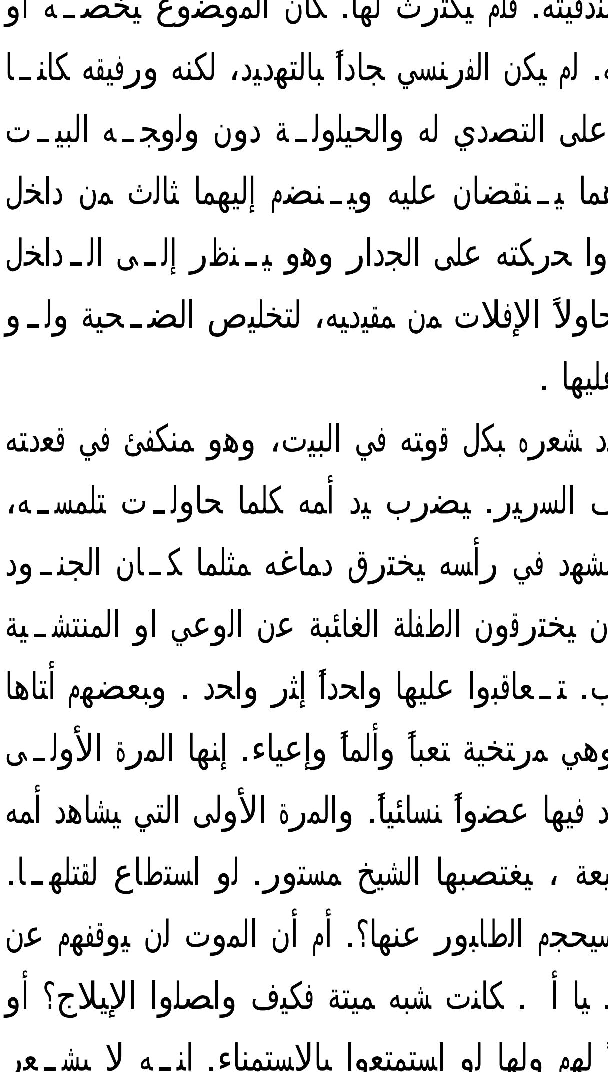
وجد نفسه وحيداً في الشارع وقد اندفع المطـاردون خلف المطارديـن، ومن حيـن لحيـن يسمع صوت إطلاق

رصاص أو صراخ شاب أو استغاثة فتاة. عـدا ذلـك كـان الشارع هادئ الحركة وكأن منع التجول فرض نفسه دونمـا تبليغ أو إنذار .

مرت سيارة عسكرية على متـنها عدد من الجنـود الفرنسييـن. لم يبالوا به أو بالعساكر الآخريـن الذيـن يظهرون فجأة متهيئيـن بسلاحهم، ثم يختفون راكضيـن في الأزقة كلما سمعوا صرخة أو صفيراً أو لمحوا حركة في الزقاق. فيسرع بكر للحاق بهم وفي نـيته الضـياع عـنهم بعدما سكنت المديـنة تماماً واحتل الجنود معـابر الطـرق ومخارجها. كان يحس بأن العيون تراقبه من خلـف شـبك النوافذ فانحرف إلى زقاق ضيق، علّه يصل متأخراً إلى نقطة التجمع في المرجة .

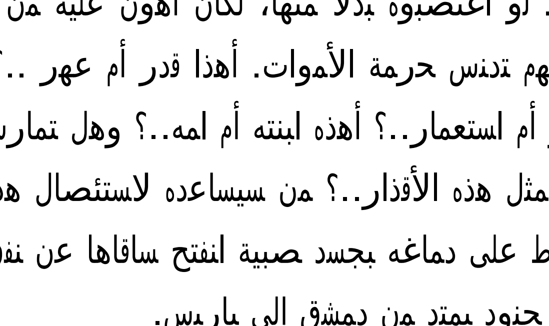
ما أن وصل إلى منتصف الزقاق ، حتى لمـح فـي الجانب ممراً ضيقاً، وفيه جنديان يقفان أمـام بـابٍ كأنهمـا يحرسانه.

اتجه إليهما، فعلا الاغـتمام وجهيهما. طلب منـه أحدهما بالفرنسية الابتعاد: إذهب... شيء ما جعله يواصـل بتحدٍ إنه ضابط وهما جنديان: اذهـب.. وأشـهر الجنـدي



الفرنسي بندقيته. فلم يكترث لها. كأن الموضوع يخصـه أو يتعلق بأمه. لم يكن الفرنسي جاداً بالتهديد، لكنه ورفيقه كانـا قادريـن على التصدي له والحيلولـة دون ولوجـه البيـت الفقير، وهما يـنقضان عليه ويـنضم إليهما ثالث من داخل الدار ليقيدوا حركته على الجدار وهو يـنظر إلـى الـداخل بلوعة، محاولاً الإفلات من مقيديه، لتخليص الضـحية ولـو بالقضاء عليها .

شد شعره بكل قوته في البيت، وهو منكفئ في قعدته على طرف السرير. يضرب يد أمه كلما حاولـت تلمسـه، بيـنما المشهد في رأسه يخترق دماغه مثلما كـان الجنـود الفرنسييـن يخترقون الطفلة الغائبة عن الوعي او المنتشـية بالاغتصاب. تـعاقبوا عليها واحداً إثر واحد . وبعضهم أتاها مرتيـن وهي مرتخية تعباً وألماً وإعياء. إنها المرة الأولـى التي يشاهد فيها عضواً نسائياً. والمرة الأولى التي يشاهد أمه على الطبيعة ، يغتصبها الشيخ مستور. لو استطاع لقتلهـا. لكن هل سيحجم الطابور عنها؟. أم أن الموت لن يوقفهم عن ولوجها ؟. يا أ . كانت شبه ميتة فكيف واصلوا الإيلاج؟ أو ليس خيراً لهم ولها لو استمتعوا بالاستمناء. إنـه لا يشـعر



بالشفقة عليها بمقدار ما يشعر بالنقمة على نفسه وبالخزي والعار. لو اغتصبوه بدلاً منها، لكان أهون عليه من مشاهدة أعضائهم تدنس حرمة الأموات. أهذا قدر أم عهر ..؟ أهذا انكسار أم استعمار..؟ أهذه ابنته أم امه..؟ وهل تمارس في فرنسا مثل هذه الأقذار..؟ من سيساعده لاستئصال هذا الورم الضاغط على دماغه بجسد صبية انفتح ساقاها عن نفق يعبره طابور جنود يمتد من دمشق إلى باريس.

٢٦

تحدثوا مراراً حـول صـدود مـرزوق وجفائـه وجلافته، دون اخفاء استيائهم من سلوكه والترفع عليهم. لماذا اتصل بهم أساساً ؟. ليسوا بحاجة للسمنة التي جاء بها. علق جبران ساخراً: لاقيـنـي ولا تغديـنـي ... أضاف بأنـه لولا شعوره بالامتـنان لأبيه فرحان لما استحق مرزوق منه تحية، فلما أخبره واصف أن مرزوق جـاء لزيـارتهم فـي ضهور الشوير، استغرب الأمر. شعر بالغيظ، فرغم غلاظة مرزوق ونفوره الواضح، ظل يتردد عليه حتى نـهاية العام. لم يتوان عن مساعدته عندما لجأ إليه ، فاستـنفر الأسـاتذة والطلبة والمعارف لإيجاد بيت مناسب لـه ، فكيـف يـؤثر واصفاً عليه، ويأتي لزيارته في ضهور الشوير، بيـنما لا يبتعد سكنه عن بيت مرزوق أكثر من ربع ساعة مشياً على الأقدام. هيئ لـه بأن مـرزوق فعلهـا لإغاظتـه. تسـاءل مستـنكراً : معقول بعده زعلان لأنـي سألته إذا كان محتاج شي .

قالت مارغو: لشو بدوه يزعل؟ ما فيه سؤالك شـي. بعديـن، ميـن ما بسأل الضيف إذا كان محتاج شي؟.

- يمكن اعتبرها إهانة.

- ولو. على شو؟ .. تساءل واصف.

- يمكن لأنوه معتبر حاله ابن اقطاعي إله فضـل عليـنا، ومتوقع منـي أتزلف له... أضـاف مبـدياً عـدم الاكتراث: المهم .

- المهم إنها لا بتقربكم ولا بتقربوها؟ ... سـأل مرزوق في زيارته الثانـية لواصـف ومـارغو، فتسـاءل جبران وهو يسمع منهما عن سـر الزيـارة: يعنـي كـل الموضوع، بدوه يسأل إذا انت بتقربوا البنت؟.

- هي بنت عقل يا خوي يـا جبـران... قـال مرزوق في زيارته المفاجئـة لجبـران. لكنـه لمـا يفاجـأ بـمعرفة جبران الأمر، بل كان سيخبره لو لم يسبقه واصف.

كان يرغب بالحديث مـع كـل معارفـه ، وطلـب المساعدة من كل الناس، بعدما استحوذت البنت على كيانـه وأدفأت وجدانه واستولت على أحلامه وشوشت أفكاره.

أحس بالتميز على طلبة السنة الأولى بعـد ترفعـه للسنة الدراسية الثانـية، مثلما أحس بأنه ترفع إلـى الجنـة، وهو يراقب من مقعده أقصى اليسار، الغادة المتألقة أقصـى اليميـن في الأمام. أيـن كانت غائبة، وكيف حطـت فـي الشعبة وكأنها نـزلت من السماء؟ فهو لم يلتق بها في السنة المنصرمة، ولما عرف من همسات الآخريـن أنها راسبة في السنة الثانـية، تعجب من نفسه. إلى هذه الدرجة كان عـديم الانتباه؟ أمعقول أنه أمضى سنة دراسية كاملة اخـتلط فيهـا الطلاب والطالبات، وتقاطعوا في المعابر والممـرات وفـي القاعات، ولم يلحظ وجودها إلا الآن. قال لجبران بأنها إرادة الرب أن يـنجح إلى السنة الثانـية وترسـب فيهـا حتـى يلتقيها.

طيلة سنته الأولى انكفأ على نفسه، يخنـق مشـاعر اغترابه في انطوائه ، والاستغراق بالدراسة في بيته. وفـي قاعة المحاضرات يـنكمش على نفسه خشية السؤال، فتربكه نظرات الأساتذة ويثير نقمته بياخة الطلاب ودلع الطالبـات. وكما لمح في تمشيه شاباً وفتاة منـزويين، يحـس بـالقرف والاشمئزاز إلى درجة الغثيان. أما الآن فهو يشعر بالحسـد

تجاه هؤلاء العشاق، ويتمنى لو يضيف إلى مشاهدهم واحداً من عنده يضمه وميسر كنعان.

غيداء ممشوقة، طويلة القامة، خرنوبية الشعر، بيضاء البشرة ، ينعكس في صفاء عينيها الواسعتين طيف، اللون طاغي في ثيابها الفاخرة التي تدلل على النعمة والارستقراطية والثراء. ابتدأ البروفسور بها التعارف في المحاضرة الأولى. ألف مرزوق مثل هذا السؤال في السنة الماضية لدى العديد من المدرسين، لكن البروفسور لم يكتف بسؤالها عن اسمها، بل استفاض في الاستفسار عن بلدها ومكان إقامتها في بيت خالها في جونيه. أجابت بعذوبة مثيرة جعلت الجميع، وليس البروفسور وحده، يتأملونها بافتتان. لما جاء دوره حاول تنعيم صوته قدر استطاعته، لكنه ظل أسيراً لفظاظته: ماني داري يا جبران إش لون عيونها، أشوفها يوم زرق، يوم خضر، وخطرات أشوفها بنية مثل الخروب.

- هيدا عامية لك عيونك.

- عيوني بس. تدري ماني قادر أدرس ولا حرف.

- يعنـي غرقان لشوشتك.

- إش غرقان. قول غرقان ومطيـن بعد. قـل لي ويش أسوي.

- تحرك، تعرف عليها.

- هيك طبه؟.

- إي طبه . شو فيها. قول لها حابـب أتعـرف عليك. إلا إذا كانت ما بتحكي مع الشباب.

- هاظي المصيبة، انها تحكي مع الكِلْ، بـس آنـي ما هو مثلهم.

- شو ناقصك؟.

- وتسأل يا جبران؟. ما ناقصنـي غيرها، يـا ريت كانت تقرب لواصف.

في قرارة نفسه كان جل ما يخشاه أن يكون لها صلة بكنعان ضهور الشوير. من أيـن لهم أن يكونوا أكابر مثلها، وهو يتأملها من مقعده في القاعة ويختلس النظر إليهـا فـي الممرات والاستراحة، أو عندما يتقرب منها أمام لوحة مجلة الحائط "الأطباء"، دون أن يكمل يوماً مقالة واحدة أو يتـذكر منها حرفاً ولا حتى العنوان.

إذا ما تـهيأ لـه أنها منتبهة إليه يرتبك ويحتار قبل أن يـنسحب مبدياً الاتزان وعدم الاكتراث، وهو يشحن نفسه بالثقة. كان يقرأ المجلة مثل الآخريـن، لكنه لـيس أرعـن خفيفاً مثلهم، وليس مثل أولئـك المتهيبيـ ـن منهـا بسـبب السيارات الفاخرة التي تأتي بها إلى الجامعة وتأخذها منهـا. ذلك لا يجعلها أكثر ثراء منه، وإن تـنعمت عائلتها بالثروة، بيـنما يقتر أبوه بالانفاق وهو أكثـر البلقاوييـ ـن أمـوالاً وأطياناً. الدنـيا مظاهر. سمع هذه العبارة مراراً من أفـواه العديديـن، بيـنما تتجاوزهم ميسر في ممرات الجامعـة، أو تـنفك عن مجموعتها لتركب السيارة التي يفتح سائقها لهـا الباب .أيـن هـذه الارسـتقراطية مـن كنعـان ضـهور الشوير؟!.

- يا جماعة يمكن تكونوا قرايب وانتوا مـش داريـيـن.

- حد علمي، ما إلنـا قرايـب فـي الناصـرة، بعديـن فيه عائلات كثيرة بتحمل اسم كنعان وما حدا فـيهم يقرب للثانـي، وفيه كنعان مسلميـن كمان.

- بس هاذي نصرانـية مثلنا.

- أرثوذكس وإلا كاثوليك.؟.

- ويش دراني.

- اسألها.

- ويش دخلني، ما تقولوا إلا ودي اتجوزها، أنا أسأل عنها وبس ..

لو كان هذا الجربوع وزوجته يقربان ميسر، لربما تغيرت نظرته لها. إنهما من طينة وهي من طينة.صحيح أننا كلنا من طين، لكن هناك فرق بين الخزف والصلصال. الفارق حضاري ، فكنعان ضهور الشوير قروي وكنعان الناصرة مدني: يا بوي يا جبران، ويش أوصف حتى أوصف.إنت تخيل بروحك ويش بدها تكون وحدة جاي من الناصرة. رحم المسيح.

اغتراب الأيام الأولى وطول فترة التأقلم مع الواقع الجديد لم تحل دون استمرار ترفعه على الآخرين . ظل يحيط نفسه بهالة النجومية التي أحاط نفسه بها في القبة والسلط وعمان. أنه ابن فرحان الصليبي، أكبر إقطاعيي البلقاء ، ورجل المعارك الذي يحسب له الحساب. كان يظن بأنه عاجلاً أم آجلاً، سيشار له بالبنان ، ليس بسبب ثراء أبيه فحسب، وإنما أيضاً لدراسته التي ستجعله يتقدم على المايعين بالعلامات. أما وقد أطلت هذه النجمة الناصرية فقد انقضت أوهام النجومية. الكل يركض إليها، يروم مرضاتها ويطلب ودها، وهو في الجامعة محاصر بمقعده القصي داخل قاعة المحاضرات. أما خارج الجامعة فليس له من قشة يتعلق بها سوى جبران: إي هيك. لكان كيف؟.

- **ما أقدر أبد . ما أقدر .**

- كيف ما تقدر، أنت بتقول انها بتحكـي مـع الشباب.

- هاظا اللي قاهرنـي.

- طيب اتلحلح يا آخي واحكي معها.

- مانـي قادر. يوم ان تلتقي عيونـي بعيونها، اللي تبرق كل يوم بلون، أحس بقلبي المليان انفرط وشفط من بدنـي كل الريح.

- العمى بقلبك على هيك تشبيه.

- ويش أسوي يا خوي، بعدنـي نصي بـدوي ونصي فلاح.

- على ها الحال عمرك ما راح تقـدر تقـرب منها.

- أموت يا خوي، أموت.

- ما هو لازم تموت إذا ما قادر تعيش.

عقدت المفاجأة لسان جبران وهو يتأمله مـن رأسـه إلى قدميه، متهندماً ببدلة أوروبية آخر مـوديل ، وانشـدت إليه أنظـار الطلبة وهو يأتـي كل يـوم مرتـدياً بـدلـة

جديدة . حتى ميسر التي سبقته إلى هذا الاسـتعراض لفـت انتباهها، وصارت تحس بانعزاله جدية واتزاناً: اسألها.

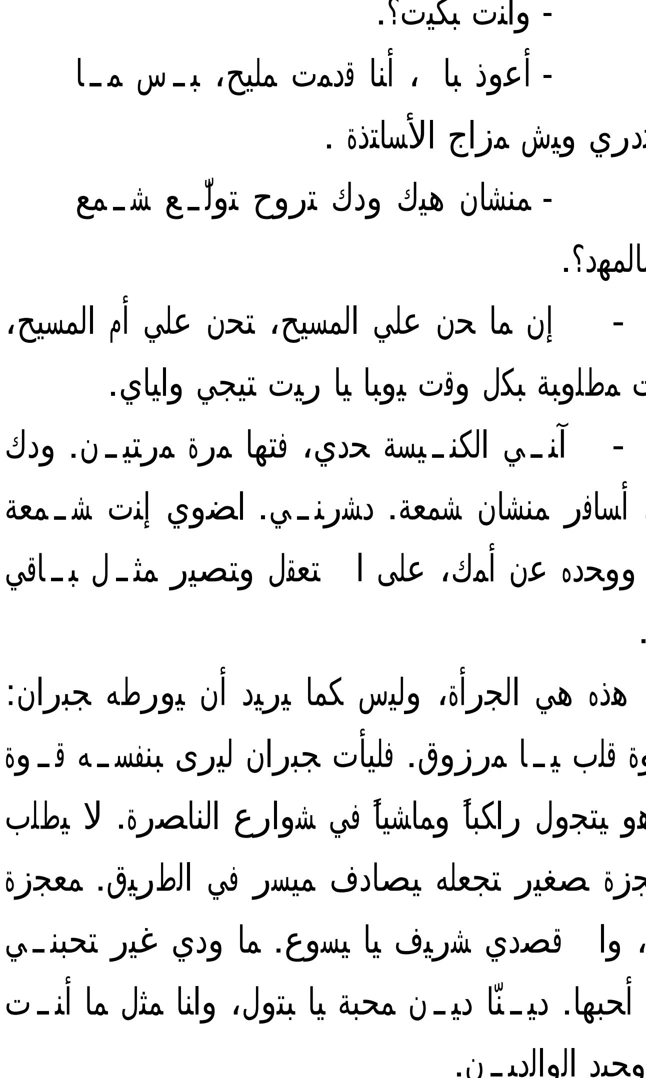
- كيف أسألها؟ سألت واصف وقال ما بقربهـا، وأنا مصدقه، معقول يكون هاظا الجربوع قرابتها.

- ولك جـربوع والا بطيخ، تحجـج بالسـؤال منشان تتعرف عليها. لأنك إزا بتضل علـى هالحـال راح تخسر البنت وتخسر دراستك وترجع للقبة مريض بدك حكيم.

- هيك قولك؟. طيب وافترض قالت على الحارك لع.

- لع؟!.

لعلعت حنجرة أبيه وهو يشخص به مـأخوذاً بثيابـه الأوروبية الأنـيقة. قال لتمام بأن ابنها غويـان، فتـنهدت أسى وحسرة، وتـنهد مرزوق آلاف المرات طيلـة العطلـة الصيفية التي كانت أثقل عليه من القبة والسلط وعمان. كتب لواعجه في خواطر شاعرية، وجل ما يخشاه أن يخفق فـي دراسته وتسبقه إلى السنة الثالثة.أخفى عن أبويه أمر رحلتـه إلى الناصرة: السنة هـاذي كانـت صـعبة كثيـر يوبـا، والامتحانات يبكون بيها الزلم قبل البنات .



- وانت بكيت؟.

- أعوذ با ، أنا قدمت مليح، بـس مـا تدري ويش مزاج الأساتذة .

- منشان هيك ودك تروح توڵـع شـمع بالمهد؟.

- إن ما حن علي المسيح، تحن علي أم المسيح، البركات مطلوبة بكل وقت يوبا يا ريت تيجي واياي.

- آنـي الكنـيسة حدي، فتها مرة مرتيـن. ودك ايانـي أسافر منشان شمعة. دشرنـي. اضوي إنت شـمعة عنـي ووحده عن أمك، على ا تعقل وتصير مثـل بـاقي الحريم.

هذه هي الجرأة، وليس كما يريد أن يورطه جبران: بدها قوة قلب يـا مرزوق. فليأت جبران ليرى بنفسـه قـوة قلبه وهو يتجول راكباً وماشياً في شوارع الناصرة. لا يطلب إلا معجزة صغير تجعله يصادف ميسر في الطريق. معجزة ها القد، وا قصدي شريف يا يسوع. ما ودي غير تحبنـي مثل ما أحبها. ديـنّا ديـن محبة يا بتول، وانا مثل ما أنـت خابرة وحيد الواديـن.

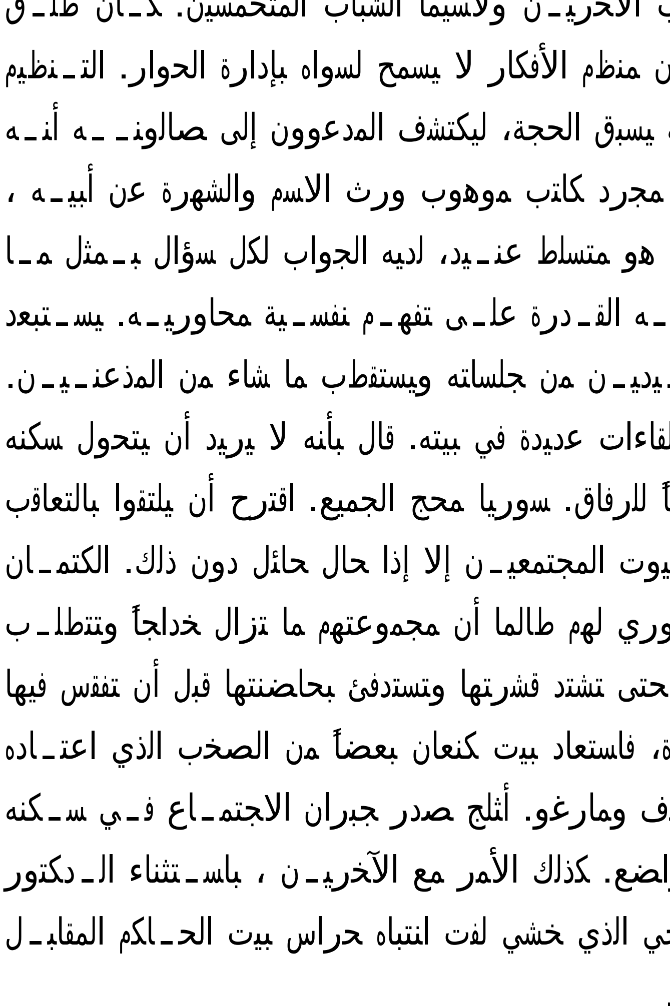
- ما ودك تتجوز ؟.

هب قاعداً في الفراش وصرخ بها ماداً سـبباته: إن جبت السيرة مرة ثانـية، يا بنت الجريمات، تاخذي فراشـك وتـنامي بـمحل ثانـي. قبل مـا تجوزيـنـي، روحـي جوزي ولْيدك التكتور.

٢٧

في تمـوز وصل انطون سعاده إلى بلادتـه ضـهور الشوير، لتـنتقل المنتديات الفكرية إلى بيته بعدما تأسس لها في بيت كنعان. لم يكـن إحساس مارغو بالوحشة، ولاسيما في أمسيات الخميس، يقل عن إحساس ابنها رؤوف الذي كان يشعر بالتميز على أصحابه بهذا اللقاءات التي تثير الصـخب وزوابع الأفكار ومساجلات الحوار. قالت مارغو بأنه لو كان أبوها على قيد الحياة لما انفض مجلسـه ولا تحـول عنـه مجالسوه ، حتى لو كان المقصود خليل سعاده ولـيس ابنـه الغض انطون. وافقها واصف دون أن يفهم قولها تعـريضاً أو تجريحاً. كان إجلاله لعمه لا يقل عن إجلالها، وإن كـان إحساسه بالوحشة أقل منها، بعدما حولته انتقال المجالسـات إلى بيت سعاده من مضيف إلى ضيف.

لم يكن المكان هو الفارق الوحيد كما تهيأ للبعض في البداية. كانت نقلة نوعية، تحول فيها صبحي المر من أسـتاذ يفحم محاوريه إلى تلميذ متواضع أمام انطون سـعاده الـذي كان على صغر سنه يتمتع بـمعرفة سـطحية عامـة فـي



مختلف المواضيع، ومتعمقاً جداً في علوم الاجتماع، مما كان يجذب الآخرين ولاسيما الشباب المتحمسين. كان طلق اللسان منظم الأفكار لا يسمح لسواه بإدارة الحوار. التنظيم برأيه يسبق الحجة، ليكتشف المدعوون إلى صالونه أنه ليس مجرد كاتب موهوب ورث الاسم والشهرة عن أبيه ، وإنما هو متسلط عنيد، لديه الجواب لكل سؤال بمثل ما لديه القدرة على تفهم نفسية محاوريه. يستبعد العنيدين من جلساته ويستقطب ما شاء من المذعنين. بعد لقاءات عديدة في بيته. قال بأنه لا يريد أن يتحول سكنه محجاً للرفاق. سوريا محج الجميع. اقترح أن يلتقوا بالتعاقب في بيوت المجتمعين إلا إذا حال حائل دون ذلك. الكتمان ضروري لهم طالما أن مجموعتهم ما تزال خداجاً وتتطلب وقتاً حتى تشتد قشرتها وتستدفئ بحاضنتها قبل أن تفقس فيها الحياة، فاستعاد بيت كنعان بعضاً من الصخب الذي اعتاده واصف ومارغو. أثلج صدر جبران الاجتماع في سكنه المتواضع. كذلك الأمر مع الآخرين ، باستثناء الدكتور صبحي الذي خشي لفت انتباه حراس بيت الحاكم المقابل لبيته.

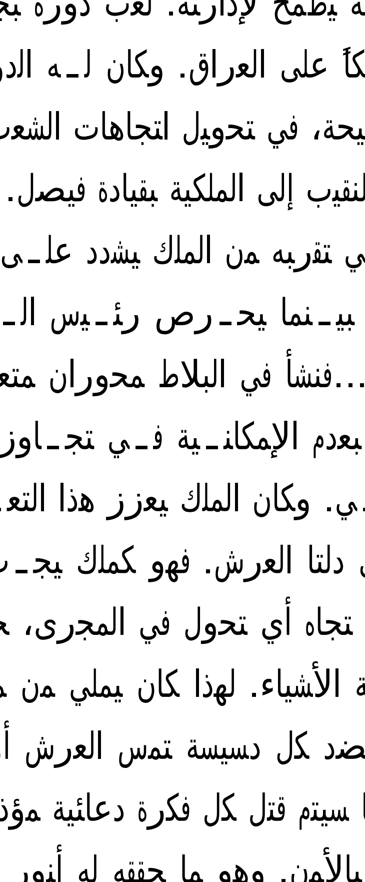
واظب انطون في الأثناء على الكتابة فـي جريـدة الأيام الدمشقية التي كانت أوسع انتشاراً من الزفيـر، وبعـد عدد من المقالات السياسية والقصص الأدبيـة التـي لاقـت رواجاً بيـن القراء، عرض عليه العمل في الجريدة.

انتقل إلى دمشق ، ليعود الوضع كالسابق. الرفاق وقد ازداد عددهم مع مجيء انطون، عادوا للتلاقـي فـي بيـت رؤوف كنعان لتجدد فيه الحيوية والصخب. بيـنما رؤوف الصغير، وقد تجاوز العاشرة من عمره، غدا أكثـر طـلاب مرحلته الدراسية وعياً وثقافة لكثرة ما يسمع في بيتـه مـن أفكار وأخبار، وما يغدق عليه جبران من رعاية تشحذ ذهنه وتدفئ وجدانه بحب سوريا وتحرك نقمته على الفرنسـيين. فيهدد ويتوعد، مما كان يربك أبويه، فهو على النقيض منهما كان عنـيداً جرئياً. تقول عنه مارغو بأنه شجاع مثل أبيهـا، ويقول عنه واصف بأنه صلب مثل أبيه.

لم يكن بحاجة لبناء نموذج خاص يحاول أن يكونـه في يوم من الأيام، بعدما صار اسم انطون يتردد مع أحاديث أبويه، وفي اللقاءات التي تلتئم في البيت من وقـت لآخـر، فأحاطت الاسم هالـة مقدسة، جعلته يتطلع لانقضاء الأيـام

حتى يكبر ويحلق ذقنه مثل استاذه جبـران ويجلـس علـى يميـن القائد انطون. يدير الحوار مثله ويخاطب الآخريـن سواء أتحدث بالسياسة أم بالتاريخ أم بالجغرافيا أم بـالآداب. في المدرسة والضيعة كان مرهوباً من أقرانه بسبب الأفكـار الكبيرة التي يعرضها عليهم بـمغالاة ومبالغة عما يسمعه في بيته، وبسبب جرأته التي جمعت كثيرين من حوله، فيتصرف معهم بالطريقة نفسها التي أرساها في أعماقه انطون وقبلـه جبران. لن يصبح طبيباً ولا تـاجراً ولا اسـتاذاً ولا ممـثلاً مسرحياً. مهما صار أصحابه وتصوروا، ومهما ابتعـدوا أو اقتربوا، يظلون تحت إمرته، فمثلما هو زعيمهم اليوم سيغدو زعيم سوريا في الغد.

٢٨



لم يخطر ببال أنور يوماً أن يتولى العرش، وإن كان في قرارته يطمح لإدارته. لعب دوره بجدارة في سبيل تتويج فيصل ملكاً على العراق. وكان له الدور الأول، كما ظل يردد لسميحة، في تحويل اتجاهات الشعب عن الجمهورية بزعامة النقيب إلى الملكية بقيادة فيصل.

في تقربه من الملك يشدد على ضرورة إرضاء الانجليز، بينما يحرص رئيس الوزراء على عدم إغضابهم...فنشأ في البلاط محوران متعارضان شكلياً متفقان ضمنياً بعدم الإمكانية في تجاوز الملك ولا المقيم البريطاني. وكان الملك يعزز هذا التعارض طالما أنه يصب في دلتا العرش. فهو كملك يجب أن يكون شديد الحساسية تجاه أي تحول في المجرى، حتى لو كان التضاد من طبيعة الأشياء. لهذا كان يملي من موقعه الإجراءات الحازمة ضد كل دسيسة تمس العرش أو مصلحة البلاد، بمثل ما سيتم قتل كل فكرة دعائية مؤذية وعدم الرحمة بكل من يخل بالأمن. وهو ما حققه له أنور بمشوراته الصائبة،

وإن كان الرجل الثانـي في الوزارة بعد رئـيس الـوزراء. فوافقه الملك بضرورة الحزم مع إضراب تموز والتـنكيل بزعمائه. وكان مع مشورته في الاستدواء بالقطارة بدلاً مـن البقاء في الإنعاش. كل قطرة تصلهم من الانجليز خير مـن بحرٍ عرم يؤشرون عليه ويحولون دونه.

إنه التعامل مع الواقع بسلاح الواقع وليس باسـتذكار التاريخ. من الجنون قذف الطائرات بالنبال، مثلما من الحمق منازلة السيف للبندقية. كما أن الأتباع يظلون أتباعاً لا يتدخل في صراعاتهم طالما لم يتحولوا إلى أنداد.حينهـا يصـبحون خصوماً تجب منازلتهم. لهذا لم يعر الملك اهتماماً لانتحـار رئيس الوزراء، الذي قيل أنه فرض عليه من قبـل محفـل الرشيد الذي يتولى أنور أستاذيته. وبانتحاره غدا أنور رجل الدولة الأول بحنكته السياسية وتجربته العسكرية، إضافة إلى الحرس الأبيض من أبناء العشيرة الماسونـية المستـنفريـن لخدمة أستاذهم الأعظم وحـمايته وتزويده بالمعلومات مـن خلال مـحافلهم الداخلية والخارجيـة. كانـت الماسونـية بالنسبة لأنور أهم من أجهزة الاستخبارات التي تتغلغل فيهـا بـمثل تغلغلها بيـن ضـباط الجـيش والأمـن والـوزراء

والمديريـن ورجال الأعمال دونما حواجز إقليمية أو عرقية أو مذهبية. فكان أنور بطل الظل في الحملة ضد تمرد الزعيم الكردي في السليمانـية، التي عرف عن دقائقهـا وصـراع القوى بيـنها وتجمعاتها وقادتها وأسلحتها ومراكز تمويلهـا ومؤنها وتكتيكاتها ومناوراتها، مما سهل الأمر فـي قمعهـا لتكون عبرة لغيرها.

مع أن الكتمان جوهر العمل الماسونـي، إلا أن أنور جاهر بدوره المؤثر في القصر أمام زوجته وهو يقـول لهـا بأنه وراء كل نجاح. ولما سألته لم لا يترأس الـوزارة إذن، ولا تدري لماذا خطر ببالها ميسلون. قال بأنـه كبـر علـى المشاركة. يكفيه الآن التخطيط والتـنظيم، فتكـدر وجههـا وهي تتذكر توفيق.

ادعاء أنور بأنه يصنع الملوك، لم يقلل من طموحـه الذي لا يتوقف عند الحدود الجغرافية للملك. كان على يقيـن بأن سوريا مـا تـزال تدغدغ عواطف فيصل بالحنـيـن. فالإنسان، برأيه، لا يـنسى خسارته الأولى ، حـتى لـو واكبه الربح بقية عمره. وبدلاً من حصر شؤون الحكم فـي أمور العراق، ولاسيما الموصل التي تريد لهـا بريطانـيا

الانفصال والاستقلال. راح أنور يهمس للملك مـن حيـن لحيـن بوحدة سوريا والعراق.

- ما نريد نفـتح جبهـة ثانـية مـع الفرنسييـن.

- ميـن قال...؟

- إنت.

- أنا قلت أنوه الفرنسييـن عاجبهم تجربة حكمك في العراق. وبدهم يسووا مثلها في الشام. ومرشحهم للعرش شقيقك ، ليش ما يكون ليك دور فيها يا مولاي.

- إش نستفيد يا أنور. تظل سـوريا سـوريا. ويظل العراق العراق.

- الفرق أنوه شقيقك أحق بالعرش يـا مـولاي. حارب واياك في الثورة وميسلون. مشي وراك في الحـرب والسلم. وإن تولى عرش سوريا يتحد معنا برمشة عيـن .

- إش رمشة عيـن يا أنـور، وصـار ليـنا سنـيـن نتـناطح مع الانجليز منشان الاستقلال.

- الاستقلال حاصل السنة الجاي يـا مـولاي. هيك المعاهدة مع الانجليز بتقول..

- وإنت إش تقول؟

- أنا أقول، العراق ناقصة من غير سوريا، وسوريا ناقصة من غير العراق.

- وشرق الأردن. إش يقول أميرها. أخونا الكبير.

- نسأله يا مولاي.

- والسوريين. مين يقنعهم بي بعد اللي صار بـميسلون؟.

- يقنعهم وحدة الهلال الخصيب .

بعد أيام، صدرت جريدة النهضة، التي تعبر عن رأي الحكومة، بـمانشيت عريض يحمل تصريحاً لنائب رئيس الوزراء، يبدي فيه تفهمه لرغبة فرنسا في مد خط أنابيب لتمرير النفط العراقي إلى طرابلس لبنان. وفي اللقاء نفسه، ألمح أنور إلى أن المصالح الفرنسية والانجليزية ستكون أكثر اتساقاً وانسجاماً فيما لو تمت الوحدة بين سوريا والعراق، ولو عبر اتحاد فيدرالي. في إجابته عن مصير فلسطين، قال بأنه يثق بعدل الأمبراطورية البريطانية التي تأسست على الماغنا كرتا العظيم.

في اليوم التالي صرح ليبيسيه لجريدة" فتى العـرب" الدمشقية أن فرنسا لا تعارض تولي أحـد أبنـاء الشـريف حسيـن عرش سوريا، إذا رغب السوريون ذلك.

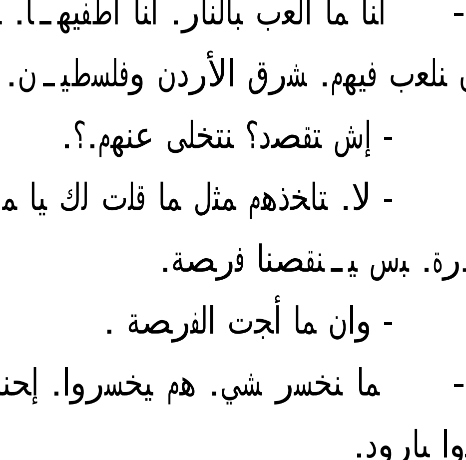
وبيـنما كان الملك فيصل يتداول مع أنور في هـذا الإعلان الفرنسي السريع، جاء رئيس الديوان يخبـره بـأن ليبيسيه يطلب الإذن للمقابلة بشأن دعوة الملك من قبل حكومة باريس لزيارة فرنسا. فقال أنور: أجاك كلامي يـا مـولاي. بدنا ناخذ ، بدنا نعطي.

في حفل العشاء الذي أقيم على شـرف الملـك فـي الإلزية. شرب وزير المستعمرات الفرنسية والمـدير العـام لوزارة الخارجية، نخب فيصل ملك العراق وسـوريا وكـل العرب.

تساءل الملك باستغراب بعد انفراده بأنور: معقول مد خط الأنابيب يعمل بيهم هيك؟

- الخط جسر يا سيدي. يقربك مـنهم خطـوة ويبعدك خطوة عن الانجليز.

- اللعب بالنار يحرق يا أنور.



- أنا ما ألعب بالنار. أنا أطفيهـا. بعـد عنـدنا ورقتيـن نلعب فيهم. شرق الأردن وفلسطيـن.

- إش تقصد؟ نتخلى عنهم.؟.

- لا. تاخذهم مثل ما قلت لك يا مولاي قطـرة قطرة. بس يـنقصنا فرصة.

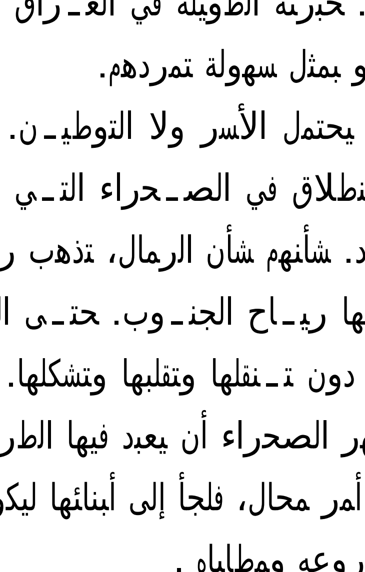
- وان ما أجت الفرصة .

- ما نخسر شي. هم يخسروا. إحنا نبيع نفـط، وهم يبيعوا بارود.

٢٩

اعتمدت سياسة جلوب على استقطاب أبناء الشـيوخ إلى خفر الصحراء. خبرته الطويلة في العـراق علمتـه أن سهولة إخضاع البدو بمثل سهولة تمردهم.

فالبدوي لا يحتمل الأسر ولا التوطيـن. نفسه تواقة على الدوام إلى الانطلاق في الصـحراء التـي لا تعـرف الحواجز ولا الحدود. شأنهم شأن الرمال، تذهب رياح الشمال بكثبانها لتعيد تشكيلها ريـاح الجنـوب. حتـى المرتفعـات الصخرية لا تحول دون تـنقلها وتقلبها وتشكلها. لهذا كـان على جلوب كي يقهر الصحراء أن يعبد فيها الطرقات ويرفع فيها الغابات، وهذا أمر محال، فلجأ إلى أبنائها ليكونوا أدلتـه ورسله وحراسه ودروعه ومطاياه .



خيمة البدوي ترتكز على واسطها، كذلك القبيلـة لا تقوم إلا بسيدها، فاستخدام الأوتاد في شد الخيمة قد يفردهـا لكنه لا يـنهضها، لهذا اعتمد في تـنفيذ مهمته على تجنـيد أبناء الشيوخ الذيـن هم في حكم الشيوخ بدلاً من الاعتمـاد على حثالات البدو الذيـن لن يمنحهم حداثة السلاح الرهبـة

التي تمنحهم اياها أصالة النسب، فأبناء الشيوخ مرهوبيـ ـن بالانتماء ، فكيف إذا اقترن ذلك مع سلاح متـ ـنوع حـ ـديث وعتاد لا يـ ـنضب وزي أنـ ـيق.

حتى الحطات اختار لها لوناً يميزها عن المـ ـألوف ، فأوصى على أن يكون قماشها أحمر مرقشاً بالأبيض بيـ ـنما كان المعتاد منها الأبيض سادة أو الأسود سادة أو مرقشاً من اللونـ ـيـ ـن وخفيف الاصفرار، مما كان يجلب انتباه الفتيـ ـات البدويات اللواتي صرن يتطلعن بشغف وافتتان إلـ ـى هـ ـؤلاء الفرسان الذيـ ـن تـ ـنعكس في وجوههم القسوة والإباء، مثلما تعكس أسلحتهم الرهبة والسلطان. غالباً ما يتسبب عبـ ـورهم الجماعي في الشاحنات العسكرية بالبلبلة والهرج والمـ ـرج، سواء في المدن أو البوادي أو الأرياف. يتقدمهم ، في العادة، جلوب في سيارة البويك التي كانت تثير العجب بـ ـمثل مـ ـا يثير صاحبها الرهبة، بعدما امتد صيته في أشهر قليلة إلـ ـى أنحاء البلاد وصارت القبائل تحسب لرجاله الحسـ ـاب مثلمـ ـا روعت قسوتهم المدن والأرياف، " عسكر كلـ ـوب، عسـ ـكر كلوب". كان رجاله الذيـ ـن أطلـ ـق علـ ـيهم إداريـ ـاً " خفـ ـر الصحراء" وبيـ ـن العامة" رجال الباديـ ـة" ، علـ ـى قسـ ـوتهم

وفظاظة معاملتهم للمواطنـيـن ، يديـنون بالطاعة العمياء لقائدهم جلوب، الذي استطاع اخضاع قبائل فـي مسـاحات شاسعة من أرض العراق، وأفادته واقعة القائد بك مع زعـل الجبيلي قبل سنوات، فلم يتحد الشيوخ في عقر دارهـم، بـل جعل أبناءهم يروجون لحزمه وشدة بأسه، مما جعل إطلالته في أي مكان توتر الساكنـيـن وتربك المضيفيـن.

ولكي لا يـنحصر صيته بيـن قبائل البـدو، طعـم سراياه ببعض أبناء المدن والأرياف، الذيـن جمعهـم مـع أقرانهم الزي الموحد وإطاعة القائد العمياء.

تدرجت خطته التي وافق عليها قائد الفيلق العربـي والمقيم البريطانـي، على مراحل ثلاث. ابتدأها مع العشائر البدوية، التي يكمن خطرها بالترحـال، أمـا أبنـاء المـدن والأرياف وإن كانوا جزءاً من خطته الأمنـية طويلة الأمد، إلا أنهم بنظره أقل خطراً من البدو الرحل، لأنهـم يخشـون القانون خشيتهم على أراضيهم وأملاكهم وعوائلهم واستقرار أحوالهم في أمـاكن سـكناهم. لا تـنبعث مـن هـؤلاء المستقريـن الأخطار ، ولربـما كانوا هم عرضة لها ، على عكس البدو الرحل الذين لا يعنـيهم الاسـتقرار بقـدر مـا

يعنـيهم النسب. يـنتقلون بـ ـمضاربهم طلبـاً للرعـي أو السقاية أو الغزو أو الفرار. حياتهم كر وفر وغزو وترحال. لهذا حرص جلوب في أسـلوبه الجديـد علـى أن تفـرض العسكريـة مهابتها. متمثلة برجاله ومتوجة باسـمه، وأدرك قائده فريدريك بك مقصده.

شعر بأن نائبه الشاب جلوب، يتفوق عليه في تبصره والإفادة من تجاربه ومعارفه، فتولدت غيرة متـ ـنامية فـي نفسه، يقابلها طموح ليس لـه حدود في نفس جلـوب، وإن كان الانضباط العسكري ورتبته يكتمان بواطن هذا وذاك.

- وماذا بعد..؟ سأل فريدريك، وأضاف: هـل تحل المشكلة بتجنـيد أبناء الشيوخ؟.

- بعدها ننتقل إلى حظر الغزو وملاحقة الغزاة. سننال منهم ولو التجأوا إلى أعمـاق الصـحراء، وسـيكون فرسانـي، من أبناء الزعمـاء، بوصـلة إرشـاد ومصـدر معلومات ودرع أمان.

- أمان لك ؟.

- أمان للقبائل أنفسها. ستشعر بأنها فـي حـال أحسن إذا ما تولى خفر الصـحراء ضـد الغـزاة ولاسـيما الوهابيون.

- إيه ، أتمنى لك حظ جيد.

ولكي يختصر المسافة مع زعل الجبيلي المعـروف بشراسته وسطوة قبيلته، جعل من فندي مرافقاً لـ ـه، حتـى تحمل رياح ذيبان أخبار سطوته إلى كل مكان.لقد أخبر بـك بكل ما ينوي القيام به، لكنه لم يخبره لماذا هو متحمس لمهمة لم يستطعها للآن إلا السير لورنس. في قرارة نفسه.

كان بك يتساءل إن كان جلوب يقلد لورنس أو يكمل مسيرته أو يسعى لتجاوزه. وكثيراً ما يتندر بك مع مرافقيـه حول هذا الشاب الغشيم بأحوال المنطقـة، المسـكين بكـل الأحوال. فالظروف تغيرت والأماكن ضـاقت، والحـروب الكبيرة التي تصنـع الساسة والقادة والسلاح، انتهـت إلـى غير عودة . مصير العالم الآن تقرره عصـبة الأمـم التـي قضت على البطولات الفردية وطموح الزعماء.

أما جلوب فكان يردد أمام رجالـه مـن الفرسـان، ولاسيما فندي، بأن بك رجل عجوز مسكيـن، يـنتمي إلـى العصر الإدواردي وربـما الفكتوري...وإذا تساءلت عيون الرجال يستدرك موضحاً، بأن بك يـنفع عسكرياً في الجيش الامبراطوري قبل مئتي عام، ولو قـدر لجلـوب لـحنّطه بغطاء رأسه المصنوع من جلد الخروف، وجعل من بيته في جبل اللويبدة متحفاً للمخلفات الحربية. أحياناً لا يتوانى عـن الاستهتار به وهو يحث فندي على أن يروي لـه مـا فعـل أبوه به يوم حبسه مع الدواب، وأحياناً أخرى يعرض بأسلوب حياته ويلمح إلى قصور فحولته: ما أحد ياكل ثـوم ويحكـي كلمة ثوم لما القايد بك يزور كمب.

ول، لويش، كل أكلنا بيه ثوم.

إذا القايد كره شي، أنا، انت، كل عسكر، لازم يكره نفس شي ثوم أو غير ثوم.

الراي رايك يا القايد.

- لا، الراي راي قايد بك. أنا ما عندي مشكل، آكل ثوم مثلك. بس قايد عنده مشكل. ما بحب ثوم، لازم أنـا أفهم وضع قايد، بعده عزابي.

- عزابي؟!.

- انت ما تدري؟ قرب على تقاعد وبعده عزابي، زوجة نو. ولد نو. عيلة نو...

رطانته التي اضحكت العربان في البداية، صـارت خفيفة لذيذة على أسماعهم، بل أنها عندما يحتد تثير ارتباكهم وتلعثمهم وتخلخل توازنهم.

دفع رجلاً خرمانـي من بدو الجنـوب علـى رأس فصيل من معسكر زيزيا لتفقد بعـض الآبـار علـى بعـد أربعيـن كيلو متراً من معاقل الوهابيـن في عمق الجزيرة.

في الصباح التالي، اتجه بسيارته يرافقه فنـدي إلـى المعسكر، فلمح عن بعد الرجل الخرمانـي يقتعـد الأرض مستـنداً بظهره إلى وتد وخيمة امتد ظلـها عليه.

ما أن لمح الرجل السيارة حتى هب واقفـاً متهيئـاً ببندقيته أمام الخيمة، كذلك الأمر بالنسـبة لبـاقي العسـاكر الموزعيـن هنا وهناك.

تغيرت تعابير جاوب، عندما تأكـد مـن شخصـية الرجل، وعبرت ملامحه عن غضب تصاعدت وتيرته مـع اقتراب السيارة من الخيمة: قف... قال بنبرة حازمـة، ولـم

يـنتظر توقف السيارة تماماً وفتح الباب لـه. قفـز منهـا وأسرع إلى الخرمانـي يتبعه فنـدي ويـده علـى جـراب مسدسه، بيـنما سارع العديد من العساكر إلى ناحيته.

ليش إنت هون؟.

- يا سيدي، آنـي هان، بس العساكر اللي أمرت بيها تخطوا معان، وها الحيـن واللـه أعلم في تبوك.

- أنا أسأل ليش إنت هون؟

- انت ما ودك تيجيك أخبار الاخوان... لم يكـد يكمل كلمته حتى رنحته صفعة قوية خلخلت توازنه وغيبـت وعيه للحظات، بيـنما الرجال من حولـه يحسون بالصفعة قذيفة تـنفجر في وجوههم وتقطع أوصالـهم وترخي قلوبهم إلى ركبهم.

قبل أن يستجمع الخرمانـي تماسـكه أمـام هـذه المباغتة غير المتوقعة، قال جلوب بحدة وهو يتفرس بوجـه الرجل بقسوة ووحشية: سلم سلاح.

لم يـنتظر فندي استجابة الرجل، بل أسـرع إليـه يـنتزع سلاحه. استدار جلوب قليلاً مشـيراً إلـى الرجـل باصبعه وفي وجهه تعابير اشمئزاز: إرمي هاد في جورة.

في اليوم التالي عقد جلوب محاكمة سريعة أمام جمع من عساكره، قضى فيها بتسريح الرجل من الخدمة، حيث نزع عنه الزي العسكري وكل ما تعلق به.

لم تطل ردة فعل الخرماني، فبينما كان جلوب في طريقه إلى أحد مراكز المراقبة على أطراف الصحراء ظهر ثلاثة هجانة راحوا يلوحون من بعد بعباءاتهم. أمر جلوب بوقف السيارة وفي ظنه أنهم يحملون اخباراً عن الفصيل الذي توجه إلى الجزيرة، لكن ما إن اقتربت الجمال على بعد عشرين متراً من السيارة، حتى اعترضها احدهم بوجه عابس ملتحٍ وشعر متلبد يتدلى فوق عينيه، استل بندقيته من شدادها، وسحب الأقسام وهو يسأل بحدة: انت اللي ضربت اخوي؟... ضغط السائق عندها بقوة على دواسة البنزين، فقفزت العجلات من مكانها مثيرة الغبار، وتقافز الجمل أمامها مرتعداً، فاختل توازن راكبه الذي وجد نفسه أسير بندقية فندي المصوبة إليه من الجانب.

بالمليح، بالمليح يا قرابة... قال أحد الهجانة مهدئاً من رفيقه.

ما تستاهل يا رجل... عقب الآخر.

- لا تظن راحت ليك... قال شقيق الخرمانـي، وأضاف: إن ما هو اليوم، باكر . البدوي ياخذ ثاره ولو بعد سنـيـن...

في الصباح، توجه جلوب برجالـه جنوباً. لم يكـن سهلاً الاستدلال على ديار الخرمان، فالبدو الذين يصادفونهم يـنفون معرفتهم بهم، وأحياناً يـنكرون وجود مثـل هـذه العشيرة، مع أن جنود جلوب يؤكدون أنها عشيرة معروفـة. لكن إغراء بضع ليرات ذهبية انطقت بـدوياً بـما يعرفـه عنهم، بل أنـها شـجعته علـى مـرافقتهم إلـى مشـارف مضاربهم، فوصلوها مساء في ثلاث شاحنات تحمـل نحـو خمسيـن فارساً، تتقدمهم سيارة جلـوب بثيابـه العسـكرية الزاهية.

اهـتاجت المضارب وارتاع ساكنوها، بيـنما القـوة تتوزع على الجانبيـن فـي صفيـن طويليـن حجبـا جلوب،وهو يعبر بيـنهما، عن أعيـن البدو المشدوهة بهـذا الاستعراض المهيب.

تقدم جلوب إلى المضـافة بخطـى واثقـة ومشـية عسكرية منتظمة. هب كل من في الخيمة واقفاً بـمن فـيهم

كبيرهم الذي سارع للترحيب: هلا ومية هلا، شرفت الـديرة يا القايد... وبسرعة التفت إلى الجانب : حطبـوا للنـار يـا عيال.

توقع الجميع أن يكون مجـيء جلـوب، لتطيـيب خاطر العشيرة، بسبب ما لحق بالخرمانـي من إهانة.كـان يكفيهم الـزيارة لرد الاعتبار، دون أن يتطرق جلوب إلـى الحادثة.

بعد تـناول العشاء من منسف بدوي في سدر معرم بالرز ولحم الضأن، ذبح لأجلـه خمسة خراف، قال جلـوب وهو يمسح يده الملطخـة سـمناً ودهنـاً بطـرف حطتـه: المهاديـن جاهم غزوات من شي يوم.

ما هو منا يا كبير، بيـنا وبيـن العطيات حلف من يوم حربنا مع الصخور.

بس معلومات تقول أنه من الدبابيات يا شيخ.

منوه قال؟.

الجريح اللي تركوه، وامسكنا بيه.

- هاظا ما هو صحيح... قال الشيخ وهو ينظر عبر فتحة الخيمة إلى العساكر يتعاقبون على الأكل في مجموعات حتى يظلوا متهيئين بالسلاح.

وان صح .

اللي تأمر بيه يا كبير.

أريد منك ترجع السرقة، وكل قتيل من المهادين تدفعوا عنه أربع جمال.

ان الحكي صحيح.

أيش إن صحيح، يعني أنا كذاب.

أعوذ با ، اللي تقوله يصير.

- تصدق. ما ذقت مثل منسف الخرمان يا صاحب، لو من زمان عطيات انغزوا يا شيخ... قه قه قه قه.

العيون التي كان يرسلها جلوب للاستطلاع، اضافة إلى الأخبار التي يتناقلها البدو الذين تعرضوا للإغارات، أعطته فكرة واضحة عن تكتيك الوهابيين الحربي. فهم يغيرون عادة في الفجر، مما يشل القدرة الدفاعية للقبائل الشرق أردنية، فحاجة هذه القبائل للمرعى

تجبرهم على التوزع في مخيمات متباعدة ضمن مساحة واسعة بحثاً عن الكلأ، في الوقت الذي يفاجئ فيه الوهابيون، بأعدادهم الكبيرة، كل مخيم على انفراد. وما إن ينتهوا من ذبح رجاله وسبي نسائه وحرق خيامه وسوق جماله، حتى يكون خبر المذبحة قد وصل إلى مخيم آخر من خلال الناجين الذين غالباً ما ينجح بعضهم بالفرار والإنذار، فتتنادى العشيرة: البل يا عيال، البل... لكن قبل أن يتهيأ المنذرون للاستعداد أو الاستنفار أو الابتعاد، يصل الاخوان فيعملون فيهم السيف والخنجر والرصاص، ويواصلون إلى غيره من مخيمات القبيلة التي يفلح بعضها بالنجاة والهروب بالاتجاه المعاكس للجحافل الغازية التي يستمر بطشها حتى الظهيرة، ثم ترتد بأسلابها إلى عمق الجزيرة.

حاول زعل مراراً تشكيل تجمع دفاعي بلملمة تجمعات المضارب في مساحة محدودة، لكنه دائماً يواجه بمشكلة المياه فلا يستمر التجمع سوى أياماً معدودة ينفرط بعدها، ليبتعد كل فخذ بربعه بحثاً عن المرعى والمياه. ولم يكن حال القبائل الأخرى يختلف عن هذا الوضع، مما

يجعلـهم دائماً هدفاً سهلاً للاخوان الذيـن يمتازون بالدراية الحربية والقسوة القتالية وكثافة الجمـوع ، وكانـوا فـي تشكيلـهم الـدفاعي يعتمدون مبدأ " نوخ واعقلْ " ، حيـث يعقلون جمالـهم ويربطون مواشيهم في مراح داخلي يتوسط دائرة متراصة من الخيام التي تصنع في مجموعها حـاجزاً أمام أي هجوم، مما يمنع سلب مواشيهم التي تعتمـد عليهـا معيشتهم وتـنقلـهم وحروبهم، ويجعل من اختراق أعـدائهم لأحد منافذهم محاصراً بدائرة الخيام التي يكون كل من فيهـا على أتم استعداد، سواء أكانوا رجالاً أم صبية أم نساء. ففـي أقل من ساعة يـنبعث من المخيم جيش مـن المحاربيـن يـناور بيـن المعابر، التي يعرفونها حق معرفة، للابتعـاد قدر الإمكان والعودة إلى مخيمهم كأنهم غزاة، فيغيرون على المهاجميـن المشتبكيـن مع من تبقى بالمخيم من مدافعيـن.

قال جلوب في اجتماع مع عساكره بعد أن شرح هذا الوضع: هيك تكتيك يـنفع بيـن قبيلة وقبيلة، مـا يـنفع بيـن قبيلة وجيش.

لم يفهم عساكره ماذا يقصد بكلمة تكتيك ولا تجـرأ أحدهم بالسؤال عن معناها، فهم أصلاً عاجزون عن إعـادة

لفظها فأضاف: حتى بيـن القبايل فيه نقطة ضعيفة. إذا قبيلة حاصرت اخوان من غير هجوم، يوم يوميـن. راح يمـوت اخوان ويموت حيوان من غير مي وأكل.

قال فندي: وإن يا سـيدي خيلـوا عليــنا وحنّـا نحاصرهم؟ ترى الاخوان ما يرتدوا على اعقابهم ولو سـقط نص رجالـهم قبل ما يصلوا حد المهاجميـن.

- أنت تحكي عن أيام زمـان، هالحيــن فيـه مدفع، فيه رشاش، فيه ترك ما يخاف عجله الرصاص.

اتخذ جلوب قراره على المبـادرة بالاشـتباك مـع الوهابيـن، رغم تأكيد المقيم البريطانـي لـه من أن ابـن سعود تعهد بقمع الوهابيـن وكف يدهم عن الغزو، سواء في نجد أو الحجاز أو شرق الأردن. لكن جلـوب لـم يكتـرث لـهذه المعلومات. ليكف ابن سعود يد الاخوان عـن نجـد والحجاز، أما شرق الأردن فلـه وضـع مختلـف. يعتبـره جلوب محميته وعليه مسؤولية فرض حمايته بالطريقة التـي يرتئيها هو وليس كما يراها ابن سعود. كل ما حققه للآن من رهبة وسطوة وهيبة لا تساوي معركة فاصلة واحدة يـنكل فيها بالوهابييـن ويهزمهم شر هزيمة. سيولد بعد ذلك عهـد

جديد، يـنتهي فيه الغزو بيـن القبائـل، ويغـدو جريمـة يطالـها القانون المتسلح بفرسان يديـنون لـه بالطاعـة العمياء، حتى لو تطلب الأمر مطاردة الخارجيـن عليه إلـى أعماق نجد والحجاز.

ظـل يتابع الأخبار من خـلال رجالـه الذيـن يتقصون عنها من عوائلـهم وعشائرهم بانتظار حجة يحسم فيها الأمر، ويصبح أسد الصحراء.

ما أن وصل إليه نبأ تعرض عشيرة المرايعـة فـي الجنوب لغزوة من الاخوان، حتى انطلق علـى رأس قـوة البادية السيارة، في خمس تركات، ومعها ما يكفي من المؤن والماء والسلاح والعتاد والخيام. تتقدمهم سـيارة لانـدروفر عسكرية، جلس كلوب في المقعد الأمامي بجانـب السـائق، وخلفه جلس فندي متهيئاً مع رشاش فيكرز.

واجهت القوة صـعوبة بالاسـتدلال علـى موقـع المرايعة، مثلما كان الأمر مع الخرمان. لكن فراسة بعـض رجال القوة ومعرفتهم بـمسالك صحراء الجنوب، جعلـهم يتجهون إلى الشرق، ليستوقفوا بدوياً فوق ناقته قريبـاً مـن

تجمع صبية ونساء . انكبوا على نصـب خيـامهم وعقـل بهائمهم .

لميـن هادا خيم؟... سأل جلوب.

- ما أدري... رد البدوي متلعثماً وهو يـ ـنظر بخوف إلى الجيش المحمول بالتركات.

كيف لا تدري، انت هون والا مش هون؟

ما أدري.

كيف لا تدري، أنا أسأل انت هون والا مش هون؟.

خلّيـنـي بحالي يرحم والديك. آنـي شـريد ومـا أدري عن هاظي الديرة شي.

يعنـي أنت مش مرايع؟.

ما أدري.

- أوه جيسس، انت راح يعمل أنـا عصـبي، احكي صحيح، انت مرايع والا لأ، واللـه أخذ جمل هـادا، وأخلي عسكر يربطوك ويرموك في نص صحرا... وصرخ به: مفهوم.

أرخى التهديد مفاصل الرجل قبل أن تلمـع عيـ ـناه بلمعان قطعة الذهب التي لوح بها جلوب بعد ذلـك، فسـال

لعاب البدوي وسال معه صوته بأكثر مما طلب منه الكـلام:
اللي قلته صحيح يا القايد، هاظي ديرة المرايعة.
وانت منهم .
إي
والغزوة إيمته صارت؟
غزوة شنو؟.
وبعديـن !
- إي إي. تقصد غزوة اخوان. واللـه يا القايـد
ما خلّو ليـنا جمل ولا شاة ، هاظا غير اللي انذبح وهو يقول اشهد أن لا إلـه إلا اللـه .
ولويـن قاصديـن؟.
حناّ والا الإخوان؟.
يا رجل أنا عارف إنتوا هارب. أنا أسأل عن إخوان.
الطبيق يا القايد، الطبيق .
اتجهت الشاحنات إلى الطبيق بالالتفاف شرقاً حـول السلسلة الجبيلية الوعرة، ثم انحرفت باتجاه الغرب بـمحاذاة جرف طويل صامت كالقبر، يثير السهل الرملي الممتد أمامه الشعور بالضياع لخلوه من النبات والحيوان.

واصلت الشاحنات طريقها على هدى مخلفات الغزاة وتتبع الأثر الذي يجيده العديد من الفرسان، ولاسيما الـروث الذي تتفاوت سخونته صعوداً مع تقدمهم، وكانـت داخليـة جلوب في حيص بيص، وهو يكز أسـنانه بعصـبية رغبـة بتجربة رشاشات فيكرز ولويس بيـنما انتفخت كلمة " اطلاق النار" في صدره مثل فقاعة غاز يجاهد لتجشؤها حتى ترتاح انفاسه ولو خنقت رائحتها أنفاس سواه، فبـ ـمجرد ان لمـح هجانـيـن يهرولان مبتعديـن أمامه وهما يلسعان جمليهما بالسياط ويلتفتان بذعر إلى الوراء، حتى تجشأ مدفع إحـدى الشاحنات صليتيـن قبل أن يأمر جلوب بإطلاق النـار. لـم يبال وقتها بـمساءلة من بادر منفرداً وضغط على الزناد، بل رمى بقدمه فوق قدم السائق ضاغطاً بكل ثقلـه على دواسة البنـزيـن، فكانت بـمثابة أمر للشاحنات من خلفـه التـي هدرت محركاتها لتبعث الحيوية في الأرض الموات، وتثيـر عجلاتها زوابع الغبار والتراب.

إلا أن الهجانين وقد انتقلت الخشية من الموت إلـى ركوبتيهما، انحرفا إلى جرفيـن متقاربيـن، لا يكاد الوادي الرملي بيـنهما يتسـع لانسـياب جمـل واحـد، فتوقفـت

السيارات. لكن جلوب لم يعط فرصة لأحد بإبداء الـرأي أو النصح، وهو يقفز من السيارة طالباً من رجالـه أن يتبعـوه برشاشتهم، ومبقياً علـى بعضهم متهيئيـن بأسلحتهم فـوق ظهور الشاحنات.

توغلوا داخل الشق في مجموعتيـن متظاهرتيـن كل منها جرفاً متفقدة فيه الصخور وما يتخللـه من شـقوق. قبض في أحدهما على هجانٍ وحاول الثانـي الفرار فـأطلق على ركوبته النار.

ربطهما في مقدمة سيارة اللاندروفر، التـي راحـت تـنهب الأرض بهما وهما في ذروة الـهلع، وكأنه ألقي بهما في عمق الفضاء، وهما يشيران إلى هذا الجانب أو ذاك حتى يخلصا من هذه الورطة الجهنمية ولو بالخلاص على اخوانهم الذيـن تيقنوا مع وصول جلوب وفرسانه من حكاية طيـور أبابيل. بيـنما القـذائف تصلـهم إلـى داخـل مخـيمهم والرصاص يـندفع إليهم مسعوراً يـنهشهم كالأذـياب، ولم يتبق منهم أحياء سوى اثني عشر رجلاً اقتيدوا مشـياً علـى الأقدام بيـن الشاحنات. وأعيدت الأسـلاب إلـى المرابعـة الذيـن احتفلوا بجلوب احتفال الأبطال.

قدم الغزاة إلى محكمة الأمير شاكر بن زيد في عمان، فقضت عليهم بالموت وأعدموا رمياً بالرصاص في ساحة الملعب أمام دائرة الحكومة ، حيث تجمع الصغار والكبار من حضر وبدو وفلاحين ، وبحضور لجنة الإشراف على البدو المؤلفة من الأمير شاكر رئيساً وعضوية الزعيم جلوب قائد خفر الصحراء ونائب القائد العام .

قال جلوب بعد تنفيذ الإعدام، بينما تتعلق أنظار المتجمهرين به أكثر من تعلقها بالموتى والاحياء: لقد بدأ عهد جديد في شرق الأردن .

٣٠

لم يقو على الانتظار إلى الصباح ، رغـم اسـتجداء تمام ومحاولتها تهدئته: منشانـي يا بـو مـرزوق خلـيها لبكرة. العيل نايم. الصباح رباح.

- هسع يعنـي هسع. ودي أعرف كل شي..

- الحق علي اللي خبرتك. ودك تقلق راحتـه وكل اللي قالـه، حكي بحكي.

- هاظا عندك حكي. بس عندي ما يصير هيـك حكي، حكي... قال ذلك وهو يشد ثوبه، ويبتعد عنها قاعـدة في الفراش تـندب زلتها باللطم على خدها. لقد روح ابنهـا عن نفسه ليخنق زوجها أنفاسها . هيىء لـها بـأن فرحـان سوف يـحمل مرزوق من فراشه

ويقذفه من فتحة النافـذة قبـل أن يفـتح مـرزوق عيـنـيه: هيه ... مرزوق.. إنت نايم يا ولدي؟

- إيش بيه ..؟

- قم. قم. ودي احكي واياك كلمتيـن .

- ها الحيـن؟.

- إي. هالحيـن. ما تقول لي أنك ماكنت تسهر ببيروت.

- كنت أسهر للدراسة يابا.

- ودي احكي واياك حكي أهم مـن الدراسـة الـهاملة.

- ايش بيه يوبا..؟

- ساعة تقول لي يابا، ساعة تقول لي يوبا، علام لسانك صار اثنـيـن. كلـه من هاظي الناصرية.!

- شنهو..؟

- الناصرية.. تظن إنـي ما اعـرف شـي..؟ احكي لبوك عنها.. ولكزه بدلال في كتفه كاد يسـقطه علـى جنبه .

اعتبرها مرزوق مصادفة، ولم يعتبرها جبران كذلك، عندما ألح عليه المجيء إلى المحاضرة التي تـنظمها مديرية النساء في بيروت لأنطون سعاده، والتي جاء توقيتها بعد يوم واحد من انتهاء امتحانات الجامعة، كي يتجمع أكبر عددٍ من الحضور. أوكل لجبران مهمة حشد الشباب، بيـنما تـولى الدكتور صبحي المر دعوة كبار المثقفيـن والصحفييـن، بـمن فيهم رئيس تحرير جريدة الأيام الدمشقية الذي رافـق انطون سعاده إلى بيروت، ليقوم بالتغطية الصحفية بنفسـه. كان مفتوناً بانطون سعاده ومقالاته التي يقول إنها زادت من انتشار الجريدة.

في البداية رفض مرزوق بـجلافـة دعوة جبران.لا المحاضر يعنـيه ولا موضوع المحاضـرة. فالـدعوة إلـى الوحدة السورية غدا عنواناً دائماً لا يخلو منه عدد من أعداد مجلة الحائط "الأطباء". دون أن يكمـل يومـاً مقالـة بهـذا العنوان. هذه المرة جلبت المجلة انتباهه أكثر من سـابقاتها ، شأن جميع الطلبة الذيـن راحوا يتهامسون حول الكرتونـة التي تم تثبيتها أعلى المجلة.لكن ما كتب فيها لا يعنـيه.إنـه يتطلع للتخرج طبيباً لا علاقة لـه بالساسة والسياسة. ولـولا

هذا الطيف الزهري الذي ومض في حياته، لاعتبر الحب لغة المجانـيـن. لكنها ميسر التي تتميز على جميـع الفتيـات. قدمت نفسها إليه بعدما أوشك على الاستسلام لشدة ما أعيـاه التفكير بالطريقة التي يقدم نفسه إليها: أنا ميسر كنعان..

- هلا ورحب. أدري.

- تدري شو..؟

- أنوه اسمك ميسر..

ابتسمت بجذل ودخلت مباشـرة فـي صـلب الموضوع: فيه محاضرة للأستاذ انطون سعاده الساعة خمسة في مديرية النساء.

- أدري.. مالـت برأسـها متسـائلة، بيـنما ضربات قلبه ترنح القبة بكل ما فيها. أضاف متلعثماً: قصدي قريت الكرتونة المعلقة فوق مجلة الحيط.

- وبدك تحضر..؟

- ما أدري.

- هلأ كنت تدري كل شي... أضافت بـدلال: لازم تحضرها.

- إنت ودك تحضري..؟

- طبعاً. يا اللـه. صحيح أنـي قليلـة ذوق. كان لازم أتعرف عليك بالأول.

- مرزوق.

- بعرف اسمك. بس قصدي من ويـن إنت ؟.

- من البلقا . تعرفيها ؟.

- ميـن ما بعرف البلقا. قديش حابة أزورها. أنا من الناصرة . تعرفها.؟.

- ما أدري عنها إلا إنها بلد المسيح.

- حلوة كتير لازم تزورها.

- ويش لي بيها.. قالـها متحبباً .

- أنــا... قــالت واسترســلت: رايحــة للمحاضرة، بتمنى تحضرها إنت وكل الطلاب..

أقسم جبران أنه لا يعرف البنت ولا اتصل بها. لقـد أوكل لبعض معارفه من شبان الجامعة الترويج للمحاضـرة وربـما طلب أحدهم من ميسر المساعدة لسبب أو آخر. إنه ليس وراء تعليق الكرتونة أعلى مجلة الحائط. لو كان يدري أن حبيبة القلب تتابع أخبار أنطون سعاده، ولو مـن خـلال مجلة الحائط، لرافق مرزوق لدعوتها شخصـياً. ولربـما

جعل من مرزوق مراسلاً لتزويدها بكل ما يصدر من مقالات عن القضية السورية.

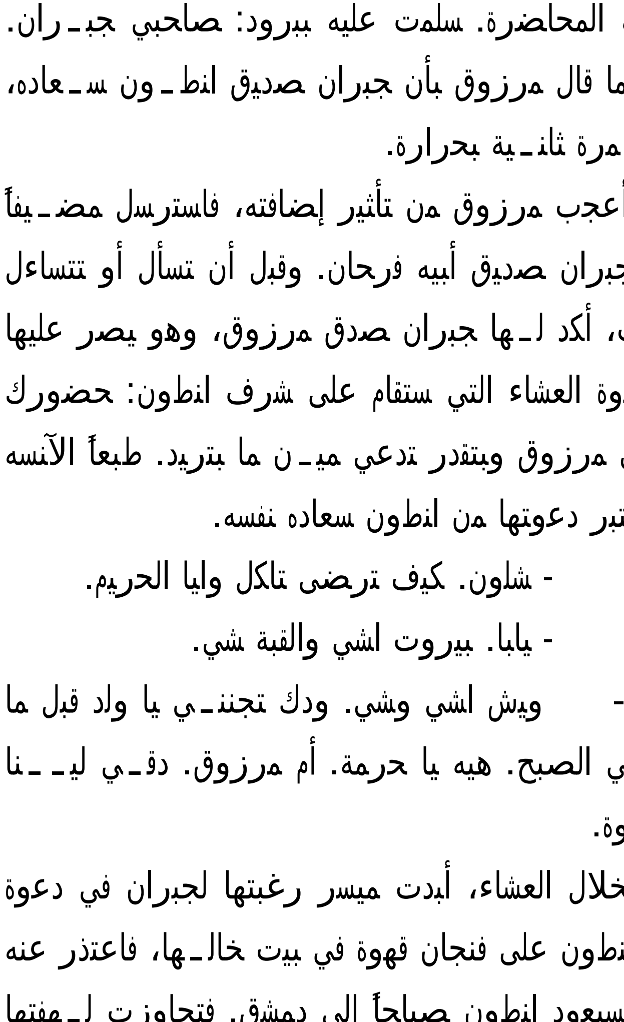
ما أن ابتدأ انطون محاضرته بالسؤال: من نحـن.. حتى ساد الـهدوء والصمت بيـن المجتمعيـن، لكنـه بـمجرد أن صرخ مجيباً: نحن سوريون.. حتى هب الجميع واقفيـن وصخب تصفيقهم وعلا ضجيج هتافهم بـمثل مـا ازداد خفقان قلوبهم الدافئة بـمجد ما يزال مستيقظاً منذ آلاف السنـيـن، ولاسيما قلب مرزوق الذي كاد يـنفطر عن كونٍ آخر دونه الكون المعروف المألوف، بعدما دفـع الحمـاس ميسر التي تقف بـمحاذاته، للقبض على ذراعه وهي تهزه وتردد مع الحضور: سوريون سوريون سوريون..

- بس لو شفت بيت خالـها يا بوي.

- لا تخلع عنـي راسي يا ولد. إرسي علـى لفظة وحده، يوبا والا يابا والا بوي.

- ما خبرتك منشرح وتقدر عـالمزح يـا بـو مرزوق.

- إلمهم، اهرج اهرج ودي اسمع كـل شـي عنها.



لم تـنتبه ميسر لمجيء جبران للسلام على مرزوق في نهاية المحاضرة. سلمت عليه ببرود: صاحبي جبـران. لكن عندما قال مرزوق بأن جبران صديق انطـون سـعاده، صافحته مرة ثانـية بحرارة.

أعجب مرزوق من تأثير إضافته، فاسترسل مضـيفاً بأن أبا جبران صديق أبيه فرحان. وقبل أن تسأل أو تتساءل أو ترتاب، أكد لـها جبران صدق مرزوق، وهو يصر عليها قبول دعوة العشاء التي ستقام على شرف انطون: حضورك مهم خيي مرزوق وبتقدر تدعي ميـن ما بتريد. طبعاً الآنسه ميسر تعتبر دعوتها من انطون سعاده نفسه.

- شلون. كيف ترضى تاكل وايا الحريم.

- يابا. بيروت اشي والقبة شي.

- ويش اشي وشي. ودك تجننـي يا ولد قبل ما يطلع علي الصبح. هيه يا حرمة. أم مرزوق. دقـي ليـ ـنا شوية قهوة.

خلال العشاء، أبدت ميسر رغبتها لجبران في دعوة الأستاذ انطون على فنجان قهوة في بيت خالـها، فاعتذر عنه جبران، سيعود انطون صباحاً إلى دمشق. فتجاوزت لـهفتها

بدبلوماسية: الأيام جاي. لما يرجع لا تـنسى تدعيه نـيابة عنـي استاذ جبران. بس هادا ما بعنـي انوه الدعوة تأجلت بكرة بتتفضل إنت ومرزوق لعندنا. بتتعرفوا علي خالي- لو تعرف قديش هو معجب بأنطون سـعاده- ومنهـا بنحتفـل بالخلاص من الامتحانات ولو بفنجان قهوة .

- وتعرف تقهوي مثل أمك؟

- قهوتهم حلوة يابا.

- ول على أهل المدن إنت ما تـدري لـويش يحلون القهوة؟

- قل لي.

- منشان يشيلوا المرارة اللي معشعشة بحلوقهم.. ما يغرك أهل المدن إن ركبوا أوتومبيل وسكنوا قصور. حناّ أحسن يوبا. لساننا يتذوق زين ويلغي زين.

انعقد لسان مرزوق بـمجرد أن توقفت السيارة أمام البيت المطل على بحر جونـيه. لم يكن بيتاً مثل سكنه فـي بيروت، ولا قلعة مثل سكن أبيه. كان قصراً حقيقياً كما ورد معناه في القاموس: هيدا بالاس، ماهو بيت.. قال جبران الذي كان أقل انبهاراً وهو يحملق بالبيت الذي طغت أناقته علـى

فخامته، كأنه مرسوم بريشة فنان خبير بالألوان التي توزعت بإتقان من قمته القرميدية الحمراء إلى أرضيته الخضراء.

فتح الخادم الباب، لتطل ميسر بثياب أنـ ـيقة أكثـ ـر ثراء بالورود من الحديقة التي تأخذ الألباب.

أصر مرزوق على جبران كي يتقدمه حتى لا تلاحظ ميسر انفعالـ ـه وارتباكه. إنه لم يدخل بيتاً مثل هـ ـذا طيلـ ـة حياته، وفي داخلـ ـه تشكلت لديه قناعة بأنه لن يدخل مثلـ ـه أبداً.

كانت الصالات واسعة، لمع الرخـ ـام الأملـ ـس فـ ـي أرضيتها، وتوزعت فوقها مجموعات مـ ـن مقاعـ ـد وثيـ ـرة بأشكال وطرازات عديدة. تجاورها مناضد من خشب الـ ـورد حملت أوانـ ـي مزخرفة وتدلت من السقف ثريـ ـات نحاسـ ـية شعت أضواؤها مثل شموس تتـ ـزيـ ـن بعقـ ـود الكريسـ ـتال: تحبو نقعد جووا والا على البرندة .

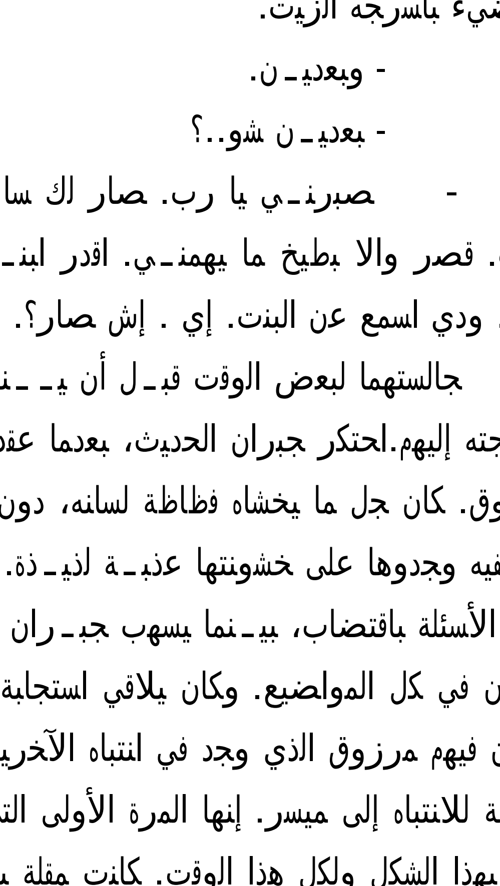
كانت مقاعد الشرفة من قصب الغاب المنجـ ـد علـ ـى الطراز الانكليزي، تلألأت أضواء الكهرباء فوقها وحولـ ـها وعلى امتداد الحديقة، بيـ ـنما البحر نائماً إلا من نقاط ضوئية

متـناثرة هنا وهناك، وكأنها تـنبعث من مساكن قرى نائيـة تستضيء بأسرجه الزيت.

- وبعديـن.

- بعديـن شو..؟

- صبرنـي يا رب. صار لك ساعة تحكي عن البيت. قصر والا بطيخ ما يهمنـي. اقدر ابنـي ليك أحسن منوه. ودي اسمع عن البنت. إي . إش صار؟.



جالستهما لبعض الوقت قبـل أن يـنضم خالـها وزوجته إليهم.احتكر جبران الحديث، بعدما عقد الحرج لسان مرزوق. كان جل ما يخشاه فظاظة لسانه، دون أن يدري أن مضيفيه وجدوها على خشونتها عذبـة لذيـذة. فكان يجيـب على الأسئلة باقتضاب، بيـنما يسهب جبـران وهـو يقحـم انطون في كل المواضيع. وكان يلاقي استجابة من الجميـع بـمن فيهم مرزوق الذي وجد في انتباه الآخريـن لجبـران فرصة للانتباه إلى ميسر. إنها المرة الأولى التي يكون قريباً منها بهذا الشكل ولكل هذا الوقت. كانت مقلة بالحـديث، إلا أنها واثقة النفس في الإصـغاء والمحـاورة ، ولمـا أراد مرزوق المشـاركة سألـها لمـاذا رسـبت فـي السـنة

الثانـية؟.تغيرت تعابير جبران الذي قال في نفسـه: اللـه يفضحك. لكن ميسر أوضحت بثقة ولباقة، لقد مرضت أثنـاء الامتحانات وتغيبت عن معظمها . الصـحة أولاً. هـذا رأي الأطباء. قال جبران لمرزوق وهما يغادران: يخـرب بيتـك على ها الوقعة يا مرزوق.

- هز فرحان رأسه قليلاً وهـو يسـأل بنبـرة احتقان: هيك قال ليك؟.

- يمزح يوبا. جبران مليح.

- لا تاخذها بالمزح؟ ترى يمكن العيل يحسـدك هه. ودك تدير بالك منوه. إي وبعديـن؟...

- إش بعديـن؟. علّمتك بكل شي.

- يعنـي بنت أكابر مثل الحجاج.

- إش حجاج يوبا. أكثر أكثر بكثير.

- الكثير قليل عليك يا صليـبي. إي وبعديـن؟

- هو ظل بعديـن؟.

- إي ظل. لا تجننـي. ودي أعرف كِلْ شـي عن الناصرية.

- مانـي داري لويش إنت قلقان بالبنت هالقـد يوبا؟.

- بعدك ما دريت يا فهيم؟!... وصرخ بـأعلى صوته: لأنـي ودي إياك تتجوز.

- شلون..؟

- إي. والناصرية اللي يحبها قلبـك ..وغـادره وهو يلوح بيده كأنه يرقص الدبكة، بينما يلاحقـه مـرزوق بنظراته كالمأخوذ. لم تكن تمام أقل ذهولاً: إش ها الحكي يا بو مرزوق؟.

- إش هالحكي !. والا ما يطيب ليك إلا الحكـي عن جيزتي. منوه الأولى يا بنت الجريمـات.تجوزيـنـ ـي آنـي والا تجوزي ولدك.يرضيك يظل هيـك،واللي بعمـ ـره صار عنده ولاد .

- إش اللي صار لك بحق المسيح.أمس كنت ودك تجوز مسلم وهالحيـن ودك تجوز مرزوق.

- وانت ما ودك إلا تجوزي جوزك.

- هـ ..هـ..هـ.. هو. قصدي إنوه ما ندري شي عن البنت .

-        كل هالحكي اللي حكاه، وبعدك ما دريتي شي عن البنت. اسمعي. إلمهم أنوه البنت عاجبته وعاجبتنـ ـي. آنـي ما يرضيـنـي يتجوز إلا من الناصرة. تفهميـ ـن؟. ويا ويلـه إن قال لع. وإن قالـها، تسحبيه وايـاك للكـرك، وتكون النهاية بيـنـي وبيـن ربعك الجريمات.

٣١

للمرة الأولى يـنتاب مال النبي مثل هـذا الشـعور. طيلة عمره تصدق وتوقعاته فلماذا خذلته الآن،؟. لـم تكـن عودة الختام إليه توقعاً واحتمالاً، بل كان متيقنـاً مـن ذلـك بـمثل تيقنه من استحواذه على المبنـى المتصـدع بـأبخس الأسعار. ثم تـنشق الأرض عن هذا الفريد ليسرق اللقمة من أمام فمه. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فهو مذ طلبت منـه الوكالة اليهودية إنشاء دار للسيـنما في عمان وهـو حـائر بيـن استئجار مبنى مناسب لـها، أو بناء صالة، رغم أنه لا يؤمن بجدوى المشروع وهو الذي لا يفصل بيـن المصـالح الشخصية والمطامح القومية. استجاب رغماً عنه، لتقفل دونه الأبواب. لم يجد مالكاً واحداً يوافق على تـأجير مبنـاه داراً للسيـنما. بيـن أهل البلادة والمدنية عداء قديم يلزم لإزالتـه سنوات من أضواء الكهرباء. أما ابنه الوحيد عبد اللطيـف، على حمقه، فليس لـه سواه لإدارة هذا المشروع. سـيقوده بالتأكيد إلى كارثة ماحقة. فعبد اللطيف لا يلبيه دون عشرات

الأسئلة السخيفة والتعليقات المحرجة فكيف به مع مشروع لم تخبره البلدة بعد.

الآن يحس بأنه ما يزال في موقعه رغم امتداد يـده إلى جيوب العديديـن. هذا الفريد الذي لم يحسب لـه حساباً حتى وهو يشاركه تجارة المحرمات، يسرق زبونه من داخل محلـه، ليرفع لـه عمارة أكبر حجماً وأفخم حالاً. ويتوجها بصالة سيـنما، جعلت أهل البلدة يتحدثون عنها ولـم تفتـتح بعد. إنه بقدرته وأموالـه ونفوذ الوكالة اليهودية من خلفه، ما يزال متردداً أمام هذا المشروع ، فكيف تجرأ عليه الختّـام، ومن أيـن التمويل؟ من هذا الفريد الموسوم بالشذوذ.

سارع وقبل استكمال مبنى الختّام، ببناء صالة كبيرة في أرض آلت إليه على سفح القلعة. جاء البناء مستطيلاً دون سقف، وطليت الجدران بالكلس الأصفر، باسـتثناء الشـمالي منها، طلي الأبيض. وأعلن في فترة قياسـية عـن افتتـاح سيـنما الأمارة الصيفية ، بعدما جيء لها من حيفا بـموتور الكهرباء ومقاعد خشبية مفردة.

أخذ العرض الافتتاحي من عقـول النـاس، الـذين تعربشوا علـى الجـدران واعتلـوا الـ ـهضاب المطلـة

علىالحائط الأبيض، بيـنما الغرامفون يصدح بالموسيقى مع حركات شارلي شابلن البهلوانـية، مما جعـل المتفرجيـ ـن داخل الصالة وعلى المرتفعات يبيتون ليلتهم متعوذيـن مـن الشياطيـن " يا ناس، البنـ ـي آدميـ ـن بتتحـرك علـى الحيطان". " ناوييـن الانكليز يكفرونا بديـننا الحنـيف" .

توالت العروض لبضعة أيام، قبل أن توقفها الشرطة، بعدما احتشد أصحاب صناديق الفرجة أمام السيـ ـنما التـي تهدد مهنتهم وتريد سرقة خبز أطفالـهم، مجاهديـن للحيلولة دون دخول المشاهديـن. لما عجزوا راحوا يرمون كل مـا يقع بأيديهم عبر السقف المفتوح إلى صالة الكفر التي تتقـافز على حائطها نسوة سافرات بغير حياء. إذا كان الرسم الجامد والنحت الأصم حرام، فكيف به عندما تتحرك الصور كأنهـا دبت فيها الحياة. بلغت الإصابات العشرات أما عبد اللطيـف فقد ولى الأدبار متخلياً عن آلة العرض ومستلزماتها وفـيلم الجنون الذي أصاب البلدة بـمرض الجنون.

مرة أخرى أحس مال النبي بالخذلان، أراد اسـتباق سيـنما الشام بهذه الصالة الصيفية التي أقامها بأقل التكاليف، فانهمر عليه الشتاء صفائح وحطباً واحجـاراً، ليفاجـأ مـرة

أخرى بـمحل شاميات يشغل أحد مخازن البناية ، بيـنما يشغل فريد ثلاثة آخريـن، يعرض فيها سيارات فاخرة جاء بها من فلسطيـن. سيـنما من فوق وسيارات من تحت! إلى أيـن تسير عجلات فريد.

في البداية سيطرت فكرة تسيير خط للحافلات علـى تفكير فريد، تطلع لأن يكون رائداً في هذا النشاط الـذي لـم تعهده عمان، كما سيساعده في عمليات التهريب. إلا أنه وهو يراقب الرصيف المواجه للمبنى، حيـث تتوقـف الحـافلات للتحميل والتـنـزيل في تحركها بيـن الشام وفلسطيـن، غض النظر عن اتخاذ عمان مركزاً لـهذا العمـل. فعـدد الصاعديـن والنازليـن لا يستحق تسيـير خـط مباشـر يـنطلق من عمان إلى الشام وفلسطيـن، لكن الخـط كـان ضرورياً للمهربات. خطر ببالـه عشرات الوسائل. ولاسيما وأن أجسام الحافلات يتم تصنـيعها في حيفا وفقاً لمتطلبـات الزبون، ولم يكن يلزمه من الإضافات سوى خـزان وقـود احتياط، كما قال لـه مورد الحشيشة اللبناني.

ذهب إلى حيفا واطلع عن كثب على عمليات الصنع. الأمر ميسور في أي وقت يريد، كما قال صاحب المصـنع.

فاتخذ قراره بالحال، على أن تظـل عمـان نقطـة توقـف للحافلات المنطلقة من محطتيها الرئيستيـن في القدس والشام .

تجول في شوارع حيفا الصاخبة بالحيوية والحركـة النشاط، فأدهشه ازدهار أحوال النـاس ورقـي حـالـهم ورخاء عيشهم . عرج على وكيل سيارات أمريكية في شارع الملوك.

استقبلـه صاحب المعرض بترحاب رافقه في تفقـد السيارات التي غلب عليها الطلاء الأسود.

قال الرجل بأنه الوكيل الوحيد لـهذه السيارات فـي الشرق الأوسط، فوضعه فريد على المحك. إنه على استعداد لدفع ثمن سيارتيـن سلفاً، على أن يصبح وكيلاً فرعياً فـي عمان يزوده صاحب الوكالة باثنتـين إضافيتين يسدد ثمنهما بعد البيع، فإن نجح طلب المزيد، وإلا تعود السيارتان إلـى حيفا بـمثل حالة مجيئها إلى عمان.

بيـن أخذ ورد، تمت الصفقة. لكن الرجل اشـترط تقديم ضمان معقول: ولو. بدك تعـرف ضمانـتي، تعـال لعمان واسأل عن مبنى الشام.

صعق مال النبي وهو يشاهد فريد متصدراً طاولة أنيقة في المعرض الذي تنتصب فيه السيارات مثل قبور العظماء. كانت الحشود أمام المعرض تتزايد يوماً بعد يوم، حتى غدا المكان ملتقى أهل عمان، مما ساعد على تحرك البضائع في محل شاميات، وصار فريد الأدهم يشار له بالبنان، سواء أكان راجلاً أم متنقلاً بإحدى السيارات: الدنيا آخر زمن يا ناس. صاير فينا مع الانجليز مثل ما صار للمصريين مع الفرنسيين.

عبر وجه مال النبي عن غضبه عندما سأله ابنه متحبباً ،متى سيقتني سيارة كتلك التي في المعرض. هذا الأحمق، كيف يمكن أن يكون من أبناء يعقوب؟. تنهد وهو يقول بصوت مسموع: لأشوف وين بدوه يصل تهورك... هز رأسه غيظاً، بينما أطرق ابنه خجلاً وقد ظن أنه المقصود.

٣٢

استغربت زيـنات يقظة الحكاية التي ابتلعها النسيان: وميـن هو بشارة هادا؟. واحد جربوع. عندي ألـف مثـل حكايته. خود منهم اللي بدك إياه. .

- لا تطلعي علي بالعالي وتضلي تغلطي عليه. إنت عارفة إنـي شغلته عندك لأنوه موهوب.

- بلا موهوب بلا بطيخ. صحاره مـا بعـرف يسوي، وبدك ايانـي أخليه عندي.

- أنا كنت بدي إياه للمسرح.. أضاف بصـوت حاد ضارباً يده بطرف الأريكة: اللي كان أبوي يتمنى يسويه.

- وهي وقفت على هادا الجربوع... صـرخت بالمقابل.

- لا تضلي تقولي عنه جربوع إزا بـدك مـا أزفر لسانـي.

جاب الصراخ ثائرة: ويش بيه؟ لويش معصب هيك ؟.

- ولا شي. ولا شي.

غادر حانقاً متوتراً، تاركاً أمه أكثر حنقاً وهي تتساءل كيف خطر على باله هذا المخلوق. بينما توعدها سيف وهو يتجه إلى الجريدة: بدها هيك بين فترة وثانية..

لم يكن بشارة وراء شعوره بالخذلان، ولا مناكدات أمه وتسلطها على شؤون البيت ومصالح العائلة. غمر وجهه براحتيه وهو يتصدر طاولة المكتب. ظل على هذه الحالة دقائق طويلة، يستذكر مراراً لقاءه الأخير مع الحاج أمين، بمشاهد تتنوع فيها الصور والحوارات. تارة يقول للمفتي بأنه لم يعد يؤمن بنهجه السياسي، وتارة أخرى يخبره بأنه ذاهب للانضمام للقسام. وفي النهاية يلقي اللائمة على نفسه: تعودت على الحرب وبدك تحارب مين ما كان...

أيقظت مشاركته في احتفال المولد النبوي مع القسام رغبته الملحاحة للتصدي والتحدي ولربما للقتال. بمثل ما أيقظت مكالمة صلاح الهاتفية رغبة أخرى كاد يطويها النسيان. فبمجرد أن وضع سماعة الهاتف التي نقلت إليه الدعوة لمسرحية صلاح الدين، حتى تذكر مسرحيته التي تجاوز فيها دور البطولة على الخشبة إلى المشاهدين في الصالة ومعهم إلى الشارع كي تقوم الدنيا ولا تقعد. هكذا

المسرح كما ظل مؤمناً به، يعبر عن حالة الأمـة ويـ ـنطق بآمالـها ويئن من آلامها ويوقظ التاريخ في وجـدانها. لقـد تغيرت قناعاته أو أنها استكانت مع هذا الجهد السياسي الذي جعلـه تابعاً للحاج أميـن، بيـنما كان في صغره مسـتقل الإرادة قادراً على المبادرة، يترك النضال الورقي لأصحاب الكلام، ويترجم بحيويته وعنفوان شبابه جرأة أبيه وشجاعته. باتت خطواته متعثرة مهتزة وهو يواكـب فيهـا خطـوات المفتي، بعدما كان واثق الخطى في تقدمه على الزعامـات. لتغدو ذكرياته عذاباً وإن كان يبهجه الحديث عنها واستذكارها مع الآخريـن. إلا أنه في اختلائه بنفسه يشعر بهـا مرضـاً عضالاً يـنهش عمره الضائع فـي اللقـاءات والمـؤتمرات والمنشورات. أحياناً يحس بالشيخوخة تضنـ ـيه وأنـه مـع الموت على موعد قريب. وأحياناً يحس بأنه قطع الصـحراء بحثاً عن واحة خضراء، ليحظى بعد انقطاع أنفاسه بقطـرة ماء. أيـنه سيف الحجاج الذي خبر السـلاح حبـواً وأجـاد استخدامه غضاً فتياً.. أيـن سيف الحجاج جريحاً في القتـال بيـن رفاق السلاح، زعل وتوفيق وأنور وفرحان..؟ أيـ ـن سيف الحجاج في ميسـلون وأحـداث البـراق؟. " ويـ ـن

تاخذنـي يا خيال؟". " مجنون اللي يقول عنك مدنـي". لكنه الآن مدنـي مستكيـن كثير الكلام قليل الأفعال.حتى رغبته في إنشاء مسرح فلسطيـنـي نسيها ولم يعـد يتـذكرها أو يعبأ بها، رغم إنها كانت حلماً كبيراً لا يستلزم منه إلا فعـلاً صغيراً. وبدلاً من أن يصبح رائداً فيه، يخلد معه اسم أبيـه، انتقل الحلم والفعل إلى سواه: ضروري تحضر سيف بيـك.. بيك بيك. ألأنه ابن الحجاج، أم لثرائه الذي لم يعبأ لـه يوماً ولا اعتز به :إذا قدرت استاذ صلاح... اسمه صلاح واسـم مسرحيته صلاح الديـن. بهذا يتماهى المبدع مع أنموذجـة في التاريخ: واللي بـمثلوا من ويـن؟.

- معظمهم طلاب.

- وميـن بدوه يمثل شخصية صلاح الديـن؟.

- عندي اثنـيـن تدربوا على الـدور. واحـد رئيس وواحد احتياط. ما حدا بعرف شو ممكن يصير .

- يعرف ممثل كبير مهم اسمه بشارة... قاطعـه صلاح: سمعت عنه ودورت عليه بس ما حدا بعرف ويـن هو.

حتى بشارة المسكيـن الذي لا يجيد سوى التمثيـل، باق به وتخلى عنه ورماه لأمه ليصنع الصحاحير: إذا لقيتـه راح أودي لك إياه .

- هلأ الوقت فات والمسرحية الأسبوع الجـاي. المهم ضروري تحضر سيف بيك. لأنوه المسرحية برعايـة الشيخ عز الديـن القسام: ويا ريت تـنشر عنها خبـر فـي الزفير.

لم يخف الحاج أميـن امتعاضه من الإعلان، وإبراز اسم القسام بالخط العريض باعتباره راعياً للمسرحية ورئيساً لجمعية الشبان المسلميـن: شاطريـن يطلبـوا منـا نتـرك احتفال المولد في الأقصى، منشان احتفالـهم في حيفا، ومـا بقدروا يوجهوا لنا دعوة للمسرحية .

- الدعوة عامة يا حاج. هيك طلبـوا منـي أكتب في الإعلان.

- احنا من العامة يا سيف !!

بعد حضوره المسرحية، كتـب مقالـة أشـاد فيهـا بالعرض، رغم قناعته بأنه دون المستوى المطلـوب. أشـاد

أيضاً براعي المسرحية، الشيخ القسام. شـيخ منفـتح علـى الدنـيا وليس منغلقاً على الديـن .

نجاح المسـرحية كـان نجاحـاً لجمعيـة الشـبان المسلميـن. يكفيهم تلك الحشود التي تجمهرت فـي عـراء الباحة داخل أسوار مدرسة البرج، فتزاحم الحضور جلوسـاً على المقاعد وقعوداً على الأرض ووقوفـاً فـي الباحـة أو متعربشيـن فوق الأسوار. تذكر سيف ما قالـه بشارة يوماً: الجمهور وحده يصنع المسرح.. فوضع العبارة عنواناً لمقالته التي أثارت استياء الحاج أميـن: شو ها الجمهور اللي نصه، مثل ما بتقول، أمييـن وعمال وفلاحيـن وحجارة. هـدول جاييـن يتسلوا مش يستفيدوا.

- المسرح تسلية قبل ما يكون رسالة يا حج. إذا ما استمتع المشاهد فيها، لا من المسرح ولا مـن رسـالته. صحيح أنا قلت انوه نص المتفرجيـن أمييـن، بـس هنـاك النص الثانـي اللي أنا منوه. بقول يا حج، نعمل مثل الشـيخ القسام، ونحيي المسرح في مدارس القدس التابعة للمركز.

- شوية شوية راح تطلب منا ننجر ورا القسام بكل شي...

- شو القصد يا حج..؟

- ما قصدت شي. بس مش معقول كل ما يعمـل القسام شي، تعمل مثله. أنا المفتي ورئيس المجلس الإسلامي، مش شيخ جامع مثل القسام. إنت أذكى من إنه يغيـب عنـك القصد من المسرحية. كل اللي قاعد يصير في حيفا دعايـة للقسام. ما بدي أتهم، بس لوما الانجليز راضييـن عن اللـي بسويه ما تركوه بحاله.

حيـنها فقط أحس بعظم الخطر الذي يشكله القسـام على الحاج أميـن. رجل يعتبر أن القضـية الوطنـية لا يمكن أن تحل إلا بالتفاوض مع الانجليز، يلمح بعمالة القسام الذي يجاهر بالدعوة إلى الجهاد وقتال الانجليز قبل اليهود.

ظل صوت صلاح الديـن يدوي في أذنـيه طيلـة ليلته عندما استـجداه أرناط العفو: استجدي عفوك يا صلاح الديـن. جربنـي وسأظل موالياً لك طول السنـيـن فيجيبه صلاح الديـن: من جرب المجرب كافر. سـيقطع رأسـك وتعلق أعضاؤك في كل المعابر.

اتخذ أمره على كتابة مقالة أخـرى فـي الصـباح بعنوان" من جرب المجرب كافر" لكنه بعدما استيقظ تراجـع

عن عزمه ونسي الأمر. وبدلاً من ذلك كتب مقالـة بعنـوان "الجنة تحت ظلال السيوف" دون أن يشير في مقالته للقسـام الذي ردد العبارة مراراً يوم المولد النبوي.

اتصل به صلاح، بعد يوميـن، يشكره على المقالـة ويدعوه للغداء الذي يقيمه أخوه أحمد احتفـاء بفـوزه فـي مناقصة تزويد السفن الراسية في الميـناء بالمياه، وفهم سيف الرسالة على أنها دعوة للقاء القسام: تاريخك وتاريخ عائلتك معروف للجميع يا أستاذ سيف.

استغفر ا .

- نستغفره في السراء والضراء ، أعرف بـأنك قاتلت مع الثورة ، وقاتلت فـي ميسـلون ، وحكـم عليـك بالإعدام.

حلقت روح سيف بخيلاء رغم تعابير الأسـى والحسرة في وجهه: إيه. أيام.

- الجايات أحسن من الرايحات.

- ما ظنـيت... قالها وهو مطرق

- إذا أنت متشائم. أنا متفائل أستاذ سيف.

- يا هنـيالك...

- ما حكيت اللي حكيته حتى تجاملنـي.

- أأمرنـي يا شيخ.

- كل اللي معانا شوية مصاري..

رفع رأسه وتفرس بالقسام للحظة قبل أن يقول بكمد وإحباط: ماشي، قديش عايزيـن؟.

- لا تفهمنـي غلط. ما بدنا منك مصاري. بـدنا نعطيك المصاري اللي معنا، تشتري لنا فيها شوية سلاح من شرق الأردن.

- ومن ويـن اشتريه؟.

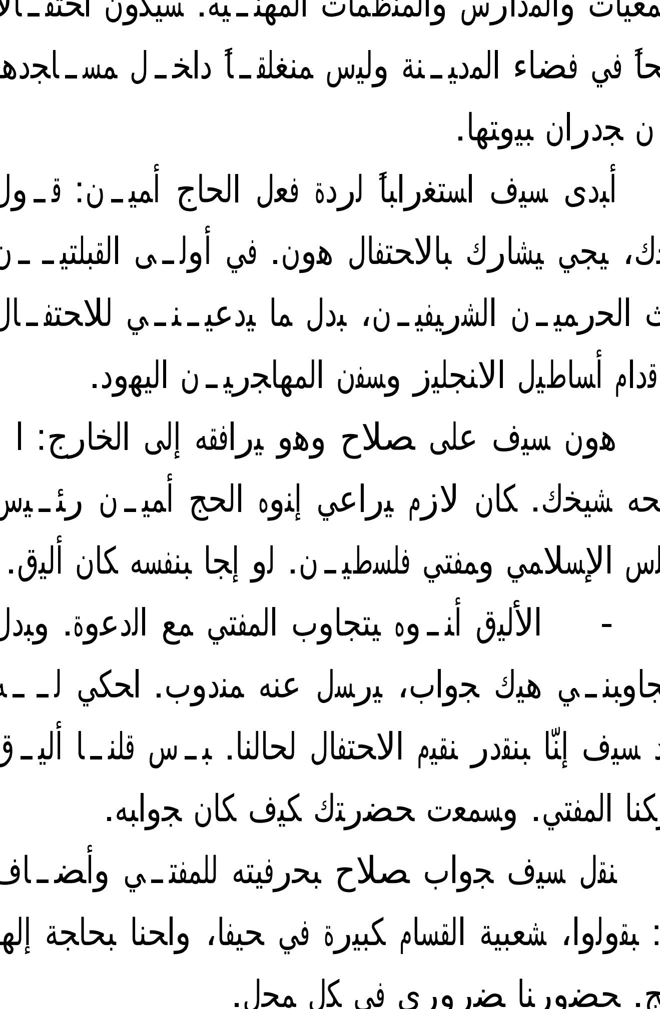
- من نسايبك الجبيلية.

٣٣

لم تختلف احتفالات القدس بالمولد النبوي ذلك العـام عنها فيما سبق من أعوام. أزدانت الشوارع بأعلام القيسيين واليمنـيين. ورفعت حبال لمبـات الكهربـاء، وضـجت المتاجر بالحركة وتضاعف انتاج محلات الحلويـات، كمـا خفقت رايات العائلات الكبيرة، لاسيما عائلة المفتـي . ودأب العمل في كناسة المساجد ونفض سجادها وغسـل أرضـيتها وتلميع زجاجها وتفقد أضوائها التي ستتوهج مـع الغـروب لاستقبال المحتفليـن، وكان الاهتمام بالمسجد الأقصى أكثـر من سواه، حيث سيرعى الحفل رئيس المجلـس الإسـلامي الأعلى، المفتي الحاج أميـن.

قبل يوم من الاحتفال، جاء رسول من حيفا. يـدعى صلاح نايف، يدعو المفتي للمشاركة باحتفالات المديـنة التي تبدأ من صلاة الظهر وتستمر إلى ما بعد صلاة العشاء.

قال صلاح بأن احتفالات حيفا لن تكون تقليدية كمـا السابق. رئيس جمعية الشبان المسلميـن، الشيخ عز الديـن القسام، دعا لاحتفال موحـد تشـترك فيـه جميـع الفئـات



والجمعيات والمدارس والمنظمات المهنـية. سيكون احتفـالاً مفتوحاً في فضاء المديـنة وليس منغلقـاً داخـل مسـاجدها وبيـن جدران بيوتها.

أبدى سيف استغراباً لردة فعل الحاج أميـن: قـول لشيخك، يجي يشارك بالاحتفال هون. في أولـى القبلتيـن وثالث الحرميـن الشريفيـن، بدل ما يدعيـنـي للاحتفـال معه قدام أساطيل الانجليز وسفن المهاجريـن اليهود.

هون سيف على صلاح وهو يرافقه إلى الخارج: ا يسامحه شيخك. كان لازم يراعي إنوه الحج أميـن رئـيس المجلس الإسلامي ومفتي فلسطيـن. لو إجا بنفسه كان أليق.

- الأليق أنـوه يتجاوب المفتي مع الدعوة. وبدل ما يجاوبنـي هيك جواب، يرسل عنه مندوب. احكي لـه ياسيد سيف إنّا بنقدر نقيم الاحتفال لحالنا. بـس قلنـا أليـق يشاركنا المفتي. وسمعت حضرتك كيف كان جوابه.

نقل سيف جواب صلاح بحرفيته للمفتـي وأضـاف عليه: بقولوا، شعبية القسام كبيرة في حيفا، واحنا بحاجة إلها يا حج. حضورنا ضروري في كل محل.

- قالت زيـنات: جاجة حفرت علـى راسـها عفرت.

- قالت ثائرة: انت روح وما عليك. وما يصـير غير اللي يرضيك وازود، بس ما تخاف.

كان سيف يحافظ على تقليد العائلة في هذه المناسبة، احياء لذكرى أبيه. فيقيم أمام السرايا سـرادق مفتوح للفقراء والمعوزيـن وعابري السبيل، بيـنما المقرؤون يتلون الآيات القرآنـية والمنشدون يشدون بالأغانـي الديـنـية، لحيـن صلاة العشاء فيؤم بهم سيف، قبل أن يتولى خدمتهم وتقـديم الأطعمة والأشربة والحلويات لهم. ويختم الاحتفال بالـدعاء لآل الحجاج وهو يوزع زكاة أمواله على جموع الفقراء.

لكنه وبعد أن ورط نفسه بـما قاله للحاج أميـن، اضطر لإنابة أمه وزوجته عنه، بعدما كلفه الحـاج أميـن بالذهاب إلى حيفا والمشاركة باسم جمعية البر والإحسان في الاحتفال الموحد الذي دعا إليه القسام.

وصل إلى جامع الاسقلال، بعد آذان الظهر، فوجـد الصلاة منقضية والمسجد شبه خال إلا من بعـض العجـزة المتراميـن هنا وهناك. أقام الصلاة منفرداً ثم سأل أحـدهم

عن إمام المسجد، فقيل له بأنه غادر بعد الصلاة: يا عم أنـا جاي من القدس. ولازم أشوفه. ويـن بقدر ألاقيه؟.

- في البور.

- وكيف بدي أندل عليه؟.

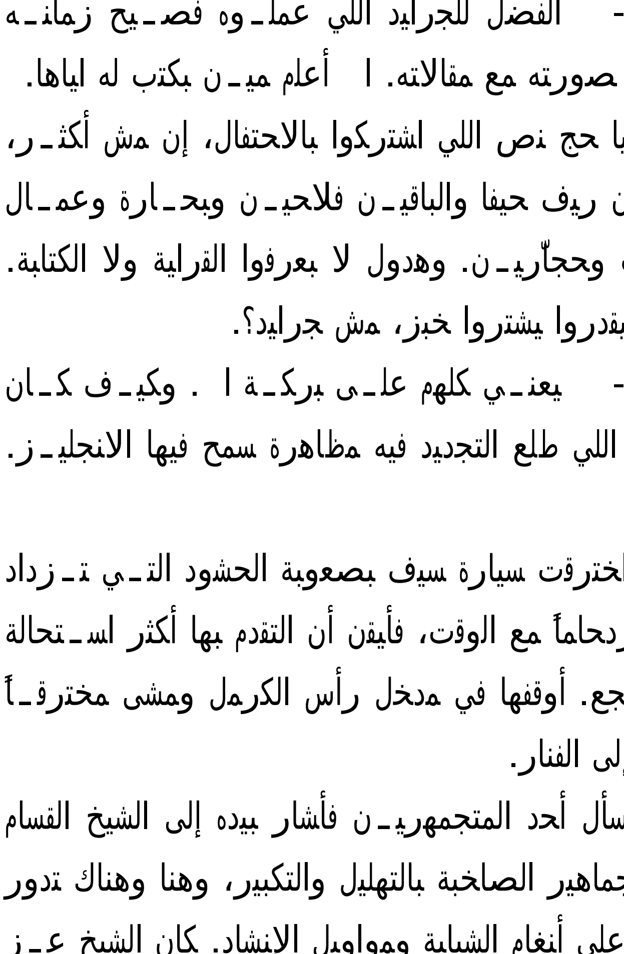
- اسأل ميـن ما كان، بدلّك عليه.

أنصت الحاج أميـن لسيف وهو يحدثه عن تفاصيل رحلته، دون أن يخفي امتعاضه واغتمامه: هيك قـال لـك. اسأل ميـن ما كان، بدلك عليه.

- اللي حكاه مظبوط. كل الناس بعرفوه.

- يعنـي مثلي انا في القدس؟.

- يا حـاج، مش بعرفـوه بالإسـم وبـس. بعرفوه شخصياً. كأنه ما فيه واحد إلا التقى فيه.



- الفضل للجرايد اللي عملوه فصيح زمانه وبنشروا صورته مع مقالاته. أعلم مين بكتب له اياها.

يا حج نص اللي اشتركوا بالاحتفال، إن مش أكثر، جايين من ريف حيفا والباقين فلاحين وبحارة وعمال تريـنات وحجاّرين. وهدول لا بعرفوا القراية ولا الكتابة. يا دوب يقدروا يشتروا خبز، مش جرايد؟.

- يعني كلهم على بركة . وكيف كان الاحتفال اللي طلع التجديد فيه مظاهرة سمح فيها الانجليز.

اخترقت سيارة سيف بصعوبة الحشود التي تزداد عدداً وازدحاماً مع الوقت، فأيقن أن التقدم بها أكثر استحالة من التراجع. أوقفها في مدخل رأس الكرمل ومشى مخترقاً الحشود إلى الفنار.

سأل أحد المتجمهرين فأشار بيده إلى الشيخ القسام بين الجماهير الصاخبة بالتهليل والتكبير، وهنا وهناك تدور الدبكات على أنغام الشبابة ومواويل الإنشاد. كان الشيخ عز الدين محاطاً بالعديد من الشيوخ وبعض كبار السن من القرويين، بينما الأنظار معلقة ببحار شاب يكاد ينتهي

من تركيب عجلات شختورة بـمساعدة آخريـن يلبونه مـع كل نداء أو إشارة. بيـنما آخر يزيـن الشـختورة بـأعلام ورقية صغيرة الحجم مثلثة الشكل. أموية بيضاء، وعباسـية سوداء، وعلوية خضراء.تعلوها فوق المدخل فـي منتصـف الشختورة راية قماشية كبيرة ، اجتمعت فيها الألوان الثلاثة، يخترقها لون أحمر يرمز إلى تمازجها بالدم. بيـنما رجـل ثالث يـنتهي من تثبيت أسرجة نفط تلونت بلوراتهـا بلـون الأعلام.

عند الانتهاء من الإعـداد، جلـب حصـان مطهـم مزركش بالأربطة البيضاء والسوداء والخضراء والحمـراء، ربط إليه القارب الذي جلس فيه رجل بثياب بـحار، أمسـك رسن الجواد الذي وقف أمامه بضعة صفوف من الزماريـن والطباليـن، يتقدمهم مئات من طلبة المدارس في صـفوف منتظمة بلباس الكشافة، وبيـن الحشود اختلطـت أصـوات التهاليل والتكابير والزغاريد بأصوات الصـفافير والنايـات والدفوف والدربكات.

أحس سيف بالاختناق في الزحام الصاخب مثل أعراس الأرياف. فحرر عنقه من الربطة وحشرها في جيبه تاركاً طرفها يتدلى إلى جنبه.

أدار نظره بين المحتشدين قبل أن يلمح صلاح نايف يقف بجانب شيخ معمم. أشار له وحياه عن بعد فأسرع إليه صلاح مرحباً وقدمه للشيخ القسام : الاستاذ سيف اللي حكيت لك عنه.

- أهلين وسهلين. أهلين وسهلين...

رددها بلكنة حلبية وهو يعانقه كأنه يلقاه بعد غياب .

أفاض سيف بالتفاصيل التي قصد بها الإشادة أكثر من التوصيف، بينما الحاج أمين يصغي إليه متصنعاً الاهتمام وعيناه تشعان ارتياباً: معمم، لبق، طيب المعشر، سلوكه الرقيق يخفي إرادة من حديد. يأسرك منذ اللحظة وكأنك تعرفه منذ زمن طويل. متزن واثق النفس. مثقف. ليس بالدين فحسب وإنما بكل شيء يا حاج. مع أنه قليل الكلام إلا إنه سريع الجواب بليغ العبارة واضح التعابير. باختصار، شخصية قوية ونفس حرة. والأهم يا حاج قدرته على الاحتمال أكثر من الشباب. تصور أنه ما ظهر عليه

تعب ولا إرهاق وعمره فوق الخمسين، بينما أنا في الثلاثين وانهد حيلي من المشي. صدق لو كان هناك من يبيع الهواء لاشتريت منه وحاسبت المجلس الإسلامي بما دفعته.

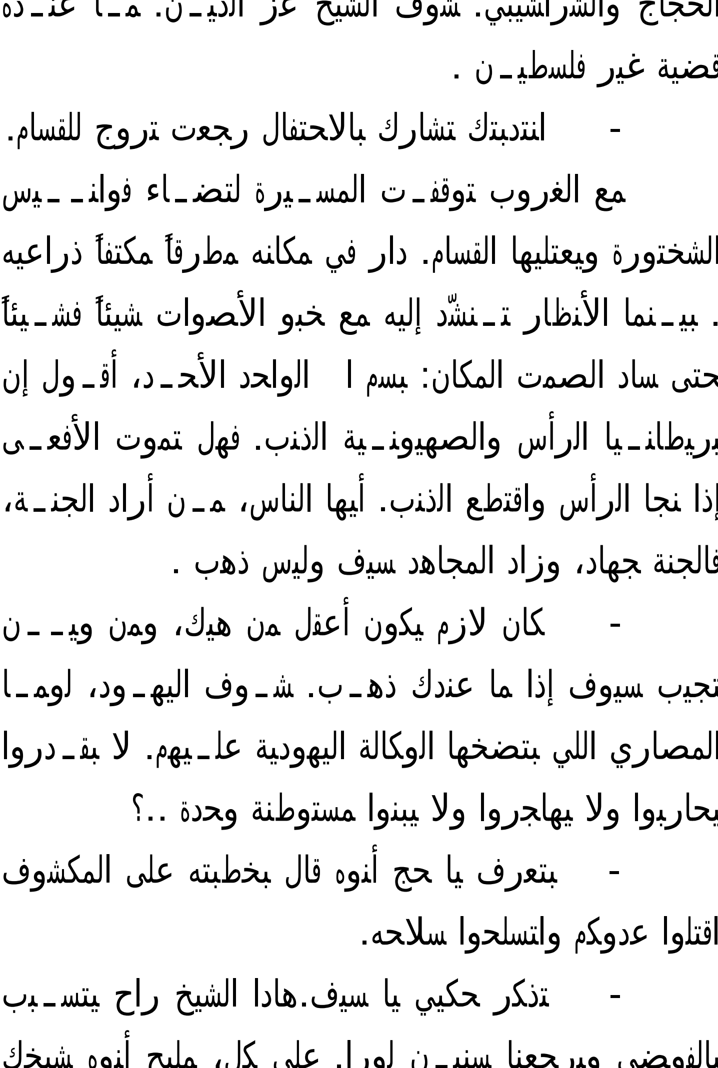
تقدمت الحشود لافتة كبيرة تناوب على حملها أزواج من طلبة المدارس، كتب فيها بالخط العريض "موكب طارق ابن زياد". تحركوا إلى الأمام يتقدمهم الشيخ القسام، ومن خلفه تبتعد عن المسيرة منارة البحر بينما تقترب الحشود من دار البوليس، حيث يرفرف العلم الانجليزي، وحول المبنى سياج من رجال الشرطة المسلحين: صدق إنه لم يهتم بالمتظاهرين. صلاح نايف، تعرفه ، الأستاذ الذي جلب لك الدعوة. حملوه وهو يهتف ومن ورائه يرددون.

عبرنا شارع اليرموك المزين بالأعلام وأقواس الشرائط الملونة والبالونات. اتجهنا بعدها إلى شارع الناصرة، حيث تنتظر النسوة على الشرفات، يزغردن ويرمين المسيرة بالأرز والأزهار، وعند محطة توزيع الكهرباء ألقى الشيخ خطبة حماسية لبضع دقائق، اختتمها

بالدعوة وليس الدعاء. حاثاً على الجهاد ومحاربة اليهود ومن يقف وراءهم ومحذراً من بيع الأراضـي لهـم والتصـدي لمهاجريهم بقوة السلاح، وقبلهم حلفاؤهم الانجليز:

واعلم أنك عليك العـار تلبسه من عضـة الكلب لا من عضة الأسد

أحس سيف بأنه في عالم آخر يختلف عـن عالمـه المعهود. فهو مذ استقر في القدس، ابتلعته أجواؤها المسمومة بصراع العائلات التي تروم كل منها التقدم على الأخرى ولا تتوانى عن الفتك ببعضها لو تطلب الأمر. بيـنما يحتشـد الألوف من حيفا وأريافها وبواديها وراء رجل منقطـع عـن أهله في جبلة حلب، واهباً نفسه لشـعب فلسطيـن بعلمـه وإرادته وصدق نواياه: العائلات الكبيرة في حيفا، موالية لـه يا حج. بدك أكثر من أعضاء مجلس البلدية ومدراء البنـوك والشركات. كل الناس مع القسام يا حج. وكل يوم عندنا هون خناقات. ساعة بيـن الحسينـي والنشاشيبي، وساعة بيـن



الحجاج والشراشيبي. شوف الشيخ عز الديـن. مـا عنـده قضية غير فلسطيـن .

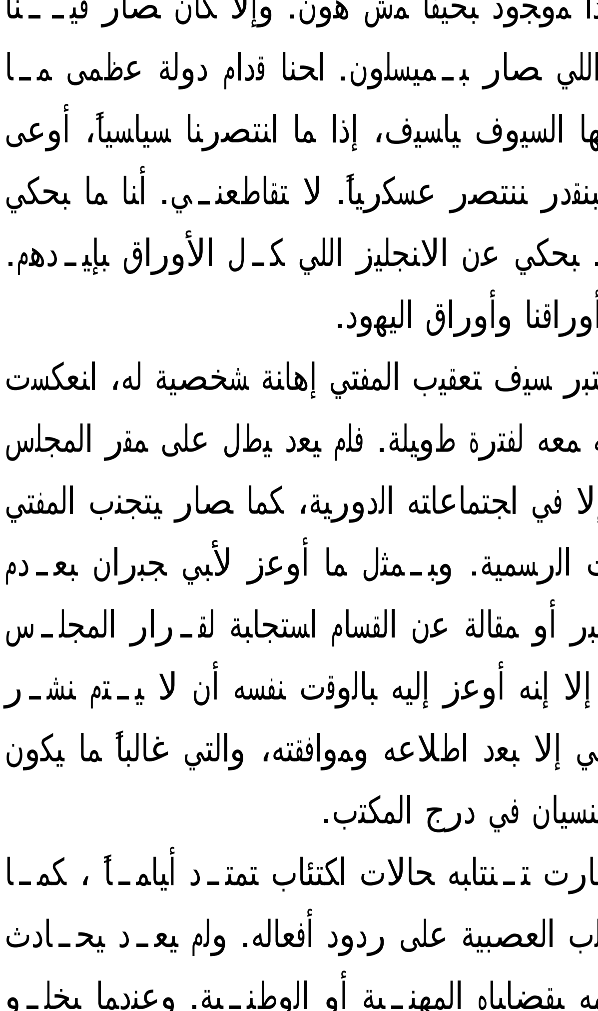
- انتدبتك تشارك بالاحتفال رجعت تروح للقسام.

مع الغروب توقفـت المسـيرة لتضـاء فوانـيس الشختورة ويعتليها القسام. دار في مكانه مطرقاً مكتفاً ذراعيه . بيـنما الأنظار تـنشّد إليه مع خبو الأصوات شيئاً فشـيئاً حتى ساد الصمت المكان: بسم ا الواحد الأحـد، أقـول إن بريطانـيا الرأس والصهيونـية الذنب. فهل تموت الأفعـى إذا نجا الرأس واقتطع الذنب. أيها الناس، مـن أراد الجنـة، فالجنة جهاد، وزاد المجاهد سيف وليس ذهب .

- كان لازم يكون أعقل من هيك، ومن ويـن تجيب سيوف إذا ما عندك ذهـب. شـوف اليهـود، لومـا المصاري اللي بتضخها الوكالة اليهودية علـيهم. لا بقـدروا يحاربوا ولا يهاجروا ولا يبنوا مستوطنة وحدة ..؟

- بتعرف يا حج أنوه قال بخطبته على المكشوف اقتلوا عدوكم واتسلحوا سلاحه.

- تذكر حكيي يا سيف.هادا الشيخ راح يتسـبب بالفوضى ويرجعنا سنيـن لورا. على كل، مليح أنوه شيخك

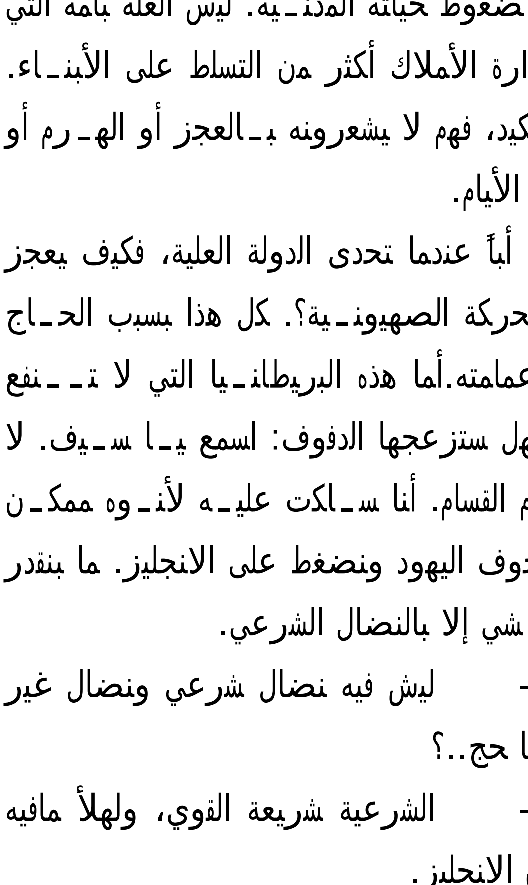


الشامي هادا موجود بحيفا مش هون. وإلا كان صار فيـــنا اسخم من اللي صار بـميسلون. احنا قدام دولة عظمى مـا بتـنفع معها السيوف ياسيف، إذا ما انتصرنا سياسياً، أوعى تفكر انوه بنقدر ننتصر عسكرياً. لا تقاطعنـي. أنا ما بحكي عن اليهود. بحكي عن الانجليز اللي كـل الأوراق بإيـدهم. بـما فيها أوراقنا وأوراق اليهود.

اعتبر سيف تعقيب المفتي إهانة شخصية له، انعكست على تعامله معه لفترة طويلة. فلم يعد يطل على مقر المجلس الإسلامي إلا في اجتماعاته الدورية، كما صار يتجنب المفتي في اللقاءات الرسمية. وبـمثل ما أوعز لأبي جبران بعـدم نشر أي خبر أو مقالة عن القسام استجابة لقـرار المجلـس الإسلامي، إلا إنه أوعز إليه بالوقت نفسه أن لا يـتم نشـر أخبار المفتي إلا بعد اطلاعه وموافقته، والتي غالباً ما يكون مصيرها النسيان في درج المكتب.

صارت تـنتابه حالات اكتئاب تمتـد أيامـاً ، كمـا صارت تغلب العصبية على ردود أفعاله. ولم يعـد يحـادث ثائرة أو أمه بقضاياه المهنـية أو الوطنـية. وعندما يخلـو بنفسه في ظلمة الليـل، يستكيـن فـي فراشـه مغمـض

العيـنـيـن متيقظ الحواس، بيـنما يـنقله خياله تارة إلـى الأمام وتارات إلى الوراء. قطع الصحراء يافعاً دونما مرشدٍ سوى ذاته التواقة للانتقال، وامتطى الجمال والـجياد حينذاك ، لا يتحرك إلا بسيارته الكاديلاك السوداء الآن. إنـه الـذي عطش وجاع وتاه وحفي وارتدى الأوساخ أثناء الثورة يصل بيته بعدها متأنقاً مثل سيارته اللامعة على الدوام. يأكل مـع أسرته أطيب الأصناف بأفخر الأطباق، ويشـرب بـأكواب الكريستال ويتعطر بعد الاستحمام. إنه الذي قاتل وقتل وجرح واستدوى وداوى، يحرص اليوم على انتقاء الثياب ووضـع الياقات والنوم على شراشف الحرير ووسائد الريش ولـبس البيجاما والتـنقل بالخف ما بيـن المخـدع والحمـام. وإذا أصابته وعكة خفيفة تأتيه أسلاك الهاتف بأمهر الأطباء. ثـم ماذا..؟ الزفير التي أخافت تركيا وشنقت أباه، غـدت مـلاذاً للمتكسبيـن والانتهازييـن السياسييـن. منارة حمقاء لرموز العائلات الاستعراضييـن. لقد ولد ثورياً ونضج ثورياً وأبلى في الثورة خير بلاء، وتزوج من ثائرة ابنة ثائر، فلم استكانت ثورة رأسه تحت الطربوش؟ ولم قيضت طوفان إرادته هـذه الثياب؟. إنها ليست ثائرة بالتأكيد ، فما تزال أنفاسها البدويـة



النقية تروح عنه ضغوط حياته المدنـية. ليس العلة بأمه التي استولت عليها إدارة الأملاك أكثر من التسلط على الأبنـاء. وليس أبناؤه بالتأكيد، فهم لا يشعرونه بـالعجز أو الهـرم أو الخشية من سواد الأيام.

كان أبوه أباً عندما تحدى الدولة العلية، فكيف يعجز هو عن تحدي الحركة الصهيونـية؟. كل هذا بسبب الحـاج المستكيـن في عمامته.أما هذه البريطانـيا التي لا تـ ـنفع معها السيوف، فهل ستزعجها الدفوف: اسمع يـا سـيف. لا تضل تقول القسام القسام. أنا سـاكت عليـه لأنـوه ممكـن يـنفعنا، حتى نخوف اليهود ونضغط على الانجليز. ما بنقدر استراتيجياً نحقق شي إلا بالنضال الشرعي.

- ليش فيه نضال شرعي ونضال غير شرعي يا حج..؟

- الشرعية شريعة القوي، ولهلأ مافيه أقوى من الانجليز.

٣٤

أحضر شمس الدين خادمة تركمانية لتدبير شؤون البيت. أسكنها وزوجها في التسوية المطلة على البستان، بينما تولت إحدى قريباته رعاية فخري طيلة السنة التي أعقبت موت أمه. كانت تبقيه عندها بضعة أيام، وترجعه لبيت أبيه أياماً أخرى، حيث تتولى الخادمة حضانته، وتتولى فوزية التلهي به ومداعبته. صار لعبتها وخلاصها من المذاكرة، مما جعل شمس الدين يغفر لها احجامها عن الدراسة التي تقدمت حكمت بها. لم يلح عليها بمتابعتها، بعدما صارت تسارع لخدمته بنفسها، وتكف يد الخادمة عن الكثير من أعمال البيت، مبدية الاستعداد للقيام بكل الأعباء، طالما تنقذها من عذاب الدراسة ومللها.

تفرغت لرعاية أخيها وخدمة أبيها وتدبير شؤون البيت. تجاوزت الخادمة بالتواصل مع أبيها، الذي كان يريحه تلبيتها السريعة، ولاسيما تلك التي يحرجه سؤال الخادمة عنها. تعد له الشاي على مزاجه وترتب ثيابه الخارجية وتأتيه بالداخلية، وتوضب الفراش وتبدل له الشراشف.وكان

شمس الديـن يدرك لعبتها ويقبلها. فالعلم أفيد للـذكور منـه للإناث. زوجته الوفية، أمية وسيدة بيت مثالية، وهو ما يتطلع لأن تكون عليه ابنتاه رغم أن حكمت تؤثر المدرسـة علـى أعمال البيت أو الانتباه لأخيها.

صارت فوزية ظلاً لأبيها، تـنعكس فيهـا سـلطته، وهي تخبره بكل ما يجري في غيابه، وتسأله احتياجات البيت وكل من فيه، فيغادر آمناً إلى استقرار وضعه، دون أن يقلق، ولو طال سهره وتأخرت عودته. ساعده هذا فـي اسـترداد كيانه والإصرار على رفض فكرة زواجه، وهو يقـرأه فـي وجه فوزية، كلما انـزلق لسان أحـدهم، علـى مسـامعها، بحاجته للزواج. فتثلج صدرها ردوده الحاسمة. ظلت زوجته وفية طيلة حياتها، وسيظل وفياً لها بعد مماتهـا، حتـى لـو رغب بالزواج، فليس قبل أن يزوج البنات.

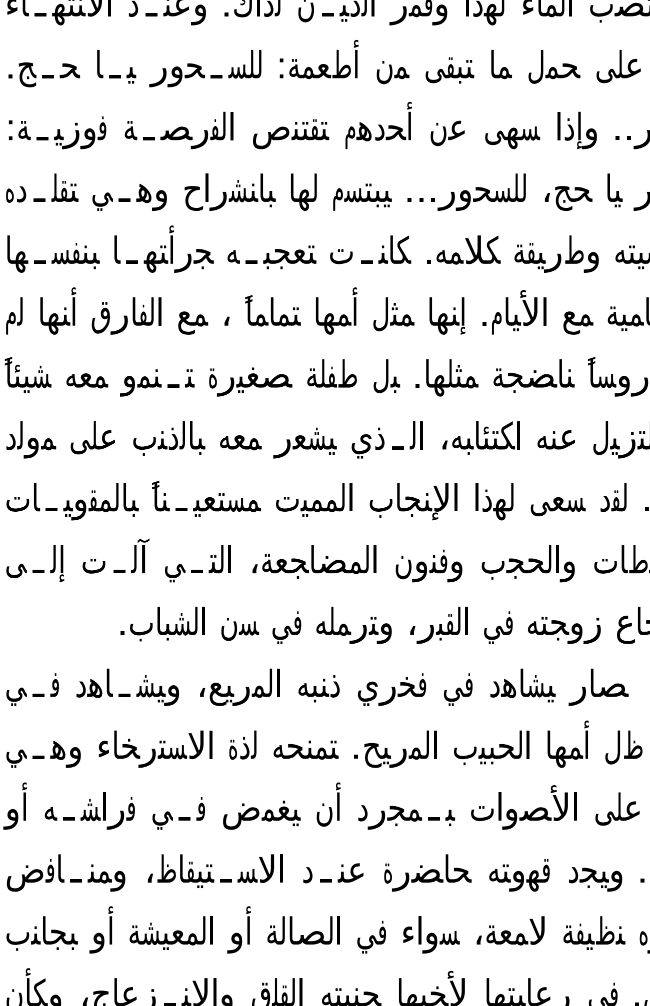
شيئاً فشيئاً، غلبت إرادة فوزية إرادة الجميع، فقبلـت بها الخادمة سيدة للبيت ، بعدما أخفقت شكاويها للحـد مـن تماديها.

حتى حكمت خضعت لها، طالما إنها أقـرب لأبيهـا منها، وأقدر على تهدئة أخيها، مما جعلها تفـرض إرادتهـا

بالتهديد أو التحريض: وا إنوه قالت قدامي وقدام حكمـت، إنها راح تترك البيت وأصحابه إن ما زدت جمعيتهـا هـادا الشهر .

كانت، على صغرها، تدرك أن أباها، الوديع معهـا الودود مع غيرها، يصبح مع التهديد شرساً لا يطاق. أوشـك على طرد الخادمة مراراً لتزداد خنوعاً، وتزداد فوزية تسلطاً وسيادة، مع أنه في اختلائه بنفسه وهدوء أعصابه يدرك، بعد فوات الأوان، بأن براءة الصغار فيها من الدهاء مـا يعجـز عنه الكبار. لكن ذلك لم يكن ليـؤثر علـى تعلقـه بفوزيـة وتقريبها منه، فيدللها وهو يؤنبها: ملعون انت ولـك حسـن صبي .

لم تتغير عاداته كثيراً مذ رحلت زوجته. بل ضاعف من مبلغ الصدقات التي يوزعها عن روحها وروح والديـه. وفي زيارته للحرم الشريف يوم عيد المولد النبي، عرج على سيف فأعجبه احتفال عائلة الحجـاج بالمناسـبة، وبخاصـة الوليمة المفتوحة التي يقيمها سيف للمعوزيـ ـن والفقـراء، فصارت عادة عند شمس الديـن. لكن بدلاً من اقامتها فـي عيد المولد، صار يقيمها في الجمعة الأولى من رمضان وهو



يدور على فقراء عمان بالطعام والشراب، تسـاعده فوزيـة وهي تصب الماء لهذا وقمر الديـن لذاك. وعنـد الانتهـاء يحثهم على حمل ما تبقى من أطعمة: للسـحور يـا حـج. للسحور.. وإذا سهى عن أحدهم تقتنص الفرصـة فوزيـة: للسحور يا حج، للسحور... يبتسم لها بانشراح وهـي تقلـده في مشيته وطريقة كلامه. كانـت تعجبـه جرأتهـا بنفسـها المتـنامية مع الأيام. إنها مثل أمها تماماً ، مع الفارق أنها لم تأته عروساً ناضجة مثلها. بل طفلة صغيرة تـنمو معه شيئاً فشيئاً لتزيل عنه اكتئابه، الـذي يشعر معه بالذنب على مولد فخري. لقد سعى لهذا الإنجاب المميت مستعيـناً بالمقويـات والمنشطات والحجب وفنون المضاجعة، التـي آلـت إلـى اضطجاع زوجته في القبر، وترمله في سن الشباب.

صار يشاهد في فخري ذنبه المريع، ويشـاهد فـي فوزية ظل أمها الحبيب المريح. تمنحه لذة الاسترخاء وهـي تحجر على الأصوات بـمجرد أن يغمض فـي فراشـه أو كرسيه. ويجد قهوته حاضرة عنـد الاسـتيقاظ، ومنـافض سجائره نظيفة لامعة، سواء في الصالة أو المعيشة أو بجانب الفراش. في رعايتها لأخيها جنبته القلق والانـزعاج، وكأن

أمها ما تزال في البيت بحيويته ونشاطه، ممـا سـاعد فـي تراجع اكتئابه.

قصر خروجه اليومي إلى المقهى والبساتيـ ـن مـ ـن طول نهاره، فانسدت أذناه عن نصائح المعارف والأقـارب والأصدقاء: يلزمك زوجة تخدمك يا شمس الديـ ن...

- عندي خادمة.
- هناك أشياء لا تستطيع الخادمـة ان تقدمها.
- تقدمها فوزية .

كان الجميع يلحون عليه للزواج، باستثناء مقصـود الذي يعتبر الزواج أكبر بلاء. يكفي شمس الديـ ن أن تزوج مرة حتى لا يعيدها ثانـ ية. مقصود يحسده على عزوبيتـه ، ويـ نتظر اليوم الذي تتولى فيه شهيرة شؤون البيـ ت مثـ ل فوزية، حتى يقول لنازلي: إنت وابنك عند أهلك...

لشدة افتتان شمس الديـ ن بفوزية كان اسمها يتخلـ ل حديثه مع أي شخص، ولاسيما مقصود الذي طلب مراراً من جرير أن يكتب شعراً بهذه الأم الصـغيرة، فيعـ ده جريـ ر كعادته، بعد أن يتكبد مقصود ثمن الشراب والطعام، ليسـمع

من جرير أحط الأشعار، فيتصايحان وأحياناً يتشاجران قبـل أن يفترقا وكل منهما يلعن الآخر وشعبـه. وتستمر لعنـات مقصود إلى اليوم التالي حيـن يلتقي بـالمقهى مـع شـمس الديـن.

لكن الأمر الذي لم يكن مباحاً للحديث مع مقصود أو الآخريـن، ظل سراً في صدر شمس الديـن. يتجنب دائمـاً الخوض فيه، وإذا حاصره السؤال مباشرة يراوغ في الجواب .

في الصباح يقوم بجولته اليومية المعتادة لبساتيـنه الخضراء الممتدة من رأس العيـن إلـى مشـارف شـارع المهاجريـن. يحاسب الفلاحيـن مناصفة عن مبيعات أمسهم من الخضار أو الثمار، ويأخذ حاجة بيته مع الإياب.

عند العصر يذهب الى مقهى أبي عبده. غالبـاً مـا يدخن النرجيلة وهو جالس على الرصيف، يراقـب المـارة، وقلما يتبادل ومن يجالسه الحديث.

بعد صلاة العشاء، يذهب لزيارة أصدقاء ومعـارف شراكسة يتوزعون بيـن جبل القلعة والمحطة والمهاجريـن ، وإذا أحس بالضيق، يلجأ إلى خمارة قعيور، فيستقبله داخل

البيت، حيث تقوم عائلة قعيور على خدمته لبضع سـاعات، يجزل لهم بعدها العطاء، فيوصله قعيور بالحنتور إلى بيتـه في القلعة.

لمح مقصود الحنتور عن بعد ولم يتبيـن شـمس الديـن. كان عائداً من بيت جرير وهو في ذروة الغضب من العرب الحفاة. أطلق مخاص صرخة الحرب وهـو يـندفع للنـزال مردداً: هسع، هسع .

أخذت المباغتة من قعيور وشـمس الديـن مثلمـا أفقدت البغل رشده وأطلق الرعب شحيجه بيـنما الموتـور يدور كطوق شيطانـي حول الحنتور. كان الحصار محكمـاً مما جعل البغل يرافس في موقعه مخابطاً العربة المربوطـة به، فأفقد قعيور توازنه، ولم يفده التعلق باللجام فاختل توازنه ووقع أرضاً. ما أن انتبه مقصود إلى شمس الديـن، حتـى كان هذا يقفز من العربة المترجرجة للأعلى والأسفل: ولـك شو هاد؟

- ميـن، شمس الديـن... وانفجـر مقصـود مقهقهاً وهو يهدئ من مخاص: تعال، تعال، اركب هون، شو هاد حنتور.!.

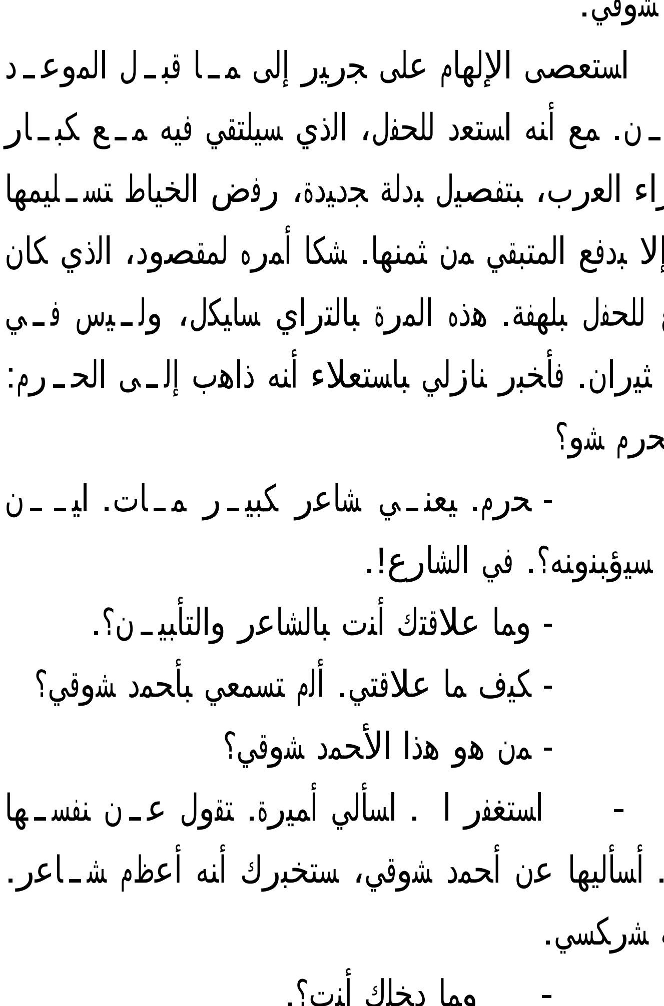
كان شمس الديـن قد استيقظت صحوته تماماً، فأدار نظره بيـن قعيور الذي يلحق الحنتور بعدما استدار البغـل بالعربة مولياً الأدبار: ملعون أبوك من ويـ ـن مـا كنـت جاي... ظل قعيور يردد ، بيـنما يردد مقصـود : ملعـون أبوك وين ما كنت رايح.

في اليوم التالي، استيقظ شمس الديـن وهـو يحـس بالعار، بيـنما استيقظ مقصود عابساً لم يشف غليله الثـأر: يعنـي شو؟ ادعسه بهادا... سكت قبل أن يواصل مستدركاً: بهادا موتوسيكل. شو أسوي أنا. إن شاء ا كل يوم بيجـي ابن انت مفشوخ.

٣٥

كان سيف لا يتدخل في تحريـر الجريـدة، تاركـاً مسؤوليتها لأبي جبران، وأحياناً يترك له المسؤولية الإدارية أيضاً، وكان أبو جبران حريصاً في انتقاء المقالات المتوافقة مع النهج العام للجريدة والتزامها الوطنـي. إلا أن هـذا لـم يكن يـنطبق على جرير. ليس مراعاة لصحبتهما فحسـب، كما ظن سيف، وإنما حرصاً على الجريدة أيضاً. فجريـر لا يـنشر إلا بالزفير ، وإذا أهمل مقالاته وقصائده قد يتحـول إلى سواها. ولربـما يثير غضبه فيفـيض شـعره سـخرية بالزفير، ويجعل من محريرها وماليكها كاريكاتير تتلهف عليه جريدة الشراشيبي. فبـمثل ما احتكـرت الزفيـر أشـعاره الجيدة، عليها قبول أشعاره الرديئة أيضاً. لا بد أن يسـتيقظ إلهامه ليرفد الجريدة بأحلى الأشعار.

مع هذا اتخذ أبو جبران أمره على حث جرير لكتابة النثر ولو مؤقتاً. لن يـنتقص هذا من شاعريته، بل ربـما يضيف إلى ثرائه الأدبي. واتته الفرصة في الحفل الذي تزمع



جمعية الثبات العربية إقامته في نابلس تأبيناً لأمير الشعراء أحمد شوقي.

استعصى الإلهام على جرير إلى ما قبل الموعد بيومين. مع أنه استعد للحفل، الذي سيلتقي فيه مع كبار الشعراء العرب، بتفصيل بدلة جديدة، رفض الخياط تسليمها له إلا بدفع المتبقي من ثمنها. شكا أمره لمقصود، الذي كان يتطلع للحفل بلهفة. هذه المرة بالتراي سايكل، وليس في عربة ثيران. فأخبر نازلي باستعلاء أنه ذاهب إلى الحرم:

ولك حرم شو؟

- حرم. يعني شاعر كبير مات. اين سيؤبنونه؟. في الشارع!.

- وما علاقتك أنت بالشاعر والتأبين؟.

- كيف ما علاقتي. ألم تسمعي بأحمد شوقي؟

- من هو هذا الأحمد شوقي؟

- استغفر ا . اسألي أميرة. تقول عن نفسها مثقفة. أسأليها عن أحمد شوقي، ستخبرك أنه أعظم شاعر. نصفه شركسي.

- وما دخلك أنت؟.

- كيف ما دخلني. أنا شركسي.

- وهذا الحفل سيستمر يوميـن؟

- هل تريديـن أن أعود في الليلة نفسها. حرام. قد يتعب... الموتوسيكل. الطقس بارد جـداً، والأفضـل أن أبيت في القدس، بعديـن منذ متى تكترثيـن لغيابي.؟.

ذهب إلى الخياط مهتاجاً، يتبعه جرير كأنـه يلحـق بـه. أخرج من جيبه ستفة جنـيهات أربكت الخيـاط أكثـر مـن تعابـيره المستشرة: انت ما بـدوه يعطـي صـاحب بدله... وقذف النقود في وجه الخيـاط، الـذي راح يلملـم الأوراق النقدية: خود حساب وهات بدلة أحسن لك.

مع أنهما يشربان يومياً، إلا أنهما تلك الليلة شربـا بنكهة مختلفة احتفاء بالبدلة الجديدة. قرأ خلالها جريـر مـا تفتق ذهنه عن المرثية التي سيلقيها في التأبيـن: شو رأيك.

- بشو

- بالقصيدة؟

- زفت

- معك حق. أصلاً أنا مش قانع بـاللي كتبتـه. ميـن هو شوقي هاد؟ بحطه وكل شعره بجيبتي الصـغيرة. عملوه أمير شعراء لأنه متزلف مداح. والا لأ.

- شو؟

- احكي الصحيح. شعري أحسن مـن شـعره والا لأ.

- احسن إزا بكتب شعر عنـي .

- محسوبك. وا لأخلـي الكـل يصـفق لإسمك. إزا كان شوقي أمير الشعراء، أنا امبراطورهم. صب . صب .

- ولك شو أصب. ليش انت خليت شي.

لم يكن مقصود معنـياً بأي شيء، سوى الوصـول إلى طبريا ولقاء راحيل. ترى هل سيجدها في البيت نفسـه؟ هل ستتعرف عليه بعد هذه السنـيـن؟.حتى لو لـم يجـدها سيلقى أحسن منها. المهم يهوديات.

- ليش انت مصر على طبريا. بنقـدر نـروح لحيفا. ولك بناتها أحسن من بنات طبريا، وفيهـا مـراقص مليانة بنات.

- أنا قلت طبريا، يعنـي طبريا.

- وشو فيه إلك بطبريا.؟.

سأل السؤال نفسه مرات عديدة، وتلقـى الـجواب نفسه في كل مرة. راحيل. أما لماذا يريد هذه البنت بعيـنها، فأمر يخصه وحده ولا يعنـي جرير، وإن جاملـه بالإجابـة عنه: لأنها الأولى... لكن مقصـود رفـض هـذا التفسـير السطحي، وأعطى لرغبته باليهوديات بعداً قتاليـاً ، فليقـاوم

العرب اليهود بسلاحهم، وسيقاومهم هـو بسـلاحه: نحـن مدعون لحفلة في نابلس.

- ممنوع المرور إلا بإبراز الوثائق الشخصية .

ظل مقصود يلعن ويشتم طيلة طريق العـودة إلـى عمان: عرب جرب، حارب تركي عثمان منشـان انجليـز كفار، شايف يا سي بخا. صار بدوه موتوسكل رخصة وأنـا بدوه باسبور. كان ثور يروح طبريا ما واحد يقول ويـن.

لم يهدئ من ثورانه إلا زجاجة كونـياك تجرعها مع جرير قبل وصولهما إلى المركز الحدودي بعد ثلاث ساعات مـن ايقافهما عليه. انكفأ جرير في الأثنـاء علـى تـنقيح قصيدته مع لسعات الهواء دون أن يعي في ثمالته أنه بدل كل الأبيات .

انقضى الوقت سريعاً مع قضائهما علـى الزجاجـة الثانـية التي حملاها هدية لراحيل، فوصلا مخموريـن.

جحظت عيون المستقبليـن فـي مدرسـة النجـاح، بيـنما يتقدم جرير في بدلته ومقصود في ثياب الفرسان وهما يوازنان خطواتهما المترنحة التي تفسرها رائحة الكونياك.

تقدم أحدهم جرير إلى الصف الأمامي مما أثار سخط مقصود بسبب إهماله وتركه واقفـاً في الوراء، لولا أن يداً لوحت لـه مع نداء أبي جبران، فشعر بالارتياح وهو يترنح للوصول إلى كرسي يحاذيه: انت هون؟... وعبقت رائحـة الكونـياك مع صوته، فندم أبو جبران على دعوته .

ألقى عريف الحفل كلمـة طويلـة، تثـاءب معهـا الكثيرون، ولاسيما مقصود الذي ظل يتجشأ مما أغـاظ أبـا جبران، بيـنما جرير في الصف الأمامي، منهمك بتـنقيح قصيدته، لا يـنتبه إلا لمطلع قصائد الشعراء وهم يتواكبـون على المنصة بيـن التصفيق والتهليل. باستثناء مقصود الذي كان يقذف التعليقات تارة بالشركسية، فيـنظر إليه أبو جبران متسائلاً، وتارة بالعربية، يـنكمش بسببها أبو جبـران فـي

كرسيه، وبخاصة عندما يلتفت نحوهما الحضور: والآن، من ربوع لبنان، شاعرنا الكبير، الأخطل الصغير.

جحظت عيـنا مقصود· صـغير· باغتتـه أميـرة لتـنطق من لسانه : بيتيت.

نظر إليه أبو جبران، فأعاد الكلمة: بيتيت... وأشـار إلى الشاعر يبدأ قصيدته:

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره فســدرة المنتهـى أدنى منابره

كل هذه العلياء لم تغفر لـه عند مقصود،الذي ظـل يتكركر وهو يعيد كلمة بيتيت. دون أن يجرؤ أبو جبران على نهيه أو الابتعاد عنه. وما أن قدم عريـف الحفـل الشـاعر الناري جرير، حتى هب مقصود واقفاً وهو يصفق بحـرارة وانفعال. تحولت إليه الأنظار المستهجنة من تـرنح جريـر وتجشؤه: صحة... قال مقصود وهدأ مع هـدوء الهمسـات والوشوشات المستاءة، بيـنما يوازن جرير نفسه بصـعوبة قبل أن يبدأ مرثاته:

تفجـع قلـبي لموت الأمـ ـير وروع

شعـ ـري سقـ ـوط العلم

فإن غاب شوقي عـ ـن دارنـ ـا يظل بيـ ـان

فـ ـي العالميـ ـن علـ ـم

أيـ ـا مـ ـقصود لـ ـماذا تـ ـولول

أنا ؟!!!

وأنـ

ت النـ ـ ـديم

وشـ ـ ـعري

النغـ ـ ـم

أصر أبو جبران في نهايـ ـة الحفـ ـل علـ ـى دعوتهما للعشاء، فلقي تراخياً من جرير مما أضعف تعنـ ـت مقصود: خاص، بنتعشى وبعديـ ـن بنتسـ ـهل. أصـ ـلاً إحنـ ـا جوعانـ ـيـ ـن.

كان جرير تواقاً لمعرفة رأي أبـ ـي جبـ ـران بالقصيدة، وكان أبو جبران يـ ـنتظر الفرصـ ـة لحثـ ـه علـ ـى الكتابة النثرية بدل الشعر. أما مقصود الذي التهـ ـب حماسـ ـاً وانفعالاً مع القصيدة عندما نطق جرير باسمه. وصفق واقفـ ـاً

بحرارة مما أزعج الحضور وأحرج أبا جبران وهو يـدعوه للتصفيق معه:كف كف. وبتقول عن حالك صاحب، يا سـي بخا. فإنه حول مائدة العشاء في فندق فلسطيـن، أبدى غيظاً صريحاً من أبي جبران، بينمـا جريـر يواصـل التسـاؤل باستغراب عن سبب حمـاس الحضـور لقصـيدة بشـارة الخوري، وقد كان الكفر واضحاً فـي مطلعهـا: وإلا لأ يـا صاحبي؟

تلكأ أبو جبران بالإجابة متـذكراً تعليـق مقصـود بالحفل، فتوجه جرير بالسؤال إلى مقصود: مقصود إنت معي طبعاً.

- عجيب. مش أنا قاعد قدام إنت.

- قصدي شو رأيك بقصـيدة هـادا البشـارة الصغير.

- خرا... توقفت لقمة في فم أبي جبران وعبر وجهه عن القرف.

- وقصيدتي أنا. شو رأيك؟

- خـ...

- لا تـنسى إنـي حطيت اسمك فيها؟

- حطيت مرة واحدة .

- شو بدك. أحطه بكل بيت . بلاش . إنسى .

- كيف أنسى؟

- قصدي أنا عارف رأيك. آ، أبو جبران .

غض أبو جبران النظر عما أزمع عليـه. سـتكون النهاية بيـنه وبيـن جرير إذا عرض بشاعريته، وهو فـي هذا الحال. لا يتوقف عن التباهي إلا عندما يتجرع رشفة أو يأكل لقمة. بيـنما تتفاقم نقمة مقصود على أبي جبران الذي لم يكن بالحسبان: ولك إيمته بدوه نروح طبريا.

- الليل كله قدامنا يا صـاحبي. آ، أبـوجبران. اذكر لي شاعر واحد من اللي حضـروا، إذا كـانوا فعـلاً شعراء، شاعر واحد استخدم قافية ساكنة مثلي.

مر الوقت سريعاً على جرير، وبطيئاً مملاً على أبي جبران، وزاخراً بالنقمة عند مقصود. صرخ بأعلى صـوته ضارباً كف يده بالطاولة: إيمته بدوه يخاص حكي؟

- شو صار لك. طبريا ما راح تطير. خلينا نخلص عشا بالأول.

- ولك وين عشا. أنت أكلت كله. ضل عشا؟!

تدخل أبو جبران مهدئاً: الوقت متأخر. ليش ما تسهروا هون. الأوتيل فيه مرقص.

- شو رأيك؟.

- رأيي شو؟....

- نسهر بالمرقص هون.

- إنت بدوه أنا بكفر.

- لا لا. خاص . لا تكفر ولا شـي . شـوية وبنتحرك اطبريا.

- أنا اقترحت بس...قال أبـو جبـران وهـو يـنظر إلى مقصود الذي حدجه بنظرة حادة أربكته وأعجزته عن إشاحة وجهه، فظلا يحملقان ببعضهما لوهلـة بيـنما الشرر يتطاير من عيـنـي مقصود: شو؟ مش عاجب انـت ؟.

- ما قلت شي.

- ليش انت بيطلع هيك.بدوه يهاوش...واشـعل سيجارة وهو يتفرس به بنظرات ثابتة.

- ليش بدي أهاوش؟.

- لكان ليش وجه أنت مثل سي بخـا... ونفـث الدخان في وجهه .

- شو قلت؟.

- أتركك منوه أبو جبران. هاي عادة مقصود لما يكون مستعجل. خاص يا أخي. هسع بنمشي.

- هسع هسع. إيمته هسع هادا وصار دنـيا نص ليل.

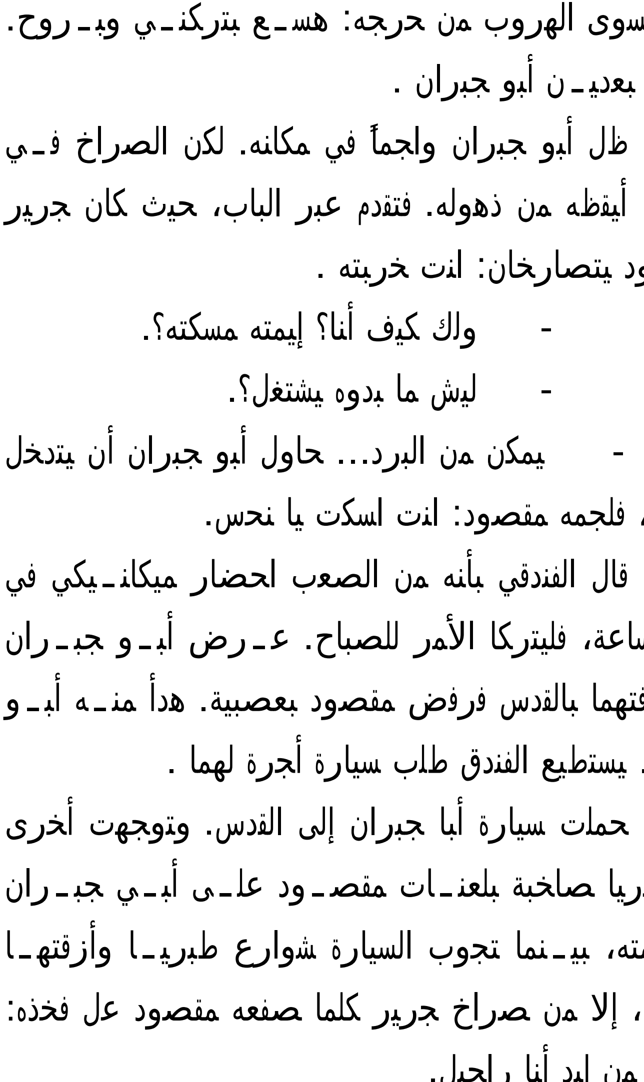
- مبيـن صاحبك ضاوي.

- أنا ضاوي يا طافي. أنا بشرب بحر لبنان تبع إنت ... وأطفأ عقب سيجارته في صحن أبي جبران وانفجر مع عصبيته سعاله. ظل يقحقح للحظات بيـنما جرير يضربه بيـن الكتفيـن، مما زاد في توهج وجهه وأذنـيه، ومـا ان فتح عيـنـيه الدمويتيـن في وجه أبي جبران،سارع جرير للحيلولة دون انفجاره:أكيد في واحد جايب سيرتك بالعاطل.

- مين بدوه يكون يعني... قال ذلـك ونظـرات عينيه الحادة تذيبان أبا جبران، الذي صار أكثر استعجالاً منه على اختتام هذا اللقاء: الحساب لو سمحت.

تقدمهما مقصود مترنح الخطوات، فأمسك أبو جبران ذراع جرير وهو يسأله : صار قايل لي عن وجهـي، سـي بخا، مرتيـن. شو قصده؟.

احتار جرير للحظة، لكنه قبل أن يراوغ بالتفسـير، توقف وأبو جبران مع توقف مقصود الذي مال بجذعه إلـى الأمام، رافعاً بإحدى يديه رداءه من الوراء، ومتحسساً قفـاه باليد الأخرى: هادا سي بخا... وواصل إلى الخارج ، بيـنما جحظت عيـنا أبو جبران الذي لم يحر جواباً، ولم يكن أمام



جرير سوى الهروب من حرجه: هسـع بتركنـي وبـروح. بشوفك بعديـن أبو جبران .

ظل أبو جبران واجماً في مكانه. لكن الصراخ فـي الخارج أيقظه من ذهوله. فتقدم عبر الباب، حيث كان جرير ومقصود يتصارخان: انت خربته .

- ولك كيف أنا؟ إيمته مسكته؟.

- ليش ما بدوه يشتغل؟.

- يمكن من البرد... حاول أبو جبران أن يتدخل بكياسة، فلجمه مقصود: انت اسكت يا نحس.

قال الفندقي بأنه من الصعب احضار ميكانـيكي في هذه الساعة، فليتركا الأمر للصباح. عـرض أبـو جبـران استضافتهما بالقدس فرفض مقصود بعصبية. هدأ منـه أبـو جبران. يستطيع الفندق طلب سيارة أجرة لهما .

حملت سيارة أبا جبران إلى القدس. وتوجهت أخرى إلى طبريا صاخبة بلعنـات مقصـود علـى أبـي جبـران وعزومته، بيـنما تجوب السيارة شوارع طبريـا وأزقتهـا الساكنة، إلا من صراخ جرير كلما صفعه مقصود عل فخذه: طّيرت من إيد أنا راحيل.

- ديـن راحيل، لديـن الساعة اللي جبتك فيها معي.

- وبتصيح كمان. مع ميـن بدوه يـنام أنـا؟ معك!!

لم يـكن أمامهما إلا العودة لنـابلس وقـد قاربـت الساعة الثانـية صباحاً. فازداد مقصود هيجاناً وكاد يتعارك مع السائق مراراً: ولك خرا. فيه شوفير ما عنده نسوان؟.

ترجلا أمام الفندق الذي سارع إليه مقصـود تاركـاً جرير يدبر حاله مع السائق. نـزلا في غرفة، قـال عنهـا مقصود بأن زريبة المواشي أريح منها: إعقل يا مقصود ولا تطيرها من راسي واقلب الأوتيل فوقانـي تحتانـي.

- انت إعقل واطلب إلنا قنـيـنة أحسن لك.

كادت تـنشب خناقة مع الجرسون الذي اعتذر عـن احضار الشراب إلى الغرفة في هذا الوقت المتأخر: لا تضل تقول ممنوع. لو كان أنا انجليز. كنت انـت جـاب نسـوان كمان.

ابتلع الجرسون الإهانة بعدما انتقده جريـر تعويضـاً خمسة قروش، وعشرة لجلب قنـيـنة وبعض المازات. لما أحضرها كان الاثنان يغطان بالنوم.

حوالي العاشرة صباحاً، أمن لهما الفندق ميكانيكيـاً، عمل نحو ساعة قبل أن يـنجح في تشغيل مخاص.

تذرع مقصود باختبار المـحرك وهو يشغله ويوقفه مرة إثر مرة، بيـنما يـنظر إليه جرير بريبة، لم تفده بشيء عندما أطلق مقصود العنان للعجلات. عاد بعد نحـو الربـع ساعة وقد هدأ منه الانتقام، ليجد جرير محجوراً عليـه فـي الفندق ومعه الميكانـيكي: ولك بتدشرنـي وأنا ما معي ولا فلس يا نذل.

- أنـا نذل... وأسـرع مغـادراً، فلحـق بـه الميكانـيكي: ويـن رايح. بدي حسابي يا أخي.

- هسع

- آه. هسه

- يعنـي هسع هسع.

- آه. هسه. أحسن وا بطلب لك الشرطة. شو بتسوي. اسمع إذا بترميه علي لأكسر لك الموتور...

وازن الحجر قليـلاً بيده قبل أن يرميه إلـى بـاب الفندق الزجاجي، ويسرع إلى الموتور يـ ـنهب بـه الأرض بيـنما موظفو الفندق يحيطون بالميكانـيكي ويسـلموه بعـد وقت قصير إلى الشرطة: وا يا جماعة هو اللـي كسـره لأنـي طلبت منوه أجرتي.

٣٦

رفض سيف أخذ النقود. إنه لا يضمن الحصول على السلاح . سيحاسب القسام إن أفلح في مسعاه. ألهبت المهمة حماسه الوطني، وكأنه تحرر من الأصفاد والاستعباد ليحتل موقعه بين الأسياد. أطال التفكير أياماً بالوسائل المتاحة قبل أن يلجأ لآخرها. إذا كان الشيخ زعل لا يرد على تحية ابنته، فهل سيستجيب لحاجة صهره؟!.

يستطيع أن يشتري السلاح من جنود الانجليز أنفسهم. لكن ذلك قد يمنحه القليل في وقت طويل. أما اليهود فإنهم يشترون ولا يبيعون. ورجال العرب في الجيش والبوليس تحصى عليهم الطلقات فيكف بقطع السلاح.

اتخذ أمره على أن يتبرع بقطع السلاح القليلة في بيته، وما بحوزته من عتاد. لكنه وهو يتفقد بريد الصباح، استقام أنور أمامه كالعملاق، متألق الصورة في جريدة الأردن وهو يجتمع بالأمس مع رئيس المجلس التنفيذي والمقيم البريطاني. غادر المكتب على عجل، وقاد سيارته بسرعة فوصل البيت وقد بدا عليه الأنفعال. عبر وجه ثائرة

عن الدهشة. لكنها لم تتوان عن إعداد حقيبة السفر، بـمجرد أن أخبرها عن عزمه الذهاب إلى عمان. استوقفته أمه عنـد الباب، وسألته بفظاظة: لويـن على باب ا ؟.

- لعمان...

- هيك، لعمان ومن غير علم ولا استئذان.

لم يجب فامتلأت غيظاً. واستطردت سـاخرة: ومـا بدك تلبس ثياب البدوان.

رفع إصبعه في وجهها محذراً: لا تزيديها علـي... أضاف بحدة: أوعي تتمسخري. فاهمة.حدجتها حماتها مؤنبة، وبلعت ثائرة ريقها وابتلعت لهفتها إلى مرافقته.

قال لها وهي تودعه إلى باب السـيارة :ان مشـيت الأمور منـيح. راح آخذك معي الأسبوع الجاي.

قديش راح تغيب.؟.

يوم يوميـن .

لكنه عاد إلى السرايا بعد ساعتيـن وهـو يمتلـىء غيظاً: صار قطع النهـر بـدوه أوراق وهويـات... عبـث بعصبية في خزانته بيـنما تراقبه ثائرة قلقة، وغادر بأوراقه سريعاً دون أن يقول لها وداعاً .

تجاوز جسر اللنبي الذي صار الحـاجز العسـكري الانجليزي في بوابته يدقق بأوراق القادميـن والمغادريـن. في نحو الثانـية عشرة وصل بسيارته إلى فندق فيلادلفيـا، بعدما أصابه التردد خلال الطريـق . خذلـه أنـور عنـدما استجداه التدخل للحيلولة دون الإعدامات، فكيف سيستجيب له الآن ويزوده بالسلاح؟!.

آثر الاتصال به أولاً بـدلاً مـن مفاجأتـه فـي دار الحكومة التي تبعد عن الفندق بضع كيلومترات .

في الفندق أصابه التردد ثانـية، فاتخذ أمـره علـى الذهاب إلى مقر الحكومة. سيعرف الجواب بعـد أن يمـرر خبراً عنه من خلال الحراس. لكنه وهو يغادر غرفته انحرف إلى موظف الاستقبال الذي استجاب لـه بعد ممانعة قصيرة تخللها فيض من الاستجواب، فانتقلت المكالمة عبـر مقسـم البريد إلى دار الحكومة. عـبر وجه موظف الاستقبال عـن الاستغراب. قال بعدما وضع سيف السماعة باستسلام: لـيش حضرتك ما قلت لي إنك بدك أنور باشا.

تساءلت عينا سيف فأضاف الموظف:الباشا كان نازل بالأوتيل طول اقامته بعمان. وهلأ يمكن وصل بغداد.سـافر

مع الفجر.إذا بتحب تترك لـه رسالة... قاطعه سيف برفـع راحته: لا. لا. ما فيه داعي. قديش الحساب.

- هلأ وصلت وهلأ بدك الحساب ؟!.

ضرب على المقـود بعصبية وزعقت العجلات وهو يضغط على الدواسة بكل ثقله. قاد بسـرعة فـي الأسـواق المزدحمة بالمشاة قبل أن يـنتبه إلى عداد الوقود فسأل عـن محطة بنـزيـن. قيل لـه بأنه سيجدها في الطريق المؤدي إلى وادي السير.

ملأ الخزان واستقر في مقعد القيادة. ظـل سـاهماً للحظات، لم يفق منها إلا عندما أطلقت سـيارة مـن خلفـه الزامور، فأدار مفتاح التشغيل بتوتر وعـاد أدراجـه إلـى السوق. الشارع مألوف لـه رغم ما جرى فيه من تغيرات. لكن مخارجه عصيت عليه، فأشار لـه أحدهم حيث القنطرة الرومانـية. تجاوزها على مهل، قبل أن يـ ـندفع بأقصـى سرعة إلى الجنوب. آخذ نفسه لعدم اصطحابه ثـائرة التـي نطقت عيـناها باللهفة لمرافقته. ربـما سيكون الوضع أيسر لو جاءت معه. ترى هل سيستقبله عمه بالترحاب أم بجفائـه المعهود. حتى ثائرة تخشى جلافة أبيها وتحسب لزيارتها لـه

ألف حساب. لكن الوضع مختلف هذه المرة، أنه لا يـزوره للمجاملة أو الاطمئنان بل لأنه رفيق ثورتـه، وفـي أسـوأ الأحوال مشترٍ للسلاح.

ما أن لاحت لـه القبة، حتى انحرف إليها، رغم أنه اتخذ أمره على زيارة فرحان في الإياب. لشدة دهشته وجـد مرزوق الذي أخبره أن أباه في عمان.

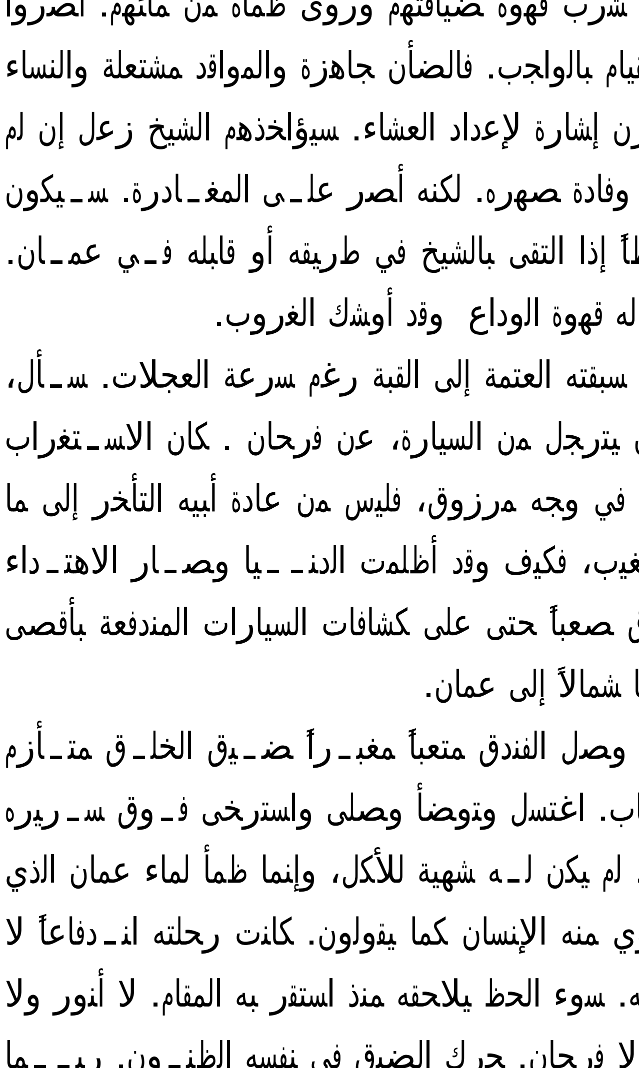
- إي الوالد يروح كلْ يوم لأراضيـنا علـى السيل .

- وإيمته برجع؟.

- ما ليه وقت. لكن إن ما وصل قبل المغـرب يوصل معاه. ما يطيق تواتيه العتمة في الطريق.

عرفه الكثير من رجال الجبيليـة، الذيـن كـانوا يحملقون بسيارته الفورد، التي تختلف عن بويك الانجليـزي جلوب. ليس من حيث الشكل فقط وإنما من حيـث الرهبـة أيضاً.

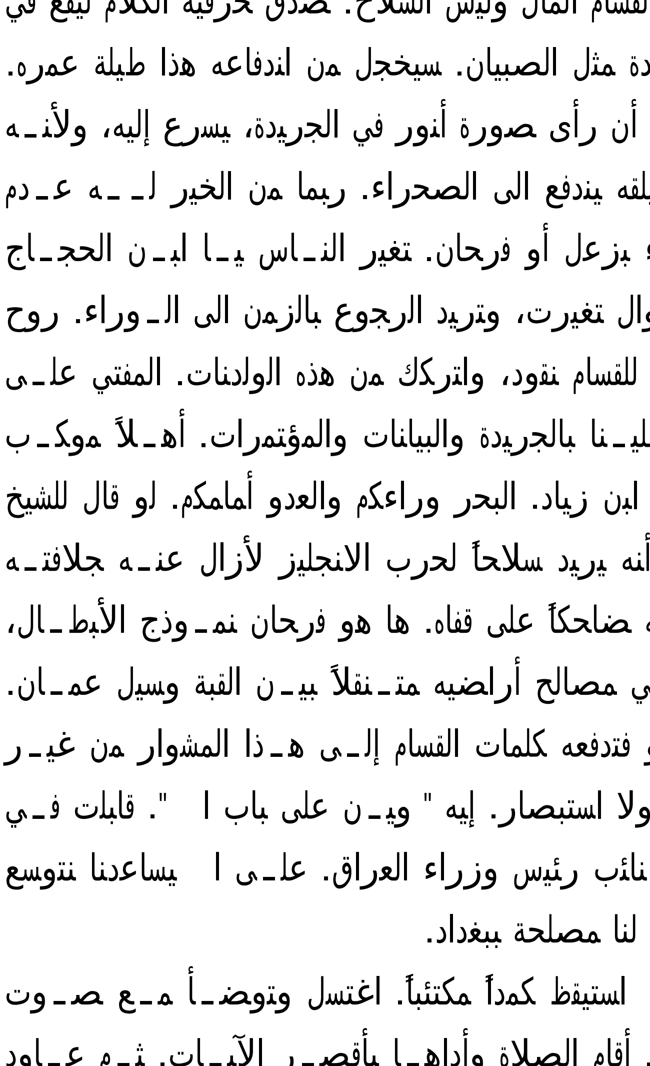
قيل لـه بأن الشيخ زعل في عمان. أرسـل القائـد جلوب في طلبه لأمر هام ، لا أحد يعرف متى يعـود أو إن كان سيمضي الليلة في المضارب أم في مكان آخر.



شرب قهوة ضيافتهم وروى ظمأه من مائهم. أصروا على القيام بالواجب. فالضأن جاهزة والمواقد مشتعلة والنساء ينتظرن إشارة لإعداد العشاء. سيؤاخذهم الشيخ زعل إن لم يكرموا وفادة صهره. لكنه أصر على المغادرة. سيكون محظوظاً إذا التقى بالشيخ في طريقه أو قابله في عمان. فصبوا له قهوة الوداع وقد أوشك الغروب.

سبقته العتمة إلى القبة رغم سرعة العجلات. سأل، دون أن يترجل من السيارة، عن فرحان . كان الاستغراب واضحاً في وجه مرزوق، فليس من عادة أبيه التأخر إلى ما بعد المغيب، فكيف وقد أظلمت الدنيا وصار الاهتداء بالطريق صعباً حتى على كشافات السيارات المندفعة بأقصى سرعتها شمالاً إلى عمان.

وصل الفندق متعباً مغبراً ضيق الخلق متأزم الأعصاب. اغتسل وتوضأ وصلى واسترخى فوق سريره المريح. لم يكن له شهية للأكل، وإنما ظمأ لماء عمان الذي لا يرتوي منه الإنسان كما يقولون. كانت رحلته اندفاعاً لا معنى له. سوء الحظ يلاحقه منذ استقر به المقام. لا أنور ولا زعل ولا فرحان. حرك الضيق في نفسه الظنون. ربما



قصد القسام المال وليس السلاح. صدق حرفية الكلام ليقع في المصيدة مثل الصبيان. سيخجل من اندفاعه هذا طيلة عمره. لمجرد أن رأى صورة أنور في الجريدة، يسرع إليه، ولأنـه يا لم يلقه يندفع الى الصحراء. ربما من الخير لـ ـه عـدم الالتقاء بزعل أو فرحان. تغير النـاس يـا ابـن الحجـاج والأحوال تغيرت، وتريد الرجوع بالزمن الى الـوراء. روح أعطي للقسام نقود، واتركك من هذه الولدنات. المفتي علـى حق خليـنا بالجريدة والبيانات والمؤتمرات. أهـلاً موكـب طارق ابن زياد. البحر وراءكم والعدو أمامكم. لو قال للشيخ زعل أنه يريد سلاحاً لحرب الانجليز لأزال عنـه جلافتـه وأوقعه ضاحكاً على قفاه. ها هو فرحان نمـوذج الأبطـال، يـرعي مصالح أراضيه متـنقلاً بيـن القبة وسيل عمـان. أما هو فتدفعه كلمات القسام إلـى هـذا المشوار من غيـر تمهل ولا استبصار. إيه " ويـن على باب ا ". قابلت فـي عمان نائب رئيس وزراء العراق. علـى ا يساعدنا نتوسع ونعمل لنا مصلحة ببغداد.

استيقظ كمداً مكتئباً. اغتسل وتوضـأ مـع صـوت الأذان. أقام الصلاة وأداهـا بأقصـر الآيـات. ثـم عـاود

الاسترخاء في سريره هو يحس بالتعب والإرهـاق، وكأنـه معلق من مسامات جسده في الهواء. سرقته غفـوة طويلـة، استيقظ بعدها أكثر تعباً وإرهاقاً. سارع للاغتسـال وتهنـدم كيفما اتفق وحمل حقيبته إلى عامل الاستقبال وقـد قاربـت الساعة الحادية عشرة. ضاع النهار.

في الطريق إلى سيارته كانت الشوارع تعج بالبهائم، ولاسيما الجمال، والبدو يـنتشرون في كل مكـان وكـأنهم احتلوا البلدة، بيـنما الشرفات تغص بالرجال والنساء. إنهـم جبيلية، جبيلية، يستطيع تمييزهم من بيـن جميع البدوان.

شقت سيارته طريقها بصعوبة، لتتوقف مع العديد من السيارات والحناتير والمركبات والبهائم قريباً من جامع كبير ارتدت مئذنته خوذة خشبية مثل خوذة صلاح الديـن: شـو فيه. ليش السير واقف.؟.

- فيه جنازة يا عم .

- جنازة ميـن ؟.

- واحد من فرسان البادية .

- وكل ها الناس منشان واحـد مـن فرسـان البادية .

- بقولوا أنوه ابن الشيخ زعل الجبيلي .

- ميـن ؟!...

- شو بعرفنـي. عمري ما سمعت فيه.

٣٧

حاول فناطل مراراً حث درداح على غزو اللاطيفات، مطمئناً إياه باستمرار على أن أحداً لن يكتشف هـويتهم، وإن حصل، فهم جبيلية يتحمل زعـل المسؤولية أمـام حكومـة عمان.

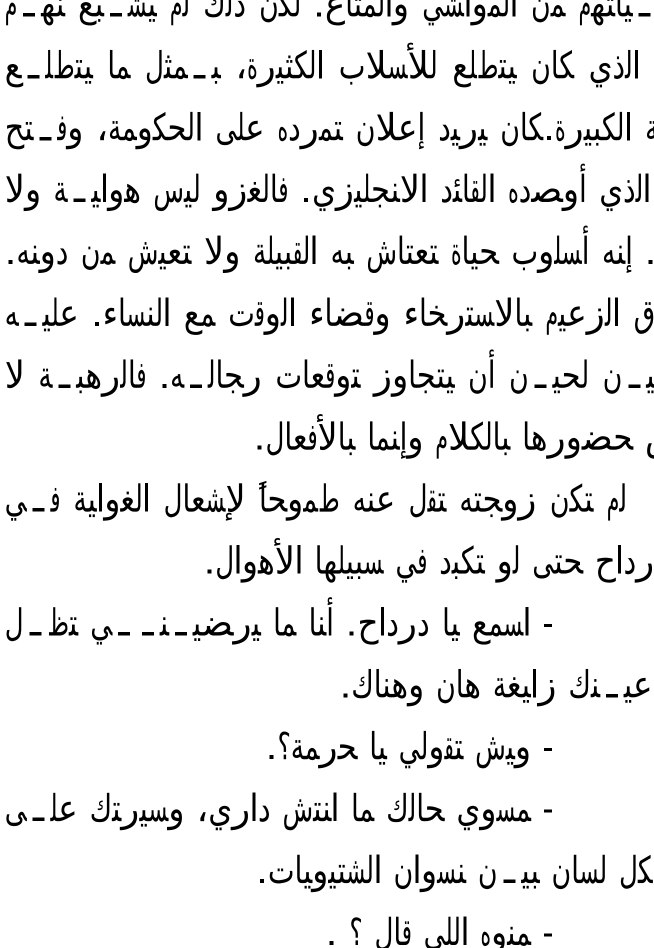
لكن درداح الذي لم يكن يفصح عن سبب إحجامـه، كان في قرارة نفسه، يخشى زعل أكثر من خشيته الحكومة. لن يحتاج زعل إلى دليل حتى يلصق به التهمة ويحاسبه على الغزو . فاللاطيفات سيظلون في جيرته، طالما ظل مسـكوناً بشبح هند. كل قتاله مع الوهابيـين لم يشفه، فكيـف إذا مـا أخل أحدهم بوعده. لو أنسته إياه الأيام سـيظل يـذكره بـه الناس" اللاطيفات بجيرتي طال بي العمر أو قصر " .

فدرداح، وإن تبعه البعض في انشقاقه، إلا أن أحداً لا يستطيع أن يقدر النتيجة إذا تمادى في تحديه وطلب لنفسـه الزعامة.

حتى لو مات زعل، ستمضي سنوات قبل أن تمـوت سطوته ويتلاشى شبحه. لن يجرؤ أحد قبل ذلـك بـالخروج

عليه أو المساس بشيخته التي ستـنتقل تلقائياً لولـده. مـن سيـنازع عندها فندي المتزيـن بـزي الفرسـان ويركـب السيارات المدججة بالرشاشات، ويرافق القائـد الانجليـزي. وقبل كل هـذا، أبوه الذي يتقدم الجميع، يتبعه على الـدرب ابنه ولو كان رضيعاً.

ولكي لا تفضح درداح مخاوفه أمام فناطل الذي بدأت تراوده الشكوك ويضجره التردد والإحجام، وافقـه علـى أن يقوما بالغزو في البقاع النائية الوعرة، التي يعجز سـاكنوها عن الإبلاغ بـمثل ما تعجز سيارات الحكومة عن الوصول. قد يحالفه الحظ بغزوة كبيرة تعيد أمجـاد القبيلـة. غزواتـه القليلة الباهتة، حمست العديديـ ـن علـى الإنضـمام إليـه والالتحاق بركبه، فكيف إذا نجح في مغامرة كبيرة تهتز لهـا البوادي والأرياف. عندها يسحب البساط من تحـت زعـل، ويـنتقل إليه الولاء ويذيع صيته في الصحراء. وقد يحظـى بفاتـنة شقراء تفجر قلب زعل قهراً وحسرة، فيموت كيانـه مثلما أماتت هند روحه. وإلى أن تواتيه الفرصة يكفيه هـذه الغزوات الخاطفة في النواحي البعيدة، التي لم يسمع أصحابها بالانجليز ولا بالحكومة.



غنم وفناطل أسلاباً قليلة لفقر حال أصحابها وشح مقتنياتهم من المواشي والمتاع. لكن ذلك لم يشبع نهم فناطل الذي كان يتطلع للأسلاب الكثيرة، بمثل ما يتطلع للشيخة الكبيرة.كان يريد إعلان تمرده على الحكومة، وفتح الباب الذي أوصده القائد الانجليزي. فالغزو ليس هواية ولا غواية. إنه أسلوب حياة تعتاش به القبيلة ولا تعيش من دونه. لا يتألق الزعيم بالاسترخاء وقضاء الوقت مع النساء. عليه من حين لحين أن يتجاوز توقعات رجاله. فالرهبة لا تفرض حضورها بالكلام وإنما بالأفعال.

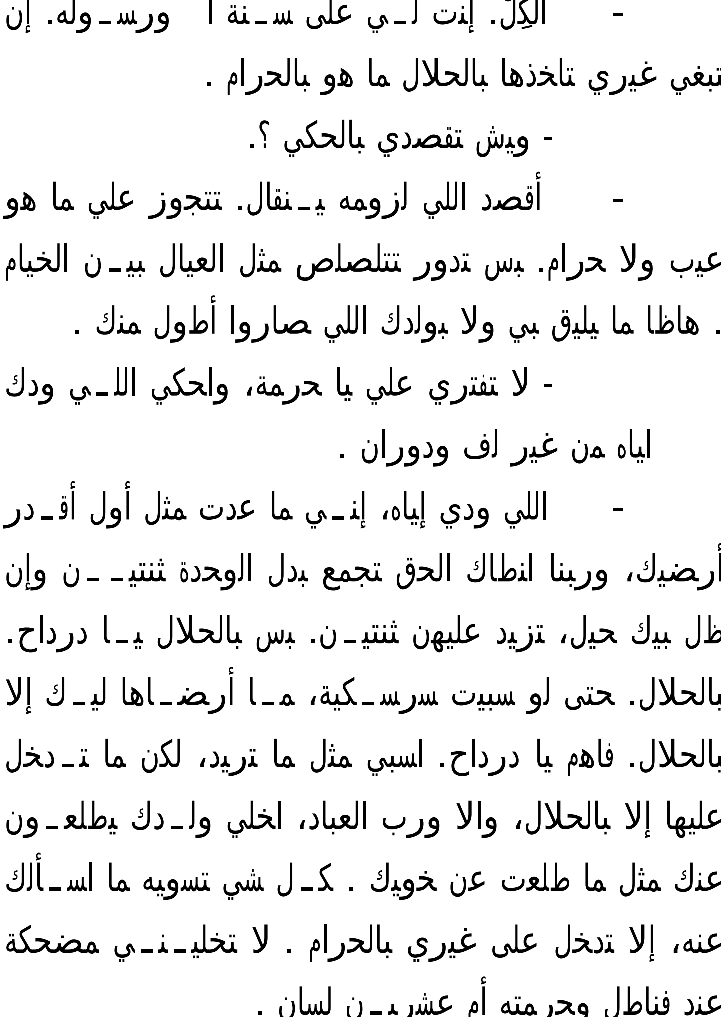
لم تكن زوجته تقل عنه طموحاً لإشعال الغواية في قلب درداح حتى لو تكبد في سبيلها الأهوال.

- اسمع يا درداح. أنا ما يرضيني تظل عينك زايغة هان وهناك.

- ويش تقولي يا حرمة؟.

- مسوي حالك ما انتش داري، وسيرتك على كل لسان بين نسوان الشتيويات.

- منوه اللي قال ؟ .



- الكِلْ. إنت لـي على سـنة ا ورسـوله. إن تبغي غيري تاخذها بالحلال ما هو بالحرام .

- ويش تقصدي بالحكي ؟.

- أقصد اللي لازومه يـنقال. تتجوز علي ما هو عيب ولا حرام. بس تدور تتلصاص مثل العيال بيـن الخيام . هاظا ما يليق بي ولا بولدك اللي صاروا أطول منك .

- لا تفتري علي يا حرمة، واحكي اللـي ودك اياه من غير لف ودوران .

- اللي ودي إياه، إنـي ما عدت مثل أول أقـدر أرضيك، وربنا انطاك الحق تجمع بدل الوحدة ثنتيـن وإن ظل بيك حيل، تزيد عليهن ثنتيـن. بس بالحلال يـا درداح. بالحلال. حتى لو سبيت سرسـكية، مـا أرضـاها ليـك إلا بالحلال. فاهم يا درداح. اسبي مثل ما تريد، لكن ما تـدخل عليها إلا بالحلال، والا ورب العباد، اخلي ولـدك يطلعـون عنك مثل ما طلعت عن خويك . كـل شي تسويه ما اسـألك عنه، إلا تدخل على غيري بالحرام . لا تخليـنـي مضحكة عند فناطل وحرمته أم عشريـن لسان .

تحرك الرجال شرقاً باتجاه خان الزبيب، وعلى مبعدة عشرة كيلو مترات تجاوزوا سكة الحديد. انحرفـوا شـمالاً باتجاه الجيزة. فكوا الركاب قريباً منها ودفعوا أحدهم لجلـب الماء ثم شدوا الرحال إلى الشمال الشرقي، وكأنهم يرومـون واحات الأزرق .

بعد مسيرة ساعتين انحرفوا إلـى الشـمال الغربـي باتجاه الحلابات، فوصلوا أطلالها مع انبلاج النهار، وكـانوا يثيرون الفزع في المضارب التي تصادفهم من عشائر بنـي حسن المتـناثرة هنا وهناك. خيموا داخـل الأطـلال حتـى العصر، ثم شدوا الركاب، مع الغروب، نحو سـكة الحديـد غرباً، فواكبوا انسيابها جنوباً إلى ما قبل السمرة ببضعة كيلو مترات. تجاوزوها متلفعيـن بالعتمة تاركيـن وراءهم نجـم الشمـال .

في غضون ساعة خرخر الماء في آذانهـم فتهيـأوا بأسلحتهم وعبروا جانب السيل الواطىء معارضيـن مجرى الماء، إلى أن لاحت لهم من بعد نقاط ضوئية خافتة فوجهـوا أعنتهم إلى الجانب وتوغلوا بهدوء وحذر بيـن الأشـجار الباسقة المليئة بالغيلان، كما يدعي أهل الرصـيفة. قضـت

خطة فناطل بأن يواصلوا حتى آخر البيوت من جهة الغـرب فتحرر مجموعة منهم البهائم من زرائبها، لتتسلمها مجموعة أخرى تسوقها بيـن الأشجار إلى درداح، الذي خشي فناطل من تردده. بيـنما رجال فناطل يراوغون فـي مجموعـات للتصدي للشراكسة ومناورتهم غرباً بيـ ـنما يتوجـه درداح بالأسلاب شرقاً بأمان.

لم يكن فناطل قـد أخذ بالحسبان، الـدافع الـرئيس وراء اشتراك درداح بهذه المخاطرة، وإن كان وراء موافقـة درداح من خلال زوجته. فدرداح كان يريد سبية، بل سـبايا من الشركس أو الشيشان، لا يزدن عن ثلاثة، يتزوجهن على سنة ا ورسوله، وإلا فواحدة هذه المرة يضم إليها اثنتـ ـين في غزوتيـن قادمتيـن، فقام بإدخال تعديل جعـل الغـزوة أشبه ما تكون بالسرقة المنظمة والسطو الكتوم، وهو يـندفع مع ثلاثة من رجاله، اتفق معهم على الأمر مسبقاً، باقتحـام بيت متواضع ذو باب خشبي هش، يـنبعث من بيـن شقوقه وميض سراج زيت خافت، أيقن بسببه درداح أن ساكنـ ـيه نـيام، وإن سرقتهم وسبيهم أهون من سوق الدواب. لم يكن مخطئاً في ذلك لولا أن الساكنة الوحيـدة فـي الكـوخ قـد

تجاوزت الثمانين، ليجدد الرعب شباب حنجرتها وهي تصرخ وتولول. فما كان من أحد رجال درداح إلا أن أطلق عليها النار، وكأنه النفير.

في دقائق ساد الهرج والمرج، بينما بعض رجال فناطل يراوغون الشراكسة المستنفرين ويستدرجونهم غرباً على عكس اتجاه الأسلاب، التي كان بينها كميت أسود ملجوم بعصا ذات طرفين فضيين .

أسفر الصدام عن مقتل ثلاثة شراكسة، وسقوط خمسة رجال من الشتيويات، بينهما اثنان جرحهما بليغ، لفظا أنفاسهما، رافضين كشف هويتهما واسم قائد غزوتهما، فاستعان جاوب بفرسانه للتعرف على المقتولين، فقال فندي إنهما من الشتيويات.

تحركت قوة من الهجانة قوامها عشرين فارساً على رأسهم فندي، لتنفيذ أوامر جاوب القاضية بالمرور بين العشائر لاستعراض قوتها، والعودة بالأسلاب بالطريق نفسها لتأكيد رهبتها. فالحكومة لن تتوانى عن ملاحقة الغزاة في عقر دارهم وأيا كانت مواقعهم أو هوياتهم. سيطول القانون كل من تسول له نفسه الخروج عليه. ومن لم يسمع بالغزوة

حتى ذلك الوقت سمعه من أفراد القوة الذين كانوا واثقين من أنفسهم وأصالتهم وحداثة سلاحهم وهيبة مظهرهم ولاسيما فندي الجبيلي. فعبروا ديار العوازم ثم انحرفوا إلى ديرة السلايطة ومنها إلى الشخاترة والفواضلة والغنيمات قبل أن يصلوا إلى مضارب الشتيويات.

استدلوا بسهولة على بيت فناطل المبني من الطوب والحجر، ومن خلفه مراح كبير مسور بسلسة حجرية مربعة الشكل على امتداد بضعة دونمات.

استحكم بعض الهجانة في مواقع متفرقة بين المضارب متهيئين بسلاحهم فارضين على السكان التزام مساكنهم، واقتحم اثنان مراح فناطل لتفقد البهائم بينما اصطف الهجانة الآخرون أمام البيت. أطل فناطل متسلحاً ببندقيته. تقدم خطوات إلى الأمام ومن خلفه عبد شرس القسمات بينما ربضت زوجة فناطل خلف الباب.

- منوه اللي غزا السرسك يا شيخ؟.

- ويش دراني .

- بس الجريحين يقولون إنك كنت على راس الغزو.

- كذب .

- والجريحيـن.؟.

- هاتهم ليـنا.

- اعترفوا قبل ما يقضوا .

- ويش ها الحكي يا عسكري، البدوي ما يفتري على قومه وهو حي، كيف وده يسويها وهو يموت!.

- القانون يقول كل بهيمة مسلوبة بتغرم سالبها أربع.

- ما عندنا بهايم مسلوبة .

- والقاتل يتحاكم قدام لجنة العشاير بعمان.

- ما احنا قتّاليـن يا كبير .

اتجهت الأنظار إلى صوت جلبة في الجانب، باستثناء فناطل وفندي، ظلا يتفرسان ببعضهما.

تقدم الهجانان من المراح يسوقان كميتاً منقوش الذيل متـناسق الشكل يكاد لحيويته يتفلت من رسنه الجلدي الأسود لولا اللجام الفضي الذي يحول دون جموحه.

- إلْمن الكميت يا كبير؟.

- إلمن وده يكون .؟. لي والا ما يليق بي ؟!

- اشتريته وإلا انهدى ليك ؟.

- ويش يعنـيك ؟ .

- الفرس تعرف خيالها... وأشار فندي برأسـه للعسكري الممسك بلجام الكميت، فتحرك به نحو فناطل الذي أخذت منه الحركة، فأرتبك يلتفت إلى الكميت ، وبسرعة سدد فندي بندقيته نحوه: سلم سلاحك وخلي القانون ياخذ حقه...

أناخ هجاناً بعيره، وهبط عنه ومـا يـزال ممسـكاً بالخطم: خذ منّوه البارودة...

تقدم الهجان نحو فناطل، الذي تراخت يده بالبارودة قليلاً، لولا أن زعيقاً كصوت العفريت انطلق من داخل الدار، وأطلت زوجة فناطل وهي تزغرد، فانبعثت الحمية في صدر زوجها وسدد بندقيته سريعاً إلى الهجان وأطلق عليـه النـار وما تزال زوجته تزغرد، وقبل أن يـنحرف بالبارودة نحـو الآخريـن، رنحته طلقة سددها إليه فندي، بيـنما هيأت باقي القوة السلاح الذي وجد أهل المضارب أنفسهم محاصريـن به من كل جانب. وراحت زوجة فناطل تـنـدب وتخمـش وجهها وتمزق ثيابها، بيـنما العبد الأسود يهدئ من روعهـا وهي ترمي فندي بنظرات حاقدة.

سيقت بهائم فناطل أمام القوة، كما سيق معهـا نحـو عشريـن رجلاً حاولوا الفرار أثناء تفتيش المضارب لجمـع باقي الأسلاب.

وضع المعتقلون في سجن محطة القطـار لحيـن التحقيق معهم، وتوجه أربعة هجانة على رأسهم فنـدي إلـى مساكن الشراكسة في الرصيفة، يسوقون لهم بهائمهم ويعيدون ما استطاعوا استرداده مما سلب منهم فوصلوها مع العصر.

رغم ما ألم بالشراكسـة مـن حـزن وألـم، إلا أن مختارهم طار فرحاً وهو يتسلم الكميت الذي يتباهى به على جموع الشراكسة، ليس لأصالته فحسب، وإنما لأنه هدية من الأمير. فأصر على قوة الهجانة البقاء للعشاء. وبيـن تمنـع فندي وإصرار المختار حل اليميـن الأمر. استجاب فنـدي بشخصه، لكن رفاقه يجب أن يعودوا إلى المعسكر. حتـى لا تتم مساءلتهم، وطلب منهم إبلاغ القائـد باضـطراره إلـى التأخير.

أخذت منه نشوة السلطة العسـكرية التـي ترجمهـا الشراكسة بكل هذه الحفاوة والتكريم وقد أحاط بـه كبـارهم مفتونـيـن بثيابه وحديثه ووسامته السمراء.

عرضوا عليه المبيت، محذرينه من أخطار الطريق. رفض بإصرار، حتى يثبت لهم، إن البدوي يقظ في الليل مثل يقظته في النهار. أشفق على مضيفيه الذين نصحوه بالابتعاد عن مجرى السيل وينابيعه، حيث تتربص الضباع بالبهائم التي ترد الماء. قد ينقضي وقت طويل على الشراكسة قبل أن يشفوا من هاجس الغزوة التي باغتتهم في عمق الظلام. انهم يتوجسون حتى من عيون الماء.

اتخذ طريقه على مرأى منهم، بمحاذاة السيل. لكنه ما ان اختفى عن أنظارهم حتى انحرف إلى سكة الحديد. قد يكونوا محقين. الحذر ليس جبناً، والتهور ليس جرأة.

في ضحى اليوم التالي، دفع جلوب سيارته إلى ذيبان، لتعود مساء بالشيخ زعل الذي كتم الأمر عن رجاله إلى أن ينجلي كل شيء.

أكلت الحسرة ما تبقى من روحه، وهو ينظر إلى ابنه منهوب اللحم مهشم العظم. وصل الجمل وحده إلى المعسكر، فاندفع رجال الهجانة إلى ديار الشركسة. ساروا بمحاذاة السكة ليجدوا فوقها جثة فندي وقد نهشتها الضباع. قال الشراكسة بأنهم حذروه فلم يقبل نصيحتهم. لم يكن هناك

من تفسير سوى ارتياع الجمل، فأسقط عن ظهره فندي الذي حاول اجتياز السكة مع قدوم القطار. ربـما فقد الـوعي أو أعجزته الوقعة عن النهوض فتكفلت بالباقي الضباع: شـفت أبوك يـنشنق قدام عيـنك، وشفت ولْدك فريسة للضباع.

قالت له ثائرة : إنت أشجع العرب.

قال بامتعاض: صرت تلغيـن مثله .

أطرقت ، فقال بعد لحظة صـمت وكأنـه يخاطـب نفسه: العرب ما هم شجيعيـن، العرب قاسييـن. واللي خلى القوم يخافون أبوك، قسوته، ما هـي شـجاعته. إن رفعـت صبعي عن الزناد، تصير العشيرة كلها شيوخ. عرفـت هـا الحيـن الفرق؟.

- ...

- هرجت كثير.

- لا يـوبا. لا. أبغي اسمع للصبح. ما هرجت مثل هيك من يوم ماتت أمي ا يرحـ...

- لا تذكريـنـي بيها... صرخ بحدة ونهض واقفاً، فعقبت بكمد: لويش إنت نسيتها يوبا؟!.

٣٨

ألقى باللائمة على أمه لأنها أخبرت أباه... من قـال بأنه يريد الزواج؟. في الوقت الحاضر على الأقل. ومن قال إن عائلة ميسر ستقبل مفاجأتهم بالخطبة وابنـتهم لا تعـرف عن الأمر شيئاً: هذول مِدن يما مِدن. ما هم مثلنا يجـوزون ولدهم وهو بالقماط. خليه يعقل وما يسويـنا مضحكة.

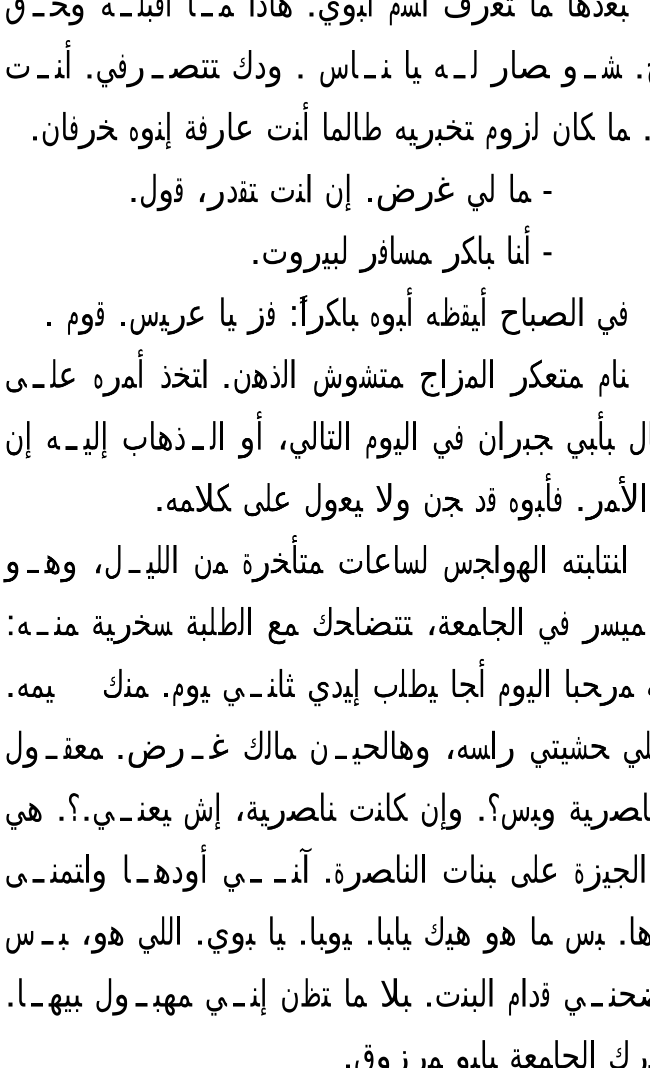
- لويش ما تقول ليه أنت .
- أنا. أنا اللي أقول ليه، وأنت اللي خبرتيه؟!.
- ويش درانـي راح يفقد عقله.
- إن كان وده حرمة غيرك، خلّه يتجوز عليك

ما يهمنـي.

- وهو يقدر يتجوز ؟! إيه. ناسي إنـوه حنـا

نصارى يا ولد.

- ما يهمنـي. يصير مسلم ويطلقك أو يتجـوز عليك. اما يفضحنـي مع البنت اللي



بعدها ما تعرف اسم أبوي. هاذا مـا أقبلـه وحـق المسيح. شـو صار لـه يا نـاس . ودك تتصـرفي. أنـت السبب. ما كان لزوم تخبريه طالما أنت عارفة إنوه خرفان.

- ما لي غرض. إن انت تقدر، قول.

- أنا باكر مسافر لبيروت.

في الصباح أيقظه أبوه باكراً: فز يا عريس. قوم .

نام متعكر المزاج متشوش الذهن. اتخذ أمره علـى الاتصال بأبي جبران في اليوم التالي، أو الـذهاب إليـه إن تطلب الأمر. فأبوه قد جن ولا يعول على كلامه.

انتابته الهواجس لساعات متأخرة من الليـل، وهـو يتخيل ميسر في الجامعة، تتضاحك مع الطلبة سخرية منـه: قلت له مرحبا اليوم أجا يطلب إيدي ثانـي يوم. منك يمه. انت اللي حشيتي راسه، وهالحيـن مالك غـرض. معقـول لأنها ناصرية وبس؟. وإن كانت ناصرية، إش يعنـي.؟. هي وقفت الجيزة على بنات الناصرة. آنـي أودهـا واتمنـى اتجوزها. بس ما هو هيك يابا. يوبا. يا بوي. اللي هو، بـس ما تفضحنـي قدام البنت. بلا ما تظن إنـي مهبـول بيهـا. وا أترك الجامعة يابو مرزوق.

- إيش بيه بعد يوبا.

تثاءب مرات وفرك عيـنـيه بعصبية، متردداً بيـن الاستجابة والرجاء. لو يتركه أبوه بحاله ويفيـق مـن حلـم الزواج الذي أطار عقله وسيطير عقول العقلاء من فلسطيـن إلى لبنان: ما نمت أمس ولا حبة.

- ولويش أنا نمت؟ قوم، قوم.

- لويـن؟.

- أدري لويش ما جاك نوم.

- تدري؟.

- إي با . نفس اللي أقلقنـي طـول الليـل وا العليم. قاعد تقول كيف ودنا نروح نخطب العـروس اللـي ياخذها من الجامعة أوتومبيل ويعود بيها أوتومبيل.

- هاظا اللي أخذ النوم من عيـنك؟.

- واللي زادها عليك شوفتك أوتومبيل الصاحب سيف.

- ...

- هيا. ودنا ساعتيـن لنصل عمان.

- لويش عمان؟.

- من ويـن لعاد نحصل ليك أوتومبيل؟!

ظهر اليوم التالي، تجاوز سيف بسيارته حدود القبة، دون أن يلتفت إليها. خطف نظره إلى ثـائرة التـي كانـت دموعها تـنهمر مدرارة إلى أن تتوقف فجأة لتجف وحـدها في لظى الشمس التي حولت السيارة إلى تـنور. لم يصـدر عنها أنـيـن ولا نشيج ولا بكاء مسموع. لم تكـن تصـغي لسيف الذي حاول التخفيف عنها فأزعجتها كلماته أكثر ممـا واستها، وهي تحملق بالزجاج الذي يبتلع الطريق. فتشاهد في رحلتها فندي صبياً وفتياً وعسكرياً رغم أنها لم تشاهده يومـاً في ثياب الفرسان. ومع كل مشـهد لفنـدي، يتـراءى لهـا عشرات المشاهد لأبيها، بجموده وجلافته وانحطاط عزيمتـه وموت روحه" أقدر أخدمك يوبا" . " أقـدر أخـدمك يوبـا". تخيلت العديد من المشاهد لأم فندي، لحظـة وقـوع الخبـر عليها، وردود فعلها بعده، ولم تتراء لها أمهـا هنـد علـى الإطلاق. ومن حيـن لحيـن تـندب بصوت خفيف أشـبه بالأنـيـن.

بعد تجاوز السيارة للقبة بقليل، ازداد لظى الشـمس وتـنازعت الرياح الحارة النافذة دون أن تخف من سـخونة

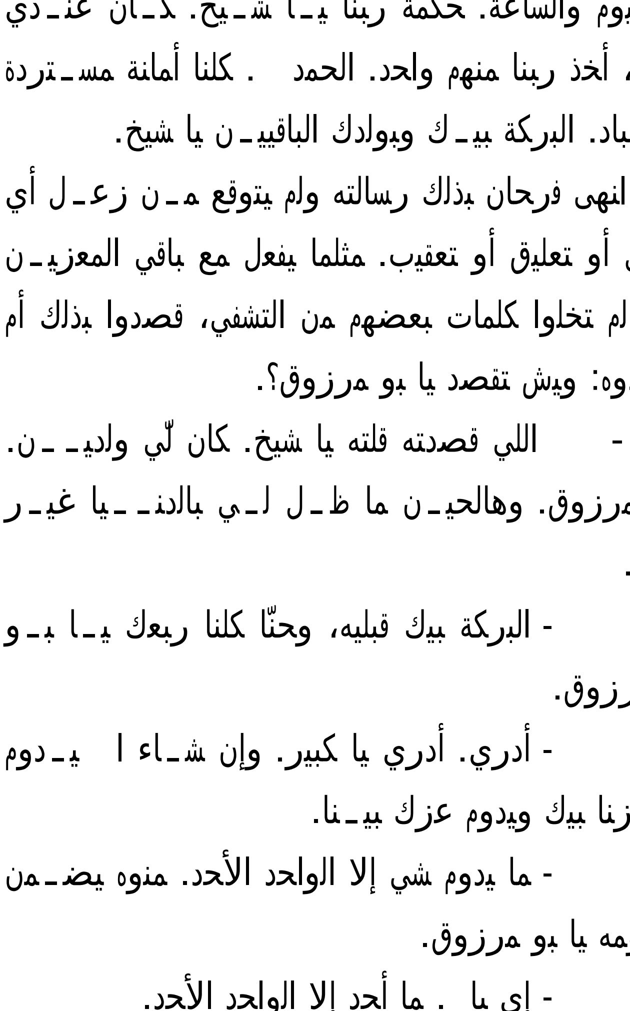
الصاج، فرفع سيف الزجاج للأعلى إلا قليلاً كي يفهم بعضـاً من ندبها المشفوع بالدموع.

حاول أن يمهد لما عزم عليه مع فرحان، عله يعرف منها إن كان الأمر يتـناسب مع عادات الجبيلية: العم فرحان كان يوم الحادث ناوي يخطب لابنه مرزوق.

لم تعلق بكلمة. اختطف إليها نظرة فلـم يفهـم مـن تعابيرها أي مدلول. أضاف مؤاخذاً نفسـه: إيـه، للظـرف أحكام. شو بـدها تفرق إن الخطبة صارت اليوم والا بعـد أربعيـن يوم.

أثار صمتها لديه شعوراً بالذنب. إنها أذكى مـن أن تفهم حديثه بحرفيته. بالتأكيد أدركت أنه يستدرجها. أفي هذا الوقت العصيب يا ابن الحلال؟. وبدلاً من أن يلوذ بالصـمت مثلها أو يغير الموضـوع أو يواسـيها بلباقتـه المعهـودة، استرسل قائلاً: إيه. كله يتأجل إلا الموت... زاد قولـه مـن قنوطها: حتى لو ما صار اللي صار. ويا ريته مـا صـار. جيزة مرزوق ما راح تصير بكل الأحوال قبل الخريف...

كان فرحان قد قال المعنى نفسه للشـيخ زعـل وإن اختلف عن سيف بالتعبير: كان منوتي أفرح بفندي ومرزوق



بنفس اليوم والساعة. حكمة ربنا يـا شـيخ. كـان عنـدي ولديـن، أخذ ربنا منهم واحد. الحمد . كلنا أمانة مسـتردة لرب العباد. البركة بيـك وبولادك الباقييـن يا شيخ.

انهى فرحان بذلك رسالته ولم يتوقع مـن زعـل أي ردة فعل أو تعليق أو تعقيب. مثلما يفعل مع باقي المعزيـن الذيـن لم تخلوا كلمات بعضهم من التشفي، قصدوا بذلك أم لم يقصدوه: ويش تقصد يا بو مرزوق؟.

- اللي قصدته قلته يا شيخ. كان لّي وليـ ـن. فندي ومرزوق. وهالحيـن ما ظـل لـي بالدنـ ـيا غيـر مرزوق.

- البركة بيك قبليه، وحنّا كلنا ربعك يـا بـو مرزوق.

- أدري. أدري يا كبير. وإن شـاء ا يـدوم عزنا بيك ويدوم عزك بيـنا.

- ما يدوم شي إلا الواحد الأحد. منوه يضـمن يومه يا بو مرزوق.

- إي با . ما أحد إلا الواحد الأحد.

- إن كان بصدرك شي، قول . ترى الدنـ ـيا باقية ما دِمنا باقيــن بيها.

- تفهم الناس من غير كلام يا سيد القوم .

- لكن ما أفهم الموت.

- بس ما تهابه يا شيخ.

- منوه قال. الميت بس ما يهاب الموت. سمعت إنك ودك تخطب لمرزوق ودفعت المهر ثلاث نـياق محملة سلاح.

- با ودي أحكي لك، بـس المصـيبة عقـدت لسانـي.ما هي خُطبة يا شيخ.بس طُلبة. نفسي أسويها قبل ما يقول لي ربي، تع جاي... ابتسم زعل وانتقلت ابتسامته إلـى شفتي فرحان، بيـنما سكتت الوشوشات حولهمـا لتـنشد الأنظار إليهما.

قال درداح لزوجته تلك الليلة: ما أحد يفرح شـيخنا مثل هاظا الفرحان. عهد علي إن جات لي الشيخة لأسـميه زعلان.

- وعساكر زيزيا.

-         مسعود هالصليبي مسعود. بس إلْمتى. وعـد، إن غادرت العساكر من هان، تعاود القبة لولاد عواد من هان.

استأجر فرحان جبيلياً يدل الطريق إلـى فلسطيـن مغمض العيـنـيـن، حسب ادعائه، فتعهد بإيصال الحمولة لقاء ست ليرات ذهبية عند الذهاب بجمـال ثلاثـة محملـة بالسلاح والعتاد والمتفجرات، وستة أخرى عند إيابـه بهـا محملة بالبرتقال. قال فرحان لسيف: إِلْمتى باقي هان.؟.

- لباكر علي خير.

- لعاد، أطعمك بكرة في القبة برتقان.

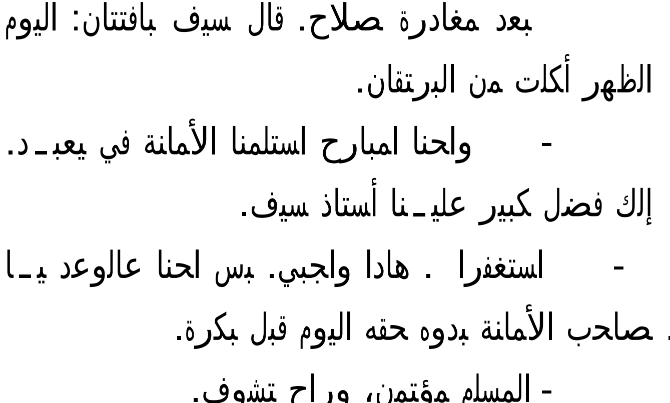
قاد السيارة بسرعة فائقة، وهو يتطلع للوصول إلـى حيفا قبل القدس. أنـزل ثائرة في باب السرايا مـدعياً أنـه مضطر للمواصلة إلى حيفا دون أن يذكر الأسباب.

وصل بعد ساعة من آذان العشاء. اتجه من فوره إلى جامع الاستقلال. أسرع إلى الداخل حيث احتشـد المئـات يستعمون بحماس لدرس القّسام الديـنـي. ارتاحت تعـابير سيف بعدما لاحظ الإشراق في وجـه الشـيخ بـمجرد أن تلاقت عيـناهما، دون أن تتغير نبرة القسام أو تعابيره. عاد إلى الباحة، فتوضأ من بركتها المستديرة، وهو يحس بظمـأ

شديد إلى الماء.أدى الصلاة منفرداً، وقعد مطرقـاً، يصـغي بانتباه للشيخ بيـنما تتزاحم في رأسه التساؤلات. ظل علـى قعدته عند الانتهاء وخروج الحضور، وإن رفع رأسه متابعاً الشيخ بعيـنـيه إلى أن وصل إليه فأشار له حتى يتبعه.

لاذ بالصمت طيلة الطريق إلى الحي القديم، بيـ ـنما يجيب الشيخ على أسئلة مرافقيه الأربعة ومن بيـنهم صلاح. أخذت منه المفاجأة عندما طلب منه الشيخ التوقف بالسـيارة بجانب بيت هزيل مسقوف بالصفائح.

تـناولوا بشهية عشاء متواضعاً من اللبنة والمقدوس والزيتون ، قبل أن يستأنف الشيخ الحـديث عـن مصـائب الفلاحيـن. بادر أحدهم بالاستئذان فتبعه الآخرون. عـرض صلاح استضافة سيف في بيته والمبيت عنده. اعتذر سـيف وأخبره عن موت شقيق زوجته. لا بد من عودته إلى القدس. عبر وجه صلاح عن الاستغراب ومضـت فـي عيـنـ ـيه التساؤلات. قال سيف بأن السيارة تسير في الليل مثلها فـي النهار. حسم القسام الأمر: اترك الضيف على راحته يا أستاذ صلاح، كل بيوت حيفا مفتوحة له إن طاب له يبيت.



بعد مغادرة صلاح. قال سيف بافتتان: اليوم الظهر أكلت من البرتقان.

- واحنا امبارح استلمنا الأمانة في يعبـد. إلك فضل كبير عليـنا أستاذ سيف.

- استغفرا . هادا واجبي. بس احنا عالوعد يـا شيخ. صاحب الأمانة بدوه حقه اليوم قبل بكرة.

- المسلم مؤتمن، وراح تشوف.

٣٩

نهض مبنى الختّام أحسن مما كان. فإعادة إعماره لم يكن مجرد ترميم، بل تجديـد بالكامـل. الهيكـل الحجـري والتـنظيم الداخلي والتشطيب والدوكرة والإنـارة. فتألقـت آرمة محل شاميات بحجم أكبر وخطوط أوضح وإنارة تبقيها مضاءة طيلة الليل. استجاب صابر لفريد في توزيـع محـل شاميات إلى أقسام، واحد للأوانـي والأدوات المنـزلية وآخر للعطارة بـما فيها البزورات، والثالـث لمسـتلزمات الخيل.

احتل المحل المخزنـيـن الكبيريـن فـي الغـرب، واستأثر فريـد بالمخزنـيـن جهـة الشـرق، وعـرض المخزنـيـن المتبقييـن في الوسط للإيجار.

طمأن فريد شريكه الختّام منذ البدايـة بأنـه لـيس دكنجياً، لهذا لن يتدخل بأمر المحل تاركـاً إدارتـه للختّـام يساعده عدنان. من جهة أخرى، اشترط فريد على الختّام دقة العمل سواء في التـنظيم أو التوثيق، فكـل عمليـة شـراء للمواد،سواء من عمان أو الشام، يجـب أن تكـون معـززة

بمستند رسمي مختوم من المورد، وغاب عنه لماذا يسمى صابر بالختّام. كما اشترط تسجيل المبيعات بالإشارة لمستندات الشراء، دافعاً أخاه وليد من حين لحين للتدقيق ومراجعه الحسابات.

وكان من شروط الشراكة أيضاً أن يأخذ فريد لأعماله الخاصة المحلين اللذين يحتلان زاوية المبنى الشرقية على كوربة الشارع. استخدمهما بداية مكتباً للحافلات المسافرة بين عمان والقدس والشام. وظل المحلان في الوسط شاغرين نحو شهرين. قبل أن يأتي رجل نابلسي يدعى عرموش عارضاً استئجارهما، فوافق صابر وفريد على التأجير، طالما أن الرجل ليس معنياً بالأدوات المنزلية والسروجية والسفريات.

لم يكن في نية الختّام تكرار تجربته مع ماكينة الخياطة التي جلب منها واحدة يوماً، وباعها بطلوع الروح وبتقسيط لم يسترد منه قسطاً واحداً، ولاسيما أن معظم زبائنه رجالٌ وإن كانوا يشترون حسب رغبة النساء. لهذا فإنه اعتبر إن هذا العرموش أحمقاً طالما سيخصص المحل لتجارة ماكينات الخياطة فحسب. إن كان حظه كبيراً، سيبيع

واحدة منها لبشارة ويسامحه بثمنهـا. فـي غضـون شـهر ارتفعت فوق المحل الجديد آرمة كبيرة خطط فيها بالعربيـة والانجليزية اسم " سنجر" وبيـن الكلمتيـن رسمة لماكيـنة خياطة أنـيقة.

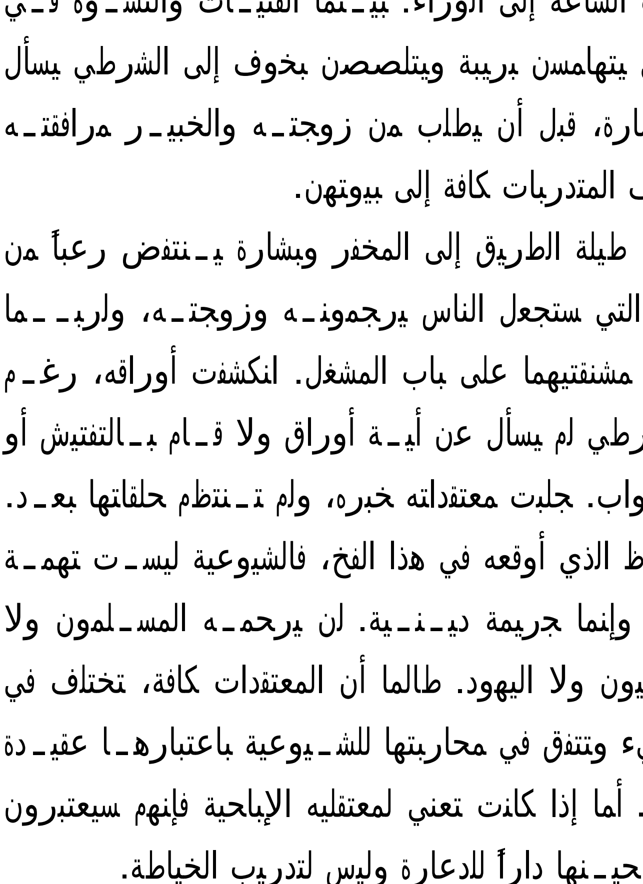
جاب المحل انتباه المارة. وكان البعض يتوقف أمـام الواجهة الزجاجية مأخوذاً بهذه الأوثـان المعدنـية، إلا أن أحداً لم يتجرأ على دخول المحل ولو للاستفسـار. باسـتثناء بشارة، كما توقع الختّام.

لكن الذي لم يتوقعه الختّام هو سياسـة البيـع التـي يعتمدها عرموش وفقاً لبرنامج الشركة الصانعة التسـويقي. فعرموش لم يطلب من بشارة دفعة أولى وتقسيط الباقي كمـا فعل الختّام. بل أبدى استعداده لتزويده بالعدد الذي يريد مـن الماكيـنات ولوازم الخياطة، على الحسـاب ولأجـل غيـر مسمى، وتقديم الصيانة داخل مشغله. ذلك الأمر الذي كـان الختّام يـنكر أي دور لـه فيه. والأهم أن عرمـوش أبـدى استعداده لإرسال فنـي خياطة وتطريز إلى مشـغل بشـارة لتدريبه أو زوجته أو المتدربات في مشـغله علـى حسـاب المحل، دون أن يتكفل بشارة قرشاً واحداً. كان هذا الإغـراء

أكثر مما يطمح إليه بشارة. فوافق من فوره علـى التـزود بثلاث ماكيـنات دفعة واحدة واستقبال الخبيـر المجانـي يومياً في منـزله. ولكي لا تجتاح الريبة صدر بشارة، كـان عرموش واضحاً في مقصده: إحنا مستعديـن نضل نسـاهم، بس النسوان يتعلموا الخياطة منشان يشتروا الماكيـنات.

هذه السياسة، جعلت مشغل بشارة يستوعب المزيـد من المتدربات، ولاسيما أن أجور التدريب انخفضـت عمـا كانت عليه نظراً للخدمات المجانـية التي يقدمها عرمـوش. فازداد عدد المتدربات، الأمر الذي ازدادت معه ماكيـنات المشغل، وفي الغرفة الأخرى التي تتسامر فيها زوجة بشارة مع المنتظرات للدور أو المنتهيات منه، يدور الـجدل حـول العدل والمساواة وتوزيع ثروات الأغنـياء على الفقراء.

حمـس ازدهار المشغل العديديـن علـى افتتـاح مشاغل خياطة في بيوتهم وبإدارة نسائهم، بالطريقة نفسـها التي تطورت في مشغل بشارة. ورغم المبادئ التي يـنادي بها بشارة ، من تقديس للعمل والتعصب للعامليـن، إلا أنـه أحس بالنقمة على هذه المنافسة التي راحت تـنمو وتتعـاظم يوماً بعد يوم. إلى أن جاءه طارق يوماً في الظهيرة، أعـاد



عقارب الساعة إلى الوراء. بيـنما الفتيـات والنسـوة فـي المشغل يتهامسن بريبة ويتلصصن بخوف إلى الشرطي يسأل عن بشارة، قبل أن يطلب من زوجتـه والخبيـر مرافقتـه وصرف المتدربات كافة إلى بيوتهن.

طيلة الطريق إلى المخفر وبشارة يـنتفض رعباً من التهمة التي ستجعل الناس يرجمونـه وزوجتـه، ولربـما يعلقون مشنقتيهما على باب المشغل. انكشفت أوراقه، رغـم أن الشرطي لم يسأل عن أيـة أوراق ولا قـام بـالتفتيش أو الاستجواب. جلبت معتقداته خبره، ولم تـنتظم حلقاتها بعـد. إنه الحظ الذي أوقعه في هذا الفخ، فالشيوعية ليسـت تهمـة عادية، وإنما جريمة ديـنـية. لن يرحمـه المسـلمون ولا المسيحيون ولا اليهود. طالما أن المعتقدات كافة، تختلف في كل شيء وتتفق في محاربتها للشـيوعية باعتبارهـا عقيـدة الإلحاد. أما إذا كانت تعني لمعتقليه الإباحية فإنهم سيعتبرون مشغله حيـنها داراً للدعارة وليس لتدريب الخياطة.

تطابقت مخاوفه مع مخاوف زوجته، باستثناء فنـي الخياطة، الذي اعتقد أن اعتقاله جاء لـمجرد وجـوده فـي المشغل، فملامح بشارة وزوجته تدل على أنهما اقترافا إثمـا

كبيراً لا دخل له فيه. إنه ليس أكثـر مـن خيـاط وفنـي ماكيـنات، هذا عرموش فاسألوه.

- حضرتك بدك تخرب البلد؟.

- أنا يا أومباشي؟.

- لعاد ، شو دروس الخياطة هاي؟.

هنا انتقل التوجس بثقله إلى فنـي عرمـوش: إنـت بدك تسوي ثورة في البلد.

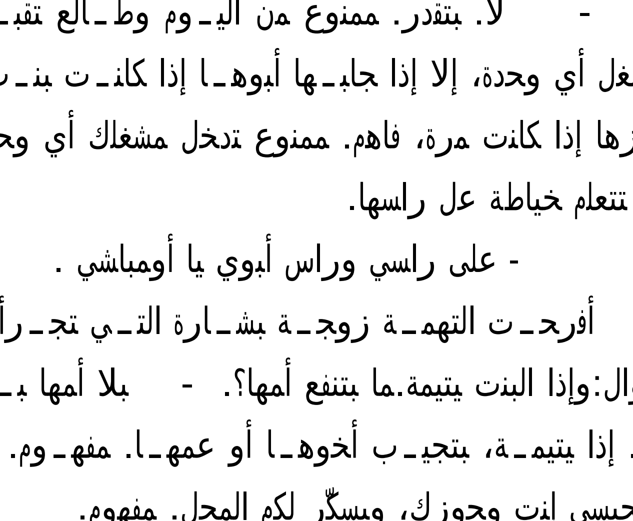
- أنا؟.

- اسمع... وحمل ورقة من على مكتبـه: هـاي عندي عشريـن بصمة وتوقيع ، بقولوا انك بتحرش النسوان على جيزانـهم .

- يا سيدي، لا بـحرش ولا شي. أنـا مشـغلي مفتوح لكل ميـن حابب يتعلم خياطة.

- بس اللي بيجو يتعلموا عندك صاروا يتـنمردوا على جيزانـهم، ولك ثلاثة تركن بيوتـهن. عارف منشـان إيش؟ لأنـهن قادرات يدبروا حالهن بحالهن. شو ناوي تعمل بالبلد. آ.

- ولا شي.



- لأ. بتقدر. ممنوع من اليـوم وطـالع تقبـل بالمشغل أي وحدة، إلا إذا جابـها أبوهـا إذا كانـت بنـت، وجوزها إذا كانت مرة، فاهم. ممنوع تدخل مشغلك أي وحدة جاي تتعلم خياطة عل راسها.

- على راسي وراس أبوي يا أومباشي .

أفرحـت التهمـة زوجـة بشـارة التـي تجـرأت بالسؤال:وإذا البنت يتيمة.ما بتنفع أمها؟. - بلا أمها بـلا ستّها. إذا يتيمـة، بتجيـب أخوهـا أو عمهـا. مفهـوم. أو بتـنحبسي إنت وجوزك، وبسكّر لكم المحل. مفهوم.

٤٠

انقطاع بشارة تـنظيمياً عن الحزب الشـيوعي فـي فلسطيـن لم يبعده عن أنشطته التي ظل شقيق زوجته يرفده بها مع كراسات أليديش العبرية فيتلقفها بشارة بلهفة، رغم أن معظم الأخبار الواردة فيها، على رأيه، بايتة. فالكراسة تصل متأخرة تتضمن القليل من الحوادث المعروفة للسواد الأعظم من الناس، ولاسيما أن المقاهي، وفي مقدمتها مقهى الختّـام، تتـنافس لـجلب الزبائن عن طريـق دوي المـذياع الـذي يطغى على صخب الشارع وحركة الناس. لهـذا لـم تكـن الأخبار بذات قيمة إلا لفتيات المشغل اللواتي لا يتوافر مذياع في منازلهن. أهم ما في الكراسات، الشروحات الماركسـية المترجمة عن العبرية التي كانت تغذي أفكار بشارة فيقتـبس منها أكثرها إثارة وهو يتحدث بتألق مسـرحي مـع رفـاق الحلقات الماركسية الآخذين بالازدياد مع الأيام.

لم تـحل سرية العمل لهـذه المجموعـات الصغيرة التي التأمت عقائدياً ولم تتخذ بعد شكلاً تـنظيمياً،

من انضمام المرأة إليها. وهو ما كانت تفتقر إليـه الهيئـات والأحزاب العلنـية في عمان.

تألق مشغل الخياطة في فترة قياسـية بعـد الزلازل، جعله بيئة مناسبة لانتشار الأفكار الماركسية بيـن العديد من الفتيات،اللواتي صرن يتقبلنها باعتبارهـا دعـوة للمساواة. نجح بشارة وزوجته في غسل أدمغـة الكثيـرات اللواتي كن يعتبرن الشيوعية إباحية. ورغـم عـدم وجـود تـنظيم بالمعنى الحقيقي، فقد ظل بشارة وزوجته حريصـين على الانتقاء حتى لا يـنكشف أمرهما للسـطات. مؤكـدين على المتدربات بأن نشاط المشغل في الأسـاس هـو تعلـيم الخياطة. كان حرصهما ضـرورياً فـي اختيـار الفتيـات المنجذبات لأفكارهما ممن يتوسما بـهن الإندفاع الشـاب أو الرغبة في التمرد على التقاليد والعادات. والبعض جعل منهن الانتظام مع الرجال يحسسن بالاستقرار النفسي وراحة البال، رغم أن أعماقهن لم تهدأ فيها الرغبات. فانضمام ساره إلـى المشغل وإن كان بدافع الهروب من سجن البيت إلا أنه غـدا القالب الذي تبنـي فيه ذاتها وتكـون شخصـيتها وتحـس

بالانعتاق من يهوديتها المنغلقة في مجتمع انفتحـت إحـدى عيـنـيه على العالم، وتتلهف الأخرى على اللحاق به.

انعكس تجاوب ساره على سلوكها البـيتـي. فهـي ليست مثل الأخريات اللواتي انضممن للمشغل حتى يعملـن خياطات أو يتأهلن لبيت الزوجية الذي تطمح إليه الكثيرات. فهي لا تفتقر لشيء رغم تقتير أبيها. كما أنها، بعـد قطيعـة مرزوق تراخى اندفاعها الأنثوي، وبدلاً من أن تـنحرف بها هرمونات الصبا، استولى عليها طموح الشباب. فتولت عـن ماكيـنة الخياطـة لتسـافر مـع الكراسـات والكتـب والمخطوطات. وكلما تـذمر أبوها مـن شغفها بالكتب التي صارت تكلفه مالاً وجهداً،تـهدئ منه أمها. فاستغراق البنت بالقراءة خير لهم جميعاً من قضاء الوقـت أمـام الشـباك، فيتساءل بامتعاض ولم لا تقرأ التوراة. لكن ردها يسكته دائماً فهي لم تقرأها فحسب بل تحفظ منها الكثير بيـنما لا يحفـظ هو إلا وصاياها: وشو الكتاب اللي بدك إياه.

- تاريخ

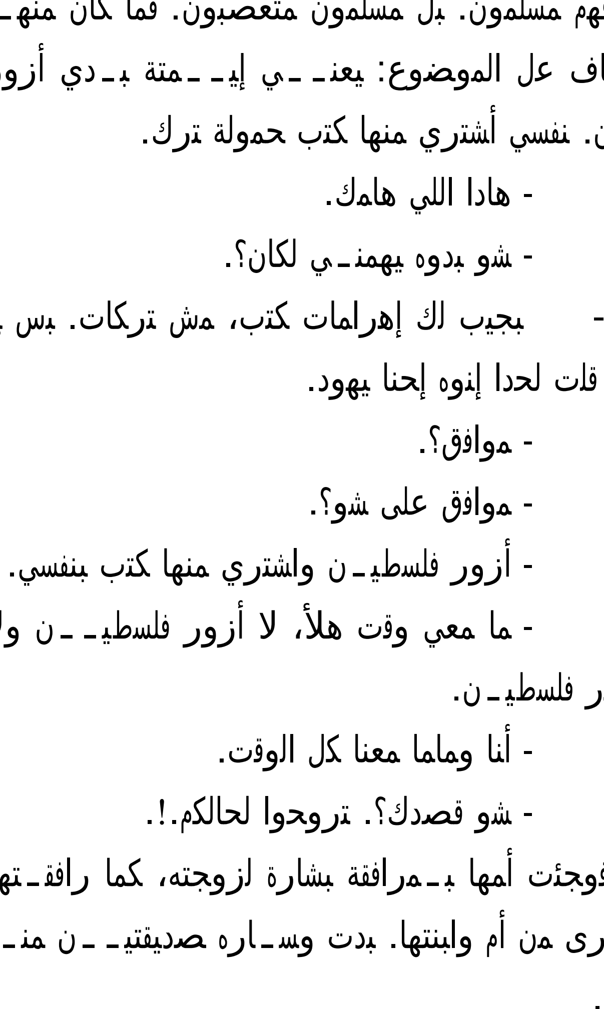
- كل كتب التاريخ اللي قدرت القاها جبتها.

- كل شي في الحياة تاريخ .

صار يوصي لها على الكتب من فلسطيـن، وهي مع الكراسات التي تزودها بـها زوجة بشارة، والكتـب التـي يتبادلها الرفاق، ازدادت ثقافة وتعمقت رؤيتها للحيـاة بعيـداً عن فتحة الشباك.

لم يخطر ببال مال البنـي أن حبسـه لهـا داخـل صفحات الكتب إنما يعتق روحها التواقة للحرية والانطـلاق ويمحو من ذاكرتها تاريخه المالي الطويل من مال صـهيون إلى مال النبي إلى مال قبان. وكثيراً، ما عاتبته على جشـعه المالي. منذ مـتى وهم في هذه البلدة التـي تضـيق علـى ساكنـيها، ولـم يفكر يوماً بحملها معه إلى الحـائط الـذي يبكيه الأجداد والأحفاد.

فاجأه طلبها. إنه مذ جاء إلى عمان يحـرص علـى التصرف كالمسلميـن ليصبح واحداً منهم، فكيف خطر على بال ابنته زيارة المكان الذي شهد أعنف المذابح بيـن العرب واليهود. تغيرت تعابير وجهه، دون أن تتبيـن ساره منهـا معنى محدداً. كانت خليطاً من الحيرة والغضـب والـذهول. استدركت مذكرة إياه بأنهم يهود. كـان رده عصـبياً وهـو يـنفي عنه يهوديته التي لا مجال لها إلا داخل بيتـه. أمـا



خارجه فهم مسلمون. بل مسلمون متعصبون. فما كان منهـا إلا الالتفاف عل الموضوع: يعنـي إيـمتة بـدي أزور فلسطيـن. نفسي أشتري منها كتب حمولة ترك.

- هادا اللي هامك.

- شو بدوه يهمنـي لكان؟.

- بجيب لك إهرامات كتب، مش تركات. بس يـا ويلك إذا قلت لحدا إنوه إحنا يهود.

- موافق؟.

- موافق على شو؟.

- أزور فلسطيـن واشتري منها كتب بنفسي.

- ما معي وقت هلأ، لا أزور فلسطيـن ولا غير فلسطيـن.

- أنا وماما معنا كل الوقت.

- شو قصدك؟. تروحوا لحالكم.!.

فوجئت أمها بـمرافقة بشارة لزوجته، كما رافقـتهم عائلة أخرى من أم وابنتها. بدت وسـاره صديقتيـن منـذ التقائهما .

لا تعرف ماذا حصل وكيف ترتب الأمر وفـرض عليها واقع التجول مع زوجة بشارة وأم الفتاة، بينما غاب بشارة والفتاتان طيلة النهار. قالت ساره بأنها والفتاة أضاعتا بشارة أو هو أضاعهما. وحمدتا ا أنهما أخيراً تلاقتا معه.

في اليوم التالي انعقد المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني، وصوت بشارة وساره على اقتراح إيقاف الصحيفة السرية أليديش، ليحل محلها صحيفة عربية باسم "إلى الأمام" . ومع أن ساره اعتبرت دعوتها للمؤتمر ومشاركتها به أهم حدث في حياتها، إلا أنه غدا أقل أهمية، عندما أخبرها بشارة بعد أشهر قليلة، عن بعثة تثقيف حزبية في موسكو، وأن أمين عام الحزب متحمس لإرسال بعض الفتيات للمشاركة فيها. ازدادت لهفتها للسفر، عندما أخبرها أبوها أنه سيشارك مع جاهة فرحان الصليبي لخطبة فتاة ناصرية لابنه مرزوق.

٤١

كانت الجنائز تبدأ صغيرة الحشد بعد الصلاة عليهـا في الجامع وتـنتهي أشبه بتظاهرة كبيرة عند الـدفن. فمـن عادة الأهالي الانضمام لأي جنازة تعبـر الشـارع دون أن يعرفوا صاحبها أو عائلته. فكيف الأمر في جنازة فندي التي ابتدأت بحشد هائل من رجال الجبيلية وأقاربهم ومعـارفهم، إضافة إلى كواكب فرسان خفر الصحراء، لتـنتهي في مقبرة الماركا بحشد لم تشهد له عمان مثيلاً. أضفى جاـوب علـى الجنازة رهبة واجلالاً وهو يتقدمها مع عـدد مـن أعوانـه العسكرييـن، جنباً إلى جنب مع زعـل وشـيوخ الجبيليـة، باستثناء قلة أمثال درداح. كـما شارك فيهـا أعيـان مـن مسؤوليـن إدارييـن وتـجاراً، كذلك فرسـان الشراكسـة يتقدمهم شمس الديـن، وطاقم المدرسة الثانوية وطلابـها يتقدمهم جرير ومعه مقصود.

اصطف زعل وشيوخ الجبيلية بجانب القبـر لتقبـل التعازي. وانضم اليهم سيف وجرير وفرحان. انفض الحشـد

بعد ذلك شيئاً فشيئاً ليقتصر على أقارب فندي والمقربيـن من أبيه .

عرض جلوب إعادة زعل بسيارته التي جاءت بـه إلى عمان، إلا أن سيف تدخل مقرراً أنه سيتولى الأمر فحمل عمه ومرزوق وفرحان.

أعاد سيف خلال الطريق مراراً قصة مجيئـه إلـى ذيبان وعروجه على القبة، دون أن يـأتي علـى الأسـباب. مؤكداً معرفته بالصدفة لهذا الحدث الذي فاجأ الجميع، وكأنه يعتذر عن عدم اصطحابه لثائرة. لقد جاء لمقابلة أنور، ولـم يكن لائقاً أن يصل عمان ولا يزور عمه فـي ذيبـان. لـم يخبروه في المضارب عما حصل. فقال زعل بأنه لـم يعلـم أحداً إلا بعد تأكده من موت فندي. شيء ما أبقى سيف فـي عمان حتى الصباح، ليعرف بالصدفة عن موت فندي.

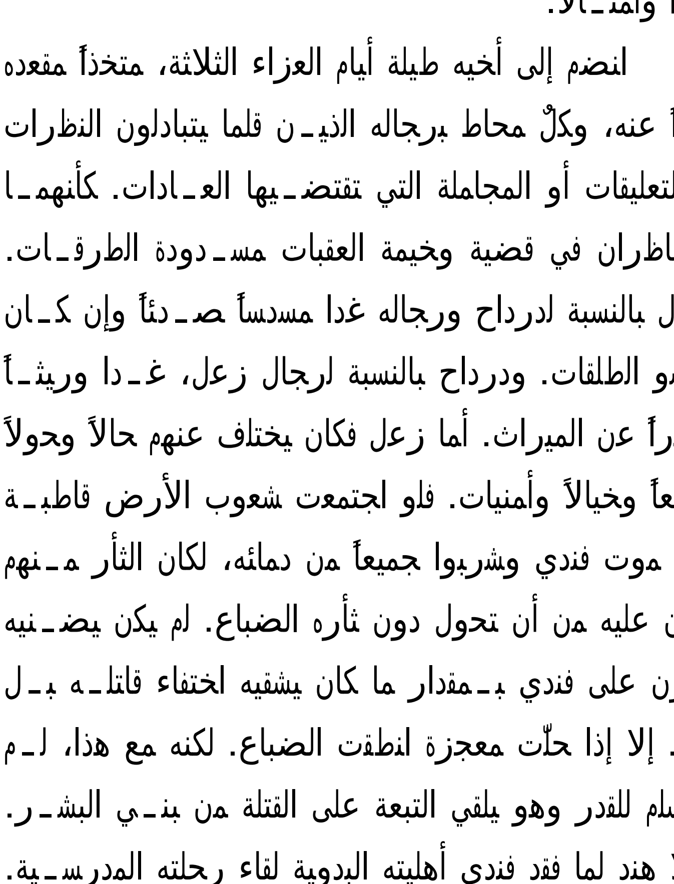
لم يسعفه فرحان إلا بكلمات قليلة سـأله فيهـا عـن عائلته، ولاسيما ثائرة والتوأمتان وتجنب سيف الإشارة إلـى لقاء.. تلك اللحظة فقط انتبهت أحاسيس زعل. لعن في داخله هند وابنتها. تلك مئنات كانت ترمي البنات فرادى، وترميهن ابنتها أزواجاً.

كان الوضع في مضارب الجبيلية أقرب إلى استكانة المهزومـيـن منه إلى عزاء الفرسان. فمـن كـان الشـيخ أنـموذجه أصابه وهن في الإرادة وشـكوك فـي الزعامـة وإهانة في الصميم. ابن الشيخ تأكله الضباع!!، ليتـه مـات على أسنة الرماح. ومن كان الشيخ ظالمه أيقن بعدل السماء. فا قد يمهل لكنه لا يهمل ولا يرمي الظالميـن بالأحجـار. ومن كان حاسداً أو حقوداً أو طموحاً، فـاض قلبـه بالأمـل وتقنع وجهه بحزن مصطنع لم يخف خبث نظراتـه وهـي ترصد أعيـن المعزيـن وتمتص أذنـاه أصواتهم، ليختصر حالة الشيخ وما آل إليه: ما بيه واحد إلا شـمتان بيه.

- يستاهل .

لم يختلف درداح عن هؤلاء، وإن جاء ملهوفاً إلـى المضارب بعد دفن فندي: وا يا خوي ما دريت إلا هسـع. كنت غايب بالجنوب.

أصر على أن يذهب لزيارة قبر فندي: لو كنت هان، قمت بالواجب يا خوي. ويش فندي وويش ولْـدي. آخ. آخ. الضباع يا بو فندي. هاظي آخرتـنا.



قال بأنه ذهب إلى عمان، وقرأ الفاتحة التي يعرف زعل مثلما يعرف كثيرون، أنه لا يحفظ من القرآن سوى البسملة وبضع عبارات من الآيات التي درجت على لسانه عبراً وأمثالاً.

انضم إلى أخيه طيلة أيام العزاء الثلاثة، متخذاً مقعده بعيداً عنه، وكلٌ محاط برجاله الذين قلما يتبادلون النظرات أو التعليقات أو المجاملة التي تقتضيها العادات. كأنهما يتناظران في قضية وخيمة العقبات مسدودة الطرقات. فزعل بالنسبة لدرداح ورجاله غدا مسدساً صدئاً وإن كان محشو الطلقات. ودرداح بالنسبة لرجال زعل، غدا وريثاً قاصراً عن الميراث. أما زعل فكان يختلف عنهم حالاً وحولاً وواقعاً وخيالاً وأمنيات. فلو اجتمعت شعوب الأرض قاطبة على موت فندي وشربوا جميعاً من دمائه، لكان الثأر منهم أهون عليه من أن تحول دون ثأره الضباع. لم يكن يضنيه الحزن على فندي بمقدار ما كان يشقيه اختفاء قاتله بل آكله. إلا إذا حلّت معجزة انطقت الضباع. لكنه مع هذا، لم يستسلم للقدر وهو يلقي التبعة على القتلة من بني البشر. فلولا هند لما فقد فندي أهليته البدوية لقاء رحلته المدرسية.

وداعة الحواضر تفسخ الجبال الصماء وتستـنـزف أحجار البناء عرق الرجال. فلو ظل فندي براً بالصحراء، لما تمكنت منه الضباع ولا الغيلان. ولولا هذا الكلب جلوب،لما أسكرت فندي المظاهر العسكرية، وغيبت عنـه الحـرص والحـذر والتيقظ. تعاظمت نقمته على هند التي خلفته جثة منتصبة بين الأحياء. توعد في نفسه جلوب الذي يشتري فتيان البدو بثياب الفرسان.

لكن استقباله لجلوب في أيام العزاء الثلاثة، لم يختلف عن استقباله لسواه. غرباء كانوا أم مقربـين. كذلك الأمـر بالنسبة للمعزين من اللطيفات. حتى وهابيو نجد جاء كبارهم إلى العزاء، وجاء أيضاً كبار الرقيقات والعديد مـن شـيوخ حوران.

أمامهم جميعاً، ظل زعل زعلاً، بجلافتـه وجفائـه وكمد وجهه واستكانة حركته وثبـات عينيـه، سـواء فـي استقبالهم أو وداعهم. بينمـا مـواكبهم تبـدأ التـدفق علـى المضارب منذ الصباح لتصبح سيلاً جارفاً مع المساء. ممـا كان يخفف آلامه قليلاً، وبدرجة أقل تـنسيه إياهـا لـبعض الوقت.

سأله سيف إن كان يرغب بمجيء ثائرة ، فلم يعلـق بكلمة ولا رمشت لـه عين، فلاذ سيف بالصمت. لما عرف من فرحان في اليوم التالي للعزاء، عن موت زوجة شـمس الدين، آخذه لعدم ابلاغه. كان يـمكن أن يرسل لـه تلغرافاً أو مرسالاً مع بريد القطار. لم يجد فرحان عذراً إلا القـول بأن الدنيا كبرت على الناس فسرقت منهم عاداتهم وغيـرت أحوالهم: صار كل واحد بديرة، ما يـدري إن كـان اللـي يخبرهم ماتوا والا بعد عايشين .

التقى سيف بشمس الدين مع المعزين يوم دفن فندي، ونسي أمره في غمرة تقبل التعازي في المقبرة، وعندما جاء شمس الدين مواسياً إلى ديار الجبيلية ومعه مقصود، همـس فرحان لسيف بالأمر على شكل سؤال: ما دريت أنـوه جـاه عيل، والأم راحت بيها.

تـنحى سيف عن مجلسه بجانب فرحان، واتجه إلى شمس الدين يعزيه بعدما تقبل منه قبل دقائق تعازيه. أصـر عليه أن يحمله إلى عمان بسيارته، بدلاً من موتور مقصـود الذي يصم هديره الآذان. بعد أن أوصله إلى القلعة اتجه إلى

مكتب البريد. أبرق لثائرة مطمئناً وأخبرها أنه مضطر للتأخر بضعة أيام.

لم يكن الحال يسمح لـه بطلب مساعدة زعل وتزويده بالسلاح. لكن الوضع كان أيسر بالنسبة لفرحان، حيث كانت تمتد مجالستهما ساعات في العزاء.

ما إن انقضت أيامه الثقيلة الصاخبة بالمجاملات، حتى استأذن سيف الرحيل، فلم يعلق زعل عندما قال سيف وهو يودعه، بأنه سيعود وثائرة بعد أيام.

في القبة، كشف له فرحان أرضية البايكة حيث جثمت قطع السلاح مكفنه بأقمشة بالية داكنة ممزقة أو مهترئة أو مثقوبة، معقودة الطرفين وكأنها مدفنة جماعية لأقزام هزيلة، ومعها عدد من صناديق العتاد والمتفجرات: يسهل أمرك يا أنور. أرسلت مثلها عشرات لدروز حوران. يا ريت نفع بالافرنسي السلاح... قال فرحان ذلك وكأنه يخاطب نفسه، بينما يتأمل سيف قطع السلاح مأخوذاً: مستعد اشتريها كلها... قال جذلاً.

- منوه قال آني بياع.

- بدي إياهم للثوار يا بو مرزوق.

- إلّمن ؟.

- الثوار.

- لويش ظل بالدنيا ثوار؟!.

- بعدهم ما بدوا يا شيخ. مش معقول ما بتسمع على اللي قاعد يصير بفلسطين.

كاد فرحان يثور غاضباً، لكثرة ما ردد سيف أنه مستعد للشراء. رفض اعطاءه إلا بعض القطع. لكن في النهاية وافق على اعطائه نحو ثلثي الكمية والاحتفاظ لنفسه بالثلث الباقي. من يدري. يمكن يصير في القبة مثل ما صار بميسلون: بس إياك تنطق بكلمة شرا وبيع. ترى آني أزعل.

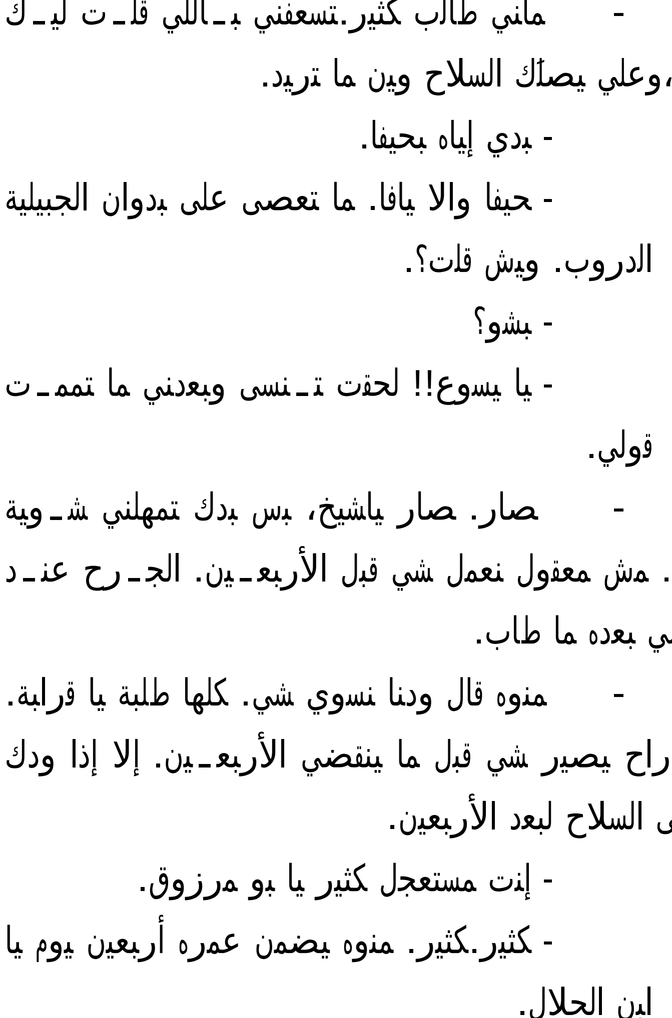
- معقول آخذها ببلاش.

- ما بي شي ببلاش.

- اطلب وأنا محسوبك يا بو مرزوق.

لم يفصح عن طلبه إلا بعد العشاء. وكانت تمام تتلصص عليه من خلف الباب، بعدما دفع فرحان ابنه مرزوق كي يسرح في القبة. لديه حديث خاص مع الصاحب.

- شرطك على راسي وعيني يا بو مرزوق.



- ماني طالب كثير.تسعفني بـاللي قلـت ليـك عليه،وعلي يصلّك السلاح وين ما تريد.

- بدي إياه بحيفا.

- حيفا والا يافا. ما تعصى على بدوان الجبيلية الدروب. ويش قلت؟.

- بشو؟

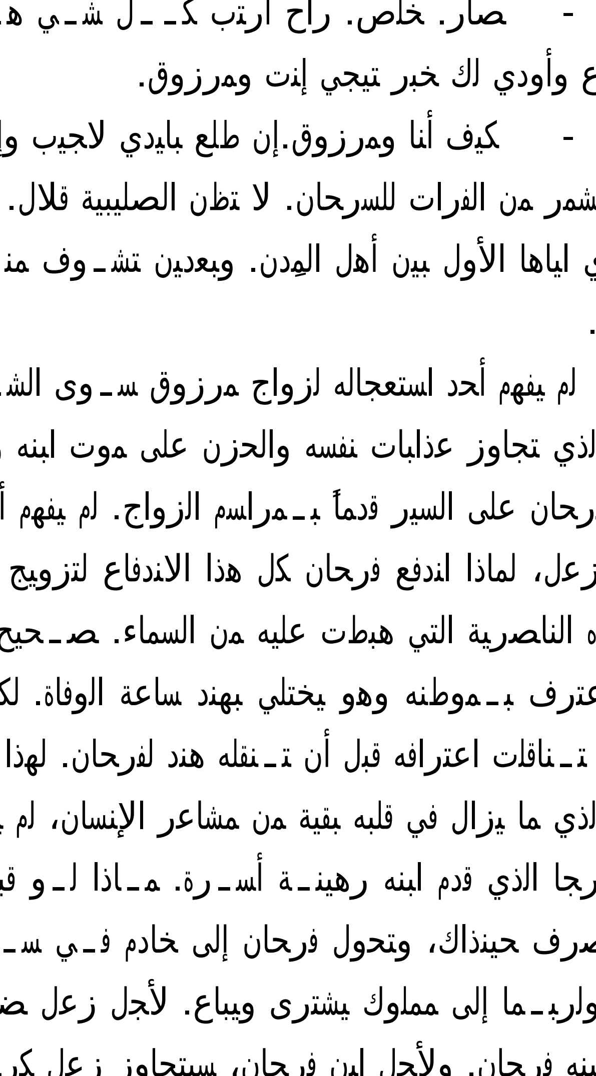
- يا يسوع!! لحقت تـنسى وبعدني ما تممـت قولي.

- صار. صار ياشيخ، بس بدك تمهلني شـوية وقت. مش معقول نعمل شي قبل الأربعـين. الجـرح عنـد نسايبي بعده ما طاب.

- منوه قال ودنا نسوي شي. كلها طلبة يا قرابة. وما راح يصير شي قبل ما ينقضي الأربعـين. إلا إذا ودك تستنى السلاح لبعد الأربعين.

- إنت مستعجل كثير يا بو مرزوق.

- كثير.كثير. منوه يضمن عمره أربعين يوم يا ابن الحلال.

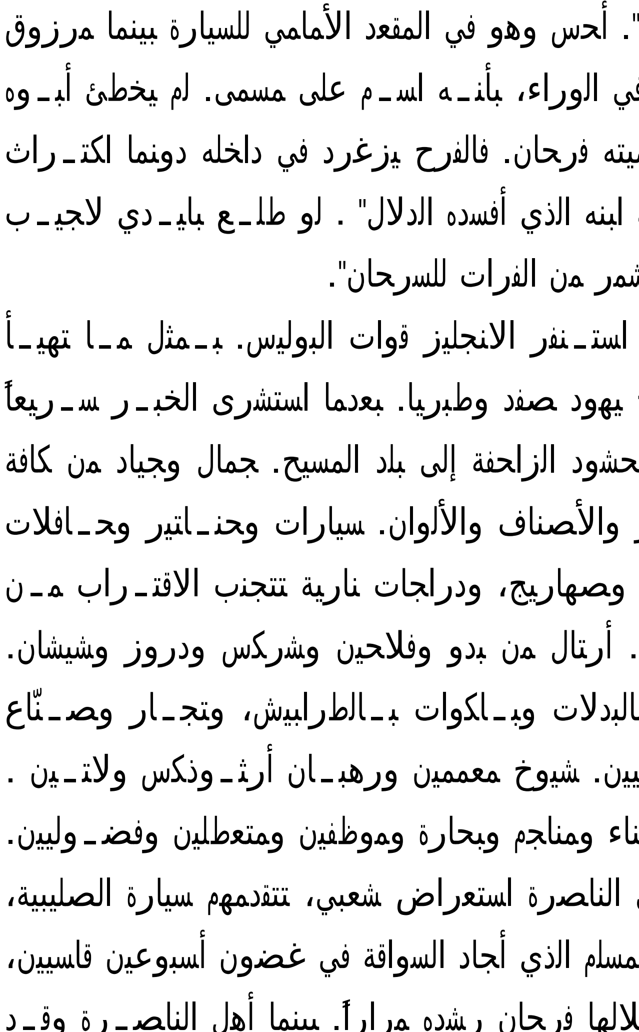


- صار. خلاص. راح أرتب كـل شـي هـادا الأسبوع وأودي لك خبر تيجي إنت ومرزوق.

- كيف أنا ومرزوق.إن طلع بايدي لاجيب وإياي عرب شمر من الفرات للسرحان. لا تظن الصليبية قلال. بس أنا ودي اياها الأول بين أهل المِدن. وبعدين تشـوف منـوه فرحان.

لم يفهم أحد استعجاله لزواج مرزوق سـوى الشـيخ زعل الذي تجاوز عذابات نفسه والحزن على موت ابنه وهو يحث فرحان على السير قدماً بـمراسم الزواج. لم يفهم أحد، سوى زعل، لماذا اندفع فرحان كل هذا الاندفاع لتزويج ابنه من هذه الناصرية التي هبطت عليه من السماء. صـحيح أن رجا اعترف بـموطنه وهو يختلي بهند ساعة الوفاة. لكـن الألسن تـناقلت اعترافه قبل أن تـنقله هند لفرحان. لهذا فإن زعل الذي ما يزال في قلبه بقية من مشاعر الإنسان، لم ينس فضل رجا الذي قدم ابنه رهينـة أسـرة. مـاذا لـو قبـل الـمتصرف حينذاك، وتحول فرحان إلى خادم فـي سـرايا الولاة،ولربـما إلى مملوك يشترى ويباع. لأجل زعل ضحى رجا بابنه فرحان. ولأجل ابن فرحان، سيتجاوز زعل كربـه

وأحزانه ، حتـى لـو اشـتعلت الحـرب بـين الحواضـر والصحراء. فهذا اليوم يوم فرحان، وهو يتقدم شيوخ الجبيلية وشيوخ حلفائه وانسبائه وفي مقدمتهم شيوخ اللطيفات. فكانت الـجاهة العظيمة التي تـناقلتها الجرائد أشبه بغزوة احتشـد لأجلها كل بدو الصحراء. وكانت السـيارات التـي حملـت الأثرياء والوجهاء، كما تعهد سيف لفرحان. وكـان النقبـاء والعمال وأصحاب المحاجر والكسارات والعاملين في الميناء كما أوفى بوعده القسام.وكان فرسان الشراكسة وعلى رأسهم شمس الدين،بثيابه الجليلة وجواده الأصيل. وكـان الـدروز الذي يدين أميرهم سلطان بالعرفان لفرحان. وكان أيضاً مال النبي وابنه عبد اللطيف وجبران وأبوه، وواصـف ورؤوف، وحشد كبير من المثقفين والصحفيين اللبنانيين. فالجاهة التـي أربكت دوائر البوليس وقوات الحدود ورجال البلدية، أربكت أفرادها أكثر، وكل منهم يظن أنه سيلتقي في اليوم الموعـود والوقت المحدد بحفنة من المقـربين لفرحـان، أو أقـارب فرحان. حتى مـرزوق طاش صوابه وهو يجد نفسه في لجة هذا البحر الـمتدفق بأمواج بشرية لا تـجانس بينهـا فـي الهيئات ولا الثياب ولا الركوبات " ترى مـاني أقـل عـن



الجبيلية". أحس وهو في المقعد الأمامي للسيارة بينما مرزوق يجلس في الوراء، بأنه اسم على مسمى. لم يخطئ أبوه في تسميته فرحان. فالفرح يزغرد في داخله دونما اكتراث لارتباك ابنه الذي أفسده الدلال" . لو طلع بايدي لاجيب عرب شمر من الفرات للسرحان".

استنفر الانجليز قوات البوليس. بمثل ما تهيأ بالسلاح يهود صفد وطبريا. بعدما استشرى الخبر سريعاً حول الحشود الزاحفة إلى بلد المسيح. جمال وجياد من كافة الأعمار والأصناف والألوان. سيارات وحناتير وحافلات وبكبات وصهاريج، ودراجات نارية تتجنب الاقتراب من مقصود. أرتال من بدو وفلاحين وشركس ودروز وشيشان. أفندية بالبدلات وبالكوات بالطرابيش، وتجار وصنّاع واقطاعيين. شيوخ معممين ورهبان أرثوذكس ولاتين . عمال بناء ومناجم وبحارة وموظفين ومتعطلين وفضوليين. كأن في الناصرة استعراض شعبي، تتقدمهم سيارة الصليبية، يقودها مسلم الذي أجاد السواقة في غضون أسبوعين قاسيين، أفقده خلالها فرحان رشده مراراً. بينما أهل الناصرة وقد أخذوا على حين غرة، يدفعهم الفضول للتساؤل أكثر من

السؤال. شو. قامت القيامة واحنا ما معنا خبر؟. مـن ايمتـه عرب شمر بيجوا لهون؟. معقول فيـه بـالبلاد كـل هـاي السيارات؟ ولكم شو صار؟. مال الدنيا هايجة مايجـة بـآخر النهار؟. ليكون رجع المسيح واحنا بنلعب ورق وطاولـة ولا سائلين؟. قاعد أعد السيارات و..... بعد الجمـال و... بعـد الحصن والحمير. فوت جووا يا حمار يا ابن الحمار واركن انت واخوانك كل واحد بقرنة وما يتحرك منها لو انخسـفت الأرض باللي فيها. فاهم.

- وا ما أنا فاهم شي. يعني معقول يابا كل ها العالم منشان خطبة. وين بدهم يقعـدوكم الجماعـة. شـلون دبرت كل هالقوم؟. من وين جبتهم وكيف التقوا هان.

- إنتْ ما لك غرض بشـي. تحسـب الصـليبية مقطوعين من شجرة. كِلّ اللي شـايفه ربعـي، والناصـرة ديرتي، وعليك الباقي.

- شنهو الباقي.

- تملا لي الدنيا بنسل الصليبية. ترى آني مـا أقِلّ عن الجبيلية. ما قلت لي رأيك؟.

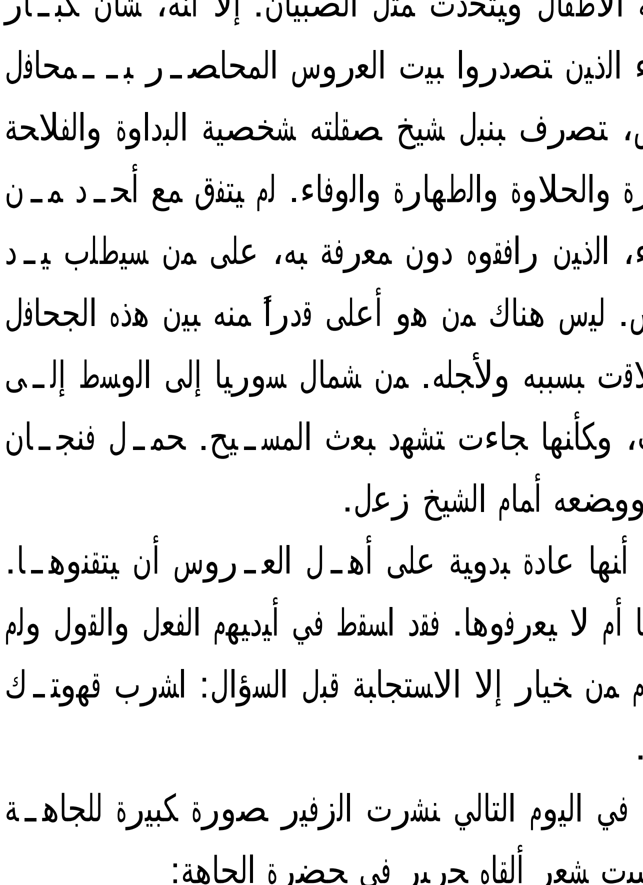
- بشو؟

- بالأوتومبيل؟

- هو إنت خليت لي راي يوبا. يا خوفي يقولوا أهل البنت لع.

- إن قدروا يقولو... وشمخ بقامته حتى لامست حطته سقف السيارة وهو يجيل النظر عبر النافذة بالجحافـل الجرارة التي عقدت ألسنة أهل العـروس. أخبـرهم رئـيس البلدية أنه سيرافق الجاهة التي ستأتي لطلب يد ميسر فأعدوا أنفسهم للأخذ والرد والمماطلة والتأجيل. لم يخطر ببالهم كل هذا الحجيج الذي ضاقت به البلدة، ولم يكن أحد على عجـل للانتهاء من هذا الزحف مثل مرزوق وميسر. فـذلك أحـس بالخجل من بيئته التي لا يدري إن كانت فلاحيـة أم بدويـة، وتلك استولاها رغبة ملحاحة للانتقال فـوراً إلـى بيـروت والوقوف على المنصة التي وقف عليهـا انطـون سـعاده، لتحكي أغرب حكاية. لو أعلمها مرزوق سلفاً لوزعت الدعوة في كل بلاد الشام حتى يشاهد القاصي والداني مراسم خطبة أميرة كنعان. كيف يا مرزوق جبت كل ها الأمم.؟.

جبتها. جبتها يا فرحان "إياك تظن أنـوه الصـليبية قلال". رغم احساس مرزوق بأن أباه فقد عليه وأنه يتصرف



برعونة الأطفال ويتحدث مثل الصبيان. إلا أنه، شأن كبار الوجهاء الذين تصدروا بيت العروس المحاصر بمحافل الجيوش، تصرف بنبل شيخ صقلته شخصية البداوة والفلاحة والمرارة والحلاوة والطهارة والوفاء. لم يتفق مع أحد من الوجهاء، الذين رافقوه دون معرفة به، على من سيطلب يد العروس. ليس هناك من هو أعلى قدراً منه بين هذه الجحافل التي تلاقت بسببه ولأجله. من شمال سوريا إلى الوسط إلى الجنوب، وكأنها جاءت تشهد بعث المسيح. حمل فنجان القهوة ووضعه أمام الشيخ زعل.

أنها عادة بدوية على أهل العروس أن يتقنوها. عرفوها أم لا يعرفوها. فقد اسقط في أيديهم الفعل والقول ولم يكن لهم من خيار إلا الاستجابة قبل السؤال: اشرب قهوتك يا شيخ.

في اليوم التالي نشرت الزفير صورة كبيرة للجاهة مذيلة ببيت شعر ألقاه جرير في حضرة الجاهة:

لست المسيح ولكن من جدليتكم كبنت يفتاح دعها اليوم ترعاني

٤٢

توطدت العلاقة بين سيف وصـلاح منـذ وصـول الأسلحة إلى يعبد. قال عنها القسام بأنها قديمة قياسـاً بـما يصل اليهود من أطنان الأسلحة الحديثة المهربة لهـم مـن الخارج ، إضافة إلى ما يشترون من الانجليز وتلـك التـي يصنعونها بأنفسهم. يستعدون لتحقيق الحلم الذي وعـد بـه بلفور. لم يبد سيف امتعاضاً أو استعجالاً، مـع أنـه توقـع الإطراء. قال بأنه قاتل مع الثورة ويعرف أهميـة السـلاح. روى للقسام، بحضور صلاح، قصة حصـارهم مـن قبـل الأتراك في أطلال عمره. لـولا اكتشـافهم بالصـدفة عـن مخزون السلاح تحت كومة الأحجار لما كان يجالسهم الآن. تبادل القسام وصلاح النظرات مراراً، بينما سـيف يتحـدث بانفعال عن الحرب والقتال. قال بأنه سئم أسلوب المفاوضات دون أن يأتي على ذكر الحاج أمين، وإن أبدى اشمئزازاً من صراع العائلات المقدسية وتـنازعها للتقرب من الانجليـز والتسابق لنيل رضاهم. الأبـلى، اقتـنـاع هـذه العـائلات بعدالة هؤلاء المستعمرين: الحمد أنوه ما عندنا في حيفـا

مثل هيك صراعات. لكن القسام وهو يؤازر سيف في هـذا الجانب، عارضه في جانب آخر: أنا والحج أمين متفقين ولو ما التقينا مع بعض لهلأ. من غير توعية النـاس، لا ثـورة بتـنجح ولا بنحصل على الاستقلال. فكرة الحـج لتأسـيس جمعية البر والتقوى ما عليها حكي يا أخي سيف. زيـارات الجمعية للفلاحين وتوعيتهم بخطر بيع الأراضي. كمان مـا عليها حكي. أنا مع هادا التوجه.

- لو أجيت معي لوادي الحوارث، كان غيرت رأيك يا شيخ.

- رحت لوادي الحوارث وبعده رأيي مثل ما هو يا أخ سيف. أنا بعرف إنك سبقتـني في زيارة الحـارثيين ، هدول ناس، مثلهم مثل باقي الفلاحين. مش معقول يركضـوا وراك وإنت راكب أوتومبيل.

تفرس سيف بوجه القسام للحظة، بينما أغمض هـذا عينيه متمتماً مع انـزلاق حبات سبحته الطويلـة، فتـدخل صلاح:الشيخ قصده،أنوه لازم نحكي مع كل واحد بلغته. مش بلغتـنا.

- هادا حكي الحج أمين .

- حكيه صحيح... قال القسام مغمض العينين، أضاف وهو يفتحها: بس أسلوبه مش صحيح. اللي بدوه يقود شعبه ما برسل لهم مراسيل. بدخل بيوتهم مثل صاحب الدار.

من حينها غاب القسام، ولم يعد يلقاه سيف إلا نادراً. إلا أنه ظل يتابع نشاطاته من خلال صلاح، الذي صار موزعاً للزفير في مدينة حيفا وضواحيها. يتلقى منه سيف بين الحين والحين مقالات تعبوية باسم القسام، الأمر الذي أثار مراراً حفيظة الحاج أمين: إيش ها الشيخ يا أبو لقاء. وا لو كان متفرغ للكتابة ما بكتب كل يوم والتاني مقال. إلا إذا ترك مشيخة الجامع ودروس الدين.

- تركها.

- شو بتحكي؟!. هلأ المقالات هاي أهم من تدريس الدين ؟.

- يا حج. الشيخ القسام أخذ إجازة مأذون شرعي، وكل يوم بمحل بين الفلاحين. منوه بجوز ولادهم وبناتهم، ومنوه بوعيهم بكل عرس عن قضية فلسطين، وقاعد يكتب عن اللي بشوفه.

- هيك بدعي شيخك للجهاد؟

- انت قلت يا حج أكثر من مرة إنوه لازم نحكي مع كل واحد بلغته. فيها شي لو الشيخ عز الدين حكى مع الفلاحين بلغة الدين.

آل النفور بين سيف والحاج أمين إلى خلاف حاد قبل أن يتحول إلى صراع على المكشوف. ابتدأه سيف بنشر مقالات متتابعة كتبها أبو جبران، تدعو أولاها بالكف عن الصراعات العائلية، قبل أن يتلوها بمقالات اتهامية دون أن تشير إلى هذه العائلة أو تلك. توجها سيف بافتتاحية تدعوا إلى إنشاء حزب سياسي يتجاوز المذاهب والطوائف والعائلات والمجاملات المشبوهة لحكومة الانتداب.

" وسيكون الأساس الذي يبنى عليه هذا الكيان الحزبي الاستقلالي، التجانس في المبادئ الصحيحة، والإخلاص الشريف، وحب العمل النزيه، والابتعاد كل الابتعاد عن الجري في طريق السياسات المحلية والشخصية العائلية، وعدم استساغة وطأة المستعمر واستمرار أساليبه والتهافت على نيل رضاه، بالتقرب والزلفى وراء قضايا الأشخاص والأهواء".

كان يمكن أن يتواصل صدور الزفير لولا تلك الافتتاحية، وأن تقرأ مثل سواها من الافتتاحيات، وأن تلقى الجريدة في القمامة بعد الانتهاء من قراءتها أو استخدامها في تنظيف الزجاج أو سد الثقوب أو مسح الأوساخ، لولا الحريق الذي شب تلك الليلة وأتى على كل موجودات الجريدة. بما فيها من أثاث وأدوات وأرشيف يحفظ تاريخ الزفير منذ عهد خالد الحجاج.

استشاط سيف غضباً، واتجه إلى دار المفتي، يشتم ويهدد ويتوعد، بينما المفتي يهدئ منه، ويدعوه إلى التروي وعدم اتهام المناوئين للمجلسيين من معارضيهم. مبرئاً نفسه وملوحاً بالاتهام لعائلة النشاشيبي .نصح سيف بتقديم شكوى لدائرة البوليس، لكن سيف رفض بسخط: بذراعي هادا راح آخذ حق الحجاج...

كان القسام أكثر تأثيراً في تهدئته. حذره من الانزلاق في صراع العائلات. ربما هذا ما يبتغيه الحاج أمين. ثنت ثائرة على رأي القسام، وعارضته زينات. إذا تراخى هذه المرة، سوف يستضعفونه كل مرة.

رتب لـه صلاح نايف لقاء مع جريدة الكرمل فـي حيفا، نشرت على إثره تحقيقاً مطولاً معه حـول الحريـق. اتـهم فيه سيف العائلات المعروفة للجميـع، بأنـ ـها وراء الحادث، فرموز هذه العائلات لا تتقبل أي احتجاج ولا تريـد للقضية أي نجاح.

أعادت الكرمل نشر الافتتاحية التي أشعلت الحريـق بالزفير، كما أعادت نشرها جرائد ومجلات أخرى في أماكن عديدة، فإذا بمقالة عابرة تتحول إلى نداء وطني، أسفر عـن عقد مؤتمر شعبـي، بذل فيه سيف كل جهده، وعمـل أبـو جبران على الترويج له بمقالات قوية ساخنة ميزت الزفيـر التي لم تتوقف عن الصدور إلا لأيام معدودة صارت تطبـع بعدها مع جريدة فلسطين، لتتلقفها شريحة أكبر من القـراء، ولاسيما بعد نشر البيان الختامي لحـزب الاسـتقلال تحـت شعار" انكلترا هي الداء وأساس كل بلاء" وهو شعار القسام، الذي شارك بتأسيس الحزب إلـى جانـب كبـار الأعيـان والتجار، وكان سليمان من بينهم .

أقسم لصقر أن انضمامه للحزب كان بدافع وطنـي صرف، وأنه قبل على مضض الإدارة المالية للحزب . لكنه

لم ينف ما يشاع حول استفادة بنكه جراء هـذا الانضـمام. فليست مالية الحزب التي أوكل إليه أمانتها هي التـي زادت من حجم الإيداعات، بل تحـول كبـار المؤسسـين لحـزب الاستقلال إلى بنكه. وهؤلاء فـي معظمهـم مـن الأعيـان والأثرياء. ما العيب في ذلك يا صقر، العيب ألاّ أفتتح فرعـاً في يافا وآخر في حيفا، والآن ندرس جدوى التفرع في نابلس واربما في كل أنحاء فلسطين.

٤٣

بينما كان المقيم البريطاني في شرق الأردن لا يبالي بـجنسية المتعاملين مع الانجليز، سـواء فـي التزويـد أو التعهدات أو المقاولات، كان نظيره فـي فلسـطين يحصـر الأعمال الحكومية في اليهود من أصحاب الأعمـال ومهـرة العمال مبقياً للفلسطينيين الفتات. مـنح هـذا الوضـع قـوة اقتصادية لليهود، بمثل ما قيض اقتصاد الفلسطينيين، ولاسيما أن اليهود موهوبون بإدارة الأمـوال، علـى رأى سـليمان. والفلسطينيين موهوبون بالإنفاق على رأي زينـات، فابنهـا سيف يـحتقر النقود ويعتبرها أقل قيمة من أصـغر قطعـة سلاح، بينما تعتبرها زينات جزءاً أساسياً من كيان الإنسان.

- يمكن تكوني علىحق. بس أنـا هيـك، مـا بتهمـني المصاري.

- لأنك ما تعبت فيها ولا حاولت تشتغل فيهـا. شوف حال العرب وحال اليهود.

جعلت الظروف السياسية مـن فلسطيـن منطقـة طاردة ، بعدما كانت إلى ما قبل الحرب منطقة جذب، فهربت

كفاءات كبيرة إلى خارج البلاد، وهرب معها العديد من المتعطلين الذين كانوا يغالون لذويهم في المبررات الضرورية للرحيل. شرق الأردن بلد في طور الإنشاء. تكتشف فيه كل يوم أطنان الذهب من مخلفات الأتراك. الانجليز يمهدون فيه المطارات ويرممون القصور ويرفعون جسور الفولاذ ويعبدون الطرقات ويزينون بالذهب واجهات المحلات.

فجأة وجد صقر نفسه بين منافسين يتفوقون عليه سعراً وكفاءة، وإن كان يتفوق عليهم بالإمكانيات. أما اللوازم التي تنامت مع تنامي عمله، فقد صار بوسع المقاولين استئجارها بعدما تدفقت مثيلاتها على البلاد من فلسطين. ولم يعد العمال المهرة عملة نادرة يقتنى صقر حصة الأسد منها، بعدما غدت تجمعاتهم تعيق حركة المرور أمام الجامع الكبير ومحطة القطار وبجانب المشاريع الحيوية. مثل مشروع المطار وإسكان الضباط، وطريق القلعة، التي عرف صقر من خلالها بأنه أكبر مقاول في البلدة، ولاسيما أنه أصبح لديه إدارة مكتبية يعمل فيها محاسب كميات، ساعده سليمان في الحصول عليه، بعدما تركه المحاسب العراقي

لقاء زيادة نصف دينار دفعها إليه تاجر إطارات. كما استخدم ميكانيكياً أرمنياً قادراً على معالجة مختلف الآلات.

استضاء مركز عمله بالكهرباء، لتتوهج الآرمة التي كبرت مراراً وكبر معها اسم "صقر للإنشاءات"، بعدما حصل على ترخيص رسمي لأعماله مشركاً ابنه بعشر رأس المـال لقاء إشرافه ومتابعته دونما حـق بـالتوقيع أو الصـرف أو القبض أو الاطلاع على سجلات المحاسبة. ظل بالنسبة إليـه قاصراً عن أي شيء إلا من خلاله وعـاجزاً عن النمو مهنياً من

دونه، بالقدر الذي يشعره فيه بأنه شريك وليس مجرد مستخدم كالآخرين.

صار يثير ملل سليمان بحديثه المتواصل عن مفهومه للإدارة العائلية. لكنه أثار أيضاً ندم سليمان لأنه لـم يفعـل الشيء نفسه عند تأسيسه البنك. الحصة الكبيرة تفرض نفسها داخل العائلة، فكيف بها خارجها. لكن الأوان قد فات، وحمل البنك اسماً غير اسم سليمان. إلا أنه لم يفت على استفادته من

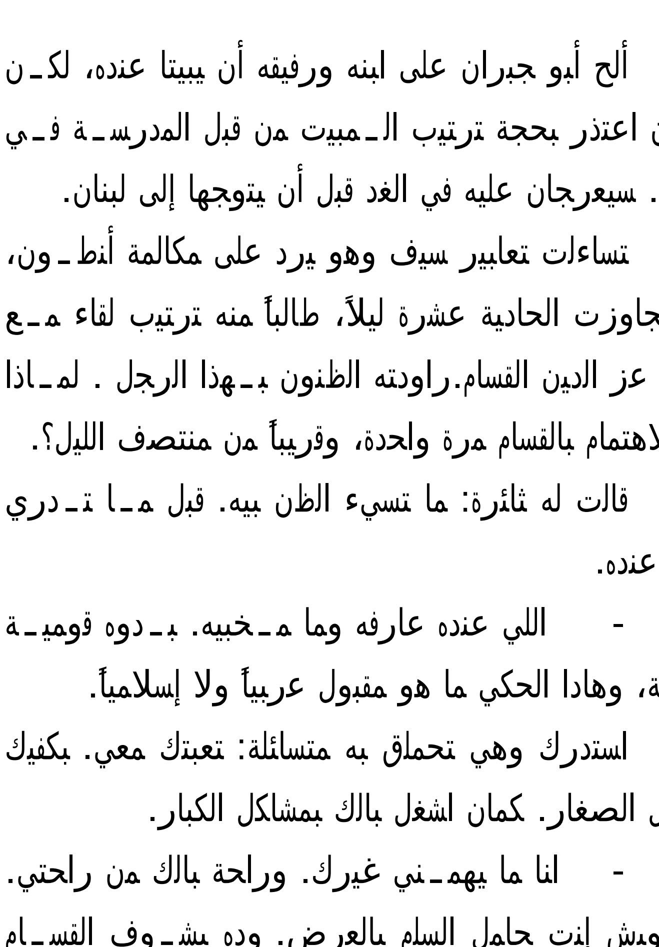
تجربة صقر الذي غدا جداً ولم يتزوج بعـد ابـن سـليمان. سيطلب من فتوح أن يقصر فترة دراسته. وإن لـم يسـتطع فليقطعها ويعود إلى القدس. بلا دكتوراة بلا بطيخ. الماجستير كثيرة عليه، ولن تنفعه الكرتونة بشيء. سيوليه نيابة إدارته. ليس معقولاً أن يظل متنقلاً بين الفروع التي تشعبت أعمالها وكثرت أعباؤها منذ انضمامه لحزب الاستقلال. أهل نـابلس الذين كانوا يأنفون التعامل مع بنكه لأن صاحبه فلاح، تحولوا إلى كبار العملاء بمجرد أن تولى الإدارة المالية للحزب. أي تقدم سيحرزه إذا لاحت فرصة جديدة.؟!.

٤٤

وصل أنطون سعاده إلى فلسطين، يرافقـه جبـران لإلقاء محاضرة في مدرسة النجاح النابلسية حـول المتحـد الاجتماعي. عرجا في طريقهما على مقر الزفيـر. فلاحظـا آثار الحريق رغم تحديث المكاتب وترميم المبنـى الملـوث بالسخام.

تحدث أبو جبران بانفعالٍ عما حصل، واتهم بوضوح عائلة الشراشيـبي. لهم سوابق بـهذه الأعمال. اسـتبعد أن تكون المقالة هي الدافع وإن كانت الشـرارة التـي أشـعلت الحريق بهدف طمس التاريخ النضالي لعائلة الحجاج.

ظل الموضوع مستيقظاً خلال الغداء الذي أقامه سيف على شرف جبران، في عجالة من الوقت، نظراً لاسـتعجال أنطون للوصول إلى نابلس عصراً. قال أنطوان بأنـه يزمع العودة إلى بيروت في الصباح لكن إفاضة سيف بالحديث عن القسام حفزه لرؤية هذا الشيخ الذي اعتبـره أنطـون رجـلاً عملياً. أعجب هذا التعبير سيف، بمثل ما أخذت منه شخصية



أنطون الذي بدا ملماً بتاريخ المجتمعات، ولاسيما الســورية منها.

ألح أبو جبران على ابنه ورفيقه أن يبيتا عنده، لكـن أنطون اعتذر بحجة ترتيب الـمبيت من قبل المدرسـة فـي نابلس. سيعرجان عليه في الغد قبل أن يتوجها إلى لبنان.

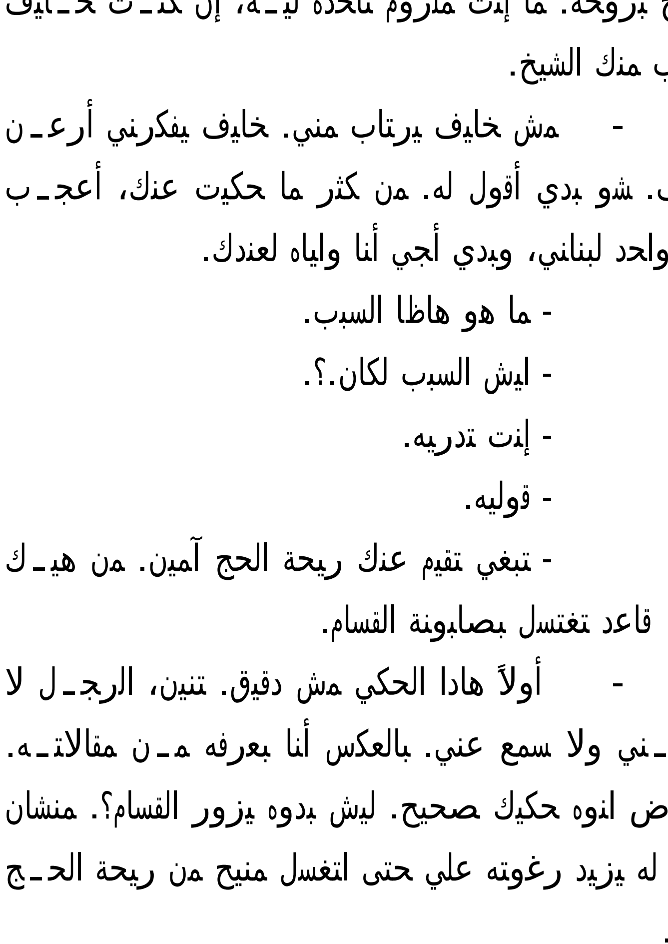
تساءلت تعابير سيف وهو يرد على مكالمة أنطـون، وقد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً، طالباً منه ترتيب لقاء مـع الشيخ عز الدين القسام.راودته الظنون بـهذا الرجل . لمـاذا هذا الاهتمام بالقسام مرة واحدة، وقريباً من منتصف الليل؟.

قالت له ثائرة: ما تسيء الظن بيه. قبل مـا تـدري باللي عنده.

- اللي عنده عارفه وما مـخبيه. بـدوه قوميـة سورية، وهادا الحكي ما هو مقبول عربياً ولا إسلامياً.

استدرك وهي تحماق به متسائلة: تعبتك معي. بكفيك مشاكل الصغار. كمان اشغل بالك بمشاكل الكبار.

- انا ما يهمـني غيرك. وراحة بالك من راحتي. بس لويش إنت حامل السلم بالعرض. وده يشـوف القسـام



يروح بروحه. ما إنت مازوم تاخذه ليـه، إن كنـت خـايف يرتاب منك الشيخ.

- مش خايف يرتاب مني. خايف يفكرني أرعـن خفيف. شو بدي أقول له. من كثر ما حكيت عنك، أعجـب فيك واحد لبناني، وبدي أجي أنا واياه لعندك.

- ما هو هاظا السبب.

- ايش السبب لكان.؟.

- إنت تدريه.

- قوليه.

- تبغي تقيم عنك ريحة الحج آمين. من هيـك قاعد تغتسل بصابونة القسام.

- أولاً هادا الحكي مش دقيق. تنين، الرجـل لا بعرفـني ولا سمع عني. بالعكس أنا بعرفه مـن مقالاتـه. لنفترض انوه حكيك صحيح. ليش بدوه يزور القسام؟. منشان يقول له يزيد رغوته علي حتى اتغسل منيح من ريحة الحـج أمين.

- لا ما راح يقول لـه يزيد رغوته عليـك. وده يوريبك هاظا اللبناني إنوه رغايته أقوى من رغايـة الحـاج أمين والقسام .

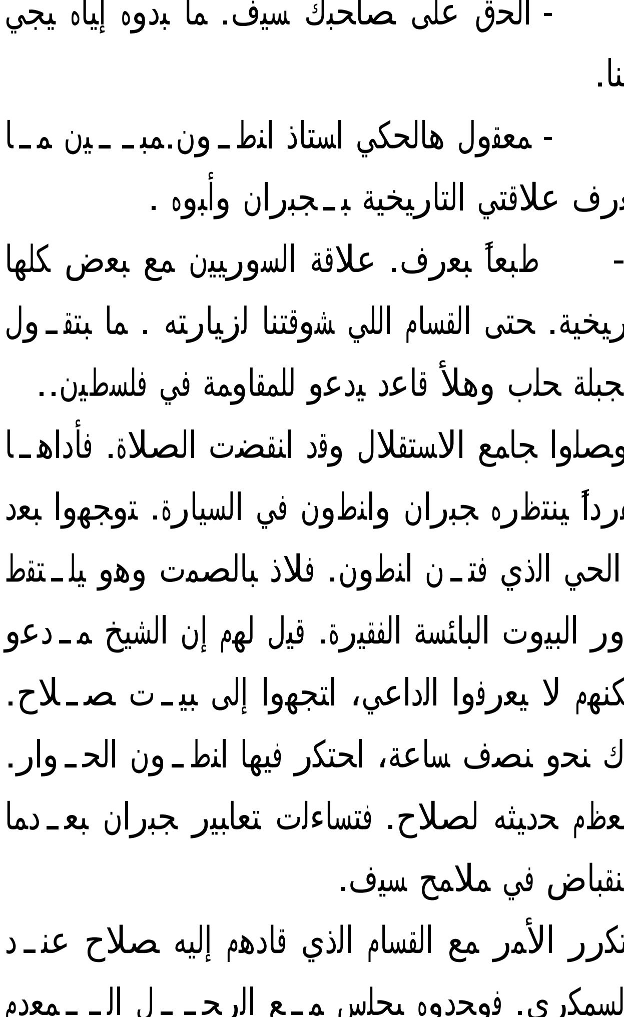
- شو القصد.؟.

- يمكن القصد إنت، ما هو القسام .

أحس أبو جبران، بالضآلة، عندما طلب منه سيف أن يدير باله على الجريدة أثناء غيابه، خالجه شعور بالخـذلان، بينما يغادر ابنه برفقة سيف وانطون في السيارة التي انطلقت بـهم غرباً.

عبثاً حاول انطون وجبران، خلال الطريـق، الميـل بسيف إلى المبادئ الجديدة التي يطرحانـها والتي ظل سيف يسميها شعارات. الحل الصحيح بالإسـلام الصـحيح الـذي يصلح لكل زمان ومكان.

تشعب الحديث في أمور شتى تخللهـا الكثيـر مـن استفسارات انطون عن القسام، مما جعل سيف يتيقن من خطأ حدس ثائرة، وكانت مداخلات جبران القليلة تؤكد ذلك: كـان الواجب أضل مع بيـي يا جماعة. أكيد هلأ زعلان علـي. يومين في فلسطين وما قعدت معه أكثر من ساعتين.



- الحق على صاحبك سيف. ما بدوه إياه يجي معنا.

- معقول هالحكي استاذ انطـون.مبـ ـين مـا بتعرف علاقتي التاريخية بـجبران وأبوه .

- طبعاً بعرف. علاقة السوريين مع بعض كلها علاقة تاريخية. حتى القسام اللي شوقتنا لزيارته . ما بتقـول أنوه من جبلة حاب وهلأ قاعد يدعو للمقاومة في فلسطين..

وصلوا جامع الاستقلال وقد انقضت الصلاة. فأداهـا سيف منفرداً ينتظره جبران وانطون في السيارة. توجهوا بعد ذلك إلى الحي الذي فتـن انطون. فلاذ بالصمت وهو يلـتقط بعينه صور البيوت البائسة الفقيرة. قيل لهم إن الشيخ مـدعو للغداء، لكنهم لا يعرفوا الداعي، اتجهوا إلى بيـت صـلاح. ظلوا هناك نحو نصف ساعة، احتكر فيها انطـون الحـوار. موجهاً معظم حديثه لصلاح. فتساءلت تعابير جبران بعـدما لاحظ الانقباض في ملامح سيف.

تكرر الأمر مع القسام الذي قادهم إليه صلاح عنـد مضيفه السمكري. فوجدوه يجلس مـع الرجـ ـل الـ ـمعدم

بجانب موقد فحم حجري تلتهب النار فيه لتليـ ـين المعـ دن وتتطاير منه شظايا النار والسخام .

التفت سيف بافتـ تان إلى انطون الذي أخـ ذت منـ ه المفاجأة، بينما السرور يطفح من وجهه، وأسرع إلى الشـ يخ عز الدين يصافحه قاعداً. لكن الشيخ أصر علـ ى الوقـ وف. صافح أنطون السمكري بالحرارة نفسها التي صـ افح فيهـ ا القسام: قلنا بنلحق حالنا قبل ما تتغدو...

- إبشر... قال السمكري.

بادر انطون قبل الجميع باقتعاد الأرض، غير مبـ الٍ ببدلته الافرنجية ولا الرماد أو التراب أو السخام. لم يبد على وجه القسام أية علامة تساؤل، كما لم يسأل القادمين إلا عـ ن أحوال ديارهم. قدمهم سيف باقتضاب، فهذا كاتب يعيش فـ ي المهجر، وذاك رفيق قاتل وإياه في ميسلون، وهو ابن محرر الزفير.

كان الغداء شهياً. الخبز مادتـ ه الأساسـ ية، يصـ لهم طازجاً من وجاق النار، ملوثاً بالشحبار والرماد، ينتظـ رون بلهفة أرغفته الساخنة، فيقبلون عليهـ ا أكثـ ر مـ ن الفلافـ ل والبصل والبندورة.

قال أنطون بأنه تمنى طيلة غربته مثل هذه الوجبـة البلدية. وقال سيف بأنه لم يأكل طعاماً شهياً كهذا إلا عنـدما كان يقاتل في الصحراء. وقال القسام بأن طيب الأكـل مـن طيب صاحبه، وليس من نفس طيبة كأنفس الفقـراء. وقـال المضيف: خجلتوني يا جماعة. هادا كل اللي بقدر عليـه... فقال القسام: اللي بقدم كل اللي بقدر عليه أحسن من اللي بقدم نتف من اللي بقدر عليه... اعتبر سيف قوله تلميحاً، فغابـت شهيته، ولا يدري لماذا خطرت بباله الآيـة القرآنيـة " ولا تؤمنوا إلا من تبع دينكم". قال لثائرة: مش هادا المهم: اللـي محيرني كيف خطرت على بال الشيخ عز الدين. كأنه قـرأ أفكاري. والأبلى أنوه انطون بعرف الآية فـي أي سـورة، ورقمها كان.

- أوف. نصراني ويدري بالقرآن.!.

- شو يدري؟ يدري بالقرآن وتفسيراته كمان.

رفض القسام أن يطلـق انطـون علـى المسـلمين محمديـين. مع هذا وافقه على الكثير من قناعاته. ولاسـيما علاقة القومية العربية بالإسلام. رغم أن الإسلام دين جميـع الناس كما ظل وانطون يرددان. لكن ما أذهل سيف وأدهـش

القسام وأخذ عقل صلاح، ثقافة انطون الإسـلامية. فالرجـل نصراني علماني، ويحاور بالإسلام حوار الفقهاء، مما جعـل الحديث ينغلق على القسام وانطون طيلة الجلسة التي استمرت إلى ما بعد العصر. تراوح الحديث فيها بين الرجلين وكأنهما في عرض مسرحي، أمام جمهور تعلقـت أحاسيسـه بهـذا الحوار الدوّار: هاي الآية مرتبطة باللي قبلها. عندك قـرآن هون.؟.

- أنا حافظ القرآن.

- عـال. هاي الآية اللي بتحكي عنها، أظن أنها الآية ٧٢ في سورة آل عمران . شو

بتقول الآية اللي قبلها."وقالت طائفة من أهل الكتـاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون". هاي الآية واردة على لسان اليهود وموجهة إلهم. من هيك، ما بتنطبق على حالتي أنا وإياك. انت مسـلم وأنا مسيحي واتنيناتنا سوريين

قضيتنا الوطنية وحدة والدين واحد. المسلمين بآمنوا بـيسوع والمسيحيـين بآمنوا بمحمد الرسول.

قاطعه سيف: بس. بس. من إيمته المسيحيـين بآمنوا بمحمد الرسول.؟!.

- ولو... قال انطون مستغرباً. أضاف: ما قريت انـجيل برنابا.

تبادل سيف والقسام النظرات، بينما يـدير صـلاح أنظاره بين الطرفين.

أما السمكري فهرب من الحوار إلى وجاق النار: يـا سيدي...استرسل انطون: بيـبي سمعتوا فيه؟. الدكتور خليل، ترجم انجيل برنابا وأنا مستعد أزودكم بنسخه عنه. الفصـل تسعة وثلاثين بـحكي عن قصة الخلق. بقول، لما انتصـب آدم واقف، شاف عبارة " لا إله إلا ا ومحمد رسـول ا ". مكتوبة على الهواء. بـمعنى إنوه الانجيل ورد فيـه نبـوءة آخر المرسلين محمد الأمين .

- وليش المسيحيـين مـا بعترفـوا بـهـا الحكي.؟.

- لإنهم ما بآمنوا بإنجيل برنابا.

- وإنت؟.

- أنا علماني.

لم تؤثر حذلقة انطون بقناعات سـيف. بـل زادتـه اقـتناعاً بالشيخ عز الدين الذي خرج من الجلسة مـع آذان العصر بمثل التبجيـل الذي يحمله لـه سيف. وخرج انطون مستحوذاً على إعجاب صلاح الذي لم يكن لقاؤه مع انطـون بالحسبان.

قال لثائرة بأن ظنها خائب. فقالت: ما خاب ظنـي. بس صاحبك خاب مرماه.

بعد أسبوع، جاهر سيف بفك ارتباطه بالحاج أمـين ومجلسه الإسلامي. وهو يكتب فـي زاويـة يوميـة باسـم "مجاهد"، منددا بأساليب التفاوض مع الانجليـز، ممـا دفـع السلطات لإيقاف صدور الجريدة مرات عديدة، تماماً مثلمـا كان الوضع في عهد الأتراك. من جمعية العربية الفتاة زمن أبيه، إلى حركة الجهادية مع القسام، وهو يتـولى نقابـة أول

حلقة قسامية من خمسة أنفار مقدسيـين، زادوا خلال شـهر واحد إلى تسعة. بينما تولى صلاح أول خلية للحزب القومي السوري في مدينة حيفا، بعدما نجح باسـتمالة خمسـة مـن زملائه المدرسـين. لكن الذي ميز منفذيته، التحاق ابن عمته سميح الصالحي بالحزب.

شاب في مقتبل العمر، التحق حديثـاً بقوة البـوليس ليتخرج شرطي مرور بعد أسابيع، الأمر الذي جعل انطـون سعاده يهنئ صلاح برسالة شخصية، على هـذا الاختـراق. فاستمالـة رجال البوليس سيدعم حركـة الحـزب عنـدما يـحـين الموعد. ووصل مع الرسـالة المروسـة بشـعار الزوبعة التي ترمز إلى دمج الصليب والهلال، كتاب تعيـين صلاح منفذاً عاماً في حيفا، وكتاب آخر بقبول انتساب سميح بعد أن يؤدي قسم الحزب الذي اعتبره أنور في بغداد مقتبساً من القسم الماسوني. مـما أثلج صدور الماسونيـين، لولا أن انطون نشر نص استقالته التي قدمها إلـى رئـيس محفـل نـجمة سوريا قبل نحو عشر سنوات.

" أنا سميح الصالحي، أقسـم بشـرفي وحقيقـتي ومعتقدي، على أن أنتمي إلـى الحـزب السـوري القـومي

الاجتماعي بكل إخلاص وكل عزيمة صادقة، وأن اتخذ مبادئه القومية الاجتماعية إيماناً لي ولعائلتي وشعاراً لبيتي، وأن احتفظ بأسراره، فلا أبوح بها لا بالقول ولا بالكتابة ولا بالرسم ولا بالحفر ولا بأية طريقة ووسيلة أخرى، لا تطوعاً ولا تحت أي نوع من أنواع الضغط. وأن أقدم كل مساعدة أتمكن منها إلى أي عضو كان من أعضاء الحزب".

٤٥

انقطاع جذوره، اللهم ما نقل اليه من اعتراف أبيه، لم ينل من عزيمته ولا صدع شموخه... ظل يعتبر نفسه واحداً من الجبيلية، وإن كانت تنتابه مشاعر الاغتراب، كلما أحـس بالشرخ يـزداد اتساعاً بيـنه وبين رفيق سـلاحه وحـامي ديرته، زعل الجبيلي. لكنه

بوفائه الذي ورثه عن أبيه، والبأس الذي صقلته فـي جسده الفلاحة والمعارك، والكرم الذي اكتسبه من الصحراء، ظل قريباً من زعل وإن أمات الكرب رغباتـهما .

كان فرحان يفهم مـرارة زعل،بـل يعيشـها، وإن اختلفت الدوافع والنتائج. كلاهما كان وفياً لأبيه. إلا أن زعل ورث عن أبيه قبيلة عصية على الإحصاء، وظل له من بعد فندي أخوة وأقارب وأبناء وبنات.

أما فرحان وإن ساد على فلاحي القبة وسيل عمـان، إلا أنه ليس منهم. ولربما كـانوا مثلـه منقطعـي الجـذور

مجهولي الأصول. وليس لـه من صلبه إلا ولد وحيـد. إن مات ماتت معه الصليـبية التي ذاع به صيتها وكأنها عشيرة لا تحصى لها أعداد. إن مات مرزوق يموت عقبه وصـلبه واسمه .

لم يكن يكفيه حفلة ارستقراطية بعد القـداس. فهـذه الحفلات كما سمع من الجميع، مظاهر ومجعصة وقيل وقال. فليحتفل أهل العروس كما يشاؤون. وليتناولوا الطعام الفندقي بالشوكة والسكين، وليتمايلوا بطراوة الأنغـام. أمـا حفلتـه، فسوف تبعث في القبة مجد الأجاويد.

"جاي يا ناس جاي، كلكم معازيم القبة. الليلة دخلـة مرزوق ولد فرحان". تماماً مثلما حصل أيام الجفـاف، لكـن الوضع منعكس هذه المرة. حينذاك جاءه أبوه مؤنبـاً "ويـش تسوي يا ولد". اليوم يأتيه ابنه مرزوق " لويش كل هاذ يابا". ما يفرح فرحان وفيه قربه جار جوعان. اذبح يا ولد. وانـت اشعل النار. ودي القبة تطعم الليلة كل أهل الشام.

كان عرساً مثل الهبل، كما قال أبـو العـروس فـي الناصرة، بعدما فتنه الاحتفال ، بـحيث لم يقو علـى نقـل الصورة إلا بالمغالاة: قولوا ميه ميتـين خـروف.وشـي

خمسين جمل. ومية باربكيو إن مش ألـف هـون وهنـاك. والدبكات تـهز الأرض، والرصاص اللي انطخ طرشـني. يا جماعة أعراسنا أعراس، وأعراس هدول الناس أعراس.!

.

كان قد مضى خمسون يوماً على موت فندي، عندما التهبت القبة بالأفراح . تشارك الأغنياء والفقـراء والعامـة والوجهاء الطعام والشراب. وتلطخـت فـي ليلتهـا الأرض والأوعية والسكاكين بدماء الذبائح التي نـحرت بسخاء. كل ذلك حتى تتوق نفس مرزوق للدماء: كِلْ. كِلْ. الليلة قـدامك شغل كثير.

- إيش آكل يوبا. ليش ضل عندي محل للأكل.

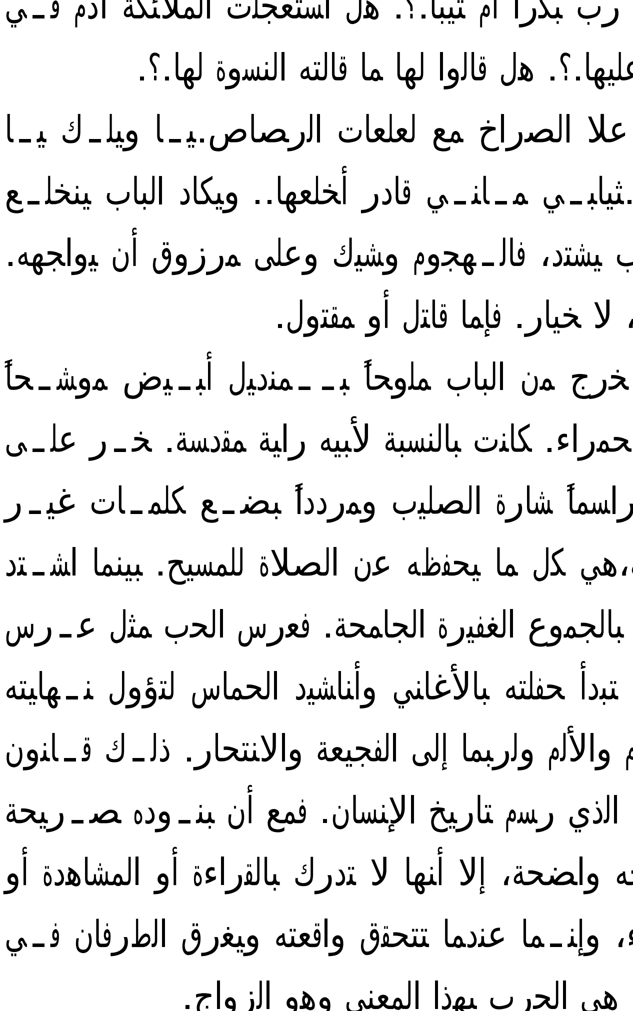
- ودك تاكل لتغص. قلت ليك ، قـدامك شـغل طويل. وآني راح أظل الليلة بـحالها سهران عند الباب.

- شو.؟.

- صرت تقول"شو" مثل عروسك يـا صـليبي. مقبولة منك الليلة. بس كِلْ. كِلْ. لا تزعلني. والا أدك الأكل بحلقك دك. ترى الليلة ودي اياك تطخ مثل بارودتي الدك.

توجه مرزوق مع عروسه إلى داخـل البيـت مـع السحجات والدبكات والزغاريد والرصاص الذي يلعلع حواليه وفوق رأسه، بينما رابية القبة مدمية متوقدة النيران مغطـاة بالعظام وفضلات الطعام: ترى أنا مستنيك على الباب هـه. العرس يبدا بعد ما تنتهي. لا تطول علي وتفضـحني بـين القوم.

دخل مرزوق على عروسه منهكاً متوتر الأعصاب. ليس بسبب الصخب الذي توجه أبوه بالتهديد، وإنما خشية من هذه الجموع الجائعة إلى المزيد من الدماء. ولم تكن ميسـر بحال أفضل. وهي التي ربيت في بيت أرسـتقراطي يعتبـر الدخلة لمسة رومانسية على ضوء شـمعة حمـراء ، يلسـع انصهارها دون قروح.فإذا بالدخلة مطلبـاً شـعبياً وقضـية مصيرية. لعنت قراءتـها الأدبية. تلك أوراق. مجرد أوراق يكتبها صاحبها أينما كان وكيفما كان وبغـض النظـر عمـا سيكون. ذلك الأفاق. لو تبادل معها المواقـع لعـرف واقـع مقولته لا حروفها. هنا فقط، والآن فقط عليها أن تكون أو لا تكون. لو تراخى مرزوق ستذبـحه مثل خرافه التي لم تقـل آخ، وتخرج للجموع بـمنديلها ملطخاً بدمائه. هـل كانـت



حواء يا رب بكراً أم ثيباً.؟. هل استعجلت الملائكة آدم في الدخلة عليها.؟. هل قالوا لها ما قالته النسوة لها.؟.

علا الصراخ مع لعلعات الرصاص.يا ويلك يا مرزوق.ثيابي ما اني قادر أخلعها.. ويكاد الباب ينخلع والصخب يشتد، فالهجوم وشيك وعلى مرزوق أن يواجهه. لا خيار، لا خيار. فإما قاتل أو مقتول.

خرج من الباب ملوحاً بمنديل أبيض موشحاً بزوبعةٍ حمراء. كانت بالنسبة لأبيه راية مقدسة. خر على ركبتيه راسماً شارة الصليب ومردداً بضع كلمات غير مترابطة،هي كل ما يحفظه عن الصلاة للمسيح. بينما اشتد الحماس بالجموع الغفيرة الجامحة. فعرس الحب مثل عرس الحرب، تبدأ حفلته بالأغاني وأناشيد الحماس لتؤول نهايته إلى الندم والألم وربما إلى الفجيعة والانتحار. ذلك قانون الأخطاء الذي رسم تاريخ الإنسان. فمع أن بنوده صريحة ونتائجه واضحة، إلا أنها لا تدرك بالقراءة أو المشاهدة أو الإصغاء، وإنما عندما تتحقق واقعته ويغرق الطرفان في معمعته. هي الحرب بهذا المعنى وهو الزواج.

٤٦

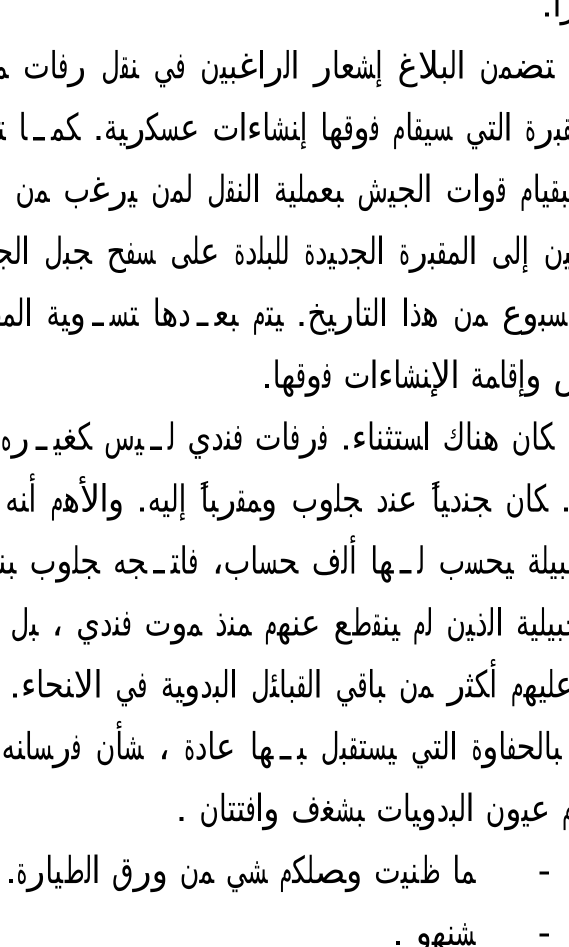
أثار صقر إعجاب المراقبين الانجليز، الذين كـانوا يباغتونه من حين لآخر متفقدين العمل وسـلامة الإنجـار. فرغم مئات العمال والعشرات من البنائين العـاملين تحـت إمرته، إلا أنـه لا يتوانـى عن مشاركتهم العمل بيديـه في كثير من الأحيان، وإذا ما تبين فتوراً في الهـمم بسبب رداءة الطقس أو اللهفة على الانتهاء أو تبذير بـالمواد أو فوضـى بالاستخدام، فإنه يطرد مرتكبيها من العمال بالسهولة نفسـها التي يستبدل معلميهم، إذا ما لمس فيهم الغـش أو الطمـع أو الاستهتار. استغنى عن المحاسب ،رغم دقته ووفائـه، لأنـه طلب زيادة في المعاش نصف جنيه. كانت حساباته المتفاعلة في رأسه تنبـؤه غالباً بأنه لن يسترجع كلفته.إلا أنه سيبـني من خلالها سمعة مع الانجليز الذي يساومون على التعريفـة لمشاريع تكلف الآلاف. وأكثر ما أعجبـه فـيهم أنـ ـهم لا يتقاعسون عند الدفع حال الإنجاز. فتحرك حسابه لدى البنـك الكنعاني بالسحب والإيداع أكثر من أي زبـون آخـر لـدى سليمان، مما جعله أهم عميل لديه، بعـدما كانـت ذكريـات

الصبا هي الدافع الرئيس وراء منحه التسهيلات. ففي غمـرة انشغاله بطريق القلعة الذي كان الناس يتأملون نموه العملاق، سواء من بيـوتهم القريبة أو خلال مرورهم بـين المحطـة ومركز المدينة ، سألته إدارة النقطة الرابعة التي أخفقت فـي استجلاب مقاولي فلسطين من عرب أو يهود، بسبب الكلفـة الباهظة التي ستـترتب على نقل المعدات، إمكانيـة تنفيـذه لمنشآت المطار العسكري في الماركا، من أبنية ومـدرجات وثكنات. إضافة إلى إزالة المقبرة القائمة على السـفح ونقـل رفات موتاها ممن قضوا أثناء تمديد سـكة الحديـد أو فـي الحرب مع الأتراك ومن لحق بـهم من الأهالي والعسـاكر. تردد سليمان في تمويل المشروع الجديـد، ونصـح صـقر بالتمهل. الطمع غدار. توسعه بـهذا الشكل خطير ومربـك. كما أنه استنـزف معظم سيولة الفرع ولم يقف على قدميـه بعد. نبوءة جلال نحلة بتحول زبائن البنك العثماني إليه كانت مصيدة. ما يزال التعامل على أشده مع البنك العثماني، بينما أقلة فقط من المودعين الصغار اجتذبهم لسبب أو آخر اسـم البنك الكنعاني. أما طلبات الاقتراض، فجلّها من أولئك الذين رفض البنك العثماني طلبات إقراضهم. وقبل طلب صقر، بل

رحبت به إدارته الانجليزية، وعرضت أن تدفع لـه كـامل تسهيلاته المستحقة للبنك الكنعاني لقاء نقـل حسـابه إلـيهم وقصر تعامله عليهم. رفض بإصرار . قال لسليمان بأنه لـن ينسى فضله في انطلاقته الكبيرة ولن يتخلى عن التعامل مـع بنكه، حتى لو اضطرته المقاولة الجديدة للتعامل مـع البنـك العثماني.

كانت الأرض التي يستخدمها الانجليز مطـاراً فـي الماركا، ترابية مستوية، تتخللها نتوءات صخرية أقيم بينهـا عدد من ثكنات الصاج، وعلى مقربة منهـا ينحـدر السـفح الشمالي إلى وادي السيل، حيث البساتين تحيط بالمجرى على جانبيه المملوكة لعدد من الإقطاعيـين، بينهم فرحان وشمس الدين. فلم يكن صعباً على صقر التزود من الوادي بالحصى والدبش والرمل والأخشاب، إضـافة إلـى الميـاه، وكانـت المباشرة تتطلب إزالة المقبرة القديمة علـى امتـداد السـفح الواصل نحو القمة.

أصدر جلوب بلاغاً عسكرياً، مطبوعاً باللغة العربية ألقته إحدى طائرات السلاح الملكي البريطاني فـوق مواقـع

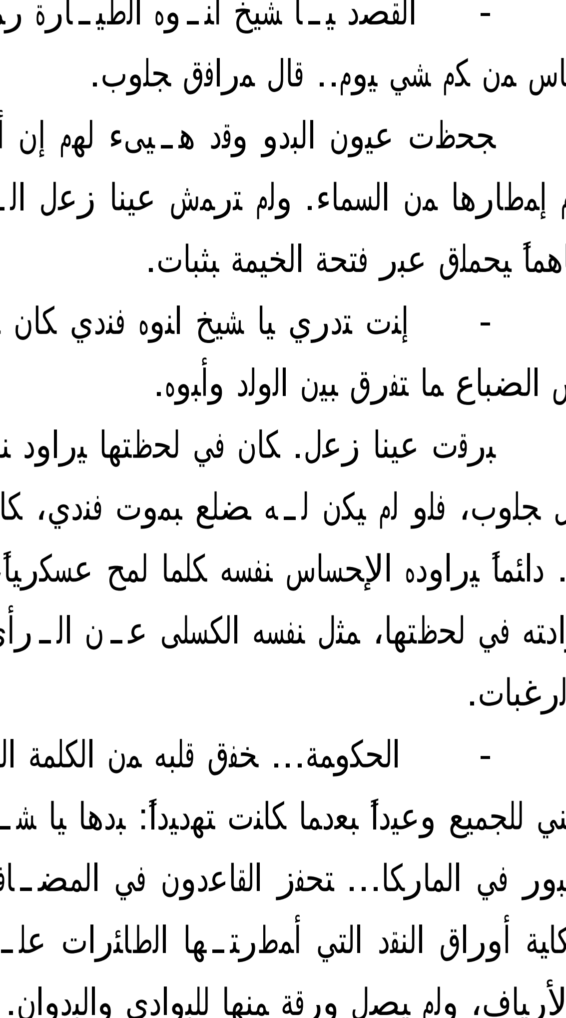


سكنية عديدة تتناثر بفوضى في مساحة تمتد نحو عشرين كيلومتراً.

تضمن البلاغ إشعار الراغبين في نقل رفات موتاهم من المقبرة التي سيقام فوقها إنشاءات عسكرية. كما تعهد البلاغ بقيام قوات الجيش بعملية النقل لمن يرغب من أقارب المدفونين إلى المقبرة الجديدة للبلدة على سفح جبل الجوفة خلال اسبوع من هذا التاريخ. يتم بعدها تسوية المقبرة بالأرض وإقامة الإنشاءات فوقها.

كان هناك استثناء. فرفات فندي ليس كغيره من الرفات. كان جندياً عند جلوب ومقرباً إليه. والأهم أنه ابن زعيم قبيلة يحسب لها ألف حساب، فاتجه جلوب بنفسه إلى الجبيلية الذين لم ينقطع عنهم منذ موت فندي ، بل كان يتردد عليهم أكثر من باقي القبائل البدوية في الانحاء. لهذا استقبل بالحفاوة التي يستقبل بها عادة ، شأن فرسانه الذين تلاحقهم عيون البدويات بشغف وافتتان .

- ما ظنيت وصلكم شي من ورق الطيارة.
- شنهو .



- القصد يا شيخ أنوه الطيارة رمت ورق للناس من كم شي يوم.. قال مرافق جلوب.

جحظت عيون البدو وقد هيئ لهم إن أوراق النقد يتم إمطارها من السماء. ولم ترمش عينا زعل الذي ظل ساهماً يحملق عبر فتحة الخيمة بثبات.

- إنت تدري يا شيخ انوه فندي كان مثل ولدي، بس الضباع ما تفرق بين الولد وأبوه.

برقت عينا زعل. كان في لحظتها يراود نفسه على قتل جلوب، فلو لم يكن له ضلع بموت فندي، كان متسبباً به. دائماً يراوده الإحساس نفسه كلما لمح عسكرياً، وتموت إرادته في لحظتها، مثل نفسه الكسلى عن الرأي والفعل والرغبات.

- الحكومة... خفق قلبه من الكلمة التي صارت تعني للجميع وعيداً بعدما كانت تهديداً: بدها يا شيخ تزيل القبور في الماركا... تحفز القاعدون في المضافة لسماع حكاية أوراق النقد التي أمطرتها الطائرات على المدن والأرياف، ولم يصل ورقة منها للبوادي والبدوان.

عقب مرافق جلوب سريعاً: والقايد شايف إنوه حـق عليه بنقل الشهيد فندي لتربة الجبيلية إن كان هاظا يرضـي الشيخ.

سكنت اللهفة في قلوب القاعدين. واستسخف بعضهم غرض الزيارة، وخابت آمال بعض آخر: ما ينـبش القبـور غير الضباع.. وكأنه يستثير زعل للانتقام: ما هو الغـرض نبش القبور يا كبير. بس الحكومة ودها تبـني فوق المقبـرة بنايات. والقايد قال الحق ننقل ولدنا فندي وما نسـوي قبـره بالأرض مثل الباقين. وإن شاف الشيخ، نـ ـنقله لـ ـمقبرة عمان ونقرا عليه سورة قرآن وندعي ليـه بالرحمـة مـن الرحمن .

- إيه نسيت..قال جلوب وهو يتحسـس جيـب سترته. فتعلقت به الأنظار. مرة أخرى، تطايرت أوراق النقد فوق البعض.

- تبغي دخان.؟.. سأل أحدهم.

- لا وا ما هو دخان. بس جاني ساعة ذهـب وصيت عليها مخصوص للشيخ زعل. يمكن نسيتها بالقيـادة أو البيت.

تبادل الرجال النظرات وارتخـت تعـابير زعـل: تسامحني يا شيخ.ترى عيب علي ازورك وايدي فاضية.

سكنت أنفاس الرجال، بينما جلوب يفك مكبس جراب مسدسه، وقد هيئ للبعض أن فـي الأمـر كمينـاً.فتحفـزت صدورهم وانشدت أعصابهم والتفت البعض إلـى أسـلحتهم باستثناء زعل، ظل على صمته وثبات نظراته المتجهة إلـى الأمام وهي تلتقط صورة كل المحيطين به وما يصدر عـنهم من حركات: تقبل هديـتي هاذي يا شيخ. وهدية السـاعة إن شاء ا بالزيارة الجاي... ووضع مسدسه في حضن زعـل المتربع كتمثال بوذي.

حتى زعل نالت منه الحركة وأدهشته وأعجزته عن ردة الفعل ، بمثل ما أربكت مرافق جلوب الذي سارع للقول بلعثمة واضحة: إن شاف الشيخ... توقفت الكلمات في فمـه الذي ظل مفتوحاً بعدما رفع جلوب راحته: الشيخ مش رايق. أنا عارف اللي يبغيه. الرجل يفهم رجل يا صاحب. ما كـل جواب كلام...

تململ وهو ينهض، فنهض البعض قبلـه، وقبـل أن يستوي بقامته التفت إلى زعل: وا ما تقوم يا شيخ... مـال

عليه وعانقه مقبلاً إياه من الوجنتـين ثم اتجه إلى الآخـرين مصافحاً.

ما إن خرج من فتحة الخيمة حتى تـ ـهيأ عسـاكره بأسلحتهم، فعبر بينهم بـمشية عسكرية منتظمة إلى سـيارته اللاندروفر المكشوفة. سارع مرافقه إلى فتح الباب، فاسـتقر داخلها واقفاً في المقعد الأمامي وأدى التحية العسكرية لزعل الذي كان يحملق به من داخل الخيمة .

ظل على وقفته بينما السيارة تتقهقر إلى الوراء قليلاً ثم تستدير إلى الخلف، يـتبعها ترك قفز إليه العساكر وهـو يتحرك .

في خلوته، تفقد زعل المسدس فوجده محشواً. نسـي فندي ولم ينس جلوب. على عكس الآخـرين الـذين طغـت أوراق النقد في مخيلتهم على قصة فندي، سواء سوي قبـره بالأرض في الماركا، أم نقل رفاته إلى المقبرة الجديدة. لولا أن القصة انبعثت من جديد، ومن بداية الوفاة. هذه المرة لـم يأت جلوب إلى ديار الجبيلية، بل أرسل في طلب زعل لأمر عاجل وهام.

رافقه جلوب فور وصوله وقبل الترحاب المطلـوب إلى المستشفى الطلياني حيث وضع رفات فندي، الـذي ذاب لحمه لينكشف طاق ناري مستقر بين عظامه: والدك انطخ قبل ما يدهسه الترين وتاكله الضباع.

٤٧

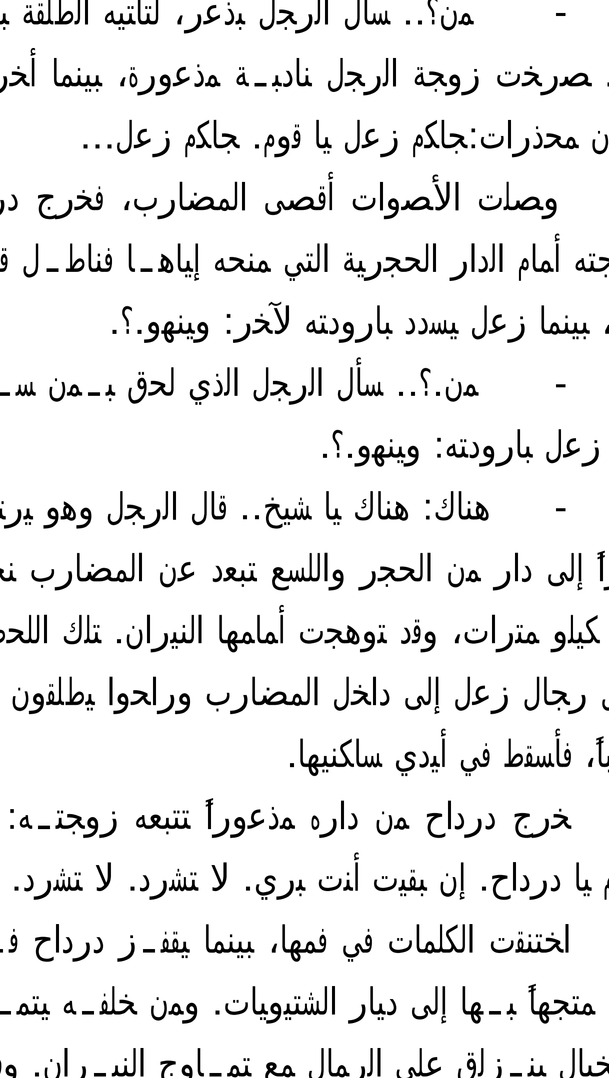
ما أن ترجل، حتى سارع الرجال إلى فتحة المضافة يقفون في صفين متقابلين، وكأنهم يرومون الاستعراض أسوة بعساكر القائد الانجليزي. ظلت السيارة على وقفتها للحظات. ولج خلال زعل المضافة على هدى أضوائها قبل أن تستدير مبتعدة عن المضارب لتتوهج نـيران المواقد المنتشرة هنـا وهناك. دب الـهمس والتنادي وحركة الأقدام. ومن مسـاحة ليست بعيدة علا صوت خوار على صوت نباح.

ابتلعت الخيمة زعل الذي وقف أمام الـركن الـذي يقتعده وظهره إلى الفتحة. ظل على حالة بضع دقائق، كانت تتصاعد فيها أنفاسه وتتسارع دقات قلبه، ومن خلفه رجـال يقفون بغير انتظام. تلمع عيونـهم بالحوار على هدى موقـد ملتهب النيران. تراخى كتفاه وتعالت أنفاسه الممزوجة بأنين متقطع عميق.

فجأة استقام جذعه وهو ينـزع عنه العباءة، ويرفـع ذراعيه إلى جانبيه مفتوحة الكفين لتنتفضـا بعصـبية وهـو يصرخ بحدة: وين تروح.؟.

استدار مثل لوح صفيح وخطا نحو الواسط. تنـاول بارودته متفقداً بيت النار الجـاهز دائمـاً للإطـلاق. اتجـه بخطوات ثابتة إلى حصانة المربوط بوتد الشق، حرره علـى عجل بينما تعلقت به أنظار الرجال، وهو يمتطيه بقفزة واحدة تاركاً الحطة تتراخى على العقال إلى ظهره. همـز الجـواد بـخفة جعلته يستدير مع اللجام بـهدوء ، وبـهمزة أخـرى جعلته يـبتعد عن الشق خبباً، قبـل أن تستصـرخ الثالثـة صهيله وتطلق حوافره باستقامة معاكسة لريح الجنوب.

فـي دقائق تعاقبت خلفه كواكب الفرسان، ليلتـئم جمعها على مشارف ديار أقاربـهم من اتباع درداح. اقتحمها زعل وهو يطلق النار على كل من يصادفه، بيـنما رجالـه يبدأون الإطلاق من بعد، فدب الذعر في المضـارب بعـدما ظن كل واحد منهم إن الإخوان أخذوهم على حـين غـرة، فتشتتوا هذر مذر: البل يا عيال. البل.. لكن بعـض النسـوة تبـيـن زعل الذي كن يتوحمن علـى صـلابته وقسـاوة تعابيره. بينما يسدد زعل بارودته في وجه أحدهم: وينهو.؟.



- من؟.. سأل الرجل بذعر، لتأتيه الطلقة بـين عينه. صرخت زوجة الرجل نادبـة مذعورة، بينما أخريات يولولن محذرات:جاكم زعل يا قوم. جاكم زعل...

وصلت الأصوات أقصى المضارب، فخرج درداح وزوجته أمام الدار الحجرية التي منحه إياهـا فناطـل قبـل موته، بينما زعل يسدد بارودته لآخر: وينهو.؟.

- من.؟.. سأل الرجل الذي لحق بـمن سـبقه، وألقم زعل بارودته: وينهو.؟.

- هناك: هناك يا شيخ.. قال الرجل وهو يرتجف مشيراً إلى دار من الحجر واللبن تبعد عن المضارب نحـو ثلاثة كيلو مترات، وقد توهجت أمامها النيران. تلك اللحظـة وصل رجال زعل إلى داخل المضارب وراحوا يطلقون النار ترهيباً، فأسقط في أيدي ساكنيها.

خرج درداح من داره مذعوراً تتبعه زوجتـه: مـا تنهزم يا درداح. إن بقيت أنت بري. لا تشرد. لا تشرد.

اختنقت الكلمات في فمها، بينما يقفـز درداح فـوق مطية متجهاً بـها إلى ديار الشتيويات. ومن خلفـه يتمـاوج ظل خيال ينـزلق على الرمال مع تمـاوج النيـران. وفـي

الخاف، يترجل الفرسان داخل المضارب وأيديهم على الزناد: ما تنحشر بين البصلة وقشرتها.

- وإن سووها الشتيويات .؟.

- إن كنت منهم، تسويها والا تـخلي الشـقيق يصفي حساب الشقيق، إن كان خير والا زنديق.؟.

علق أحدهم وهو ينظر إلى أقصـى المضـارب: إن انـهزم درداح ما أحد يبريه.

- وإن وقف قدامه.؟.

- يكون ثار زعل عند غيره.

استمرت المطاردة في العراء نحـو عشـر دقـائق، وصل بعدها درداح إلى مضارب الشتيويات وهو يلتفت طيلة الوقت خلفه مذعوراً فاقد الإرادة مـأخوذ الحـال. فـاخترق المضارب وقد لمع اصفرار وجهه على وميض النار الموقدة أمام بيت فناطل، بينما العبـد الأسـود يغـذيها بالحطـب والعيدان.

وقف العبد مشدوهاً، يحملق بدرداح الذي قفـز مـن ركوبته قبل أن يصل الدار وأسرع نـحوه متعلقـاً بثيابـه: جيرني ا يجيرك وانت حر.

من غير وعي دفعه العبد إلى الـداخل ولحـق بـه ليخرج في لحظات متهيئاً ببارودته مع وصول زعل: خلّـه يطلع.

- الرجل بـجيرتي يا شيخ.. قال العبـد بينمـا زعل يسدد البارودة إليه. ربما كانت النار أو ارتياع الحصان أو القدر أو الحظ، أو جميعها معاً تكالبت على الجواد حتـى يجمح رافعاً يديه للأعلى، فأخطأت رصاصة زعـل العبـد. وقبل أن يحكم التسديد ثانية، حرك الرعـب إصـبع العبـد، فانطلقت من بارودته رصاصة رمت زعل على حصانه بـلا حراك. مشى الجواد نحو صاحبه وراح يشم رائحتـه جهـة العنق، غير مبالٍ بالثقب الأسود بين العينين.

ساد صمت غريب وكأن الزمن رحل عـن المكـان خشية الانتقام، الذي حركته أرملة فناطل بالزغاريـد، وهـي تخرج من الباب، متسلحة بالبندقية بينما العبد يحـاوص فـي مكانه حائراً خائفاً لا يدري ما الذي فعله، ولم فعلـه، ومـاذا سيفعل به البدوان.

أطل درداح برأسه من الباب، وتقـدم الهوينـا إلـى الخارج، يدير نظره تارة بين العبد وجثة زعل وتارة يلتفـت مأخوذاً لأرملة فناطل: قتلته يا اسود؟!.

ارتجت الكلمات في فم العبد وهو يقول متلعثماً: ودي أحميك.

- تحمـيني ما ملعون الوالدين؟!. تدري قتلـت مين؟.. قال بارتباك وخوف ضاعف من فزع العبد الذي مـا أن التفت إلى زوجة فناطل حتى جحظت عيناه ولمع بياضهما بومضة النار الأخيرة التي قدر لـه رؤيتها مـع رصاصـة سددتها الأرملة إلى صدره. لكن مقاومته للمـوت لـم تكـن معدومة مثل زعل. فقد ترنح إلى الوراء وجثا على ركبتيـه وهو يتلمس بيده جراحه.

نظر باسترحام إلى سيدته التي امتلكت حياته ومـن يدها مماته. ثم إلى درداح يسأله البر بوعده. قبل أن يتراخى رويداً رويداً، ويسقط على جانبه متلوياً متأخئخاً يحاول التقاط بعضاً من أنفاس الحياة التي زفرهـا فـي شـخرة طويلـة مسموعة. بينما درداح يدير نظره بينه وبين الأرملة السعيدة: العبد ينباع وينشري وما ينفدي.. قالت، ورمت لـه البندقية،

فأجفل قبل أن يلتقطها.حماق بـها للحظات، راود نفسه فيهـا على قتل الأرملة. بينما تماوجت الظلال بجانب الدار، بعدما استدعى صوت الرصاص بعـض الشـتيويات. لكـنهم لـم يجـرؤوا علـى الاقتـراب، وهـم يحمقلـون بالجثتيـن المطروحتـين أرضاً، قبل أن تستقر أنظارهم من فوق اللهب على الأرملة ودرداح: اللي يطلب دمـك ويش تسوي بيه.؟.

بدا عليه العجز وقلة الحول والحيلة: هاظا زعل.

- وانت اخوه... التفت إلى الشتيويات المنتصبين في الظلمة مثل فزاعات سوداء.

- أخوه، ويذبـحه العبد قدام عيـني.

- منوه قال.؟.

اتسعت الدهشة في وجهه. التفت مـن جديـد إلـى الفزاعات السوداء بينما تتفرس به أرملة فناطل بثبات.

- جا يذبحك ذبـحته. آنـي شـاهدة والربـع شاهدين... والتفتت إلى الفزاعات.

أوشك درداح على استيعاب الموقف وهـو يسـتقيم بقامته فيتخلله بعض الطمأنينة: أخذت الشيخة بـذراعك يـا شيخ.

تـماوجت النار في عينيها الثابتـتين وهـو يتقـدم خطوة، متفرساً بـها يريد التهامها: ويش تبغين.؟.

- تعقد علي بالحال. واعاود واياك شيخ للجبيلية.

- ويش تقولي يا حرمة. كيف اعـاود واياك بعد اللي صار... والتفت إلى الفزاعات.

- منوه اللي يمنعك يا شيخ.؟. فندي وإلا اخوياه.

التفت من جديد إلى الفزاعات، ثم إلى الأرملة وهـي تقول: شد زندك يا شيخ. ترى مـا يجيـب الرطـل غيـر الرطلين. إن كانت بارودته ما تستنى، بارودتك بالدم تتحلى.

سادت لحظة صمت بدت طويلـة للغايـة، قبـل أن تتقهقر الأرملة إلى الخلف وتقعد بهدوء على حجرٍ كبيرٍ يمين الدار.

أخذ درداح نفساً عميقاً، واستقام بـجسده أكثـر مـا يستطيع وهو يشير بالبندقية للشتيويات الذين هيـئ لهـم أن درداح يصوبها إليهم من فوق لهب النار: اقرب جـاي إنـت واياه...

رددها مرة اخرى، جعلت القوم يتقدمون إلى صـحن الدار. ما إن اقتربوا حتى اتجه إلى حجـر يقابـل الأرملـة واقتعده: إي حرمة اللي قاعدة على حجر. تاخذيني ليك ذكر.

- إنت يا اللي قاعد على حجر، أخذتك لي ذكر.

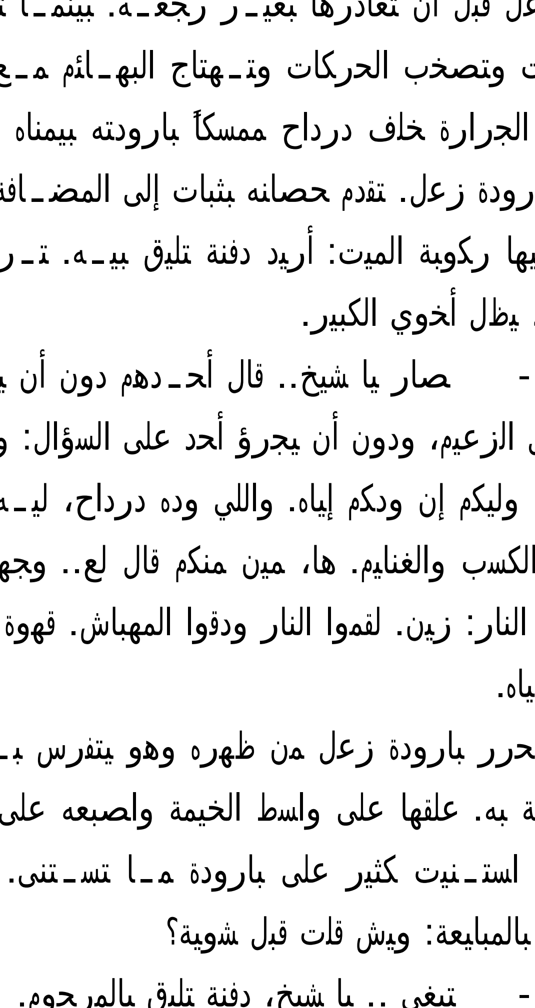
- شاهدين يا قوم .. قال درداح.. فردد الجميع: شاهدين .

في أقل من ساعة، عاد درداح مع زوجتـه الأرملـة والعديد من رجال الشتيويات، تتقدمهم ركوبة زعل المتكـوم عليها صاحبها مثل سقط المتاع.

- هاكم زعل. سووا اللي يليق بيه. واللي يبغي شيخ غير درداح، يصوب بارودته لي. ترى ان كانت بارودة زعل ما تستنى، بارودة درداح بالدم تتحلى.

قالت زوجته على مسمع من أبنائه: لحقت المرملـة تحط الحكي بثمك يا درداح!.

لم يتطلب الأمر وقتاً طويلاً حتى ينضم إليه الرجـال في المضارب بمن فيهم أؤلئك الذين احتلوها قبـل سـاعة، ليتجهوا جميعاً إلى عرين زعل. ما إن وصلوا مشارفه حتـى أطلق درداح بـهيمة زعل وفوقها جثته نـحو المضارب.



وصلت دونـما توجيه إلى المضافة التي زهدت فيها روح زعل قبل أن تغادرها بغيـر رجعـة. بينمـا تتعـالى الأصوات وتصخب الحركات وتـهتاج البهـائم مـع تقـدم الجموع الجرارة خلف درداح ممسكاً بارودته بيمناه وعلـى ظهره بارودة زعل. تقدم حصانه بثبات إلى المضـافة التـي سبقته إليها ركوبة الميت: أريد دفنة تليق بيـه. تـرى لـو ذبـحته، يظل أخوي الكبير.

- صار يا شيخ.. قال أحـدهم دون أن يعـرف كيف قتل الزعيم، ودون أن يجرؤ أحد على السؤال: وسـعوا القبر ليه وليكم إن ودكم إياه. واللي وده درداح، ليـه منـي العدل والكسب والغنايم. ها، مين منكم قال لع.. وجهز طلقة في بيت النار: زين. لقموا النار ودقوا المهباش. قهوة زعـل تندفن وإياه.

حرر بارودة زعل من ظهره وهو يتفرس بـالوجوه الشاخصة به. علقها على واسط الخيمة واصبعه على زنـاد بارودته: استـنيت كثير على بارودة مـا تسـتنى. أجابـه الصمت بالمبايعة: ويش قلت قبل شوية؟

- تبغي .. يا شيخ، دفنة تليق بالمرحوم.

- إي. هـ الحين قبل باكر. ترى مبيت الميت مع الحي حرام. وحنّا مسلمين. والا لع يا الربع.

- صج وا يا شيخ.

- ما أبغي عرس... والتفت إلـى أحـد رجـال الشتيويات الذي أسرع بالقول: قصد الشيخ إنوه الليلـة عقـد على حرمة المرحوم فناطل.

تبادلت الوجوه النظرات: ماهو بـخل مني. بس مـا يصير نسحج وزعل ما اندفن بعد. ولو انوه كان يبغي دمي، قبل ما أخذت دمه. بـس اللي يريـد القـول مبـروك مـا ينرد.عجل بالقهوة يا ولد. ترى الربع وراهم شـغل كثيـر. الأول خِذْ هاظا الحصان من قدامي . واللي يريد يترحم على زعل يترحم مثل ما يريد... فلم يترحم عليه أحد.

في الليلة التالية، وبينما كان جلوب يتنـاول والمقـيم البريطاني طعام العشاء، أخبره عن مقتل زعل الجبيلي على يد أخيه درداح. فسأله المقيم عما سيفعل بهذا الشـأن، فقـال جلوب: وماذا سأفعل.؟. درداح قتل زعل دفاعاً عن النفس.

أضاف: لا استغرب أن يقتل المرء أخاه. هذا يحصل في أرقى المجتمعات. لكن ما يحيرني، مقتل زعل على يـد

درداح. لا أدري كيف تمكن منه على ما عرف عن زعل من بأسٍ وجـرأةٍ وسرعة استخدام السلاح. أضاف: بالتأكيد قتله غدراً..

- غدراً... تساءل المقيم باستهجان. أشاح جلوب وجهه. سيبدأ المقيم تباهيه بمعرفة أهل البلاد. وحتى يفـوت عليه الفرصة، قال دون أن ينظر اليه: اعتقـد أنـه ليسـت فروسية الجبيلية وحدها ماتت بموت زعل، وإنما ماتت معها نـخوتهم أيضاً.

- لماذا.؟. سأل المعتمد، وأضـاف مستفسـراً: ألأن درداح غدر بأخيه.

- طبعاً.

- ليس كل غدر غدراً. فكما قلت أنـت، هـذا الدرداح قتل أخاه دفاعاً عن النفس.

- لكن غدراً. أنا متأكد من ذلك.

- ما يزال أمامك الكثير لتتعلمه. ألم تسمع بقصة المهيرية؟.

أنصت جلوب باهتمام وانتباه، رغم يقينه أن المقـيم البريطاني يرمي من اقحام هذه الحكاية في حديثه المتعـالي

إلى تأكيد طول باعه في شؤون الـبلاد ومعرفـة أهاليهـا. فالمهيرة يا جلوب شجرة بلوط في أعالي السلط. هذه الشجرة ما تزال تشهد على فعلة المهيري الشنعاء.

أحب المهيري، وهو عراقي كان حاكماً للسلط، ابنـة خوري. تمنعت عليه بمثل امتناع أهلها عن منحها له، رغـم سطوته ومكانته.

- هذه القصة تقال عن زعل.. قـال جلـوب مقاطعاً، فاسترسل المقيم مبدياً امتعاضه: خشي أهلهـا مـن اختطافه لها فالتجأوا وأبيها إلى عشيرة مجاورة لا حول لهـا ولا قوة أمام قوة المهيري وسطوته. بعثوا إليه مستجيـبين موافقين على تسليم الفتاة تحت شجرة بلـوط معروفـة فـي المنطقة. وهذا عار لا يجاريه عار، إذا مـا سـلم شخصـاً مستجيراً. فجاء المهيري إلى الشجرة ببضعة رجال حسـب الاتفاق. وهناك غدروا به وهو يتناول طعامه معهم. وكـان هذا أكثر عاراً من تسليم المستجير. لهذا قلت لك بأنه لـيس كل غدر عند البدوي غدراً . فدرداح غدر بأخيه دفاعاً عـن النفس، ولو غدر به هو مستجير به أو ضيف عنده لوافقتـك أن غدره عاراً ماتت معه النخوة البدوية.. فلم يعقب جلوب.

في اليوم التالي اتـجه إلى مضارب الجبيلية. استقبله درداح متـوجساً متصنعاً الثبات.فقدم جلوب تعازيه، دون أن يأتي على ذكر الحادثة أو أسباب الوفاة. لكنه حاول أن يبدي بأنه يعرف خفايا درداح. فاعتذر لدى وصوله عـن سـبب تأخره. كان بمهمة في الغور. وبعد قليل عاد للحديث عنهـا مبدياً إعجابه بشجرة المهيري التي استظل بـها أثناء عودته.

- المهيري.؟!. تساءل درداح.

- المهيري يا رجل. الشجرة اللي يعرفها الكـل.

معقول ما سمعت عنها يا شيخ. الشجرة اللي انـذبح تحتهـا المهيري حاكم السلط اللي كان وده بنت الخوري.

ارتخى كتفا درداح وهو يتوجه بنظره إلى من حوله ويسألهم باستخفاف: منوه منكم سمع بالمهيري؟.

قلّب بعضهم شفاههم، والبعض الآخر تساءلت أعينهم، ونطقت وجوه آخرين صراحة بالاستخفاف.

قال لـه مرافقه وهما يسـتديران بالسـيارة، وكان الرجل من العدوان: المهداوي يا سيدي. المهداوي . ما هو المهيري.. فلعن جلوب في نفسه المقيم البريطاني.

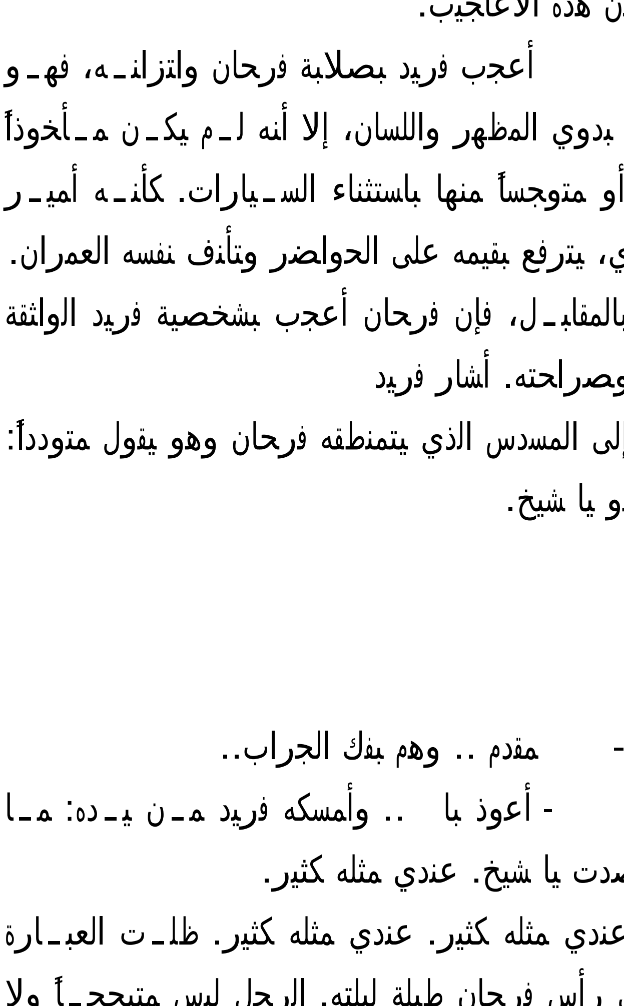
كان يريد أن يثبت لدرداح أنه يعـرف كـل شيء عن البلقاء والصحراء، فبدا أمامه غشيماً لا يعرف حتى الأسماء.

٤٨

كان فرحان أول زبون يشتري سيارة فورد من معرض فريد. حسبه وهو يلج المعرض واحداً من الفضوليين الذين يضيقون على صدره بالأسئلة قبل أن يغادروا بلا رجعة. لم يسأله فرحان عن السيارات. بل سأل ابنه مرزوق أن ينتقي منها التي يريد. بدا الرجلان غشيمين وجلين من السيارة بينما فريد يوضح لهما أموراً بديهية بالنسبة له، طلاسم بالنسبة لهما. سأل مرزوق إن كان يعرف القيادة، فأمسك فرحان مسلم من ذراعه: هاذا السواق.

جحظت عينا مسلم، والتفت إلى مرزوق مستنجداً، فأنجده فريد بتعهدٍ يضمن له تعلم القيادة على يدي سائق محترف. سيحوز إجازة سوق في يومين، فاستلزم الأمر أسبوعين، كانا كافيين لتوطيد العلاقة بين فريد وفرحان.

صار يتردد عليه من يومٍ لآخر مستفسراً عن السيارة أو القيادة أو قطع التبديل، وفي كل زيارة يتجول



فرحان في المعرض مأخوذاً بالسيارات متلهفاً دائماً لسـماع المزيد عن هذه الأعاجيب.

أعجب فريد بصلابة فرحان واتزانـه، فهـو وإن كان بدوي المظهر واللسان، إلا أنه لـم يكـن مـأخوذاً بالمدينة أو متوجساً منها باستثناء السـيارات. كأنـه أميـر صحراوي، يترفع بقيمه على الحواضر وتأنف نفسه العمران.

بالمقابـل، فإن فرحان أعجب بشخصية فريد الواثقة ونباهته وصراحته. أشار فريد

إلى المسدس الذي يتمنطقه فرحان وهو يقول متودداً:

فردك حلو يا شيخ.

- مقدم .. وهم بفك الجراب..

- أعوذ با .. وأمسكه فريد مـن يـده: مـا قصدت يا شيخ. عندي مثله كثير.

عندي مثله كثير. عندي مثله كثير. ظلـت العبـارة تدوي في رأس فرحان طيلة ليلته. الرجل ليس متبجحـاً ولا

أرعن. بل واثق النفس صريح الجواب. ترى هل قال ذلـك مجاملة أم كان يعني ما يقول.؟. تسـاءل فرحـان إن كـان الأوتومبيل سيفتح لـه طريقاً آخر لم يكن بالحسبان.

ازداد تردده على فريد كلما جاء إلى عمان أو سيلها أو أي غرض كان، حتى لو لتعبئة السيارة بالوقود. دعاه قبل أيام من اليوم الموعود، للمشاركة بالجاهة العائليـة لخطبـة مرزوق.

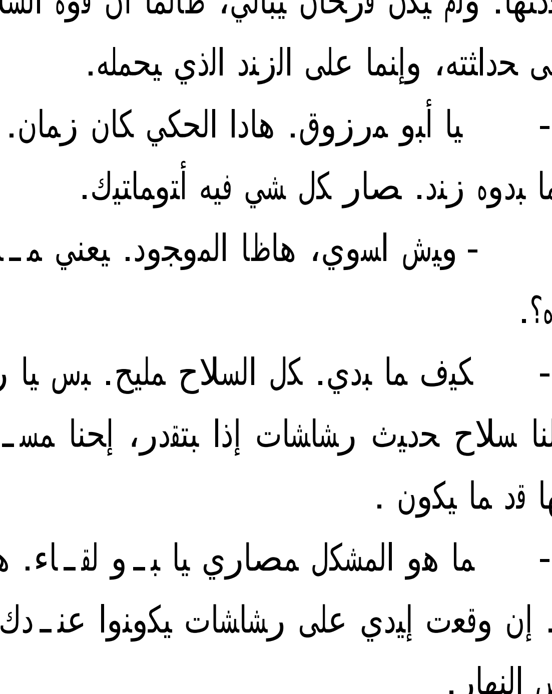
هال فريد تلك الحشود التـي اجتمعـت فيهـا كافـة الأطياف العرقية والدينية والطبقية: حنّا الأصل من ناصـرة فلسطين. الجد الكبير ا يرحمـه، جا من هناك قبـل شـي ميـتين عام. الحرب شتت الصليبية هان وهناك. بيـه فـي السلاط صليبية إسلام. ا العليم أنهم قرابة الينا. الدنيا تغيرت والناس تغيروا. وكل واحد هالحين يقول اللهم نفسي والبـاقي على رب العالمين.

لم يكن هناك ما يدعو فريد للتشكيك، ولا ما يـدعوا فرحان للتضليل. سؤال يتردد على ألسن الصغار والكبـار. وجواب يتماشى والحال في أي حال: إلـمهم. قلـت عنـدك كثير منّوه.

-        وعندي بواريد كمان.. هذه المرة شع التباهي في وجه فريد، قناعاً أخفى ارتباكه. لكنه وهو ينتبه إلى هـذه التجارة التي لم تخطر بباله لولا فرحان، أغبط نفسه على هذه الفرصة، التي ستمنحه مزيداً من الانعتاق. ليصبح الفريد بين أهل عمان في تجارة الممنوعـات التـي تتسـتر بمعـرض السيارات. تجارته الظاهرة، حررته جزئياً من الاعتماد على مال النبي. لكنه ظل في تجارة المحرمات رهن يديـه. أمـا الآن، وبعدما أيقظ فرحان في نفسه رغبتها بالاستقلال التـام. يأخذ على عاتقه خلق تجارة خاصة به، لا تربطه بمال النبي ولا الختّام .

لم يكن صعباً على سرور أن يبادل الحشيشة بالعتاد، ولا صعباً على فريد أن يسترد أثمان مهرباته إلى مصر قطع سلاح. تجاوز الأمر هذه الحدود، فصـار يشـتري السـلاح والعتاد من الجنود الانجليز أنفسهم، ويقبض من فرحان لقاءها السعر الذي يحدده دونما سؤال أو فصيلة أو تأخير.

مع هذا. ظلت الصـفقات محـدودة، نظـراً لنـدرة البائعين. حتى في أوقات السلم، يظل الطلب علـى السـلاح أكبر بكثير من الـمعروضات. هذا يجعل أقدم القطع تبـاع



بسعر أحدثها. ولم يكن فرحان يبالي، طالما أن قوة السلاح لا تعتمد على حداثته، وإنما على الزند الذي يحمله.

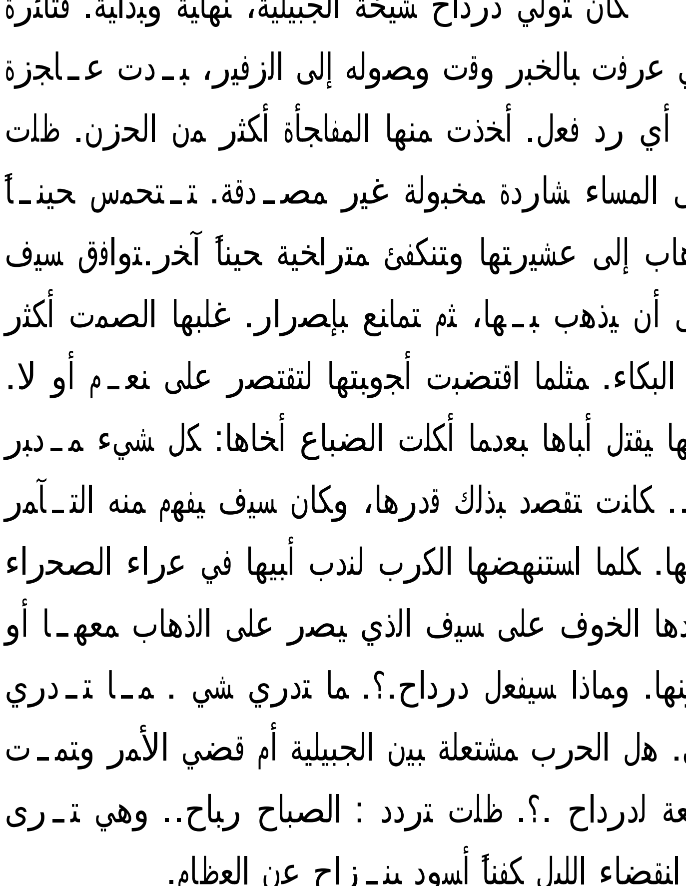
- يا أبو مرزوق. هادا الحكي كان زمان. هـلأ السلاح ما بدوه زند. صار كل شي فيه أتوماتيك.

- ويش اسوي، هاظا الموجود. يعني مـا ودك اياه؟.

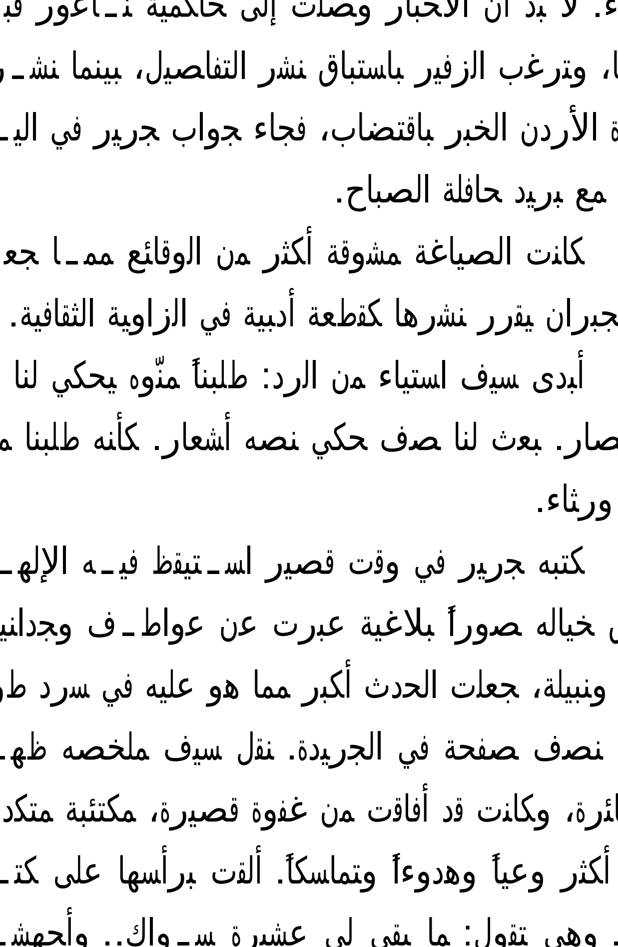
- كيف ما بدي. كل السلاح مليح. بس يا ريـت تشتري لنا سلاح حديث رشاشات إذا بتقدر، إحنا مسـتعدين ندفع حقها قد ما يكون .

- ما هو المشكل مصاري يا بـو لقـاء. هاظـا الموجود. إن وقعت إيدي على رشاشات يكونوا عنـدك فـي يعبد بنفس النهار.

٤٩



كان تولي درداح شيخة الجبيلية، نهاية وبداية. فثائرة التي عرفت بالخبر وقت وصوله إلى الزفير، بـدت عـاجزة عن أي رد فعل. أخذت منها المفاجأة أكثر من الحزن. ظلت حتى المساء شاردة مخبولة غير مصـدقة. تـتحمس حينـاً للذهاب إلى عشيرتها وتنكفئ متراخية حيناً آخر.توافق سيف على أن يذهب بـها، ثم تمانع بإصرار. غلبها الصمت أكثر من البكاء. مثلما اقتضبت أجوبتها لتقتصر على نعـم أو لا. عمها يقتل أباها بعدما أكلت الضباع أخاها: كل شيء مـدبر لينا.. كانت تقصد بذلك قدرها، وكان سيف يفهم منه التـآمر عليها. كلما استنهضها الكرب لندب أبيها في عراء الصحراء أقعدها الخوف على سيف الذي يصر على الذهاب معهـا أو بدونها. وماذا سيفعل درداح.؟. ما تدري شي . مـا تـدري شي. هل الحرب مشتعلة بين الجبيلية أم قضي الأمر وتمـت البيعة لدرداح .؟. ظلت تردد : الصباح رباح.. وهي تـرى في انقضاء الليل كفناً أسود ينـزاح عن العظام.

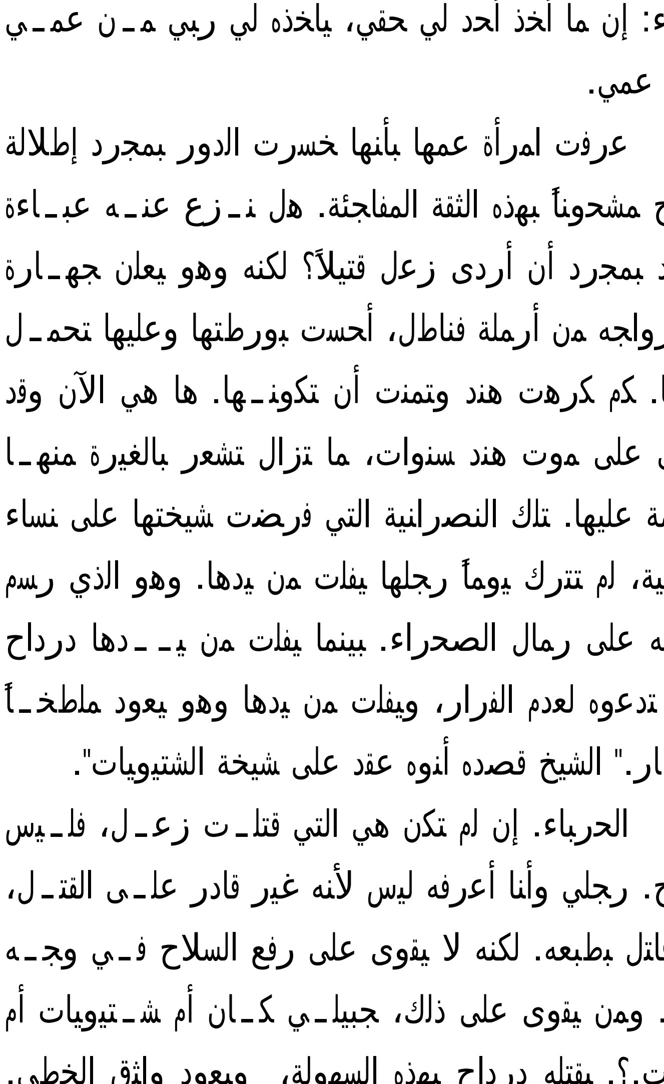


من غير مشورتها، طلب سيف من أبي جبران أن يبرق لجرير مستفسراً عن الأحداث وما تلاها من دون وعزاء. لا بد أن الأخبار وصلت إلى حاكمية ناعور قبل سواها، وترغب الزفير باستباق نشر التفاصيل، بينما نشرت جريدة الأردن الخبر باقتضاب، فجاء جواب جرير في اليوم التالي مع بريد حافلة الصباح.

كانت الصياغة مشوقة أكثر من الوقائع مما جعل أبا جبران يقرر نشرها كقطعة أدبية في الزاوية الثقافية.

أبدى سيف استياء من الرد: طلبناً منّوه يحكي لنا عن اللي صار. بعث لنا صف حكي نصه أشعار. كأنه طلبنا منّوه تأبين ورثاء.

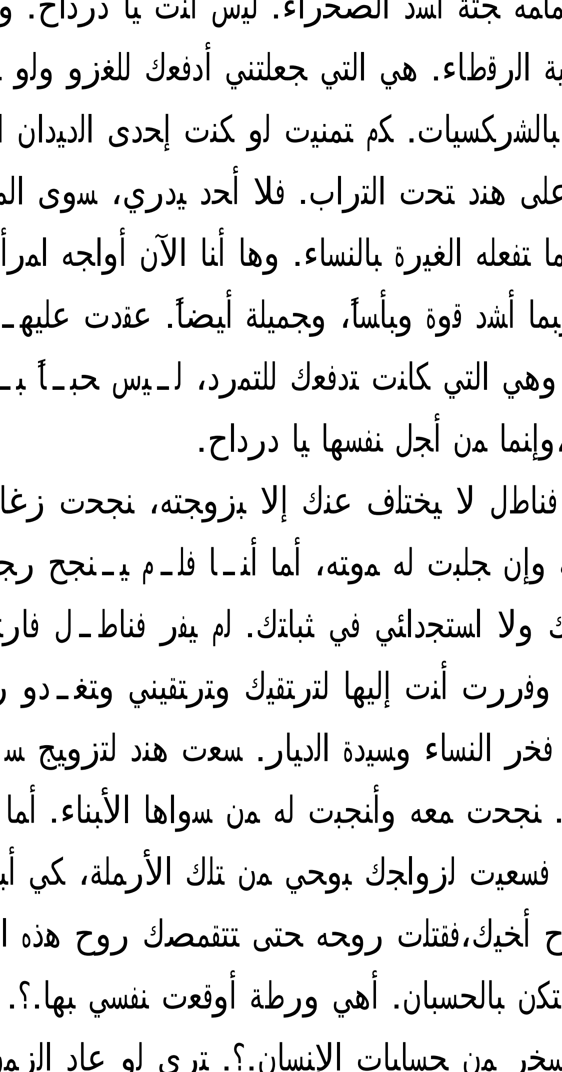
كتبه جرير في وقت قصير استيقظ فيه الإلهام، فأغدق خياله صوراً بلاغية عبرت عن عواطف وجدانية رقيقة ونبيلة، جعلت الحدث أكبر مما هو عليه في سرد طويل غطى نصف صفحة في الجريدة. نقل سيف ملخصه ظهراً إلى ثائرة، وكانت قد أفاقت من غفوة قصيرة، مكتئبة متكدرة، لكنها أكثر وعياً وهدوءاً وتماسكاً. ألقت برأسها على كتف سيف. وهي تقول: ما بقي لي عشيرة سواك.. وأجهشت



بالبكاء: إن ما أخذ أحد لي حقي، ياخذه لي ربي من عمي ومرة عمي.

عرفت امرأة عمها بأنها خسرت الدور بمجرد إطلالة درداح مشحوناً بهذه الثقة المفاجئة. هل نزع عنه عباءة التردد بمجرد أن أردى زعل قتيلاً؟ لكنه وهو يعلن جهارة عن زواجه من أرملة فناطل، أحست بورطتها وعليها تحمل تبعتها. كم كرهت هند وتمنت أن تكونها. ها هي الآن وقد مضى على موت هند سنوات، ما تزال تشعر بالغيرة منها والنقمة عليها. تلك النصرانية التي فرضت شيختها على نساء الجبيلية، لم تترك يوماً رجلها يفلت من يدها. وهو الذي رسم عتيه على رمال الصحراء. بينما يفلت من يدها درداح وهي تدعوه لعدم الفرار، ويفلت من يدها وهو يعود ملطخاً بالعار." الشيخ قصده أنوه عقد على شيخة الشتيويات".

الحرباء. إن لم تكن هي التي قتلت زعل، فليس درداح. رجلي وأنا أعرفه ليس لأنه غير قادر على القتل، فهو قاتل بطبعه. لكنه لا يقوى على رفع السلاح في وجه زعل. ومن يقوى على ذلك، جبيلي كان أم شتيويات أم لطيفات.؟. يقتله درداح بهذه السهولة، ويعود واثق الخطى.



يسوق أمامه جثة أسد الصحراء. ليس أنت يا درداح. وإنمـا هي الحية الرقطاء. هي التي جعلتني أدفعك للغزو ولو بفرش طريقك بالشركسيات. كم تمنيت لو كنت إحدى الديدان التـي اقتاتت على هند تحت التراب. فلا أحد يدري، سوى المـرأة نفسها، ما تفعله الغيرة بالنساء. وها أنا الآن أواجه امرأة مثل هند وربما أشد قوة وبأساً، وجميلة أيضاً. عقدت عليهـا يـا درداح، وهي التي كانت تدفعك للتمرد، لـيس حبـاً بـك أو بزوجها،وإنما من أجل نفسها يا درداح.

فناطل لا يختلف عنك إلا بزوجته، نجحت زغاريدها في ثباته وإن جلبت له موته، أما أنـا فلـم يـنجح رجـائي باستبقائك ولا استجدائي في ثباتك. لم يفر فناطـل فارتقـت زوجته، وفررت أنت إليها لترتقيك وترتقيني وتغـدو رغـم الجميع، فخر النساء وسيدة الديار. سعت هند لتزويج سـيدها بإرادتها. نجحت معه وأنجبت له من سواها الأبناء. أما أنا أم أولادك، فسعيت لزواجك بوحي من تلك الأرملة، كي أبعـث فيك روح أخيك،فقتلت روحه حتى تتقمصك روح هذه الأفعى التي لم تكن بالحسبان. أهي ورطة أوقعت نفسي بها.؟. أم أن الدهر يسخر من حسابات الإنسان.؟. ترى لو عاد الزمن إلى

الوراء وتغير فيه مجرى الأحداث، من ستقوى على الأخرى. بنت اللطيفات أما بنت الشتيويات.

- اسمع يا درداح، ما تظن الشيخة مضافة وقهوة وربابة وقصايد وتعاليل. الشيخة بارودة ماتدوش إلا بصـلية بارود.

- ويش قصدك.؟.

- قصدي تدوش أكم راس قبل ما يندوش راسك بالسواليف. وإن كانت بارودة زعل ما تستنى. زعل مـات. وإنت اللي قلت، بارودتك بالدم تتحلى.

- والحكومة؟.

- ويش بيها.؟.

- مليح اللي ما صار أخذ وعطا بمقتل زعل.

- إنت قلتها. هاظا زعل المصيت بين العربان. ويـش وده يصير لـو كـان القتيل جربوع والا مقطوع.

- ودك إياني أقتل الجرابيع والمقاطيع!.

- لويش ضل بعد زعل غيرك شيخ ولد شيخ يا درداح.؟.

بعد أسبوع، قتل ولدي زعل في أحراج الكورة التـي التجأا إليها ليلة مقتل أبيهما. وكان درداح وقتها في ضـيافة الحويطات جنوب معان.

طغت قصة مقتلهما على قصة أبيهما. ولاسـيما أن درداح قال لرجاله بأنه سيكافىء من يعلمه باسم القاتل. ثأره لولدي أخيه لن ينام، ولو بعد مئـة عـام. أدرك الجميـع أن المكافأة ستكون صلية نار، فانغلقت على التساؤلات الصدور وذوت فيها أسطورة زعل التي انتقل في ختامها الدور إلـى درداح.

لم يأت جلوب هذه المرة للتعزية بالشابين اللذين دفنا في ديار أخوالهما في الشمال. حتى الخال في عرف البـدوي لا دور له في اللعبة إذا كان أطرافها الأعمام.

لكن جلوب الذي تتوارد إليه أخبار القبائل بتفاصيلها الدقيقة، أدرك مثل الكثيرين أن القاتل هـو درداح ، فـانتظر الفرصة لإطفاء شعلة اتقاده المفاجئة بالحلم الذي تعلمه مـن الشيوخ، لكن بطريقة انجليزية تمد الجزرة وتلوح بالعصـا. وإلا لن يطفئ اشتعال درداح مياه سيل عمان. فإذا مـا قـام الميت من قبره، فإنه سيثير الفزع أكثر من أعتى الأحيـاء.

لهذا كان على جلوب أن يتحرك سريعاً قبل أن تفتح صفحات الحكاية القديمة ، التي أبقت زعل مرعباً مرهوباً رغم تقاعده الطويل وتحوله إلى مجرد ظل دون هيأة، ووثن دون فعـلٍ، وشبحٍ دون إرادة.لن ينتظر أن يقتدي درداح بأخيه ليصـبح أسطورة تروى عنه الحكايات، قبل أن تقعده صـدمة مثـل صدمة زعل. فجلوب أولاً ليس لديه صبر البدو لهذا يجب أن يعود نفسه عليه. فالصحراء من دون الصبر وطول الـنفس تخنق الأنفاس. مثلما صار يعود نفسه على الحلم الذي مـن دونه لا يسترد من البدو ديونه وهذا يطيل أمـد اخضـاعهم، بمثل ما ينأى أيضاً عن الاستعجال. كان يظن بأن روايته عن شجرة البلوط ستقصر الطريق إذا ما أوحـى لـدرداح بأنـه متيقن من غدره بأخيه. لكنه جعل من نفسـه سـخرية أمـام الرجال، وهو الذي كان مهيوباً مـع أخيـه الـذي ترهبـه الصحراء. لن تتكرر قصة الـمهيرية أو المهداوية. كما لـن يتكرر وقوعه بمصيدة المعتمد البريطاني أو سواه. بالصـبر والحلم سيخضع القبائـل الأردنيـة، لكـن علـى الطريقـة الانجليزية. سيمد لهم الجزرة دائماً وهو يلوح بعصاه. نجـح أسلوبه هذا مع عشائر العراق، وسيكون مع خبرته الطويلـة

أكثر نجاعة مع عشائر شرق الأردن التي تتوالد المخاطر في داخلها، بمثل ما تطبق عليها من خارجها. واتته الفرصة عندما هاتفه المعتمد الفرنسي مستفسراً عن ثلاثة حورانيين من درعا عبروا الحدود بعربة دبغة للمتاجرة مع عشائر البلقاء في موسم الربيع، حيث تتوالد الخراف وتكثر الذبائح وما ينتج عنها من فروات وجلود. مضى على غياب الحوارنة أسبوعين، بينما في العادة لا يغيبون أكثر من يومين. ويريد صاحبهم وهو إقطاعي حوراني استرداد دبغته بمثل ما يريد معرفة مصير رجاله.

هذه المرة لم يدفع جلوب هجانته أو قوته السيارة للتقصي، مثلما فعل مراراً في مسائل أكثر أهمية. فاتصال المعتمد الفرنسي به يدل على أهمية صاحب الدبغة. كما أن فتح باب التعاون مع الفرنسيين ضروري لمطاردة المهربين اللصوص وعصابات الثوار التي لا يستطيع أحد أن يتنبأ بتشكيلاتها وأهدافها. الأهم هيبته الشخصية التي يجب أن لا يشوبها شائبه منذ قصة المهيرية.

طلب من المعتمد أوصافاً كاملة للعربة والحمولة والرجال. أنه لا يستطيع البحث عن إبرة في كومة قش،

فكيف إذا كانت في إهرامات من القش تـتناثر في البلقـاء. قال له المعتمد، إن زبون رجله المعتاد هو زعـل الجبيلـي، فأخبره جلوب أن زعل قد مات. وربما عرف الناقلون ذلك، فباعوا حمولتهم لآخرين واختفوا بالنقود فـي عمـان. مـن الأفضل أن يأتي إليه صاحب الدبغة بنفسه. وكـان جلـوب يتطلع إلى لقاء هذا الرجل الـذي اهتم المعتمد الفرنسي بنفسه في شكواه. فلا الرجل أتى ولا المعتمد عـاود الاتصـال. فتحركت الهواجس في صدر جلوب، ماذا تعني شحنة دبغة لا تساوي أكثر من بضعة جنيهات.؟. إذا كان صاحبها حريصاً على قروشه إلى هذه الدرجة ولا يريد أن يأتي إلى عمـان، يمكنه أن يبرق لـه بأوصاف الرجال أو أسمائهم أو أي شيء عنهم أو يرسل من طرفه شخصاً يعرفهم ويعرف عليهم.

في تقصيه من رجال الحدود، أكـدوا لـه مـرور عربة دبغة وفيها رجلين لا ثلاثة. راوغ موظـف الجمـارك عندما سأله جلوب إن كان قد فتش العربة ، وهل تمر عربـة من غير تفتيش.

أعـاد جلـوب السـؤال بنبـرة حازمـة، فتلعـثم الـجمركي بالجواب: لا نستطيع أن نفتش كل الحمولـة يـا

بيك. يلزمنـا جـيش لتفتـيش القطـارات والحـافلات والسيارات والعربات. ناهيك عن البهائم وأمتعة الركاب.

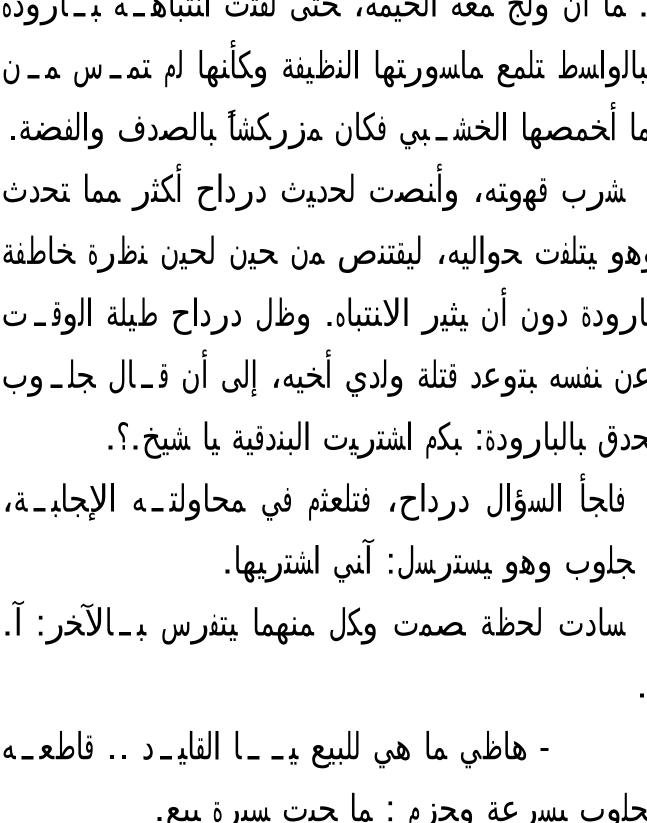
ذلك المساء، أصر جلوب على المعتمـد البريطـاني تعزيز نقاط الحدود الجمركية مع سوريا والعراق. إنه متيقن من وجود عمليات تهريب للسلاح. ولربمـا كـان بعضـها بمعرفة الفرنسيين.

- لماذا..؟. سأل المعتمد.

- ألا تعتقد أن لديهم موالين في شـرق الأردن؟ ألا تعتقد أنهم يسعون لخلق موالين؟. ألم تفعلوا الشيء نفسـه وكنتم تغضون الطرف عن تهريب السلاح إلى جبل الدروز؟.

لم تعد مشكلة اختفاء الحوارنة بالنسبة إلية ذات قيمة. ولا حمولتهم من الدبغة التي اختفت بين ثناياها قطع السلاح. تغيرت زعامة الجبيلية، وعليه أن يغير أسلوب تعامله معهم. إذا ولى عهد زعل، فهذا لا يعني انتقاله إلـى درداح. هـذا العهد عهد جلوب.

اتجه إلى مضارب الجبيلية، فاستقبلوه كالعادة بحرارة وترحاب، مثلما استقبلت عيون الفتيات رجاله بافتتان.



صافح مضيفيه الذين اصطفوا أمام المضافة، وعانق درداح. ما أن ولج معه الخيمة، حتى لفتت انتباهـه بـارودة معلقة بالواسط تلمع ماسورتها النظيفة وكأنها لم تمـس مـن قبل، أما أخمصها الخشـبي فكان مزركشاً بالصدف والفضة.

شرب قهوته، وأنصت لحديث درداح أكثر مما تحدث إليه، وهو يتلفت حواليه، ليقتنص من حين لحين نظرة خاطفة إلى البارودة دون أن يثير الانتباه. وظل درداح طيلة الوقـت يدافع عن نفسه بتوعد قتلة ولدي أخيه، إلى أن قـال جلـوب وهو يحدق بالبارودة: بكم اشتريت البندقية يا شيخ.؟.

فاجأ السؤال درداح، فتلعثم في محاولتـه الإجابـة، ليسعفه جلوب وهو يسترسل: آني اشتريها.

سادت لحظة صمت وكل منهما يتفرس بـالآخر: آ. بكم ؟..

- هاظي ما هي للبيع يـ ـا القايـد .. قاطعـه جلوب بسرعة وحزم : ما جبت سيرة بيع.

قلت اشتري. بكم.؟.. قالها بنبرة آمـرة اهتـز لهـا درداح، فقال بارتباك: ما هو انت يا القايد ما خليتني أوفـي. قصدي البندقية جاتني هدية والـهدية ما تنباع. بس تنهدى يا القايد. أهديها ليك وانا مسرور.

- مين أهداك اياها يا شيخ.؟.

- صديق وفي. مر بالديرة من كم يوم وسهل ا امره. يمكن هالحين صار بأرض ابن سعود.

- ان كانت هدية عزيزة عليك. انا ما اقبل.

- ما يعز عليك شي يا القايد. وانـا اعطيـت كلمتي. البندقية هدية والنبي قبل الهدية.

- بس ما ني نبي يا شيخ. وان تريـدني اقبـل هديتك، اقبلها بشرط.

- شرطك مقبول يا كبير.

- معاش من الحكومة، يندفع ليك كـل شـهر، وتنفقه مثل ما تريد. بس ما يكون بعد غزو ولا حروب.

تجلت ذات درداح. صحيح انه احتل الشيخة منذ مقتل زعل، إلا أن روح أبيه لم تنبعث فيه إلا الآن. فتخيل صـرر الذهب تعود إليه، بعدما أوقفت عن الجبيلية منذ زمن بعيـد:

من زمان الغزو ولى يالقايد، ولويش الحرب إن كـان لينـا حكومة تحارب عنا، وإنت قايدها يالقايد.

- السلم اسلم ليك ولينا يا شيخ، ترى القتل يخلينا نجري ورا القاتل، والقاتل مثل ما هو معلوم مصيره معلوم.

الفصل الثاني

١

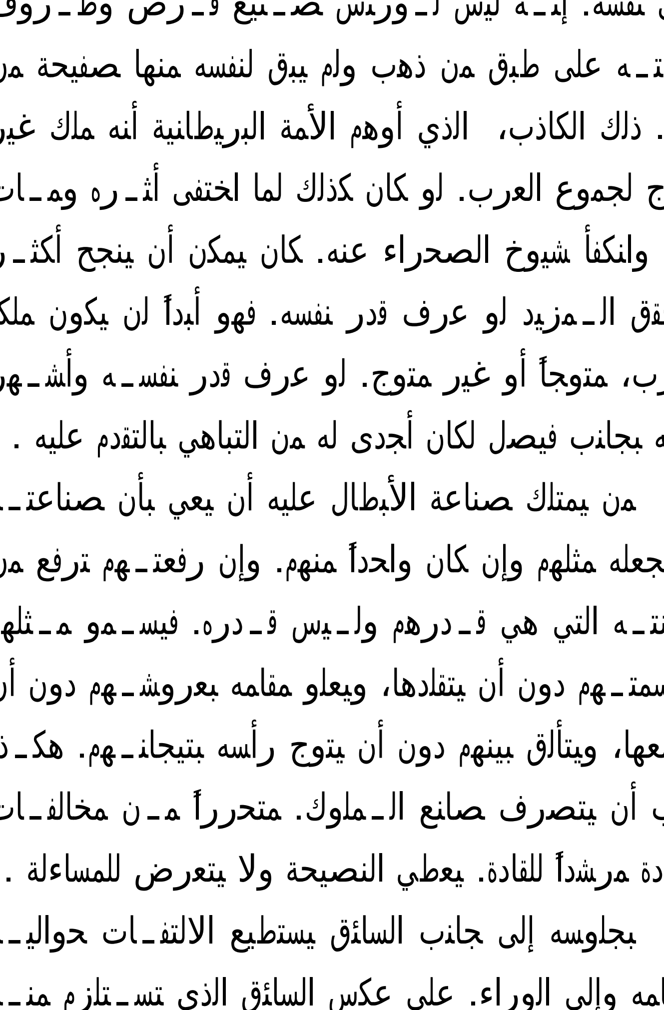
في خريف ١٩٣٣، أعلن عن موت فيصل بالسكتة القلبية في مدينة بيرن. سكت قلبه، لتسكت معه أصوات العديدين ممن اعتبروه رمزاً لوحدة البلاد السورية.

مات فيصل بعد أن أمسك بزمام الأمور في العراق وحاز على اعتراف عصبة الأمم بدولته، فاستحق العراق الاستقلال وانتهت سلطة الانتداب، إلا أن الوجود العسكري الانجليزي ظل قائماً في قواعد متفرقة في العراق، ولاسيما الشمال.

أحس جلوب بالغبن وانتابته مشاعر الخذلان، فلازمته الكآبة أياماً طويلة، جعلت الكثيرين من مقربيه يربطون بين حالته وهذه الوفاة المفاجئة لملك عمل تحت مظلته وقتاً ليس قصيراً. اقترب تفسيرهم من الحقيقة، وإن كان الدافع لاكتئابه مختلفاً عما هيىء لهم، فليس الحزن على موت فيصل كان وراء شعوره بالأسى والخذلان، وإنما خروجه من العراق. لو لم تأخذه العزة بالنفس وتصرف بعقلانية ورؤية مستقبلية لرفض القدوم إلى هذه البادية التي يسمونها شرق

الأردن والتي لم تأخذ بعد صفة قانونية دولية. لو عـرف أن فيصل سيموت باكراً، لعمل جهده في سـبيل أن يبقـى فـي العراق. هناك النفط والـمدن والعمـران. وهنـاك أيضـاً الوريث الذي نودي به ملكاً بعد أبيه وهو أبعد ما يكون عـن السياسة والدهاء. لو أنه ما يزال هنـاك، لقطـع عشـرات الخطوات وربما الـمئات في كل قفزة إلى الأمام. لكنه ظن بأن الفرص باتت معدومة مع فيصل الـ ـمعروف بالحكمـة والـمقدرة والدهاء. فجاء مغتبطاً إلى شرق الأردن علّ نجمه يسطع في بواديها وبين قبائلها التي لها الكلمة الفصـل فـي التقدم أو التخلف أو الفوضى أو الاستقرار. لا أحد ينكر عليه نجاحه، لكن إلى أين سيصل في بادية مترامية الأطراف قليلة السكان ناضبة الـموارد متقلبة الأحوال كثيرة الأهوال. كـل مناطق الجوار صارت دولاً أو دويـلات، ولـو فـي ظـل الانتداب. حتى الحكومة البريطانية حائرة بين إلحـاق هـذه الإمارة بفلسطين، أو ضمها إلى من يجاورهـا أو توزيعهـا عليهم. لكنه لماذا يفكر بهذا الأمر الآن؟. إنه عسكري ويجب أن يتقبل تغيرات السياسة بغير اكتراث. لم يحس بالندم على ترك العراق بعدما ترك فيصل الدنيا واستدعتـ ـه السـماء؟

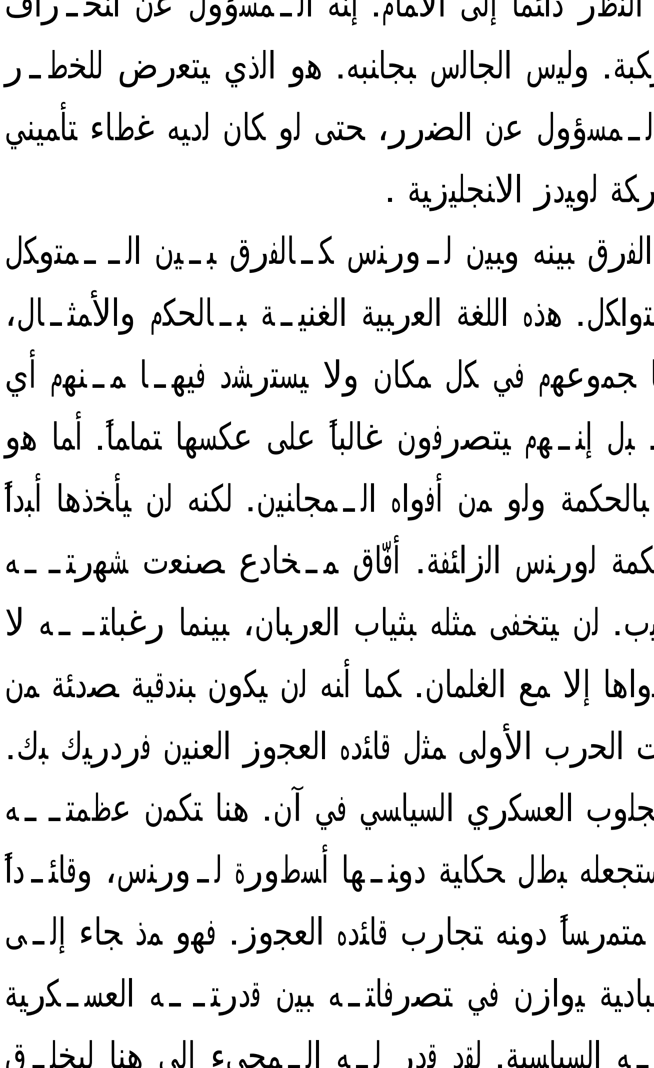
يكفي أنه أبلى بلاء حسناً هناك. وها هو فـي شـرق الأردن يتجاوز في نجاحاتـه قائده بك الذي ألقاه زعل يومـاً فـي مراح الدواب. فرض رهبتـه على القبائل أيام زعل، ليزداد رهبة بعد رحيله. كل أهالي شـرق الأردن يحسـبون لـه الحساب أكثر من قائده بك والـمقيم البريطاني في عمـان. أوامره نافذة بين رجاله أكثر من أوامـر الأميـر والفريـق ورئيس الحكومة وقاضي القضاة. رجاله يرهبهم السكان أكثر من الفيلق العربي الذي انسحبت ارتاله إلى ما وراء النهـر. وغدا الـمسكين بك قائد فيلق لا يمتلك من مقومات الجـيش إلا الـمعونات التي يتحكم بها مقيم محكوم لأصحاب الياقات الـمترهلين في لندن، فلم ينـدم إذن علـى الخـروج مـن العراق؟. وحول الوريث الغشيم عتاة أمثال أنور ورشيد وبكر وياسين؟. هل سيغدو الرجل الأول هنـاك ومنافسـوه مـن الجنرالات البريطانيين يهيمنون على الساسة العراقيين؟. مـا يزال أمامه الكثير في شرق الأردن التي ربما ينتظرها الكثير أيضاً. فالفرنسيون يلجـأون إليـه لمطـاردة الـ ـمتسللين، والـمندوب السامي يهاتفه شخصياً من فلسطين، ويؤخذ رأيه في كل لقاء مع العراقيين. له القول الفصل في رسم الحـدود



مع الآخرين، فلم يشعر بالندم على ما يظنه فرصة أضاعها على نفسه. إنه ليس لورنس صنيع فرص وظروف جاءته على طبق من ذهب ولم يبق لنفسه منها صفيحة من تنك. ذلك الكاذب، الذي أوهم الأمة البريطانية أنه ملك غير متوج لجموع العرب. لو كان كذلك لما اختفى أثره ومات ظله وانكفأ شيوخ الصحراء عنه. كان يمكن أن ينجح أكثر ويحقق المزيد لو عرف قدر نفسه. فهو أبداً لن يكون ملكاً للعرب، متوجاً أو غير متوج. لو عرف قدر نفسه وأشهر سيفه بجانب فيصل لكان أجدى له من التباهي بالتقدم عليه .

من يمتلك صناعة الأبطال عليه أن يعي بأن صناعته لا تجعله مثلهم وإن كان واحداً منهم. وإن رفعتهم ترفع من مكانته التي هي قدرهم وليس قدره. فيسمو مثلهم بأوسمتهم دون أن يتقلدها، ويعلو مقامه بعروشهم دون أن يتربعها، ويتألق بينهم دون أن يتوج رأسه بتيجانهم. هكذا يجب أن يتصرف صانع الملوك. متحرراً من مخالفات القيادة مرشداً للقادة. يعطي النصيحة ولا يتعرض للمساءلة .

بجلوسه إلى جانب السائق يستطيع الالتفات حواليه وأمامه وإلى الوراء. على عكس السائق الذي تستلزم منه



القيادة النظر دائماً إلى الأمام. إنه المسؤول عن انحراف المركبة. وليس الجالس بجانبه. هو الذي يتعرض للخطر وهو المسؤول عن الضرر، حتى لو كان لديه غطاء تأميني من شركة لويدز الانجليزية .

الفرق بينه وبين لورنس كالفرق بين المتوكل والمتواكل. هذه اللغة العربية الغنية بالحكم والأمثال، تنطقها جموعهم في كل مكان ولا يسترشد فيها منهم أي إنسان. بل إنهم يتصرفون غالباً على عكسها تماماً. أما هو فيأخذ بالحكمة ولو من أفواه المجانين. لكنه لن يأخذها أبداً من حكمة لورنس الزائفة. أفّاق مخادع صنعت شهرته الأكاذيب. لن يتخفى مثله بثياب العربان، بينما رغباته لا تجد هواها إلا مع الغلمان. كما أنه لن يكون بندقية صدئة من مخلفات الحرب الأولى مثل قائده العجوز العنين فردريك بك. إنه جلوب العسكري السياسي في آن. هنا تكمن عظمته التي ستجعله بطل حكاية دونها أسطورة لورنس، وقائداً حربياً متمرساً دونه تجارب قائده العجوز. فهو مذ جاء إلى هذه البادية يوازن في تصرفاته بين قدرته العسكرية ورؤيته السياسية. لقد قدر له المجيء إلى هنا ليخلق

فرصتـه بنفسه وينميها وينمو معها. فالنجاحات التي حققهـا لن تلهيه عن استراتيجيتـ ـه. طالـ ـما لـيس لديـه مـن استراتيجية سوى جلوب نفسه. لهذا عليه أن يستفيد من كل ما يجري في هذه الديار وما يـجاورها من ديار. هـذا إذا أراد أن يضع دمغتـه في صفحات التاريخ الانجليـزي، دون أن يتعرض إلى التجريح والتقريح والتكذيب كما أصاب لورنس الـمسكين. يجب أن يكون موت فيصل بداية وليس ندامـة. كل حادث غير عادي يجب ان يتعامل معه بطريقة عاديـة. فالظروف لا يصنعها العظام، وإنما الطبيعة. عليه كعظيم أن يتصرف بالألوان الـمتاحة للحصول على اللون الـ ـمراد. أصل الألوان ثلاثة وإن عكست اللوحة مئات الألوان. فالأمير ما يزال حالـماً بعرش العراق. عليه أن يستيقظ الآن بعـدما تولى غازي الـملك هناك. على الأمير أن يصنع لـه حلمـاً جديداً . حلماً يخيف الفرنسيين الذين أراحهم موت فيصل من انتقامه إذا ما اشتعل النفط في شرايينه وامتـد لهيبـه إلـى ميسلون. حلم يخيف البريطانيـين من وحدة جغرافية تسـقط نبؤة اللنبي الذي جعله الغرور يتباهى بـأن حملتـ ـه آخـر حملـة صليبـية . حلم يوقظ في الأمير طموحه الكبير الذي

تحول إلى إحباط عميق. لم يخرج عبد ا طلباً للأمارة وإنما انتقاماً من فعلة الفرنسيين بأخيه، وفي ذهنه أنه بويـع ملكـاً على العراق، فإذا به سجين دار لم تكتمل البناء. إنـه يعـي تماماً ما يدور في خلد عبد ا وإن كتم الأمر وأخفاه، خشية أن يلاقي مصير فيصل في ميسلون. فعبد ا يمكن ان يذعن لبريطانيا في كل شيء، إلا تسليم أحرار سوريا للفرنسـيين. ليس حباً بالوطنيين، وإنما للاعتماد عليهم إذا ما جرت الرياح بما يشتهيه واعتلى عرش سوريا. لهذا يجمع فـي إدارتـه الحكومية صفوة السياسين الشاميين واللبنانيين والفلسـطينيين والشرق أردنيـين. ذلـك مـا يـزعج الانجليـز ويـزعج الفرنسيـين. فلو لم يكن طموحه قائماً لما أقام حولـه هـذا السياج من الوطنيـين. لقد ذاع صيت لورنس لأنه تعايش مع حلم فيصل، فهل سيذيع صيتـه وهو يتعايش مع حلـم عبـد ا : كأنـهم يريدون منا يا سمو الأمير أن نكـون حراسـاً للحدود فحسب.

- أية حدود هذه، كلها ستـزول.
- لكنك تزعج سلطات الانتداب بتصريحك عـن سـوريا الكبرى.

- لماذا ينـزعجون، وهم يعرفـون أنـها أرض طبيعية توزعوها وعزلوها فـي حـدود مصطنعة لا تعبأ بها الشعوب.

- مع أن ذلك يزعجهم، إلا أني أشد على يدك يا سـمو الأمير. تستحق أن تكون ملكاً عليها، بعد تنازلك عن العراق لأخيك، لم تكترث لانتقال الـملك من بعده لابنه. على الانجليز أن يقدروا ذلك. بمثل ما تعتبرهم حلفاء لك، عليهم الاعتـراف بأنك حليفهم الوحيد.

- هل تحمسني أم تورطني يا جاوب.

- أبداً. أنا أعيد فقط ما قلتـه لي سـيدي، لكـن بطريقـة عسكرية. لا تنس أني جندي يا سمو الأمير.

٢

ارتفعت الأعلام السوداء في أرجاء بلاد الشام، وتوافد الألوف إلى حيفا لاستقبال الجثمان الذي سينتقل جواً إلى بغداد. وصل وزير العراق المفوض في لندن، كما وصل أنور باشا نائب رئيس الوزراء. كذلك رئيس المجلس الإسلامي الأعلى الحاج أمين، وقادة الأحزاب والمنظمات الفلسطينية.

ضاع سيف الحجاج بين الجماهير الغفيرة. بينما الجنود الانجليز يحولون دون تخاطف التابوت المحمول على أكتاف جنود بحرية إنجليز. استطاعت الحشود انتزاع التابوت وحمله نحو الطائرة المخصصة. واستقل المرافقون طائرة أخرى، حلقتا معاً في سماء حيفا وعلى جانبيهما سربين من طائرات حربية انجليزية رافقت الجثمان إلى الأجواء العراقية.

تواصلت المآتم والمناحات في بغداد طيلة أيام الحداد التي ابتدأت بالإعلان عن الوفاة وانتهت بعد أربعين يوماً من مواراة الجثة التراب. تخلل ذلك عشرات التأبينات

الجماهيرية في مختلف مناطق سوريا، قبل أن تختـتم بحفل تأبين قومي في بغداد، كان أقرب إلى الـمبايعة منـه إلـى الـمواساة. حضره العديـد مـن الزعمـاء الدبلوماسـيين والشعراء والأدباء، كما حضره ابن أمير شرق الأردن البكر:

أبو غازي قضى فأقيم غـازي

فأنطقنـا التـهانـي والتعـازي

عندما جاء دور الشاعر بشارة الخوري، لم يكن حظـه من تعليقات مقصود أقل منها في تأبين شوقي، رغم ما أحاط هذا الحفل من جلال ومهابة، فظل يردد في أذن جرير مـع التصفيق الـمتقاطع مع الإلقاء: بيتيت. بيتيت... ولـم يكـن جرير أقل تجريحاً بالشاعر: اسمع الـمتملق. جاي للتـأبين والا للمديح ؟!

قلت لك: بيتيت

لو رضيت العيـون كانت نطاقـاً

أو رضيت القلوب كانت تمائم

لـك فـي كل ذروة مـن فـؤاد

منبر فوقـه مصـلٍ وصائـم

أكثر ما أغاظ جرير أن عريف الحفل قـدم وظيفتـه على شاعريتـه، لاحظ الحضور استياءه هـو ينظـر إلـى العريف شزراً ويقدم نفسه قبل القاء قصيدتـه: لـم آت هنـا بصفتي حاكم منطقة ناعور، وإنما كشاعر عربي حورانـي، حرك الحزن قلبه على موت ملك جليل...

نالت تقدمتـه الإعجاب، مثلمـا رفعـت مـن قـدره مرثاتـه، التي من دون قصائد الآخـرين، بكـت الـملك الراحل دون أية إشارة للملك الجديد. كتبها ليلة وصوله إلـى بغداد.

فـي الغـوطة الـخضراء ومن أعالي قـاسيـون
فـي وادي عمـان ومـن بـيـروت الشجـون
فـي القـدس تحت الانتداب وخلف قضبان السجون
نـادى الـمنادي للـعراق تبدلـي يـا ميسلـون

اما سيف الحجاج، الذي أنيط به إلقاء كلمة فلسـطين، لعلاقتـه التاريخية بالـملك الراحل ومحاربتـه إلى جانبـه، فقد التقى أثناء الحفل بأنور الذي استقبله بحرارة لا تقل عمـا

أبداه سيف من حميمية رغم ما شاب علاقتـهما من فتور إثر الإعدامات. قال سيف مواسياً: مش مصدق إنوه مات.

- ومن قال إنوه مات؟.
- كيف مين قال؟.
- الـملك ما مات . بس مو هون.

حملق به سيف مأخوذاً، بينما رشحت عينا أنور وهو يضيف بشفتين مرتجفتيـن: فيصل في الشام. روح اسأل هناك، الكل يدلك عليه...

ابتدأ سيف كلمتـه بمحاورتـه مع أنور: عندما قلت بالأمس لأنور باشا إني لا أصدق موت فيصل، أجاب بأن فيصل لم يمت، إنه في الشام. اسأل عنه أي سوري، يدلك عليه في الحال... فدوت القاعة بالتصفيق، بعدما دغدغ قوله عواطف الجميع باستثناء عدد من عائلة الفقيد، ولاسيما الأمير عبد الإله، شقيق زوجة الـملك الجديد.

تضمن برنامج التأبين، رحلة جوية للقادة والزعماء والأدباء في الأجواء العراقية. حلقوا فيها بطائرات عسكرية

من نوع قلايد ستر، يتسع بعضها لراكبين وبعض تحمل ثلاثة.

أصر جرير على اصطحاب مقصود معه، رغم أن اسمه ليس مدرجاً بقائمة الضيوف، وكانت ثيابه الشركسية قد لفتت إليه الأنظار في صالة التأبين. لم يكن أمام منظمي الرحلة الجوية إلا الإذعان بعدما هدد جرير بأنه سيكتب في الجرائد الشرق أردنية كيف تم استقباله من قبل الجهات العراقية. فارتد قلب مقصود إلى الوراء يريد الاختباء خلف ظهره بمجرد أن تسارعت عجلات الطائرة على مدرج الـمطار وهو الذي كان يعتقد أنه بامتطائه مخلصاً يرعب الطائرات وقبلها السيارات .

ما أن أقلعت الطائرة حتى أحس بالـموت يقبض على أنفاسه. كز أسنانه وشد قبضتـه وارتد بكل ثقله إلى الوراء. بينما جرير ينظر بافتـتان إلى الأرض التي تتـهاوى بعيداً في الفضاء: شوف شوف.

- ولك شو أشوف؟
- اطّلع يا بني آدم تحت.
- ولك إنت مجنون، إنت بعرف وين رايح أنا وإنت؟

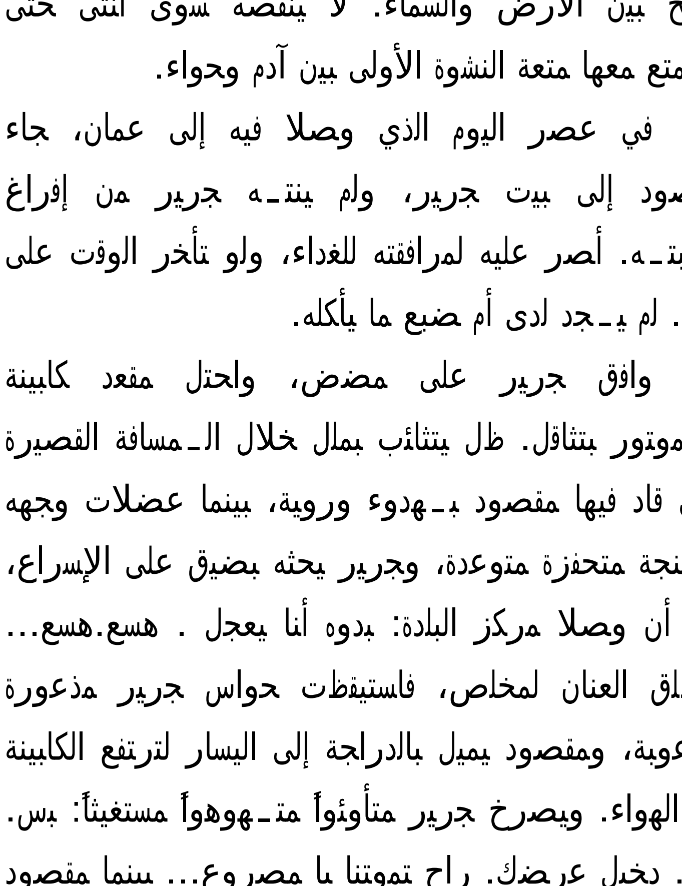
التفت إلى جرير والشرر يتطاير من عينيه، قبل أن يرفع سوادها للأعلى: يعني لازم يطلع أنا بإجري فوق.

- مالك خايف. شوف دجلة. شوف. اتطلع تحت.

- ولك ما بدوه أنا يتطلع ... قالها بسخط وهو يهم من لحظة لأخرى بالانقضاض على قائـد الطائـرة . لن يسمح لـه بالارتفاع. سيرغمه على الهبوط ولو بالسقوط. ما إن استقر جسم الطائرة باتجاه الجنوب، حتى تراجعت مخاوف مقصود قليلاً. لكنه ظل يرفض النظر إلى الأسفل : شوف.شوف.

- لا تخلي أنا يكفر. قلت ما بدوه أنا يتطلع٠ عمى يعميك.

انحرفت الطائرة شمالاً فمالت بجناحها الـمحاذي لمقصود. صرخ بأعلى صوتـه وقد أحس بالغثيان يتدفق من رأسه شلالاً: آخ آخ. ملعون أبوه إنت... وهو يميل معاكساً ليتعلق بجرير خوفاً من الانـزلاق، بينما الطّيار في قمة الانشراح. ولم يكن الراكب الآخر أقل رعباً وإن كبح جماح نفسه ولاذ بالصمت، بينما جرير يحس بنشوة الانعتاق وهو



يسبح بين الأرض والسماء. لا ينقصه سوى أنثى حتى يستمتع معها متعة النشوة الأولى بين آدم وحواء.

في عصر اليوم الذي وصلا فيه إلى عمان، جاء مقصود إلى بيت جرير، ولم ينتـه جرير من إفراغ حقيبتـه. أصر عليه لمرافقته للغداء، ولو تأخر الوقت على ذلك. لم يـجد لدى أم ضبع ما يأكله.

وافق جرير على مضض، واحتل مقعد كابينة الـموتور بتثاقل. ظل يتثاءب بملل خلال الـمسافة القصيرة التي قاد فيها مقصود بـهدوء وروية، بينما عضلات وجهه متشنجة متحفزة متوعدة، وجرير يحثه بضيق على الإسراع، إلى أن وصلا مركز البلدة: بدوه أنا يعجل . هسع.هسع... وأطلق العنان لمخاص، فاستيقظت حواس جرير مذعورة مرعوبة، ومقصود يميل بالدراجة إلى اليسار لترتفع الكابينة في الهواء. ويصرخ جرير متأوئواً متـهوهواً مستغيثاً: بس. بس. دخيل عرضك. راح تموتنا يا مصروع... بينما مقصود يعبر الشارع من اتجاه ليعود إليه معاكساً، دون أن يبالي بهروب الـموتور تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، أو بارتطام الكابينة بهذه البسطة أو تلك العربة، ولا بالتشائم أو

اللعنات التي أغدقها عليه أهل عمان: بدوه إنت يسوي بطل في طيارة. هون سوي بطل أشوف.... وضغط قدمه بكل ثقله، لترتفع العجلة الأمامية من شدة الهيجان، فغطى جرير وجهه براحتيه، بينما مقصود يصرخ مستغيثاً: واك كيف أوقف هادا. علّق بنـزين. بطّل موتوسكل يرد. إي إي إي. واك، واك، واك، آخ. سي بخا.

أكثر ما أذهل سيف في زيارتـه للعراق، تلك الرحلة الجوية. فقد حملتـه الطائرة مع فلسطيني آخر لاذ بالصمت طيلة الجولة فأثقل سيف على الطيار بالأسئلة التي ظن رفيقه أنه يستر بها مخاوفه: يا ريت يجي اليوم اللي ترمي قنابل طيارتك هاي فوق تل أبيب.

- ليش تل أبيب.

- حتى ما يظل فيها ولا يهودي... مالك سكت. سمعتني... فأعاد قوله بصوت أعلى: ما راح تنحسم معركتنا مع اليهود إلا بطياراتكم هاي. يسعد دينك يا أنور لو ترجعنا لفلسطين بـهاي الطيارات. خلينا نشوف كم يهودي راح يضل هناك.

ضحكت ثائرة من الأعماق، وضحكت زينات وحماتـها وكذلك التوأمتان، وهو يحكي لهن الذي صار وفي حضنه لقاء يداعبه ويشاكسه: طول الوقت أقول ليش الطيار ساكت ووجهه مقلوب، ومش عارف إني قاعد بحكي بالـمقلوب.

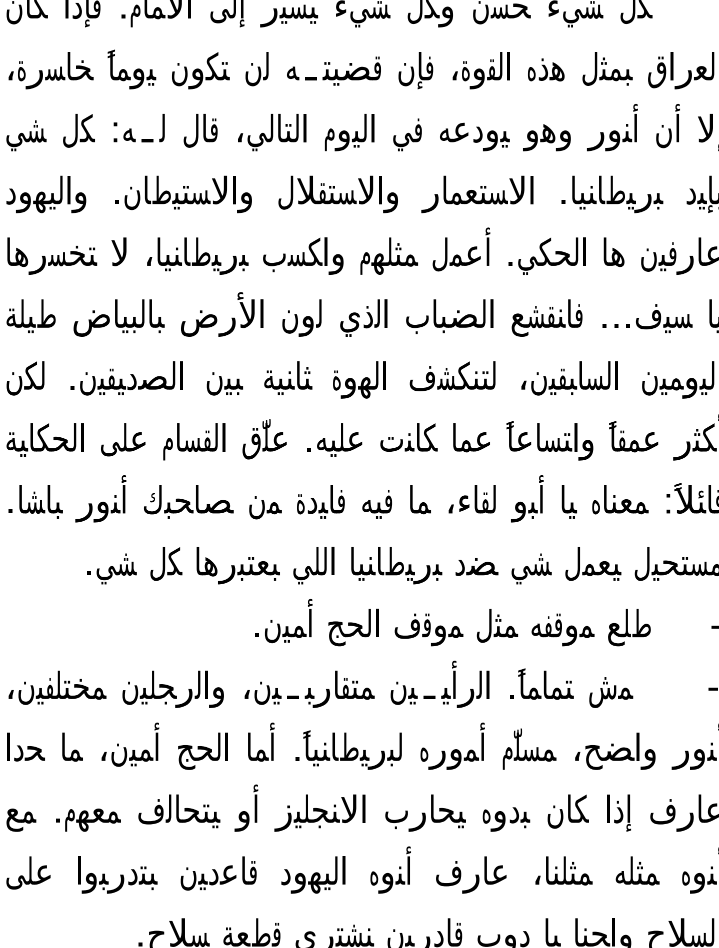
لم يكن أنور أقل انشراحاً وهو يضحك ملء شدقيه، بعدما روى له سيف الحادثة : وطلبت منوه يرمي تل أبيب بالقنابل.

- شو بعرفني أنا.

- حظك، طول عمرك محظوظ، كل الطيارين العراقيين عرب، إلا واحد عراقي يهودي، وطلع حظك تطير معاه.

كانت جلسة دافئة، أحس سيف خلالها أنه ما يزال وأنور صديقين، بعدمـا ظن منذ الاعدامات أنـهما صارا غريبين، واربما غريمين.

استنفرت سميحة الخدم والعساكر والجيران لإعداد هذه الوليمة التي أقامها أنور على شرف رفيق أخيها توفيق وشريكه في السلاح والجراح.



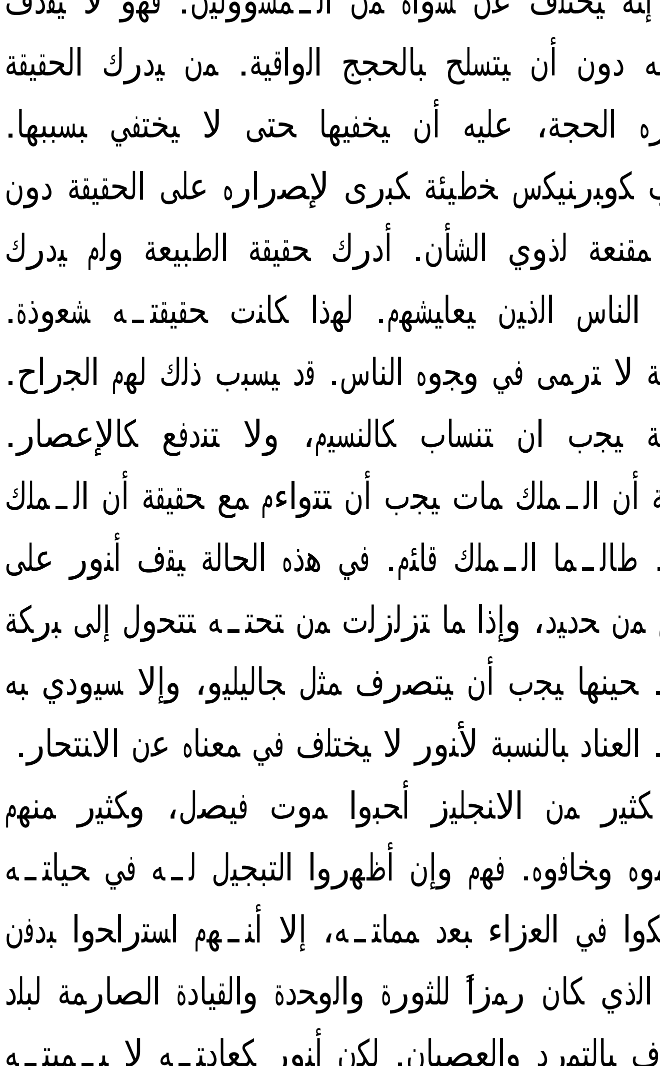
كل شيء حسن وكل شيء يسير إلى الأمام. فإذا كان العراق بمثل هذه القوة، فإن قضيتـه لن تكون يوماً خاسرة، إلا أن أنور وهو يودعه في اليوم التالي، قال لـه: كل شي بإيد بريطانيا. الاستعمار والاستقلال والاستيطان. واليهود عارفين ها الحكي. أعمل مثلهم واكسب بريطانيا، لا تخسرها يا سيف... فانقشع الضباب الذي لون الأرض بالبياض طيلة اليومين السابقين، لتنكشف الهوة ثانية بين الصديقين. لكن أكثر عمقاً واتساعاً عما كانت عليه. علّق القسام على الحكاية قائلاً: معناه يا أبو لقاء، ما فيه فايدة من صاحبك أنور باشا. مستحيل يعمل شي ضد بريطانيا اللي بعتبرها كل شي.

- طلع موقفه مثل موقف الحج أمين.

- مش تماماً. الرأيـين متقاربـين، والرجلين مختلفين، أنور واضح، مسلّم أموره لبريطانياً. أما الحج أمين، ما حدا عارف إذا كان بدوه يحارب الانجليز أو يتحالف معهم. مع أنوه مثله مثلنا، عارف أنوه اليهود قاعدين بتدربوا على السلاح واحنا يا دوب قادرين نشتري قطعة سلاح.

٣

قال لسميحة بأن حزن البلاد بأسرها على موت فيصل لا يعادل حزنه الشخصي ليلة الوفاة. لم يكن خائفاً على نفسه مثل بعض الـمقربين من الـملك الراحل، الذين يخشون أن يرحل مع رحيله نفوذهم وسلطتـهم. كما أنه ليس خادماً مثل أولئك الذين لفظتـهم مسيرة فيصل ويتمنون الآن الوصول إلى أمانيهم مع هذا الوريث الغض. إنه يعرف عن هؤلاء وأولئك أكثر مما يعرفون عن أنفسهم، سواء التقى بـهم أم لا. التاريخ حاشد بقصص الـمتقلبين، الذي ينجحون غالباً بالوصول على حساب مصير السلطان ومصلحة الأوطان. فالـمتقلبون دائماً يتقدمون الثابتـين. هذه بداهة تعرفها أصغر الرتب وأكبرها. حتى لو لم يقرأ أصحابها التاريخ. لكن هناك فارق بين التقدم بالتقلب والتقدم بالتكيف. وهو ما يجعله مقتنعاً بطبيعتـه القادرة على التكيف مع الأوضاع وليس التقلب معها. قد يسبقه الـمتقلبون في وراثة الحاضر، لكن بتكيفه الـمتجانس حسياً وفكرياً سوف يرث الـمستقبل.



إنه يختلف عن سواه من الـمسؤولين. فهو لا يقذف بحقائقه دون أن يتسلح بالحجج الواقية. من يدرك الحقيقة وتعوزه الحجة، عليه أن يخفيها حتى لا يختفي بسببها. ارتكب كوبرنيكس خطيئة كبرى لإصراره على الحقيقة دون حجة مقنعة لذوي الشأن. أدرك حقيقة الطبيعة ولم يدرك حقيقة الناس الذين يعايشهم. لهذا كانت حقيقتـه شعوذة. الحقيقة لا ترمى في وجوه الناس. قد يسبب ذلك لهم الجراح. الحقيقة يجب ان تنساب كالنسيم، ولا تندفع كالإعصار. فحقيقة أن الـملك مات يجب أن تتواءم مع حقيقة أن الـملك عاش. طالـما الـملك قائم. في هذه الحالة يقف أنور على أرض من حديد، وإذا ما تزلزلت من تحتـه تتحول إلى بركة رمال. حينها يجب أن يتصرف مثل جاليليو، وإلا سيودي به العناد. العناد بالنسبة لأنور لا يختلف في معناه عن الانتحار.

كثير من الانجليز أحبوا موت فيصل، وكثير منهم احترموه وخافوه. فهم وإن أظهروا التبجيل لـه في حياتـه وشاركوا في العزاء بعد مماتـه، إلا أنـهم استراحوا بدفن اسمه الذي كان رمزاً للثورة والوحدة والقيادة الصارمة لبلد معروف بالتمرد والعصيان. لكن أنور كعادتـه لا يـميتـه

الإخفاق، وإن يثقل عليه في لحظاتـه الأولى. ولا يأخذ النجاح بعقله، وإن استولى عليه في ذروة الفرح والغبطة، فيكبح جماحها في لقاءاتـه الرسمية، ولا يفضي إلا ببعضها في جلساتـه العائلية. كان يعتبر ذلك ضرورة لأسرتـه الصغيرة التي تعتبره أكبر حجماً مما هو عليه وأكبر قدراً وأكثر الساسة حنكة والعراقيـين عراقة. ولاسيما ابنه ماجد الذي يعتز به اعتزاز الأكراد بصلاح الدين.

لـولاه لـمـا أصبح ولي العهد غازي بطلاً شعبياً. كان وراء اندفاعه للفتك بالآثوريـين. هو الذي أقنع فيصل أن يولي الـمهمة إلى بكره الذي سيغدو ملكاً في يومٍ من الأيام. كان يظن أن هذا اليوم بعيد ولم يدر أنه يقف على عتبة الباب. ترى هل سيحفظ الـملك الجديد وفاء أنور القديم؟. لكنه لم يقل لسميحة أن تبصره بالأمور وإضاءاتـه لمسالك الطريق، إنما كانت تأتيه من أبناء العشيرة الـموزعين في كل مكان. مع أن طيفهم لا يغادره، إذا ما سألتـه كيف عرف عن ذلك الأمر وكيف ألـم بآخر. كان يرد ذلك لفطنتـه الفطرية وخبرتـه الحربية وحنكتـه السياسية. لتعرف عنه زوجتـه كل شيء، وليسمع ابنه

القصص التي يطربه سماعها، لكنهما لن يعرفا يوماً أنه استاذ محفل الرشيد الأعظم. لا يهمه من يتولى الجيش أو الحكومة، طالما لديه حرسه الخاص من أبناء العشيرة الماسونيين، الذين يصلونه بالأخبار العسكرية والمدنية وحالة الأقاليم في مختلف الأصقاع. وبامتداد نفوذه إلى محفل قريش في عمان، ومحفل نجمة سوريا في دمشق وبيروت، إضافة إلى المحافل الأوروبية التي تكن له الاحترام والوفاء، غدا أقوى من قادة الجيوش ورؤساء الوزارات. وسيظل أقوى منهم مهما تقلبت العروش وتغيرت الوزارات.

سيظل قوياً مهما اشتد حزنه على رحيل الملك الجليل. سيظل قوياً وإن غشي مسيرته ضباب الطريق. سواء أحرك هذا الضباب شاعريته وبعث فرحه، أو أصابه بالوحشة وأثقل عليه بالهموم. فسكرة الغرور أو كآبة القصور ليستا سوى لحظتين يتيمتين عاقرتين. لا جذور لها ولا فروع. إذ سرعان ما يستيقظ من نشوة الاعتزاز أو كابوس التردي، ليعيد تنسيق دماغه وفقاً لأولويات حياته، حسب ما تقتضيه ظروف الحال كي لا ينهدم البناء الذي شارك في إعماره طوبة طوبة بإشراف مهندسه الموهوب، فيصل

الـمرهوب . أما وقد مات، فهذا لن يوقف البناء حتى لو جيء بالـمهندس من بلاد الشام أو الحجاز أو قلب العراق. سيظل عراقياً أصيلاً سواء ارتدى زي العساكر الأتراك أو لباس ثوار الصحراء أو تـهندم بالبدلة الأوروبية الـمستوردة من أحدث دور الأزياء. إنه على يقين بأن الدفة ما تزال في يد الانجليز الذين لن يسمحوا لـه بالتمكن منها، لكنهم لن يجدوا ضيراً في اقترابه منها أو تلمسها. بهذه اللمسات يستطيع الانحراف بالـمركب ولو قليلاً عن مقصد الربان. وقليلاً بعد قليل سيصل وجهتـه التي يظن الربان أنها وجهتـه. هذا السياسة لعبها فيصل بحذق ومهارة فأوصلت العراق إلى عصبة الأمم ومكنتـه من الاستقلال. بهذه اللمسات يمكن استرجاع الأجزاء الـمبتورة من الوطن الأم، ابتداء من الكويت وانتهاء بعربستان. بهذه اللمسات تصبح الحدود بين العراق وشرق الأردن وهمية لتغدو المنطقتان دولة قوية. ليس لأن شرق الأردن تمتلك موارد طبيعية وقوة بشرية، بل لأنـها ستجعل للعراق عمقاً استراتيجياً يصله بالبحر الأحمر، مثلما تصله بالـمتوسط سوريا وفلسطين ولبنان. إنـه الهلال الخصيب الذي ما يزال

هاجساً يحرك مطامحه لتقهر وحدتـه الأحزان ويبدأ العرب الأمجاد. لكن باللمسات فقط. لمسة برضا الانجليز الذين يهيمنون على الدفة والـمجداف والشراع.هكذا كانت قناعاتـه وستظل كذلك. مثلما كانت هي نفسها قناعات فيصل وفيها تجلت حكمتـه "جرادة في اليد خير من عشرة طائرات". قال لسميحة بأنه يعرف قدره وقدره... فهو في الظل أكثر فاعلية منه في الضوء. رغم أنه مأخوذ بالسلطة والنفوذ. إنه عسكري فذ وسياسي محنك ورجل دولة موهوب. يستطيع أن يمارس سلطتـه كما يريد من خلال النصح والإرشاد. وما الضير في هذا ؟. إنه بذلك يلقي الـمسؤولية على سواه ويبقى بعيداً عن الـمساءلة والعقاب طالـما أنه لا يطمح إلى الثواب. كان على يقين من أن الـمنادين بوحدة سوريا والعراق كثر، لكنهم يظلون أفراداً مبعثرين، يتطلعون إلى هذا الشعار من خلال أعمدة الجرائد والـمحاضرات. حتى هذا الشاب أنطون سعاده الذي كشف الـماسونيون عن حزبه ومبادئه، يظل بلا حول ولا قوة، طالـما أنه خارج السلطة ويفتقر إلى جيش يتميز به أنور عن سواه في الأراضي السورية كافة.

لكن أنور لم يكن يدري أن في شرق الأردن رجلاً ينتـهج الـمبدأ نفسه، ويمتلك السلطة والسطوة، وإن تقدم عليه أنور بالتفكير والتبصر والطموح والانتماء. فجلوب يريد أن يحتل الدلتا، بينما يريد أنور التمكن من منارتـها. كانت وحدة سوريا الكبرى بالنسبة لجلوب شعاراً ليس لـه أبعاد. هلامي مثل إشاعة مستحيلة، لكنه يظل خير حيلة. لم يكن لدى جلوب سوى نفسه يحدثها بمطامحه ويبث لها الشكوى من مخاوفه. بينما أنور، ينأى عن صراعه النفسي بتلمس جسد الهلال الخصيب: لا ترتابي في . وا ما فيه غيرك بحياتي ، قدري وضعي يا سميحة. زادت مسؤولياتي من يوم مات الـملك...

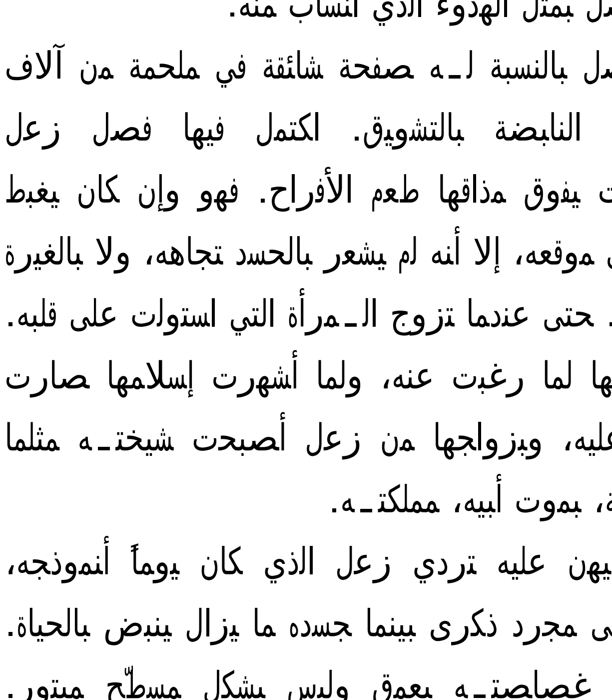
مع سميحة فقط يتعرى في الفراش ويعري نفسه من الكتمان. إنـها ملاذه الذي يسكن إليه وتستكين فيه، فيتحدث معها بلا انقطاع كأنه يقرأ من كتاب. تظنه أحياناً مغروراً وأحياناً مأخوذاً بعزة السطوة السلطان: وإن عرضوا عليك تصير رئيس وزراء.

- يمكن أوافق ويمكن لأ.
- وإن قالوا ليك تع صير ملك.

- أعوذ با ، أنا أقدر أحكم العراق أكثر من الـملك بس من ورا العرش، مو فوقه.
- وفي لغازي مثل أبوه.؟.
- غازي ما هو أبوه. بس يظل ملك العراق، وأنا عراقي قدره العراق.
- وإن تغيرت الوزارة وشالوك.
- أكون غلطت بالحساب. الوزارات ما تتغير إلا بمشورتي.
- هذا كان أيام فيصل.
- إش تفرق عنها أيام غازي.
- إنت قلت، غازي ما هو أبوه.
- وأنا ما راح أتصرف معه مثل ما كنت أتصرف مع أبوه.
- يقولون غازي يكره الانجليز.

- مين يحبهم يا بنت الحلال؟!. بس إن كان بإيدهم مفاتيح الزنازين، نشتمهم ونرميهم بالأحجار، ولا نغافلهم بغفوتـهم ونقتنص منهم الـمفتاح.

٤

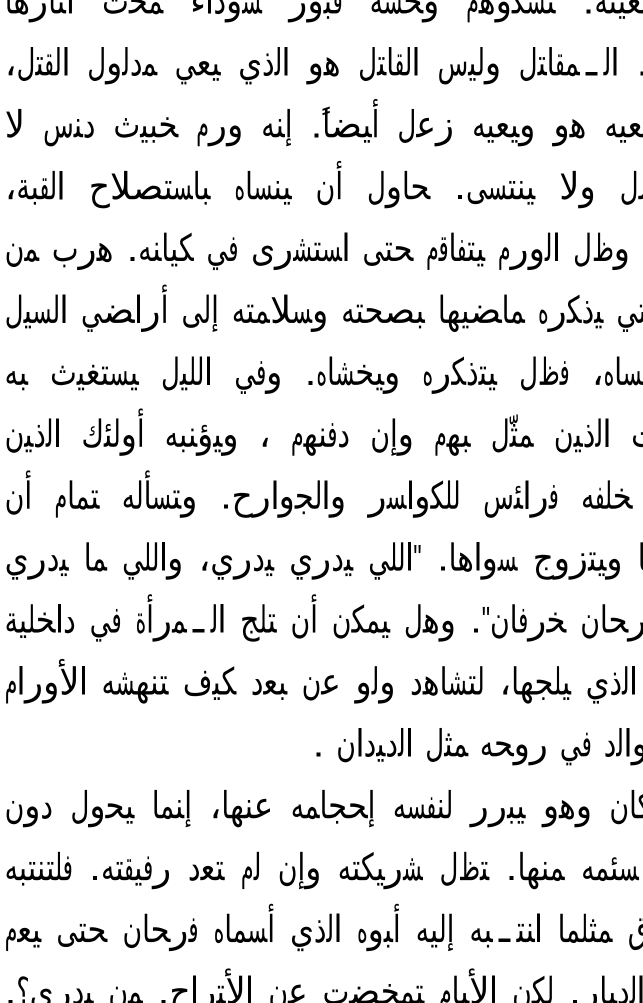


رغم الحب والمودة في قلب فرحان، للرجل الذي سار في ركابه وفي ظل قيادته لأعوامٍ مليئة بالنصر والقهر والتقدم والانحدار، إلا أنه لم يحزن كثيراً عليه، تخلله خبر موت فيصل بمثل الهدوء الذي انساب منه.

فيصل بالنسبة له صفحة شائقة في ملحمة من آلاف الصفحات النابضة بالتشويق. اكتمل فيها فصل زعل بمرارات يفوق مذاقها طعم الأفراح. فهو وإن كان يغبط زعل على موقعه، إلا أنه لم يشعر بالحسد تجاهه، ولا بالغيرة منه أيضاً. حتى عندما تزوج المرأة التي استولت على قلبه. رغب عنها لما رغبت عنه، ولما أشهرت إسلامها صارت محرمة عليه، وبزواجها من زعل أصبحت شيخته مثلما غدت القبة، بموت أبيه، مملكته.

لم يهن عليه تردي زعل الذي كان يوماً أنموذجه، وتحوله إلى مجرد ذكرى بينما جسده ما يزال ينبض بالحياة. كان يفهم غصاصته بعمق وليس بشكل مسطّح مبتور. فزعل ليس مسكوناً بشبح هند، وهو الذي لا يؤمن بالأشباح

ولا يخافها. كما أن بلاءه ليس بسبب الترهل والاسترخاء. لو كان هذا هو السبب، لم لا تحلق بالفرح روحك يا فرحان، وأنت تنهك جسدك بالعمل أكثر من فلاّحيك؟. لم لا تستيقظ في جسدك الرغبات وانت تشاهد البهائم تـ ـتسافـ ـد والفلاحين حول السيل يغنون للربيع والـ ـماء والاخضرار والنساء؟. أنت تـ ـهرب من لظى الجحيم بالتعرق، بينما زعل ينصهر فيه باستكانـ ـة الصقيع . إنـ ـها الحرب التي ظن أن العزة بها، فصار البؤس نتيجتها. الحرب نار، من يشعلها عليه أن يستدفئ منها ويأكل طعامها وينشر غسيله فوقها. الحرب نار يجب أن لا تنطفئ وإلا عز على صاحبها بصة جمر لأجل لفافة تبغ. لهذا فإن فيصل كغيره من القادة، لم يشعر بالحرب وإن جاءت منه أعواد ثقابها. أما فرحان وزعل والـ ـمحاربين والمتقاتلين بسببها ، فإنـ ـهم لهيب وقودها ووقود لهيبها. غدت جحيمهم بمثل ما هي أنوارهم. قروحهم بـ ـمثل ما هي شفاؤهم . إنـ ـها تحييهم وتميتـ ـهم لتحييهم كي تميتم. إنـ ـهم عبادها وعبدتها وخدامها وكهنتها. فكيف يعيشون من دونـ ـها. في انطفائها انطفأت عن النـ ـور أعينهم ، ليتحول الكون إلى ظلمة مرعبة تستيقظ فيها الأرواح الـ ـمستنجدة



الـمستغيثة. تشكوهم وحشة قبور سوداء محت آثارها الرمال. الـمقاتل وليس القاتل هو الذي يعي مدلول القتل، مثلما يعيه هو ويعيه زعل أيضاً. إنه ورم خبيث دنس لا يستؤصل ولا ينتسى. حاول أن ينساه باستصلاح القبة، فأخفق، وظل الورم يتفاقم حتى استشرى في كيانه. هرب من القبة التي يذكره ماضيها بصحته وسلامته إلى أراضي السيل عله ينساه، فظل يتذكره ويخشاه. وفي الليل يستغيث به الأموات الذين مثّل بهم وإن دفنهم ، ويؤنبه أولئك الذين تركهم خلفه فرائس للكواسر والجوارح. وتسأله تمام أن يوآخيها ويتزوج سواها. "اللي يدري يدري، واللي ما يدري يقول فرحان خرفان". وهل يمكن أن تلج الـمرأة في داخلية الرجل الذي يلجها، لتشاهد ولو عن بعد كيف تنهشه الأورام التي تتوالد في روحه مثل الديدان .

كان وهو يبرر لنفسه إحجامه عنها، إنما يحول دون اشهار سئمه منها. تظل شريكته وإن لم تعد رفيقته. فلتنتبه لمرزوق مثلما انتـبه إليه أبوه الذي أسماه فرحان حتى يعم الفرح الديار. لكن الأيام تمخضت عن الأتراح. من يدري؟.

قد يكون ابنه أوفر حظاً، وهو الـمرزوق بـمال أبيه، الفرحان بزواجه السعيد: ودي عيل. يعني عيل. فاهم.

- يوبا، أمس تجوزنا.
- وباكر ودي العيل. لا تعاند يا ولد.

لكنه هو الذي عاند وألح وأصر على أن يرافق العروسين إلى بيروت. كان شرط ميسر ميسراً، فهي توافق على الزواج على أن تواصل التعليم. بينما أذهل شرط فرحان، ليس العروسين فحسب، بل جبران وواصف وعائلتي كنعان في الناصرة وضهور الشوير: ولدي ما يسكن وعروسه بالأجار.

- يابا. كلها كم سنة ونرجع للديرة، ويش لزوم البيت في بيروت.
- لزومه إنوه الصليبية عندهم أطيان قد كِلْ أهل بيروت، وما يرضيهم يسكن وحيدهم وعروسه بالإيجار.
- أنوه صليبية يابا؟.
- ول. والجاهة اللي راحت وإياك من وين؟.
- هذول صليبية؟.

- مش الكِلّ. بس كثير كثير. الـمهم. وين ودك اشترى لك الدار؟.

أما بالنسبة للمبيت عند وصولهم إلى بيروت، فقد كان البلاء أعظم. صرخ فرحان صرخة أرعبت مرزوق وميسر ومسلم الذي تماوج الـمقود بين يديه: ويش أوتيل. انـهبلت يا ولد. ودك إيانا نصير سالفة على كل لسان.

- لعاد وين بدنا نـنام...

- وين !؟. عند واصف، ولو كنت أنا وابوه مش كل ولا بد.

- عند واصف ؟!.

- إيش بيك. كان أبوه ما يطيب لـه النوم إلا في بوايك القبة. ا يرحمه. لو رديت عليه كان كملت الـمترسة وها الحين يمكن أنا تكتور. مالك ساكت. ما تحكي.

- هو إنت مخلي لغيرك حكي.

- ول. كل ما احكي كلمتين تقول لي ها الكلمتين.

- يعني معقول نـنام كلنا عند واصف. أنا وميسر عرسان. وإنت عمرك ما فت بيـتهم. طيب ومسلم.

- ويش بيه مسلم.؟ راح ينجس ليهم الفراش!!.

استقبلهم واصف ومارغو بحرارة وترحاب. لكنهما دفعا غالياً، ثـمن تنكة السمنة التي حملها إليهما. فقد تـحول سكنهما إلى بيت شعر. الـمنقل والجمر ودلال القهوة. القعدة الأرضية على البسط في الفناء. فظاظة التعامل وصرامة وصايا الشيخ للرعيان. في كل يوم يذبح بنفسه خروفاً، لتنهمك مارغو في إعداد الـمنسف، بعدما قضت ليلتها تـمرس الجميد: ترى هاظا محلّب يتسوى بس لفرحان. الـمهم يكفينا ها اليومين الثلاث الجايات.

طالت الـمدة إلى أسبوعين، أنـهك فرحان أثناءها العروسين وجبران وعائلة كنعان، باستثناء رؤوف الصغـير، الذي خلبت لبه شخصية الشـيخ: ولا بقصص عنتر بتلاقوا مثله...ويغيظ رفاقه بالليرة الذهبية التي أعطاه إياها العم فرحان: ما حدا بقدر يقول لأ. اللي بحكيه لازم يصير. وكل يوم بدبح لنا خروف.

- والعرسان. ما شفت شو بسووا بالليل .؟.
- كيف بدي أشوف.؟.
- من خزق الباب.

-     آنيـه بـاب. والشيخ مادد فرشته قدامه، وكل ما طلع العريس بسأله، ها أخذتـها.؟.

قال مرزوق لـميسر في خلوتـهما: ا   وكيل، ما سويت لها الحين شي. كل شي هو يسويه. الخطبة والجاهة والعرس ونزولنا عند واصف، وذبح الذبايح وبكرة شرا البيت. ماني داري لويش ما دخل عليك بدالي.

اشترى بيتاً أنيقاً في رأس بيروت، بعدما انـهك السيارة وسائقها ودليليه واصف وجبران، وهم يتنقلون من مكان إلى مكان منذ الصباح الباكر حتى الـمساء. تاركاً العروسين في ضهور الشوير، حتى لا تـتخضخض ميسر، لكن لسانـها تخضخض عندما ذهبت لرؤية البيت الذي اختاره . عض جبران شفته السفلى وقد هيىء لـه أن مهمته لن تنتهي أبداً: يا عمي. البيت حلو كثير. بس بعيد عن الجامعة.

-     منوه قال بعيد؟!.

-     يا عمي، معقول نمشي كل يوم نص ساعة رايـحين ونص ساعة جايـين.

-     منوه قال؟.

- البيت بقول.

- إنت بنت أكابر مثل ما قال مرزوق، ومثل ما شفت بعيني. وإذا أخذت ابن أكابر تظني راح يتغير عليك الحال.

تساءلت نظرات الجميع، بمن فيهم مرزوق الذي كان مطرقاً بعدما اتخذ أمره على عدم الـمحاورة ، وكأنه يخاصمه: ما قلت يا ولد، إنوه عروستك كان يـجيبها للجامعة أوتومبيل وياخذها أوتومبيل.؟. ما ترد يا ولد.

- بتحكي معي.؟.

- لعاد مع الطور... وإلى ميسر: ما يتغير عليك الحال يا عروس. باكر يكون عندك أوتومبيل... وإلى مرزوق : والا تبغي أخلي واياك مسلم واتومبيلي.

- لا.لا. ا يخليك. سوي اللي ودك إياه بس خلصني.

- زهقت مني يا ولد؟

- ما زهقت يابا.

- يابا.!.

- قصدي ما هو معقول تغيب أكثر وتظل أمي بروحها في القبة. وإنت تدري حولها عساكر ما ليهم رب غير كلاوب.

- إي با . مليح اللي ذكرتني.

- بالعساكر؟.
- لأ. بأمك

كانت القبة مفتوحة على جـوارها. يعبرها البدو والفلاحون، فيتزودون منها بالـماء ويقايضون فرحان بما لديهم من جميد وسمن وبذار. أما رجال الجبيلية فكانوا يقصدونـها للتقهوي والسمر في مضافة فرحان السخية لكل طارق باب. لكن منذ اتخذ جلوب معسكراً له في زيزيا، يعج بالجند والتركات ويستقبل أحياناً الطائرات. ارتحلت عن الـمنطقة خيام كثيرة، بساكنيها وبـهائمها، وصار العابرون إليها يستجوبون لأدنى شبهة، وأحياناً يتعرضون للتفتيش من قبل العساكر الذين يجوبون الـمنطقة ليل نـهار.

في البداية، لم يطق فرحان وجودهم القريب. ولا ارتاح زعل لمعسكرهم ولو كان ابنه واحداً منهم. يظلون بالنسبة للبدو جداراً ويشكلون تـهديداً، مهما تقرب القائد من شيخهم وافتـتنت النسوة بفرسانهم. إلا أن صار الوضع واقعاً يتطلب من زعل عدم الاحتكاك بهؤلاء والابتعاد عنهم قدر الإمكان، ويتطلب من فرحان إرضاؤهم قبل أن يرغم على خدمتهم. قال لزعل بينما الـمعسكر يتسع ويمتد وتتحرك منه وإليه

السيارات والتركات وترفع الاستحكامات بأحدث سلاح: أنا أكفيهم يا شيخ. يظلون منا وحنّا منهم.

ذهب بنفسه إلى جلوب برفقة فندي، الذي قدمه لقائده باسم شيخ القبة فرحان، فاستقبله جلوب استقبالاً عربياً في ملحق مكتبه الـمفروش بالبسط الصوفية الـملونة بالخطوط. صب أحد العساكر قهوة الضيف، دون أن يبدي الـمضيف تساؤلاً أو رغبة بالسؤال: بير القبة انـهدم من يوم الهزة الكبيرة. يا دوب نقدر ننتع منوه ميه تكفينا يوم بيوم. بس بإذن ا . انظفه عن قريب وتعاود الـميه بيه مثل السلسبيل.

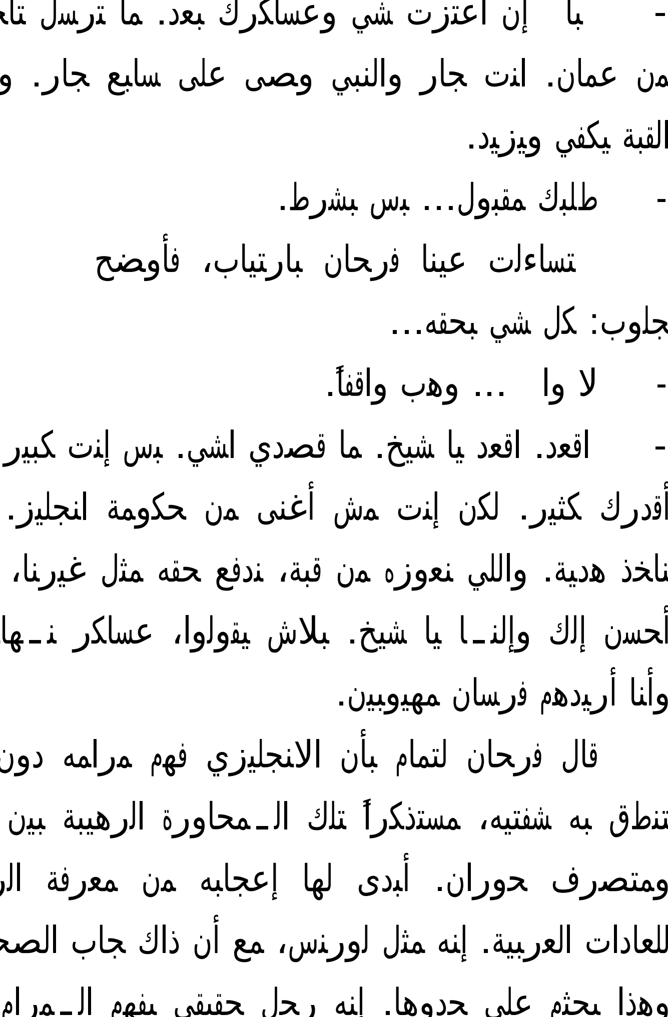
- تريد مساعدة يا شيخ؟.

- لا با . بس آني قصدي، إنوه كلها كم يوم. بالكثير شهر. وتقدر تاخذ من عندي ميه للعساكر. صافية تشفي الغليل والعليل.

- ما تقصر يا شيخ.

- ولي عندك طلب يا كبير.

- ...



-      با   إن اعتزت شي وعساكرك بعد. ما ترسل تاخذها من عمان. انت جار والنبي وصى على سابع جار. وخير القبة يكفي ويزيد.

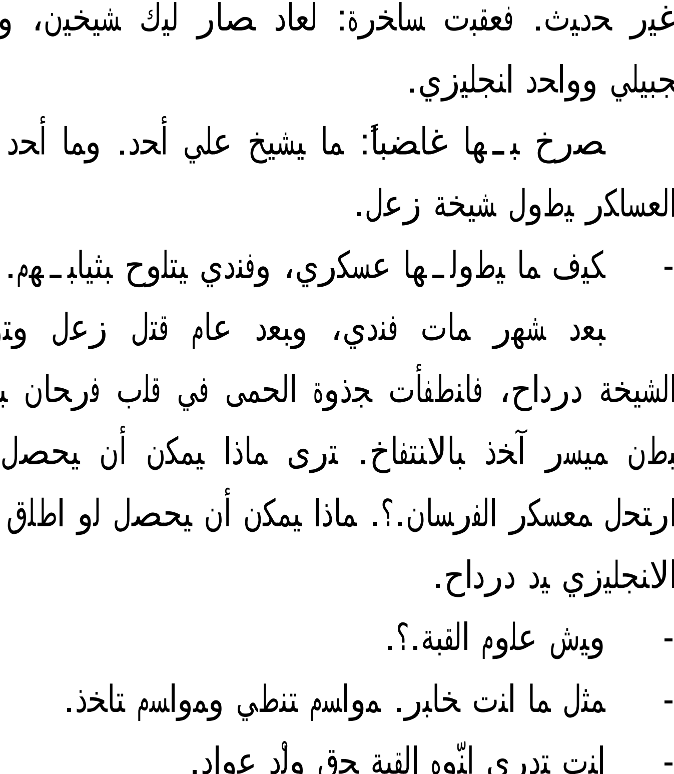
-      طلبك مقبول... بس بشرط.

تساءلت عينا فرحان بارتياب، فأوضح جلوب: كل شي بحقه...

-      لا وا   ... وهب واقفاً.

-      اقعد. اقعد يا شيخ. ما قصدي اشي. بس إنت كبير وأنا أقدرك كثير. لكن إنت مش أغنى من حكومة انجليز. مي ناخذ هدية. واللي نعوزه من قبة، ندفع حقه مثل غيرنا، هادا أحسن إلك وإلنـا يا شيخ. بلاش يقولوا، عساكر نـهابين، وأنا أريدهم فرسان مهيوبين.

قال فرحان لتمام بأن الانجليزي فهم مرامه دون أن تنطق به شفتيه، مستذكراً تلك الـمحاورة الرهيبة بين أبيه ومتصرف حوران. أبدى لها إعجابه من معرفة الرجل للعادات العربية. إنه مثل لورنس، مع أن ذاك جاب الصحراء وهذا يجثم على حدوها. إنه رجل حقيقي يفهم الـمرام من


غير حديث. فعقبت ساخرة: لعاد صار ليك شيخين، واحد جبيلي وواحد انجليزي.

صرخ بـها غاضباً: ما يشيخ علي أحد. وما أحد من العساكر يطول شيخة زعل.

- كيف ما يطولـها عسكري، وفندي يتلاوح بثيابـهم.

بعد شهر مات فندي، وبعد عام قتل زعل وتولى الشيخة درداح، فانطفأت جذوة الحمى في قلب فرحان بينما بطن ميسر آخذ بالانتفاخ. ترى ماذا يمكن أن يحصل لو ارتحل معسكر الفرسان.؟. ماذا يمكن أن يحصل لو اطلق هذا الانجليزي يد درداح.

- ويش علوم القبة.؟.
- مثل ما انت خابر. مواسم تنطي ومواسم تاخذ.
- انت تدري إنّوه القبة حق وِلْد عواد.

- صح. ولو الكوشان مكتوب فيه حق رجا وولده فرحان.
- الكوشان قصقوصة ورق.
- صح. ولو أنـها من ورق الحكومة.تدري يا شيخ. صدقـني، هالعساكر اللي خيموا حدي يضيقوا لي صدري. مانـي لاحق على مطاليبهم.
- ما لينا دخل. حق الجبيلية قبل الحكومة وعساكرها.
- صح. حق الشيخ زعل يصل حدك مع كل الـموسم يا شيخ درداح.
- وإن تغيرت الـمواسم.؟.
- فرحان ما يتغير. ترى أنتم عزوتي. وإنت تدري ها الحكي. العزوة تكبر بكبيرها يا شيخ.
- أصيل يا بو مرزوق. قهوينا يا ولد. زمان عن سواليف الشيخ فرحان. قل لي ، ويش علوم عروس العيل مرزوق.
- العيل قّرب يصير أبو رجا عن قريب.
- ول. لّحق يحبلها.!. أمس تجوز.
- إش بيك يا شيخ. الأمس قرب يصير عام.

- إيه. إيه. كيف تنقضي الأيام.!. ويش أخبار حرمتك.؟. كيف إجرها هالـحين.؟.

- إيه. خلها لرب العباد يا شيخ.

- لو كنت بدالك تجوزت عليها.

- ما ودك تكون بدالي. ترى حنّا النصارى، لازوم نسلم حتى نطلّق ونتجوز بدل الأربعة أربعين.

كان فرحان على استعداد للذهاب إلى آخر الدنيا، لو طلبت منه ميسر ذلك، في سبيل أن تنجب لـه حفيداً. فلم يعارض رغبتها بالإنجاب في مستشفى الجامعة الأمريكية. بل استصوب الأمر في رده على رسالة مرزوق. إلا أنه هدده أن ولد حفيده في غيابه. فما أن استلم التلغراف، حتى تمنى مسلم لو أنه سمع نصيحته وغادر إلى موطنه قبل أن يأتي هذا اليوم الـمشؤوم، وهو يتلقى الضربات على كتفه أو ظهره أو رأسه، ويصرخ به فرحان فيجفل وهو يـحثه مهدداً طيلة الطريق: يا ولد إيش بيك. الدواليب تمشي لورا والا لقدام.

- راح نـموت الليلة يا شيخ.

- إن جبت سيرة الـموت على لسانك لأقطعه ليك نصين... قالها مستلاً شبريته التي لمع نصلها في عيني مسلم فأعمسها في أضواء السيارة الـمسرعة في الطريق: أسرع يا ولد. ول على الـمسلمين اللي قابلينك.

مع هذا وصلا الـمستشفى وقد انتهى كل شيء، ليخبره مرزوق بشفتين مرتجفتين: الـمهم ميسر بخير.

- خير، شر، ما يهمني. سميه اللي ودك إياه. بس أشوفه.
- يوبا ممنوع.
- ويش الـممنوع. بيه شي ينمنع على فرحان .
- يوبا البنت بعدها خداج.
- بنت؟!. بعدك تقول عن ميسر بنت ؟.
- بنـتي يوبا. بنت ميسر... وانفجر مرزوق بالبكاء.

آه.آه. سميـتني فرحان منشان تشوف الفرح بوجهي. ما كنت تدري أنك راح تشوف خراب الديار. تركتك وحيد ورجعت ليك وحيد.آه.آه. قتلت الحرب قلبي وما خلت فيه غير أمل صغير، أمل واحد أرضيك بيه " الرب ما ينطينا من الخلفة إلا ولد واحد بس. وإن جات بنت يوبا ؟. مات اسمنا وانتهى ذكرنا" : جيت على تالينا يا مرزوق.

- معقول ها الحكي يوبا؟!

- هيك جدك كان يقول. اشتهيت ليك الناصرية منشان يصير لك هناك شروش. ما دريت أني بـها العملة قطعت العنقود.

- باكر يـجي لي ولد يوبا. لا تـهز راسك بحق الـمسيح. وبتبكي يوبا ؟!. لويش. لويش؟ وا أموت ولا أبكيك يوبا.

- ما انت اللي تبكيني. رب العالـمين. نصيب. نصيب.

- لا تـخليني أندم على الجيزة والخلفة يوبا.

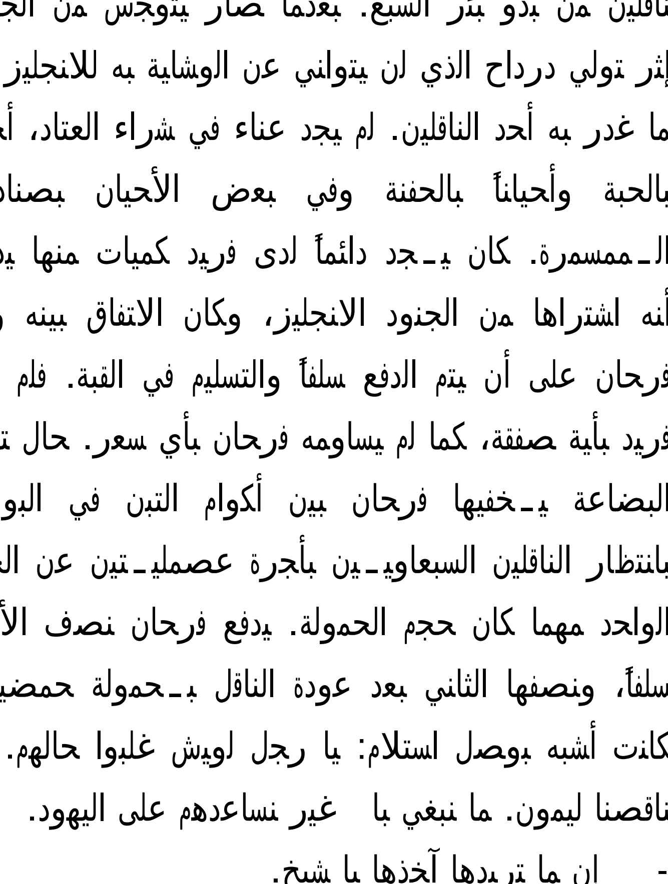
- لويش تندم على الـمقدر والـمكتوب. دورت كثير على شتلة صليبية في الناصرة. ما لقيت. ولما واتاني النصيب أزرع بذرتي هناك تصحرت أرضها وقالت، ما ليك عندنا تربة ولا تراب. القبة ما هي قابلة بي ولا الناصرة ولا عمان.

- ...

- انتهينا يا ولدي. انتهينا وعلينا السلام. أنا معاود ها الحين لأمك اللي قاعدة تستنى مني ورقة نفوس باسم رجا ابن

مرزوق ابن فرحان ابن رجا ابن الناصرة. ها الحين أعاود ليها حامل نـهاية الصليـبي.

٥



واصل فرحان مشترياته من السلاح إلى يعبد، مستخدماً ناقلين من بدو بئر السبع. بعدما صار يتوجس من الجبيلية إثر تولي درداح الذي لن يتوانى عن الوشاية به للانجليز إذا ما غدر به أحد الناقلين. لم يجد عناء في شراء العتاد، أحياناً بالحبة وأحياناً بالحفنة وفي بعض الأحيان بصناديقها الـممسمرة. كان يـجد دائماً لدى فريد كميات منها يدعي أنه اشتراها من الجنود الانجليز، وكان الاتفاق بينه وبين فرحان على أن يتم الدفع سلفاً والتسليم في القبة. فلم يخل فريد بأية صفقة، كما لم يساومه فرحان بأي سعر. حال تسليم البضاعة يـخفيها فرحان بين أكوام التبن في البوايك، بانتظار الناقلين السبعاويـين بأجرة عصمليـتين عن الجمل الواحد مهما كان حجم الحمولة. يدفع فرحان نصف الأجرة سلفاً، ونصفها الثاني بعد عودة الناقل بـحمولة حمضيات، كانت أشبه بوصل استلام: يا رجل لويش غلبوا حالهم. حنّا ناقصنا ليمون. ما نبغي با غير نساعدهم على اليهود.

- إن ما تريدها آخذها يا شيخ.

- حق و . خذ النص وابقي لي النص الثاني.

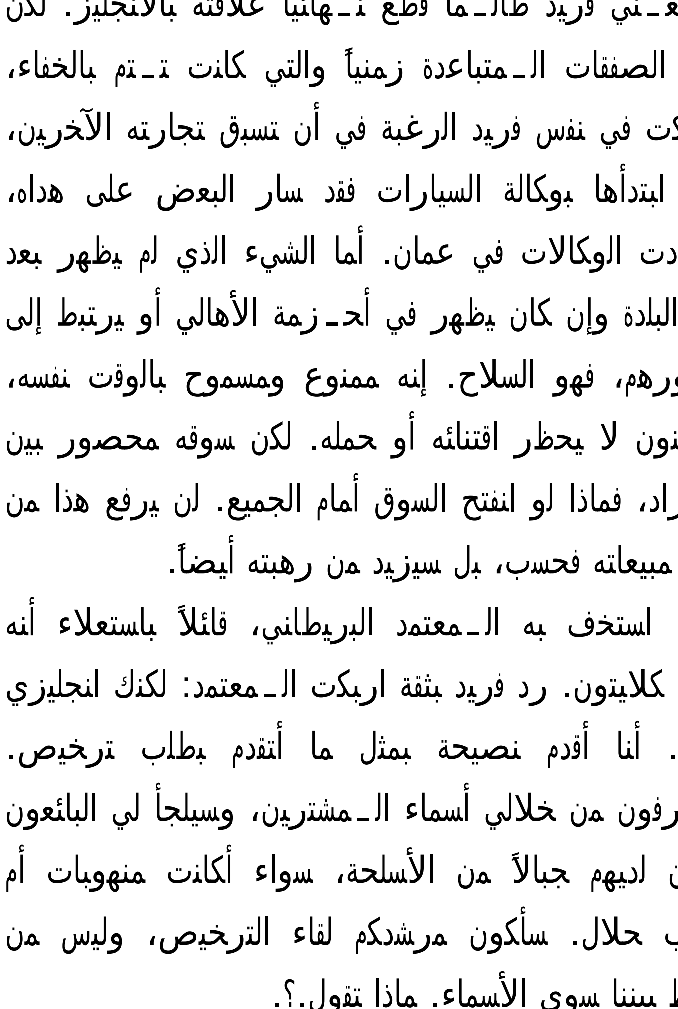
لم يتعرض للغدر والخيانة من الناقلين كما لم يتعرض للغش من فريد، الذي يـخبره بصدق عن البضاعة التي لا يستطيع اخبارها والتكهن بجدواها. فالطلقة هي الطلقة سواء أكانت مصنوعة في انجلترا أو ايطاليا أو فرنسا أو الـمانيا. السعر يحدده الاستخدام، مسدساً كان أم بندقية، دونما اعتبار لتاريخ الصنع أو النوعية. لم يوفق في الحصول على برن أو ستـن رغم تكرار طلبها من فرحان الذي يلح عليه سيف بالـمقابل. كما أن أجور النقل التي كان يدفعها ذهباً، كانت أكثر اغراءاً للناقلين من الـمنقولات. للذهب رنينه وللسلاح دويه. فالبدوي قد يلقي سلاحه في مواجهة السلاح، لكن للذهب سحراً يـجعله أغلى من الأرواح.

ارتاب أحد الناقلين بالنقلة الـمعاكسة. ألا يـجد هؤلاء الثوار ما يهدونه لمرسل البضاعة سوى الحمضيات التي تـتغطى بـها مساحة شاسعة من أرض القبة. اعتصر البدوي جميع حبات البرتقال عله يـجد فيها ذهباً مرسلاً بالـمقابل إلى فرحان، ولما لم يـجد، تزود بما يماثلها في طريق عودته. لكن الأمر لم يكن يخفى على أي غشيم، فكيف

به مع فرحان وهو يتفرس بخشب الصحاحير الـمهشمة أطرافها. كان واضحا استخدام الحجر في إعادة تـثبيت الـمسامير. مع هذا لم يبد فرحان اكتراثاً. لكنه في ليلته نقل ما لديه من سلاح في البوايك ودفنه في موقع النخلة. أبرق إلى سيف يسأله لم تأخر في إرسال البرتقال، فجاءه سيف إلى القبة مؤكداً تسلمه للبضاعة .

من حينها صار وصول الحمضيات يعزز بتسلم فرحان لصندوق مختوم من علب السجائر الـمعدنية. يدخن منها في تـجليه، ويوزع منها على ضيوفه أو يهدي مقربـيه. وكان ينال فريد حصة منها، يـحملها إليه فرحان كلما ذهب إليه من أجل صفقة سلاح أو لتبديل قطعة في السيارة أوإصلاح خلل بها. أحياناً يعرج عليه لمجرد زيارته إذا ما جاء إلى عمان، فقد كان ينعشه تأمل السيارات الجديدة التي تقف مثل أضرحة القديسين.

كان فريد يراقبه بتمعن وهو يتجول بينها أو ينتقل من ركوب هذه إلى تلك. لم يستدرجه فريد ولا ارتاب بمقصده من شراء السلاح. فسواء أكان يبـيعه للبدو كما يدعي أم أنه كان يريده لنفسه أم يبـيعه لثوار لشام أو فلسطين، فهذا أمر


لا يعـني فريد طالـما قطع نـهائياً علاقته بالانجليز. لكن هذه الصفقات الـمتباعدة زمنياً والتي كانت تـتم بالخفاء، حركت في نفس فريد الرغبة في أن تسبق تجارته الآخرين، فإذا ابتدأها بوكالة السيارات فقد سار البعض على هداه، فتعددت الوكالات في عمان. أما الشيء الذي لم يظهر بعد في البلدة وإن كان يظهر في أحـزمة الأهالي أو يرتبط إلى ظهورهم، فهو السلاح. إنه ممنوع ومسموح بالوقت نفسه، فالقانون لا يحظر اقتنائه أو حمله. لكن سوقه محصور بين الأفراد، فماذا لو انفتح السوق أمام الجميع. لن يرفع هذا من رقم مبيعاته فحسب، بل سيزيد من رهبته أيضاً.

استخف به الـمعتمد البريطاني، قائلاً باستعلاء أنه ليس كلايتون. رد فريد بثقة اربكت الـمعتمد: لكنك انجليزي مثله. أنا أقدم نصيحة بمثل ما أتقدم بطلب ترخيص. ستعرفون من خلالي أسماء الـمشترين، وسيلجأ لي البائعون الذين لديهم جبالاً من الأسلحة، سواء أكانت منهوبات أم كسب حلال. سأكون مرشدكم لقاء الترخيص، وليس من رابط بيننا سوى الأسماء. ماذا تقول.؟.

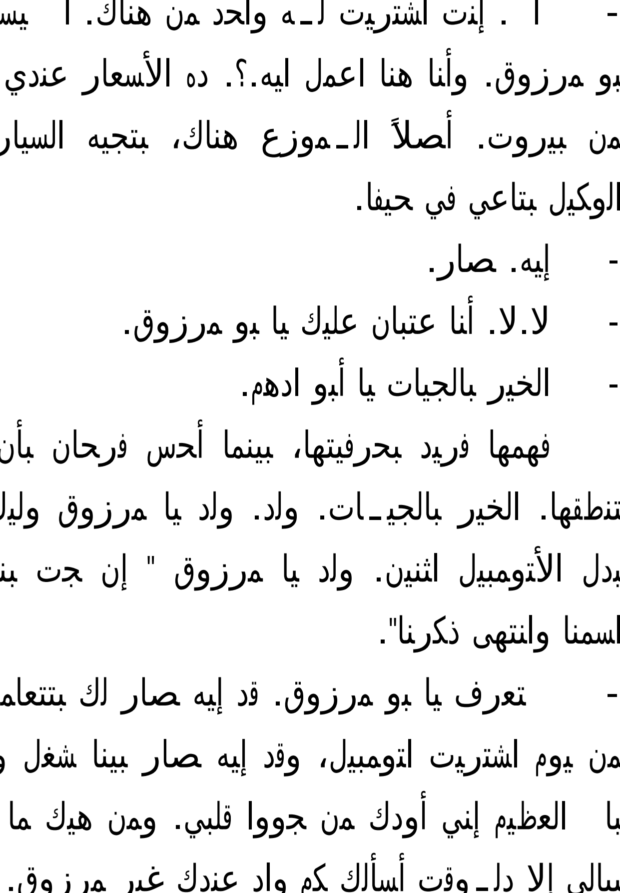
ردد فريد اللفظ أمام فرحان، فسأله باستهجان: ويش قلت.؟.

- قصدي على راسي، تفضل استريح. علـى ما تشرب الشاي بتكون سيارتك جاهزة.
- ما ابغي شاي ولا شي.
- ماخذه عقلك ها السيارات.

- صح. وا تاخذ العقل يا أبو الأدهم. ما قلت لي . لويش بعدك عزابي ؟.
- مش ناقصني حاجة. أتجوز ليه.

أحس فرحان بالضيق وكأن خيمته سقطت عليه. فهو في داخليته يشعر بالحاجة لكل شيء وينفض عنه كل شيء. يهم للقول بأن الزواج مهم لأجل الأبناء، ليقطع عليه فريد الطريق وهو يسأله كأنه يقرأ أفكاره: إزاي مرزوق.؟.

- إيه. في بيروت.
- وما أخدش معه الأتومبيل ليه.؟. ده إنت قلت إنك اشتريتها مخصوص ليه. وإلا بعده ما يعرفش يسوق.
- لا. تعلّم وعنده أوتومبيل. هناك.



- ا . إنت اشتريت لـه واحد من هناك. ا يسامحك يا بو مرزوق. وأنا هنا اعمل ايه.؟. ده الأسعار عندي أرخص من بيروت. أصلاً الـموزع هناك، بتجيه السيارات من الوكيل بتاعي في حيفا.

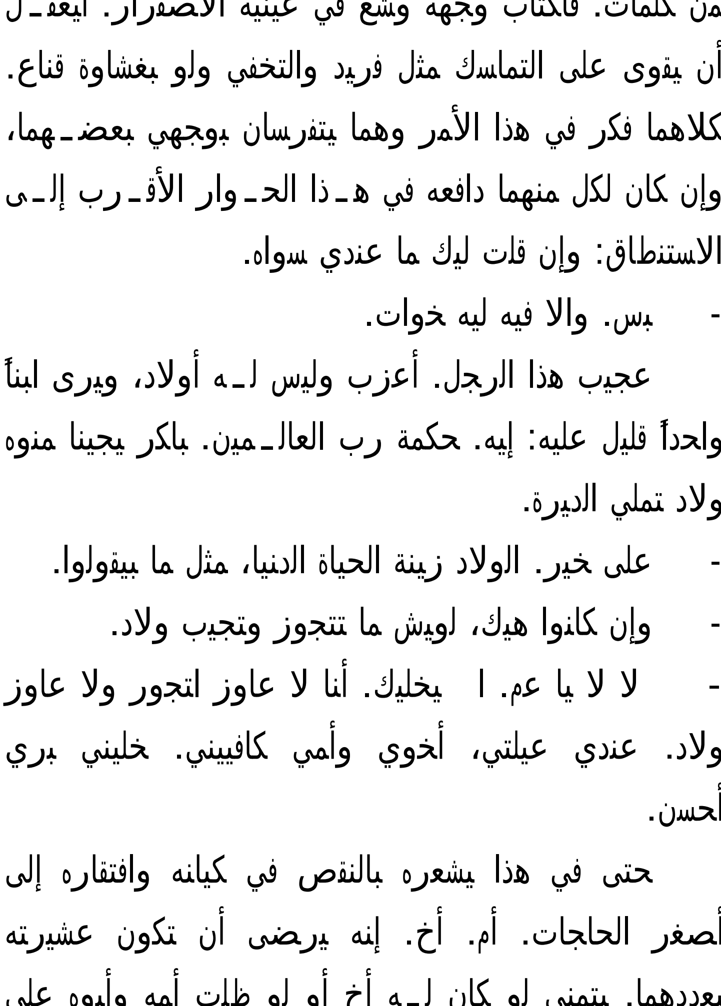
- إيه. صار.

- لا.لا. أنا عتبان عليك يا بو مرزوق.

- الخير بالجيات يا أبو ادهم.

فهمها فريد بحرفيتها، بينما أحس فرحان بأن أعماقه تنطقها. الخير بالجيـات. ولد. ولد يا مرزوق وليك عندي بدل الأتومبيل اثنين. ولد يا مرزوق " إن جت بنت مات اسمنا وانتهى ذكرنا".

- تعرف يا بو مرزوق. قد إيه صار لك بتتعامل وإياي من يوم اشتريت اتومبيل، وقد إيه صار بينا شغل وصداقة، با العظيم إني أودك من جووا قلبي. ومن هيك ما خطرش ببالي إلا دلـوقت أسألك كم واد عندك غير مرزوق.



تزلزل كيان فرحان الذي ظهرت علائمه بـما سـبق من كلمات. فاكتأب وجهه وشع في عينيه الاصفرار. أيعقـل أن يقوى على التماسك مثل فريد والتخفي ولو بغشاوة قناع. كلاهما فكر في هذا الأمر وهما يتفرسان بوجهي بعضـهما، وإن كان لكل منهما دافعه في هـذا الحـوار الأقـرب إلـى الاستنطاق: وإن قلت ليك ما عندي سواه.

- بس. والا فيه ليه خوات.

عجيب هذا الرجل. أعزب وليس لـه أولاد، ويرى ابناً واحداً قليل عليه: إيه. حكمة رب العالـمين. باكر يجينا منوه ولاد تملي الديرة.

- على خير. الولاد زينة الحياة الدنيا، مثل ما بيقولوا.

- وإن كانوا هيك، لويش ما تتجوز وتجيب ولاد.

- لا لا يا عم. ا يخليك. أنا لا عاوز اتجور ولا عاوز ولاد. عندي عيلتي، أخوي وأمي كافييني. خليني بري أحسن.

حتى في هذا يشعره بالنقص في كيانه وافتقاره إلى أصغر الحاجات. أم. أخ. إنه يرضى أن تكون عشيرته بعددهما. يتمنى لو كان لـه أخ أو لو ظلت أمه وأبوه على

قيد الحياة. منك يا رجا الصليـبـي. من الناصرة، وما أحد في الناصرة سمع بيك. كـل اللي أسويه منشان أعرف سرك الـمخبى يا بو فرحان. ويش دفنت معك في القبة، ويش تركت وراك في الناصرة ؟. أعرف ها الحين لويش الواحد فينا ما يـجيه إلا ولد واحد. بس ما أدري إنت مين وكل اللي ورثته لي أورثه لمين .؟.

- الولد يحمل ذكرك يا بو الأدهم.
- ما حدا يحمل ذكر حدا. ولما أموت ما راح يهمني وين ح اندفن، ولا اللي بعدي ح يعيش إزاي.
- ول يا رجل. ربعك وعشيرتك.
- بلا ربع بلا عشيرة. دول ليك طالـما يحتاجوا ليك. بس يمكن انتوا البدو مختلفين.
- حنّا الـمختلفين والا انتم يا الـمدِن .
- طبعاً إحنـا مختلفين. با عليك قل لي يا بو مرزوق. مين اللي عايش أحسن ، الـمدني والا البدوي والا الفلاح.
- ِلبدوي.

- هادا لإنك بدوي.
- منو قال أنا بدوي وفلاح.
- عال. جرب تصير مدني كمان.
- ويش قصدك؟.
- أنا جيتك للقبة، وأعرف إنك ما ترضى تبيع من خيرها إلا بأرضها. جرب تفتح ليك محل بعمان، مثل مـحل الـمرابي اللعين مال قبان. وتصير على هيك مدني وبدوي وفلاح.
- ودك إياني أبيع بالصاع والشوال.
- لا.لا. بدي أتشارك معك ونفتح محل بيع سلاح.

٦

كان أحمد يتكفل بأعباء العائلة جميعها بينما تقتصر حصة صلاح على دفع بدل الإيجار لبيت متوسط الحال قريب من الميناء.

ابتدأ الأب عمله سقا يأتي بالماء الحلو من المنطقة الجبلية القريبة، ليبيعه في صهريج يجره بغل إلى الأحياء القريبة من الميناء التي تغلب الملوحة على مصادرها المائية. كان دخله لا يكاد يكفي أود العائلة. ولاسيما بعد التحاق صلاح بالمدرسة. فاختار لابنه الثاني أحمد مهنته نفسها ولم يبلغ العاشرة بعد. رافقه أحمد عن طيب خاطر هروباً من المدرسة والدراسة، مكتفياً بفك الحروف التي تعلّمها في الكتّاب، وحفظ أقصر سور القرآن. لكنه كان عصياً على استيعاب الحساب، ومع هذا أبدى رشداً بالانفاق وقدرة على إحصاء النقود وادخار الملاليم وتحويلها إلى قروش وهو يدور بقربة الماء، منادياً بين الأزقة التي تستعصي على البغل أو يكره أبوه الذهاب إليها.

بعد سنة اقتـنى صهريجاً أقل حجماً من صهريج أبيه يجره حمار. ظل أبوه على حاله إلى ان قاعد نفسه مورثاً إياه مهنته التي استطاع تطويرها بعد عقدٍ من الزمان. اقتـنى صهريجي ماء، الأول بحجم أربعة أمتار مكعبة والثاني بحجم ستة أمتار. ولم يعد بيعه الـماء يقتصر على الأحياء القريبة من الـميناء، بل وصلت إلى الـميناء نفسه. إذ صار يـزود البواخر الراسية فيه بالـماء الحلو النظيف من الأملاح.

مع ازدياد نشاط الـميناء بسبب الأعمـال الأنشـائية وبناء رصيفين إضافيين، ازداد الطلب على الـماء الحلـو، سواء بالنسبة للبواخر أو احتياجات العمل والعمال. مما جعل صهريجي أحمد يعملان على مدار السـاعة دون أن يتخلـى عن زبائنه من الأهالي. يظلون سوقه الدائم بعد الانتهاء مـن الانشاءات في الـميناء، واشترى صهريـجاً أكبـر بسـعة عشرة أمتار.

غدا بنظر الـبعض واحداً من الأثرياء، ولاسيما أخوه صلاح الذي تخرج في الـمدرسة وتأهل في دار للمعلمين ليغدو واحداً منهم. يتهندم مثلهم ويقضي الوقت مع الكتب والأوراق ويقابل بالاحترام من التلاميذ وذويهم وسكان الحي،

رغم أن معاشه لا يكاد يكفيه. فتحمل أحمد عبء العائلة بالكامل وإن ظل حريصاً بالصرف رشيداً بالإنفاق. يسجل كل قرش يصرفه على أهل الدار، وتثور ثائرته لأي إسراف.

لم تكن لـه الكلمة الأخيرة في العائلة التي أوكلت شؤونـها لصلاح، بما في ذلك الواجبات العائلية. فهو الأستاذ الـمتعلم الذي يحسب لـه الحساب، ويتطلع الكثير إلى مصاهرته، ولاسيما أنه عرف بحماسه الجهادي مع القسام، وكلما ألح عليه أبوه بالزواج، باعتبار الدين يحث على الإبكار فيه، يصر على أن في ذلك ظلماً إذا لم يكن الرجل قادراً على الزواج. فيلمح أخوه أحمد على مضض باستعداده لإقراضه. فيرد عليه باستعلاء: اللي يتجوز بالدين بيجو ولاده بالفايظ... يحول الـموضوع إلى شأن آخر، فهو لا يفكر حالياً بالزواج. إلا ان والديه يفكران به ويحتاجانه، وبخاصه أمه. تريد زوجة لـه تقوم على خدمة البيت: كبرت يا ابني وأبوك طلباته كثيرة، وما بعجبه العجب. بركي إزا بتـتجوز وبجيك ولاد، بصيروا يسلّوه وبصير مثل الناس.

- جوزوا أحمد. هاي هو ما شاء ا . ما ناقصه شي، ومعه مصاري. بقدر يتجوز بدال الواحدة أربعة.

لكن أحمد الذي استولت على تفكيره النقود وليس تعدد الزوجات، كان يشكو دائماً من العوز. قاطع إيده ويشحذ عليها. كما يقول أبوه وأخوه: بكفي أنوه عندك معاش ثابت يا استاذ صلاح. بس أنا يا حسرة. تنكاتي بتشتغل بالصيف. وبتـتعطل بالشتا... وإذا تدخلت الأم يرد أحمد باستهزاء: إذا ها القد بتحبي الصغار، وشايفه حالك كبرت على الختيار. جوزيه. ترى منافسه بعدها خضرة.

كان لكل من الابنين ذريعته في الاحجام عن الزواج. وكان الوالدان محاصران بوحشة السنين ومللها القاسي بحيث غدا كل منهما يحس بعبء الآخر وثقل دمه وتفاهة الحياة بسببه والندم على السنين التي انقضت معه. أما صلاح وأحمد فكان انشغالهما الدائم لا يترك لهما وقتاً للملل أو الضجر أو الندم أو الاكتئاب.

استغرقت أحمد. أمور العمل، ولاسيما بعد ظهور منافسين عديدين عليه أن يظل متقدماً عليهم، جاهز الطلب لتزويد انشاءات الـمرفأ أو البواخر الواصلة بالـماء، بمثل ما عليه تلبية الأماكن الشعبية التي اعتادت سقايته ونداءات سائقيه. كان يريد التهام الزمن دون إضاعة دقيقة واحدة،

وهو يتصور نفسه واحداً من أصحاب الأساطيل البرية. صهاريج وشاحنات وحافلات وتكسيات. فأصبح يجهز نفسه لليوم الـموعود عندما تصل مدخراته إلى الرقم الـمطلوب، لافتتاح مكتب نقل في قلب مدينة حيفا. كان لهذا الهاجس أولويته قبل الزواج والعائلة والأولاد. يصل البيت مع الـمساء متعباً منهك الحيل لا يقلق تفكيره بعد العشاء سوى الانفراد بنفسه وإحصاء أمواله وحجم عملياته واستعداداته للصباح الباكر حيث يبدأ مشواره الـمعتاد وفي مخيلته آلاف الفرص والآمال والأمنيات.

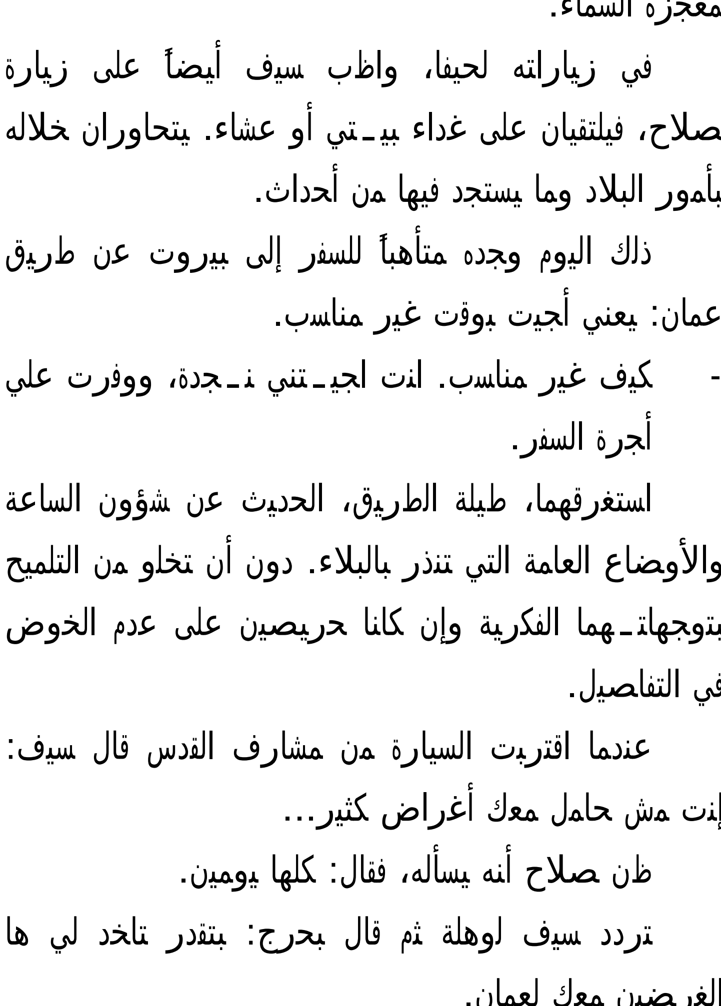
أما صلاح الـمقيد داخل مدرسته بمناهج التدريس، والـمأسور خارجها بمواعظ شيخه القسام، فقد انتقل سريعاً من موقع التابع إلى موقع القائد بتسلمه منفذية الحزب السوري الاجتماعي . صار التدريس عنده رسالة قومية أكثر منه ارشاداً دينياً. وباتساع قاعدة الحزب وتعدد حلقاته وزيادة أعضائه وتواصل اجتماعاته، لم يعد لديه وقت للتفكير بشؤون البيت فيصله غالباً بعد نوم الجميع، ليبدأ مشواره في الصباح الباكر. تدريس وتنظيم وتنظير وبناء أحلام فتيه تريد أن ترسم للتاريخ خريطة جديدة لسوريا الطبيعية.

تحوله عن الجهادية إلى حزب سعاده ، لم يؤثر في علاقته الشخصية بالقسام. إلا فيما يتعلق بالشؤون الدينية، إذ صار يبتعد شيئاً فشيئاً عن دروس القسام في جامع الاستقلال، إلى أن توقف عن حضورها نـهائياً بحجة انشغاله بالدروس التطوعية لمحو الأمية. وكان القسام يعرف أنه منشغل بلقاءاته الاجتماعية التي تبشر بالعقيدة السورية. فالحل، كما صار يراه، لن يأتي عن طريق الدين، وإنما عن طريق النضال القومي في وحدة طبيعية للهلال السوري الخصيب محتضنا إلى قلبه نجمته قبرص. لم يقطع صلته بالقساميين أو سواهم من الحركات التحررية. دينية كانت أم وطنية أم قومية.

كانت تعليمات سعاده وارشاداته أوامر لا تناقش، سواء وصلته مباشرة بالرسائل التي يمطر بها سعاده مؤيديه ومديريه وعمد منفذياته، أو من خلال البيانات التي صار تناقلها السري أمراً مألوفاً للعديد من التجار العاملين بين مدن سوريا والـمتنقلين من محطة قطار إلى أخرى أو الـمسافرين بالحافلات والسيارات: إنني أدعو إلى تنظيم جمعياتنا وأحزابنا الجهرية والسرية، وجعلها تسير على مبدأ

قيام كل فرد بما يدعوه إليه الواجب القومي، إيماناً بأمته التي لن تموت وبحزبه الذي يسير به دائماً إلى الأمام، ودمتم للجهاد، وتحيا سوريا.

حافظ صلاح على علاقته بسيف، وهو يزوده باستمرار بالـمقالات الـمتضمنة مبادى الحزب القومي، التي تعتبر اليهودية حركة دينية، والصهيونية حركة عنصرية لا يمكن اجتثاثها إلا بقومية سورية اجتماعية. ومثلما واظب على زيارة القسام، واظب على زيارة سيف كلما ذهب إلى القدس لأمور عائلية أو حزبية. لهذا لم يثر انفكاكه من عصبة الجهادية أي مشاعر عدائية من قبل القسام الذي لم يفاجأ بها. فالقسام أصلاً لا يعول على الـمثقـفين ولا الأثرياء، بمثل ما يعتمد في حركته على العمال والفلاحين والفقراء . إنـهم بنظره أكثر قابلية لإيقاد روح الثورة من أولئك الخائفين على وظائفهم أو ثرواتـهم. وإذا كان سيف استثناء الآن، فإن الزمن القريب سيكشف إن كانت روحه جهادية أم أنه مثل معلمه الحاج أمين تعنيه فقط شؤونه العائلية وأنه مع أول مواجهة تعرض ثروته للخطر يلجأ إلى الهرب. كان سيف بالنسبة للقسام ضروري للجهادية، من أجل السلاح والـمال.



فهما ساقاها الحديديان، ومن دونـهما تظل مقعدة تنتظر معجزة السماء.

في زياراته لحيفا، واظب سيف أيضاً على زيارة صلاح، فيلتقيان على غداء بيـتي أو عشاء. يتحاوران خلاله بأمور البلاد وما يستجد فيها من أحداث.

ذلك اليوم وجده متأهباً للسفر إلى بيروت عن طريق عمان: يعني أجيت بوقت غير مناسب.

- كيف غير مناسب. انت اجيـتني نـجدة، ووفرت علي أجرة السفر.

استغرقهما، طيلة الطريق، الحديث عن شؤون الساعة والأوضاع العامة التي تنذر بالبلاء. دون أن تخلو من التلميح بتوجهاتـهما الفكرية وإن كانا حريصين على عدم الخوض في التفاصيل.

عندما اقتربت السيارة من مشارف القدس قال سيف: إنت مش حامل معك أغراض كثير...

ظن صلاح أنه يسأله، فقال: كلها يومين.

تردد سيف لوهلة ثم قال بحرج: بتقدر تاخد لي ها الغرضين معك لعمان.

- أنا مار مار بعمان. لمين .؟.
- الحقيقة الغرضين لاثنين صحاب. واحد بعمان وواحد قريب مادبا.
- مادبا.؟. تساءل صلاح.
- ما عليك إنت. سلّم الاتنين لصاحبي بعمان، وهو بتكفل بالغرض التاني للشيخ فرحان.

صندوقان ممتلئان بعلب سجائر انجليزية حملهما صلاح إلى جبل القلعة، فلم يجد في البيت شمس الدين، فاستلمت عنه الأمانة ابنتـه حكمت ذات الستة عشر ربيعاً. عيناها تبرقان كدرتين خضراوين، وقد تدلت جديلتا شعرها الأشقر حول وجه أبيض مستدير. هيفاء غيداء ممشوقة القوام. متـهندمة حسنة الثياب. وجهها بشوش التعابير بريء كوجه طفل وهي تنظر إلى صلاح المثقل بالصندوقين، وقد تراخى مع لهاثه وهو يحملق بها كأنه حمال يقف بين يدي أميرة شرقية تحسن رد التحية، بمثل ما تحسن الاستقبال وهي تنادي الخادمة بنبرة هادئة آمرة، فأتـتـها مسرعة: خذي الأغراض من الأستاذ. بدي أقول لك تفضل، بس بابا مش هون. إذا بتعرف

تندل على قهوة أبو عبده، يمكن تلاقيه هناك. على كل أنا راح أوصل رسالتك.

- واحد للوالد، وواحد للشيخ فرحان... قالها بلعثمة وارتباك، وهو المسافر إلى لبنان وفي ذهنه تغيير العالم بزعامة انطون: يعني بلاقيه في القهوة.

- هو دائماً ها الوقت هناك. إذا ما لقيته بقولوا لك وين هو...

لم يجده هناك ، لكن لشدة تعبه من المشوار، آثر الراحة لبعض الوقت في المقهى، فطال به المقام حتى المساء، ولم يأت شمس الدين.

صارت الأعين تتساءل حوله، ومن حين لحين يأتيه أبو عبده مستجوباً، فاتخذ أمره على المبيت في أي فندق قريب.ضاع النهار والرجل الذي يقصده لم يأت ليتعرف عليه. خاص. المهم تخلص من عبء الأمانة. صندوقين دخان يا ابن الحجاج.

لم تفارق حكمت مخيلته طيلة ليلته وطيلة الطريق إلى لبنان. حتى في اجتماعه بمديري المنفذيات مع انطون،

كانت تـتراءى لـه بابتسامتـها الساحرة، فيبتسم بـحبور وافتـتان. الأمر الذي لاحظه أنطون.

بعد الاجتماع، سأله انطون بحميمية عن أحواله وأوضاع عائلتـه، كما يفعل مع الجميع، وبخاصة القادمين من بعيد. فقال صلاح: أبوي وأمي مقلقين راسي بالجيزة وأنا بقول بكير.

- ما فيه بكير بالجيزة. على حساب انتوا الـمسلمين بتقولوا عنها قسمة ونصيب.
- أنا بقول لهم هيك.
- يعني لهلأ ما فيه وحده ببالك... مالك سكت.
- فيه وما فيه.
- شو ها الحكي.!. إذا فيه معناه ما بكير. إنت حابب تحكي لي شي يا رفيق؟.
- الصحيح إنوه البنت اللي ببالي شركسية.
- شركسية والا أرمنية. حتى إن شاء ا موسوية. إذا كانت هي وعيلتـها منصهرين بالأمة السورية، معناه أنـها سورية وأهلها سوريين. بعدين احنا سلالتنا أبوية، ما أمومية مثل اليهود. يلا. قوي قلبك وتوكل على ا وخلي السوريين

يزيدوا بولادك يا صلاح. على حساب. ما النبي محمد قال" تزوجوا الولود الودود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة".

- حتى الأحاديث اللي ما بعرفها، بتعرفها يا رفيق.

٧

عرض على صقر في البداية أن ينضم للحركة الوطنية التي تنتظم في حزب الاستقلال، لكن صقر رفض التحزب بإصرار. تذرع بالخوف على مشاريعه مع الانجليز. لا يريد أن يثير حوله الشبهات. ثم إنه لم يتحول عن البنك الكنعاني حتى يتحول إليه. إنه يتعامل مع البنك العثماني الانجليزي، بنفس الدرجة التي يتعامل فيها مع بنك سليمان. الانجليز راضون عنه، كذلك الاستقلاليون. لكن لأجل علاقته التاريخية مع سليمان، فإنه سينحاز إليه ويزيد من حجم تسهيلاته عنده شريطة أن تكون الفائدة أقل مما يستوفي البنك العثماني. كان كلاهما موقناً بأنه يتعامل مع الآخر بعقلية تجارية، وإن تخللت المفاوضات بينهما حكايات وذكريات وشعارات. استجاب سليمان بعد ساعات من الأخذ والرد، على أن يبقى ذلك سراً بينهما. فهذه الشروط لن يعطيها لأحد سواه. لكنه قدم العرض نفسه للعديد من التجار والبنائين والمتعهدين في عمان والقدس ويافا وكل مكان تصل إليه أقدام البنك أو آذانه. ظل يقوم بجولات

ميدانية في الأسواق، وإذا ما تناهى لسمعه عن مقاولة كبيرة أو متاجرة محرزة أو مزايدة ضخمة، تنشـق الأرض عنـه وراء الطامعين بها ليمضوا قدماً مطمئنين إلى توافر التمويل، بمثل اطمئنانه إلى الضمان العقاري الـمطلوب. ولبعضـهم كان يكفيه ضمانتـه الشخصية، حتى يوافق لـه مـن غيـر أخذ ورد. تعلم في أمريكا أمرين تأسس عليهما عمله البنكي، فالإيراد مرهون بالـمخاطرة، ارتفاعاً وهبوطاً. والـمخاطرة مرهونة بحجم الضمان الذي يحدد ماهيتـه وحجمه. وقبـل هذا وذاك جدوى الـمشروع وأهلية أصحابه. لهذا فإنه اعتبر اسم صقر ضمانة كافية، طالـما اطمأن لعقلية صـقر التـي يعتبرها تجارية بالفطرة. فهـو لـم يغيـر فـي أحوالـه الـمعيشية بعد كل هذا التنـامي الـمهني. ظـل بيتـه متواضعاً في حجمه وأجرتـه، وهو الذي يمتلـك الأمـوال والـمستلزمات الكافية لبناء قصر في أعلى جبـال عمـان، وكلما سدد صقر حساب مشروع قديم، ينتاب سليمان رضى نفسي كبير يصل به إلى أعلى درجات الغرور: ما فيه واحد مثلي بلقطها على الطاير. أنا كنت عارف إنّوه ما راح يتأخر يوم عن التسديد.

ظل يتابع كل صغيرة وكبيرة ويتـدخل فـي شـؤون العاملين والوظيفية والشخصية، رغم توسع البنـك وامتـداد فروعه وازدياد العاملين وتشعب العلاقات وتوالي اللقـاءات مع الزبائن القائمين والـمتوقعين. كان مغرماً بالتفاصيل إلى درجة الهوس. فإذا وصل فجأة كعادتـه، إلى عمان. يقـول لمحتسب وهو يباغتـه في مكتبه: ا أكبر، بعدها السـاعة عشرة وصرت مدخن عشر سجاير.

كان يكره التدخين، إلى درجة أن موظفيـه يـ ـخفون سجائرهم وينظفون منافضهم ويطلقـون العنـان للمـراوح الهوائية، بـمجرد إطلالتـه. ولـم يكن ينجـو أحـد مـن تعلقياتـه وتدخلاتـه التي جعلتـه مرئياً لهم في كل ورقـة وشيك ومنفضة، وحتى في سلة الـمهملات: هـاي مسـوده وإلا مبيضة. احكي.

- مسودة سيدي.

- وإذا كانت مسو دة بترميها وكل الـمكتوب عليها سطرين. ما بتقدر تستعملها مسودتين والا ثلاثة. والظهر تبعها ما بنكتب عليه. لتكون مفكر إنوه الورق بيجيـني ببلاش. أنا بدفع حقه مصاري يا محترم، مثل ما بدفع لك

حقك منشان تجيب لي مصـاري. حسيب. بتخصم على الـمحترم فلسين.

كان يتباهي بعشقه للتفاصيل والجزئيات، حتى مع أبنائه، ولاسيما فتوح الذي انصاع لرغبة أبيه على مضض، بعدما هدده بقطع الـمصروف عنه إذا تأخر بالعودة. كان قد تورط بزواج مدني من أميريكية خلبت لبه، رغم أن لديها ابنة حملتـها سفاحاً من غيره. وبعد عام من اقترانـه بها أنجبت منه ولداً أسـمياه سليمان. علّه يشفع لـه عند أبيه بعد أن يقرر العودة إلى القدس. مثلما ستخفف من وقع الخبر شهادة الدكتورة. لكن إصرار أبيه على عودتـه مكتفياً بالـماجستير، غير كل شيء. وقبل أبوه شرطه في إكمال الدراسة لاحقاً، كما وافقت زوجتـه الأميريكية على انتظار عودتـه إلى أميركا. وصار يحول لها شهرياً، باسم مستعار، معظم راتبه من فرع القدس الذي تولى إدارتـه بإشراف مباشر من أبيه.

كان يضيق ذرعاً بالـمنصب الذي أقعده من غير سلطات وكأنه فأر في مصيدة. يخاف انفتاح الباب كي لا ينقض عليه القط بالـمخالب والأنياب: إذا بدك تصير مدير

مثل الناس، بدك تعرف ليش البرغي مدقوق هون مش هناك، وليش هاي اللمبة انحرقت وهاي ما انحرقت والتنتـين من نفس الـمحل واتشغلوا بنفس الوقت...

أحياناً يتمادى معه أكثر من الـموظفين: طول عمرك راح تضل غشيم، ولك دارس اقتصاد وما بتعرف الفرق بين بوليصة الشحن وشهادة الشحن. هادا بكرة أذا بتـتجوز وبيجيك عر ولاد، يمكن تسجلهم كلهم مع بعض في شهادة ميلاد. ما بعرف لمين طالع. وبتضل تشكي لجدك إني حابسك في قفص مثل الجردون.

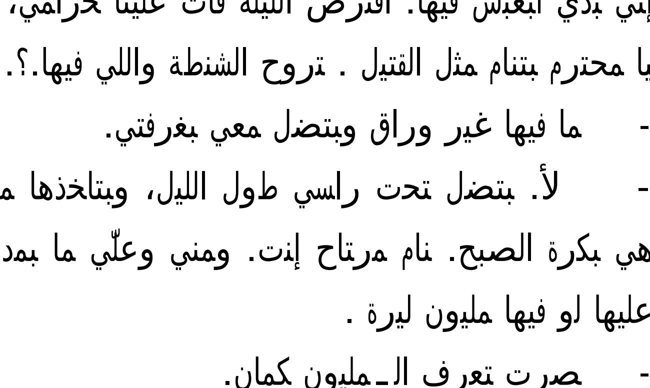
الوضع كان معكوساً مع الجد. فقد كان سليمان يتعوذ من الشياطين في مجالساتـه مع أبيه. فإذا كان سليمان مولعاً بالتفاصيل فإن لولعه حدوداً لا يتوقف عندها أبوه: يابا قاعد تحط بالشاي سكر كثير وهادا بضر صحتك. لا تفكر إنك بعدك صغير.

- أنا بحب الشاي حلو.

- وأنا بحب أيامك تكون حلوة. من هيك لازم تخفف السكر. يا أم سليمان. من اليوم وطالع بتجيـبي الشاي محلى

وخالص وعلى العيار هه. كل كاسة إلها معلقة سكر بس. مفهوم.

- يابا أنا ما بحب الشاي محلى وخالص. يحب أحيله بعد ما ينغلي.
- اتركك من عوايد الأميركان. إنت هون في بيت أبو سليمان.
- راح تخليني أرحل عن ها البيت.
- وين ترحل؟. اجري على إجرك وين ما تروح أنا معك.
- كيف وين ما أروح إنت معي.؟.
- لعاد أدشرك لحالك. ما صدقنا صار عندنا بنك، حتى يشلحونا إياه ولاد الحرام، ناوليني الشنطة يا أم سليمان .
- دشريها محلها. ا أكبر. حتى الشنطة بدك تبعبش فيها يا أخي.
- صرت أخوك يا ابن أم سليمان. ولك هاتيها أحسن ما أزفر لساني. ومين قال لك



إني بدي أبعبش فيها. افترض الليلة فات علينا حرامي، وإنت يا محترم بتنام مثل القتيل . تروح الشنطة واللي فيها.؟.

- ما فيها غير وراق وبتضل معي بغرفتي.

- لأ. بتضل تحت راسي طول الليل، وبتاخذها مثل ما هي بكرة الصبح. نام مرتاح إنت. ومني وعلّي ما بمد إيدي عليها لو فيها مليون ليرة .

- صرت تعرف الـ مليون كمان.

٨

منذ أحداث البراق الدامية، أخذت قناعات مـال النبـي بالتحول التدريجي من أجل إقناع الوكالة اليهودية للصـرف بسخاء على مشروعه القاضي بتملك أكبر الـمساحات مـن أراضي شرق الأردن. ستكون مأوى احتياطياً لـو سـاءت أمور اليهود في فلسطين. ولاسيما بعد صدور كتاب باسـفيلد الأبيض الذي أثار سخط اليهود لأنه أعطى العـرب فرصـة أكبر مما يتوقعون. من جهة أخرى سيحقق بيـع الأراضـي أرباحاً طائلة لو انعكس الوضع وسـاءت أوضـاع العـرب الفلسطينيـين. إنه على استعداد للمساهمة، لكن تظل موارده محدودة، ولا يمكنه التخلي عـن سيولتـه كاملة وهي التـي يقبض فيها على الـمحتاجين من التجار وملاك الأراضـي، فيتحكم بالتجارة وتؤول إليه غالباً معظم الـمرهونات.

ظل الـموضوع يتراوح بين زعماء الوكالة اليهوديـة والـمندوب السامي في فلسطين الذي أبدى حذراً شديداً مـن فتح أبواب شرق الأردن للمستوطنين العرب أو اليهود. ليس

لأنه ضد الفكرة ولكن لأن الظرف الحالي ليس مناسباً، كمـا يدعي، معتذراً عن التدخل الـمباشر من قبل الانجليز.

الإشاعات التي صارت تـتناقلها الألسن عـن تـأجير أراضي غور الكبد لليهود لمدة ثلاثة وثلاثـين عامـاً قابلـة للتجدد، حفز الوكالة اليهودية على تبني فكرة مال النبي، الذي ما إن تلقى منهم التأكيد، حتى قدم لهم لائحة ينصف دزينـة من كبار الـملاكين مستعدين للبيع الـمباشر أو مـا يشـبه البيع وذلك عن طريق التأجير لتسع وتسعين عامـاً. وكـان درداح على رأس القائمة.

لما سأله ممثل الوكالة اليهودية، إيمانويل نيـومن، إن كان متأكداً من جدية النوايا لدى هؤلاء، أجاب بأنـهم ليسوا جديين فحسب، بل متكاتفون معاً من أجل البيع. لقد انشـأوا تكتلاً يرأسه درداح باسم حزب التضامن: تصوروا، أن بدوياً ينشىء حزباً من اثني عشر فرداً فقط، وقبيلتـه تعد بالآلاف. أهذه نوايا جدية أم تعهدات علنية...

قـدم وثيقة أخرى تؤكد ادعاءاتـه. سند بصـم عليـه درداح في مكتب البلدية معززاً بتوقيعات الشـهود، رهـن

بموجبه لمال النبي ٧٥ دونم في قرية بارازين مقابل ٦٥جنيه استرليني.

أما فرحان الذي ترتبط كلمة البيع في ذهنه بمحصـول القبة فحسب، وما عداه، يتمسك به تمسكه بـأرض الأجـداد والأحفاد، دون أن يعرف لـه جد ولم يأتـه حفيد بعد، فقـد تحول عنه مال النبي إلى ملاك الأراضي الكبـار، وصـار يتقصى عن أحوالـهم وظروف معيشتـهم. مـن يحـرص منهم على النقود ومن يروم انفاقها. من يتنازع مع شـركائه في الـميراث، ومن سلب عقلـه تحرره من اسـتعباد الأب وتحولـه بعد موتـه إلى سيد مطاع. نجح مع العديدين الذين امتصوا برهاناتـهم وبيوعاتـهم سيولتـه، فخشي أن يلجـأ إلى تمويل نفسه عن طريق البيع، وهو مـا سـيفقده مزيـة التحكم بالـمصائر ويعرقل مشروعه القومي. لـهذا ألح على الوكالة اليهودية، لكن دون جدوى.

عاد من القدس خائباً لأن الصندوق القـومي اليهـودي استنفد الكثير من رصيده في شراء الأراضـي الفلسـطينية. الـهدف الآن هو فلسطين ولم يأت بعد دور مناطق الجوار. إلا أن الوكالة اليهودية أحست بالخطر، ليس بسبب حـوادث

البراق الدامية التي يذكرهم بها مال النبي على الدوام، بل بما نتج عن هذه الحوادث من تحول في سياسة حكومة الانتداب وصدور الكتاب الأبيض الذي يحدد الـهجرة اليهودية ويكبح جماح الاستيطان. والأهم، أنه يمنع الوكالة اليهودية من حق الاشتراك في أي حكومة خاصة بـالوطن القـومي لليهـود، وحصر دورها بالتدابير التي تـتعلق بإعانة اليهود ومساعدة البلاد على النمو والرخاء.

طلب منه رئيس الوكالة أن يبادر لإنشاء سـينما فـي شرق الأردن، ليس بهدف التجارة، وإنما بهـدف التـرويج لليهود من خلال الأفلام الـمقتبسة مـن حكايـات التـوراة ووصايا التلمود. استغرب مال النبي الأمر، فـذكره رئـيس الوكالة بما جاء في بروتوكولات صهيون. وحتـى يحمسـه للاستمرار وعده بالتمويل القريب، طالباً منـه الـ ـمواصلة بأموالـه الخاصة التي سيعاد دفعها لـه مليماً مليمـاً. إنـه رجل ناجح بإدارة الأموال، بمثل ما هو ناجح بإدارة الأعمال والتعامل مع الناس مـن جميـع الـ ـمستويات. اختراقـه للزعامات البدوية، لم يمنح الوكالة اليهودية أراضي شاسـعة فحسب، بل أن هذه الزعامات ستصبح تحت وطأة الرهونات

واغراءات الـمال، ضمانة للحيلولة دون مشاركة قبائلها في أي اضطرابات، وقد يجدون فيها خير مجير إن ساءت أمور اليهود في فلسطين. أما إذا نجـ ـحوا فـي تحقيـق حلمهـم القومي، فسيكون لمال النبي دور كبير في إدارة سياسة الدولة العبرية الـمنتظرة، طالـما أنه وحده بمثابة حكومـة خفيـة تمتلك الاقطاعيات وتقبض على الـمصائر، وتؤسس حزبـاً من كبار الـملاك.

سعى للقاء زعماء البدو القريبين وفلاحي الأرياف في الجوار، كما عزز علاقتـه بالعديد مـن الارسـتوقراطيين. وهو وإن دفع ابنه عبد اللطيف لمصادقة مرزوق، وكان على استعداد لتزويجه من ساره ، وزار فرحان مراراً وشارك في جاهتـه الكبيرة، إلا أنه لم يخطر بباله أن يتجـاوز حـدود القبة، طالـما القبائل ترتعش من بارودة زعل التي لا تمهل ولا تـتمهل.

بمجرد أن عرف عن مقتل زعل والطريقة التي قتـل بها. تقصى عن درداح الذي صارت مقولتـه " بارودتـ ـه بالدم تـتحلى"، مسخرة بين القبائل، تقال عن كـل متـبجح ترتجف يده بالسلاح. أرسل إلى فرحان يطلب مساعدتـه في

لقاء الشيخ درداح. وكان ما كان من حصوله علـى الـرهن الكبير في قرية بارازين.

حزب التضامن الذي اطمأنت لوجوده الوكالة اليهودية، آل إلى الزوال في أشهر قليلة. إلا أن أعضاءه ظلـوا علـى اتصال بمال النبي، وفي مقدمتـهم درداح، الذي خلبت لبـه هدية مال النبي بمثل ما أثارت غيظ العديـد مـن الشـيوخ والزعامات. فقد جاء بها مال النبي راكبـاً وترجـل منهـا والـمفتاح في يده ليقدمها بتواضع لدرداح: تستحق يا شـيخ أحسن منها. بس با ما لقيت عند الوكيل غير هاي الفورد. ولو كان عنده بويك مثل بويك كاوب، كان جيت ليـك بيهـا بالحال. وا منـزلتك عندي أكبـر مـن منـزلة هـاذا الانجليزي اللعين.

- هديتك مقبولة يا صاحب. بس منوه يسوقها هان.

- ول. السواق من عندي لبين ما يتعلم واحد من ربعك. ترى ما بدها شي. دير الـمفتاح واضغط على البنـزين واللي يصير يصير.

- آخ منك يا بو العبد، الصعب عندك يهون، ومثلك ما شفت صاحب لا هان ولا هناك. قاصداً بذلك الجبيلية

والشتيوات، الذين فهم مقصده من كان حاضراً منهم. لكن استياءهم من إهانتـه، لم تكن تقاس بأي حال من الأحوال مع حسدهم الذي طفح في وجوههم الـمصفرة وهم يحملقون بالـمفتاح يلوحه درداح بسلسلتـه وكأنه عقرب يتوقع كل واحد منهم أن يرميه عليه.

بعد أيام وصل درداح بالفورد إلى عمان، فاستقبله مال النبي بحرارة وترحاب، وذهب معه إلى دار البادية، ليبصم فيها على بيع مباشر لثلاثة آلاف دونم من أرض صحراوية تنبسط شرقاً من معسكر زيزيا ومطارها الحربي. حثتـه زوجتـه الأرملة على البيع دونما تردد أو تأخير: الانجليز ماخذين الأرض من غير استئذان ولا إيجار. الأرض أرضك والكوشان كوشانك. بيعها لأول طارق ويصطفل بعدها مع الانجليز.

أغضبت الصفقة رئيس الوكالة اليهودية، فبماذا ستفيدهم هذه الصحراء. لا موارد فيها ولا ماء. حتى البهائم لا يمكن توطينها فيها. من الآن فصاعداً، على مال النبي أن يقدم للوكالة تقريراً مفصلاً عن حالة الأراضي التي يقوم بشرائها. لا يهمهم أن تمتد آلاف الدونمات. بل الـمهم أن تكون قابلة

للاستيطان أو الاتجار، ولو انكمش الحجم إلى دونم هنا ودونم هناك. أما سيارة الفورد فقد رفضوا مجرد البحث في أمرها: السيارات تـهدى للملوك والأمراء، وليس للبدو الحفاة.

لم يكن ذلك هو القيد الوحيد الذي كبل مال النبي، فقد سارت الأمور جميعها على عكس ما يريد، فالحزب الذي ظن أنه سيصبح حزب الأغنياء زال من الوجود وكأنه ما كان. والأسخم، أن الزعامات الوطنية من رجالات البلد، مدنيين وريفيين وبدو مع جمع غفير من الجماهير، عقدوا مؤتمراً شعبياً في عمان، وأصدروا بياناً بتوقيع رئيس الحكومة نددوا بعمليات بيع الأراضي، ودعوا إلى التصدي للبائعين الـمارقين ونبذهم من حظيرة وطنهم المتآخي مع فلسطين. كان للبيان تأثير واضح على الشارع. إذ خرج الـمئات يتظاهرون في مركز البلدة ويهتفون لفلسطين ويتـهددون اليهود والـمتعاملين معهم وقد تصادف الحشد الجماهيري مرور جلوب في الأثناء، مما عرضه للضرب والرمي بـالحجارة والقاذورات.

حتى درداح أخافه هذا الحدث الذي تناقلتـه الألسن من مكان إلى مكان. وصارت تراوده الشكوك في مال النبي الذي

كان يزوره باستمرار مثقلاً بالهدايا ومستعداً للدفع ولو على الحساب. انقطع عنه بعد الـمؤتمر ولم يعد يعتب ديار الجبيلية. ربما يكون انجليزياً مثل جلوب: مستحيل... قالت لـه زوجتـه الأرملة، فالانجليزي يتباهى بـجنسه وجنسيتـه بعدما قبض انجليزي على حكومة عمان وقبض آخر على البوادي والأرياف... عجيبة هذه الـمرأة. إنـها ترى دائماً ما لا يستطيع أن يراه. ولربما أبعد مما كانت تراه زرقاء حديس. لو قدر لـه أن يتزوجها قبل فناطل: وا ما سواك يا زعل غير زرقاء اللطيفات ، ويش يفيد هسع ها الحكي. لو كان بختي مثل بختك كنت أخذت ولو بالحرب حرمة فناطل، بدال ما أقضي العمر مع هظيك الحرمة اللي ا ياخذها: إن ما جاك، لويش إنت تروح ليه. إن كان يهودي والا مجوسي، هو يخاف ما هو إنت يا درداح، ويش سويت إنت.؟. بيع شرا على الـمكشوف وبنص البادية، مثاك مثايل، بس اللي مثل هاظا الزلمة قليل.

لم يجد مال النبي، بل وجد ابنه عبد اللطيف. أخبره بأن أباه ذهب إلى القدس وقد يغيب يومين ثلاثة. فلم يشأ أن يعود أدراجه، وطلب من السائق أن يتجول به في البلدة. يريد أن

يختال بسيارتـه في عمان، فقاده عبر جسر العسبلي في طريقه إلى الجوفة حيث قصور الأغنياء. لكن ما إن انحدرت السيارة عن الجسر، حتى فوجىء بالعديد من الصبية يمرحون بجانب السيل وقد بدا عليهم الفقر والرثاثة والشراسة. بعضهم يلعبون وآخرون يتشاجرون والبعض يتقافز بين الأشجار أو يقفز منها بثيابه في مجرى الـماء. لكنهم جميعاً أصبحوا جمهوراً متجانساً محملقاً بالسيارة التي ما إن تجاوزت ملعبهم حتى راحوا يسخرون منها: إي إي إي...

- بس ولد ... صرخ درداح... فجاءه الجواب بالأحجار وهم يرددون ساخرين: إي إي إي...

ضغط السائق على دواسة البنـزين، لتنطلق مع انطلاقتـها عشرات الأحجار التي راح الصبية يرمونـها خلفها بكل ثقلهم وقوتـهم. فوصل درداح بسيارتـه أعلى الـمرتفع الـمطل على الـمدرج الروماني، حيث يتربع فوقه قصر البلبيسي.

ظن السائق أن داخلية درداح مغلفة بالشاعرية. فالشعر أصلاً لعرب الصحراء الذين لا يملون تأمل فضائهم

الـمفتوح فيها، مثلما يتأمل درداح الـمدينة من تحتـه وهو يفكر بطريقة تنقذ هيبتـه. فالحزم في موقف كهذا قد يزيد تورطه. كل شيء إلا أن يتندر السائق به أمام عشيرتـه: با ، لي رغبة أتمشى بروحي. ترى أتعبني أوتومبيلاك هاظ. ويمكن ألقى لي شي أشتريه للحرمة. ألقاك عند الجامع. تقدر تستنى هان ها الحين، وبعد ساعة بالكثير أكون تسليت بالفرجة على الدكاكين...

توقف أمام محل شاميات مفتوناً بالبضاعة الـمستّفة باتقان وكأنـها مرسومة على الجدران.وأكثر ما خلب لبه، سرج جلدي مزركش بالـمعدن الفضي، ربما لم يحز مثله أغنى شيوخ العربان: ويش هاظا...

نظر إليه صابر بازدراء، بينما عدنان يلمع الرفوف ويمسح عن البضاعة الغبار. خطف نظره إلى معلمه الذي غمر الاشمئزاز وجهه، قبل أن يرد على درداح: بدوي وما بتعرف إيش هادا. روح روح من هون... قال عدنان باستياء.

- ويش قلت .؟.

- مثل ما قال لك... عقب صابر بنفاد صبر: تسهل ا يعطيك .

- ا ينطيني؟ ايش تحسبـني؟ شحاذ .

- قلت لك روح من هون... ونـهض صابر والغضب يشع من وجهه. كذلك الأمر بالنسبة لدرداح الذي تصلب في مكانـه متحدياً: ما بدك تروح.

- لويش أروح؟!. ودي أشتري.

- إنت تبع شرا يا مشرشح... ودفعه في كتفيه، فارتد درداح خطوة إلى الوراء، وقبل أن يصحو من الخضخضة، دفعه صابر دفعة ثانية، وكان عدنان لـه بالـمرصاد وهو يمسكه من عباءتـه ويجره إلى الوراء: إنت ما تدري منوه أنا؟.

- ولك مين ما تكون تكون. اطلع بره. وسخت لي الدكان... ودفعه ثانية. لكن درداح دفع عنه عدنان بقوة، وهم بالاندفاع نحو صابر الذي كان أسبق منه وهو يحمله من وسطه إلى خارج الـمحل ويبطحه أرضاً بمساعدة عدنان: وا برميك بالحبس إزا بشوفك بتوقف قدام الـمحل...

خلصه بعض الـمارة، فنهض درداح وهو يهدد: وا لتنذبح الليلة يا بو طربوش... أعـاد صابـر قول درداح ومقلداً صوته وطريقة حديثه، لكن بقرف: تنذبح. وأضاف مهدداً روح، روح... ابتعد البعض بدرداح مع مرور عبد اللطيف : شو فيه صابر بيك؟.

- واحد هلفوت بدوه يذبحني... قال صابر ساخراً.
- يا بيك. إنت عارف مين هادا الهلفوت؟
- ومين بدوه يكون؟... رد ساخراً وأضاف: عوده أبوتايه.؟.
- عوده مات يا بيك. بس هادا شيخ مشايخ الجبيلية بعده ما مات.
- شو.؟.
- مثل ما قلت لك هادا اللي قتل زعل الجبيلي، وإنت تعرف الـمثل " بارودة زعل ما تستنى".

قـالت لـه زوجتـه الأرملة: بلا بارودتك بالدم تـتحلى بلا بطيخ. كان لزوم تذبـحه حينها واللي يصير يصير.

- يا حرمة قلت ليك، حاصرني مع ثاني وما قدرت أتحرك.
- إيه اللي صار صار.
- صدقيني ما ينام الليلة بفراشه إلا وهو مقتول.
- منشان تسوينا مضحكة بين العربان.
- ولويش أسويك مضحكة. أنا ثاري ما ينام.
- ما ليك عنده ثار. لو قتل ولدك. لو قتل امك. لو قتل فرسك، يكون ليك عنده ثار، أما يبطحك بنص الطريق، وتنهزم لسيارتك. راح من إيدك حق الثار.
- والـمقصد.؟ أمرقها ليه.؟.
- لأ. تنطيها ليه.

تلك الليلة فوجئت ديار الجبيلية بمجيء جلوب في سيارتـه وليس معه سوى مرافقه وسائق، كان الغم والكدر واضحاً في وجه درداح: الـمسامح كريم يا شيخ.
- مِن من دريت..؟
- إجاني صابر بيك بنفسه يا شيخ ومعه عشر تجار. بحلف يمين إنه لو كان عارف إنك شيخ درداح، ذبح لك الذبايح... بلع درداح ريقه: وهاي هو مرسل معي السرج

هديه منوه ليك... واشار إلى السائق الذي أسرع إلى السيارة ليعود منها بالسرج: هاظا السرج ما يلزمني.

- الرجل يعتذر، وانت ماهو معقول تنـزل مستوى واحد مسكين. مقطوع من شجرة وعيلتـه بالشام.

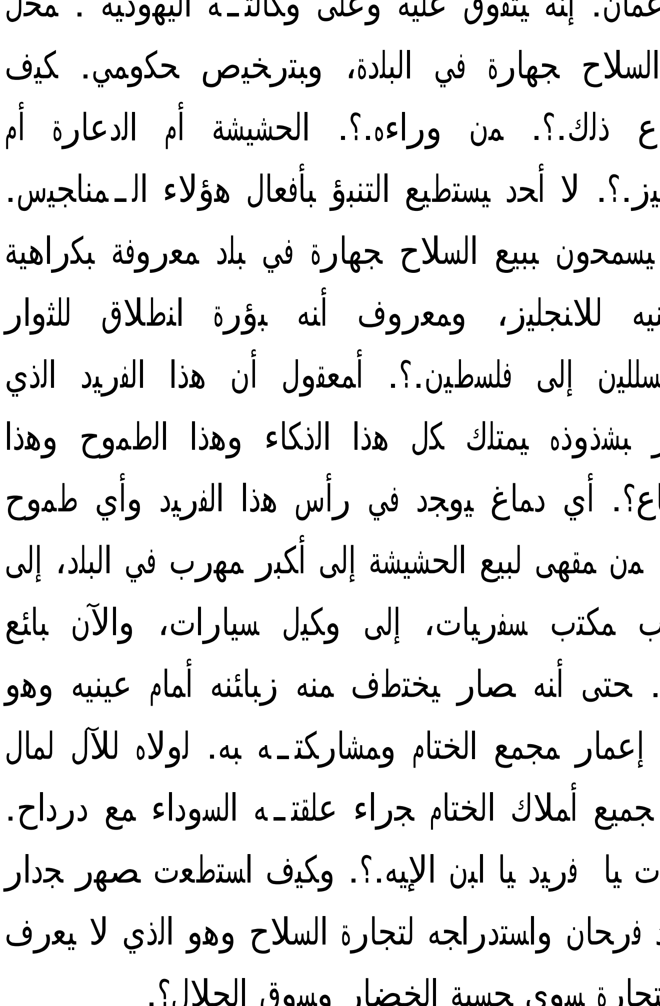
- تقول صح يا القايد. أنا شيخ والشيخ لزوم يكون حليم. بس زلم الشيخ يمكن ما يطيقوا ينهان الشيخ. نصيحتي يا القايد، إنوه صاحبك هاظا يرحل هسع عن عمان، لأنه زلم الجبيلية نازلين باكر لسوق الحلال، وإن شافوا بطريقهم الدكان يمكن يذبحوه.

- معقول يا شيخ، قطع أرزاق مثل قطع أعناق.

- اسمع يا القايد، آني مثل ما قلت ليك. لزوم الشيخ يكون حليم، بس ما أضمن زلمي. منشان هيك ما راح أصغر قدام ربعي وأحط راسي براس هـاظا الـمقطّع أبو طربوش. آني ما راح أأذيه. بس نرد ليه السرج اللي أقدر أشتري مثله ألف من بلاده الشام. وأنقل ليه نصيحتي. إن قبلها كان خير، وإن ما قبلها ما أدري ويش يسوي زلمي بيه. ما هو كل جبيلي حليم مثل درداح.

تبرع جلوب بتزويده بالتركات، فنقل صابر في ليلتـها جميع بضائعه إلى مستودع غير مكتمل البناء بجانب محطة القطار. وقبل أن ينبلج الصباح كان العمال قد انتـهوا من نزع الآرمة.

قام صابر بالتوقيع مع فريد على عقد إيجار لفرحان في أول عقد من هذا النوع في عمان. أثار إغلاق محل شاميات تساؤلات الكثيرين باستثناء مال النبي الذي سمع من ابنه ما حصل بين صابر ودرداح. لم يقلقه الأمر وإن تمنى أن يزداد وضع الختّام سوءاً وتنهار تجارتـه وتفلس مشاريعه ليأتيه صاغراً على ركبتيه. لكن تلك الأمنية، لم تأخذ حيزاً كبيراً في حلم مال النبي. كانت مشاريعه الأخرى تجعل صابر بنظره قزماً لا يطمع به، وغالباً ما ينساه كلياً وهو يفكر بالقيود الـمفروضة عليه من قبل الوكالة اليهودية والتـهديد الذي سمعه على ألسنة الزعامات الوطنية. لكن بمجرد أن افتـتح محل " بيت السلاح" متألقاً بالبنادق والـمسدسات، حتى أحس بأن جميع ما فيه من قطع مسددة إليه وإن الطلقات تندفع نحوه. اهتز كيانه وارتبك ذهنه واحتار في هذا الفريد الذي استطاع اختراق الرجل الحديدي فرحان. اليهود يسعون



إلى أقاصي الدنيا لشراء السلاح، وهذا الفريد يتاجر به في قلب عمان. إنه يتفوق عليه وعلى وكالتـه اليهودية . محل لبيع السلاح جهارة في البلدة، وبترخيص حكومي. كيف استطاع ذلك.؟. من وراءه.؟. الحشيشة أم الدعارة أم الانجليز.؟. لا أحد يستطيع التنبؤ بأفعال هؤلاء الـمناجيس. كيف يسمحون ببيع السلاح جهارة في بلد معروفة بكراهية مواطنيه للانجليز، ومعروف أنه بؤرة انطلاق للثوار الـمتسللين إلى فلسطين.؟. أمعقول أن هذا الفريد الذي يجاهر بشذوذه يمتلك كل هذا الذكاء وهذا الطموح وهذا الاندفاع؟. أي دماغ يوجد في رأس هذا الفريد وأي طموح لديه؟. من مقهى لبيع الحشيشة إلى أكبر مهرب في البلد، إلى صاحب مكتب سفريات، إلى وكيل سيارات، والآن بائع سلاح. حتى أنه صار يختطف منه زبائنه أمام عينيه وهو يتولى إعمار مجمع الختام ومشاركتـه به. لولاه للآل لمال النبي جميع أملاك الختام جراء علقتـه السوداء مع درداح. من أنت يا فريد يا ابن الإيه.؟. وكيف استطعت صهر جدار الحديد فرحان واستدراجه لتجارة السلاح وهو الذي لا يعرف من التجارة سوى حسبة الخضار وسوق الحلال؟.

تريد الوكالة اليهودية منه أن يستثمر بالسينما. فهي من الأدوات الاستراتيجية لشرح قضيتـه، سواء بالتضليل أو التنوير. وها هي سينما القلعة بالكاد تسترد مصاريفها. نصف الرواد من الأولاد والزعران والبلطجية الذين يتسللون من غير تذاكر. أما النصف الثاني فمعظمهم يدخلون على الـمكشوف، كل خمسة بتذكرة، يتقاسم الفائض بائع التذاكر والـكنترول. قال إعلام قال. لو ترك لهذا الفريد الأدهم كتابة البروتوكلات، لربما سجله تاريخ صهيون بين أحكم الحكماء.

هـذه القيود والـمتاعب واللوائح كانت أقل عليه من تمرد ساره، التي لم تعد تخفي توجهها الشيوعي، سواء في الـجلسات العائلية أم مجالسة الأصحاب. بينما امتلأت غرفتـها بالجرائد والـمجلات والـمنشورات الـمطبوعة والـمنسوخة إضافة إلى الكتب العجيبة الغريبة التي تأتيها من زوجة بشارة. وكلما استشاط غضباً ومزق ما استطاع تمزيقه، وأحرق الباقي دون أن يجلب انتباه الجيران ، تعود الأوراق من جديد وكأنـها تنبع داخل البيت أو تأتي بها

السحرة والعفاريت: وا بذبحك إذا جبت مرة ثانية سيرة الشيوعية.

- شو بدك لكان، أجيب سيرة اليهودية.

حتى ابنتـه تـهدده فـترعـبه، أكثر من قيود الوكالة اليهودية وتجارة السلاح العلنية. كل شيء يسير على عكس ما يريد، وهو الذي كان متيقناً من قدرتـه على التحكم في مصائر الـناس، يعصى عليه تحويل مسار ابنتـه أو التنبؤ بمسار فريد. أما ابنه الـمعتوه، فخير ما فيه أنه قليل الكلام، وأسوأ ما فيه أنه لا يجيده. ناهيك عن بلادتـه التي تجعله في الـمحل صنماً، وعند الأكل سيداً وفي النوم واحداً من الأموات. ماذا على مال النبي أن يفعل.؟.

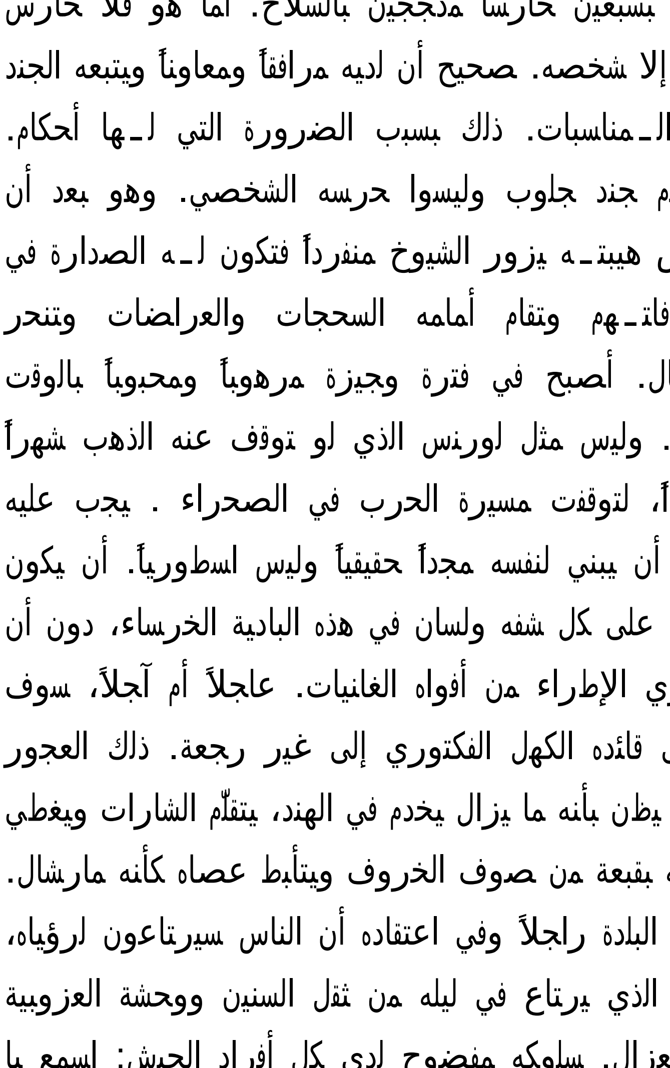
٩

غيرة جلوب من لورنس على ما حققه من مجـد أسطوري جعلتـه يصدق كل ما يقال ضده. فإذا ما أتى الحديث عن لورنس، يتمثل بما كتبه فيلبي وشو عنه ووصفهما لـه بالكاذب الكبير. ويشكك في قدرته اللغوية على صياغة كتابه الذي اعتبرتـه الصحافة الانجليزية عملاً إبداعياً، ويؤكد على أن برنـارد شو الذي راجع الـمخطوطة أعاد صياغتـها، وإلا فما الداعي أن يتـهمه بعد صدور الكتاب بالكذب والدجل والافتراء. عندما تكتمل تجربتـه في هذه البلاد ويحمله السن على التقاعد، سيكتب عندها التاريخ الحقيقي للمنطقة. سيكتب تجربتـه التي ستخلب الألبـاب. لن يـمجده الانجليز لادعاءاتـه وأكاذيبه، بل لأنه بأقل الـموارد وحفنة من الرجال قضى على شريعة الغاب، وأخضع العشائر التي تعد بالآلاف وحال دونـها والغزو الذي تحيا به وتعتاش وتقتات.

اختلاف الظروف وحده هو الذي سرع في تقدم لورنس حتى تـتغنى به مومسات لندن، وصارت صورتـه مانشيتاً

صحفياً لسنوات عديدة، وأضيف اسمه إلى عظماء الـموسوعة البريطانية. لولا الحرب والذهب السخي الذي أغدقتـه حكومة صاحب الجلالة لما سطع نجم ذلك الأفّاق.

أما جلوب، فوضعه مختلف جداً. إنـه في سبيل الحصول على الـمركبات أو الأسلحة أو الـمعاشات، يحس أحياناً كأنه يستجدي الهبات. مئة لورنس لا يستطيعون تحقيق انجازاتـه في ظل امكانيات مادية محدودة، وخلال فترة زمنية قصيرة، ومع فرسان غضاض، استطاعوا بفضله إخضاع العشائر ورسم الحدود وجلب الأمن والاستقرار. إنه ما يزال في عمر الشباب. ربما هذا، هو التشابه الوحيد بينه وبين لورنس، أما باقي الأشياء فهو متقدم عليه فيها. ابتدأ لورنس مهمتـه الـمشكوك بتفاصيلها وهو في رتبة ملازم. أما هو فإنه ابتدأها وهو في رتبة زعيم. لورنس اشترى الـموالين بالذهب السخي الذي كان يتدفق من خزينة الانجليز، وأحاط نفسه بعشرات الحراس. أما هو فبأقل الـموارد صار لديه فرسان موالون لشخصه أكثر من موالاتـهم للحكومة. لورنس أثار إعجاب العرب، بالأحرى إعجاب زعماء العرب، لكنهم لم يحبوه، وإلا لـماذا أحاط


نفسه بسبعين حارساً مدججين بالسلاح. أما هو فلا حارس لـه إلا شخصه. صحيح أن لديه مرافقاً ومعاوناً ويتبعه الجند في الـمناسبات. ذلك بسبب الضرورة التي لـها أحكام. أنـهم جند جلوب وليسوا حرسه الشخصي. وهو بعد أن فرض هيبتـه يزور الشيوخ منفرداً فتكون لـه الصدارة في مضافاتـهم وتقام أمامه السحجات والعراضات وتنحر الجمال. أصبح في فترة وجيزة مرهوباً ومحبوباً بالوقت نفسه. وليس مثل لورنس الذي لو توقف عنه الذهب شهراً واحداً، لتوقفت مسيرة الحرب في الصحراء . يجب عليه الآن أن يبني لنفسه مجداً حقيقياً وليس اسطورياً. أن يكون اسمه على كل شفه ولسان في هذه البادية الخرساء، دون أن يشتري الإطراء من أفواه الغانيات. عاجلاً أم آجلاً، سوف يتولى قائده الكهل الفكتوري إلى غير رجعة. ذلك العجور الذي يظن بأنه ما يزال يخدم في الهند، يتقلّم الشارات ويغطي رأسه بقبعة من صوف الخروف ويتأبط عصاه كأنه مارشال. يعبر البلدة راجلاً وفي اعتقاده أن الناس سيرتاعون لرؤياه، وهو الذي يرتاع في ليله من ثقل السنين ووحشة العزوبية والانعزال. سلوكه مفضوح لدى كل أفراد الجيش: اسمع يا

جلوب. العرب يقولون إن الضحك يقال الهيبة. وهذا صحيح. إياك أن تضحك معهم أو تشعرهم بالارتياح لمجالستـهم. يجب أن يكون الغضب سمتك، وإلا لن تعيش كثيراً في هذه البلاد.

ومع أنه يعتقد بصواب هذه الـمقولة، ليس في بلاد العرب فحسب، وإنما في كل مكان، إلا أنه كان يناقضها مع من يشعرهم بارتياح مجالستـهم والتواضع في محادثتـهم واستقبالهم ببشاشة، مثلما حصل مع فرحان. لكنه مع قائده يثني على جديتـه ويرفع وتيرة العبوس والتجهم، وتصنع الغضب الراعد، كأنه طقس يومي. لم يكن يتوانى عن إطلاق الشائعات حسب الـمزاج. مع الـمتنفذين يدعي أنه ما من حكومة تـتغير أو تقال إلا بموافقة بك باشا أو بمشورتـه. ومع جنوده يسخر منه ليرقى عليه. ومعه يشعل غروره ويوسع نرجسيتـه: رعد وغيوم، كلمة سر بين رجالي يا سيدي.

- كلمة سر؟!.

- كل ما تطل سيارتك من بعيد حتى يصرخ الحراس" رعد غيوم" فتبدأ التنظيفات والتلميعات والاستعدادت، ويرتعد

الـمعسكر بكل ما فيه. وسمعت أن الكلمة نفسها تستخدم كلما توقع معسكر في الجيش زيارتك، أنت مرهوب مهيوب يا سيدي وبخاصة بين أهالي عمان.

في مجالساتـه مع فرسانه الذين طغت سلطتـه بينهم على سلطة بك، كان يتندر بسخافة قائده ويجعله نكتة الكبار والصغر: إذا حط طاقية الصوف بآخر رأسه. افهموا أنه نام من غير كوابيس وفاق مستبشراً خيراً، وإذا شفتوها مرخية لقدام وواصلـة منخاره، اعرفوا أنوه بات ليلتـه بين أشباح. يكون قايد تذكر حبستـه مع حيوان أيام زعل يرحمه ا . ويل اللي بقرب عليه هداك اليوم.

في قرارة نفسه، كان مرتاحاً لتناقضات الكهل التي تصوره طاغية مستبداً مزاجياً في قيادة الجيش، وتجعله أضحوكة بين خفر الصحراء.

كان بهذا الـمنحى يعبد أرضية استبداده القيادي، الذي سيتحول بعد رحيل الكهل إلى بساط للريح يحمله أينما يريد بمجرد الرغبة فيما يريد. فبك باشا، يعبد دون وعي منه، الطريق لخليفتـه الذي سيكون قادراً على السير طويلاً بقوة

الدفع الذاتية، فكيف إذا تولاها سائق ماهر مثل جلوب وهو الضابط الانجليزي الوحيد الذي سيحل محله عما قريب.

الـمنحى الثاني الذي اتخذه جلوب أمره فيه، إضافة إلى الرهبة والاحترام، هو نيل محبة الأهالي بتقمصه الشخصية العربية دون التخلي عن سياسة الجزرة والعصاة. أغراه نجاحه بين البدو إلى التوسع نحو الحواضر والأرياف. فصار يعبر شوارع عمان بسيارتـه من دون حراسة أو مرافقين، سوى السائق. وفي أحيان كثيرة يتنقل راجلاً بين الـمؤسسات الحكومية، ولاسيما عندما يذهب لحضور جلسات محكمة العشائر التي صار الناس، إثر الإعدامات، يرهبون مبناها بمثل ما يرهبون أعضاءها.

في طريقه إلى الـمحكمة شاهد جمهرة تردد الهتاف من وراء رجل محمول على كتفي آخر. بينما الـمتظاهرون يلوحون بالعصي والقناوي والأعلام، مهددين متوعدين اليهود الذين يريدون اغتصاب فلسطين.

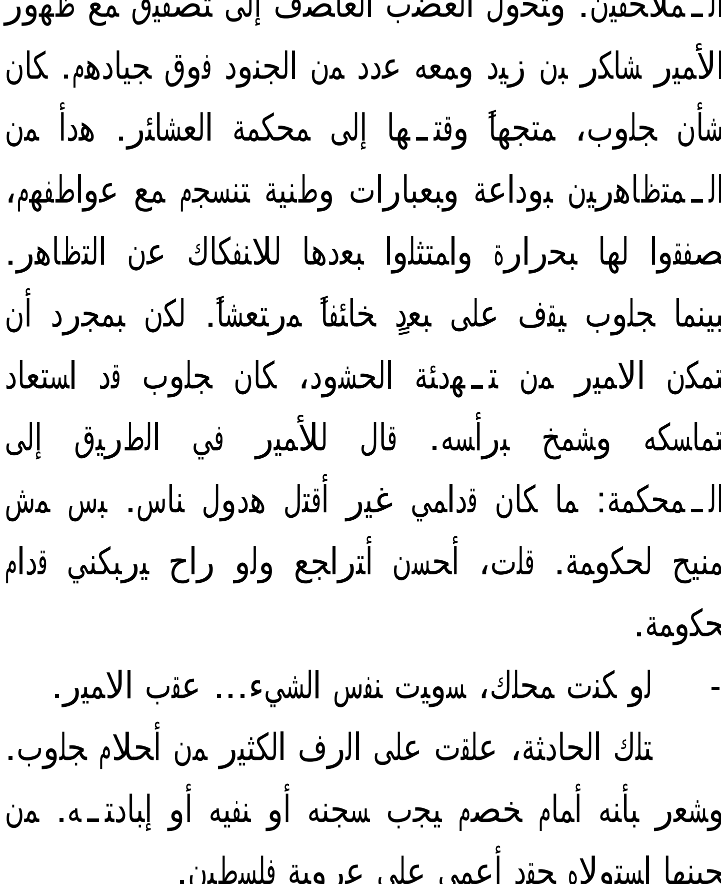
لم يثر الأمر اهتمامه، وإن تحركت دواخله بالنقمة على رجال البوليس الذين لا يطوقون الـمتظاهرين. ما إن اقترب في سيره من التجمع الغاضب، حتى أشار إليه الرجل

المحمول وهتف بسخط وغضب: عالمكشوف عالمكشوف. انجليزي ما بدنا نشوف... فالتفت المتظاهرون إليه وهم يرددون بغضب من وراء الهتّاف: انجليزي ما بدنا نشوف.

في لحظات وجد نفسه محاطاً بالرجال الغاضبين الذين تجرأ أحدهم على دفعه وآخر على ضربه بالعقال قبل أن تهوي عصا على ظهره وهو يستدير مولياً الأدبار يلحق به البعض ملوحين بعقلهم وعصيهم، وهم يصرخون: فلسطين ما بتروح. الانجليزي بدوه يروح.

فجأة خرج أحد جنود البادية من دكان. فأحس جلوب وكأنه سقط عليه من السماء. حاول الجندي اشهار بندقيته في وجه المطاردين، لكن الحجارة التي انهالت عليه جعلته يفر معه محيطاً به من الخلف كغطاء يمنع عنه الحصى والحجارة والقاذورات.

استمرت المطاردة نحو دقيقتين، تقطعت خلالها انفاس جلوب، لكنه واصل الركض لاهثاً، طلباً للنجاة. لم تنقذه معجزة جندي البادية، اللهم إلا لاتقاء الضربات عنه.



لكن معجزة أخرى حسمت الأمر مـع صوت حوافر الخيل التي بدت كأنـها صليات بنادق رشاشة أوقفت تقدم الـملاحقين. وتحول الغضب العاصف إلى تصفيق مع ظهور الأمير شاكر بن زيد ومعه عدد من الجنود فوق جيادهم. كان شأن جلوب، متجهاً وقتـها إلى محكمة العشائر. هدأ من الـمتظاهرين بوداعة وبعبارات وطنية تنسجم مع عواطفهم، صفقوا لها بحرارة وامتثلوا بعدها للانفكاك عن التظاهر. بينما جلوب يقف على بعدٍ خائفاً مرتعشاً. لكن بمجرد أن تمكن الامير من تـهدئة الحشود، كان جلوب قد استعاد تماسكه وشمخ برأسه. قال للأمير في الطريق إلى الـمحكمة: ما كان قدامي غير أقتل هدول ناس. بس مش منيح لحكومة. قلت، أحسن أتراجع ولو راح يربكني قدام حكومة.

- لو كنت محلك، سويت نفس الشيء... عقب الامير.

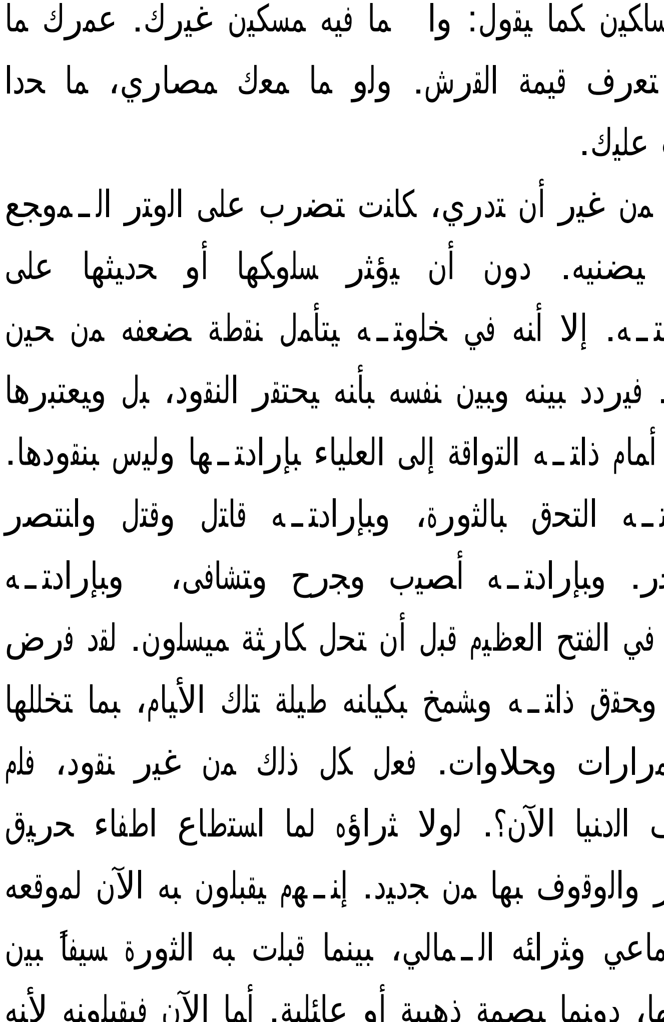
تلك الحادثة، علقت على الرف الكثير من أحلام جلوب. وشعر بأنه أمام خصم يجب سجنه أو نفيه أو إبادتـه. من حينها استولاه حقد أعمى على عروبة فلسطين.

١٠

تولي زينات لأمور العائلة المالية والاستثمارية، زاد من طبيعتها التسلطية على العائلة ولقاءاتها النسوية مع سيدات المجتمع. في البيت تتعامل مع سيف مثلما كانت تتعامل مع أبيه، وإن يكن بدرجة أقل، بعدما أمسكت بإدارة شؤون العائلة والإشراف على أعمالها وتنمية مواردها محققة بذلك الرضى والاحترام والهيبة. ناهيك عن نشوة السطوة وهي تتابع العمل مباشرة في مواقعه أو من خلال الهاتف أو مساعديها المنتقين بعناية ووعي أساسه الإذعان التام. في البيت لا تترك شاردة أو واردة دون أن تدلي دلوها القريب إلى الأمر منه إلى النصح والإرشاد. فالخدم يلبونها قبل سواها، وحماتها لا تقوم بعمل دون استشارتها. حتى تربية الأبناء كانت تتدخل بها وكأنها خبرت الولادة عشرات المرات. بينما تمتص ثائرة تعاليها بتجنب مواجهتها والموافقة على مطالبها ولو ظاهرياً. لكنها تفعل ما تراه مناسباً بمجرد أن تدير زينات ظهرها، التي تنسى الكثير من الأمور البيتية والنصائح المجانية في غمرة

انشغالها بمتابعة شؤون العمل في البيارات والـمعاصر والـمطاحن وما ارتبط بها من خدمات التكبيس أو الصندقة أو الشحن أو التحصيل. استحوذ عليها العمل بحيث غدا قدرها ومصيرها. كثيراً ما يدب النـزاع بينها وبين سيف بسبب إسرافه وعدم حرصه في الانفاق. تفني نفسها وتنهك أعصابها لزيادة أموال العائلة، بينما ينفقها سيف على البارد الـمستريح. ويتأجج الصراع بينهما إذا ما قرر شراء أرضٍ بأكثر مما تستحق، لقاء بيع استثمار بسعر بخس.

لم تكن تحتج على الخسائر الناجمة عن إصدار الزفير التي كثيراً ما تصادر السلطات أعدادها بعدما يتكبد سيف الجهد والـمال في اصدارها، ولأجل ماذا ؟... مقال تافه كان يمكن أن يغض سيف النظر عن نشره أو يخفف من لهجتـه. ومع أن الزفير هوجمت وأحرقت مراراً إلا أن نقمتـها الغاضبة طغت على شعورها بالخسران وفقدان الـمال. كانت الزفير هي صورة حبها الذي تعرض للفجيعة قبل الآوان. فإذا استيقظت الذكرى في نفسها، تحتج بعصبية حيناً وبسخرية أحياناً أخرى على سحوبات سيف الـمستمرة للأموال وتبرعاتـه إلى هذه الجهة أو تلك، والإغداق على

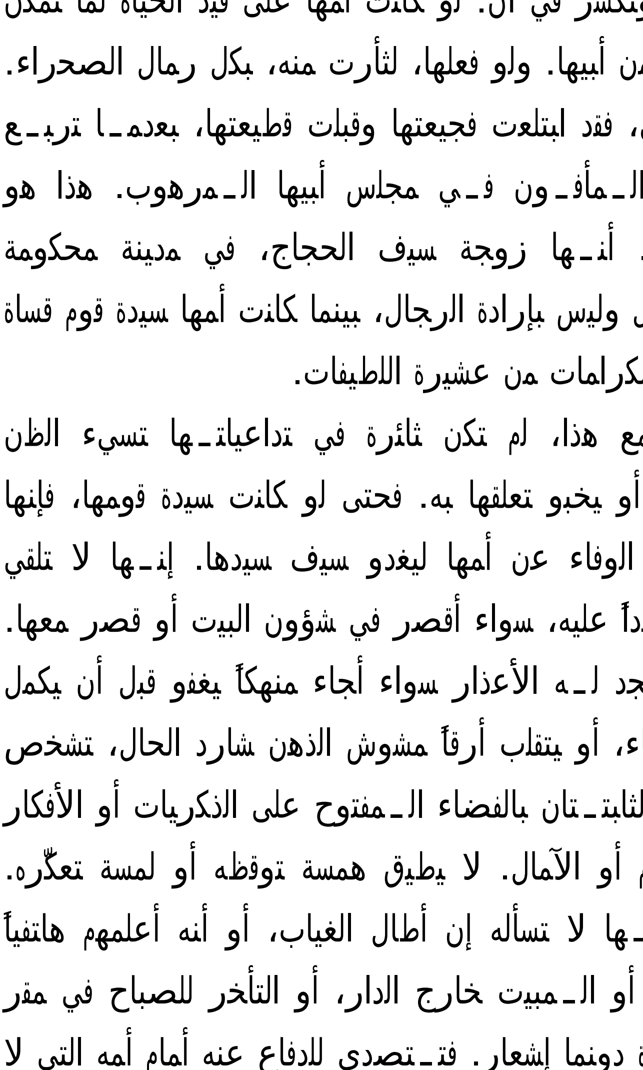


الكثيرين بدافع الوطنية أو الـمؤازرة الشعبية أو إعانة الـمساكين كما يقول: وا ما فيه مسكين غيرك. عمرك ما راح تعرف قيمة القرش. ولو ما معك مصاري، ما حدا بقرب عليك.

من غير أن تدري، كانت تضرب على الوتر الـموجع الذي يضنيه. دون أن يؤثر سلوكها أو حديثها على عزيمتـه. إلا أنه في خلوتـه يتأمل نقطة ضعفه من حين لحين. فيردد بينه وبين نفسه بأنه يحتقر النقود، بل ويعتبرها عائقاً أمام ذاتـه التواقة إلى العلياء بإرادتـها وليس بنقودها. بإرادتـه التحق بالثورة، وبإرادتـه قاتل وقتل وانتصر واندحر. وبإرادتـه أصيب وجرح وتشافى، وبإرادتـه ساهم في الفتح العظيم قبل أن تحل كارثة ميسلون. لقد فرض نفسه وحقق ذاتـه وشمخ بكيانه طيلة تلك الأيام، بما تخللها من مرارات وحلاوات. فعل كل ذلك من غير نقود، فلم تختلف الدنيا الآن؟. لولا ثراؤه لما استطاع اطفاء حريق الزفير والوقوف بها من جديد. إنـهم يقبلون به الآن لموقعه الاجتماعي وثرائه الـمالي، بينما قبلت به الثورة سيفاً بين سيوفها، دونما بصمة ذهبية أو عائلية. أما الآن فيقبلونه لأنه

ابن الحجاج الأثرياء فحسب. كم يحتقر النقود التي تـهبط به إلى الدنيا السفلية بينما ترفعه إلى العلياء ديانتـه السماوية. هذه أناه وذاتـه وكيانه. يريد أن يواصل حياتـه بإرادتـه وليس بنفوذ نقوده. مع هذا فإنه كلما استيقظ من لواعج الـمفارقات والـمتناقضات، يذوب الفاصل بينها وهو يتحرك بصفتـه ابن الحجاج وليس سيف السياف.

كانت ثائرة تسمع لـه بإصغاء، وتقدر أفكاره وتحتمل سلوكه حينما تراه مكبلاً بالأصفاد أو منعتقاً من النظام والرتابة وعدم اكتراثه بالعائلة أو الأبناء. كانت تعي أنه يسمو بقضيتـه على حساب رغبتـه، لكنها لم تستطع أن تكون مثل أمها التي تحولت من خطيفة مسيحية إلى شيخة بدوية. أما هي فمن بادية جرداء مفتوحة الفضاء، تنتقل فجأة إلى القلاع التي تضيق على صدرها مهما تعددت حجراتـها وارتفعت طوابقها. إنها من نطفة سيد حازم شديد البأس، ورحم سيدة قوية الإرادة . أخذت منه ومنها. لكنها تظل أقل منهما منفردين، وأبعد مع عائلة الحجاج عنهما مجتمعين. وإلا كيف أخضعت أمها نساء الجبيلية وفرضت على رجالهم شخصها وإراداتـها، بينما تخضع هي في هذا السجن لسيدة



تجبر وتكسر في آن. لو كانت أمها على قيد الحياة لما تمكن عمها من أبيها. ولو فعلها، لثأرت منه، بكل رمال الصحراء. أما هي، فقد ابتلعت فجيعتها وقبلت قطيعتها، بعدما تربع عمها المأفون في مجلس أبيها المرهوب. هذا هو الفارق. أنها زوجة سيف الحجاج، في مدينة محكومة بالمال وليس بإرادة الرجال، بينما كانت أمها سيدة قوم قساة وابنة الكرامات من عشيرة اللطيفات.

مع هذا، لم تكن ثائرة في تداعياتها تسيء الظن بسيف أو يخبو تعلقها به. فحتى لو كانت سيدة قومها، فإنها ورثت الوفاء عن أمها ليغدو سيف سيدها. إنها لا تلقي اللوم أبداً عليه، سواء أقصر في شؤون البيت أو قصر معها. دائماً تجد له الأعذار سواء أجاء منهكاً يغفو قبل أن يكمل الاستلقاء، أو يتقلب أرقاً مشوش الذهن شارد الحال، تشخص عيناه الثابتتان بالفضاء المفتوح على الذكريات أو الأفكار أوالآلام أو الآمال. لا يطيق همسة توقظه أو لمسة تعكّره. كما أنها لا تسأله إن أطال الغياب، أو أنه أعلمهم هاتفياً بالسفر أو المبيت خارج الدار، أو التأخر للصباح في مقر الجريدة دونما إشعار. فتتصدى للدفاع عنه أمام أمه التي لا

تـترك أمراً يمر دون تعليق: بلا جريدة بلا بطيخ. أبصر وين داير.؟.

- وين وده يدور يا خالتي.
- شو بعرفني. ليكون متجوز وحدة ثانية وما معنا خبر.
- إش ها لحكي يا خالتي.!. أبو لقاء ما عنده بالدنيا غيرنا.
- لأ. عنده غيرك يا حبيبتي. طبق الأصل عن الـمرحوم أبوه. متجوز الجريدة وصف الحكي مع الشيخ الـمفتي، وهلأ طلع لنا بالسحبة هادا الشيخ القسام.

كانت شحنة السلاح الأولى أكبر الشحنات. تضاءلت بعدها الكميات الـمرسلة حسب ما يتوافر لفرحان بوساطة فريد أو مباشرة من البدو والفلاحين. ومع أن كميات كبيرة من العتاد استنفدت لتدريب الجهاديين في يعبد، إلا أن القسام اتخذ أمره على الشروع في المواجهة. قال في اجتماعه بقيادة " الجهادية"، بأن اليهود أسرع منهم وأمهر في الحصول على السلاح. إنـهم يستوردونه من الخارج ويتزودون به من الانجليز ويشترونه من سماسرة محترفين. يتدربون عليه داخل مستعمراتـهم الحصينة الـمنتشرة في جميع أنحاء

فلسطين بينما علمهم الأبيض الذي تـتوسطه نجمة زرقاء يرفرف فوق أبراج الـمراقبة الرصدية للمستعمرات. إذا ظل الحال على هذا الـمنوال، فسيقذفهم اليهود في النهاية بالطائرات بينما القساميون يدكّون البواريد. عليهم أن يبدأوا الآن بما يتوافر لديهم من سلاح لتحويل مجريات الأحداث.

تحمس سيف لقرار القسام، مما جعله يهمل العائلة وينسى حزب الاستقلال ويتخلى عن الزفير لأبي جبران وهو في تنقل مستمر بين حيفا والقدس وعمان وبغداد للحصول على ما أمكن من العتاد، بعدما قام القساميون بمهاجمة قافلة يهود متجهة إلى مستعمرة أليجور، وقتل وجرح العديد من اليهود.

ردت حكومة الانتداب برصد مكافأة أربعماية جنيه لمن يدلي بمعلومات عن الفاعلين، فرد القساميون بهجوم جديد على مستعمرة بلفوريا، تلاه هجوم آخر على كفار هاسيديم.

اعتبرت الحكومة الانتدابية أن الهجمات موجهة ضدها للنيل من هيبتها والتحرش بها، وإن كان اليهود هدفها. فاستدعي الحاج أمين الحسيني إلى مكتب الـمندوب السامي البريطاني، متهماً إياه ومجلسه الإسلامي بأنه وراء الهجمات.

أنكر الحاج أمين أي علاقة للمجلسيين بـهذه العمليات . كما أنكر أي معرفة لـه بمرتكبيها، رغم أنه متيقن في قرارة نفسه من أنـها ليست فردية، وإنما تنتظم في مجموعة القسام: يا سيدي أنا أصلاً لا أؤمن بالعنف حلاً. وباعتقادي أن العرب واليهود سيأخذون حقوقهم العادلة برعايتكم. فلماذا أعاديكم... تعهد في آخر اللقاء بأن يبذل جهده لمعرفة الفاعلين وتسليمهم للسلطات، لمحاكمتهم بعدل وسوية.

لكن الـمندوب السامي لم يقبل تعهده الشفهي، وإنما أصر على نشره صحفياً. فرتبت جريدة " الصراط الـمستقيم" لقاء مع الحاج أمين أدان فيه بشدة رجل عصابات يدعى " أبو جلدة". اتـهمه باللصوصية والاغتيالات وسرقة العرب واليهود، مضيفاً في نـهاية الـمقابلة بضرورة الانضباط في ظل حكومة الانتداب، فاتـهمه سيف في الزفير بأنه باع نفسه للانجليز. ليفاجأ سيف بمقالة كتبها أحد أتباع الحاج أمين لا تختلف في مضمونـها عما قالـه لـه أنور في بغداد: الفرصة غير مواتية الآن لمواجهة اليهود الـمتحصنين الـمسلحين بأحدث سلاح، فلم نستعد الانجليز الذين بيدهم جميع الـمفاتيح. الحل بالتفاوض وليس بالاغتيالات العشوائية

التي قد تكون دوافعها شخصية، ولا بسرقة الـمزارع والـمستوطنات التي تقوم بـها عصابة أبو جلدة الإجرامية.

قال القسام لسيف بأن الرد ليس بالكلام. وإنما بالأفعال. فأبو جلدة بطل وطني طالـما يهاجم الـمستعمرات ويسرق مؤنـها ويدمر فيها خزانات الـمياه. فلتتصدى الزفير للحاج أمين، بينما سيتصدى القساميون لليهود بـما يتوافر لهم من سلاح سواء اشتروه أو سرقوه أو صنعوه.

- حتى اليهود بكل ما عندهم من مصاري وعقول، ما بقدروا يصنعوا سلاح.
- طول عمرنا يا جماعة بنصنع سيوف وسكاكين.

١١

جاب المقهى لسرور الشهرة بعدما صار يطلق على الموقع الذي يقوم عليه المقهى والسفح الممتد أمامه إلى حد السيل اسم وادي سرور. ورغم هذا الاتفاق العفوي بين الناس وتبادلهم الاسم الذي صار عنواناً، فإن ذلك لم يزد في ثراء سرور الذي ظن البعض أنه يمتلك السفح بما عليه من بيوت ودكاكين. وكلما سأله أحدهم إن كان لديه بيت للإيجار أو أرض للبيع، يتخلله الزهو والغرور لفترات تقصر أو تطول، يحس فيها برضى نفسي يشعره بأنه صاحب المكان، قبل أن يفيق إلى نفسه مع مجيء صبي أو سائق أو عتال يخبره بأن المعلم فريد يطلبه. حينها فقط يحس بتأبيدة العبودية، وهو يمتثل لأوامر فريد دون تردد أو سؤال. ويستعيد خلال مغادرته حلم مجده الوهمي، لكن بشيء من الإدراك: إيه. صيت غنى ولا صيت فقر... ففي المقهى الذي لم يعد فريد يأتيه، بمثل ما ندرت زيارات جرير. يظل هو المعلم سرور المرهوب المضروب بألف حجر لثرائه واتساع ممتلكاته.

صحيح أنه يتفرغ لجرير كلما ارتاد مقهاه، ويحتمل لأجله تعليقات مقصود، إلا أن ذلك لا يكبله بالقيود كما هو الحال مع فريد. فجرير لا يتدخل في شؤونه، ولا يسأله عن أحواله إلا بدافع الـمجاملة فحسب، بينما يتباهى سرور بالإشارة إليه: حاكم ناعور... وهو يقوم على خدمتـه، في أفضل ركن محجوز دائماً لكبار القوم من زبائنه أو الفتوات والعتاة. فإذا جاء جرير وحده، يأخذ حاجتـه من نرجيله التمباك العجمي الحر أو الـمطعم بالحشيشة، وهو يدون الـملاحظات أو يكتب الأشعار. وإذا كان برفقتـه مقصود، تتزلزل بواطن سرور وهو يناديه تارة عبد وتارة أسود وفي أحسن حالاتـه: إنت وين راح. تعال هون... وغالباً ما يغادر جرير ومقصود وهما يتصارخان أو يتبادلان الاتـهامات بصوتٍ عالٍ، يجعل الزبائن يتعجبون من هذه الصحبة بين حاكم إداري لـه سلطة ونفوذ، وإقطاعي لا تنضب من جيبه النقود. فيزيل سرور عن نفسه عار الاستعباد الذي يسكنه ولا يقوى على الخلاص منه إلا في غياب الأسياد: هادا ما هو حاكم إداري وبس، قصيدة صغيرة يكتبها وبتطير نص الحكومة إن مش كلها. يا ويلـه اللي

بوقع مع الاستاذ... أما عن مقصود فكان يبرر احتماله لـه، بمغالاة يـحس سرور بعدم اقتناع الآخرين بها، رغم صحة مضمونـها كما سمعه من جرير. فكيف يصدق الناس الادعاءات بيسرٍ ويتولون عن حقائق الحياة: يا عمي خليه يصيح قد ما بدوه. ليش هادا الـمسكين بقدر يصيح غير هون. مرته بالبيت داعسة على راسه بالقبقاب الشركسي. بتعرفوا القبقاب الشركسي؟. مساكين .كل فردة منوه أكبر من راسك وراس مقصود.

ظل سرور على هذا الحال، يوهم الناس أنه صاحب الـمقهى والسفح والوادي وما يرتفع فوقه من عمران، وفي داخلـه يعيش عبدان، واحد معبود للمال الذي يأسره به فريد، وآخر مأسور لشخص جرير. كان يعيش حالة من الازدواجية التي تبعده عن التمادي في السكر أو التحشيش حرصاً على وهم الثراء وهو الذي يقتتات من فريد على الفتات. من ناحية أخرى، يتنازع بواطنه الولاء على عكس الـمتوقع في حالتـه من تنازع الأسياد . فجرير لم يكن معنياً إلا باقتناص بعض النقود من فريد لقاء الخدمات التي قدمها في سبيل تعليم أخيه وليد. أجر لا ينتـهي بالنسبة

لجرير، مع أنه صار مقضياً بالنسبة لفريد، ومع هذا لم يكن فريد يبخل عليه كلما جاء إليه. كان الوحيد الـمسموح لـه بارتياد الـمقهى والحصول على خدماتـه بالـمجان. ليس لأن أشعاره تسقط الحكومات، كما يدعي سرور، فالكلام لا يقدم ولا يؤخر عند فريد، ولكن لأنه حاكم إداري، قد يطلب منه تسديد جميع الفواتير، لقاء خدمة متوقعة ولو لم تتحقق يوماً. انها حالة يعيشها سرور وحده وهو يتمنى الخلاص من كليهما، أو على الأقل من أحدهما. فليس أشق على العبد من أن يسوده سيدان متفقان. ذلك أصعب من تنازعهما عليه. وبدلاً من أن يدفعه هذا للسعي إلى التحرر والنجاة من غرق الاستعباد، غرق يوماً في بحرٍ من النبيذ، أخرجه عن طوره وفجر التمرد والتحدي في نفسه مما جعل أهل عمان ليلتـها يرتاعون ارتياع الرومان من ثورة العبيد. بينما سرور الذي غيب النبيذ عقله تماماً في قيظ آب، يجوب الشوارع الرئيسة والفرعية، وهو يشتم ببذاءة ويصرخ كالوعل مهدداً متوعداً ببلطة ذات حدين " ولك يا ابن القحبة روح عند أمك لأني طالع عند مرتك". "أنا سرور بياع الحشيشة واللي مش عاجبه لأحشيه". " ليش فيه بعمان فحل غيري يا نسوان عمان". "أنا

الديك وكلكن جاجاتي واللي مش عاجبه بس يطل علي إذا لابس لباس". كل من أيقظتـه هذه العربدات خشي الإطلالة من خلف الشبابيك. "ما فيه واحد يوقفه عند حده يا ناس". "وين الشرطة، ا أكبر".

لم يتذكر سرور شيئاً عما حصل تلك الليلة، وإن كانت عيناه المـتورمتان ودماؤه المـتخثرة في أنفه وحول شفتيه والمـلطخة بها ثيابه ويداه وساقاه، تدل على نقمة الضاربين وحنقهم. وقد رمي بـه على أرضية نظارة مستديرة الجدران مليئة بالقمل والبعوض والصراصير التي هبطت عليها هذه المـائدة من السماء. لم يكن بمقدور سرور أن يهش أو يكش أو يحرك أعضاءه إلا بطلوع الروح، بينما كل ذرة في جسده تستصرخ من أعماقه قول آخ.

كان فريد أكثر حذراً من أن يخزن الحشيشة في بيتـه، وأكثر حرصاً من أن يتوجه إلى المـخفر قبل أن يدفع أخاه وليد لتنظيف المـقهى من كل شيء مريب. طاش صوابه وكاد يفقد عقله بينما سرور مدمي فاقد الوعي، تشخر آلامه أكثر من تنازع أنفاسه: إيه الحكاية.؟.

- الحكاية أنوه صاحبك...

- ده مش صاحبي.
- قصدي يا بيك، إنوه شغيلك الـمحترم سرور، عمل عمله لـهلأ ما انعملت بعمان.
- سأل فريد بثبات وغضب مصطنع: عمل إيه؟.
- مش شايف.؟.
- شايف اللي انعمل بيه، مش اللي عمله... وبنبرة حازمة: إنتم ضربتوه ليه.؟.
- اسأله.
- أسأله إزاي وهو كده. إنت بتتريأ علي.
- لأ يا بيك. بس الـمحترم نـزل للشوارع سكران، وما خلى مسبة بعرفها إلا سب فيها أهل عمان. واللي ما بدوه يشتري منوه حشيشة راح يحشيه.
- السكران ما بتواخدش ع اللي يقوله. بعدين إزاي تودوا وراي على كده وش الصبح.
- هو اللي ترجانا نودي وراك.
- ده اللي بنعمل بيه كده، يترجى تنادوا ليه الشيطان. كل الناس بتسكر. إش معنى هو تعملوا بيه كده؟.

- يا عمي ما حدا سكر مثله. واللي بسكر بضبضب حاله وبلم لسانه، مش بفلت في الشوارع بنص الليل.

- ودلوقت ؟.

- راح نحوله للمحكمة .

هنا تغير كل شيء. فلم تعد القضية تخص سرور، بل تشمل فريد أيضاً بكل رهبته وهيبته ونقوده ونفوذه التي يجب أن تحسم الأمر في لحظتها، وتغلق الملف نهائياً وتطلق سراح سرور ولو محمولاً من إبطيه إلى السيارة التي ألقي فيها مثل ثورٍ ذبيح.

في اليوم التالي، أبرم فريد عقداً تم بموجبه بيع المقهى إلى سرور، لقاء أجر معلوم. كان إغراء سبقه تهديد بالقتل إن أعاد الكرة وسكر مثل هذه السكرة: مش أحسن ليك تعلق يافطة تكتب فيها إنك بيباع حشيشة يا ابن الإيه.

الغريب في الأمر، أن سكرة سرور التي لم تعهد عمان مثلها من قبل، كما قيل لفريد في المخفر، اعتادتها البلدة خلال أشهر، إذا لا ينقضي أسبوع دون حالة أو أكثر من حالات السكر والعربدة التي تسمع في وحشة الليل الطويل

للبلدة التي تنام باكراً، مما أربك رئيس المخفر من كثرة الشكاوى وتزايد المخمورين المعربدين. ولاسيما أنهم في غالبيتهم فقراء أصحاب مهن متدنية.. القاسم المشترك بينهم، تسلحهم بالبلاطات.

طاش صواب رئيس البلدية والمفتش الإداري والمقيم البريطاني. باستثناء جلوب الذي فسر الحالة بكلمات بسيطة أبهجت المقامات الكبيرة: افرحوا بدلاً من أن تقلقوا. هذه العاصمة التي كانت محطة صغيرة وتحولت إلى بلدة كبيرة، تتطور الآن لتصبح مدينة. استحسنوا اجابته واستنتاجه، لكن أحداً منهم لم يتساءل، مثلما تساءل هو في قرارة نفسه عن سلاح الجريمة. لماذا تقترن العربدة دائماً بالخمرة والبلاطة؟.

١٢

الصدفة التي باغتت بشارة يوم اقتياده إلى القاضي، كانت بمثابة شحنة كهرباء خاطفة جعلتـه يحس بالهدوء وجمال الحياة بعدما كادت الرجفة تودي به إلى الهلاك. عاد وزوجه إلى البيت شامخي الرأس متماسكي الإرادة، بعد أن غادراه قبل ساعات بائسين ذليلين فاقدي الحيلة مهدودي الحال. كأن سنين الكفاح الطويلة انتقلت إلى الشرعية والترخيص والعمل الـمباح. ما حصل يدل على أنه صار يحسب لمشغله الحساب، وأن الـمغرضين والغيورين خسروا معركتـهم وربحها شرعاً وعلانية. ولاسيما أن عرموش كان سخياً بالتعويض عن الإساءة التي ألحقتـها ماكيناتة الجديدة من أذى وسوء سمعة، استغلها بشارة أحسن استغلال وهو يقبض منه سلفة وراء سلفة للمضي قدماً في حث الأهالي على تعلم الخياطة. يحتاج الترويج جهداً ومالاً كي يقبل الناس على هذا الاختراع.

في جلساتـه مع أصدقائه، كان يعيد تمثيل ما جرى بمهارة فائقة وهو يقلد القاضي وفني الخياطة والشرطي، كما

يقلد زوجتـه وشخصه في لحظة الهلع التي جعلتـه يضرب أخماساً بأسداس قبل أن ينجلي الأمر عن مشهد مسرحي أداه أحس أداء.

كان ابنه فؤاد يستلقي على الأرض ضاحكاً طيلة الوقت الذي يقلد أبوه جميع الشخصيات ويـمسرحها في أقل من ربع ساعة بينما استمرت واقعتـها ساعات. وكثيراً ما كان فؤاد يحثه ويرجوه على أن يتماشى مع الحكاية. سواء في جلسات العائلة الصغيرة أو برفقة الأصدقاء. بل أنه رواها لرفاق الـمدرسة مقلداً الشرطي والقاضي وارتعاد الفني وشطارة أبويه. وفي كل مرة ، يضيف عليها وينقص منها لزيادة التشويق، رغم أن البعض كان يستـهجن طريقتـه، ويعتبرونه أجدب أو أهبل أو أخرق. لم يكن يضيره ذلك وهو يتمرس في التقليد داخل الـمدرسة وفي الـمشغل أمام الـمتدربات أو في السهرات العائلية التي لا تنضب،سواء في بيت أبويه أو بيوت الأصحاب. مما كان يثلج قلب بشارة وهو يردد دائماً بانشراح: طالع لأبوه.

تلك الصدمة أعادت لبشارة الحياة . فالشرط الذي قيد به لم يكبله ولا أغلق الأبواب دونه. بل على العكس تماماً،

زاد من الإقبال على الـماكينات سواء من الأهالي أو من الـمشاغل التي صارت تنبع من غير سابق انذار، فتضاعف زبائن مشغل بشارة الذي خدمتـه السمعة والأقدمية.

تحسنت أحواله الـمعيشية، مما ترك لـه الوقت للمطالعة والتأمل والأحلام، فلم يعد يقبل إلا القليل من أعمال النجارة الـمريحة وغير الـمتعبة، وقد أمن الأكل والشرب وراحة البال، لتستيقظ في داخلـه روح الفنان.

شاطره الرفاق الرأي. فمثلما ساعد الـمشغل في انتشار أفكارهم، ولو ببطء وزحف طويل، فإن الـمسرح قد يسرع خطواتـهم ويقصر أمامهم الطريق. لكن ماذا سيقدم بشارة، ومن سيمثل معه، وأين سيقدم مسرحياتـه. كانوا في معظمهم يتطلعون لأن يصبحوا مثقفين، وهم يغرفون من القراءات التي أدمنوا عليها. ليس بسبب عقيدتـهم الإنسانية فحسب، وإنما لأجل حركتـهم العالـمية أيضاً، التي تتوخى إذابة الفوارق بين الطبقات بمثل ما تسعى لإزالة الحدود بين الـمجتمعات.

اتخذ أمره دونما تعمق بالتفكير. طيلة حياتـه وهو يتطلع إلى أن يتفرغ للفن إذا توافر لـه من الحياة كفافها

فحسب. كيف به الآن وقد توافر لديه ما يفيض عن كفايتـه. ربما هي الـمرة الأولى منذ تخرجه في مدرسة الأيتام، التي كانت تطعمه وتأويه، يحس بالأمن والأمان. حينها قدم أجمل الـمسرحيات. مبارك يا أبانا سمعان. كل ذرة في جسده وكل ومضة في روحه تستصرخه لأن يعود إلى التمثيل الذي وجد فيه ذاتـه وحقق كيانه، حتى وهو يقوم بأدوار النساء ويقابل بالتجريح والقدح والسخرية والاستـهزاء . جاءت الآن لحظتـه العظيمة ليكون فقط ما هو عليه. لا أكثر ولا أقل. هذه هي الكينونة التي قصدها شكسبير في رائعتـه الهملتية. أن تكون يا بشارة أنت ولا تكون سواك. كل معاناتك جاءت من محاولاتك لتصبح تارة مزارعاً وتارة عاملاً أو نجاراً أو خياطاً أو نصاباً. أنت لست واحداً من هؤلاء، ولن تستطيع أن تكون أيضاً. أنت بشارة الفنان. ومن طبيعة الفن أن يتعثر أو يمرض أو ينام أو يختفي عن الأنظار. لكنه يظل دائماً حصيناً داخل الوجدان.

عندما يستيقظ الفن متألقاً، فإن تأثيره يأخذ الألباب. ليس في نفس الفنان فحسب، بل في أنفس العشاق والشركاء والأبناء. فأعاد تمثيل مسرحية جان دارك مع بعض التعديل

في كنيسة لاتين مادبا، لأن موضوع الـمسرحية يتطلب مجتمعاً مسيحياً معقولاً لاجتذاب جمهور مقبول. أضاف إلى أدائه الفني، لمسات جديدة بالدوكرة وتجهيز الخشبة التي استخدم فيها كل مهارات النجارة التي أتقنها والأدوات التي اقتناها ، فأذهل الطلبة والـمعلمين والكهنة والصنايعية والـمتعطلين. مما أبقاه في ضيافة أهالي البلدة أسبوعاً كاملاً استعاد فيه كل حماسه الفني في العرض اليومي للمسرحية التي كان يدعو في نـهايتـها بالرحمة والثواب للأب سمعان.

لم يمانع مال النبي في أن يؤجره صالة سينما القلعة، لتقديم مسرحيتـه الثانية، "عنترة". ومع أن مال النبي ادعى أنه سيخسر بتعطيل الصالة، إلا أنه لم يكن متشدداً حتى لا يخسر هذا العرض الذي سيجنبه الخسارة الواقعة يومياً بعد الذي صار من أصحاب صناديق الفرجة والعجائب.

هذه الـمرة لم يقم بشارة بدور عبلة التي يرتعش قلبه لـمجرد تذكرها، بل بدور عنتر بينما تؤدي زوجتـه دور ابنة عمه عبلة. طغى أداؤها الأول على أداء بشارة بينما الأعين تلاحقها دون أن تجد عيباً واحداً في ثيابها أو أدائها أو

كلامها. امرأة من لحم ودم، تؤدي هذا الدور على الـمكشوف أمام الناس. أين الشام من عمان بعد الآن.؟!. حتى جلوب وقائده بك ورئيس الـمجلس التنفيذي حضروا العرض. لقد ابتدأت عمان حكايتـها الجديدة في هذا الزمان.

كان النجاح مذهلاً، والتشجيع يقاطع الأداء مما يضطر الـممثلين لإعادة أجزاء من الـمشاهد مراراً، ولاسيما أن النص تضمن معظم النص الشعري الذي كتبه شوقي مطعماً بأجزاء من مسرحيتـه " قيس وليلى". تم تصحيفها لتتواءم مع الحكاية. يا ريت بعدك عايش يا أبونا سمعان.

انتقل الحماس إلى الـمدارس التي كانت قصة عنترة بالنسبة لطلبتـها أسطورة بطولية خـالدة تـتناقلها الأجيال على ألسنة الحكواتية وكتب التاريخ ودواوين الأشعار، فاستضافت مـدارس عديدة الفرقة التي ذاع صيتـها في أشهر قليلة باسم "فرقة بشارة الـمسرحية". لم يخيب بشارة الجمهور في أي مكان سوى في مدرسة الصبيان الأميرية. حيث يدرس ابنه فؤاد الذي تحول إلى مسخرة لكثرة ما عيره طلبتـها بأمه قليلة التربية، وأبيه عديم الرجولة الذي سمح لها بالوقوف هكذا أمام الناس.

لم يكن أمام بشارة الذي صارت الـمدرسة كابوساً على ابنه، إلا نقله لمدرسة بعيدة في حي الـمهاجرين لا يعرفه فيها أحد على الإطلاق. هناك انضم فؤاد إلى شلة أحبوا صحبتـه لأنه يضحكهم من الأعماق بتقليده الأساتذة والطلبة على السواء. مما جلب عليه الويلات بعدما تربص به الطلبة الذين يقلدهم وأشبعوه ضرباً لمرات عديدة. أما الوشايات التي تصل الأساتذة والـمدير، فكانت ترفعه من ساقيه في عصا الفلقة وعلى مرأى من الجميع، فيقسم أغلظ الأيمان بصدق تام أنه لن يعاود الـمحاولة. لكنه يعيدها راغباً فيها، ليحظى بضحكات الشلة وما يتمخض عنها من فلقة ولكمات وركلات، فتؤنبـه أمه: أنت أحسن شي، تضل معي في البيت، بدال ما تجيني كل يوم مطبوش أو مفشوخ أو منفوخ العيون.

لكن بشارة أصر على أن يواصل ابنه التعليم، حتى لو كان الفن في دمائه، فإن عليه أن يتعلم القراءة والكتابة: صير مثلي، أنا قابل. بس مش أمي يا حمار.

نقله إلى مدرسة أكثر بعداً من الأولى، عله ينسى الـمسرحية والفشخات والفلقات. لكنه في مدرسة الجوفة

تمادى أكثر بانضمامه إلى شلة تو، الذي كان يستلقي من الضحك على قفاه، بينما يقلد فؤاد الأساتذة الذين يكرههم تو، واللهجة البدوية التي تشبع نقمتـه الـموروثة على العرب أعداء تركيا العظيمة وسارقي أمجاد سلالة مقصود.

اعترض بشارة صعوبات عديدة على رأسها ممانعة الـمقيم البريطاني، الذي كما يشاع عنه، يتدخل بكل صغيرة كبيرة. فرفض إعطاء تصريح للمسرحية الجديدة بذريعة انها تسيء لعلاقة الانجليز بالفرنسيين. لكن تدخل رئيس الـمجلس التنفيذي، ذلل هذه العقبة. ليفاجأ بشارة برفض مال النبي تأجيره صالة سينما القلعة، فتحول إلى سينما البتراء، التي اضطرت بشارة لدفع مبلغ أكبر لأن صالتها مسقوفة. لكن الإقبال فاق التوقعات، فقد تنازع الرواد على معابر السينما وحصلت بينهم مناوشات واشتباكات. وكان للشراكسة دور مهم في الـمسرحية. أدى خلاله فرسانهم رقصتـهم الحربية على أنغام الأكورديون عشية التحاقهم بالجيش الفيصلي، واستبسالهم في القتال قبل أن يموتوا في دفاع بطولي بقيادة يوسف العظمة في الـمسرحية التي حملت اسم " يوم في ميسلون" وأدى فيها بشارة دوره خير أداء. مما

أبكى شمس الدين ومقصود وجرير ومعظم الحاضرين. بينما تستحضر الخشبة تاريخ المقاومة التي سطرتـها ميسلون: هذا ليس امتحان كربٍ وبلاء. وليس اندحار عز فيه الانتصار. هنا تتجلى حقيقتكم بالارتقاء أكثر من نزوعكم للبقاء. لن يمروا لن يمروا. فاصمدوا أمام جحافلهم مثلما صمد أهالي جنين أمام ابراهيم الكبير.لن يعبروا أرضنا إلا فوق أجسادنا. وتذكروا أنكم تستحقون بمقاومتكم الدنيا بمثل ما تستحقون الجنان...

بوعي عقلاني او بإدراك وجداني. انتاب صلاح شعور بأنه في اللحظة العظيمة التي استولت فيها حكمت على قلبه منذ النظرة الأولى، استولى عليها أيضاً، وهو يبتسم لابتسامتـها ويتألق في خياله سيماها، طيلة انفراده بنفسه وهو في عمان وبيروت وما بينهما من أميال. استعاد مشهد لقائه بها وهي تفتح الباب وتبتسم بإشراق وتتأمله بارتياح بينما أنفاسه اللاهـثة تتلاحق مع صوتـه الـمخنوق وكلماتـه الـمتلعثمة وهو يسأل عن أبيها. وقع في حبائلها مأسوراً لكل شيء فيها. نضارتها المراهقة المفعمة بالرغبة

في العناق. رشاقتها في ثياب أنيقة دونـها الأميرات. شعرها الخرنوبي الـمسترسل حول رقبة حليبية بيضاء، وعيناها من عسلٍ صافٍ محفوظ في سمكتين رسمتا بريشة أعظم فنان. للآن، وهو ابن حيفا الذي شاهد عشرات الفاتنات من مختلف الأديان والأجناس لم يأخذ لبه مثل هذه الغادة الهيفاء.

تيقن أن الحب كالـموت. قد يأتي بغتة وقد يتدرج مع الأيام. وهو أيضاً مثله في الاغتسال والتطهر والتعطر والتحلي بأنظف رداء. فعرج أولاً على مقهى أبي عبده، حتى يبدو الأمر عفوياً. سيسأل عن شمس الدين ليسأله عن الأمانة التي حملها إليه من القدس. لكنه قبل أن يصل الـمقهى بقليل أدرك سخافة حجتـه. كيف سيسأله ذلك وقد سلمت الأمانة لابنتـه في بيتـه؟. لم يسعفه التفكير، فالتجأ إلى أبسطه. سيرتاح في الـمقهى من عناء السفر.

تأمله أبو عبده في ثيابه الأنيقة التي كلفتـه كل ما يحمله من نقود باستثناء أجرة الطريق. أخبره بأن البيك لا يأتي إلا بعد العصر. قد يكون في البيت الآن.

هذه الـمرة فتحت لـه الخادمة الباب، فانكمشت نفسه وأحس بأنه يقف على حافة الإحباط. تماسك وهو يسأل

بتـهذيب عن البيك: صلاح. اللي جاب لـه أمانة من سيف الحجاج قبل كم يوم.

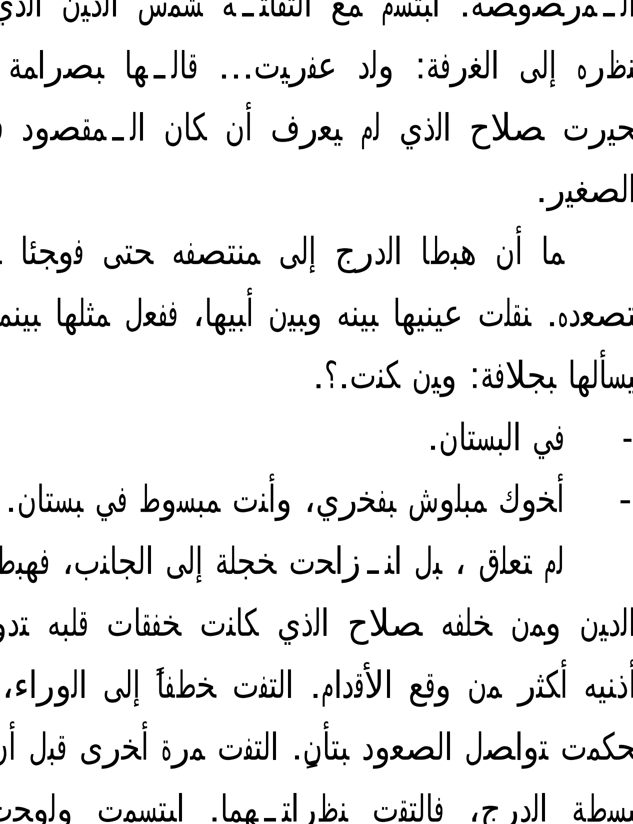
في عبوره إلى الصالة لمح عبر باب مفتوح، صبية تتعارك مع طفلٍ في أرضية الغرفة. لم يتبينها تماماً، لكنها بالتأكيد ليست تلك التي رآها وأحس بشحنة الكهرباء تصعقه في لقاها. لو يدري أهل الدار كم هو بحاجة إلى الشحن من جديد.بـل إلى الشحن الـمتواصل. لو يدري هذا البيك كم هو مسرور لإيصاله تلك الأمانة وأنه لن يسمح لغيره أن ينقل غيرها: شكراً. شكراً... قال شمس الدين بنبرةٍ قاسيةٍ قسوة ملامحه التي تدل على النبل والصرامة والثراء.

- قلت يا بيك، أمر عليك يمكن تكون حابب تودي شي لسيف، آخذه بطريقي.
- معلوم.معلوم. سيف صاحب كبير. كله أصول. إنت إيـمتـه بدوه يسافر.؟.
- اليوم يا بيك.؟.
- اليوم. اليوم. بس إيمتـه.؟.
- يعني. بعد ساعة ساعتين. حسب ما تيجي البوستة.

- فوز... نادى بصوتـه الجمهوري الذي دوى في كل الدار ولم تصرخ به كل الأوتار. فأحس صلاح بمزيد من الرهبة. وقد هيىء لـه أن ابنه فوز لا يقل رهبة عنه، لتطل ابنتـه فوزية ملـهوفة: أيوه بابا؟.

- وين شاي؟.
- هلأ بابا.
- اسمع. خلي خادم يجيب من تحت كيس جوز.
- ما فيه تحت جوز. آخر كيس فتحناه وصرنا مخلصين نصه.
- ولك كيف ما فيه.؟. ليش ما بحكي إنت؟.

شربا الشاي سريعاً، حتى يذهبا إلى بساتين شمس الدين ويحمل صلاح كيس الجوز من الفلاحين. إجيت تحب شغّلوك عتّال. تأزمت حالتـه في خلوتـه، بينما غادره شمس الدين لتغيير ثيابه. أوشك أن ينادي فوزية طالباً منها استعجال أبيها. يجب أن يلحق بالحافلـة حـتى لا تفوتـه ويضطر للمبيت في عمان. أين سيبيت وكل ما يحملـه أجرة الطريق؟. بلا جوز بلا بطيخ. اختطف نظرة إلى الجانب وهو يتبع شمس الدين إلى الباب، فكانت فوزية هذه الـمرة



تتقاذف مع الصغير كرة من الشرائط القماشية الـمرصوصة. ابتسم مع التفاتـه شمس الدين الذي حول نظره إلى الغرفة: ولد عفريت... قالـها بصرامة وجدية حيرت صلاح الذي لم يعرف أن كان الـمقصود فوز أو الصغير.

ما أن هبطا الدرج إلى منتصفه حتى فوجئا بحكمت تصعده. نقلت عينيها بينه وبين أبيها، ففعل مثلها بينما أبوها يسألها بجلافة: وين كنت.؟.

- في البستان.
- أخوك مبلوش بفخري، وأنت مبسوط في بستان.

لم تعلق ، بل انـزاحت خجلة إلى الجانب، فهبط شمس الدين ومن خلفه صلاح الذي كانت خفقات قلبه تدوي في أذنيه أكثر من وقع الأقدام. التفت خطفاً إلى الوراء، فكانت حكمت تواصل الصعود بتأنٍ. التفت مرة أخرى قبل أن يصل بسطة الدرج، فالتقت نظراتـهما. ابتسمت ولوحت لـه مودعة، فترنحت البسمة في شفتيه، ليعلو الهلع تعابيره وهو يتعثر بالدرجة الأخيرة ملقياً بكل ثقله على يديه اللتين تشبثتا بظهر شمس الدين الصخري، بينما ركضت حكمت إلى

الأعلى وهي تتكركر بانشراح: شو.؟. لابس كندرة كوتشوك... قالها شمس الدين وكأنه لم يحس بالاصطدام.

- يا صلاح هادا فارس. لو وقع عليه عشرة مثلك ما بزحزحوه سانتي واحد.
- مبين عليه إشي كتير.
- كتير. كتير. إنت ما بتعرف الرابطة اللي بيني وبينه.؟.
- ما حكيت لي، وما سألتك.
- ميسلون.

قدمت الـمسرحية لأيام ثلاثة على التوالي، بعدما كان الاتفاق على تقديمها مرة واحدة. مما تسبب في تغيير البرنامج الـمعد سلفاً، وتغيير تواريخ تقديمها في الـمدن الفلسطينية الأخرى. كانت مدة العرض تستمر لساعتين متواصلتين لا استراحة فيها إلا عندما تنطفئ الأضواء للانتقال من مشهد لآخر، والتي لم يسمح بشارة بأن تزيد عن خمس دقائق، يتم فيها تبديل الشخوص أو مواقعهم والديكور وإضاءاتـه، بحيث كانت أقرب إلى الأوبرا. حشد بشارة لـها عشرات الـممثلين الذين غدوا كلهم أبطالاً مهما طالت أو قصرت أدوارهم.

تحول بشارة الوديع، أمام هذا الإقبال الذي لم يحلم به يوماً، إلى ديكتاتور تستجاب أوامره فوراً بمجرد أن ينطقها أو يومىء بها أو يشير إليها. بينما الـممثلون الذين ألهب النجاح حماسهم كانوا ينصاعون له برهبة وارتياح، وهو يضيف في كل تقدمة شيئاً جديداً أو يعدل أو يلغي وفقاً لحسه الفني الذي استيقظ بعد سبات طويل، لينتصب شامخاً، كما وصفه سيف في الزفير، ويعلق أبو جبران في مقالة أخرى بأن مسرحية" يوم في ميسلون"، تعتبر نقلة نوعية في الـمسرح السوري جذبت الناس إليها من جميع الأعمار والطوائف والطبقات والأعراق. تدلل عليهم أسماؤهم وثيابهم، وهم يتحركون بتراثهم قبل الـمعركة، لتمتزج دماؤهم أثناءها. بينما الجوقة في الأمام يرتفع إيقاعها عند التلاحم كالهدير ويخبو قليلاً مع النـزيف. ليعلو مع السقوط ترنيم الصبية كالعويل. وتسكت الأصوات فجأة مع حشرجة بشارة الجريح: فلتذكر الأجيال أني أموت لأجلهم، لتحيا سوريا بهم.

تنازعت الـمؤسسات والجمعيات والأثرياء والـمثقفون على استضافة الفرقة وممثليها الخمسين، إضافة إلى الجوقة الـمؤلفة من عشرة رجال ومثلهم من النساء

والصبيان. حتى فؤاد كان له دور في الأداء، مرتدياً ثياب فتاة صغيرة، في عمر ليلى، الابنة الوحيدة ليوسف العظمة، وهو يحتضنها وأمها في وقفة غير مقبولة اجتماعياً، لكن الأداء الفذ جعلها مقبولة فنياً، فلم يستـهجنها الحضور ولا اعتبروها جرأة غير مسبوقة. بل كتمت الأنفاس بالأحزان على هذا العناق الذي يعرف الجميع أنه سيؤول إلى فراق: اتركها أمانة في عنقك وأموت لأجلها وأجلك... ثم يتوجه إلى الجمهور بصوت هتافي: سأموت راضياً لتحيوا لها وتحيا بكم. فيصرخ الأطفال بأصوات العصافير.

الأطفال: آ~ ~ ~ ~ ~ سوريا

آ ~ ~ ~ ~ ~ سوريا

وما أن يحط جسد يوسف ساكناً على الهضبة حتى تطغى جلجلة الكبار من رجال ونساء على حناجر الصبية من أولاد وبنات.

الصغار: آ~ ~ ~ ~ ~ سوريا الرجـ ـ ـــال :

موطني موطني

الصغار: آ~ ~ ~ ~ ~ سوريا النساء:الجـلال

والجمال والسناء والبهاء

الصغار: آ~ ~ ~ ~ ~ سوريا الرجـال: فـي

رباك في رباك

الصغار: آ~ ~ ~ ~ ~ سوريا النساء: والحياة

والنجاة والهناء والرجاء

الصغار: آ~ ~ ~ ~ ~ سوريا الرجـال: فـي

هواك في هواك

الجميع : موطني موطني

١٤

انتعش النشاط الاقتصادي رغم الاضطرابات الشعبية هنا وهناك. كان أكثر تجلياً في عمان من سواها. فالمستوطنة التي كانت مجرد محطة قطار يتوزع سكانها حولها أو قريباً منها، غدت بلدة امتد فيها العمران واتسعت الشوارع وتفرعت الطرقات وصخبت فيها أصوات الناس والبهائم والمركبات. تواكب الوافدون عليها من الشام وفلسطين، إما هروباً من تدهور الأوضاع في مدنهم أو هروباً من القانون، أو رغبة بالعمل والاستثمار والتوسع في الأعمال. كان اختراق أسواقها أكثر يسراً من المدن العريقة مثل القدس أو بغداد أو بيروت أو الشام. فانبعثت مهن جديدة لم تعهدها البلدة من قبل، وصار التوافد إليها شبه يومي بمثل ورود البضائع التموينية والاستهلاكية والتصنيعية. إضافة إلى نهوض مراكز تسلية عديدة من مقاهي ودور سينما ونوادي رياضية.

لكن محور الطفرة الاقتصادية فيها اعتمدت أساساً على تجارة العقارات، بعدما ازداد الطلب على الأبنية، ولاسيما

المؤسسات الحكومية التي تزداد أعباؤها وتتفرع دوائرها، مما جعل عقود الإيجار تتضاعف سنوياً مرات عديدة. وقد تركت النداءات والتهديدات التي أطلقها الوطنيون في مؤتمراتهم وتظاهراتهم وجرائدهم، محذرين من بيع الأراضي لليهود، صداها في سوق العقارات فازدياد الطلب مع الحذر في البيع، رفع أسعار الأراضي إلى مستويات عالية .

حتى الأراضي الصحراوية لحقت الركب، بعد الإشاعات عن بيع وادي الكبد، كذلك بيع درداح لمنطقة بارازين. كما أغرى تجديد الأبنية التي قامت على الأنقاض التي تسبب بها الزلزال، في نهوض مبانٍ جديدة، بعدما وصلت قيمة الأراضي إلى مستوى الضمان المطلوب للاقتراض، سواء من البنك العثماني أو الكنعاني.

هذا الوضع أدى أيضاً إلى ارتفاع أسعار المواد، ولاسيما أن البلدية صارت تفرض الضرائب والرسوم. كذلك الأمر بالنسبة للنقاط الجمركية المتربصة في مراكز الحدود.

باع مقصود، عبر سنوات، العديد من قطع الأراضي داخل المدينة، بعدما أصبحت جرداء أو مكاره صحية أو مواقف للمركبات بالمجان. كان البيع ضرورياً لتجنب الخناقات بين مقصود ومستخدمي هذه الأراضي، كما أن أثمانها كانت تفي باحتياجات العائلة التي تتنامى مع الأيام وتتنامى معها الكماليات والأسعار. لكن عندما أخبر أمه بأنه سيبيع الأرض الخصبة في وادي الحطب، جن جنونها، صرخت به ورجرجته وكادت تطرحه أرضاً: ولك هذه أحسن أرض عندنا.

كان الحسن بالنسبة لها، طبيعة الأرض الزراعية، والأشجار المثمرة فيها وبئر الماء، مع إنها تدرك تماماً أن التشويه لحق بها بسبب كوخ المجون وسرسرة مقصود. في واقع الحال كانت الأرض أقل أهمية وسعراً من أراضي وسط البلدة أو القريبة منها، والتي تتضاعف أسعارها في أوقات متقاربة، بينما أراضي طريق الحطب البعيدة تلحق الأسعار ببطء شديد.

أتاح الخناق فرصـة لتأجيج الحريق الذي تتمناه نازلي وتسعى إليه دائماً. فتدخلت إلى جانب زوجها: معه حق. ماذا نـحن مستفيدون من هذه الأرض النائية.؟.

ردت أم مقصود مؤنبة: هذا بدلاً من أن تقفـي معـي، وتقولي إنـها ضمانة لأبنائك إذا مات زوجك هذا، إن شـاء ا عما قريب.

صرخ مقصود بعصبية: انت تدعين علي وتقـولين عن نفسك أمي.

- لأني حريصة على العائلة، أدعو عليك. سوف تبيع كل شيء في النهاية لتنفقه على سكرك ومجونك. يا ريتك لم تخرج من الحبس.

تغيرت ملامحه واحمر وجهه ولمعت عينـاه شـرراً وهو يرد صارخاً: أنتم بعتم أحسن أرض في عمان وأنا فـي الحبس.

- أنا لم أبعها... وأشارت إلى نازلي: هي باعتـها.

- بعتـها حتى أرسل لـه مصروف للحبس..

استمرت الـمشادات أياماً. التف مقصود في النهايـة على أمه كما أوصاه صديقه السلبطجي.أخبرها عـن عزمـه

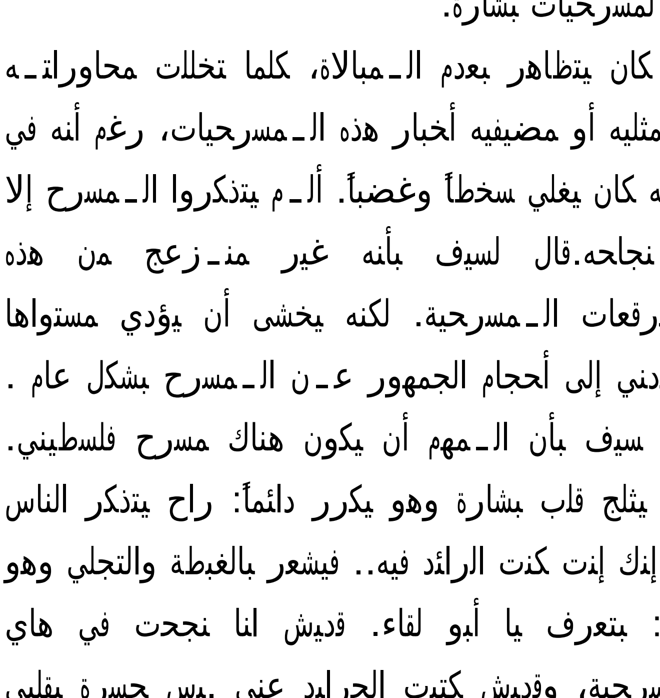
على حصر الإرث وليتصرف كل منهما بحصتـه كما يريد. اتبع هذا التـهديد، بحجة قوية أسقطت في يـد أم مقصـود: أريد أن أبيع الأرض كي أبني طابقاً ثانياً.

- طابق ثاني؟.. تساءلت، وقد أعطى التـهديد مفعوله: آ. طابق ثاني. حتى نؤجر الطابق الأول ويصير عندنا إيراد ثابت يكفينا مصروفاً. محصول البساتين لا يكفي أجور الفلاحين.

ظل جرير يشجعه للبيع، حتى وهو يحذره من التورط مع اليهود: دير بالك. ولو بنص السعر للعرب ولا بضعف السعر لليهود.

لم يوفق مقصود بمشترٍ للأرض قبل شهر من عرضها عند الحلاقين والجزارين والتجار ومتعهدي البناء، باستثناء صقر الذي أخفق مقصود بالقبض عليه إلا بعد بيع الأرض لمال النبي بسعر بخس. دفع جزءاً منه إلى صقر للشروع في بناء الطابق الثاني الذي ما أن اكتمل هيكله حتى كان مقصود قد أنفق النقود الـمتبقية معه.

١٥



حفز النجاح الكبير الذي لـم يتوقعه بشارة العديد من هواة الـمسرح في الـمدارس والـمؤسسات الاجتماعية على تقديم مسرحيات عديدة ظلت في مجملها دون الـمستوى الفني لمسرحيات بشارة.

كان يتظاهر بعدم الـمبالاة، كلما تخللت محاوراتـه مع ممثليه أو مضيفيه أخبار هذه الـمسرحيات، رغم أنه في أعماقه كان يغلي سخطاً وغضباً. ألـم يتذكروا الـمسرح إلا بعد نجاحه.قال لسيف بأنه غير منـزعج من هذه الـمفرقعات الـمسرحية. لكنه يخشى أن يؤدي مستواها الـمتدني إلى أحجام الجمهور عـن الـمسرح بشكل عام . قـال سيف بأن الـمهم أن يكون هناك مسرح فلسطيني. وكان يثلج قلب بشارة وهو يكرر دائماً: راح يتذكر الناس دايماً إنك إنت كنت الرائد فيه.. فيشعر بالغبطة والتجلي وهو يعقب: بتعرف يا أبو لقاء. قديش انا نجحت في هاي الـمسرحية، وقديش كتبت الجرايد عني .بس حسرة بقلبي

إنني ما قدمتـها ولا راح أقدر أقدمها في الـمحل اللي لازم تتقدم فيه.

لكنها قدمت بعد أشهر قليلة ومن فرق مسرحية سورية في دمشق وحلب وحماه. رغم ما واجه بعضها من تدخل البوليس ليمنع افتتاحها أو يقطع تواصلها أو يضرب الجمهور والـممثلين عند انتـهائها. وإن كانت لا تتضمن في نصوصها الـمعدلة أو تجهيزاتـها الفنية أي إشارة تنديد بالفرنسيين وإن أجمعت على إجلال الأرض السورية وتقديسها. بـهذا اسدلت الستارة على مسرحية " يوم في ميسلون"، ليعود بشارة إلى منجرتـه بعدما فقد مشغله معظم زبائنه. حتى ابنه فؤاد الذي أنساه العمل مع أبيه الدراسة والـمدرسة حاق به الإخفاق، ولولا تعاطف الـمدير مع أبيه لفصل من الـمدرسة بسبب الغياب.

انقضت أشهر على هذا الحال، أنفق بشارة خلالها مدخراتـه، ولم يعد الـمشغل يغطي تكاليفه. كما أن عرموش، الذي استعد بداية في تمويله بالـماكينات. أخذ يلح عليه بالسداد، بعدما انفتح السوق على بضاعتـه، وصارت الـمشاغل تفرّخ باستمرار، إضافة إلى تـهافت الناس على

شراء ماكينات الخياطة، طالـما أن الدفع بالأقساط الـمريحة، والتدريب على الخياطة في سدة عرموش بالـمـجان.

في غضون فترة قصيرة علق عرموش في صدر الـمحل لوحة بيضاء بحجم نصف متر مربع، خطط فيها بالأسود عبارة " الدين ممنوع".

عاد بشارة إلى وضعه السابق. عوز وحاجة وفقر يرتفع مستواه لينخفض مستوى الـمعيشة في البيت الصغير.حتى رفاقه الشيوعيون ضاقوا ذرعاً باستداناتـه الـمتواصلة. فهم مثله على قد الحال. تضامنوا بـمجملهم مع زوجتـه التي جعلتـها الحاجة تنسى الشهرة والـمجد والتصفيق، وتفصح علانية عن ندمها على موافقتـه في الانجراف وراء الـمسرح. كان يمكن أن يستقل هو فيه وتستقل هي بالـمشغل. فالإيراد الذي كان يحصل عليه بشارة أنفق معظمه ببذخ وإسراف على الـممثلين والديكورات التي كانت تتغير باستمرار. وما تبقى أنفقه في نشوة النجاح على الأكل والشرب والدعوات التي لا تنتـهي في بيتـه، كي يتحدث عن نجاحه ويسمع من معازيـمه

الإطراء. الآن استفاق من سكرة النجاح مفلساً مديوناً يسأل هذا وذاك. ولما أقفلت دونه أبواب الاستدانة في عمان توجه إلى القدس، ليعود مسرعاً منها متلمساً نفسه طيلة الطريق، خشية أن يكون قد علق به أثر من سيف الحجاج.

١٦

في شتاء ١٩٣١ قال زعيم الصهيونية حاييم وايزمن " إن مستوطنة نـهلال في نظري لها قيمة خاصة متميزة تجعلني ابتدئ بـها رحلتي السياحية في فلسطين واختتمها بـها. فهي رمز عملنا العظيم في مرج ابن عامر، بل إنـها قلب هذا الـمرج، وإذا ما دنت منيتي اتطلع إلى نـهلال التي ستظل أمنيتي".

لهذا فإن الانفجار الذي وقع في الـمستوطنة بعد نحو عامين وأدى إلى مقتل يهوديين، أثار مستوطنيها وأفقدت يهود الـمنطقة بأسرها صوابـهم فحولوا الجنازة إلى تظاهرة كبيرة تقدمها رئيس الوكالة اليهودية التي ألقت بثقلها الـمالي ونفوذها السياسي للضغط على سلطة الانتداب البريطانية للتعامل مع منفذي العملية بطريقة مختلفة. فالاغتيالات العديدة السابقة، لم تكن لتؤثر في ميزان القوى بين العرب واليهود. وتوزع كشافة القساميين على الشريط الساحلي لن يكون لـه أثر يذكر في منع تسلل الـمهاجرين اليهود بواسطة السفن الصغيرة والقوارب الكبيرة. لكن أن

يبدأ العرب تصنيع القنابل، فإن ذلك قد يقلب الأمور رأساً على عقب.

استطاع السمكري الذي التقى عنده انطون بالقسام، من صنع قنبلة يدوية جربت مراراً في برية يعبد، قبل أن تجرب فعلياً في مستوطنة نـهلال.

وبينما كانت مسرحية " يوم في ميسلون". تثير الحماس بين الـمشاهدين الفلسطينيين، كان اليهود يستشيطون غضباً من حكومة الانتداب وإخفاقها في تتبع آثار الفاعلين التي انمحت تحت حوافر أغنام سيروها خلفهم. كما أن مكافأة الخمسمائة جنيه التي خصصتـها الحكومة لأية اخبارية ترشد إلى منفذي العملية، لم تلق تجاوباً. ولم يكن أمام السلطات من خيار، بعدما وصلت الضغوط اليهودية إلى الحكومة الـمركزية في لندن، إلا القيام بحملة تفتيش واسعة واقتحام البيوت واعتقال كل من يشك بأمره، ولاسيما أعضاء جمعية الشبان الـمسلمين التي تدور حولها الشبهات منذ أرسلت كشافيها لمراقبة السواحل والحيلولة دون تسلل الـمهاجرين.

بعد شهرين من الـملاحقات والتحقيقات التي كانت تؤول دائماً إلى الفشل لعدم توافر الدليل، أوقف اعتباطاً الشيخ عز الدين القسام مع جملة من أعضاء جمعية الشبان الـمسلمين دون أي دليل على تورطهم بالعملية، ودون أن يحول ذلك من امتداد الاعتقالات لكل من له علاقة بالقسام، أمثال سيف وصلاح.

لكن الصدفة التي أبعدت الشبهات عن السمكري الغلبان، هي نفسها التي كشفت عن الفاعلين. فأثناء مداهمة قرية صفورية، بحثاً عن الـمشبوهين وقطع السلاح، عثر على قنبلة تشبه في مكوناتـها وطريقة صنعها البدائية، تلك التي انفجرت في نـهلال.

اعتقل صاحب البيت، الذي اعترف تحت وطأة التعذيب عن شريكه بالتفجير الذي تأكد لسلطات الانتداب فراره إلى شرق النهر. أما السمكري الغلبان فقد كان أثناء التوقيف أصاب من الـمعدن الذي يطوعه بيديه ويقطعه ويثنيه .

وجهت تـهمة محاولة القتل للسمكري فحكم بالسجن خمسة عشر عاماً. أما منفذ العملية فقد نفذ فيه حكم الإعدام مع انحسار عام ١٩٣٣ .

قال مدير الوكالة اليهودية لمال النبي : فقط تتبع أثر الـمجرم الفار في شرق الأردن، ونحن كفيلون بإلقاء القبض عليه وتنفيذ الحكم به.

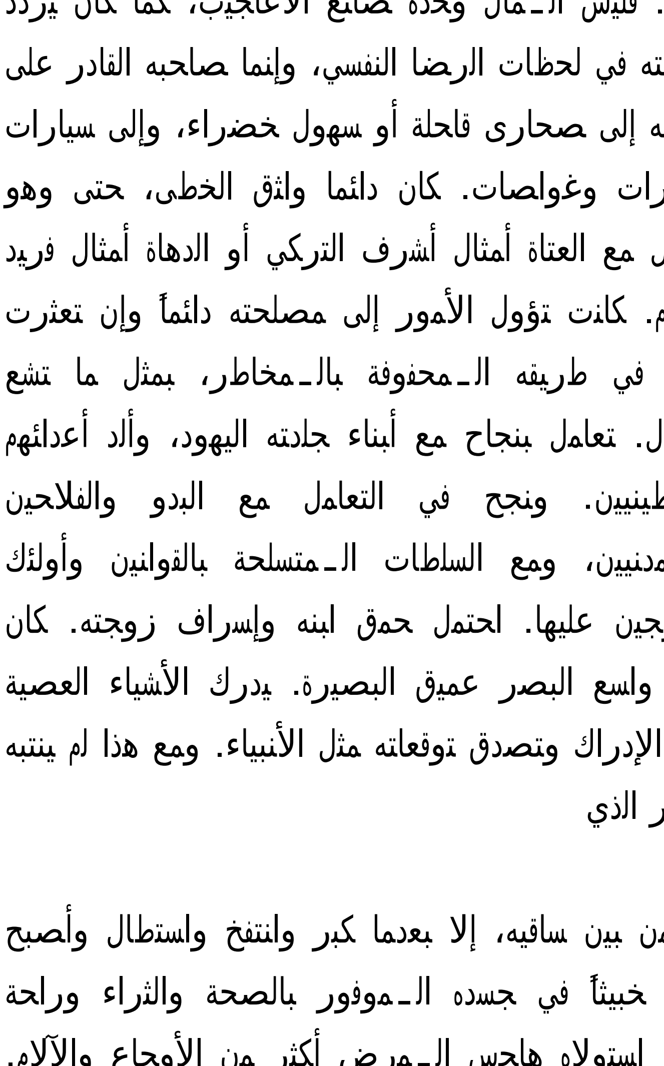
لكن مال النبي كان أكثر حصافة من التورط في هذا العمل الصبياني، على رأيه. لا يدري هؤلاء شيئاً عن التظاهرات التي تلتئم يومياً في عمان ضد اليهود والانجليز.

- ليس في إلقاء القبض عليه فائدة تذكر. بل على العكس قد يضر بنا ويشعل النار من حولنا. حققتم الكثير بإعدام أحد الـمجرمين. فالجيش الانجليزي ومخابراتـه مستنفرة لأجلنا الآن.هذا يعطينا القدرة على التحرك، ويشل قدرة العرب حولنا.

- لهذا أقول لك بضرورة تتبع آثار الـمجرم الفار. الفرصة مواتية لنا لإلقاء القبض عليه وإنـزال الحكم به ثأراً لقتلانا.

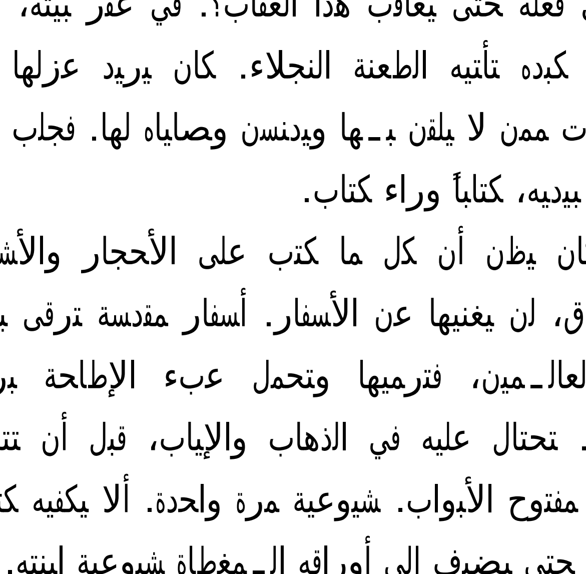
- أما أنا، فأقول، الفرصة مواتية لنا للتفكير بالأحياء وليس بالأموات.

اعترضت حياة مال النبي صعاب كثيرة وواجهته عقبات جمة. كان يتجاوزها دائماً بحذق ومهارة وأعصاب



باردة. فليس المال وحده صانع الأعاجيب، كما كان يردد لزوجته في لحظات الرضا النفسي، وإنما صاحبه القادر على تحويله إلى صحارى قاحلة أو سهول خضراء، وإلى سيارات وطائرات وغواصات. كان دائما واثق الخطى، حتى وهو يتعامل مع العتاة أمثال أشرف التركي أو الدهاة أمثال فريد الأدهم. كانت تؤول الأمور إلى مصلحته دائماً وإن تعثرت قدماه في طريقه المحفوفة بالمخاطر، بمثل ما تشع بالآمال. تعامل بنجاح مع أبناء جلدته اليهود، وألد أعدائهم الفلسطينيين. ونجح في التعامل مع البدو والفلاحين والمدنيين، ومع السلطات المتسلحة بالقوانين وأولئك الخارجين عليها. احتمل حمق ابنه وإسراف زوجته. كان دائماً واسع البصر عميق البصيرة. يدرك الأشياء العصية على الإدراك وتصدق توقعاته مثل الأنبياء. ومع هذا لم ينتبه للخطر الذي

نبع من بين ساقيه، إلا بعدما كبر وانتفخ واستطال وأصبح ورماً خبيثاً في جسده الموفور بالصحة والثراء وراحة البال. استولاه هاجس المرض أكثر من الأوجاع والآلام.



ما الذي فعله حتى يعاقب هذا العقاب؟. في عقر بيته، ومن حشاشة كبده تأتيه الطعنة النجلاء. كان يريد عزلها عن الأخريات ممن لا يلقن بـها ويدنسن وصاياه لها. فجلب إليها السموم بيديه، كتاباً وراء كتاب.

كان يظن أن كل ما كتب على الأحجار والأشجار والأوراق، لن يغنيها عن الأسفار. أسفار مقدسة ترقى بـها على العالـمين، فترميها وتحمل عبء الإطاحة برأس الـمال. تحتال عليه في الذهاب والإياب، قبل أن تتحداه بمذهب مفتوح الأبواب. شيوعية مرة واحدة. ألا يكفيه كتمان يهوديته حتى يضيف إلى أوراقه الـمغطاة شيوعية ابنته.

- مش عارف شو أعمل يا ست بروز.
- بالفلوس ولا بالنفوس.

ضاقت أجفانه حتى يتسع سواد عينيه لـهذا الكاكاو الـمتلفح أمامه بجبة بيضاء: مين دلّك علي؟... سألت الحبشية وهي تتأمله بعينين سوادوين تشعان شراسة.

- جارة قالت لمرتي انك بتقدري تفكي الطلاسم وتحلي العقد..
- بس.؟.
- وإنك بتغيري الـمسالك وبتجنـني العاقل وبتعقلي الـمجنون.
- ما قالت لك الجارة اني بعرف أصلك وفصلك ومرتك وابنك وبنتك.

جحظت عيناه دهشة وذهولاً وانتابته رجفة خاطفة انتصب معها جذعه وكأنه تلقى وخزة في ظهره. ليس هناك جارة ولا جار. منكفئ على نفسه، لا يزور ولا يزار.

زبون ذكرها له قائلاً بأنـها تعمل بالسحر وتستخدم التعاويذ. فجاءها قسراً وليس مختاراً بعدما أخفقت الحيل مع ابنته.

- ما راح تهرب.

- إذا هربت فضحتـني.
- ليش بدها تفضحك.؟.
- ولو. شو بدهم يقولوا عني الناس.؟.
- أنوه ناس.؟. العرب والا اليهود.؟.

ازدادت معالـم الدهشة في وجهه. جاء إلى هذه الحبشية غير مبالٍ بأصلها وفصلها. لا يهمه إن كانت أميرة أو عبدة أو شريفة ، كما يشاع. فلماذا توحي لـه أنها تعرف كل شيء عنه؟. وكيف عرفت عنه وعائلته؟. يريد منها النصيحة أكثر من الحجاب. جاء إليها مرغماً، وهو الذي لا يؤمن بفك الطلاسم واستحضار الجان. فإذا بـها تعرف عنه أكثر من أجهزة الاستخبارات. ترى أهي ساحرة أم قارئة أفكار؟.

وجد مال النبي عندها ما يطمئنه. حقيقة يعرفها، لكن توتره من ساره غيبها عنه. يظل اليهودي يهودي سواء أسلم أم تنصر أم صار شيوعياً. لكن الأهم في كل هذا أن بروز

عرفت أحوالـه وأخبرته بعموميات نشاطاته وكأنـها تخاطرت معه وتخللت أفكاره. لم يقل شيئاً من هذا القبيل لرئيس الوكالة اليهودية، ولا ذكر شيئاً عنه لـهذه البروز الحبشية التي أخبرته عن سائق ضاقت به الحال، جاء إليها يشكو أمره ويسألـها أن تقرأ لـه مستقبله، فأخبرته بأن محنته تزول بالالتفاف على الحدود.

قال رئيس الوكالة اليهودية: يعني قادر يوصلهم إلى فلسطين.

- التجربة أكبر برهان... أجاب مال النبي... وأضاف: صدقني أنه نـمر ابن نـمر.

حمل عواد النمر شحنة أغنام من العراق، وسمت من أصحابـها بسيخ حارق رسم على صوفها نجمة سداسية، دون علم عواد. فوصلت الشحنة سالـمة بعلاماتـها الـمميزة إلى نـهاريا بعد أربعة أيام، قاطعاً عواد بـها طريقاً هلالياً طويلاً تجاوز فيه الـمراكز الحدودية العراقية والأردنية والسورية. دون أن يحتاج للتزود بالـمؤن والوقود التي حمل كفايته منها، وقبض عنها أجرته ليرات ذهبية من مال النبي.

في المرة الثانية غطى الشاحنة بشادر سميك، قبع تحته عشرون يهودياً بزادهم ومائهم وأمتعتهم، فوصل بهم عبر الطريق نفسه إلى نهاريا، حيث استقبل فيها استقبال الأبطال، ودفع له مال النبي ثلاثة أضعاف أجرته الذهبية السابقة، انقد عواد ثلثها إلى بروز التي كانت تبعث له مرسال يبلغه التحية حال عودته، مما كان يثير مخاوفه منها، أكثر مما تثير دهشته واستغرابه معرفتها الدقيقة بموعد وصوله.

كل شيء جرى حسب نبؤة بروز. فاشترطت السلطات على ساره موافقة ولي أمرها للحصول على وثيقة سفر، وهو ما لم تحظ به أبداً. لكن ذلك لم يقلل من تحديها، فلعبت دور خادمة عبلة في مسرحية عنترة. صفعها أبوها وحجر عليها دون أن يستطيع الحيلولة وتنمية وعيها الاشتراكي الذي تخللها مادياً وروحياً من خلال الكتب التي لا يعرف كيف تنبع في بيته.

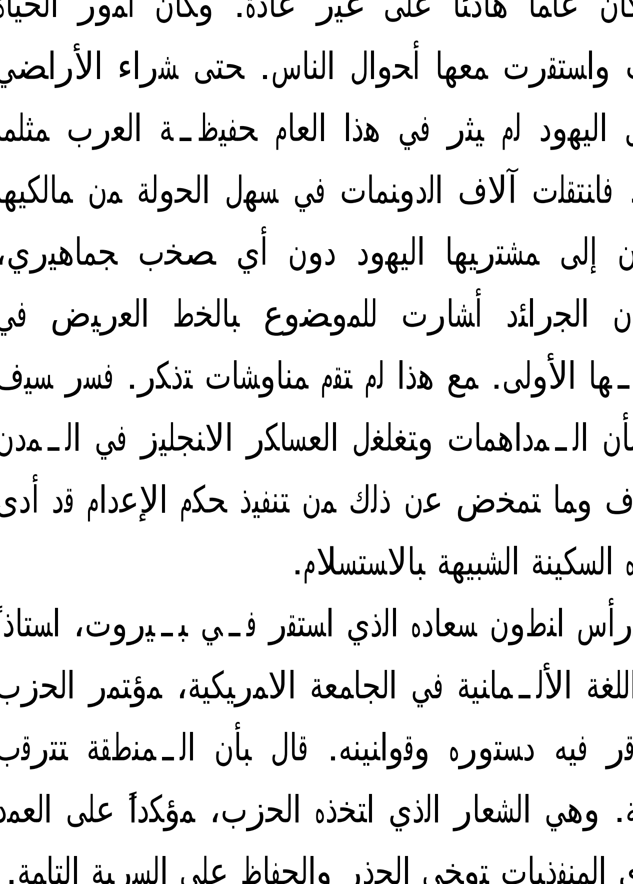
مع الوقت أهمل أمرها بعـدما تشـعبت مسـؤولياته، وازدادت عمليات عواد النمر في تهريب اليهود العـراقيين، فينقده الأجرة، التي ينقد عواد ثلثها إلى بروز محسوبة بعـدد الـمنقولين وليس بالنقلة. بينما الكشافة القساميون يجوبـون الشواطىء لمنع تسلل الـمهاجرين.

تساءل مال النبي في لحظـة شرود، محتاراً بأمر هذه البروز، أمعقول أن تكون يهودية.؟.

- من ...؟. سألت زوجته.

ارتبك قبل أن يرد متلعثماً: ساره. مش عارف كيف صارت شيوعية.

١٧



كان عاماً هادئاً على غير عادة. وكأن أمور الحياة انتظمت واستقرت معها أحوال الناس. حتى شراء الأراضي من قبل اليهود لم يثر في هذا العام حفيظـة العرب مثلما السابق. فانتقلت آلاف الدونمات في سهل الحولة من مالكيها اللبنانيين إلى مشتريها اليهود دون أي صخب جماهيري، رغم أن الجرائد أشارت للموضوع بالخط العريض في صفحاتـها الأولى. مع هذا لم تقم مناوشات تذكر. فسر سيف الأمر بأن الـمداهمات وتغلغل العساكر الانجليز في الـمدن والأرياف وما تمخض عن ذلك من تنفيذ حكم الإعدام قد أدى إلى هذه السكينة الشبيهة بالاستسلام.

ترأس انطون سعاده الذي استقر فـي بـيروت، استاذاً لتعليم اللغة الألـمانية في الجامعة الامريكية، مؤتمر الحزب الذي أقر فيه دستوره وقوانينه. قال بأن الـمنطقة تترقب الزوبعة. وهي الشعار الذي اتخذه الحزب، مؤكداً على العمد ومديري المنفذيات توخي الحذر والحفاظ على السرية التامة.

قال صلاح: لكنهم في شرق الأردن وفلسطين يعطـون التراخيص للأحزاب عن طرف وجنب.

رد انطون قائلاً: هيدا اللي بدهم إياه الانجليز.

- واحنا راح نضل نشتغل بالسر.؟.

- شغلنا علني وتنظيمنا سري.

- لإيمته؟... سأل جبران .

- لتيجي فرصة مناسبة تكون كل الأنظار مصوبة علينا. هداك الوقت، الناس ما راح تتطلع علينا وبس. راح يحملونا على أكتافهم كمان .

في طريق العودة. بات صلاح ليلته في عمـان، كـي يتمكن مع ضحى اليوم التالي، من ملاقاة شمس الـدين فـي بيته: هاي هدية مني للعفريت فخري... قال ذلك وهو يلقـف كرة مطاطية لفوزية .

علق شمس الدين وقد غمرت البهجة وجهـه: منشـان تكسر بيت، انت وهو...

لم تعلق فوزية وأسرعت تغادر بالكرة. وفي لحظـات سمع صوت ارتطام وتكسير: عاجب إنت؟.. سـأل شـمس الدين موبخاً .

لم يعد ينتظر سيف ، بل صار يعرج عليه في طريقـه إلى بيروت. يسأله الأمانة، مما كان يحرج سيف إذا لم يكـن مستعداً للإرسال .

في طريق عودته من بيروت يجلـب دائمـاً حلويـات شامية هدية منه إلى شمس الدين، ويحمل منه شيئاً إلى سيف. كل هذا الاستعراض من أجل حكمت التي تسلمت منه رسالة في إحدى زياراته. وتسلم منها وردة في رسالة أخرى لتتعبد الطريق بينهما بالأوراق .

مهد للأمر مع أبويه. أنه راغب بالزواج الآن. نصـيبه أن يجد عروساً مناسبة في عمان. لم يفصح أكثر، ولا تقـدم خطوة أخرى نحو الزواج. ظل متردداً لأشهر طويلة، رغـم استفسارات انطون وتشجيعه كلما التقاه في بيروت. كان هذا يحرج صلاح رغم ازدياد إعجابـه بانطون الذي لا ينسـى شاردة ولا واردة، سواء في الشـؤون الحزبيـة أو العقيـدة السورية أو أحوال اتباعه الشخصية. برأي صلاح فإن عظمة انطون تكمن في جاذبيته أكثر مما تنطق بها ثقافته . وبـرأي جبران فإن انطون زعيم بالفطرة ، الأمر الذي يقدمه علـى الجميع دون أن يبتعد عنهم او يبتعـدوا عنـه . إنـه لـيس

دكتاتوراً ، وإنما بـنّـاء ماهر المعمار . بالنسـبة لـ رؤوف الصغير ، فقد كان انطون نبياً يجد عنده أجوبة مريحة كافية للأسئلة المحرجة التي تتوالد في مخيلته الفتية عـن العالـم والـمجتمع والناس. وكان انطون يتطلع إلى اليوم الذي يتوج فيه زعيماً أبدياً لكل البلاد السورية.

- شو صار مع البنت الشركسية؟.

- شو بدوه يصير؟.. تساءل صلاح بنبرة تصنع فيها اللامبالاة. فقال انطون: اطلب ايدها، وإذا بدك مساعدتي، أنا جاهز..

كان صلاح يرغب حقاً في مساعدته. فهو يعرف عن الشراكسة أنـهم قد يتصاحبون مع العرب ويتصادقون ويتجاورون.لكنهم لا يزوجونـهم وإن كانوا منهم يتزوجون.قد يكون لانطون سطوة شخصية هائلة وقدرة منطقية فائقة.لكن هل يكفي هذا مع رجل مثل شمس الدين؟.عنيد في الحرب،متحجر في السلم.لن ترتـخي أذناه أمام بلاغة انطون ولن تذيب صلابته حرارة الكلمات،ولن تجمد أوصاله رهبة الزعامات.يظل شمس الدين هو هو.تشع الرهبة من ملامحه مهما كان مزاجه.حتى ابنه الصغير يرتاع

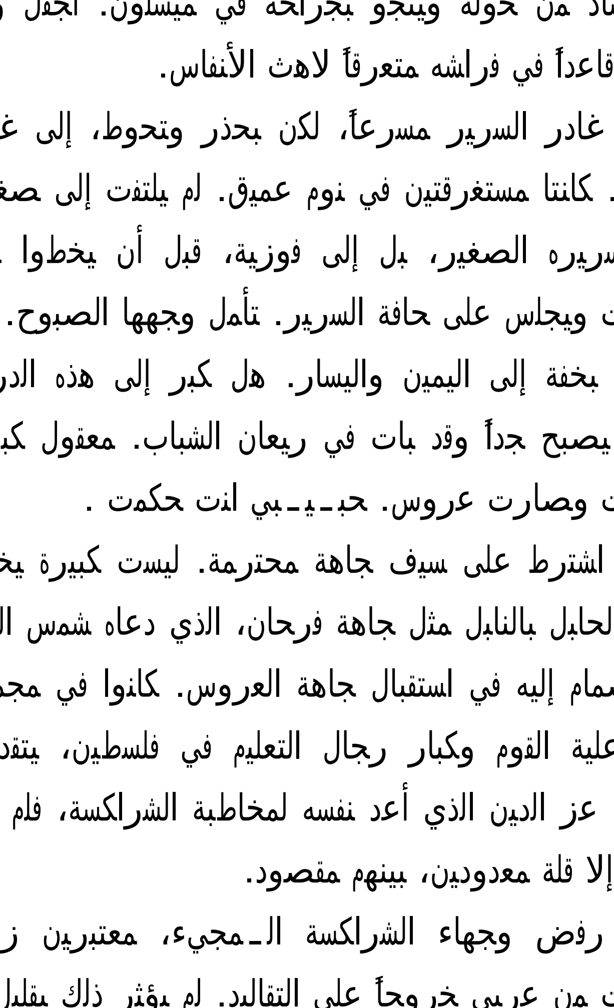
لرؤيته، وترتبك ابنتاه في مقابلته.ويعاني صلاح من ثقل الدهر كله في الوقت القصير الذي يلتقيه.كل ما يصدر عنه أمر ونهي.حتى عزرائيل ربما جاء لزوجته بناء على طلبه.رجل مثل هذا، لديه استعداد لمواجهة جيش عرم، هل يمكن أن يذعن لجاهة مثل جاهة فرحان؟.

قال سيف: لا.لا. مش شمس الدين بتدغدغ عواطفه الأطيان وكبر الجاهات.

- أنا بدي البنت يا أبو لقاء. ولو بخطفها خطيفة مثل الشركس.
- انت بتعرف شو هي الخطيفة عند الشركس؟.
- شو بدها تكون؟ خطيفة.
- وبتقول عن حالك مثقف. اترك لي الـموضوع. وخليني أجس نبضه.

كان سيف على قناعة، بأن شمس الدين لا يخترق إلا من داخله. فعزف لـه على وتر ميسلون .

اشترط شمس الدين موافقة حكمت التي جيرت لـه أمرها: اللي بتشوفه انت بابا.. فاستوعب شمس الدين الـموضوع. وكاد أن يبرق لسيف بالرفض لولا هدير



الطائرات التي راحت تدميه بقذائفها تلك الليلة فتتمزق الأجساد من حوله وينجو بجراحه في ميسلون. أجفل وهو يهب قاعداً في فراشه متعرقاً لاهث الأنفاس.

غادر السرير مسرعاً، لكن بحذر وتحوط، إلى غرفة ابنتيه. كانتا مستغرقتين في نوم عميق. لم يلتفت إلى صغيره في سريره الصغير، بل إلى فوزية، قبل أن يخطوا نحو حكمت ويجلس على حافة السرير. تأمل وجهها الصبوح. هز رأسه بخفة إلى اليمين واليسار. هل كبر إلى هذه الدرجة حتى يصبح جداً وقد بات في ريعان الشباب. معقول كبرت حكمت وصارت عروس. حبـيـبي انت حكمت .

اشترط على سيف جاهة محترمة. ليست كبيرة يختلط فيها الحابل بالنابل مثل جاهة فرحان، الذي دعاه شمس الدين للانضمام إليه في استقبال جاهة العروس. كانوا في مجملهم من علية القوم وكبار رجال التعليم في فلسطين، يتقدمهم الشيخ عز الدين الذي أعد نفسه لمخاطبة الشراكسة، فلم يجد منهم إلا قلة معدودين، بينهم مقصود.

رفض وجهاء الشراكسة الـمجيء، معتبرين زواج حكمت من عربي خروجاً على التقاليد. لم يؤثر ذلك بقليل أو

كثير على شمس الدين. الكلمة كلمته وليس لأحد شأن بـها: لا شركس ولا عرب. لما بدوه أنا يجوز شهيرة. أنا اللي بقول لا أو آ.لا أنت ولا أهلك ولا كل شركس وادي السير. فاهم أم ضبع.آخ آخ آخ آخ آخ.

تقرر الزواج بعد عيد شوال الذي صادف مجيئه في الربيع. رفض شمس الدين عقد القران بين العيدين. ذلك شؤم ومكروه، فوافق صلاح على مضض. ورغم طول الـمدة، فلم يكن هناك فترة خطوبة على الإطلاق. ظل صلاح يلتقي مع حكمت بالخفاء. وغالباً ما يتم التواصل بينهما بالـمراسلات. أما مستلزمات العرس، فليس من شأن صلاح. اللهم إلا دفع الـمهر الـمعجل الذي لم يغط ربع ما أنفقته حكمت على تجهيزاتـها من الشام. وما يشتريه صلاح، يسلمه للخادمة عند الباب، ويقضي لحظات الصمت الـمريع مع شمس الدين الذي تلاشت بشاشته القليلة التي كان يلقاه بـها قبل الزواج.

لما حان الـموعد في نهاية أذار، فاجأ الثلج عمان. لكن ذلك لم يحل دون وصول أهل العريس الذين غصت بهم حافلة كبيرة تتقدمها سيارة سيف ليتسلموا الأمانة من يد شمس

الدين، ويخرجون بها ملفوفة بثوبها الأبيض كأنها سروة تغطيها الثلوج التي ابيضت على الطرقات والـمساكن والأشجار والـمركبات. ساعدت النسوة على لملمة ثوبها وهي تأخذ مكانها في الـمقعد الخلفي للسيارة وبجانبها صلاح، وفي الـمقعد الأمامي جلس سيف خلف الـمقود في منتهى الانشراح وبجانبه ثائرة. تردد من حين لحين مواويلها، وصورة أمها لا تغيب عن مخيلتها بشقارها وبياضها الذي جلب عليها نقمة نساء القبيلة، فماتت تلك الـميتة الشنيعة.

ترى ماذا ينتظر هذه الغادة الـمسافرة عبر البحر الـمجهول تاركة خلفها عشيرتها واريج ذكرياتـها، بينما دمعت عينا حكمت وهي تلتفت إلى الخلف وقد أصمت اذنيها عن أصوات الزغاريد الـمنبعثة من بيت أبيها وكأنه امتداد لأطلال القلعة فوقه، تزعق منها العفاريت .

خيتي يا حكمت لا تبكي ولا دمعة

ليك احنّين ينطيـك الحب والنعمـة

خيتي يا حكمت لا تبكي تبكيـني

ليك احنين يسليك من السبت للجمعة

١٨

استثمر فريد ذكاءه في شؤونه العملية ليغدو شخصية مرهوبة يحسب لها الحساب في العديد من الأعمال الـمشروعة وغير الـمشروعة. لكن الأمور لم تعد كالسابق، تستوعبها الذاكرة وتتولاها النباهة. بل صارت تتحول جميعها إلى أوراق وإجراءات فخشي أن تدب الفوضى في أعماله الـمتشعبة وأن تواجه بالحواجز والسدود، بعدما عقّد الانجليز الأمور وأخضعوها للرتابة والحزم في تطبيق التشريعات. في كل يوم موظفون جدد ومرسوم يتلو مرسوماً، وشرطة وجيش ومفتشون اداريون وجباة ضرائب وجمركيون. لكنه تعامل معها بجدارة ونجاح. فالصفقات التي واكبه النجاح فيها أكثر من تلك التي تعثر بـها.

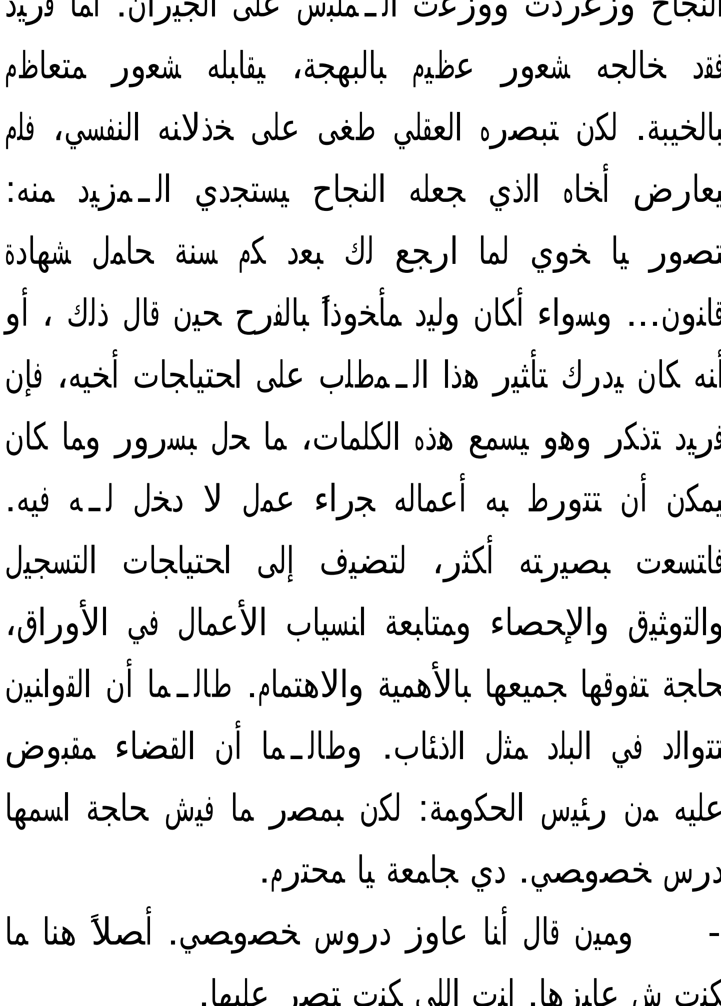
كان يغالي في تقديره لنفسه، متبجحاً أمام أمه وأخيه بأنه أذكى الجميع. وفي خضم تشابك العلاقات في هذه البلدة الناشئة كان يعتبر دراسة أخيه خير عون لـه، بل إنها ستجعل من وليد سجل التوثيق ومرجع التشريع. فالأمية تتراجع أمام اتساع نطاق التعليم، وهو ما يزال عاجزاً عن

فك الحروف الـمكتوبة وإن كان بليغ النطق بـها. كما أنه لا يعرف قواعد الحساب وإن كان عقله ماهراً في العد والإحصاء.

إذا كان قطار العلم قد فاته وصار صعباً عليه اللحاق به وهو منشغل طيلة الوقت بكل هذه الأعمال. فإنه يستطيع إلحاق وليد به وهو الوحيد الذي يأمن لـه ويستطيع الاعتماد عليه .

وليد من جهته، كان يفسر هذا الإلحاح من قبل أخيه، بأنه تعويض عن عقدة نقص التعليم التي يعاني منها أخوه. لكنه مع هذا، لم يخذله بالاستجابة والاجتهاد في الدراسة، طالـما أنه أكبر عمراً من أقرانه، وأوفر حظاً أيضاً.

لم تتوقف مساعدة فريد على القفز به من مرحلة دراسية لأخرى بعيداً عن التدرج الـمنهجي الـمألوف. بل إنه كان يدفع بسخاء للعديد من معلمي المدرسة لإعطاء وليد دروساً خصوصية في البيت، مما ساعد في محاباة الأساتذة لـه في العلامات، وإن كان يستحق بمثابرته واجتهاده التقدم والنجاح. فحصل على تقدير ألف في نتائج الـمترك التي لم ينجح فيها سوى خمسة عشر طالباً من أصل سبعين.



أحست أمه، التي واتاها النعيم في أواخر العمر، بفرحة النجاح وزغردت ووزعت الـملبس على الجيران. أما فريد فقد خالجه شعور عظيم بالبهجة، يقابله شعور متعاظم بالخيبة. لكن تبصره العقلي طغى على خذلانه النفسي، فلم يعارض أخاه الذي جعله النجاح يستجدي الـمزيد منه: تصور يا خوي لما ارجع لك بعد كم سنة حامل شهادة قانون... وسواء أكان وليد مأخوذاً بالفرح حين قال ذلك ، أو أنه كان يدرك تأثير هذا الـمطلب على احتياجات أخيه، فإن فريد تذكر وهو يسمع هذه الكلمات، ما حل بسرور وما كان يمكن أن تتورط به أعماله جراء عمل لا دخل لـه فيه. فاتسعت بصيرته أكثر، لتضيف إلى احتياجات التسجيل والتوثيق والإحصاء ومتابعة انسياب الأعمال في الأوراق، حاجة تفوقها جميعها بالأهمية والاهتمام. طالـما أن القوانين تتوالد في البلد مثل الذئاب. وطالـما أن القضاء مقبوض عليه من رئيس الحكومة: لكن بمصر ما فيش حاجة اسمها درس خصوصي. دي جامعة يا محترم.

- ومين قال أنا عاوز دروس خصوصي. أصلاً هنا ما كنت ش عايزها. إنت اللي كنت تصر عليها.

لم يكن في نبرة الحوار عتاب أو شعور بالفضل أو النصح والإرشاد. كان أشبه ما يكون بتجديد صفقة متفق عليها ضمناً دون شروط أو ضمانات.

سافر وليد مع الخريف ليلتحق بكلية الحقوق في الجامعة الـمصرية: سلم على مصر يا واد. قلي للي بيها، إني هنا أكبر واحد فيها. مش كده يا ست فاتن، والا اقول فتحية.

استقراره في عمان، افاده كثيراً. لو كان مركز الحافلات في الـمحطتين الرئيستين، القدس ودمشق، لشلت حركته بسبب تشدد الانجليز في فلسطين وبطش الفرنسيين في الشام ولبنان. يظل شرق الأردن أكثر طراوة، طالـما أن الانجليز يغضون النظر عن أمور كثيرة لا يعرفونـها في مناطق أخرى. فالـمظاهرات لا يتصدى لها الجنود، بل غالباً ما يشارك فيها رجال الدولة. حتى مهاجمة جلوب ورميه بالحجارة والقاذورات لم يقابل بأية اجراءات.

يكفيه أن يحاسب سائقي الحافلات في موقعه الـمتوسط بين دمشق والقدس، دون أن يضع نفسه في قفص الشغب والثورات .فالسائقون سيسرقون حتى لو راقب كل حافلة

وهذا مستحيل، ومستحيل أيضاً أن يعترف السائقون بـمن حملوهم أو أنزلوهم خلال الطريق. والأهم، أنه لو اتخذ مقره في القدس أو دمشق لما خطرا بباله أن يكون وكيلاً للسيارات التي جاء بـها إلى عمان. الـمال يجر الـمال ويفتح للمرء الأبواب، فلولا جرأته بالتهريب لما تـجرأ على الاتـجار بالسلاح مع فرحان.

قد يكون مال النبي ماهراً بالـمراباة مهارة اليهود، لكنه يظل أقصر قامة وذراعاً من أن يحاول الاتجار مثله بكل الأمور. بقدرته ورهبته ونقوده أصبح شريكاً للختّام الذي كاد مال النبي يوقعه في شباكه. وبجرأته وفطنته يدير أعمال التهريب وهو في مكانه. وبحنكته حصل على إجازة بيع السلاح وهي التي لا تمنح للإنس ولا الجان. أما أن يبلّغ وزارة الداخلية عن أسماء الـمشترين وأنواع الـمباع، فهذا أمر يمتلك زمامه بالكامل، فهو يبلغ بانتظام عمن يشتري أو يبيع القطع الـمسموح له التجارة بـها من مسدسات وبواريد الجفت والخرطوش. أما العتاد فلا يسأل عنه، رغم أنه أكثر الأشياء مبيعاً في بيت السلاح. هذا هو الوجه الـمشروع. كل نشاط بنظره يمكن استثماره لخدمة القانون أو لمخالفته.

حتى تجارة الحشيشة التي يأتيه منها معظم الإيراد، فإنه يحدد لـها الـمسار ونقطة الانطلاق ومحطة الوصول وما يتخلل ذلك من استراحة للخلط وتضخيم الزيج، والقبض والدفع للناقلين والـمرسلين والوسطاء والـمستلمين. يقابل ذلك عمل مشروع يبعد عنه الشكوك، فهو لا يتوانى عن الوشاية، إذا ما أخل بالاتفاق أحد الـمتعاونين أو الـمتعاملين. أو إذا تعرض للخيانة أو دخل السوق مغمور متهور أو أحمق جشع.

هـذه سوق محظورة من السلطات ومن أصحابـها العتاة . فالـمسموحات جداول وديعـة تنساب أمام كل الناس الذين لا يعرفون شيئاً عما يربض تـحتها من آبار خفية.

يعرف الجميع أنه وفرحان شريكان في بيت السلاح. لكن أحداً، عداهما، لا يدري أنـهما أيضاً زبونان. فما يشتريه فريد من سلاح الجنود الانجليز وأسلاب البدو ومبادلات الفلاحين. يبيعه لفرحان بعيداً عن الـمستندات التي تخص فقط مبيعات المحل ومشترياته. هذا مشروع تنتفخ به ملفات الـمسؤولين، وذاك غير مشروع تنتفخ به جيوب فريد الذي يـدرك تـمامـاً أن فرحان يرسل السلاح إلى الثوار

في فلسطين. لكنه لا يدري إن كان فرحان يبيعه لهم ويحقق الأرباح أم أنه واحد منهم. هذا أمر لا يكترث لـه، طالـما أن فرحان حريص حصوف ومن كبار الإقطاعيين. إنه مثله يتخذ من بيت السلاح واجهة تظهر فيها موجوداتـها الـمسموحة، وتختفي من ورائها صفقاتـها الـممنوعة.

لم يكن فرحان يبالي كثيراً بالـمحل، وإن كان يقضي فيه بعض الوقت أثناء تنقله بين القبة وبساتين السيل. فيجلس خلف الـمكتب الخشبي الأنيق يراقب الناس أمامه، بينما يغادر فريد إلى معرض السيارات، وكأنهما يتناوبان الإدارة كما يعتقد أصحاب الحوانيت القريبة أو من يعرفهما من أهل عمان.

وحتى لا يثير فرحان شكوك فريد، فإنه لم يكن يرفض أي عرض للسلاح. فيشتريه ويخزنه في بوايك القبة، بانتظار أن يرسله إلى سيف الذي طلب منه التوقف عن الإرسال، بعدما تعرضت الـمدن والقرى لاجتياحات الجيش الانجليزي، وما تمخض عنها من اعتقالات وإعدامات.

تلك السنة التي شمل هدوء الأوضاع فيها جميع الناس بعد مخاض طويل، شمل أيضاً فرحان وإن كان الشبه غريباً.

فهو لم يرث عن أبيه حلمه الذي أعجزه وعجز عنه فحسب. وإنما ورث عنه مخاوفه التي كانت هاجساً وصارت واقعاً. كان طيلة عمره متطيراً من مرزوق الذي لا يشبهه في شيء، اللهم بعضاً من ملامحه ولسانه .أحب الـمدرسة التي كرهها، ونفر من القبة التي يقدسها، ونشأ بخيلاً على عكسه. استهوته الـمدينة ولم يشعر بقوة روابط القبيلة. تزوج باختياره بينما اختار لـه أبوه زواجة. وفي النهاية تأتيه نهايه.

لم يجادله مرزوق ولم تحتج ميسر، فالإسم اسم بالنسبة لهما، سواء تشكلات حروفه من كلمة بداية أم نهاية. أما تمام فكانت تعي تماماً لماذا اختار فرحان لحفيدته اسم "نهايه".

كل ما استولاه من إحباط لم يجعله يتولى عن حفيدته أو مجافاتـها أو التطير منها. شاءت الأقدار ذلك، وكان يصعب عليه أن يقول شاء الرب ذلك. فلماذا ينتقم منه الرب وهو الأبي الوفي الصادق الكريم، الـمجاهد في سبيله أكثر من الـمسلمين؟.

قضت ميسر وابنتها معظم العطلة الصيفية في القبة، فرعاهما فرحان أكثر من رعايته لمرزوق، وجعل من

إقامتهما أعراساً وسهرات ورحلات. ركبت خلالها ميسر الخيول والجمال والبغال، وتنقلت فوقها من أقاصي القبة إلى أطراف الصحراء، وفي كل مشوار إلى عمان تعود بالسيارة ممتلئة بكل ما تطلبه عيناها أو تشتهيه لابنتها.

من حين لـحين تقضي العائلة جميعها يومها في بساتين السيل حيث يغني لهم الفلاحون ويهزجون ويدبكون. يشاركهم فرحان البهجة، وهو يحمل نهايه بين يديه. يضمها ويقبلها ويتلاقفها بطريقة تفزع الآخرين وتنتزع قلب ميسر هلعاً. بينما يظن مرزوق بأبيه الظنون.

عند انتهاء العطلة غادر مرزوق إلى بيروت، وعادت ميسر للإقامة وابنتها مع عائلتها في الناصرة. كانت قد أخذت إجازة سنة قبل الولادة لتصبح إجازة دائمة بعدها. كل ذلك لم يحل دون لحاق فرحان بها وزيارتـها مراراً قبل أن تلحق بزوجها. وصل تعلقه بحفيدته إلى درجة الوله، وهو يداعبها كالصبيان، فتكركر من الأعماق وهو يتقاذفها، ويقرقر بطن أمها وعائلتها دون أن يختلف وضع ميسر في زياراته لـها عنها في زياراتـها له. فيحملهم مسلم في السيارة إلى نابلس والقدس وبيت لـحم ويافا وحيفا والجليل. يزورون

المقدسات ويملأون السيارة بالمشتريات ويبارك فرحان نهايه في المغطس كأنه يريد إغراقها، وفي مياه البحر الميت يحرق بأملاحه جسدها وهو في قمة البهجة والانشراح. دون أن تجرؤ ميسر على أن تطلب الرأفة بالصغيرة أوالتلاطف معها. ولما أبدت انزعاجها بلباقة أصابها الحرج: هادا لو جبت ولد شو بتسوي فيه.؟!.

- كان نزل من رحمك خيال.

ما إن يصل القبة حتى يعاوده الاغتمام: ما قدرت تقول لي بلسانك إنك رايح الناصرة، والا خايف اروح واياك؟. منشان هيك دزيت لي الخبر مع فلاحين السيل. ما بتخاف أظل لحالي هان، وحوالي ذياب وضباع ورعيان.

- ويش ودوه يصير ليك. العسكر جنبك وما أحد يقدر يقربك.
- والقبة بطلت تخاف عليها.!.
- قلت ليك. العسكر حوالينا.. منوه يقدر يقرب لينا.
- حتى القبة بطلت تلم رجليك يا بو مرزوق.
- ودك اياني اتربع قدامك ليل نهار. خليني بحالي يا حرمة. وا ماني طايق ثيابي.

- منشان هيك كل يوم والثاني في الناصرة.
- انت بتشكّي بي.؟.
- لا. ما أشك. بس ماني فاهمة لويش متعلق بـها البنّية، وانت اللي بكيت الليل بطوله يوم ولدت.
- لانها آخر العنقود.
- لا تفاول يا شيخ.
- مثل ما أقولك. هاذي آخر العنقود. ومن فضل الرب أنوه صار لينا أثر في الناصرة، ديرتي وديرة الـمسيح.
- أيه. خلصنا من ها الزيارات طالـما الـمخلوقة مسافرة بعد أسبوع لبيروت.
- ومنوه قال. الأوتومبيل اللي يصل الناصرة ما يصل بيروت.؟.

١٩

ضمت منفذية بيروت أكثر الأعضاء عدداً من بين عشر هيئات توزعت بين فلسطين وسوريا ولبنان. وبينما تم تعيين الدكتور صبحي الـمر منفذاً عاماً لبيروت، أوكل لجبران مسؤولية الناموس، إلا أنه قدم استقالته بعد ثلاثة اجتماعات، بذريعة أنه لا يطيق الأرشفة والتسجيل ورفع التقارير، كما أنه لا يجيدها، رغم أن مرتبته تجعله الرجل الثاني في الـمنفذية ونائباً للمنفذ العام.

قبلت استقالته وأوكل لـه مسؤولية ناظر التدريب الـمسؤول عن تشكيلات الـميليشيات الحزبية. الأمر الذي يجعله مرتبطاً تنظيماً مع الـمنفذ العام، وعملياً مع عمدة الدفاع، الذي اتخذ منطقة زرعون على أطراف الضهور مركزاً للتدريب على السلاح والقتال والنظام. وكان على جبران قبل أن يتولى مهمته، التدرب على أنواع السلاح.

قال أنطون بأنه سيستغل الوضع الـمتأزم بين تركيا وفرنسا للحصول على السلاح. لكن جبران اقترح مصدراً آخراً لقي قبولاً من عمدة الدفاع.

لم ينس جبران لوعة ميسلون التي التقى فيها بسيف وفرحان. ولم ينس خطابه الحماسي في السلط، ولا زيارته للقبة التي كانت قبل سنين استراحة للمحاربين. يفكون الرحال فيها وينطلقون منها مخترقين البوادي والسهوب والهضاب. كانت أيضاً مستودعاً للسلاح. اتجه إليها وفي مخيلته أنه سيجد أطلالاً وأرضاً جرداء، فوجدها غابة خضراء.

على الرابية بيت كبير يرتفع مثل قلعة تطل على البوايك الساكنة سكون الأهرامات. وفي الحقول فلاحون يعملون بكسلٍ وتراخٍ.

تجاوزته على الطريق سيارة أثارت من خلفها زوبعة غبار، وعلى مقربة من بئر الـماء شاحنة تحمل صهريجاً، وإلى جانبه ترك يتوزع حوله عدد من الرجال بثياب غريبة، وقد تدلت من أكتافهم إلى وسطهم أوشحة حمراء وتخنصروا بزنانير فشك جلدية.

قالت لـه تـمام بأن أبا مرزوق غادر للتو إلى عمان، ولن يعود قبل الـمساء. ولما قرأت الحيرة في وجهه، أخبرته بأنه يستطيع أن يلاقيه في بساتين السيل الـمعروفة

للجميع باسم بساتين الصليـبي، أو يسأل عنه في بيت السلاح.

عاد بالسيارة التي دفع أجرتـها ذهاباً وإياباً إلى عمان، وليس في نيته الاتجاه إلى البساتين وقد راح بيت السلاح ينشد في رأسه الـمواويل. سأل فريد عنه فأجابه متفحصاً، وقد أثارت لكنته اللبنانية تساؤلات فريد الذي لم يبد دهشة ولا استغراباً: هو يـمر هنا كل يوم. بس م لوش موعد. أقدر اخدمك.؟

- ما فيه شي. بس بدي أسلّم عليه.
- حضرتك تقربه.؟
- لأ. أنا صاحب ابنه في بيروت.
- آ.. في اللحظة نفسها أطل فرحان، فتوقف مندهشاً للحظة قبل أن تشع البهجة في وجهه ويأخذ جبران بالأحضان: هلا وا هلا. إش ها اليوم الزين. إقرب. إقرب.. وتقدم إلى طاولة الـمكتب التي انـزاح عنها فريد، ليتبوأها فرحان داعياً جبران إلى الجلوس وهو يقول: قهوة والا شاي.؟.
- بعدني ما قعدت يا شيخ.

- لا تواخذني، صرت مثل أهل الـمدن.. ونظر مبتسماً إلى فريد الذي انسحب بأدب، شأنه دائماً عندما يأتي فرحان. فسواء تعامل معه تعامل شريك أو زبون، فإنه يعامله بإجلال، مما كان يسهل لـه الكثير من الأمور. وفي دقائق جاء قهوجي يحمل صينية وفنجانين قهوة أوصى عليهما فريد: قهوة الضيف.. قال فرحان.

- ماني ضيف.

- صدقت وا . إنت صاحب بيت. بس بعد ما تضيف عندي أربعين يوم .

- شو؟.. قال جبران وتشردق بالقهوة.

تغديا في بساتين السيل. وظلا يتحدثان حتى العصر تحت شجرة توت وارفة تـمتد أغصانـها فوقهما إلى مجرى الـماء القريب. لم يأخذ الحديث عن مرزوق إلا وقتاً قليلاً. فليس هناك ما يقال عن دراسته وأسلوب حياته الـمقيت. لكن الحديث عن نـهايه ظل يتقاطع مع الحوار ويفرض وجوده في الأسئلة والأجوبة والاستنتاجات:إن مش الاسبوع هاظا، اللي تاليه، وتلاقيني في بيروت.

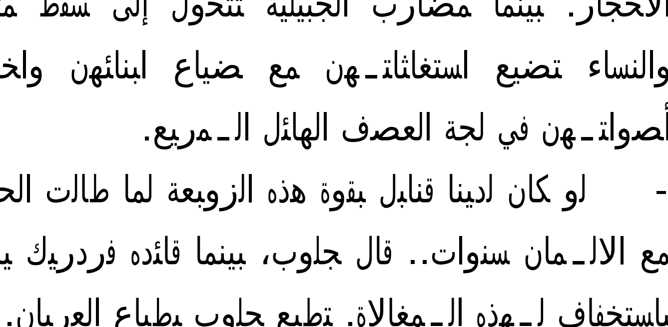
في خلوته مع نفسه، وبينما تغط تمام في نوم ثقيل. غابت نـهايه عن مخيلة فرحان، وراحت الأسئلة تـهاجمه مثل الجراد. ماذا يحصل في الدنيا وهو غائب عنها. سيف يريد منه سلاحاً، وجبران يلح عليه بالسلاح، وهذا الفريد جعله بغفلة من الزمان تاجر سلاح. وهو يكدسها في البوايك القريبة من معسكر جاوب. هذا الانجليزي الذي يريد توطين البدو وتوطيد الأمن، لا يدري أن على بعد خطوات منه تتكدس داخل البوايك شوالات التبن المحشوة بالسلاح ، متهيئة مستنفرة تنتظر الأمر للتحرك شرقاً وغرباً لرفد الثورات.؟. هل يقدر له الرب أمراً يجهله .؟. هل ستغدو القبة بؤرة ثورة جديدة تنفجر قذائفها في كل مكان وربما تصل إلى قلب عمان .؟. أم أن الضريحين في الرابية يستعجلان التثليث، وقد اقتربت ساعته ودنت منيته وحلت في حفيدته نـهايته؟. أنه لا يعرف شيئاً عن أبيه إلا أنه أبوه. لا جدود ولا جذور . ماتت أسراره معه إلا الناصرة التي اعترف إنها ديرته. ماذا فعل أبوه قبل أن يعيه فرحان، بل قبل أن يولد فرحان.؟. " خليني احمل عنك حملك الثقيل يوبا". " ما يقدر عليه غيري" "ما تـخلي الظنون تسرح بيك

يوبا. انت أصيل ابن أصيل، وبوك لا لقيط ولا مقطوع ".   "
قصتي نار لا تزيد حريقها هالحين يا فرحان.". ترى هل سيقول مرزوق لابنته يوماً " هيك جدك كان يقول".

ابتدأ أبوه في القبة وحده. هكذا يقول الجميع، فأحياها من أرض موات إلى جنة خضراء يتطلع اليها الشيوخ والزعماء والحكام. وبعدما اغتصبتها وحشية الإنسان، تجددت انبعث على يديه عجوز شمطاء. يـحس بـها أرضاً بلا روح، بعدما كان الهواد يتنسم من روحها الصفاء وتتبوأها الأشجار مثل درر التيجان.

حارب أبوه القحط والإنجراف والجراد والزوابع من أجل أرض أكرمها فأكرمه ا بـها. أما هو فقد أغدقت عليه أكثر مما أغدق عليها. قابل وفاءها بالجحود، وهو يهرب من عجزه إلىماء سيله. ها هو قدره ينتظره بل ويـجرفه دونما إرادة منه إلى لجة بحره. سلاح. سلاح. سلاح. هذا هو قدره الحاضر ومصيره القادم: أنا ذيـبك يا ولدي. يصلك الـمعلوم لنص الضهور. معقول أنسى ضيافة ولد الأب سمعان.

تلك الليلة لم يرمش لفرحان جفن، ولا أجفل على الصوت الذي ارتاعت لـه تمام وأربك البهائم وزلزل البوايك، وجعل معسكر البادية هباء منثوراً ، فأسقط الأبراج واقتلع الشوادر وقلب الآليات ودحرج البراميل وأسقط سلاسل



الأحجار. بينما مضارب الجبيلية تتحول إلى سقط متاع، والنساء تضيع استغاثاتـهن مع ضياع ابنائهن واختناق أصواتـهن في لجة العصف الهائل الـمريع.

- لو كان لدينا قنابل بقوة هذه الزوبعة لما طالت الحرب مع الالـمان سنوات.. قال جلوب، بينما قائده فردريك يبتسم باستخفاف لـهذه الـمغالاة. تطبع جلوب بطباع العربان.

٢٠

وجدت حكمت نفسها في بيئة تختلف عما ألفته في بيت أبيها وما اعتادته من تقاليد تشكل جزءاً كبيراً من ذاتـها وكيانـها. فهي لم تعد ابنةً مدللة تتولى خادمة أعباء بيتها وتتولى فوزية إدارته.

في بيت صلاح عجوزان ، عليها رعايتهما والاستجابة لطلباتـهما الأقرب إلى الأوامر.

يخرج أبو صلاح صباحاً إلى الـمقهى، ويعود عند الظهر، مستقراً في البيت. يتدخل في هذا وذاك ويصب جام غضبه على زوجته لأتفه الأسباب. إلا أن تعامله مع حكمت يشوبه إجلال وإكبار واحترام.

قضت مع صلاح أسبوعاً جميلاً حققت فيه أحلام صباها وهي تنتقل معه في شمال فلسطين وتـمرح على الشطآن وبين الأحراش وفي البساتين.

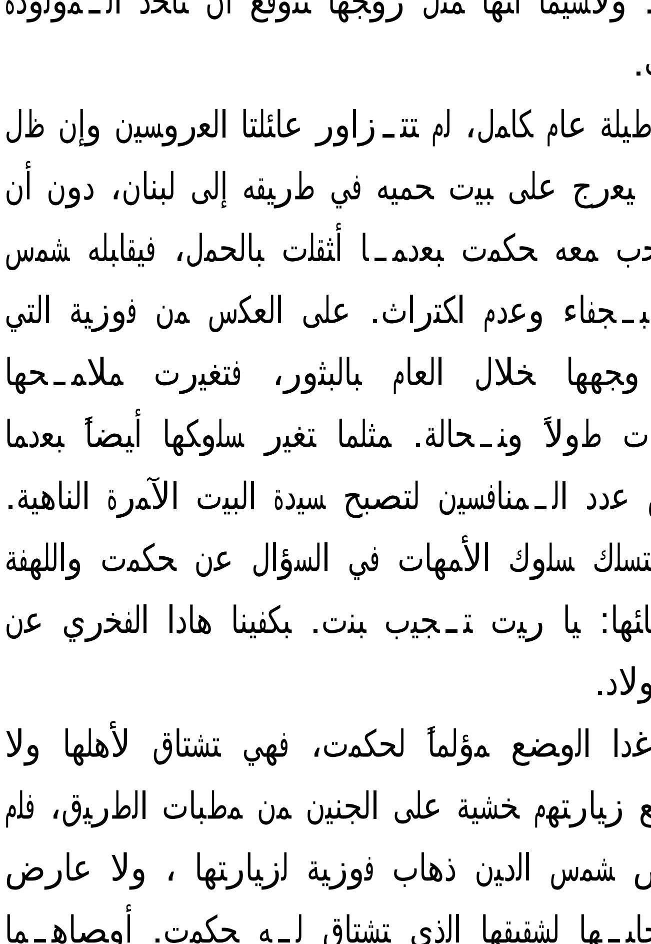
خضعت بعد ذلك لرتابة بيت قدر لها أن تقضي بقية عمرها فيه. فتودع صلاح صباحاً في ذهابه إلى عمله، وتستقبله عند عودته ليتناول مع العائلة أطباق طعام

فلسطينية، كانت تعجز عن ابتلاع بعضها إلا مع جرعات الـماء . بعد الغداء يقيل صلاح، ثم يغادر إلى منتصف الليل أو يسهر في بيته مع الأصحاب. وعندما يتسلل إلى جانبها في الفراش تكـون قد استغرقت منذ ساعات في نوم ثقيل يـحرك الإحساس بالذنب في نفسه . يقضيان في العطلة الأسبوعية على شاطئ البحر طيلة النهار .ومن شهر لآخر يصطحبها لزيارة أهلها. وإذا استدعته ظروف العمل، كما يدعي، للذهاب إلى لبنان، يصطحبها إلى عمان لتظل عند أهلها لحين عودته التي لا تطول أكثر من يومين ثلاثة.

استدرجته مراراً حول هذه الزيارات، وسألته مباشرة مرات عديدة ، لتتلقى منه دائماً الجواب نفسه، شغل للمعارف أو للمدرسة أو لإلقاء محاضرة أو لحضور ندوة. ومع أنه شغوف بالقراءة والكتابة، إلا أن ارتيابـها ظل يزداد حول سهراته الـمتأخرة خارج البيت، وانغلاق الباب عليه وأصحابه داخله دون آن يندى عنهم صوت إلى أهل الدار. لم تصل ظنونـها إلى الشك بسلوكه. فليس هناك مؤشر على ذلك. فالزوجة الزوجة، كما الزوج الزوج لديهما في أعماقهما ميزان يقرأ التغير في مقياس الوفاء. ولم تصل الظنون بـها

أيضاً إلى العمل السياسي الذي كان يتباهى به الرجال بمثل ما تثرثر به النساء. صلاح يعبر عن وطنيته بالشعر والأدب والجدل دون أن تدل أقواله على أي انتماء. ولاسيما إنه ليس متدنياً، ويتفاعل مع الأحداث باتزان بعيد عن الانفعال. كلما أوحت له بأنها تعرف خباياه، بالتلميح إلى غيرته من أخيه أحمد، الذي صار وتصور وأصبح ثرياً يمتلك الصهاريج والتركات من دون علم أو شهادة أو وساطة أو ميراث. يبتسم ابتسامة غامضة موحياً بأنها على صواب. فيزداد يقينها بأنه يحاول تجاوز شرنقة الوظيفة واللحاق بأخيه ولو بالبيع في شنطة تسافر بين حيفا وبيروت، وبما يضاف إليها من صناديق يأتيه بها سيف أو يأخذها منه في طريقه، ولاسيما أنه يجلب دائماً من بيروت هدايا تفرحها، وبدرجة أكثر مستلزمات الوليد المنتظر.

لم يؤثر حملها على سلوكه وأسلوب حياته، طالما أن أباه حريص على المولود الذي يتوقع أن تسلب سيماه العقول. بالنسبة إليه، كانت هذه نتيجة مفروغ منها لزواج ابن البحر الأسمر الوسيم بهذه الجبلية اللدنة مثل قشطة الحليب. أما أمه، فتطمع في أن تلد لها بنتاً، بعدما حرمت من أمومة



البنات. ولاسيما أنها مثل زوجها تتوقع أن تأخذ الـمولودة الألباب.

طيلة عام كامل، لم تتـزاور عائلتا العروسين وإن ظل صلاح يعرج على بيت حميه في طريقه إلى لبنان، دون أن يصطحب معه حكمت بعدمـا أثقلت بالحمل، فيقابله شمس الدين بـجفاء وعدم اكتراث. على العكس من فوزية التي امتلأ وجهها خلال العام بالبثور، فتغيرت ملامـحها وازدادت طولاً ونـحالة. مثلما تغير سلوكها أيضاً بعدما انكمش عدد الـمنافسين لتصبح سيدة البيت الآمرة الناهية. وهي تسلك سلوك الأمهات في السؤال عن حكمت واللهفة إلى لقائها: يا ريت تـجيب بنت. بكفينا هادا الفخري عن عشر ولاد.

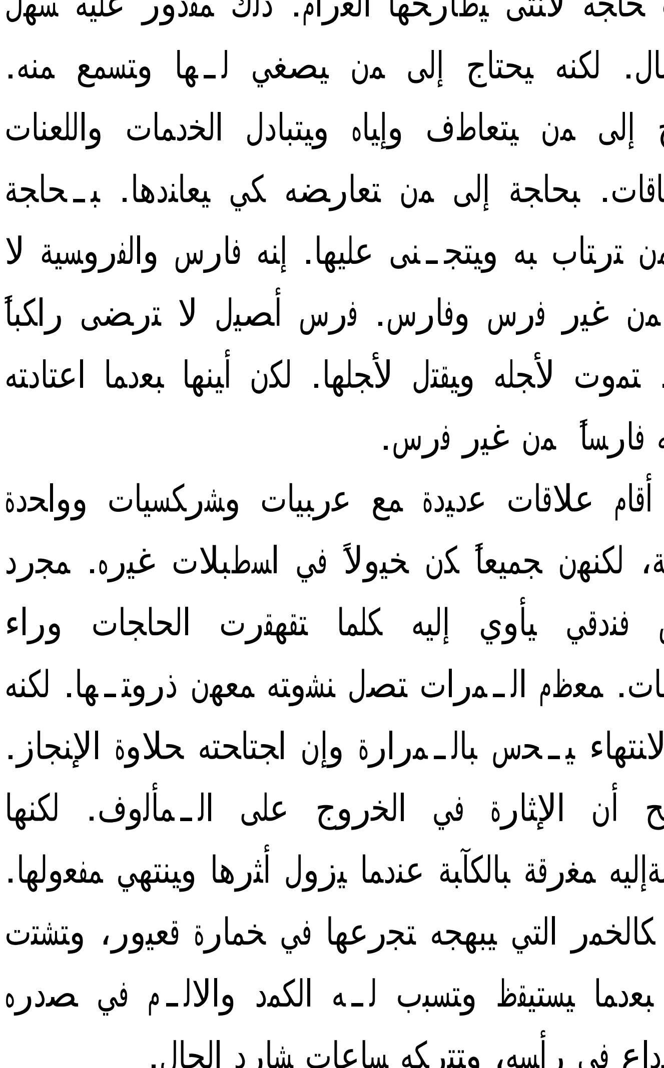
غدا الوضع مؤلماً لحكمت، فهي تشتاق لأهلها ولا تستطيع زيارتهم خشية على الجنين من مطبات الطريق، فلم يعارض شمس الدين ذهاب فوزية لزيارتها ، ولا عارض اصطحابـها لشقيقها الذي تشتاق لـه حكمت. أوصاهـما على فخري الذي ظل يحملق عبر نافذة الحافلة بالأشياء

تتسارع هاربة منه وكأن خيالـه الطفولي يجتاز الكون الـمألوف إلى كونٍ كل ما فيه غريب أخاذ.

ذلك اليوم، أحس شمس الدين بالوحشة والرهبة من البيت الساكن سكون أطلال القلعة ، بينما قبعت الخادمة في الـمطبخ متوترة تتسارع أنفاسها وجلاً من لهيب رغبة تتوقع أن يزيد أجيجها شمس الدين.

ظل معارفه وأقاربه يحثونه على الزواج، وكانت بواطنه تستصرخ حاجتها لأنفاس امرأة في الفراش. مجرد أنفاس تقلقه وتزعجه وتنفره، لكنها تؤنسه. مع هذا يرفض بإصرار. لن تشغل أي امرأة وجدانه مثلما أشغلته زوجته الراحلة، ولن تـملأ عليه حياته امرأة، مثلما تـملأها فوزية التي لا تريد سيدة في البيت سواها.

لكن غيابها ذلك اليوم أيقظ إحساسه المكبوت بوحشة يكابد في إخفائها، ليس لأجل ابنته وابنه فحسب، بل لأنه شمس الدين الذي لا يقول كلمته للتهرب أو الإبهام . بل لأن كلمته هي نفسه وإرادته التي لا تعرف التراجع أو التردد أو الانـهزام. ذلك اليوم الـموحش تقهقرت إرادته مع شعوره بالصمت يطبق عليه وكأنه قبر يدفن فيه حياً. حاجته للزوجة،



ليست حاجة لأنثى يطارحها الغرام. ذلك مقدور عليه سهل الـمنال. لكنه يحتاج إلى من يصغي لـها وتسمع منه. يحتاج إلى من يتعاطف وإياه ويتبادل الخدمات واللعنات والخناقات. بحاجة إلى من تعارضه كي يعاندها. بـحاجة إلى من ترتاب به ويتجـنى عليها. إنه فارس والفروسية لا تقوم من غير فرس وفارس. فرس أصيل لا ترضى راكباً سواه. تموت لأجله ويقتل لأجلها. لكن أينها بعدما اعتادته عائلته فارساً من غير فرس.

أقام علاقات عديدة مع عربيات وشركسيات وواحدة أرمنية، لكنهن جميعاً كن خيولاً في اسطبلات غيره. مجرد فراش فندقي يأوي إليه كلما تقهقرت الحاجات وراء الرغبات. معظم الـمرات تصل نشوته معهن ذروتـها. لكنه بعد الانتهاء يـحس بالـمرارة وإن اجتاحته حلاوة الإنجاز. صحيح أن الإثارة في الخروج على الـمألوف. لكنها بالنسبةإليه مغرقة بالكآبة عندما يزول أثرها وينتهي مفعولها. تماماً كالخمر التي يبهجه تجرعها في خمارة قعيور، وتشتت ذهنه بعدما يستيقظ وتسبب لـه الكمد والالـم في صدره والصداع في رأسه، وتتركه ساعات شارد الحال.

لكن لماذا هذا اليوم من دون الأيام يطغى عليه مثل هذا الكمد والكرب وسوء الحال.؟. أهو متعلق بفوزية أم بفخري أم أن الذنب يقتاته لأنه لـم يرافقهما إلى حكمت.؟.

إنه راغب عن الأكل والشرب والخمر والعشق والبيت والبساتين. بل انه راغب عن نفسه التي يحس بوضاعتها وهويجلس في الـمقهى، محملقاً بصخب الشارع ومحتاراً من تواصل أحاديث الزبائن وحركة الكراسي وبقبقات النراجيل ونداءات أبي عبده وتوالي الصواني بالقهوة والشاي والإينر واليانسون والزهورات. لماذا يحس بالنفور من هذه الأشياء التي لم يكن يلحظها من قبل أو ينتبه لها.؟. في تلك اللحظات، أحس شمس الدين بأن هذه الرتابة التي اعتادها سنوات، ليست ناموساً إلهياً وإنما فوضى كونية لا ضرورة لها ولا فائدة ترتـجى منها. في تلك اللحظات أحس شمس الدين بعبث الأشياء. ربى حكمت صغيرة ليأخذها غيره كبيرة ، وها هي فوزية على الطريق، يلحقها فخري برمشة عين. هذه الساعات اللعينة، تختطف سنين عمره بإرادته وهو يعبئها كل يوم. لما لا ينساها كي تتوقف عقاربـها؟. هو الذي يأمر بالعد ويخشى مرور الأيام . سيصبح جداً وهو ما يزال في

ريعان الشباب. نعم سيظل في ريعان الشباب. ولتستمر الفوضى ويتواصل العبث كيفما شاء.

كانت أطلالته مألوفة ومستحبة للشراكسة في وادي السير. فهم من ناحية، يشعرون بالدونية أمام شراكسة عمان الأثرياء. ومن ناحية أخرى ، كان شمس الدين وجيهاً ثرياً مقاطعاً من شراكسة عمان بعدما زوج ابنته من العرب الحفاة. والأهم ، أنه كان مقرباً من حكومة عمان، بسبب خدمته في الجيش الأميري إثر ميسلون. لكن زياراته كانت محدودة لعدد محدود من العوائل هناك، فيذهب بحصانه حاملاً معه بعض الأشياء الغريبة التي تنبع في أسواق عمان. استراحته الرئيسة في بيت منـزوٍ بعيد عن الأنظار حيث يغيب الزوج الـمنـخرط في الفيلق العربي، تاركاً زوجته العاقر طيلة اليوم، وأحياناً لبضعة أيام. فإن وجده شمس الدين، كانت زيارته الـمعتادة لبيادر وادي السير، وإن لم يجده، يطارح الزوجة الغرام.

لم يكن في نيته الذهاب إلى البيادر ذلك اليوم. لولا أن طرأ شيء دخيل على هذه الفوضى الـمنظمة عبر الطريق. إذ تصايح الناس وتراكضوا إلى الـجانبين مع هدير يصم

الآذان، ظل متواصلاً حتى بعدما توقفت مسيرته أمام الـمقهى: ولك شو هاد مقصود.؟. إيمته انت بدوه يضل هيك.؟.

- السلام عليكم.. قال مقصود مترجلاً، تاركاً الـمحرك يرجرج الـموتور مثلما يرجرج القاعدين والعابرين.

أما لماذا طلب شمس الدين من مقصود أن يحمله بموتوره إلى وادي السير، متبضعاً حلويات شامية ، فقد ظل أياماً يسأل نفسه هذا السؤال. ماذا كان يريد أن يثبت جراء ذلك.؟. مع أن مقصود كان يرمي من خدمته وإيصاله إلى الاستدانة منه. فلم تراوده الظنون في هذه الزيارة، ولا أبدى استغراباً عندما طلب منه شمس الدين أن يعود إليه بعد نحو نصف ساعة. كل شيء محسوب بالساعة دون أن يكترث بها حاملها.

- ما فيه شي نص ساعة. نص ساعة يعني نص ساعة.. انطلق بالـموتور مختالاً على الطرقات غير الـمعبدة التي كانت تتقاذفه مطباتـها وحفراتـها دون أن يبالي بالأمر، طالـما أنه يقاهر الجميع بـهذا الـموتور الذي امتد صيته من عمان إلى وادي السير إلى فلسطين.

أثار البلبلة والفوضى والهلع بين البهائم وأصحابـها قبل أن يعود إلى شمس الدين الذي أسرع شمس الدين يغادر البيت بـمجرد أن تناهى لـه صوت الـهدير.

- أنا مواعيدي هكذا .. ومد ذراعه باستقامة ثابتة، كما يفعل مع صقر.
- ممتاز.
- الآن إلى أين .؟.
- إلى أين يعني.؟. وهل يوجد غير عمان.
- طبعاً يوجد. إذا أردت الذهاب إلى الحرم أنا مستعد. وإن شئت إلى طبريا.
- قل لي.
- ماذا أقول.؟.
- هل تستطيع أن تأخذني إلى حيفا.
- لست أنا الذي سيأخذك. بل مخلص الذي تركبه.. ولوح إصبعه الوسطى نحو العشيقة التي لطمت وجهها بسخط وندم ونقمة: لماذا فعلت هكذا يا شمس الدين.

في البيت سأل شمس الدين نفسه هذا السؤال. إذا كان يريد إنهاء علاقته بـها، فلم ينهها له مقصود بإصبعه، فينشرح صدره لذلك.

٢٢

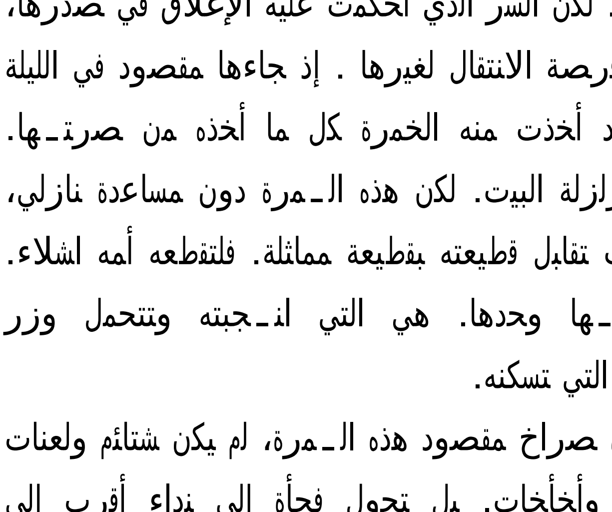
اكتمل هيكل الطابق الثاني، مع نفاد الـمبلغ الذي آل لمقصود من بيع أرض طريق الحطب. فتوقف صقر عن متابعة البناء إلا بعد أن يسدد مقصود مئتي دينار. فلم يأبه مقصود بمطالباته كما لم يأبه بانتهاء البناء. الأمر برمته لم يكن سوى ذريعة . ولم يكن لـه ضرورة على الإطلاق، كما كان يقول لجرير بعدما ضاقت به الحال ولم يعد قادراً على السهر والإنفاق. بل كاد يتحول إلى سلبطجي مثل جرير، بسبب استداناته من جميع معارفه، ولاسيما صقر وشمس الدين .

أمه التي وافقته، خشية أن يدفعه عناده إلى حصر الإرث وبيع كل أراضيه، تأجج غضبها وقد شوه الهيكل غير الـمكتمل بيتهم، وعاد مقصود إلى استنـزافها، فتصـرخ بـه وترجرجه دقائق ، قبل أن ترمي لـه صرة نقودها وهي تجهش بالبكاء متهالكة لاهثة مقطعة الأنفاس. إذا ما عاد إلى البيت مخموراً تتضامن مع كنتها، رغم ما بينهما من نفور وعداء، فتتعاركان معه بالشتائم والرجرجة وأحياناً يطرحانه

أرضاً ليوقظ الصراخ شهيرة وتو ويصل إلى الجيران. فيأخذ منه التلـوي والعراك والصراخ أكثر مما أخذت الخمرة من وعيه.

ينام مهدوداً ، وفي اليوم التالي يدفع الثمن كل أهالي عمان، بينما يهدر مخاص من تـحته مثل ثور هائج يدخن غضبه من قفاه. يعود إلى البيت، مكفراً عن ذنب أمسه، بالحلويات التي يجلبها لشهيرة مقاهراً بها نازلي التي يقاطعها وابنها تو الذي يكره زعرنته وسوء تربيته الخليقة بشركس وادي السير. أما أمه فيسترضيها بالتوبة ليومٍ أو يومين. يبكر بالعودة، وينام معها في غرفتها ، شاتماً طيلة الوقت أنسبائه ، ولاسيما أميرة .

لم تصدق تبريره، ذلك اليوم الذي أدعى فيه أنه تأخر بسبب مرافقته شمس الدين إلى حيفا. فزل لسانه وهو يعزز ادعاءه ، بأن تسأل شمس الدين أو البيت الذي حمله إليه في وادي السير. وكانت أمه تعرف عن امرأة ذلك البيت، التي تنأى أميرة عن ذكرها اسمها وهي تحدث نازلي بما يشاع عنها: تلك التي لا تستحي..



انعقد لسان أم مقصود بالوقت نفسه الذي انفك فيه رباط صرتـها. لكن السر الذي أحكمت عليه الإغلاق في صدرها، لم تواته فرصة الانتقال لغيرها . إذ جاءها مقصود في الليلة التالية وقد أخذت منه الخمرة كل ما أخذه من صرتـها. فابتدأت زلزلة البيت. لكن هذه الـمرة دون مساعدة نازلي، التي كانت تقابل قطيعته بقطيعة مماثلة. فلتقطعه أمه اشلاء. ذلك شأنـها وحدها. هي التي انـجبته وتتحمل وزر الشياطين التي تسكنه.

لكن صراخ مقصود هذه الـمرة، لم يكن شتائم ولعنات وتأوهات وأخأخات. بل تحول فجأة إلى نداء أقرب إلى العويل، مما بعث الريبة في قلب نازلي وحرك الخوف في قلبي ابنيها، وجلب العديد من الجيران، بينما مقصود يصرخ باكياً نادباً ملتاعاً وقد استولى عليه هلع الـمدفون حياً، بعدما فقد الحيل والحيلة والرجاء.: ماما. ماما. أنا ماما. ماما.

كانت جنازتها مهيبة، شارك فيها معظم رجال الشراكسة والجيران وجميع الـمصلين الذين تصادف وجودهم في الـمسجد آنذاك. حمل النعش إلى مقبرة الجوفة، تتناقله أكتاف الـمشيعيين، ينضم إليهم في الطريق العشرات

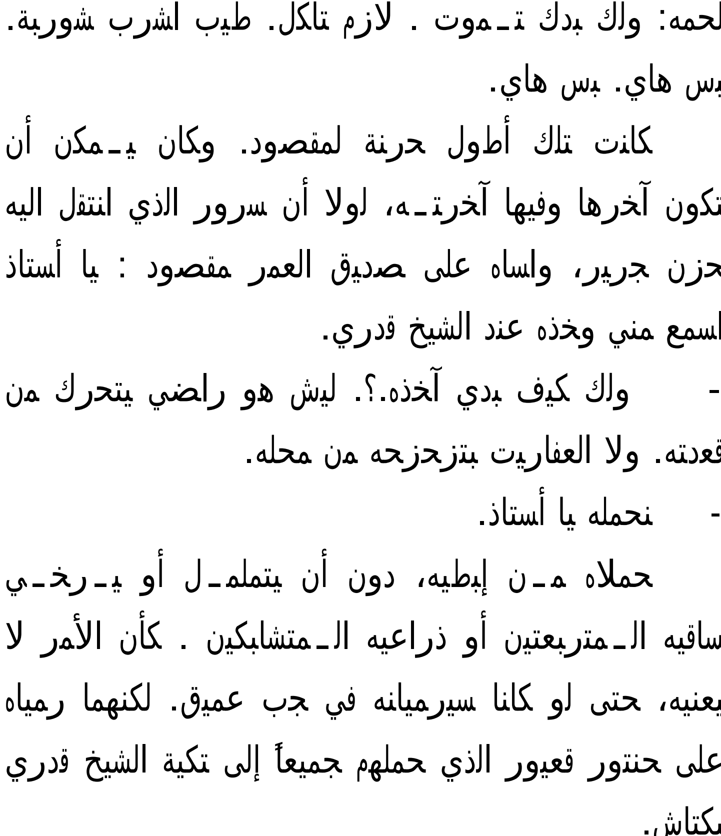
ممن يعتبرون المشاركة بالتشييع رحمة للحي والميت. فتتوقف المركبات والمشاة ليقرأوا الفاتحة. وأسوة بأفراد الجيش والشرطة، توقفت سيارة جلوب، وترجل منها مؤدياً التحية العسكرية للجنازة الكبيرة. أما مقصود فقد كان يحس بأنه المقصود، وأن الجميع يقرأون فاتحته ليردموه تحت التراب، بينما يتناوب على رفعه من إبطيه شمس الدين وجرير، وهو يبكي ويئن ويتلوع. يجر أقدامه جراً وقد تراخت ركبتاه وسقط قلبه مرنحاً من الرجرجة التي أخذت روحه مبقية له جسداً كريهاً دنساً تلسعه من خارجه سياط الخطايا التي تنهال عليه من كل طرقات عمان، وهو يتقطع في دواخله، ألماً من نزيف اللعنات. ابتز ثروة أمه واستغل طيبتها وبساطتها، ليقتلها بعد ذلك وهي التي أنفت الرجال من أجله وأرادته فارساً مغواراً كأبيه، فنشأ عابثاً لاهياً يبدد ميراثه ويثير نقمة كل من حوله. تمرد على المرأة التي تزن مئات الرجال واحتال عليها واستنزف مالها وأعصابها وتبجح بخياناته لزوجته ولم يرأف يوماً بابنيه. إنه ملعون ملعون ملعون. أحس وهم ينزلون الكفن إلى الحفرة بانهم يضغطونه تحت الماء. وعندما

ابتدأوا الردم أحس بالتراب صخوراً تسقط فوقه، فتهاوى على الأرض بكل ثقله ، إلى أن انضم آخرون إلى جرير وشمس الدين، لرفعه عن الأرض وحمله إلى سيارة مختار الشراكسة.

تربع في البيت عند زاوية الجدارين التي طالـما حرن أمامها. ظل يبكي طيلة ليله بينما شمس الدين يواسيه ويبكي معه، ولم يتركـه إلا عندما قهره التعب والألـم بالنوم الثقيل، فغادر موصياً عليه نازلي ومؤكداً بأنه سيعود بعد ساعات.

قدم جرير إجازة لثلاثة أيام. شارك فيها أفراد العائلة تقبل العزاء ، بينما مقصود يرفض التزحزح من زاويته الساكنة سكون الجدار. دون أن يتمكن جرير أو غيره من حمله على القيام بالواجب واستقبال الـمعزين، أو إكراهه على الأكل أو الشرب أو نزع ملابسه أو التمدد على السرير.

ظل في موقعه شاخصاً بعينيه أو مغمضها، دون أن يدري أحد متى يكون نائماً أو مستيقظاً أو غائباً عن الوعي أو مأخوذ العقل والحال.



تبدد العزاء مع انقضاء الأيام الثلاثة، ليتبدد معها جسد مقصود، وقد شحب لونه وغارت عيناه وذاب شحمه وذبل لحمه: واك بدك تـموت . لازم تاكل. طيب اشرب شوربة. بس هاي. بس هاي.

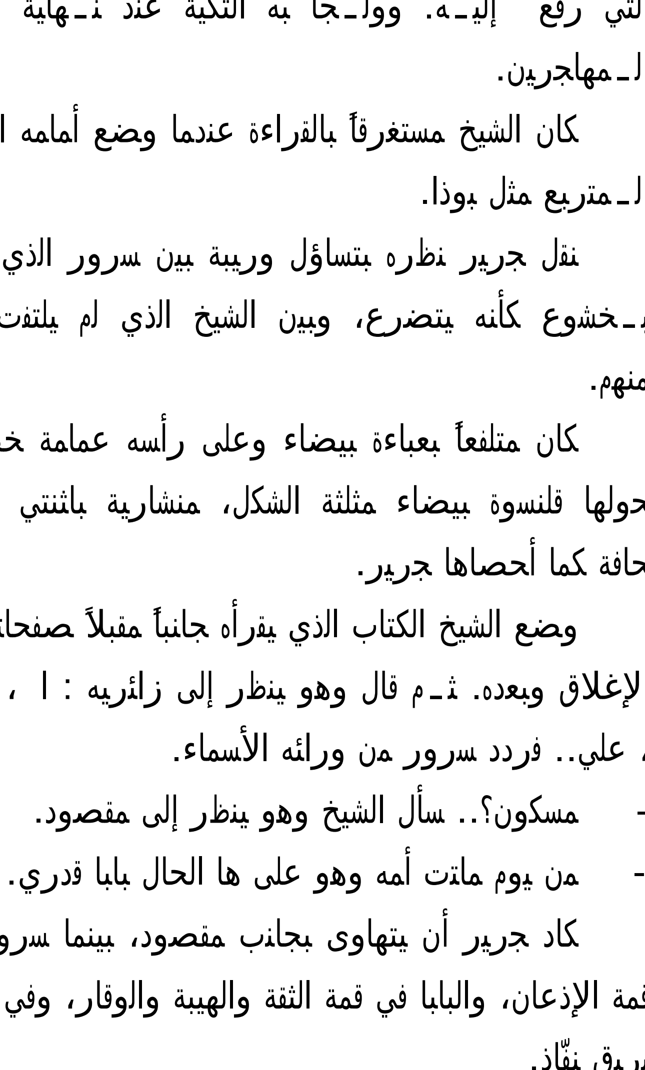
كانت تلك أطول حزنة لمقصود. وكان يـمكن أن تكون آخرها وفيها آخرتـه، لولا أن سرور الذي انتقل اليه حزن جرير، واساه على صديق العمر مقصود : يا أستاذ اسمع مني وخذه عند الشيخ قدري.

- واك كيف بدي آخذه.؟. ليش هو راضي يتحرك من قعدته. ولا العفاريت بتزحزحه من محله.

- نحمله يا أستاذ.

حملاه مـن إبطيه، دون أن يتملمـل أو يـرخـي ساقيه الـمتربعتين أو ذراعيه الـمتشابكين . كأن الأمر لا يعنيه، حتى لو كانا سيرميانه في جب عميق. لكنهما رمياه على حنتور قعيور الذي حملهم جميعاً إلى تكية الشيخ قدري بكتاش.

ظل قعيور ينتظر في الخارج، بعد أن عاون جرير وسرور على إنـزال مقصود من الحنتور بالطريقة نفسها



التي رفع إليـه. وولـجا به التكية عند نـهاية طريق الـمهاجرين.

كان الشيخ مستغرقاً بالقراءة عندما وضع أمامه التمثال الـمتربع مثل بوذا.

نقل جرير نظره بتساؤل وريبة بين سرور الذي وقف بـخشوع كأنه يتضرع، وبين الشيخ الذي لم يلتفت لأي منهم.

كان متلفعاً بعباءة بيضاء وعلى رأسه عمامة خضراء حولها قلنسوة بيضاء مثلثة الشكل، منشارية باثنتي عشرة حافة كما أحصاها جرير.

وضع الشيخ الكتاب الذي يقرأه جانباً مقبلاً صفحاته قبل الإغلاق وبعده. ثـم قال وهو ينظر إلى زائريه : ا ، محمد ، علي.. فردد سرور من ورائه الأسماء.

- مسكون؟.. سأل الشيخ وهو ينظر إلى مقصود.
- من يوم ماتت أمه وهو على ها الحال بابا قدري.

كاد جرير أن يتهاوى بجانب مقصود، بينما سرور في قمة الإذعان، والبابا في قمة الثقة والهيبة والوقار، وفي عينيه بريق نفّاذ.

- ما اسمك.؟.

ظل مقصود على صمته، وبعد لحظة قال سرور: مش معاون يا سيدي البابا. لا عمر ولا ابو بكر ولا عثمان.

همهم البابا، ودار بـجسده إلى الجانب. تناول قرطاساً وقلم كوبياء، راح يبلل رأسه بلعابه وهو يكتب أجوبة الأسئلة التي يسألـها دون أن يرفع نظره إلى الآخرين . اسمه؟ عمره؟ عمله؟ سكنه؟ حالته قبل وفاة أمه وحاله بعدها؟ مؤمن أم ملحد.؟. وفّي أم غدار؟ عنيد أم مطّـواع؟ طويل اللسان، أم كاتم أسرار.؟.

أجاب جرير على معظم الأسئلة بأجوبة افتراضية وتقديرية. في النهاية مزق البابا الورقة في كوب ماء، فركها بأصبعه قبل أن يعصرها في الكوب ويطلب من سرور وجرير ان يجرعا الـمزيج لمقصود. ولما أعياهما، أمرهما بإرغامه وهو يـمد لهما محقان توتياء.

غص مقصود وكاد يختنق، وبصق الـمحاول، لكنه تـجرع بعضه. ظل يسعل طيلة طريق العودة دون أن ينفع معه الدواء، فجاء به سرور وجرير ثانية إلى التكية. هذه الـمرة ولول مقصود بعشرات الآخات، بينما تنهال على

جسده الـمقيد بالحبال خيزرانة التطهير التي تـهرب منها العفاريت .

بعد أقل من شهر ثبت البابا انتساب مقصود وجرير إلى البكتاشية، لاجتيازهما امتحان القبول بنجاح، وهما يتنقلان وسط الظلام في شوارع عمان، معربدين بأعلى الأصوات وأحظ الكلمات، ومرددين بعضاً من شعر الخيام.

ينادون السكارى للانضمام إليهما، ويهددان بباطتين ذات حدين كل من يتجرأ عليهما. " أختك الفالته كانت عندي بايته ". " يا ابن التاركه روح شوف أمك مع مين نايمة ". " ولك أنا لا بخاف الحكومة ولا عسـكرها". " كلاوب تبعك على تبع هـادا". " بحطّه مع عساكره في سي بـخا".

باتا ليلتهما في النظارة ، وفي اليوم التالي أفرج عنهما وأغلق ملف القضية حتى لا تطال الفضيحة الحكومة والاكتفاء بترميج جرير: ما فيه أوسخ من سكرة النبيذ.

أصرت نازلي على الطلاق من هذا العربيد الذي استيقظ مجونه ولم يفك حداده. استجاب القاضي لطلبها. فحملت وليدها ولم يشبع لسانـها من شتم الحكومة التي لم تشنق مقصود في الميدان. فرحل جرير عنده ليتحول البيت

إلى زاوية بكتاشية ، عرفت في الأنحاء باسم " تكية الشيخ مقصود". حيث يتوافد المريدون الذين يقدسون شرب النبيذ ويحرمون على المرأة الحجاب ويبيحون اختلاط النساء والرجال. والأهم مباركة البابا قدري لمقصود، وإنابته لتطهير الأجساد المسكونة بالعفاريت. فجاب مقصود من بساتينه حزماً من قضبان الرمّان ، على أمل أن يطال التطهير أبدان كل أهالي عمان: وين إحنا ووين الدين ؟! كنا نفكر العبادة صلاة وصيام. إنسى الزكاة، هاي مش إلنا. طلع الدين أرحب من هيك بكتير.

صار منظرهما مألوفاً في الطرقات، بعبائتيهما البيضاء وقلنسوتيهما المثلثة، وحول رقبة كل منهما حجاب حجري- تسليم ناش- وهما يتنقلان بالعصابة وفي زنّار كل منهما بلطة ذات حدين: ا تاب عليهم يا جماعة. من الصعلكة للدروشة مرة وحدة.

استحسن البابا قدري اقتراح جرير، في ثمالته، بأن يطبق عملياً مبدأ البكتاشية بالمساواة بين الأديان. فذهب مع مقصود إلى خمارة قعيور يرتديان ثياب القساوسة. جن جنون قعيور: بكفي المسلمين ناويين علي. هسع بتعلقني

مع النصارى يا استاذ.. لكنه سرعان ما قبل بـهما بعدما تلمس مقصود الباطة بتشنج. لم يـجلسهما مع الزبائن، وإنما استضافهما داخل سكنه الـملحق بالخمارة.

في محاولة أخرى لدعم تآخي الأديان السماوية الثلاثة، ذهبا إلى مقهى سرور في ثياب الحاخامات، فتعرضا للضرب الـمبرح من الزبائن، ولحق سرور بعضاً منه، فكفا عن محاولة لم الشمل مكتفيين بلباس الدراويش: انجنوا أهل عمان يا ناس.

- الحمد . هلأ بنقدر نقول عن عمان مدينة لحقت بالشام .

في الشام، انتخب بكتاشياً، اسمه خالد بكتاش ، أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوري اللبناني، فأوعز البابا قـدري لبكتاشية عمان، حرية الانخراط مـع الشـيوعيين الـذين لا يختلفون عن البكتاشية، إلا فيما يتعلق بالإيمـان والإلحـاد، فاتسع نطاق اختلاط مقصود وجرير بالنساء .

في بيت بشارة افتتن جرير بسـاره مثلمـا فتنتهـا أشعاره، فكتب جرير في هذه الـمرحلة من حياتـه، أعـذب

أشعاره، كما كتب أبو جبران في الـملف الثقافي الذي أعـده عنه ونشره في الزفير .

قالت لـه ساره بدلال: ماذا لو كنت يهودية.. فقـال وهو يحتضنها: احبك لو كنت نورية .

هذي التكايا ربُ الخلق بارئهـا
تنفي الفوارق بين الناس والناس
هذي التكايا لا منع يقيدهـ ـا
الكلُ فيها نديم الحب والكاسي
يا نفس حسبك مقصود يطهرك
قضيب رمان يعيد الراس للراسي
اليـوم خـمر لا تحفل بأمر غدٍ
ولا بإجهادٍ وأرزاقٍ ووسواسي

٢٣

انضبط بكر عسكرياً دون أن يخطر بباله يومـاً، أن نبله ومروءته وعواطفه ستتحول إلى كتلة صـماء لا تلـين. دفعة واحدة وبدون تكرار في الحدث أوتدرج في الـمسار، غدا رجلاً انقلابياً ثورياً. لم يبحث عن الوسيلة التي يثأر فيها للمسكينة التي شاهد فيها أمه وكل نساء سوريا. تألقـت الأداة أمامه في مقالات سعاده التي لم يعبأ بـها قبل ذلك الوقت.

سعى للحزب القومي السوري، ولم ينتظر مجيئه إليـه. فرغم إلغاء الأحزاب من قبل سـلطات الانتـداب، وإعـلان قوانين قمع الجرائم، إلا أن الحزب نـما نـمواً كبيـراً فـي سوريا وفلسطين، وبدرجة أكبر في لبنان. مما أربك عمـدة الداخلية لترتبك معه الأمور التنظيمية بسبب انتساب ألـوف السوريين ما بين سن السادسة عشرة والأربعين. بحيث لـم يعد بالإمكان إخفاء حركته الفكرية بينما النـاس يتهامسـون حوله في بيوتـهم ومراكز أعمالـهم، حتى غـدا شـعار، " سوريا للسوريين والسوريون أمة تامة "، ترنيمة لدى الكبـار والصغار.

لهذا لم يكتب سعاده إلى منفذ دمشق مهنئاً بانضمام بكر إلى الحزب، مثلما فعل يوم انضمام الشرطي سميح الصالحي في حيفا. يومها اعتبر هذا الانضمام اختراقاً. أما الآن فينضم إلى الحزب المئات من الأنفار والضباط في الجيش والدرك وقوى الأمن، إضافة

إلى كبار الصحفيين والفنانين والكتّاب. دونما تدقيق بالهوية أو التأكد من صدق النوايا القومية .

لم يحضر بكر إلا اجتماعاً حزبياً واحداً، علقت بعده الاجتماعات في أنحاء سوريا، إثر انكشاف أمر الحزب في لبنان، ووصول قوى الأمن إلى وثائقه وسجلاته ومنشوراته بعد مداهمة مواقعه السرية، وما تبع ذلك من اعتقال العشرات.

نشرت الجرائد خبر انكشاف أمر الحزب وملاحقة أعضائه في اليوم نفسه الذي انشطرت الطبيعة في جسد حكمت ، بعد عناء طويل وعذاب وآلام.

طغى صراخ الطفل، الذي اختير له اسم نايف قبل ولادته، على النداء من الخارج وقرع الباب :

صلاح.صلاح. صلاح.

- مين .؟. سميح .!.
- انبح صوتي وأنا أنادي.
- لا تآخذني محسوبك صار أب.
- ولدت الـمرة ؟.
- جابت ولد.
- مبروك..
- مال وجهك مقلوب.؟.
- ما قريت جرايد.؟.
- أنا فاضي للجرايد. بقول لك ولدت الـمرة هلأ. ليش شو فيه.؟.
- الحزب انكشف والاعتقالات على أبو طرف وجنب في لبنان.

في الـمساء جاء أحمد منهكاً متكدراً. لم يقو على اصطناع الفرحة وهو يقول لصلاح وحكمت: مبروك ..

حشا في كوفلية الطفل جنيهاً، وأسرع مغادراً، كأنه يحسم الأمر، بينما حكمت تقول: لشو هادا يا أحمد.

لحق به صلاح إلى غرفته. شخص به جالساً على حافة السرير مغطياً وجهه براحتيه: شو فيه.؟.

لم يكن يريد أن يخفي الأمر، بل يرغب بإعلانه كالدوي وأمام كل الناس. كان مستنفراً صهاريجـه لتزويد الباخرة " ليوبولد الثانـي " بـمياه الشرب. الـماء يرفع إليها، وبراميل الإسمنت البلجيكي تنـزل منها: وقع برميل، طلع الإسمنت فرودة وبواريد ورشاشات. ولمين الشحنة.؟. ليهودي اسمه كاتان. هادي شحنة انكشفت . بس ا اعلم كم شحنة دخلت وما انكشفت.

- غريب أمرك. من ايمته انت بتهتم بـهيك أمور، والا بتقلقك شحنات السلاح وغير السلاح؟. كل همك الـمصاري وتشغيل التنكات.

- شو اللي بتحكيه يا ابن الحلال. هالقد انـا بايعـها. بعدين مين قال إذا اليهود تسلحوا مثل الجيوش ، راح يضل عندي مصاري والا تنكات.

- فعلاً، مشكلتك مشكلة.

كلها مع بعض. ظل يردد وهو في طريقه إلى بيت القّسام. فوجد عنده جمع من انصاره، وقد ذاع خبر الباخرة في كل مكان. فما كان على صلاح سوى الإنصات بعدما هيأ نفسه لإلقاء خطاب. عاد إلى البيت حائراً لا يدري ماذا يفعل. تشوش ذهنه بين ولادة بكره وانكشاف أمر حزبه، وبين الخطأ والصواب في ذهابه للقسام. هل هو ما يزال موالياً له، أم مؤمناً بفكرته وحسب؟. الجهاد. الجهاد. كلما سأل أحدهم عما يجب اتخاذه يرد القسام بالجهاد. هل ينضم اليه فردياً بعدما غيب السجن زعيم الحزب وقيادته، أم ينتظر التفاصيل. قد يكون ما سمعه من سميح مجرد إشاعة لإرباك الحزب الآخذ بالانتشار. لكن ما قاله أحمد حقيقة ترددت على الشفاه في بيت القسام. حتى أحمد أقلقته الحادثة خشية على نقوده وصهاريجه، فكيف لا يقلق أكثر منه على بكره نايف في اليوم الذي يدعو فيه القسام إلى الجهاد .

- كل ما تأخرت الـمواجهة بيننا وبينهم يوم، يتقدمون علينا بالتسليح والتدريب عشرة أيام، ونتأخر عشرة أخرى بسبب الخلافات. علينا أن نبدأ ولو بأفراد معدودين وما

يتوافر عندنا من سلاح وعتاد. الجهاد فرض وإعلانه فرض، وباسم رب العالـمين ادعوا كل فرد للجهاد .

هبـط الـمنبر والـمصلون في اهتياج وقد تأجج الغضب في صدور القساميين وغيرهم. تشكلت بعد الصلاة مباشرة تظاهرة عفوية، راحت تجوب شوارع حيفا، بينما استقل القسام سيارة سيف التي كانت تنتظر أمام الـمسجد.

في اليوم التالي ذهب صلاح ثانية إلى بيت القسام. أجابته تعابير زوجته الـمرتبكة: ما بعرف اذا برجع والا لأ .

- يعني ما حكى وين رايح .؟.

هزت رأسها نفياً وهي على وشك البكاء، فانتقل الكرب إليه طيلة طريق العودة. ليتحول إلى سخط ونقمة عندما قرأ الخبر الذي تناقلته الجرائد، عن اللجنة التي شكلها الحاج أمين لمقابلة الـمندوب السامي، من أجل السماح بإعلان الإضراب امتصاصاً للنقمة الجماهيرية التي سببتها حادثة الباخرة ليوبلد الثاني. بينما يسري خبر اختفاء القسام مع سريـان الـهواء، دون أن يعرف عن اختفاء سيف الا أفراد عائلته وأبو جبران .

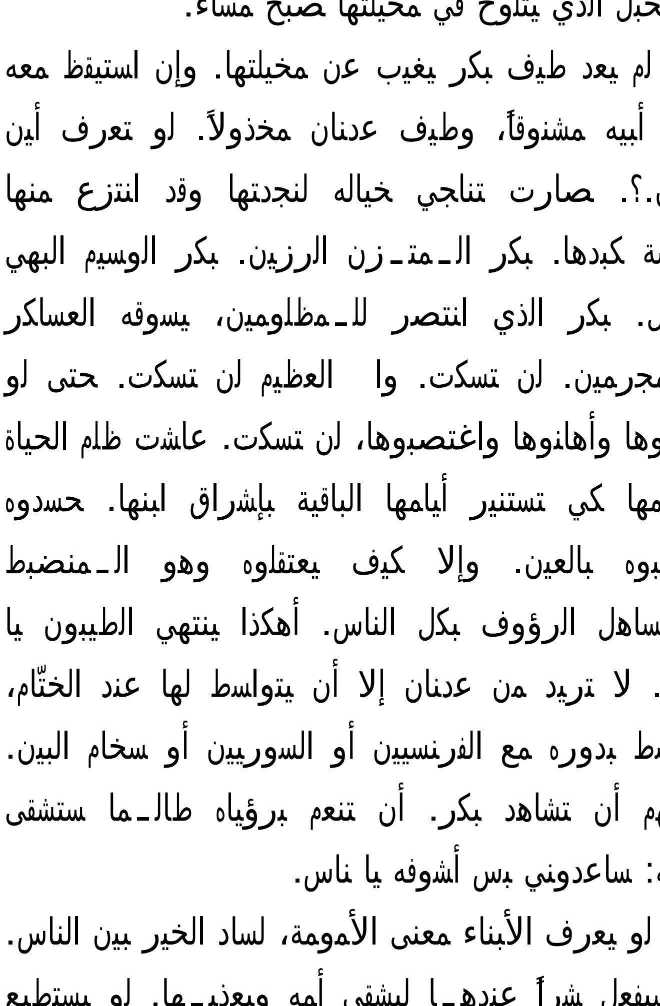
غمر الأسى سرايا الحجاج. ثائرة تهرب من قلقها بتدريس التوأمتين ورعاية لقاء. أمـا الجدة ، فقد افقدتـها السنون كل احساس بالخطر طالـما أنـها تجاوزت الخشية من الـموت إلى التعايش معه، يقاسمها الأكل والشرب ويشاركها الفراش. بينما استيقظ في زينات هلع الضياع.تماماً مثلما حصل قبل عقد من الزمان.صيرورة الـموت أهون مع الـمتلقي من التيه بين اليأس والرجاء:إذا ربنا نـجاه مرة مرتين ، ما رح ينجيه كل مرة.

٢٤

لوعت أم عدنان الجيران بندبـها وصراخها وعويلها. اجتمعت حولها الكثيرات للتهوين عليها كما ابتعدت عنها الكثيرات تجنباً للشبهة.

استيقظت ذاكرتها بما حل بزوجها البريء: بريء. بريء. وجاه النبي بريء. جل ما تخشاه أن يلاقي ابنها الـمصير نفسه . لكنها هذه الـمرة ، لن تنتظر في البيت ليأتيها الخبر وهي بلا حول ولا قوة. ذهبت باكية ملتاعة إلى قيادة الدرك، قصدوها عن الباب. تريد أن تسأل عن ابنـها فحسب. تـريد مشاهدته ولـو عـن بعد: وا بريء. بريء يا ناس.

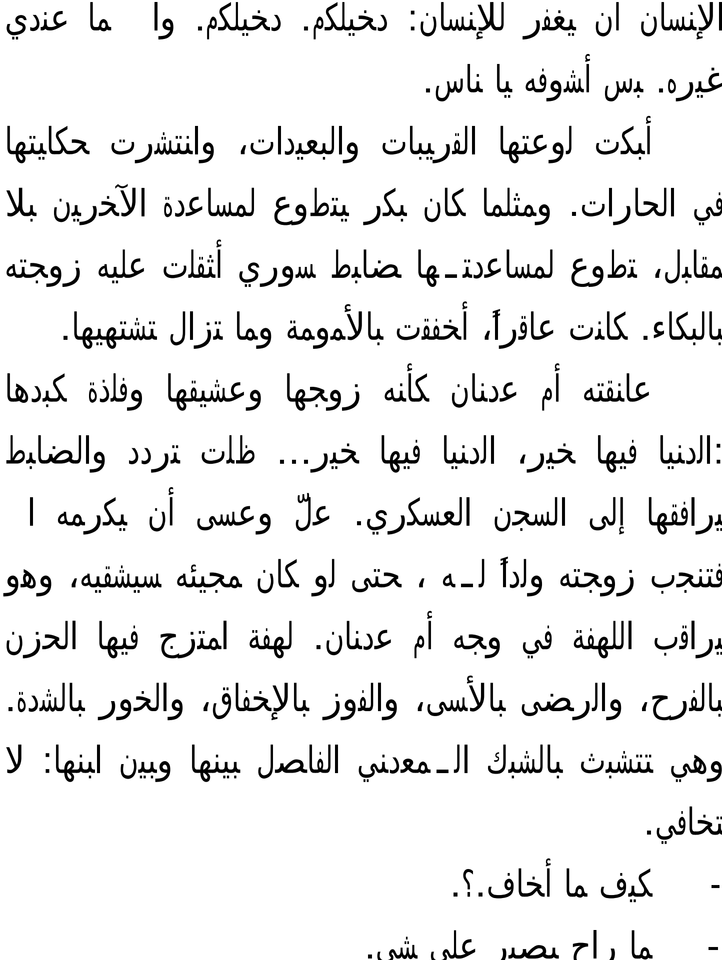
صارت تـهلوس بالبراءة في نومها ويقظتها ووحدتـها ومع الجارات. تدفقت عليها العطايا والهبات ممن يدركن بالغريزة لوعة الضنى وفقد الأبناء. لكن ذلك لم يخفف عنها البلاء. لا تريد عطايا تستطيع أن تقدمها، ولا هبات تستطيع أن تمنحها. أنـها مستعدة لأي شيء على أن لا يمس بكر ضر. مستعدة أن تـجوع وتظمأ وتسجن بدلاً منه.



سوف تستجدي وتسترحم وتبذل نفسها وجسدها حتى ينجو من الحبل الذي يتلوح في مخيلتها صبح مساء.

لم يعد طيف بكر يغيب عن مخيلتها. وإن استيقظ معه طيف أبيه مشنوقاً، وطيف عدنان مخذولاً. لو تعرف أين عدنان.؟. صارت تناجي خياله لنجدتها وقد انتزع منها حشاشة كبدها. بكر الـمتـزن الرزين. بكر الوسيم البهي الجميل. بكر الذي انتصر للـمظلومين، يسوقه العساكر كالـمجرمين. لن تسكت. وا العظيم لن تسكت. حتى لو ضربوها وأهانوها واغتصبوها، لن تسكت. عاشت ظلم الحياة وظلامها كي تستنير أيامها الباقية بإشراق ابنها. حسدوه وأصابوه بالعين. وإلا كيف يعتقلوه وهو الـمنضبط الـمتساهل الرؤوف بكل الناس. أهكذا ينتهي الطيبون يا ناس؟. لا تريد من عدنان إلا أن يتواسط لها عند الختّام، ليتواسط بدوره مع الفرنسيين أو السوريين أو سخام البين. الـمهم أن تشاهد بكر. أن تنعم برؤياه طالـما ستشقى بفراقه: ساعدوني بس أشوفه يا ناس.

لو يعرف الأبناء معنى الأمومة، لساد الخير بين الناس. من سيفعل شراً عندهـا ليشقي أمه ويعذبـها. لو يستطيع



الإنسان أن يغفر للإنسان: دخيلكم. دخيلكم. وا ما عندي غيره. بس أشوفه يا ناس.

أبكت لوعتها القريبات والبعيدات، وانتشرت حكايتها في الحارات. ومثلما كان بكر يتطوع لمساعدة الآخرين بلا مقابل، تطوع لمساعدتـها ضابط سوري أثقلت عليه زوجته بالبكاء. كانت عاقراً، أخفقت بالأمومة وما تزال تشتهيها.

عانقته أم عدنان كأنه زوجها وعشيقها وفلذة كبدها :الدنيا فيها خير، الدنيا فيها خير... ظلت تردد والضابط يرافقها إلى السجن العسكري. علّ وعسى أن يكرمه ا فتنجب زوجته ولداً لـه ، حتى لو كان مجيئه سيشقيه، وهو يراقب اللهفة في وجه أم عدنان. لهفة امتزج فيها الحزن بالفرح، والرضى بالأسى، والفوز بالإخفاق، والخور بالشدة. وهي تتشبث بالشبك الـمعدني الفاصل بينها وبين ابنها: لا تخافي.

- كيف ما أخاف.؟.
- ما راح يصير علي شي.

أخافتها كلماته وإن أعجبها ثباته. سألته مراراً، وهي لا تعرف معنى الحزب، إن كان متورطاً كما يزعمون، مع الحزبيين. فيطمئنها بأن التهمة باطلة. مجرد تشابه أسماء.

لكن الـمحكمة العسكرية لم تقنع بدفوعاته، وثبتت عليه التهمة، فجرد من رتبته العسكرية وحكم عليه بالتسريح والسجن لمدة ستة أشهر.

زغردت أم عدنان، واحتفلت بالبكاء وحيدة بين الجدران، بعدما ودعها عزرائيل الذي زارها خطأ وأقام في بيتها طيلة الشهر الذي سبق صدور الحكم. لم تنقطع خلالها عن زيارة بكر في الأوقات الـمسموحة، وهي تحمل لـه كل ما يردها من عطايا وحسنات : لا تسأل من وين. ا ببعث. الـمهم كول منيح، منشان يروح صفار وجهك.

صارت تقبل بلهفة الهبات التي يقدمها البعض كواجب ديني وآخرون كعرف اجتماعي، وعند البعض كانت تضافر قومي، فقد غدا بكر بطلاً رغم خسارته البزة العسكرية وهيبتها.

دارت أم عدنان على الجارات وكل الخيرين ، تنبؤهم عن موعد الإفراج القريب، وهي تحس بالأيام سنين ودقات

الساعة فؤوساً تكشف السقف من فوقها على ضوء النهار. لتعيد توضيب البيت وترتيبه وتفقد احتياجاته، دون أن تمس من مؤونته لنفسها شيئاً. كلها تنتظر بكر معها. وإذا ما فطنت لحاجة أخرى لا تتوانى عـن السؤال والاستـجداء.

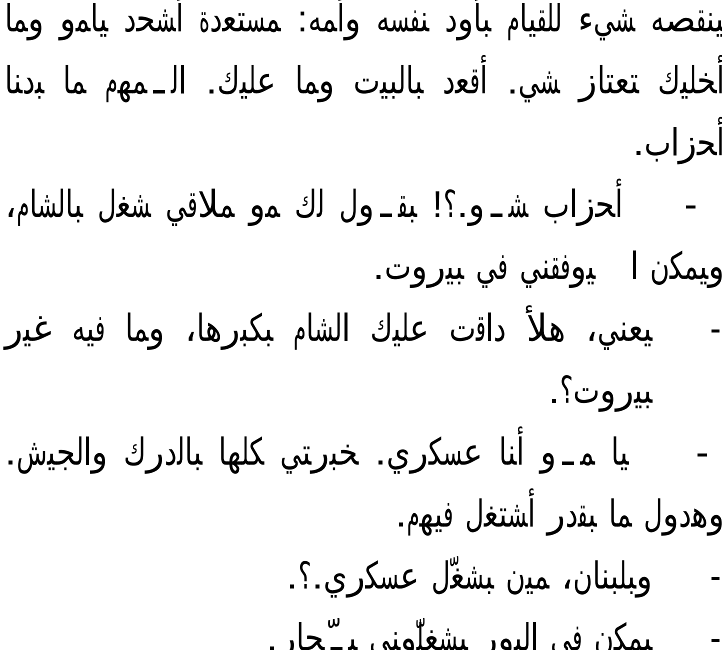
ولج البيت ولوج النشوة الأولى في جسدها. احتضنته بلهفة وجنون وحنان. نزعت لـه حذاءه وثيابه وقادته إلى الطبق بجانب القازان، وكأنها تحممه للزفاف غير مبالية بممانعته وتدلـله واستحيائه . أحس بالعظمة والقوة والسطوة، وهي تسكب عليه الـماء أو تصوبنه أو تليفه مسقطة عنه أوساخ السجون: شو بتسوي؟.

- بدي أشوف إزا فيه قمل براسك. لازم تحلق شعرك. ليش مخليه يطول هيك.؟.

تأملته وهو ينشف جسده. وتأملته وهو يأكل ويشرب ويشعل سيجارة ويسترخي في مقعده متكئاً على وسادة جانبية. شع الأسى في وجهها وهي تسأله: ضربوك يا مو؟.

- لشو بدهم يضربوني ؟! .

فرحة الإفراج عنه انتهت بعد أيام قليلة ليحل القلق محلها. عليه أن يـجد عملاً ولن يرضى أن يعتاش على



الصدقات، حتى هذه لن يستمر تواصلها وقد أفرج عنه، ولا ينقصه شيء للقيام بأود نفسه وأمه: مستعدة أشحد يامو وما أخليك تعتاز شي. أقعد بالبيت وما عليك. الـمهم ما بدنا أحزاب.

- أحزاب شـو.؟! بقـول لك مو ملاقي شغل بالشام، ويمكن ا يوفقني في بيروت.

- يعني، هلأ داقت عليك الشام بكبرها، وما فيه غير بيروت؟.

- يا مـو أنا عسكري. خبرتي كلها بالدرك والجيش. وهدول ما بقدر أشتغل فيهم.

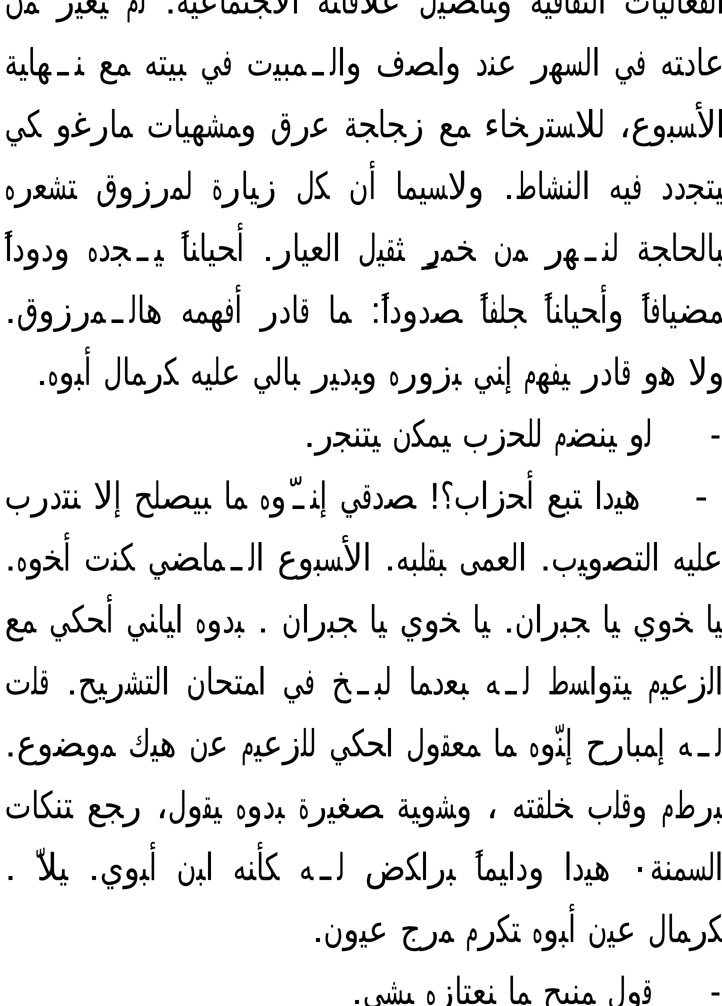
- وبلبنان، مين بشغّل عسكري.؟.

- يمكن في البور يشغلّوني بـّحار.

٢٥

كانت البداية مع شحنة السلاح التي أوكل فرحان دروز حوران إيصالها إلى لبنان. شحنة متواضعة كما علق أنطون. تصلح للتدريب وليس للقتال. أوكل إلى بكر التصرف فيها وتدريب الـمليشيات عليها بقيادة جبران. في الوقت الذي تعهد فيه رجل تركي، معروف بتعصبه العرقي وسعيه لإعادة مجد عثمان، بتزويد القوميين بالسلاح لتقويض سلطة الفرنسيين، فوصلت شحنة كبيرة من أضنه، أفرغت قريباً من جبيل ونقلت في شاحنة إلى ضهور الشوير. فتقدمت الـميليشيات بالتدريب خطوات إلى الأمام. تحول خلالها جبران في فترة قصيرة من معلم للتلاميذ، إلى قائد ميداني يتقن استخدام العديد من أنواع السلاح بإشراف الـمدرب العسكري بكر.

لم يلهه هذا عن عمله ونشاطاته الاجتماعية، بل صار يـحس بـحيوية أكبر وحماس أكثر، وهو يشتد عوداً مع التدريب القاسي، ويزداد ثقافة باقترابه من انطون. كل شيء بالنسبة لـه صار قضية ورسالة. تعليم التلاميذ ومتابعة



الفعاليات الثقافية وتأصيل علاقاته الاجتماعية. لم يغير من عادته في السهر عند واصف والـمبيت في بيته مع نـهاية الأسبوع، للاسترخاء مع زجاجة عرق ومشهيات مارغو كي يتجدد فيه النشاط. ولاسيما أن كل زيارة لمرزوق تشعره بالحاجة لنـهر من خمرٍ ثقيل العيار. أحياناً يـجده ودوداً مضيافاً وأحياناً جلفاً صدوداً: ما قادر أفهمه هالـمرزوق. ولا هو قادر يفهم إني بزوره وبدير بالي عليه كرمال أبوه.

- لو ينضم للحزب يمكن يتنجر.

- هيدا تبع أحزاب؟! صدقي إنـّوه ما بيصلح إلا نتدرب عليه التصويب. العمى بقلبه. الأسبوع الـماضي كنت أخوه. يا خوي يا جبران. يا خوي يا جبران . بدوه اياني أحكي مع الزعيم يتواسط لـه بعدما لبـخ في امتحان التشريح. قلت لـه إمبارح إنّوه ما معقول احكي للزعيم عن هيك موضوع. برطم وقلب خلقته ، وشوية صغيرة بدوه يقول، رجع تنكات السمنة٠ هيدا ودايماً براكض لـه كأنه ابن أبوي. يلاّ . كرمال عين أبوه تكرم مرج عيون.

- قول منيح ما نعتازه بشي.

-     أعوذ با   . إذا هو اللي معتازنا دائماً وبعمل هيك. كيف إزا اعتزناه؟!.

صفعه أبوه على أم وجهه: نذل . خسيس. إلـمن طالع .؟.

-     ويش أسوي يوبا؟. أتورط واياه؟.

جاءه جبران متوتراً قلقاً. أخبره بأن الدرك داهموا سكنه ليلاً ، وجاؤا إلى الـمدرسة لاعتقاله. نـجا بأعجوبة، وليس من مكان آمن يلجأ إليه سوى هذا البيت البعيد عن الشبهات.

طاش صوابه. لم يدر ماذا يفعل أو ماذا يقول سوى حمد ربه لأن زوجته وابنته في الناصرة. آخذه جبران على مخاوفه. فميسر تناصر الحزب لكنها ليست عضواً فيه. رد عليه مرزوق بعصبية: ويش تفرق.؟. ها .؟.

-     كيف إيش تفرق يا مرزوق؟! تفرق كثير. أنا مطلوب لأني عضو في الحزب. ما لأني حضرت كم محاضرة للزعيم أنطون.

- بلا زعيم ، بلا بطيخ، إنتوا ودكم تورطوا الناس بالشعارات اللي ما هي مقبولة، لا من النصارى ولا من الـمسلمين.

- ما ورطنا حدا ولا راح نورط حدا.

- وهروبك عندي ما هي توريط.

- إي قول هيك من ع بكرة.

تهالك فرحان على الـمقعد وقد غمر وجهه الحزن والأسى. حملق طويلاً بالأرض، بينما يقف مرزوق بجواره عاجزاً عن النطق والحركة: ما إنت مني يا ولد.

ظل مرزوق على وقفته وصمته، يبلل شفتيه ويبلع ريقه. لم يكن يـحس بالندم على ما فعله بجبران. لكنه نادم على إخبار أبيه بالأمر. لو لم يقل له شيئاً لما حصل شيء. ستحول القضبان دون جبران وأبيه. حتى لو أطلق سراحه فلن يشي به لأبيه، فلماذا أخبره بنفسه؟. لقد فعل ما يجب أن يفعله كل رجل عاقل. ليس من مصلحته إيواء مطلوب للعدالـة، ولو كان هذا الـمطلوب صاحب قضية. إذا تورط من أجلها فلماذا يورطه معه.؟. لو عرف الفرنسيون بذلك لغدت دراسته وعائلته في خبر كان. إنه يفهم الأمور على

هذا النحو ويتعامل معها على النحو نفسه . كل شخص يتحمل مسؤولية أفعاله. حتى أبوه حر فيما يقوم به. ليأوي جبران وغير جبران. ذلك شأن خاص به، ولا يستطيع أن يفرضه عليه. أبوه مأسور للماضي، أما هو فابن الـمستقبل. ذلك الهراء الذي يقوله أبوه عن الخلفة اليتيمة للصليبية، مجرد حكي عجائز. أي فحوصات مخبرية أجراها أبوه حتى يتيقن من مقولـة جده.؟. الـمستقبل يشرق أمامه في شهادة الطب ومصاهرته الارستقراطية. هذا هو مستقبله وفيه ذريته، وليس في القبة الـمجاورة للبدوان أو أراضي السيل البعيدة عن عمان. مستقبله في الـمدينة، وليس في البيداء أو الأرياف. في الـمدينة سيشـار إلى عيادتـه بالبنان. من يدري؟ قد يكمل دراسته إلى الدكتوراة ويغدو أستاذاً في الجامعة الأميركية.لهذا عليه أن يحتمل أباه. حتى لو أنبه وصفعه وأنكره. سيحتمله إلى أن يحظى باستقلاليته وحريته. عندها سيعرف أبوه أنه ليس خسيساً ولا وضيعاً، بل متبصراً يرى الحياة كما يجب ان تكون وليس كما كانت. لا يهمه اعتقال جبران وغير جبران. يهمه أن تظل ميسر بعيدة عن الشبهات. ولو قدر له أن يغير اسمه لما توانى عن

الانتساب لعائلة كنعان. هذا أفضل من لملمة الناس من جميع الأجناس للتباهي افتراء بامتداد العشيرة. أي عشيرة هذه التي تعد اثنين" آني ما أقل عن الجبيلية". تلك عقدة أبيه وليست عقدته. لو يدرك أبوه واقع الحياة، فتعداد الصليبية لن يصل يوماً إلى عدد الجبيلية، ولو أنجبت لـه ميسر كل يوم ولداً. لن يدرك أبوه أن الدنيا تغيرت، ولم يعد التعداد بالنفوس وإنما بالفلوس. ثراؤه مع ثراء انسبائه يجعلهم يتقدمون على الجبيلية وغير الجبيلية. إنـجاب ميسر لـمولودة مثلها ليس نـهاية وإنـما بداية. بداية انصهار الصليبية وكنعان. اقترانه بميسر وإن كان ولـهاً إلا أنه ايضاً ارتقاء. ارتقاء يرفضه أبوه، رغم أنـه مثلـه مفتون بآل كنعان. وإلا، ما تفسير تردده على الناصرة، ولـهفته على الصغيرة التي تطير منها لحظـة ولادتـها واعتبرها نـهاية الصليبية: أنا عندي حرمة وابنيه لزوم اهتم بيهم.

- اهتم بروحك وحرمتك وما الك دخل بالبنيه .
- كيف ؟. ما هي بنيتي .؟.

-        البنية بنيتي يا ولد. ما طالعة ليك بشي. بركي الرب ما يخذلني بيها ، بعد ما خذلني بيك٠ انقلع ها الحين من قدامي٠

٢٦

كان انكشاف أمر واصف، واقتياده إلى الـمعتقل، أقل بلاء على مارغو من اكتشاف الصندوق الذي خبأه رؤوف في قن الدجاج٠

كان في الـمدرسة عندما اعتقل أبوه٠ وصل البيت عصراً، فوجده يغص بالنسوة من الجارات.ومن حين لحين يطل جار أو قريب أو صديق، يسأل مارغو بإلحاح إن كانت تحتاج شيئاً ، فتهز رأسها بالنفي وهي تبكي بصمت ولوعة. فتطيب الجارات خاطرها ويهون عليها. السجن للرجال. كما أن تهمة واصف سياسية وليست جنائية. أنه ليس مجرماً، وإنما بطلاً وطنياً.

لم تقو على البوح بما يجيش في صدرها إلا بعد انفضاض اليوم عنها واختلائها مع ابنها٠ فكيف ستحتمل رخاوة أبيه قسـوة السجن ؟. لو ظل نصيراً للقوميـين ولم يتورط بالانتساب للحزب٠ لا صحته تحتمل ولا إرادته٠ إنه ليس صلباً مثل جبران أو زعيم الحزب انطون٠ قد يصمد

أولئك في التحقيق. لكن أباك، أباك يا رؤوف.. وتنفجر بالبكاء.

أحس رؤوف بالنقمة عليها. ما بال هذه المرأة تستخف بإرادة أبيه.؟. وما بالها تستخف به وقد صار رجلاً يعتمد عليه.

لم يواته النوم ليلتها وهو يتخيل نفسه منقذاً لأبيه وجبران وانطون. يتسلق وصحبه جدار السجن، أو يقتلع حديد نافذته بحبلٍ مربوط إلى حصان، كما شاهد في فيلم سينمائي. جاء دوره في الزعامة ، ليثبت جدارته ويخلص أباه ورفاقه. سيجلس على يمين انطون بعدما ينقذه من السجن، ويتسلم منه وسام الاستحقاق ويشار له بالبنان بين الرفاق. سيقول لأمه : أسكتي أنت واتركي الأمر للرجال.

تأخر صباحاً في الحمام. استعجلته أمه حتى لا يفوت عليه الدوام. خرج وهو يتصنع تنشيف وجهه. حمل كيس كتبه وغادر سريعاً، لتكتشف مارغو أنه استخدم فرشاة الحلاقة وموساها.

طلب من صحبه الغياب معـه.مـن يبالي بالـمدرسة وزعماء سوريا في الـمعتقلات.لم يستجب له إلا ثلاثـة، ابتعدوا عن الـمدرسة والضيعة، لتدارس الوضع بين الأحراج. الهدف واضح. سيصبحون أبطالاً تحكي عنهم الحكايات. عليهم جلب ما يستطيعون من سلاح. وأهم أداة ، الحبال.

جلب أحدهم إزميلاً وآخر شاكوش، واقتطع رؤوف حبل الغسيل. عند العصر انضم إليه آخرون. سرق أحدهم مصباح أبيه اليدوي وآخر سطاً على خنجر جده الـمعلق استذكاراً على الجدار، وفاجأ آخر الـمجموعة بجلب قنبلة يدوية من مخلفات الحرب الكونية. وضعها رؤوف مع باقي القطع في صحارة خشبية أخفاها في القن، فوضعت يد مارغو عليها قبل بيض الدجاج: مين بدوه يكون اللي حاططها.؟. حرامي؟. مجرم.؟.. يا واحد بدوه يثبت التهمة على بيك.

شحب وجهه. ليس بسبب الـمخاوف التي توهجت في وجه أمه، وإنما لاكتشافها مخزن السلاح: بـحاف بالـمسيح، إنّوه ما فيه غيرك. إحكي الصحيح. لشو كل

هاي البلاوي. الإزميل للحفر والشاكوش للتكسير والحبل لشو يا عفريت؟. وين هلأ راح أعلق الغسيل.؟. القنبلة ما راح أجيب سيرتها، لأني دفنتها بسابع أرض. بدي أعرف مين الـمساخيط اللي جابوا الك هيدي الإشيا.. وصرخت بأعلى صوتها: .بدك تبلينا فوق بلوتنا. العمى بقلبك. إذا أبوك ما جاطني، ناوي انت تعملها عنه؟. وصرت تحلق ذقنك كمان. أنا بفرجيك.

طال انتظار الأصحاب في الحرج ولم يأت الزعيم. كما لم يتجـرأوا على إرسال أحدهم لاستعجاله أو معرفة أخباره. أحس كل منهم بسلاحه يوجه ضده، فعادوا إلى بيوتـهم متلصصين. جميع الأدوات افتقدها أصحابـها وعوقب سارقوها. باستثناء القنبلة الـمبردة التي كانت مخزنة في القبو مع مخلفات الأجداد. تبادلت النسوة الشكاوى عن شقاوة ابنائهـن، ولم تذكر أي منهن شيئاً عن القنبلة: انكشفنا من أولها. مثل ما صار مع الزعيم انطون.

ماتت الفكرة والخطة في الـمهد، ولم تمت أحلام الفتية، وبـخاصة رؤوف. فقد أوصاه انطون أن يلتزم الهدوء، ويعيد تشكيل التنظيم. بالأمس. عندما زار وأمه

السجن: لو شفتوا كيف الحـراس بـخافوا من بيي. لما قال لـه واحد منهم انتهت الزيارة ، دفعه بإيده، ورماه خمسة متر على الحيط.

- وانطون.
- ما كثير تحدثنا. بس متل ما قلت لكم. وصاني أشكّل الحزب من أول وجديد.

حاول عبثاً أن يعثر في البيت ولو على نشرة واحدة مما لم يضبطه رجال البوليس. أحرقته مارغو أو دفنـته قبل أن تدفن القنبلة. فلم يكن أمام رؤوف كي يأتي بالجديد في الـمعتقد الحزبي، الذي أصاب الأصحاب بالـملل لكثرة التكرار، إلا مقالات جده، الـمحفوظة في جرائد قديـمة صفراء. كان عليه أن يحفظ تعابيرها عن ظهر قلب حتى يسكبها على أصحابه كالـماء. ازداد ثقافة وهو ينكب على قراءة الكتب التي طلبها أبوه ومنعتها إدارة السجن، ولاسيما مقدمة ابن خلدون. صارت معجمه للإجابة على كل سؤال يتفتق عنه ذهن الأصحاب. حتى أنه صار يحرج أساتذته بمداخلته في دروس التاريخ التي يحرص على الانضباط فيها. بينما يتغيب عن حصص الحساب والطبيعيات: انت عم

بتجنني . أنا خاص. ما فـي عليك. الـمدرسة عم بتفل منها، ودراسة ما عم تدرس. إيمته بدوه بيك يطلع ويخلصني منك.

افرج عن انطون وجماعته بعد ستة أشهر، ليأخذ نشاط الحزب طابعاً شبه علني "إني اسست حزباً قومياً في السر، ليس من أجل أن يبقى سرياً. بل ليظهر للملأ معلناً تجدد أمة كان العالـم يظنها ميتة".

بهذا الإعلان كان الحزب القومي السوري أول حزب يتمرد على قرار إلغاء الأحزاب وقوانين قمع الجرائم الـمخيفة. وصار القوميون السوريون يتحركون بشكل مكشوف. باستثناء الـميليشيات الـمسلحة التي حافظت على سريتها. سواء في النشاط أو التدريب أو التمارين العسكرية بإشراف بكر وقيادة جبران.

ساعدت الاعتقالات في رفع أسهم الحزب لدى الـمواطنين، وساعد إعلان مبادئه التي دونـها انطون، أثناء فترة الاعتقال، إلى نمو الحزب نمواً كبيراً. فاتسعت قاعدته الجماهيرية، وصارت نداوته الشعبية تتم على الـمكشوف، فضجت بيوت الرفاق بالحيوية والنشاط والـمساجلات

الفكرية. التي اتخذت من كتاب " نشوء الأمم" ، منهجاً ودليلاً وتعاليماً .

في أول زيارة، بعد الاعتقال، لبيت كنعان. رمى رؤوف بنفسه على انطون وظل ملتصقاً به للحظات طويلة، فقالت مارغو مداعبة: وا بيه ما عبطه هيك..

أجلسه انطون على يمينه، طيلة الجلسة التي راح فيها يتحاور والـمجتمعين بما جاء في مدوناته. بينما الدفء يغشى كيان رؤوف الذي أحس بأنه صار كبيراً دفعة واحدة. فتحول طيلة الجلسة إلى أذن كبيرة تمتص حديث انطون، ويراقب بعينيه النفاذتين ، حركته وطريقة حديثة وأسلوب محاورته.

انكب على قراءة كتاب " نشوء الأمم"، فحفظ غيباً العديد من عباراته وفقراته التي صار يرددها مع أحاديث أصحابه، ويناقش الأساتذة القوميين بـها، الذين كانوا يزرعون مبادىء الحزب في عقول تلاميذهم ووجدانـهم، فحظي منهم بعلامات متفوقة. تحركت الظنون في صدر مارغو: مـا معقول. كيف بـجيب هيك علامات، وما بشوفه بفتح كتاب. الا كتاب الزعيم انطون. اسمع واصف.

إن ما رحت انت للمدرسة، بروح أنا. بدي اعرف إذا هاي الشهادة صحيحة والا مزورة.

٢٧

أصيب بشارة بالذهول بسبب هيجان الجمهور في صالة السينما، ولم يختـتم بعد العرض. تماماً مثلما حصل مع سيف يوم قدم مسـرحية فلسطين قبل عقد من الزمان. صـرخ أحدهم في الصالة منددأ بالانجليز ، ليتحول الصراخ إلى هتاف، ويهتز سقف مبنى الختام تحت الأقدام، بينما يلتـئم الـمشاهدون في تظاهرة صاخبة تدافعت على السلالـم نحو الشارع. صادف وقتها خروج المصلين من الجامع الكبير.

في أقـل مـن سـاعة أقفلت المحلات ليلوذ البعض ببيوتـهم ويلتحق الكثيرون بالـمظاهرة الـهادرة وهي تنمو بين شارع وآخر لتصل حشودها آلاف الـمنددين بالانجليز.

في طريقهم إلى مقر الديوان الأميري القريب من المدرج الروماني، جوبـهوا بـحاجز من العساكر وقوات الشرطة. انضمت اليهم بعد وقت مفرزة من قوات خفر الصحراء. حالوا جميعهم دون تقدم المتظاهرين، قبل أن يتكاتفوا لتفريقهم بالهروات وإطلاق الرصاص في الهواء.

أوقفت مسرحية " الخروج"، ولم يكتمل عرضها الأول. وبات بشارة ليلته في النظارة. لكن تدخل رئيس الـمجلس التنفيذي المتعاطف مع الـمتظاهرين، حال دون التحقيق معه أو مواصلة توقيفه. فأفرج عنـه في الصباح.

قال رئيس الـمجلس التنفيذي، بأن بشارة غير مسؤول عن التظاهرة، وإنـما الظلم الذي يجري في فلسطين ، والذي عبرت مسرحية " الخروج"، عن ثورة القسام أروع تعبـير.

لم يكن رئيس المجلس المسؤول الوحيد الذي تعاطف مع بشارة وما عكسته مسرحيته من واقع مرير. بل العديد من رجالات البلد الذين استضافوا بشارة في بيوتـهم أو أعلنوا عن تضامنهم معه بالاحتشاد في بيته ومنجرته. مما كف يد المقيم البريطاني عن أي إجراء.

هذا التعاضد من أهل البلدة، حرك الـحماس على أشده في قلب بشارة. ولاسيما أن العديدين شددوا على مفهومـهم للفن الـمسرحي باعتباره رسالة. ردد قولـهم لزوجته: أيوه. رسالة. الفن رسالة. غيري بحارب بالبندقية، وأنا بحارب بالفن. حضري حالك للشام.

ساهم العديد بالنفقات. مما عوض بشارة عن خسارته وساعده في الوصول مع فرقته إلى دمشق.

لم يختلف الوضع في دمشق عنه في عـمان، فقد سبقته أخبار المسرحية لتستقبله جمعية المسرحيين السوريين. بـحفاوة. فنـزل مع فرقته في فندق الكونتيننتال.

في صباح اليوم التالي ابتدأ تـجهيز مسرح العباسية، ليقدم عرضـه لأول مرة في ظل الانتداب الفرنسي منددأً، بـما استطاعه من تعديل ، بالانجليز ومؤازرتـهم لليهود. أضاف مشهداً جديداً للـمسرحية ، خشي تقديـمه في عمان، كي لا يتهم بتشجيع اغتيال الانجليز ، بينما تـختتم المسرحية بانتقام القساميين من قائد قوات البوليس فيتسجيرالد وضابط التحقيق رايس ومتعاون عربي معهم٠

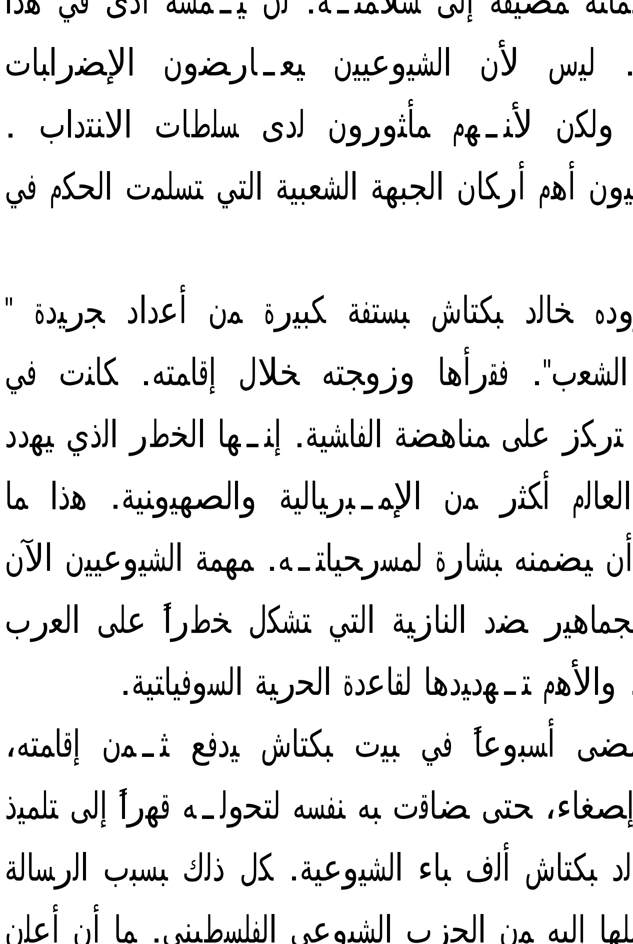
استمر العرض لـمدة أسبوع. دون أن تتسبب الـمسرحية بـهيجان جماهيري مثلما حصل في عمان. فانتاب بشارة إحساسـان متناقضـان. من جهة كان يشعر بالراحة والغبطـة لاستكمال الـمسرحية إلى نـهاية العرض. ومن جهة أخرى، أحس بالإحباط لأن أداءه لم يشعل ثورة، وإن كان يـخيفه التظاهر والهتاف. إلا أن

الأمور انقلبت رأساً على عقب في اليوم الذي عزم فيه على السفر بعدما قدم عرضه الأخير، واتفق مع مضيفه على كتابة مسرحية عن الزعيم السوري هنانو الذي لم يمض وقت على وفاته.

كان الوقت ظهراً، وقد انتهى وفرقته من إعداد الحقائب ومستلزمـات الفرقة، استعداداً للسفر إلى بغداد، عندما وجد نفسـه حبيساً في فندقـه، بينما التظاهرات تندلع هادرة مدوية في أنـحاء دمشق ويدوي معها الرصاص وتنفجر القنابل: ما فيه مسرحية إلا وبعدها مظاهرات. معقول يكون صدفة، والا معمول لي عمل.؟.

توزعت فرقته على بيوت عدد من جميعة المسرحيين السوريين، طيلة فترة الإضراب الذي شل الحركة في الشام لأيام عديدة لم تـخل من الاشتباكات بين قوات الانتداب والمتظاهرين الذي يلتئمون ويتبعثرون، مـخلفين وراءهـم القتلى والـجرحى.

ظل محجوراً عليه طيلة الاضطرابات في بيت سكرتير الـحزب الشيوعي السوري اللبناني ، خالد بكتاش.



طمأنه مضيفه إلى سلامتـه. لن يـمسه أذى في هذا البيت . ليس لأن الشيوعيين يعـارضون الإضرابات فحسب، ولكن لأنـهم مأثورون لدى سلطات الانتداب . فالشيوعيون أهم أركان الجبهة الشعبية التي تسلمت الحكم في فرنسا.

زوده خالد بكتاش بستفة كبيرة من أعداد جريدة " صوت الشعب". فقرأها وزوجته خلال إقامته. كانت في معظمها تركز على مناهضة الفاشية. إنـها الخطر الذي يهدد سلامة العالم أكثر من الإمـبريالية والصهيونية. هذا ما يـجب أن يضمنه بشارة لمسرحياتـه. مهمة الشيوعيين الآن شحن الجماهير ضد النازية التي تشكل خطراً على العرب واليهود. والأهم تـهديدها لقاعدة الحرية السوفياتية.

أمضى أسبوعاً في بيت بكتاش يدفع ثـمن إقامته، قراءة وإصغاء، حتى ضاقت به نفسه لتحولـه قهراً إلى تلميذ يلقنه خالد بكتاش ألف باء الشيوعية. كل ذلك بسبب الرسالة التي حملها إليه من الحزب الشيوعي الفلسطيني. ما أن أعلن عن موافقة السلطات الفرنسية على استقبال وفد سوري في باريس للتباحث حول مستقبل البلاد، حتى هدأت الأوضاع

فتنفس بشارة الصعداء. لكنه وهو يستعد للرحيل أخبروه عـن اندلاع ثورة عارمة في كل أنـحاء فلسطين.

عاد إلى عمان وفي نيته الاعتذار من تقديـم العرض في بغداد، ليجد في انتظـاره رسالة من جمعية الـمثنى العراقية، تعتذر عن استضافته بسبب سخونة الأوضاع في المنطقة. وشأن غيره من أهالي عمان، وصلت إلى مسامعه أخبار اجتياز العديد من العرب للنهر وانضمامـهم لثوار فلسطين، تـحت قيادة السوري فوزي القاوقجي : خلينا بالمشغل والمنجرة. لأنوه كمان مسرحية بتقوم حرب عالـمية ثانية .

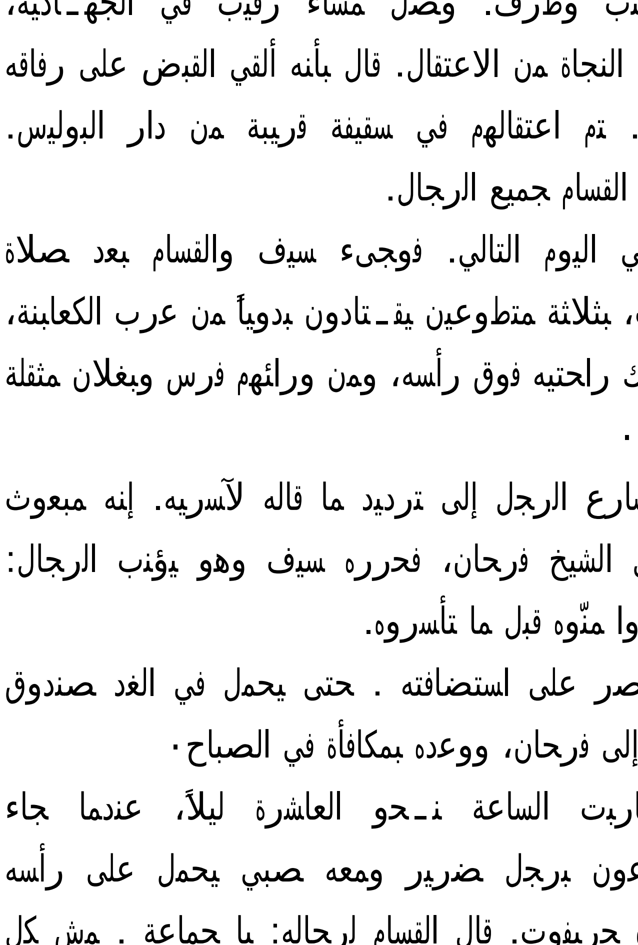
٢٨

أوصل سيف بسيارته الشيخ عزالدين وثلاثة آخرين إلى نـزلة الشيخ زيد في أحراج يعبد . في الوقت الذي تسلل فيه عدد من الجهادية إلى حيفا استعداداً للانضمام للثوار حال هجومهم على حيفا.

شدد القسام على سيف بتوخي الحذر والحرص وعدم المغامرة بنقل السلاح في سيارته، وهو يغادر إلى شرق الأردن عاد إلى يعبد في ليلتها . ليطمئن القسام على أن السلاح المتوافر لدى فرحان سيصل خلال يومين.

توافد المـجاهدون على يعبد. بينما القسام لا يخفي استعجاله لتسلم السلاح والهجوم على حيفا. كلما ازداد عددهم تزداد امكانية انكشاف أمرهم.

في اليوم التالي ، وصل بضع عشراتٍ من المتطوعين بأسلحتهم . استحكموا بـها مع من سبقوهم في الـمواقع التي أحسن سيف توزيعهم فيها. قال لـه القسام مطرياً: نفعت فيك الحرب.. لم يتذكر سيف أين سمع العبارة.



في المساء جاء متطوعون جدد ، أفاد بعضهم أن القوات الانجليزية تقوم بـمداهمات للمنازل في حيفا، وتعتقل عن جنب وطرف. وصل مساء رقيب في الجهـادية، استطاع النجاة من الاعتقال. قال بأنه ألقي القبض على رفاقه الخمسة. تم اعتقالهم في سقيفة قريبة من دار البوليس. فاستنفر القسام جميع الرجال.

في اليوم التالي. فوجىء سيف والقسام بعد صلاة المغرب، بثلاثة متطوعين يقـتادون بدوياً من عرب الكعابنة، وقد شبك راحتيه فوق رأسه، ومن ورائهم فرس وبغلان مثقلة الحمولة.

سارع الرجل إلى ترديد ما قاله لآسريه. إنه مبعوث من قبل الشيخ فرحان، فحرره سيف وهو يؤنب الرجال: استفسروا منّوه قبل ما تأسروه.

أصر على استضافته . حتى يحمل في الغد صندوق برتقال إلى فرحان، ووعده بمكافأة في الصباح.

قاربت الساعة نـحو العاشرة ليلاً، عندما جاء المتطوعون برجل ضرير ومعه صبي يحمل على رأسه صحارة جريفوت. قال القسام لرجاله: يا جماعة . مش كل

واحد مرق من هون تلقوا القبض عليه. إذا ما شافكم ، لا تشوفوه حالكم.. وأطلق سراح الرجل.

كانت الساعة تقترب من السادسة صباحاً، وقد أدى الجهاديون صلاة الفجر جماعة، عندما دوى مكبر الصوت ، طالباً من الجموع الاستسلام. فقد وصلت قوات بريطانيـة مدعومة بالمصفحات والدبابات بإرشاد دليل من عرب الهيب تتبع بـمهارة قشر الجريفـوت.

قال سيف للبدوي، بأنه يستطيع الرحيل. انتهت مهمته بإيصال السلاح. رفض البدوي بإصرار. إنه يريد أن يجـرب السلاح. فجربه على شرطي انجليزي، قطع مع مجموعته الطريق الشمالي الشرقي حيث استحكم المتطوعون أمام مقام الكيلاني متخذيـن من الأشجار الباسقة والسلاسل الحجرية درعاً لهم . سقط الانجليزي صريعاً. سارع رفيقه إلى حمله ، فأسقطته فوقه طلقة أخرى سددها البدوي.

في أقل من نصف ساعة، وصلت مصفحتان استطاعت إحداهـما حمل الجثتين، بينما الأخرى تصلي موقع سيف ورفاقه بـمدفعها الرشاش.

في الجنوب الغربي حيث انتهت قشور الجريفوت على قمة نـزلة الشيخ زيد، احتشدت قوة انجليزية كبيرة بينما الشيخ القسام ومعه نـحو ثلاثين جهادياً انقسموا إلى خمس مجموعات توزعت على شكل منشاري مائل إلى الغرب، تتناوب كل ثلاث منها التصدي للجنود الانجليز الذين يراوحون للتقدم، لكنهم سرعـان ما يتراجعون أمام شدة المقاومة وحصانة المنطقة الوعرة.

في المساء جاءت تعزيزات إلى المهاجمين، فارتفع تعداد القوة إلى مئة وخمسين شرطياً، من عرب وانجليز. بينهم ضابط المخابرات حليم بسطة الـذي قدر للقائد فيتسجيرالد، عدد المتمردين بنحو ثلاثمائة ، يمتلكون أسلحة حديثة استطاعوا بـها قتل شرطيين في بداية المعركة.

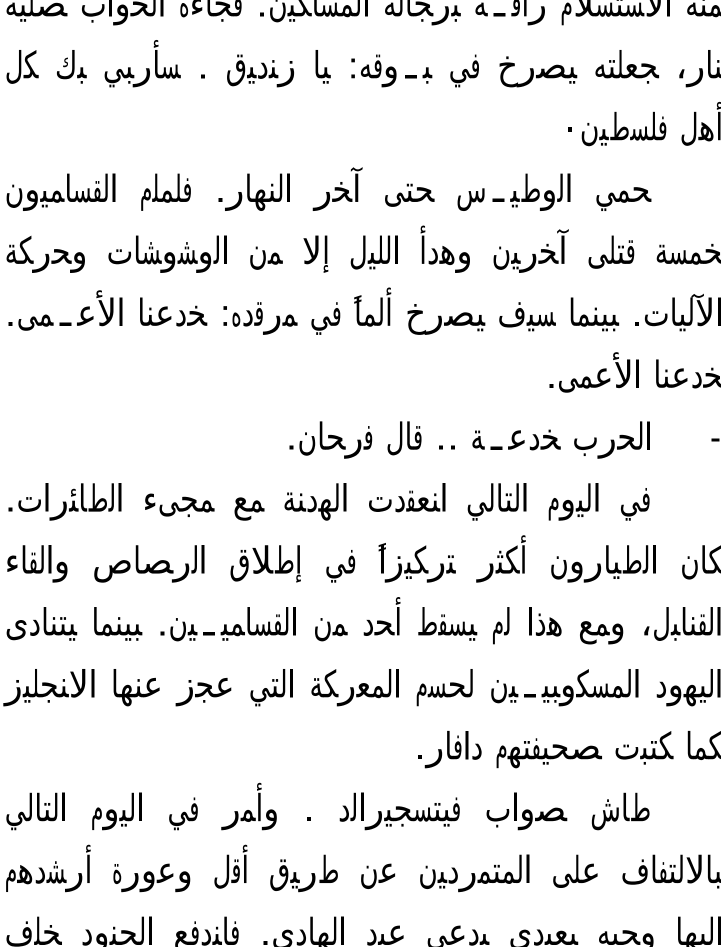
لامت الصحف اليهودية في الصباح السلطات الانتدابية على تأخرها في اكتشاف العصابة الإرهابية، وطالب الصهيوني ديزنكون في جريدة هابو، بإجراء تحقيق حول كيفية حصول هؤلاء على السلاح. تحركت الـمخاوف في صدر فيتسجيرالد. ووصلت نقمته الذروة إثر مهاجمة القطار المتجه من حيفا إلى كريات حاييم.

آثر القساميون في المدينة التحرك بعد انكشاف أمر رفاقـهم، فطلب فيتسجيرالد دعم الطائرات. إلا أن المهمة كانت صعبة على الطيارين، بسبب كثافة الأشجـار واحتماء الـمتمردين في تجاويف الصخور.

كان يوم الطائرات يوم هدنة بين قوات الانتداب الأرضية والقساميين الذين أسقط منهم، إطلاق الرشاشات العشوائي وانفجار القنابل على غير هدى، خمسة قتلى وعشرة جرحى كان سيف واحداً منهم. فأمر القسام بحمله إلى مكان آمن قريب. ولم يكن أما م الخيـال البدوي آمن من قبـة فرحان، وانقضى صخب النـهار لتتواصل همسـات الظلام حتى الصباح.

ابتدأت المناوشات بعد صلاة الفجر، احتراماً من المهاجمين الانجليز لرفاقهم العرب المسلمين. مع أن حليم بسـطة كان يؤثر الانقضاض على الإرهابـيين وهم في غيبوبـة العبادة: هذا أفضل وقت يا سيدي.نباغتهم الآن حتى يظلوا لربـهم ساجدين.

- لا. لا. أفضل انتظار الشروق. لا أريد تمرداً بين رجالي المسلمين. أولاً على آخر، سيقتلون أو يستسلمون.



نادى بسطة في مكبـر الصوت على عزالدين، طالباً منه الاستسلام رأفـة برجاله المساكين. فجاءه الجواب صلية نار، جعلته يصرخ في بـوقه: يا زنديق . سأربي بك كل أهل فلسطين.

حمي الوطيـس حتى آخر النهار. فلملم القساميون خمسة قتلى آخرين وهدأ الليل إلا من الوشوشات وحركة الآليات. بينما سيف يصرخ ألماً في مرقده: خدعنا الأعـمى. خدعنا الأعمى.

- الحرب خدعـة .. قال فرحان.

في اليوم التالي انعقدت الهدنة مع مجيء الطائرات. كان الطيارون أكثر تركيزاً في إطلاق الرصاص والقاء القنابل، ومع هذا لم يسقط أحد من القساميـين. بينما يتنادى اليهود المسكوبيـين لحسم المعركة التي عجز عنها الانجليز كما كتبت صحيفتهم دافار.

طاش صواب فيتسجيرالد . وأمر في اليوم التالي بالالتفاف على المتمردين عن طريق أقل وعورة أرشدهم اليها وجيه يعبدي يدعى عبد الهادي. فاندفع الجنود خلف عشر دبابات وعشرين مصفحة اخترقت السلاسل الحجرية

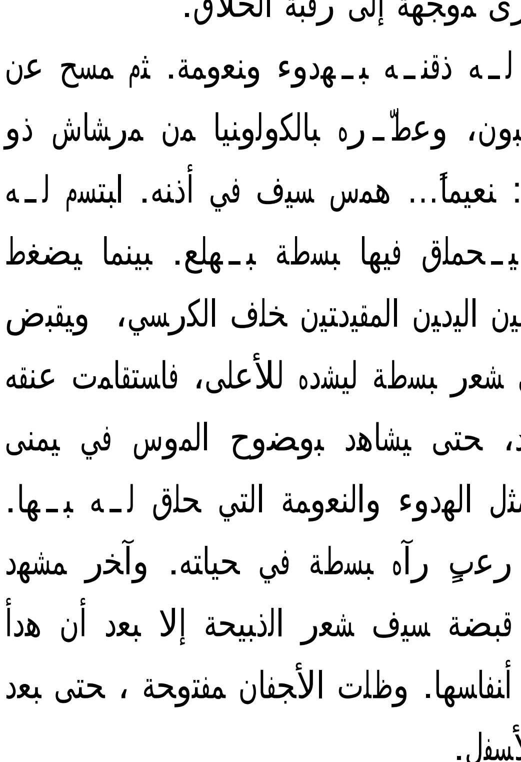
المحيطة بأراضي عبد الهادي إلى طريق أقل وعورة مزروعة بالدخان. فعبرتـها الآليات دون صعوبة .

تفاجأ القساميون من الجانب الغربي، بينما يواجهـون الجبهة الشمالية بقيادة الشيخ عز الدين متسلحاً بـمسدس وبندقية، قبل أن تتخلّل جسـده الطلقات.

داس فيتسجيرالد على رقبة جثة القسام، بينما حليم بسطة يبصـق على وجهها ويقول بالانجليزية: هذا جزاؤك يا كلب .. واقتيد الأسرى الأحياء راجلين أمام الآليات ، تاركين جثث القتلى في العراء. لتهتاج البلاد في أكبر تـظاهرة ، شيع فيها الفلسطينـيون شيخهم عزالدين القسام مجللاً بالأعلام السورية والمصرية والعراقية والسعودية واليمنية .

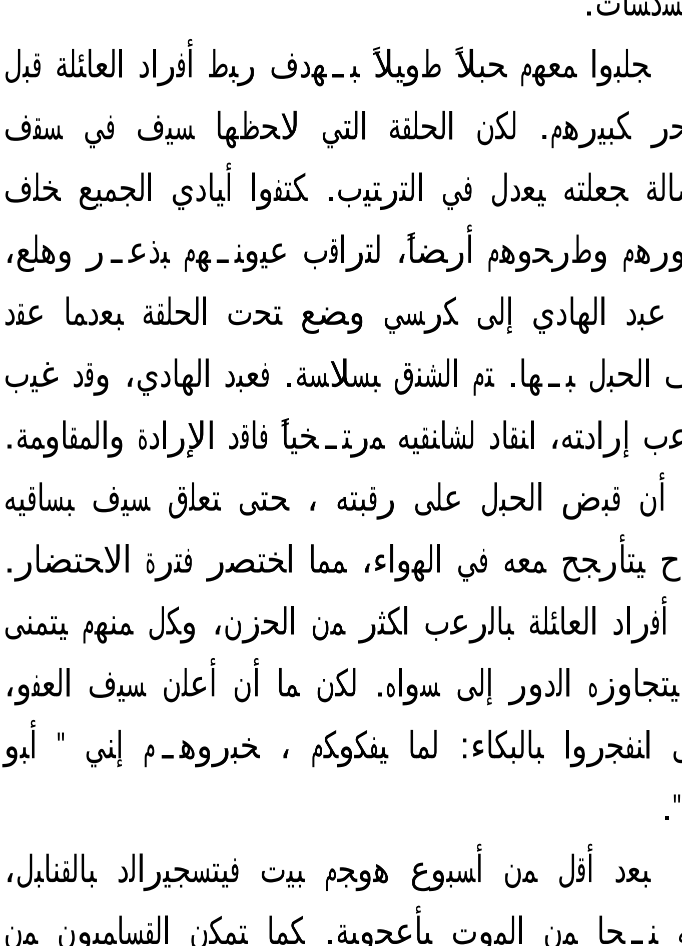
بعد ثلاثة أشهر ترأس سيف محكمة ثورية تنادى إليها القساميون، وتولى بنفسه تنفيذ أحكامها. باغت وعدد من القساميين دكان حلاقة ، استرخى حليم بسطة في كرسيه وقد تلطخ وجهه برغوة الصابون.

بسرعة قام الرجال بربط يدي حليم خلف الكرسي، بينما يـمسكه سيف من شعر رأسه، ويسدد الموس إلى عنقه، وموس أخرى موجهة إلى رقبة الحلاق.



حلق سيف لـه ذقنـه بـهدوء ونعومة. ثم مسح عن وجهه بقايا الصابون، وعطّـره بالكولونيا من مرشاش ذو ضاغط مطاطي : نعيماً... همس سيف في أذنه. ابتسم لـه في المرآة التي يـحملق فيها بسطة بـهلع. بينما يضغط سيف بثقل قدمه بين اليدين المقيدتين خلف الكرسي، ويقبض بيده اليسرى على شعر بسطة ليشده للأعلى، فاستقامت عنقه في أقصى امتداد، حتى يشاهد بوضوح الموس في يمنى سيف ينحره بـمثل الهدوء والنعومة التي حلق لـه بـها. كان أكثر مشهد رعبٍ رآه بسطة في حياته. وآخر مشهد أيضاً، فلم تترك قبضة سيف شعر الذبيحة إلا بعد أن هدأ انتفاضها وسكنت أنفاسها. وظلت الأجفان مفتوحة ، حتى بعد أن سقط الوجه للأسفل.

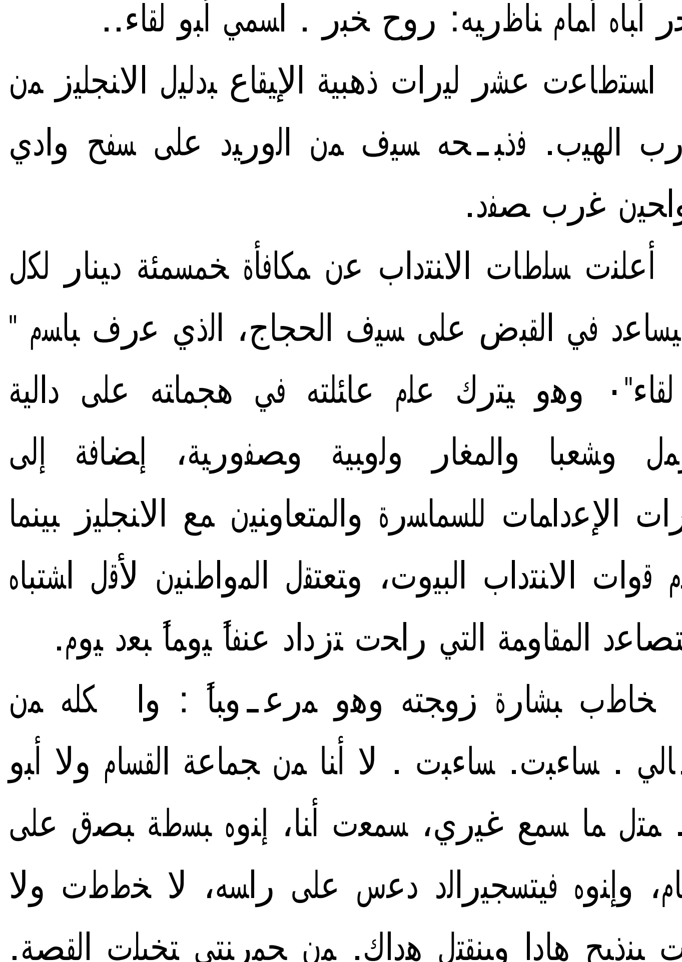
كان عبد الهادي يتنـاول العشاء مع عائلته بـأمن وطمأنينة، وقد امتدت أمامـهم أطايب الطعام، عندما فوجئوا بالقساميين، يتقدمهم سيف في مشية متمهلة وخطى واثقة،



وقبل أن يسألوا أو يحتجوا على المباغتة،حاصرهم القساميون بالمسدسات.

جلبوا معهم حبلاً طويلاً بـهدف ربط أفراد العائلة قبل نـحر كبيرهم. لكن الحلقة التي لاحظها سيف في سقف الصالة جعلته يعدل في الترتيب. كتفوا أيادي الجميع خلف ظهورهم وطرحوهم أرضاً، لتراقب عيونـهم بذعـر وهلع، جر عبد الهادي إلى كرسي وضع تحت الحلقة بعدما عقد سيف الحبل بـها. تم الشنق بسلاسة. فعبد الهادي، وقد غيب الرعب إرادته، انقاد لشانقيه مرتـخياً فاقد الإرادة والمقاومة. وما أن قبض الحبل على رقبته ، حتى تعلق سيف بساقيه وراح يتأرجح معه في الهواء، مما اختصر فترة الاحتضار. أخذ أفراد العائلة بالرعب اكثر من الحزن، وكل منهم يتمنى ان يتجاوزه الدور إلى سواه. لكن ما أن أعلن سيف العفو، حتى انفجروا بالبكاء: لما يفكوكم ، خبروهـم إني " أبو لقاء".

بعد أقل من أسبوع هوجم بيت فيتسجيرالد بالقنابل، لكنه نـجا من الموت بأعجوبة. كما تمكن القساميون من



العثور على الأعمى وابنه، ففقأ سيف عيني الصبي بعدما نحر أباه أمام ناظريه: روح خبر . اسمي أبو لقاء..

استطاعت عشر ليرات ذهبية الإيقاع بدليل الانجليز من عرب الهيب. فذبحه سيف من الوريد على سفح وادي الطواحين غرب صفد.

أعلنت سلطات الانتداب عن مكافأة خمسمئة دينار لكل من يساعد في القبض على سيف الحجاج، الذي عرف باسم " أبو لقاء". وهو يترك علم عائلته في هجماته على دالية الكرمل وشعبا والمغار ولوبية وصفورية، إضافة إلى عشرات الإعدامات للسماسرة والمتعاونين مع الانجليز بينما تداهم قوات الانتداب البيوت، وتعتقل المواطنين لأقل اشتباه مع تصاعد المقاومة التي راحت تزداد عنفاً يوماً بعد يوم.

خاطب بشارة زوجته وهو مرعوباً : وا كله من خيالي . ساعبت. ساعبت . لا أنا من جماعة القسام ولا أبو لقاء. متل ما سمع غيري، سمعت أنا، إنوه بسطة بصق على القسام، وإنوه فيتسجيرالد دعس على راسه، لا خططت ولا دعيت ينذبح هادا وينقتل هداك. من حمرنتي تخيلت القصة. المهم تنقضي على خير وما يتهموني إنوه كان عندي

معلومات سلف. كل اللي قدمته خيال بـخيال. كيف صار حقيقي ما بعرف. من اليوم وطالع أنا لا ممثل ولا بطيخ. أنا نـجار. فاهمة ، نـجار.

٢٩

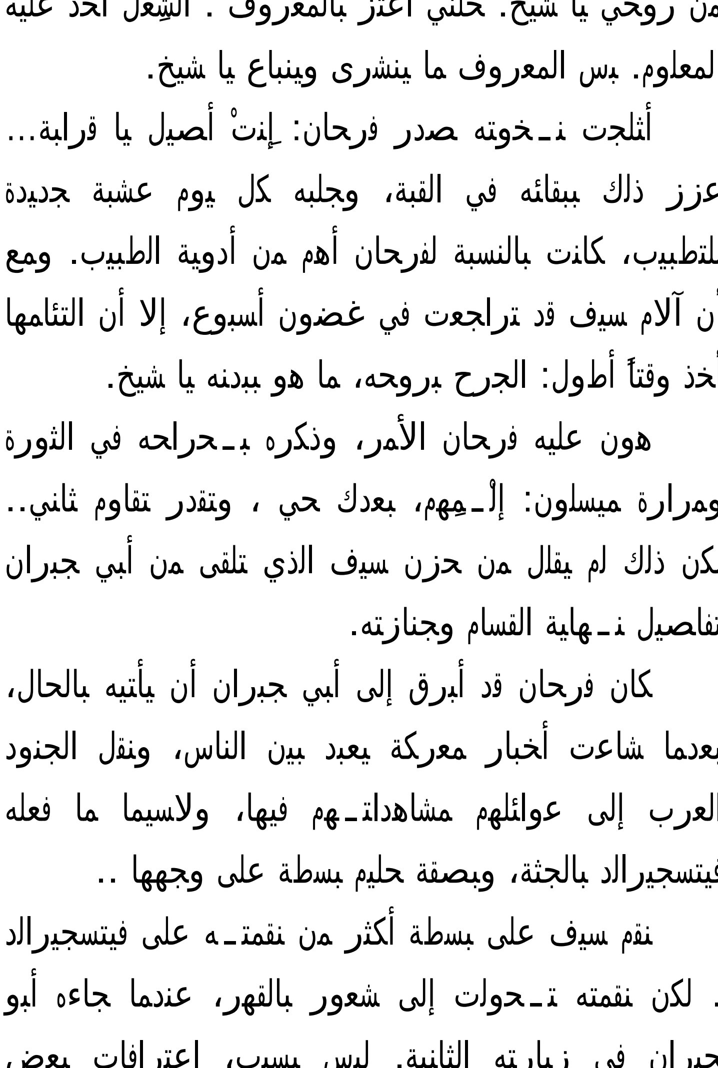
اتـخذ البدوي طريقه إلى الجنوب قبل الالتفاف إلى الشرق ، مما أطال المسافة إلا أنها كانت أكثر أمناً لندرة الدوريات. رش على جرح سيف قليلاً من ملح البارود، دون مبالاة بصراخ سيف الذي كان بين الصحو والإعياء. مر في طريقه بديار التعامرة، فأنجده أحدهم ببعض الزبيب ومسحوق الخشخاش، مما أسكن قليلاً من آلام سيف.

واصل البدوي الطريق التي يسلكها المهربون، متجاوزاً الغابـات الكثيفة إلى منطقة جرداء مكشوفة جنوب أريـحا، كانت بالنسبة إليه أخطر بقعة في الطريق. إلا أنه لم يتعثر بحرس الحدود. وصل إلى أوسع انبساط لمجرى النهر، قبل ملاقاته بحيرة لوط. ما أن عبره حتى تنفس بارتياح: ما ضل غير السهل يا صاحب.. وكان السهل أكثر وعورة من هضاب يعبد، وهو يرتقي ساحباً رسن الحصان من خلفه، وسيف فوقه مغمض العينـين، ذابل الأعضاء، منكمش الحيوية.

- تيجي هالحين واياي، والا يـجيك عزرائيل.. قال فرحان وهو يسحب مسدسه من جرابه. بينما الخوف يرخي ركبتي الطبيب الطلياني ، ويبدأ توضيب حقيبـته بذعر وارتباك ، بعدما رفض الانصياع قبل لحظات.

قاد مسلم السيارة بسرعة جنونية، رغم أن فرحان لم يستعلجه كعادتـه. بل ظل ساهماً شارداً بالطريق أمامه تبتلعها العجلات.

استخرج الطبيب بأدواته القليلة رصاصة من كتف سيف وأخـرى من خاصرته. قال برطانـة عربية، بأنه يـجب إدخال الجريح إلى المستشفى. يلزمه متابعة طبية مستمرة. لكن فرحان رفض بإصرار. سيرسل السيارة إلى المشفى لجلبه إلى القبة يومياً. لم يعلق الطبيب وفي داخليته تصميم على عدم الانصياع. إما أن يأتي هذا البدوي بـجريـحه إلى المستشفى أو يذهب إلى طبيب غيره. لكن الليرات الذهبية التي قبضها وهو يغادر أنسته قراره الذي اتـخذه في الكتمان. أما البدوي الذي حمل سيف، فقد رفض بإصرار أن يأخذ مليماً واحداً من فرحان: ودك إياني استحي



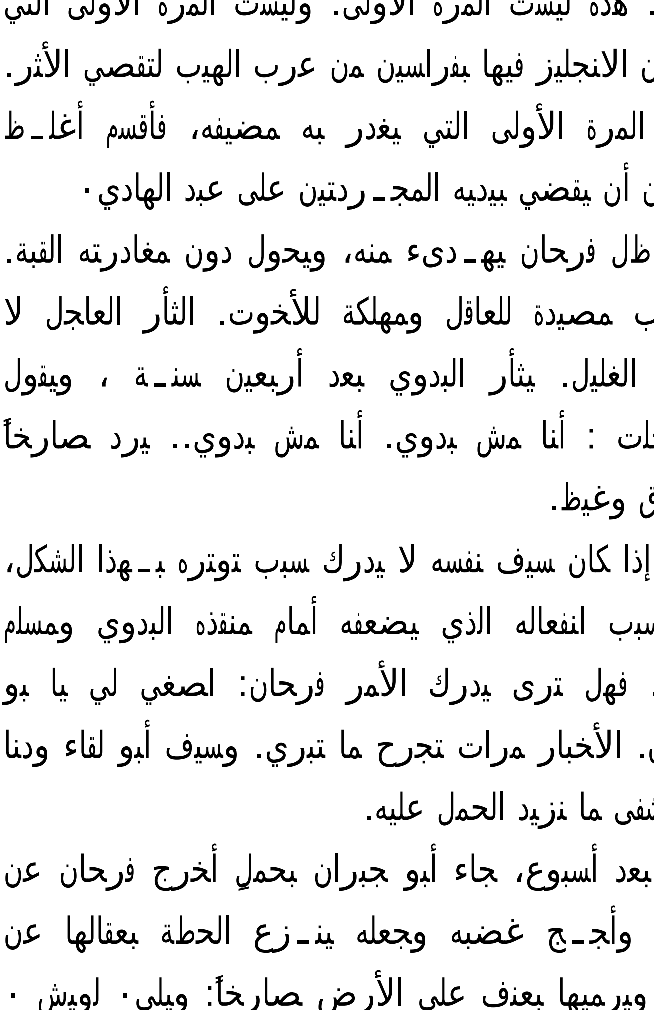
من روحي يا شيخ. خلّني اعتز بالمعروف . الشِغْل آخذ عليه المعلوم. بس المعروف ما ينشرى وينباع يا شيخ.

أثلجت نـخوته صدر فرحان: إِنتْ أصيل يا قرابة... عزز ذلك ببقائه في القبة، وجلبه كل يوم عشبة جديدة للتطبيب، كانت بالنسبة لفرحان أهم من أدوية الطبيب. ومع أن آلام سيف قد تراجعت في غضون أسبوع، إلا أن التئامها أخذ وقتاً أطول: الجرح بروحه، ما هو ببدنه يا شيخ.

هون عليه فرحان الأمر، وذكره بـجراحه في الثورة ومرارة ميسلون: إلْـمِهم، بعدك حي ، وتقدر تقاوم ثاني.. لكن ذلك لم يقلل من حزن سيف الذي تلقى من أبي جبران تفاصيل نـهاية القسام وجنازته.

كان فرحان قد أبرق إلى أبي جبران أن يأتيه بالحال، بعدما شاعت أخبار معركة يعبد بين الناس، ونقل الجنود العرب إلى عوائلهم مشاهداتـهم فيها، ولاسيما ما فعله فيتسجيرالد بالجثة، وبصقة حليم بسطة على وجهها ..

نقم سيف على بسطة أكثر من نقمتـه على فيتسجيرالد . لكن نقمته تـحولت إلى شعور بالقهر، عندما جاءه أبو جبران في زيارته الثانية. ليس بسبب، اعترافات بعض



الأسرى عنه، تحت وطأة التعذيب ، والحكم عليه بالإعدام غيابياً. هذه ليست المرة الأولى. وليست المرة الأولى التي يستعين الانجليز فيها بفراسين من عرب الهيب لتقصي الأثر. لكنها المرة الأولى التي يغدر به مضيفه، فأقسم أغلـظ الأيمان أن يقضي بيديه المجـردتين على عبد الهادي.

ظل فرحان يهـدىء منه، ويحول دون مغادرته القبة. الغضب مصيدة للعاقل ومهلكة للأخوت. الثأر العاجل لا يشفي الغليل. يثأر البدوي بعد أربعين سنـة ، ويقول استعجلت : أنا مش بدوي. أنا مش بدوي.. يرد صارخاً بـحنق وغيظ.

إذا كان سيف نفسه لا يدرك سبب توتره بـهذا الشكل، ولا سبب انفعاله الذي يضعفه أمام منقذه البدوي ومسلم وتمام. فهل ترى يدرك الأمر فرحان: اصغي لي يا بو جبران. الأخبار مرات تجرح ما تبري. وسيف أبو لقاء ودنا إياه يشفى ما نزيد الحمل عليه.

بعد أسبوع، جاء أبو جبران بحملٍ أخرج فرحان عن طوره وأجـج غضبه وجعله ينـزع الحطة بعقالها عن رأسه ويرميها بعنف على الأرض صارخاً: ويلي. لويش .

لويش كلّ هاظا بحق المسيح.؟.. بينما أبو جبران يقف أمامه شاحباً مهدود الحيل غائر العينين. والمربية المصرية تجهش بصمت وبين يديها لقاء يصرخ مرتاعاً من ارتياع فرحان.

استعر الخلاف بين ثائرة وزينات بعد وداع سيف للعائلة وخروجـه للثورة مع القسام. تعاملت المرأتان كلٌ وفق قيمها الاجتماعية وحالتها النفسية، وظلت أم خالد على الحياد. كذلك التوأمتان اللتان تجاذبـهما التعاطف مع أمهما وخوف الجدة على أبيهما.

فمنذ غادر سيف هذه المرة،لم تقو ثائرة على احتمال زينات التي لم تـجد سواها ، لتفريغ سخطها بسبب سعي ابنها الدائم لمواجهة اليهود والسلطات، بينما تتسابق العائلات الأخرى للمهادنة والولاء. بمن فيهم شيخه الحاج أمين: إنت السبب . إنت السبب. لوما رخاوتك معه، ما بدور على راسه.

- لويش وين داير.؟.. ردت ثائرة بسخط وحدة .
- وين ما كان . المهم إنوه لا سائل بالبيت ولا بالعيلة ولا بالولاد.
- كيف ما سائل يا خالة . ابو لقاء عنده قضية.

- بلا قضية بلا بطيخ. ما فيه أولى من قضية البيت. لو قد حالك ما بتخليه يسوي فينا هيك.

- لا تزيدها علي، ويش سوى؟.

- ما سوى شي. ولا شي. بس رايح يموت ولا يضل بالبيت اللي انت فيه.

- إش ها الحكي.؟.

- هادا الحكي اللي لازم تسمعيه من زمان. لو تجوز وحدة قد حالها، كان صار رب بيت مثل الناس، وما خلاني أنا أتابع مصالحه بين الرجال.

- انت اللي ودك هيك.

- وانت اللي بدك اياه يضل بعيد. ان مش مقتنعة فيه ليش تجوزتيه.

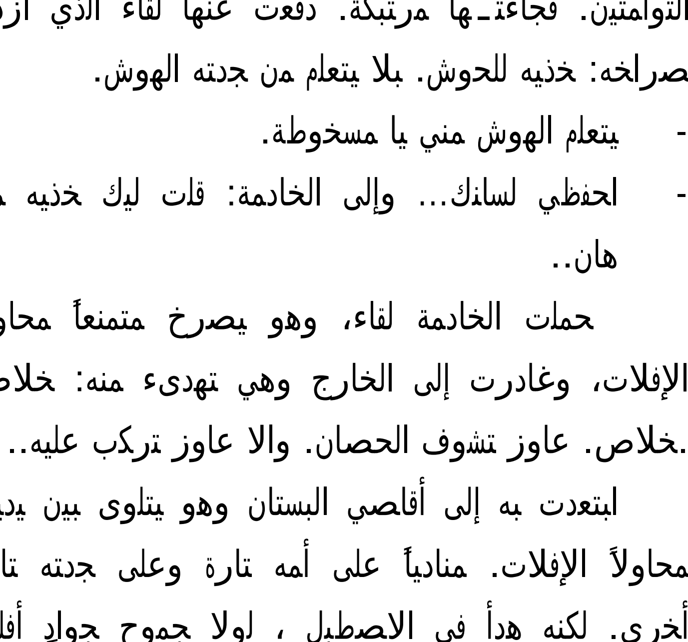
- ما أرضى ليك تحكي لي هيك.

- ومين انت اللي ترضي وما ترضي.

- لا تزعقي.

- بدي أزعق وأصرخ ليسمعني كل الناس. مش أنا اللي لازم اتعذب ، وانت مريشة في البيت. لا سائلة بـ جوزك ولا بالولاد.

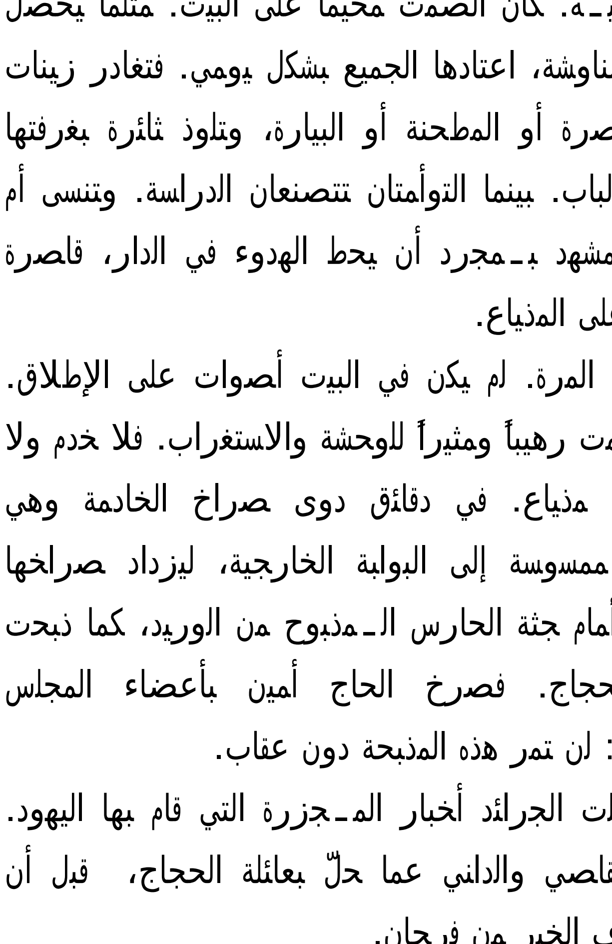
شارك لقاء بالصراخ ، وهو يلتصق بفخذ أمه مذعوراً، فنادت على المربية التي كانت تتـنصت خلف الباب، شأن التوأمتين. فجاءتـها مرتبكة. دفعت عنها لقاء الذي ازداد صراخه: خذيه للحوش. بلا يتعلم من جدته الهوش.



- يتعلم الهوش مني يا مسخوطة.
- احفظي لسانك... وإلى الخادمة: قلت ليك خذيه من هان..

حملت الخادمة لقاء، وهو يصرخ متمنعاً محاولاً الإفلات، وغادرت إلى الخارج وهي تهدىء منه: خلاص خلاص. عاوز تشوف الحصان. والا عاوز تركب عليه..

ابتعدت به إلى أقاصي البستان وهو يتلوى بين يديها محاولاً الإفلات. منادياً على أمه تارة وعلى جدته تارة أخرى. لكنه هدأ في الاصطبل ، لولا جموح جوادٍ أفلت صراخه من جديد ، فحملته إلى أقفاص الدواجن وبرج الحمام على مقربة من سكن الخدم، كي لا يصل صراخه إلى السرايا، والأهم أن لا يصل إليه صوت العراك بين ثائرة وزينات حتى لو تبادلتا إطلاق النار.



انقضت ساعتان قبل أن تعود بـه، يحمل زغلول حمام من جناحيـه. كان الصمت مخيماً على البيت. مثلما يحصل بعد كل مناوشة، اعتادها الجميع بشكل يومي. فتغادر زينات إلى المعصرة أو المطحنة أو البيارة، وتلوذ ثائرة بغرفتها موصدة الباب. بينما التوأمتان تتصنعان الدراسة. وتتنسى أم خالد الـمشهد بـمجرد أن يحط الهدوء في الدار، قاصرة انتباهها على المذياع.

هذه المرة. لم يكن في البيت أصوات على الإطلاق. كان الصمت رهيباً ومثيراً للوحشة والاستغراب. فلا خدم ولا سادة ولا مذياع. في دقائق دوى صراخ الخادمة وهي تـهرب ممسوسة إلى البوابة الخارجية، ليزداد صراخها وذعرها أمام جثة الحارس الـمذبوح من الوريد، كما ذبحت عائلة الحجاج. فصرخ الحاج أمين بأعضاء المجلس الإسلامي: لن تمر هذه المذبحة دون عقاب.

تناقلت الجرائد أخبار المـجزرة التي قام بها اليهود. فعرف القاصي والداني عما حلّ بعائلة الحجاج، قبل أن يسمع سيف الخبر من فرحان.

ظل ساهماً مأخوذ الحال، لأيام ثلاث. بينما تتولى تمام رعاية لقاء ومربيته المصرية التي ع

عمل لها التمائم والحجب وكي النار قبل أن يغادرها عفريت الرعب الذي استولى على كيانـها وهي تعيد وتكرر وصف المشهد المروع.

كانت أم خالد تقتعد كرسيها ملطخة بالدماء، وقد ارتخت يداها على المتكئين، بينما رأسها المقطوع يستند على رقبتها إلى ظهر الكرسي، وكأنها بوغتت بالرعب فسكنت حواسها وشلت قدرتها على المقاومة والاستنجاد، أو أن ذابحيها تلهو بإعادة تركيبها. وعلى مقربة منها تمدد على الأرض جسدا التوأمتين منحورتين من العنق، وقد تركت أحذية متربة آثارها على صدريهما. كان رأساهما باتجاه عمود الصالة حيث ربطت ثائرة، فاستقام جذعها مرتخي الصدر والرأس مما أخفى أثر النحر في عنقها الملطخ بالدماء.

وحده سيف تخيل المنظر وهي تشاهد بأم عينيها نحر ابنتيها قبل أن يأتي الدور عليها. أما زينات التي نجت من النحر، فقد سحقت حوضها ضربات فأس صاعقة، وكأن

مهاجميها ينتقمون من الرحم الذي أنجب وحيدها. بينما أطلق الرصاص على الخدم والطهاة.

الشيء الغريب الذي لاحظه أبو جبران، انحطاط عزيمة سيف وانطوائه في غرفته على عكس فرحان، الذي عمل الجميع استطاعتهم لتهدئته وهو يتفلت من أجل الانتقام.

بعد أربعة أيام ، تفاجأ فرحان بسيف يـخرج من عزلته. قال : الغضب مصيدة يا بـو مرزوق.

- ما تروح ليهم. با ما تروح.

- خليني هلأ أأمن لقاء. وبعدين بنشوف شو اللي بنقدر نسويه.

رافق أبو جبران، المربية ولقاء إلى بيروت، ومنها بالسفينة إلى الإسكندرية ثم القاهرة. تولى كل شيء نيابة عن سيف، فاستأجر للطفل ومربيته سكناً في الزمالـك، مجاوراً لسكن عائلة صحفي مصري يعمل في جريدة الجهاد الوفدية، عرفه أبو جبران من خلال المراسلات. كان قد عرف، ومن خلال الصحافة ، بما حل بعائلة الحجاج، فتولت العائلة رعاية لقاء كابن لها. أما المربية التي روع المشهد كيانـها، فباتت تخاف على لقاء من نسمات الهواء. ومن فترة لأخرى

يصلها مبلغ يرسله في البريد أبو جبران ، الذي رفض التخلي عن الزفير والعودة إلى لبنان، كما اقترح عليه سيف. فاليهود ابتدأوا حربـهم المسلحة العنيفة الآن. اكتفوا بما اشتروه من أراضٍ ، واكتفوا بـما وصلهم من سلاح. يريدون الآن تخويف الفلسطينين بالإرهاب. لا يهتم سيف بالزفير بعد اليوم. الكلمة للسيف وليس للكلام.

مع هذا واصل أبو جبران إصدار الزفير، بينما اختفى سيف عن الأنظار، ولم يعد يظهر إلا في المباغتات الخاطفة التي يشنها على المستوطنات اليهودية ومعسكرات الانجليز. بينما السلطات تعلن عن مكافأة وراء مكافأة لقاء رأسه. وهو يندفع لتصفية السماسرة المتعاونين مع اليهود، بوحشية لا تقل عن وحشية مهاجمته لليهود. وصار اسم سمسار تـهمة عقابـها الإعدام. فتخلى الحاج أمين عن نـهجه السياسي، وتنادى مع العائلات والأحزاب، لتشكيل هيئة عربية عليا، أخذت على عاتقها مسؤولية المقاومة بكل الوسائل، وهذا ما كانت تنتظره الأقلية اليهودية، لحسم معركتهم بـمساندة الانجليز، قبل أن يغادروا مع انتهاء الانتداب. فأضافوا إلى مجزرة الحجاج هجمات عديدة نكلوا فيها بعائلات رموزٍ

وطنية كثيرة، في مباغتات مباشرة ، أو بتفجير البيوت فوق ساكنيها، لتمتد المواجهات المسلحة بين العرب من جهة ، واليهود بدعم انجليزي مباشر من جهة أخرى طيلة أعوامٍ ثلاثة .

التأم الصدع بين الحاج أمين وسيف الحجاج، منـذ إعلان الإضراب الذي استمر ستة أشهر، تخللته أعمال عنف متبادلة بين العرب واليهود، تـمخضت عن مئات القتلى وآلاف الجرحى. فأعلنت الحكومة البريطانية حالة الحرب في فلسطين ووضعت قوانين الدفاع والطوارىء موضع التنفيذ، بعدما هوجمت ثكناتـها ومخافرها ودمرت طرق مواصلاتـها. ولاسيما خطوط سـكة الحديد، فجاءت التعزيزات من مالطـا وقبرص والسويس والحبانية. وتبدل مراراً جنرالات القيادة الانجليزية، أمام تصاعد المقاومة الـمتكاتفة في ظل الهيئة العربية العليا من جهة ، وتصاعد الهجمات اليهودية على القرى العربية من جهة أخرى. فمع أن اليهود كانون أقلية بين السكان، إلا أن سلاحهم الحديث وتدريباتـهم العسكرية الجيدة، جعلتهم قوة ضاربة في الهجوم والدفاع.

ازداد الوضع خطورة على الانجليز مع تدفق المتطوعـين من دول الجوار. رغم الحاجز الأمني لقوات الفيلق العربي وجنود جلوب الذين استحكموا على الـمعابر المائية على امتداد نـهر الأردن. إلا أن ذلك لم يحل دون تسلل المتطوعين . فوصل فرحان مع نـهاية الربيع إلى يعبد، يرافقه عشرون متطوعاً من البدو والفلاحين. وتجاوزت الحدود في حزيران " فرقة الزوبعة" في سبعين مقاتلاً على رأسهم جبران يساعده بكر في إدارة العمليات. وفي تموز وصلت قوة عراقية بقيادة فوزي القاوقجي. فاستشاط أنور غضباً، وصرخ بانفعال في وجه سميحة، بأن الملك وراء القوة: جيوش ما تقدر تقف قدام الانجليز، مش حفنة عصابات مسلحة بالخيزرانات. فتشيح عنه سميحة بعدما صار الشرخ يتنامى بينهما منـذ موت فيصل، وتهميش دور أنـور الذي أبعده العهد الجديد عن الوزراة وحوله إلى مستشار وزاري لا يستشار.

فمنذ تولي غازي العرش، وأنور يتخبط في أحكامه وأقواله. تارة يقول ان الحق لا يؤخذ إلا بالقوة، وتارة أخرى يندد بأي مقاومة للانجليز. كان عاجزاً عن التوفيق بين ولائه

لهم وطموحـه في البلاد. فالـملك يكره الانجليز ويدير بنفسه محطة إذاعة معادية لهم. والانجليز، رغم قواعدهم العسكرية في العراق، باتوا مع النظام الجديد دونما سلطة سياسية، بعد تـهميش أنور وأتباعه: إنتْ زعلان، لأنوه الملك يتحدى الانجليز، والا لأنوه ما استشارك بالقوة اللي دزها لفلسطين.

- إش تقولي يا بنت الحلال. أنا أقول الصح واعرف النتيجة. المعركة مع الانجليز خاسرة .

- يعني نترك فلسطين لليهود.

- ما قلت نتركها لليهود. نحصلها. بس برضى الانجليز. مو بمحاربتهم.

استحسن الملك الاقتراح، بأن يـجري أنور اتصالاته مع الأطراف. فالمعركة ، أي معركة، لها ذراعان. إحداهما تصافح والثانية تكافح. قالت له سميحة: قلبك لوين مايل يا بو ماجد.

- قلبي يـميل لعقلي وبس.

- لويش لعاد حاربت بـميسلون.

- الدنيا تغيرت وأنا تغيرت. والصح تقولي كبرت.

- كبرت على موت توفيق.

- توفيق. توفيق. صار لـه سنين ميت، وبعدك بتقولي توفيق.

- لسه عايش بقلبي اللي يـميل لفلسطين. الدم ما يصير ميه.

- الدم ينباع وينشري هسه يا سميحة. ما عرفت انوه عند الأميركان بنك دم. براسي، انصح الملك نسوي احنا بنك دم كمان.

- راسك راح يتعبنا كثير.

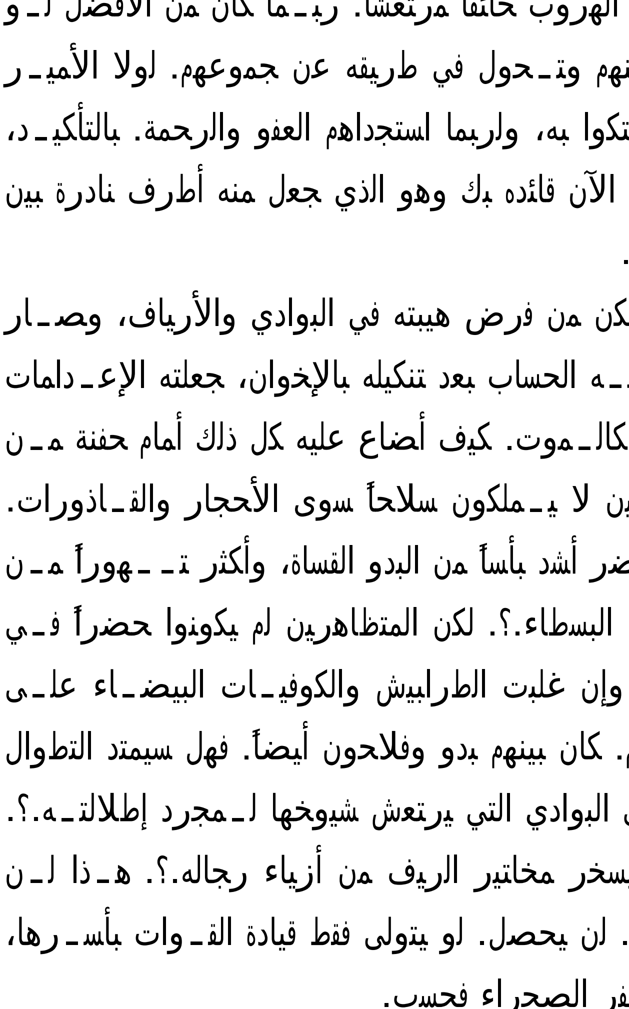
- الـمهم يضل صاغ سليم. مجنون اللي يحط راسه بين الروس ويقول يا قطّاع الرووس.

٣٠

حفرت مطاردة أهالي عمان لـه ورميـه بالأحجـار والقاذورات، جرحاً لا يندمل في قلبه . توقف بعـدها عـن التعريض بقائده بك والتندر بـحبسه مع الدواب في مـراح زعل. هذه الحادثة أهون بكثير من هروبة وسط الشارع طلباً للنجاة. خبا في نفسه إيقاع الرهبة والسطوة والسـيادة لفتـرة طويلة، ليحل محلها شعور بالنقمة على عرب فلسطين وتزايد تعاطفه مع اليهود ومساعدتـهم للوصول إلى دولتهم التـي يسعون لإقامتها.

مرة واحدة صار طرفاً في القضية الفلسطينية، بعـدما كان يظـن أنه مراقب لأحـداثها. فالنضـال العربـي فـي فلسطين، لم يعد بنظره موجهـاً ضد اليهـود ولا سـلطات الانتداب، وإنما موجه ضده شخصياً. يسرق منه حلمـه فـي بناء مجده وكتابة اسمه في سجل التاريخ الانجليزي العظيم.

آخذ نفسه مـراراً علـى تـهوره بتحديـه السـافر للمتظاهرين. لو كان حصيفاً لتصدى لهم بفرسـانه وأسـقط قادتـهم برصاصه. مهما ستؤول اليه النتيجة، تظـل خيـراً



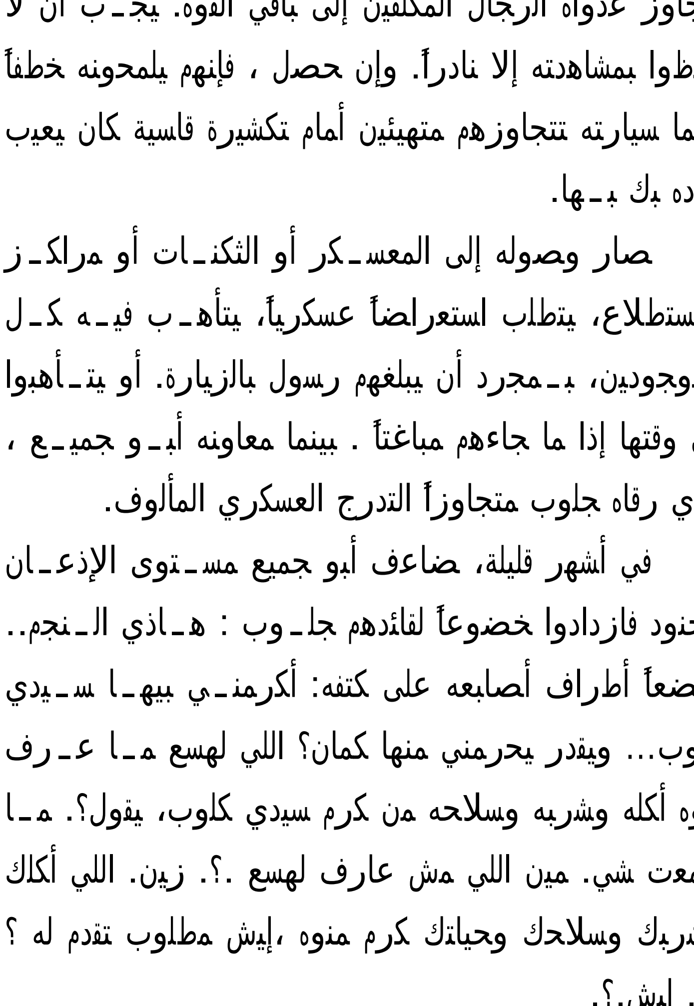
له من الهروب خائفاً مرتعشاً. ربما كان من الأفضل لو أشاح عنهم وتحول في طريقه عن جموعهم. لولا الأمير شاكر لفتكوا به، ولربما استجداهم العفو والرحمة. بالتأكيد، يتندر به الآن قائده بك وهو الذي جعل منه أطرف نادرة بين الفرسان.

تمكن من فرض هيبته في البوادي والأرياف، وصار يحسب له الحساب بعد تنكيله بالإخوان، جعلته الإعدامات مرهوباً كالموت. كيف أضاع عليه كل ذلك أمام حفنة من متظاهرين لا يملكون سلاحاً سوى الأحجار والقاذورات. هل الحضر أشد بأساً من البدو القساة، وأكثر تهوراً من الفلاحين البسطاء.؟. لكن المتظاهرين لم يكونوا حضراً في مجملهم وإن غلبت الطرابيش والكوفيات البيضاء على جموعهم. كان بينهم بدو وفلاحون أيضاً. فهل سيمتد التطاول عليه إلى البوادي التي يرتعش شيوخها لمجرد إطلالته.؟. وهل سيسخر مخاتير الريف من أزياء رجاله.؟. هذا لن يحصل . لن يحصل. لو يتولى فقط قيادة القوات بأسرها، وليس خفر الصحراء فحسب.

لو يتقاعد قائده أو يموت. إنه أكبر عقبة تـ ـحول دون مجده. لو يتولى موقع هذا العجوز لجعل الفيلق العربي يتفوق على القوات الانجليزية نفسها في قمع الثوار وفرض الأمـ ن على امتداد أرض الميعاد. سيرفع وقتها حاجزاً مرعباً علـ ى امتداد نـ ـهر المعمدان. قطاع طرق ولصـ ـوص يسمونـ ـهم الناس ثواراً. فقط لو تناط به القيادة بدلاً من هذا العنين. لقـ د مات لورنس وماتت معه أسطورته. ماتت أكذوبة ملك العرب غير المتوج وماتت معها أغاني المومسات في ويسـ ـت آنـ د وميفير. فالنساء يبجلن الأحياء وإن لطمن الوجـ ـوه ومـ ـزقن الثياب عند الممات. مات لورنس ، وسيلحقه بـ ـك عـ ـاجلاً أم آجلاً، لتتسلط الأضواء على أسد الصحراء الجديـ ـد. جـ ـون باغوت جلوب.

انتظر بلهفة مغادرة قائده بك إلى بريطانيا في إجازتـ ـه السنوية. عمل ، قبل ذلك، على تعزيز هيبته بين رجاله.

كان قد انقلب على نفسه بعد تعرضه للضرب والإهانة في عمان. قلل كثيراً مـ ـن زياراتـ ـه للمضـ ـارب البدويـ ـة، مستعيضاً عنها بدعوة الشيوخ إليه فـ ـي معسـ ـكره. وإذا مـ ـا أنبىء عن غزو أو ثأر أو اضطرابات، يدفع رجالـ ـه بـ ـأمرٍ



حازمٍ يمرره معاونه أبو جميع إلى الرجال بانفعـال ووجـل تتجاوز عدواه الرجال المكلفين إلى باقي القوة. يجـب أن لا يحظوا بمشاهدته إلا نادراً. وإن حصل ، فإنهم يلمحونه خطفاً بينما سيارته تتجاوزهم متهيئين أمام تكشيرة قاسية كان يعيب قائده بك بـها.

صار وصوله إلى المعسـكر أو الثكنـات أو مراكـز الاستطلاع، يتطلب استعراضاً عسكرياً، يتأهـب فيـه كـل الموجودين، بـمجرد أن يبلغهم رسول بالزيارة. أو يتـأهبوا في وقتها إذا ما جاءهم مباغتاً . بينما معاونه أبـو جميـع ، الذي رقاه جلوب متجاوزاً التدرج العسكري المألوف.

في أشهر قليلة، ضاعف أبو جميع مسـتوى الإذعـان للجنود فازدادوا خضوعاً لقائدهم جلـوب : هـاذي الـنجم.. واضعاً أطراف أصابعه على كتفه: أكرمنـي بيهـا سـيدي كلوب... ويقدر يحرمني منها كمان؟ اللي لهسع مـا عـرف إنوه أكله وشربه وسلاحه من كرم سيدي كلوب، يقول؟. مـا سمعت شي. مين اللي مش عارف لهسع .؟. زين. اللي أكلك وشربك وسلاحك وحياتك كرم منوه ،إيش مطلوب تقدم له ؟ ها. إيش.؟.

- روحي وروح عيالي سيدي.

- عال. سيدي بـدوه إياكم تتدربوا مليح. حتى يقدر الواحد فيكم لعشرة من أعاديكم .

- قول ميه سيدي.

- عفارم. بدنا إياكم أسود في الصحرا والجبل وعند البحر والنهر. إيش تقولوا.

- يعيش كلوب.

- يعيش . يعيش. يعيش.

لم يكن قد مضى على سفر بك سوى أسبوع واحد، عندما وصلت الأخبار إلى قيادة الفيلق العربي، عن تسلل نـحو مائتي رجل يرتدون الخاكي ويتسلحون بالبنادق والمتفجرات. وصلوا إلى قرية بيت راس في طريقهم إلى غابات عجلون، كما أفاد بعض أهالي القرية التي يعتاش أهلها على التهريب والوشايات. فتقدمت إلى القرية مجموعة من الخيالة، اصطدمت بالمتسللين وأوقفت تقدمهم.

أمر جلوب بتحرك القوة السيارة إلى المنطقة ، فمرر لهم أبو جميع الأمر مستفزاً مشاعرهم: مين اللي قال الواحد منكم بميه . ها مين .؟.

- آني سيدي.

- القايد ما بدوه الواحد بميه. بدوه الواحد باثنين. انتو ميه بأحسن سلاح وتركات. وهم قدكم مرتين. بس ببواريد قديمة وماشيين عا الإجرين. ورجوني همتكم أشوف.

نادى زعيم المتسللين مراراً على قوة الحدود ، مردداً أنه ليس في نيتهم الاشتباك معهم، وإنما يرومون الانضمام إلى الثوار في فلسطين. ولما تواصل الرد على نداءاتـهم بالرصاص، انقسموا فريقين، شاغل الأول قوة الحدود التي كانت ذخائرها تنفد، والتف الثاني عليها من الجانب، فما كان من الخيالة إلا تولي الأدبار.

اندفع المتسللون عبر المروج المكسوة بسنابل الحنطة على أمل الوصول إلى الأحراج قبل وصول التعزيزات لقوة الحدود. لكن جلوب، في الاستجابة مع متطلبات المعركة التي كانت بالنسبة إليه استعادة للكبريـاء ، أمر الطائرتين المتوافرتين في عمان بإسناد القوة على التعاقب ، ريثما يصل رجاله إلى المكان. فـوصلت الطائرة الأولى بينما المتسللون منـزرعون بين أعواد الحنطة كالفزاعات، وراحت تصليهم بـمدفعها الرشاش. ما إن غادرت ، حتى جاءت أخرى

لإكمال المهمة. فسقط من المتسللين نحو خمسين رجلاً بين قتيل وجريح، في معركة لم تستمر أكثر من ساعة. وصلت بعدها القوة السيارة ، فقفز البدو منها قبل توقفها وراحوا يتسابقون للفوز بأكبر عدد من الإصابات، فوقع منهم ثلاثة قتلى وترك المتسللون خلفهم عشر إصابات إضافية بين جريح وقتيل. واستطاع المتبقون الوصول إلـى أحراج عجلون ، فأمر جلوب بالتوقف عن المطاردة والعودة إلى الثكنات.

خذل هذا الأمر قوات البادية التي كان رجالها متعطشين لإثبات مقولتهم. والفتك بالمتسللين عن آخرهم. إلا أن حماسهم تأجج ثانية ، بـاستنفارهم في اليوم التالي لأخذ مواقعهم إلى جانب الفيلق العربي على امتداد الخط الفاصل بين شرق الأردن وفلسطين. ومع أن عددهم مع الفيلق العربي لم يزد على الألف رجل إلا بقليل، فقد استطاعوا بإذعانـهم السريع للأوامر، وتنقلهم بالآليات وتسلحهم بأحدث سلاح، من إثارة الرعب بين القرويين على الحدود، الذين كانوا يقدمون المساعدات للمتسللين إلى فلسطين. فبمجرد أن يحذر أحدهم أبناء قريته صارخاً " القُملْ ، القُملْ". حتى يلوذ

الفلاحون بالفرار أو الاختباء. وقد جعل جلوب من هذه الصفة حقيقة واقعة، وهو ينهك رجاله بالتمارين والمهمات دون أن يترك لهم فرصة للراحة أو الاسترخاء أو الاستحمام. ومع أن حلاقة الذقن كانت إجبارية في العسكرية، إلا أن جلوب غض النظر عن حلاقة الرأس. فطال الشعر في رؤوس رجاله، شأن بدو الصحراء، وصاروا يجدلونه تحت الحطات، وفي غياب النظافة والاستحمام، اعتاد خفر البادية القمل الذي صار سمة لهم: قُملْ، قُملْ.

- قُملْ، قُملْ. المهم أن يرهبهم الناس.

- أوه، أنور باشا. قل الكلمة مرتين في مظاهرة من ألفين، سيهربون من أمامك في دقيقتين، وكأنك فرضت منع التجول.

- السلطة من غير رهبة تصبح سلطَة يا زعيم .

- تعرفني أنور باشا من أيام العراق.

- طبعاً طبعاً. المهم .. والتفت إلى المقيم البريطاني: اعتقد أن هناك نّية لإشعال ثورة في شرق الأردن من أجل تشتيت قوة الانجليز .

- هذا لن يحصل هنا. أعدك بذلك.. قال جلوب، ونظر إلى المقيم البريطاني الذي وافقه بالإيماء، فأضاف: الوضع مستقر هنا، العشائر البدوية تحت السيطرة. وهذا هو المهم أنت تعرف أنور باشا، أن المجتمع هنا عشائري.

- أعرف بالطبع. المهم، أن تتخذوا كل التدابير، لعدم امتداد الثورة اليكم من فلسطين.

- وهل تسمي ما يجري هناك ثورة، أنور باشا.!.

- كل تمرد ثورة. أنا مع الحقوق الفلسطينية. لكن ليس بهذا العنف. كل شيء يمكن حلّه مع أعدائنا اليهود، طالما أننا نثق بعدالة الانجليز.

- الانجليز دائما عادلون. لكن العرب لا يقدرون ذلك .

- أنا عربي. أم انك لا تعتبرني كذلك .؟.

- لم أقصد أنور باشا. آسف .

انتهاء إجازة بك وعودته لتولي القيادة .حد من جموح جلوب، وإن وافقه على مشاركة قوة البادية في حراسة الحدود. وبينما قضت أوامر بك بمنع التسلل، أمر جلوب جنوده بقتل المتسللين. فمعركة الثأر لم تنته بينه وبين عرب

فلسطين. ولاسيما أن أنور أخفق في المصالحة بين الهيئة العربية العليا والوكالة اليهودية. في طريق عودته إلى بغداد التقى ثانية بجلوب. لكن، هذه المرة، بحضور بك الذي يعارض غالباً اقتراحات جلوب.

تحولت عمان إلى ثكنة عسكرية، بعد استدعاء معظم قوات الفيلق العربي وخفر الصحراء لاتخاذ مـواقعهم فـي البلادة ومنع المظاهرات التي كانت تندلع مع انتهاء الصـلاة. كما أصدر المقيم البريطاني قراراً بتعطيل المـدارس ومنـع التجمعات تحت طائلة العقاب: إش هـاد. الـدنيا خربانـة بفلسطين والانجليز ما عملوا هيك. لازم تمنع ها الحكي سمو الامير.

- أنوه الأحسن٠٠ سأل الأمير، وأضاف: نعطل الحركة ونمنع التخريب٠ والا نلاحق المتظاهرين ونعتقل المخربين٠ العدو هناك في فلسطين، والناس هان قاعدين يفشوا خلقهم بحرق مكاتب الحكومة وتفجير الأنابيب وتكسير الاتومبيلات٠ لو كنت أنا في بغـداد وملكك في عمان٠ إش يسوي ٠؟٠ احكي٠ إش تشور عليه يسوي٠؟٠

- يتحالف مع الانجليز ٠

- جاوب على سؤالي . لو كنت أنا الملك هناك، مثل ما كان متفق عليه٠ وكان فيصل ومن بعده غازي هان . إش تشور عليه بيسوي مع مشكلة فلسطين.؟. لويش سكت؟. احكي. عدم الجواب جواب يا أنور باشا.

٣١

تولى أبو جبران نقل الرسائل بين سـيف والآخـرين٠ يساعده مندوبو الزفير وموزعوها، مما سهل الأمـر، رغـم فترات حظر التجول الطويلة وتوقـف الأعمـال اسـتجابة للإضراب الذي دعت اليه الهيئة العربية العليا ٠

نشرت جريدة الكرمل صورة لسيف معتمـراً الحطـة والعقال ، في مقابلة اتهم فيها سلطة الانتداب بالانحياز لليهود وحملها مسؤولية المجازر التي أودت بالعديد من العـائلات الفلسطينية ، ومن بينها عائلته ، معتبراً التعامـل مـع هـذه السلطة جريمة ودفع الضرائب لها تشـجيعاً علـى القتـل، والإذعان لقوانينها خضوعاً للشيطان. فأغلقت الجريدة، بعدما وصلت رسالة سيف الداعية للعصيان المدني إلى كل الناس ، فاستجابت لـه العائلات الفلسطينية واحـدة بعـد الآخـرى، ليشمل الامتناع عن دفع الضرائب جموع عرب فلسطين، وما رافقه من عصيان في الأريـاف وإضـرابات فـي المـدن. ففرغت خزينة الحكومة من النقود خلال بضعة أشهر ، وكان للإضراب أثره القاتل على العديد من المحلات اليهودية التي

أعلن بعضها الإفلاس. وحرم اليهود والانجليز مـن المـواد الغذائية بعدما حذرت الهيئة العربية العليا من التعامل معهم. فعمت الفوضى صفوفهم، وتعطلت أعمالهم. كما تدنت أسعار الحاجيات، فوصل سعر البيضتين مليماً، وسعر رطل اللحـم خمسة قروش وأقة الدخان المفروم بعشرة قروش، مما سـاء معه وضع المزارعين والرعيان.

كما ساءت أحوال العمال الـذين صاروا يعيشون على الإعانات التي يأتي بها المتطوعون من شرق الأردن وسوريا ولبنان والعراق. ولم يكن أمـام قـوات الانتـداب الا فـتح المتاجر عنوة، واعتقال التجار، إضافة إلى منع التجول مـع كل تظاهرة وتعقب المتظاهرين.

ابتـدأ الأولاد في شـوارع صفد، يـرشقون الأحجار على كل من يعتمر الطربوش، تضامناً مـع الثـوار الـذين اتخذوا قواعدهم في الأرياف، فتحول أهـالي المدينـة إلـى الحطة والعقال، وحذا حذوهم سكان المدن الأخرى، فصارت قوات البوليس تطارد الحطـات دون الطرابـيش. فـدبت الفوضى في مؤسسات الانتداب التي كان الكثير من موظفيها

المدنيـين قرويـين يعتمرون الحطات. فكانت البداية لعـادة كشف الرأس بعد أن كانت عيباً على الكبار والصغار.

فجأة، تحولت المدن العامرة إلـى طرقـات مهجـورة وبيوت ساكنة ومـحلات مقفلة الأبواب. تندلع الـمظاهرات حيناً لتشتبك مع الانجليز بالأحجار، وحيناً يتحول الاشـتباك إلى تبادل لإطلاق النار ثم يسود الهدوء وتتوقف الحركة، إلا من دوريات الانجليز التي فتحت الموانىء أمام المهـاجرين اليهود، بمثل ما سهل جلوب تـ ـهريبهم عبـر النهـر فـي شاحنات عواد النمر. بينما يلاحق المتسللين العرب ويعتقلهم ، وفي أحيان كثيرة يتم قتلهم قبل التحقـق مـن هـويتهم أو هدف تسللـهم. لكن ذلك لـم يمنـع مـن وصـول مئـات المتطوعين من شرق الأردن للانضمام إلى المقاتلين غـرب النهر، تحت مظلة الهيئة العربية العليا التي تولت الزمام.

صار للفلسطينيي قيادة واحدة أخـذت علـى عاتقهـا مواصلة الإضراب، وتوجيه الفصائل الـمقاتلة ضد اليهـود والانجليز. وصار الحاج أمين يتقلد شعارات القسام، رافضـاً أي حوار مع الانجليز إلا بتحقيق مطالب الهيئة فـي وقـف الهجرة اليهودية والغاء القوانين التي تسهل نقل الأراضي لهم

وتقييد حركتهم وتسليحهم، وهي الأمور التي كانـت القيـادة الانجليزية ترفضها جملة وتفصيلاً.

مرة أخرى، يـجد سيف نفسه في ظل قيـادة الحـاج أمين، يتلقى منه التعليمات لتنسيق جهوده مـع مجموعـات الـمقاومين، ويتزود منه بالسلاح والعتاد وأخبار العمليـات القتالية التي اندلعت في كل أرض فلسطين.

لم يفاجئه وصول فرحان مع ثلة من المتطوعين الشرق أردنيين. بل كان يتوقع ذلك وينتظره. لكن المفاجـأة كانـت بالرسالة الأخيرة التي بعثها أبو جبران بإيعاز مـن المفتـي للانتقال إلى الشمال واستقبال قوات الزوبعة القادمة من لبنان في وادي الطواحين غرب صفد.

كانت السفوح شديدة الانحدار مغطاة بـدوالي العنـب وأشجار الزيتون، تتخللها خوانق كلسية ومغاور عميقة وقـد توزعت الطواحين قرب الينابيع.

في المغاور المنيعة استحكم سيف مع ثلاثين مقاتلاً من القساميين، ليصبح عددهم مئة مع وصول القوميين .

كان اللقاء حاراً بين سيف وجبـران، تخللـه إطـلاق رصاص مجاني، ندم المطلقون بعدها على إهداره.

استجاب القوميون لرأي سيف المتوافق مـع تعليمـات الحاج أمين، فانقسـموا إلى فريقين. يتجه الأول بقيادة جبران إلى بيت سوريك شمال غرب القدس، للانضمام إلى قـوات عبد القادر الحسيني. بينما يبقى الفريق الثاني مع سيف لقطع طرق المواصلات التي تربط أقليم صفد بالجليل.

قال بأن عدد رجاله وفقر سـلاحهم لا يسـمح لـه بالمواجهة المباشرة. لهذا سيعتمد المباغتات الخاطفة لإنـزال أكبر قدر من الخسارة بالعدو، مقابل أقل خسـارة مـمكنة بين رجاله المعددوين .

بعد يومين غادر جبران مع قوات الزوبعة بإرشاد أدلاء قساميين إلى بيت سوريك فالتقى هناك مع فرحان، وبقي بكر مع الفريق الثاني من القوميين في وادي الطواحين. يتـدارس مع سيف طوبوغرافية المنطقة ومواقع المستوطنات اليهودية واستحكامـات القوات الانجليزية.

بالنسبة لـه ، كعسكري، فإنه من الضـروري تـأمين طريقة الانسحاب قبل الشروع بالاقتحام، وهو ما لم يفكر به سيف أو يقلقه. كان تواقاً للثأر فحسب.

تحركوا في مجموعات ثلاث تبعـت بعضـها بشـكل لولبي، حسب ارشادات بكر، ليلتقوا ليلاً في مخارج مسـاكن آل الخضرا المطلة على برج الساعة، حيـث تقـوم سـرايا الحكومة.

كان الهدف من الهجوم تحرير مئتي معتقل تحتجـزهم قوات البوليس بسبب إلقاء قنبلة في حارة اليهود، قتلت رجلاً وأولاده الثلاثة. بينما التجأ الشاب الذي ألقى القنبلة إلى وادي الطواحين ليتقدم سيف ورجاله عبر المعـابر الآمنـة إلـى المدينة.

تعثروا بباص يهودي متجه من صفد إلى الجاعونة فلم يؤثر على مسارهم، إذا قضوا في دقائق على ركاب البـاص بمن فيهم صاحب الفندق اليهودي المشـهور " كلينغـر " . فوصلوا إلى صفد بينما قوات البوليس تبحث عن الفاعلين في ضواحيها. لكن أمراً آخر جعلهم يتحولون عن هدفهم .

استحكموا في مشارف المدينة حتى الثامنة لـيلاً، ثـم تسللوا عبر أزقة منحنية مبلّطة برداءة . تجاوزوا بصـعوبة حارة الوطاة وبين كل مجموعة مسافة دقيقة إلى دقيقتين. ما إن انكشفت أمامهم حارة البرج بأضواء الكهرباء، حتى هالهم

حجم قوت البوليس المتوزعة في اسـتحكامات آليـة تجعـل الوصول إلى سرايا الحكومة أشبه بالانتحار. قال بكر بأنـه كان من الخطأ مهاجمة الباص. فلم يعلق سيف، وإنما سـأل الشاب الصفدي عن حارة اليهود.

تراجعوا إلى الشمال الغربي، بينما الطرقات والأزقـة هادئة ساكنة، وقد لاذ الجميع في بيوتهم خشية الاعتقال فـي وضع آيل للانفجار. أشار الصفدي إلى محلة الاشـكنازيين حيث تقوم حارة اليهود بمساكن أشـبه بالزرائـب، تنفـرج جدرانها وأسقفها المهترئة عـن كـوات مظلمـة سـوداء. وتتقارب حيطانها إلى درجة استطاعت مجموعة سيف مـن السير على أطرافها، بينما تنبعث من الأزقة الضيقة أمامهـا روائح كريهة بسبب المياه القذرة الراشحة من بيوتها. وكان الدليل الصفدي ملماً بالحي، يعرف كيفية تجـاوز خطـورة الدرجات الصغيرة الضيقة، قبل أن يتوقف بهم أمـام بيـت الحاخام.

اقتحموا عليه بيته المتواضع الهزيل، فكـان منهمكـاً بقراءة التوراة وقد وضع قبعة سوداء متسـخة تـدلت مـن طرفيها جدئله الطويلة وحول جسده رداء أسود متسخ تنبعث

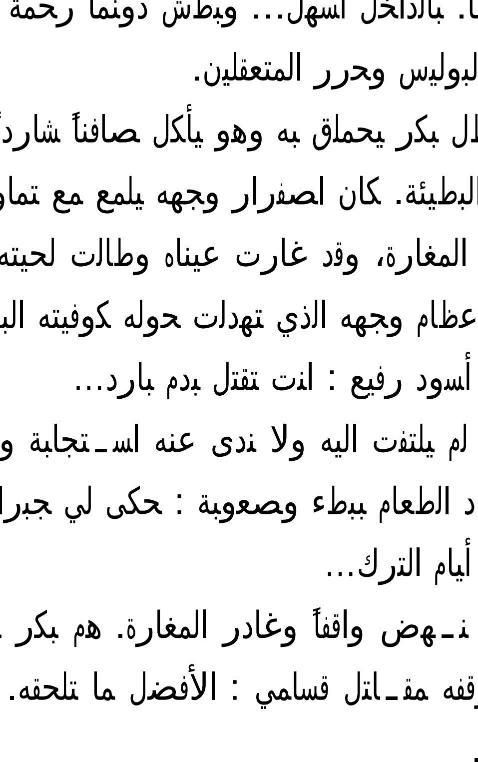
منه رائحة كريهة. كان في زهده قد آثر المجيء من بولونيا ليموت في صفد المقدسة كما قال لآسريه. أمنيته الموت في صفد. فمنحه إياها سيف بأعصاب باردة ونفس هادئة وهـو ينحره مع زوجته وأبنائه، أمام ذهول بكر ودهشته واستكبار فعلته: كله تمام.. وتحول عن بكر الذي ظل يحملق مأخوذاً به. وما أن وصلوا قواعدهم، حتـى كانـت الأوامـر قـد صـدرت إلى قوات البوليس للاقتصاص من الفاعلين، فأحكم الحصار على وادي الطواحين.

في الليلة نفسها تردد صدى الرصاصة التي أطلقها عبد القادر في كل أنحاء فلسطين، ووصل إلى وادي الطـواحين المحاصر بأكثر من خمسمئة جندي ورجل بوليس، وكأن عبد القادر في إعلانه الثورة قد فك الحصـار عـن القسـاميين والقوميين، إذ صدرت الأوامر للجنود بـالتحول عـن وادي الطواحين والتحرك إلى وسط فلسطين. فغيـر بكـر خطتـه الدفاعية، الى خطة هجومية، اندفع بموجبها الرجال إلى صفد المحاطة بشوارع دائرية انتصبت على جوانبها بيوت حجرية من طابق وطابقين، سقف بعضها بالقرميد ومال سقف بعض

آخر باتجاه سرايا الحكومة التي تعاقبت عليهـا حضـارات وتنازعتها جيوش وشعوب ٠

كانت الحركة في سبات والأصـوات غائبـة إلا مـن حشرات الليل، والشوارع نائمة إلا مـن أضـواء الكهربـاء والطقس حائر بين بهجة الصيف ووحشة الشتاء، وحـراس السرايا عرباً كانوا أم انجليز أم يهود، يحتمـون بالأسـوار الجيرية من خلفهم أو يحمونها٠ يمتد أمامهم ظـلام عميـق كالفضاء ، بعدما انحسـرت يقظـتهم وانكفـأوا مستسـلمين للنعاس: بالسكاكين٠٠ قال سيف هامساً، فلمح في عيني بكر تساؤلاً أقرب إلى الذهول٠ أنه عسكري تدرب علـى فنـون القتال، لكنه لم يخبر النـزال٠شارك في مطاردة المتسـللين والتحقيق معهم، كما شارك في قمع المتظـاهرين. أمـا الآن فالوضع جديد كل الجدة: يمكن يكونوا عرباً.. همس متردداً.

- يمكن... قال سيف وهو يشير بيده إلى رجاله الـذين اعتادوه واعتادهم، فابتعد ثلاثة منهم شرقاً ومثلهم غربـاً: إذا طخوا، طخ .. قال لبكر، وهو يرتقي جانب الطريق الواطىء ليستقيم عليها جذعه. لكن رجاله كانوا أسرع منه في الالتفاف على الحرس من الجانبين وتسديد الطعنات القاتلة: شايف، ما

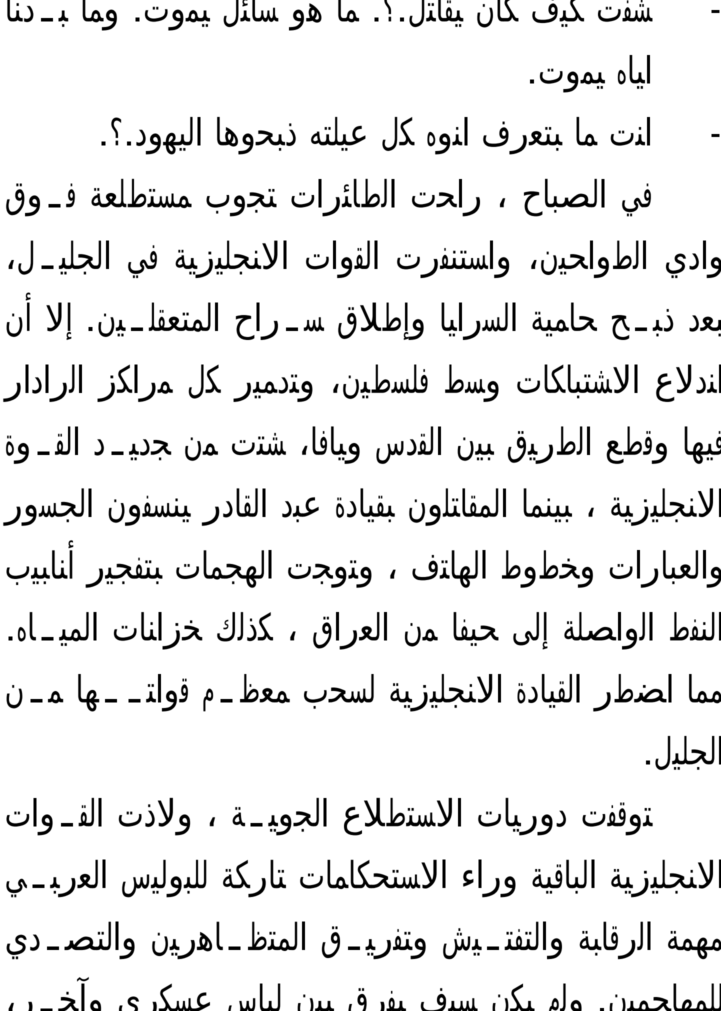


أسهلها. بالداخل أسهل... وبطش دونما رحمة بكل من يرتدي زي البوليس وحرر المتعقلين.

ظل بكر يحملق به وهو يأكل صافناً شارداً لا يكاد يزدرد اللقم البطيئة. كان اصفرار وجهه يلمع مع تماوج لهب النار داخل المغارة، وقد غارت عيناه وطالت لحيته وانكمش الجلد على عظام وجهه الذي تهدلت حوله كوفيته البيضاء تحت عقال أسود رفيع : انت تقتل بدم بارد...

لم يلتفت اليه ولا ندى عنه استجابة وهو يواصل ازدراد الطعام ببطء وصعوبة : حكى لي جبران أنوه بيك انعدم أيام الترك...

نهض واقفاً وغادر المغارة. هم بكر باللحاق به، فاستوقفه مقاتل قسامي : الأفضل ما تلحقه. الصبح بكون رايق.



- شفت كيف كان يقاتل.؟. ما هو سائل يموت. وما بـدنا اياه يموت.
- انت ما بتعرف انوه كل عيلته ذبحوها اليهود.؟.

في الصباح ، راحت الطائرات تجوب مستطلعة فـوق وادي الطواحين، واستنفرت القوات الانجليزية في الجليـل، بعد ذبـح حامية السرايا وإطلاق سـراح المتعقلـين. إلا أن اندلاع الاشتباكات وسط فلسطين، وتدمير كل مراكز الرادار فيها وقطع الطريق بين القدس ويافا، شتت من جديـد القـوة الانجليزية ، بينما المقاتلون بقيادة عبد القادر ينسفون الجسور والعبارات وخطوط الهاتف ، وتوجت الهجمات بتفجير أنابيب النفط الواصلة إلى حيفا من العراق ، كذلك خزانات الميـاه. مما اضطر القيادة الانجليزية لسحب معظـم قواتـها مـن الجليل.

توقفت دوريات الاستطلاع الجويـة ، ولاذت القـوات الانجليزية الباقية وراء الاستحكامات تاركة للبوليس العربـي مهمة الرقابة والتفتـيش وتفريـق المتظـاهرين والتصـدي للمهاجمين. ولم يكن سيف يفرق بين لباس عسكري وآخـر، طالما أنـها تحمل الشارة نفسها والسلاح نفسـه وتأتـمر

بالأوامر نفسها. فتسـاوى عنـده الانجليـز مـع حلفـائهم والمتعاملين معهم، وهو يطلق النار أو يمزق هـذه الثيـاب بالخنجر او الرصاص. بـمثل ما يزرع معابر المستوطنات الحصينة بالمتفجرات. وفي أقل من شهر، حذا بكر حـذوه، ملقياً عنه معارفه العسكرية ودراساته القتالية ، بعدما سـقط عشرة قتلى من رفاقه القوميين، فغدا الثـأر مرشـداً لـه وهادياً. وغدا القتل دفاعاً عن الحياة، ولو بالممات. وكانوا في انتصاراتـهم يستولون على أسلحة أعدائهم، وفي هـزائمهم يخسرونـها لهم. واستمرت المعارك بين كرٍ وفر وهجـوم ودفاع ، تلّون بالدماء الشوارع المعبدة والسـهول المسـنبلة والهضاب الـمشجرة والوديان الخضراء والجـرداء، فـي مقاومة دمرت البيوت وأحرقت الحقـول وفتكـت بمالكيهـا ومستأجريها ومحتليها ومغتصبيها. بالقدر نفسه الذي أربكـت مناطق الجوار، بعدما صار عبور النهر مأثرة أهلها الكبـار والصغار، وما أن أعلن القوميون السوريون عـن استشـهاد قائدهم العسكري، جبران ، حتـى تزلزلـت الأرض تحـت أقـدام سلطات الانتداب. خشية أن تتحول المعركة الفلسطينية

إلى معركة قومية، ولاسيما أن العداء يتفاقم ضـد الانجليـز والفرنسيين في ألمانيا النازية .

وكشأنـها دائماً، أسرفت بريطانيا في الوعـود لقـاء السكينة والهدوء ، فأعلن المفتي باسم الهيئـة العليـا وقـف الإضراب وتوقف الاشـتباكات، اسـتجابة لنـداء الزعمـاء العرب:

لقد شعرنا بألم عميق إزاء الوضع الحالي في فلسطين. ولهذا السبب اتفقنا مع إخوتنا الملوك والقادة على دعوتكـم إلى الوقوف في صف السلام، في سبيل وقف الـمزيد مـن إراقة الدماء. وحين نفعل هذا، إنما نعتمد على النوايا الطيبـة لصديقتكم بريطانيا العظمى التي أعلنت اعترافهـا بتحقيـق العدل. عليكم أن تثقوا بأننا سنستمر في بذل الجهود الراميـة إلى مساعدتكم".

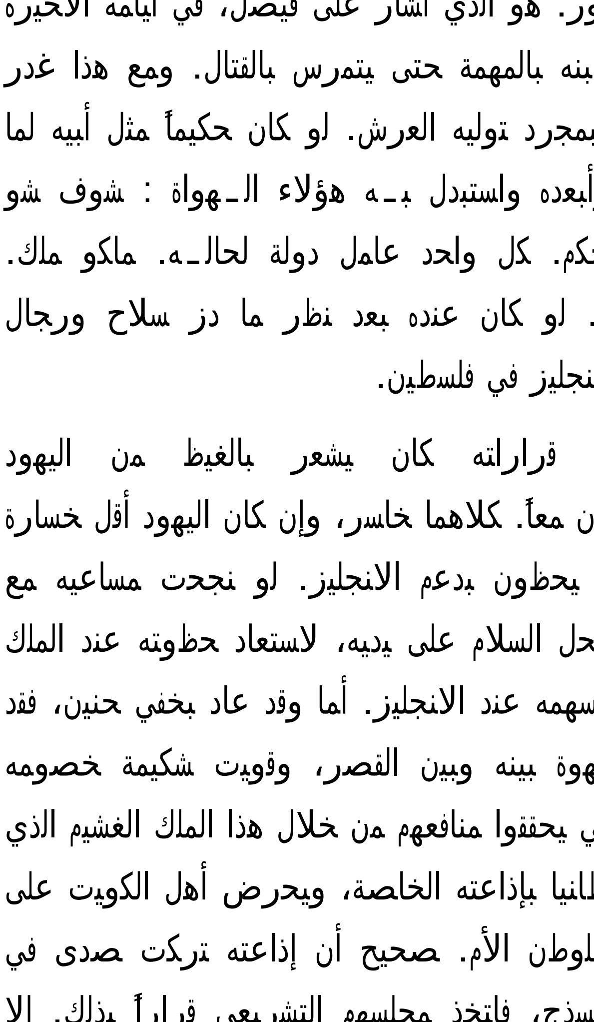
الفصل الثالث

١

استكانت مطامح أنور طيلة فترة حكم غازي . كفت يده عن التدخل في شؤون الدولة وإدارة البلاد. أبعد عن الحكومة بعدما جمع الملك حولـه مستشارين آخرين معادين للانجليز، فتخال أنور اليأس والإحباط وهو يحس بالكبر أحياناً، وبالعجز والشيخوخة أحياناً أخرى. يجتر أمجاد ماضية أمام زوجته وابنه ماجد الذي أنهى دراسته الثانوية والتحق بمدرسة الأركان.

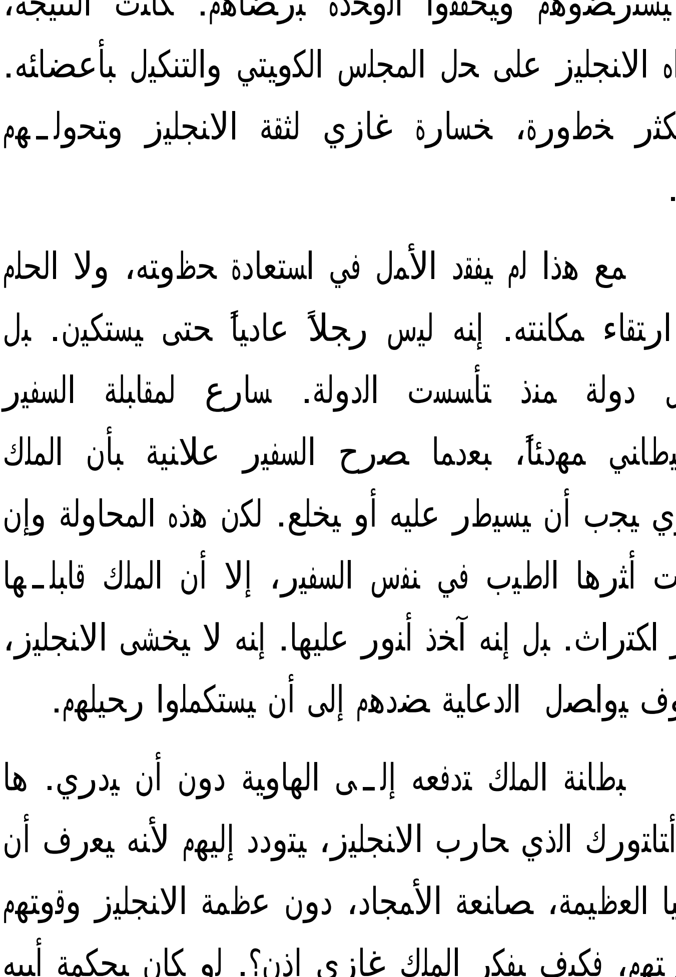
اختار لـه أبوه الجيش لأن السلطة في العراق، كما يؤكد دائماً، رهن الإرادة العسكرية. إنها الرافد الأول للإرادة السياسية. دهاء فيصل وقدرته تعلمها من قيادته للجيوش العربية إبان الثورة. إنه نفسه يعتبر المؤسسة العسكرية مدرسته الأولى.

لو كان للملك غازي تجربة عسكرية مثل أبيه لما جمع حولـه هذه البطانة التي ستقود البلاد إلى الدمار، إن لم تكن قادتها إليه وقضي الأمر. ازدياد شعبيته إثر قضائه



على ثورة الأثوريين واستخدام الشدة معهم، لم يكن ليحظى بها لولا أنور. هو الذي أشار على فيصل، في أيامه الأخيرة أن يكلف ابنه بالمهمة حتى يتمرس بالقتال. ومع هذا غدر غازي به بمجرد توليه العرش. لو كان حكيماً مثل أبيه لما كف يده وأبعده واستبدل بـه هؤلاء الـهواة : شوف شو صاير بالحكم. كل واحد عامل دولة لحالـه. ماكو ماك. ماكو دولة. لو كان عنده بعد نظر ما دز سلاح ورجال يحاربوا الانجليز في فلسطين.

في قراراته كان يشعر بالغيظ من اليهود والفلسطينيين معاً. كلاهما خاسر، وإن كان اليهود أقل خسارة طالما أنهم يحظون بدعم الانجليز. لو نجحت مساعيه مع الطرفين وحل السلام على يديه، لاستعاد حظوته عند الملك وارتفعت أسهمه عند الانجليز. أما وقد عاد بخفي حنين، فقد زادت الـهوة بينه وبين القصر، وقويت شكيمة خصومه المرائين كي يحققوا منافعهم من خلال هذا الملك الغشيم الذي يهاجم بريطانيا بإذاعته الخاصة، ويحرض أهل الكويت على الانضمام للوطن الأم. صحيح أن إذاعته تركت صدى في الكويتين السذج، فاتخذ مجلسهم التشريعي قراراً بذلك. إلا



أنهم، شأن غازي، الأكثر سذاجة، آثاروا الانجليز، بدلاً من أن يسترضوهم ويحققوا الوحدة برضاهم. كانت النتيجة، إكراه الانجليز على حل المجلس الكويتي والتنكيل بأعضائه. والأكثر خطورة، خسارة غازي لثقة الانجليز وتحولـهم عنه.

مع هذا لم يفقد الأمل في استعادة حظوته، ولا الحلم في ارتقاء مكانته. إنه ليس رجلاً عادياً حتى يستكين. بل رجل دولة منذ تأسست الدولة. سارع لمقابلة السفير البريطاني مهدئاً، بعدما صرح السفير علانية بأن الملك غازي يجب أن يسيطر عليه أو يخلع. لكن هذه المحاولة وإن تركت أثرها الطيب في نفس السفير، إلا أن الملك قابلـها بغير اكتراث. بل إنه آخذ أنور عليها. إنه لا يخشى الانجليز، وسوف يواصل الدعاية ضدهم إلى أن يستكملوا رحيلهم.

بطانة الملك تدفعه إلـى الهاوية دون أن يدري. ها هو أتاتورك الذي حارب الانجليز، يتودد إليهم لأنه يعرف أن تركيا العظيمة، صانعة الأمجاد، دون عظمة الانجليز وقوتهم وقدرتهم، فكيف يفكر الملك غازي إذن؟. لو كان بحكمة أبيه لتعلم من أتاتورك كيف ينهض القائد بأمته من تحت الركام

ليبعث فيها الأمجاد. لو كان مثل أبيه، لبكاه الشعب في موته مثلما بكى أباه من قبله، ولأنشدته الجماهير مجده، مثلما فعل الأتراك وهم يحتشدون مودعين أباهم، حافظين عهده وفضله وعزه:

ذروة الـجبل لفتهـ ـا الغيـوم   والنهر الفضي يسيل

دون توقف

مات أتاتورك وصان الأتراك ذكراه في كل طريق وبيت ومؤسسة. مات أتاتورك، وما يزال يحكم تركيا. مات أتاتورك كالقديس. لم يهن شأنه في حياته مثل نابليون، ولم يمس أحد رفاته بعد موته مثل كرومويل. عاش عزيزاً وظل بعد موته أسطورة، فكيف عاش ومات غازي .؟. عاش متهوراً ومات مخموراً. بهذه الكلمات يجب أن تختصر قصة غازي. بهذه الكلمات يتم تهدئة النفوس التي اهتاجت لموته وقتل بسببها القنصل الانجليزي في الموصل.

كان أنور يدرك قوة الإشاعة وسرعة انسيابها. إنها بسرعة تيار الكهرباء في أسلاك النحاس، ولا تقل صدمتها أثراً عن صعق الكهرباء. إنها تشل التفكير وتسبب الذعر والحيرة والارتباك، وأحياناً تؤدي إلى الوفاة. فبينما الخائفون

على نفوذهم يستثيرون الشعب عبر إذاعة برلين، باتهام الانجليز في مقتله، مستغلين وقوع الحادث في طريق لا تتجاوز كيلومتراً واحداً بين داره وإذاعته. يؤكد أبناء العشيرة الماسونية بأنه قتل مخموراً في حادث سيارة قادها بـجنون إثر سهرة مجون.

المهم، مات غازي. والمهم أن ابنه القاصر سيظل قاصراً، حتى لو أبلغ وانتهت وصاية خاله الأمير عبد الإله. لأن المهم بالنسبة لأنور، استعادة حظوته التي فقدها طيلة تولي غازي. استعاد كيانه الآن. ليس بسبب علاقته الشخصية بالأمير عبد الإله وثقة الأمير بحكمة أنور ودهائه فحسب. بل لأستاذية أنور في محفل العشيرة الماسونية. وكثيراً ما وسم عبد الإله بالتلميذ النجيب لأنور. دون أن يقصد من قول ذلك الرابطة الماسونية، وإنما لهيمنة أنور ونفوذه عليه وتوجيهه كيفما يريد.

أما المحفل الذي يشترط على منتسبيه الابتعاد عن الانتماءات السياسية والدينية، فقد ضم العديد من السياسيين ورجال الدين. كلمة سياسة عند الماسونيين لـها معان عديدة. فالانتماء السياسي يختلف عن إدارة المنصب

السياسي. العشيرة تجتذب السياسي لإدارته وليس لانتمائه. أما العسكر، فمحظور عليهم العمل السياسي. لذا كان تركيز المحفل كبيراً على استقطابهم. وفّر ذلك للأمير عبد الإلـه سنداً كبيراً في المؤسسة العسكرية، مما ساعده في القبض على زمام الأمور. وكشأنه دائماً، اختار أنور منصب نائب رئيس الوزراء، ليقبض على الزمام من وراء الستار. مع هذا كان الوزراء بأسرهم، والشعب على اختلاف طوائفه وطبقاته وتوجهاته، يعرفون بأن أنور هو الرجل الأقوى، لما يتمتع به من دعم ولي العهد، الوصي على العرش، وثقة الحكومة البريطانية. قال في مجلس الوزراء، بأنه لو كان لديه أدنى قناعة بانتصار الألمان، لكان أول من يسدد مسدسه على الانجليز. لكنه متأكد من هزيمة الألمان. ليس هذا فحسب . بل كان متأكداً من انهيار ميثاق الصداقة الروسي- الألماني. وأن هتلر سيقترف خطأ نابليون المميت، ويهاجم الاتحاد السوفياتي، وأن أمريكا ستدخل الحرب إلى جانب الحلفاء عاجلاً أم آجلاً.

احتار الوزراء بأقوالـه الحازمة الجازمة. وسواء أكان يتنبأ بذلك، أم لديه معلومات أكيدة حول الموضوع، فإن

المجلس رفض اقتراحه بإعلان الحرب على ألمانيا. وافقه فقط، على قطع العلاقات الدبلوماسية معها.

تمادى أنور في إثبات ولائه للانجليز، بدفع الوصي على العرش إلى إرسال فرقتين عسكريتين تؤلفان ثلث الجيش العراقي، للقتال مع الانجليز في جبهة الشمال الإفريقي. حث الوصي أيضاً على تسليم الرعايا الألمان في العراق إلى قيادة الانجليز ليقادوا أسرى إلى الـهند.

قالت لـه سميحة : وين نخوتك العربية.؟. منوه يسلم المستجير بيه يا ابو ماجد.؟.

قال باستخفاف: ما هي القصة قصة جيرة .. أضاف : لا تنامي بين القبور ولا تشوفي كوابيس. هاي هتلر في ألمانيا نازل ذبح وتهجير باليهود، وهم ألمان ومعهم جنسية ألمانية. ليش .؟. حتى ما يظل يشوف كوابيس. والا اللي يعملوه الألمان مع الآلاف مسموح، واللي عملناه مع كم واحد ممنوع.؟. إحكي يا ماجد. لو كنت محلي عيني، ما بتسوي مثلي .؟.

٢

في ربيع ١٩٣٩ تولى جلوب قيادة الفيلق العربي، وفي تموز أنجبت زوجته ولدهما البكر، فاختارت أن تسميه ديفيد، لأنه ولد في قدس داوود. إلا أن جلوب آثر تسميته باسم أول ملك صليـبي للقدس. قال لزوجته بـجذل: إنها سنة خير يا عزيزتي.

في عمان، أصر الأمير على تسمية عربية للمولود. فعدلت التسمية ثانية إلى "فارس"، وهو ما يتطابق بالمعنى مع اسم جودفري دي بيلوين الذي أسعد قلب جلوب لبضعة أيام .

صار يـخاطب من قبل المقربين وشيوخ العشائر باسم " أبو فارس". ومع أن قائداً انجليزياً، يدعى لاش، خلفه في قيادة خفر الصحراء إلا أنه لم يمنحه إلا شكلية الصلاحيات، قابضاً عليها بنفسه وهو يباغت مواقع البادية العسكرية من حين لآخر، ويوكل للرتب كافة المهمات مباشرة دون إعلام لاش في كثير من المرات. كانوا بالنسبة إليه أهم من جنود الفيلق العربي الذين نشأوا وفقاً لعقلية سلفه

ومشيئته. أما خفر الصحراء، فقد أنشأهم على يديه، ولا يعرفون، ويجب أن لا يعرفوا قائداً سواه. حتى لو كان خليفته انجليزياً مثلـه. كان لديه إحساس بأنهم حرسه الشخصي. ليس مثل لورنس الذي أحاط نفسه بالعبيد وحثالة البدو، ولكن شأن نابليون الذي كان حرسه الخاص أعتى قوة ضاربة في جيوش الإمبراطورية. حرسه ليسوا مجرد هجانة في ثياب رثة ، وعصبة متعطشة للقتل دونما توجيه أو تنظيم. بل قوة منظمة منضبطة ذات قيافة وتقاليد عسكرية أصيلة. يستنفرون بانتظام وينفكون بانتظام ويستيقظون في مواعيد محددة. لا يسعون للنـزال من أجل المكافآت. بل يتسلمون معاشاتهم في الوقت المحدد سواء أكانوا متأهبين أو مستريحين. إنهم عساكر جلوب.

كان مجرد أن يشاع بأنهم في الطريق أو الأنحاء أو الجوار، كافياً لاضطراب البوادي والأرياف. وكانت المدن أضعف حلقات التصدي لـهؤلاء العتاة. فقوات البوليس أو الفيلق العربي، وحتى الجنود الانجليز، قد يتراخون للاضطرابات أو يشفقون على أصحابها أو يؤازرونهم. لكن الأمر مختلف إذا دفع جلوب باتجاههم قوات البادية. في

التظاهرات يستخدمون الـهراوات التي تكسر العظام. وفي المواجهات المسلحة يقاومون واقفين لآخر طلقة عتاد. وفي المعتقل يتمنى المعتقلون لو أنـهم ماتوا قبل الاعتقال.

دفعهم جلوب مع قوات الفيلق العربي، للمساعدة في استتباب الأمن خلال انتفاضة الفلسطينيين، وعلى رأسهم معاونه " أبو جميع"، يهدد ويتوعد المتراخين والمهادنين والمتعبين. رغم أنهم لا يعرفون التراخي ولا المهادنة ولا التعب. كما لا يخشون الـلـه ولا الأنبياء ولا حتى لورنس، خشيتهم من قائدهم جلوب.

تجاوزت قسوتهم مع المتظاهرين والثوار، الأوامر التي كانت تقضي بالرد على النار بالنار. فكانوا يطلقونها على كل من يرميهم بحجر أو يفر من أمامهم بذعر أو يشتبه بأنه قريب للثوار أو حليف أو مجير. مع هذا سقط منهم قتلى وجرحى وخلّفوا وراءهم أسرى عديدين. اضطر جلوب إلى إصدار الأمر بعودتهم لقمع الانتفاضة التي امتدت إلى شرق الأردن نصرة للفلسطينيين.

أحس بالخوف والخطر معاً، بينما تهاجم الدوائر التنفيذية في عمان، وتحرق المكاتب ويرمى الانجليز

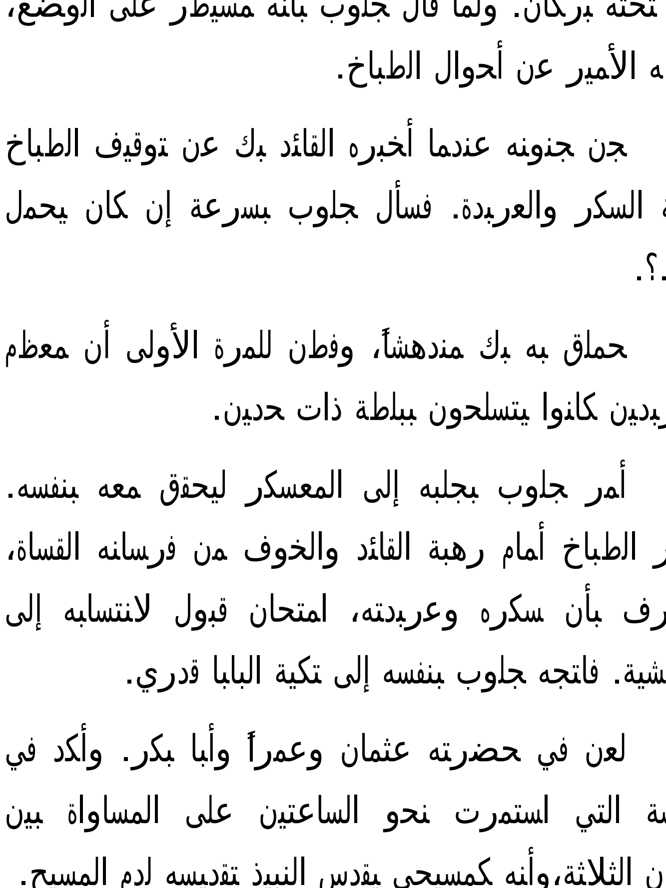
بالحجارة والقاذورات. قال بعصبية لزوجته: لا. لا. لن يتكرر الأمر ثانية ...

ظنت أنـه يقصد الانتفاضة، بينما كان يتذكر رميه بالحجارة من قبل الأهالي قبل أعوام.

صرخ بوجه " أبو جميع " ، مهدداً متوعداً. فنقل هذا ارتياعه إلى الفرسان الذين اندفعوا في الشوارع التي حظر فيها التجول حتى على الدواب والقطط والكلاب. بينما البكتاشيون يروجون الإشاعات ويزودونه بالمعلومات.

هدأ استخدام العنف من التوترات قليلاً، لتهدأ تماماً مع نداء الزعماء والقادة. دون أن يهدأ التمرين في معسكرات خفر الصحراء. عليهم دائماً أن يظلوا مستنفرين، وليس مثل البدو الذين يسترخون بعد الغزو، فيباغتون بالغزاة وهم نائمون.

زوده البابا قدري بالعديد من أسماء الشرق أردنيين الذين تطوعوا مع الثوار. فانكشف أمر فرحان، دون انكشاف تهريبات السلاح التي ظل فريد كاتماً أمرها. لم تجرم سلطات الانتداب فرحان. كما أخفقت في تجريم المتطوعين الآخرين،



بعدما حذر الأمير من اعتراض الوطنيين، وإلا فليتحمل المقيم البريطاني مسؤولية تمرد الأهالي وانفجار الوضع الذي يغلي تحته بركان. ولما قال جاوب بأنه مسيطر على الوضع، سأله الأمير عن أحوال الطباخ.

جن جنونه عندما أخبره القائد بك عن توقيف الطباخ بتهمة السكر والعربدة. فسأل جاوب بسرعة إن كان يحمل بلطة.؟.

حملق به بك مندهشاً، وفطن للمرة الأولى أن معظم المعربدين كانوا يتسلحون ببلطة ذات حدين.

أمر جاوب بجلبه إلى المعسكر ليحقق معه بنفسه. فانهار الطباخ أمام رهبة القائد والخوف من فرسانه القساة، واعترف بأن سكره وعربدته، امتحان قبول لانتسابه إلى البكتاشية. فاتجه جاوب بنفسه إلى تكية البابا قدري.

لعن في حضرته عثمان وعمراً وأبا بكر. وأكد في الجلسة التي استمرت نحو الساعتين على المساواة بين الأديان الثلاثة،وأنه كمسيحي يقدس النبيذ تقديسه لدم المسيح.

لم يكن هناك ضرورة للتوطئات والمقدمات والتفاصيل التي تسلح بها في زيارته.. فقد سبقته شهرته التي امتدت إلى أنحاء البلاد. مما جعل البابا، يقدره خير تقدير. ويقوم بزيارته في مقره ومعسكره، ليحظى بالتوجيب والاحترام من العساكر والضباط، بعدما أثمرت صداقته لجلوب عن خدمات جلى جعلت المقيم البريطاني يقرب إليه جلوب أكثر من فردريك بك.

في غمرة الانتفاضة التي عصفت بالإدارة الانجليزية في فلسطين، تولى البابا قدري ترويج الإشاعات التي تساعد في تهدئة الناس أو إخافتهم أو تضليلـهم. فما أن يخبره جلوب بأن الفلسطينيين دحروا الانجليز إلى البحر، حتى ينام الشرق أردنيين مرتاحين بانتظار برتقال النصر. هذه الأخبار تستدعي الاحتفال وليس الاحتجاج.

وإذا ما تأكد للأهالي كذب الإشاعة، دون أن يدركوا بواعثها ويعرفوا مصدرها. يزور جلوب البابا قدري، ليتناقل العتالة والمكارية والحطابة والفعلة والبويجية والشحاذين أخبار حرق سفينة في حيفا، بمن فيها من مهاجرين يهود وجنود انجليز: الدنيا بخير. الدنيا بخير.

شملت الإشاعات العطايا والـهبات وصرر الذهب والفضة التي يوزعها جلوب على هذه القبيلة أو تلك العشيرة أو عائلة هذا أو ابن ذاك. ولم يكن يستلزم لتناقل الأكاذيب الا فترة قصيرة تنتشر خلالـها انتشار النار في الـهشيم، مما أدهش المقيم البريطاني بمثل ما أدهش جلوب: انهم أسرع من المذياع. مع الأخذ بعين الاعتبار إنه لا يوجد في البلدة سوى عشرين مذياعاً حسب سجلات الاستخبارات الانجليزية. كما يوفر هؤلاء عناء إلقاء المناشير من الطائرات.

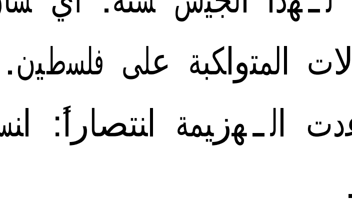
صار البكتاشيون أشبه بجهاز مخابرات منظم دون حاجة إلى التمويل أو المتابعة. قال جلوب للمقيم متبجحاً: لقد وفرت الكثير على حكومة صاحب الجلالة، وخدمت القيادة خدمات جليلة. لن تواجهنا مشكلة لو اندلعت الحرب مع الألمان.

لم يكن متيقناً من حصول الحرب، وإن كان يتمناها. قد تكون فرصته بـها، مثلما كانت الحرب الأولى فرصة لورنس. فالحرب هي التي تصنع الأبطال بمثل ما تطور صناعة السلاح، كما قرأ عن نابليون.

كان هذا قبل اندلاعها، وقبل أن يتولى قيادة الجيش. لكن بعد ولادة بكره فارس، تغيرت مشاعره تجاه السنة الخيرة كما قال عنها. أي خير ينتظر مع هذا المجنون الذي خرج بالسحبة ليهدد الأمن والاستقرار.

صار يتابع الأخبار من محطة بي بي سي الانجليزية، فيحس بطراوة النغمة وتخاذل الساسة. وإذا انتقل إلى إذاعة برلين يتصبب عرقاً مع التعليقات التي تبشر بزوال مجد الانجليز، ويشعر بالوضاعة من الأناشيد التي تسخر بهم: شيء مؤسف. شيء مؤسف. هكذا الألمان دائماً. يظنون الحروب أوبرات. بالأمس قطعت أوصالـهم فرساي.

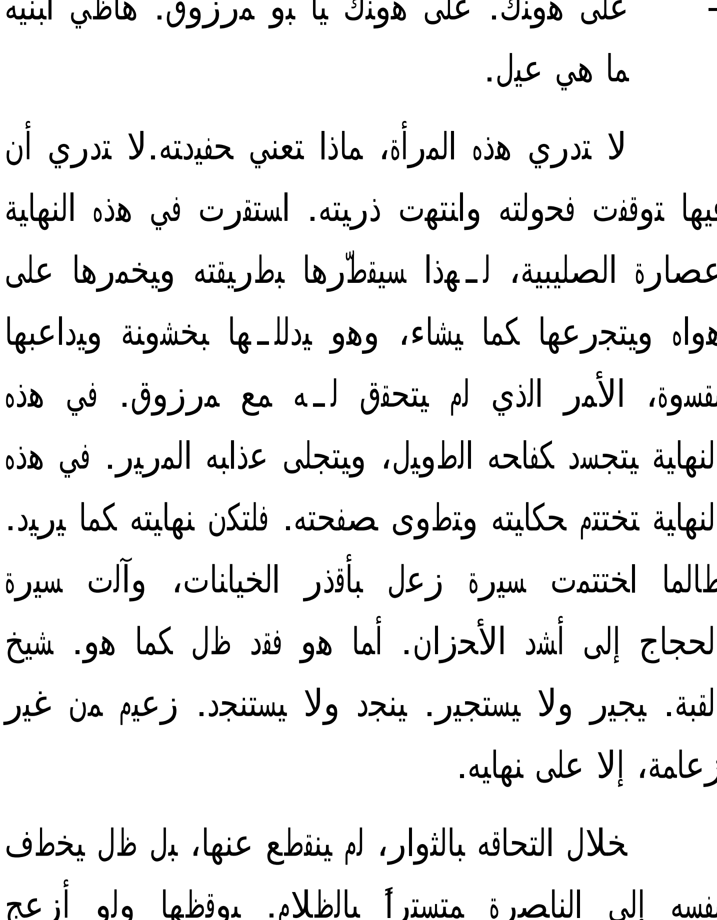
بينه وبين نفسه صار يغلي نقمة على حكومته الـهزيلة. كان يجب ان تصل دباباتها إلى وسط برلين منذ انتخب هذا المجنون وتولى النازيون شؤون البلاد. بل كان يجب أن تربض في كل أنحاء ألمانيا إلى ما لا نهاية. كل شيء يمكن ترويضه إلا العنجهية الألمانية. حظ. حظ. ليطلقوا يده سنة زمان، كي يثبت جدارته بالقضاء على العصابات الفلسطينية، ويوطد الأمن على الحدود السورية. سنة زمان يا أبا فارس. يضنون عليك بسنة ولم يمض على



قيادتك لـهذا الجيش سنة. أي شأن سيكون لـه الآن مع الجنرالات المتواكبة على فلسطين. أي فرصة ستسنح لـه وقد غدت الـهزيمة انتصاراً: انسحبت قواتنا من دنكرك بنجاح.

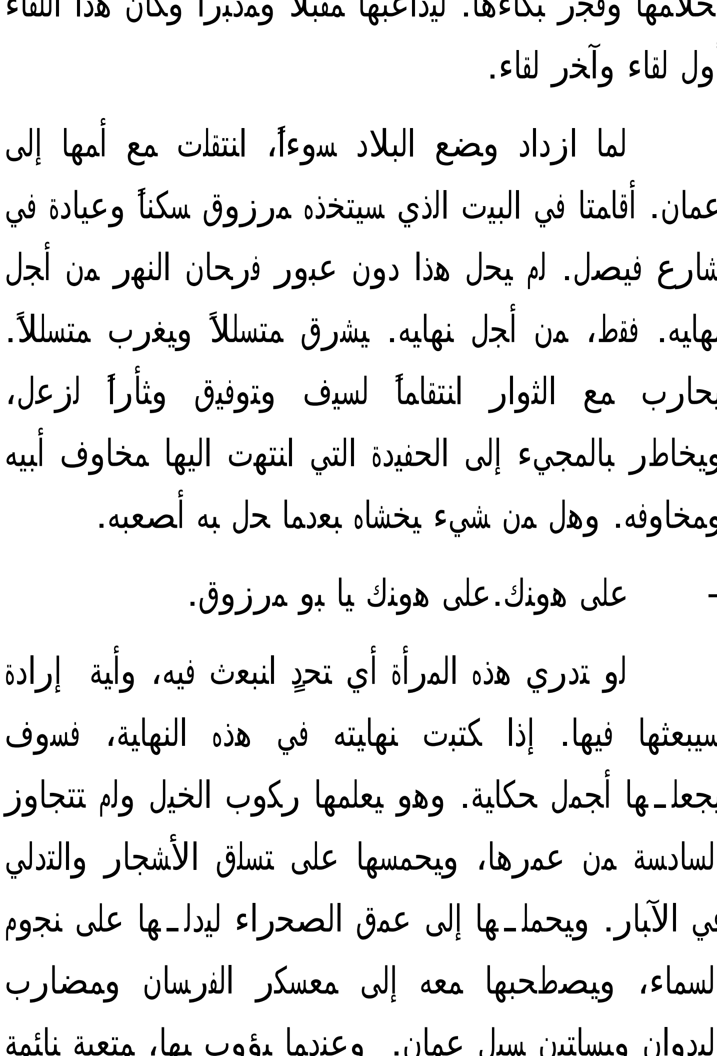
٣

- على هونك. على هونك يا بو مرزوق. هاظي ابنيه ما هي عيل.



لا تدري هذه المرأة، ماذا تعني حفيدته.لا تدري أن فيها توقفت فحولته وانتهت ذريته. استقرت في هذه النهاية عصارة الصليبية، لـهذا سيقطّرها بطريقته ويخمرها على هواه ويتجرعها كما يشاء، وهو يدللـها بخشونة ويداعبها بقسوة، الأمر الذي لم يتحقق لـه مع مرزوق. في هذه النهاية يتجسد كفاحه الطويل، ويتجلى عذابه المرير. في هذه النهاية تختتم حكايته وتطوى صفحته. فلتكن نهايته كما يريد. طالما اختتمت سيرة زعل بأقذر الخيانات، وآلت سيرة الحجاج إلى أشد الأحزان. أما هو فقد ظل كما هو. شيخ القبة. يجير ولا يستجير. ينجد ولا يستنجد. زعيم من غير زعامة، إلا على نهايه.

خلال التحاقه بالثوار، لم ينقطع عنها، بل ظل يخطف نفسه إلى الناصرة متستراً بالظلام. يوقظها ولو أزعج



أحلامها وفجر بكاءها. ليداعبها مقبلاً ومدبراً وكأن هذا اللقاء أول لقاء وآخر لقاء.

لما ازداد وضع البلاد سوءاً، انتقلت مع أمها إلى عمان. أقامتا في البيت الذي سيتخذه مرزوق سكناً وعيادة في شارع فيصل. لم يحل هذا دون عبور فرحان النهر من أجل نهايه. فقط، من أجل نهايه. يشرق متسللاً ويغرب متسللاً. يحارب مع الثوار انتقاماً لسيف وتوفيق وثأراً لزعل، ويخاطر بالمجيء إلى الحفيدة التي انتهت اليها مخاوف أبيه ومخاوفه. وهل من شيء يخشاه بعدما حل به أصعبه.

- على هونك.على هونك يا بو مرزوق.

لو تدري هذه المرأة أي تحدٍ انبعث فيه، وأية إرادة سيبعثها فيها. إذا كتبت نهايته في هذه النهاية، فسوف يجعلـها أجمل حكاية. وهو يعلمها ركوب الخيل ولم تتجاوز السادسة من عمرها، ويحمسها على تساق الأشجار والتدلي في الآبار. ويحملـها إلى عمق الصحراء ليدلـها على نجوم السماء، ويصطحبها معه إلى معسكر الفرسان ومضارب البدوان وبساتين سيل عمان. وعندما يؤوب بها، متعبة نائمة بين يديه، يعبر وجه مرزوق عن فقدان الحول والحيلة

الممزوجين بالاستياء. ويعبر وجه ميسر عن الرجاء: أكيد غلّبتك.

- نهايه تغلّبني.! لعاد إش تقولي عن مرزوق.

تلتفت إلى مرزوق وتسألـه بودٍ مصطنع: كنت شقي يا دكتور.؟.

- هو بحكي.

هو . صرت هو يا تكتور؟ هذه وحدها تهد حيـاـه وترميه مغلوباً. لكن ليس نهايه، التي سيقلب بها المألوف ويغلب التقليد المعروف: ما تظلي تقولي على هونك. أنا أدري وش اللي يفيد البنيه واللي ما يفيد.

- بس يا بو مرزوق، إنت تقسي عليها.ما قاعده تربي لحم من كثر الجرايه. ومرزوق قاعد ينطيها دوا ما ادري شو اسمه. يقول لازمها غذا كثير.

- هو شكى ليك .؟.

هو، هو . لماذا صار يستعصي عليه نطق اسم مرزوق. تماماً مثلما يستعصي على مرزوق نطق اسمه.؟. من منهما أخلّ بالتوازن الأبوي.؟. كان براً بأبيه، فلم لا يبر

مرزوق الا بنفسه.؟. اراده أبوه على شاكلته فجاء مرزوق على عكس شاكلتيهما. أحب المدرسة التي كرهها وكره البداوة التي أحبها. كان من السهل عليه أن ينقلب على نفسه ويغير رداءه. في العيادة رداء أبيض وبين الناس ثياب إفرنجية، بينما هو كما هو، رغم ثرائه وانتهاء أمره. فلاح يحرص على الأرض وبدوي يبحث عن الجذور. حتى لو ركب الاوتومبيل وتاجر بالسلاح. تقلقه الأرض رغم نتاجها المتنامي في البوايك. ثروته الأرض وليس نتاجها. يضنيه انقطاع ذريته رغم عبء الذرية. ذريته حفيدته وليس أبوها. لم لا يشتاق لـه أو يقلق لأمره.؟.

ألأن الحرب اختطفته فعاد اليه وقد صار صبياً.؟. أم لأنه تطير منه أسوة بأبيه الذي تخللته الظلمة يوم مولده " مرزوق وأبو مرزوق فدا ظفرك يوبا". جاءت الحرب وولت الحرب دون أن يحس مرزوق بمرارتها أو يشقيه تولي القبة معها. لم يرث عنه حلمه الموروث عن جده، فكيف سيأمن لـه على آخر صلبه.؟.

رفض بإصرار إلحاق نهايه بالكتّاب. ما تزال صغيرة، ولن تهرب القراءة والكتابة. إنها بحاجة الآن للعب

والمداعبة والتطواف. حاول مرزوق هذه المرة أن يكون لـه رأي وقرار، فقال: الدنيا تغيرت يوبا. وها الحين الدراسة مهمة، وراح يجي يوم تصير شهادة المدرسة أهم من شهادة النفوس.

- هاظا عندك، ما هو عندي. إش سوت الشهادة اللي تسلح بيها فندي.؟!.

- يوبا لازوم نتسلح بالشهادة. حنّا ما لينا عشيرة.

- إش تقول يا ولد. فرحان الصليبـي بحالـه عشيرة.

قالت تمام في زيارتها لابنها: ما تداقره يا ولدي. تراه ما هو داري إش يسوي. يوم يتاجر بالسلاح ويوم يدز للثوار سلاح. يوم في القبة وعشرة في السيل. أمس غاب شهور ما ندري عنه ميت والا حي . شَمسنا وشَمس حالـه بالحرب في فلسطين. ما هو سائل بالعساكر ولا الحكومة.

- والعساكر يحوطوا القبة وما يخلوا حمل إلا ينبشوه؟. إنتْ عارفه إنوه النائب العام ظل ساعة يسألني عنه .؟.

- يي، ولويش النايب العام .؟.

- ودهم اياني اخدم بمستشفى الجيش.

- يي. ا لا يقدر.

- كيف ا لا يقدر ! هاذي فرصة أتمرس على العمليات.

- إش عمليات وبطيخ. ما ودنا، ما ودنا. إنت هان مليح. وما ناقصك شي.

- ناقصني كِلْ شي. ان خدمت مع الانجليز، اقدر اكمل على حسابهم الدكتوراه.

- ما انت صرت تكتور.

- يما الدكتور شي والدكتوراه شي.

- يعني ودك تعاود لبيروت .؟.

- إش بيروت يما. يمكن أكمل دراسة بلندن.

لم يبال فرحان بهذا الإعلان. ليذهب إلى الجحيم، وليقضِ حياته في الدراسة وتبديل الثياب الافرنجية، وليأخذ معه ميسر إلى آخر الدنيا. أما نهايه فلن تبرح حماه. رد مرزوق متبرماً: لوقتها فرج.

- إنتْ ودك تخرج عن طوعي يا ولد.

- ما قلت شي.

- ويش تقصد لعاد .؟.

- اقصد. اقصد لوقتها فرج. يمكن تغير رأيك.

- متى خبرتني أغير رأيي يا ولد.

حاولت تمام التهدئة من ثورته العاصفة وهو يجول متوتراً في صحن الدار: ما تزعل. عاز عليه تظل تقول ليه يا ولد، وصار تكتور تحسب ليه الحكومة حساب.

- إش حكومة وإش بطيخ. راح يظل ولد ونذل بعد. يبغى يشتغل ويا الانجليز اللي كنت أحاربهم أمس.

- يريد يشتغل واياهم تكتور يا بو مرزوق. ما راح يحارب ولا يحمل سلاح.

- لأنوه خسي نذل.

- ما هو عيب تقول عنه هيك !.

- العيب، اللي سواه بالمرحوم جبران. لو أنا سويت مثلـه ، كان أبوي دفني بالحياة.

- غِلط يا بو مرزوق. وصدقني أنوه مستخطي روحه.

- ما غلط. طول عمره نذل. أنا مربيه واعرف بلاويه.

- أنهي بلاوي يا بو مرزوق. الولد يقول...

- هه. إنت قلت، ولد.

- اللي هو. المهم أنوه يقول ما راح يخدم مع الانجليز إن ليك راي ثاني. ودك أكثر من هيك ولد مطاوع يا بو مرزوق. وما شاء اللـه صار تكتور.

- يسوي اللي وده اياه. ومثل ما قلت ليه. يروح لجهنم ما يهمني. بس نهايه ما تبرح القبة.

- ومن وده يدير بالـه عليها يا رجل .؟!

- منهو داير بالـه عليها ها الحين.؟!

٤

أثبت سميح الصالحي جدارته، منذ تخرجه شرطي مرور، بنشاطه وحيويته وسرعة استجابته. تولى تنظيم المرور، برغبة ومسؤولية، فرقي إلى شرطي أول خلال سنتين ثم إلى عريف، وصار معروفاً لدى مرؤوسيه بقدرته على تنظيم السير وتجنيب الشوارع الرئيسة الفوضى والازدحام. ولاسيما شارع الملوك، حيث تتفاقم حركة السير في الظهيرة مع انفكاك الدوام، فيرتقي منصة التقاطع ويبدأ تلويحاته التي تستعجل طابور السير هذا أو توقف ذاك. وإذا ما حرنت مركبة وسكنت في الشارع، يسارع لدفعها مستنجداً بالمشاة لتسهيل انسياب المرور.

انفجرت سيارة على طرف الشارع، ألحقت أضراراً جسيمة بأربعٍ أخرى في وسطه، فتوقف المرور، واختنق الشارع في دقائق بالازدحام. ابتداء من شارع الناصرة شرقاً إلى محطة توليد الكهرباء. كان على راكبي السيارات المقبوض عليها بسبب الأزمة، انتظار الونش المتوقع وصولـه معاكساً للسير من الأمام. إلا أن مجيء أحد الرجال

صارخاً بانفعال، حول اهتمام سميح عن أزمة السير والحادث والونش، إلى المرأة التي حمي الطلق عليها داخل إحدى السيارات. صرخ الرجل، وكان يبدو أرستقراطيا، بسميح مهدداً. لديه خمس دقائق كي يتصرف ويحرك السيارة المتجهة بمخاض زوجته إلى المستشفى.

ليس التهديد هو الذي أربك سميح، وإنما حالة المرأة التي غيب صراخها تركيزه وقدرته على التفكير.

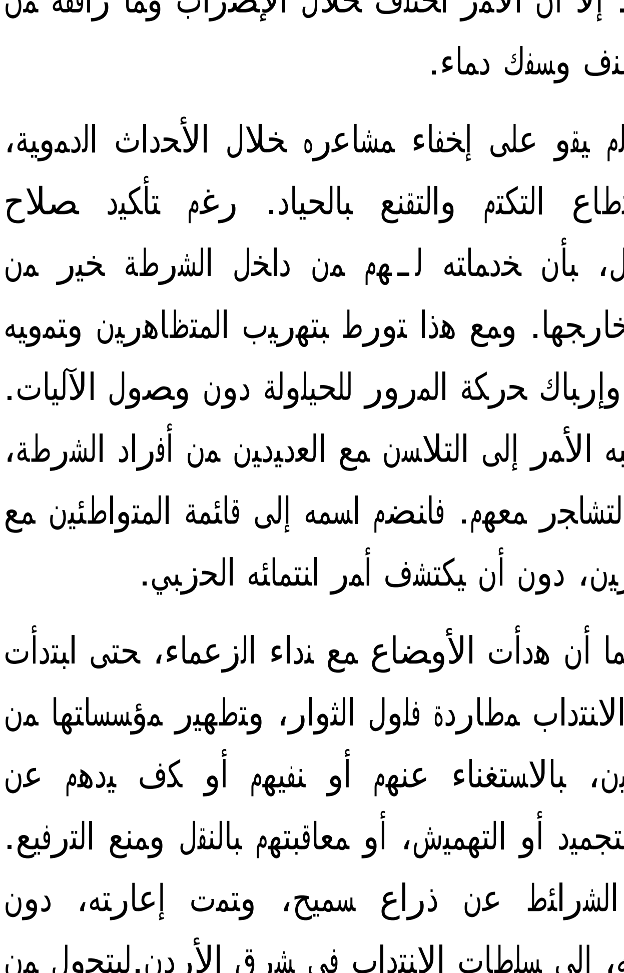
أسرع إلى السيارة المحترقة، مستنجداً بالمشاة، لحملـها إلى الجانب دون جدوى. ذلك الوقت وصل شرطي مرور آخر للمساعدة، راكباً دراجة نارية. دفعه عنها سميح وانطلق بها إلى المستشفى ليعود خلال ربع ساعة ومن خلفه الطبيب محتضناً حقيبته الجلدية. بينما رجال التحقيق يتواكبون ويدققون ويعتقلون، دونما اكتراث بصراخ المرأة الذي هدأ مع صراخ المولود وهو يشق طريقه إلى الحياة مع تنظيف الونش للحطام وتسليك حركة المرور، فأسمى الزوجان مولودهما "سميح".

منح شهادة تقديرية من قائد البوليس على تصرفه السريع. وكسب ثناء الرجل وزوجته وهو يرافقهما إلى المستشفى ومعهما سميح الصغير.

نشرت الجرائد القصة ومعها صورة سميح، ليغدو شخصية شعبية يحييه راكبوا السيارات بحرارة ويحيونه بافتتان وهو يلوح للسيارات يميناً وشمالاً وإلى الأمام والوراء. عندما ينتهي وقته متعرقاً تعباً لاهث الأنفاس، تتكفل بإيصاله إلى منزله، إحدى السيارات بإصرار من سائقها ورضاه.

كان يحب مهنته التي تجعله قلب الشارع. يضخ السيارات في اتجاهاتها وكأنه يضخ في جسد المدينة الدماء. كان لديه من الحيوية والإرادة ليرقى على أقرانه في تنظيم السير وإدارته، ولديه من الطموح ما يكفي للانضباط في تنظيم الحزب السوري القومي الذي سيتولى البلاد.

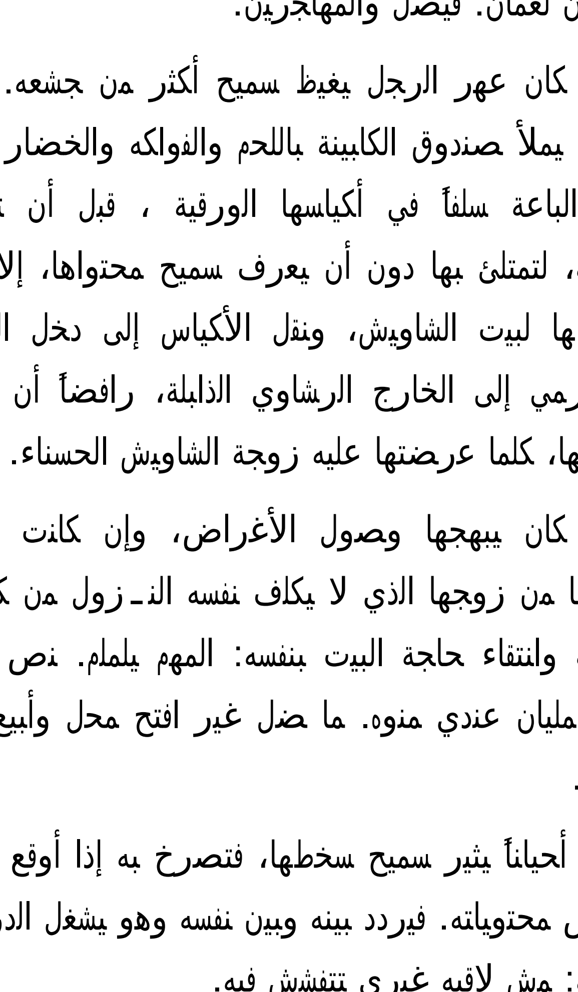
غدا، مهنياً، أهم شرطي مرور في حيفا. وغدا، تنظيمياً، أهم أعضاء الحزب في المنفذية، وهو يزود صلاح بكل ما يصل إلى أسماعه في دوائر البوليس، ليجنب رفاقه الأخطار ويجعل منفذية حيفا أكثر قدرة من سواها على توقع



الأحداث. إلا أن الأمر اختلف خلال الإضراب وما رافقه من أعمال عنف وسفك دماء.

لم يقو على إخفاء مشاعره خلال الأحداث الدموية، ولا استطاع التكتم والتقنع بالحياد. رغم تأكيد صلاح المتواصل، بأن خدماته لـهم من داخل الشرطة خير من خدماته خارجها. ومع هذا تورط بتهريب المتظاهرين وتمويه الشرطة وإرباك حركة المرور للحيلولة دون وصول الآليات. ووصل به الأمر إلى التلاسن مع العديدين من أفراد الشرطة، وأحياناً التشاجر معهم. فانضم اسمه إلى قائمة المتواطئين مع المتظاهرين، دون أن يكتشف أمر انتمائه الحزبي.

ما أن هدأت الأوضاع مع نداء الزعماء، حتى ابتدأت سلطات الانتداب مطاردة فلول الثوار، وتطهير مؤسساتها من المتواطئين، بالاستغناء عنهم أو نفيهم أو كف يدهم عن طريق التجميد أو التهميش، أو معاقبتهم بالنقل ومنع الترفيع. فأزيلت الشرائط عن ذراع سميح، وتمت إعارته، دون استشارته، إلى سلطات الانتداب في شرق الأردن.ليتحول من شرطي مرور جماهيري، إلى سائق دراجة الشاويش البدين، طباره، الذي يحشر نفسه بصعوبة في الكابينة، ويترجل منها



بصعوبة أيضاً، خلال تجوالـه المعتاد عبر الشارعين الرئيسين لعمان. فيصل والمهاجرين.

كان عهر الرجل يغيظ سميح أكثر من جشعه. ففي كل يوم يملأ صندوق الكابينة باللحم والفواكه والخضار التي يعدها الباعة سلفاً في أكياسها الورقية ، قبل أن تصل الدراجة، لتمتلئ بها دون أن يعرف سميح محتواها، إلا بعد إيصالـها لبيت الشاويش، ونقل الأكياس إلى دخل الدار، بينما يرمي إلى الخارج الرشاوي الذابلة، رافضاً أن يأخذ شيئاً منها، كلما عرضتها عليه زوجة الشاويش الحسناء.

كان يبهجها وصول الأغراض، وإن كانت تبدي استياءها من زوجها الذي لا يكلف نفسه النـزول من كابينة الدراجة وانتقاء حاجة البيت بنفسه: المهم يلملم. نص اللي جايبه، مليان عندي منوه. ما ضل غير افتح محل وأبيع فيه خضرة.

أحياناً يثير سميح سخطها، فتصرخ به إذا أوقع كيساً أو بعض محتوياته. فيردد بينه وبين نفسه وهو يشغل الدراجة بعصبية: مش لاقيه غيري تتفشش فيه.

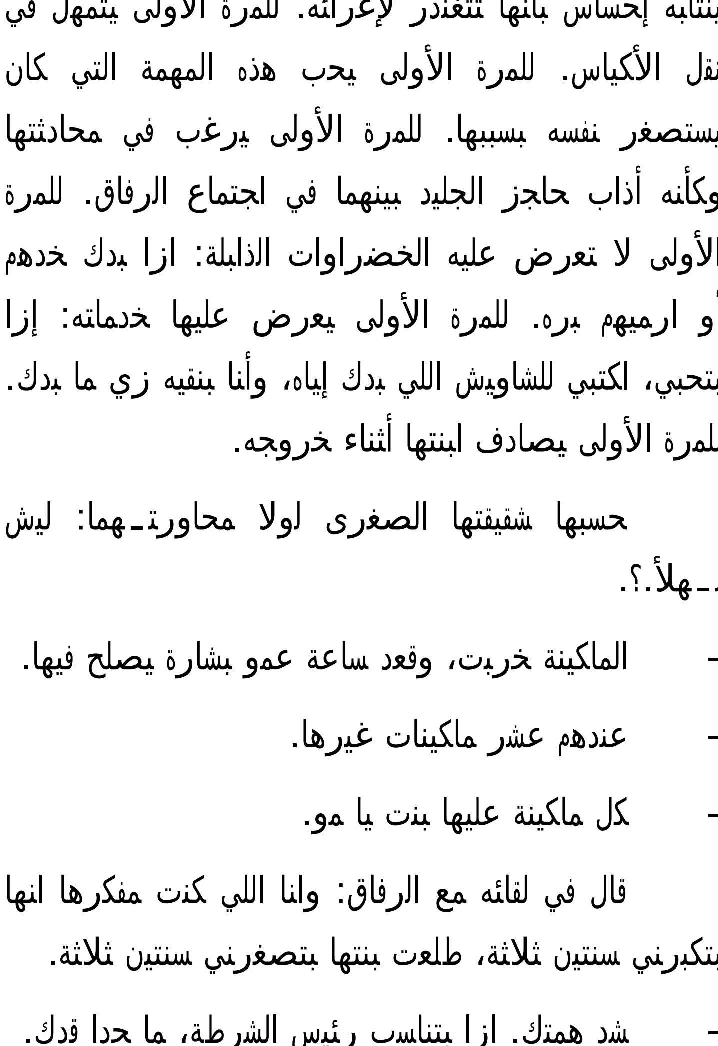
قال لـه رفيق، يلتقي به أسبوعياً مع مجموعة من القوميين: يمكن بتتحركش فيك.

- أكثر من هيك ! ما أنا كل يوم مشتغل عندها عتّال. قول بدها تورجيني العين الحمرا، حتى أمسك لساني عن لـهط جوزها. آخرتها، اشتغل عند هادا المرتشي شوفير.

سواء أدرك رفاقه أم لم يدركوا، فإن مراوغته في الحديث، لم تكن بوازع أخلاقي. بل لأنه لم يفطن إلى هذا الأمر، إلا عندما سمع من رفيقه ما سمع. فالمرأة لم تكن جميلة فحسب، وإنما تبدو فتية تكبره بسنوات قليلة، بينما زوجها البدين يبدو بالخمسين. تساءل مراراً في منامته: معقول.؟.

استعجل الصباح وركوب الدراجة والوصول إلى شارع المهاجرين ونقل الأغراض إلى صندوق الكابنية وحملـها إلى داخل الدار.

تأملـها وهي تفتح الأكياس. طويلة رشيقة، بيضاء البشرة. رأسها الملفوف بالمنديل يغطي شعرها. لكنه لا يخفي معالم الجمال في وجهها المتلاطخ بالمساحيق.للمرة الأولى



ينتابه إحساس بأنها تتغندر لإغرائه. للمرة الأولى يتمهل في نقل الأكياس. للمرة الأولى يحب هذه المهمة التي كان يستصغر نفسه بسببها. للمرة الأولى يرغب في محادثتها وكأنه أذاب حاجز الجليد بينهما في اجتماع الرفاق. للمرة الأولى لا تعرض عليه الخضراوات الذابلة: ازا بدك خدهم أو ارميهم بره. للمرة الأولى يعرض عليها خدماته: إزا بتحبي، اكتبي للشاويش اللي بدك إياه، وأنا بنقيه زي ما بدك. للمرة الأولى يصادف ابنتها أثناء خروجه.

حسبها شقيقتها الصغرى لولا محاورتـهما: ليش لـهلأ.؟.

- الماكينة خربت، وقعد ساعة عمو بشارة يصلح فيها.

- عندهم عشر ماكينات غيرها.

- كل ماكينة عليها بنت يا مو.

قال في لقائه مع الرفاق: وانا اللي كنت مفكرها انها بتكبرني سنتين ثلاثة، طلعت بنتها بتصغرني سنتين ثلاثة.

- شد همتك. ازا بتناسب رئيس الشرطة، ما حدا قدك.

- ايش أناسب وأبطخ يا ابن الحلال. أنا قاعد أقول إني تفاجأت ببنتها وبس. ولا مبين على أمها إنها أمها.

- هيك الشاميات.المهم. مين عاجبك أكثر. الأم والا البنت؟.

- التنتين.

- التنتين ... قال الشاويش طباره وأضاف : احنا بنعرف عن جدارتك بتنظيم السير في حيفا. أثبت جدارتك بعمان، وراح ترجع لكتفك الشريطتين. بلشت الفوضى بالشوارع مع ها الحرب اللي ما كانت على البال. الباشا ما بدوه فوضى ولا أزمات سير ولا تجمعات. ورجيني شطارتك في شارع المهاجرين. ووعد أرجع لك الشرايط التنتين. بس تبيض وجهي قدام الباشا .

٥

استثنت سلطات الانتداب، منطقة الحرم الشريف من حظر التجول المفروض بسبب الانتفاضة التي تواصلت أشهراً طويلة. مما منح الحاج أمين قدرة على التحرك واستقبال أعوانه رغم الحصار المفروض على المنطقة بما فيها سكنه القريب من دار الأيتام . فيلتقي بالوافدين إلى الحرم ، سواء في سكنه أو المسجد، ليمرر من خلالـهم معلوماته إلى مختلف المناطق مستخدماً كل وسائل الاتصال المتاحة، ولاسيما الحمام الذي يأتي به القرويون تقدمة للحرم الشريف.

مرة واحدة يتولى المفتي قيادة الحركة الوطنية بفصائلـها المختلفة وعوائلـها المتنازعة. ويضع نفسه نداً لسلطات الانتداب التي علّق عليها آمالـه سنين عديدة. للمرة الأولى يبايع بمثل هذا التوافق الشعبي الذي لم يحظ به أحد من زعماء فلسطين باستثناء الشيخ عز الدين القسام الذي خلّدت اسمه دماؤه.

أجبر المفتي على قيادة الانتفاضة التي تمخضت عن موت القسام، كي لا يتولاها القساميون وعلى رأسهم سيف الحجاج الذي صار اسمه مغناة الأرياف:

يا حلالي يا مالي

بحكي لكو عن السياف

كنـ ـا خمسة من الشُبان

يا حلالي يا مالي

حاملين أحسن بـارود

والوسط من الفشك مليان

يا حلالي يا مالي

سرنا ع خطا بو لقـا

بعدما وصل من عمـ ـان

يا حلالي يا مالي

بو لقا عنتر زمانـ ـه

يهدم شقبه ع السيسـان

كتب أبو جبران في الزفير قبل أن تغلقها السلطات، بأن هذا الاجماع يعتبر فرصة تاريخية لتوحيد الجهود الفلسطينية. وفهم من كتابته قبول سيف بقيادة المفتي الذي سحب البساط من تحت أرجل الجميع، على رأي منافسيه من عائلة النشاشيبي الذين رحل معظمهم خلال الأحداث إلى بيروت.

قبل المفتي دعوة الملوك والقادة من أجل إنـهاء الإضراب والعودة إلى الـهدوء والسكينة.

أدهشته نتائج دعوته أكثر مما أدهشت الانجليز. فعلى الرغم من مواصلة اعتصام المجاهدين في الجبال والأرياف، إلا أنهم استجابوا لندائه ، ولاسيما القساميون بقيادة سيف في الشمال، وجيش الجهاد المقدس في الوسط والجنوب بقيادة عبد القادر الحسيني الذي حمل للتداوي من جراحه إلى دمشق.

توقفت أعمال العنف وعم الـهدوء، بانتظار ما تسفر عنه جهود المفتي، وهو يضع مصير القضية الفلسطينية في أيدي الزعماء العرب. متنقلاً بين هذا القطر أو ذاك ومقنعاً

أنصاره بضرورة فتح باب الحوار مع البريطانيين الذين يمتلكون أوراق الحل والعدل والسلامة.

عاد المفتي إلى فلسطين وفي نيته التعاون مع لجنة بيل البريطانية، المكلفة بالتحقيق في مجريات الأحداث وأسبابها ونتائجها.

وبمثل ما أدهش الجميع تأثير ندائه في تـهدئة الأوضاع، أدهش الانجليز رجوعه إلى فلسطين وقد ظنوا أنه غادر طلباً للنجاة . فقد تم إقرار خطة دومفيل في زرع الشقاق بين الفلسطينيين في الوقت الذي تضرب القوات البريطانية بيدٍ من حديد على كل من يعبث بالأمن أو يحاول النيل من هيبة بريطانيا المتردية أمام يقظة العملاق النازي. مما انعكس على فرنسا، التي سارعت لاسترضاء تركيا وكسب تحالفها بمنح سنجق الاسكندرون استقلالاً ذاتياً.

كان ذلك بمثابة اختبار لنبض الشارع. فقد أطلق الفرنسيون يد الشيوعيين السوريين الذين أعلنوا تأييدهم لسلخ هذا اللواء وضمه إلى تركيا، فعمل البكتاشيون جهدهم لتغليب شأن الخطر النازي على التوسع التركي، طالما أن تركيا

دولة إسلامية، ما يزال الكثير من العرب يعتزون بحكمها وأمجادها.

ندد أنطون سعاده بهذا الإجراء، واشتبك رجالـه القوميون مع الشيوعين في المدارس والجامعات السورية. فتوالت مخاوف سلطات الانتداب أمام ردود الفعل الباهتة، ليرسل رجل المخابرات العسكرية دومفيل رسالة تحذير وتهديد للحاج أمين. " إن الانكليز في سبيل مصالحهم وعظمة إمبراطوريتهم لن يتوانوا عن البطش والتنكيل. فحرصاً على نفسك ورأفة بشعبك اعمل على الـهدوء أو انج وجماعتك خارج الحدود".

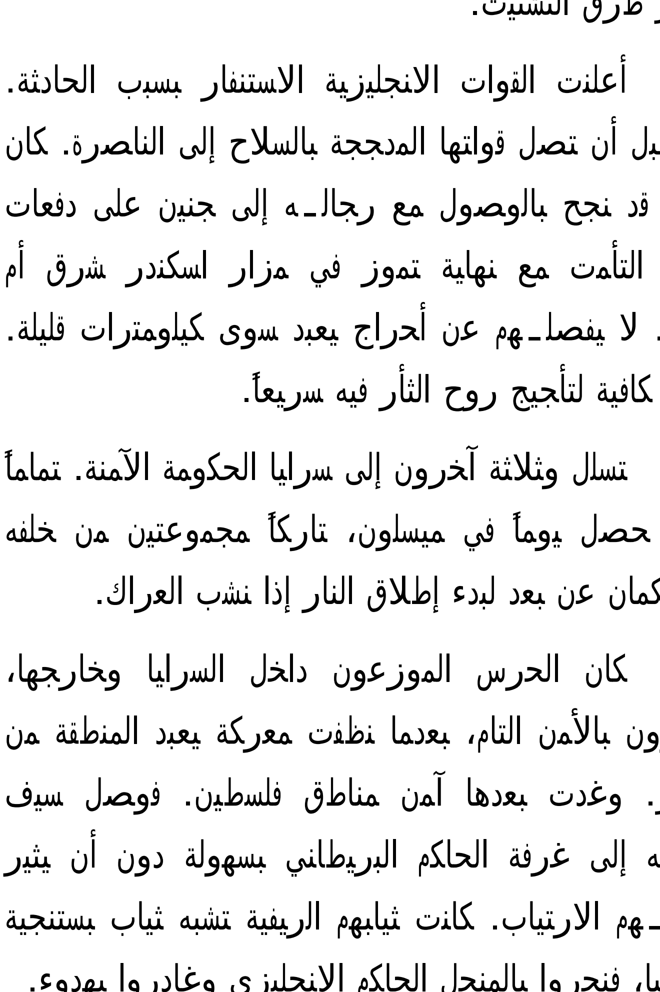
تنادت الـهيئة العربية العليا للاجتماع. فأعربوا عن ندمهم على السعي لإيقاف الانتفاضة. لكن الحاج أمين طمأنهم. ما يزال القساميون والجهاديون يعتصمون بالريف والجبال. كان إيقاف الانتفاضة فرصة لـهم لالتقاط الأنفاس والتزود بالسلاح. لا يخيفه تهديد دومفيل . بريطانيا تعي أن المساس به سيفجر الوضع من جديد. حتى لو فوت عليه الحصار المشاركة في مؤتمر بلودان، فإن ذلك لم يؤثر في

قرار الزعماء العرب الذين رفضوا قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود.

قبل أن ينهي الاجتماع فوجئ بالقوات البريطانية تحاصر مقر الـهيئة من جميع الجهات، بعدما قطعوا خطوط الـهاتف والماء والكهرباء.

راوغ المجتمعون قائد القوة، بينما المفتي يرتقي سطح البناية إلى أخرى تجاورها. نجح بالإفلات من الطوق والوصول إلى داره المطلة على حائط البراق، لكن وصول القوات البريطانية، جعلـه يلتجئ إلى أروقة المسجد الأقصى الذي يحتمي فيه العديد من المجاهدين، بينما القوات البريطانية تداهم البيوت في المدن وتغير على الثوار في الأرياف.

انفجر الوضع ثانية، بعدما رد سيف الحجاج على اعتقال بعض رجالـه بمهاجمة سرايا الحكومة في صفد وتخليص المعتقلين، والتمكن من قتل حاكم الجليل الانجليزي ومرافقه.



وبدلاً من انسحابه إلى وادي الطواحين للتحصن في مغاوره، عمل بنصيحة بكر الذي كان يرى أن التصعيد أقصر طرق التشتيت.

أعلنت القوات الانجليزية الاستنفار بسبب الحادثة. لكن قبل أن تصل قواتها المدججة بالسلاح إلى الناصرة. كان سيف قد نجح بالوصول مع رجالـه إلى جنين على دفعات ثلاث التأمت مع نهاية تموز في مزار اسكندر شرق أم الفحم. لا يفصلـهم عن أحراج يعبد سوى كيلومترات قليلة. كانت كافية لتأجيج روح الثأر فيه سريعاً.

تسلل وثلاثة آخرون إلى سرايا الحكومة الآمنة. تماماً مثلما حصل يوماً في ميسلون، تاركاً مجموعتين من خلفه تستحكمان عن بعد لبدء إطلاق النار إذا نشب العراك.

كان الحرس الموزعون داخل السرايا وخارجها، يشعرون بالأمن التام، بعدما نظفت معركة يعبد المنطقة من الثوار. وغدت بعدها آمن مناطق فلسطين. فوصل سيف ورفاقه إلى غرفة الحاكم البريطاني بسهولة دون أن يثير دخولـهم الارتياب. كانت ثيابهم الريفية تشبه ثياب بستنجية السرايا، فنحروا بالمنجل الحاكم الانجليزي وغادروا بهدوء.

في مساء اليوم التالي، نجح المفتي في التسلل إلى الباحة الخارجية للمسجد وتسلق السور المرتفع بمساعدة أحدهم، والهبوط بسلام في الحاكورة الخارجية. أسرع راكضاً في ثيابه البدوية التنكرية، بينما الكلاب تنبحه من الوراء.

تجاوز حي الربابة إلى الحي العربي في جبل الشيخ الثوري، حيث كانت تنتظره سيارة حملته إلى مرفأ يافا. وما أن أرخت العتمة قبضتها عن ذلك الليل الطويل، حتى كان المفتي آمناً على أبواب شاطئ البياضة اللبناني. أضاءت له السيارة التي أعدت لنقله ومضات متقطعة، لكنه قبل أن يترجل من الزورق أضاءت كشافات زورق بخاري فرنسي، واقتيد ومن معه بتهمة التهريب.

ترددت السلطات الفرنسية، بعد انكشاف هويته، بين تسليمه للانجليز أو تسفيره إلى فرنسا. إلا أن المظاهرات التي اجتاحت بيروت، جعلت السلطات تبقيه رهينة لديها لمدة عامين، انفجر الوضع خلالها في كل أنحاء فلسطين.

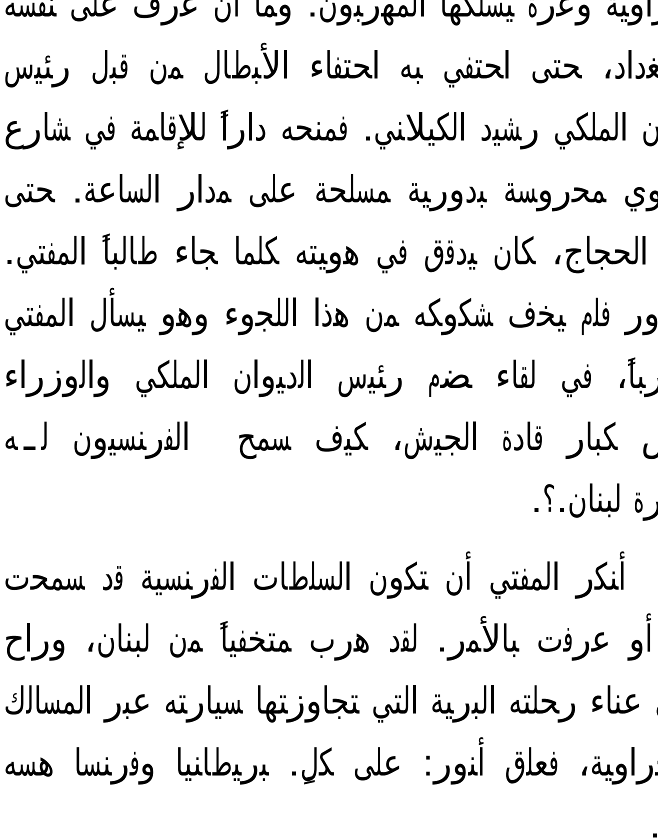
٦

أمضى المفتي عامين في لبنان، بعيداً عن المواجهات العنيفة في فلسطين. مما منحه وقتاً كافياً للراحة والتركيز على النضال السياسي الذي أثمر عن رفض مشروع التقسيم البريطاني.

في الأثناء، لم تخل الفترة من المضايقات، بسبب تقييد حركة المفتي ومنعه من الوصول إلى دمشق. لكنه ظل في منأى عن خطر تسليمه للانجليز إلا بعد تحالف بريطانيا وفرنسا في حربهما على الألمان.

فجأة، صار أعداء بريطانيا أعداء لفرنسا، بعدما كانت السلطات الفرنسية تعتبرهم وسيلة ضغط على الانجليز، فأقيم على عجل معتقل كبير في قلعة تدمر للوطنيين السوريين، وآخر في بكفيا للسياسيين الفلسطينيين. ووجد المفتي نفسه رهين الإقامة الجبرية في دار إقامته في "الذوق".

بالطريقة نفسها التي تسلل فيها من الحرم القدسي، قبل عامين، تسلل من دار إقامته متخفياً بثياب بدوية.



لتحملـه سيارة إلى دمشق، مخترقة جحافل جيش الشرق الفرنسي بمدافعه ومصفحاته ودبابته التي كانت تثير الفوضى في الطرقات، مما ساعد سيارة المفتي على الوصول إلى الحدود متجاوزة نقاط التفتيش في دير الزور إلى طريق صحراوية وعرة يسلكها المهربون. وما أن عرف على نفسه في بغداد، حتى احتفي به احتفاء الأبطال من قبل رئيس الديوان الملكي رشيد الكيلاني. فمنحه داراً للإقامة في شارع الزهاوي محروسة بدورية مسلحة على مدار الساعة. حتى سيف الحجاج، كان يدقق في هويته كلما جاء طالباً المفتي. أما أنور فلم يخف شكوكه من هذا اللجوء وهو يسأل المفتي مستغرباً، في لقاء ضم رئيس الديوان الملكي والوزراء وبعض كبار قادة الجيش، كيف سمح الفرنسيون لـه بمغادرة لبنان.؟.

أنكر المفتي أن تكون السلطات الفرنسية قد سمحت بذلك أو عرفت بالأمر. لقد هرب متخفياً من لبنان، وراح يروي عناء رحلته البرية التي تجاوزتها سيارته عبر المسالك الصحراوية، فعلق أنور: على كلٍ. بريطانيا وفرنسا هسه حلفاء.

لم يؤثر هذا التعليق على مكانة المفتي لدى المجتمعين. كانوا في معظمهم ناقمين على الانجليز، ويتتبعون الانتصارات الألمانية بلـهفة وإعجاب، باستثناء أنور الذي أصر على أن فرصتهم التاريخية تكمن في محالفة الانجليز.

كان يشفع دائماً مناصرته لبريطانيا بكرهه لـها. إنها عدو مرغم على التعامل معه. إلا أن ذلك لم يجمل صورته أمام المربع الذهبي لقادة الجيش ، وعلى رأسهم العقيد صلاح الدين الصباغ. الذي استجاب للمفتي بالحال، ومنحه الرعاية والحماية.

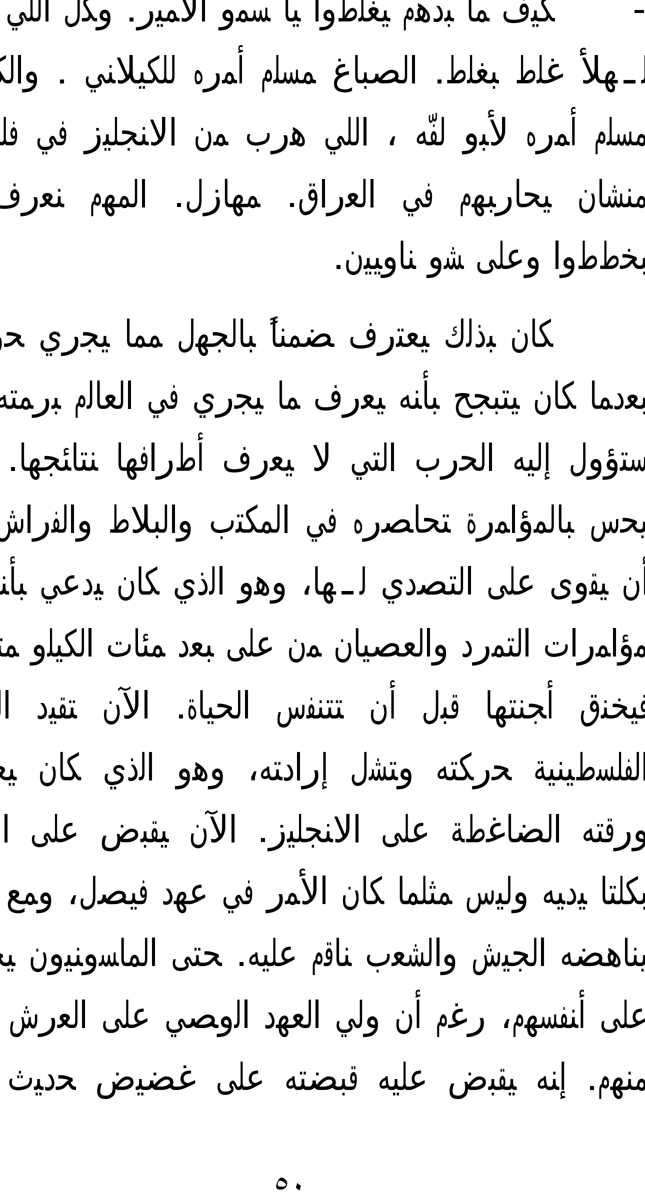
غدا المفتي فاعلاً في السياسة العراقية، وهو بالأمس القريب كان يستجدي الزعامات العربية لمناصرته. يتصرف الآن كـزعيم دولـة، وهو يتفقد حرس الشرف من العسكريين الفلسطينيين في المدرسة الحربية، أو المتدربين في معسكر الكاظمية.

كانت المعلومات تتوارد لأنور أولاً بأول. فيزداد نقمة على قادة الجيش الكبار، ولاسيما العقيد صلاح الدين الصباغ. ليس لأنه سوري الأصل فحسب، ولكن لأنه غدا

ألعوبة في يد رشيد عالي الكيلاني، كما يردد أنور بعصبية وانفعال أمام زوجته سميحة. ولم يكن حالـه أفضل في لقاءاته بأبناء العشيرة الماسونية ومع الأمير عبد الإلـه. وهو يشحنه بالنقمة والسخط على رئيس ديوان الملك، ويحمسه للسعي من أجل عزلـه. لكنه يفيق إلى نفسه أمام نظرات عبد الإلـه المرتابة، فيتساءل بصوت مسموع: ما بعرف كيف أهملنا الجيش وتركناه لـهيك ضباط... فيرد الأمير بأنه مستعد لعزل الكيلاني والضباط الأربعة الكبار الذين يدعمونه، إذا ضمن أنور قدرة الانجليز للسيطرة على الوضع.

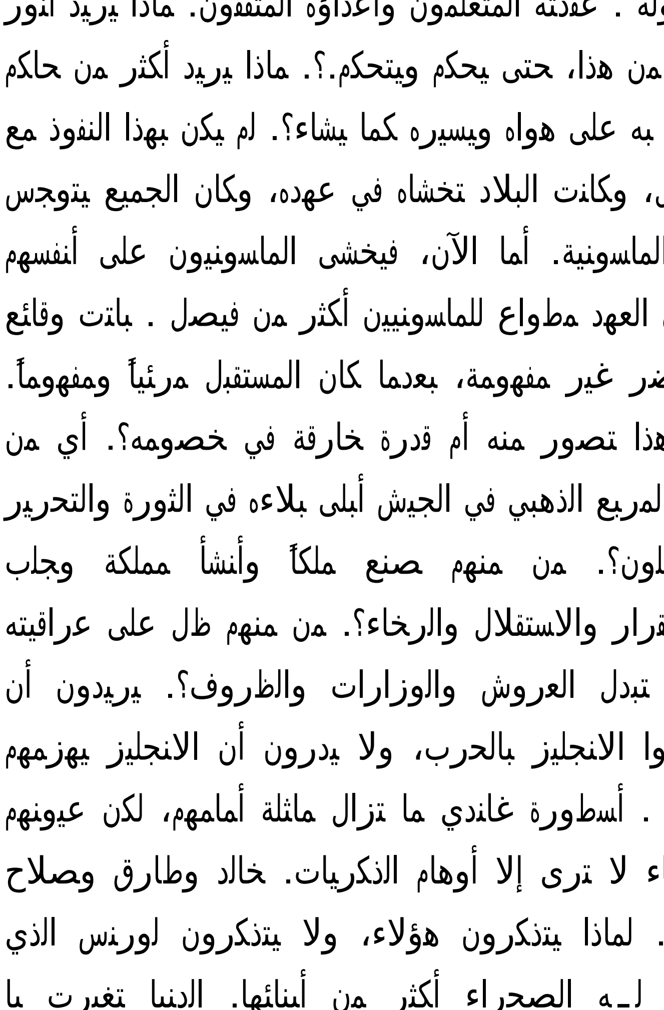
مع عودة الـهدوء إليه، تتضح الصورة أمامه : الانجليز ما راح يتدخلوا هسه. عندهم ما يكفيهم . ولو تدخلوا يمكن تزيد شعبية الكيلاني وضباطه، ونصير كلنا بخطر.

- والحل .؟.
- ما فيه حل . بدنا ننتظر ليغلطوا غلطة .
- وإذا ما غلطوا ؟.



- كيف ما بدهم يغلطوا يا سمو الأمير. وكل اللي سووه لـهلأ غلط بغلط. الصباغ مسلم أمره للكيلاني . والكيلاني مسلم أمره لأبو لفّه ، اللي هرب من الانجليز في فلسطين منشان يحاربهم في العراق. مهازل. المهم نعرف شو بخططوا وعلى شو ناويين.

كان بذلك يعترف ضمناً بالجهل مما يجري حولـه، بعدما كان يتبجح بأنه يعرف ما يجري في العالم برمته، وما ستؤول إليه الحرب التي لا يعرف أطرافها نتائجها. صار يحس بالمؤامرة تحاصره في المكتب والبلاط والفراش دون أن يقوى على التصدي لـها، وهو الذي كان يدعي بأنه يشم مؤامرات التمرد والعصيان من على بعد مئات الكيلو مترات، فيخنق أجنتها قبل أن تتنفس الحياة. الآن تقيد القضية الفلسطينية حركته وتشل إرادته، وهو الذي كان يعتبرها ورقته الضاغطة على الانجليز. الآن يقبض على العرش بكلتا يديه وليس مثلما كان الأمر في عهد فيصل، ومع هذا ، يناهضه الجيش والشعب ناقم عليه. حتى الماسونيون يخشون على أنفسهم، رغم أن ولي العهد الوصي على العرش واحداً منهم. إنه يقبض عليه قبضته على غضيض حديث العهد



محدود الثقافة، فاشل في الدراسة، خبرته قليلة وآمالـه مجهولة . عقدته المتعلمون وأعداؤه المثقفون. ماذا يريد أنور اكثر من هذا، حتى يحكم ويتحكم.؟. ماذا يريد أكثر من حاكم يلعب به على هواه ويسيره كما يشاء؟. لم يكن بهذا النفوذ مع فيصل، وكانت البلاد تخشاه في عهده، وكان الجميع يتوجس من الماسونية. أما الآن، فيخشى الماسونيون على أنفسهم وولي العهد مطواع للماسونيين أكثر من فيصل . باتت وقائع الحاضر غير مفهومة، بعدما كان المستقبل مرئياً ومفهوماً. هل هذا تصور منه أم قدرة خارقة في خصومه؟. أي من قادة المربع الذهبي في الجيش أبلى بلاءه في الثورة والتحرير وميسلون؟. من منهم صنع ملكاً وأنشأ مملكة وجاب الاستقرار والاستقلال والرخاء؟. من منهم ظل على عراقيته رغم تبدل العروش والوزارات والظروف؟. يريدون أن يهزموا الانجليز بالحرب، ولا يدرون أن الانجليز يهزمهم السلم . أسطورة غاندي ما تزال ماثلة أمامهم، لكن عيونهم العمياء لا ترى إلا أوهام الذكريات. خالد وطارق وصلاح الدين. لماذا يتذكرون هؤلاء، ولا يتذكرون لورنس الذي دانت لـه الصحراء أكثر من أبنائها. الدنيا تغيرت يا

سميحة، ولم تعد الفروسية سيوف ورماح. إنها دهاء. هذا ما يفتقر اليه الألمان الذين يظنون إن الحرب نـ ـزال. إنهم لا يختلفون عن العرب إلا بمصانع السلاح وانسياب السلاح والتخطيط لاستخدام السلاح. عدا ذلك فإنهم مندفعون متهورون تماماً مثل العرب، ويمكن أسخم كمان. ما من حرب تستمر إلى ما لا نهاية، وما من سلاح أمضى من الدهاء. فكيف إذا كان الانجليز يمتلكون السلاح والدهاء. عاجلاً أم آجلاً سيدفعون هتلر للتورط في حرب مع السوفييت. ليس لأنهم يتنبأون، ولكن لأن عقدة هتلر هي اليهودية والشيوعية. عاجلاً أم آجلاً سيورطون العملاق الأميركي بالحرب. وهل يلزم أكثر من وخزة في ظهر النائم كي يجفل مرعوباً يضرب في كل الاتجاهات بسخط وغضبٍ وجنون.

- وإن انتصر الألمان .؟.

- كل اللي حكيته، وبتسأليني ان انتصر الألمان.!. هادا ما أحكي معك أحسن.

- لويش زعلت.؟. الأخبار بتقول أنوه ألمانيا قاعدة تنتقل من نصر لنصر.

- السلاح بإيـد الخرا بجرح. بس بإيد العاقل بذبح. هاي الحرب راح تجيب خبر ألمانيا.

- ا لا يقدر.

- كمان إنت بدك الألمان ينتصروا؟!.

- بدي الانجليز ينكسروا. ا يكسرهم ويذلـهم يا شيخ.

- لو بالدعاوي. كان ما ظل في الدنيا غير اليهود. ترى التوراة كلـه لعنات.

- ا يكسرهم. إن شاء ا الألمان بنتصروا وما بخلوا انجليزي واحد طيب.

- ان انتصروا. أكيد مـا راح يخلوا واحد منهم. بس اوعي تظني انهم راح يخلوا واحد منكم.

- مين منّا.؟. الأردنيين؟.

- انت فاهمة اني بقصد إنتو العرب.

- صرت تقول عن العرب، انتوا.

٧

سمع جلوب حكايا مدهشة كثيرة عن أهل المنطقة.بعضها حيرته أو حركت فضوله. لكن أياً منها لم تؤثر به، مثل قصة أشرف التركي، التي رواها الأمير في جلسة استيقظت فيها ذكريات الثورة والحرب على الأتراك. اعتقد جلوب بأن الأمير ربما بنى روايته على ما سمعه من تفاصيل كثيرة ما يزال الناس يرددونها. رغم ادعائه بأنه شاهد بأم عينه هزيمة ذلك الوحش أمام توفيق الكشفة، وعقاب التيه الذي أنـزل به في مجاهل الصحراء.

أعاد رواية معظم الحكايا، ولربما جميعها، على جنوده وشيوخ القبائل ومعارفه من العرب والانجليز. كان يحب أن يبدو ملماً بالأنساب والعادات والتاريخ والتطلعات.

أخفق في العديد منها، مثلما كان الأمر مع حكاية المهداوي، إلا أنـه نال الإعجاب في أخرى، قصد منها استعراض ثقافته المحلية فحسب. أما قصة أشرف التركي

التي أثرت به أكثر من سواها، فقد جعلته يهجس بها في خلواته ومناماته، وتستيقظ في مخيلته مع كل كلمة أو حدث يذكره بـها. احتفظتها ذاكرته دون أن يستعرض معرفته بذكرها. وإذا ما زل لسان الأمير بالحديث عنها أو الإشارة لـها، يظل جلوب واجماً وهو يشاهد الكلمات التي يسمعها، صوراً حية لوحش أسطوري، أرعب العرب بكل مللـهم وأصولـهم وفصولـهم. بينه وبين نفسه، كان يحس بالرهبة وأحياناً بالرعب من هذا الأشرف الذي قد تكون قصته مختلقة أو مبالغ فيها. تساءل مراراً إن قضت عليه الصحراء أم قهرها وروضها وما يزال يستوطنها.؟. ترى ماذا سيكون عليه الحال، إذا انبعث أشرف التركي من بين الأموات.؟. رجل سلحه الأتراك وأفلتوه وحشاً بلباس عربي. كان الأتراك قادرين على إثارة الفتن بين العرب وتأليب بعضهم على بعض، فما الذي دفعهم لتجنيد هذا الوحش كي يثير الرعب، وهم قادرون على إثارته بعساكرهم وأعوانهم والموالين لـهم؟. وصل إلى الجواب وهو يضع يده على كتاب "جاك السفاح". الذي تركه لـه بك مع الكثير من الأمتعة والأثاث والنفايات.

لم يسئ الظن بقائده بك الذي رحل إلى غير عودة، ولم يقرأ الكتاب أيضاً. كان يكفيه تلمس الغلاف وملاحظة العنوان، حتى يستيقظ من داخل قمقمه مارد أشرف التركي. حملق بالغلاف طويلاً قبل أن يرتخي في مقعده وتشخص عيناه في الأرض بثبات. زاغ بصره مع الأشكال الـهندسية المرسومة على البلاط، بتداخل أقرب إلى متاهة فيها عشرات المداخل دونما مخارج على الإطلاق. لقد أرعب جاك السفاح كل لندن ولم يقتل إلا بضع نساء. بينما هتلر يقتل في الأرض المسلوبة آلاف المقاومين المتسلحين بالعصي والحجارة والسكاكين وأبسط الأدوات. مجرم واحد روع لندن بكل من فيها، ولم ترتع لندن من جبروت الآلة الحربية الألمانية العمياء.

مجرم واحد، يستطيع أن يثير رعب المدنيين والعسكريين والبوليس والمحققين، فيربك البلاد بكل ما فيها، مثلما فعل أشرف التركي الذي ربما ما يزال على قيد الحياة. الدولة التركية التي أفرزته، خرجت من مصاف الكبار، لتحل محلـها بريطانيا عظيمة تسطع شمسها ليل نهار. الحصيف يتعلم من تجاربه. أما القائد الموهوب، فيتعلم من تجاربه

وتجارب غيره. حتى لو كان هذا الغير صغيراً مثل تركيا. ففي كل صغير طموح كبير، مثلما في كل كبير طفل صغير: أهذا هو رجالك؟.. سأل دومفيل، بينما يقف أبو جميع متهيئاً متأهباً.

- نعم ... قال جلوب.

- ويعرف ما يجب عليه القيام به .؟.

- اسألـه.

- أنا اسألك.

- اسمع مستر دومفيل.. قال جلوب بحزم لا يخلو من استياء، وأضاف: أنا جندي انجليزي قبل أن أكون قائداً للفيلق العربي. لـهذا لا تتحذلق معي. تريدون أن يكون للفيلق العربي دور في إخماد الاضطرابات غرب النهر. هذا قرار القيادة وأنا ملتزم بإطاعته. لكن خطتك ليست ملزمة لي. أنا أتعاون معك فحسب. لـهذا لا تحاول إصدار الأوامر لي وإلا...

سكت، بينما جعلت الكلمات من " أبو جميع"، يزداد إعجاباً بقائده ورهبة منه. قال دومفيل بعد لحظة صمت،

تفرس خلالـها بعيني جلوب النفاذتين: لم أقصد إصدار الأوامر.

- أوكي ... وإلى أبو جميع : مستعد.

- مستعد سيدي... قال أبو جميع بصرامة.

اقتضت خطة دومفيل، تشكيل عصابة من رجال أشداء بقيادة " أبو جميع". تم إرسالـهم مع مجموعة أخرى بمثل عددهم في دورة عسكرية الى سيشل. شاهدهم السجناء في المعسكر يوم وفادتهم، وتابعوا التدريبات القاسية التي يخضعون لـها، دون أن ينتبه أحد إلى انسلاخ مجموعة "أبو جميع" وسفرها إلى مصر، حسب ما أبلغ القائد الانجليزي في سيشل.

إلا أن الطراد ويبالس واصل بهم إلى حيفا، ليترجل أبو جميع ورجالـه في ثياب قرويين فلسطينيين، ومع كل منهم وثيقة تجنيد باللغة الانجليزية، تسهل لـهم اختراق الحواجز الأمنية وتحميهم من الإيقاف والتوقيف. كتب في كل منها اسم مستعار يربط صاحبه بإحدى العائلات الفلسطينية الإسلامية. فتبدلت كنية " أبو جميع " إلى " أبو نجيم".

اتخذوا من أراضي عبد الـهادي في يعبد قاعدة لـهم. وكان دليلـهم، بل نصيرهم، داوود، شقيق عبد الـهادي، الذي طال انتظاره للثأر من القساميين، وبخاصة سيف الحاج.

عملاق طويل القامة ممتلئ الجسم مفتول العضلات. تعابيره صارمة وعيناه نفاذتان. عرف عنه في منطقة جنين بالبلطجة والبأس والفتوة. مأجور لمن يدفع أكثر وأسرع. عرباً أم إنجليزاً أم يهوداً أم عفاريت. لكنه هذه المرة انضم تطوعياً للمجموعة ثأراً لأخيه. قال لادومفيل بأنه لا يريد مقابلاً لتطوعه إلا أن يترك لـه أمر سيف الحجاج حتى يمزقه بيديه المجردتين. عندها سيدفع المكافأة من جيبه لرجال " أبو جميع".

خطب أبو جميع بالمجموعة على طريقته، محمساً إياهم من خلال إثارة الارتباك بالأسئلة والتحفيز بالأجوبة: شو أنا.؟.

- قايدنا سيدي.

- ما هو قصدي. شو ديني يا فهيم.؟.

- ...

- مسيحي. وراح أورجيكم كيف المسيحي بطيع الأوامر. انتوا مسلمين .آ. مسلمين والا مش مسلمين.؟.

- مسلمين سيدنا.

- ولما يـجي الدور على المسلمين، انتو من أي دين.

- ...

- دين العسكرية. مفهوم. العسكري بطيع أوامر القايد، لو كان هادا القايد مجوسي. مفهوم.

- مفهوم سيدنا.

- وإنت يا داوود.؟. بقولوا إنك قبضاي وقد حالك.

- اسأل عني.

- من غير ما اسأل بعرف شو إنت وليش فتحت لنا بيتك وحطيت تحت تصرفنا أراضي عيلتك. ما بهمني هدفك. اثأر على كيفك. بس المهم بدك تتحرك على كيفي. مفهوم.

- مفهوم.. قال داوود بامتعاض، فتحول أبو جميع عنه إلى باقي الرجال وهو يكز على أسنانه قائلاً: راح اقتل

بإيدي، كل متراخي أو متـهاون. إذا انفلتات بتتركوني بأرضي.. وصرخ : مفهوم ...

كانت خطته تقضي بالإغارة على المناطق البعيدة من يعبد، ليعودوا اليها بالسيارات التي وضعها دومفيل تحت تصرفهم، كما أنقد ابو جميع ألف جنيه استرليني، لتحلية مقاتليه بعد كل إغارة. اما العتاد، فكان يصل إلى أراضي عبد الـهادي مع البكب الذي ينقل الخضار. كانت أوامر "أبو جميع" حازمة بمثل حزم رجالـه. فمن يموت منهم يتركونه في أرضه حتى ولو كان القتيل " أبو جميع "، لـهذا عليهم أن يغيروا بسرعة ويضربوا بقسوة، وينسحبوا مثل الرياح. يريدهم قساة على الأعداء، بمثل قسوتهم على أنفسهم. مع أنه لا يتوقع أن يسقط قتيل منهم، إذا ما أطاعوا حرفية أوامره.

ابتدأوا بصفد، فهاجموا حارة المسيحيين وهم يصرخون: ا أكبر. ا أكبر. بينما أبو جميع يستفزهم بأعلى صوته: ما تخلو ولا نصراني. اليهود أهون منهم... فيرددون على مسامع الأهالي: احنا رجالك يا أبو نجيم، وهم يقتلون دون تمييز بالعمر أو الجنس أو الهوية.

في أقل من نصف ساعة اختفى المهاجمون وكأن الأرض ابتلعتهم. مخلفين وراءهم عشرة إصابات وثلاث حالات اغتصاب. بينما سيف الحجاج في وادي الطواحين يتدارس ورفاقه خطوته التالية للهجوم على مركز لواء الجليل في الناصرة. فسبقه إليها رجال "أبو نجيم"، بعد أيام، في هجوم مباغت سريع على قرية المجيدل، وهم يصرخون: ا أكبر . ا أكبر. ما تخلوا ولا صليبـي خاين. فاستيقظت ذكرى مذبحة الأجداد التي طواها النسيان.

في اليوم التالي التجأ رئيس بلدية الناصرة إلى الانجليز لحماية المسيحيين من المسلمين. بينما ينقد أبو جميع كل رجل شارك بالهجوم، عشرة جنيهات استرلينية، أثارت حسد رفاقهم ممن ظلوا في يعبد ينتظرون دورهم في الإغارة التالية لتستيقظ حمى الغزو من سباتها فتحرق دواخلهم بنارٍ لا يطفؤها إلا مكافآت " أبو جميع "، وقبلها أسلاب إغاراتهم على المسيحيين. باستثناء داوود الذي وزع مكافأته على الآخرين، مقسماً بروح أخيه أن يدفع عشرة أضعافها لمن يساعده على الإمساك بسيف الحجاج.

بعد أسبوعين تنادى المسيحيون للتراص والتسلح في كل أنحاء فلسطين. فقد اعتدت مجموعة " أبو نجيم"، الأصولية على قدسية كنيسة المهد، فقتلوا عدداً من حراسها وقساً، كما أحرقوا منامات الأقباط.

قال جاوب لدومفيل، بأن العملية حمقاء وقد تأتي بنتائج عكسية. بعد أيام ندد الكرسي المقدس والمجلس الإسلامي بهذه العصابة التي تروم إيقاع الفتنة بين المسلمين والمسيحيين. فانتقل أبو نجيم ورجاله إلى الخطوة التالية.

حملوا بطاقات شخصية بأسماء مسيحية في إغاراتهم على القرى الإسلامية انتقاماً لما فعله المسلمون بهم وهم يرسمون الصلبان على البيوت التي يفتكون بأصحابها.

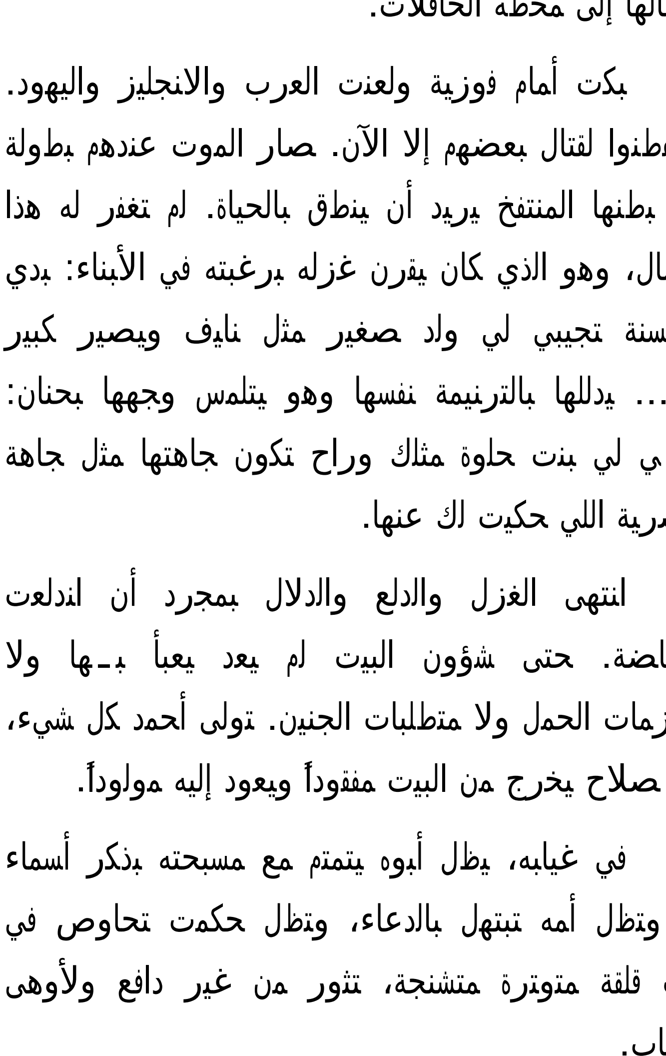
عاد عبد القادر الحسيني من دمشق، ليستنفر رجال الجيش المقدس وسط فلسطين، بينما يتوجه سيف من الشمال متتبعاً أثر العصابة التي انكشف أمرها دون أن يتوقف نشاطها، وهي تهاجم المسيحيين تارة، وترد بهجمة انتقامية ضد المسلمين.

٨

أنجبت حكمت وليدها الثاني في اليوم نفسه الذي كان جلوب يحتفل بزواجه في عمان. الاحتفال الصاخب وشرب الأنخاب في بيت جلوب، كان يقابله كمد وقنوط في بيت صلاح. لم يقدم الإينر هذه المرة ولا دوت زغاريد الأم، بينما الطفل يصرخ خشية مجهول الحياة، وأبوه يصرخ في مواجهتها.

كانت لحظات الطلق صعبة. زاد من قسوتها، غياب صلاح عنها لانشغاله بتنظيم المظاهرات وقيادتها ضد سلطات الانتداب. لم تغفر له حكمت إيثاره قضيته على قضيتها.

كان يغادر البيت باكراً ويعود متأخراً. أحياناً يغيب أياماً، دونما اعتبار لقلق والديه أو مراعاة لزوجته التي يستلزم منها الحمل الراحة والحذر وهدوء البال. حتى عندما وافقتها العائلة على الذهاب إلى بيت أبيها، بعد اشتداد

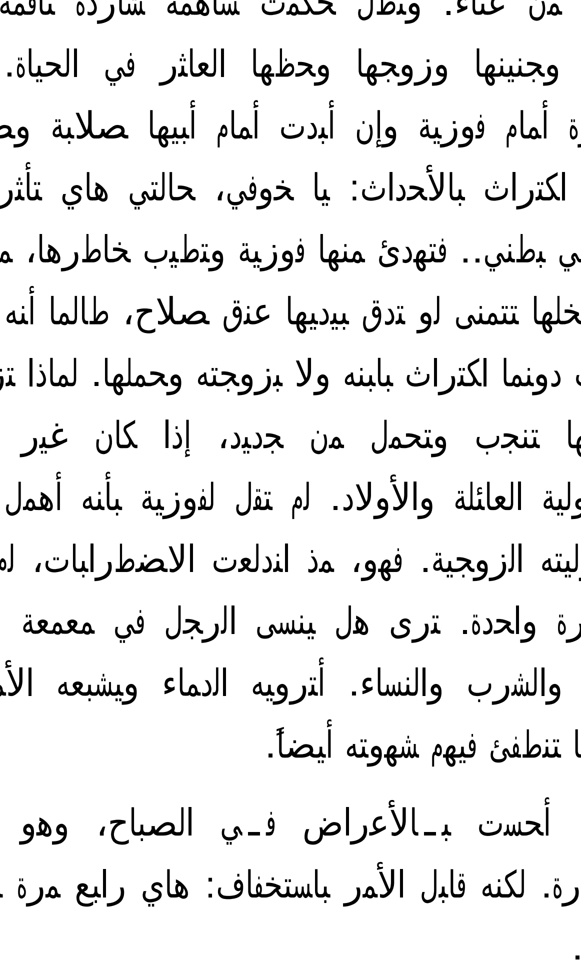


الاضطرابات، لم يكلف نفسه مرافقتها إلى عمان، بل اكتفى بإيصالها إلى محطة الحافلات.

بكت أمام فوزية ولعنت العرب والانجليز واليهود. ألم يفطنوا لقتال بعضهم إلا الآن. صار الموت عندهم بطولة بينما بطنها المنتفخ يريد أن ينطق بالحياة. لم تغفر له هذا الإهمال، وهو الذي كان يقرن غزله برغبته في الأبناء: بدي كل سنة تجيبي لي ولد صغير مثل نايف ويصير كبير مثلي... يدللها بالترنيمة نفسها وهو يتلمس وجهها بحنان: جيبـي لي بنت حلوة مثلك وراح تكون جاهتها مثل جاهة الناصرية اللي حكيت لك عنها.

انتهى الغزل والدلع والدلال بمجرد أن اندلعت الانتفاضة. حتى شؤون البيت لم يعد يعبأ بـها ولا مستلزمات الحمل ولا متطلبات الجنين. تولى أحمد كل شيء، بينما صلاح يخرج من البيت مفقوداً ويعود إليه مولوداً.

في غيابه، يظل أبوه يتمتم مع مسبحته بذكر أسماء ا ، وتظل أمه تبتهل بالدعاء، وتظل حكمت تحاوص في البيت قلقة متوترة متشنجة، تثور من غير دافع ولأوهى الأسباب.



عندما يعود إلى البيت منهكاً مغبراً متهدل الثياب وأحياناً ملطخاً بالدماء، يسارع والداه لخدمته وتلقي بعض ما يكابده من عناء. وتظل حكمت ساهمة شاردة ناقمة على نفسها وجنينها وزوجها وحظها العاثر في الحياة. بكت بمرارة أمام فوزية وإن أبدت أمام أبيها صلابة وصرامة وعدم اكتراث بالأحداث: يا خوفي، حالتي هاي تأثر على اللي في بطني.. فتهدئ منها فوزية وتطيب خاطرها، مع أنها في داخلها تتمنى لو تدق بيديها عنق صلاح، طالما أنه مندفع للموت دونما اكتراث بابنه ولا بزوجته وحملها. لماذا تزوجها وجعلها تنجب وتحمل من جديد، إذا كان غير مؤهل لمسؤولية العائلة والأولاد. لم تقل لفوزية بأنه أهمل أيضاً مسؤوليته الزوجية. فهو، مذ اندلعت الاضطرابات، لم يأتها إلا مرة واحدة. ترى هل ينسى الرجل في معمعة القتال، الأكل والشرب والنساء. أترويه الدماء ويشبعه الأموات، وربما تنطفئ فيهم شهوته أيضاً.

أحست بـالأعراض فـي الصباح، وهو يستعد للمغادرة. لكنه قابل الأمر باستخفاف: هاي رابع مرة بتقولي قربت.

- ها المرة مختلفة.

كان يعتقد أنها تروم إبقاءه في البيت، شأنها في المرات السابقة. إلا إنها لم تكن كذلك هذه المرة. فأنجبت مولودها ظهراً، وعاد صلاح إلى البيت بعد منتصف الليل، متحدياً منع التجول بينما الرصاص يخترق الظلام، فيصم أذني حكمت أكثر من صراخ المولود الذي لم يتوقف عن البكاء. وكأنه يبكي يتمه المنتظر.

عندما وصل، حاول أن يتماسك ويعكس الفرحة في وجهه، لكن دون جدوي. كان التعب والجزع والتوتر ومشاهد الموت والجراح، أقوى من فرحة الميلاد. وكان سخط حكمت ونقمتها عليه أقوى من خشيتها على موته وفرحتها بميلاد ابنه. أشاحت عنه وهو يحاول استرضاءها: هاي إجا الفارس اللي أبوك بدوه اياه ...

ازاحت يده بيدها عندما هم بتلمسها. قررت ليلتها أن تختار للمولود اسماً غير ما اتفقا عليه. إذا كان أبوها يرغب بابن يكون فارساً مثله وليس عفريتاً مثل فخري، فليتزوج، ولتنجب له زوجته قبيلة فرسان. لن يضحك عليها صلاح ويخدعها بهذه التسمية ارضاء لأبيها. الفارس بالفعل وليس

بالاسم. الفارس لا يهمل بيته وعائلته من أجل شغبٍ جمهوره صبيان. كيف يسمح لنفسه وهو معلم الأجيال، أن يدفع هؤلاء الفتية للهلاك لقاء الهتاف.؟. وهل أعاش التعييش ميتاً أو أمات التمويت حياً؟. أهذه هي الفروسية التي يريد استرضاء أبيها بها.؟. لو قصد أبوها بالفارس، اسماً يكتب في شهادة الميلاد، لما كان صعباً عليه تبديل اسم فخري ليصبح فارس الفرسان. لكن أباها قصد بالفروسية مسؤولية النبل والأخلاق، وليس التهور والاندفاع والشغب والعراك. لهذا يقسو أبوها على فخري. يريده نبيلاً يتحمل المسؤولية وليس شرساً في العراك. حتى هذه ليست من سمات صلاح، الذي يحرض التلاميذ على التصدي بالحجارة للجيوش المدججة بالسلاح. لو كان ابنه بينهم، هل سيدفعه للموت مثلهم. مساكين أهالي هؤلاء الصغار. يحلمون بأبنائهم كباراً ليل نهار، كي يتثكلوا بهم وهم على أبواب الشباب. إذا كان لا يكترث بالموت، فهي تكترث بالحياة. وإذا أوشكت على اعتياد غيابه، لن تسمح بأن يعتاد ولداها الغياب. لن تسمح لقلقها أن يتكرر. الزوج شيء والابن شيء آخر. تريد ولديها فارسين كما

يرغب أبوها. فارسين نبيلين بالقيم والأخلاق. ستسمي ابنها نبيل.

لم يكن اليوم التالي يختلف عن أمسه. كل هواجسها وتداعياتها والسخط الذي نطق به وجهها لم يشف صلاح من هذا الإدمان، ولا أخّر في التحاقه باحتفال الدماء. لم يهدأ صراخ الطفل إلا مع اقتراب الفجر، فنامت تعبة مهدودة الحيل مرتخية الأعضاء. وعندما أفاقت جاءت لها حماتها بالطعام: ا يحميك ... قالت وهي تتلمس المولود بالكوفلية، وكانت حكمت تدرك أنـها تقصد صلاح: الفارس تبعك ما خلاًنا نعرف ننام.. هذه المرة كانت حكمت تدرك أن حماتها تقصد المولود، وإن كان قولها ينطبق على صلاح.

سلم صلاح من الموت والاعتقال. لكنه، بعد هدوء الأحوال، لم يسلم من العقاب. فتشيح عنه حكمت، منتبهة إلى طفليها، إذا ما تطرق أحد أفراد العائلة لما حلّ به. حتى عندما يؤنبه أخوه أحمد، تلوذ بالصمت وكأن الأمر لا يعنيها، دون أن تخفي تعابيرها أجيج غضبها وغيظها، تاركة مهمة الإفصاح لأحمد. ماذا استفاد من كل ذلك.؟. ها هو المفتي الذي تزعم الانتفاضة يختفي برمشة عين، ليظهر آمناً مطمئناً

في بيروت. ماذا كانت المحصلة من الاضطرابات.؟. قتل وإصابات واعتقالات. لينتهي كل ذلك مع نداء الملوك والقادة العرب، وكأن شيئاً لم يحصل. بل جاءت النتيجة بالأسوأ. العدل الذي وعدت به بريطانيا، انقلب إلى تنكيل ومداهمات واعتقالات وترميج ونفي خارج البلاد. وانت . ماذا استفدت يا صلاح؟. طبعاً لا شيء. لكنك تضررت، وخسرت وظيفتك التي كان يحسدك الناس عليها. من معلم مدرسة يتقرب لك الجميع، إلى كاتب في صحيفة تعمل يوم وتتعطل عشرة.؟ لن أتحدث عن المعاش الذي لن يكفيك أجور تنقلات بين القدس وحيفا. لكني أسألك، بربك، ألا تشعر بالذنب تجاه الأهالي الذين تثكلوا.؟. حط عقلك براسك يا صلاح .. فيصرخ صلاح: لا تزيدها علي. حط عقلك انت بصهاريجك واتركني بحالي. يا أخي، انا اعتزتك بشيء؟. لما اعتازك طقّع لي. انا هيك، ومبسوط لأني هيك. قضيتي أهم عندي من الوظيفة والمصاري؟ فاهم.؟.

- والعيلة... تعقب حكمت بغيظ، بعدما تفقد السيطرة على كبح اختلاجاتها. فيسألها صلاح بحدة: ليش أنا مقصر مع العيلة.؟.

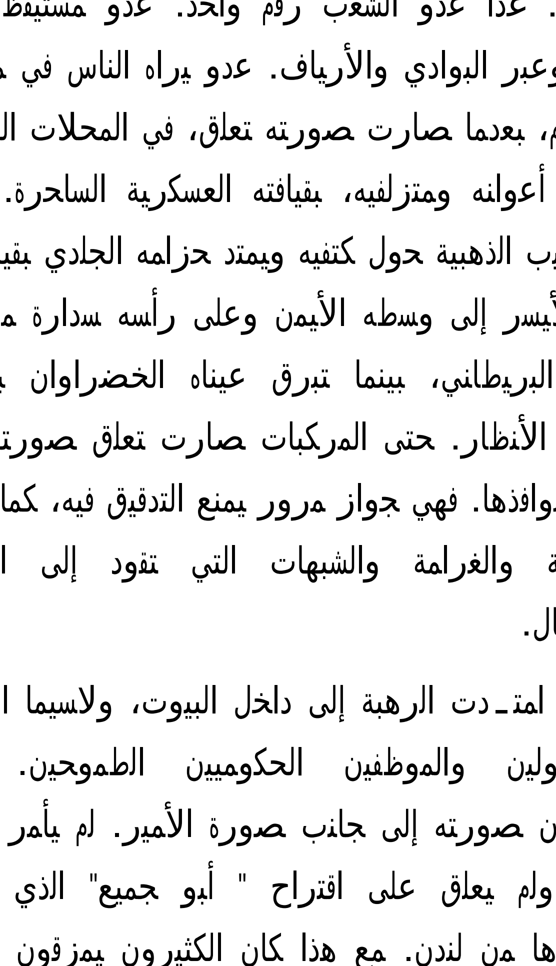
- شو بعرفني. اسأل حالك.

- عاجبك ... يقول موجهاً الحديث لأحمد. ويغادر غاضباً.

في الليل، يحاول استرضاءها والتهوين عليها: كله منشانكم. انت بتفكري في وضع الأولاد هلأ، أنا بفكر بمستقبلهم. إحنا بخطر يا حكمت. اليهود بدهم ياخدوا بلادنا. بدك إياني اسكت..

يظل يتحدث ساعات وكأنه في اجتماع حزبي. دون أن يفلح في تليين عنادها. حتى وهو يطارحها الغرام: كل اللي بتحكيه لازم يخليك تحط عقلك براسك، مثل ما قال أحمد. لإيمته بدك نضل عالة على أهلك يا صلاح. وا صرت أخجل كل ما أروح أزور أهلي وإيدي فاضية.

بعد عام، رجح اسم فارس على أسماء المواليد في دائرة نفوس عمان، تقرباً لأبيه الذي ازداد رهبة ونفوذاً مع توليه قيادة الفيلق العربي خلفاً لسلفه بك. الأمر الذي جعل صلاح يندم على تسمية ابنه "فارس". فقد اجتاحت البلاد، شرق النهر وغربه نقمة عارمة على "أبو فارس"، بسبب

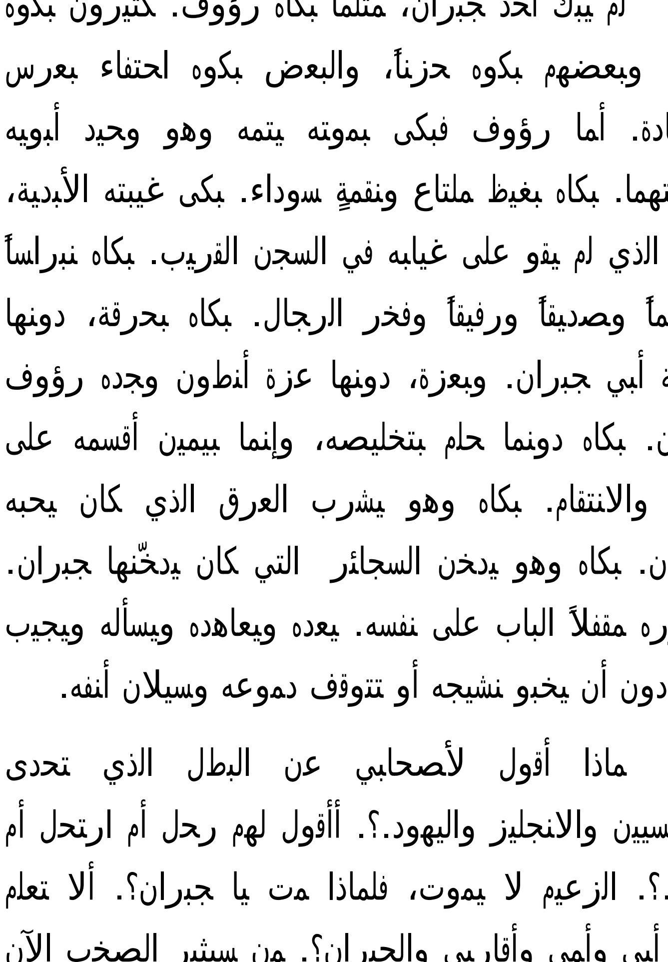


بطش رجاله بالوطنيين بقسوة أكثر من قسوة الانجليز واليهود. غدا عدو الشعب رقم واحد. عدو مستيقظ داخل المدن وعبر البوادي والأرياف. عدو يراه الناس في منامتهم ويقظتهم، بعدما صارت صورته تعلق، في المحلات التجارية وبيوت أعوانه ومتزلفيه، بقيافته العسكرية الساحرة. تتدلى الشراشيب الذهبية حول كتفيه ويمتد حزامه الجلدي بقيافة من كتفه الأيسر إلى وسطه الأيمن وعلى رأسه سدارة مرصعة بالتاج البريطاني، بينما تبرق عيناه الخضراوان بجاذبية تخطف الأنظار. حتى المركبات صارت تعلق صورته على زجاج نوافذها. فهي جواز مرور يمنع التدقيق فيه، كما يجنب المساءلة والغرامة والشبهات التي تقود إلى التحقيق والاعتقال.

امتـدت الرهبة إلى داخل البيوت، ولاسيما الضباط والمسؤولين والموظفين الحكوميين الطموحين. فعلق الكثيرون صورته إلى جانب صورة الأمير. لم يأمر جلوب بذلك، ولم يعلق على اقتراح " أبو جميع" الذي ارتأى استيرادها من لندن. مع هذا كان الكثيرون يمزقون صوره في التظاهرات الشعبية، ويحطمون زجاج المحلات التي

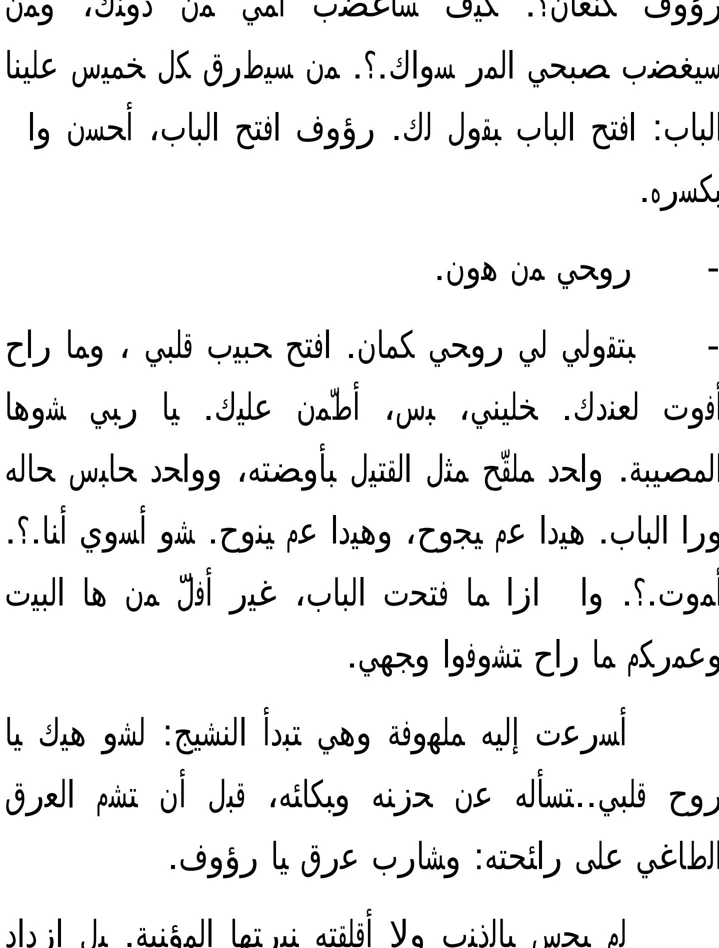
تعلقها. لكن ذلك لم يكن يثير غضب جلوب، مثلما يثيره عصيان أوامره التي يحذر البكتاشيون من الإخلال بها. " امبارح اعتقلوا واحد كان فاتح على إذاعة برلين، وصادروا الراديو، وسكروا محله بالشمع الأحمر". " فيه واحد مات تحت الضرب لأنوه مزع صورة كلوب". "يا عمي، شو إحنا حتى نعلن الحرب على ألمانيا. بس هيك بدوه كلوب". " هو اللي غير اسم المجلس التنفيذي، وصار اسمه مجلس وزراء. ولا تنسوا إنوه بغير الوزارة وبعين الوزراء".

٩



لم يبك أحد جبران، مثلما بكاه رؤوف. كثيرون بكوه شاباً، وبعضهم بكوه حزناً، والبعض بكوه احتفاء بعرس الشهادة. أما رؤوف فبكى بموته يتمه وهو وحيد أبويه وأثرتهما. بكاه بغيظ ملتاع ونقمةٍ سوداء. بكى غيبته الأبدية، وهو الذي لم يقو على غيابه في السجن القريب. بكاه نبراساً ومعلماً وصديقاً ورفيقاً وفخر الرجال. بكاه بحرقة، دونها حرقة أبي جبران. وبعزة، دونها عزة أنطون وجده رؤوف كنعان. بكاه دونما حلم بتخليصه، وإنما بيمين أقسمه على الثأر والانتقام. بكاه وهو يشرب العرق الذي كان يحبه جبران. بكاه وهو يدخن السجائر التي كان يدخّنها جبران. يحاوره مقفلاً الباب على نفسه. يعده ويعاهده ويسأله ويجيب عنه دون أن يخبو نشيجه أو تتوقف دموعه وسيلان أنفه.

ماذا أقول لأصحابي عن البطل الذي تحدى الفرنسيين والانجليز واليهود.؟. أأقول لهم رحل أم ارتحل أم مات.؟. الزعيم لا يموت، فلماذا مت يا جبران؟. ألا تعلم بأنك أبي وأمي وأقاربي والجيران؟. من سيثير الصخب الآن



في ضهور الشوير، ومن سيفتح خزانة الأحلام في بيت رؤوف كنعان؟. كيف سأغضب أمي من دونك، ومن سيغضب صبحي المر سواك.؟. من سيطرق كل خميس علينا الباب: افتح الباب بقول لك. رؤوف افتح الباب، أحسن وا بكسره.

- روحي من هون.

- بتقولي لي روحي كمان. افتح حبيب قلبي ، وما راح أفوت لعندك. خليني، بس، أطّمن عليك. يا ربي شوها المصيبة. واحد ملقّح مثل القتيل بأوضته، وواحد حابس حاله ورا الباب. هيدا عم يجوح، وهيدا عم ينوح. شو أسوي أنا.؟. أموت.؟. وا ازا ما فتحت الباب، غير أفلّ من ها البيت وعمركم ما راح تشوفوا وجهي.

أسرعت إليه ملهوفة وهي تبدأ النشيج: لشو هيك يا روح قلبي..تسأله عن حزنه وبكائه، قبل أن تشم العرق الطاغي على رائحته: وشارب عرق يا رؤوف.

لم يحس بالذنب ولا أقلقته نبرتها المؤنبة. بل ازداد تحدياً وهو يتناول الكأس من جانبه ويتجرع بقيتها دون أن

يخفف خدره من تشنجه. قال وهو يكز أسنانه: والمسيح، لأنتقم له.

- يا مصيبتي أنا .. قالت مارغو لواصف بعدما قال كأنه يحادث نفسه:ما راح تروح لهـم.

- كيف.؟. تروح انت وابنك لعندهم.

لم يقتصر التوتر على بيت كنعان، بل امتد إلى منفذيات الحزب، في أشكال شتى. من تأبينات علنية إلى مقالات ثأرية. إلا أن أكثرها سخونة ترجمـته الاشتباكات العنيفة مع الشيوعيين، الذين لم يكتفوا بتأييد سلخ سنجق الاسكندرون عن سوريا ومنحه إلى تركيا لكسب تحالفها ضد المانيا النازية، وإنما أعلنوا على لسان أمينهم العام خالد بكتاش، معارضتهم للثورة في فلسطين، التي بنظرهم تشتت الجهود البريطانية في مواجهة الخطر النازي.

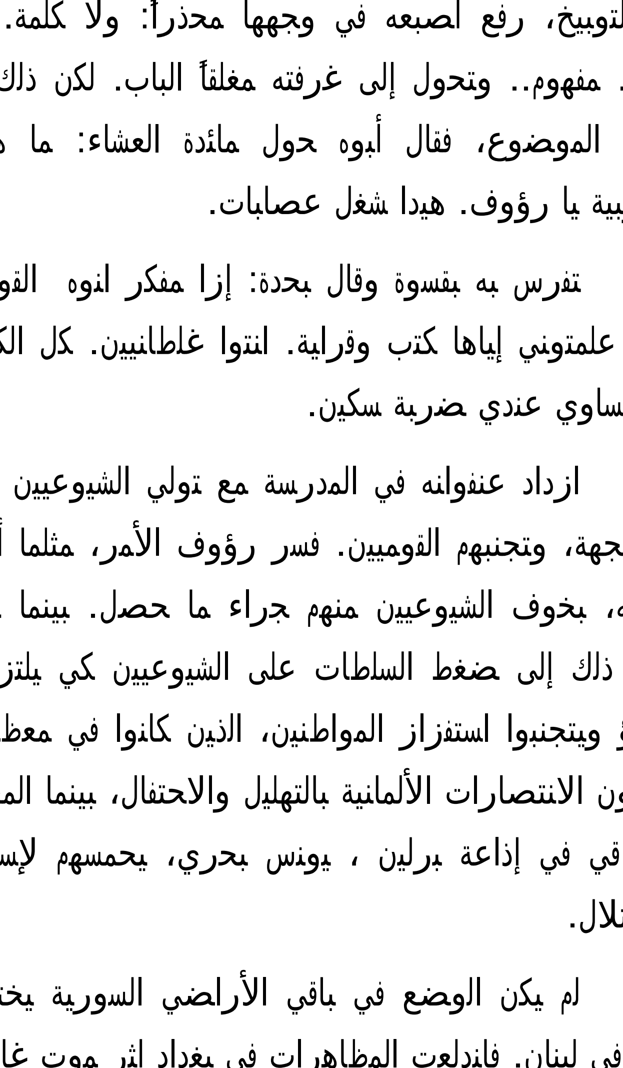
لم يكن رؤوف بحاجة إلى إيعاز أو موافقة حزبية للتصدي للشيوعيين. إنه مسؤول تنظيم البكالوريا ولا يتلقى التعليمات إلا من انطون. وانطون الآن في البرازيل. كما لم يؤثر به رجاء أمه واستجداؤها، لتعليق نشاطه الحزبي لحين

تخرجه من المدرسة هذا العام، وليفعل بعدها ما يريد. لكنه فعل ما يريد في الوقت الذي يريد، وهو يتصدى مع رفاق المدرسة للشيوعيين الذين تنادوا إثر مشاجرة بين رفيق لهم وأحد القوميين السوريين.

كان الشيوعيون أسرع على الالتـئام والتعاضد والهجوم، نظراً لاحتمائهم بسلطات الانتداب. كانوا يمثلون رصيدها الشعبي المنظم في إحدى أحرج فترات التاريخ الفرنسي، بينما هتلر يمحو عن الألمان عار فرساي، متعهداً لشعبه بإرغام فرنسا على الاستسلام.

لم يكن أمام القوميين، بتنظيمهم السري، إلا اللجوء للعنف والسرعة في مواجهة الشيوعيين الذين يعملون جهارة ويتزودون بالسلاح من سلطات الانتداب.

اقتيد رؤوف إلى السجن، بعدما أدمى بالجنـزير خمسة شيوعيين وأدمى رفاقه بالأمواس والسكاكين عشرة آخرين، بينما سقط من القوميين قتيلان وعشرون جريحاً. الأمر الذي جعل سلطات الانتداب تغلق القضية سريعاً، وتفرج عن المعتقلين من الجانبين مع أخذ تعهد من أولياء أمور الطلبة بلجم أبنائهم عن تكرار الأمر.



استقبلته أمه بتعابير مغتاظة، وقبل أن تبادر التأنيب أو التوبيخ، رفع أصبعه في وجهها محذراً: ولا كلمة. أنا هيك. مفهوم.. وتحول إلى غرفته مغلقاً الباب. لكن ذلك لم يغلق الموضوع، فقال أبوه حول مائدة العشاء: ما هيك الحزبية يا رؤوف. هيدا شغل عصابات.

تفرس به بقسوة وقال بحدة: إزا مفكر انوه القومية اللي علمتوني إياها كتب وقراية. انتوا غلطانيين. كل الكتب ما بتساوي عندي ضربة سكين.

ازداد عنفوانه في المدرسة مع تولي الشيوعيين عن المواجهة، وتجنبهم القوميين. فسر رؤوف الأمر، مثلما أكده رفاقه، بخوف الشيوعيين منهم جراء ما حصل. بينما كان مرد ذلك إلى ضغط السلطات على الشيوعيين كي يلتزموا الهدؤ ويتجنبوا استفزاز المواطنين، الذين كانوا في معظمهم يقابلون الانتصارات الألمانية بالتهليل والاحتفال، بينما المعلق العراقي في إذاعة برلين ، يونس بحري، يحمسهم لإسقاط الاحتلال.

لم يكن الوضع في باقي الأراضي السورية يختلف عنه في لبنان. فاندلعت المظاهرات في بغداد إثر موت غازي

الذي اتهمت إذاعة برلين الانجليز بتدبير اغتياله، وتسلل عبد القادر الحسيني على رأس قوة إلى فلسطين، ولم تبرأ جراحه بعد. هذه المرة اتسع نطاق المعركة ليشمل إضافة إلى الانجليز واليهود، ملاحقة عصابة "أبو نجيم"، التي روعت المسلمين والمسيحيين.

في شرق الأردن. تولى البكتاشيون تزويد جلوب بالمعلومات عن الأهالي أولاً بأول، وترويج الإشاعات عن الانتصارات البريطانية الساحقة. لكن ذلك لم يحل دون الاستماع للإشاعات المقابلة التي تبثها إذاعة برلين، رغم حظر الاستماع لها. صار الناس يترقبون بلهفة ذلك اليوم الذي سيعلقون فيه صورة هتلر بدلاً من صورة هذا الانجليزي الرهيب.بينما يلتجئ جلوب كل مساء إلى المسيح جاثياً بجانب السرير: يا رب إنني التمس منك، وأدعوك أن تحفظ انجلترا.

لم يكتف لنصرة قومه باستجداء معجزات الرب، بل دفعه قلقه للسعي إلى معجزات الإنسان.

ذهب إلى تكية مقصود، ولو من باب الفضول، لكثرة ما سمع عن أعاجيب شيخها الذي يسخر لخدمته المردة

والجان، وينازل بقضبان الرمان شياطين عتاة أكثر من الألمان.

لكنه رغم اهتزاز ثقته بنفسه، وتصدع صورته المهيبة أمام زوجه، ظل يزاول عمله كالمعتاد، مبدياً لمعاونيه وزائريه ومن يلتقيهم من وزراء ورسميين، بأنه يعرف مالا يعرفونه، ويمتلك معلومات لن يمتلكوها. فلما قال له الأمير: ضاعت بلجيكا.. قاصداً جس نبضه ومعرفة رد فعله. عبر وجه جلوب عن التساؤل الساخر وهو يعقب: وماذا يعني.؟. إذا احتاجوا مساعدتنا، نحن جاهزون.

- وإذا اذعنوا للاستسلام .؟.

- من .؟. البلجيك.؟. ممكن. لكن انجلترا مستحيل. سأروي اك قصة يا سمو الأمير. استدعى روزفلت كلاً من هتلر وموسوليني وتشرشل حول عشاء بجانب حوض سباحة فيه سمكة واحدة. قال لهم بأن الحرب ليس فيها رابح، فأنكروا عليه قوله. الحرب دائماً فيها رابح وخاسر. قال بأنها قد تفلت من أيديهم، فأصر كل منهم على أنه يقبض على مصيرها.

- حسناً .. قال روزفلت، وأضاف: في هذا الحوض سمكة واحدة، من يستطيع القبض عليها، قبض على مصير الحرب.

لم يتمهل موسوليني لحظة. بل قفز بثيابه في الحوض، محاولاً إمساك السمكة دون جدوى إلى أن خارت قواه، ولولا أن هتلر مد يده لعجز عن الخروج وغرق في شبر ماء. ما أن جاس على الحافة مبللاً لاهثاً يختنق صدره بالسعال، حتى تناول هتلر مسدسه وراح يطلق النار على السمكة، دون إدراك علمي لانكسار الضوء.

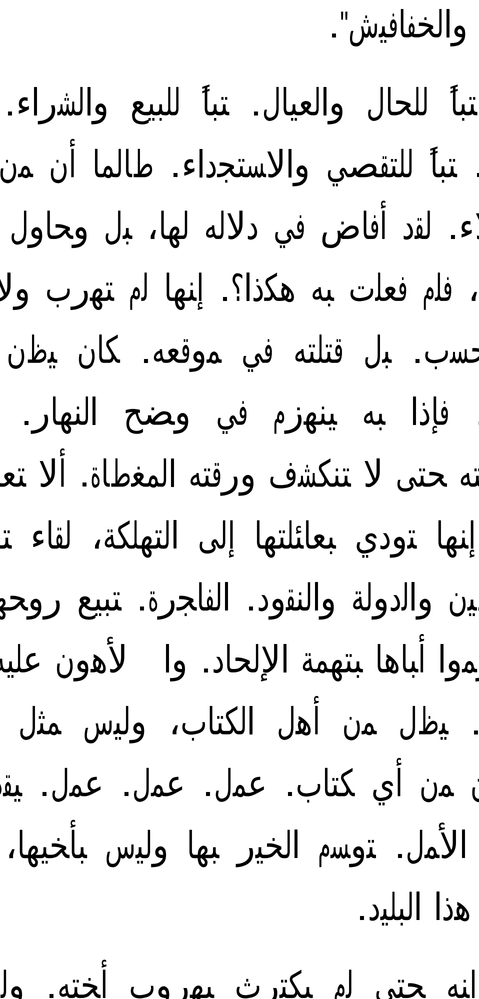
سكت جلوب للحظة وهو ينظر بوجه مشرق مرتاح إلى الأمير، منتظراً أن يسأله عما فعل تشرشل، فقال الأمير: أما تشرشل فقد تناول ملعقة وراح يغرف بها ماء الحوض ويرميه جانباً: قد يأخذ معي الأمر وقتاً طويلاً مستر روزفلت. لكن في النهاية سيفرغ الحوض من الماء وتختنق السمكة بالهواء.. تفرس جلوب بوجه الأمير الذي عقب ملاطفاً : أنا مثلك يا باشا، اسمع أقوال الصحف في البي بي سي.

١٠

هزم مال النبي ولم تبدأ الحرب بعد. طلب العون من العرب واليهود والانجليز، والتجأ إلى البوليس والجيش ومراكز الحدود والجمركيين. مد يده لقراء الكف وضاربي الرمل والمنجمين والدراويش. أفاد معظمهم أن ساره لم تغادر البلاد. إذن أين ذهبت أو اختفت أو ضاعت؟. ومن اختطفها أو قتلها أو أغواها؟.

قالت له بروز، بأن ساره انشطرت نصفين ولم تزد. قالت قارئة فنجان لزوجته، بأن ابنتها مصابة بورمٍ خبيث: شوفي شوفي كيف صايرة مثل البرميل. وظل مال النبي يصر على أنها غادرت البلاد باسم مستعار. ألا يفعل الشيء نفسه المتسللون إلى فلسطين من عرب ويهود.؟. أحس بأنه غرير مغبون، بعدما كان يظن بأنه حصيف حريص واثق أكثر من مغرور. أين تيه موسى من هذا التيه الذي يحس به داخل بيته وبين أهله. ؟. هل كفر وجحد وخالف الوصايا العشر، حتى يعاقبه ا هذا العقاب.؟. " ذاك اليوم يطرح

الانسان أوثانه الفضة وأوثانه الذهبية التي عملوها له للسجود للجرذان والخفافيش".



تباً للحال والعيال. تباً للبيع والشراء. تباً للذهاب والإياب. تباً للتقصي والاستجداء. طالما أن من ذريته يأتي هذا البلاء. لقد أفاض في دلاله لها، بل وحاول تعبيد طريق مستقبلها، فلم فعلت به هكذا؟. إنها لم تهرب ولا اختفت ولا قتلت فحسب. بل قتلته في موقعه. كان يظن بأنه متحكم بالأقدار، فإذا به ينهزم في وضح النهار. بات يخشى استشاراته حتى لا تنكشف ورقته المغطاة. ألا تعلم تلك العاقّة النجسة إنها تودي بعائلتها إلى التهلكة، لقاء تعاليم مضللة تلغي الدين والدولة والنقود. الفاجرة. تبيع روحها للشيوعية، كي يجرموا أباها بتهمة الإلحاد. وا لأهون عليه بكثير تهمة اليهودية. يظل من أهل الكتاب، وليس مثل أولئك الذين يسخرون من أي كتاب. عمل. عمل. عمل. يقدسون العمل ويقتلون الأمل. توسم الخير بها وليس بأخيها، لتهرب منه مبقية له هذا البليد.

إنه حتى لم يكترث بهروب أخته. ولن يبالي إذا ظهرت غداً على رأس تظاهرة في فلسطين أو نددت من

إذاعة موسكو بالنازيين.نفذت رغبتها ومشت بـحقائبها. آه . آه. كيف استطاعت ذلك.؟. كيف لا تستطيع وهناك عشرات من عواد النمر، يهربون العرب مثلما يهربون اليهود.؟.

عاد إلى بروز. قال لها بأنه لم يعد يبالي بهروبها. وإنما يريد معرفة هوية المهرب الذي حملها. أصغت إليه متفرسة به، وكأنه المنجم وهي الزبون. ظل يثرثر وكأنه يهذي. يسأل ويـجيب، يهدد ويتوعد، يتهم ويصدر الأحكـام. بينما تستدرجه بروز باستفسارات مقتضبة ونبرة حادة وكأنه في تحقيق. "أيوه؟". "نعم؟." "بعدين؟." "معقول.؟." "مش معقول؟." "افترض العكس؟.".

كاد يكشف تفاصيل حياته وأعمق أسراره، وهو في حالة من الانهيار والتشتت الذهني وانعدام التركيز. في لحظتها لم يكن يعنيه حياة ساره ولا موتها، وإنما استعادتها بنفسها أو ساكنة الأنفاس. كتلة واحدة أو مشطورة نصفين. سليمة أو منفوخة بخبيث الأورام: عرضي. عرضي يا ست بروز.

- صرت تحكي مثل العرب.

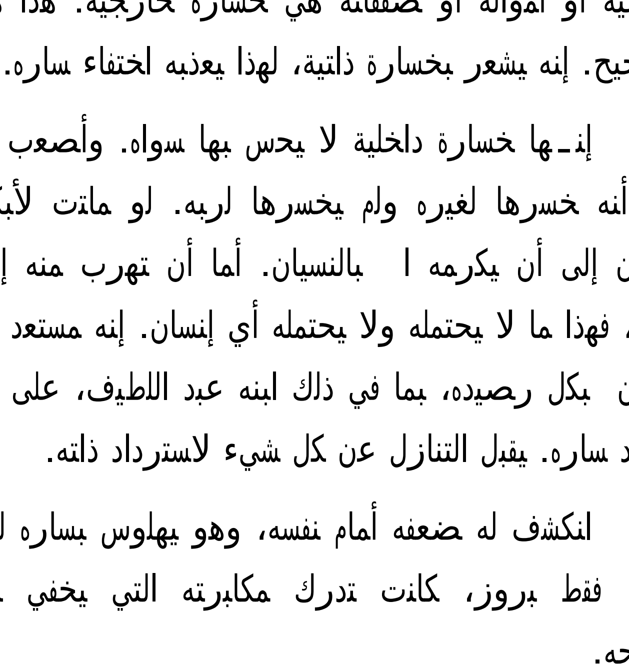
- أنا عربي . عربي . طول عمري عربي.
- وتهريب اليهود.؟.
- هادا شغل . شغل. مثل ما إنت بتشتغلي بالسحر، والسحر حرام.
- ومثل ما إنت تشتغل بالتهريب، فيه غيرك بشتغل بالتهريب.
- هادا اللي بدي أعرفه. مين اللي هربها، ووين هربت؟.
- هربت من عندك صحيح. بس ما تهربت بريت البلد.
- الكل بقول هيك. وأنا بقول تهربت. تهربت.
- إذا متأكد ليش رجعت عندي .؟.

سألته وهي متيقنة بأنه لم يأت للسؤال وإنما للكلام. إنه يدفع لها كي تسمعه وليس كي يسمعها. من له سواها إذا كان في البيت يكابر أمام زوجته خشية أن تكبر عليها مصيبتها.

في الأيام الأولى لاختفائها، صب جام غضبه على ابنه وزوجته، فانكفأ الأول في غرفته، وخرجت الثانية فارعة دارعة تهلوس بسؤال هذه الجارة وتلك. وهو يحاول تهدئتها متوسلاً مستجدياً، واعداً إياها أن يعيد إليها ساره في ساعات.

في المحل يكابر أمام زبائنه الذين لا ينقذهم من ديونهم إلا دماره. في خلوته مع نفسه، تتحاور دواخله حيناً بقسوة وحيناً بلين، وهو يخفي تعلقه بابنته تحت غطاء المصلحة والعادات والدين .

لم يكن يدري أن ساره تمتلك كل هذا الحيز في حياته، وإنها باختفائها تركته شاغراً مثل بيت فارغ يتردد فيه الصدى لأقل الأصوات. في تلك الأيام المضنية لم يعد مال النبي يهودياً ولا عراقياً ولا شرق أردني. لم يعد صاحب الأعمال والأطيان ومال قبان. تغلبت طبيعته الفطرية على قيمه الشخصية. فالقيمة قابلة للتغير حتى لو غدت تقليداً أو شريعة أو قانوناً. أما الطبيعة فهي الحقيقة ولو حجر عليها أو كبلتها القيود. ذاته لم تشكلها يهوديته واستعرابه أو أمواله، وإنما تشكلت من ذاته التي ألفت زوجته ونطقت بابنه وابنته. لهذا فإن خسارته لأي منهم هو خسارة ذاتية، بينما خسارة



مساعيه أو أمواله أو صفقاته هي خسارة خارجية. هذا هو الصحيح. إنه يشعر بخسارة ذاتية، لهذا يعذبه اختفاء ساره.

إنـها خسارة داخلية لا يحس بها سواه. وأصعب ما فيها أنه خسرها لغيره ولم يخسرها لربه. لو ماتت لأبكاه الحزن إلى أن يكرمه ا بالنسيان. أما أن تهرب منه إلى سواه، فهذا ما لا يحتمله ولا يحتمله أي إنسان. إنه مستعد أن يراهن بكل رصيده، بما في ذلك ابنه عبد اللطيف، على أن يسترد ساره. يقبل التنازل عن كل شيء لاسترداد ذاته.

انكشف له ضعفه أمام نفسه، وهو يهلوس بساره ليل نهار. فقط بروز، كانت تدرك مكابرته التي يخفي بها لواعجه.

١١

حررت البكتاشية جريراً من قيوده الاجتماعية، وعمقت الماركسية من أفكاره النظرية، ومنحته الطقوس الصوفية راحة روحية، ووفر عليه انتقاله للسكن مع مقصود إيجار البيت ونفقاته.

يبدأ منذ استيقاظه التهام الكتب التي يتزود بها من البابا قدري وبشارة وتلك التي يستعيرها من رفاقه الشيوعيين أو إخوته البكتاشيين أو يستأجرها من بائعي الأرصفة.

حفظ غيباً البيان الشيوعي، وكتاب فضل ا الحروفي "عشق نامه"، وكتب بحثاً مستفيضاً عنه نشره في جريدة الأردن. ألحقه بدراسة عن "ليلى والمجنون"، معتبراً إياها مثالاً للروعة والابتكار في طرازها المثنوي الذي تفوق فيه الحروفي على خمسة نظامي المعتمدة على الجناس. كما استمد منه معنى الحب المرتبط بالطهارة، كالذي يحمله ملائكة الجنة بعضهم لبعض. سار على هداه في نظم قصيدة طويلة حملت العنوان نفسه "خمر وحشيش"، إلا أن الصحف جميعها رفضت نشرها، مع أنه قصد بها تمجيد الخالق عن

طريق الرمز، معتبراً الخدر المادي طريقاً للخدر الروحي، وهو ما حققته له البكتاشية والشيوعية مجتمعتين.

خلصه إيمانه البكتاشي بالتناسخ من خشية الفناء، بمثل ما طهرته دنيوية الشيوعية من خطايا الحياة. توسع في دراسة نظرية الأعداد عند فيتاغورس، مما قربه من البابا قدري، الذي تقدس طريقته العدد أربعة، دونما تعمق منه في جوهر الأعداد. فإذا بجرير يصبح منظراً ومفسراً للبكتاشية، وهو يضع للأعداد صفات هندسية، حيث يناظر العدد واحد النقطة، ويناظر العدد اثنين الخط، والعدد ثلاثة يناظر السطح، والعدد أربعة يناظر الجسم، دون أن يثير بتعقيداته الكلامية حنق مقصود كما السابق، بل أصبح مقصود يتلقى هذه التفسيرات التي كانت إلى ما قبل التكية، تفلسف وهذر وخرينه. غدت ضرورة، يستخدمها مقصود في تطبيب المرضى والمصروعين والممسوسين، سواء بالحجب والرقى والتعاويذ، أو في تحديد عدد الجلدات بقضبان الرمان لطرد العفاريت وإبعاد الشيطان.

لم يكن مقصود مقتنعاً من الشيوعية بشيء، سوى اللقاءات الحوارية في بيت بشارة التي يحمل اليها عشاء

للجميع، يخص منه الرفيقات أكثر من الرفاق بانتظار اليوم الموعود الذي تسود فيه العدالة عمان، ويصبح فيها كل شيء مشاع، ولاسيما النساء. كان إيمانه بالبكتاشية يفوق إيمانه بالشيوعية، فقد حللت له النبيذ ومخالطة النساء، والأهم، أنها منحته القدرة على تفريغ غضبه وسخطه من خلال قضبان الرمان، بعدما كان يكتمه غيظاً أو يزيد من توتره الصراخ. شيئاً فشيئاً، اعتاد مقصود سلوكه، حتى غدا جزءاً منه . أصر على عمل حجاب لجرير عندما استعصى عليه الإلهام، وآخر لشمس الدين من أجل تهدئة ابنه فخري، بعدما شج رأس نجاح ابنة القهوجي "أبو عبده"، بل وكتب تعويذة، دفعها مع أحد مريديه إلى بيت انسبائه في وادي السير ليرميها في بئر الماء الذي يشربون منه. بعد أسبوع جاءه شمس الدين يسأله إن كان سيذهب لعيادة صهره مخاص الذي أصيب بشلل نصفي.

طاش صواب مقصود. ليس لأن الصدفة لعبت دورها أو أن التعويذة أعطت مفعولها، ولكن لأن المريد الذي أرسلها جثاً أمامه بخشوع مقاطعاً ذراعيه حول صدره وهو يطلب منه المغفرة ويسأله الرضى. فصدق نفسه بأنه من

أصحاب الكرامات، لينتشر صيته في البلدة، سواء في الرقى أو الحجب أو وصفات الاستطباب. حتى بروز سمعت به وصارت تحس بالغيرة منه، وتغضب من روادها إذا ما زل لسانهم بنطق اسمه. ولاسيما أنه يعالج بالمجان لوجه ا ، كما يقول للملتجئين إليه، لكن بمجرد خروجهم من عنده، يتلقفهم المريد ليقبض منهم أضعاف ما كانوا يزمعون إعطاءه لمقصود.

عمل تعويذة وضعها في كتاب استعاره من ساره. لكنه بعد فترة قصيرة من إعادته لها، اختلى بنفسه وراح يجلد جسده بقضيب رمان على ما اقترفه من خطأ في تركيب الأرقام. فقد مالت ساره إلى جرير بدلاً منه. الخطأ في التشكيلة الرقمية طير أيضاً جرير من عنده إلى بيت مستقل استأجره للسكن مع عروسه.

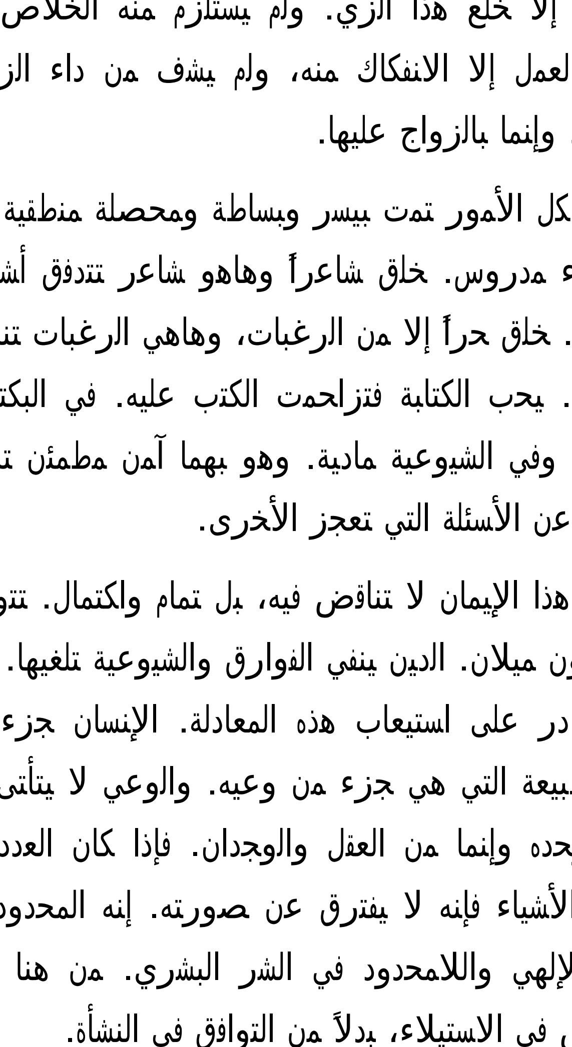
ذهب مع الرفاق للمباركة، حاملاً للعروسين أضخم هدية قدمت لهما. صندوق أمتعة مصدف حافظت نازلي على إبقائه لامعاً جديداً بعيداً عن متناول الجميع. أخفى مقصود في بطانته حجاباً في بيت جادي مثلث الشكل.

بعد أسبوعين، أخبر جرير عائلته في إربد عن زواجه، فعاد إلى عمان مدمياً منفوخ الوجه متورم العينين. فكتب له مقصود وصفة ورقية مزقها في قدح مزج فيه قليلاً من الحليب مع زيت الخروع، وجرعه قسراً لجرير وقلبه يرقص غبطة. بينما صيته ينتشر في عمان، بعدما أعطت وصفاته وضرباته مفعولها لدى العديدين ممن آمنوا به وانضموا إلى مريديه، فأطلق لحيته التي شابها بعض الشيب. واستقر في تكيته، لا يغادرها إلا نادراً. بينما تنعقد فيها من أسبوع لآخر حضرات الذكر التي تزعج الجيران وتثير رعب الصغار. وصار العابرون قريباً من البيت يشيحون عنه وهم يتعوذون خشية ورهبة.

وإذا ما صادف مروره في إحدى الطرقات، يسارع الجميع للترحيب به ودعوته إلى بيوتهم ودكاكينهم، يسألونه الرضى والبركة لمساعيهم وأعمالهم. وللبعض صار مرجعاً للكشف عن مستقبلهم، متخلياً عن قيادة الموتور لأحد مريديه ممن استقر معه في البيت، فيفتح لها باب الكابينة ليعتليها بهدوء، ويستقر في مقعدها بهيبة ووقار. يلبيه المريد لأدنى إشارة ويستقبل الملتجئين إليه، فيسألهم عن أحوالهم قبل أن

يسمح لهم بمقابلة الشيخ، ويتلقى منهم عطاياهم بعد لقائه. بينما تزهد نفس مقصود بمتع الحياة، باستثناء النبيذ الذي يساعده على النوم، والنساء اللواتي يجوس فيهن مطارداً الشياطيين. حقق ذاته وهو يغادر عتبة الأربعين، بعدما ظلمته الأيام طيلة تلك السنين، كما اعترف للبابا قدري الذي كان يؤهله لخلافته.

لم يختلف جرير عنه في مشاعره وإن اختلف في النهج والتبصر والرؤية. فهو مثله، صار يشعر بذاته في مـحطة الخمسين. لكنه لم يشعر بأن الأيام ظلمته، وإنما ظلم نفسه طيلة تلك السنين التي تطلع فيها لتوافه الحياة. ظلم نفسه بالسعي لمنصب حكومي، وظلم نفسه بالتسلح بالإقليمية وهو التركماني الغريب عن الديار. وظلم نفسه بالزواج من تلك القروية التي تعتبر الزواج فراشاً. وظلم نفسه في مقارعة الشعراء بدلاً من السمو عليهم بتفهم القديم وليس تكراره، والارتقاء بالجديد وليس تقليده. ظلم نفسه بالانصياع للقيود التي لم يكن يلزمه للتحرر منها سوى حركة بسيطة يعكس فيها رأس القفل لتسقط الأغلال بيسر وسهولة وإن أثارت قرقعة وطقطقة وزكزكة. لم يأخذ منه التخلي عن زيه



الرسمي إلا خلع هذا الزي. ولم يستلزم منه الخلاص من ضجر العمل إلا الانفكاك منه، ولم يشف من داء الزوجة بطلاقها، وإنما بالزواج عليها.

كل الأمور تمت بيسر وبساطة ومحصلة منطقية كأن كل شيء مدروس. خلق شاعراً وهاهو شاعر تتدفق أشعاره كالشلال. خلق حراً إلا من الرغبات، وهاهي الرغبات تنساب منه إليه. يحب الكتابة فتزاحمت الكتب عليه. في البكتاشية روحانية وفي الشيوعية مادية. وهو بهما آمن مطمئن تجيب الواحدة عن الأسئلة التي تعجز الأخرى.

هذا الإيمان لا تناقض فيه، بل تمام واكتمال. تتوازن أثقاله دون ميلان. الدين ينفي الفوارق والشيوعية تلغيها. الفن وحده قادر على استيعاب هذه المعادلة. الإنسان جزء من مادة الطبيعة التي هي جزء من وعيه. والوعي لا يتأتى من العقل وحده وإنما من العقل والوجدان. فإذا كان العدد هو نموذج الأشياء فإنه لا يفترق عن صورته. إنه المحدود في الخير الإلهي واللامحدود في الشر البشري. من هنا يأتي التعارض في الاستيلاء، بدلاً من التوافق في النشأة.

غدا جرير بالنسبة للبكتاشيين فقيهاً، وبالنسبة للشيوعيين منظّراً. دون أن يخلط أوراقه أو يكشفها في جلسات هؤلاء أو اولئك. كلاهما بالنسبة اليه طريق يصل من خلاله إلى نفسه وهو يترجم حالته بأشعار فياضة، يترنم بها البكتاشيون في حضرات ذكرهم، ويرددها الشيوعيون في اجتماعاتهم. وكانت ساره أكثر المعجبات بشعره وأسلوب حياته وجرأته. وافقته على مفهومه للحرية قولاً وفعلاً. البدن سجن الإنسان وفيه مفتاح حريته. حرية القول تأتي من البدن، كذلك حرية التفكير والعمل والفعل. لنحرر أجسادنا فيتحرر مجتمعنا.

لم يكن جرير يغويها أو يحتال عليها أو يستدرجها. كان صادقاً تماماً معها، مثلما كان صادقاً مع نفسه في التوفيق بين الصور المتعارضة التي يعكسها سلوكه الزاهد مع البكتاشية ودعوته للكفاح من أجل المساواة مع الشيوعية. كان سلوكه واحداً مع الجميع. مما كان يزيد من تعلق ساره به، دون أن يبدي من جهته ميلاً نحوها. بينما مقصود في قرارته يتهمه بالحكي الكثير والفعل القليل. فبادر إلى تعويذة الحب حتى يسحر بها ساره المسحورة بسواه.

عندما أخبرت جرير عن حملها، لم يبد تأثراً أو حيرة أو رغبة بالتملص. قال: حامل حامل.

سألته مرتابة: كيف حامل حامل.؟.

- كان متوقع . قديش صار لنا وإحنا ننام مع بعض.

- يعني كنت عارف .؟.

- وإنت ، ما كنت عارفه.؟.

- والحل.؟.

- اللي بريحك.

حتى ذلك اليوم، حاول أن يظل منسجماً مع نفسه متوافق التفكير والسلوك. إلا أنه في ليلتها كاد ينسى كل شيء وهو يستعيد شريط حياته المليء بالخيبات. ومن وقت لآخر يكابر كي لا تصرعه الهواجس: وشو يعني .؟. شو صار.؟. حامل حامل.

ظل يتقلب طيلة الليل رغم النبيذ الذي على غير عادته حرك فيه اليقظة وأطلق لسانه بحوار الطرشان. جاءه مقصود، وراح يقرأ له متلمساً جبينه كي يهدأ وينام، لكن

دون نتيجة. وكلما سأله عما به ولماذا يتكلم وحده، يقول بأنه متضايق. حتى الصراحة والجرأة التي عرفت عنه واشتهر بها، غابت عنه تلك الليلة وهو يضرب أخماساً بأسداس، كما قال لساره في اليوم التالي، وقد استرجع لسانه قدسية الأعداد.

رفضت الحل الذي اقترحه، رغم أنه الوحيد لديها. كيف ستتزوجه.؟.

- مثل كل الناس.

- أي ناس يا جرير؟ انت بتفكر أبوي ناس.؟. وا يمكن يدبحني!.

- ليش يدبحك. بدنا نتجوز على سنة ا ورسوله.

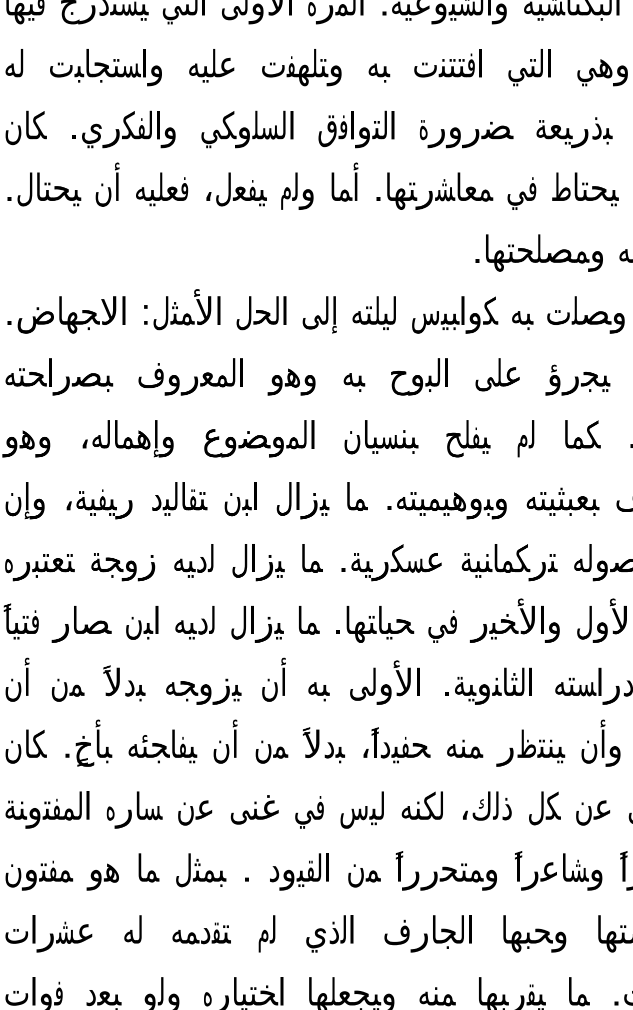
- ا ورسوله ؟!. إنت ما بتعرف إشي.

- أنا اللي ما بعرف إشي ؟!. اسمعي ساره . إذا بتظني إنوه أبوك راح يرفض لأنوه غني، إنت غلطانه. أنا راح أودي له ناس ما يقدر يقول لهم لا.

- بقول لك. ما بتعرف إشي.

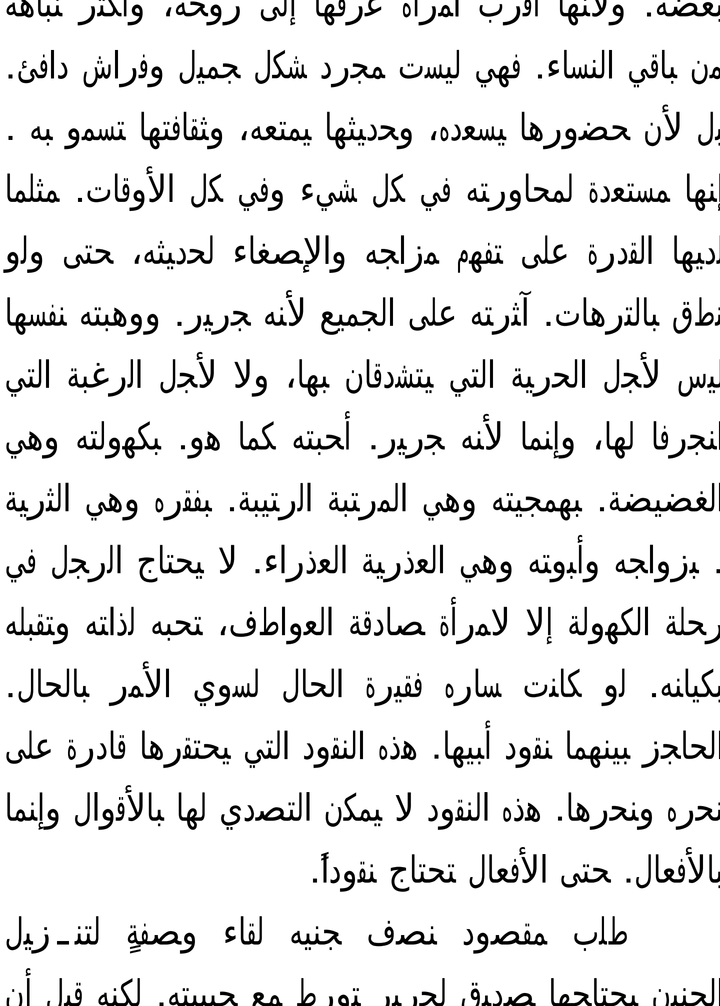
- بلاش أعرف. عندك حل تاني.

- مش عارفة. مش عارفة.



إنها المرة الأولى التي يلجأ فيها إلى الحيلة مذ حقق ذاته مع البكتاشية والشيوعية. المرة الأولى التي يستدرج فيها ساره، وهي التي افتتنت به وتلهفت عليه واستجابت له طواعية بذريعة ضرورة التوافق السلوكي والفكري. كان عليه أن يحتاط في معاشرتها. أما ولم يفعل، فعليه أن يحتال. لمصلحته ومصلحتها.

وصلت به كوابيس ليلته إلى الحل الأمثل: الاجهاض. لكنه لم يجرؤ على البوح به وهو المعروف بصراحته وجرأته. كما لم يفلح بنسيان الموضوع وإهماله، وهو المعروف بعبثيته وبوهيميته. ما يزال ابن تقاليد ريفية، وإن كانت أصوله تركمانية عسكرية. ما يزال لديه زوجة تعتبره الرجل الأول والأخير في حياتها. ما يزال لديه ابن صار فتياً وأنهى دراسته الثانوية. الأولى به أن يزوجه بدلاً من أن يتزوج، وأن ينتظر منه حفيداً، بدلاً من أن يفاجئه بأخٍ. كان في غنى عن كل ذلك، لكنه ليس في غنى عن ساره المفتونة به مفكراً وشاعراً ومتحرراً من القيود . بمثل ما هو مفتون بغضاضتها وحبها الجارف الذي لم تقدمه له عشرات الخليلات. ما يقربها منه ويجعلها اختياره ولو بعد فوات



الأوان، أنها أحبت كل شعره، الذي لم يحب الآخرون إلا بعضه. ولأنها أقرب امرأة عرفها إلى روحه، وأكثر نباهة من باقي النساء. فهي ليست مجرد شكل جميل وفراش دافئ. بل لأن حضورها يسعده، وحديثها يمتعه، وثقافتها تسمو به . إنها مستعدة لمحاورته في كل شيء وفي كل الأوقات. مثلما لديها القدرة على تفهم مزاجه والإصغاء لحديثه، حتى ولو نطق بالترهات. آثرته على الجميع لأنه جرير. ووهبته نفسها ليس لأجل الحرية التي يتشدقان بها، ولا لأجل الرغبة التي انجرفا لها، وإنما لأنه جرير. أحبته كما هو. بكهولته وهي الغضيضة. بهمجيته وهي المرتبة الرتيبة. بفقره وهي الثرية . بزواجه وأبوته وهي العذرية العذراء. لا يحتاج الرجل في رحلة الكهولة إلا لامرأة صادقة العواطف، تحبه لذاته وتقبله بكيانه. لو كانت ساره فقيرة الحال لسوي الأمر بالحال. الحاجز بينهما نقود أبيها. هذه النقود التي يحتقرها قادرة على نحره ونحرها. هذه النقود لا يمكن التصدي لها بالأقوال وإنما بالأفعال. حتى الأفعال تحتاج نقوداً.

طلب مقصود نصف جنيه لقاء وصفةٍ لتنـزيل الجنين يحتاجها صديق لجرير تورط مع حبيبته. لكنه قبل أن

يجرعها لساره بالاحتيال، جاءته تحمل حقيبة ثياب: ما فيه حل غير اللي حكيته إنت يا جرير.

كان الزواج سهلاً. فالبابا قدري أصلاً مأذون شرعي. لكن عواقب الزواج كانت أصعب مما تخيلها جرير. فقد احتمل مقصود بقاءه وعروسه لأيامٍ في بيته. كانت بالنسبة لمقصود من أقسى أيام العمر، وهو يتخيل جرير ليل نهار، يأتي الفتاة التي رغب بها وفشلت تعويذته معها. فما كان من جرير إلا الانتقال لسكن خاص به، بعدما صار مقصود يفتعل المشاكل ويبدي الصدود والجفاء، إلى أن نطق صراحة باستيائه من وجود البنت في التكية فهروب الفتاة من بيتها وزواجها من جرير بالخفاء، جلب عليها لعنة ذويها مما أفقد التكية الطهارة والنقاء.

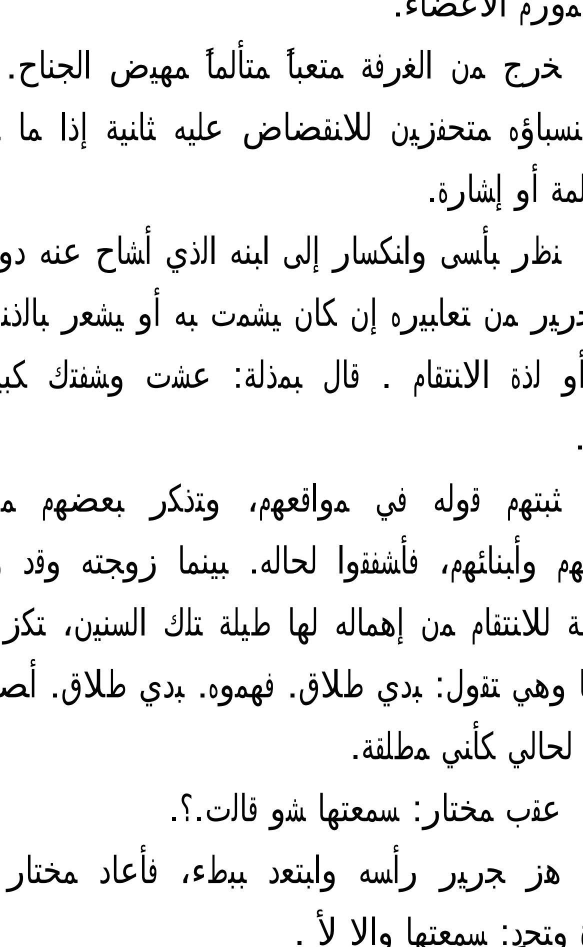
شكاه جرير للبابا قدري. لكن ذلك لم يلين موقف مقصود أو يخفف من عناده فإما أن يرحل وامرأته، أو يترك مقصود التكية وينتقل إلى مكان آخر. في هذه الحالة ، على جرير أن يدفع له الإيجار. فدفع جرير أقل بكثير مما طلب مقصود، لقاء بيت متواضع صغير قريب من مشغل بشارة.

لجأ إلى فريد، لكن فريد اعتذر عن إقراضه. لم يعد جرير مهماً بالنسبة له ، مع تخرج أخيه وليد في الجامعة وافتتاحه مكتباً للمحاماة.

لم يكن بدل الإيجار هو المشكلة الوحيدة التي تمخضت عن هذا الزواج، فخروجه عن مقصود حمله مسؤولية زوجة ينمو في أحشائها جنينه.

غادر بعد أسبوعين إلى إربد لمصارحة عائلته وطلب مساعدتها. لن يختلف موقف أمه وإخوانه عن موقف أبيه الذي حثه يوماً على الزواج من أخرى. أسعفوه ببعض النقود، لكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة لابنه الذي لم يحتمل هذا الغدر. ظل أبوه مهملاً لأسرته سنين، حتى يكافئ المسكينة أمه بهذا الزواج وهي التي أخلصت له وزهدت في الحياة لأجله. استنجد بإخوتـها، فجاؤوا مشحونين بالغضب والغيظ، بينما مختار يؤازرهم في معاقبة هذا الصعلوك الدجال: وكمان بـمد إيده عليها لأنها صاحت فيه. شو متوقع.؟. تزغرد له !.

انفردوا بجرير داخل الغرفة وهو يلعن ويشتم، بينما الصفعات واللكمات والركلات تأتيه من كل جانب، ولم ينفكوا



عنه إلا بعدما أعيتهم الضربات بمثل ما أدمت جرير وتركته خائراً مورم الأعضاء.

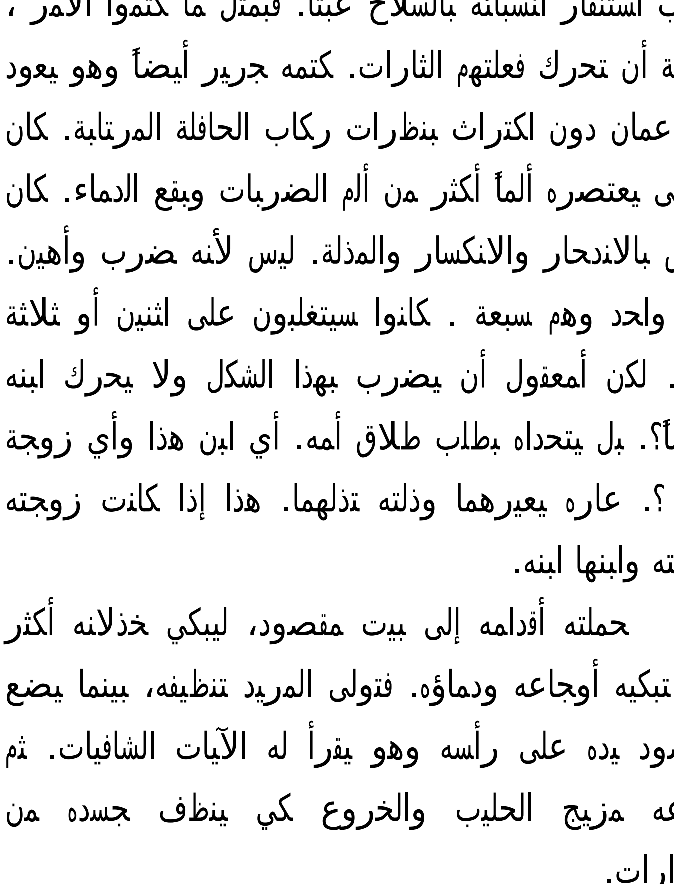
خرج من الغرفة متعباً متألماً مهيض الجناح. بينما يقف أنسباؤه متحفزين للانقضاض عليه ثانية إذا ما صدر عنه كلمة أو إشارة.

نظر بأسى وانكسار إلى ابنه الذي أشاح عنه دون أن يفهم جرير من تعابيره إن كان يشمت به أو يشعر بالذنب أو الندم أو لذة الانتقام . قال بمذلة: عشت وشفتك كبير يا مختار.

ثبتهم قوله في مواقعهم، وتذكر بعضهم مواقف زوجاتهم وأبنائهم، فأشفقوا لحاله. بينما زوجته وقد واتتها الفرصة للانتقام من إهماله لها طيلة تلك السنين، تكز على أسنانها وهي تقول: بدي طلاق. فهموه. بدي طلاق. أصلاً أنا عايشة لحالي كأني مطلقة.

عقب مختار: سمعتها شو قالت.؟.

هز جرير رأسه وابتعد ببطء، فأعاد مختار قوله بـحدة وتحدٍ: سمعتها والا لأ .



لم يستغث جرير بعائلته كما توقعت زوجته وابنه، فذهب استنفار انسبائه بالسلاح عبثاً. فبمثل ما كتموا الأمر ، خشية أن تحرك فعلتهم الثارات. كتمه جرير أيضاً وهو يعود إلى عمان دون اكتراث بنظرات ركاب الحافلة المرتابة. كان الأسى يعتصره ألماً أكثر من ألم الضربات وبقع الدماء. كان يحس بالاندحار والانكسار والمذلة. ليس لأنه ضرب وأهين. فهو واحد وهم سبعة . كانوا سيتغلبون على اثنين أو ثلاثة مثله. لكن أمعقول أن يضرب بهذا الشكل ولا يحرك ابنه ساكناً؟. بل يتحداه بطلب طلاق أمه. أي ابن هذا وأي زوجة تلك ؟. عاره يعيرهما وذلته تذلهما. هذا إذا كانت زوجته امرأته وابنها ابنه.

حملته أقدامه إلى بيت مقصود، ليبكي خذلانه أكثر مما تبكيه أوجاعه ودماؤه. فتولى المريد تنظيفه، بينما يضع مقصود يده على رأسه وهو يقرأ له الآيات الشافيات. ثم جرعه مزيج الحليب والخروع كي ينظف جسده من المرارات.

كل تلك الحرية التي انعشت روحه، والانعتاق من مسؤوليات الحياة التي أسقطت عليه شلالات الإلهام، تنتهي

مرة واحدة مع هذا الزواج الذي لم يسع إليه بل أقحم نفسه فيه. لو أصر على الإجهاض منذ البداية لما حصل ما حصل. لكنه أراد أن يأتيه من الشباك فأتى إليه الزواج من الباب. عليه الآن إعالة نفسه وزوجه ريثما يهب عزرائيل لنجدته ويقبض روح مال النبي. فقبض مريد مقصود ليرة ذهبية لماعة لقاء كشف شيخه عن الحجاب، وهو يهمهم من منخريه مع اهتزاز رأسه وانتفاض جسده أمام المبخرة التي يحترق فيها مسحوق اللبان والحرمل وقشر الرمان، ليرتفع دخان الجان متتبعاً آثار ساره وباحثاً عن مكانها : همم م م . حي . يا جامع يا جن. لاق لاق عجل إشرونا كبيب الصبي... ويصرخ : حي .... فيجفل مال النبي.

- شو يا شيخ .

- هس س س س . ساره هاطاش ما طاش هطشانة ليوم القيامة . جن جـ جـ جـ جـ .جر جر جر .جرير. جرير. جريررررر.

لم يزد مقصود ولا استزاد مال النبي. كلاهما توجس من الإفصاح. الجن لم يسمح لمقصود بأكثر من ذلك خشية استيقاظ جنون جرير، وأحس مال النبي أنه مغبون. ستفلسه

ابنته وهو يبحث عنها في الرمل والقهوة وسحب الدخان. قصد هذا المقصود حتى يسمع منه عن مصير ساره، فلم يسمع إلا جلجلة تستلزم منجماً آخر، يفسر طلسم جرير.

لم يكن أمام جرير، إلا أن يسعى للعمل كي يؤمن كفاف زوجته ، بعدما سدت أمامه أبواب الاقتراض. حظي ببعض الدروس الخصوصية لعددٍ من أبناء تلاميذه الذين صاروا آباء. لكن ذلك لم يكن يكفيه، فكان عليه أن يتقمص شخصية عزرائيل، ولو بالإنابة. فكادت خطته تنجح ويقضى على مال النبي ، عندما جاءه البابا قدري يخبره بالحقيقة: على سنة ا ورسوله يا أبو العبد.

ألا يعرف هذا الأخرق أن اليهودي يظل يهودياً ولو تنقل بين جميع المعتقدات والأديان؟ ألا يعلم هذا المعتوه أن ابن اليهودية يظل يهودياً ولو حملت به من القرود والخنازير؟. ألا يعلم أن المشكلة ليست بالزواج وإنما بالزوج ؟. كان سيبارك لها لو تزوجت من صاحب مال أو أطيان أو نفوذ، حتى لو كان هذا الزوج شاذاً مثل فريد. أما أن تتزوج هذا المسخ الذي لا يجد ما يقتات به، فلن يبالي بها ولو ماتت

جوعاً معه وهلكت بسببه: مدبر حاله. بعلّم كثير من ولاد العائلات.

- يعني هو معلّم والا مش معلّم؟

- بقول لك معلّم.

- يعني استاذ في المدرسة.؟.

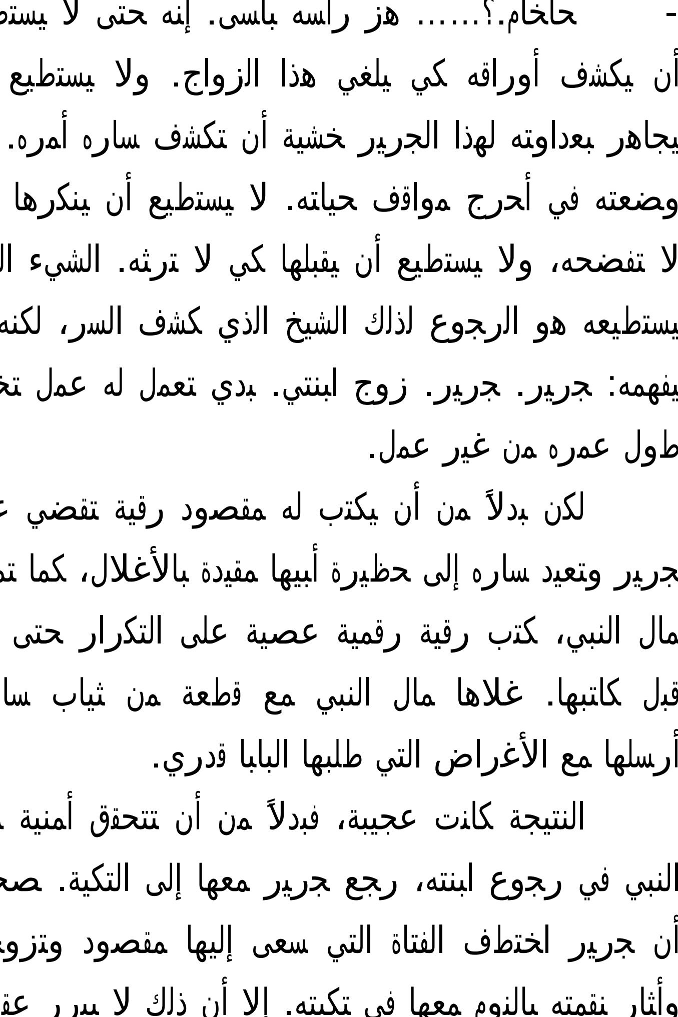
- مش بالمدرسة. بيعطي دروس خصوصية ، مثل ما قلت لك ، لولاد العائلات.

لو قالوا له ماتت ، لكان أهون عليه. لو قالوا له سافرت إلى روسيا، لكان أخف وطأة عليه. ولو ظلت مختفية مجهولة المصير لظل قلقه يتسم بالكبرياء. أما أن تختار من بين الرجال جميعاً حثالتهم، فهذا ما لم يقبل به على الإطلاق. هذه الفتاة ليست يهودية، ولربما ليست ابنته. عبر عن ريبته وهو يسأل زوجته بغضب وفظاظة: من وين جايبتيها.؟.

- شو بتقصد من وين جايبتها.؟. من الشارع؟. ا يقصف عمرها. ليش أنا راضية عن اللي عملته.

- بس هيك .؟!. هادا اللي عندك .؟.

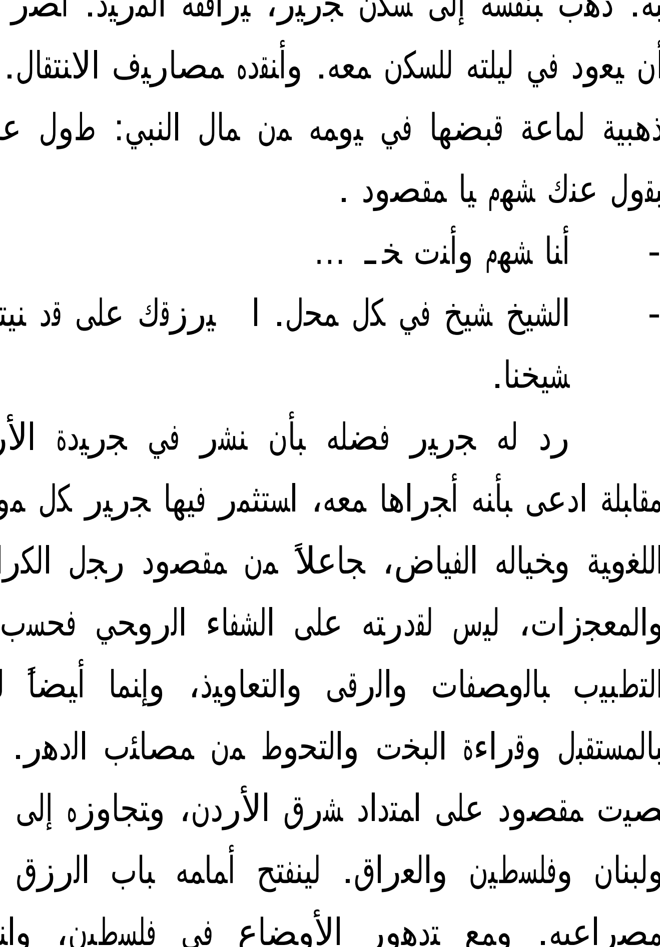
- شو بدك أسوي. أروح أشكي عليها للحاخام.



- حاخام.؟...... هز رأسه بأسى. إنه حتى لا يستطيع أن يكشف أوراقه كي يلغي هذا الزواج. ولا يستطيع أن يجاهر بعداوته لهذا الجرير خشية أن تكشف ساره أمره. لقد وضعته في أحرج مواقف حياته. لا يستطيع أن ينكرها كي لا تفضحه، ولا يستطيع أن يقبلها كي لا ترثه. الشيء الذي يستطيعه هو الرجوع لذلك الشيخ الذي كشف السر، لكنه لم يفهمه: جرير. جرير. زوج ابنتي. بدي تعمل له عمل تخليه طول عمره من غير عمل.

لكن بدلاً من أن يكتب له مقصود رقية تقضي على جرير وتعيد ساره إلى حظيرة أبيها مقيدة بالأغلال، كما تمنى مال النبي، كتب رقية رقمية عصية على التكرار حتى من قبل كاتبها. غلاها مال النبي مع قطعة من ثياب ساره، أرسلها مع الأغراض التي طلبها البابا قدري.

النتيجة كانت عجيبة، فبدلاً من أن تتحقق أمنية مال النبي في رجوع ابنته، رجع جرير معها إلى التكية. صحيح أن جرير اختطف الفتاة التي سعى إليها مقصود وتزوجها وأثار نقمته بالنوم معها في تكيته. إلا أن ذلك لا يبرر عقوقه تجاه صديقه والتخلي عنه في شدته، بينما حماه المرابي الذي



يسميه أهل عمان مصاص الدماء، يتربص له ويريد الفتك به. ذهب بنفسه إلى سكن جرير، يرافقه المريد. أصر عليه أن يعود في ليلته للسكن معه. وأنقده مصاريف الانتقال. ليرة ذهبية لماعة قبضها في يومه من مال النبي: طول عمري بقول عنك شهم يا مقصود .

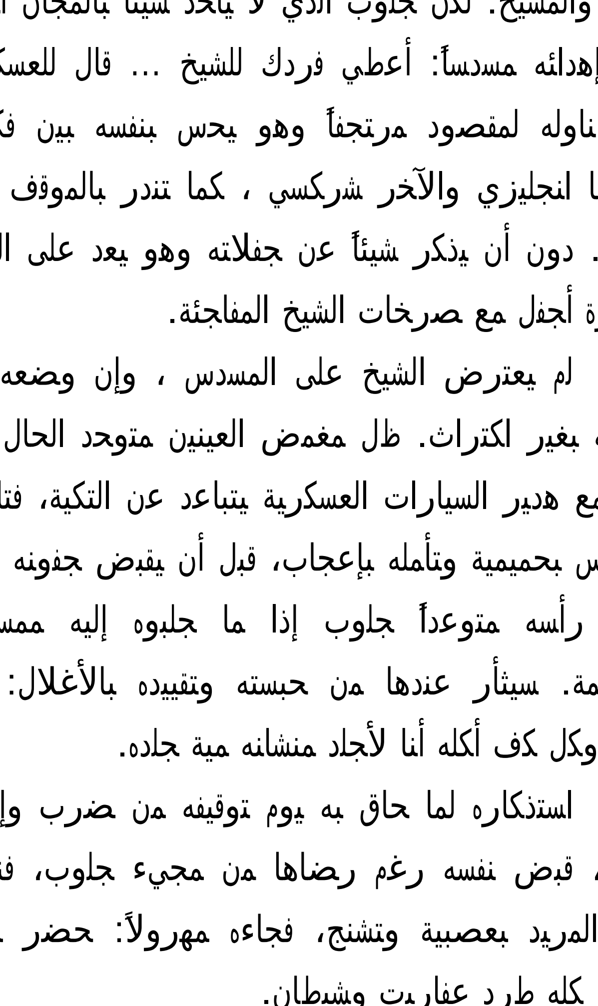
- أنا شهم وأنت خـ ...
- الشيخ شيخ في كل محل. ا يرزقك على قد نيتك يا شيخنا.

رد له جرير فضله بأن نشر في جريدة الأردن، مقابلة ادعى بأنه أجراها معه، استثمر فيها جرير كل موهبته اللغوية وخياله الفياض، جاعلاً من مقصود رجل الكرامات والمعجزات، ليس لقدرته على الشفاء الروحي فحسب، أو التطبيب بالوصفات والرقى والتعاويذ، وإنما أيضاً للتنبؤ بالمستقبل وقراءة البخت والتحوط من مصائب الدهر. فذاع صيت مقصود على امتداد شرق الأردن، وتجاوزه إلى الشام ولبنان وفلسطين والعراق. لينفتح أمامه باب الرزق على مصراعيه. ومع تدهور الأوضاع في فلسطين، واندلاع الحرب الكونية، لم يعد مقصود يجد وقتاً للراحة، وهو يكتب

الحجب للنساء اللواتي يستعد أبناؤهن للالتحاق بالجيش، وأولئك اللواتي انقطعت أخبار أزواجهن أو أبنائهن أو إخوانهن. وكل من يعيش هاجس الماضي أو الحاضر أو المستقبل. ولم تكن وصفاته الطبية أقل حظاً، وهو يكتب الرقى والتعاويذ ويصنع المحاليل التي تساعد على الإنجاب أو تحدد جنس الوليد، أو تطلّق أو تزوج أو تفك الطلاسم وتوقف السحر وتبعد الشياطين. وإذا ما أثار جرير سخطه أو تذكر بنقمة مطلقته، أو أفاق غاضباً دونما سبب، يقصر معالجته ذلك اليوم على قضبان الرمان.

كل الرضى النفسي الذي حققه طيلة تلك الفترة، كان أقل بكثير مما حققه ليلة جاءه جلوب يسأله أن يستكشف مصير الحرب مع الألمان . قال مقصود : ألمان راح يكسر إيد انجليز... وفي قرارته يتمنى لو يكسر كل أعضائهم بقضبان الرمان : بس انجليز لازم يكسر راس ألمان... وهو يتمنى لو يكسر الطرفان رأسيهما. اطمن . انجليز هون، ما فيه ألمان هون.

كافأه جلوب على طمأنته بأن مد له جنيهاً استرلينياً. لكن مقصود رفض بإصرار. إنه يفعل كل ذلك من أجل رب



محمد والمسيح. لكن جلوب الذي لا يأخذ شيئاً بالمجان أصر على إهدائه مسدساً: أعطي فردك للشيخ ... قال للعسكري الذي ناوله لمقصود مرتجفاً وهو يحس بنفسه بين فكين، أحدهما انجليزي والآخر شركسي ، كما تندر بالموقف أمام أقرانه. دون أن يذكر شيئاً عن جفلاته وهو يعد على الباشا كم مرة أجفل مع صرخات الشيخ المفاجئة.

لم يعترض الشيخ على المسدس ، وإن وضعه في حضنه بغير اكتراث. ظل مغمض العينين متوحد الحال إلى أن سمع هدير السيارات العسكرية يتباعد عن التكية، فتلمس المسدس بحميمية وتأمله بإعجاب، قبل أن يقبض جفونه قليلاً ويهز رأسه متوعداً جلوب إذا ما جلبوه إليه ممسوساً بالهزيمة. سيثأر عندها من حبسته وتقييده بالأغلال: كل مسبه وكل كف أكله أنا لأجلد منشانه مية جلده.

استذكاره لما حاق به يوم توقيفه من ضرب وإهانة ومذلة، قبض نفسه رغم رضاها من مجيء جلوب، فنادى على المريد بعصبية وتشنج، فجاءه مهرولاً: حضر بكرة رمان. كله طرد عفاريت وشيطان.

كان لديه رصيد كافٍ من المجاذيب والمجانين والمصاريع. يأتي بهم ذووهم إلى التكية دورياً للتطهير. وما على المريد إلا أن يخبرهم بتبدل المواعيد مع تبدل مقامات الجن. فالشيخ يسخر الجن لما يريد، لكن تبدل مقاماتهم من شأن العلي القدير، مثلما من شأنه انفجار غضب مقصود وهيجانه الذي يباغته من غير موعد، أو يتسبب به جرير.

بمثل ما امتلاك مقصود ذاته، استعاد جرير كيانه. لم يعد يحلم مع بحبوحة العيش، بموت حميه. متفرغاً للقراءة والكتابة ونظم الأشعار. ولاسيما الأناشيد التي تبجل صانع المعجزات مقصود، بينما حضرات الذكر تلتئم في التكية مع نهاية كل أسبوع، في أناشيد عذبة لابد أن تشير لمقصود، أياً كان ناظمها:

بـ ذاتي تقوم الذات في كل ذروةٍ
أجدد فيها حلّةً بعد حلّـ ـ ـةِ
فليلـ ـى وهند والربـ ـاب وزينب
وساره وسلمى بعـ ـدها وبثينةِ
عبـ ـارات أسماءٍ بغـ ـير حقيقـ ـةٍ

وما لـ وح مقصود إلا لصورتي

١٢

في الخامس من آب عام ١٩٣٩ ، حقق شرق الأردن نقلة إدارية . عدل القانون الأساسي للأمارة، مستبدلاً باسم " المجلس التنفيذي" اسم " مجلس الوزراء".

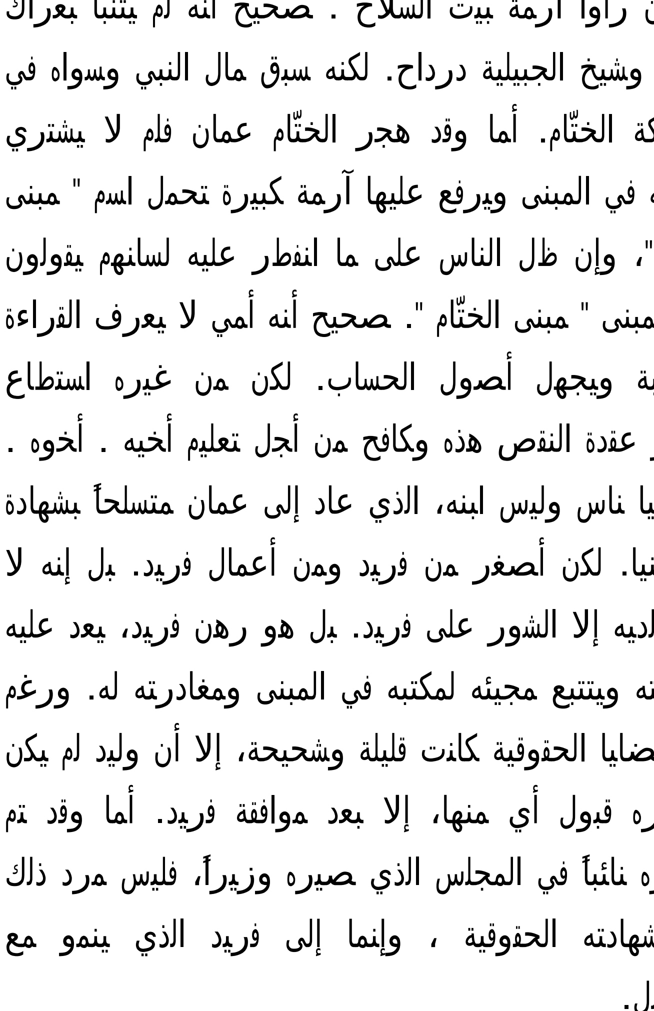
بين ليلة وضحاها، تحول الإداريون التنفيذيون إلى وزراء ، مما أعطى الأمارة صفة الدولة بمؤسساتها الداخلية والخارجية، ومنح الأمير صلاحية تعيين القناصل في دول الجوار.

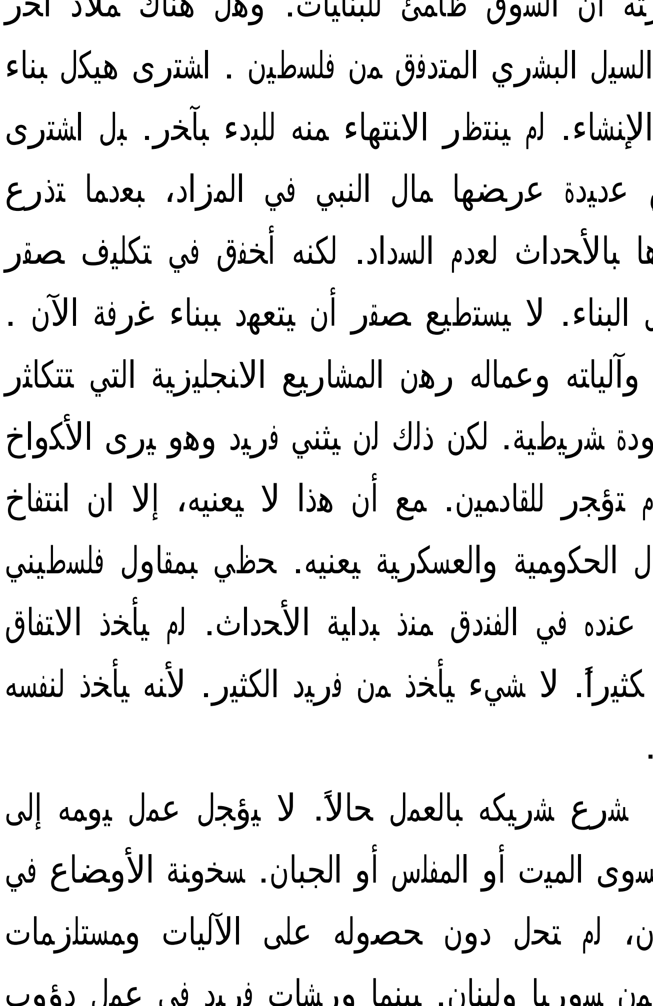
حقق هذا التحول نقلة اجتماعية لفريد الأدهم، الذي غدا شخصية مرموقة. فقد عادت عليه الاضطرابات في فلسطين بالخير الوفير، وتضاعف ثراؤه عشرات المرات مع اندلاع الحرب العظمى، ليغدو اسمه على كل شفة ولسان، حتى صار مثالاً للتحذير من الإسراف." لا تفكر حالك ابن الأدهم"... أو للسخرية من المتغطرسين ." مفكر حاله ابن الأدهم"."يروح ينضب وما يعمل حاله ابن الأدهم. عارفين أصله وفصله. كل مـجعصته دين بدين". كانت شهادة الحقوق التي جاء بها وليد، من بواكير الشهادات الجامعية

التي يترفع بها القليلون من أبناء البلدة. فعين نائباً في المجلس التنفيذي، ليتحول إلى وزير معارف مع صدور التعديل .

لم يبال فريد بما يدور عنه من حقائق أو أكاذيب. ليقال بأنه استخرج كنـ ـزاً أثناء الحفريات، وليقال بأن ثراءه حصيلة المهربات، أو أنه سليل الخديوي أو عميل الانجليز أو يسمسر لليهود. هذه أقاويل الناس الذين لا يمتلكون سوى اللسان. أما هو فلديه بصيرة أقوى من البصر، وإرادة تفل الحديد وتطحن الحجر، وموهبة تصير الرمل ذهباً وتجعل من الأمور المألوفة بدعاً وعجباً.

الجميع رأى السيارات. من يمتلك النقود ومن يتمنى امتلاكها . لكنه وحده الذي حولها من رؤى إلى حقيقة واقعة. صحيح أنه لم يتنبأ بالأحداث في فلسطين. ومن تنبأ بها؟. الانجليز.؟!. لكن هذه الأحداث حولت وكالة حيفا بأكملها إليه، ليغدو موزعاً للسيارات الأميركية في كل البلاد السورية. صحيح أن القانون لا يسمح بحمل السلاح، ولا يمنع متاجرة الأفراد به. هذا واضح مثل الشمس. في الشوارع وعلى الأرصفة وفي الحوانيت والبيوت. لكن من تجرأ على افتتاح متجرٍ للسلاح.؟. عميت الأبصار عما ترى،


إلى أن رأوا آرمة بيت السلاح . صحيح أنه لم يتنبأ بعراك الختام وشيخ الجبيلية درداح. لكنه سبق مال النبي وسواه في مشاركة الختّام. أما وقد هجر الختّام عمان فلم لا يشتري حصته في المبنى ويرفع عليها آرمة كبيرة تحمل اسم " مبنى الأدهم"، وإن ظل الناس على ما انفطر عليه لسانهم يقولون عن المبنى " مبنى الختّام ". صحيح أنه أمي لا يعرف القراءة والكتابة ويجهل أصول الحساب. لكن من غيره استطاع تجاوز عقدة النقص هذه وكافح من أجل تعليم أخيه . أخوه . أخوه يا ناس وليس ابنه، الذي عاد إلى عمان متسلحاً بشهادة قد الدنيا. لكن أصغر من فريد ومن أعمال فريد. بل إنه لا عمل لديه إلا الشور على فريد. بل هو رهن فريد، يعد عليه خطواته ويتتبع مجيئه لمكتبه في المبنى ومغادرته له. ورغم أن القضايا الحقوقية كانت قليلة وشحيحة، إلا أن وليد لم يكن بمقدوره قبول أي منها، إلا بعد موافقة فريد. أما وقد تم اختياره نائباً في المجلس الذي صيره وزيراً، فليس مرد ذلك إلى شهادته الحقوقية ، وإنما إلى فريد الذي ينمو مع الأقاويل.



لم يكن في نيته ولوج عالم المقاولات، لكنه عرف ببصيرته أن السوق ظامئ للبنايات. وهل هناك ملاذ آخر يأوي السيل البشري المتدفق من فلسطين . اشترى هيكل بناء تحت الإنشاء. لم ينتظر الانتهاء منه للبدء بآخر. بل اشترى أراضٍ عديدة عرضها مال النبي في المزاد، بعدما تذرع مالكوها بالأحداث لعدم السداد. لكنه أخفق في تكليف صقر بأعمال البناء. لا يستطيع صقر أن يتعهد ببناء غرفة الآن . أمواله وآلياته وعماله رهن المشاريع الانجليزية التي تتكاثر مثل دودة شريطية. لكن ذلك لن يثني فريد وهو يرى الأكواخ والخيام تؤجر للقادمين. مع أن هذا لا يعنيه، إلا ان انتفاخ الأعمال الحكومية والعسكرية يعنيه. حظي بمقاول فلسطيني نـ ـزل عنده في الفندق منذ بداية الأحداث. لم يأخذ الاتفاق بينهما كثيراً. لا شيء يأخذ من فريد الكثير. لأنه يأخذ لنفسه الكثير.

شرع شريكه بالعمل حالاً. لا يؤجل عمل يومه إلى غده، سوى الميت أو المفلس أو الجبان. سخونة الأوضاع في فلسطين، لم تحل دون حصوله على الآليات ومستلزمات البناء من سوريا ولبنان. بينما ورشات فريد في عمل دؤوب

ليل نهار، لينهض في وسط البلدة سوق تجاري بحجم سوق الأوقاف المقدسي. يسمح للمركبات بعبور الشارع المتوسط فيه، بينما تألقت على الجانبين واجهات المحلات التجارية ومن فوقها أكبر فندق في البلدة وأكثرها رقياً " أدهم بالاس".

في مواقع أخرى رفع خمس عمارات، أجرت جميعها للدوائر الحكومية التي يتزايد عددها وتزداد أنشطتها يوماً بعد يوم. بينما وليد يعد العقود ويراجع الاتفاقيات ويتابع المقبوضات من خلال كاتب حسابات أرمني حظي به فريد بالطريقة نفسها التي حظي بها على المقاول.

كان فريد يتابع قلق الانجليز في المنطقة، مع سخونة الأوضاع في أوروبا. فيصغي بانتباه إلى إذاعة لندن وبرلين والشرق الأدنى المقدسية. لا أحد يستطيع أن يقول له هذه المرة ، بأن الحظ حالفه. لقد عرف عن الحرب وتأكد من نشوبها قبل وقوعها. لماذا لم يتفاعل غيره معها وقد قربت لهم الأخبار صورتها.؟. لماذا لم يفعلوا مثله وهو يحول محل شاميات، الذي ظل مغلقاً منذ رحيل الختام، إلى مستودع للمواد التموينية.؟. لماذا لم يشتروا مثله الإطارات المستعملة من ذلك الفلاح الذي حصل عليها بالمزاد قبل سنوات.؟.

لماذا لم يتقدم سواه لشراء صهاريج الصاج التي استبدل بها الجيش أخرى جديدة.؟. وإذا اشتروها ، هل كانوا سيحتفظون بها مثله.؟. وكيف سيخفونها إذا لم يمتلكوا عشرات الأكمات الحرجية كالتي يمتلكها.؟. لو فعلوا لاندفعوا لبيعها مع أول فرصة. أما هو فقد ملأها بالنفط .أيوه نفط. ح يصير له إيه. ح يتخال وإلا ح يتخال. أقول لك إيه . إنت تسجل وما تعلقش.

لكن وليد علق بفرح ومرحٍ وغبطة بعد انفجار أنابيب النفط في حيفا. فتوقفت سيارات البلدة ولم تتوقف سيارات فريد. اللهم إلا أولئك الذين يقبل أن يبيعهم فريد بالسعر الذي يريد، أمثال فرحان. سألته أمه، وهي تحلم بالتقاعد، عن مزج الحشيشة: حشيشة إيه يا وليه. ده السكر الأحمر بقا بسعر الحشيشة.

حتى الجيش الانجليزي صار يلجأ إليه لشراء التموينات التي كانت تنضب مع كل غروب، وأحياناً بمجرد الشروق. كان الانجليز يعرفون بسرقات الجنود وسطو المواطنين، لكنهم يغضون النظر ويملؤون المخازن من جديد. فالنصر كما خبروه خلال تاريخهم المجيد لا يتأتى

بالتقتير. قال جلوب لأبي جميع: بريطانيا تنفق على الحرب سبعة ملايين جنيه يومياً. يصل الجيش منها مليون جنيه فقط.

- وأين تذهب الستة ملايين؟... سأل أبو جميع بتعابير استهجان وهو يدرك المرام: تسرق. نعم. تسرق.

- وهل تعرفون سيدي بالسرقات؟.

- طبعاً.

- تقصد إنكم تسمحون بسرقة ستة ملايين كل يوم .

- لا. لم أقصد ذلك. نحن لا نسمح بسرقتها، وإنما بإقراضها. نستردها مع فوائدها بعد انتهاء الحرب.

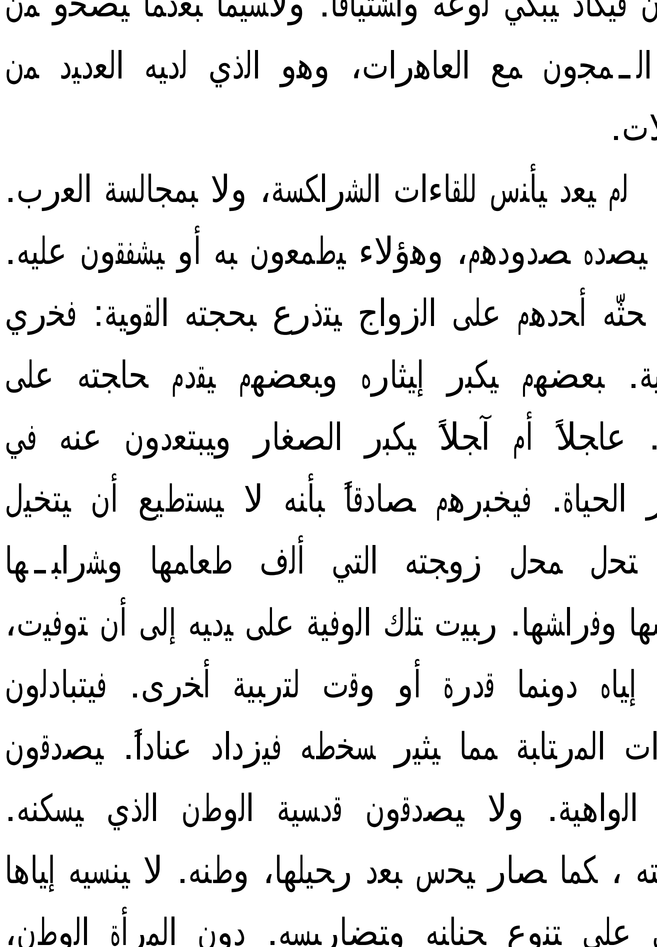
١٣

نساء كثر راودن شمس الدين عن نفسه وحاولن الإيقاع به طمعاً بثروته أو إعجاباً بشخصه. بعضهن زدن عليه ثراء ، وأخريات تفوقن عليه جاهاً وحسباً ونسباً. لكنه ظل يرفض فكرة الزواج بعناد وإصرار. مكابراً في خنق مشاعره وإخفاء معاناته.

كان يحس بالوحدة في البيت والمقهى والبساتين. مع الشراكسة والبدو والحضر والفلاحين.

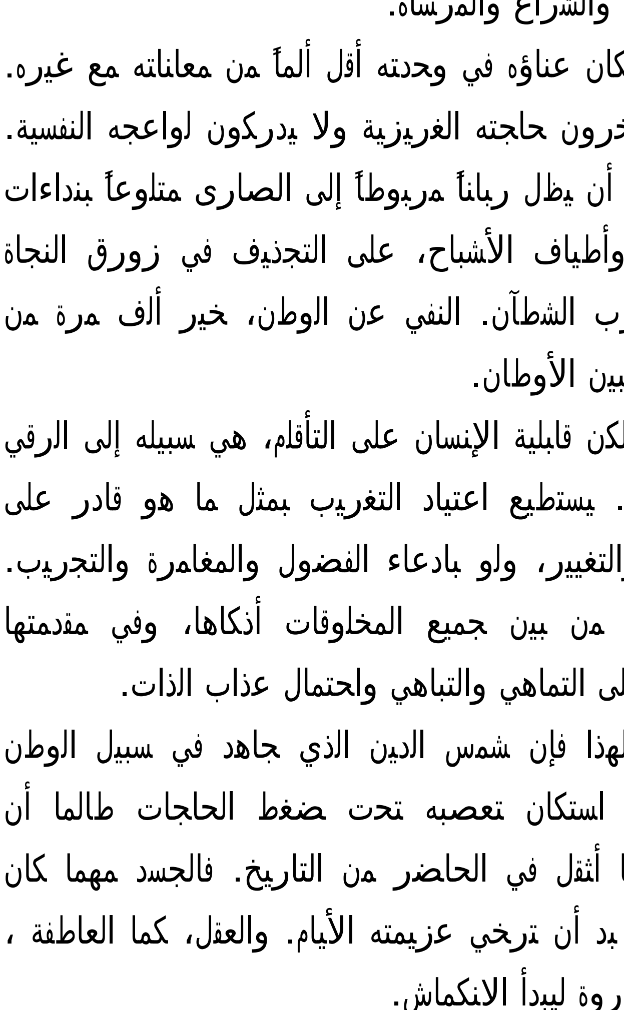
عندما تهدأ حركة البيت وتخبو أصواته، يحس بالوجل والخشية، على الرغم من شجاعته وفروسيته. ولاسيما عندما تذهب فوزية لزيارة حكمت مصطحبة فخري ليقضيا في حيفا يوماً أو أكثر. فيرهق الخادمة بأوامره المتلاحقة مثيراً بعض الصخب حتى يتيقن من استمرار تنفسه.

في وحدته، يخنقه الضيق ويتخلله الهرم، ويحس بالبيت قبراً والثياب كفناً، والناس تحت الشرفة أو أمام المقهى أو في البساتين، ظلالاً وأشباحاً.



أحياناً تنعش الخمرة روحه، وغالباً توقظ وجدانه بالحنان فيكاد يبكي لوعةً واشتياقاً. ولاسيما بعدما يصحو من خدر الـمجون مع العاهرات، وهو الذي لديه العديد من الخليلات.

لم يعد يأنس للقاءات الشراكسة، ولا بمجالسة العرب. أولئك يصده صدودهم، وهؤلاء يطمعون به أو يشفقون عليه. وكلما حثّه أحدهم على الزواج يتذرع بحجته القوية: فخري وفوزية. بعضهم يكبر إيثاره وبعضهم يقدم حاجته على واقعه. عاجلاً أم آجلاً يكبر الصغار ويبتعدون عنه في مشوار الحياة. فيخبرهم صادقاً بأنه لا يستطيع أن يتخيل امرأة تحل محل زوجته التي ألف طعامها وشرابـها وأنفاسها وفراشها. ربيت تلك الوفية على يديه إلى أن توفيت، تاركة إياه دونما قدرة أو وقت لتربية أخرى. فيتبادلون النظرات المرتابة مما يثير سخطه فيزداد عناداً. يصدقون حجته الواهية. ولا يصدقون قدسية الوطن الذي يسكنه. فزوجته ، كما صار يحس بعد رحيلها، وطنه. لا ينسيه إياها المنفى على تنوع جنانه وتضاريسه. دون المرأة الوطن،

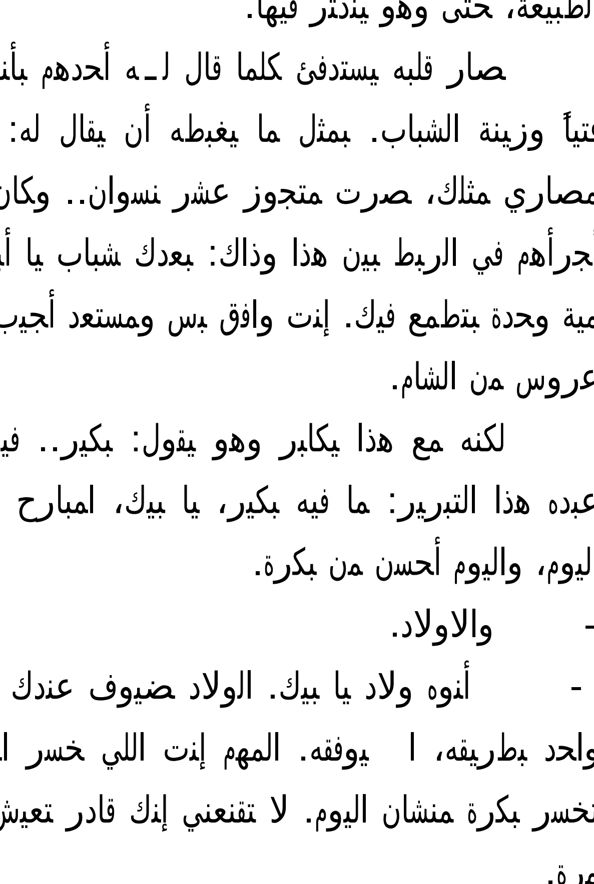


يظل الرجل مجرد بـحار،ولن يتحول أبداً إلى ربانٍ بيده المجذاف والشراع والمرساة.

كان عناؤه في وحدته أقل ألماً من معاناته مع غيره. يفهم الآخرون حاجته الغريزية ولا يدركون لواعجه النفسية. إنه يؤثر أن يظل رباناً مربوطاً إلى الصارى متلوعاً بنداءات الموتى وأطياف الأشباح، على التجذيف في زورق النجاة التائه قرب الشطآن. النفي عن الوطن، خير ألف مرة من الضياع بين الأوطان.

لكن قابلية الإنسان على التأقلم، هي سبيله إلى الرقي والتطور. يستطيع اعتياد التغريب بمثل ما هو قادر على التغير والتغيير، ولو بادعاء الفضول والمغامرة والتجريب. فالإنسان من بين جميع المخلوقات أذكاها، وفي مقدمتها قدرته على التماهي والتباهي واحتمال عذاب الذات.

لهذا فإن شمس الدين الذي جاهد في سبيل الوطن الزوجة، استكان تعصبه تحت ضغط الحاجات طالما أن الجغرافيا أثقل في الحاضر من التاريخ. فالجسد مهما كان قوياً، لا بد أن ترخي عزيمته الأيام. والعقل، كما العاطفة ، يصل الذروة ليبدأ الانكماش.



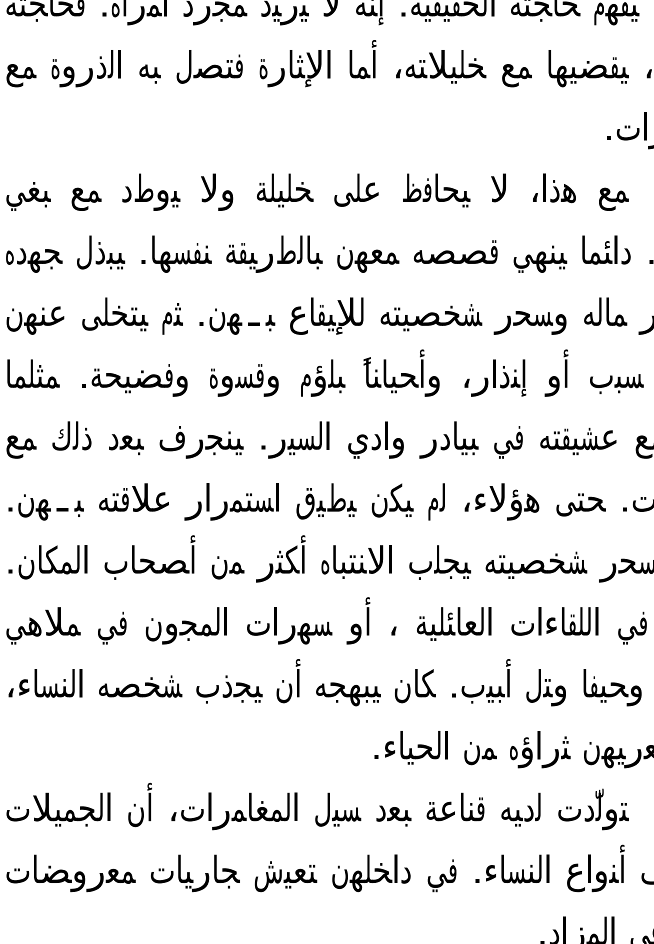
وسواء استعد المرء لهذا الانحدار بأدراجٍ مرصوفة وطرقٍ معبدة ومرابط ومقابض ومتكآت، أم نسي كل هذا ولم يعد لـه من منفذٍ سوى الدعاء، سيظل مأسوراً لإغراء الطبيعة، حتى وهو يندثر فيها.

صار قلبه يستدفئ كلما قال لـه أحدهم بأنه ما يزال فتياً وزينة الشباب. بمثل ما يغبطه أن يقال له: لو عندي مصاري مثلك، صرت متجوز عشر نسوان.. وكان أبو عبده أجرأهم في الربط بين هذا وذاك: بعدك شباب يا أبو فخري، مية وحدة بتطمع فيك. إنت وافق بس ومستعد أجيب لك أحلى عروس من الشام.

لكنه مع هذا يكابر وهو يقول: بكير.. فيرفض أبو عبده هذا التبرير: ما فيه بكير، يا بيك، امبارح أحسن من اليوم، واليوم أحسن من بكرة.

- والاولاد.

- أنوه ولاد يا بيك. الولاد ضيوف عندك وبكرة كل واحد بطريقه، ا يوفقه. المهم إنت اللي خسر امبارح، لا تخسر بكرة منشان اليوم. لا تقنعني إنك قادر تعيش من غير مرة.



حتى أبو عبده الذي تعززت علاقته به وغدا مقّرباً إليه لا يفهم حاجته الحقيقية. إنه لا يريد مجرد امرأة. فحاجته للنساء، يقضيها مع خليلاته، أما الإثارة فتصل به الذروة مع العاهرات.

مع هذا، لا يحافظ على خليلة ولا يوطد مع بغي علاقة. دائما ينهي قصصه معهن بالطريقة نفسها. يبذل جهده ويسخر ماله وسحر شخصيته للإيقاع بـهن. ثم يتخلى عنهن دونما سبب أو إنذار، وأحياناً بلؤم وقسوة وفضيحة. مثلما فعل مع عشيقته في بيادر وادي السير. ينجرف بعد ذلك مع الغانيات. حتى هؤلاء، لم يكن يطيق استمرار علاقته بـهن. كان بسحر شخصيته يجلب الانتباه أكثر من أصحاب المكان. سواء في اللقاءات العائلية ، أو سهرات المجون في ملاهي طبريا وحيفا وتل أبيب. كان يبهجه أن يجذب شخصه النساء، وأن يعريهن ثراؤه من الحياء.

تولّدت لديه قناعة بعد سيل المغامرات، أن الجميلات أضعف أنواع النساء. في داخلهن تعيش جاريات معروضات للبيع في المزاد.

لولا النساء لفقدت النقود كثيراً من لمعانها. حتى الخصي يشتريهن للزينة، مثلما تترصع بالجواهر التيجان. ربما كان هذا السبب وراء مال شمس الدين منهن بعد تلهفه عليهن. أو كان السبب شعوره بالذنب بعد مواقعتهن. فزوجته الراحلة ما تزال تستحوذ على كيانه، فلا يستطيع نسيانها مع أخرى، إلا في ذروة النشوة الخاطفة، التي تؤول إلى قرف وندامة، فيتلوى وحيداً في فراشه، ينهشه الذنب مثل الذئب.. كيف إذن سيطيق مشاركة امرأة أخرى فراشاً مسكوناً بالأشباح: يا أبو فخري. إنت مسويها قصة. الفراش بتغير..

- وفخري، وفوز؟.

- شو بدوه يصير عليهم يا بيك.؟. فوزية صارت عروس، وبكره بتتجوز مثل أختها. غمض عين وفتّح عين، بصير فخري شب وعنده بيت.

- لما يصير هيك. ا بفرج.

- بس لما يصير هيك يا بيك، بتصير إنت جد وختيار. اكسبها هلأ وأنت شباب وخليني أودي أم عبده تجيب لك أحلى عروس من الشام .

توطدت علاقة شمس الدين بأبي عبده، مذ قاطعه الشراكسة بسبب زواج ابنته من عربي .

جاءت شقيقة أم عبده من الشام، ولبى شمس الدين، بـحسن نية، أربع دعوات رتبها ابو عبده في منـزله.

وصلت العروس، موافقة على الزواج دون تحفظ، في سبيل القفص الذهبي الموعود. كانت أم عبده تقصد ما تقول من غير تشبيه أو مزاح. فعظام شمس الدين ذهب وليست تنك.

اعتبر شمس الدين، في البداية، أن أبا عبده يرد لـه فضله على ما اقترضه منه، بسبب ذهاب زوجته إلى الشام.فرفض استرداد المبلغ بإصرار: هادا هدية من أنا لبنت حلو نجاح.

- ا يحلي أيامك يا بيك. مثل ما هاي بنتك. كمان فخري ابني.

لكنه لعن فخري بكل ما يحفظه من قاموس اللعنات الشامية، بعدما شج فخري رأس نجاح في الزيارة التي اصطحبه فيها أبوه معه بعد رجاء أم عبده. كانت تروم طمأنة شقيقتها إلى نضوج فخري الذي لن يحتاج رعاية وانتباهاً.

صفعه أبوه فرماه أرضاً، وأوشك أن يدوس عليه بقدمه، لولا تدخل أنسبائه المرتقبين: لـه لـه لـه يا بيك. ولد.ولد.ولد. ما بتواخد.. وأخذه أبو عبده بأحضانه وهو يتمنى لو يأخذه عنه عزرائيل: هيك. من الباب للطاقة ضربـها.

- ا وكيل، لا دقرت فيه ولا حكت معه. كلنا قاعدين وشايفين. تقبرني بتلعب باللعبة اللي جابها إلها أبوه. يلعن أبو أبوه، ما حست غير القبقاب على راسها. هادا لو ظبطت الأمور، وجوزنا إختي لبيه، شو بعمل فينا.؟.

- شو بدوه يعمل .؟!. بعده قد الفصعون.

- إذا قد الفعصون وعمل هيك.!.

- المهم، شو بدك تعملي إنت وخيـتك .؟.

- ليش ضل شـي ما عملناه.؟!. ما ضل غير نقول لـه خود البنت خدامة وإحنا قابلين.

- يعني كل اللي عملناه طلع فشوشة. أربع عزايم عالفاضي..

- ا العليم العلة من صاحبك. يا خوفي يكون..

- معقول؟!.

- لكان فيه رجال بقعد طول ها المدة من غير مرة..
- وشو بتقول خيتك .؟.
- شو بدها تقول.؟. وا لو دفع لها تقلها ذهب، هلأ ما بترضى فيه. إنت شفت كيف كان مو طايق يلتفت لها. قوالك فهم أنوه كل الشغلة مرتبة؟.

تجاوزت شقيقتها نصيحتها بالتقرب إلى شمس الدين، بتقريب الشياطين منه. وهو يراها تتزاحم في فمها الذي لم يتوقف عن الثرثرة والضحك المتواصل، مما أثار ضيقه فأنـزل سخطه على فخري بسبب ما فعله بنجاح.

دفعه الغضب إلى مقصود كي يعمل لـه حجاباً من أجل تهدئة العفريت الذي ترك علاماته في رؤوس أطفال عديدين بعضهم يكبرونه سنوات.

صار معروفاً في الحي بزعرنته وسوء تربيته. دون أن يؤثر به عقاب أبيه، أو تخيفه استغاثات الخادمة كلما ولولت من ركلات الكرة داخل البيت وما تسبب من فوضى وتكسير. أما أشجار البستان فكانت تتلوى غيظاً من عربشاته، فغدرت به أغصانها مراراً، ليسقط من فوقها محمولاً إلى الحلاق يجبر كسوراته ويجبصن أعضاءه. لكنه

ما أن يتشافى حتى يعود لاعتلائها، منادياً أصحابه من فوقها بصراخ طرزان: آآآآ.

ومع أن فوزية غالباً ما تهدده بأن تشكوه لأبيه، إلا أنها كانت تذود عنه، بل وتكذب في أحيان كثيرة لتبرئته وتجنيبه العقاب. من حيث لا تدري غدت أمه، ومن حيث لا يدري غدا ابنها . كلمتها نافذة أكثر من كلمة أبيه. وخشيته منها تفوق خشيته من الجيران مجتمعين. يسألها الإذن للمغادرة وتـجبره عل الدراسة التي يكرهها.

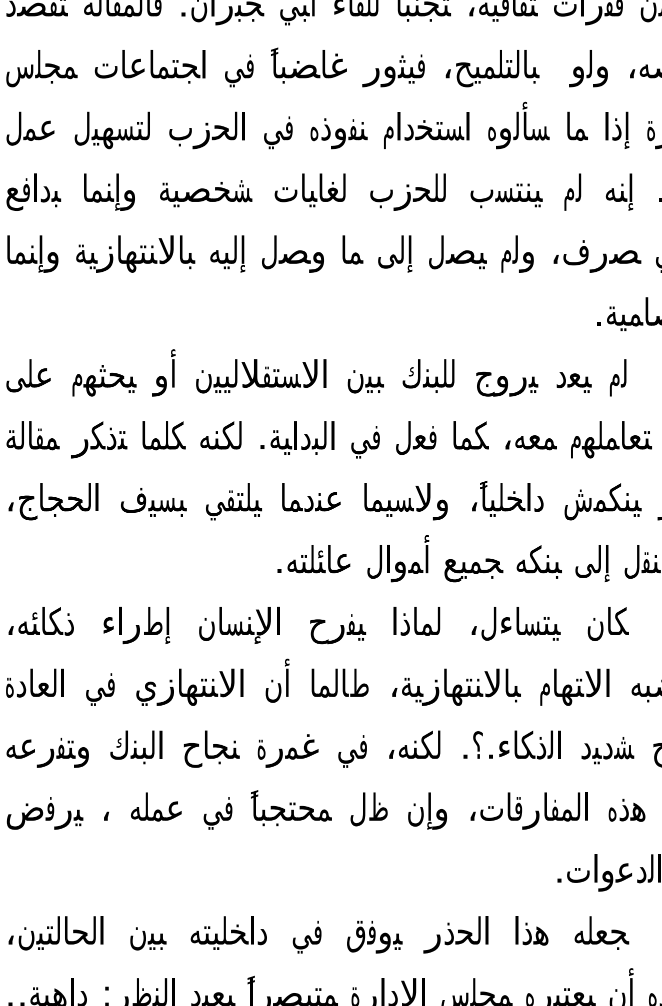
في المدرسة، تنفجر حيويته مع لعبة كرة القدم، بعدما صار الطلبة يتجنبون مواجهته أو العراك معه، لما عرف عنه من بأس وقوة وعنفوان، تجعله يفجر من أسبوع لآخر، جواني الكرة، فيحتال على فوزية، لتنقده ثمن واحد جديد. ومع أنه لم يكن يتحرش بالضعفاء، بل يساندهم على الغالب، إلا أن نجاح كانت شيئاً مختلفاً، فضربها شلّوت، عندما جاءت مع أبويها يوم العيد، استحق عليه صفعة من أبيه رنحته أرضاً، بينما أم عبده تهدئ من صراخ ابنتها: معلش يا مو. ضرب الحبيب زبيب. ما ضربك إلا لأنوه بحبك. وبكره راح يتجوزك، وبتشوفي .. ازداد صراخها فحملها شمس الدين

إلى الشرفة: شوف عمو. شوف اتومبيل. بدوه اشتري واحد إلك. عروس. عروس.

بعد أسبوعين ذهب شمس الدين إلى بيت أبي عبده، مصطحباً معه فخري،وهو يهدده طيلة الطريق إن تزعرن وأساء الأدب، وحاملاً معه دمية عروس إلى نجاح أفرحتها من الأعماق، وفجرت الغيظ في قلب فخري. فشج رأسها بالقبقاب، لتأكيد نضجه للعروس القادمة من الشام. كانت النهاية بين فخري ونجاح، مثلما انتهت آمال أم عبده في تزويج شقيقتها من أبيه.

١٤

أشاد مجلس إدارة البنك بانضمام سليمان إلى حزب الاستقلال. اعتبرها ضربة معلم، عادت على البنك بعشرات المودعين الكبار. إلا أن سليمان ظل يصر على أن الدافع لحزبيته وطني صرف. مثلما هو عصامي صرف. يفرق دائماً، في جلساته مع الأصدقاء ورجال المال بين الانتهازية والذكاء. إلى أن قرأ في الزفير مقالة كتبها جرير، اعتبر الدهاء أخطر أنواع الذكاء. مقارناً في مقالته، بين ما كتبه ابن خلدون حول هذه المسألة، وبين سلوكه ومسيرة حياته المليئة بالتقلب وتبدل الولاء وتملق الأعداء طلباً للنجاة. ويتساءل جرير عن عدد الخلدونيين في هذا الزمن الذي غدا فيه التزلف والتملق عمامة للعلماء، مثلما يبدل الأغنياء ولاءهم بسهولة تبديلهم للثياب ، مما جلب على جرير هجوماً مقابلاً في الصحف المناهضة للزفير، وصل إلى التعريض والتنديد، بسبب اتهامه لأكبر مفكر اجتماعي عربي بالتواطؤ مع تيمورلنك في ذبح أهل الشام.



صار سليمان يتردد في قبول الدعوات، ولاسيما التي تتضمن فقرات ثقافية، تجنباً للقاء أبي جبران. فالمقالة تقصد شخصه، ولو بالتلميح، فيثور غاضباً في اجتماعات مجلس الإدارة إذا ما سألوه استخدام نفوذه في الحزب لتسهيل عمل البنك. إنه لم ينتسب للحزب لغايات شخصية وإنما بدافع وطني صرف، ولم يصل إلى ما وصل إليه بالانتهازية وإنما بالعصامية.

لم يعد يروج للبنك بين الاستقلاليين أو يحثهم على قصر تعاملهم معه، كما فعل في البداية. لكنه كلما تذكر مقالة جرير ينكمش داخلياً، ولاسيما عندما يلتقي بسيف الحجاج، الذي نقل إلى بنكه جميع أموال عائلته.

كان يتساءل، لماذا يفرح الإنسان إطراء ذكائه، ويغضبه الاتهام بالانتهازية، طالما أن الانتهازي في العادة طموح شديد الذكاء.؟. لكنه، في غمرة نجاح البنك وتفرعه ينسى هذه المفارقات، وإن ظل محتجباً في عمله ، يرفض تلبية الدعوات.

جعله هذا الحذر يوفق في داخليته بين الحالتين، فيسعده أن يعتبره مجلس الإدارة متبصراً بعيد النظر: داهية..

كما يرددون. في الوقت الذي يعتبره الاستقلاليون، صاحب مواقف وطنية قلما تتوافر في رجال المال والأعمال.

أرغم الإضراب الطويل وأعمال العنف، البنوك على إغلاق أبوابـها حرصاً على أموالها. ولم تكن تتجرأ على فتح خزائنها خلال فترات الـهدوء وفك حظر التجول القصير، مما جعل المودعين يلجأون إلى الاستدانة والاقتراض وبعضهم وقع في قبضة المرابين، بينما أموالـهم ساكنة تتناقص مع الوقت قيمتها داخل الخزائن المقفلة. حتى لو فتح البنك أبوابه لساعة أو ساعتين، فإن المودعين لا يغامرون بالسحب الكثير: حتى تعرفوا أنوه كل اللي بعمله، صح.

هذه المرة لم يعارضه المجلس في نقل مئة ألف جنيه نقداً إلى عمان. تظل تلك البلدة أكثر أمناً من مدنٍ تخللتها الفوضى والاضطرابات. لكن المهم، ليس بتوفير المكان الآمن للنقود، وإنما تسهيل الأمر على المودعين.

هذه المرة، تبجح سليمان أمام المجلس قائلاً بأن ما فعله ضربة معلم. فلم يؤدِ هذا الإجراء إلى تزاحم على السحب إلا في الأيام الأولى لإعلان البنك عن هذا التسهيل

الذي وصفه مدير البنك العثماني في عمان بأنه استهتار وسوء تدبير. ومع هذا لم يجد غضاضة في تقليد سليمان لكن بتحفظ حدد سقفاً للسحوبات، فسارع مودعوه إلى التحول لبنك سليمان، لتتضاعف سيولته النقدية خلال أشهر قليلة.

ما أن اندلعت الحرب الكونية، حتى كانت أنشطة البنك الكنعاني في عمان، تعادل أنشطة فروعه مجتمعة، ولاسيما أن أموالـها احتجبت لستة أشهر متواصلة وراء الأقفال، لتحاول السير عرجاء في مستنقعات الدماء التي خثرتها نيران الحرب بين الانجليز والألمان.

ضعضعت الانتفاضة في فلسطين، اقتصاديات العرب واليهود والانجليز، فاغتال السوق المضطرب الكثير من الأعمال. ولولا فرع عمان، كما ظل يردد سليمان، لانتقل البنك إلى خبر كان، أو تحول إلى دكان، لأن البنوك الأخرى مدعومة من اليهود والانجليز، وليس من داعم لبنك سليمان سوى سليمان.

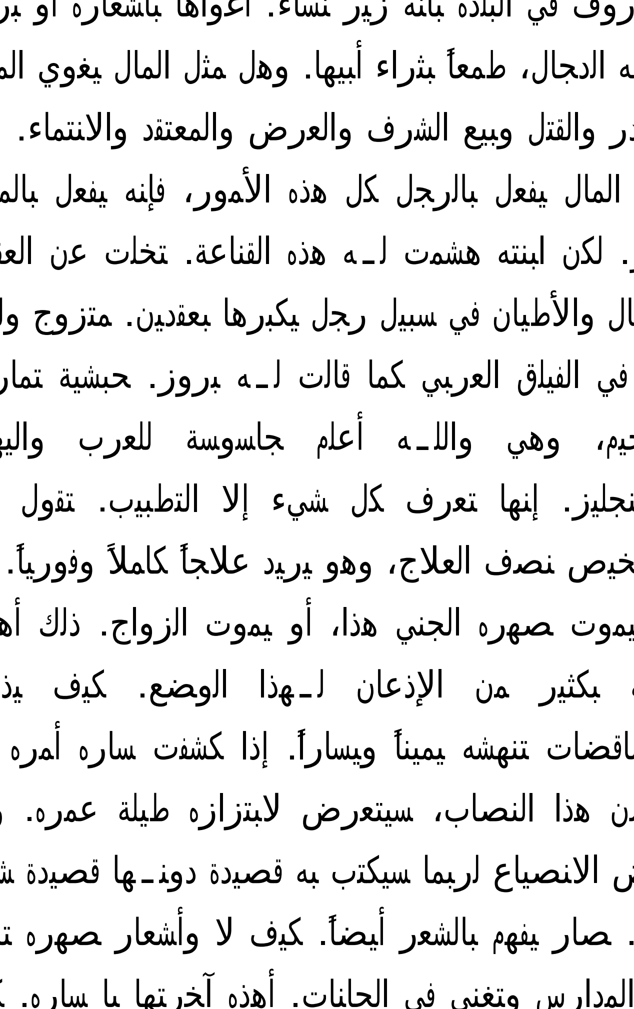
قابل انفجار الوضع الحربي في أوروبا ، هدوء الأوضاع في الشرق الأوسط، ولو إلى حين. فتحركت الأعمال في فلسطين، مثل دببة أفاقت من سبات الشتاء

وراحت تعمل أنيابها في الأعشاب والأشجار والصخور والأتربة والجيف النتنة من الحيوان والإنسان. حينها اقتنع سليمان بما كتبه ذلك الجرير في جريدة الزفير. ففي غضون أشهر قليلة تحول عمال إلى أرباب أعمال، وموظفون إلى وسطاء، ومتدينون إلى متعهدين، وأميون صاروا صرافين. في الحروب يموت الجنود، ويثرى القادة ، ويتخم التجار بالنقود. في الحروب تحرق النيران أشواك السفح فيحترق معها الكثيرون ويلوذ بالقعر الكثيرون، ويصل إلى القمة الجريئون.

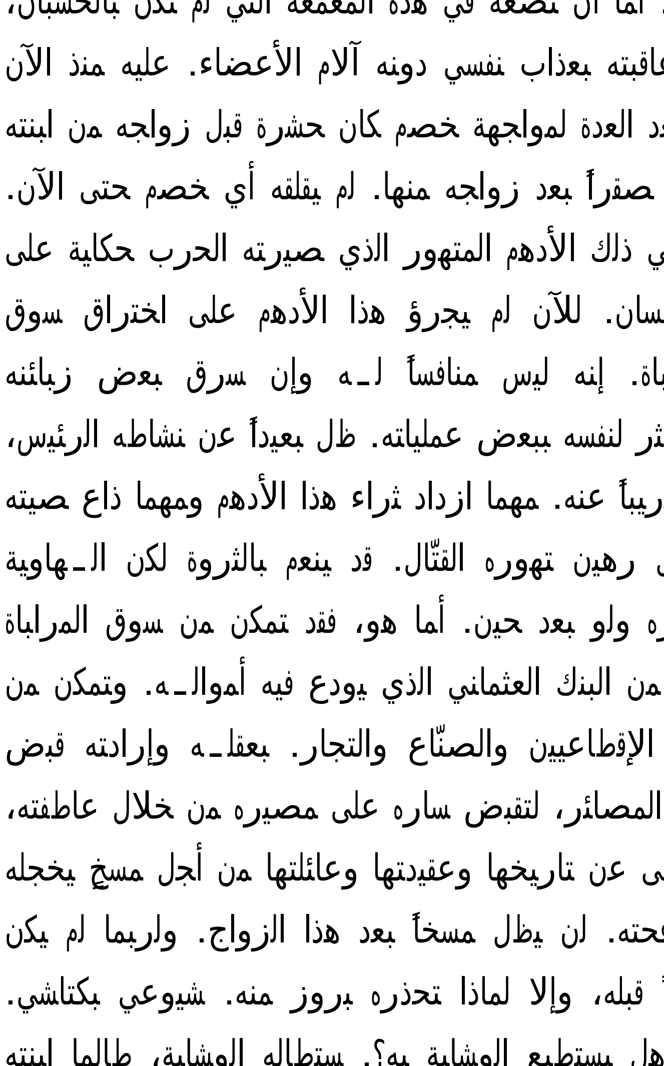
في الحروب ينعدم الوسط في الجسد الاجتماعي. فإما رأس وإما قدم. وتربع البنك الكنعاني على قمة التصنيف البنكي بحجم الودائع والتسهيلات. بينما ينتهي صقر من رفع مبنى كبير لفرع عمان، جعل من البنك العثماني في مواجهته بحجم دكان. ورغم تنوع أعمال الفرع وارتفاع عدد موظفيه إلى نحو عشرين، إلاّ أن ذلك لم يحل دون تدخل سليمان بكل كبيرة وصغيرة، بما في ذلك سلوك موظفيه " وصل الباشا " " اطفوا السجاير ونضفوا المنافض وضبوا الدخان" . فيسعد هذا التوتر قلب سليمان.

١٥

اضطرب مال النبي مع اضطراب الأحوال. إذا انتصر الانجليز سيجد نفسه في ورطة معهم بسبب شيوعية ابنته، وإذا انتصر الألمان، ستورطه يهوديته. في الحالتين ورطته مميتة إذا انكشف للعرب أمره، قد يجد في الانجليز الحماية، ولن تتخلى عنه الوكالة. لكن لقاء ماذا .؟. أموالـه وأطيانه التي باتت جزءاً من حياته. بل هي حياته المهددة بخطر زواج ابنته من هذا الصعلوك. لم يسمع عنه من قبل، فصار يسمع عنه في كل يوم جديد قصة جديدة، وهو يتقصى عن أصلـه وفصلـه وعلاقته بشيخ الحضرة. لو تشتري العفاريت بالمال، لأمطرها طوفان على تكية ذلك الشيخ الدجال. جر جر جر جرير ... يا ملعون الوالدين. بل هو الملعون ابن الـملعون لأنه تعامل مع تلك الابنة العاقة بانفتاح وارتياح، بينما المرأة رجس ودنس في كل النواميس. فتحت رأسها للشيوعية، بمجرد أن فتح لـها باب الدار. وفتحت ساقيها بمجرد أن عتّبت باب الدار. إنه يقسم بتربة أجداده، أن ذلك المسخ لم يتزوجها حباً ولا افتتاناً، وهو



المعروف في البلدة بأنه زير نساء. أغواها بأشعاره أو برقى شيخه الدجال، طمعاً بثراء أبيها. وهل مثل المال يغوي المرء بالغدر والقتل وبيع الشرف والعرض والمعتقد والانتماء. إذا كان المال يفعل بالرجل كل هذه الأمور، فإنه يفعل بالمرأة أكثر. لكن ابنته هشمت لـه هذه القناعة. تخلت عن العقيدة والمال والأطيان في سبيل رجل يكبرها بعقدين. متزوج ولديه ابن في الفيلق العربي كما قالت لـه بروز. حبشية تمارس التنجيم، وهي واللـه أعلم جاسوسة للعرب واليهود والانجليز. إنها تعرف كل شيء إلا التطبيب. تقول بأن التشخيص نصف العلاج، وهو يريد علاجاً كاملاً وفورياً. إما أن يموت صهره الجني هذا، أو يموت الزواج. ذلك أهون عليه بكثير من الإذعان لـهذا الوضع. كيف يذعن والتناقضات تنهشه يميناً ويساراً. إذا كشفت ساره أمره في حضن هذا النصاب، سيتعرض لابتزازه طيلة عمره. وإن رفض الانصياع لربما سيكتب به قصيدة دونـها قصيدة شهر أيار. صار يفهم بالشعر أيضاً. كيف لا وأشعار صهره تنشد في المدارس وتغنى في الحانات. أهذه آخرتها يا ساره. كان عليها أن تحترم رعايته وتقدماته التي يؤثرها فيها على أخيها



البليد. أما أن تضعه في هذه المعمعة التي لم تكن بالحسبان، فقد عاقبته بعذاب نفسي دونه آلام الأعضاء. عليه منذ الآن أن يعد العدة لمواجهة خصم كان حشرة قبل زواجه من ابنته وغدا صقراً بعد زواجه منها. لم يقلقه أي خصم حتى الآن. بما في ذلك الأدهم المتهور الذي صيرته الحرب حكاية على كل لسان. للآن لم يجرؤ هذا الأدهم على اختراق سوق المرابأة. إنه ليس منافساً لـه وإن سرق بعض زبائنه واستأثر لنفسه ببعض عملياته. ظل بعيداً عن نشاطه الرئيس، بل غريباً عنه. مهما ازداد ثراء هذا الأدهم ومهما ذاع صيته سيظل رهين تهوره القتّال. قد ينعم بالثروة لكن الـهاوية تنتظره ولو بعد حين. أما هو، فقد تمكن من سوق المرابأة أكثر من البنك العثماني الذي يودع فيه أموالـه. وتمكن من كبار الإقطاعيين والصنّاع والتجار. بعقلـه وإرادته قبض على المصائر، لتقبض ساره على مصيره من خلال عاطفته، وتتخلى عن تاريخها وعقيدتها وعائلتها من أجل مسخٍ يخجله مصافحته. لن يظل مسخاً بعد هذا الزواج. ولربما لم يكن مسخاً قبله، وإلا لماذا تحذره بروز منه. شيوعي بكتاشي. لكن هل يستطيع الوشاية به؟. ستطاله الوشاية، طالما ابنته

شيوعية، ولن يستطيع دفع بلطجي لـه، طالما يحتمي ببلاطات البكتاشية. ازدادت ثقافته بسبب هذا الزواج، فعرف عن البلدة وساكنيها أموراً لم تكن تخطر على بالـه من قبل. بل لم تكن تعنيه بأي حال من الأحوال: والحل؟.. سأل بذلة. فقالت بروز بحزم: حمايتك في دينك.

هذه الساحرة التي لا يعرف عنها، رغم توطد علاقته بها، إن كانت حقاً من عبيد أفريقيا أم من عبدة الشيطان. لا يعرف كيف تأتيها المعلومات والأخبار، وكيف تفاجئه دائماً بمتابعتها للأحداث وتعمقها بالشرائع والديانات. وهي في كل الأحوال تعطي ومضات تحير العقل وتثير زوابع التساؤلات. طبعاً، ليس بسبب سيطرتها عليه، لا أحد يسيطر عليه. ولكن لأنها دائماً تقربه من الحقيقة وتجعله يقبض على طرفها: كيف ... سألها، فقالت: العنانية ... نطقتها همساً كأنها وشاية.

سأل زوجته عن العنانية فقلّبت شفتيها. راجع فهرس التلمود فلم يفده شيئاً. عاد إلى بروز التي أهملت سؤاله، ولم ينجح باستدارجها للإفصاح والتوضيح. وكأن الموضوع مندثر ومنسي مذ نطقت تلك الكلمة اليتيمة.

لكنه وهو يحاول الخلاص من حيرته في خضم تساؤلاته وتناقض تداعياته، وجد نفسه من غير عزم مسبق يتناول كتاب " دليل الحائرين" .

تصفحه دونما تتابع، وهو يقلب الأوراق، ويقفز بين الفقرات. ويتوقف مع هذا التعبير أو يعيد قراءة آخر. عاد إلى المقدمة التي تجاوزها إلى الفصول والأبواب. لتضيء لـه صفحاتها القليلة الملولة اسم عنان. عنان بن ديفيد. معقول؟ معقول؟.

عاد إلى بروز متسلحاً بالتفسير، فلقي منها الإهمال نفسه. لم تبد اهتماماً بما ظن أنه مفاجأة ستجعل جسدها البدين يهتز كالمرجل: إنت قصدت الكاريه يا ست بروز. لم تكلف نفسها التعليق ولو بالقول إنها لم تقصد شيئاً.

في البيت، نصحته زوجته بالتمهل، فقال بانفعال: أتمهل لإيمته؟. ليصير عندها من هادا الأجرب عر ولاد.

لن يضيره بعد الآن انكشاف يهوديته، بل ربما يحتاجها العرب في قضيتهم. كما أنه لم يقابل بالتهديد ولا الوعيد من الوكالة. رمى ستفة سندات تسجيل أمام إيمانويل

نيومن: هذه نقودكم. إنتم في طريق وأنا في طريق. الرب يحارب عن إسرائيل. الرب يقاتل وأنتم تصمتون.

كان سلاحه وهو يعلن انفكاكه عنهم تطرفاً عقائدياً لا يستطيعون معه التشكيك بيهوديته. بل كان بتحولـه يشكك في انتمائهم وتدينهم. اتجه واثق الخطى إلى حي ميئا شعريم ليباركه الحاخام إسرائيل زيف، ويعينه سفيراً لناتوري كارتا في الربة القديمة.

من حينها صار مال النبي يجاهر بعدائه الصارخ للصهيونية ويندد على المكشوف بإقامة دولة يهودية قومية. كانت بروز على حق. احتماؤه بيهوديته الأصولية خلصه من مخاطر دولته القومية. بدأت تراوده فكرة تغيير اسمه غسلاً لعار ابنته. لكن ماذا يفيد هذا إذا سقطت مصر بيد الألمان.؟. ماذا سينفعه الاسم والنقود إذا وصلت أرتالـهم إلى عمان.؟.

١٦

تساءل وهم يتسللون بين الأشجار الباسقة، لماذا يطلقون على الموقع اسم تل الشوك.؟. توقع أن يرتقي تلاً مغطى بالأشواك، أو مرتفعاً أجرد مثل هضاب الصحراء. ليفاجأ ورفاقه بخصوبة التربة العشبية وكثافة أشجار الصنوبر والبلوط، وفي واديه تنساب عيون الماء على أقدام جبال فقوعة غربي بيسان. الطبيعة مختلفة تماماً عن وادي الحوارث، كما أن حال أناسه اختلفت عما عهده بهم يوم زيارتـه لـهم قبل أعوام. ازدادوا بؤساً بعدما هدمت الآليات مساكنـهم وأحرق الجنود خيامهم وحملوهم على الـهجرة قسراً. كان قرار المحكمة حازماً بإفراغ وادي الحوارث منـهم.

هذه المرة لم يكن شيخهم مسترخياً مع غليون البشر. بل في منتهى الوعي، ولم يكن لديه غلمان يخدمونـه، بعدما دفع الفتيان للتسول على حدود جنين. وسكن الآثار القائمة قريباً من عيون المروع، بينما تناثرت مساكن قومه مثل خرابيش النور في تباعد وفوضى، جعلت الزائرين يصلون الآثار دون أن ينتبه لـهم إلا قلة من المهجرين.

بدا سيف ورجالـه،بكوفياتـهم وعقلـهم، أقرب إلى هيئة الفلاحين. لم يتعرف الشيخ
عليه إلا بعد أن ذكّره سيف: شو .؟. مش قاعد تدخن بشر.
- بشر شو يا ابني .؟. احنا لاقيين ناكل.
- على ها الحال. التـهجير نفع فيك وما نفع.
- اش قصدك .؟.
- قصدي إنك توقفت عن تدخين البشر. بس بدل ما تنتبهوا للأرض اللي تـهجرتوا إلـها. رحت تدفع الاولاد للشحادة. مالك بتطّـلع.
- قاعد احاول اتذكر شفتك وين .؟.
- شايف انوه التـهجير نفع فيك، لأنك رجعت تتذكر. أنا اللي أجيتك من طرف المفتي، قبل كم سنة.
- تبع الأوتومبيل ؟!.
- هادا اللي بتعرفه عني؟.. عقب أحد الرجال بفخامة مشيراً لسيف: القايد أبو لقاء... عندها طغت الصورة التي صنعها الخيال على تلك التي حفرتـها الذكرة. فبـمثل ما

سمع سيف وغيره عن تـهجير الحارثيين إلى تل الشوك، سمع الحارثيون بالأغاني التي ينشدها لأبي لقاء الفلاحون.

هب الشيخ نعمان واقفاً وأخذ سيف بالأحضان. راح يقبلـه من وجنتيه وكتفه وجبينـه، وهو الذي قابلـه في وادي الحوارث بالاستـهتار وعدم الاكتراث بسبب حقده على الأوتومبيل والطربوش: عارف إنوه إحنا بنغني الك كل يوم يا أبو لقاء... وأسمعه بعض المواويل وهم يتناولون عشاء الخبز والحلاوة.

كان مجيء سيف إليه محدد الـهدف. لكن الزيارة أثمرت عن نتيجة أفضل: كل شبابنا بتفلتوا ينضموا إلك بس ، ولا واحد بعرف محلك .

قال سيف بأن السلاح المتوافر لديه محدود، والأهم، العتاد. فقال الشيخ بأنـه مستعد وأبناء قومه أن يحاربوا بالعصي والحجارة والسكاكين. تجاوزت نقمتـهم على الانجليز واليهود أبعادها الوطنية لتغدو قضية شخصية. بتـهجيرهم من أراضيهم، حكموا عليهم بالموت. لكنـهم، وهم سلالة الأبطال من آل طرباي، لن يقبلوا أن يساقوا إلى الإعدام مثل النعاج، بل سيقبلون عليه رغبة بالحياة.

أصغى سيف إلى خطبة الشيخ الحماسية ببرود. لم يعد للكلمات وقع في نفسه. حتى الأناشيد والأهازيج والمواويل التي تتغنى به، لا تزيده حماساً. مثلما تـهديدات السلطات لا تقلل من اندفاعه. غدا ملولاً زاهداً، إلا من لـهيب الانتقام الذي يصليه ويصلي المحيط الذي يتحرك فيه. وسواء أكان الشيخ نعمان صادقاً أم متبجحاً أم مجاملاً، فإن قولـه نابع منـه ليرتد إليه. كل شيء يمكن فلسفتـه ومنطقتـه وتلحينـه وإنشاده إلا الانتقام. فالانتقام ليس مسألة تحضر أو بربرية. كما أنـه ليس خيراً أو شراً، ولا خطأً ولا صواباً. الانتقام ليس روحياً ولا دنيوياً وليس نفساً معقدة أو سويـة. إنـه ليس ثأراً ولا إرهاباً ولا انتصاراً ولا استسلاماً. فسيف لا يقبل على الموت رغبة بالحياة، كما تفلسف الشيخ نعمان. بل يرقى على الفناء بامتلاك سلطة الإفناء.

صنع في نفسه قيمة تمكنـه من أن يعيش الموت وهو على قيد الحياة. في هذه الحالة فقط، على ندرتـها، يغدو الاستموات عذباً. فإقدام سيف عليه ليس إقداماً ولا انتحاراً ولا استشهاداً. بل تجلياً لذات انتقامية، تتحرر بالموت

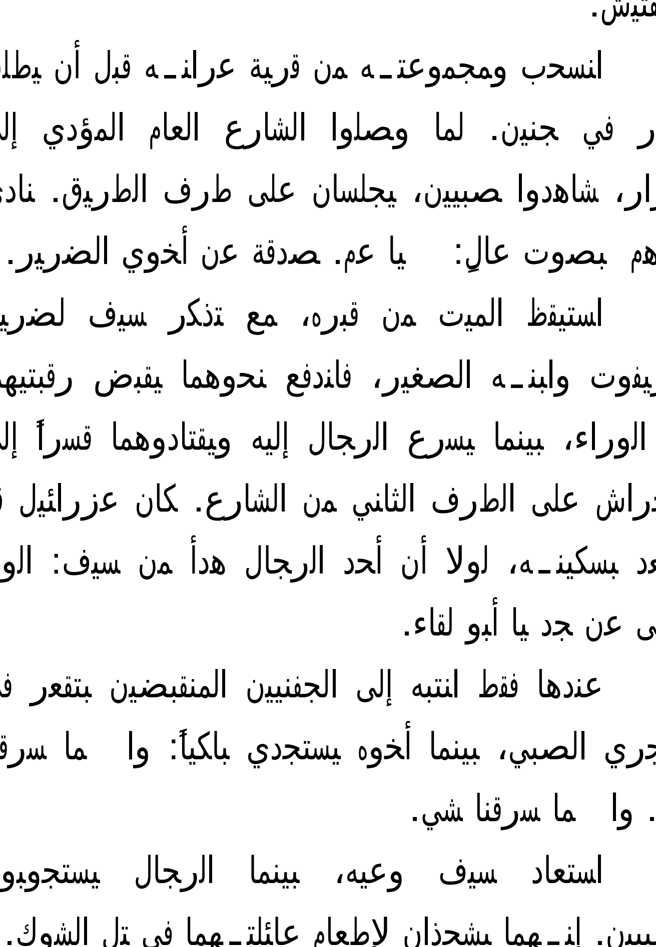
من قيود العبودية. أو ليست البزاة تحجم عن التناسل في الأسر ولو كانت أقفاصها ذهبية.

لم يعبأ كثيراً بحال الحارثيين. بقاؤهم في واديهم أو تـهجيرهم إلى سواه لا يشحذه أو يحبطه أو يقدمه أو يؤخره طالما أنـه انبعث من الموت شبحاً يرعب قتلتـه ومكفنيه ودافنيه .

لم يأت إلى تل الشوك مواسياً أو مؤازراً أو طلباً للمتطوعين. فبـمثل ما قابل بفتورٍ اندفاع شبابـهم للانضمام إليه، قبل انضمام بعضهم بصدود.

لم يأت لتأنيب الشيخ بعمان على إرسالـه فتيان قومه للشحاذة، وإن عاتبه على ذلك ونصحـه بالتحول إلى زراعة الوادي الخصيب. جاء إليه لتجنيده بالبحث عن عصابة " أبو نجيم" .

حصل ذلك عندما هاجم سرايا الحكومة في جنين. تسلح بالموت لإماتة قاتليه في المقبرة التي دفنوه فيها. فعبر السرايا في وضح النـهار، وذبح بالمنجل حاكم المنطقة



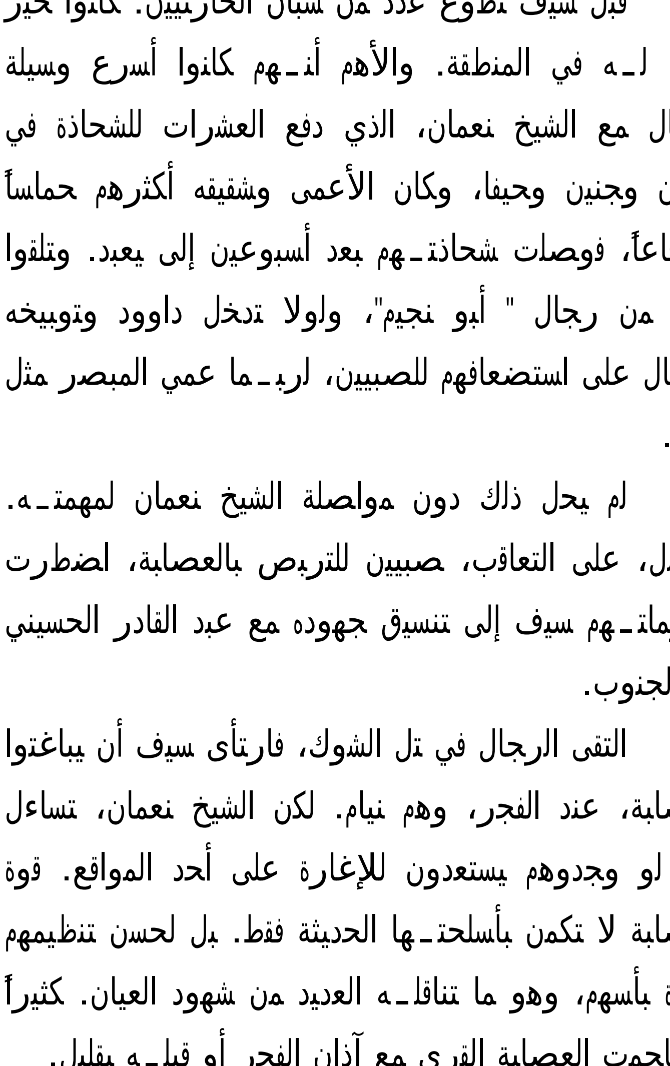
بالـهدوء نفسه الذي عبر فيه المبنى وتجاوز الحرس والتفتيش.

انسحب ومجموعتـه من قرية عرانـه قبل أن يطلق النفير في جنين. لما وصلوا الشارع العام المؤدي إلى المزار، شاهدوا صبيين، يجلسان على طرف الطريق. نادى أحدهم بصوت عالٍ: يا عم. صدقة عن أخوي الضرير.

استيقظ الميت من قبره، مع تذكر سيف لضرير الغريفوت وابنـه الصغير، فاندفع نحوهما يقبض رقبتيهما من الوراء، بينما يسرع الرجال إليه ويقتادوهما قسراً إلى الأحراش على الطرف الثاني من الشارع. كان عزرائيل قد استعد بسكينـه، لولا أن أحد الرجال هدأ من سيف: الولد أعمى عن جد يا أبو لقاء.

عندها فقط انتبه إلى الجفنيين المنقبضين بتقعر في محجري الصبي، بينما أخوه يستجدي باكياً: وا ما سرقنا شي. وا ما سرقنا شي.

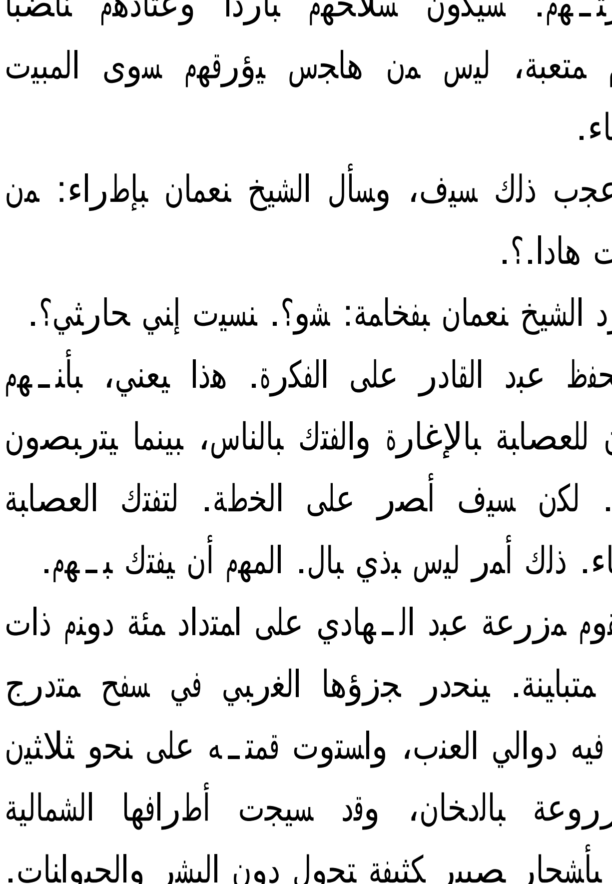
استعاد سيف وعيه، بينما الرجال يستجوبون الصبيين. إنـهما يشحذان لإطعام عائلتـهما في تل الشوك.



قبل سيف تطوع عدد من شبان الحارثيين. كانوا خير أدلاء لـه في المنطقة. والأهم أنـهم كانوا أسرع وسيلة اتصال مع الشيخ نعمان، الذي دفع العشرات للشحاذة في بيسان وجنين وحيفا، وكان الأعمى وشقيقه أكثرهم حماساً واندفاعاً، فوصلت شحاذتـهم بعد أسبوعين إلى يعبد. وتلقوا علقة من رجال " أبو نجيم"، ولولا تدخل داوود وتوبيخه للرجال على استضعافهم للصبيين، لربـما عمي المبصر مثل أخيه.

لم يحل ذلك دون مواصلة الشيخ نعمان لمهمتـه. فأرسل، على التعاقب، صبيين للتربص بالعصابة، اضطرت معلوماتـهم سيف إلى تنسيق جهوده مع عبد القادر الحسيني في الجنوب.

التقى الرجال في تل الشوك، فارتأى سيف أن يباغتوا العصابة، عند الفجر، وهم نيام. لكن الشيخ نعمان، تساءل فيما لو وجدوهم يستعدون للإغارة على أحد المواقع. قوة العصابة لا تكمن بأسلحتـها الحديثة فقط. بل لحسن تنظيمهم وشدة بأسهم، وهو ما تناقلـه العديد من شهود العيان. كثيراً ما هاجمت العصابة القرى مع آذان الفجر أو قبلـه بقليل.



نصح الشيخ نعمان بأن يتربصوا لـهم وهم عائدون من إغارتـهم. سيكون سلاحهم بارداً وعتادهم ناضباً وأجسادهم متعبة، ليس من هاجس يؤرقهم سوى المبيت والاسترخاء.

أعجب ذلك سيف، وسأل الشيخ نعمان بإطراء: من وين تعلمت هادا.؟.

رد الشيخ نعمان بفخامة: شو؟. نسيت إني حارثي؟.

تحفظ عبد القادر على الفكرة. هذا يعني، بأنـهم سيسمحون للعصابة بالإغارة والفتك بالناس، بينما يتربصون عودتـهم. لكن سيف أصر على الخطة. لتفتك العصابة بـمن تشاء. ذلك أمر ليس بذي بال. المهم أن يفتك بـهم.

تقوم مزرعة عبد الـهادي على امتداد مئة دونم ذات تضاريس متباينة. ينحدر جزؤها الغربي في سفح متدرج نـهضت فيه دوالي العنب، واستوت قمتـه على نحو ثلاثين دونماً مزروعة بالدخان، وقد سيجت أطرافها الشمالية والجنوبية بأشجار صبير كثيفة تحول دون البشر والحيوانات. في الشرق، حيث مدخل المزرعة، امتدت إلى الأمام سلسلة حجرية مرتفعة طويلة يتخللـها مدخل عريض يتم إغلاقه

بحاجز خشبي متحرك. تم إصلاح جزئه الذي هدمته الآليات في معركة القسام. على جانبي المدخل ارتفعت أشجار السرو على امتداد نحو مائتي متر مستوية، تنحرف بعدها صعوداً إلى اليمين باتجاه هضبة تقوم عليها مساكن حجرية عديدة متباينة الحجم، أضخمها أوسطها حيث سكنت عائلة عبد الهادي. ويقال بأن ابراهيم باشا الكبير أقام في هذا البيت أثناء غزوه لفلسطين. ظل البيت على حيويته إلى أن شنق سيف صاحبه على مرأى من أسرته، فانتقلت العائلة برمتها إلى خارج جنين. باستثناء داوود الذي كان يقيم في بيت يبعد نحو مائتي متر عن بيت أخيه، تفصله عنه غابة من أشجار اللوز والتين والمشمش والرمان.

ورغم أن أفراد العائلة كانوا ينزعون للتسلط على الفلاحين، إلا أنهم كانو أكثر المذعنين للحاكم. عربياً كان أم انجليزياً أم يهودياً أم جاء من الصين، على رأي أهل جنين. ولم يكن ثراؤهم ودعم الحكام لهم السببين الوحيدين لغطرستهم ومجاهرتهم بالتعاون مع سلطات الانتداب، بل أيضاً لبطشهم وشدة بأسهم التي اشتهروا بها. مما جعل داوود أسطورة للفتوة في كل أنحاء فلسطين.

قضى على رجلٍ بلقاوي في ملـهى نابولي بضربة مزدوجة من كلتا يديه، أطبقها بكل قوتـه على صدغي الرجل، دون أن يطالـه القانون إلا لليلة واحدة قضاها في النظارة.

اعتبرت الحادثة دفاعاً عن النفس، فقد هاجمه البلقاوي، مخموراً متسلحاً بخنجره، إلا أن داوود اعتصر بيده معصم الرجل، فسقط منـها الخنجر ثم سدد لـه ضربتـه المشهورة أمام ذهول رواد الملـهى. مع هذا دفعت دية القتيل، رغم براءة داوود أمام القانون، إذ طالت ساقاه، على رأى المتشفين بعشيرتـه، فبات بعد مقتلـه سيد القوم وفخر الرجال.

في حادثة أخرى، فجر برصاص مسدسه، رأس خليلي بعدما باغتـه الرجل بـموسى كباس تلقاه داوود في يسراه، واردى الرجل برصاصة من يمناه. حصلت الحادثة أمام محكمة حيفا، وعلى مرأى الشرطة والمحامين

والجمهور. بعدما خسر الخليلي قضيتـه وخسر معها أرضه المرهونة لداوود. اعتبر الحادث دفاعاً عن النفس أيضاً.

هذه المرة، لم يوقف داوود في النظارة. بل قضى تلك الليلة في المستشفى برعاية أطباء تسابقوا لإشفاء يده الجريحة.

استمال غانية انجليزية في ملـهى الأمباسادور، فاحتكرها لنفسه طيلة ساعات، مما أثار حنق ثلاثة جنود انجليز مخمورين، فتحرش به أحدهم ، قبل أن يتكاتف رفاقه في مهاجمة داوود الذي راح يتقاذفهم كالدمى ويطرحهم مغيبـي الوعي.

قيل بأنـه لو رام القضاء عليهم لأثقل عيار لكماتـه قليلاً، وسيكون رواد الملـهى والعاملون فيه شهوداً لبراءتـه. لكن الأمر قد تشوبه بعض التعقيدات لأنـهم انجليز. ومع هذا أغلقت القضية باستجواب داود وتوبيخ الجنود.

كيف إذن، يمكن أن تقلق عائلة عبد الـهادي على تعاونـها المفضوح مع الجيش والبوليس أثناء معركة يعبد.؟. وكيف يمكن للعائلة أن تخشى انتقام الناجين من المعركة، أو

ثأر أهاليهم أو مناصريهم؟. بينما داوود يقتل دائماً دفاعاً عن النفس، وغالباً بيديه المجردتين.

لـهذا أخذت المباغتة من عبد الـهادي، أكثر مما أخذ منـه السلاح المسدد إليه وإلى عائلتـه الملتئمة حول أطايـيب الطعام.

أحس بالرعب يمتصه من ركبتيه، بينما الموت ينعكس في وجه سيف المصفر ويرتسم تجويف القبر في عينيه الغائرتين. حتى كلمة داوود، لم تقو دواخل عبد الـهادي على الاستنجاد بـها وهو ينصاع مطواعاً دونما أوامر ويدير ذراعيه إلى وراء ظهره باستسلام .

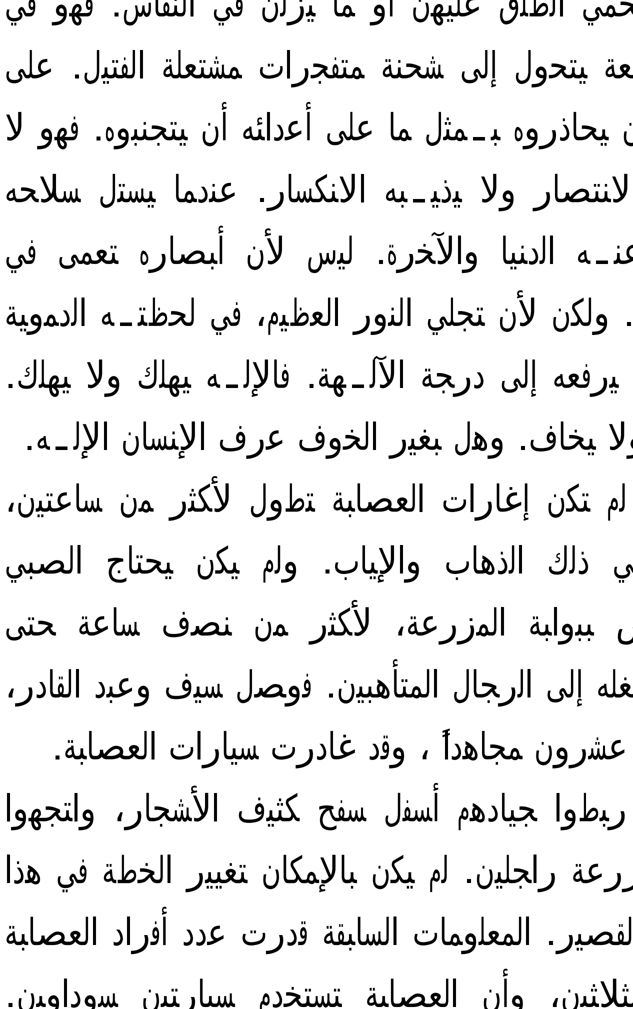
كان باقي أفراد العائلة أكثر مقاومة وهم يتململون في الحبال التي كتفوا بها. لكن رعبهم المميت تجاوز رعبه. بل استيقظ على أشده بينما يتلوح عبد الـهادي فوقهم مترجرجاً منتفضاً مـختنق الصوت والوعي والأنفاس.

ظلوا أياماً، في بيت داوود، يهلوسون بالمشهد الطاغي على تفكيرهم وخيالاتـهم ورغباتـهم. انتقلت العدوى إلى داوود الذي جاهد للتماسك أمامهم. لكنـه بعد

رحيلـهم، وعندما يختلي بنفسه، يردد ما رددوه: روحوا خبروا. روحوا خبروا. ابو لقاء. أبو لقاء.

بالنسبة لداوود، غدا القتل غضباً أكثر منـه ثأراً يزداد اتقاداً مع كل إغارة لا يظفر فيها بسيف. لا بد أن يصادفه أو يستدرجه، لكنـه لم يتوقع أبداً أن يأتي إليه. فرغم أن داوود يعتبر سيف مجرماً، إلا أنـه غاب عنـه مقولة الانجليز، من أن المجرم يرجع عادة إلى موقع جريمتـه، مع أنـه قرأها في العديد من روايات أرسين لوبين وهولمز، التي كانت تجعله يتخيل نفسه أعتى من مجرميها وأكثر ذكاء من محققيها. حتى سلالة أصحاب العبارة لم يخطر سيف ببالـهم يوم نحره حاكم جنين. كما اخفقوا في تحديد الأداة التي نحرتـه. وإن أجمع معظمهم على أنـها سكين جزار.

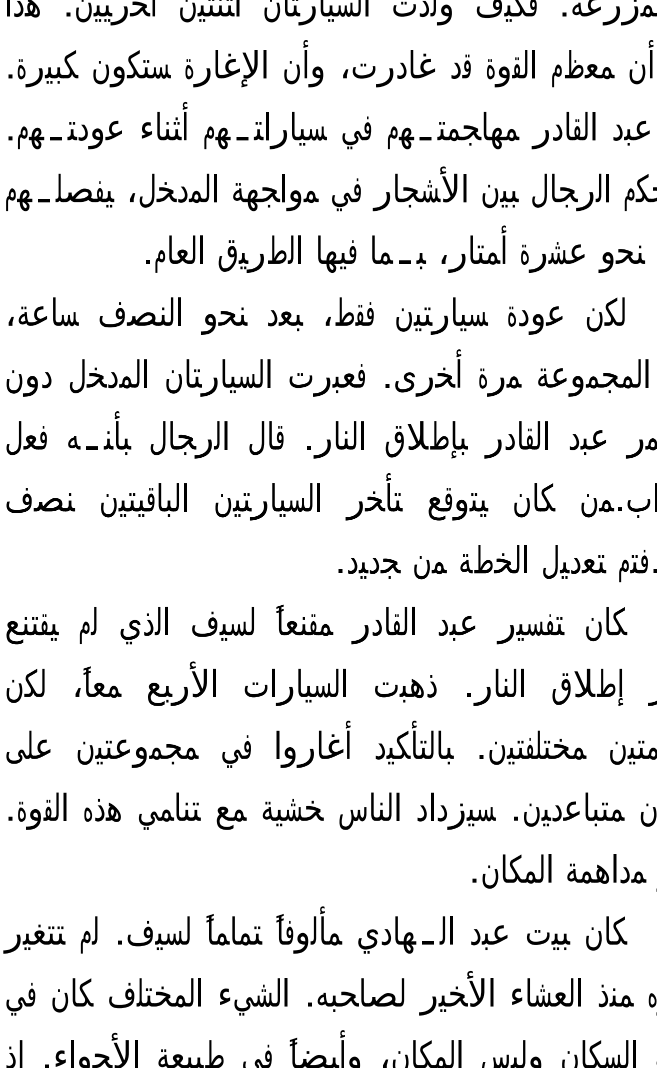
أما سيف فلم يعد يفرق بين انجليزي وعميل للانجليز، وبين يهودي وسمسار لليهود. كما لم يعد يعبأ بعدد القتلى من رجالـه، بل بعدد القتلى من أعدائه. غدا الموت بالنسبة لـه حالة تعاش. إنـه تجلٍ للحياة، وليس نـهايه لـها أو هروباً منها. كان يتطلع لقتل جميع عصابة"أبو نجيم"، حتى لو كان بينـهم شيوخ عجزة، وأطفال في المهد،



ونساء حمي الطلق عليهن أو ما يزلن في النفاس. فهو في كل موقعة يتحول إلى شحنة متفجرات مشتعلة الفتيل. على رفاقه أن يحاذروه بـمثل ما على أعدائه أن يتجنبوه. فهو لا يبهجه الانتصار ولا يذيـبه الانكسار. عندما يستل سلاحه تغيب عنـه الدنيا والآخرة. ليس لأن أبصاره تعمى في المعمعة. ولكن لأن تجلي النور العظيم، في لحظتـه الدموية العظيمة يرفعه إلى درجة الآلـهة. فالإلـه يهلك ولا يهلك. يخيف ولا يخاف. وهل بغير الخوف عرف الإنسان الإلـه.

لم تكن إغارات العصابة تطول لأكثر من ساعتين، بـما في ذلك الذهاب والإياب. ولم يكن يحتاج الصبي المتربص ببوابة المزرعة، لأكثر من نصف ساعة حتى يصل ببغله إلى الرجال المتأهبين. فوصل سيف وعبد القادر، ومعهما عشرون مجاهداً ، وقد غادرت سيارات العصابة.

ربطوا جيادهم أسفل سفح كثيف الأشجار، واتجهوا إلى المزرعة راجلين. لم يكن بالإمكان تغيير الخطة في هذا الوقت القصير. المعلومات السابقة قدرت عدد أفراد العصابة بنحو الثلاثين، وأن العصابة تستخدم سيارتين سوداوين. استنتجوا أن العصابة تغير بثلث قوتـها، بينما يظل الثلثان

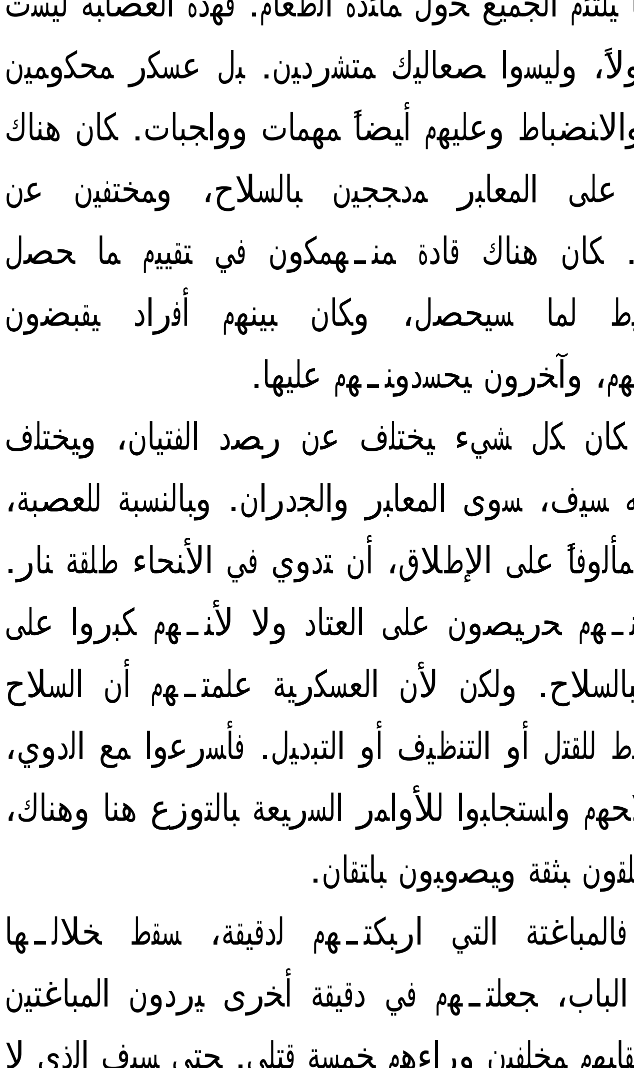


في المزرعة. فكيف ولدت السيارتان اثنتين أخريين. هذا يعني أن معظم القوة قد غادرت، وأن الإغارة ستكون كبيرة. فقرر عبد القادر مهاجمتـهم في سياراتـهم أثناء عودتـهم. واستحكم الرجال بين الأشجار في مواجهة المدخل، يفصلـهم عنـه نحو عشرة أمتار، بـما فيها الطريق العام.

لكن عودة سيارتين فقط، بعد نحو النصف ساعة، أربك المجموعة مرة أخرى. فعبرت السيارتان المدخل دون أن يأمر عبد القادر بإطلاق النار. قال الرجال بأنـه فعل الصواب.من كان يتوقع تأخر السيارتين الباقيتين نصف ساعة.فتم تعديل الخطة من جديد.

كان تفسير عبد القادر مقنعاً لسيف الذي لم يقتنع بتأخير إطلاق النار. ذهبت السيارات الأربع معاً، لكن بـمهمتين مختلفتين. بالتأكيد أغاروا في مجموعتين على موقعين متباعدين. سيزداد الناس خشية مع تنامي هذه القوة. فتقرر مداهمة المكان.

كان بيت عبد الـهادي مألوفاً تماماً لسيف. لم تتغير معابره منذ العشاء الأخير لصاحبه. الشيء المختلف كان في طبيعة السكان وليس المكان، وأيضاً في طبيعة الأجواء. إذ



نادراً ما يلتئم الجميع حول مائدة الطعام. فهذه العصابة ليست عائلة أولاً، وليسوا صعاليك متشردين. بل عسكر محكومين للنظام والانضباط وعليهم أيضاً مهمات وواجبات. كان هناك حراس على المعابر مدججين بالسلاح، ومختفين عن الأنظار. كان هناك قادة منـهمكون في تقييم ما حصل والتخطيط لما سيحصل، وكان بينهم أفراد يقبضون مكافآتـهم، وآخرون يحسدونـهم عليها.

كان كل شيء يختلف عن رصد الفتيان، ويختلف عما ألفه سيف، سوى المعابر والجدران. وبالنسبة للعصبة، لم يكن مألوفاً على الإطلاق، أن تدوي في الأنحاء طلقة نار. ليس لأنـهم حريصون على العتاد ولا لأنـهم كبروا على العبث بالسلاح. ولكن لأن العسكرية علمتـهم أن السلاح يستل فقط للقتل أو التنظيف أو التبديل. فأسرعوا مع الدوي، إلى سلاحهم واستجابوا للأوامر السريعة بالتوزع هنا وهناك، وهم يطلقون بثقة ويصوبون باتقان.

فالمباغتة التي اربكتـهم لدقيقة، سقط خلالـها حارس الباب، جعلتـهم في دقيقة أخرى يردون المباغتين على أعقابهم مخلفين وراءهم خمسة قتلى. حتى سيف الذي لا

يبالي بالموت، تتقهقر أمام شدة النيران المندفعة من جميع الجهات. ليتحول الشارع إلى حاجز يصعب اختراقه من كلا الطرفين. لكنـه ليس كذلك بالنسبة للطرف الثالث: داوود.

وصل من بيتـه، فوق صهوة جواد، وقد استحكم رجال " أبو نجيم" خلف السلسة الحجرية وهم يطلقون النار بغير انقطاع، على المهاجمين المتحصنين بالأشجار. بينما تتوجه مفرزة للالتفاف عليهم من الشمال. لكن اندفاع داوود فوق جواده وهو يطلق من رشاش برن، ألغى التكتيك، بعدما ألـهبت الحركة حماس بعض رجال "أبو نجيم" فاندفعوا في أثر داوود، الذي نقل المعركة إلى داخل الحرج وسقط من المهاجمين خمسة قتلى آخرين. وكأن ذلك وفاء للعهد الذي قطعه رجال " أبو جميع". كل واحد منـهم بعشرة من خصومهم.

أمر عبد القادر بالانسحاب إلى مربط الجياد. لكن ذلك لم يكن ميسوراً بسبب حمى الرصاص. ولاسيما برن داوود الذي لا يهدأ إلا عندما تشتد الحمى على ماسورتـه فتخور الطلقات. ليتحول إلى مسدسه ثم إلى البرن ثم إلى

المسدس الذي انشغل بتغيير مشطه للحظة، ظهر فيها أمامه سيف الحجاج مسدداً إليه بارودتـه وهو يقترب منـه متفرساً. لم تأخذ المفاجأة من داوود الذي قذف سيف بـمسدسه فانزاح عنـه سيف سريعاً، وقبل أن يرفع داوود البرن ضغط سيف على الزناد. سمع كلاهما صوت ارتطام الديك ببيت النار رغم طغيان أصوات الرصاص. لم يعبأ كلاهما عندها بالسلاح. فرمى سيف بندقيتـه جانباً واستل خنجره وهو يندفع إلى داوود.

تلقاه داوود مثلما يتلقى فزاعة قماش.في ثوانٍ شلت يد سيف وارتخت عن الخنجر بينما داوود يعتصرها بقبضتـه الحديدية، ثم قبض بالثانية على سيف من وسطه ورفعه في الـهواء وألقاه بعيداً أمتار. اندفع إليه وقبض بكلتا يدي على عنقه، فتلوى جسد سيف متخابطاً وهو يحاول تخليص عنقه دونما جدوى، إلى أن دوت طلقة في الـهواء أجفلت داوود وضاعفت من ضغط يديه على عنق سيف. إلا أن طلقة أخرى جعلتـه يفلت عنق سيف ويستدير بجسده إلى الوراء فتبين سيف بقعتين حمراوين في ظهره أسفل الكتفين،

وقبل أن ينـهض عنـه دوت طلقة ثالثة تمكنت من إسقاط داوود على ظهره ليرتطم رأسه ببطن سيف وهو يشخر.

أزاحه سيف بعنف، وتفرس به بعينيه المتعبتين. أسرع إلى خنجره، لكن الرفيق الذي أنقذه استوقفه وحثه على الابتعاد واللحاق بالآخرين. داس على وجه داوود قائلاً: إذا قدرت على الحكي، قول لجماعتك، راجع لكم أبو لقاء .. وانضم إلى باقي المجموعة يطلقون الرصاص للتغطية وهم يتقهقرون إلى الجياد.

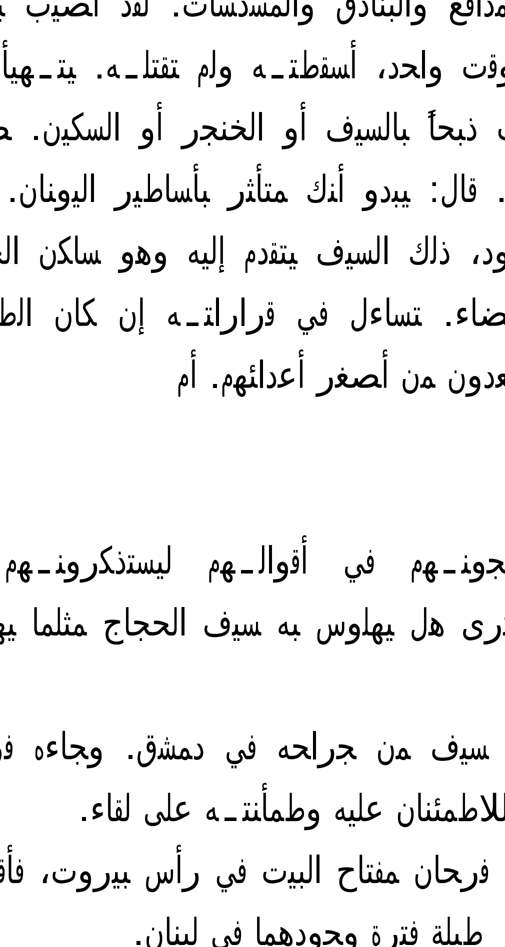
بعد أيام صدرت أوامر جلوب، بإخلاء المنطقة بعد الذي صار. وانتـهت قصة "أبو نجيم". بينما أرسل داوود للمعالجة في المستشفى الانجليزي في الخليل، ليصبح بعد أشهر من أكثر الفلسطينيين نفوذاً عند جلوب باشا. تنـهشه خيبتـه التي اعتبرها بداية لسوء الحظ. فلو كان يعرف قبل سقوطه أن سيف الحجاج هو الذي كان بين يديه، لما انزاح عنه واقتلع بأسنانـه حنجرة ذلك المجرم. راجع لكم أبو لقاء. راجع لكم أبو لقاء.

بعد شهرين من إصابتـه، ذهب إلى المستشفى للمراجعة الدورية على جراحه، فاحتجز في عيادة الطبيب

الانجليزي، لأربع ساعات. قطعت أثناءها خطوط الاتصال بين المستشفى والخارج، وأرغم الأطباء على معالجة رجلين جراحهما بليغة. وبعد إسعافهما حملـهما رفاقهما إلى سيارة بالانتظار.

ضرب داوود على طاولة الطبيب وهو يطلعه على سبب الاحتجاز. تفاقم شعوره بالخيبة وهو يقرأ بعد يومين في صحيفة " الجريدة"، عن تفاصيل المعركة الطاحنة التي أسقط فيها الثوار ثلاث طائرات انجليزية إضافة إلى عطب العديد من الآليات. كانت خسارة داوود النفسية تفوق خسارة الانجليز المادية والمعنوية، وهو يتابع الخبر الذي ورد فيه اسما عبد القادر الحسيني وسيف الحجاج، اللذين جاء بهما الرفاق إلى المستشفى الانجليزي في الخليل، وارغموا الأطباء على إسعافهما، بينما داوود محتجز في عيادة طبيبه. وكأن سيف الحجاج يطارده أعزل السلاح.

صار يحس بالرهبة لمجرد سماع كلمة سيف أو رؤيتـه سيفاً أو خنجراً أو سكيناً. فهو رغم عنفوانـه وعتيه وطغيانـه، صار الموت يرهبه، ويتخيل السيف ينحره، ولمعانـه يعمي أبصاره. قال لجلوب الذي استقبلـه بحفاوة



في مكتبه، بأنـه متأكد من أنـه سيموت ذبحاً، لـهذا فإنـه لا يخشى المدافع والبنادق والمسدسات. لقد أصيب بثلاث طلقات في وقت واحد، أسقطتـه ولم تقتلـه. يتـهيأ لـه أنـه سيموت ذبحاً بالسيف أو الخنجر أو السكين. ضحك جلوب بجذل. قال: يبدو أنك متأثر بأساطير اليونان. بينما يتراءى لداوود، ذلك السيف يتقدم إليه وهو ساكن الحركة مشلول الأعضاء. تساءل في قراراتـه إن كان الطغـاة أمثالـه، يرتعدون من أصغر أعدائهم. أم

أنـهم يحتاجونـهم في أقوالـهم ليستذكرونـهم في جلساتـهم. ترى هل يهلوس به سيف الحجاج مثلما يهلوس هو به؟.

برئ سيف من جراحه في دمشق. وجاءه فرحان وأبو جبران للاطمئنان عليه وطمأنتـه على لقاء.

سلمه فرحان مفتاح البيت في رأس بيروت، فأقام به مع عبد القادر طيلة فترة وجودهما في لبنان.

تحسنت العلاقات بين فرنسا وبريطانيا، بإعلانـهما الحرب على الألمان. عندها قرر المفتى الانتقال إلى العراق، فسبقه سيف وعبد القادر ليلتحق الأول بـمعسكر الكاظمية، ويلتحق الثاني بالكلية العسكرية. تخرج بعد ستة أشهر برتبة نقيب. بينما أنعم على سيف برتبة رائد مؤقت. غدا داوود في الأثناء رجل جلوب الأول في فلسطين.

١٧

انقسم جيش الشرق في سوريا بين قوميين مواليين للألمان وأحراراً موالين للحلفاء. كانت فرصة لا تعوض بالنسبة للقوميين السوريين، ومخيبة لآمال الشيوعيين. فأصدر خالد بكتاش تعميماً يحث أعضاء الحزب على التزام السرية وتجنب الصدام مع القوميين الذين صارت السلطات تؤثرهم وتتقرب منـهم. مما دفع بكتاش إلى تأييد حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق أسوة بـمهادنة السوفييت للألمان.

استدعي المسرحون للالتحاق بالجيش. كما فتح باب التطوع ووزع السلاح بسخاء على مجموعات كثيرة من الأهالي لنصرة السلطة الانتدابية الموالية للألمان. فاستغل القوميون السوريون الوضع، وحظيوا بكميات كبيرة من السلاح والعتاد. بينما انطون سعاده يجري الاتصالات من الأرجنتين مع الألمان.

استرد بكر رتبتـه العسكرية، وعاد إلى الخدمة متسلحاً بتجربة قتالية وخبرة تنظيمية وجموح إلى التحرر والاستقلال.

هذه المرة لم يعامل في الثكنات دونياً، فقد حرص الفرنسيون على استرضاء السوريين، بسبب الانقسام في الجيش واندلاع الاشتباكات المسلحة بين الموالين لحكومة فيشي والمناوئين لـها. فتألق بكر من جديد في ثيابه العسكرية. وصرف لـه سيارة ستروين مع سائق، مما جعل أمه تتفاءل بالحرب وتدعو ليل نـهار للألمان بالانتصار. لكن ذلك لم يخلصها من الكوابيس التي تستولي عليها بـمجرد أن يغادر بكر عتبة الباب.

فقدت ثقتـها تماماً بسلوكه، وصارت تجزع من تأخره، وترتاب في سكوتـه، وتتوجس من أرقه. فتثير ضيقه وهي تسألـه بين الفينة والفينة عما به ؟. وبـماذا يفكر؟. وماذا يقلقه؟. وإلى أين ذاهب ومن أين جاء ؟. وفي كثير من الأحيان، تعبث بأغراضه وتفتش ثيابه. وإذا ما أخرج مسدسه من جرابه لمسحه أو تنظيفه أو تأملـه، تشيح بوجهها مذعورة : يي.يي. بعده عن وجهي تقبرني..

صار السلاح بالنسبة لـها وباء، مذ جاءها رسول من القوميين يخبرها عن غيابه في فلسطين، موصياً إياها بكتمان الأمر حرصاً عليه وعليها. أي حرصٍ هذا وأي كتمان، وهي التي لم تقو على الكتمان عندما كان آمناً من الموت وراء القضبان.؟.

العمى بفلسطين والشام ولبنان وكل الذين يحاربونـها بفلاذة كبدها. سنة يا بكر.؟. سنة أطول من عمر الوجود. سنة أظلم من ظلام الحياة. سنة بأكمـلها، يموت فيها بكر كل لحظة وينبعث كل دقيقة. لو أنبأوها بـموتـه، لقتلت نفسها حزناً وانتـهى الأمر. أما أن تنتظر سنة كاملة كي يطق عليها الباب ويأخذها بالأحضان ويبكي ندماً على عقوقه وقسوتـه فهذا ما لن تغفره وتنساه. سنة ممطرة بالدموع مسكونة بالعفاريت مشمسة بالجحيم غارقة بالدمـاء.

لم ينقطع عنـها رفاق بكر ولا زوجاتـهم أو بناتـهم أو أخواتـهم، لكن ذلك لم يخفف من لوعتـها. لم تفدها مواساتـهم، وإنما رفقتـهم وهي تجهش أمامهم بالنبع

الذي استقت منـه طيلة حياتـها: الدموع. فلو كتمت لوعتـها لفقدت وعيها. ولو ظلت تبكي وحدها لصارت تقهقه مع عفاريتـها: منيح اللي ضل براسي عقل تقبرني. إذا بتحبني وبدك رضاي. خليك عاقل ولا تجنني.

لكنـه رغم وعوده وأيمانـه، لم تكن تثق بكلامه. فتستجوبه على الطالع والنازل، وتلاحقه بنظراتـها وهو يخلع ثيابه ويأكل طعامه ويقرأ كتابه، وتصيخ إليه السمع وهو في الحمام أو يتنقل بين نشرات الأخبار. في عتمة الليل، تتلصص بحذر عليه وهو في الفراش. فإذا هدأت حركته، تتسلل نحوه لتطمئن إلى تواصل أنفاسه. وإذا تقلب في فراشه تقعد في فراشها. وإذا نـهض للشراب تنـهض مذعورة وتسرع ملـهوفة تجلب لـه الماء. وإذا انتفض من قرصة بعوضة أو هجمة كابوس، يفيق مرعوباً من صراخها: يا لطيف. يا لطيف.

- وبعدين إمي. أنا اللي بدي أجننك والا إنت بدك إياني أجن... لكنه ينسى أمرها بمـجرد أن تقلّه السيارة مختالاً إلى مقر قيادة الفرسان.

كان الفرنسيون،فيما سبق،يدفعونه لقتال السوريين،أو يتدرعون به في مقاتلتهم.

أما الآن، فإن يستمع بجذل إلى أخبار قتال الفرنسيين للفرنسيين. هذه المرة لا يدفع الجنود السوريون للقتال، ولا يستخدمون دروعاً في الاشتباكات. فالسلطات تحتفظ بهم للمعركة المنتظرة مع الانجليز، لينعم بكر بالأمن والطمأنينة ويمتلئ بيتـه بالمواد التموينية التي كان الجيش يستولي عليها لاحتياجاتـه الحربية، بينما المجاعة تـهدد أهل الشام. فقد انقطع ورود الحبوب من حوران التي سقطت بيد الانجليز، وتعطل استيراد القمح من الشمال، بعدما استأثر الجيش بالقطارات لإرسال التموين والإمدادات إلى حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق، وبـمصادرة وسائط النقل المدنية، غدا بكر في سيارتـه الصغيرة محسوداً حتى من رفاقه القوميين.

في اجتماعاتـه بهم، يخبرهم بـما يصل أسماعه من مستجدات عن تفاصيل المعارك. كل شيء سيتغير مع وصول الألمان من اليونان. طلائعهم ابتدأت مع تحليق طائراتـهم فوق الأجواء السورية في طريقها إلى العراق.

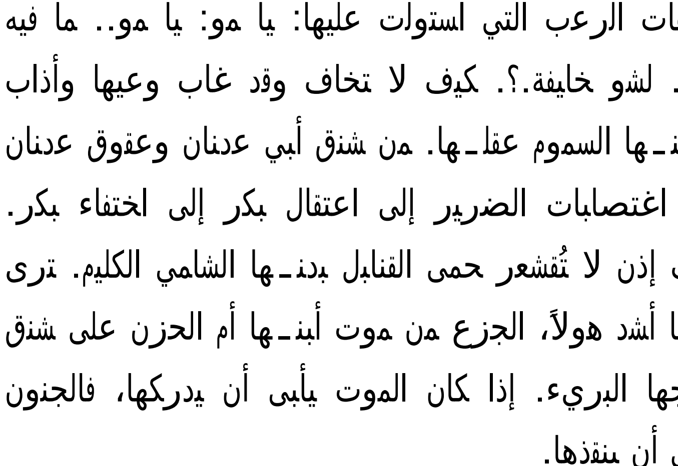
أسابيع، كما أكد الـهر فون هنتق للضباط، وتجتاح القوات الألمانية سوريا. ستلحق إيران وأفغانستان بدول المحور، وتشتغل الـهند بالثورة ضد الانجليز. انتـهت بريطانيا يا رفاق. هذا العصر عصر القوميات. اليوم بغداد، وغداً بيروت والشام، وبعدها القدس وعمان.

بعد أسبوعين، انقلب الوضع رأساً على عقب مع الإنذار الذي وجهه الانجليز من الحدود السورية الشرق أردنية، طالبين إعلان دمشق مدينة مفتوحة.

استيقظ الناس في الـهزيع الأخير من الليل على أصوات الرصاص تلعلع في عمق الظلام. بينما بكر وكتيبة الفرسان، يطاردون الفرقة الـهندية التي تسللت إلى المزة .

بعد أقل من ساعة وصلت الطائرات الانجليزية وأخذت تمطر قنابلـها فوق المهاجرين.

تحبب جسد أم عدنان بالرعب، فوصلـها بكر مرتعشة مرتجفة الشفتين، وقد ضمت ذراعيها أمام صدرها وهي تحملق مأخوذة أمامها وتنخر وتشخر وتضرب يد بكر كلما حاول لمسها وتـهدئتـها وهي تئن بـهلع . وفي كل حبة قشعريرة من جسدها تنفجر قنبلة ينطفئ لظاها في



رجفات الرعب التي استولت عليها: يا مو: يا مو.. ما فيه شي. لشو خايفة.؟. كيف لا تخاف وقد غاب وعيها وأذاب ادمانـها السموم عقلـها. من شنق أبي عدنان وعقوق عدنان إلى اغتصابات الضرير إلى اعتقال بكر إلى اختفاء بكر. كيف إذن لا تُقشعر حمى القنابل بدنـها الشامي الكليم. ترى أيهما أشد هولاً، الجزع من موت أبنـها أم الحزن على شنق زوجها البريء. إذا كان الموت يأبى أن يدركها، فالجنون أولى أن ينقذها.

١٨

نقلت أسلاك الـهاتف تحذيراً بريطانياً لولي العهد الوصي على العرش، فهرب في ثياب نومه إلى بيت أنور، ليغادرا خفية ملتجئـين إلى الأسطول الانجليزي.

أشار عليه أنور بتوجيه نداء، أذاعتـه محطة البصرة البريطانية، والبي بي سي اللندنية. ناشد فيها الشعب أن يهب للقضاء على مغتصبي السلطة. لكن ذلك لم يجد نفعاً، بعدما أحكم ضباط المربع الذهبي قبضتـهم على الجيش، وعلى رأسهم العقيد صلاح الدين الصباغ، الذي يدير عمليات الأركان من مقر قيادتـه للفرقة الثالثة في معسكر الرشيد.

لم يكن أمام الوصي إلا الجلاء عن العراق،فحملتـه وأنور طائرة حربية إلى فلسطين، تاركين أمر البلاد وراءهم في قبضة رجل فلسطيني أقوى شخصية من ولي العهد، كما قال أنور لجلوب أثناء اختلائهما في عمان. وأشد حنكة ودهاء من أنور كما قال ولي العهد للمندوب السامي البريطاني أثناء اختلائهما في القدس.

انتـهت المعركة بين الموالين للانجليز والمعادين لـهم، بفرض الاستقالة على رئيس الوزراء من قبل الضباط الأربعة وتكليف رشيد عالي الكيلاني بها، فأعاد الاتصال بالألمان واستقبل جنرالاتـهم وأصدر قراراً يمنع فيه الاستماع إلى إذاعة لندن، على عكس إذاعة برلين. فيما أعلن عن اختيار وصي على العرش بدلاً من الأمير عبد الإلـه.

- قضيتـهم قضيتنا.. قال المفتي في اجتماعه مع قادة سرايا فلسطين.

- شو بدهم يسووا هلأ الانجليز اللي قواعدهم معبية العراق.؟.. تساءل عبد القادر الحسيني، فأجاب المفتي بتساؤل: شو إحنا بدنا نسوي.؟.

- نقاتل الانجليز.. قال سيف.

- أحنا لحالنا ما راح نقدر لـهم، ولا مع العراقيين كمان. إلا إذا كان ربنا بحبنا، ووصلوا الألمان لسوريا ولبنان قبل ما تصل التعزيزات للانجليز.

- وإذا تأخر الألمان ؟.. سأل عبد القادر.
- بالحالتين بدنا نحاربهم.. قال سيف، وأضاف : فرصتنا مع العراقيين. حرب بحق وحقيق ضد الانجليز. خلي الثورة تنفجر ضدهم في كل العالم العربي.
- وإزا انكسرنا؟.. تساءل المفتي.
- المهم نحاربهم.
- مش مهم نحارب وبس. المهم نستعد منشان ننتصر، وبعدين نحارب.

تولى عبد القادر قيادة فصيل فلسطيني نظامي التحق بالقوات العراقية التي تحركت إلى سن الذبان للاستيلاء على قاعدة الحبانية الحصينة بـ مدافع الميدان والمدفعية المضادة للطائرات. وأنيط بسيف قيادة فصيل المتطوعين الفلسطينيين ضمن القوة التي كلف فوزي القاوقجي بالتوجه بها غرباً، لمنع وصول التعزيزات البريطانية عبر شرق الأردن، وتحت إمرتـه مئات المتطوعين من مختلف المناطق السورية، أطلق عليهم " قوة البادية".

كان بيت القاوقجي رحباً ، تكدست في حديقتـه الواسعة أكوام البنادق والرشاشات وصناديق العتاد. أصاب

الكثير منـها الصدأ بسبب تركها فترة طويلة في العراء، كما قال سيف للمفتي الذي جاء لوداع المتطوعين، وألقى بهم خطبة حماسية تضمنت الكثير من الآيات القرآنية.

قال لسيف، بأن الوقت غير ملائم لبحث حال السلاح.فحملـه المتطوعون مكبرين مهللين وهم يستقلون حافلات الشركة الوطنية السورية التي وضعها سائقوها تحت تصرف المتطوعين.

وجدوا بانتظارهم في "أبو غريب" على مخارج بغداد، خمسة عشر ترك، تحمل متطوعين وصلوا من لبنان وسوريا وشرق الأردن وفلسطين. وكان بينـهم جنود في ثيابهم الخاكية، وأساتذة ومثقفون في ثياب الأفندية.

رفض القاوقجي في البداية قبولـهم. لعدم توافر السلاح لديه وجهلـهم باستخدامه. فتبرع قائد اللواء العراقي في " أبو غريب" بالسلاح. أما الجهل باستخدامه، فقال سيف بأنـها فرصتـهم للتدرب على أهداف حية: نص رجالك، ما واحد فيهم طخ رصاصة... وكانت هذه بداية الـمواجهة لـه مع القاوقجي.

كانت المسافة بين بغداد والرطبة تستغرق في العادة نحو عشر ساعات. إلا أنـها استغرقتـهم ثلاثة أيام. مما حرك الريبة في صدر سيف، كذلك بالنسبة للمفتي الذي كان يتابع تحركهم. فطلب من العقيد الصباغ تأسيس غرفة عمليات بقيادتـه، من أجل متابعة تحركات القاوقجي، ورفده بالمتطوعين الذين يتواكبون على بغداد. قال الصباغ بأنـه يتوقع مجيء التعزيزات الانجليزية من البصرة وليس من شرق الأردن... مع هذا وافق على طلب المفتي الذي قال: إنت ما شفت جيوشهم في فلسطين. نصها جابوها حتى يقضوا على الانتفاضة. والانتفاضة انقضى عليها، شو بدهم يسووا بكل هاي الجيوش هناك.

- عندهم مية جبهة.

- مش مثل الجبهة العراقية. ما تفكر منشان النفط بس. إزا حطوا الألمان بالعراق طارت الـهند من الانجليز.

- صرت عسكري يا حج .!.

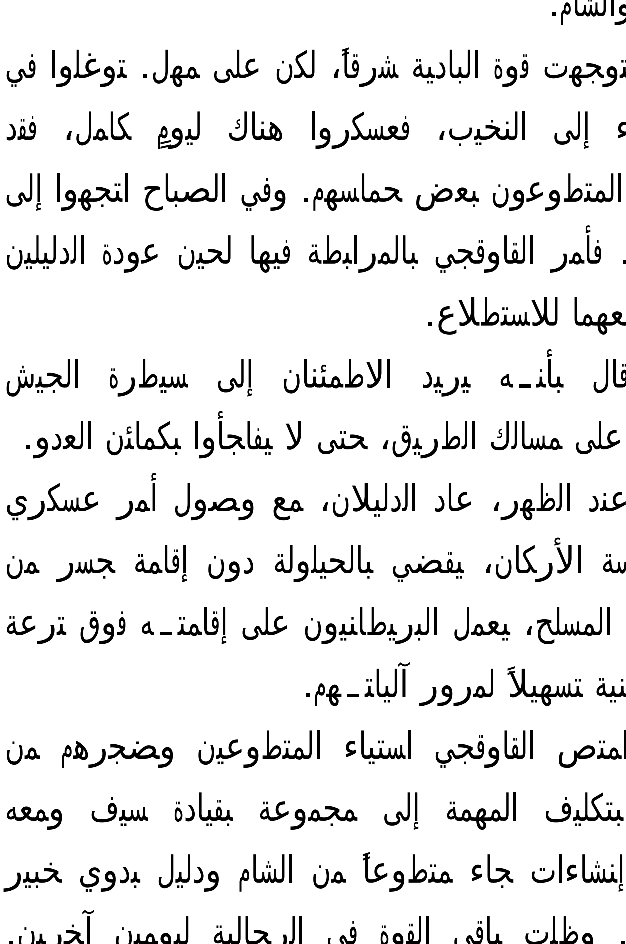
- لا. بس أنا قارىء تاريخ وبعرف كيف بفكروا الانجليز.

- الإنجليز عندهم أولويات يا حج. مصر أهم بكثير من العراق. وبتلزمهم جيوشهم هناك.

- مصر. مصر. ممكن تكون مصر مهمة للانجليز. بس لا يمكن يعتمدوا عليها. انت ما قريت شو مكتوب عن مصر في التوارة.

- ما قريت التوراة، وما بحب أقراها.

- بالعكس. لازم تقراها منشان تعرف كيف بفكروا اليهود. على كلٍ. مكتوب في سفر الملوك، إنوه أشور لما إجا يحارب اليهود، قال لملكهم، على مين معتمد. على القصبة المرضوضة مصر، اللي ما اتكأ حدا عليها إلا دخلت كفه وثقبتـها . فاغتبط الصباغ، وامتلأ قلبه بالمسرة. فأعاد المفتي الرواية مراراً في لقاءاتـه مع رجال الحكومة، أو ضباط المربع الذهبي. فيسعدهم وهو يختم روايتـه بالتأكيد



على أن بغداد كانت وستظل القلب النابض بالعروبة أكثر من القاهرة والشام.

توجهت قوة البادية شرقاً، لكن على مهل. توغلوا في الصحراء إلى النخيب، فعسكروا هناك ليومٍ كامل، فقد خلالـه المتطوعون بعض حماسهم. وفي الصباح اتجهوا إلى الرحالية. فأمر القاوقجي بالمرابطة فيها لحين عودة الدليلين اللذين دفعهما للاستطلاع.

قال بأنـه يريد الاطمئنان إلى سيطرة الجيش العراقي على مسالك الطريق، حتى لا يفاجأوا بكمائن العدو.

عند الظهر، عاد الدليلان، مع وصول أمر عسكري من رئاسة الأركان، يقضي بالحيلولة دون إقامة جسر من الإسمنت المسلح، يعمل البريطانيون على إقامتـه فوق ترعة في الحبانية تسهيلاً لمرور آلياتـهم.

امتص القاوقجي استياء المتطوعين وضجرهم من التلكؤ، بتكليف المهمة إلى مجموعة بقيادة سيف ومعه مهندس إنشاءات جاء متطوعاً من الشام ودليل بدوي خبير بالمنطقة. وظلت باقي القوة في الرحالية ليومين آخرين.

تمكنت خلالـها مفرزة سيف من تفجير الجسر والانضمام إلى القوة.

توغلت الحافلات واللوريات عبر الصحراء نحو ثماني ساعات، قبل أن تلمع من بعد أنوار قلعة الرطبة الحصينة، التي كانت تقوم على بئر ماء كما يقول الأدلاء. كانت المعلومات العسكرية التي تلقاها القاوقجي قبل تحركه، تفيد بوجود رعيل من الجيش العراقي في القلعة، متسلحاً برشاشات فيكرز. وكانت الأوامر تقضي بتحصن قوات البادية في القلعة لقطع الطريق المؤدي إلى بغداد.

في الغسق، تفاجأ جنود جلوب، المستحكمين على بعد مائتي متر من القلعة، بطلقات تنوير ترتفع مثل كتل النار في الفضاء، وفي ثوانٍ تبعتـها طلقات تنوير خضراء.

أمر جلوب بالتقهقر إلى الاتش ثري بعد أن عد رجالـه أربعين آلية بين حافلة وترك تعبر بوابة القلعة وسط صيحات الترحاب وأناشيد الحماس ورصاص الفرح.

أفاد قائد الرعيل،بأن قوات انجليزية هاجمت القلعة لثلاثة أيام متتالية دونما جدوى، فقد كانوا يردون على أعقابهم في كل هجوم.

في الصباح، أصغى القاوقجي وقادة الفصائل إلى إذاعة برلين العربية تزف لـهم مقتل قائد القوة الانجليزية الجنرال جلوب، فحول القاوقجي إبرة الاستقبال سريعاً إلى إذاعة لندن، التي ظلت تذيع الخبر مع سيرة جلوب ونبذة عن حياتـه.

في أقوال الصحف، اقتبس المذيع جزءاً من مقالة للـهيرالد تريبيون، نعت فيها الكاتبة الجنرال جلوب، وادعت أن الأمة الإنجليزية، ليست أمه بحرية فحسب، وإنما برية وسماوية أيضاً، قاصدة بذلك السيطرة الجوية، لكن الـمعلق السياسي، يونس بحري، قال في إذاعة برلين، بأنـه لو صدق إدعاء الجريدة بأن المسيح انجليزي، لتحولت شعوب الأرض جميعها إلى الإسلام.

أطلق الرصاص في القلعة ليلتـها احتفاء. لكن فرحة الرجال بالخبر، تحولت إلى استياء عندما أصدر القاوقجي أمراً بالإخلاء.

احتج سيف بعصبية. لقد جاؤوا لمنع وصول التعزيزات الانجليزية، وليس لقتل جلوب. موتـه لا يعني

انتـهاء مهمتـهم، ولربـما كان انسحاب الانجليز تكتيكاً. لديهم المئات من جلوب.

رد القاوقجي بعصبية ايضاً، وهو يضرب راحتـه بالطاولة: أنا القائد هنا..فاحتد

سيف مقاطعاً: أنت القائد طالما بتنفذ مهمتك. إحنا مش عسكر عندك. إحنا متطوعين ومهمتنا قطع الطريق على الانجليز.

عبرت وجوه قادة الفصائل المتشنجة عن الرضى والتضامن مع سيف، فلين القاوقجي من نبرتـه: مين قال غير هيك أخ سيف. بس الحرب هلأ مو مثل زمان. طيارة وحدة بتقدر تـهدم القلعة فوق روسنا. هادا لو افترضنا ما إجت قوات برية تحاصرنا. احنا لازم نتوزع في الجبال حوالينا، مو نتمركز في القلعة اللي يمكن تصير حبس لا نقدر نطلع منـها ولا بتقدر التعزيزات تصلنا.

لم يكن بحاجة إلى مزيد من الإقناع. فقد دب الـهرج والمرج بين الرجال مع وصول طائرة ألقت مخزون قذائفها على القلعة، قبل أن تفتح رشاشاتـها، بينما المستحكمون

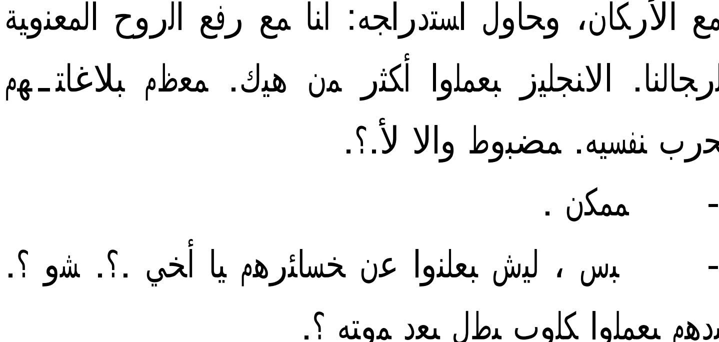
يتبعثرون في فوضى عارمة. فوافق قادة الفصائل على الإخلاء، لتدخلـها قوات جلوب في اليوم التالي دون قتال.

التل الذي أشار إليه القاوقجي قبل الإخلاء، والذي بدا للجميع أنـه في مرمى البصر، استغرق معهم الليل بطولـه وهم يتبعون سيارة القاوقجي التي وصلت بهم إلى سفوح تلال متصلة تختلف كل الاختلاف عن الذي أشير إليهم به من فوق برج القلعة.

لم يكبر فيض التساؤلات،مع حث القاوقجي على مواصلة المسير،ليجد الرجال أنفسهم في مدينة هيت شمال الحبانية.

ألجم حماس الاستقبال من قبل الأهالي، جميع الرجال، فأذعنوا لأوامر القاوقجي بالتوزع في الحقول، بينما اتخذ قادة الفصائل من مدرسة المدينة مركزاً لـهم. ليقضوا الوقت بالاستماع إلى المذياع مذهولين، بسبب حجم الخسائر التي تكبدها الانجليز في احتلالـهم للرطبة، وما تلا ذلك من انتصارات بطولية أربكت الجيش الانجليزي على امتداد شاطئ الفرات. قال سيف للقاوقجي ساخراً: ليكون إلنا أشباح عم بتحارب عنا وإحنا قاعدين هون حاطين إجر على إجر.

لم يعقب القاوقجي، لكنـه استشاط غضباً عندما أخبره عامل اللاسلكي، أن سيف جاءه مباغتاً وهو يتصل مع الأركان، وحاول استدراجه: أنا مع رفع الروح المعنوية لرجالنا. الانجليز بعملوا أكثر من هيك. معظم بلاغاتـهم حرب نفسيه. مضبوط والا لأ.؟.



- ممكن .
- بس ، ليش بعلنوا عن خسائرهم يا أخي .؟. شو ؟. بدهم يعملوا كاوب بطل بعد موته ؟.

١٩

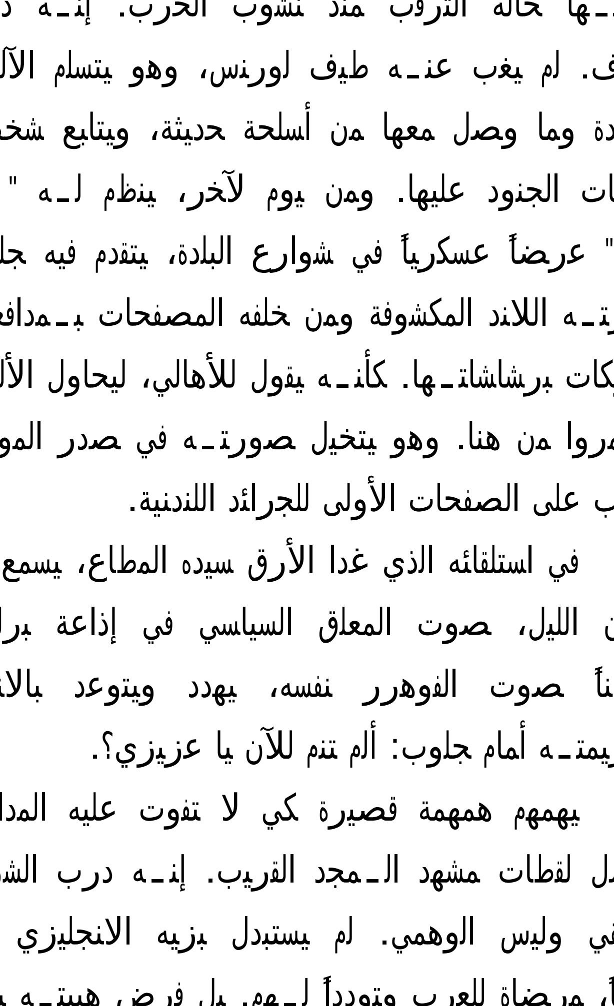
فعلت الكلمات فعلـها في نفسه فأعادها على مسامع زوجتـه بزهو وخيلاء: إنـه درب الشرف.. قال لـه المستر إيدن بإجلال، وكان قد وصل صباحاً مع الجنرال ودفيل إلى عمان. احتفي بالرجلين على الطريقة الانجليزية في مقر إقامة البعثة البريطانية. قال إيدن وهما يحتسيان الشاي في غرفة هادئة مطلة على بستان انتصبت فيه أعمدة الكهرباء بين أشجار السرو والبلوط: يجب إعداد الرجال للقتال. كم جندي لديك جنرال؟.

- نحو ستمائة.. أجاب جلوب.

- لا يكفي. يلزمك ضعف هذا العدد.. قال إيدن والتفت إلى ودفيل الذي استجاب من فوره: لا يوجد مشكلة.

قال جلوب لزوجتـه وهو يهز أصبعه في وجهها:سـوف يزودونـنا أيضاً بالمصفحات. أصبح لدي جيش بكل معنى الكلمة يا عزيزتي.

أدى هـذا القرار إلى بعث الحماس في روح جلوب، بعدما أربكت نفسيتـه



وأقلقتـها حالة الترقب منذ نشوب الحرب. إنـه درب الشرف. لم يغب عنـه طيف لورنس، وهو يتسلم الآليات الجديدة وما وصل معها من أسلحة حديثة، ويتابع شخصياً تدريبات الجنود عليها. ومن يوم لآخر، ينظم لـه " ابو جميع" عرضاً عسكرياً في شوارع البلدة، يتقدم فيه جلوب بسيارتـه اللاند المكشوفة ومن خلفه المصفحات بـمدافعها، والتركات برشاشاتـها. كأنـه يقول للأهالي، ليحاول الألمان أن يمروا من هنا. وهو يتخيل صورتـه في صدر الموكب المهيب على الصفحات الأولى للجرائد اللندنية.

في استلقائه الذي غدا الأرق سيده المطاع، يسمع في سكون الليل، صوت المعلق السياسي في إذاعة برلين، وأحياناً صوت الفوهرر نفسه، يهدد ويتوعد بالانتقام لـهزيمتـه أمام جلوب: ألم تنم للآن يا عزيزي؟.

يهمهم همهمة قصيرة كي لا تفوت عليه المداخلة تواصل لقطات مشهد الـمجد القريب. إنـه درب الشرف الحقيقي وليس الوهمي. لم يستبدل بزيه الانجليزي زياً عربياً، مرضاة للعرب وتودداً لـهم. بل فرض هيبتـه بزيه

وانجليزيتـه. حتى أنـه اختار لابنـه اسم أول ملك صليـبي للقدس. لو كان اللنبـي محلـه لما تجرأ على ذلك. حتى وإن عربه باسم فارس، يظل في المعنى والمضمون "جودفري دي بيلوين". وهل كان سيتجرأ لورنس على ذلك. كم واحد في بلاد العرب، التي أدعى أنـه ملكها غير المتوج، أطلق على ابنـه أسم لورنس. واحد.؟. اثنين.؟. ثلاثة.؟. ليقم من قبره ويسأل دائرة النفوس عن عدد الذين تسجلوا باسم فارس، منذ اختار لابنـه هذا الاسم.

لم يتألم من سخرية إذاعة برلين بإعلان شرق الأردن الحرب على ألمانيا، بقدر ما آلمه استخفاف القيادة الانجليزية بهذه الخطوة الجريئة.

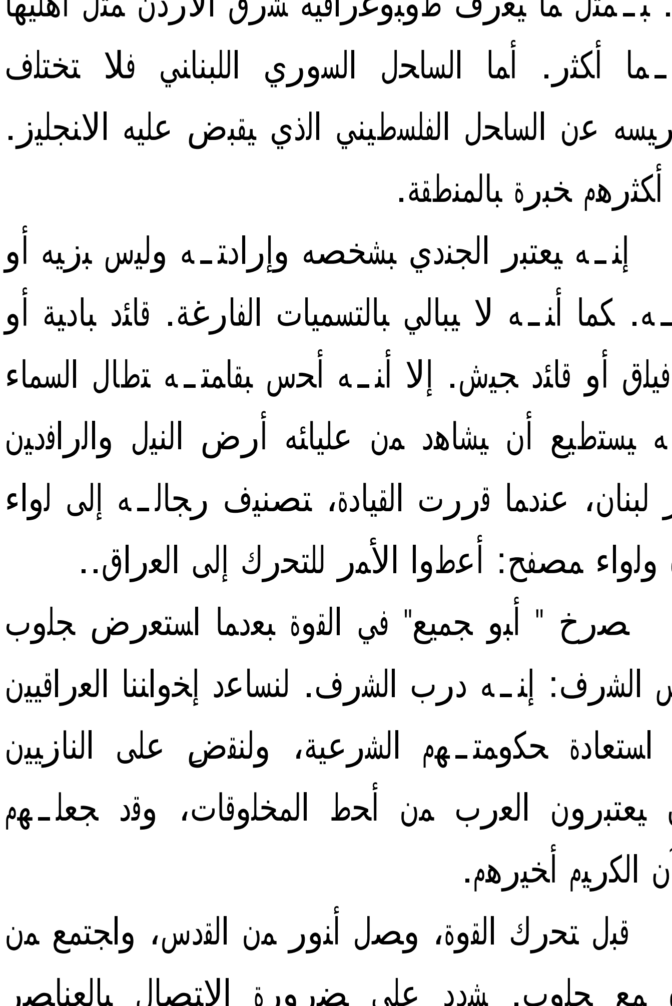
توقع أن يستدعى إلى لندن، أو يرقى إلى ركن حرب في العراق أو مصر، لا أن يطلب منـه إرسال جنوده لحراسة المطارات في فلسطين. هيىء لـه حينـها بأن قيادتـه تعتبره شرطياً وليس جندياً. فأحس بالندم على اختيار اسم " خفـر الصحراء "

لرجالـه. كان عليه أن يطلق عليهم اسم " جيش الصحراء". إنـه يعترف بأن لورنس تفوق عليه في هذا الأمر. لكن ماذا

عن باقي الأمور؟. على كل، حصل ما حصل. المهم الآن. الآن يستطيع أن يقول بأن لديه فرصة تشبه إلى حد ما الفرصة التي واتت لورنس، وإن كان الواقع مختلفاً . فلورنس وصل إلى هذه البلاد مع اندحار تركيا وألمانيا.

كان الرجل المريض يلفظ أنفاسه والآري الأحمق يغرق في تـهوره. كم كان محظوظاً ذلك اللورنس. أما هو، فإن عليه إثبات وجوده أمام الضباط الألمان الذين يقفون بغطرسة على حدود شرق الأردن، بينما تلتـهب الأراضي السورية بالعداء العلني للانجليز. كان لورنس يحتمي بوادي النيل وهو يجوب الصحراء في عباءة لا يرتدي تحتـها ثياباً داخلية. أما هو فسوف يقع بين فكي الكماشة إذا ما نزل الألمان في سوريا وحطم هتلر رأس أبي الـهول بعدما انتزع أنفه نابليون. والآن يزداد الخناق عليه مع استيلاء الكيلانيين على الحكم في بغداد .

صار الوضع يتضخم في نفسه أكثر مما كان يتفاقم على أرض الواقع، وهو يتخيل نفسه في غرفة العمليات وحولـه الجنرالات يتدارسون الخرائط ويتبادلون الآراء، قبل أن يدلي دلوه الحاسم. فهو ليس قائداً مكتبياً، وإنما رجلاً

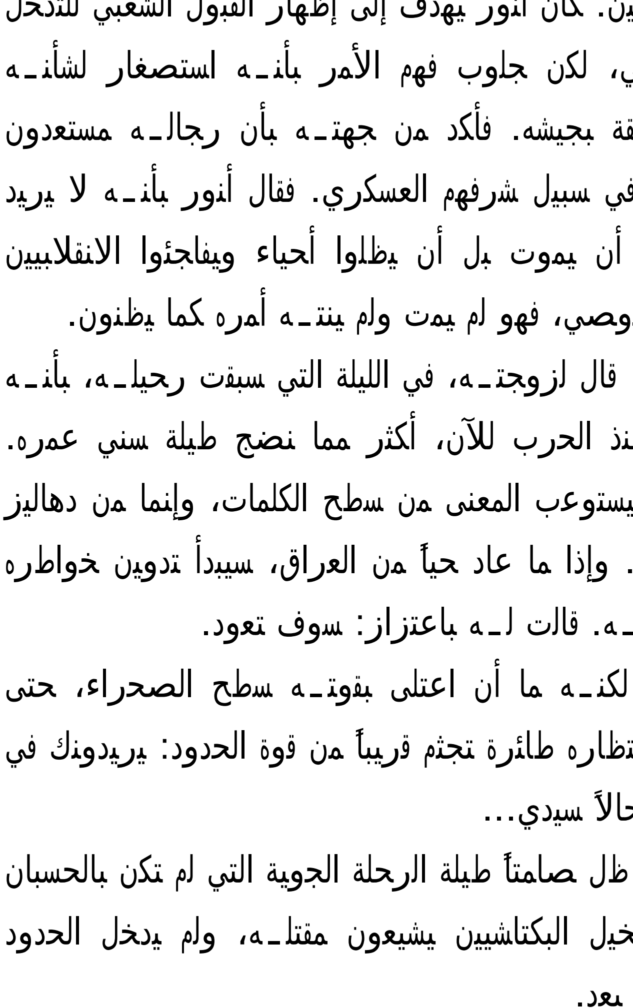


ميدانياً، يعرف طوبوغرافية العراق مثل أهليها، وربـما أكثر. بـمثل ما يعرف طوبوغرافية شرق الأردن مثل أهليها وربـما أكثر. أما الساحل السوري اللبناني فلا تختلف تضاريسه عن الساحل الفلسطيني الذي يقبض عليه الانجليز. وهو أكثرهم خبرة بالمنطقة.

إنـه يعتبر الجندي بشخصه وإرادتـه وليس بزيه أو رتبتـه. كما أنـه لا يبالي بالتسميات الفارغة. قائد بادية أو قائد فيلق أو قائد جيش. إلا أنـه أحس بقامتـه تطال السماء وأنـه يستطيع أن يشاهد من عليائه أرض النيل والرافدين وأرز لبنان، عندما قررت القيادة، تصنيف رجالـه إلى لواء مشاة ولواء مصفح: أعطوا الأمر للتحرك إلى العراق..

صرخ " أبو جميع" في القوة بعدما استعرض جلوب حرس الشرف: إنـه درب الشرف. لنساعد إخواننا العراقيين على استعادة حكومتـهم الشرعية، ولنقض على النازيين الذين يعتبرون العرب من أحط المخلوقات، وقد جعلـهم القرآن الكريم أخيرهم.

قبل تحرك القوة، وصل أنور من القدس، واجتمع من فوره مع جلوب. شدد على ضرورة الاتصال بالعناصر



الموالية لولي العهد وحزبه من أجل تنظيم المقاومة ضد الانقلابيين. كان أنور يهدف إلى إظهار القبول الشعبي للتدخل الخارجي، لكن جلوب فهم الأمر بأنـه استصغار لشأنـه وعدم ثقة بجيشه. فأكد من جهتـه بأن رجالـه مستعدون للموت في سبيل شرفهم العسكري. فقال أنور بأنـه لا يريد لأحدهم أن يموت بل أن يظلوا أحياء ويفاجئوا الانقلابيين بعودة الوصي، فهو لم يمت ولم ينتـه أمره كما يظنون.

قال لزوجتـه، في الليلة التي سبقت رحيلـه، بأنـه نضج منذ الحرب للآن، أكثر مما نضج طيلة سني عمره. فهو لا يستوعب المعنى من سطح الكلمات، وإنما من دهاليز حروفها. وإذا ما عاد حياً من العراق، سيبدأ تدوين خواطره ويومياتـه. قالت لـه باعتزاز: سوف تعود.

لكنـه ما أن اعتلى بقوتـه سطح الصحراء، حتى وجد بانتظاره طائرة تجثم قريباً من قوة الحدود: يريدونك في القدس حالاً سيدي...

ظل صامتاً طيلة الرحلة الجوية التي لم تكن بالحسبان وهو يتخيل البكتاشيين يشيعون مقتلـه، ولم يدخل الحدود العراقية بعد.

إلا أن البابا قدري الذي وعده بترويج الإشاعة بعد يوم من مغادرتـه، آثر الانتظار يوماً أخراً، يكون جلوب قد توغل في عمق الأراضي العراقية.

طلبوا منـه في القدس التأخر في الإتش فور لحين وصول القوة الانجليزية المساندة من فلسطين بعدما اضطروا لتأخيرها يومين آخرين. لكنـه أصر على التقدم: لماذا نخاطر بأرواح الجنود الانجليز. سأنظف بالجنود العرب المنطقة كي تصبح الطريق سالكة إلى بغداد، فأعادتـه الطائرة إلى جنوده في المساء.

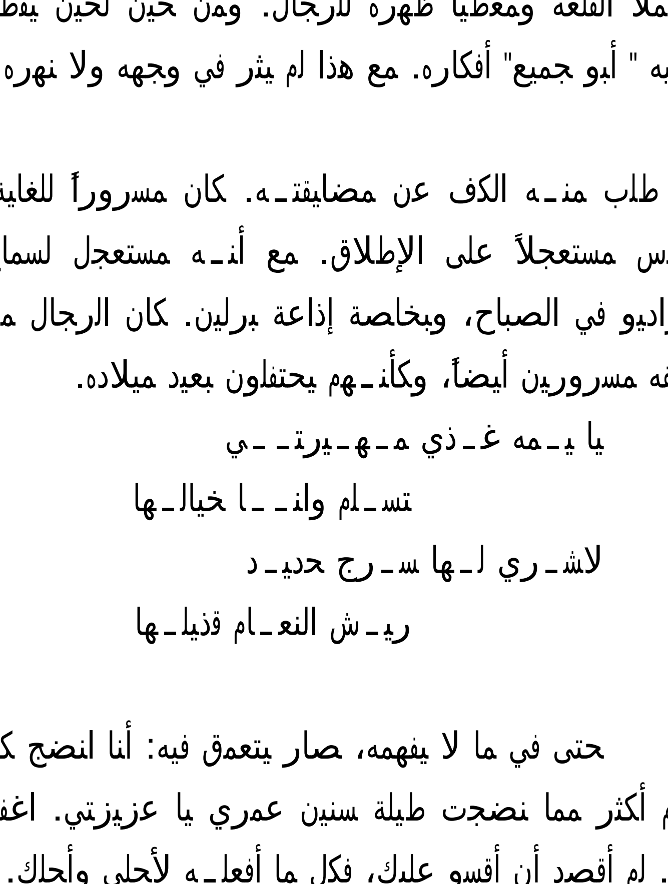
أصدر أوامره بالتحرك فوراً. كأنـه يهرب من الإشاعة التي أوعز للبابا قدري بها. لكن الأمر الذي وصل باللاسلكي، جعلـه يأمر بالانتظار للصباح كي تتمكن الطائرات من مساندة تقدمه.

تحركت القوة في شاحنات من نوع فورد ومصفحات ويـجنر وقد تسلح رجالـها بالبنادق والرشاشات. طمأن رجالـه بسهولة مهمتـهم طالما الطائرات ستساندهم، كما أن التعزيزات القادمة من فلسطين ستحمل لـهم مدفعية ومورتر.

كان النـهار قد استقام إلى منتصفه وغدت الصحراء الفسيحة فراشاً استلقت عليه أشعة الشمس الوهاجة بارتياح. بينما تتراكض فوقها أقزام الزوابع تنبعث وتتبدد مثل العفاريت، وقد تأجج المعدن في المركبات تأجج الصاج تحت النيران.

كان جلوب أكثر الرجال احتمالا، وهم الذين خبروا الصحراء وحريقها وسموم رياحها. لكنـهم لم يخبروا ذلك الحلم الوردي الذي ينعش صدر القائد ويريح أنفاسه ويجعلـه يبتسم من حين لحين راضياً مرضياً.

اتسعت ابتسامتـه وازداد انتعاشه عندما ارتقت سيارتـه أحد المرتفعات، مع انحدار الشمس إلى الأفق الغربي نازعة عنـها ثيابها الوضاءة، وكأنـها تستلقي باستحياء، عارية خلف الـهضاب. في تلك اللحظة أحس جلوب بنشاط غير عادي، وكأنـه أفاق من سبات الشتاء. كان حلمه لحظتـها قد ازداد سطوة وطغياناً، مما جعلـه يأمر بالتخييم فوق المرتفع الذي يطل على القلعة. تفصلـه عنـها مسافة لا تزيد على ثلاثة كيلو مترات.



تناول عشاءه بشهية، ثم استرخى على حافة المرتفع متأملاً القلعة ومعطياً ظهره للرجال. ومن حين لحين يقطع عليه " أبو جميع" أفكاره. مع هذا لم يثر في وجهه ولا نهره

أو طلب منـه الكف عن مضايقتـه. كان مسروراً للغاية، وليس مستعجلاً على الإطلاق. مع أنـه مستعجل لسماع الراديو في الصباح، وبخاصة إذاعة برلين. كان الرجال من خلفه مسرورين أيضاً، وكأنـهم يحتفلون بعيد ميلاده.

يا يـمه غـذي مـهـيرتـ ـي

تسـلم وانـ ـا خيالـها

لاشـ ـري لـها سـ ـرج حديـ ـد

ريـ ـش النعـ ـام قذيلـ ـها

حتى في ما لا يفهمه، صار يتعمق فيه: أنا انضج كل يوم أكثر مما نضجت طيلة سنين عمري يا عزيزتي. اغفر لي. لم أقصد أن أقسو عليك، فكل ما أفعلـه لأجلي وأجلك.

استيقظ مع الفجر قبل الجميع، فكانت الصحراء شاحبة شحوب بحر ساكن الأمواج ملعون الشطآن، بينما

القلعة تطفو مثل سفينة مهجورة، بدت في الفضاء النيلي وكأنـها مسكونة بالأشباح.

نظر إلى الخلف حيث تقف المركبات بأوضاع وأشكال مختلفة، وفي المسافات الفاصلة بينـها، انطوى الجنود داخل أغطيتـهم، بينما السكون شامل. حتى دورية الحراسة لم يكن يصدر عنـها أدنى صوت.

أسرع إليه أحدهم، بعدما أخذ يطوي أغطيتـه، لكنـه منعه من تولي المهمة. حلـها وسلمها للحارس، الذي ما أن ابتعد قليلاً حتى أجفل على صوت صفارة القائد، فهب الرجال مذعورين، يلملمون أغطيتـهم ويتـهيأون للإفطار السريع.

تحركوا في المركبات على شكل سبعه، مما حول أعمدة الغبار خلفهم إلى سحابة هائلة، روعت المستحكمين في القلعة، بعدما ظنوا السيارات التي يلمحونـها وسط الغبار، طلائع جيش عرم. ولم يكن جلوب يقصد ذلك. فقد نظم رجالـه على شكل رأس الحربة وفقا لألف باء المعارك المعروفة منذ قرون كما كان قائده الفيكتوري بك يقول عنـها. ولكن رعيل الرشاشات في القلعة لم يكن لـه عهد

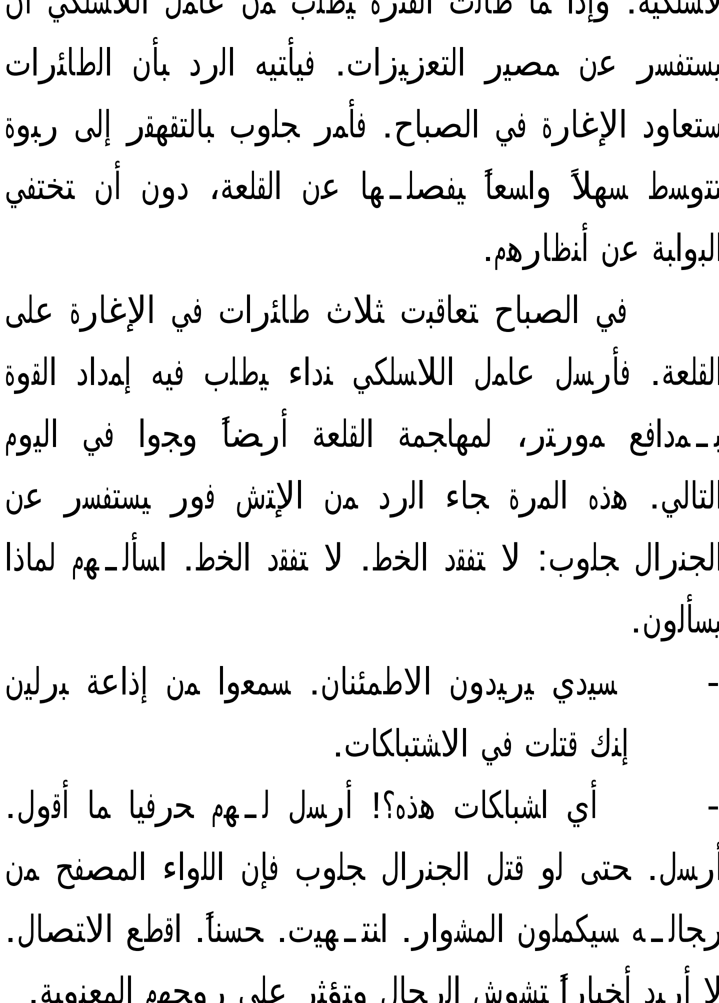
بذلك، ولا رجال جلوب الذين أكبروا قدرة قائدهم العسكرية وهو يأمر عامل اللاسلكي لإرسال إشارة إلى الإتش فور يعلمهم فيها أن القلعة جاهزة للاستسلام.

أمر بالترجل من السيارات على بعد مئتي متر، بينما يصرخ"أبو جميع"، بالأوامر التي ينطقها جلوب أو يشير بها، ليحيطوا بالقلعة في طوق غير منيع، جعلـهم محاصرين بالرشاشات المدافعة بدلا من محاصرتـهم لـها، فأمر جلوب بالتقهقر، وأرسل عامل اللاسلكي إشارة تفيد بتلكؤ المستحكمين في الاستسلام.

بعد نحو ساعتين من الترقب بين الجانبين، جاءت طائرة أفرغت قنابلـها فوق القلعة، وأربكت رشاشاتـها دفاعاتـها، فتقدم جلوب ورجالـه بضع عشرات من الأمتار.

تعاقبت إغارات الطائرات حتى المساء. ولما أيقن الرجال توقفها مع حلول الظلام، طمأن جلوب معاونـه "أبو جميع"، الذي عبر وجهه عن التساؤل: عاجلاً أم آجلاً سوف يستسلمون. لست في عجلة من أمري.

كان يقصد ما يقول. فهو ليس مستعجلاً على الإطلاق. مع أن دقات قلبه كانت تتسارع كلما وصلت إشارة



لاسلكية. وإذا ما طالت الفترة يطلب من عامل اللاسلكي أن يستفسر عن مصير التعزيزات. فيأتيه الرد بأن الطائرات ستعاود الإغارة في الصباح. فأمر جلوب بالتقهقر إلى ربوة تتوسط سهلاً واسعاً يفصلـها عن القلعة، دون أن تختفي البوابة عن أنظارهم.

في الصباح تعاقبت ثلاث طائرات في الإغارة على القلعة. فأرسل عامل اللاسلكي نداء يطلب فيه إمداد القوة بـمدافع مورتر، لمهاجمة القلعة أرضاً وجوا في اليوم التالي. هذه المرة جاء الرد من الإتش فور يستفسر عن الجنرال جلوب: لا تفقد الخط. لا تفقد الخط. اسألـهم لماذا يسألون.

- سيدي يريدون الاطمئنان. سمعوا من إذاعة برلين إنك قتلت في الاشتباكات.

- أي اشباكات هذه؟! أرسل لـهم حرفيا ما أقول. أرسل. حتى لو قتل الجنرال جلوب فإن اللواء المصفح من رجالـه سيكملون المشوار. انتـهيت. حسناً. اقطع الاتصال. لا أريد أخباراً تشوش الرجال وتؤثر على روحهم المعنوية.

طلب من " أبو جميع"، بفظاظة أن يدعو الرجال للتـهيؤ. سيحكمون الحصار على القلعة ولو لم تصل المدفعية أو المورتر. قال بسخط، بينما يبتعد "أبو جميع"، مرتبكاً: لا أدري أي نوع من الرجال نتعامل معهم. نحن هنا نواجه الموت، وهم يتلقطون الأخبار من إذاعة برلين. اللعنة.

٢٠

بدا وكأن الزمن أصابه خللٌ أو مرض أو جنون. أحياناً يحس المفتي بأن عقارب الساعة تدور عكسياً إلى الوراء. وأحياناً مشلولة أو عوراء أو عرجاء. وأحياناً هاربة مولية الأدبار. فهو في دار الحكومة، تنتقل لـه عدوى الإحباط من رئيس الوزراء الكيلاني. فيتذكر ما آلت إليه نتيجة الانتفاضة في فلسطين. وهو في معسكر الرشيد يحاول أن يهدئ من حنق العقيد الصباغ وسخطه على القطاعات العسكرية التي تتحرك بالمقلوب. وعندما يلتقي مع القائم بأعمال ألمانيا ، يلح عليه حث حكومتـه على إرسال النجدات، قبل أن يصل الانجليز إلى بغداد. وعندما يستمع إلى تعليقات إذاعة برلين ، يحس بأن الانقلابيـين أخطأوا التوقيت. لو تأجلت الحركة لحين وصول الألمان إلى مصر، لحال ذلك دون توجه القوات الانجليزية من شرق الأردن وفلسطين، ولربـما استسلمت قواتـهم في العراق دون قتال.

أما الآن، وقد اختلط الحابل بالنابل، ولم يعد أحد قادر على تقييم الوضع أو التحكم فيه، فقد اضطرب كل شيء. السياسة والتنسيق والرؤية والتفكير. صحيح أنـه غدا الرجل الأول في العراق. يعود إليه العسكريون والسياسيون في قراراتـهم والاستئناس بـمشورتـه في خياراتـهم، إلا أنـه لا يتطلع من وراء هذا النفوذ إلا للعودة بالدبابات إلى فلسطين. إنـه ليس مثل فيصل، يبحث عن عرشٍ في دوامة. فهو أصلاً لا يؤمن بالعروش. كما أنـه لا يدور في دوامة تمتصه إلى الأعماق. إنـه يقف على أرض رخوة، وليس دوامة، تماماً مثل خصومه اليهود. يحاولون أن يرجحوا كفة الميزان بثقل الانجليز، ويحاول أن يرجح كفتـه بثقل الألمان. الفارق أن الأثقال الانجليزية متوافرة في السوق، بينما أثقالـه الألمانية ما تزال في الطريق. الخطر ينتظره مثلما ينتظرهم. قد تغرق شحنتـه في الطريق، وقد تغرقهم أثقالـهم في قاع المحيط إذا وصل هتلر إلى النيل. لـهذا فإنـه يصر على أن العراق معبر إلى فلسطين. ليس لأن القضية العراقية تأتي بالدرجة الثانية، ولكن لأن العراق يظل عراقاً، طالت أم قصرت حروب الغزاة في أراضيه. لكنـه

لن يظل كذلك إذا اختفى من الخارطة اسم فلسطين. هناك علاقة جدلية يصعب تفسيرها بين العراق وفلسطين. البيئة المكانية متباينة والذهنية ليست واحدة ولا الملل الطائفية متجانسة أيضاً. فلماذا يعتبر الفلسطينيون دائماً أن العراق عراقهم، بـمثل ما يعتبر العراقيون أن فلسطين فلسطينـهم. أصروا عليه أن يكون عميد حزب الاستقلال العراقي، ووضعوا بيده السلطة وهو خارجها.

عندما اقترح القائم بالأعمال الألماني، استقدام جنرال الجو "فيلمي" مستشاراً عسكرياً للحكومة ، تحفظ العقيد الصباغ على الاقتراح، وعبر وجه رئيس الوزراء عن الريبة. يريدان طائرات ودبابات وغواصات إن أمكن. أما إدارة المعارك فيريدانـها عراقية صرفة. لكن بـمجرد أن أثنى المفتي على الجنرال فيلمي، لما يتمتع به من سمعة طيبة وقدرة عسكرية، حتى سارع رئيس الوزراء الكيلاني بالطلب رسمياً من القائم بالأعمال، استقدام الجنرال. ليس كمستشار عسكري فحسب، بل ولقيادة جميع الوحدات الألمانية في العراق. بينما التظاهرات المناوئة للإنجليز تندلع في شوارع بغداد هاتفة: ا حي. ا حي. الحج محمد هتلر جي.

أثلج صدر المفتي. كما أثلج صدر القادة العراقيين، إعلان هتلر باللجوء إلى جميع الطرق والوسائل الممكنة لمساندة القوات العراقية في قتالـها مع الانجليز، فوصل سرب من طائرات شمدت المحاربة، وآخر من قاصفات هاينكل إلى الموصل. راحت تغير على قاعدة الحبانية ، لكن تأثيرها كان قليلاً بسبب ابتعاد المسافة التي كانت تستلزم نحو ساعتين.

أمر العقيد الصباغ بتدمير السدود القائمة على نـهر الفرات لعرقلة تقدم القوات الانجليزية التي وصلت من فلسطين، يتقدمها جلوب الخبير بطوبوغرافية العراق. لكن المياه التي غمرت صدر السرية لم تحل دون تمكن الانجليز من الفالوجة وان أخّرت قليلاً في وصولـها.

كان جلوب قد أمن مؤخرتـه نتيجة تواطؤ آمر لواء الرمادي معه، بعدما سلمه رسالة من الأمير عبد الإلـه. ولكي يبدو انسياب الأمور طبيعياً اتفق جلوب مع قائد الرتل الانجليزي على أن يتقدما في مسارين متوازيين على يمين الطريق الصحراوي ويساره.

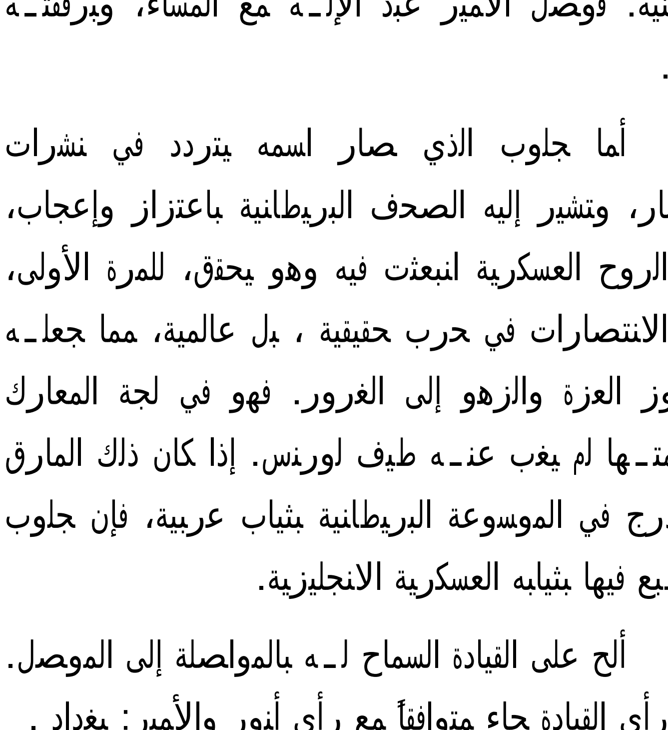
سبق الرتل الانجليزي في تقدمه لواء جلوب الذي كان يتقدم ببطء ملحوظ، مبرراً ذلك بأنـه لا يريد أن يقحم جنوده في المقدمة. لكن بعد مسير نحو الساعة تجاوزت قواتـه الرتل الانجليزي الذي كان منشغلاً بسحب ثلاث آليات غرزت في الرمال الطينية عمداً، فوجد رجال جلوب أنفسهم في مواجهة القوات العراقية التي راحت تصليهم بنيران مدافعها ورشاشاتـها. سقط منـهم عشرة قتلى، قبل أن يتواروا في بستان نخيل.

أطلت أرتال القوات الانجليزية، تساندها من الجو الطائرات المنطلقة من الحبانية، فأخذت الحشود، التي تحاصر القاعدة، على حين غرة، ليتحولوا عنـها إلى مواجهة الأرتال القادمة.

قرر آمر اللواء فرز فصيلين. الأول نظامي بقيادة عبد القادر الحسيني، لمشاغلة القطاعات البريطانية شمال البلدة ومنعهم من دخولـها حتى الصباح. تكون الطائرات الألمانية قد وصلت إلى الموقع. والثاني فدائي، بقيادة سيف، يتوغل داخل الفالوجة ويستحكم في أسواقها الداخلية لإنـهاك المهاجمين إذا ما أخفق الفصيل الأول في صدهم.

الأمور سارت على عكس ما توقعه الطرفان. فالرتل الانجليزي تـهيأ لمواجهة ضارية مع القوات العراقية دون أن يستبعد قائده إقحام سلاح الجو الألماني والانجليزي في المعركة، فإذا به يواجه فصيلاً متواضع السلاح قليل الخبرة في الحروب النظامية، فرد عبد القادر ورجالـه على أعقابهم. أما فصيل سيف فقد سبقه جلوب لاحتلال البلدة.

دارت معركة حامية بين رجال جلوب وفدائيي سيف ، استبسل فيها الطرفان في حرب شوارع ضارية، تجلت فيها الشجاعة الفردية، بعيداً عن أوامر القادة ونداءات اللاسلكي، بينما الاشتباكات تنتقل من بيت لآخر، ومن دكان لدكان. سقط خلالـها عدد من القتلى لم يتم إحصاؤهم بـمجملـهم. لتحسم مدرعات الرتل الانجليزي الموقف مع انبلاج الصباح، وهي تـهدم البيوت والمحلات على رؤوس أصحابها، ومع هذا لم يستسلم أحد من الفصيل الفدائي، بل واصلوا القتال لآخر طلقة نار، وكانت أوامر جلوب تقضي بعدم أخذ أسرى ، لكن وصول الرتل الانجليزي وتدخلـه بالسلاح الثقيل نقل السلطة إلى قائده، وحمل سيف بجراحة الخطيرة إلى سيارة إسعاف انجليزية.



في الصباح استسلمت القوات العراقية المحاصرة للحبانية. فوصل الأمير عبد الإلـه مع المساء، وبرفقتـه أنور.

أما جلوب الذي صار اسمه يتردد في نشرات الأخبار، وتشير إليه الصحف البريطانية باعتزاز وإعجاب، فإن الروح العسكرية انبعثت فيه وهو يحقق، للمرة الأولى، هذه الانتصارات في حرب حقيقية ، بل عالمية، مما جعلـه يتجاوز العزة والزهو إلى الغرور. فهو في لجة المعارك ومعمتـها لم يغب عنـه طيف لورنس. إذا كان ذلك المارق قد ادرج في الموسوعة البريطانية بثياب عربية، فإن جلوب سينطبع فيها بثيابه العسكرية الانجليزية.

ألح على القيادة السماح لـه بالمواصلة إلى الموصل. لكن رأي القيادة جاء متوافقاً مع رأي أنور والأمير: بغداد .

٢١

غمر الفرح قلوب الناس، وضجت البيوت بالزغاريد والطرقات بدبكات الفرح. وزع الكثيرون الحلوى ورفع آخرون الفوانيس الملونة، وابتـهج الناس بكل طوائفهم وأصولـهم وأعمارهم.

نشد التلاميذ في المدارس أناشيد وطنية حماسية، ورددت حناجرهم الـهتافات من وراء معلميهم. وخطب الأئمة في المساجد يدعون إلى الإيمان وعبادة الرب القدير على إزالة الظلم وسحق الظالمين.

أقلة فقط استشرى الخوف في نفوسهم، فعاشوا ثلاثة أيام من التوتر والقلق والترقب وهم يتوقعون بين لحظة وأخرى أن ينقض المحتفلون عليهم فيحرقونـهم مع بيوتـهم، بعدما غاب إلى الأبد نصيرهم الذي يتسلحون بنفوذه ورهبتـه .

حاول بعضهم معالجة أخطائهم بالتكفير عن خطاياهم ولو اسمياً وهم يسارعون إلى دائرة النفوس لاستبدال اسم

فارس من شهادة ميلاد أبنائهم أو تحويره أو تصحيفه. ودفعت الخشية آخرين للانقلاب على أنفسهم والتعريض بالانجليز والانضمام إلى احتفالات تمزيق صور جلوب والمشاركة في الدبكات وتجمعات الفرح ومواويل الخلاص.

صار الاستماع إلى إذاعة برلين مأثرة، والتحول إلى إذاعة لندن مسخرة ، بينما تفيض نشرات أخبارها بالحديث عن تاريخ جلوب العسكري، الذي يجهل الأهالي معظم تفاصيلـه. فصورة جلوب القوية المهيبة كانت تمنعهم من التقصي عن أصلـه وفصلـه وتسلسل أحداث حياتـه. كان جلوب بالنسبة لـهم، جلوب فقط، هكذا هو منذ الأزل. شمس طاغية لا تعمي الأعين إن نظرت إليها. كما لا تستطيع الأبدان احتمال وهجها ولـهيبها. جميع أنصاره ومؤيديه ومعاونيه، من العرب والأقليات الكردية والشركسية والشيشانية، وحتى الفرسان من أبناء زعماء البدو ، كانوا يطيعونـه لرهبتـه أو موقعه أو تطلعاً للمغانم التي يكسبونـها بنفوذه. كان مفتاحهم للسلطة والثروة والأمان. أما وقد ضاع المفتاح، فعليهم انتظار من يأتي لفتح الباب. كانوا متيقنين من أن نائبه الانجليزي لاش سيحل محلـه، هذا إذا

لم يختطفه عزرائيل مثلـه. كائناً من كان خليفتـه سيقدمون لـه الطاعة والإخلاص والولاء. لكن قبل ذلك، عليهم توقع الأسوأ من أهالي البلدة الذين يحتفلون بـموتـه احتفالات الأضحى والفطر والفصح والميلاد.

وحده البابا قدري لم يكن يتطلع للسلطة والثروة والآمان. كان يكفيه صداقتـه لـهذا الانجليزي الذي يلجأ إليه في الملمات. وحده كان يعرف حقيقة ما جرى، وإن أوشك تصديق خبر الوفاة التي أشاعها بنفسه من خلال منتسبيه ومريديه. لتثير دهشتـه المعلومات التي ينقلـها إليه رجالـه عما يتناقلـه الناس من أخبار وما يتقولون من توقعات وصلت المغالاة فيها ضرباً من الجنون. فجلوب تم تقطيعه أربع قطع علقت على الجهات الأربعة لقلعة الرطبة. وجلوب تم شواؤه حياً وأكلـه بشهية الجنود العراقيون. وجلوب تم ربطه إلى سيارتـه التي سحبتـه وراءها مئات الأميال إلى بغداد. وجلوب دفن في الرمال حتى رأسه، وترك فريسة للجوارح والكواسر بعدما تبول أبطال القلعة في فمه وتبرزوا دون حرج فوق وجهه. وجلوب الأسير، سلم إلى

الألمان لإجراء التجارب عليه مثل الفئران. ألقى الألمان قنبلة بحجم البيضة محت قاعدة الحبانية من الوجود.

رغم كل هذا، وكل المخاوف التي عبرت عنـها أفراح الأهالي وحماسهم واعتداؤهم على عدد من أنصار جلوب، ورمي فرسانـه بالأحجار والقاذورات، فإن البابا قدري ظل وفياً لصديقه، فأوعز إلى البكتاشيين لتأدية شعائر الحداد. ليس في الموت شماتة. كما الاخلاص للقائد من وصايا الدين، فقد قال عليه الصلاة والسلام : " إذا ولي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة فأطيعوه"، فكيف إذا كان هذا القائد سيداً أبيض مرهوباً في بلاده مهيوباً خارجها.

أذعن مقصود لتوجيهات البابا على مضض. المساواة بين الأديان شيء، والضرب والإهانة التي لحقت به يوم صادروا عربة الثيران شيء آخر. مع هذا لم يتوان عن دعوة مريديه إلى حلقة ذكر شفاعة للشهيد جلوب، وإن ظل طلية ليلتـه يلعنـه متوحداً داعياً أن تتناسخ روحه في كلبٍ أو خنـزير. ظل يشرب النبيذ طيلة يومه، وفي الليل التأم حولـه المريديون في حلقة ذكر صاخبة أنشدوه فيها الأشعار والترانيم:

ألا أيها المقصود في كـل حاجتي

شكوت إليك الضر فارحم شكايـتي

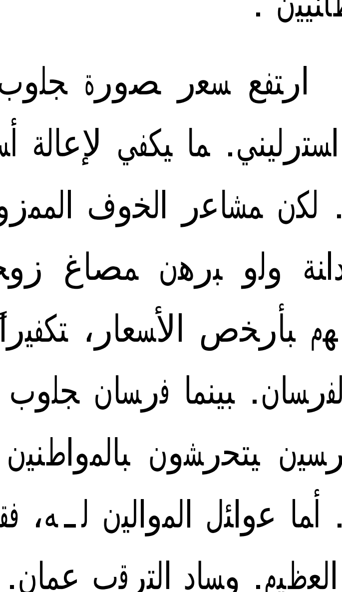
ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي

فهب لي ذنوبي كلـها واقض حاجتي

أما جرير الذي تضامن بكتاشياً مع البابا قدري فإنـه التزم شيوعياً بـمناصرة الانجليز ضد المانيا النازية، فكتب ليلة وصولـه الخبر مرثاة للقائد الراحل. حملـها في اليوم التالي إلى جريدة الأردن ، فقوبل بالاستـهجان والصدود، مما جعلـه يغادر ساخطاً، ويتوجه نكاية بهم إلى مكتب المعتمد البريطاني.

عجلت القصيدة بالسماح لـه بالدخول، وقابلـه المعتمد بترحاب واحترام. شكره على القصيدة لكنـه بدلاً من أن يكافئه ولو بترجمتـها إلى الانجليزية، طلب منـه أن يحتفظ بها لحين موت جلوب الذي تلقى منـه رسالة لاسلكية هذا الصباح.

الوضع الذي انقلب رأساً على عقب خلال أيام الفرح استقام فيه الجذع ثابتاً فوق العقب، بعدما تأكد أن جلوب حي يرزق بالبطولات التي تتغنى بها إذاعة لندن وهي تعلن القضاء على الانقلابيين وهروب الكيلانيين وتسليك مجاري البريطانيين .



ارتفع سعر صورة جلوب في السوق السوداء، إلى جنيه استرليني. ما يكفي لإعالة أسرة من عشرة أنفار شهراً كاملاً. لكن مشاعر الخوف الممزوجة بالندم، دفعت الكثيرين للاستدانة ولو برهن مصاغ زوجاتـهم أو بيع موجودات بيوتـهم بأرخص الأسعار، تكفيراً عن خطئية تمزيق صور أبي الفرسان. بينما فرسان جلوب يجوبون الشوارع شامخين متغطرسين يتحرشون بالمواطنين لأقل حركة أو إشارة أو نظرة. أما عوائل الموالين لـه، فقد أخذوا يستعدون لاستقبال القائد العظيم. وساد الترقب عمان.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف صباحاً، عندما دخلت آليات اللواء المصفح، تتقدمها سيارة جلوب ، وهي تزعق بالنذير، مخترقة شوارع البلدة القليلة مع جلبة المصفحات والتركات والزوامير التي تستدعي الناس إلى

نوافذهم وأبواب بيوتـهم، ليشاهدوا استعراض النصر الذي استمر أكثر من ساعة.

أثار إعجابه، شرطي مرور يعتلي المنصة القائمة على تقاطع الشارع. أدى التحية بإجلال للباشا، فـرد الباشا بإعجاب وتقدير. أمعقول.؟. في هذا الوقت المتأخر يؤدي هـذا الشاب واجبه.؟. أم أنـه جاء للحيلولة دون اعتراض أية مركبة للموكب. همس جلوب لـمرافقه، فقفز هـذا من السيارة وأسرع يسأل سميح عن اسـمه، ويلحق راكضاً بسيارة الباشا. فأمر جلوب جنوده بالتوجه إلى معسكر الفتح قرب محطة القطار، واتجه بسيارتـه إلى بيتـه تاركاً البلدة في أقصى حالات التوتر، وكأن الأهالي أخذوا ، على حين غرة، بغزاة همجيين ، لا يعرف أحد متى يبدأون القتل والسلب والنـهب والتنكيل.

كان بيتـه صامتاً مظلماً، مما أشعره بالرهبة، رغم الحراسة الرابضة حولـه ورغم الفرح العظيم الذي يغمر قلبه من عودتـه المفاجئة الميمونة. تجاوز الحرس الذين تيبسوا في أماكنـهم رعباً وكأنـهم بوغتوا بشبح عقد ألسنتـهم وجمد الدماء في عروقهم. عبر البوابة فأغلقت

سريعاً خلفه. لكنـه بدلاً من أن يتجه إلى المدخل الرئيس، انحرف عنـه دون إرادة منـه. ولا يدري لماذا توخى الحذر وهو يتجه إلى الباب الخلفي. وصل شباك الحمام، فكانت العتمة من خلفه موحشة.طرق عليه وتلفت حواليه متوجساً. ثم طرق ثانية ، ليسمع صوت زوجتـه تسأل بنبرة ذعر خاطفة : من .؟.

- أنا يا عزيزتي.

- أوه . أوه. عزيزي. عزيزي... واندفع الضوء من الداخل إلى شباك الحمام، ثم إلى المنور الزجاجي الخلفي، ودبت الحياة في السكون الموحش مع صرير المزلاج وانفتاح الباب: أخيراً...قالت زوجتـه وهي تعانقه وترمي برأسها على كتفه. ملّس لـها شعرها وهو يعقب: قد تكون؟.

رفعت رأسها عنـه ونظرت في عينيه الخضراوين: هل هناك مهمات أخرى؟... أحاطها من خصرها وتقدما إلى الداخل: من يدري. الجيش يعول علي الآن كثيراً واربـما أكثر من جميع جنرالاتـه المترفين.

في اليوم التالي تلقى تعليمات بالشيفرة أرسلت لـه مباشرة من لندن، للشروع بالاتصال مع قبائل بادية الشام لتنظيم مقاومة ضد حكومة فيشي ومؤازريهم من الألمان والطليان. أبلغ بأنـه خصص لـهذه الغاية مليون جنيه استرليني، ليتصرف بها كما يشاء وفقاً لضرورات الحال. بينما الموالون لـه يتنازعون دعوتـه والاحتفاء به. ولاسيما عائلة " أبو جميع"، التي نظمت عراضة كبيرة أشبه بتظاهرة شعبية تخللتـها دبكات وأهازيج وزغاريد، صخبت بـمجرد إطلالتـه واستمرت طيلة الغداء الذي نحرت فيه عشرات الخراف وقدمت برؤوسها المشبعة بالجميد فوق صواني المنسف المعرمة باللحم والأرز.

فاجأ جلوب عصراً مضيفيه بـمشاركتـه الدبكات التي لم تتوقف منذ وصولـه. فتنقل من حلقة لأخرى وهو مفعم بالرضى والسرور ، شابكاً ذراعيه على استقامتـها مع من يحاذيه، وضارباً الأرض بقدميه في تعاقب مدروس تمرس به أثناء احتفالات رجالـه بالنصر على العراقيين.

إنـها المرة الأولى، منذ رميه بالحجارة والقاذورات، يحس بأنـه قائد شعبي مثلما هو قائد عسكري. للمرة الأولى

يحس بأن قدميه أثقل من الجبال وهو يضربها بثبات لتسوية قبر لورنس بالأرض، بل لضغطه إلى أبعد الأعماق وأظلمها. مجرد رحلة في الصحراء جعلت من ذلك الشاذ فحلاً عند الغانيات. ماذا سيكتب التاريخ عن جلوب الذي طالت يده فلسطين وشرق الأردن والعراق، وستطول غداً سوريا ولبنان. إنـه الفارس الذي يتدفق من صلبه الفرسان. إنـه أعظم انكليزيي هذا الزمان.

٢٢

غادر المفتي مع القادة الانقلابيين إلى إيران ونجح عبد القادر الحسيني بالافلات والعودة إلى فلسطين، بينما عمليات الثأر والانتقام تجتاح بغداد التي ترك أمرها للموالين إلى الوصي من مدنيين وعسكريين. إضافة إلى الانتهازيين والباطجية واللصوص والمعتاشين على نكبات الأخرين. أما المثقفون اليساريون وفي مقدمتهم الشيوعيون، فقد ساعدوا في بياناتهم ومقالاتهم المحرضة على ذبح كلاب النازية وسحق الحركة القومية على انفلات الوضع لأيام عديدة، نهبت خلالها المخازن والمحلات والبيوت، وصار التنكيل أمراً مباركاً مشروعاً.

النهب والسلب والقتل والاغتصاب، أعاد إلى الأذهان ذكرى المغول الذين انبعثوا في أجساد الآثوريين والكوركا والهنود الذين رافقوا الانجليز من البصرة وشاركوا معهم في القتال. كذلك البدو الذين استنفرهم جلوب

لنصرتـه. إضافة إلى العصابات التي تتحرك في الخفاء، أو تتشكل مع الأحداث.

أما اليهود،الذين حظوا بالحماية العسكرية أثناء الحركة، وتمت حراسة منطقتـهم عسكرياً في باب الآغا، واجتمعت أعداد كبيرة منـهم في سينما الأمين، يقدم لـهم الجيش العراقي الحماية والمؤن والسلام، فإنـهم بـمجرد الإطاحة بالحركة، ضموا أصواتـهم إلى الأصوات الانتقامية التي راحت تترجم غضبها بذبح المواطنين لمجرد الشبهة. وغرقت بغداد بالدماء واختنقت بالدخان وآلت معالم هامة فيها إلى رماد.

كتب جرير مرثاة لبغداد مفعمة بالأمل، دونما إشارة للحركة الانقلابية ، ودونما تعريض بالانجليز أو الفرنسيين، استجابة لتعليمات الشيوعيين. إلا أنـه لم يوفق بنشرها في الجرائد الوطنية، بسبب إغلاقها من قبل السلطات لإشادتـها بالدعم الجماهيري الذي لاقتـه الحركة الكيلانية في جميع البلاد السورية. ووصل تأييدها إلى مصر النيل، فنظمت القصائد الشعبية عن عراقي قطاع الوشواش الذين ارتدوا

أكفانـهم جاهزين للموت دفاعاً عن بغداد. فذهب بهم الموت مثلما ذهبت أعمال العنف ببغداد.

لم تؤثر تعليقات الصحف في المشرق العربي ومغربه، ولا المظاهرات الشعبية المنددة بالانجليز، في عزوف ولي العهد عن الانتقام،بعدما غدا الشيوعيون الذين أيدوا بالأمس القريب حركة الكيلاني، رصيده الشعبي المطالب بإبادة القوميين، فطالت الاعتقالات الصبية والشبان والعجائز من مختلف الملل والاتجاهات. وحدهم الشيوعيون كانوا يقفون بأقدام ثابتة على بر الأمان. تارة مع الحلفاء وطوراً مع الألمان. وأحياناً يناهضون الصهيونية، وأحياناً مع إقامة دولة عبرية.

أرسل آلاف المعتقلين إلى الفاو،مقيدين بالأغلال ومساقين مثل الدواب، ليتعرضوا للإذلال قبل أن يلقى بهم بين مجرمين عتاة مثلما ألقي مسيحيو روما للمفترسين الجائعين. وكان المثقفون من رجالات الحركة أكثر تعرضاً للإهانة والتعذيب والانتقام. أما معيار الثقافة لدى الأمير فكان محدداً بالشهادة الدراسية، التي أخفق في تحصيلـها حتى لو كان حاملـها لم يقرأ طيلة حياتـه سوى كتبه المدرسية ولا

يعرف من الجرائد أسماءها ولا من الكتب عناوينـها ولا مضامينـها.

أما الأسرى من غير العراقيين، فقد اتخذت الترتيبات لتقديمهم إلى محكمة عسكرية باعتبارهم مجرمي حرب.

رفض الأمير كل الشفاعات التي قدمت لأجلـهم ، وإن أرجأ تنفيذ الأحكام بهم إلى حين هدوء الأوضاع، كما أشار عليه أنور. كان يبدي حساسية كبيرة تجاه هذا الأمر، مما جعل أنور يحرص على عدم استفزازه كي لا يصيبه بعضاً من غضبه العاصف. فقد غدا اسمه في كل أرجاء العراق، تجسيداً للرعب والـهلع، وكأنـه جثة استيقظت من قبرها لترويع الأحياء.

- يعني ماراح تساعده.؟.

- إش أساعده يا بنت الحلال .!. أساعد حالي هسه.

- رفيق دربك يا أبو ماجد. قاتل معك بالثورة وميسلون.

- وانقلب علي وقاتل ضدي هون.

- ما قاتلك. قاتل الانجليز.

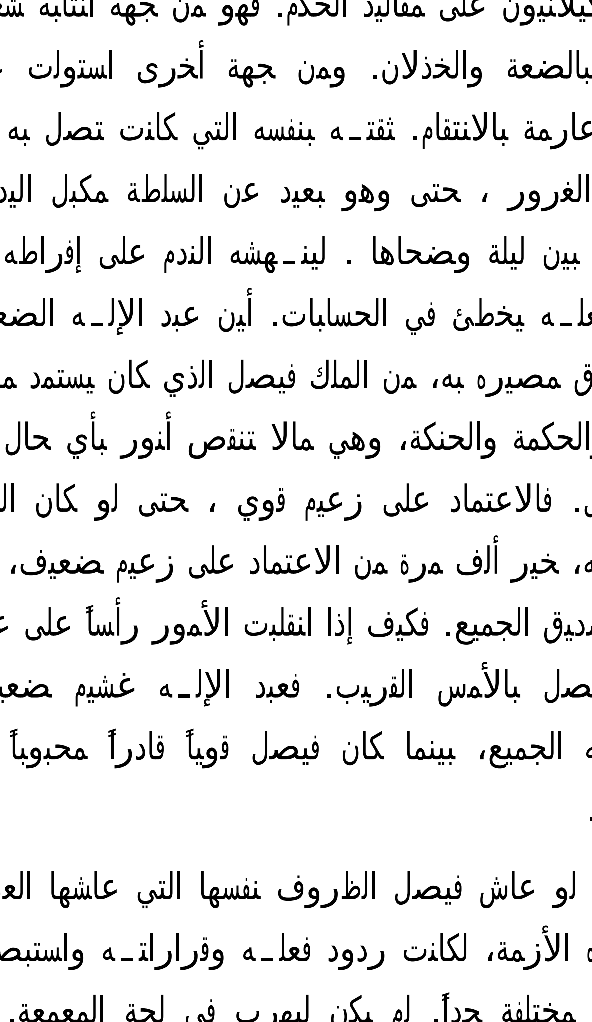
- لا . لا تغلطي. رتبي كلامك. قاتل النظام. والنظام استنجد بالانكليز .

- ما قاتل النظام.

- ا أكبر. إش تسمي هروبي مع الأمير لفلسطين.

- أسميه هروب. لو ظل الوصي في البلد، ما أحد قرب ليه. الانقلاب كان على الحكومة ما هو على العرش. إش تفسر لعاد تعيينـهم وصي بدالـه. لو كانوا يقصدوا العرش كان ما ظل الملك ملك وبعده ما أبلغ.

- هادا اللي يقولونه هسه، لأنـها راحت عليهم. صدقيني، لو ضفروا بالأمير، كان قطّعوه شقف. هو عارف ها الحكي، من هيك ما قاعد يقبل أي واسطة. إذا مو راضي يعفي عن العراقيين. كيف بدوه يعفي عن جماعة المفتي اللي بدال ما يحاربوا بفلسطين جايين يحاربونا هون. ما تفتحي الموضوع معي مرة ثانية. إذا قدرت أساعد بساعد. بس لا يمكن أخرب علاقتي بالأمير منشان سيف الحجاج واللي مثلـه.

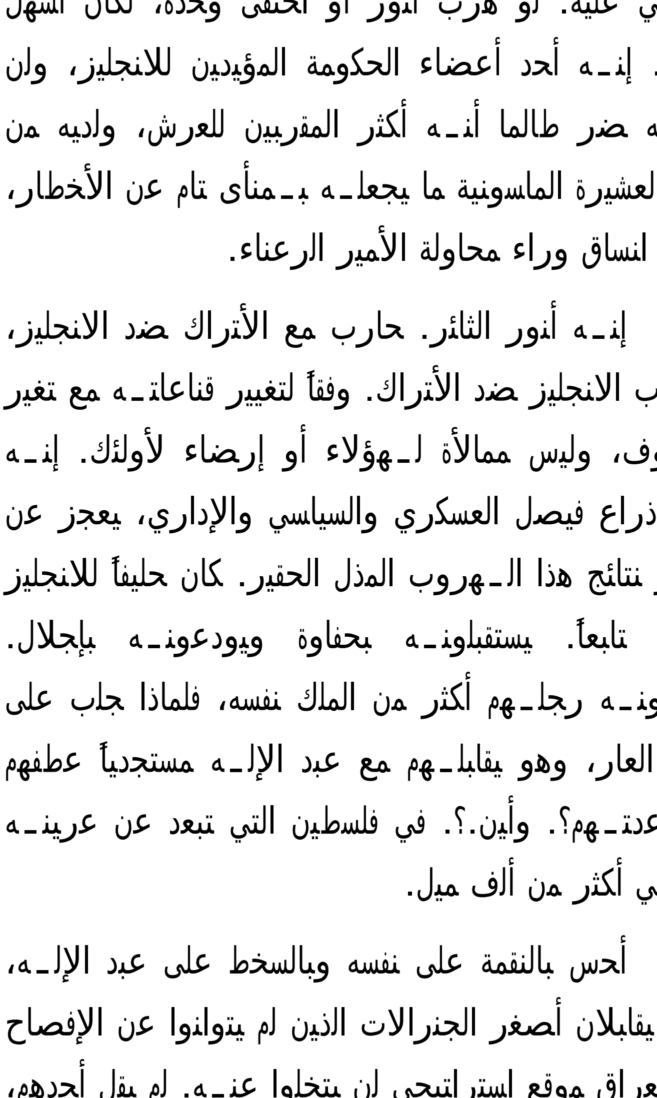


عانى أنور من تأزم نفسي طيلة الفترة التي استولى فيها الكيلانيون على مقاليد الحكم. فهو من جهة انتابه شعور مرير بالضعة والخذلان. ومن جهة أخرى استولت عليه رغبة عارمة بالانتقام. ثقتـه بنفسه التي كانت تصل به إلى درجة الغرور ، حتى وهو بعيد عن السلطة مكبل اليدين، تلاشت بين ليلة وضحاها . لينـهشه الندم على إفراطه بها مما جعلـه يخطئ في الحسابات. أين عبد الإلـه الضعيف وقد علّق مصيره به، من الملك فيصل الذي كان يستمد منـه القوة والحكمة والحنكة، وهي مالا تنقص أنور بأي حال من الاحوال. فالاعتماد على زعيم قوي ، حتى لو كان الغدر شيمتـه، خير ألف مرة من الاعتماد على زعيم ضعيف، ولو كان صديق الجميع. فكيف إذا انقلبت الأمور رأساً على عقب كما حصل بالأمس القريب. فعبد الإلـه غشيم ضعيف، ويكرهه الجميع، بينما كان فيصل قوياً قادراً محبوباً من الجميع.

لو عاش فيصل الظروف نفسها التي عاشها العراق في هذه الأزمة، لكانت ردود فعلـه وقراراتـه واستبصاره للأمور مختلفة جداً. لم يكن ليهرب في لجة المعمعة. في

ثياب النوم أيها الامير!!. لم يكن فيصل ليهرب ولو تيقن من حتفه فيها. لم يكن لينسحب إلا على أسنة الرماح . تلك شهادة تشهد بها ميسلون. ومع هذا ظل فيصل يحس بالذنب جراء انسحابه. كان سينتقم من الانجليز والفرنسيين بتوحيد الـهلال الخصيب.

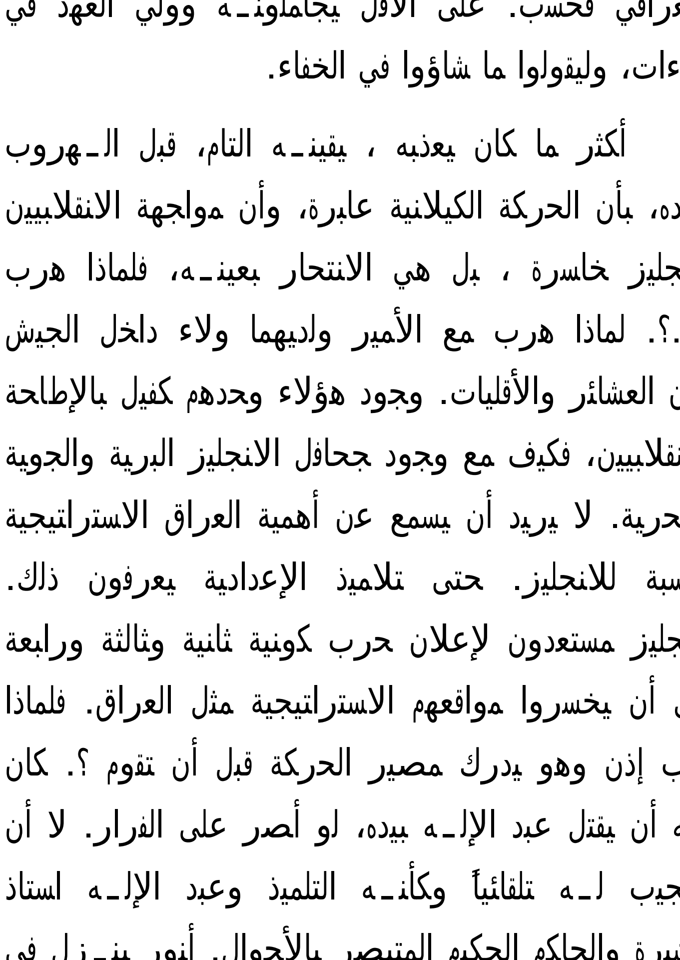
لو أمهلـه القدر إلى هذه الحرب. لتفاعل مع أحداثها بالحكمة نفسها والحنكة ذاتـها، التي حولتـه من ملك مهزوم في الشام إلى ملك مهيوب في العراق. ليشعر الفرنسيين بالندم على معاداتـه، ويتطلعون للاستفادة من تجربتـه. بل كانوا مستعدين لتوليتـه على سوريا إضافة إلى العراق. أما عبد الإلـه فقد هرب مولياً الأدبار لمجرد أن تلقى تحذيراً عبر الأسلاك. اللعنة. كيف هرب معه ووافقه ورافقه؟. كان عليه أن يقف بوجهه ويعيده إلى رشده ولو بصفعه أو تـهديده. فالحركة كانت تقصد الحكومة ولم يصدر عنـها ما يشير إلى انقلابها على العرش والوصى عليه. يثبت هذا تعيين الكيلاني لوصي بديل وقد هرب الأصيل. لم يكن الكيلاني ليفعل ذلك لو صمد عبد الإلـه. كانت الحكومة برئيسها المقصودة بالانقلاب، وليس العرش بـملكه أو



الوصي عليه. لو هرب أنور أو اختفى وحده، لكان أسهل بكثير. إنـه أحد أعضاء الحكومة المؤيدين للانجليز، ولن يمسسه ضر طالما أنـه أكثر المقربين للعرش، ولديه من نفوذ العشيرة الماسونية ما يجعلـه بـمنأى تام عن الأخطار، فكيف انساق وراء محاولة الأمير الرعناء.

إنـه أنور الثائر. حارب مع الأتراك ضد الانجليز، وحارب الانجليز ضد الأتراك. وفقاً لتغيير قناعاتـه مع تغير الظروف، وليس ممالأة لـهؤلاء أو إرضاء لأولئك. إنـه أنور ذراع فيصل العسكري والسياسي والإداري، يعجز عن تبصر نتائج هذا الـهروب المذل الحقير. كان حليفاً للانجليز وليس تابعاً. يستقبلونـه بحفاوة ويودعونـه بإجلال. يعتبرونـه رجلـهم أكثر من الملك نفسه، فلماذا جلب على نفسه العار، وهو يقابلـهم مع عبد الإلـه مستجدياً عطفهم ومساعدتـهم؟. وأين.؟. في فلسطين التي تبعد عن عرينـه العراقي أكثر من ألف ميل.

أحس بالنقمة على نفسه وبالسخط على عبد الإلـه، وهما يقابلان أصغر الجنرالات الذين لم يتوانوا عن الإفصاح بأن العراق موقع استراتيجي لن يتخلوا عنـه. لم يقل أحدهم،



طيلة أيام النفي التي كانت على قصرها أطول من الدهر، بأن استراتيجيتـهم في استمرار نظام الحكم، وليس في الموقع الجغرافي فحسب. على الأقل يجاملونـه وولي العهد في اللقاءات، وليقولوا ما شاؤوا في الخفاء.

أكثر ما كان يعذبه ، يقينـه التام، قبل الـهروب وبعده، بأن الحركة الكيلانية عابرة، وأن مواجهة الانقلابيين للانجليز خاسرة ، بل هي الانتحار بعينـه، فلماذا هرب إذن.؟. لماذا هرب مع الأمير واديهما ولاء داخل الجيش وبين العشائر والأقليات. وجود هؤلاء وحدهم كفيل بالإطاحة بالانقلابيين، فكيف مع وجود جحافل الانجليز البرية والجوية والبحرية. لا يريد أن يسمع عن أهمية العراق الاستراتيجية بالنسبة للانجليز. حتى تلاميذ الإعدادية يعرفون ذلك. الانجليز مستعدون لإعلان حرب كونية ثانية وثالثة ورابعة على أن يخسروا مواقعهم الاستراتيجية مثل العراق. فلماذا هرب إذن وهو يدرك مصير الحركة قبل أن تقوم ؟. كان عليه أن يقتل عبد الإلـه بيده، لو أصر على الفرار. لا أن يستجيب لـه تلقائياً وكأنـه التلميذ وعبد الإلـه استاذ العشيرة والحاكم الحكيم المتبصر بالأحوال. أنور ينـزل في

فندق متوجساً من الجدران، يخاف الظهور بين الناس الذين كانوا لوقت قريب يخافون إطلالتـه ويؤمنون بحكمتـه ويستجدون مساعدتـه!. من يحترم قائداً يهرب من غير قتال؟. حتى المفتي. الذي حاول التشكيك بخروجه من لبنان، لم يغادر فلسطين إلا بعد قتال مرير.

زارت مخيلتـه عشرات الزعامات أثناء حصاره لنفسه في الفندق. خطر ببالـه رفاق الحرب التركية والثورة العربية ودماء يوسف العظمة التي ارتوت منـها ميسلون. خطر ببالـه شيوخ القبائل وقادة الجند وأخوة العشيرة والوزراء، ولم يخطر ببالـه سيف الحجاج. حتى لو كان الأسير رئيس الحركة الكيلاني، ما كان عليه أن يعتلي سيارة الإسعاف مع عبد الإلـه. كان يكفيه أن يسوق إليه جلوب الأسرى السالمين، وليفعل بهم ما يريد. فلماذا أصر على أن يساق أمامه الأسير الجريح.؟. أي قائد يفعل ذلك مع متطوع مصاب؟. لو كان الرجل قائد الانقلاب لبرر لعبد الإلـه فعلتـه. لكن متطوع عادي برتبة رائد زائفة. ومن هو الرائد؟. سيف الحجاج. سيف الذي طببه يوماً في مجاهل الصحراء. سيف الذي أبلى فتياً في الثورة أكثر من محترفي

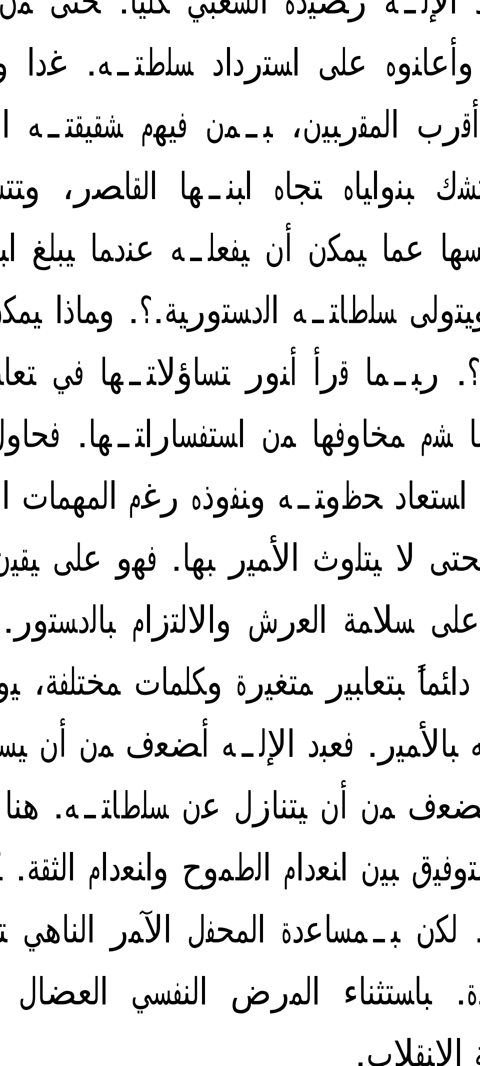
القتال. سيف الذي تبرع للمملكة السورية بتنكات الذهب. سيف الذي كان سيصبح قطباً في الحكومة السورية لولا ميسلون. آه يا ميسلون. كم فيك من الأحزان والأشلاء والكبرياء. هل أنا مجرم خؤون حتى تعاقبيني بالجنون. آه يا ميسلون. أهكذا تسلمين أمري لحاكم مغبون.صار يخاطبني باسمي بعدما كنت أخوه أنور أو أستاذ أنور أو أنور باشا: اسمع يا أنور. ما أحد يتدخل بـموضوع الأسرى. لو أنا اللي وقعت بإيدهم، لقطعوني قطعة قطعة . وا لأربي فيهم البلاد .

لم تتوقف الضغوط على أنور عند سميحة، التي تحولت إلى لبؤة متأهبة للافتراس كل مساء. بل اشتدت عليه الوطأة من جميع الجهات، وبخاصة هذا الوصي الذي تحول إلى طاغية مستبد مسكون بهاجس المؤامرات.

تمنى أنور مراراً لو أنـه ينام ليلة طويلة تمتد عقداً من الزمان، يفيق بعدها مع انتـهاء الوصاية على الملك القاصر. لو من ا عليه بهذه المعجزة ، فهل ستنتـهي سطوة عبد الإلـه مع تولي الملك السلطة والسلطان؟. ثم ماذا سيحصل أثناء نومه.؟ هل سيتوقف الزمن الكوني؟. إذا كان

شهر واحد من فقدان عبد الإلـه لسلطتـه فجرت عتيه وطغيانـه، فماذا ستفعل به سنين مشبعة بالمؤامرات؟ من الأفضل لأنور أن يتمنى اختصار الليل وساعات النوم، بل إلغاءها تماماً، عليه اعتياد اليقظة منذ الآن، وقد ولت الأحلام.

لم يبال الأمير بالمظاهرات الشعبية التي انفجرت في البلاد العربية للتنديد بالانجليز والانتصار للانقلابيين. كما لم يبال بالـهجوم الإعلامي عبر الصحف في شرق الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين. لم يكن يبالي إلا باستقرار الوضع في العراق وإحكام سيطرتـه على البلاد ومعاقبة المناوئين ورد الجميل للحلفاء والمؤيدين . فأمر بإعارة معمل الأسلحة إلى بريطانيا، كذلك معمل عتاد المدفعية والعديد من المدافع والتجهيزات والأدوات الفنية المتطورة التي جاءت حصيلة جهود فيصل الأول وابنـه غازي. كما ألغى فرقة عسكرية من فرق الجيش الأربعة بناء على توصية بريطانيا التي كانت ترمي إلى إضعاف الجيش وفق مبدأ " سلاح بلا عتاد ".



فقد عبد الإله رصيده الشعبي كلياً. حتى من قبل الذين ناصروه وأعانوه على استرداد سلطته. غدا وحيداً يتوجس منه أقرب المقربين، بمن فيهم شقيقته الملكة التي صارت تشك بنواياه تجاه ابنها القاصر، وتتساءل بينها وبين نفسها عما يمكن أن يفعله عندما يبلغ ابنها السن القانونية ويتولى سلطاته الدستورية.؟. وماذا يمكن أن يفعل قبل ذلك ؟. ربما قرأ أنور تساؤلاتها في تعابير وجهها، وربما شم مخاوفها من استفساراتها. فحاول أن يطمئنها بعدما استعاد حظوته ونفوذه رغم المهمات القذرة التي يكلف بها حتى لا يتلوث الأمير بها. فهو على يقين من حرص الأمير على سلامة العرش والالتزام بالدستور. كان يردد لها ذلك دائماً بتعابير متغيرة وكلمات مختلفة، يوضح فيها بصدق رأيه بالأمير. فعبد الإله أضعف من أن يستولي على العرش وأضعف من أن يتنازل عن سلطاته. هنا يأتي دور أنور في التوفيق بين انعدام الطموح وانعدام الثقة. كانت مهمته صعبة. لكن بمساعدة المحفل الآمر الناهي تذللت صعوبات عديدة. باستثناء المرض النفسي العضال الذي تسببت به حركة الانقلاب.

طلب من الانجليز مساعدتـه في القبض على العقيد صلاح الدين الصباغ الذي التجأ إلى إيران . هرب إلى تركيا فقبض عليه وأرسل مخفوراً بالقطار إلى سوريا. اعتقلـه الانجليز في حلب، إلا أنـه تمكن من الفرار والاختفاء، مما جعل عبد الإلـه يصب جام غضبه بالشتائم واللعنات بحضور أنور، الذي عمل جهده مع الحكومة السعودية لتسليم رشيد عالي الكيلاني، إلا أن السعوديين رفضوا بإصرار. فلم يكن حظهم من الشتائم واللعنات يقل عن حظ الانجليز، وبحضور أنور ايضاً.

حالة عبد الإلـه الانتقامية، قدمت خدمة جلّى لأنور. فلم يعد مجرد صاحب حظوة عند الأمير فحسب، أو صاحب سلطة ماسونية عليه فقط. وإنما مكّنت أنور من استغلال نقطة ضعف الأمير واستثمارها في سبيل تصفية خصومه بيسر وسهولة. بل إنـها حالت دون تشكل خصوم لـه في الجيش أو الحكومة أو البلاط. لم يكن يلزمه للإطاحة بأي ركن إلا التنويه بالشبهة حول علاقتـه بالكيلانيين. فغدا أنور رجل الدولة القوي الذي يلتمس الجميع رضاه. ومع هذا ظل يؤرقه أمر سيف الحجاج الذي غدا بطلاً وطنياً بعدما أصدر

حزب الاستقلال بياناً ، ناشد فيه ولي العهد إطلاق سراحه. وراحت الجرائد بعدها تنشر أخباره وتكتب عن تاريخه النضالي الطويل.الآن وبعد أن كبل بالحديد في سجن عربي يغدو مادة أعلامية وموضوعاً إخبارياً يومياً في صحف المشرق والمغرب .

أمضى سنين عمره يناضل تحت مظلة الآخرين. لم يخطر بباله يوماً الترويج لنفسه وهو الذي يمتلك جريدة وأموالاً وإرادة وطنية قل نظيرها، كما كتب أبو جبران في مقالات عديدة. فسيف الحجاج الذي قتل الأتراك جده وأعدموا أباه، وذبح اليهود عائلته، يقدم للمحاكمة الآن في العراق باعتباره مجرم حرب. وجريمته أنه حارب المجرمين الانجليز. قال أنور لولي العهد: اعتقالنا إله سواه بطل يا سمو الأمير، لو أطلقنا سراحه أحسن.

عقب الأمير بخيلاء: أنا شايف الأحسن يقولوا إنّا معتقلين بطل مو تافه أو غلبان.

استقبل أنور وفداً من حزب الاستقلال الفلسطيني برئاسة سليمان،الذي حاول أن يدفع ثمن إخلاء سبيل سيف. فرحب أنور بعرض افتتاح فرع للبنك الكنعاني في بغداد. أما

ماف سيف الحجاج فهو بين يدي الأمير عبد الإلـه ولا يبت به أحد سواه. والأمير يرفض استقبال أحد بهذا الخصوص، ويرفض أية شفاعة ولو جاءت من الملوك. لكن إذا ما استطاعوا إقناع الملك عبد العزيز بتسليم الكيلاني، سوف يحاول إقناع الأمير بتسليم سيف الحجاج.

قال لسميحة: مو عارف ليش حاط راسه براس ها الرجل. سوى لـه قيمة مثل قيمة الكيلاني، وهو مجرد متطوع عادي. صار بطل على ولا شي.

عقبت باستياء: يعني غسلت إيديك من الموضوع .؟.

- لا تظلي تقولي غسلت إيديك. إنت عارفة إني مو قادر أعمل شي.

- رفيقك يا أبو ماجد ، ورفيق توفيق.

- رجعنا لقصة توفيق. اسمعي، اطلبي مني كل شيء ما عدا اللي بتعلق بالكيلاني. إلا إذا بدك إياني ألحق بجماعتـه.

٢٣

جن جنون مرزوق، واحتجت ميسر باستياء وامتعاض . تضامنت معهما تمام، فصرخ بها فرحان صرخة أجفلتـها وزلزلت كيانـها: ودي آخذها، يعني ودي آخذها. لزوم تشوف الدنيا قبل ما الدنيا تاخذها. ودكم تيجوا واياها ، وا ورحب. غير هيك ما عندي حكي.

احتج مرزوق في البداية،وصرخ بأمه ليلتـها. لم يعد يحتمل جنون أبيه . لن يوافقه ولو كانت النـهاية بينـهما :ودي أعرف إن كانت الابنية بنيتي وإلا بنيتـه. دين الخلفة ويومها. ما يكفي إنـه يطوطح بيها مثل الصبيان، وده ياخذها بعد لبغداد . أمس كان يبكي لأنـها جات بنت . صار ها الحين ما قادر على فراقها.

لم يكن أمامه إلا إرسالـها مع أمها إلى الناصرة فثارت ثائرة فرحان. انقض عليه وحملـه من ثيابه قابضاً على ثؤدبيه، فتلوح مرزوق بردائه الأبيض مثل شوال طحين فارغ. قال وهو يكز على أسنانـه: ها الحين يعاودوا ،

هالحين ، وا أدفنك بالحياة يا نذل... ورماه أمامه فترنح مرزوق ووقع على ركبتيه وهو يرتجف: ها الحين . قم . ودك تطلع عن طوعي يا بهيم.؟!.

- زين. زين.

- ويش الزين.؟.

- أودي تلغراف من البوسطة.

- ما بيه بوسطه... صرخ وهو يتقدم خطوة مهدداً بسبابتـه، فتراجع مرزوق خطوة: تروح ويا مسلم، ، وترجع واياهم بالحال .

- وإن ما قبلت ميسر.

تفرس به بشراسة، فاتحاً أجفانـه على اتساعها، بينما تنطق تعابيره بغضب مرعب: قصدي لزوم ميسر تروح واياها.

- تروح لجهنم، ما يمهني. المهم البنيه تيجي واياي... أضاف مهدداً : إن تأخرت أكثر من مشوار الطريق ، حسابك عسير.

بدا مرزوق أكثر ضعفاً في بيت أنسبائه. فانقبضت نفس ميسر، وهو يرجوها مثل طفل صغير تجنباً لعقابٍ كبير : ياخذها ياخذها. أنا زهقت. الحل التحق بالجيش. بركي على ا يرسلوني للندن ونخاص من شوفتـه.

مانعت ميسر في البداية. لكن أبويها دفعاها للاستجابة. فقد باغتتـهما ذكرى الجاهة طيلة المحاورة بينـها وبين مرزوق. ولم تكن ميسر تقل عنـهما رهبة. والربـما كانت تحسب الحساب لحميها اكثر منـهما.

في أعماقها، كانت مفتونة به وتتمنى لو تنجب ولداً على شاكلتـه. حتى عنف مداعباتـه لنـهايه، يبهجها وإن كان يخيفها. والأهم أن نـهايه كانت تطير فرحاً بلقائه، وتتكركر من الأعماق لمداعبتـه حتى لو قذفها أمتاراً فوقه. غدت لعبتـه وغدا عالمها. ترى هل يغار مرزوق من ابنتـه التي تحظى من أبيه بدلال لم تخبر طفولتـه منـه شيئاً: بدوه ياخدها ياخدها بس ياخدني معها.

حملت السيارة كفايتـها من النفط. وكفاية من الثياب لميسر ونـهايه. أما مسلم الذي أعد صرة احتياجات، فإنـه

لم يجرؤ على حملـها طالما أن فرحان يسافر بـما عليه من ثياب وكأنـه ذاهب إلى سيل عمان.

جلس مع نـهايه في المقعد الخلفي، يداعبها ويدللـها ويطعمها ويسقيها،وكلما سرقها النعاس، تنام هانئة بين يديه، وهو يتأملـها بشغف وحنان. حتى وهو يوجه مسلم أو يتحدث مع ميسر التي أصر عليها بالجلوس في المقعد الأمامي.

انطلقت بهم السيارة من القبة، نحو السابعة مساء ،كي يتجنبوا لـهيب تموز، ويصلوا بغداد مع الصباح. فالمسافة إلى بغداد تستغرق نحو خمس عشرة ساعة كما قال لـه فريد.

وصلوها نحو العاشرة، ولم يكن صعباً الاستدلال على دار الحكومة . لكن الصعوبة كانت في مقابلة أنور. رفض الحرس إدخال فرحان، كما رفضوا نقل رسالة شفهية منـه. لم يكن أمامه حرصاً على نـهايه من لظى الشمس إلا إنزالـها وأمها في فندق بغداد الفاخر.

عاد به مسلم إلى دار الحكومة، فكاد يصاب بالجفاف لكثرة تعرقه، مع أن فرحان سمح لـه بالتظلل تحت شجرة قريبة، وظل فرحان داخل السيارة، متعرقاً مخنوق الأنفاس، بالكاد يستنشق من رطوبة الجو الـهواء.

ما أن لمح أنور في سيارتـه، يقودها السائق غرباً، حتى صرخ بـمسلم للحاق بها. فكاد يصطدم بأكثر من مركبة، بينما فرحان يحثه والشمس تحرقه، إلى أن تجاوزها ليعترضها بسرعة ويقفز فرحان منـها، بعدما تـهيأ أنور وسائقه بـمسدسيهما.

فغر فاه أنور، وهو يهدئ من السائق.قد يخفى عليه كل الناس إلا فرحان الصليبـي، بثيابه العربية التي يستقيم فيها جذعه كالمارد، وقسماتـه التي تنطق بالثقة والعزة والرهبة : مين . فرحان.؟.

- منـهو لعاد اللي يقدر يوقفك بنص السوق.

تعانقا بحرارة، فاقت حرارة الصاج الذي يكتوي فيه مسلم مرتاحاً من جحيم فرحان،: ما أذنوا لي. من هيك وديت الربع للأوتيل.

لم يكن فرحان بحاجة إلى إصرار أنور على المبيت عنده . لولا القيظ لأبقى الصغيرة وأمها معه في تربصه أمام مبنى الحكومة. أما ميسر، وقد أصبحت في لجة المعمعة، فلم يكن أمامها إلا الاستجابة لكل ما يقولـه حماها بنبرة آمرة حازمة. فانتقلوا جميعاً إلى بيت أنور.

أقاموا عنده ثلاثة أيام. رافق فرحان في أولاها أنور إلى مبنى الرئاسة وظل معه حتى انتـهاء الدوام .

في اليومين التاليين تجولت بهم السيارة في العديد من أنحاء بغداد. بدت لفرحان أكبر من الشام والقدس وعمان. ظل مسلم يرافقهما في السيارة المبردة التي وضعها أنور تحت تصرفهم، في تجوالـهم وتسوقهم.

في البيت تقوم سميحة على ضيافتـهم بفرح ونشوة وهي تشم فيهم هواء الجنوب الذي حرك في قلبها الشوق والحنين. مثلما حركت أحاديث أنور وفرحان عزتـها وهما يستذكران بطولات توفيق.

ثلاثة أيام لم يفصح فرحان عن سبب مجيئه ولا سألـه أنور العليم بأهل الصحراء وعاداتـهم. ثلاثة أيام

كانت كافية، لتزداد تساؤلات ميسر، أضعافاً عما فرختـه طيلة الطريق. هناك شيء غامض ارتسم في تعابـير الضيف والمضيف. هناك حذر وتحفظ وريبة. إنـهما يوازنان كلماتـهما، حتى وهما يستذكران الماضي بأفراحه وأتراحه، أو يتحدثان عن مجمل الأوضاع. ترى أهي قضية مالية أم سياسية أم عسكرية؟. لقد أخبرها فرحان خلال الطريق عن علاقتـه التاريخية بأنور. هذا لم يوضح شيئاً على الإطلاق. سمعت عن أحداث العراق مثل باقي الناس، كما سمعت من مرزوق عن مشاركة أبيه في الثورة على الأتراك وانضمامه لثوار فلسطين. لكن لماذا هي وابنتـها في هذا الخضم إذا كان حميها معنياً بشخصه فيه؟. حتى زوجة أنور، تنطق تعابيرها بالريبة أثناء الحوار: إيمتـه بدنا نرجع عمي.؟.

- زهقت .؟.. سأل أنور متصنعاً البشاشة. بينما أطرق فرحان.

سادت لحظة صمت بدت طويلة للغاية: أروح أغلي الشاي... قالت سميحة، وهمت بالنـهوض.

استوقفها فرحان: إقعدي يا بنيتي.. ما أن هدأت في مستقرها، حتى أضاف وهو ينظر إلى أنور: إنت تدري لويش أنا جاي يا أبو ماجد.

أطرق أنور وهو يهز رأسه، وقد انكمشت تعابيره، بينما راحت عيون ميسر وسميحة تتنقل بين الرجلين: اللي أقدر عليه أقدمه إلك على راسي. بس تعذرني على اللي ما أقدر عليه.

أحكم الحراس إغلاق الكوات في الممر المضاء بلمبات خافتة الإشعاع، وفتحوا باب الزنزانة في نـهايتـه.

كان سيف نائماً على جانبه فوق فراش رث، وقد قيد بالأغلال. فتح عينيه بإعياء ولم يتبين، مع الضوء الذي يتسلل ضعيفاً من الباب المفتوح وكوة ضيقة أعلى الجدار، سوى انتصاب الرجال الثلاثة قريباً منـه.

هم فرحان بالتقدم إليه، فحال الحارسان دونـه. بلع ريقه وقال: ما تستاهل يا أبو لقاء.

- مين .؟. أبو مرزوق؟.

هز فرحان رأسه دون أن يلاحظ سيف ذلك: كيف سمحوا لك تزورني .؟.

- وعلام ما يسمحوا .؟.

- ممنوع حدا يزورنا. هيك بقول الحراس.

- بتـهون. المهم، يعاملوك زين .؟.

- كيف انت شايف؟.. وحرك جسده ليتحرك صوت الأغلال ببطء وثقل: أنا أحسن من غيري.. سادت لحظة صمت قبل أن يأخذ نفساً عميقاً متعباً: قضيت ثلاث شهور في المستشفى. وهلأ بياخدوني كل أسبوع للدكتور. أصيلين. بيعطوني دوا، وبغيروا لي على الجرح. مهتمين بصحتي كثير. المهم إني قادر أعد الأسابيع.

لم يعلق فرحان. بل ظل يحملق به واجماً عاجزاً عن الكلام: إي. حاربت الأتراك والفرنسيين واليهود والانجليز، منشان آخرتـها انسجن عند العرب. بدهم يحاكموني يا أبو مرزوق لإني مجرم.

- يخسى إلي يقول عنك مجرم.

- الحكي ما يكبر ولا يصغر. المهم، ابني لقاء أمانة برقبتك يا شيخ.

قال أنور، بأن فرحان هو الوحيد الذي سمح لـه بزيارة السجين، والوحيد الذي وافق ولي العهد على المثول بين يديه من أجل السجين. هذا أقصى ما يستطيع أن يقدمه أنور بهذا الشأن.

سبق وصول السيارة، تصريح بالدخول، فعبرت بركابـها بوابة قصر الزهور. أوقفها مسلم تحت شجرة مظلة، وطلب فرحان من ميسر البقاء فيها لحين عودتـه. مع أنـها كانت تعتقد بأنـها ستقابل معه الأمير. تنازعتـها الريبة والتساؤلات بينما يتجه فرحان إلى باب القصر حاملاً نـهايه.

حملق به أنور مستغرباً. أشار إلى نـهايه وهو يسأل عن أمها، فقال فرحان بأنـها تنتظر في السيارة: ليش.. والتفت إلى أحد العاملين: أكو ست في السيارة.. فاستوقفه فرحان بنبرة حادة: خذني للأمير..؟..

تفحصه الأمير من رأسه إلى قدميه وهو يتقدم حاملاً حفيدتـه التي تتلمس وجهه وتعبث بحطتـه. صافحه ببشاشة ودعاه للجلوس على كرسي أمام المكتب، فجلس وهو يهندم حطتـه : ويش بيك يا بنت. اعقلي.

قال أنور: فرحان الصليبي، أبو مرزوق.

هز الأمير رأسه وهو يتأمل المارد المغوار، كما قال عنـه أنور، يأتي لمقابلتـه حاملاً طفلة مشاكسة.

البشاشة التي قابلـه بها في البداية اختفت سريعاً، ليحل محلـها ضيق واستياء، بسبب تململ الصغيرة ومحاولتـها الإفلات. حتى أنور أبدي امتعاضاً. رتب لـه هذا اللقاء، ليأتيه حاملاً حفيدتـه التي حكمت على الجلسة بالفشل من بدايتـها: أنا ربي منعم ومتكرم علي يا الأمير. عندي مال وأطيان تزيد ما تنقص. ومشاركتي بالثورة يدري بيها أنور باشا. كلـه يالأمير ما يساوي ضفر هالبنيه اللي انتـهت الصليبية بيها. هاظي أغلى ما لي. تقدر تقول كلّ شي لي. انطيها ليك خدامة تمسح الأرض بين رجليك..

كأن قذيفة انفجرت في وجه أنور: وتطاق بدالـها خويي ورفيق دربي أبو لقاء... وأنزل نـهايه من حضنـه، فأسرعت إلى منضدة ركنية فوقها مزهرية أثرية من الخزف الصيني.

تبادل الأمير وأنور النظرات. الآن فهم أنور لماذا جاء بالصغيرة. بل لماذا تكبد كل هذا العناء لجلبها إلى بغداد: إش ها الحكي يا أبو مرزوق.؟. أيام الترك ولّت من زمان.

- هاظا اللي عندي.

- انتـهت المقابلة.. قال الأمير ونـهض، فنـهض فرحان، وأسقطت نـهايه التحفة الأثرية.

انتظروا نحو النصف ساعة، إلى أن صرخت ميسر بعصبية كي يبتعدوا عن هذا الأتون، بينما فرحان يتوقع في كل لحظة أن يؤتى لـه بسيف، أو يأتيه رسول من الأمير. مثلما حصل يوم افتدى أبوه زعل " يقول سعادتـه هاك الجبيلي، والحكومة ما تحتاج ضمانة حتى الأمن يسود".

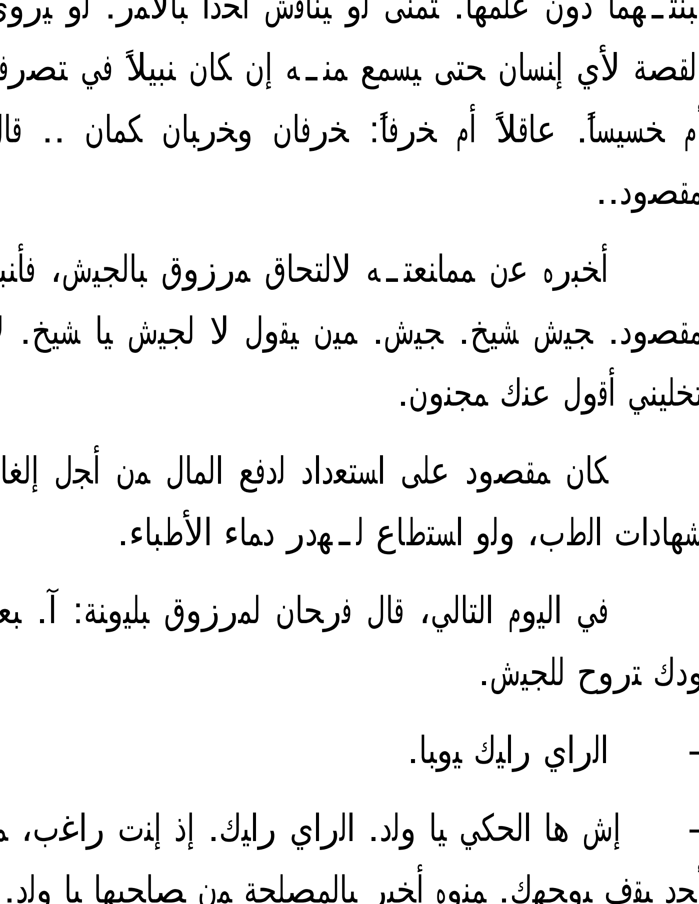
حتى في هذا أخفق أن يكون أباه. إنـه لا يسير على هداه، وإنما يقلده في كل ما فعل، ومع هذا لا يحقق أي

نجاح.ضرب على حافة النافذة الجانبية، وقد استقر في المقعد الأمامي، تاركاً نـهايه لأمها في المقعد الخلفي، بينما السيارة تنـهب الأرض إلى عمان.

لن يقلد أباه بعد اليوم. لن يقلده. يجعلـها القبة ما صارت مثل الشام. ويجعلـها الصليبية ما صارت عشيرة ولا قبيلة ولا ليها جذور وفروع. "أيام الترك ولت من زمان".

وا أيام الترك أحسن من ها الأيام. ول، ول. هاظا اللي قدرت عليه يا أنور.؟. إذن لزيارة السجن، وواسطة لمقابلة الأمير.!! جبت لي ترك سلاح، نقلتـه بروحي لحوران، وها الحين أطلب، لويش أطلب، افتدي بحفيدتي رفيقي ورفيقك، وانطرد من قدامك مثل الشريد وما تسوي شي. آه آه. وتقول ولت أيام الترك يا نذل. وا الترك ما سووا بالعرب مثل ما يسوي العرب بالعرب.

في الصباح، استيقظ ساخطاً ناقماً، مستعداً لعراك الـهواء فتجنبتـه تمام ومسلم وفلاحو القبة وسيل عمان. في المساء عرج على سكن مرزوق ولم يكن لـه رغبة بـمداعبة نـهايه. كان يشعر بالذنب تجاه أمها وأبيها، فتحدث بليونة معهما وكأنـه يعتذر عن تصرفه بـمصير



ابنتـهما دون علمها. تمنى لو يناقش أحداً بالأمر. لو يروي القصة لأي إنسان حتى يسمع منـه إن كان نبيلاً في تصرفه أم خسيساً. عاقلاً أم خرفاً: خرفان وخربان كمان .. قال مقصود..

أخبره عن ممانعتـه لالتحاق مرزوق بالجيش، فأنبه مقصود. جيش شيخ. جيش. مين يقول لا لجيش يا شيخ. لا تخليني أقول عنك مجنون.

كان مقصود على استعداد لدفع المال من أجل إلغاء شهادات الطب، ولو استطاع لـهدر دماء الأطباء.

في اليوم التالي، قال فرحان لمرزوق بليونة: آ. بعد ودك تروح للجيش.

- الراي رايك يوبا.

- إش ها الحكي يا ولد. الراي رايك. إذ إنت راغب، ما أحد يقف بوجهك. منوه أخبر بالمصلحة من صاحبها يا ولد.

٢٤

انقضت أيام صرعى في مسيرة الأيام، وتبدلت الحاجات مع تبدل العهود، وتحولت صروح إلى ركام وامتد الإعمار إلى الخلاء. انمحت حواضر ونشأت دول، وانسحقت مجتمعات أقحمت قسراً في الخلافات، وغنمت أخرى من الحروب وخسرت أخرى من غير قتال. تكرست مظالم وكوفئت خطايا واختصرت أقدار وتغيرت قيم واستحدثت عادات.

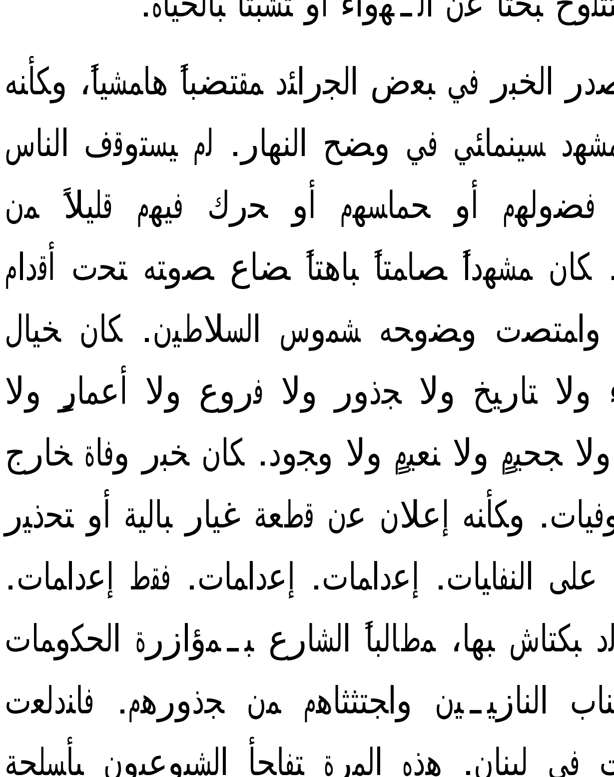
هذه الحياة العصية على الفهم والإدراك، واصلت مسيرتـها المثقلة بجبروت الرغبات، فتناقلت الجرائد في أول أيار من عام ١٩٤٢ حكم القضاء العراقي بإنزال حكم الإعدام غيابياً بالكيلاني والصباغ ووجاهياً بعدد من أنصارهم قيد الاعتقال، بتـهمة العمل على قلب نظام الحكم لحساب الصهيونية العالمية، فسافر داوود من فوره إلى بغداد.

بعض الجرائد اقتصر الخبر فيها على عدد هؤلاء دون أسمائهم. حتى القراء لم يلفت انتباههم سوى اسم الكيلاني والصباغ. وكانت ردود الفعل الشعبية غير مبالية .

حتى من قبل الأحزاب. أما أبو جبران فقد كتب مقالة مؤثرة قارن فيها بين إعدامات الوطنيين التي أشعلت الثورة العربية أثناء الحرب الكونية الأولى، وإعدامات القوميين التي لم تلق أي رد فعلٍ في خضم الحرب الكونية الثانية. قال بأن هذا الجيل لا يمت بصلة لجيل الثورة آنذاك. وإذا كان هو نفسه فإنه جيل عاق متوحش. شأن الثورة في كل زمان ومكان. تأكل الأبناء بذريعة البناء والبقاء. واختتم مقالته بالتأسي على سيف الذي يمثل حقيقة الأمة: هل كان إعدام أبيك يقتضي الثورة على الأتراك يا سيف الحجاج.؟.

وصل داوود مع طلائع المتفرجين الذي تـهافتوا عل الموقع أمام مبنى وزارة الدفاع. بينما الحشود تتضاعف وتتدافع للاقتراب من المنصة، كي لا تفوتـهم لقطة واحدة من المشهد. معظمهم كانوا فضوليين، يبحثون عن الإثارة ولو في أشلاء الآخرين. وبعضهم كان لـه أسبابه الخاصة مثل داوود.

ضاع صوتـه بين الحشود وهو يصرخ بسيف يساق بعزيمة واهنة إلى المنصة: وعدت ترجع لي. أجيت أشوف ليش تأخرت... وانفجر يقهقه بانفعال. لكن الوجوم استولى



على تعابيره، شأن باقي المتفرجين، عندما راحت الأجساد تنتفض وتتلوح بحثاً عن الـهواء أو تشبثاً بالحياة.

صدر الخبر في بعض الجرائد مقتضباً هامشياً، وكأنه انعكاس مشهد سينمائي في وضح النهار. لم يستوقف الناس ولا أثار فضولهم أو حماسهم أو حرك فيهم قليلاً من الاكتراث. كان مشهداً صامتاً باهتاً ضاع صوته تحت أقدام اللاهثين، وامتصت وضوحه شموس السلاطين. كان خيال بلا أسماء ولا تاريخ ولا جذور ولا فروع ولا أعمارٍ ولا فصـولٍ ولا جحيمٍ ولا نعيمٍ ولا وجود. كان خبر وفاة خارج صفحة الوفيات. وكأنه إعلان عن قطعة غيار بالية أو تحذير المعتاشين على النفايات. إعدامات. إعدامات. فقط إعدامات. رحب خالد بكتاش بها، مطالباً الشارع بـمؤازرة الحكومات للفتك بأذناب النازيـين واجتثاثهم من جذورهم. فاندلعت الاشتباكات في لبنان. هذه المرة تفاجأ الشيوعيون بأسلحة القوميين الذين رجحت الكفة لـهم، فهب حزب الكتائب اليميني لنجدة الشيوعيين، فسقط قتلى وجرحى عديدون، واعتقل رؤوف كنعان ليقضي في السجن ستة أشهر خرج

بعدها أقوى شكيمة وأصلب عوداً وأشد قسوة وأكثر تطرفاً، وهو يتماهى تماماً مع جبران.

صار يسخر من الشيوعيين في حضورهم ويعرض بـهم في غيابـهم، ولاسيما بعد انشطار حزبهم، إلى واحد لبناني وآخر سوري. " ينادون بالأممية ويكرسون الإقليمية". ازداد سخرية منـهم عندما بدل زعيمهم خالد بكتاش كنيتـه إلى بكداش " حتى أسماؤهم يخجلون منـها".

أما فرحان فقد حرك فيه خبر الإعدام، الندم على مشاركتـه في الثورة على الأتراك. لكن الإحباط الذي لازمه أياماً لم ينتـه به إلى اليأس والاستسلام. فأحس بـمسؤوليتـه تجاه ابن سيف الحجاج.

حصر، بـمساعدة أبي جبران، ممتلكات سيف، وفرض نفسه سيداً على فلاحي البيارات وعمال المعاصر والمطاحن، وأصر على دائرة الأوقاف ايداع وثائق التسجيل، التي استولت عليها منذ مذبحة العائلة، إلى البنك الكنعاني حيث أموال سيف. قال لـه سليمان بأن الوثائق والأموال ستظل وديعة آمنة لحين بلوغ لقاء، وعرض أن يدفع لفرحان

مصروفاً شهرياً يغطي نفقات الصبي، فاستشاط فرحان غضباً.

أصر على أبي جبران مواصلة إصدار الجريدة إكراماً لروح سيف الحجاج، متعهداً بتغطية نفقاتـها. لكن قبل ذلك عليه أن يأتي بلقاء ومربيتـه إلى القبة. طلب منه ذلك بنبرة آمرة حازمة لا مجال فيها للنقاش أو السؤال أو التأجيل. فوصلت المربية ومعها لقاء مع أواخر العام، ليغدو رفيق نـهايه في القبة. يمرح معها ويلـهو ويتشاجر، بـمثل ما يثير فضولـها مبالغاتـه عن مصر العجائب والنيل الذي ينبع من الجنة ويصب في البئر العميق المظلم تحت الأهرامات. وأكثر ما كان يغيظها، دلال جدها لـه، ولاسيما عندما يقول بأنـه سيزوجها لـه حين تكبر: ترى أنا وأبوك قرابة يا لقاء... لكن نـهايه تنكر على جدها قولـه في مخاصماتـها مع لقاء. فهو مسلم وهي مسيحية.

أثار ذلك فضول لقاء لمعرفة المزيد عن المسيحية واليهودية والإسلام، وهو يتفوق بذكائه واجتـهاده على أقرانـه في المدرسة التي يحملـه مسلم بسيارتـه منـها وإليها.

في نـهاية الأسبوع تأتي نـهايه لتقضي عطلتـها بركوب الخيل واللعب بالرمال وتسلق الأشجار. وغالباً ما تتنازع مع لقاء حول حجم أملاك عائلتيهما. لا شيء يماثل القبة التي ستؤول بعد موت جدها لأبيها ومن بعده إليها. بينما يتباهى لقاء ببيارات عائلتـه والمطاحن والمعاصر كما أخبره العم فرحان، وكما تؤكده الدادا المصرية التي اعتادت عليها تمام وصارت أنيسها وجليسها. تستمتع بأحاديثها ونطقها السريع اللذيذ، بـمثل ما يبهجها حكاياتـها التي تزيد أضعافاً عن حكايا جميع الفلاحات. حكت الكثير إلى لقاء قبل أن تتحول دهشتـه من الاستماع، إلى فضول لاكتشاف الكون والعلاقة بين طبيعة الأشياء. ساعده ذكاؤه ومثابرتـه على تحصيل المرتبة الأولى في الصف، وتفوق على أوائل المدرسة بالـهندسة والحساب.

في جبل القلعة، وجد شمس الدين نفسه فجأة أمام فتاة غضة شهية، وهي التي أنقطها وليدة، وحملـها طفلة وداعبها صبية. مرة واحدة تنضج نجاح ابنة القهوجي أبي عبده. مرة واحدة تصبح غيداء ناهدة بضة رقراقة. تتعلق بها الأنظار في ذهابها إلى مشغل الخياطة وعودتـها منـه، وتثير

بغنجها ودلعها الدفء في قلب شمس الدين بـ مثل ما تثير نقمة فخري إذا ما جاءت مع عائلتـ ها لزيارتـ هم. هذه المرة لم يكن عناده سبباً في احجامه عن الزواج من نجاح، وهي التي لا يستطيع الوصول إليها إلا بالزواج، وإنما كان بسبب ابنتـ ه فوزية التي استغنت عن الخادمة بعد تمكنـ ها من شؤون البيت وفرض سلطتـ ها على أخيها الفتي وأبيها الكهل. فرفضت بإصرار زواجه طالما أنـ ها لا تقصر في خدمتـ ه. لن تحل امرأة أخرى محل أمها.

كانت حكمت تحس باختلاجات أبيها وحاجتـ ه، بعدما صار يلوذ بالصمت ويسيطر عليه الوجوم والشرود كلما أتى أحدهم على ذكر الزواج. أفصح لـ ها عن رغبتـ ه المرهونة بزواج فوزية.

تمت خطبتـ ها لأحمد شقيق صلاح. لكن المصاهرة الجديدة لم تعزز علاقة العائلتين بانسيابها الاجتماعي المألوف. فالقدر لا يألف العادات ولا تخضعه المعادلات.

استعد صلاح للذهاب إلى بيروت، بـ مهمة صحفية كما تذرع لحكمت. اقترحت مرافقتـ ه وشقيقتـ ها للتسوق من دمشق بـ مستلزمات الزفاف القريب. وكان شمس الدين

أكثرهم استعجالاً للانتـهاء من مراسم زواج فوزية، كي يبدأ مراسيمه مع نجاح، التي بدورها تنتظر ملـهوفة. مثلما يتلـهف أبوها لتجاوز فقره والانتعاش بالثراء.

كانت حكمت وفوزية على يقين بأن العروس جاهزة وإن ظل أباهما يخفي هويتـها. خطر ببالـهما الكثيرات إلا نجاح. فخري وحده عرف بالأمر من خلال فتية الحي الذين يتناقلون ما يصل إلى عوائلـهم من أخبار وما يعلق بها من إضافات، سببت لـه الحرج بـمثل ما تمخضت عن خناقات.

لكن الرياح عكست الشراع، واصطدمت السيارة التي تحمل صلاح والشقيقتين مع شاحنة كبيرة على أبواب عمان، بينما الجو عاصف وسيول الأمطار تغرق الطرقات.

توفـي صلاح وحكمت وبترت ساق فوزية، مـما طرد إلى الأبد فكرة زواجها أو زواج أبيها.

لم يقتصر الحزن على هذا المصاب، بل تحول إلى لوعة وعذاب بسبب انكفاء شمس الدين رافضاً الأكل والشرب وحتى الذهاب إلى الحمام، ملقياً على نفسه مسؤولية ما جرى بسبب نزوتـه المراهقة. ظل سنيناً يرفض الزواج

وفاء لزوجتـه، فكيف وافق أخيراً على الاقتران بفتاة في عمر ابنـه. عندما ولدت كان رجلاً، وعندما نـهدت صار جداً. كيف انساق إلى رغبتـه المجنونة ليشتـهي صبية، ظلت إلى ما قبل سنوات قليلة، تشفع حديثها إليه بكلمة : عمو...

لم يطل صيامه وانكفاؤه، وهو يشاهد في وحدتـه ساق فوزية المبتورة، تلاحقه في يقظته ومنامه إلى أن امتص الهزال بنيانه ولم يعد قلبه قادراً على تحريك أعضائه. ففارق الحياة في كرسيه الساكن مثل سكونه. لتحل بالفلسطينيين نكبة الأجيال، بينما تتوافد جموع اللاجئين إلى دول الجوار، ووصل أكبرها إلى عمان، فاستقبلتـهم البلدة بتلالـها المكشوفة ووديانـها الضيقة وأطلالـها المهترئة.

حط القادمون رحالـهم على جوانب السيل والسفوح القريبة منـه. ينصبون خيامهم ويرفعون عرائشهم ويبنون أكواخهم، ويختنقون ذكرى الـهجرة في إرادة الحياة. فتنفست عمان أنفاس الخلود، وأضافت لترابـها وجوداً إلى وجود، عندما أدرك فارس ونايف جبل القلعة في يوم من أيام أيلول، ليودعهم جدهم لأبيهم أمانة في عنق فوزية ويعود إلى

مدينتـه حيفا. فقد قدر لعائلة شمس الدين أن تنمو دونما زوجة مثل نجاح، وقدر لفوزية أن تصبح أماً دونما زواج، وقدر لفخري أن يتحول من ابن وحيد إلى أخ أكبر في حكاية من حكايات أبناء القلعة.

٢٥

الحرب التي خلّفت وراءها القتلى والجرحى والدمار والخراب، خلقت أيضاً الفرص ولم ينقض على نـهايتـها أشهر قليلة. فالمستشفى العسكري الذي أقيمت مستوصفاتـه، كالثكنات، أوكل إلى صقر مهمة توسيعه من إضافات اشتملت على سكن للأطباء ومنامات للجنود وعيادات وغرف وعمليات ومختبرات وطرقات.

كما حصل فريد على مناقصة لتزويد المستشفى بسيارات إسعاف، أغرت المشافي الأخرى على التزود بـمثيلاتـها.

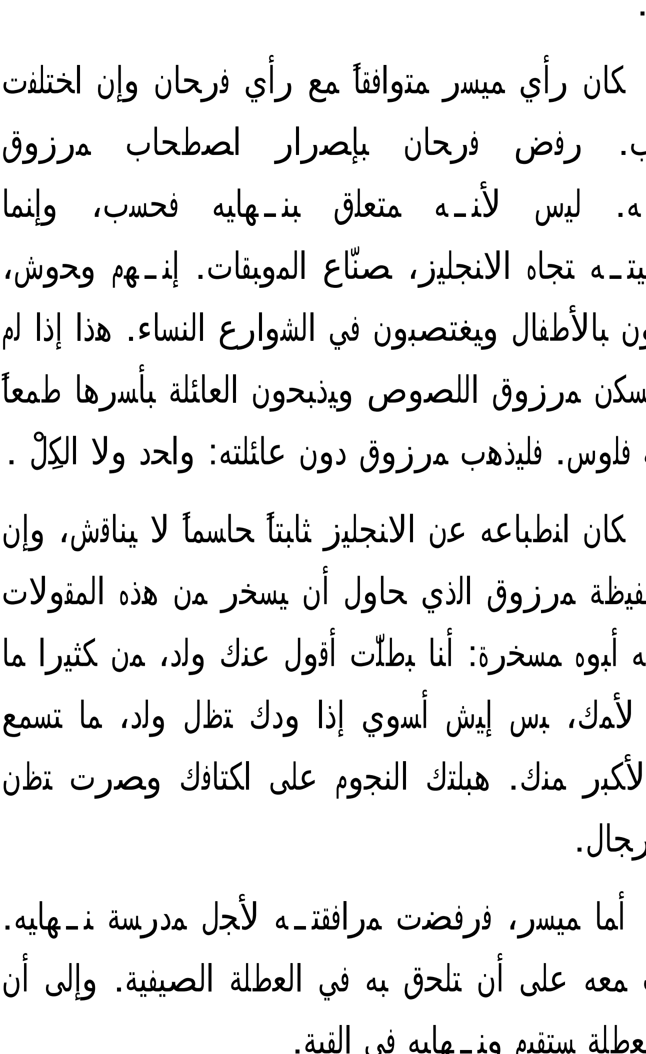
كان الانجليز قد اعتادوا العمل مع صقر ووثقوا به، فأوكل إليه العديد من المشاريع بالتلزيم دونما مناقصات واستدراج أسعار، ليمتد نشاطه خراج عمان. فتولى مشروع توسيع رصيف ميناءالعقبة، وتوسيع مطار ماركا الذي ألحق به وحدات سكنية لضباط سلاح الجو الملكي البريطاني، إضافة إلى توسيع منامات الجنود. كما أوكلت إليه الأعمال

الإنشائية في قاعدة الأزرق الجوية. وتولى تعبيد الطرق البرية الخارجية التي قررتـها النقطة الرابعة لربط البلاد بشبكة مواصلات تسهل حركة النقل العسكرية بين بغداد وعمان والقدس والرياض.

انتعشت الحالة الاقتصادية لأهالي عمان، مما جلب آلاف الوافدين الجدد، الذين ضاق بهم الحال أو هربوا من اضطراب الأحوال في دول الجوار. مما زاد الإقبال على المساكن والمحلات والدوائر، ليؤجر فريد عماراتـه وهي قيد الإنشاء.

وكما توقع مرزوق، فإن التحاقه بالجيش منحه امتيازات عديدة ، بحيث صارت تؤدي لـه التحية على الطالع والنازل، ويحصل على احتياجاتـه بأسعار رمزية، ويلبي العساكر أوامره النافذة. لم يكن كل هذا بذي شأن أمام طموحه الشخصي للتقدم على الأطباء.

وجد في الجيش بيئة رحبة للتدرب والتمرس واكتساب الخبرة، مما جعلـه يثبت جدارتـه، وينال بـمثابرتـه ومتابعتـه وذهنـه المتوقد، إعجاب القائد العسكري والمعتمد البريطاني، فكاد يطير فرحاً عندما



أبلغتـه القيادة عن إيفاده إلى لندن للتخصص في جراحة العظام.

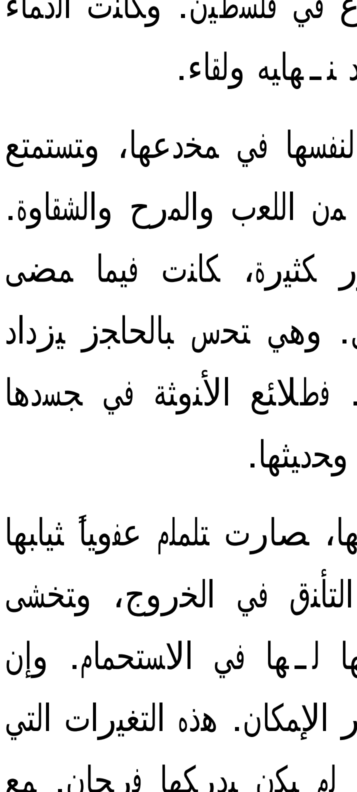
كان رأي ميسر متوافقاً مع رأي فرحان وإن اختلفت الأسباب. رفض فرحان بإصرار اصطحاب مرزوق لعائلتـه. ليس لأنـه متعلق بنـهايه فحسب، وإنما لحساسيتـه تجاه الانجليز، صنّاع الموبقات. إنـهم وحوش، يتاجرون بالأطفال ويغتصبون في الشوارع النساء. هذا إذا لم يقتحم سكن مرزوق اللصوص ويذبحون العائلة بأسرها طمعاً ببضعة فلوس. فليذهب مرزوق دون عائلته: واحد ولا الكِلْ .

كان انطباعه عن الانجليز ثابتاً حاسماً لا يناقش، وإن أثار حفيظة مرزوق الذي حاول أن يسخر من هذه المقولات فجعلـه أبوه مسخرة: أنا بطلّت أقول عنك ولد، من كثيرا ما شكيت لأمك، بس إيش أسوي إذا ودك تظل ولد، ما تسمع كلمة الأكبر منك. هبلتك النجوم على اكتافك وصرت تظن حالك رجال.

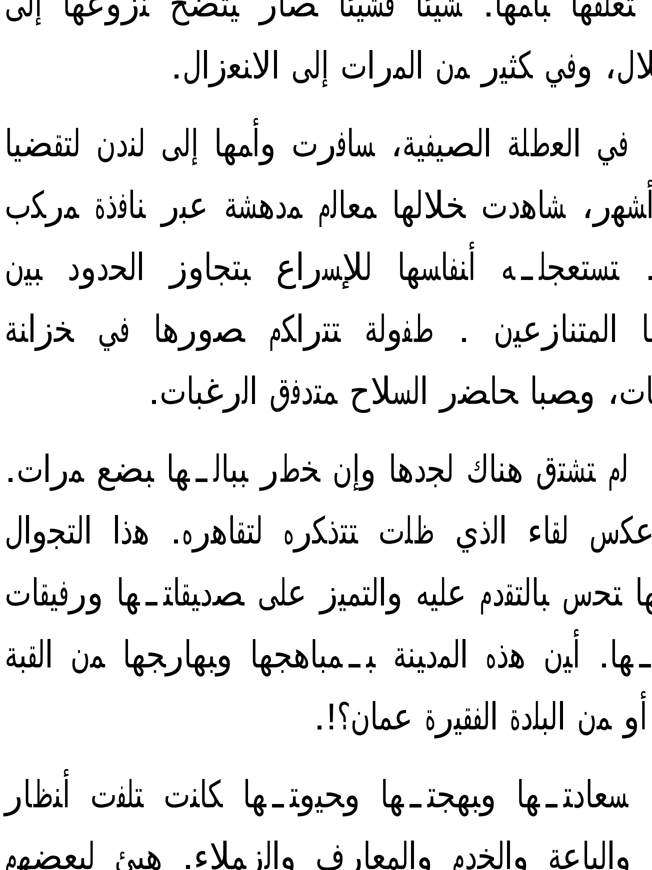
أما ميسر، فرفضت مرافقتـه لأجل مدرسة نـهايه. واتفقت معه على أن تلحق به في العطلة الصيفية. وإلى أن تأتي العطلة ستقيم ونـهايه في القبة.

لكن بدلاً من أن تتوطد العلاقة بين نـهايه ولقاء، وهو ما يتطلع إليه فرحان، فقد غدا الصدام بينـهما يومياً، مما جعل ميسر تغادر مع ابنتـها في العطل الأسبوعية إلى الناصرة، رغم سخونة الأوضاع في فلسطين. وكانت الدماء تزداد سخونة باستمرار في جسد نـهايه ولقاء.

صارت نـهايه تأنس لنفسها في مخدعها، وتستمتع بالحديث مع صديقاتـها، أكثر من اللعب والمرح والشقاوة. كما تبدي الاستحياء من أمور كثيرة، كانت فيما مضى تتقصى عنـها بشغف وفضول. وهي تحس بالحاجز يزداد ارتفاعاً بينـها وبين الصبيان. فطلائع الأنوثة في جسدها غدت معلماً واضحاً في سلوكها وحديثها.



دون إدراك عقلي منـها، صارت تلملم عفوياً ثيابها في الجلوس، وتحرص على التأنق في الخروج، وتخشى الانفراد بلقاء، أو مساعدة أمها لـها في الاستحمام. وإن فعلت، تحاول ستر أعضائها قدر الإمكان. هذه التغيرات التي كانت تلاحظها ميسر وتفهمها، لم يكن يدركها فرحان. مع أنـه لاحظ صدودها عن العنف وتراجع لـهفتـها نحوه مع

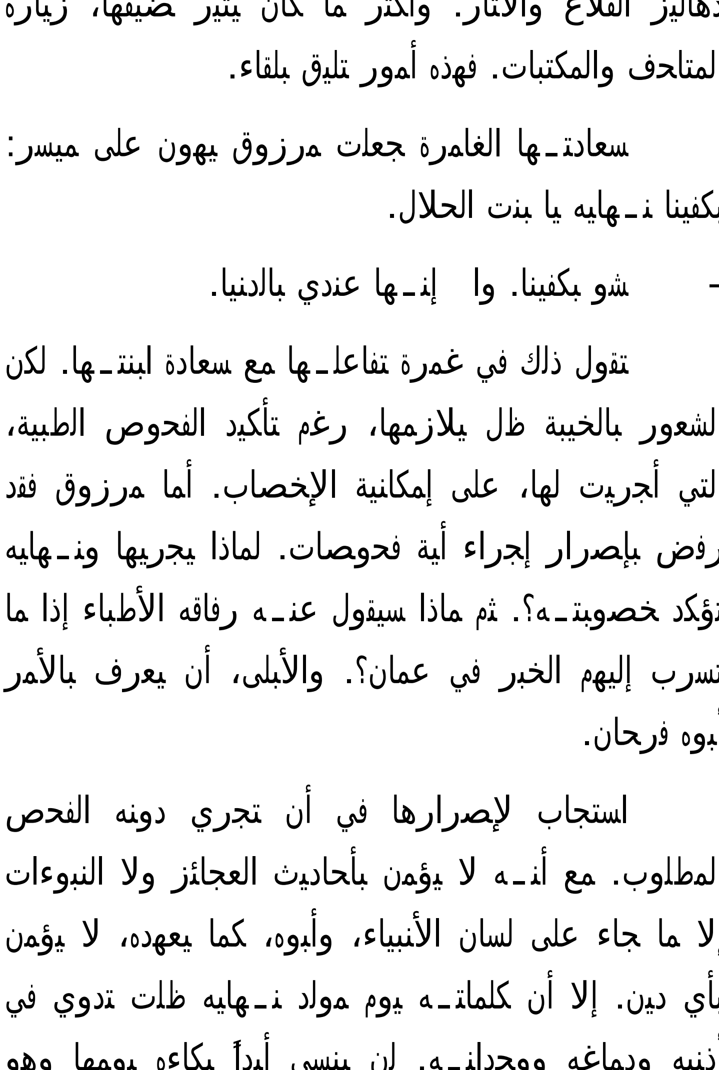


ازدياد تعلقها بأمها. شيئاً فشيئاً صار يتضح نزوعها إلى الاستقلال، وفي كثير من المرات إلى الانعزال.

في العطلة الصيفية، سافرت وأمها إلى لندن لتقضيا ثلاثة أشهر، شاهدت خلالها معالم مدهشة عبر نافذة مركب بطيء. تستعجلـه أنفاسها للإسراع بتجاوز الحدود بين عالميها المتنازعين . طفولة تتراكم صورها في خزانة الذكريات، وصبا حاضر السلاح متدفق الرغبات.

لم تشتق هناك لجدها وإن خطر ببالـها بضع مرات. على عكس لقاء الذي ظلت تتذكره لتقاهره. هذا التجوال جعلـها تحس بالتقدم عليه والتميز على صديقاتـها ورفيقات دراستـها. أين هذه المدينة بـمباهجها وبهارجها من القبة النائية أو من البلدة الفقيرة عمان؟!.

سعادتـها وبهجتـها وحيوتـها كانت تلفت أنظار السياح والباعة والخدم والمعارف والزملاء. هيئ لبعضهم أنـها تخرج للمرة الأولى من باب الدار، سواء في سباقات الخيل أو ركوب الدراجات أو التقافز في المركبات والقوارب، أو ارتقاء أدراج الأبراج، والتجرؤ على اقتحام



دهاليز القلاع والآثار. وأكثر ما كان يثير ضيقها، زيارة المتاحف والمكتبات. فهذه أمور تليق بلقاء.

سعادتـها الغامرة جعلت مرزوق يهون على ميسر: بكفينا نـهايه يا بنت الحلال.

- شو بكفينا. وا إنـها عندي بالدنيا.

تقول ذلك في غمرة تفاعلـها مع سعادة ابنتـها. لكن الشعور بالخيبة ظل يلازمها، رغم تأكيد الفحوص الطبية، التي أجريت لها، على إمكانية الإخصاب. أما مرزوق فقد رفض بإصرار إجراء أية فحوصات. لماذا يجريها ونـهايه تؤكد خصوبتـه؟. ثم ماذا سيقول عنـه رفاقه الأطباء إذا ما تسرب إليهم الخبر في عمان؟. والأبلى، أن يعرف بالأمر أبوه فرحان.

استجاب لإصرارها في أن تجري دونه الفحص المطلوب. مع أنـه لا يؤمن بأحاديث العجائز ولا النبوءات إلا ما جاء على لسان الأنبياء، وأبوه، كما يعهده، لا يؤمن بأي دين. إلا أن كلماتـه يوم مولد نـهايه ظلت تدوي في أذنيه ودماغه ووجدانـه. لن ينسى أبداً بكاءه يومها وهو

الذي يبكي بقسوتـه الأحجار " إن جات بنت، مات اسمنا وانتـهى ذكرنا".

ظلت ميسر ترتاب في تأكيداتـه. لماذا وافق على أن تجري الفحص ويحجم هو عنـه: بس حتى تتأكد يا مرزوق، واللي من الرب كلـه مليح.

- الرب أنطانا نـهايه. ودك تأكيد أكثر من هيك. بس إنت مثل باقي الحريم. لو الرب قال ليك باذنك ما بيك شي ولا بي شي ما تصدقين. الفحص سويتيه. بس أنا ما أفحص ولا أسوي شي، واللي من الرب مليح. وما ودي اسمع السالفة ثاني، لا توجعي راسي وعندي دراسة ما قادر أحك منـها راسي.

ظلت تبرر لنفسها خبو الرغبة عنده باهتمامه بالدارسة أثناء وجوده في الجامعة وانشغالـه المهني بعدها، ولاسيما حالة الاستنفار الدائمة بسبب التحاقه بالجيش. وها هو الآن يثابر، شأنـه دائماً، لإنـهاء تخصصه. لكنـها بعد عودتـها من لندن نسيت كل هذه الأمور، وصارت تحاول إحصاء المرات التي جاءها فيها.

لم يأتها في لندن سوى مرة واحدة باهتة، كان جهادهما فيها مثل جهاد من يلعب الورق لقضاء الوقت، دونما إثارة أو تحفيز أو حرارة في الغلبة أو انقطاع الدور.

على عكس النتائج جميعها التي حققها مرزوق في دراستـه ومهنتـه وجديتـه، حقق أدناها في تخصص الجراحة. حتى أن أساتذتـه انتابتـهم الشكوك في مقدرة يديه المرتجفتين في إجراء العمليات. مع هذا ساعدت نتائجه النظرية على موازنة العملية منـها، وتخرج جراحاً وفي قلبه جرح لا يندمل، بعدما أظهرت نتيجة الفحص المخبري الذي أجراه، بكتمان وحرج، هبوطاً في حجم منوياتـه. لجأ إلى المنشطات والمحفزات والـهرمونات إلا أن نسبة التنامي المنوي ظلت دون الحد الأدنى اللازم للإنجاب.

٢٦

اكتشف سميح أن معالجة أزمات السير في عمان أصعب منـها في حيفا. كان هناك يسيطر على طوابير السيارات التي لا تقل في الأوقات العادية عن المئات، وتصل مع انتـهاء الدوام إلى الآلاف. أما في عمان، فالمشكلة ليست بالسيارات التي تقل كثيراً عن عربات الدواب وإنما بعقلية الناس.

في حيفا، الناس معتادون على السيارات منذ عقود، ومعتادون أيضاً على أنظمة السير وإشارات المرور. أما في هذه البلدة الحديثة، فإن كل حديث فيها مستـهجن ومرفوض.

عندما كان يتجول مع قائده طباره في دراجتـه، كان يلاحظ ازدحام السير واختناق المرور، إلا أن ذلك لم يكن يعنيه وإن كان يثير غالباً سخطه وضيقه. كان شعور الخذلان الذي استولى عليه بسبب تجريده من رتبتـه ومعاقبتـه بالنقل وتحولـه من شرطي مرور إلى سائق دراجة، يطغى على شوقه للمهنة التي أحبها وذاع صيتـه بسببها.

منذ تحولـه إلى شرطي مرور انقطع عن بيت قائده الذي استعان ببديل عنـه. لكنـه ظل يأمل أن يرى ابنة طبارة يوماً تـهم بقطع الشارع، كي يوقف لأجلـها السير ولو تسبب باصطدام المركبات وجلب عليه نقمة الرؤساء، بـمن فيهم جلوب نفسه، الذي يتدخل بكل صغيرة وكبيرة، بـما في ذلك تنظيم السير " ممنوع يكون فيه زحمة. ممنوع يكون فيه أزمة. ممنوع يكون فيه تجمعات. هيك الباشا بدوه. يا ويل اللي بورطني معاه ".

كان عليه أن يكون حازماً مع السائقين الذين يوقفون مركباتـهم في أي مكان يناسبهم. ومع بائعي البسطات الذين يتوغلون بعرباتـهم بين المركبات. أما المشاة فكان التعامل معهم أمر وأبلى. القانون لا يغرمهم إذا تجمعوا وسط الطريق للشراء من البسطات المحمولة والعربات المجرورة، أو للتشاجر بالصياح غالباً وبالعراك أحياناً. وكان على سميح أن يتعامل مع كل ذلك بالمواجهة المباشرة، وليس بتلويح يديه لـهذا الاتجاه أو ذاك كما كان الوضع في حيفا.

كلما انشغل بتحرير مخالفـة لدقائق، تخرب الدنيا لساعات. فيتداخل السير وتتشابك مسارات المركبات العابرة

من الاتجاهين وتلك التي تظهر فجأة وكأنـها حطت من الجو في مداخل الأزقة أو قفزت من أبواب المحلات.

أما محاولات التجاوز فإنـها تخلط الحابل بالنابل، وتعقد انسياب المرور مثل تعقد الخيطان. فصدور أهل عمان لا تطيق التريث والانتظار.

استجاب لـه طباره وألحق به شرطياً مهمتـه اصطياد التجاوزات وتحرير المخالفات. لكن ذلك لم يحل المشكلة، إذ كان المتجاوزون يحتجون على المخالفة بالصراخ والمهاترات، وبعضهم لا يتوانى عن الاشتباك والعراك، مما يدفع سميح للاستنجاد بصفارتـه التي تدعو كل شرطي قريب، فيتفاقم الازدحام قبل أن يساق المتسبب مخفوراً إلى مركز البوليس.

إذا كان من علية القوم يخلى سبيلـه، لكن مجرد اقتياده إلى المخفر أمام الناس كان يكفي لتوبتـه والكف عن تكرار فعلتـه. أما إذا كان وضيع الحال والأصل والمال، يدفع إليه طباره رجالـه للاقتصاص من كل شتيمة أو كلمة احتجاج، وتوجه لـه تـهمة مقاومة البوليس والتعريض

بجلوب باشا. فيرفعونـه بالفلقة. وإذا تواقح في الأثناء، يصل التعذيب إلى قلع أضافر اليدين والقدمين.

هذه الإجراءات كانت من صلب تعليمات الباشا التي مررها أبو جميع للقائد طباره: اللي ما بلتزم، ألعنوا أبوه على أمه.

أعطت شدة العقاب مفعولـها خلال فترة وجيزة، فصار الناس يخافون زي البوليس، أيا كان المحشو فيه. وبـمجرد أن تنطلق صفارة الشرطي، حتى يهرب المذنب والبريء، جبان أم جرىء.

كان حمل الصفارة ممنوعاً على الجميع باستثناء الشرطة، الذين لا يستخدمونـها إلا عند الضرورة وتأزم الحال. أو إذا حوصروا بالخطر أو أعياهم العراك أو تعثروا بجناية تقشعر الأبدان. لكن ذلك لم يحل دون اقتناء البعض بوسائلـه الخاصة للصفارة النحاسية المتميزة بشكلـها وصفيرها.

استدعى صوت الصفارة يوماً الشرطة في شارع المصدار، ليفاجأوا بامرأة الحلواني، تشير إلى بيتـها بلـهفة

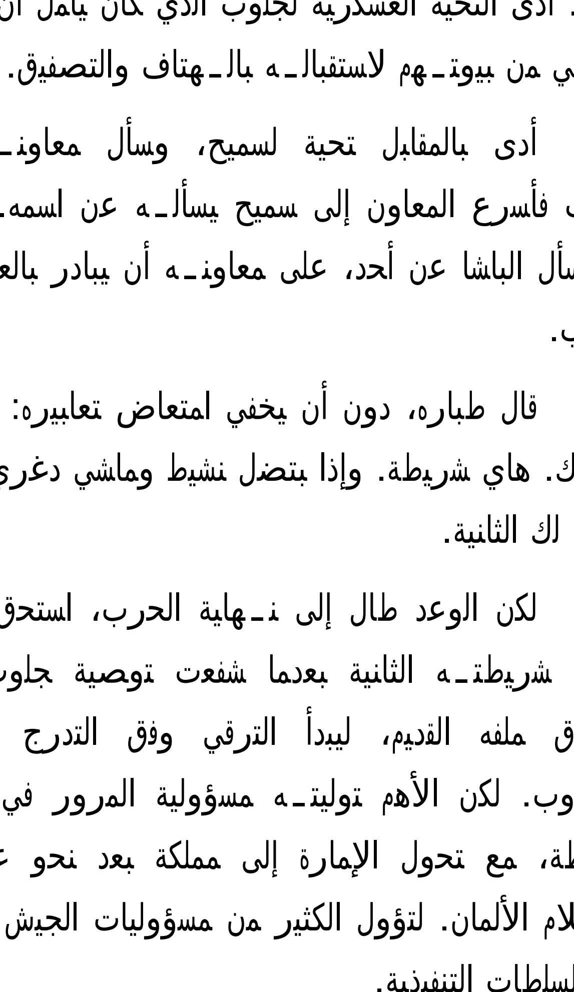
وخوف وعصبية: دبحها. دبحها.. واقتيد الزبون إلى النظارة، ليخرج بتوقيع كفالة شكلية، بينما اقتيدت الحلوانية إلى القضاء، بتـهمة حيازة الصفارة الممنوعة إلا على رجال الشرطة. لتصادر منـها وتدفع غرامتـها، قبل أن تقتاد إلى السجن بتـهمة البغاء. فواجهت الشرطة مشكلة بالتنفيذ لعدم وجود سجن للنساء. ولم يكن من حل إلا حملـها مخفورة إلى سجن أريحا. فانقلبت الآية خلال الطريق، ودفعت للشرطة بدلاً من أن تقبض، لقاء حقنـها بالمهدئ الذكوري الذي ستغيب عنـه طيلة فترة الحكم. وفي السجن التقت بقحبات محترفات علمنـها كيف يمكن استغلال العلاقات.

انقضت سنتان دون أن يفي طباره بوعده. سنتان قام سميح بـمهمتـه خير قيام. وأدار المرور بجدارة جعلتـه محط أنظار المترجلين والراكبين. حتى مركبات الجيش التي كان يعطيها أولوية المرور، لم يكن سائقوها يحتجون على التأخير بينما سميح ينظف الشوارع أمامها من الباعة والمشاة والمركبات. وكلما ذكّر قائده طباره بوعده واستعادتـه للشريطتين، يجدد طباره التزامه بالطريقة العربية المعتادة : إن شاء ا .

استمر حال سميح على هذا المنوال. يؤدي عملـه الاستعراضي بجدارة ورضى وكفاية. في هذا الشارع أو ذاك. كان شغوفاً بلفت الأنظار إلى شخصه وهو يتحكم بعجلات غيره، الأمر الذي تحقق لـه من انتقالـه ثانية للمرور، بعدما كادت تخنق إرادتـه دراجة طباره النارية.

لم يكن طيف ابنة طباره وحدها محرك إلـهامه في شارع المهاجرين، بل تألق ذاتـه وهو يستعرض حركاتـه أمام الجميع، ولاسيما النسوة. سافرات كن أم متمدلات أم محجبات. فإذا ما لمح إحداهن تروم قطع الشارع، يوقف المركبات أيا كان راكبوها. باستثناء السيارات العسكرية التي كانت أوامر جلوب صارمة بإعطائها دائماً الأولوية.

هب من فراشه في سكن الشرطة، على صوت الزوامير التي هدرت في الشوارع بعد انتصاف الليل. ظن بأن الألمان وصلوا البلاد وهو يرتدي زي البوليس على عجل، ويسبق رفاقه إلى الشوارع المضاءة بأنوار الآليات العسكرية العائدة إلى الديار بعد أن أكملت مهمتـها في العراق.



أسرع إلى منصة المرور في تقاطع الشارع وسط البلدة. أدى التحية العسكرية لجلوب الذي كان يأمل أن يخرج الأهالي من بيوتـهم لاستقبالـه بالـهتاف والتصفيق.

أدى بالمقابل تحية لسميح، وسأل معاونـه عن الشاب فأسرع المعاون إلى سميح يسألـه عن اسمه. مجرد أن يسأل الباشا عن أحد، على معاونـه أن يبادر بالعقاب أو الثواب.

قال طباره، دون أن يخفي امتعاض تعابيره: مثل ما وعدتك. هاي شريطة. وإذا بتضل نشيط وماشي دغري، وعد أرجع لك الثانية.

لكن الوعد طال إلى نـهاية الحرب، استحق سميح بعدها شريطتـه الثانية بعدما شفعت توصية جلوب لـه بإغلاق ملفه القديم، ليبدأ الترقي وفق التدرج الزمني المطلوب. لكن الأهم توليتـه مسؤولية المرور في شارع المحطة، مع تحول الإمارة إلى مملكة بعد نحو عام من استسلام الألمان. لتؤول الكثير من مسؤوليات الجيش المدنية إلى السلطات التنفيذية.

كان الجيش يقوم فيما مضى بتنظيم المرور في شارع المحطة نظراً لأهمية موقعه. فهو الوريد الذي يصل إلى القصر الأميري ومعسكر الجيش الرئيس ومحطة القطارات.

فإذا كان إيقاف السير ممكناً كلما مر موكب الأمير في الأسبوع الواحد مرة أو مرتين، فإن إيقافه مستحيل كلما مر موكب جلوب وكبار ضباط وآليات معسكره، التي تحدث يومياً ولمرات عديدة. إضافة إلى أن المنطقة يقطنها الأثرياء وكبار الضباط والأطباء ومسؤولي الدولة وعدد من الأمراء.

لـهذا كان اضطراب السير في شارع المحطة أو تشابكه أو ازدحامه أمراً محظوراً مهما كانت الأسباب. كما كان محظوراً على بسطات البيع المحمولة والمدولبة، ومحظور توقف البهائم باستثناء هجانة الفرسان وجيادهم. كان الونش حاضراً للنداء بـمجرد حصول حادث، كما أن هروات العساكر جاهزة لمطاردة المتسكعين وتفريق التجمعات.

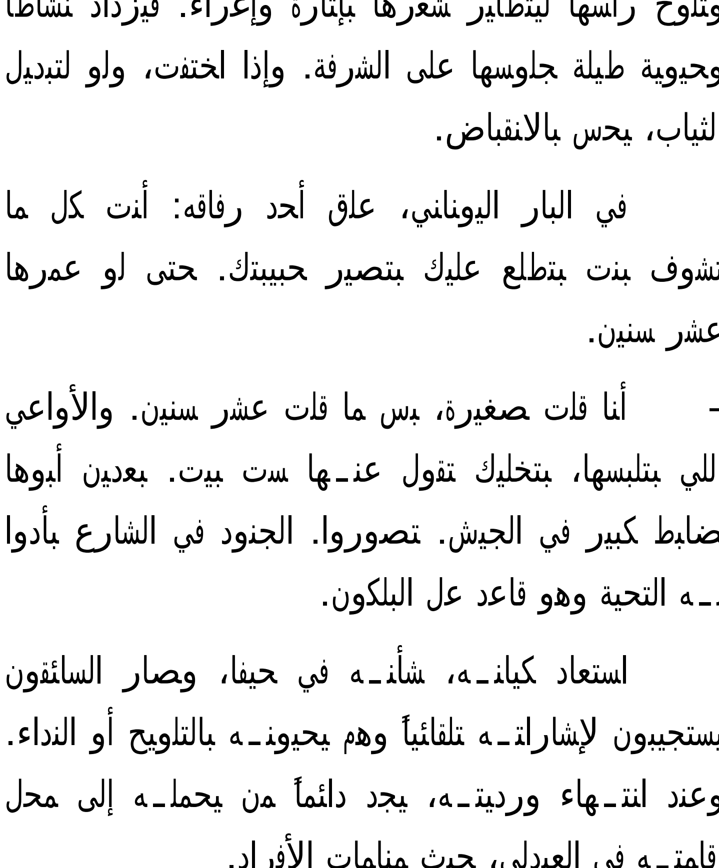
كان أكثر الشوارع نظافة ومهابة بسبب إشراف العساكر على تنظيمه ومرابطتـهم في مداخلـه وخارجه.

لكن مع اتساع السلطة المدنية، بعد إعلان المملكة، حلّ البوليس بالتدريج محل العساكر ، ولاسيما أن جلوب كان يعتبر هذه المهمات غير لائقة بالجيش الذي يتولى مسؤوليات جسام. فنقل أبو جميع إلى طباره، أوامر الباشا التي كانت أقرب إلى التـهديد.أي اختناق للسير أو تأزم في حركة المركبات أو فوضى في الانسياب، يحاسب عليها شرطي المرور المكلف وقائده طباره قبل أن يحاسب عليها مرتكبوهـا.

تألق سميح في تقاطع الشارع تألقه في شارع المهاجرين. وهو يتمكن أثناء ساعات خدمتـه من السيطرة التامة عل حركة المرور، أكثر من العساكر الذين تساعدهم رهبتـهم وليس معرفتـهم بأنظمة المرور ومقتضياتـهم التي درسها سميح نظرياً وتمرس فيها عملياً.

في موقعه الجديد، نسي أمر ابنة طباره وانتظار مرورها لقطع الشارع، بينما العديد من الفتيات يراقبن حركاتـه من على شرفات بيوتـهن المطلة.

كان مفتوناً باستعراض نفسه وقدراتـه أمام سائقي المركبات الذين يتجاوزنـه سريعاً ملوحين لـه أو محيين،



فكيف مع الصبايا المتألقات على الشرفات، ولاسيما تلك الغيداء التي تبدل خلال ساعات خدمتـه فساتين عديدة، وتلوح رأسها ليتطاير شعرها بإثارة وإغراء. فيزداد نشاطاً وحيوية طيلة جلوسها على الشرفة. وإذا اختفت، ولو لتبديل الثياب، يحس بالانقباض.

في البار اليوناني، علق أحد رفاقه: أنت كل ما تشوف بنت بتطلع عليك بتصير حبيبتك. حتى لو عمرها عشر سنين.

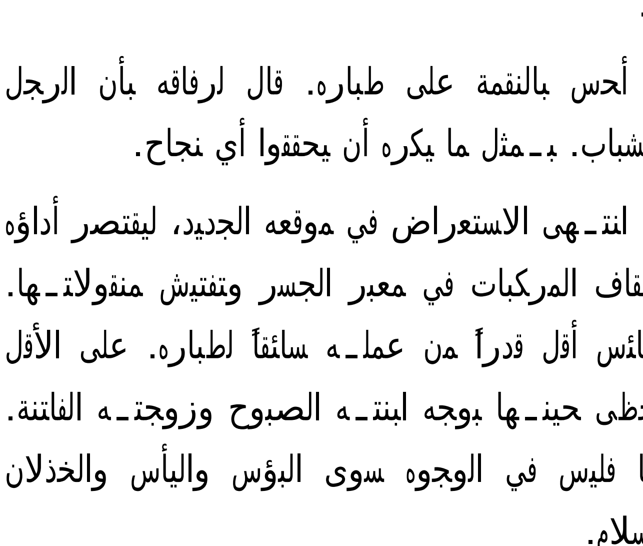
- أنا قلت صغيرة، بس ما قلت عشر سنين. والأواعي اللي بتلبسها، بتخليك تقول عنـها ست بيت. بعدين أبوها ضابط كبير في الجيش. تصوروا. الجنود في الشارع بأدوا لـه التحية وهو قاعد عل البلكون.

استعاد كيانـه، شأنـه في حيفا، وصار السائقون يستجيبون لإشاراتـه تلقائياً وهم يحيونـه بالتلويح أو النداء. وعند انتـهاء ورديتـه، يجد دائماً من يحملـه إلى محل إقامتـه في العبدلي، حيث منامات الأفراد.

في كل خميس يلتقي مع عدد من رفاقه القوميين في البار اليوناني الذي صار مركز لقاءاتـهم المكشوفة، بينما يلتقون بالخفاء لقراءة المنشورات ومناقشة تعليمات الزعيم سعاده.

أحزنـه كثيراً موت ابن خالـه صلاح الذي شيعه القوميون في حيفا، مثلما شيعت زوجتـه حكمت في عمان. وقرأ مع رفاقه، رسالة من سعاده، عدد فيها مناقب الفقيد وأثنى على جهوده القومية.

عندما وصلـهم قرار الزعيم بإعلان الحرب على اليهود إثر قرار التقسيم، كان رأي الرفاق في عمان لا يختلف عن رأي الرفاق في حيفا أثناء انتفاضة عام ١٩٣٦. أجمعوا على أن خدماتـه في قوة البوليس، أجدى لـهم من تطوعه للقتال، كي يعرفوا أسرار الحرب من خلال دوائر الشرطة وتعليمات الجيش. لكن الأمور جرت على غير ما يريدون، فقد تم نقلـه إلى بوليس الحدود، لتنظيم حركة عبور المركبات التي اكتظت بها الجسور الواصلة ما بين غرب النـهر وشرقه. كانت أوامر جلوب واضحة وصارمة بهذا الخصوص. يجب تفتيش المركبات بدقة وجمركة



المنقولات المسموحة ومصادرة الممنوعة، باستثناء سيارات الجيش.

أحس بالنقمة على طباره. قال لرفاقه بأن الرجل يكره الشباب. بمثل ما يكره أن يحققوا أي نجاح.

انتهى الاستعراض في موقعه الجديد، ليقتصر أداؤه على إيقاف المركبات في معبر الجسر وتفتيش منقولاتها. عمل بائس أقل قدراً من عمله سائقاً لطباره. على الأقل كان يحظى حينها بوجه ابنته الصبوح وزوجته الفاتنة. أما هنا فليس في الوجوه سوى البؤس واليأس والخذلان والاستسلام.

٢٧

كثيراً ما يجلو بشارة عن صدره مدعياً أن الحرب تشري المرضى والمتخلفين. لم يكن يقصد شخصاً بعينـه، رغم قصص الشارع عن أثرياء الحروب. لكنـه وهو يضيف، معتذراً أو مبرراً، بأنـه في الحروب يموت جوعاً الموهوبون، فإن زوجتـه تدرك أنـه يقصد نفسه ولو كان المقصود سواه. فهو منذ تلك الومضة الخاطفة التي اقترن فيها إحساسه بالمجد مع الرخاء والانتعاش، ظل حالـه يزداد بؤساً يوماً بعد يوم. فالحرب قضت على الحرف الصغيرة، بـمثل ما ضعضعت الأعمال الكبيرة.

كان قبل الحرب ينجح في الاستدانة، ويلقى من رفاقه الدعم والمساعدة، لكنـه بعد اندلاعها صار يطلب منـه السداد. فغالبية الناس، بـمن فيهم الرفاق، يسألون المساعدة إلى درجة الاستجداء.

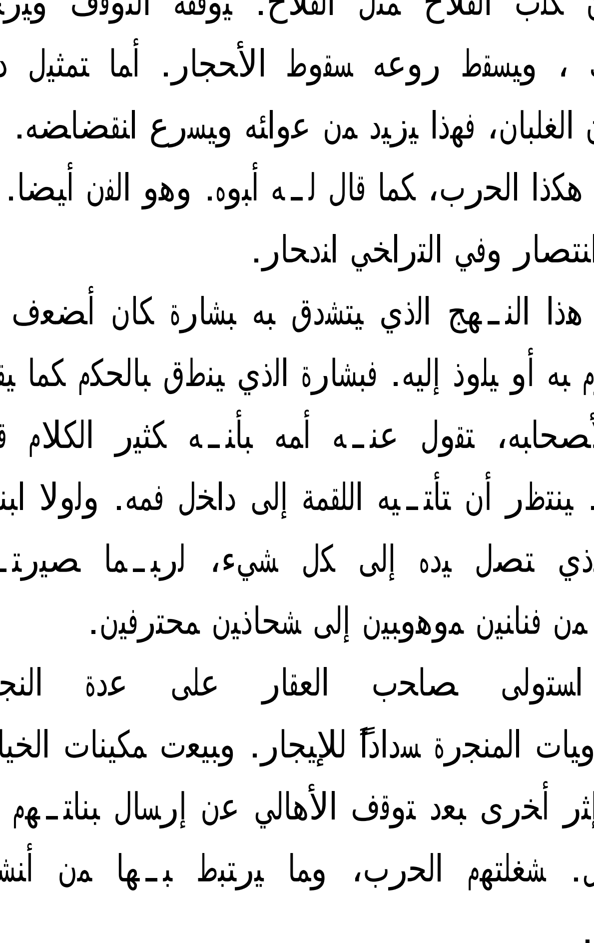
في الحرب الأولى ساعده الأب سمعان بالوصول إلى رجا الصليبي، ليتحول من فنان إلى فلاح. كان حينـها يعيش وحده ولا يتحمل إلا مسؤولية نفسه. يكفيه ما يجود

عليه رجا من طعام قليل وثياب رثة، طالما يأوي آمنا في البوايك. لا يسأله أحد إيجار البيت والدكان، ولا يهدده الدائنون إذا تأخر عن السداد، ولا تقلقه حاجات العائلة التي تنام غالبا دون عشاء. أما الفطور والغداء، فقد أوكل أمره إلى فؤاد.

كان فؤاد قد تعلم من تو السطو على ثمار الأشجار وأقنان الدجاج. دون أن ينقطع عن المدرسة، طمعاً بما يوزع على الطلاب من الدقيق والحليب وزيت السمك، وأحيانا يحظى من تبرعات الجيش ببضع حفنات من البقول أو علبة سردين .

كفى أباه مصروف المدرسة، بعدما أعفي الطلبة من الرسوم. بل وقدمت لهم دائرة المعارف الهبات من أقلام الرصاص وأوراق شوالات الإسمنت، التي أوعز جلوب بالتبرع بها بدلاً من بيعها لصانعي الأكياس.

كانت بساتين السيل من أكثر المناطق تعرضاً لغزو عصابات الأولاد. رغم شراسة الحراس الذين غالباً ما يلوطون بالسارقين الصغار ويطلقون كلابهم على الكبار .



مع تعدد الإغارات، صار فؤاد خبيراً في التعامل مع الكلاب بعدما نهشته أنيابها مرات عديدة، ليكتشف بعد ذلك أن كلاب الفلاح مثل الفلاح. يوقفه التوقف ويرخيه التماسك ، ويسقط روعه سقوط الأحجار. أما تمثيل دور المسكين الغلبان، فهذا يزيد من عوائه ويسرع انقضاضه.

هكذا الحرب، كما قال له أبوه. وهو الفن أيضا. في الثبات انتصار وفي التراخي اندحار.

هذا النهج الذي يتشدق به بشارة كان أضعف من أن يلتزم به أو يلوذ إليه. فبشارة الذي ينطق بالحكم كما يقول فؤاد لأصحابه، تقول عنه أمه بأنه كثير الكلام قليل الأفعال. ينتظر أن تأتيه اللقمة إلى داخل فمه. ولولا ابنه فؤاد الذي تصل يده إلى كل شيء، لربما صيرتهم الحرب من فنانين موهوبين إلى شحاذين محترفين.

استولى صاحب العقار على عدة النجارة ومحتويات المنجرة سداداً للإيجار. وبيعت مكينات الخياطة واحدة إثر أخرى بعد توقف الأهالي عن إرسال بناتهم إلى المشاغل. شغلتهم الحرب، وما يرتبط بها من أنشطة وأعمال.

كانت الحرب مأساة بشارة التي صيرته أولاها فلاحاً غشيماً وقاعدته ثانيتها عن العمل والفن وهو على أبواب الخمسين. ينتظر مثل زوجته وابنته ما يأتيهم به فؤاد ليقتاتوا عليه ويواصلوا بؤسهم المتنامي مع الأيام. على عكس فؤاد الذي كانت الحرب بالنسبة إليه خشبة مسرح تقمص فيها دور المسكين في المدرسة وهو ينال أكثر الإعانات، ودور المثابر الطموح أمام أساتذته وهو يقوم بواجباته المدرسية على هدي القنديل الذي يستضيئون به ويطبخون ويستدفئون، كما قال بذلة للمدير، مما جعل المدير يؤثره بالتقدمات على الآخرين. وخارج المدرسة أدى دور المغامر العتي الذي لا يخشى الشرطة وصفاراتهم ولا الفلاحين وكلابهم .

لم يعد التمثيل فناً خارجياً يقلد فيه الحركات والأصوات، بل غدا انبعاثاً داخلياً يجعله قادراً على تقمص الشخصية التي يريد، بالحالة النفسية التي يريد. فيصغي لمحدثه بانتباه تام ولو سمع منه الحديث عشرات المرات، ويضحك للنكتة من الأعماق ولو كان راويها يثير الحزن والشفقة ويسبب الغثيان. ويبدي الافتتان بالفتيات

البشعات، مثلما يبدي الانبهار بالجميلات. كان أكثر الطلبة عوزاً وأسرعهم بتحصيل الحاجات، من خلال تقمص الشخصية التي ترضي الآخرين أو تخيفهم أو تضحكهم أو تثير شفقتـهم.

كان يستعد لامتحانات الـمترك وقد قاربت حياتـه المدرسية على الانتـهاء، عندما أشيع عن مقتل جلوب في العراق. توج موهبتـه بتقليد شخص جلوب أمام المدير والأساتذة والطلبة الذين أفرحتـهم هذه الأنباء. أدى دوره بـمهارة فائقة لكن بسخرية أضحكت الجميع وأسعدتهم ، ولاسيما أبوه الذي كان بين المدعوين.

طلب منـه المدير تطوير العرض القصير إلى مسرحية وطنية تقدم على خشبة إحدى دور السينما، ووعده بأن يساعده بالعمل بعد الدوام. لكن قبل أن يتم ذلك انبعث جلوب من بين الأموات، فكاد المدير يقضي هلعاً، كذلك الأساتذة ومن ساعد فؤاد في الإعداد أو الأداء. سواء الطلبة الذين يتطلعون للتخرج الوشيك، أو الأساتذة الذين تعلقوا بالفرج القريب . أما أبوه فقال لـه: لا إنت ابني ولا بعرفك..

- ول !... قال فؤاد مستغرباً وأضاف ساخراً : لسه امبارح حمدت ربك لأني طالع اك.

لكن جلوب كان أعقل من أن يلتفت للصغائر، بينما يتنازع الأهالي دعوتـه والاحتفاء به والتبرك بـمصافحتـه أو ملامستـه أو السير خلفه ولو على بعد عشرات الأمتار.

الـمدير الذي وعد فؤاد بـمساعدتـه في العمل قبل التخرج، زجره وحذره وهدده بعد تخرجه. لم يعد طالباً في المدرسة ، وليست المدرسة بـحاجة لـه.

دار على الدوائر التنفيذية واحدة بعد الأخرى، دون نتيجة. ليس لأن تقليده الساخر للباشا جاب خبره على رأي أبيه. بل لأن التعيينات متوقفة بسبب الحرب، اللـهم إلا ما يوحي به الباشا نفسه. قال لـه أبوه: صحيح إني قلت مرة إنك طالع إلي. بس كنت غلطان كثير. لأنك طلعت أخرا مني بكثير.

قرر السفر إلى سوريا، فسبقه الباشا إليها محرراً إياه من الفاشيين الفيشيين. إلى متى سيظل يلاحقه شبح الباشا؟. احتار في اختيار شخصية يتقمصها لإرضائه. لكنـه بدلا من

مقابلتـه طاب مقابلة مفتش المعارف، متسلحاً ببشرتـه البيضاء التي ادعى أنـه ورثها عن أمه الانجليزية.

تـحدث بثقة وعلياء، مضمناً تعابيره كلمات انجليزية قربتـه من المفتش الذي يخشى تفتيش رجال الباشا مثلما يخشى تفتيشه مديرو المدارس.

عين في المدرسة التي رفض المدير قبولـه فيها. اختار مادة تـجنبه متاعب التحضير والامتحان والتصحيح ومعادلة العلامات . كانت توصية مفتش المعارف واضحة لا لبس فيها: استاذاً للفن. وحتى لا يظل الأساتذة الآخرون يكيدون لـه بسبب استرخائه وقضائه الوقت بقراءة الأدب وكتابة المسرحيات، قدم مع نـهاية الحرب مسرحيتـه الأولى، التي قام بتعريب نصها الانجليزي بنفسه ومارس الإخراج فيها للمرة الأولى، بعدما درب عليها الطلبة لأشهر عديدة.

لـم يدرك أحد مقصد فؤاد، إلا بعد أن وصل جلوب إلى المدرسة لحضور العرض. فقد نال من عواطفه تحرك المسرح الانجليزي على خشبة أردنية، مع الاحتفال بتحول الأمارة إلى مملكة. ومع أن جلوب ظن بأن الدافع تشهير

باليهود، إلا ان ذلك لم يؤثر على إعجابه بالأداء أولاً وتقديسه للنص ثانياً. فليس الماغنا كارتا سبب عظمة الانجليز. وليست قوتـهم العسكرية سبب الشروق الدائم لشمسهم الدافئة. بل هو الفاتح الكبير شكسبير. إنـه المستعمر الذي ترفض الشعوب التحرر منـه، بل تزداد يوماً بعد يوم تـخليداً لـه وإجلالاً وتبجيلاً. وبـمثل ما صفق جلوب بحرارة لشكسبير، صفق الحضور بحماس لتاجر البندقية فؤاد الذي أعجز المرابي اليهودي شيلوك.

وقف المتفرجون يصفقون بصخب للأداء العظيم، بينما يشير فؤاد بتواضع لباقي الممثلين. استمر التصفيق والتـهليل طويلاً قبل أن يهبط درج الخشبة إلى الصالة. ليصافح صفوة المدعويين، وبينـهم أباه وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

ركض فؤاد إليه قبل توجهه إلى الآخرين، بينما العيون تتابعه بإعجاب، بـمن فيهم جلوب، وبعضهم تحركت أشجانـه، بينما يعانق فؤاد أباه بـحرارة العائد من القتال، الـمنتصر على الأعداء: قل لـهم إني أبوك...

٢٨

ضاقت التكية بالعطايا والتقدمات التي يؤتى بها لمقصود، في شكل هدايا أو ردٍ لفضلـه أو وفـاء لجميلـه أو لقاء الاستطباب والتعاويذ وكشف الأسرار والتنبؤ بالأحوال. كما انـهالت عليه النقود المعدنية والورقية لتحول إسرافه إلى لـهفة على الإدخار وصلت إلى درجـة الـهوس والجنون بحيث جعلت من مخابئه قبوراً مقدسة يحرم نبشها أو المساس بموجوداتها. مكتفياً بسد احتياجاتـه من التقدمات العينية، مما كان يثير سخط جرير الذي لم يعهد فيه مثل هذا البخل والتقتير.

تيقن جرير من أن الإنسان كلما ازداد ثراء ازداد تقديساً للنقود. فالأغنياء أقل الناس إنفاقاً على حاجاتـهم: القضية نسبية يا ساره. نسبية.

- معقول؟!... تساءلت باستغراب وقد خطر ببالـها أبوها. بـمثل ما خطر ببال جرير وهو يعقب: صدقيني، ما

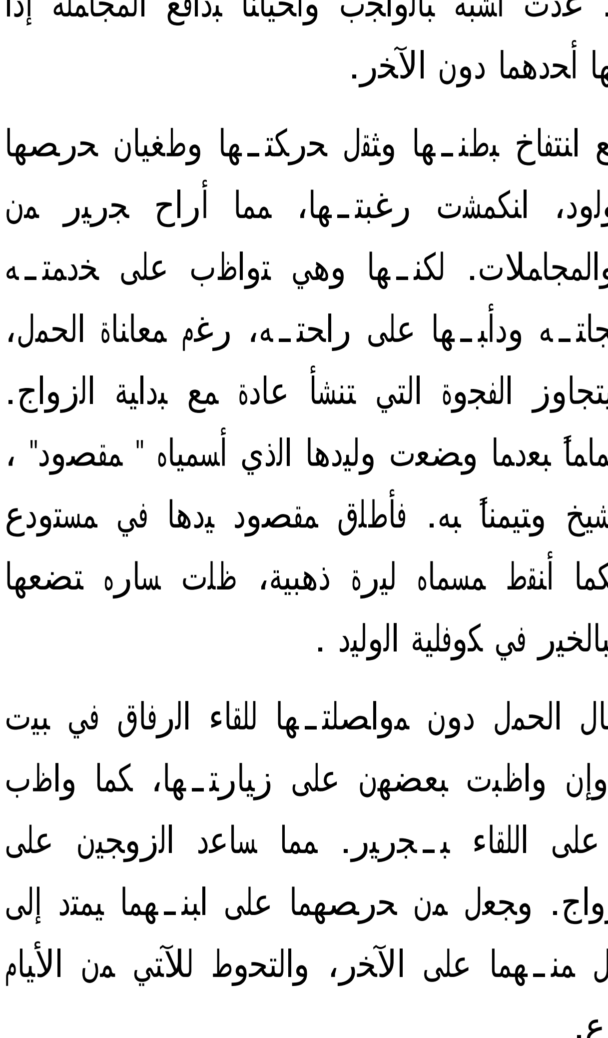
بستغرب إنوه هادا اللي عامل شيخ، بكرة يصير مرابي مثل أبوك .

في الأشهر الأولى للزواج، استولى الندم على كليهما. أحسا بالورطة تنمو معهما وإن كفاهما مقصود في تكيتـه حاجاتـهما. تغير كل شيء على ساره. حجم البيت وتوزيعاتـه وشكل الأثاث وصنوف الطعام ورتابة العيش وطبيعة الناس. الغرفة التي منحهما إياها مقصود، كانت فقيرة في كل شيء إلا الكتب والأوراق، كذلك الصخب الذي يدوي خارجها من صراخ الممسوسين أو أناشيد الذكر وحضرات الدراويش. حتى جرير الذي عشقتـه وألفت معاشرتـه ومواقعتـه قبل الزواج، غدا إنساناً مختلفاً بعدما استقر بهما المقام . يستيقظ متكدراً تعباً يسألـها بفظاظة عن القهوة. مثلما يطلبها مقصود صارخاً أحيانا وشاتما أخرى. كانت يقظتـه أشد عبوساً من يقظة جرير، وإن أقلع عن التدخين توفيراً للنقود، بينما يزداد نـهم جرير لحرقها. يشعل أولاها بـمجرد أن يفتح عينيه، ويطفئ آخرها مع انطفاء يقظتـه.

أحست في البداية بالندم على فعلتـها، وبالسخط على حماـها الذي لولاه لظلت في بيتـها أميرة،وفي مشغل بشارة محط الأنظار٠ حتى مقصود الذي كان يتودد لـها حينذاك ويتقرب لـها بالطعام والشراب وتلاحظه وهو يتأملـها بافتتان، غدا منذ سكنـها في التكية، فظـأ يعاملـها حيناً خادمة وحيناً متطفلة على طقوسه ونقوده " ا أكبر صار سكر خالص!٠٠ وين إنت بروح فيه؟٠" " إسمع٠ إنت لما يجي عند أنا مريض، يا ويل إزا بتفتح باب"٠

لم يكن وضع جرير مختلفاً، باستثناء اعتياده مزاج مقصود٠ فقد أحس بالندم أيضا. لـه تجربتـه مع الزواج، فلماذا تـحال منـه ليرتبط من جديد. ولربـما كان زواجه الأول أخف وطأة عليه. كان حينذاك شبه متزوج، أو متزوج اسمياً وأمام الناس. يذهب إلى عائلتـه مرة في الأسبوع، وأحياناً في الشهر. دون أن تضجر زوجتـه من غيابه أو يتعرض للسؤال والاستجواب. ودون أن تضيق عليه الجدران بـهذه المرأة التي تشاركه كل شيء وليس فقط الفراش.

حتى لـهفة العناق التي كانت تصل بـهما إلى الذروة قبل الزواج، صارت تخلو من اللـهفة والإثارة



والمداعبة. غدت أشبه بالواجب وأحياناً بدافع المجاملة إذا رغب بـها أحدهما دون الآخر.

مع انتفاخ بطنـها وثقل حركتـها وطغيان حرصها على المولود، انكمشت رغبتـها، مما أراح جرير من الواجب والمجاملات. لكنـها وهي تواظب على خدمتـه وتلبية حاجاتـه ودأبـها على راحتـه، رغم معاناة الحمل، جعلتـه يتجاوز الفجوة التي تنشأ عادة مع بداية الزواج. لتتلاشى تماماً بعدما وضعت وليدها الذي أسمياه " مقصود" ، عرفانا للشيخ وتيمناً به. فأطلق مقصود يدها في مستودع العطايا. كما أنقط مسماه ليرة ذهبية، ظلت ساره تضعها استبشاراً بالخير في كوفلية الوليد .

حال الحمل دون مواصلتـها للقاء الرفاق في بيت بشارة ، وإن واظبت بعضهن على زيارتـها، كما واظب العديدون على اللقاء بـجرير. مما ساعد الزوجين على اعتياد الزواج. وجعل من حرصهما على ابنـهما يمتد إلى حرص كل منـهما على الآخر، والتحوط للآتي من الأيام ولو لإسبوع.

لكن تقتير مقصود وسوء الأحوال بسبب الحرب وغلاء الأسعار، جعلت جرير يفكر بإرث أبيه وهو الذي لم يقلق بامتلاك النقود وإنما بصرفها.

كانت أملاك عائلتـه في معظمها أراضٍ زراعية مسجلة باسم جده دون فرز أو حصر أو توزيع. يتنازع أفراد العائلة نتاجها من الزيت والزيتون والحبوب، دون أن يخطر ببال أحدهم اقتسام الأرض أو توزعها. لـهذا أربكتـهم المفاجأة عندما أخبرهم بأنـه سيبيع حصتـه. فهو الوحيد الذي لا يستفيد من إنتاجها ولا وجودها. وافقوه، بأنهم ظلموه وسوف يعوضونه منذ الآن وصاعداً، لكنـه أصر على البيع.

تكاتفوا بـجمع المبلغ المطلوب لقاء نقل الملكية لـهم مجتمعين حتى لا تتفتت الأرض التي يحرص الفلاحون على وحدتـها، حرصاً على وحدتـهم العائلية.

لم يبال ابنـه مختار بالأمر، طالما أنـه يقبض معاشا شهرياً منتظماً وتحسب لـه العشيرة الحساب أكثر من أشعار أبيه بعد التحاقه بالجيش برتبة ملازم. فليبع أبوه الأرض وينفقها على سكره وعربداتـه وزوجه ابنة المرابي.

كان وضع أمه مختلفاً. فقد خبت نقمتـها على جرير، بـمثل ما تنامى شوقها لـه، وهي تتحول من شاحنة للغضب ، إلى مسكنة للأعصاب: رحت أو أجيت بضل أبوك.

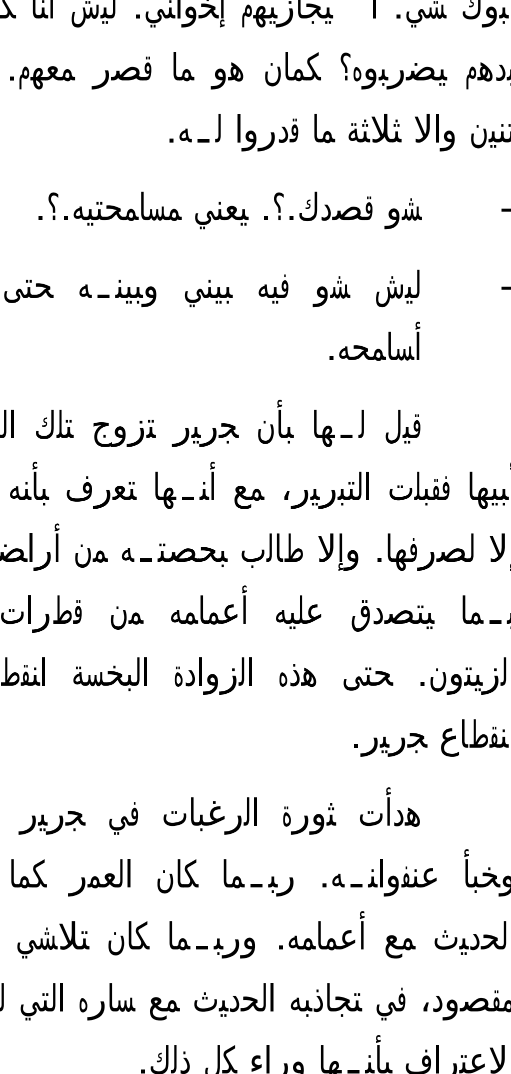
- ما بدي هيك أب.

- لا.لا.. ما بحب أسمع منك هيك حكي.

- يعني مليح، أنوه ما فيه حدا بالبلد إلا بعرف عن سكره وفسقه.

- هادا لأنوه مشهور.

كانت تنـهشها الغيرة من ضرتـها، بـمثل ما ينـهشها الندم. وماذا يعني أن يتزوج تلك الصبية؟. طيلة عمره زير نساء. كان يجب أن تنظر إلى هذه الضرة نظرتـها إلى أية عاهرة أخرى يعاشرها جرير. فلماذا وضعت نفسها في كفة الميزان معها وباقت بزواجها واستنفرت أثقال أهلـها. ما الضير في أن يكون لـه زوجة هنا وأخرى هناك. الشرع يعطيه الحق في أربع زوجات وقدر ما تمتلك يداه: اسمع يا ابني. أنا ما فيه بيـني وبين



أبوك شي. ا يجازيهم إخواني. ليش أنا كنت عارفه إنـهم بدهم يضربوه؟ كمان هو ما قصر معهم. ويمكن لو كانوا تنين والا ثلاثة ما قدروا لـه.

- شو قصدك.؟. يعني مسامحتيه.؟.

- ليش شو فيه بيني وبينـه حتى أسامحه أو ما أسامحه.

قيل لـها بأن جرير تزوج تلك المرأة طمعاً بنقود أبيها فقبلت التبرير، مع أنـها تعرف بأنه لا يبالي بالنقود، إلا لصرفها. وإلا طالب بحصتـه من أراضي أبيه ولم يكتف بـما يتصدق عليه أعمامه من قطرات الزيت وحبات الزيتون. حتى هذه الزوادة البخسة انقطعت عنـها منذ انقطاع جرير.

هدأت ثورة الرغبات في جرير وانكمش جموحه وخبأ عنفوانـه. ربـما كان العمر كما قال في تجاذبه الحديث مع أعمامه. وربـما كان تلاشي دفء العلاقة مع مقصود، في تجاذبه الحديث مع ساره التي لم يكن قادراً على الاعتراف بأنـها وراء كل ذلك.

اختلفت كلياً مع اعتياده عليها واعتيادها عليه. استلزمها بضعة أشهر من المعاناة كي ينسجم كل منـهما مع مزاج الآخر. لم يكن ذلك سهلاً ولم يكن مستحيلاً. فهو الذي لم يكن يغار على المرأة صار يغار على ساره. وهو الذي كان مغرماً بتبديل الفراش، صار يحس بالسكينة والأمن والأنس في فراش ساره. وهو الذي لم يقلقه يوماً أمر امرأة ، صار يقلق على ساره. يقبلـها عند مغادرتـه وإيابه. ويحتضنـها في الفراش ساعات وهو محملق بالعتمة، مستدفئاً بأنفاسها الـهادئة.

في أحيان كثيرة يستيقظ وهي تحتضنـه من ظهره أو تتحسس لـه وجهه أو تملس لـه شعره. يحس معها بالراحة في صمتـه ومع صوتـه، وفي قراراتـه يغبط نفسه. هذه المرأة التي تخلت عن الأموال والأطيان من أجلـه، واستغنت عن العائلة والرفاق في سبيلـه. هذه المرأة التي كان يطمع بها الأسياد، تختاره من بين الجميع لتتحول إلى صديق يقبلـه بدنسه وطهره. بسفاسفه وشعره. بعزتـه وفقره. تتجاوز آلامها إلى شفائه وتصبر معه على الضيق، بـمثل ما تتحلى وإياه بالفرج. ترقص لـه في ثمالتـه،

وهي التي لا تجيد الرقص. تأكل بعدما يشبع، وترتوي بعدما يشرب. غدا مملكتـها وغدت مليكتـه.

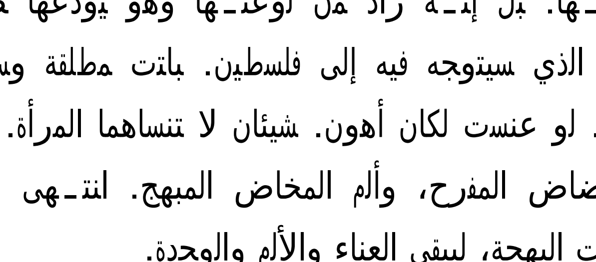
مع الوقت صار يتطلع لراحتـها مثلما تسعى لراحتـه، ويتمنى لو يستطيع أن يخدمها بـمثل ما تخدمه. حتى الوصال لم يعد إطفاء شهوة، بل صار في المواقعة الواحدة يواقع بعشرات الأوضاع ويبتدع فنوناً تزيدها شوقاً إلى العناق. يبهجه مداعبتـها أكثر من إيلاجها. وبعد الانتـهاء يحس معها بالراحة والسكينة والارتخاء والانجاز، بينما يحس مع غيرها بالقرف والغثيان. فانكمشت مغامراتـه كثيراً بعدما صار يحس مع ساره بالارتواء.

تسرب لزوجتـه خير مجيئه للمخالصة مع أعمامه وقبض ثمن حصتـه فدفعت إليه مختار: بضل أبوك. لو ضربك بالصرماية بدك تبوس إيديه.

لكن جرير لم يضربه بالصرماية، ولا اهتزت مشاعره لانكباب مختار على تقبيل يديه. قال في الجلسة، بأنـه يروم رضاه قبل أن يغادر مع القوات المتحركة إلى فلسطين.

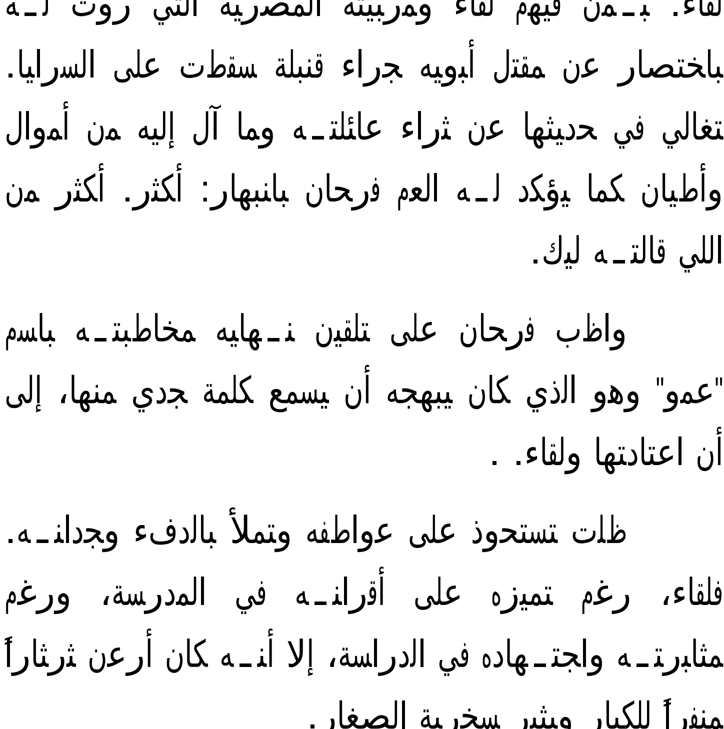
قال جرير: إيه .. ولم يزد إلا في نـهاية الجلسة: ما تنسى تقول لأمك إني طلقتـها، وسجلت الطلاق عند القاضي الشرعي بعمان.

لم يشعر مختار بالنقمة هذه المرة، ولا راودتـه الرغبة بالانتقام. وسواء عرف أبوه عن حالة أمه ، أم أنـه قال قولـه بدافع الغطرسة المعروفة عنـه، فإن الجلسة تـهيأت لمختار وكأنـها محاكمة قضى فيها جرير بحكم الإعدام. أحس بأنـه المقصود، وأنـه يدفع ثمن جناية لم يرتكبها أو أنـه أجبر على ارتكابها. أحس بسطوة الأبوة في مجتمع أبوي. الآن، ستعيش أمه مأساتـها. فلو طلقها أبوه يوم ضرب وأهين وابتعد منكسراً ضعيفاً ذليلاً لربـما كان الوضع أهون. بل لكان انتصاراً لـه ولأمه وأخوالـه. أما الآن، وقد أرضخت الحاجات أمه، وجعلتـها تقبل فقط بالمسمى الشرعي، يضن أبوه عليها بها ويستغني عن كل ما يمثلـه وجودها. طالق. طالق. ماذا فعلت حتى يطلقها. الآن بعد أن غدت وحيدة. حتى أخوتـها الذين تسببوا بهلاكها منشغلون عنـها بأنفسهم وعوائلـهم وتربية أبنائهم. أما هي، فلا زوج يزيل كربتـها ويؤنس وحدتـها، ولا ابن ينسيها



محنتـها. بل إنـه زاد من لوعتـها وهو يودعها صباح اليوم الذي سيتوجه فيه إلى فلسطين. باتت مطلقة وستغدو ثكلى. لو عنست لكان أهون. شيئان لا تنساهما المرأة. عناء الافتضاض المفرح، وألم المخاض المبهج. انتـهى الفرح وغابت البهجة، ليبقى العناء والألم والوحدة.

٢٩



كان الجميع يدرك لماذا يغدق فرحان رعايتـه على لقاء. بـمن فيهم لقاء ومربيته المصرية التي روت لـه باختصار عن مقتل أبويه جراء قنبلة سقطت على السرايا. تغالي في حديثها عن ثراء عائلتـه وما آل إليه من أموال وأطيان كما يؤكد لـه العم فرحان بانبهار: أكثر. أكثر من اللي قالتـه ليك.

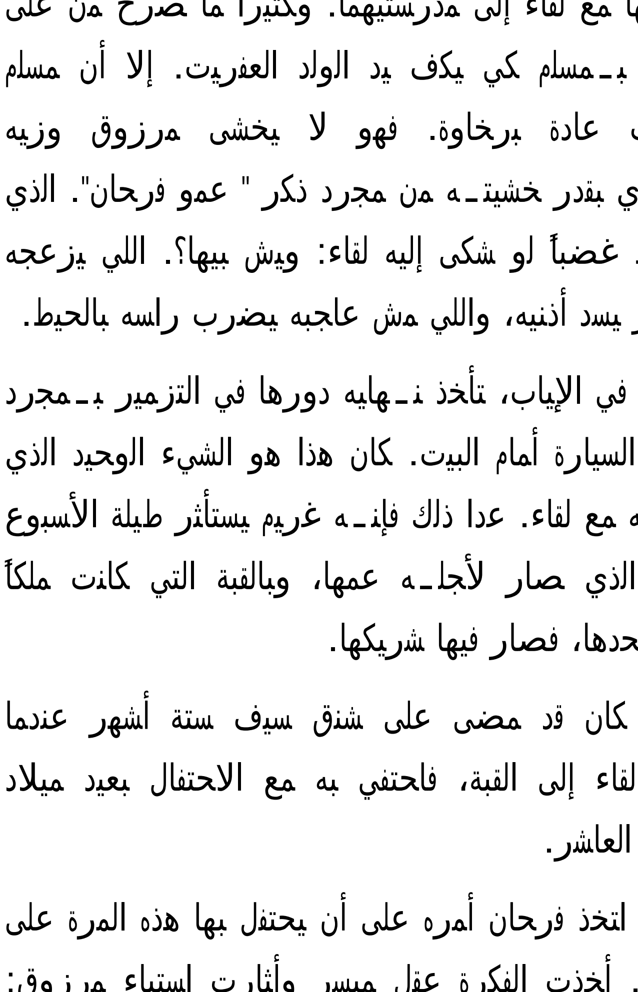
واظب فرحان على تلقين نـهايه مخاطبتـه باسم "عمو" وهو الذي كان يبهجه أن يسمع كلمة جدي منها، إلى أن اعتادتها ولقاء. .

ظلت تستحوذ على عواطفه وتملأ بالدفء وجدانـه. فلقاء، رغم تميزه على أقرانـه في المدرسة، ورغم مثابرتـه واجتـهاده في الدراسة، إلا أنـه كان أرعن ثرثاراً منفراً للكبار ويثير سخرية الصغار.

أكثر ما كان يضايق فرحان منـه، تأتأة لسانـه وحركات أعضائه وهو يتحدث أو يقرأ أو عندما يجالس العائلة متلفتاً كالأبلـه إلى هذا أو ذاك.

لم يكن يهدأ في مستقره إلا في الفراش. ينام شقفة واحدة ويصحو بالوضع نفسه كما تقول مربيتـه المصرية، ويتحرك كالملطوش كما تقول تمام.

تمكنت سنوات عيشه في مصر وملازمة المربية لـه على اعتياده اللـهجة المصرية. حتى أن البعض كان يظنـه مصرياً. ورغم الثراء الذي يدعيه وتؤكده السيارة التي تنقلـه بين المدرسة والقبة، وتباهيه بصرة النقود التي يحملـها ولا ينفق منـها شيئاً، إلا أنـه كان إضافة إلى رعونته، متهدل الثياب منفر الشكل، وهو الأمر الذي لا يقلق فرحان أو يثير انتباهه واهتمامه. على عكس مرزوق الذي كان يشعر بالخجل والوضاعة إذا ما جاء أبوه لزيارتـه، مصطحباً لقاء، ولاسيما إذا تصادف ذلك مع وجود ضيوف من الأطباء. كما لم يعد يرتاح لذهاب نـهايه إلى القبة في العطل والإجازات. وأكثر ما كان يغيظ مرزوق، صوت الزامور الذي ينطلق بتواصل كل صباح فيثير سخط المارة



والجيران، ولا يخبو إلا بعدما تركب نـهايه السيارة التي تحملـها مع لقاء إلى مدرستيهما. وكثيراً ما صرخ من على الشرفة بـمسلم كي يكف يد الولد العفريت. إلا أن مسلم يستجيب عادة برخاوة. فهو لا يخشى مرزوق وزيه العسكري بقدر خشيتـه من مجرد ذكر " عمو فرحان". الذي يستشيط غضباً لو شكى إليه لقاء: ويش بيها؟. اللي يزعجه الزامور يسد أذنيه، واللي مش عاجبه يضرب راسه بالحيط.

في الإياب، تأخذ نـهايه دورها في التزمير بـمجرد وقوف السيارة أمام البيت. كان هذا هو الشيء الوحيد الذي تتفق فيه مع لقاء. عدا ذلك فإنـه غريم يستأثر طيلة الأسبوع بجدها الذي صار لأجلـه عمها، وبالقبة التي كانت ملكاً لـها وحدها، فصار فيها شريكها.

كان قد مضى على شنق سيف ستة أشهر عندما وصل لقاء إلى القبة، فاحتفي به مع الاحتفال بعيد ميلاد نـهايه العاشر.

اتخذ فرحان أمره على أن يحتفل بها هذه المرة على طريقته. أخذت الفكرة عقل ميسر وأثارت استياء مرزوق:

وا ما هو داري راسه من رجليه. وده يصير مدني ويظل فلاح وبدوي. من إيمتـه صار يدري بأعياد الميلاد.

أوصى على بهرجة هودج لنـهايه، اعتلتـه فوق ناقة وجناء تقدمت عشرات الـهوادج التي حملت صاحباتـها ورفيقات دراستـها وهن يصرخن بأعلى أصواتـهن مبتـهجات بالمغامرة وجلات من الركوبات التي بركت في صحن الدار أمام غبطة الأمهات وارتياعهن. لكنـهن شعرن بالغيرة من ميسر التي لم تخف زهوها وهي تلقي الأوامر النافذة إلى هذا وذاك وكأنـها وريثة المكان. على عكس مرزوق الذي كان يريد أن يتقدم إلى الأمام في سلوك تحكمه الرسميات.

كان يشترك في تطلعاتـه هذه مع لقاء وإن كان الدافع مختلفاً.فقد كان لقاء يرفض دعوة أصحابه إلى القبة، بعد التحاقه بـمدرسة عمان. فهو كما قال لنـهايه، لا يكترث بالحفلات ولا الأعياد. كما أن الـهدايا لا تبهجه، رغم أن فرحان يحرص على أن يأتيه بـمثل ما يأتي لنـهايه. كان يعيد دائماً على مسامعها أن أملاك عائلة الحجاج في فلسطين تفوق أملاك الصليبية في القبة وعمان،

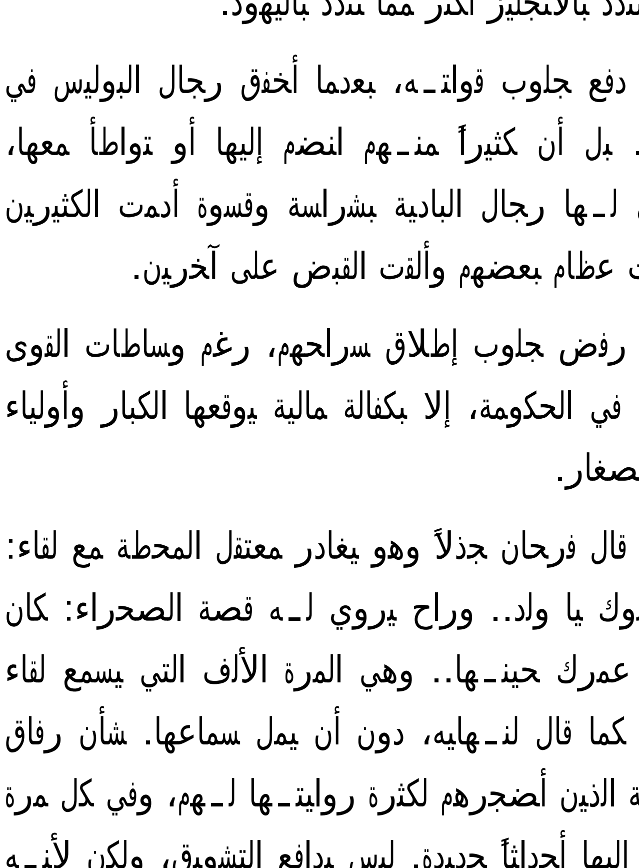
وهو ما أكده لـه مراراً العم فرحان: أكثر. أكثر. يا ولدي. وكثيراً ما سألت أبويها عن ادعاءاتـه، دون أن تجرؤ على ذلك مع جدها، فيتضاحكان من مغالاتـه إلى درجة تشعرها بالغبـن والحمق والحنق على لقاء: إنت بتضحك علي. ما فيه بيارة تلات طوابق يا كذاب.

ادعاءاتـه التي نفرت نـهايه منـه، قربت إليه العديد من رفاق المدرسة. فهو وإن كان مقتراً منفراً متهدل الثياب، إلا أن رنين النقود في صرتـه كان لـه قوة السحر في إخضاع الآذان للاستماع ولملمة الأتباع.

تجاوز المرحلة الأولية بتفوق والتحق بثانوية عمان، وقد زغب شارباه. لم تدفعه مراهقتـه إلى الشعر والوجد وتخيل فتاة الأحلام. كان يغالي ويتباهى بامتلاكه النقود وميراث عائلتـه المقدسية ذات الجذور. إلا أنـه لم يكن معنياً بالفتيات على الإطلاق. حتى نـهايه لم يكن يذكرها أمام أصحابه.

أضاف إلى تفوقه الدراسي، تفوقاً قيادياً وهو يقود مظاهرة داخل المدرسة، بسبب إقرار هيئة الأمم للمشروع البريطاني القاضي بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود.

انطلقت المظاهرة في المدرسة بنحو مئة طالب استقطبوا مئات آخرين في مركز البلدة من الصبية والرجال والكهول الذين صاروا يرددون معهم خلف لقاء هتافات مدوية تندد بالانجليز أكثر مما تندد باليهود.



دفع جلوب قواتـه، بعدما أخفق رجال البوليس في تفريقها. بل أن كثيراً منـهم انضم إليها أو تواطأ معها، فتصدى لـها رجال البادية بشراسة وقسوة أدمت الكثيرين وكسرت عظام بعضهم وألقت القبض على آخرين.

رفض جلوب إطلاق سراحهم، رغم وساطات القوى الوطنية في الحكومة، إلا بكفالة مالية يوقعها الكبار وأولياء أمور الصغار.

قال فرحان جذلاً وهو يغادر معتقل المحطة مع لقاء: طالع لبوك يا ولد.. وراح يروي لـه قصة الصحراء: كان بـمثل عمرك حينـها.. وهي المرة الألف التي يسمع لقاء الحكاية كما قال لنـهايه، دون أن يمل سماعها. شأن رفاق المدرسة الذين أضجرهم لكثرة روايتـها لـهم، وفي كل مرة يضيف إليها أحداثاً جديدة. ليس بدافع التشويق، ولكن لأنـه

قلما يكرر ما يسمعه بحرفيتـه، وإن كانت قوة ذاكراتـه يشهد بها الجميع.

٣٠

فتح الباب وأذن للركاب بالمغادرة، فحلقت نفس فريد الأطرش أعلى بكثير مما وصلت إليه الطائرة في الفضاء، وهو ينظر من الكوة، غير مصدق نفسه، إلى الجماهير التي احتشدت وراء السياج. صحيح أنـه مشهور في دنيا الفن المصرية من خلال أفلامه السينمائية، لكنـه لم يظن يوماً أن معجبيه في لبنان بهذا الحجم، وأن حشودهم تكاد تسقط الحواجز في اندفاعها من أجل لقائه.

أحس بجلال انتمائه السوري وهو الذي قال لشقيقه فؤاد بعدما تحولا من ضيق العيش في مصر إلى بحبوحتـه " لا كرامة لنبي في وطنـه".

سقطت المقولة وهو يطل من الطائرة لتأسر هذه الحشود وجدانـه بدفء الاستقبال رغم أنـه لم يصرح للصحافة عن زيارتـه المفاجئة هذه. كرامة الإنسان فقط في وطنـه. فهو رغم اشتـهاره مطرباً وموسيقاراً مصرياً، إلا أنـه لم يحظ في مصر بـمثل هذا العدد من المعجبين. كأن

اللبنانيين جميعاً جاؤوا لاستقبالـه والترحيب به. جماهير من الجنسين ومن مختلف الأعمار، يهتفون لسوريتـه التي سيغني لـها أجمل الألحان. كيف لا، وحشودهم تبايعه ملكاً للغناء في بلاد الشام: سوريا، سوريا، سوريا.

كاد يطير عن سلم الطائرة، لولا أنـه وازن نفسه بين أخيه فؤاد على يمناه والشاعر بيرم التونسي على يسراه: ما حدش يقول لي إنـه مصر أكبر من لبنان. ده الناس اللي هنا ما تسعهمش بلاد الشام... قال مزهواً وهو يلوح للجماهير الـهادرة: سوريا. سوريا. سوريا.

ظل واقفاً للحظة على قمة السلم، دون أن تدرك عيناه الـمدى البشري الذي وصل الأفق: اسمع يا بيرم... وسكت فمه إلا عن ابتسامة مستطيلة رسمت بدقة هندسية مذهلة. فسألـه الشاعر: إيه يا فريد ؟! .

- حاسس إني بطير لفوق فوق.

- ما هو إحنا كنا دلوقت طايرين فوق فوق. ودلوقت عاوزين ننـزل تحت برجلينا، لاحسن الركاب خلفنا ح ينـزلونا دحرجة برجليهم.

-	ركاب إيه وبتاع إيه. دول يشكروا ربنا إنـهم جايين واياي... وهبطا السلم: اسمع يا بيرم.

-	أيوه يا فريد.

-	عاوز تكتب لي غنوة أطير فيها فوق. اسمع. اسمع. سامع إيه.

-	اللي سامعه حضرتك. سوريا. سوريا.

-	وعاوز غنوة أطير بيها مثل ما أنا طاير دلوقت فوق سوريا كلـها؟.

-	على كده، ما يلزمكاش غنوه. يلزمك بساط الريح.

تغير مجرى الريح بـمجرد أن وصل فريد بين أخيه وشاعره أسفل السلم، ليبدأ الـهدير أعلى مما كان مع إطلالة انطوان سعاده من الباب، واندفعت الجماهير إلى الطائرة، فامتص الانقباض ابتسامة فريد، وتحول فمه المستطيل إلى هلال حزين، وصغرت عيناه على صغرهما، وقبض مرافقاه هذه المرة على إبطيه بعدما تراخت ركبتاه، بينما اندفعت الجماهير متخطية الحواجز وهي تصرخ: سعاده. سعاده...

"إن عملكم القومي كان أصدق تعبير عن إرادة الأمة في لبنان والشام، وفي فلسطين وشرق الأردن وفي ما بين النـهرين. كل ما سوى ذلك هو باطل لا يمثل لبنان ولا يمثل إرادة الشعب اللبناني على الإطلاق.

إيها القوميون الاجتماعيون.

إن جهادنا يستمر، ويجب أن تذكروا دائماً أن فلسطين سورية. هذا الجناح الجنوبي مهدد تـهديداً خطيراً. إن إرادة القوميين الاجتماعيين هي إنقاذ فلسطين من المطامع اليهودية ومشتركاتـها".

واظب انطون في المهجر على تواصلـه مع قيادة الحزب في لبنان. كان يعرف عن الامتداد الجماهيري الكاسح للحزب الذي غدت بعض المناطق معاقلَ لـه، تخيف الدولة بـمثل ما تخيف الشيوعيين والكتائبيين على السواء. لكنـه مع هذا، لم يتوقع أن تجتمع كل هذه الحشود جهارة لاستقبالـه، متجاوزة الحظر الحكومي على عمل الحزب وأنشطتـه.

قال في اجتماعه مع عمد الحزب: اقتربنا من الثورة القومية الاجتماعية لإسقاط أنظمة العمالة الاستعمارية وتحقيق الوحدة السورية.

تساءل عمدة الدفاع: يعني نبدا من لبنان؟.

رد أنطون بحزم: على اللي شفتـه بالاستقبال، لبنان ما بتاخذ منا أيام. الخطر على أمتنا السورية يكمن في الجنوب. تقسيم فلسطين أكبر خطر يواجه السوريين. يوم الثلاثين من تشرين الثاني يوم حداد للقوميين الاجتماعيين. وعلى جميع المنتديات العامة والمديريات التابعة إلـها فتح سجلات التطوع للجيش القومي الاجتماعي. احنا بحالة حرب من أجل فلسطين.

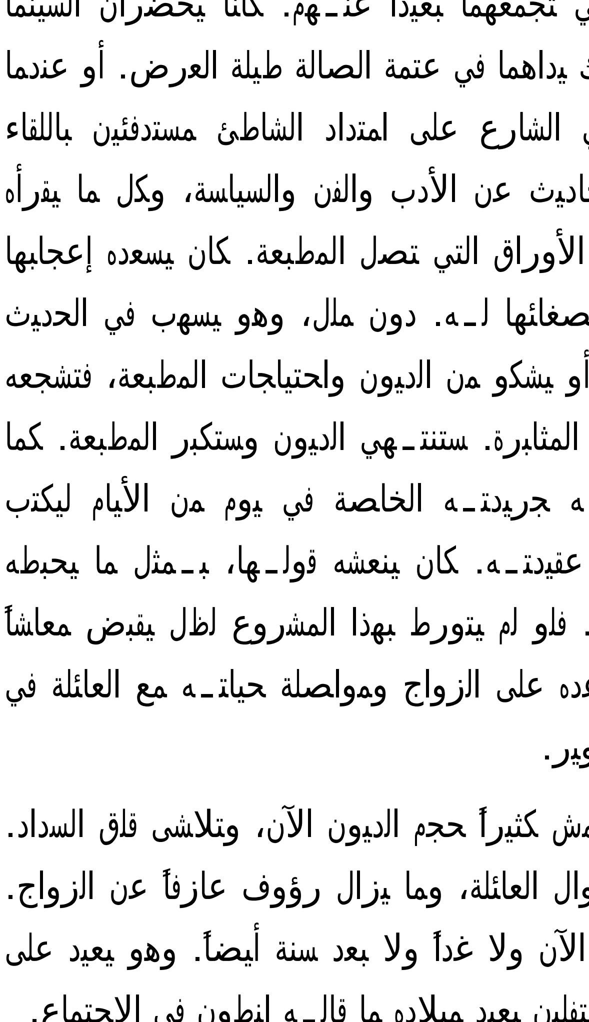
كانت مارغو قد أجهدت نفسها طيلة النـهار في إعداد الأطعمة والحلوى والشراب، بينما انـهمك واصف في تزيـين مخارج البيت ومداخلـه بالكرات الملونة والبالونات وحبال زينة تتخللـها أعلام ورقية صغيرة تحمل رسم الزوبعة، إرضاء لرؤوف الذي سيدعو انطون إلى الحفلة.

أعدت مارغو كعكة من ثلاث طبقات، غرزت في كل منها تسع شمعات صغيرة، إضافة إلى واحدة كبيرة توسطت أعلاها. ساعدتـها في الإعداد ابنة الدكتور صبحي المر المفتونة برؤوف، والتي تتطلع مارغو لزواجها منـه.

واظبت مارغو على الاحتفال بالمناسبة كل عام وفقاً لإمكانياتـهم المالية المتواضعة، إلى أن توقفت تماماً بعدما ترك رؤوف عملـه في المطبعة.

رتب عليه إنشاء مطبعة صغيرة خاصة به، ديوناً أرهقت كاهلـه وعائلتـه لخمس سنين متتالية. ساعده خلالـها الحزب من خلال منشوراتـه التي احتكر طباعتـها. كما ساعده الرفاق في نمو عملـه وزبائنـه. لكن الديون ظلت تستنـزف إيراده إلى ما قبل عام. تحسن بعده الوضع المعيشي للعائلة وشرع رؤوف في توسيع عملـه والادخار معاً، فصارت تلح أمه عليه بالزواج. وكلما قال بأنـه ما يزال في البداية، تقول لـه بأن رفاقه قد تجاوزوها وصار عندهم عر ولاد.

في اللقاءات العائلية، كان الجميع يلاحظ الود المتبادل بين رؤوف وابنة الدكتور صبحي. لكن أحداً لم يكن يعرف



بالعلاقة التي تجمعهما بعيداً عنـهم. كانا يحضران السينما حيث تتشابك يداهما في عتمة الصالة طيلة العرض. أو عندما يتمشيان في الشارع على امتداد الشاطئ مستدفئين باللقاء وتبادل الأحاديث عن الأدب والفن والسياسة، وكل ما يقرأه رؤوف في الأوراق التي تصل المطبعة. كان يسعده إعجابها بثقافتـه وإصغائها لـه. دون ملل، وهو يسهب في الحديث عن مبادئه أو يشكو من الديون واحتياجات المطبعة، فتشجعه وتحثه على المثابرة. ستنتـهي الديون وستكبر المطبعة. كما سيصبح لـه جريدتـه الخاصة في يوم من الأيام ليكتب بحرية عن عقيدتـه. كان ينعشه قولـها، بـمثل ما يحبطه تأنيبات أمه. فلو لم يتورط بهذا المشروع لظل يقبض معاشاً شهرياً يساعده على الزواج ومواصلة حياتـه مع العائلة في ضهور الشوير.

انكمش كثيراً حجم الديون الآن، وتلاشى قلق السداد. انتعشت أحوال العائلة، وما يزال رؤوف عازفاً عن الزواج. لا يفكر به الآن ولا غداً ولا بعد سنة أيضاً. وهو يعيد على مسامع المحتفلين بعيد ميلاده ما قالـه انطون في الاجتماع.

نقمت مارغو حينـها على أنطون الذي لم يحضر الحفلة كما وعد رؤوف: انت ما لازمك غير دف ترقص عليه... قالت بعد انفضاض الجميع: حرب شو، وبطيخ شو؟. ليش إنت بتعرف تحارب. خلي الحرب لصحابها وحط راسك بشغلك، إلا از بتريد تموتني.

لم يعلق بكلمة، ولا تحداها بعنفوان المراهقة، حين كان يظن بأنـه قادر على قلب الدنيا وتغيير العالم. أصبح أكثر تعقلاً وروية منـه في تلك الأيام الملتـهبة بالجنون. لكن شبابه الغض ما يزال صافياً نقياً، لم تلوثه الاستكانة والخضوع للواقع المفروض. فهو وإن يتطلع إلى نجاح مطبعتـه وتطويرها، إلا أنه يتطلع أيضاً إلى نجاح حزبه سياسياً وانتصاره عسكرياً. ما يزال انطون أنموذجه وإن كان يتماهى أكثر مع جبران، سواء في عملـه المطبعي، أو نضالـه القومي واستشهاده البطولي.

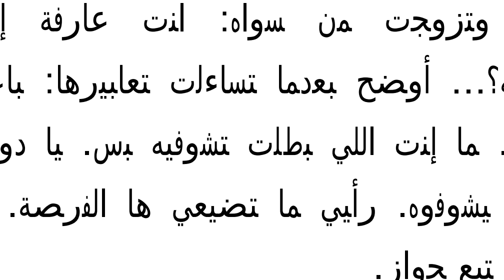
لم يعد يتذكر جبران، بل يتقمصه في العمل والحديث والسهر والاجتماعات وقيادة المليشيات. ومثلما كان جبران يستعذب استذكاره جرأته وسيف الحجاج باقتحام مقر غورو في قصر الحرش، فإن رؤوف استعذب انصات انطون لـه

وهو يخبره عن مواجهتـهم للشيوعيين المحتمين بالسلطات الانتدابية. أضحكه من الأعماق وهو يسخر مـن مراوحة الشيوعيين بين اليمين واليسار، وتغير مواقفهم حسب تغير سياسات موسكو " كل ما دوت الغازات من شرج ستالين، يخرون لـها ساجدين". ومثلما استطاع جبران التوفيق بين عملـه المعيشي ونضالـه السياسي، كذلك فعل رؤوف الذي جعلت منـه منشورات مطبعتـه ومكتبة جده من كبار المثقفين الشباب الذين يعول عليهم انطون في التوعية الحزبية والجاهزية القتالية، عندما تبدأ ثورتـه الاجتماعية.

قالت لـه ابنة صبحي المر: إذا بتحبني صحيح، خلينا نتجوز. ما بقدر أضل أرفض كل واحد بتقدم لي.

- أنا ما بقدر أتجوز. عندي أمور أهم هلأ.
- أهم مني.

حاول أبوها اقناعها بالزواج من ابن عمـها المغترب في أمريكا، فصارحتـه بأنـها ورؤوف متحابان. كان يدرك ذلك مثلما يدرك أولويات رؤوف التي لا تختلف عن أولويات جبران. فلما قالت بأسى أنـها لا تستطيع الزواج من غيره،



قال بأن زواجها من رؤوف سيعذبها أكثر مما لو تخلت عنـه وتزوجت من سواه: انت عارفة إنـه ترك المطبعة؟... أوضح بعدما تساءلت تعابيرها: باعها وتفرغ للحزب. ما إنت اللي بطلت تشوفيه بس. يا دوب عيلتـه قاعدين يشوفوه. رأيي ما تضيعي ها الفرصة. رؤوف يا بنتي ما تبع جواز.

٣١

بعد انتـهاء الحرب، نالت سوريا الاستقلال. تبعه جلاء القوات الفرنسية عن لبنان، وتحول شرق الأردن من إمارة إلى مملكة وبقيت فلسطين تحت الانتداب. ينازع اليهود فيها العرب وفقاً لوعد بلفور الذي غدا بقدسية الوعود الإلـهية بالنسبة للوكالة اليهودية، ورجس الشيطان بالنسبة للـهيئة العربية ، وعلى رأسها المفتي الذي استقبل بحفاوة بالغة من قبل ملك مصر. ليغدو محل إقامتـه الدائمة في محلة الزيتونة، مقر قيادته للمقاومة الفلسطينية ، وبعث الوفود طلباً للعون من الدول العربية والاسلامية.

كان الزعماء العرب يقدرون اسم المفتي ويرتابون من فعلـه. ولاسيما بعد التنكيل الذي مني به مؤازروه العراقيون.

هناك طغى بشخصيتـه القوية وتفقهه الديني وقدرتـه البلاغية، على أقطاب الحركة الكيلانية، فجعلوه

عميدهم ومرشدهم. يتحكم بالقرارات بـمثل ما يقرر شكل السلطة ويختار الوزراء.

بعد القضاء على الحركة وتبعثر أتباعها بين المعتقلات العراقية والمنافي الخارجية، وصل المفتي إلى إيران ومنـها إلى ايطاليا لمقابلة موسليني، ثم إلى ألمانيا للالتقاء بهتلر.

كان هتلر قد وعد الألمان بأن عاصمتـهم ستظل آمنة لا تستطيع أي طائرة عدوة اختراق أجوائها أو إسقاط قنبلة فوقها، فوصل المفتي برلين التي يعيش سكانـها بأمن واستقرار. الشوارع مضاءة مزدحمة بالسيارات، والأرصفة تضج حيوية والمحلات تغص بالمتسوقين.

رافق المفتي وفد رفيع المستوى إلى محل إقامتـه الذي أوصى به الفوهور في قصر "شلوس بيفلو" التاريخي في حي تيرغارتن.

توافد عليه العديد، يومها، من رجالات الخارجية الألمانية، فأثلجوا صدره بتأكيدهم على انتصار هتلر للقضية العربية عامة، والفلسطينية بخاصة، وأثلج صدورهم يقينـه

من انتصار الألمان على الحلفاء. ليس في العالم أجمع مدينة أكثر أمناً وطمأنينة من برلين التي لم تصلـها ولن تصلـها قذيفة واحدة كما وعد الفوهرر.

وفد عليه أيضاً عدد من كبار العرب والمسلمين المؤيدين للألمان للترحيب وتقديم المؤازرة والولاء. تغنى أمامهم بالقوة الألمانية. يقبع سكان العواصم الأوروبية في الملاجئ أو تحت ركام الدمار، وتعيش برلين هادئة آمنة من الإغارات. استمرت الوفود إلى نحو العاشرة ليلاً، حين آوى المفتي راضياً مرتاح البال إلى فراشه في جناحه الفاخر الرحب.

كانت الغفوة قد سرقتـه عندما استيقظ مذعوراً على صوت قرع شديد على الباب، طغى عليه صوت أبواق النذير المتتابعة في الخارج.قضى تلك الليلة في مـخابئ القصر على عمق عشرات الأمتار في جوف الأرض، بينما طائرات الحلفاء تثير الرعب والـهلع والفوضى بين سكان المدينة الذين لم يستعدوا لـهذه الإغارات ولم يتوقعوها. حينـها فقط راودت المفتي الخشية على رهانـه.

مع هذا لم يكن أمامه من خيار سوى مواصلة الارتباط بهتلر ومواصلة اللقاء مع الزعامات الإسلامية التي ستشارك في القتال مع قوات المحور، باعتباره رئيس المجلس الإسلامي الأعلى.

كانت أخبار القتال في الشرق الأوسط تصلـه تباعاً من خلال زعماء المنظمات الإسلامية المتوافدين عليه. مما كان يشعره بالندم على تحولـه من الانجليز إلى الألمان. لكنـه كان يسقط مشاعره، دفاعاً عن كيانـه، إلى رغبة جامحة بالانتقام. فهو لم يحقق شيئاً في مساعيه التي ظن أن الانجليز سيسارعون بسببها إلى استرضائه وتحقيق مطالبه. بل أصبح مطارداً منـهم، بينما اليهود يستحوذون على رضاهم وثقتـهم، بانضمام عشرات الآلاف منـهم للقتال مع الحلفاء. ليتخرجوا جنوداً متمرسين وطيارين محترفين. حتى نساؤهم قاتلت بالأسلحة الثقيلة وقادت الطائرات والمدمرات والغواصات.

ظل المفتي يبدي ثقة وتماسكاً. رغم شعوره بالخذلان على الأرض الألمانية التي لم تعد حصينة الدفاعات مثلما وعد هتلر وهي تتعرض من يوم لآخر للإغارات. كما

انقطعت صلاتـه بالعالم العربي، إثر انتباه قادتـه إلى أمورهم الداخلية وفرض رهبتـهم وتأكيد زعامتـهم.

إقامتـه في مصر لم تخل من المخاطر وهو يتعرض للمضايقات من كبار رجال الدولة الموالين للانجليز، وإلى الكيد والمؤامرات من عملائهم، إلى درجة اتـهم فيها من قبل "مكتب الصحافة" بالعمالة للسوفييت. لكن شمولـه برعاية الملك الذي أطلق يده في إحياء الـهيئة العربية العليا وافتتاح مكاتب سياسية ولجان إعلامية وعسكرية، جنبه الوقوع في براثن المبغضين من عملاء ومرتبطين.

صار يتحدث عن ملك مصر باعتباره ملك الملوك وسيد الزعماء ومنقذ المقدسات، وهو الذي كان يتندر في العراق بضعفه وغدره وخيبة كل من يتكئ عليه.

كان المفتي يدرك أن قوتـه تكمن في حضوره الشخصي الطاغي وتكتيكه الآني. بـمثل ما يدرك أن ضعفه في بصيرتـه الضيقة المحدودة. لـهذا كان يخشى إحاطة نفسه ببطانة مستقلة الإرادة والرؤية، أو برجال تتجاوز مطامحهم شخصه ولو كانوا بـمثل حسه الوطني أو حماسه القومي. راعى في تشكيلة رجالـه نـهج "معي ومن ليس

معي"، حتى في اختيار أعضاء المؤتمر الوطني الذي صار يدعو لإعداده، من أجل إعلان استقلال فلسطين وتشكيل حكومة لعموم شعب فلسطين.

وضع كل بيضه في السلة المصرية، وهو الذي روى مراراً للكيلانيـين، رواية سفر الملوك عن العكاز المرضوضة التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفه وثقبتـها. هكذا كان فرعون مصر بنظر الأشوريـين.

وهكذا كان ملك مصر بنظر المفتي، في غمرة شعوره بالقوة والسلطة أثناء وجوده في العراق. أما الآن فهو لا يتكئ بيده على ملك مصر، بل وضع نفسه بكل ثقلـه في حضنـه، بعدما أجاز لـه افتتاح مكاتب هيئتـه في القاهرة وإقامة مشاغل العتاد وتشكيل اللجان وإرسال المبعوثين واستقبال الوفود بـمراسيم زعماء الدول.

أثمرت اتصالاتـه مع أحمد الصباح، رئيس مجلس الشورى الكويتي، عن رفد الكويت بالخبرات الفلسطينية، لمساعدة الكويتيين على اللحاق بركب الحضارة. برر لبطانتـه قراره الذي سيفرغ فلسطين من الخبرات، بأن هذه المساهمة ستجعلـهم رواداً في حركة الإعمار والتطوير

لدولة عربية ناشئة، سترد لـهم يوما الجميل. وكأنـه بذلك يحاول الرد على هزيمتـه في العراق. كان في قرارة نفسه يعتبر أن شعبه الفلسطيني شعب متميز القدرات، لكنـه انقلابي مولع بالثورات. لـهذا كان يفاخر به وهو يرفد الدول العربية بالخبرات، في الوقت الذي يتحوط منـه بالاعتماد فقط على أفراد عائلتـه والأتباع الذين يدينون لـه بالولاء التام والطاعة العمياء.

رغم تتابع لقاء مبعوثيه بالزعماء العرب، وتتابع موجات بعثاتـه التعليمية والفنية، إلا أنـه لم يحظ بالعمق العربي الذي كان يتطلع إليه.

كان الشارع العربي برمتـه يسانده ويؤازر قضيتـه الفلسطينية، إلا أن الشعوب كانت أعجز من أن تأثر بالسياسة الرسمية، فالمظاهرات والإضرابات كانت تولد في الشارع وتموت فيه. لـهذا لم يعول المفتي عليها وإن كان أحياناً يستصرخها. العمق العربي هو الزعامات العربية. وفي لجة صراع هذه الزعامات لم يكن أمامه ولا حولـه إلا العصا التي كانت بنظره فيما سبق تثقب يد المتكئ عليها.

جاء الحدث الذي اعتبره المفتي بداية نكبة اليهود، بـمثل ما اعتبره زعماء اليهود بداية نكبة الفلسطينيـين. تعامل كلا الطرفين معه وفقاً لمنظوره الخاص. فكان منظار اليهود أبعد مدى من منظار المفتي الذي يقر بينـه وبين نفسه بأن قوتـه تكمن في حضوره الشخصي، بـمثل ما يكمن ضعفه في قصر نظره. داء عضال تتكرر نوباتـه باستمرار، دونما علاج أو شفاء.

تخبط شهوراً طويلة بسبب إخفاقه في توفير السلاح والمال لإدارة حربه. لم يكن يخشى الـهزيمة أمام اليهود، الذين سيخسرون لا محالة في نـهايه المطاف، لكنـه كان يخشى أن تتولى عنـه الزعامات العربية، وتسحب العائلات الفلسطينية البساط من تحتـه. رغم تحصنـه بالأتباع من معاونيه الخلّص بغض النظر عن صدق وطنيتـهم أو نظافة تاريخهم. بينما الوكالة اليهودية تضخ المال والسلاح على قوات الـهاغاناه والبالماخ وهامشير والإرغون وشتيرن التي التأمت تحت قيادة واحدة لتنفيذ الخطة دال بالاستيلاء على أكبر مساحة من فلسطين قبل انتـهاء الانتداب، والاستحواذ على جميع القواعد والاستحكامات العسكرية بـمجرد

انتـهائه. بهذا ينتقلون من الدفاع إلى الـهجوم. أما النجدات العربية التي ينتظرها المفتي، فإن اليهود كانوا يتوقعونـها مثلـه ويستعدون لاستقبالـها قبلـه.

مع النجاح الباهر للخطة دال في مراحلـها الأولى، انتقلت القوات اليهودية إلى المرحلة التالية التي أطلق عليها عملية ناخسون. فبوغتت القوات الفلسطينية في القسطل، إلا أن المقاومة العنيفة التي واجهت اليهود أطالت أمد القتال بضعة أيام، وصلت خلالـها نجدات المقاومين من شرق الأردن وكافة أنحاء فلسطين فانقلب الوضع العسكري لليهود من الـهجوم إلى الدفاع، مما يعني موت الخطة دال، لولا استشهاد عبد القادر الحسيني، قائد جيش الجهاد.

ارتبك المقاتلون الفلسطينيون وانسحبوا على مراحل، تاركين مواقعهم للقوات اليهودية التي قررت الإسراع بالانتقال من عملية ناخسون إلى عملية أحدوت، وهم يقتحمون قرية دير ياسين، مفجرين البيوت على ساكني-ـها ومنـزلين حكم الموت الفوري بكل فلسطيني يقع بأيدي طلائع القوة من الشبان المراهقين، فجمعوا في ساحة القرية عشرات الناجين، وراحوا يتبارزون التصويب عليهم. أما

النساء الحوامل فكانوا يتراهنون على جنس الجنين وهم يبقرون البطون، في جو ربيعي دافىء تفتحت فيه أزهار اللوز مع رائحة الموت التي انبعثت من الجثث المتفسخة التي جذبت الذباب والبعوض. بينما شبان الـهاغناه يلتقطون الصور التذكارية، ملوحين أيدهم الملطخة بالدماء، ومرددين شعار هاشومير الذي نادى به بن غورين، أول رئيس للدولة العبرية " وبالدم والنار سقطت اليهودية. وبالدم والنار سوف تعود من جديد".

٣٢

ترحم المفتي على سيف الحجاج، وقال بأنـه لو اقتدى به أحدهم وقابل المذبحة بأخرى لانقلبت الأمور وحلت النكبة باليهود، لكن الجرائد والإذاعات العربية وهي تنقل ما جرى للقرية وقتل معظم أهلـها الخمسمئة، أصابت كل رب أسرة بالـهلع والخشية، بينما المفتي وهيئتـه العليا يدلون بتصريح وراء آخر لوسائل الإعلام من صحف وإذاعات، لتأجيج غضب الشارع العربي واستمالة الشارع الغربي، فكان الأول يفتقر للإرشادات والآخر يرقد تحت الركام الذي خلفتـه حرب الكبار.

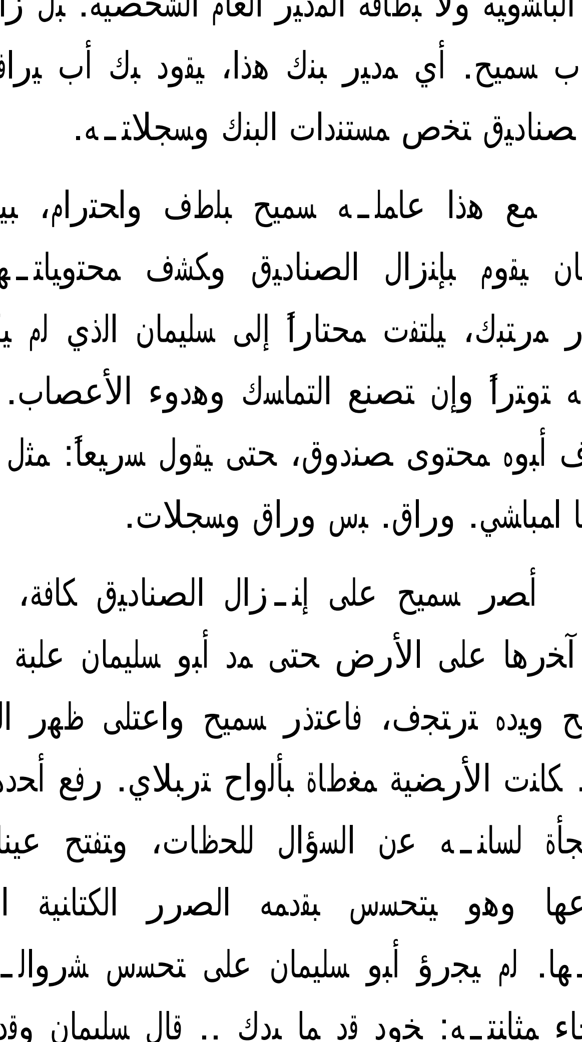
وجد التـهويل صداه المباشر لدى الموسرين الفلسطينيين، فحمل العديد منـهم نقودهم وركبوا سياراتـهم مبتعدين، فصنعت العجلات سحابة قاتمة تنبئ بالإعصار.

ارتاع الفلاحون الذين يخشون على أبنائهم أكثر من خشية أهل المدن على أموالـهم، فحققت عملية أحدوت نجاحاً أكثر مما كان يطمع بـها مخططوها ومنفذوها.

فتسابق القرويون على الفرار من شبح المذبحة في اندفاع هائج جنوني خرج عن سيطرة العرب واليهود، بينما تصل مواكب اللاجئين إلى الجنوب اللبناني والسوري، وتعبر قوافل المرتحلين جسور النـهر المتعرج، أو تتخطى مياهه الواطئة، طلباً للأمن في الضفة الشرقية التي انتصبت فيها المخيمات شمالاً وجنوباً وفي قلب العاصمة عمان.

كان سميح قد استنفر مع معظم قوة البوليس في معابر الجسور النـهرية،بعدما أذعن جلوب لطلب قيادة الجيـوش العربية. فدفع سرية مشاة بقيادة مختار وأخرى آلية بقيادة "أبو جميع"، فوصلوا الجليل في جو عاصف ماطر شديد البرودة.

كانت أوامر جلوب لطباره، الذي وصل في ترقيتـه إلى رتبة ملازم أول، صارمة. يجب تفتيش المركبات، العابرة للجسور من الاتجاهين، تفتيشاً دقيقاً وجمركة المنقولات المسموح بها ومصادرة غير المسوح. كان يهدف من وراء ذلك إلى وقف تـهريب السلاح من الأردن إلى فلسطين، وإن برر أوامره بخشيتـه من تـهريب السلاح معاكساً إلى الأردن. فلم يكن أمام سليمان إلا الإذعان لطلب



سميح والموافقة على تفريغ صندوق البك أب، طالما لم تشفع لـه الباشوية ولا بطاقة المدير العام الشخصية. بل زادت من ارتياب سميح. أي مدير بنك هذا، يقود بك أب يرافقه أبوه لنقل صناديق تخص مستندات البنك وسجلاتـه.

مع هذا عاملـه سميح بلطف واحترام، بينما أبو سليمان يقوم بإنزال الصناديق وكشف محتوياتـها وهو متوتر مرتبك، يلتفت محتاراً إلى سليمان الذي لم يكن يقل عنـه توتراً وإن تصنع التماسك وهدوء الأعصاب. فما أن يكشف أبوه محتوى صندوق، حتى يقول سريعاً: مثل ما قلت لك يا امباشي. وراق. بس وراق وسجلات.

أصر سميح على إنـزال الصناديق كافة، وما أن حط آخرها على الأرض حتى مد أبو سليمان علبة سجائرة لسميح ويده ترتجف، فاعتذر سميح واعتلى ظهر البك أب قفزاً. كانت الأرضية مغطاة بألواح تربلاي. رفع أحدها لتعقد المفاجأة لسانـه عن السؤال للحظات، وتفتح عيناه على اتساعها وهو يتحسس بقدمه الصرر الكتانية الرابضة تحتـها. لم يجرؤ أبو سليمان على تحسس شروالـه رغم ارتخاء مثانتـه: خود قد ما بدك .. قال سليمان وقد اصفر

وجهه، بينما تيبس أبوه في موقعه وهو ينظر بخشية إلى رجال البوليس المنشغلين في تفتيش عددٍ من السيارات: شو هاد؟.. سأل سميح.. ونظر من جهتـه إلى رجال البوليس القريبين، فأسرع سليمان إلى جانبه: مصاري الناس يا اومباشي. مصاري الناس وا العظيم وبدي انقلـ ـها لعمان ألمن إلـ ـها. انت شايف شو اللي قاعد يصير..

لم يسمعه سميح وهو يرخي رباط كيسٍ آخر.

حط يـ ـده اليمنى على جراب مسدسه ورفع اليسرى، لكنه قبل أن يلوحها طالباً الدعم، قال سليمان باستكانة ورجاء: خود قد ما بدك وأنا راضي، بس خليني أمر، ا يستر عليك.

- قديش حامل؟... وشخصت عيناه بستفات الأوراق النقدية داخل الكيس.

- وا ما بعرف. حملّنا كل اللي بالخزنة. بلاش يوصل اليهود وياخدوهم.

- وما خفت إحنا ناخدهم؟!.

- ليش تاخدوهم يا اومباشي؟!. مصاري حلال، وأنا بدي أنقلـهم لعمان.

- وما قدرت تاخد تصريح من الحكومة.؟.

- ليش فيه عندنا حكومة يا اومباشي؟.

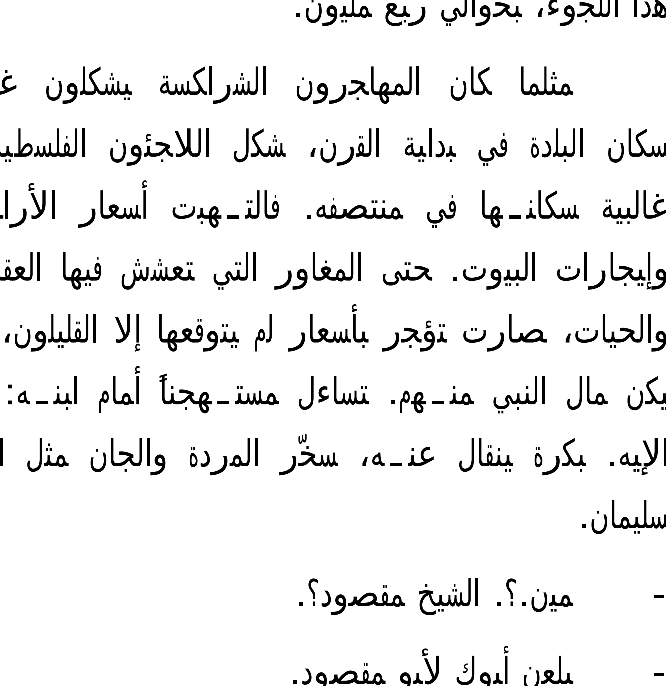
- قصدي حكومتنا هون.

- لو كنت محلي بتاخد تصريح.؟.

الإرهاق الذي أضنى أبا سليمان وهو ينـزل الصناديق، تلاشى تماماً وهو يعيد تحميلـها ولسانـه لا يتوقف عن الشكر والثناء "ا يخاف عليك". "ا يخليك لوالديك". "ربنا يرزقك وتصير صاحب بنك". "ما رح ينسى لك ربنا حسنة اليتامى اللي مخبيين مصاريهم عندنا" ... وواصل البك أب دربه إلى عمان: قلت لك ما يهمك حاجة إزا أنا معك. إنطلع قدامك بلا ما تدهورنا.

تدهورت خلال أسبوع عشرات المركبات على الجسور وفي الدروب المعبدة وغير المعبدة بعدما فقدت قوات البوليس السيطرة على اندفاع عشرات الآلاف من المهاجرين هرباً من تنكيل اليهود. فتنادت هيئة الأمم لتقديم المساعدة

للاجئين، بينما تنتصب الشوادر والخيام على التلال وجوانب السيل في عمان، التي قدرت دائرة نفوسها عدد السكان، مع هذا اللجوء، بحوالي ربع مليون.



مثلما كان المهاجرون الشراكسة يشكلون غالبية سكان البلدة في بداية القرن، شكل اللاجئون الفلسطينيون غالبية سكانـها في منتصفه. فالتـهبت أسعار الأراضي وإيجارات البيوت. حتى المغاور التي تعشش فيها العقارب والحيات، صارت تؤجر بأسعار لم يتوقعها إلا القليلون، ولم يكن مال النبي منـهم. تساءل مستـهجناً أمام ابنـه: ابن الإيه. بكرة ينقال عنـه، سخّر المردة والجان مثل النبي سليمان.

- مين.؟. الشيخ مقصود؟.
- يلعن أبوك لأبو مقصود.

٣٣

قال مال النبي لزوجتـه: العرب يقولوا، لا تدل بدوي على باب بيتك. بس الصحيح لا تدل شيخ على باب بيتك... فساره، رغم تعلقها بجرير وإيمانـها به، ورغم أن ابنها يؤنسها ويسليها بـمثل ما يأخذ منـها وقت نـهارها، إلا أن حنينـها لعائلتـها صار يتنامى مع طول ابتعادها، ولاسيما الشوق لأمها. فتباغتـها من حين لحين كآبة تمتد أياماً، وهي تراود نفسها بزيارة ذويها مهما كانت النتيجة، ثم تتـهيأ لـها النتيجة بصورٍ شتى أحلاها مر. فتنكفئ على نفسها وتبكي بصمت مجاهدة إخفاء اكتئابها عن جرير.

استقلا معاً في بيت خاص، بـمجرد أن قبض جرير مخالصتـه عن إرث أبيه. كان يحس باختلاجاتـها رغم أنها تجاهد في إخفائها. لم يكن ليتوانى عن مرافقتـها، لو صدر عن أبيها إشارة تدل على ليونة موقفه، ولو في نبرة حديثة.

دفع البابا قدري مراراً لرأب الصدع، دون جدوى. فمال النبي الذي فوجئ بزيارة البابا الأولى يوم أنجبت ساره

مولودها، جعلـه الحدث يزداد حنقاً وغيظاً وغضباً. لم يصدق ما قالـه البابا من أن ساره أنجبت ولداً سباعياً. حلف أمام زوجتـه بأنـها غادرت البيت حبلى. وكانت زوجتـه تلوذ بالصمت دون أن تدري إن كان يقصدها أم يقصد ابنتـها وهو يصفها بالفاجرة أو النجسة أو الدنسة أو العاهرة.

لم يخلصه التحول عن الصهيونية إلى العنانية من مخاوف انفضاح أمره، في وضع مشحون بالكراهية لليهود والانجليز. كما أنـه لم يصدق أن هذا الشيخ، الذي قالت بروز بأنـه وراء كل إشاعة، يأتي لزيارتـه بدافع أخلاقي تمليه عليه قيمه الدينية. وصلت به الظنون إلى درجة الخشية من أن وراء كل زيارة مؤامرة، لا بد أن تتمخض عن ابتزاز واستنـزاف: كانت عارفة إنك ما راح توافق على جيزتـها. شو بإيدها تعمل غير اللي عملتـه منشان تتجوز اللي بتحبه. تجوزتـه على سنة الله ورسولـه. بعدين يا أبو العبد. بضل ابنـها حفيدك، قلت آ أو لأ.

كان يكابر للتماسك أمام هذا الشيخ الذي يتصنع الثقة والحكمة والخير في المقصد. بينـه وبين نفسه يتمنى لو

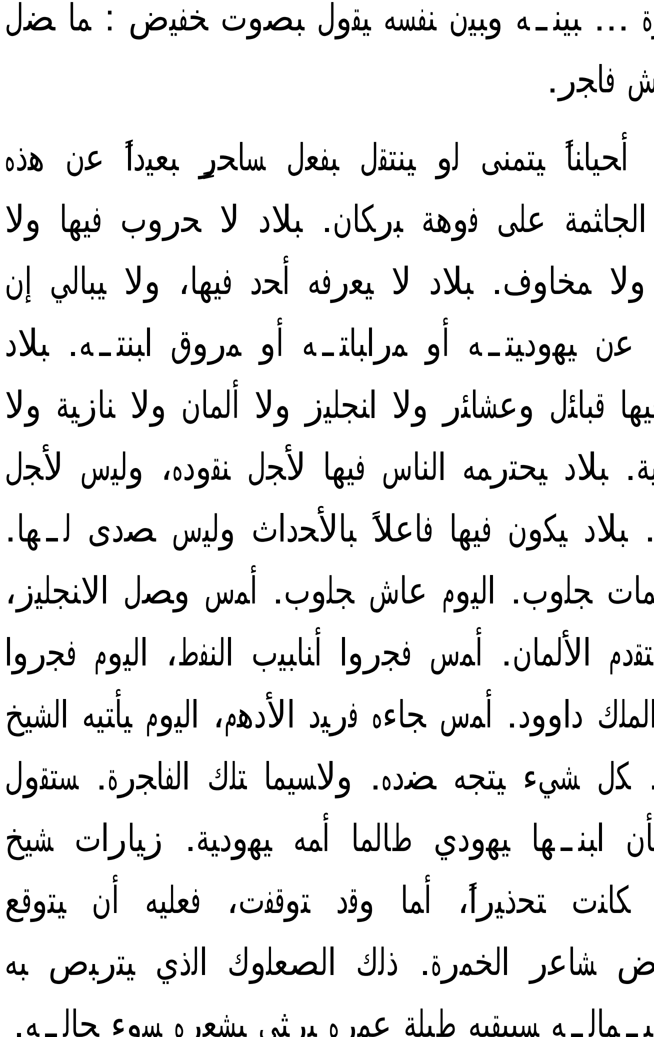
يشقه ببلاطتـه نصفين: أنا ما عندي بنت اسمها ساره. فاهم. لا تراجعني مرة ثانية.

لكن البابا قدري جاءه ثانية وثالثة ورابعة، فكان يزداد عناداً وسخطاً ونقمة. تفاقمت مع تدهور الأوضاع أثناء الحرب ومجاهرة الناس بعدائهم للانجليز وانحيازهم للألمان.

احتماؤه بيهوديتـه لن يفيده إذا وصل الألمان بـمحارقهم إلى عمان. لن يخسر حينـها أموالـه وأطيانـه فحسب، بل سيخسر حياتـه وباقي أفراد عائلتـه. ملعون أبوها. ما لقيت غير الشيوعية.

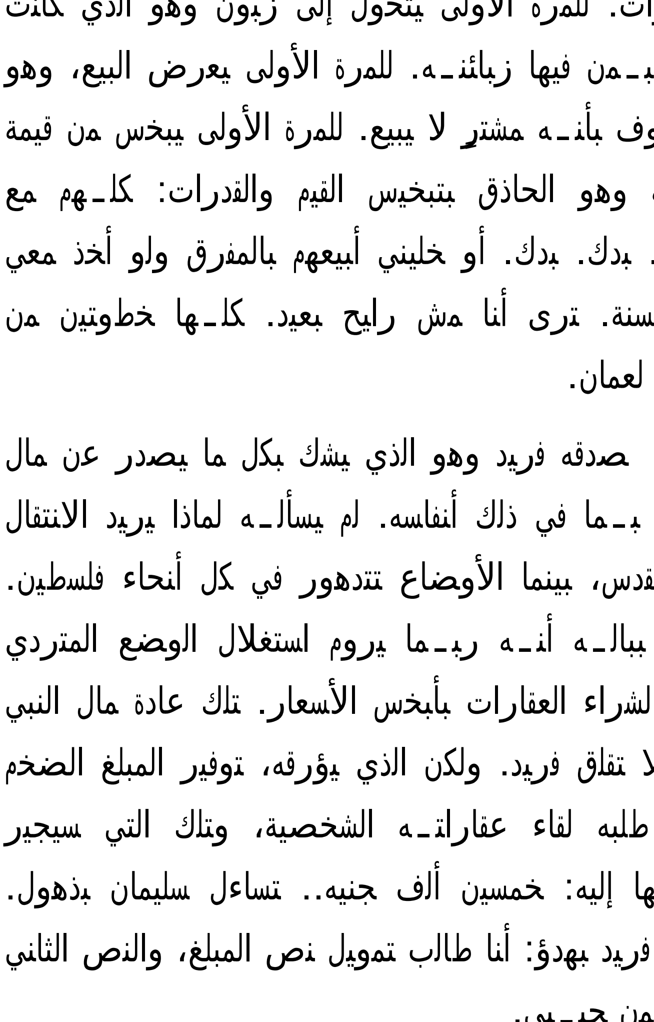
صار يحس بأن العالم بأجمعه يقف ضده، وأن شرور الأرض متكالبة عليه، والمكتوب يقرأ من العنوان. لم يعد يرابي ولو بضمانات الذهب والفضة والجواهر. صارت سندات تسجيل الرهونات العقارية أشبه بالأفاعي المتوثبة في خزنتـه الحديدية.

عندما تسألـه زوجتـه مستنكره: يعني كل ها الحالة اللي إنت فيها منشان البنت تجوزت.. يقاطعها بتجهمـه الدائم وجلافتـه المسيطرة: اسكتي. أوعي تجيبي سيرتـها.



الفاجرة ... بينـه وبين نفسه يقول بصوت خفيض : ما ضل حدا مش فاجر.

أحياناً يتمنى لو ينتقل بفعل ساحرٍ بعيداً عن هذه البلاد الجاثمة على فوهة بركان. بلاد لا حروب فيها ولا قلاقل ولا مخاوف. بلاد لا يعرفه أحد فيها، ولا يبالي إن عرفوا عن يهوديتـه أو مراباتـه أو مروق ابنتـه. بلاد ليس فيها قبائل وعشائر ولا انجليز ولا ألمان ولا نازية ولا شيوعية. بلاد يحترمه الناس فيها لأجل نقوده، وليس لأجل دينـه. بلاد يكون فيها فاعلاً بالأحداث وليس صدى لـها. أمس مات جلوب. اليوم عاش جلوب. أمس وصل الانجليز، اليوم تقدم الألمان. أمس فجروا أنابيب النفط، اليوم فجروا فندق الملك داوود. أمس جاءه فريد الأدهم، اليوم يأتيه الشيخ قدري. كل شيء يتجه ضده. ولاسيما تلك الفاجرة. ستقول غداً بأن ابنـها يهودي طالما أمه يهودية. زيارات شيخ البلاطة كانت تحذيراً، أما وقد توقفت، فعليه أن يتوقع انقضاض شاعر الخمرة. ذلك الصعلوك الذي يتربص به طمعاً بـمالـه سيبقيه طيلة عمره يرثي بشعره سوء حالـه.



للمرة الأولى يذهب إلى زيارة فريد في معرض السيارات. للمرة الأولى يتحول إلى زبون وهو الذي كانت البلدة بـمن فيها زبائنـه. للمرة الأولى يعرض البيع، وهو المعروف بأنـه مشترٍ لا يبيع. للمرة الأولى يبخس من قيمة أملاكه وهو الحاذق بتبخيس القيم والقدرات: كلـهم مع بعض. بدك. بدك. أو خليني أبيعهم بالمفرق ولو أخذ معي البيع سنة. ترى أنا مش رايح بعيد. كلـها خطوتين من القدس لعمان.

صدقه فريد وهو الذي يشك بكل ما يصدر عن مال النبي، بـما في ذلك أنفاسه. لم يسألـه لماذا يريد الانتقال إلى القدس، بينما الأوضاع تتدهور في كل أنحاء فلسطين. خطر ببالـه أنـه ربـما يروم استغلال الوضع المتردي هناك لشراء العقارات بأبخس الأسعار. تلك عادة مال النبي التي لا تقلق فريد. ولكن الذي يؤرقه، توفير المبلغ الضخم الذي طلبه لقاء عقاراتـه الشخصية، وتلك التي سيجير رهنـها إليه: خمسين ألف جنيه.. تساءل سليمان بذهول. فعقب فريد بهدؤ: أنا طالب تمويل نص المبلغ، والنص الثاني ادفعه من جيـبي.

- مستحيل. هادا المبلغ كبير.

- والضمانات كثيرة كمان يا باشا. مش بس الأراضي اللي ح اشتريها. أنا عندي سوق تجاري بحالـه، يرمي بالسنة ألفين جنيه.

- ما بقدر أعطيك كلمة. لازم أراجع مجاس الإدارة.

- يلزمك كام.؟.

- يعني. أسبوع. أسبوعين.

- لأ. أسبوع واحد بس، أكون شفت البنك العثماني ح يقول إيه..

كان فريد من كبار مودعي البنك العثماني. راجعه بشأن القرض قبل لجوئه إلى سليمان، فرفضوا إقراضه مثل هذا المبلغ، ليفاجئهم بعد مقابلتـه سليمان بنقل رصيده البالغ سبعين ألف دينار إلى فرع البنك الكنعاني.

أسقط في يد سليمان، فوافق على إقراضه المبلغ لقاء رهن السوق التجاري فحسب. لكن سليمان ندم بعد أقل من أسبوع على التصرف بالسيولة، بسبب تـهافت المودعين على سحب أموالـهم، بعد إعلان البنك العثماني توقفه عن

الدفع في فروع فلسطين لحين جلاء الوضع ووصول الأموال.

ارتأى مجلس الإدارة أن يحذو حذو البنك العثماني. إلا أن سليمان رفض بإصرار. لن يزيد على الفلسطينيـين نكبتـهم طالما نجح بجلب أموالـهم إلى عمان. كان هذه المرة أكثر صدقاً بوطنيتـه منـه في أي وقت مضى. وكان أبوه يشد على يده باندفاع وحماس: بلا مجلس إدارة بلا خرا. لو ما كنت معك كان صادروا كل المصاري على الجسر. مثل ما ربنا قال لنا خذوا، خلينا نقول للناس تعالوا خذوا.

امتدت طوابير الساحبين عشرات الأمتار. بينما البنك العثماني المقابل مغلق الأبواب، يتظاهر أمامه جمهرة من مختلف الأعمار والطبقات، وهم ينظرون بحسدٍ إلى البنك الكنعاني، حيث يخرج الساحبون راضين مسرورين. ليعودوا بعد أيام قانعين بالبنك يأتمنونـه على أموالـهم ثانية.

ما أن فتح البنك العثماني أبوابه وقد فقد الثقة والمصداقية حتى سارع مودعوه إلى سحب أموالـهم وتحويلـها إلى البنك الكنعاني الذي لا يضيع على الزبون تعريفة. كانت مسألة وطنية صرفة بالنسبة لسليمان، وكانت

ضربة معلم قل نظيرها بالنسبة لمجلس إدارتـه، وكانت كارثة محققة للبنك العثماني، نقلتـه من المرتبة الأولى إلى المرتبة العاشرة. ليس في عمان التي لا يوجد فيها سوى بنكين، وإنما في المناطق العربية كافة.

أما فريد الذي حظي بأملاك مال النبي، فقد غدا أكبر الملاكين في عمان. لينغلق محل مال قبان وتسكن آرمتـه، سكون الباب من تحتـها. بينما مال النبي، وقد حصل بسهولة على أوراق ثبوتية جديدة عن طريق بروز، تغير اسمه فيها من مال النبي إلى مال ا ، يبحر من حيفا إلى لندن ومنـها إلى نيويورك حيث المركز الرئيس لناتوري كارتا: خليني أشوف كيف بدها تورثني بنت مال النبي.

٣٤

غدا المفتي مرفوضاً من الزعامات العربية التي تزداد يوماً بعد يوم حاجتـها الاقتصادية والعسكرية للأجنبي، ويزداد معها قهر شعوبها، وفقاً للسياسات الغربية، ولاسيما

السياسة الانجليزية التي أمسكت الزمام مثلما حصل في الحرب الكونية الأولى. لكن الصراع بين الزعامات العربية كان أكثر تأثيراً من توافقها مع المصالح الغربية، وهو ما لمسه المفتي خلال إقامتـه في مصر.

انتقل إلى غزة، مع رتل من أقاربه وأتباعه المخلصين لمعاونتـه في إدارة المواجهة مع اليهود، بعدما قررت بريطانيا إنـهاء انتدابها على فلسطين، وما تبعه من إعلان قيام الدولة العبرية واعتراف أمريكا وروسيا بها.

لم يتبق لـه وقت طويل، ولا نقلات كثيرة لتتضح النتيجة فوق الرقعة. لا شيء يخشاه الزعماء العرب طالما رحل الانجليز عن فلسطين، تاركين اليهود والفلسطينيين يحسمون أمورهم بأنفسهم. أولئك أعلنوا دولتـهم في فلسطين وليقرر هؤلاء مصير الجزء الباقي، بالاستقلال أو الانضمام إلى أي دولة في الجوار.

في رأي المفتي، فإن اهتياج الشارع العربي المندد بالدولة العبرية، سيدفع الزعامات العربية لمؤازرة الفلسطينيـين. وسيشكل الوطن العربي بأكملـه عمقاً

استراتيجياً واحداً، بينما اليهود لا يمتلكون سوى عمق البحر من خلفهم.

لكن ترتيبات إنـهاء الانتداب قلبت الأمور رأساً على عقب. فقد ترك انسحاب الإنجليز السريع فراغاً، لم يكن المفتي على استعدادٍ لإشغالـه، بينما كانت الزعامة اليهودية الموحدة جاهزة لـه. والأهم أن القوات البريطانية تركت لليهود قواعد ومطارات واستحكامات بـما فيها من أسلحة ثقيلة ومخازن عتاد وعشرات الطائرات. ليتلوح علم الدولة العبرية، بلونيه المتماثلين مع لوني علم هيئة الأمم، في مناطق اليهود داخل المدن وفي مستوطناتـهم ومعسكراتـهم وعلى سياراتـهم وآلياتـهم العسكرية.

وجد المفتي نفسه على رأس قوة لا تتجاوز في مجموعها عشرة آلاف مقاتل متسلحين ببنادق قديمة وعتاد محدود وقيادات مشتتة متنازعة. يواجههم جيش عرم متمرس في الحروب النظامية مع الحلفاء، ومنضبط في الحياة العسكرية بكل ما فيها من تنظيم وتدريب وتـهيؤ واستعداد.

استنفر بضعة آلاف من رجال جيش الجهاد المقدس وسط فلسطين، ووصل القاوقجي على رأس قوة مساندة من

جيش الإنقاذ لا تتجاوز الثلاثة آلاف . مقابل عشرات الآلاف من القوات اليهودية المتحصنة في القواعد والاستحكامات التي تركها الانجليز خلفهم بآلياتـها وعتادها وخرائطها.

أربك هذا الواقع ذهن المفتي وشتت تفكيره. فهو من جهة، يستنجد بالزعماء العرب لنجدتـه ودعمه بالسلاح والمال، ومن جهة أخرى يحث الوطنيين الميسورين على تمويل عمليات الجهاد المقدس، فوصلت تبرعات سليمان إلى عشرين ألف جنيه. ولما أبرق للمفتي يبلغه بأن هذا أقصى ما يستطيع التبرع به، أبرق المفتي بالمقابل طالباً منـه مواصلة التمويل، لكن هذه المرة بقرض حسن سيعيده إليه بـمجرد أن تصل الأموال التي وعدت بها الدول العربية، فقدم سليمان ثلاثين ألفاً أخرى خلال ثلاثة أشهر. انقطعت بعدها برقيات المفتي المشجعة، إلا أن ضغوط مجلس الإدارة على سليمان لاسترداد المبلغ جعلـه يسعى للقاء المفتي، لكن دونما جدوى.

ساعده الحظ، عندما طلب منـه رئيس حزب الاستقلال مرافقتـه للاجتماع بالمفتي في دار إقامتـه بحلمية الزيتون في القاهرة. وجدوا عنده لفيفاً من قادة فصائل الجهاد

المقدس، إضافة إلى معاونيه من أقاربه وعدد من الوجهاء الفلسطينيين ورموزهم الوطنية.

ظل المفتي يتحدث متجنباً الالتفات لسليمان وعدد آخر من الضيوف صادف وجودهم آنذاك.

اعتذر أحدهم عن مقاطعتـه، وأخبره بأنـه أقرض قوات الجهاد المقدس كل مدخراتـه، وهو يستدين الآن للإنفاق على عائلتـه، فحياه المفتي وبارك مساعيه، وأسرع إليه معانقاً أمام ذهول سليمان. لكن ذلك لم يحل دون سؤالـه المفتي عن القرض الذي وعد بسداده: العشرين ألف الأولى تبرع مني سماحة المفتي. بس الثلاثين الثانية مالك للبنك، وإذا ما تسددت راح تتسجل علي. وسماحتك قال في البرقية أنوه المبلغ قرض وراح تدفعوا لنا إياه لما تصلكم مصاري.

ظل المفتي مطرقاً بصمت طيلة اندفاع سليمان بالحديث. وظل كذلك بعد انتـهائه لأكثر من دقيقة، ساد صمت مربك خلالـها. أخذ نفساً عميقاً وهو يرفع رأسه ويقول بهدؤ: أولاً ما وصلنا مصاري. بعدين، يا باشا، أنا ما طلبت من حدا قرض. طلبت من اللي بقدر يتبرع يتبرع.

مصاري، سلاح، أكل، لبس، بلزمنا تبرعات من الكل. فيه ناس قاعدة بتتبرع بدمها يا باشا.

- مضبوط. بس. ما هو. يعني. ما بقدر أقول لمجلس الإدارة إني تبرعت بـ مصاريكم. وافقوني على القرض، مش على التبرع.

- ومين طالب منك قرض.؟.

- سماحتك. وهاي البرقية.

- أشوف. أعوذ با . أنا ما طلبت لا قرض ولا يرسلوا برقية. مين وداها؟. خليها عندي وراح أحقق بالموضوع. بس تأكد إني مش أنا اللي وديتـها، وما بعرف عنـها شي. ورغم هيك، راح ادفع لك المبلغ لما يصلني مصاري.

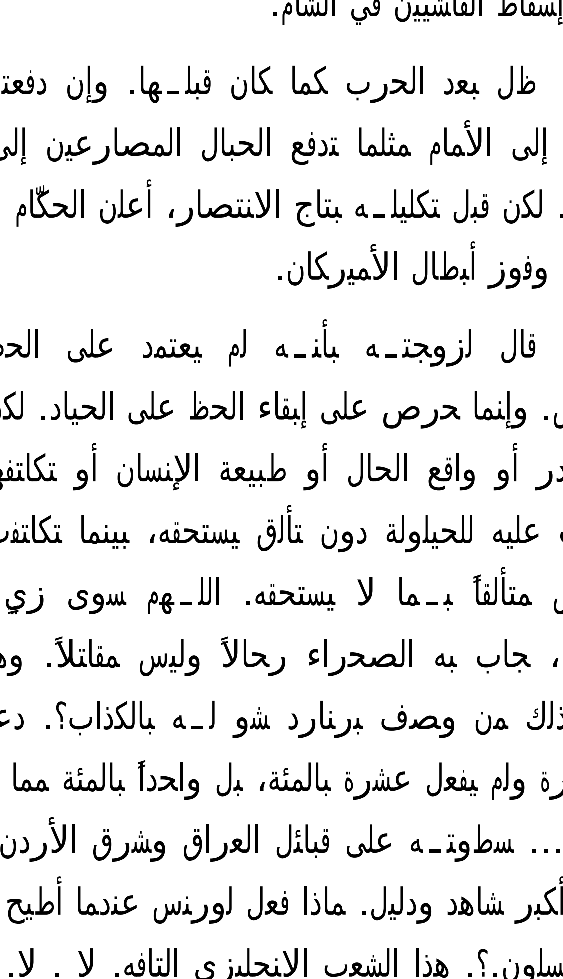
لكن المصاري لم تصل المفتي ولا وصلت سليمان الذي أضافها إلى تبرعه وسجل المبلغ على نفسه. دون أن يؤثر ذلك على قراره البنكي في مواصلة دفع الإيداعات لأصحابها وما ترتب على ذلك من زيادة الثقة بالبنك واستعادتـه لنشاطه وازدياد عملياتـه.

تردى الوضع الاقتصادي والاجتماعي للفلسطينيين الذين استقبلوا بالتـهليل والتكبير تقدم الجيوش العربية. فانسحب البساط من تحت قدمي المفتي. ليس من قبل العائلات الفلسطينية كما كان يتوقع، أو من قبل الحكومات العربية كما كان يخشى، وإنما من قبل جيوشها التي أخضعت لسيادتـها المواقع التي وصلتـها، سواء بتسلمها من أهاليها أو باستسلام اليهود فيها.

٣٥

تنازعت جلوب مشاعر تفاوتت بين الخيبة والحماس وبين العجز والإنجاز. جاءتـه الفرصة إلى باب مكتبة ، بل باب منـزلـه. واستثمرها خير استثمار لكنـه لم يأكل منـها سوى الفتات. تفانى بأدائه العسكري أكثر من جميع الجنرالات دون أن يرقى عليهم ويضاف اسمه إلى قائمة أبطالـهم. ولولا إشاعة مقتلـه التي صيرتـه نجماً لفترة أيام لما تجاوز صيتـه خفر الصحراء. تغيرت المعايير مع تغير أنماط القتال بسبب تطور السلاح الذي غدا سيد المواقف وبطل الأبطال، وتحول صراع الأمم إلى خطابات في هيئتـهم الجديدة التي يتنازع مؤسسوها أكاليل الغار، وكل منـهم يريد الاستحواذ على المغانم من تحت الدمار.

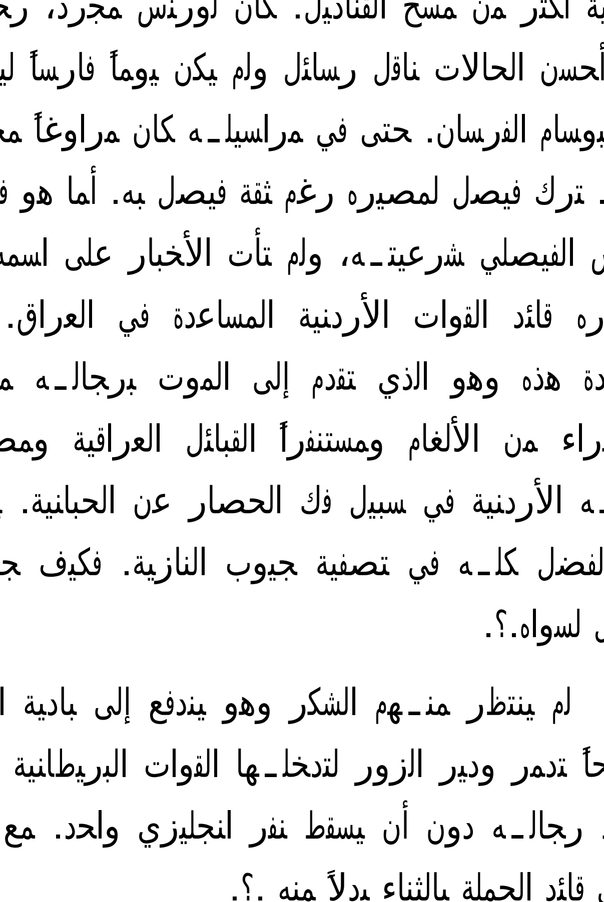
انسحق جلوب تحت أقدام المنتصرين، رغم أن بلاءه في الحرب جعل إذاعة برلين تحتفي بـخبر موتـه احتفاءها باندحار الانجليز، بينما اقتصرت إذاعة لندن في نقلـها الخبر على سرد سيرتـه الشخصية دونما تعليق. لم يستدع إلى



لندن للتكريم، وإنما أوكلت إليه بمجرد عودته إلى عمان مهمة إسقاط الفاشيين في الشام.

ظل بعد الحرب كما كان قبلها. وإن دفعته في البداية إلى الأمام مثلما تدفع الحبال المصارعين إلى وسط الحلبة. لكن قبل تكليله بتاج الانتصار، أعلن الحكّام انتهاء الجولة وفوز أبطال الأميركان.

قال لزوجته بأنه لم يعتمد على الحظ مثل لورنس. وإنما حرص على إبقاء الحظ على الحياد. لكن الحظ أو القدر أو واقع الحال أو طبيعة الإنسان أو تكاتفها معاً، تكالبت عليه للحيلولة دون تألق يستحقه، بينما تكاتفت لرفع لورنس متألقاً بما لا يستحقه. اللهم سوى زي عربي مخجل، جاب به الصحراء رحالاً وليس مقاتلاً. وهل أدل على ذلك من وصف برنارد شو له بالكذاب؟. دعي غدا أسطورة ولم يفعل عشرة بالمئة، بل واحداً بالمئة مما فعله جلوب... سطوته على قبائل العراق وشرق الأردن وبادية الشام أكبر شاهد ودليل. ماذا فعل لورنس عندما أطيح بفيصل في ميسلون.؟. هذا الشعب الانجليزي التافه. لا . لا. الشعب الانجليزي ليس تافهاً، وإنما قيادته تافهة، يهمها تلميع



الأحذية أكثر من مسح القناديل. كان لورنس مجرد، رحالة، وفي أحسن الحالات ناقل رسائل ولم يكن يوماً فارساً ليغدق عليه بوسام الفرسان. حتى في مراسيلـه كان مراوغاً محتالاً دجالاً. ترك فيصل لمصيره رغم ثقة فيصل به. أما هو فأعاد للعرش الفيصلي شرعيتـه، ولم تأت الأخبار على اسمه إلا باعتباره قائد القوات الأردنية المساعدة في العراق. أي مساعدة هذه وهو الذي تقدم إلى الموت برجالـه منظفاً الصحراء من الألغام ومستنفراً القبائل العراقية ومضحياً بقواتـه الأردنية في سبيل فك الحصار عن الحبانية. يعود إليه الفضل كلـه في تصفية جيوب النازية. فكيف جيروا الفضل لسواه.؟.

لم ينتظر منـهم الشكر وهو يندفع إلى بادية الشام مكتسحاً تدمر ودير الزور لتدخلـها القوات البريطانية فوق أجساد رجالـه دون أن يسقط نفر انجليزي واحد. مع هذا يحظى قائد الحملة بالثناء بدلاً منه .؟.

كل انتمائه العرقي وإخلاصه العسكري وخدماتـه الجليلة، سواء بعملياتـه المجيدة في العراق والشام، أو

عملياتـه القذرة في فلسطين، لم تجعلـه أسطورة مثل لورنس القائمة شهرتـه على الأكاذيب.

ظل صادقاً وفياً، حتى في إشاعة مقتلـه التي لم تكن سوى كذبة بيضاء، نفاها بنفسه بعد أيام. لكن الانجليز الذين استعمروا الشعوب بالكذب غدوا يقتاتون عليه، والدليل على ذلك، تبجيلـهم لأكاذيب لورنس في الحرب الأولى وإجلالـهم لأكاذيب اليهود في الحرب الثانية. فاليهود لا يخدمون الآخرين أبداً، بل يسخرونـهم لخدمتـهم. لو كان بـمقدورهم لقضوا على المسيحيين قبل المسلمين، وعلى الغرب قبل الشرق. أكذوبة شعب ا المختار تجعل من كل الشعوب مطيات ذلولة. بـما فيها الشعوب المسيحية التي اندفع مؤمنوها متسلحين بالصليب لحماية مهد المسيح. ألا يدرك الانجليز الأغبياء، بالأحرى قيادتـهم الغبية، أن اليهود يعتبرون المسيح مارق دجال. الأغبياء، كيف يصدقون أكاذيبهم ويكافؤنـهم بوطن قومي، دون أن يدرك المترهلون في لندن أنـه ليس من حليف لليهود سوى اليهود.

اتخذ أمره على أن يتصرف باستقلالية تامة عن المعتمد البريطاني الذي تنشر الصحف اليومية صورته مع

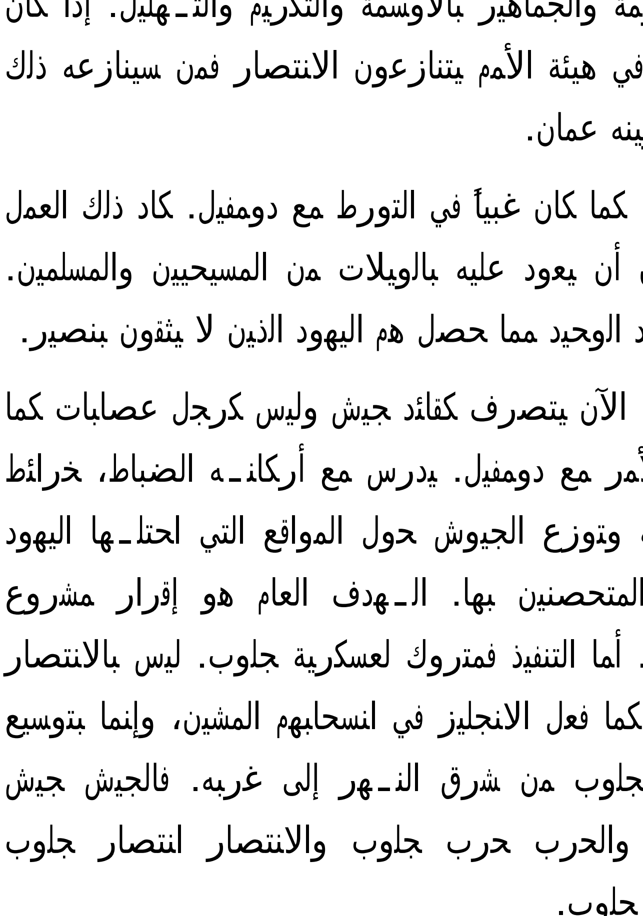
تصريحاته، يريد أن يكون الحاكم الآمر وأن يبقي جلوب مجرد شرطي، ينفذ الأوامر دون نقاش. إذا قبل جلوب هذا الوضع حينما كان وطنه الانجليزي على كف العفريت الألماني، فإنه لن يقبل استمرار هذا الوضع بعدما أودعت الحرب العفريت في الجحيم، وانقضى معه الانتداب على فلسطين. فطالما أن اسمه لم يدرج في قائمة مشاهير الغرب فإنه سيغدو أشهر الناس في بلاد العرب.

لن تكون هذه المرة مثل سابقتـها. حينذاك خاض الحرب في سبيل شعبه الانجليزي كي يتألق بينهم. أما هذه المرة فسيخوضها مع العرب كي يتألق عليهم، بغض النظر عن دوافع الحرب ونتائجها، وبغض النظر عن تداعياتـها وتداخلاتـها وتنازعاتـها. فسواء احتل المصريون الجنوب، أو تغلغل السوريون في الشمال، أو أعلن اليهود الاستقلال، فإن ذلك لا يغير في جلوب شيئاً من جلوب. تلك أمور تخص المتحاربين هناك. أما هنا فالأمر مختلف طالما أوكلت إليه إنقاذ ما يمكن إنقاذه من فلسطين. هذه المرة سيشمل سلطانـه الأردن وفلسطين، وربـما تصل قواتـه إلى صحراء سيناء ومرتفعات الجولان.

لم يتوان عن دفع سريتين في المقدمة لنجدة القوات السورية. شدد على "أبو جميع" أن يخضع صفد باعتبارها مركزاً لسلطتـه العسكرية. على القائد السوري الشيشكلي الإذعان، أو يعود أبو جميع إلى عمان. أما سرية المشاة، فعليها فرض الأمن والاستقرار، كما مرر أبو جميع الأمر إلى مختار.

هذه الخطوة، وإن كانت تنفيذاً لأوامر قيادة الجيوش العربية، إلا أن المحك في الخطوة التالية، عندما يتحرك جلوب على رأس قواتـه للمناطق التي كلف بالحفاظ عليها وفقاً لقرار التقسيم .

إذا أخفق "أبو جميع" ورجالـه، سيكون الإخفاق سورياً، طالما قائد القطاع الشمالي سوري. لكن إذا أخفق جلوب، فإن هزيمة رجالـه ستكون اندحاراً لـه وهزيمة لعسكريتـه وإخفاقاً لتجربتـه القتالية. انـهزامه سيكون أشد وطأة عليه من هروبه المذل أمام المتظاهرين في عمان. إذا قذفوه يومها بالحجارة والقاذورات، سيقذفونـه بعد خيبتـه بالقذائف والطلقات. ولربـما تنضم قواتـه لغضب الشارع العاصف. حتى الطفل في مهده يأبى السكوت على الآلام.



لكنـه إذا عاد إلى العاصمة منتصراً، سيكللـه الفلسطينيون قبل الأردنيين بالغار، وسيحظى من الملك والحكومة والجماهير بالأوسمة والتكريم والتـهليل. إذا كان الكبار في هيئة الأمم يتنازعون الانتصار فمن سينازعه ذلك في عرينه عمان.

كما كان غبياً في التورط مع دومفيل. كاد ذلك العمل الأرعن أن يعود عليه بالويلات من المسيحيين والمسلمين. المستفيد الوحيد مما حصل هم اليهود الذين لا يثقون بنصير.

الآن يتصرف كقائد جيش وليس كرجل عصابات كما كان الأمر مع دومفيل. يدرس مع أركانـه الضباط، خرائط المنطقة وتوزع الجيوش حول المواقع التي احتلـها اليهود وتلك المتحصنين بها. الـهدف العام هو إقرار مشروع التقسيم. أما التنفيذ فمتروك لعسكرية جلوب. ليس بالانتصار لليهود كما فعل الانجليز في انسحابهم المشين، وإنما بتوسيع سيادة جلوب من شرق النـهر إلى غربه. فالجيش جيش جلوب والحرب حرب جلوب والانتصار انتصار جلوب ولأجل جلوب.

طلب من أركانـه الشبان إبداء الرأي في الوضع الذي اختلط فيه الحابل بالنابل. فالجيوش العربية تتقدم دونما تنسيق أو دراية عسكرية. أسلحتـهم صدئة وعتادهم فاسد، كما يجاهر ضباطهم في تصريحاتـهم للصحف والإذاعات. حتى في الجيش الواحد انقسامات ونزاعات وتمردات، ناهيك عن الارتياب والمؤامرات. المصريون يخشون تقدم السوريين. والسوريون يخونون المصريين. وخليط المتطوعين في جيش الإنقاذ والجهاد المقدس متباينو الولاءات والانتماءات والتطلعات. وحده جلوب يمتلك جيشاً تمرس على القتال في سوريا والعراق. وحده جلوب ورث عن الانجليز سلاحاً حديثاً ثقيلاً قادراً على مواجهة حداثة السلاح اليهودي. وحده جلوب يقود جيشاً يتفوق في استعداده وانتظامه على جيش الدفاع اليهودي والمنظمات الرافدة لـه. لليهود أكثر من قيادة، شأن الجيوش العربية. بينما يمتاز جيش جلوب بتنظيم واحد يدين بالطاعة العمياء لقيادة واحدة. جلوب.

٣٦

أجرى سعاده حملة تطهير واسعة في صفوف الحزب، شملت من ضاق بهم التعصب إلى الإنكماش في الواقع اللبناني، فغدو بنظر سعاده لا يختلفون عن الكتائبيـين المنادين بأمة لبنانية قوامها مسيحي وتوجهها غربي وعمقها مثل سطحها لبناني.

أوكل إلى رؤوف قيادة المليشيات المسلحة، ليغدو زند الحزب الضارب، وهو ينفذ أوامر الزعيم دون تردد في إحراق مكاتب المفصولين من الحزب والتنكيل بتجمعاتـهم والحيلولة دون تكاتفهم أو لقاءاتـهم. خنق الدعوات الانشقاقية في المهد، وقضى على مراكز القوى التي نشأت داخل الحزب أثناء غياب سعاده في المهجر.

عاد الوضع إلى ما كان عليه قبل عشر سنوات. أقوال الزعيم أوامر مقدسة لا تناقش، يزيد من رهبتـها الميليشات المسلحة التي رفعت إيقاع الزعامة في قائدها رؤوف.

فرض بقواتـه سلطة الحزب على العديد من المناطق، متجاوزاً سلطة الدولة وملقياً الروع بين المنظمات المعارضة، ولاسيما الشيوعيين الذين احتموا بالفرنسيين أثناء الانتداب، والكتائبيـين الذين جندتـهم الدولة بعد الاستقلال. فخضعت مناطق الضهور والمتن والكورة والبقاع لسيطرة القوميين، مما دفع الدولة إلى الإغداق بالمال والسلاح على حزب الكتائب اليميني، وتوارى الشيوعيون عن الأنظار خشية السخط الشعبي الناجم عن تأييدهم قيام الدولة العبرية في فلسطين.

كانت الفرصة سانحة لسعاده،وقد توافر لـه رصيد شعبي هائل في سوريا ولبنان، لاجتثاث الشوعيين والقضاء على الكتائبيين، إلا أنـه أعطى الأولوية لتقويض الدولة العبرية قبل أن يشتد ساعدها، فأعلن الحرب القومية من أجل فلسطين.

اندفعت قوات الزوبعة عبر الجنوب اللبناني بقيادة رؤوف كنعان، الذي اكتمل تماهيه لجبران، وزاد عليه نشوة الانتقام، وهو يفي بوعده وينفذ وعيده ويثأر لأستاذه بالفعل لا بالكلام.

غدا في القتال دكتاتورياً أكثر من أنطون في المحاورات، ومندفعاً إلى الموت أكثر من جبران لإثبات وجوده في الحياة. تحولت عصبيتـه التي كانت تشتت ذهنـه إلى ثبات يزيد من تركيزه ويعمق بصيرتـه ويوسع رؤياه. فهو الآن بقواتـه القليلة المدربة على يديه يتقدم لمواجهة قومٍ يحمل لـهم حقداً موروثاً وعداء فكرياً ورغبة عارمة في الانتقام.

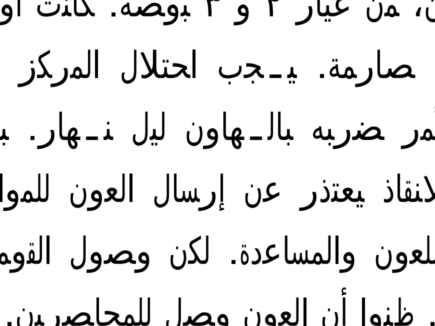
تجاوزت القوة قرية المطلة إلى تل القمح، لينضم إلى لوائـه عدد من الأدلاء القرويين، تقدموهم ليلاً إلى صفد فوصلوا ضواحيها مع تباشير الصباح.

كان القتال محتدماً بين جيش الإنقاذ المستحكم في مركز شرطة النبي يوشع واليهود الذين يحكمون الحصار عليه. فقد سارع العرب إلى احتلالـه بعد انسحاب قوات الانتداب، مما جعل اليهود في مستعمرة عين الزيتون يهبون لتخليصه نظراً لسيطرة موقعه على وادي الحولة من الغرب والطريق العام الوحيد.

هاجمت قوات البالماخ، قريباً من منتصف الليل، المركز بعد ساعات من ضربه بالقذائف، إلا أنـها فوجئت

بـمقاومة المتحصنين القوية، واندفاعهم إلى خارج المركز تحت غطاء قذائف الـهاون من مدفع وحيد لديهم عيار ٨ مم، ورغم ذلك دحروا المهاجمين الذين تراجعوا يحملون قتلاهم وجرحاهم ٠

مع تباشير الصباح، أطبقت قوات البالماخ ثانية على المركز، من جهة الشرق، تدعمها قوة مساندة من لواء غولاني الذي استحكم غربا وراح يصلي المركز، على مدار الساعة، بقذائف هاون، من عيار ٢ و ٣ بوصة. كانت أوامر قيادة القوة المهاجمة صارمة. يـجب احتلال المركز بأي ثمن، ولو تطلب الأمر ضربه بالـهاون ليل نـهار. بينما القائد العام لجيش الانقاذ يعتذر عن إرسال العون للمواقع، لأنـه نفسه يحتاج للعون والمساعدة. لكن وصول القوميين أربك قادة المهاجمين. ظنوا أن العون وصل للمحاصرين.



كان رؤوف أسرع من المفاجأة التي باغت بها القوات اليهودية، وهو يوزع رجاله إلى ثلاث مجموعات تحركت سريعاً في ثلاث اتجاهات، تقدم رؤوف بالأولى إلى وراء قوات غولاني التي كانت توجه اسطوانات الـهاون إلى المركز، واندفعت الثانية نحو قوة البالـماخ من الشرق،

والتفت الثالثة من الشمال الشرقي. دب الحماس في قوات جيش الانقاذ واندفعوا خارج المركز وهم يطلقون النار.

في أقل من ساعة حسمت المعركة بسقوط ثلاثين قتيلاً من اليهود، والاستيلاء على أسلحتـهم الرشاشة.

وضع رؤوف نفسه ورجاله تحت إمرة العقيد الشيشكلي قائد القوات العربية في الشمال. فأوكل إليه الشيشكلي مسؤولية الاستحكام في الخنادق حول المركز.

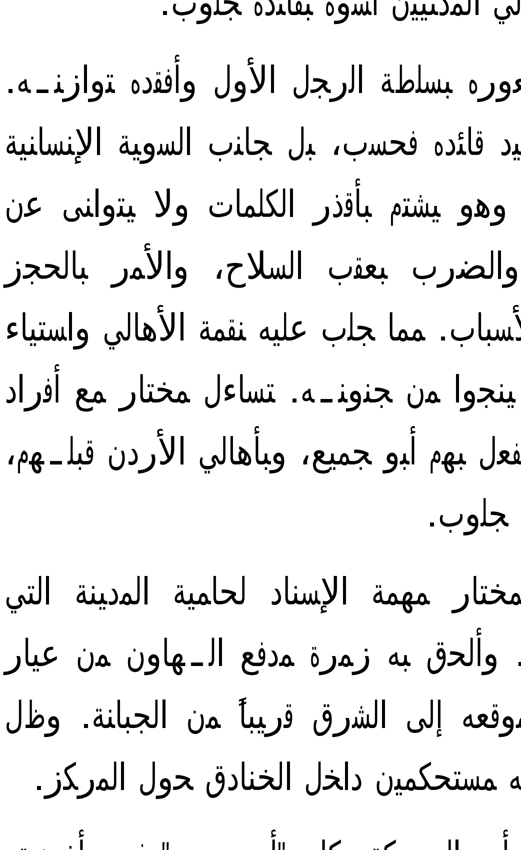
تم إعادة تحصـين الموقع خلال أيام، كما تم إعادة الاتصال مع القوات الأخرى المتمركزة في القلعة داخل صفد وبيت شلوه، مع وصول نجدة من سريتين أردنيتين أحداها مصفحة بقيادة " أبو جميع" والأخرى مشاة بقيادة مختار. كما وصل رتل من المتطوعين الأغرار، تم تطعيمهم ضد التيفوئيد من قبل المراقبة الصحية في الجيش السوري، وسلحوا ببنادق كندية جديدة لم تنظف من شحمتـها.

ارتفع عدد قوات الشيشكلي إلى نحو ألف رجل بـمن فيهم المتطوعين من أهالي المدينة، ليشكلوا مع الآخرين قوة غير متجانسة الـهويات ولا الأعمار ولا القدرات ولا

الخبرات ولا السلاح. على عكس اليهود الذين سيواجهون في صفد معركة فاصلة تحسم نتيجتـها مصير دولتـهم الخداج، نظراً لموقع المدينة الاستراتيجي باعتبارها حصن الجليل وعقدة مواصلات الجهات الأربع في فلسطين. رغم أن القوة اليهودية في مجموعها، سواء في داخل الحي اليهودي أو مستعمرة عين زيتون، لا تتجاوز أربعمئة مقاتل مسلحين بالبنادق الرشاشة ومدافع الـهاون، إضافة إلى راجمات ديفيد للألغام التي يثير دويها الـهلع أكثر مما بسبب انفجار ألغامها القتل والتدمير.

بعد اندحارهم أمام مركز البوليس، انسحبوا إلى حيهم غرب المدينة ليعملوا، على مدار الساعة، في بناء الاستحكامات وتحصين مراكز الدفاع.

اتفق قادتـهم، بعدما تيقنوا من وصول التعزيزات العربية التي لم يستطيعوا تقدير عددها أو عدتـها، على الثبات لحين نجدتـهم بالرجال والمؤن والسلاح التي يطلبونـها بتواصل عبر اللاسلكي، مثلما يواصل القادة رفع الروح المعنوية للسكان، وتنظيم صفوف المقاتلين في مراكز الدفاع.



دخل أبو جميع صفد حاكماً عسكرياً بأوامر مباشرة من الشيشكلي، فتصرف منذ الساعات الأولى تصرف قائد عرفي، وفي ذهنـه فرض رهبتـه الشخصية على أتباعه العسكريين والأهالي المدنيين أسوة بقائده جلوب.

أربكه شعوره بسلطة الرجل الأول وأفقده توازنـه. فهو لم يخفق بتقليد قائده فحسب، بل جانب السوية الإنسانية والقيم العسكرية، وهو يشتم بأقذر الكلمات ولا يتوانى عن الصفع والركل والضرب بعقب السلاح، والأمر بالحجز والتوقيف لأتفه الأسباب. مما جلب عليه نقمة الأهالي واستياء العساكر الذين لم ينجوا من جنونـه. تساءل مختار مع أفراد سريتـه، عما سيفعل بهم أبو جميع، وبأهالي الأردن قبلـهم، إذا حل يوماً محل جلوب.

أنيط بـمختار مهمة الإسناد لحامية المدينة التي يقودها أبو جميع. وألحق به زمرة مدفع الـهاون من عيار ٨١ مم، فاتخذ موقعه إلى الشرق قريباً من الجبانة. وظل رؤوف مع قواتـه مستحكمين داخل الخنادق حول المركز.

عندما ابتدأت المعركة، كان "أبو جميع" في مأذونية، ألح على الشيشكلي للسماح بها كي يراجع قائده جلوب بشأن

الإمدادات والتنسيق مع باقي القوات. غادر المدينة دون أن ينيب قائداً عنـه بذريعة أنه لن يغيب طويلاً .

قال الشيشكلي في تقريره للقيادة بعد انتـهاء المعركة أن اليهود هاجموهم بالآلاف، وأنـه لم يكن لديه من وسيلة للحصول على التموين إلا عبر وادي الطواحين.

قال مختار، بأن جميع مداخل صفد كانت تحت سيطرة القوات العربية وكانت تستطيع سحق اليهود في ساعات، إلا أن المتطوعين الأغرار في الخنادق الأمامية كانوا ملقحين بـ مطاعيم التيفوئيد. فنام بعضهم تحت وطأة الحمى والإعياء، وهلوس المستيقظون بالعفاريت. فلاذوا بالفرار ليلحق بهم العساكر الآخرون ومن بعدهم المدنيون، دون أن يعرفوا الأسباب.

يعترف القائد اليهودي ماير مشير ، بأن أقلة هم الذين وقفوا على سر "أعجوبة صفد". ولم تكن الأعجوبة في نتيجة المعركة، وإنما بثبات اليهود في ظروف لم يكن لـهم فيها أمل بالنجاة.

دوت ساعة الصفر في تمام الثانية عشر والنصف ليلاً، مع كلمة السر التي نطق بها ماير، لتنفجر قنبلة يدوية في سكون الليل، وتنطلق في أعقابها مئات القذائف من جميع الأنواع على المواقع العربية. ولاسيما راجمات ديفيد التي كان اللغم الواحد منـها أقوى دوياً من عشرات القذائف، وكأن الأرض انفجرت بأكثر من بركان.

وجهت أعنف الضربات إلى القلعة الحصينة، لتسقط بعد أقل من ساعة في أيدي المهاجمين اليهود.

كان الجو مطيراً عاصفاً، وكأن السماء دقت طبول الحرب بهدير الرعد وعصف الرياح ونقر المطر. لكن ذلك لم يمنع اليهود من مغادرة ملاجئهم بعدما وصلتـهم أخبار الانتصار، ليتكاتفوا في تحصين القلعة بأكياس الرمل رغم طوفان السماء.

في تلك الأثناء صب مختار جام غضبه على مدفع الـهاون الوحيد وهو يرمي داخل اسطوانتـه بالقذيفة تلو الأخرى حتى توهج المعدن غضباً بالاحمرار، قبل أن ينفجر ممزقاً أصحابه وقاذفاً مختار أمتاراً إلى الوراء. لكنـه استطاع الابتعاد بـمن تبقى من رجالـه عن مصيدة الموت

التي أوقعوا أنفسهم أسرى لـها، لتنـهمر القذائف عليهم أسرع من نزول الأمطار.

اندفعت الموجة الأخرى من اليهود إلى خنادق مركز البوليس، لتذوي أمام صمود القومـيين. جاءت موجة أخرى ارتدت كسابقتـها لكن بعضاً من اندفاعها سقط في الخنادق راكداً مثل ركود من فيها. بينما راجمات ديفيد ترمي ألغاماً تصم الآذان وتثير هلع السكان الذين وصل إليهم " أبو جميع" ومعه أمر من الشيشكلي بالانسحاب والإخلاء.

استطاعت قوة كوماندو من البالماخ أن تصل المركز وتفجر عبوة في جداره، مما فتح ثغرة كان الماء فيها أول المتسللين، فأمر رؤوف رجالـه بالتراجع إلى المبنى.

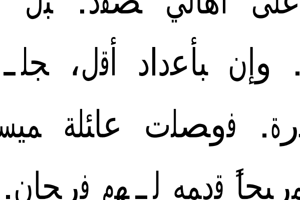
دارت معركة مريرة في كل ركن وكل غرفة وممر وفناء. وكانت السماء تغسل من فورها الدماء. وما أن هدأ القتال مع تباشير الصباح حتى أشرقت الشمس على السكون الذي غلّف الحي العربي في المدينة، وهم يصيخون السمع إلى الطلقات المتقطعة الآتية من بعيد. بينما رؤوف ومن تبقى من القوميين والجنود والمتطوعين يقاومون من فوق سطح المبنى باستبسال واستموات. أيقنوا بأن الموت يعاش في

لحظة الخذلان أو عندما تغلب إرادة الإفناء على الرغبة في الحياة.

قفز رؤوف من علو سبعة أمتار وهو يطلق النار، وتبعه الآخرون ليسكن بعضهم في موقع السقوط وليعجز آخرون عن النـهوض، ولتحل "أعجوبة صفد" بالباقين، وهم يلتحمون مع خصومهم بالسنجات والسكاكين والقضبان والعصي والقبضات. اتسع مدى الأعجوبة مع وصول مختار ورجالـه وهم يفتحون ثغرة من الوراء، فتشتت اليهود هذر مذر، مما أتاح الفرصة لرؤوف والمتبقي من مقاتليه بالتقهقر إلى خارج الأسوار وهم يطلقون النيران، بينما أرتال اليهود تتسارع إلى الموقع من جميع الجهات.

عند العصر، أنزلت الأعلام السورية والعراقية عن المركز، ليرتفع مكانـها علم نجمة داوود.

في دمشق، استجوب "أبو جميع" من قبل لجنة التحقيق التي شكلتـها القيادة العربية العليا، فوجد بريئاً، بعدما انضم عشرة آلاف صفدي إلى من سبقهم في اللجوء إلى الجولان وحماه وحمص وحلب وضواحي الشام.



لم يقتصر اللجوء على أهالي صفد. بل وصلت الحمى إلى المناطق القريبة. وإن بأعداد أقل، جلـها من أثرياء طبريا وعكا والناصرة. فوصلت عائلة ميسر إلى بيروت، لتجد بانتظارها بيتاً مريحاً قدمه لـهم فرحان.

٣٧

قتالـه في فلسطين يثبت أنـه ليس جباناً ولا متقاعساً ولا يخشى القتال. هكذا برر للرفاق في اجتماع المنفذية بعدما أعلن انطون سعاده الحرب على الدولة العبرية.

قال لـه الرفاق بأن الفرصة سوف تتاح لـه مع الجيش. لكن وحدتـه لم تستدع للالتحاق بالقوات السورية التي انضمت للقوات العربية في فلسطين.

مع هذا كان يشعر في قرارتـه بالذنب والتقصير، ولاسيما أن لديه خبرة قتالية ومعرفة بتضاريس الجليل.

صارت أمه همه، ومصدر قلقه ومحط اهتمامه وانتباهه. تعاقبت على رعايتـها خادمات عديدات، دون أن تحتمل إحداهن الاستمرار لأكثر من شهر أو شهرين، إلى أن أوصاه أحدهم بامرأة علوية، اعتادت رعاية أختـها المجنونة سنوات عديدة، قبل أن يحررها الموت منـها، لتجد نفسها على حافة الجنون بعد رحيلـها، فوجدت في أم عدنان منقذاً.

لم تكن حالة أم عدنان جديدة على الخادمة الجديدة، إلا فيما يتعلق بنواحها وهلوساتـها، بينما كانت أختـها المتوفاة عدوانية، تضرب وتحطم في نوباتـها الأواني وتقلب الأثاث وتكسر الزجاج. بينما يقتصر جنون أم عدنان، على شق الثياب كلما غادر بكر، والندب طيلة غيابه وهي تجفل لأقل الأصوات، وتأخذها الرجفة إذا وصل إليها صوت المؤذن، وهي تودع بكر المسجى في الجامع أو المحمول في النعش أو المكفن في القبر يردم عليه التراب.

يتوقف ندبها عندما تجتاحها القشعريرة وتبتلع الحمى سواد عينيها من أعلى محجريها. يصبح شكلـها حينـها أكثر رعباً من شكل مومياء بعثت فيها الحياة ، فترتاع الخادمة وهي تبلل لـها جبهتـها وتكفكف على خديها وتقرأ لـها الأدعية والآيات وترجوها باكية الاستيقاظ.

عندما تـهدأ تحمد ا   لأنـه أبقى لـها ولداً: ما إجا يقبرني عدنان.؟.

عندما يصل بكر تلوذ بالصمت، ويتجهم وجهها وتتجنب النظر إليه. كأنـها تعاقبه على عقوقه، فيضيق صدره وهو يلقمها الطعام أو يشربـها الماء. يظل بجانبها

يقرأ جريدة أو كتاباً، دون أن يجرؤ على تشغيل المذياع إلا بعد نومها أو خلسة في غرفتـه ملصقاً أذنـه بـه. فهي رغم غيابها عن الحاضر، إلا أن صوت المذيع يفجر فيها حمى الماضي وقشعريرتـه. مثلما توقظ ندبها أغاني الحب وأناشيد الوطن ونواح الناي.

ذهب بها إلى أطباء مدنيين وعسكريين، فلم يسعفوها إلا بالمسكنات التي وإن كانت تساعدها في النوم إلا أنـها تزيد من حالتـها سوءاً بعد الاستيقاظ.

ذهب بها إلى المطببين الشعبيـين فأصابتـهم رجفتـها بالرجفة، وسارعوا في إعطاء بكر علاجاً جاهزاً سهل الاستخدام كي يبتعد سريعاً بها خشية أن تقضي عندهم فيقضى على مهنتـهم.

أخذها إلى الشيوخ، فلم تختلف النتيجة، اللـهم إلا بالحجب والرقى والتعاويذ. نصحه البعض بأخذها إلى شيخ عمان الذي أشادت الصحف بقدراتـه وتتناقل الألسن معجزاتـه.

كانت غرفة انتظار الرجال تغص بالعشرات. مقعدين ومفلوجين ومسلولين وممسوسين، وعنينين وعقيمين وخائبين ومغدورين ومنتقمين. لم تختلف النسوة في غرفة الحريم إلا بالمحرومات والمخذولات اللواتي تريحهن لمسات مقصود ويلبي مارده حاجاتهن. كان لهؤلاء أولوية في المواعيد التي تمتد عند سواهن لأيام وأحياناً لأسابيع.

لم تفد بكر رتبته العسكرية، طالما أن جاوب بشخصه جاء يوماً إلى مقصود. عليه أن يعود بعد أسبوع كما أبلغه المريد بحزم وإهمال. لكن بكر أصر على أن يعطى الأفضلية على الأخرين: أنا جاي من الشام يا آخي. ولازم أرجع اليوم. أنا ضابط في الجيش، وما بقدر أغيب أكثر من نهار. ا يخليك اعمل معروف معي وخليني أقابل الشيخ.

نقل المريد رجاءه إلى مقصود، مع وصف تام لحالة أم عدنان التي أرعبت رجفاتها النسوة في غرفة الحريم. كما وصف له بدانتها وارتخاء قفاها على طراحة تتسع لاثنتين.

أشار المريد بكر فتبعه إلى الفناء. أخبره بأنه سعى جهده لتفضيله بالدور، وطلب لقاء ذلك بريزتين، فمد

لـه بكر بدلاً منـها فرنكات سورية، كادت تعيد التعنت إلى المريد، لولا أن أحد الزبائن قبلـها لقاء عشرين قرشاً فلسطينياً.

ظل مقصود مغمض العينين لا يصدر عنـه سوى صوت حبات السبحة المتساقطة في خيطها، بينما بكر يشرح لـها عناء أمه وصعوبة حالـها. ما أن انتـهى من التوضيح، حتى صرخ مقصود: حي... فأجفل بكر قبل أمه التي انبعثت فيها الرجفة بالحال، وجاء المريد راكضاً: رمان. رمان... صرخ مقصود وما يزال مغمض العينين، متخيلاً ارتجاج القفا السمين على إيقاع الضربات : رمان شو ؟.

- منشان طرد الشيطان... قال المريد، بينما مقصود يتمتم دون صوت وحبات المسبحة تتساقط بعصبية ونفاد صبر: حي ... صرخ، بينما المريد يشرح إجراءات العلاج لبكر الذي أحس بالنار تتصاعد من جوفه إلى رأسه، فارتبك المريد من احمرار وجهه والغضب الناري الذي يشع من وجهه: بدوه يضربها؟.

- إنت اطلع بره وخلي الشيخ يشوف شغلـه...

-        حي ... صرخ مقصود من جديد، بينما ترتد ذراع بكر بكل قوة إلى وجه المريد بجانبه، مرنـحة أياه إلى الجدار.

عندها فتح مقصود عينيه على اتساعها بينما بكر يتناولـه من رقبتـه ويرفعه عن الأرض لتـتقارب وجهاهما وتتلامس أرنبة أنفيهما: وا ... قال وهو يكز على أسنانـه: بـخلع راسك عن جثتك إزا بتمد إيدك عليها.

غشي الخوف قلب مقصود، فتراخى جسده مع تزلزل كيانـه، ولم يعد قادراً على ترديـد كلمة حي، بينما أسرع المريد لتخليصه: خاص يا بيك. إذا ما بدك هيك، فيه غيره.

دفع بكر بكل قوتـه مقصود إلى الوراء، فتماسك مقصود وتفرس به غاضباً. اختطف من حنجرتـه الأمر بحزم، مشيراً إلى الباب:بره. خود هاد بره. أحسن ما أنزل عليه جن أرض وسما.

-        كول خرا. أحسن ما أخلي الجن يطلع براسك. أصلاً أنا المجنون اللي إجيت من آخر الدنيا لواحد مجنون... يلاّ يا مو. يلاّ.

استغرب بكر استكانة أمه طيلة طريق العودة إلى دمشق. ظلت ساهمة شاردة دونما رجفات أو هلوسات.

لازمها السكون والسكوت في البيت أيضاً، مثلما لازمها الإصرار على الصيام، ولم يعد يفلح الاستجداء والاحتيال والإغراء في حملـها على الأكل والشرب.

توقفت رجفاتـها كلياً وتوقفت هلوساتـها أيضاً، ولم يتوقف هزالـها السريع، فنقلـها بكر إلى المشفى العسكري.

حقنت بالمغذيات والمقويات، دونما نتيجة تذكر، اللـهم إلا إطالة أمد المعاناة، إلى أن سكنت أنفاسها مع سكن آلاف المهاجرين الفلسطينيـين في ضواحي الشام.

٣٨

وجد جلوب نفسه على المحك. بل على النصل الفاصل بين الخرائط الورقية والتضاريس الطبيعية. كان يعرف بأن اليهود متفوقون قتالياً على العرب، لكن المفاجأة عقدت لسانـه عندما أخبره المعتمد البريطاني في عمان، بأن تقرير الاستخبارات العسكرية البريطانية يقدر عدد قوات اليهود بنحو مئة وخمسين ألف مقاتل، مدججين بالسلاح متمرسين بالقتال. يخوضون حرب وجود وليس حرب حدود مثل الجيوش العربية التي لا تصل في مجموعها إلى عشرة بالمئة من قوات اليهود. أوجدوا عمقاً استراتيجياً يعتمد هيكل الدفاع الشامل المعتمد على المستوطنات المنيعة، لنقل المعركة إلى مواقع الخصم، بدلاً من مواجهتـه في مواقعهم.

صرخ جلوب بالمعتمد البريطاني: كيف أستطيع بخمسة آلاف مقاتل المحافظة على مساحة خمسمئة كيلو متر.

رد المعتمد: لماذا لا تستطيع؟!. إنت ذاهب للمحافظة على أراضٍ عربية بـموجب قرار التقسيم كما قلت بنفسك.

- لكن الظاهر أن اليهود لا يبالون بقرار التقسيم، لقد احتلوا مساحات أكبر مما خصص لـهم.

- هنا يجب أن تحارب.

- ماذا تقصد.؟.

- أقصد المناطق التي يحتلونها خارج التقسيم،لا المناطق المطلوب منك المحافظة عليها.

- افترض احتلوا هذه أيضاً.؟.

- لا أظنـهم حمقى أو أغرار ليشتتوا قواتـهم على امتداد خمسمئة كيلو متر.

لم يرتح جلوب لـهدوء المعتمد ولا اطمأن لاستنتاجه. اليهود ليسوا أغبياء. تاريخهم يشهد بأنـهم شعب العباقرة. لكن الحرب قد تجنن أذكى العقول. قد يجن اليهود ويدفعون بقواتـهم إلى تخوم القطاع العربي الذي أقره مشروع التقسيم. ولاسيما أن القدس تقع في هذا القطاع. قيمتـها الدينية لدى اليهود لا تقل عنـها لدى العرب المسيحيين والمسلمين. في القدس لن يختلف وضعه عن وضع فاتح إسبانيا، طارق بن زياد. مقولتـه الشهيرة تنطبق

على جلوب الآن. إذا خسر القدس لليهود سيغرقه النـهر من خلفه. إذا ضربه أهالي عمان بالحجارة والقاذورات يوم كانت القدس عربية، بـماذا سيضرب إذا غدت يهودية؟.

دفع قواتـه ليلاً مجتاحاً في أقل من ساعة مستعمرة عطاروت التي التجأ سكانـها إلى مستعمرة النبي يعقوب. إلا أن قواتـه التي توجه أسلحتـها للقدس لم تبال بنيران المستعمرة، فاكتسحوها رغم المقاومة الشديدة ليصلوا مع تباشير الصباح إلى مشارف القدس من جهة الشرق.

كان مختار قد سبقهم على رأس مفرزة الـهاون بعدما وصلـه الأمر للتحرك إلى الموقع أثناء انسحابه من صفد. قال للباشا بأن الأمر مقضي. فتساءل الباشا مستغرباً وقد هيئ لـه أن مختار يقصد الانسحاب. فأوضح مختار بأن القوات اليهودية تتمركز في الجنوب الشرقي من المدينة بعدما احتلت قواتـها الشيخ جراح وبذلك أمنت الاتصال مع مستعمرات جبل المشارف.

- وماذا يعني.؟... سأل جلوب بحزم وقسوة ، ليجيبه مختار بحزم وثقة أيضاً: يعني ما راح ندافع عن المدينة

لآخر رجل مثل ما قلت لنا سيدي. بل سنـهاجم لآخر رجل إذا سمح سيدي.

تساءل جلوب، لحظتـها، إن خطر ببال هذا الشاب ما خطر ببالـه ليلة أمس. ترى متى ينسى العرب مقولة طارق بن زياد.

صبت المدفعية وقذائف الـهاون حممها على القدس الجديدة، بينما تحرك مختار على رأس وحدة من جبل الزيتون إلى الشيخ جراح فقطع الاتصال بين قوات اليهود فيه وقواتـهم في المشارف، وسيطر بـموقعه على القدس الجديدة.

لم يكن حال باقي القوة يختلف عن حالة مختار. إذ وصل التوثب والتحفز أقصاه وكان على جلوب أن يدفعه بعيداً عنـه كي لا ينقض عليه. فما كاد ينـهي أوامره بالتحرك، حتى اندفع الضباط بجنودهم في اتجاهين، تنظف لـهما الطريق وحدة مختار بقذائف صمت الآذان وأعمست نيرانـها العيون وحرقت الأعصاب.

بعد أيام تذكر جلوب ما تعلمه في دورة الأركان. كان حينذاك غضاً فتياً، لم يخطر ببالـه أنـه سيغدو قائداً للجيش في يوم من الأيام. فما يشاع عن ديمقراطية الانجليزي، مجرد خرافة. إنـهم، مأسورون أكثر من غيرهم للعادات وصراع الطبقات. لا يحتاج الانجليزي إلى البطولة والثراء كي يصبح لورداً. عليه قبل هذا وذاك أن يولد من صلب اللوردات. طريق هؤلاء تصل بهم إلى ما شاؤوا من الرتب والمناصب والرغبات. عناءهم في الاختيار فحسب. أما أمثال جلوب فإن عليه أن يأتي للعرش البريطاني بالشمس كي ينـال بعضاً مـن ضيائهـا. هذا البعض هو كل ما كوفئ به بعد طول مكابدة وعناء وجهاد. قيادة جيش عربي بحجم كتيبة انجليزية. لكنـه شعر بالغبطة والحبور بعد انتـهاء القتال. تذكر حينـها ما تعلمه في دورة الأركان . الميت فقط لا يرد على إطلاق النار. حتى الأسير يصبح عبداً لبندقيتـه إذا أجبر على توجيهها إلـى أهلـه.

تنازعتـه مشاعر عديدة قبل بدء المعركة. اندفع وراء جنوده الذين دب بينـهم الحماس واستولت عليهم إرادة القتال وهم يدحرون عدوهم المتفوق عدداً وعدة وسلاح. غدا

جلوب بندقية صماء لا تسمع صوت العقيدة ولا القرابة ولا الصداقة ولا العداوة لا العاطفة أو العقل أو الوجدان. امتص منـه القتال أحاسيسه إلا حساسية القتال، وهو يحتل الطريق بين اللطرون ودير أيوب، وتسيطر قواتـه على بيت لحم ويجتاح بعد ذلك مستعمرة بيت عربة مجبراً اليهود على الـهروب بالزوارق إلى سدوم البحر الميت.

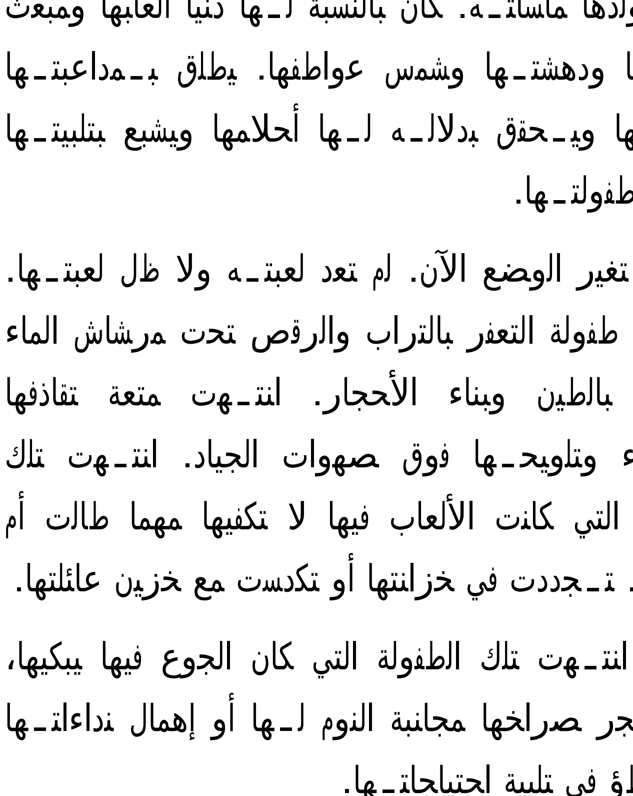
في اليوم الأخير للقتال احتل بتاح كتفا ونجح بصد هجوم معاكس لليهود، ليشكل بـجيشه المتواضع الصغير أكبر تـهديد لقلب الدولة العبرية الناشئة وهو يتمركز على بعد ثلاثين كيلو متراً من تل أبيب.

أمر بالاستحكام في المواقع التي وصلوا إليها مما أثار استياء الضباط الشباب الذين يتطلعون للتقدم ومواصلة القتال. لكن الاستياء كاد يتحول إلى تمرد عندما أصدر جلوب أمراً للانسحاب من اللد والرملة، لولا أن الحكومات العربية استجابت لوقف إطلاق النار الذي دعت إليه الأمم المتحدة بإيعاز من الولايات المتحدة الأمريكية.

عاد جلوب إلى عمان تاركاً وراءه حاكماً عسكرياً ينوب عنه في إدارة المناطق التي آلت إليه، بينما يرفرف

العلم الأردني على دار الحكومة في القدس. لم يغفر لـه الاحتفاظ بالقدس تخاذلـه في اللد والرملة. مثلما لم يغفر مختار والضباط الشبان استجابته لوقف إطلاق النار وهم على بعد خطوات من تل أبيب. اعتبروا ذلك إذعاناً واستسلاماً، فشكلوا تنظيماً سرياً للإطاحة به ، اطلقوا عليه فيما بينـهم اسم " الضباط الأحرار".

٣٩



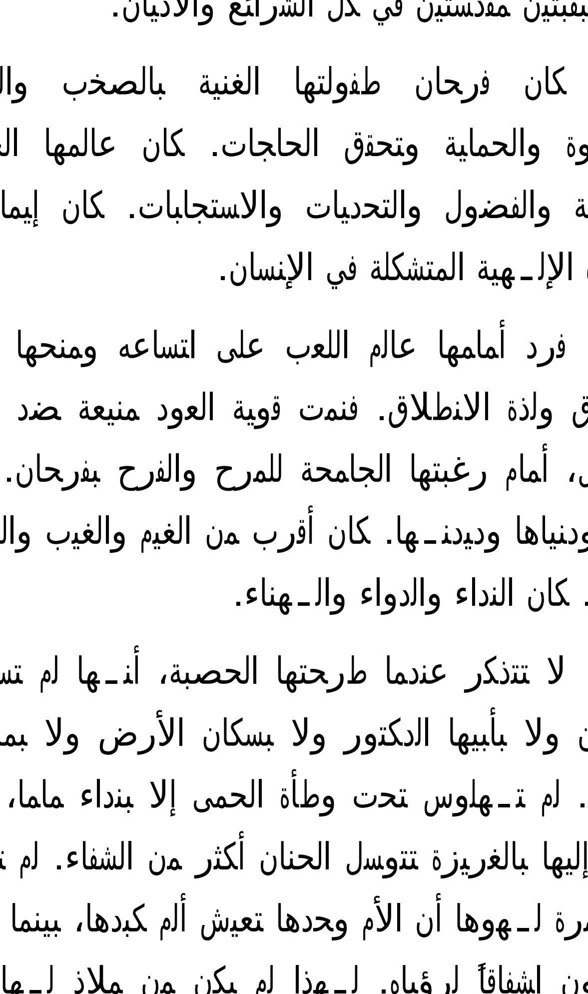
ظلت طلية طفولتـها لعبتـه وملـهاتـه وهي التي جسد مولدها مأساتـه. كان بالنسبة لـها دنيا ألعابها ومبعث بهجتـها ودهشتـها وشمس عواطفها. يطلق بـمداعبتـها حيويتـها ويـحقق بدلالـه لـها أحلامها ويشبع بتلبيتـها فضول طفولتـها.

تغير الوضع الآن. لم تعد لعبتـه ولا ظل لعبتـها. انتـهت طفولة التعفر بالتراب والرقص تحت مرشاش الماء والعبث بالطين وبناء الأحجار. انتـهت متعة تقاذفها بالـهواء وتلويحـها فوق صهوات الجياد. انتـهت تلك الطفولة التي كانت الألعاب فيها لا تكفيها مهما طالت أم قصرت. تـجددت في خزانتها أو تكدست مع خزين عائلتها.

انتـهت تلك الطفولة التي كان الجوع فيها يبكيها، مثلما يفجر صراخها مجانبة النوم لـها أو إهمال نداءاتـها أو التباطؤ في تلبية احتياجاتـها.

تحولت الدهشة والفضول، الآن، إلى تأملات وأمنيات، وتـحولت الألعاب إلى ذكريات، حلت محلـها رغبة جامحة في تبديل الثياب. الآن لم تعد تلتزم بـمواقيت الأكل مع العائلة وصارت حذرة من مكونات الطعام وأصنافه وكمياتـه حتى لا تختل رشاقتـها أو تتوالد البثور في وجهها.

الآن تحرص على النظافة والتـهندم والتأنق وتحاذر التراب وتتضايق من الغبار، ولاسيما إذا تسلل إلى بلورتـها السحرية التي تؤكد لـها جمالـها الفتان. تشاهد في انعكاسها انسجامها الروحي وتناسقها الجسدي، وتتلقى منها النصح والإرشاد في معالجة البثور والنشوز والتحكم بالألوان. والأهم رغبة التحدي لمبارزة الفتيات بجمالـها وصرع الفتية بفتنتها. أين لسواها بشرتـها الحنطية المصبوغة بالشمس ؟. أين لـهن عيناها الخضراوان الواسعتان مثل درتين دونـها درر التيجان ؟. أين الأعناق المترهلة كالحلقات من عنقها الفنيقي الممدود كمعدن مصقول تحت وجهها الذهبي المستدير مثل وجه عشتروت. أين صديقاتـها ورفيقاتـها وبنات



مدرستها من قوامها المرسوم بالمنقلة والبيكار، وصدرها الناهد بقبتين مقدستين في كل الشرائع والأديان.

كان فرحان طفولتها الغنية بالصخب والمرح والشقاوة والحماية وتحقق الحاجات. كان عالمها الحاشد بالدهشة والفضول والتحديات والاستجابات. كان إيمانـها بالقدرة الإلـهية المتشكلة في الإنسان.

فرد أمامها عالم اللعب على اتساعه ومنحها متعة الانعتاق ولذة الانطلاق. فنمت قوية العود منيعة ضد العلل والكسل، أمام رغبتها الجامحة للمرح والفرح بفرحان. كان دينها ودنياها وديدنـها. كان أقرب من الغيم والغيب والنجوم والنوم. كان النداء والدواء والـهناء.

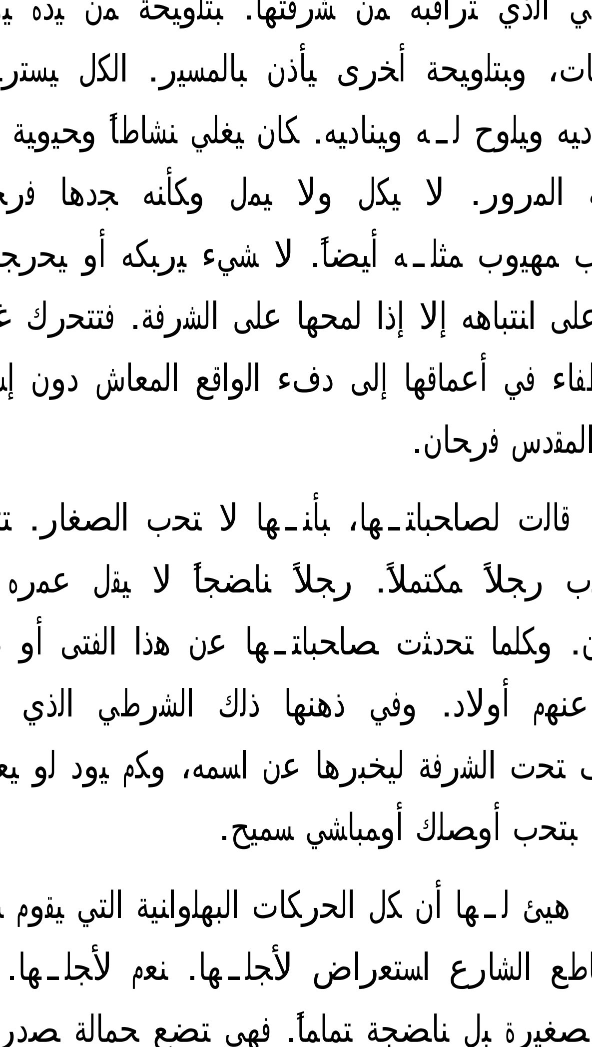
لا تتذكر عندما طرحتها الحصبة، أنـها لم تستغث بفرحان ولا بأبيها الدكتور ولا بسكان الأرض ولا بملائكة السماء. لم تـهلوس تحت وطأة الحمى إلا بنداء ماما، التي لاذت إليها بالغريزة تتوسل الحنان أكثر من الشفاء. لم تدرك في غمرة لـهوها أن الأم وحدها تعيش ألم كبدها، بينما يكابد الآخرون اشفاقاً لرؤياه. لـهذا لم يكن من ملاذ لـها وقد

اشتدت عليها حمى المراهقة إلا أمها التي تعيش حالتها ولو باعد الزمن بينهما جيلاً وأجيالاً.

صارت ميسر تتصدى لمرزوق كلما احتج على جلوس نـهايه في الشرفة بثياب مكشوفة، لا تجرؤ على ارتدائها بنات الجيران، فتؤنبه ميسر وأحياناً توبـخه. هل يريد لـها أن تتمندل مثل المسلمات؟. وعندما يبدي استياء من تبرجها في زياراتـها للصديقات تستغرب سلوكه وهو الذي يتباهى بانفتاح عائلة كنعان على الحياة.

كل هذه الأمور كانت عادية تماما عند كل الناس، وإن اختلفت شكلياً حسب المال والطبقات والعادات. فواصل مرزوق التذمر، وواصلت ميسر التصدي وواصلت نـهايه تحديها تحت ضغط الرغبات.

الشيء الذي تغير في تكونـها النامي، تفاعلـها مع فرحان وليس أسطورة فرحان. لم يعد بالنسبة لـها عالم اللعب الفسيح، بل نموذج الفارس الحبيب. انتهى الدلع ولم ينته الدلال. لم تعد تذهب إليه مشتاقة وإنما محتاجة. ولم يعد مجيئه يدفئ قلبها وإن كان ينعشها. تحول في وجدانـها إلى فارس مرهوب مهيوب يأمر بالإشارة فيطاع. تماماً مثل ذلك



الشرطي الذي تراقبه من شرفتها. بتلويحة من يده يوقف المركبات، وبتلويحة أخرى يأذن بالمسير. الكل يسترضيه ويستجديه ويلوح لـه ويناديه. كان يغلي نشاطاً وحيوية طيلة تنظيمه المرور. لا يكل ولا يمل وكأنه جدها فرحان، مرهوب مهيوب مثلـه أيضاً. لا شيء يربكه أو يحرجه أو يؤثر على انتباهه إلا إذا لمحها على الشرفة. فتتحرك غبطة الاصطفاء في أعماقها إلى دفء الواقع المعاش دون إسقاط اللوح المقدس فرحان.

قالت لصاحباتـها، بأنـها لا تحب الصغار. تتمنى لو تحب رجلاً مكتملاً. رجلاً ناضجاً لا يقل عمره عن الثلاثين. وكلما تحدثت صاحباتـها عن هذا الفتى أو ذاك، تقول عنهم أولاد. وفي ذهنها ذلك الشرطي الذي تعمد الوقوف تحت الشرفة ليخبرها عن اسمه، وكم يود لو يعرف اسمها: بتحب أوصلك أومباشي سميح.

هيئ لـها أن كل الحركات البهلوانية التي يقوم بـها في تقاطع الشارع استعراض لأجلـها. نعم لأجلـها. إنها ليست صغيرة بل ناضجة تماماً. فهي تضع حمالة صدر كي

يتقبب صدرها أكثر، وترفض عقد جدائلـها كالصغيرات، بل تترك شعرها على استرسالـه ليلوحه الـهواء بإغواء.

في عيد ميلادها السادس عشر أصرت على أمها أن تكوي لـها شعرها مثل الكبيرات. لم تتوان ميسر بالاستجابة، وقد غدت نـهايه دميتها التي تتقمصها، وإن لم يعجب الأمر مرزوق. أما فرحان الذي جلب لـها سواراً مرصعاً بالمناسبة، فقد تذكر الجفاء الذي كان يقابل به زعل ابنته ثائرة. إذا كانت المرأة ترفض الاعتراف بانقضاء السنين، فإن الرجل يعيش في انقضائها وحشته واغترابه ومأساته.

خرجت مراراً إلى الشرفة أثناء الحفل. تستعرض أنوثتها في ثوبٍ أسود تخفي شفافيته أوراق شجر رمادية وقد انكشفت رقبتها العشتروتية مع انفراج الفستان عن كتفيها بشكل سبعة. لوحت بشعرها المكوي حزماً صغيرة مستديرة كالعجلات، دون أن تحظى بالجمهور المطلوب. لم يكن سميح حاضراً في تقاطع الشارع. خيب توقيت الحفلة آمالـها. كيف يمكن أن تشعل الحرب مفاتنها يوم استراحة المحارب؟.

حافظت على هيأتـها في اليوم التالي، وارتدت الفستان نفسه، ولوحت برأسها يميناً ويساراً من فوق الشرفة. تمشت جيئة وإياباً في موقعها الضيق، دون أن تبالي بغزارة النظرات ولا التلويحات. كانت تريدها من واحد فقط، عيد يوم عيدها.

خبا حماسها قليلاً بعد يوم آخر، ليتلاشى بعد أسابيع، ولم تعد تبحث من موقعها عن فارس الأحلام فرحان. فقد كان فرحان يجلس بجانبها ومعه ميسر ومرزوق يراقبون بذهول وحيرة وأسى، جموع اللاجئين الفلسطينيـين الذين انشقت الأرض عنهم وهم يحتلون السفوح المقابلة والمحاذية ويرفعون مآويهم من الخيام والشوادر والخيش المرقّع.

لم تعد نـهايه تثير حفيظة أبيها بالشرفة التي لم تعد تطيقها أو تحتمل ما يجوب تحتها من الأطفال المتشردين والفتية البائسين والرجال المأخوذين باغترابـهم أكثر من مصابـهم. كان عليهم أن يبدأوا حياة انتهى مصيرهم إليها.

وصل الضيق بـميسر من هذا المشهد الذي يذكرها بلجوء أهلـها إلى بيروت، للطلب من مرزوق أن يبحث عن بيت آخر في مكان بعيد عن الزحام المهين. صارت تخشى

النـزول من البيت أو المشي في الشارع، ناهيك عن الضجيج والأوساخ ونظرات المتطفلين. أما نـهايه فقد حسدت لقاء على سفره إلى مصر. ولما أخبرها فرحان أن لقاء لن يأتي في العطلة الصيفية إلى عمان قالت : أحسن لـه.

ألحت على أبويها كي ترافق عمو فرحان إلى مصر للاطمئنان على لقاء. رفض مرزوق بعصبية إلى أن جاء فرحان:أنا خايف عليها يوبا. إنت شايف كيف الدنيا مقلوبة.

- تخاف عليها واياي يا ولد.؟!.

٤٠

امتاز لقاء منذ صغره بخطه الجميل. كان يتأنى في رسم الحروف وهو يتعلمها مع بداية التحاقه بالمدرسة. مع الأيام صار سريعاً في الكتابة دقيقاً بالإملاء. كما حفظ غيباً، مع تجاوزه المرحلة الأولية، سوراً طويلة من القرآن ، رغم أنه يتلعثم بالقراءة ولا يجيد الإلقاء. لم يؤثر ذلك كثيراً على معدلـه العام. نجاحه المتوسط بالامتحانات الشفوية، عوضه تفوقه بالتحريرية منها، فظل متقدماً على سواه.

كان محدود الرغبات، مقتراً شغوفاً بالادخار. حتى أن فرحان كان يتضايق من قلة طلباته، بينما يأتي لنهايه بالـهدايا التي لا تشبع نـهمها لكل جديد، سواء في الألعاب أو الأطعمة أو الحلوى أو الثياب. أما لقاء، فلم يكن يطلب سوى مجلة " البراعم"، وأي جريدة تتضمن زاوية للحروف المربعات.كان شغوفاً بـهذه التسلية، إلى درجة يضيق معها صدر فرحان كلما ضيق عليه بالأسئلة التي كان يحظى ببعض أجوبتها في بيت السلاح.

أجاد أيضاً الشطرنج وفاز في مباريات المدرسة بالمرتبة الثانية وأخرى بالثالثة، فأوصى لـه فرحان على رقعة وأحجار من الشام. لم تغر اللعبة نـهايه فلم يبال لقاء وهو يلعب دور الخصمين وحده.

كلما استدرج فرحان حفيدته للحديث عن لقاء، تقول بأنه لا يحب اللعب ولا يجيده أيضاً، وبـمثل ما يستمتع بالشطرنج وحده فإنـها تستمتع بالمرح في القبة وحدها. كانت تحسده على جده واجتهاده، بينما هي لا تكاد تحصل النجاح. أما لقاء فكان يقول لمسلم بأنـها تلعب كالصبيان ولا تليق لـها لعب البنات.

كان فرحان في قرارته على استعداد للموافقة على زواجهما إذا انسجما مع الأيام. لكنه لن يوافق بسهولة. ما تزال تستحوذه حرب الصحراء التي اندلعت بسبب هند اللاطيفات.

كبر لقاء وكبرت نـهايه، ولم تختلف العلاقة بينهما. لم يكن يجمعهما شيء سوى القبة. حتى هناك كانا متباعدي المطامح والسلوك والرغبات. عمق من الـهوة بينهما، انغلاق لقاء في الدين واندفاع نهايه لاستكشاف الحياة.

زارت مع أبويها الشام ولبنان، وقضت ثلاثة أشهر معهما في لندن. بينما لم يبتعد لقاء خارج عمان سوى مرة واحدة، عندما اصطحبه فرحان إلى القدس للتعرف على سليمان، والحقوق التي ستؤول إلى عهدته عند بلوغه الثامنة عشرة بعد عام. أما مصر التي لا يتذكر منها سوى القليل من طفولته فيها، فإنه عاد إليها شاباً لتقديم أوراقه إلى الجامعة المصرية وقبولـه في كلية الـهندسة، بينما تنكمش زيارات نـهايه للقبة، بعدما غدت صبية تتحرك في أحاسيسها دماء المراهقة مما جعلـها تروم الاستقلال بشخصيتها وحياتـها.

لم يعد المرح في القبة يغويها، على عكس المرآة التي تقضي أمامها ساعات. كما لم تعد الجياد تخاب لبها، وهي تتفحص من على الشرفة أو خلال الطريق إلى المدرسة الشبان والشابات. لكنها لم تحظ بفارس أحلام طويل القامة شديد البأس قوي الشخصية مرهوب الجانب مثل عمو فرحان.

- صرت تحكي بالجيزة وبعدك ما فقست من البيضة.

كانت ميسر تبتهل كي تتحقق أمنية نـهايه. فهي أيضاً تتوحم أن تنجب ابناً مثل فرحان. وإذا عرج الحديث

على لقاء، تقول نـهايه، بأن كل شيء فيه مصري، والدليل لـهجته التي لا يستطيع نسيانـها رغم إقامته الطويلة في عمان. أما لقاء فكان يحس بـحنين لمصر لا يدرك كنهه، وإن كان فرحان يرده إلى تأثير مربيته التي سافرت معه ليتابع دراسته الجامعية هناك.

انضم لجماعة الإخوان المسلمين ولم ينقض الفصل الأول بعد، ومع ابتداء الفصل الثاني، دعا المرشد العام للجماعة إلى الجهاد في فلسطين.

في أول حزيران وصل لقاء مع المتطوعين الإسلاميين إلى منطقة المجدل، بينما المدفعية المصرية تقصف مستعمرة نجبا التي تقطع طريق الاتصال مع الجيوش العربية في الداخل.

تقدمت الموجة الأولى من المصريين لاكتساح المستعمرة بعد القصف المدفعي العنيف، إلا أنـها لم تنجح سوى بفتح ثغرة صغيرة في الأسلاك الشائكة المحيطة، فتولت دبابة فتح ثغرة أخرى استطاعت الآليات عبورها يتبعها المشاة. لكن القوة تراجعت سريعاً أمام غزارة النيران.

دفع القائد في اليوم التالي موجة ثانية لإرباك اليهود وإيهامهم بأن الموجة الأولى كانت لجس النبض فحسب. إلا أن المقاومة كانت أعنف من السابق، مما اضطرهم للتراجع ومعهم المتطوعون الإسلاميون. قال لقاء لقائد الجماعة، بأنه لم ينجح في إطلاق رصاصة واحدة من بندقيته، فعقب قائد الجماعة: ولا أنا رمت بندقيتي طلقة، العيب بالرصاص مش بالسلاح. العتاد مبرد يا اخوان...

ظلت هذه الكلمات تتردد بين الجنود طيلة فترة انسحاب القوة إلى المـجدل. حيث تحول الجيش المصري من الـهجوم إلى الدفاع. فوجد لقاء نفسه رهين تبادل القذف المدفعي البعيد المدى إضافة إلى إغارات الطائرات اليهودية على قطاع غزة، بينما تخضع المناطق الفلسطينية للجيوش المتمركزة فيها عربية كانت أم يهودية.

قال أحد أتباع المفتي: التاريخ يعيد نفسه... فلقاء الذي تطوع للحرب في فلسطين استجابة لنداء مرشده الديني، يجد نفسه في غزة التي لم تكن بحسبانه على الإطلاق، مع رئيس الـهيئة العربية العليا، مفتي فلسطين. حصل الأمر

بالصدفة. إذ دعي قائد الجماعة الإسلامية لحضور افتتاح المؤتمر الوطني الفلسطيني، فاصطحب معه لقاء.

أخذه المفتي بالأحضان، وعانقه طويلاً بـمجرد أن قدم إليه نفسه: أنت عارف العلاقة اللي بيني وبين أبوك يا لقاء؟.

لم يأخذ إدراج اسم لقاء في قائمة المؤتمرين وقتاً ولا جهداً ولا تعقيدات. أمر المفتي بتسجيلـه ممثلاً عن طلبة فلسطين.

ظل المفتي يتأملـه عن بعد وهو يصغي إلى الخطابات المتتابعة المنادية بالاستقلال وإعلان حكومة عموم فلسطين.

في وداعه لـه بعد اختتام الجلسات، سألـه عما سيفعلـه في القاهرة، فقال لقاء: أعود للمذاكرة يا حج...

- بس؟... سأل المفتي.

- إنت تأمر يا حج.

- استغفر ا . بس لا تنسى إنك ممثل الطلبة في المؤتمر يا لقاء.

مع بداية العام الجامعي الثاني، حاز لقاء على أكثرية الأصوات في انتخابات رابطة الطلبة الفلسطينيـين واختير رئيساً بدعم من كتلته الإسلامية.

أرسل لفرحان بأنه لن يعود إلى عمان هذا العام، فجاءه فرحان إلى القاهرة وبرفقته نـهايه. تفاجآ وهو يخبرهما بأنه قرر الإقامة في مصر بشكل دائم: ده وطني دلوقت يا عم فرحان؟.

٤١

إبان العظمة الـهتلارية، وقبل أشهر من اندلاع الحرب الكونية، أشاد هتلر في خطاب وجهه إلى أهالي السوديت، بالمقاومة الفلسطينية ضد بريطانيا العظيمة واليهودية العالمية.

كان ذلك بـمثابة رسالة إلى المفتي يعرض فيها هتلر الدعم والمؤازرة، إلا أن المفتي لم يستجب لـهذا العرض السخي إلا بعد ثلاث سنوات، كان الوضع الحربي آنئذٍ قد تبدل وابتدأ الانحسار النازي. فأضاع المفتي فرصة تاريخية كان يمكن أن تغير من مراكز القوى في فلسطين. وعندما أعلن عن انتهاء الانتداب، ضيع المفتي فرصة ثانية، بعدم تـحركه لإشغال الفراغ الناشئ عن انسحاب الانجليز.

أعد اليهود أنفسهم لـهذا اليوم العظيم، فأعلنوا دولتهم مع انتهاء الانتداب، دون أن يستوعب المفتي أن الانجليز ينتظرون منه إعلان دولته في الجزء المتبقي من فلسطين وفقاً لقرار التقسيم. استقر به المقام في القاهرة،

متسلحاً بالعصا المصرية التي تثقب يد المتكئ عليها كما كان يتفكه في العراق. سعى اليهود خلالـها لإحكام سيطرتـهم على المناطق التي حطت فيها أقدامهم، ومأسسة إدارتـهم العسكرية والمدنية فيها، بينما المفتي منشغل بجمع الأنصار والأتباع لأخذ موقعه بين الزعماء العرب وفقاً لما يرسمه لـه النظام المصري.

لم يكن ملك مصر قادراً على منحه الدعم إلا من خلال الجامعة العربية التي كانت بنظر البعض، ولاسيما أنور، محاولة مصرية لتجاوز مشاكلـها الداخلية بالتدخل في الشؤون العربية: ومو بس هيك يا سمو الأمير. الجامعة العربية أكبر خطر من وحدة الـهلال الخصيب. من خلال الجامعة، صارت مصر توجه حكومة لبنان وحكومة سوريا.

- أنا شايف الخطر الأكبر، بالمفتي اللي صار بوق للسياسة المصرية في فلسطين.

- طالما المفتي ما عنده دولة ولا جيش ما فيه خطر منّوه.

- بيستاهل. بدال ما يعمل دولته بفلسطين، أجا يعملـها في العراق.

- هاد موافقك عليه يا سمو الأمير. بس المفتي شي وفلسطين شي. مثل ما سوريا شي والحكومة السورية شي. مثل ما هو الـهلال الخصيب شي والجامعة العربية شي.

- على حساب يا باشا كنت تقول إنك مهندس الجامعة العربية.

- وبعدني بقول يا سمو الأمير. وبقول كمان إني غلطت لما وافقت يكون مقرها في القاهرة. كان لازم أتوقع إنّوه مصر راح تـهيمن عليها طالما هي على أراضيها.

- إيه. كلنا بنغلط.

- بس مو كلنا بنتعلم من أغلاطنا. إذا قدرنا نحقق وحدة الـهلال الخصيب، بتصير الجامعة العربية ومعها مصر بـخبر كان.

- أي هلال خصيب يا باشا، طالما المفتي والحكومة السورية وحكومة لبنان في جيب مصر. حتى ابن عمنا بعمان عضو في الجامعة العربية.

- المفتي إنساه، لأنوه انتهى أمره. وفلسطين، حتى أكون واضح، ما بقصد كل فلسطين، راح تنضم للأردن أو سوريا أو العراق. مستحيل تنضم لمصر. أما سوريا. صحيح مثل ما بقول سموكم أنوه حكومتها بـجيبة مصر، بس الجيش السوري مع وحدة العراق. ولبنان ما بدها نقاش. الكل عارف أنـّوه القوميين السوريين مالكين الشارع ومسيطرين على نص الجيش. وابن عم سموكم ملك الأردن، بعده بنادي بسورية الكبرى.

لم يستعد أنور حظوته فحسب، وما رافق ذلك من ازدياد نفوذه في القصر. بل أنه غدا الرجل الأول في العراق. ليس في نطاق تنظيم الإدارة الداخلية التي صارت مشوراته وتنسيباته أساساً لموافقة ولي العهد على اجراءاتـها واستصدار قوانينها. وإنما امتدت إلى السياسة الخارجية التي صار أنور يوليها جل اهتمامه لتمكين العراق من التصدي للنفوذ المصري والسعودي.

سبق الآخرين في الجاهزية للحرب مع اليهود. توقع انتهاء الانتداب بين يومٍ وآخر فأقنع الوصي بدفع القوات

العراقية للتمركز في منطقة المفرق الأردنية، قبل حصول ذلك.

قال للوصي بأن الفراغ الناشئ عن انتهاء الانتداب سيربك العرب واليهود على السواء. الرابح بينهم من يشغل أكبر حيز منه. اقتنع الوصي برأيه، فأمر لواء المشاة العراقي وكتيبة الدبابات بالتحرك من المفرق واجتياز نـهر الأردن، في الساعات الأولى من إعلان الانجليز لانسحابـهم من فلسطين. كانت أوامر الوصي حازمة: التقدم قدر الإمكان والصمود حتى النهاية. نقلت الصحف أقوالـه، لتغسلـه من نكبة الكيلانيين وتجعلـه بطلاً شعبياً عند الفلسطينين والعراقيين.

نفذ العراقيون الأمر الأول بالتقدم إلى المرتفعات المطلة على مستعمرة غيشر. لكنهم أخفقوا في تنفيذ الثاني باجتياح المستعمرة التي تحولت حاميتها من الدفاع إلى الـهجوم وأرغمت القوات العراقية على الانسحاب إلى نابلس.

طاش صواب أنور. انسحاب الجيش العراقي جعلـه رهن استراتيجية جيش الإنقاذ، بدلاً من أن يكون قوة مؤثرة

فيها. فأقنع الوصي بدفع تعزيزات عسكرية بـمثل حجم القوة الأولى وتشكيلاتها، فوصلت كتيبة مشاة تبعتها بعد فترة كتيبة مدرعات.

اندفعت القوة بكامل رجالـها وعتادها إلى الطريق الفاصل بين طولكرم وناتانيا، فوجدت القوات اليهودية بانتظارها. اقترنت أوامر الوصي هذه المرة بتهديد كل متخاذل بالإعدام. فازدادت شعبيته الوطنية، بينما القوات اليهودية تندفع من وسط السامرة إلى جنين.

ما أن وصلت أخبار الموقف العسكري إلى الوصي حتى ألقى باللائمة على أنور بـحضور قادة عسكريين وزعماء سياسيين. لو واصلت القوات العراقية تحركها وفق استراتيجية جيش الإنقاذ، لتحمل هذا الجيش مسؤولية ضياع جنين. امتص أنور الاتهام بمثل ما أمطره خصومه بالاتهامات في كل مكان.

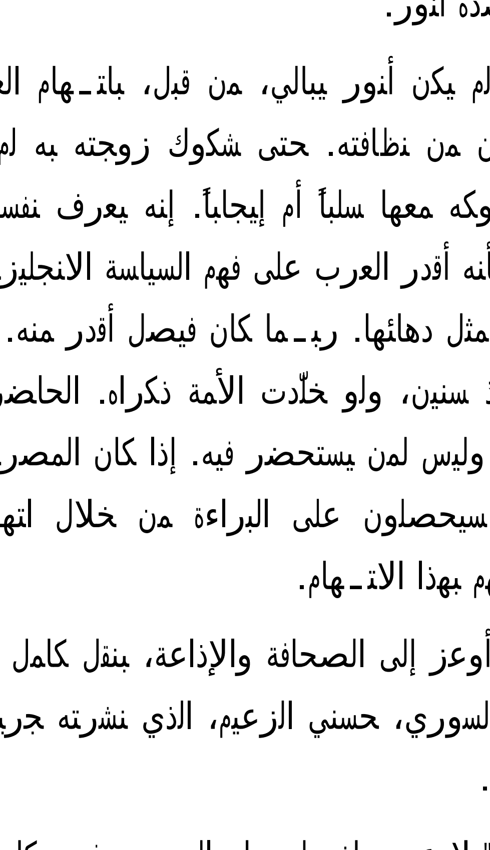
في ساعات الليل المتأخرة وافق الوصي على إقحام سلاح الطيران، في الوقت الذي اندفعت فيه كتيبة عراقية أخرى وصلت إلى نابلس، فوجد قائد القوات اليهودية أن الوضع بات خطيراً أمام الـهجوم البري والجوي، فأصدر

أوامره بالانسحاب، ولاسيما أن جنين من حصة العرب بموجب قرار التقسيم. فاستعادتها القوات العراقية، مما رفع أسهم الوصي إلى مستويات لم يحظ بـها أي زعيم عربي، بسبب صمود العراقيين، دون أن ينال أنور شيئاً من ذلك باعتباره أحد رموز ضياع فلسطين بسبب تاريخه الحافل بالعمالة للانجليز.

بينه وبين نفسه اعتبر أنور الدعاية المصرية السبب الرئيس وراء الاتـهامات التي صارت تتوالد في أفواه الناس. قال للوصي: كل هزيمة بكفيها كبش فدا واحد. هادا عند المصاب بقصر النظر. أما العرب، والحمد ، عندهم تشتت نظر، من هيك شايفين الـهزيمة هزايم، وبدل ما يحطوها براس واحد، حطّوها براس عشرة، ومحسوبك يا سمو الأمير واحد من العشرة.

لم يكترث الأمير لكلامه، سواء قصد به أنور التهديد أم التفسير. كان الأمير مزهواً بالشعبية التي حققها ولم يتوقعها. إنه بعيد عن الاتـهامات، ولا يعنيه إن تحملـها أنور وحده أم توزعها مع عشرة أو عشرين. لكن ما قالـه

عن العرب وتشتت نظرهم، جعلـه يطيل التفكير في المغزى الذي قصده أنور.



لم يكن أنور يبالي، من قبل، باتـهام العمالة طالما أنه متيقن من نظافته. حتى شكوك زوجته به لم تكن تؤثر على سلوكه معها سلباً أم إيجاباً. إنه يعرف نفسه، لكنها لا تعرف بأنه أقدر العرب على فهم السياسة الانجليزية والتعامل معها بـمثل دهائها. ربـما كان فيصل أقدر منه. لكن فيصل مات منذ سنين، ولو خلّدت الأمة ذكراه. الحاضر ملك لمن يحضره وليس لمن يستحضر فيه. إذا كان المصريون يظنون بأنـهم سيحصلون على البراءة من خلال اتهامه ، فإنه سيقوضهم بهذا الاتـهام.

أوعز إلى الصحافة والإذاعة، بنقل كامل خطاب قائد الجيش السوري، حسني الزعيم، الذي نشرته جريدة ألف باء الدمشقية.

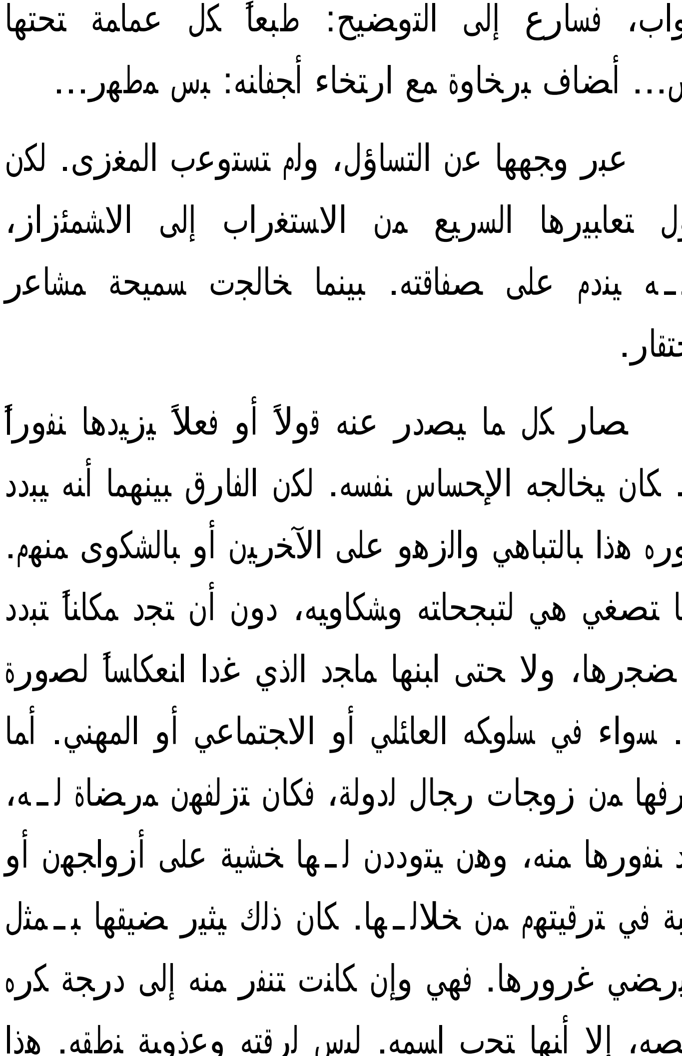
" لا عجب إذن لو سار الجمهور في ركاب قائد باسل يطلب الثأر للشعب الفلسطيني ويعلن بأن ما وصل إليه الحال في الوطن لعربي، نتيجة حتمية لإهمال وتسيب الحكام

والجيوش العربية، وأن لا سبيل لإصلاح الأوضاع إلا باستعمال القوة والأخذ بالثأر".

في تعليقه على الخطاب، ردد أنور مقولة ولنجتون الشهيرة " ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة". فتناقلت معظم وسائل الأعلام العربية التعليق باستثناء الإعلام المصري والسعودي. كان ذلك بداية الاتصال بين أنور وقائد الجيش السوري حسني الزعيم، كما كان أول شرخٍ في محور دمشق القاهرة الرياض المناوئ لبغداد.

قال لسميحة: تصدقي إني ما أبغض بني آدم مثل عزام باشا أمين الجامعة العربية.

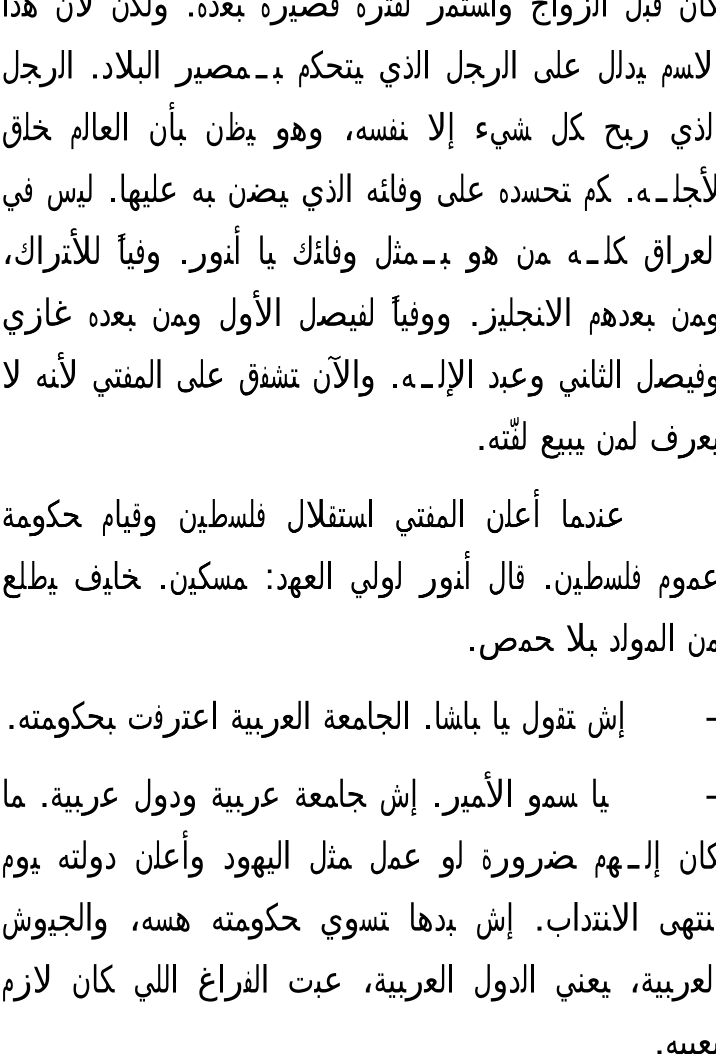
- أكثر من المفتي؟... سألت ساخرة، فأجابـها جاداً: إش المفتي يا سميحة.؟!. وا إنـي بشفق عليه. ما هو عارف لمين يبيع لفّته. عرضها على الانجليز ما اشتروها، عرضها على الألمان استأجروها. هسه عارضها على المصريين اللي يمكن يحنطوها.. انتبه للسخرية في تعابير سميحة وابتسامتها الصفراء، فتغيرت نبرته وتحول عن جديته وهو يسألـها: عمرك سمعتي إنوه فيه عمامة تحتها رأس .؟.



احتارت بأبعاد السؤال أكثر من حيرتها بالبحث عن الجواب، فسارع إلى التوضيح: طبعاً كل عمامة تحتها راس... أضاف برخاوة مع ارتخاء أجفانه: بس مطهر...

عبر وجهها عن التساؤل، ولم تستوعب المغزى. لكن تحول تعابيرها السريع من الاستغراب إلى الاشمئزاز، جعلـه يندم على صفاقته. بينما خالجت سميحة مشاعر الاحتقار.

صار كل ما يصدر عنه قولاً أو فعلاً يزيدها نفوراً منه. كان يخالجه الإحساس نفسه. لكن الفارق بينهما أنه يبدد شعوره هذا بالتباهي والزهو على الآخرين أو بالشكوى منهم. بينما تصغي هي لتبجحاته وشكاويه، دون أن تجد مكاناً تبدد فيه ضجرها، ولا حتى ابنها ماجد الذي غدا انعكاساً لصورة أبيه. سواء في سلوكه العائلي أو الاجتماعي أو المهني. أما معارفها من زوجات رجال لدولة، فكان تزلفهن مرضاة لـه، يزيد نفورها منه، وهن يتوددن لـها خشية على أزواجهن أو رغبة في ترقيتهم من خلالـها. كان ذلك يثير ضيقها بـمثل ما يرضي غرورها. فهي وإن كانت تنفر منه إلى درجة كره شخصه، إلا أنها تحب اسمه. ليس لرقته وعذوبة نطقه. هذا


كان قبل الزواج واستمر لفترة قصيرة بعده. ولكن لأن هذا الاسم يدلل على الرجل الذي يتحكم بـمصير البلاد. الرجل الذي ربح كل شيء إلا نفسه، وهو يظن بأن العالم خلق لأجلـه. كم تحسده على وفائه الذي يضن به عليها. ليس في العراق كلـه من هو بـمثل وفائك يا أنور. وفياً للأتراك، ومن بعدهم الانجليز. ووفياً لفيصل الأول ومن بعده غازي وفيصل الثاني وعبد الإلـه. والآن تشفق على المفتي لأنه لا يعرف لمن يبيع لفّته.

عندما أعلن المفتي استقلال فلسطين وقيام حكومة عموم فلسطين. قال أنور لولي العهد: مسكين. خايف يطلع من المولد بلا حمص.

- إش تقول يا باشا. الجامعة العربية اعترفت بحكومته.

- يا سمو الأمير. إش جامعة عربية ودول عربية. ما كان إلـهم ضرورة لو عمل مثل اليهود وأعلن دولته يوم انتهى الانتداب. إش بدها تسوي حكومته هسه، والجيوش العربية، يعني الدول العربية، عبت الفراغ اللي كان لازم يعبيه.

- إنت مسيطر على دماغك هاجس الفراغ.

- لأنه دماغي ما فيه فراغ. وحتى أكون دقيق ما بتحمل الفراغ. مثل السياسة يا سمو الأمير. ما بتحتمل أي فراغ.

- لا تنسى إنوه نص الفراغ اللي بتحكي عنه، شغلته مصر. ومصر واقفة مع المفتي..

- وإحنا معنا النص التاني.

- إحنا ؟.

- بقصد العراق وسوريا والأردن، ما راح نتخلى عن النص الثاني اللي كلنا بنعتبره جزء من الـهلال الخصيب.

- ولا مصر راح تتخلى عن النص اللي معها.

- صحيح. بس راح تتخلى عن المفتي.

راقب المفتي بألم وحسرة انحسار سلطته الدينية والسياسية والشعبية، مع تعاقب المؤتمرات الفلسطينية للتنديد بشخصه وأنانية تصرفاته وتحميلـه مسؤولية بلائهم الوطني. وما أن دعا المؤتمرون في جرش بضم الأراضي التي يحررها الجيش الأردني إلى المملكة الأردنية الـهاشمية،

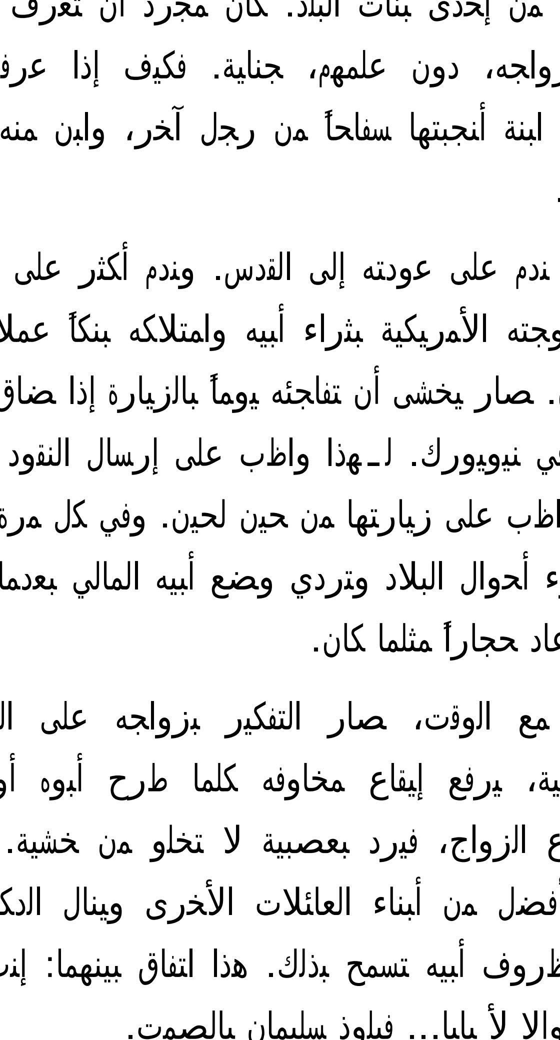
حتى تقيضت زعامة المفتي انحصرت في حدود غزة. لكنه قبل أن يتمكن من التفكير في كيفية بسط نفوذه على هذا القطاع، راح يفكر في كيفية الإذعان للتهديد المصري بـ ـمغادرة المنطقة خلال ثمانٍ وأربعين ساعة. أيقن حينها من صدق رواية سفر الملوك، لكن بعد فوات الأوان. فالسلطات المصرية لم تنتظر انقضاء المهلة التي لم تكن تكفيه لوداع أتباعه ولـ ـملمة أشيائه، بل نقلته بالقوة إلى القاهرة ولم يمض على الإنذار بضع ساعات.

٤٢

انصياع فتوح لأبيه في العودة إلى البلاد ومساعدته في إدارة البنك، لم تـمتد إلى انصياعه لرغبة العائلة في تزويجه. ظل يصر على عدم الخوض بالموضوع إلا بعد أن يستكمل دراسته ولو بعد سنوات. وفي كل عام يقضي إجازته السنوية في أمريكا، وأحياناً إذا ما استدعت متطلبات العمل. فيلتقي مع زوجته وابنه مثل مغترب عائد إلى وطنه.

اكتفى سليمان بوجوده إلى جانبه، ولم يكن يتحدث بـموضوع الزواج إلا عندما يضيق عليه بالأمر أمه أو أبوه، فيذكره فتوح باتفاقهما. وحدة بوحدة. أذعن لرغبته بالعودة، مقابل أن يستكمل دراسته فيما بعد. الزواج يعني حكم الإعدام على طموحه في نيل الدكتوراة.

طيلة بقائه إلى جانب أبيه لم تواته فرصة واحدة لمصارحته أو جس نبضه بالنسبة لزواجه المدني من الأمريكية. في خلواته مع نفسه، يتهيأ لـه الاعتراف بذلك جريمة نكراء. ولاسيما بالنسبة لجديه المتلـهفين على



تزويجه من إحدى بنات البلد. كان مجرد أن تعرف عائلته بأمر زواجه، دون علمهم، جناية. فكيف إذا عرفوا أن لزوجته ابنة أنجبتها سفاحاً من رجل آخر، وابن منه اسمه سليمان.

ندم على عودته إلى القدس. وندم أكثر على تبجحه أمام زوجته الأمريكية بثراء أبيه وامتلاكه بنكاً عملاقاً في فلسطين. صار يخشى أن تفاجئه يوماً بالزيارة إذا ضاق بـها الحال في نيويورك. لـهذا واظب على إرسال النقود لـها، مثلما واظب على زيارتها من حين لحين. وفي كل مرة يشكو من سوء أحوال البلاد وتردي وضع أبيه المالي بعدما أفلس بنكه وعاد حجاراً مثلما كان.

مع الوقت، صار التفكير بزواجه على الطريقة الأمريكية، يرفع إيقاع مخاوفه كلما طرح أبوه أو جده موضوع الزواج، فيرد بعصبية لا تخلو من خشية. لم لا يكون أفضل من أبناء العائلات الأخرى وينال الدكتوراة، طالما ظروف أبيه تسمح بذلك. هذا اتفاق بينهما: إنت عند كلمتك وإلا لأ يابا... فيلوذ سليمان بالصمت.

مع تدهور أوضاع البلاد، لم يعد أي فرد من العائلة يأتي على ذكر الزواج. استولى هاجس البنك على تفكير سليمان. كما استكان أبو سليمان وأم سليمان في شرنقة الترقب التي جعلت العديدين يعلقون قضاياهم لحين جلاء الوضع.

جاءت الحرب الكونية لتفاقم من حالة الترقب. بينما كانت بالنسبة لفتوح فترة استرخاء، اطمأن فيها على استمرار وضعه كما هو عليه. فلا زوجته تتجرأ على المجيء إليه، ولا هو يستطيع الذهاب إليها، كما توقفت المراسلات بينهما.

بعد انتهاء الحرب، سافر لزيارتها، فوجد ابنه صار صبياً. أما زوجته فقد استقرت في عملٍ ذي إيراد مجزٍ مع تحرك الأعمال ونـهوض الاقتصاد الأمريكي بتطبيق مشروع مارشال.

فوجئ بـها تطلب الطلاق، طالما لا ترغب في اللحاق به، ولا يستطيع الانضمام لـها. اتفقا على ذلك، واختلفا بالنسبة لابنهما سليمان. حسم الأمر، تهديد زوجته باللجوء إلى القضاء. خشي فتوح أن يعرف أهلـه بالأمر، مثلما يخشى أن يعود بابنه إلى القدس. فأذعن للخيار الأخير.

بالمقابل، فإن رغبة أبيه بتزويجه، شابـها تحول كبير، مع نمو أعمال البنك مما رفع سليمان إلى مصاف كبار رجال المال. فبدلاً من أن يصر على الزواج من فتاة مناسبة لعمر فتوح وعلمه، صار يرغب لـه في الزواج من فتاة تناسب بنكه. شد أبو سليمان على يده: ما أحلانا مجوزينه مين ما كان .!.

تأجل البت في الموضوع مرة أخرى إثر تردي أوضاع البلاد، وما تمخض عنها من انتقال الأموال والأعمال إلى دول الجوار. ثم توج البلاء بنكبة اللجوء، التي لم ينج منها بنك سليمان بانتقال مركزه الرئيس من القدس إلى عمان.

استأجر بيتاً أنيقاً على الرابية الغربية من عمان، يتألف من طابقين، أسكن في الأول أمه وأباه ومعهما فتوح، وأشغل مع أسرته الطابق الثاني. فضاق فتوح ذرعاً بـجده، وطلب الاستقلال معلناً عن رغبته في الزواج من إحدى العاملات في البنك. متعلمة، تصغره بعشر سنوات. عائلتها متوسطة الحال، تسكن في بيت متواضع بجانب سيل عمان. وافقه أبوه على رغبته في الزواج، لكنه عارض بإصرار

اختياره الـهزيل. لا يهمه عمر الفتاة ولا جمالـها ولا علمها. المهم مكانتها. إما أن يتزوج بـمن تليق بابن سليمان أو لا زواج على الإطلاق. وجد إصراره مساندة كبيرة من أبي سليمان، وإن أبدت أم سليمان امتعاضاً لم يخل من التعريض: ليش أنا تجوزت أبوك لمكانته. كان شحاد لما اتجوزته. حيلته كم شجرة وعند عيلتي ألف شجرة.

استكان فتوح لمشيئة أبيه، بعدما فقدت الفتاة وظيفتها، كما أن محاميه في أميركا، أرسل لـه طلباً من مطلقته لمساعدة ابنه في مصاريف الجامعة التي التحق بـها لدراسة الطب.

وافق بعد ممانعة فاترة على الزواج من خيرية ابنة صقر، وإن تحفظ بالنسبة لعمرها، مثلما احتجت أم سليمان. إنها عانس، وقد لا تنجب أطفالاً، وكانت مجمل الأحداث في نيويورك والقدس وعمان، قد جعلت فتوح يكره الأطفال.

هذا التحول في نفسية سليمان وابنه فتوح، كان لـه ما يقابلـه عند صقر، لكن بحدة أشد. فرفض باستعلاء مصاهرة سليمان.

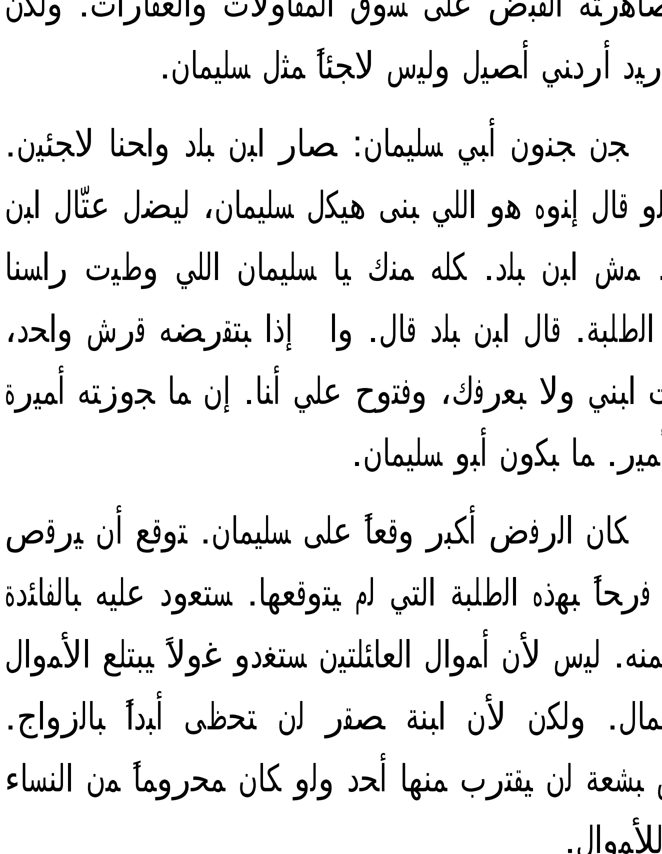
صحيح أنه يعتمد في تمويل مشاريعه الكبيرة على البنك العثماني والبنك الكنعاني معاً، إلا أنه صار يحس، وقد غدا أكبر مقاولي المملكة، أكبر شأناً من البنكين معاً. بل أنه قادر على التحكم بقرارتـهما باعتباره الزبون الذي يحرك عجلة التسهيلات في كليهما. إضافة إلى أن اسمه يقرن بالأعمال الكبيرة التي لا يقوى عليها سواه، ولا تلجأ الدولة في تنفيذها لغيره. والأهم، أنه ليس وافداً أو لاجئاً مثل سليمان، بل أصيلاً في العاصمة وأحد كبار أركانـها الاقتصادية. تعتاش من استمرار أعمالـه عشرات، بل مئات العائلات. وما يتحرك معها من تجارة مواد البناء والوقود وقطع الغيار، إضافة إلى ما يدفعه لخزينة الدولة من رسوم وضرائب وهبات. فإذا كان فريد الأدهم قد أصبح أكبر ملاكي العاصمة، فإن صقر غدا أكبر رجال أعمالها.

لم يكن وضع ابنه محمد في مؤسسته، يختلف عن وضع فتوح في مؤسسة سليمان. فقد ظل صقر مسيطراً على كل الأمور ويتدخل بكل شأن، وليس من امتياز لابنه على

باقي العاملين إلا أنه ابن صقر. كان انشغالـه بعملـه يفوق انشغال سليمان. البنك مبنى ساكن ومكاتب مغلقة وأوراق وبيانات. أما عمل الإنشاءات فهو عمل ميداني لا يترك لصقر وقتاً للتفكير بشؤون عائلته أو مناقشتها. فكبرت ابنته خيرية دون أن يلحظ تقدمها بالعمر، وكلما جاءها خطيب تنتابه الظنون. كانت بشعة والخطّاب يقلون دائماً عن مستواه. ورغم إلحاح أمها إلا أنه ظل يصر على عدم تزويجها إلا لمن يرغبها لذاتها. هذا يعني أن يكون أكثر ثراءً منه، فتجاوزت خيرية عمر الشباب. لتستكين في عزوبيتها، دون أن تغادرها الرغبة بالزواج.

كان يمكن أن يوافق على الخطبة لو أن سليمان تقدم بها قبل النكبة، التي جعلت من عمان مجتمعين. ينظر الأول منهما باستعلاء إلى الثاني. أما وقد انقسم الناس إلى أصيلين ولاجئين، فقد غدا سليمان بنظر صقر أقل منه اجتماعياً، بـمثل ما هو يقل عنه مالياً.

كان سيوافق بغير تردد لو تقدم فريد الأدهم بطلب خيرية لأخيه وليد. ليس لأنه أكبر ملاك في عمان، ويستطيع



بـ مصاهرته القبض على سوق المقاولات والعقارات. ولكن لأن فريد أردني أصيل وليس لاجئاً مثل سليمان.

جن جنون أبي سليمان: صار ابن بلد واحنا لاجئين. وا لو قال إنوه هو اللي بنى هيكل سليمان، ليضل عتّال ابن عتّال. مش ابن بلد. كله منك يا سليمان اللي وطيت راسنا بهاي الطلبة. قال ابن بلد قال. وا إذا بتقرضه قرش واحد، لا إنت ابني ولا بعرفك، وفتوح علي أنا. إن ما جوزته أميرة بنت أمير. ما بكون أبو سليمان.

كان الرفض أكبر وقعاً على سليمان. توقع أن يرقص صقر فرحاً بهذه الطلبة التي لم يتوقعها. ستعود عليه بالفائدة أكثر منه. ليس لأن أموال العائلتين ستغدو غولاً يبتلع الأموال والأعمال. ولكن لأن ابنة صقر لن تحظى أبداً بالزواج. عانس بشعة لن يقترب منها أحد ولو كان محروماً من النساء عبداً للأموال.

ومثلما اعتبر سليمان، في بداية تعامله مع صقر أن تقديم التسهيلات لـه قضية شخصية، وفاء للصداقة القديمة، فإنه اعتبر حجب التسهيلات عنه قضية شخصية أيضاً، بعدما

تحول الفرع إلى مركز رئيس للبنك الكنعاني. البنك الأول في البلاد.

شكل لجنة من موظفيه لدراسة عقود صقر، والبحث عن أي منفذ فيها لإلغاء التسهيلات القائمة والمطالبة بتسديدها. فوجد صقر نفسه أسير البنك العثماني، الذي تراجعت أعمالـه ولم يعد قادراً على تلبية احتياجات صقر الكبيرة. فصار صقر يتكبد الغرامات جراء التأخير أو عدم سلامة الإنجاز، دون أن ينجح بإصلاح الضرر الذي تسبب به استعلاؤه المصطنع. أيقن أن زواج المصلحة كان خيراً من الانكفاء الاجتماعي. لكن الأوان قد فات. ونهضت في سوق الإنشاءات، شركات جديدة، قدم لـها البنك الكنعاني بسخاء التسهيلات المطلوبة والكفالات والاعتمادات، بينما يضغط سليمان بكل ثقله على صقر من أجل التسديد، تحت طائلة الحجز على الرهونات العقارية ومصادرة الآليات.

٤٣

خطاب حسني الزعيم بالقوات المسلحة، لم يبرئها أمام الساسة الذين ألصقوا بـها تـهمة ضياع فلسطين. فسواء حارب المقاتلون هناك بأوامر عسكرية أو بتطوع مدني. وسواء توغل الجنود في عمق فلسطين أو رابضوا على الجبهة أو ظلوا في الثكنات، فإن هذا لم يكن يغفر للزي العسكري، الذي صار وصمة عار في عيون السوريين. فإذا لم تصخب الشوارع بالمظاهرات المنددة، فإن الماء الوسخ والقاذورات والأحجار ترمى على الجنود في الأزقة ومن الأسطح والنوافذ والشرفات.

كان بكر يحس، إبان الانتداب، بالدونية أمام العساكر الفرنسيين. أما الآن فإنه يحس الإثم أمام السوريين. كان التفاوت حينها عرقياً، لكنه ظل يمنحه الرهبة والـهيبة ولو أمام أمه وبين مواطنيه. أما الآن، فإنه يحس بثيابه العسكرية فاضحة مثل ثياب العاهرات. حتى هؤلاء يشعرن بالمهانة إذا أرغمن على كشف عوراتـهن في الطرقات.

في المناوبات الصباحية، يبكر في الذهاب قبل أن تغص الشوارع بالمشاة. سبحان ا . صار يتسلل كالمطلوب للقانون بعدما كان زيه العسكري أقدس قانون.

عند الإياب يتجنب الاكتظاظ كي لا تثير بشاعته القرف والاشمئزاز. كيف يحتمل أن يمشي مكشوف العورة بين الناس.. حتى القحبات يتحولن في الشوارع إلى راهبات.

في المناوبات المسائية ينعكس الوضع في التوقيت ولا يعكس الحال سوى خذلان يومض في نظرات العيون المزدرية، فكيف إذا وصل إلى الأنوف التي تدلل على الشيم والإباء والكبرياء.

ظن بأن الاجتماع بالرفاق سيكون الأخير لـه في دمشق. تبادلوا النظرات بـمجرد إطلالته البشوشة وإشراق وجهه وارتياح تعابيره، وهو الذي كان يثير بانقباضه انقباضهم، وأحياناً يأخذ الحديث عن معاناته أكثر مما يأخذ الحوار بينهم عن القضايا القومية ورسالة الحزب الاجتماعية.

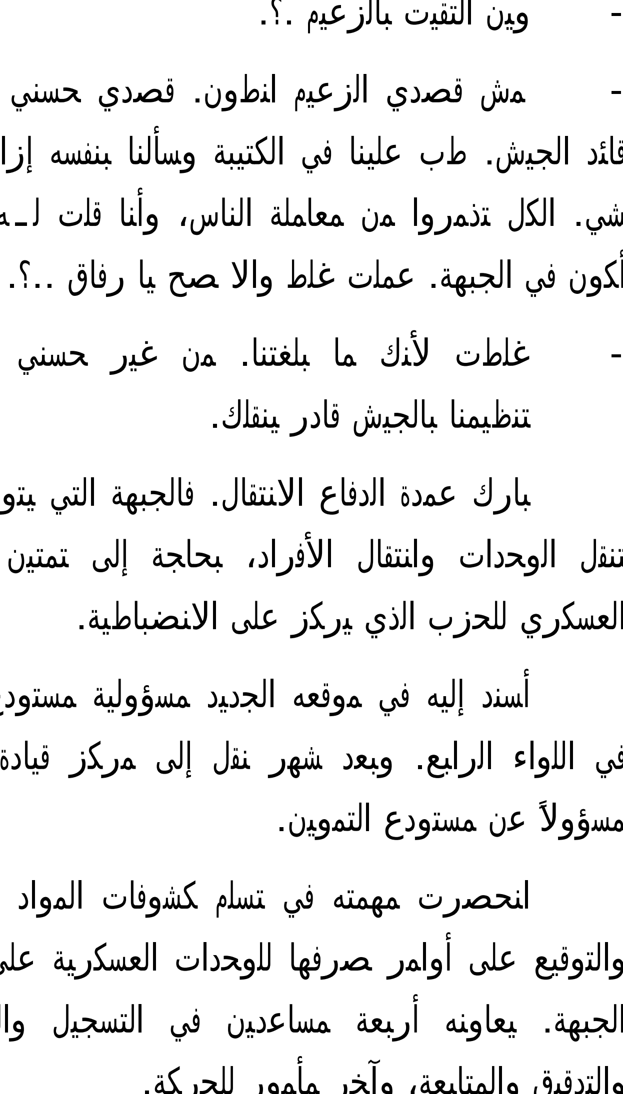
بادر إلى التوضيح قبل أن يسألوه التفسير، وقبل أن يؤدوا القسم المعتاد ويبدأوا المداولات: باركوا لي. قدمت طلب انتقال للجبهة ووافقوا لي على طول.

تفاوتت ردود فعلـهم بين النظرات المرتابة والشفاه المستغربة، لكنها في معظمها اتسمت بالرضى والقبول الذي تفرضه الحالة في مثل هذه اللقاءات.

لاذ أحدهم بالصمت وعبر وجهه عن الصدود والاستخفاف، وكأنه سبق الآخرين في فهم المرام الذي جاء متأخراً عن وقته بعدما ضاعت البلاد. يريد الرفيق أن يذهب إلى الحج والناس راجعة. بالأمس كان بكر يتذمر من خدمته في الجيش ويتأسى على أيام الانتداب. بالأمس اتخذ من أمه ذريعة لعدم التطوع للقتال الذي يرغب به الآن بعدما انتهى كل شيء: الوضع أفضل هناك. وراح أخدم الحزب أكثر. ما عندنا تنظيم في الجبهة. رفاق مبعثرين يمكن ما بعرفوا بعض ولا بلتقوا مع بعض.

- وافقوا لك على النقل ببساطة.؟.

- ما هي صارت فرصة اني التقيت بالزعيم.



- وين التقيت بالزعيم .؟.

- مش قصدي الزعيم انطون. قصدي حسني الزعيم، قائد الجيش. طب علينا في الكتيبة وسألنا بنفسه إزا بنحتاج شي. الكل تذمروا من معاملة الناس، وأنا قلت لـه أمنيتي أكون في الجبهة. عملت غلط والا صح يا رفاق ..؟.

- غلطت لأنك ما بلغتنا. من غير حسني الزعيم، تنظيمنا بالجيش قادر ينقلك.

بارك عمدة الدفاع الانتقال. فالجبهة التي يتوالى فيها تنقل الوحدات وانتقال الأفراد، بحاجة إلى تمتين التنظيم العسكري للحزب الذي يركز على الانضباطية.

أسند إليه في موقعه الجديد مسؤولية مستودع العتاد في اللواء الرابع. وبعد شهر نقل إلى مركز قيادة الجبهة مسؤولاً عن مستودع التموين.

انحصرت مهمته في تسلم كشوفات المواد الواردة، والتوقيع على أوامر صرفها للوحدات العسكرية على امتداد الجبهة. يعاونه أربعة مساعدين في التسجيل والتصنيف والتدقيق والمتابعة، وآخر مأمور للحركة.

كانت مسؤوليته تقتضي التأكد من سلامة كمية المواد وليس نوعيتها، فذلك منوط بلجان الاستلام. مع هذا كتب مراراً لمدير التموين، عن شكاوى الوحدات من فساد المواد، وفي كل مرة يرد المدير، شفوياً وبغير اهتمام، أنه سيتابع الموضوع. لم يكن الأمر يؤرقه، شأن ضباط الثكنات الذين لا يكترثون إلا بالأخبار الواردة من المدن السورية، عن سوء معاملة أفراد الجيش والاتهامات التي تتوالد عن فساد قيادته وترهل ضباطه وتسيب قواته. لم يعد قائد الجيش وحده قربان الـهزيمة، وإنما صار الجيش برمته. وكأن الناس حظيوا بالفرصة للتطاول على الجيش الذي كان النفر فيه محسوداً من الأغنياء قبل الفقراء، ومن الساسة قبل رجال الصحافة والإعلام. كانت الإساءات التي تصل مسامع بكر تؤرق مضجعه، وإن كفاه الانتقال مواجهة نظرات الازدراء والاتهام. غدا تبييض صفحة الجيش وتنظيف ما علق بسمعته من أوساخ أكثر إلحاحاً من تبييض الصفائح التموينية وتنظيف معداتـها وتفقد أماكن تخزينها.

لـهذا لم يبال بكر ومعاونوه، كذلك مدير التموين، إلا بالتهيؤ لاستعراض وضع الجيش مع رئيس الجمهورية عندما أبلغوا عن زيارته المفاجئة.

وصل الرئيس يرافقه عدد من الساسة ورتل من رجال الصحافة، للقيام بجولة ميدانية على الخطوط الأمامية. كانت للزيارة أهميتها بالنسبة للعسكريين والمدنيين على السواء. ستؤكد استعداد سوريا للمعركة القادمة في فلسطين، وإصرارها على الثأر وغسل العار.

عرج الرئيس على مطبخ التموين. سأل عن الرائحة الكريهة التي تزكم الأنوف. وبدلاً من أن يطلب الـهواء النقي في الخارج تتبع الرائحة إلى الداخل.

طلب فتح صفيحة سمنة. جحظت عيناه أكثر من عيون مرافقيه الساسة والصحفيين، وهم يحملقون مشدوهين بـمحتواها الذي لا يختلف عن زيت المركبات.

جاء في الصحف أن الرئيس لم يتسرع، مثلما يتسرع قائد الجيش، في الحكم بتهورٍ على الأمور، وإنما طلب أن

تقلى لـه بالسمنة بيضة أزكمت رائحتها الأنوف وحركت في الأمعاء الغثيان.

أضافت الجرائد أن الفحص المخبري للعينات أثبت أن السمنة مأخوذة من بقايا العظام وفضلات الطعام. فأمر رئيس الجمهورية بالقبض على مدير التموين العسكري بتهمة الإثراء على حساب القوات المسلحة، وكان المدير من الأصدقاء المقربين لقائد الجيش حسني الزعيم.

أذعن قائد الجيش للأمر، على طريقته الخاصة. فاحتجز مدير التموين في غرفة علوية من مبنى وزارة الدفاع. إلا أن هذا الإذعان زاد من اتساع نطاق الاتهامات، بينما ممثلي الشعب، في مجلسهم النيابي، يؤكدون على أن هذا الاحتجاز وفي مثل هذا المكان إنما يراد به لجم مدير التموين عن الكلام. صرخ أحد النواب مطالباً بالكشف عن الشركاء الآخرين الذين استشرى فيهم الفساد إلى حد المتاجرة بـمقدرات القوات المسلحة، عصب الدفاع عن الأوطان.

استشاط حسني الزعيم غضباً وصار يهدد، في لقاءاته مع الضباط، متوعداً الساسة العجزة الذين يريدون

ستر خياناتهم المكشوفة بكيل الاتهامات لرجال الجيش الذين قدموا مواكب الشهداء.

لكنه مع هذا، أجرى تنقلات عديدة بذريعة التطهير والتنظيم، بينما فسر البرلمانيون الأمر، على أنه محاولة للتخلص من الشبهات، وكان نصيب بكر النقل من جديد إلى مديرية التوجيه المعنوي في دمشق.

لم تعد النظرات التي تطارده في ذهابه وإيابه سبب معاناته فحسب. بل انقباض الأنوف عنه أيضاً. حتى الصبية صاروا يمسكون أنوفهم حين يصادفونه أو يلمحونه. فإذا كانت النظرات المزدرية تشقيه، فكيف إذا صار الكبار والصغار يأنفون رائحته ويمسكون أنوفهم عنها. وهو القومي الاجتماعي الذي لأجلـهم سجن وسرح وقدم قضيتهم على أمه. إذا كانت العاهرة تحتمل الإهانات وتستطيع أن تواجه بوقاحة النظرات بالنظرات، وأن ترد على التعليقات بأقذر الكلمات وأن لا يؤثر بها الضرب ولا تتوب عن البغاء، فإنه أهون عليها ألف مرة أن تغتصب بالمجان على أن تسبب رائحتها الغثيان: أنا ما عدت قادر احتمل يا رفاق. بدي أتسرح من الجيش.

-      كيف بدك تتسرح يا رفيق.؟. إذا كان الموضوع منشان نقلك. إحنا بنقدر..

-      لا نقل ولا بطيخ . الجبهة أزفت من هون. لازم تقدروا موقفي يا رفاق. مين بقدر يتحمل هيك إهانات؟. وا اشتغل زبال أحسن لي. ويمكن أقدر أخدم الحزب أكثر ألف مرة من الوضع اللي أنا فيه. بعدين أنا هلأ، لا فيه أم ولا مرة وراي.

كان المذياع وراءه، عندما أدار مفتاح التشغيل قبل أن ينبلج الصباح، كي يسمع الأخبار طازجة. يعلم ا بـماذا تفتق ذهن الساسة ليلة أمس. كان برد آذار أقل وطأة عليه من تأخره في الذهاب، كي لا يتعثر في طريقه بإنسان. أما الذين يصلون الفجر حاضراً في المسجد، فلو كانوا بـمجملـهم من خصومه الإخوان المسلمين، تظل جموعهم أهون ألف مرة من صبي يتجاوزه في طريق المدرسة قابضاً بأصبعيه على أنفه.

توقفت فرشاة الصابون على وجهه وتفرس بالمرآة وكأن شخصاً آخر يحدثه من خلالـها:

" إن السبب في الحركة التي قمنا بـها هو الـهجوم المتكرر على الجيش في المجلس النيابي وخارجه للتشهير به وإظهاره بـمظهر غير لائق، ولما تعرض لـه الجيش من معاملة سيئة.

أقدم الجيش الباسل على هذه الحركة بنفوس ملؤها الإيمان والتضحية فسجل نصراً للحرية على العبودية، وللشرف على الذل.

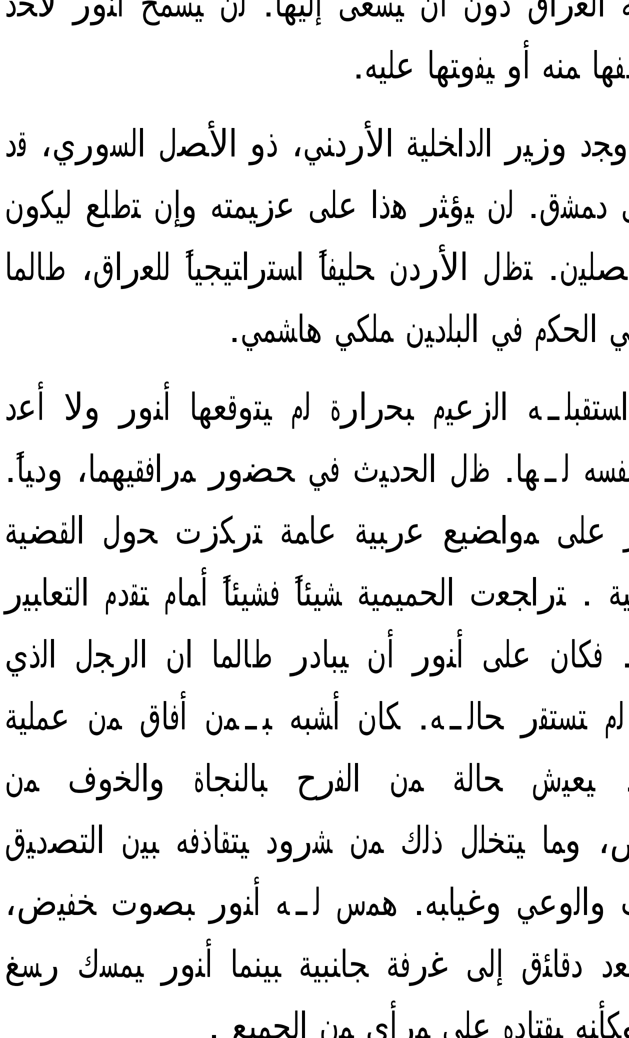
اليوم شقت الطريق أمام الشعب العربي في سوريا للسير قدماً في سبيل تحقيق رسالته الخالدة".

٤٤

اهتزت الأنظمة العربية ودب القلق بين أوساطها بسبب غياب المعلومات عن الجهة التي تسند حسني الزعيم، وغموض النهج السياسي للرجل. فتعلقت به أنظار المفتي دون أن تتحرك أعضاؤه التي حجرت عليها السلطات المصرية بصرامة.

أما أنور، فلم ينتظر التوضحيات من سفير العراق في دمشق أو التقصي من المحافل الماسونية، أو دراسة تحليلات الساسة والمعلقين والدبلوماسيين. ارتأى الوصي متابعة الأحداث وترقب النتائج لحين انجلاء الموقف، لكنه اقتنع أخيراً برأي أنور في أن يطير إلى دمشق قبل وصول آخرين. أياً كانت الجهة التي تقف وراء الانقلاب، ليست مصرية بالتأكيد، ولا سعودية ولا موالية لتلك أو متحالفة مع هذه.

الانقلاب أطاح بالرئيس السوري الذي يشكل أحد أركان محور دمشق القاهرة الرياض. واتت الفرصة



التاريخية العراق دون أن يسعى إليها. لن يسمح أنور لأحد بأن يخطفها منه أو يفوتها عليه.

وجد وزير الداخلية الأردني، ذو الأصل السوري، قد سبقه إلى دمشق. لن يؤثر هذا على عزيمته وإن تطلع ليكون أول الواصلين. تظل الأردن حليفاً استراتيجياً للعراق، طالما أن نظامي الحكم في البلدين ملكي هاشمي.

استقبلـه الزعيم بحرارة لم يتوقعها أنور ولا أعد الزعيم نفسه لـها. ظل الحديث في حضور مرافقيهما، ودياً. اقتصـر على مواضيع عربية عامة تركزت حول القضية الفلسطينية . تراجعت الحميمية شيئاً فشيئاً أمام تقدم التعابير الرسمية. فكان على أنور أن يبادر طالما ان الرجل الذي يقابلـه لم تستقر حالـه. كان أشبه بـمن أفاق من عملية جراحية. يعيش حالة من الفرح بالنجاة والخوف من الأعراض، وما يتخلل ذلك من شرود يتقاذفه بين التصديق والتكذيب والوعي وغيابه. همس لـه أنور بصوت خفيض، فانتقلا بعد دقائق إلى غرفة جانبية بينما أنور يمسك رسغ الزعيم وكأنه يقتاده على مرأى من الجميع .

بـمجرد أن أغلق الباب خلفهما قال أنور: إحنا معك شو ما يحصل.

تساءل الزعيم باستياء: وماذا يمكن أن يحصل.؟. قالـها بالتركية، فأجابه أنور بالتركية: أقصد ربـما كان هناك من يعارض حركتك، ويعتبر رئيس الجمهورية المخلوع وزمرته، ما يزالون حكام سوريا الشرعيين.

- الشرعية يمنحها الشعب يا باشا. والشعب كلـه معي.

عقب أنور بالعربية: هاد ما حدا بشك فيه. من هيك بقترح الأمير عبد الإلـه إنك تدق الحديد وهو حامي وتعلنها ملكية وتغير الدستور.

- ومن الملك .؟. عبد الإلـه!. سأل الزعيم بالفرنسية، فرد أنور بالانجليزية: هذا أمر متروك للشعب مثل ما قلت جنرال.

- وإذا كان الشعب لا يريد جمهورية ولا ملكية؟... تساءل الزعيم بالفرنسية.

استغرب أنور بالانجليزية : لماذا.؟. أي نظام حكم إذن يريد؟.. فأوضح الزعيم بالتركية: افترض أن الشعب يريد منقذاً يعيد لـه كرامته بغض النظر عن شكل الحكم.

- هل أنت متأثر بتجربة نابليون جنرال.. سأل أنور مازحاً بالانجليزية، فأجاب الزعيم بالفرنسية: إنـها تجربة فريدة. أليس كذلك ؟. لكني لست متأثراً بأحد.

حين خرجا من الغرفة، لاحظ المنتظرون بوضوح جدية في وجه الزعيم، ورخاوة في وجه أنور، صرخت بالدهشة عندما فاجأ الزعيم الجميع وهو يخاطبهم بصرامة: طول عمرنا والعراق بلد واحد، شو ما كان شكل الحكم في البلدين.

قال أنور للوصي، بأن سيد سوريا الجديد مهووس بالعظمة العسكرية دون أية أفكار سياسية أو اجتماعية: أخونا ولا حبة، ومفكر حالـه قبة. مصروع على الآخر.

- هاد زين إلنا والا للمصريين .؟.

- بعدها العملية سخنة، سمو الأمير. وهسه أخونا بحاجة لكلمة تطمين.

- شو بدوه أكثر من تطميناتك.؟.

- إذا قلنا للمريض إنوه أقوى من المرض، أحسن من نقول ـه لـه إحنا جنبك شو ما يصير.

- ليش إنت قلت لـه غير هيك؟.

- لأ . أنا حكيت اللي سموك أصر أحكيه. خايف أكون غلطت لما سألته عن الملكية والجمهورية.

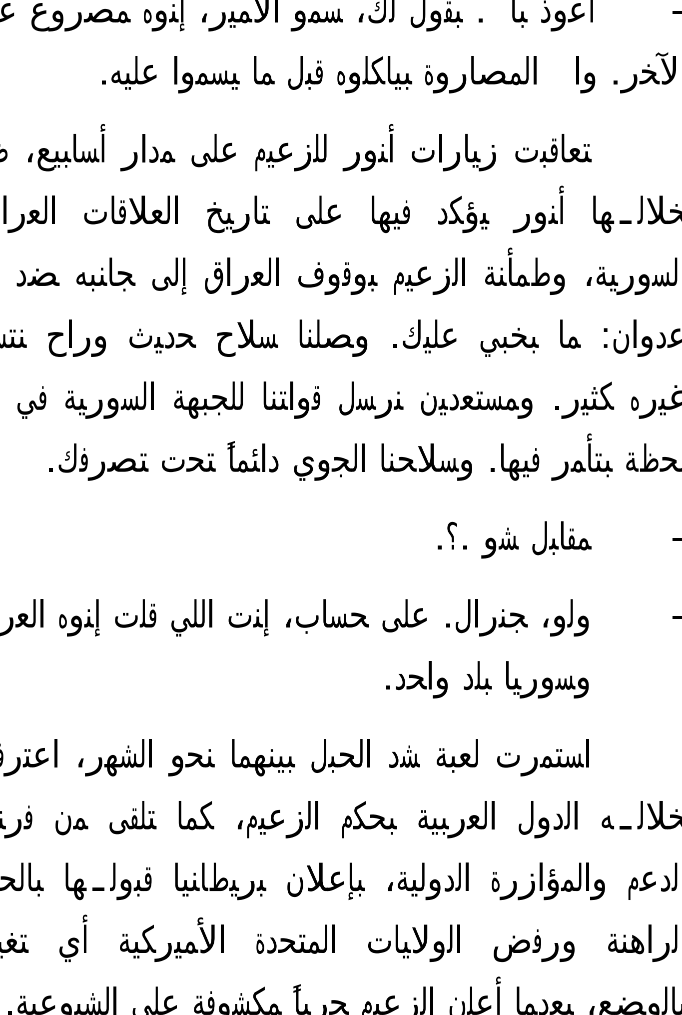
- شو الغلط. لـهسه ما فيه عنده حكومة لا نظام حكم. الأمور بإيد العسكر. لازم تتحول بالنهاية لسلطة سياسية. ملكية أو جمهورية .

- يا سمو الأمير. مع إني أشك بذكائه، بس فهمها على الطاير إني بقصد بالملكية واحد من ولاد الشريف حسين.

- طيب. لـهسه مش شايف غلط. إلا إذا كان هو بدوه يصير ملك.

- إذا بطلع بإيده راح يصير أكثر. أخونا معجب بأتاتورك أكثر من نابليون.

- شو يعني.؟. نتركه ينطنط على كيفه.؟.



- أعوذ با . بقول لك، سمو الأمير، إنوه مصروع على الآخر. وا المصاروة بياكلوه قبل ما يسموا عليه.

تعاقبت زيارات أنور للزعيم على مدار أسابيع، ظل خلالـها أنور يؤكد فيها على تاريخ العلاقات العراقية السورية، وطمأنة الزعيم بوقوف العراق إلى جانبه ضد أي عدوان: ما بخبي عليك. وصلنا سلاح حديث وراح نتسلم غيره كثير. ومستعدين نرسل قواتنا للجبهة السورية في أي لحظة بتأمر فيها. وسلاحنا الجوي دائماً تحت تصرفك.

- مقابل شو .؟.

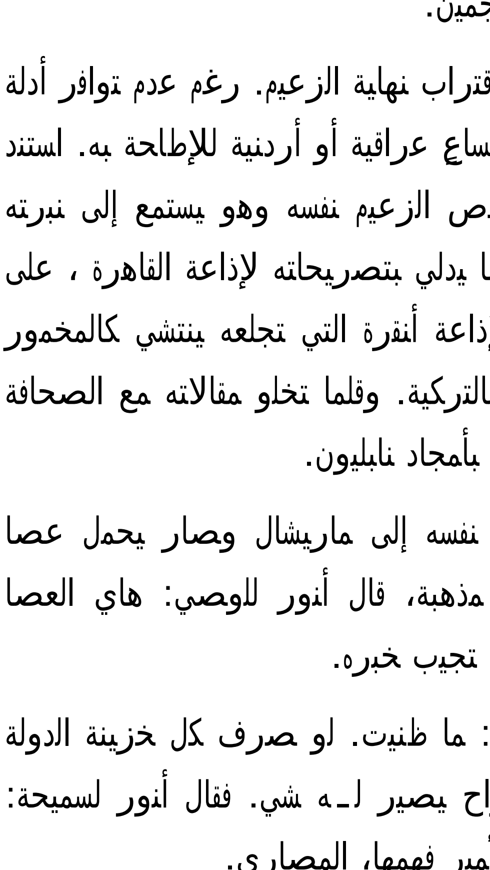
- ولو، جنرال. على حساب، إنت اللي قلت إنوه العراق وسوريا بلد واحد.

استمرت لعبة شد الحبل بينهما نحو الشهر، اعترفت خلالـه الدول العربية بحكم الزعيم، كما تلقى من فرنسا الدعم والمؤازرة الدولية، بإعلان بريطانيا قبولـها بالحالة الراهنة ورفض الولايات المتحدة الأميركية أي تغيير بالوضع، بعدما أعلن الزعيم حرباً مكشوفة على الشيوعية.

جاء الطلاق مع زيارة الزعيم المفاجئة إلى القاهرة، فأطلقت لـه المدفعية إحدى وعشرين طلقة، واستقبلـه الملك استقبال قادة العالم الكبار، وطافا معاً بالمزارع، متشابكي اليدين. وطار معه في عودته سرب من طائرات سبتفاير، وأبرق الزعيم فور وصولـه مطار دمشق، شاكراً الحفاوة التي قوبل بـها والاهتمام الذي أظهره الملك المصري نحو مستقبل سوريا، فهرع رئيس الوزراء الأردني إلى بغداد، محملاً أنور مسؤولية هذا التحول وبلاوي النتائج المترتبة عليه.

ابتدأت الحرب الإعلامية التي تغذيها مصر وتباركها بريطانيا، كما يروج بكر ورفاقه داخل صفوف الجيش، بإيعاز من قيادة الحزب.

وصلت الخلافات أوجها بإغلاق سوريا حدودها مع الأردن التي يسميها الزعيم، في ثورة هيجانه وغضبه من تعليقات الإعلام الأردني، بالمحافظة العاشرة لدولة سوريا. في الوقت الذي يعلن فيه للصحافة الأجنبية أنه لا يريد هلالاً خصيباً ولا سوريا كبرى. بينما يعلن ملكا مصر والسعودية



أنهما سيتدخلان ضد أي هجوم تتعرض لـه سوريا، دونما تحديد لـهوية المهاجمين.

توقع أنور اقتراب نهاية الزعيم. رغم عدم توافر أدلة لديه، وعدم وجود مساعٍ عراقية أو أردنية للإطاحة به. استند في حدسه على شخص الزعيم نفسه وهو يستمع إلى نبرته الجدية الفخيمة عندما يدلي بتصريحاته لإذاعة القاهرة ، على عكس تصريحاته لإذاعة أنقرة التي تجلعه ينتشي كالمخمور فرحاً وهو يتحدث بالتركية. وقلما تخلو مقالاته مع الصحافة الفرنسية من الإشادة بأمجاد نابليون.

عندما رقى نفسه إلى ماريشال وصار يحمل عصا ماريشالية مرصعة مذهبة، قال أنور للوصي: هاي العصا اللي تحت إبطه راح تجيب خبره.

قال الوصي: ما ظنيت. لو صرف كل خزينة الدولة على المظاهر ما راح يصير لـه شي. فقال أنور لسميحة: قصدت الجيش، والأمير فهمها، المصاري.

فقد القدرة على التركيز وهو يتنقل بين صفحات الجرائد المصرية، ويقرأ تفاصيل تقليد الزعيم لماك مصر

أرفع وسام سوري مرصع بجوهرة ثمينة صنعت خصيصاً لـه في باريس. وما أن أدلى الزعيم للصحف بسخطه على ارتداء الحطة والعقال، حتى قال أنور للوصي: مثل ما قلت لسموك، نموذجه أتاتورك..

خلال أيام، امتلأت أسواق دمشق بأشكال وأنواع غريبة من قبعات أوروبية وأميركية، وصدرت التعليمات للبوليس ورجال المباحث بعدم مضايقة الملاهي والنوادي الليلية التي صارت تصدح فيها الأنغام الغربية وتتنافس فيما بينها بالبرامج المثيرة والعروض الخليعة: ا أكبر. كل هادا وبعده الكرسي ما سخن تحته.؟. شو راح يسوي بالناس بعد سنة سنتين؟.. تساءل الوصي بعدما سمع من أنور عن آخر أخبار الزعيم. فقال أنور: مين قال لك راح يستمر أكثر من شهرين؟!.

- شو يستمر شهرين يا باشا !. ليش هو صار لـه بالحكم شهرين.

خلال شهرين تردى الوضع الاقتصادي أكثر من سنة كاملة. استنفد فيها رصيد الخزينة بسبب البذخ العسكري بذريعة تجهيز الجيش وإعداده للحرب في فلسطين. بينما

الناس ينتظرون تغير الأحوال والأوضاع وإطلاق الحريات بعدما تحقق للقوات المسلحة الـهيبة والرهبة المتواكبة مع تألق قائدها حسني الزعيم.

عين وزيراً كردياً للداخلية، كانت مهمته تشكيل قوة من الأقليات الشركسية والألبانية واليوغسلافية، لتدريبها على الطاعة العمياء لـه والولاء لشخصه والدفاع المستميت عنه في كل الظروف. في الوقت الذي وصل فيه تقربه من تركيا ذروته بوصول بعثة عسكرية منها، ولم يبرد بعد جرح اقتطاع لواء الاسكندرون، مما أثار نقمة الأهالي.

كان الأثر على العسكريين أقل وقعاً، بسب اهتمام الزعيم باستعادتهم لـهيبتهم وغسل ما علق بهم من أوساخ الحكومة المخلوعة. أعيد الاعتبار للضباط الذين حجز عليهم، كما أعيد المنقولون، جراء حملة التشهير، إلى مواقعهم، فانتقل بكر ثانية إلى الجبهة مساعداً لرئيس الكتيبة المسلحة الملحقة باللواء المصفح. إلا أن البهرجة العسكرية والرهبة والمهابة ورد الاعتبار لم تحسن الظروف المعيشية للأنفار وصغار الضباط، بسبب استحواذ كبارهم على الامتيازات، ولاسيما المقربون من الزعيم. فامتد السخط إلى داخل الجيش

الذي صار ضباطه يتطلعون لأكثر من الـهيبة والرهبة، أسوة بـما يتمتع به كبارهم من امتيازات وما يتردد عن ثرائهم السريع وحياة البذخ والمجون التي يعيشونها. ومثلما تساءل الوصي باستغراب، كيف حصل ذلك في شهرين، تساءل أيضاً بكر والضباط القوميون في لواء المصفحات المرابط في المواقع الأمامية. أي حرب هذه التي يتشدق بها الزعيم وأي ثأر للكرامة العسكرية عما حل بهم في فلسطين، بينما تطغى رائحة الخمرة في معاقل القادة على رائحة السمنة في مطابخ الميدان، دون أن يجرؤ أحد على التعرض لـها أو التعريض بالفساد العلني الذي حول العاهرات إلى متنفذات وصاحبات سلطة وقرار. بينما قيدت الصحافة وحظرت الأحزاب وامتلأت المعتقلات بالمعارضين والمحتجـين.

فقد الزعيم شعبية مواطنيه الخائرين تحت ثقل بسطاره العسكري. وصار المضطهدون يتجاوزن يومياً الشريط الحدودي مع لبنان بعدما انضمت بيروت إلى محور بغداد عمان. ماذا على الزعيم أن يفعل كي يزداد تألقاً في نظر الجماهير. فلا الماريشالية ولا الجمهورية ولا الملكية، ولا حتى الإمبراطورية، يمكن أن تدوم من غير أيديولوجية

سياسية قادرة على تبرير كل تدبير، كما قال لـه وزير الداخلية الكردي وهو ينصحه بأن يبدأ أولى خطواته بإجراء استفتاء عام.

لن يؤثر هذا في هيبته العسكرية. بل سيزداد نفوذاً بسلطته المدنية، ويثبت للمتربصين به في بغداد وعمان، أنه لا يستمد قوته من الجيش، وإنما من الشعب باختلاف طوائفه وفئاته وطبقاته. ولكي يضمن رصيداً شعبياً كافياً، ولو أن نتيجة الاستفتاء محسومة سلفاً، فإنه يستطيع بسهولة استمالة حزب الشعب أو البعث، بإطلاق سراح قياداتهم لتي تم اعتقالـها، وتسليمهم إحدى الحقائب الوزارية التافهة. لكن الزعيم رفض فكرة إطلاق سراح الأفاعي التي يمتد ذنبها إلى بغداد وعمان.

انـحاز جهارة إلى القوميين السوريين. فجاءت نتيجة الاستفتاء ساحقة ليتولى رئاسة الجمهورية مع أواخر حزيران، إضافة إلى رتبة الماريشالية التي نص الاستفتاء على وجوب توفرها في الرئيس: كل شي ولا العصاي .. علق أنور ساخراً..

لكن سخريته تحولت إلى كابوس، مع لجوء زعيم القوميين السوريين إلى دمشق وإعلانه الثورة الاجتماعية ضد النظام اللبناني.

عندها استيقظ الوصي مرعوباً من كابوس الكيلاني، فجاءه أنور بأقصى سرعة حتى لا تسبقه عمامة المفتي إلى دمشق. وابتعدت قناة السويس بـملك مصر إلى ما وراء التاريخ العربي، وفطن الملك السعودي إلى أنه بالفتح الإسلامي واصلت نجد المجد. ليتكاثف الإعلام في المشرق العربي ومغربه معرضاً تارة بالفوهرر السوري انطون سعاده ومحذراً تارة أخرى حسني الزعيم من مغبة العداء للسامية.

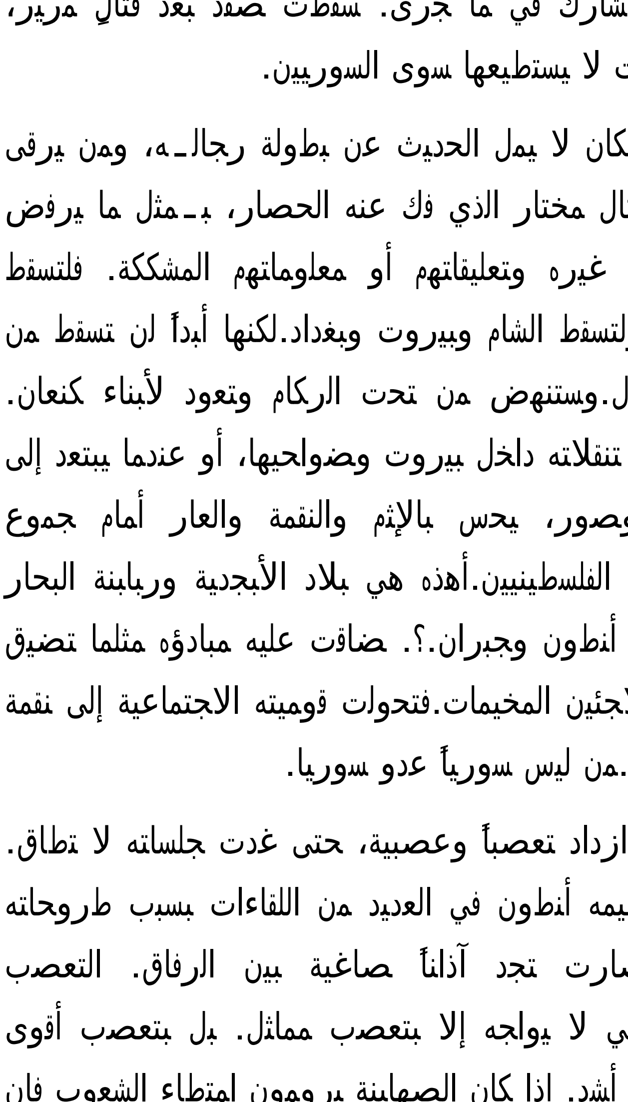
بسرعة تحركت الطائرات بالرؤساء ومرافقيهم السياسيين والعسكرين، وفتحت قنوات الاتصال بين بغداد والقاهرة والرياض. حذر أنور من مغبة ارتكاب الخطأ الذي ارتكبه الأوروبيون. أولئك لم يكترثوا بالخطر الـهتلاري إلا بعد اشتداد عوده، لـهذا دفعوا الثمن غالياً، رغم قوة جيوشهم واستقرار أنظمتهم. فكيف بالدول العربية التي ما تزال خداجاً. الآن الآن، يجب أن ينتهي زعيم القوميين سعاده وسيد

سوريا حسني الزعيم. أما عن الجيش السوري، فقد سخر أنور من مجرد التفكير بولاء الجيش للزعيم. أي جيش هذا.؟!. هل تظنون حسني الزعيم مثل "أبو الأتراك". هذا أتاتورك عصري. يسكر من كونياك نابليون، ويرقص في توب كابي بالكلسون.

٤٥

صقلت الحرب إرادة رؤوف وتجربته وشخصه. عاد إلى لبنان منهزماً في القتال منتصر الذات. ترجم تماهيه بـجبران إلى واقع حي وهو يقاتل على رأس قوات الزوبعة في فلسطين. عاد أكثر نضجاً وصلابة وعناداً، بعدما حول القتال شعارات الحزب ومبادئه النظرية إلى واقع مرسوم بالدماء. غدت تجربته القتالية لحظته التاريخية العظيمة. تجاوزت فيها ذاته طموح الزعامة إلى تقمصها، والتضحية القومية إلى السمو فيها.

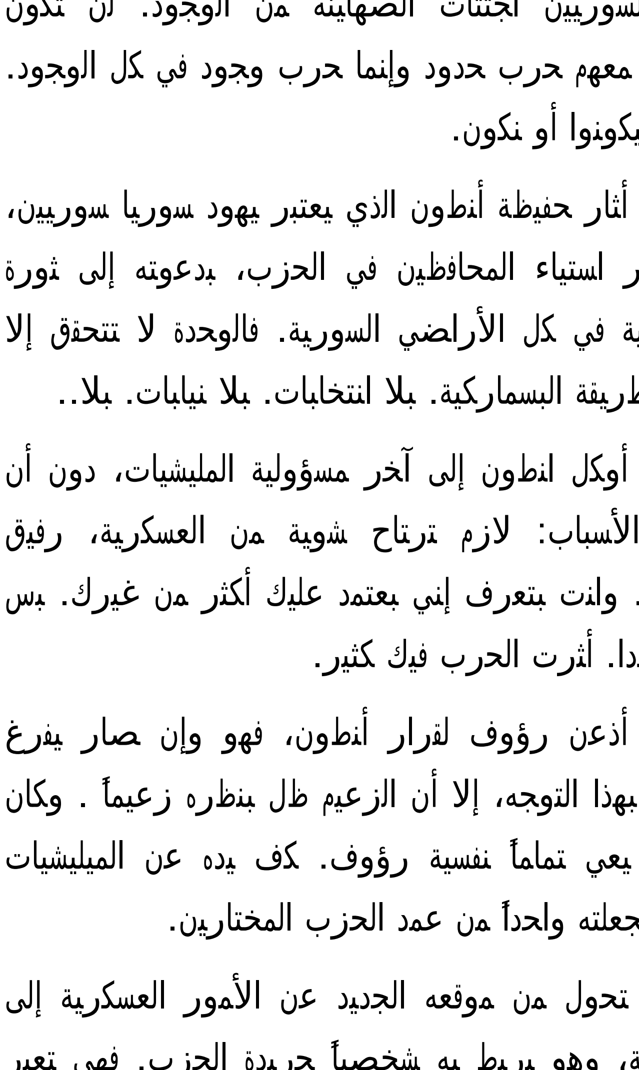
تقدست في نفسه قيادته لرفاقه، بـمثل ما تقدست بطولاتهم. فصار الجميع يحرصون على تجنب إثارته ولو بالسؤال عن كيفية سقوط صفد. كي لا تثور ثائرته ويفقده المساس بـمقدساته السيطرة على أعصابه ولسانه. لم يكن يتوانى عن التهديد والوعيد وتكسير أي شيء قريب. لا يحق لمن تابع الحرب عبر الجرائد والمذياع أن يعرض بالمحاربين، واضعاً ساقاً على ساق. لا يفهم حقيقة ما جرى



إلا من شارك في ما جرى. سقطت صفد بعد قتالٍ مرير، وبطولات لا يستطيعها سوى السوريين.

كان لا يمل الحديث عن بطولة رجالـه، ومن يرقى إليهم أمثال مختار الذي فك عنه الحصار، بـمثل ما يرفض تحليلات غيره وتعليقاتهم أو معلوماتهم المشككة. فلتسقط صفد، ولتسقط الشام وبيروت وبغداد.لكنها أبداً لن تسقط من غير قتال.وستنهض من تحت الركام وتعود لأبناء كنعان. لكنه في تنقلاته داخل بيروت وضواحيها، أو عندما يبتعد إلى صيدا وصور، يحس بالإثم والنقمة والعار أمام جموع اللاجئين الفلسطينيين.أهذه هي بلاد الأبجدية وربابنة البحار كما لقنه أنطون وجبران.؟. ضاقت عليه مبادؤه مثلما تضيق على اللاجئين المخيمات.فتحولت قوميته الاجتماعية إلى نقمة شخصية.من ليس سورياً عدو سوريا.

ازداد تعصباً وعصبية، حتى غدت جلساته لا تطاق. أثار زعيمه أنطون في العديد من اللقاءات بسبب طروحاته التي صارت تجد آذاناً صاغية بين الرفاق. التعصب الصهيوني لا يواجه إلا بتعصب مماثل. بل بتعصب أقوى وتطرف أشد. إذا كان الصهاينة يرومون امتطاء الشعوب فإن



على السوريين اجتثاث الصهاينة من الوجود. لن تكون الحرب معهم حرب حدود وإنما حرب وجود في كل الوجود. إما أن يكونوا أو نكون.

أثار حفيظة أنطون الذي يعتبر يهود سوريا سوريين، كما أثار استياء المحافظين في الحزب، بدعوته إلى ثورة اجتماعية في كل الأراضي السورية. فالوحدة لا تتحقق إلا على الطريقة البسماركية. بلا انتخابات. بلا نيابات. بلا..

أوكل انطون إلى آخر مسؤولية المليشيات، دون أن يخفي الأسباب: لازم ترتاح شوية من العسكرية، رفيق رؤوف. وانت بتعرف إني بعتمد عليك أكثر من غيرك. بس لازم تهدا. أثرت الحرب فيك كثير.

أذعن رؤوف لقرار أنطون، فهو وإن صار يفرغ غضبه بهذا التوجه، إلا أن الزعيم ظل بنظره زعيماً . وكان أنطون يعي تماماً نفسية رؤوف. كف يده عن الميليشيات بترقية جعلته واحداً من عمد الحزب المختارين.

تحول من موقعه الجديد عن الأمور العسكرية إلى السياسية، وهو يربط به شخصياً جريدة الحزب. فهي تعبر

عن بعض تماهيه بجبران، وتوقظ ذكرى مطبعته التي تطلع يوماً إلى تحويلـها لجريدة.

في غضون أشهر قليلة، غدت جريدة " الجيل الجديد"، من أكثر الجرائد انتشاراً. يتلـهف القراء على اقتنائها بحماس وفضول، بحيث تجاوزت أعدادها أضعاف أعداد الحزبيين الآخذين بالازدياد. فانتشرت شروحات العقيدة السورية في الجيش والدرك والأمن العام. لتجد السلطة السياسية نفسها أمام خطر الإطاحة بها وقد خضعت مناطق عديدة إلى سيطرة القوميين التامة. حتى افتعال الفتنة الدينية لم يكن يجدي مع هذا العملاق الناهض بأقدام الشباب المتجاوزين طوائفهم وعوائلـهم وطبقاتهم الاجتماعية.

كان رؤوف يتابع بنفسه طباعة عدد الجمعة الذي سيصل مع الصباح إلى داخل البيوت. ليقرأه، مع عطلة الأسبوع، الكبير والصغير والمرأة والرجل والمدني والفلاح، والسياسي والاقتصادي والرياضي. كان عدد الجمعة يخاطب كل الأعمار والفئات والطبقات والمواهب والاتجاهات.

فجأة دوى الرصاص في شارع الخازن، حيث تقوم المطبعة في محلة الجميزة. وما أن أطل رؤوف ومن معه

مستطلعين، حتى انهمر الرصاص عليهم من مجموعة متظاهرين يهتفون للبنان وسقوط القوميين.

في دقائق، اقتحم الكتائبيون المبنى، يطلقون الرصاص ويشعلون النيران ويدمرون الآلات والمعدات، فسقط رؤوف متخن الجراح وسقط معه أربعة آخرون، جراحهم خطيرة، بينما آلت المطبعة إلى خراب.

وصل الخبر إلى انطون مع وصول أرتال من الدرك وقوات البوليس المحمولة، تساندها وحدات من الجيش اللبناني بإمرة قائد الجيش نفسه الذي ظل على اتصال مباشر مع رئيس الوزراء رياض الصلح وهو يدفع قواته ليلاً إلى مختلف مواقع الحزب.

دوهم بيت سعاده وتم الاستيلاء على الوثائق الحزبية فيه، مما ساعد في القبض على مئات الأعضاء واقتياد عمدٍ ومديرين وأعضاء، بثياب النوم، إلى المعتقلات. يرشدهم الكتائبيون في الاستدلال على البيوت والتعرف على الشخوص. أحياناً يسبقونهم في القبض على الأعضاء والأنصار وكل من نادى بالأمة السورية، ولو للتفاخر والاعتزاز. بات خائناً كل من تجاوز نظره حدود وطنه

لبنان، الذي نجح سعاده وعدد من رفاقه بتجاوزه واللجوء إلى دمشق.

خلال أيام تم القاء القبض على المئات مع استمرار المداهمات ليل نهار. بينما يعالج رؤوف من جراحه تحت حراسة مشددة في مستشفى الجيش. ليقتاد قبل أن يبرأ منها إلى سجن الرمل.

وجد رفاقه القوميين، مذهولين مأخوذين. لا يجدون تفسيراً لما حصل، ولا كيف سمحوا لـه أن يحصل. اعترف حينها رؤوف أن استعراض القوة هي إعلان حرب، يجب أن يتبعها الشروع في القتال، وإلا عاد الاستعراض على أصحابه بالوبال. وكأنه يربط بين ما آل إليه الحزب بهذا الوقت السريع، مع سقوط صفد المريع. بينما أنطون سعاده، يـمتلئ غيظاً في دمشق. ليس بسبب ما جرى للحزب واعتقال أعضائه وتدمير مؤسساته. ولكن لأنه تيقن من خطئه وصواب رؤوف :

" إن الأمة السورية ترتقب الساعة التي تنتصر فيها الحركة القومية الاجتماعية انتصارها العظيم. وتسير جيوش الزوبعة القومية الاجتماعية الحمراء لتمحو العار الذي أنزلته

بنا الرجعة والنفسيات المريضة والقضايا اللاقومية في فلسطين. وعليه يعلن الحزب القومي الاجتماعي الثورة على الاضطهاد والإرهاب والطغيان.

فإلى الثورة على الطغيان والخيانة أيها الشعب النبيل".

٤٦

غدت الأحداث وكأنها في سباق، والزمن عدو الفرقاء. اختلطت أنفاس اللاعبين والمتفرجين، ووصلت الإثارة ذروتها والتحفز أقصاه وصار الحماس اندفاعاً والترقب لـهاثاً، وغص الصخب بالمتناقضات.

فالشيوعيون في لبنان، رحبوا بالضربة التي قصمت ظهر القوميين، ليرتفع أمامهم وحش الكتائب اليمينيين، مدججي السلاح منتظمي الصفوف، ومعهم قوة الدولة العسكرية وخرائطها التنظيمية ودوائرها الاستخبارية. سخّر رئيس الوزراء رياض الصلح، المعروف بانتمائه العروبي، كل أدواته التنفيذية وميليشيات الكتائب اليمينية لاجتثاث الحركة القومية السورية. بينما الشيوعيون في سوريا، يترقبون انسحاقهم تحت بسطار حسني الزعيم، الذي استقبل انطون سعاده استقبال الأبطال، وتدارس معه سبل الإطاحة بالنظام اللبناني، صنيعة الاستعمار. بذلك يتقدم خطوة على جميع الزعامات التي تتشدق بالوحدة، دون ترجمة عملية

لـها. الآن، ومع ثورة سعاده الاجتماعية، سيصنع التاريخ الجديد للاتحاد السوري القومي، منهياً بذلك عهد المشاريع، فلا هلال خصيب لبغداد ولا سوريا كبرى لعمان.

أهدى لسعاده مسدساً فضياً تعبيراً عن استعداده لتزويده بالسلاح، قبلـه سعاده بسرور وانشراح. وعرض عليه حراسة عسكرية، فرفض سعاده حتى لا يصبح أسير جنوده ورهن أوامره. إنه يقبل السلاح من أية جهة ولا يقبل القتال إلا برجالـه القوميين.

اتفق كلاهما على إسقاط النظام اللبناني والقضاء على رئيس الوزراء، رياض الصلح، الذي قفز من فوق دمشق إلى بغداد وعمان. كان لكل منهما هدفه الخاص، فالزعيم يريد قوة شعبية تنقل الخطر من بيته إلى بيت جيرانه. لقد ساعده رياض الصلح دون أن يدري. فسعاده هو القوميون. والقوميون هم سعاده. هذه هي الأيديولجية الشعبية التي يحتاجها الزعيم، كما أشار عليه وزير داخليته. ستؤدي ثورة سعاده إلى حرب أهلية في لبنان وسوف يستغيث به اللبنانيون لوقف الاضطرابات. لقد انتهى عهد المشاريع الورقية.

سيتحول المفترسون حولـه إلى فرائس تلوذ بالفرار من الزلزال القومي الذي سيهدم أركان نظامي بغداد وعمان.

أما سعاده، الذي أجبر على إعلان ثورته الاجتماعية قبل نضوجها، فقد كان ينظر إلى حسني الزعيم نظرته إلى بندقية دك تركية، يمكن أن تفيده طلقتها الوحيدة لإعلان الثورة. ثم يلقيها إلى الزبالة كي لا تعيق حركته العصرية. فأعلن من دمشق انتقال الحزب من تكتيك الدفاع إلى استراتيجية الـهجوم.

جن جنون أنور، وفقد تركيزه وكاد يفقد اتزانه، بعدما لقى نداء سعاده صداه في المتن والشوف والبقاع، وكانت أشدها دموية في سرحمول وعاليه ومشغره. فاحتل القوميون فيها مراكز الدرك والبوليس التي لاذ أفرادها بالفرار.

وجد أنور نفسه مرة أخرى كبش فداء، بينما يتهمه رؤساء وزارات الأردن ومصر والسعودية، بأنه وراء انفلات الحبل وتحول الزعيم. فبدلاً من استمالته كما فعلت مصر، حاصره بـمشروع الـهلال الخصيب الذي يراد منه توسيع ملك الـهاشميين: للـهزيمة أب واحد مثل ما بقولوا. بس لو نجحت يا سميحة. كان تسابقوا يخطفوا مني النجاح.

- وهسع، إش بدك تسوي.؟.

- مش عارف. كنت أقول عن حسني الزعيم مصروع. صرصع المنطقة كلـها وما صار لـه بالحكم ثلاث شهور. صدق المثل اللي بقول، عقدة المجنون ما بحلـها ألف عاقل.

- أول مرة بتعترف إنوه فيه أشطر منك. ومين؟. مجنون!.

- لا أشطر ولا خرا. بس فلتت الأمور وما حدا قادر يمسكها.

- وإنت. ما ليك دور باللي صار.؟.

- أنا ؟!. ا أكبر. ليش كنت أعرف إنوه رياض الصلح هيك. قال إنوه بأربعة وعشرين ساعة ما راح يخلي ولا واحد من القوميين. اللي ما بعتقلـه راح يشنقه قدام بيته. على اللي قاعد يصير، يمكن صارت مشنقة الصلح منصوبة داخل بيته.

- يمكن تقدر تنجده. لبنان قريبة.. قالت دون أن تخفي السخرية في وجهها ونبرة حديثها، ومع هذا ظل على جديته

التي يحاول فيها إثبات تماسكه وإخفاء اهتزازه: إش لبنان قريبة يا بنت الحلال. وسوريا اللي بتفصلنا عنها.

- تقدر تودي طيارات.

- الأحسن ما تحكي. ترى إنت لا بتعرفي تاريخ ولا جغرافيا ولا حساب.. وصرخ: كيف بدي أودي الطيارات ؟ من فوق سوريا ؟!.

- لويش زعلان؟. خلاص. لا تودي طيارات.

- يا خوفي إنك بتتخوتي علي.

- أنا. ا يسامحك. ناقص حد يتخوت عليك. بكفيك الزعيم المصروع.. وضحكت بسرور.

تفرس فيها لوهلة، ثم ابتسم. اتسعت ابتسامته مع استغراق سميحة بالضحك مخفية وجهها براحتيها. ضحك ببطء، ثم انفجر يقهقه بعصبية وهو يضرب كفاً بكف: وا بكفيني المصروع. ول على هيك زعيم. قلت عنه أخوت، خوتني. قلت، المصريين راح ياكلوه قبل ما يسموا عليه، سممهم ويا دوب حطوا إيدهم عليه. من وين طلع لنا هادا المجنون.؟!.

- يعني معقول المصريين بطلوا يأثروا عليه .؟!.

حماق بها للحظات اربكتها، وقد تهيأ لـها أنه يبحث عن أفضل كلمة تناسب جهلـها الذي تعترف به، والغباء الذي كلما اهتزت ثقته بنفسه يتهمها به.

- خلاّنا المجنون مجانين أكثر منوه.. قال بهدؤ وثقة، بينما تشخص به عينا رئيس وزراء مصر: يعني معقول يكون سعاده أهم لحسني الزعيم منّا .

- أهميته بالحزب يا باشا.

- إش حزب وبطيخ. فيه سعاده، فيه حزب. ما فيه سعاده، ما فيه حزب.

تولى رئيس وزراء مصر مسؤولية توجيه حسني الزعيم، بالترغيب أو التهديد، بـمثل ما تولى الأمر أنور مع رياض الصلح. لا يقرر نتيجة المباراة حكمها أو أداء اللاعبين، وإنما مديرو الأعمال.

صار بكر يجاهر بانتمائه للحزب القومي، بعد وصول سعاده إلى دمشق، شأن القوميين جميعاً، مدنيين وعسكريين. وصل الحماس بهم إلى الاجتماع علانية ودراسة

خطط التحرك بـمجرد وصول الأوامر من دمشق. فقائد اللواء المصفح الأول المرابط على الجبهة عضو في الحزب، كذلك قائد الكتيبة المسلحة التي يعمل بكر مساعداً لـه. إضافة إلى عشرات الضباط الدروز الذين وجدوا في إيواء حسني الزعيم لسعاده، نهاية لأزمة الثقة بينه وبين رجالاتهم، الذين كانوا في معظمهم من القوميين السوريين، بينما يتهمهم الزعيم بالولاء للـهاشميين.

سادت حالة من الترقب بين القادة العسكريين من القوميين، وجموعهم المدنية المتأهبة للالتحاق بالثورة الاجتماعية. مع هذا لم تسقط الخيارات الأخرى. قد تتم المصالحة بين سعاده والصلح برعاية الزعيم. قد تنجح الثورة الاجتماعية وقد تفشل. قد تتدخل الدول الأجنبية وتتآمر الدول العربية. قد يحصل انقلاب على الزعيم، وينقلب الزعيم على الزعيم وتفرض على سعاده الإقامة الجبرية أو يطلب منه مغادرة البلاد. فأقدام السياسيين تقف دائماً في الـهواء. كل الاحتمالات ممكنة، إلا احتمال واحد لم يخطر على بال القوميين ولا أعدائهم.

" علمت وكالة الأنباء العربية، رغم التكتم الشديد، أن القوات اللبنانية استطاعت بـمساعدة القـوات السورية المرابطة على الحدود بين البلدين، إلقاء القبض صباح اليوم ١٩٤٩/٧/٧ على السيد انطون سعاده زعيم الحزب القومي الاجتماعي الـمنحل. وأنه تم تقديمه إلى محكمة عرفية، قضت بإعدامه رمياً بالرصاص بعدما ثبت لديها تهمة تآمره على قلب نظام الحكم وتنظيم ثورة مسلحة لمصلحة الصهيونية العالمية".

اقتيد مكبلاً بالحديد إلى سجن الرمل، وما أن أغلق عليه باب الغرفة الإنفرادية المظلمة، حتى بلغ الخبر من خلال الحراس إلى المساجين كافة.

تحامل رؤوف على جراحه، واتجه إلى باب القاووش الحديدي. راح يضرب بوهن على الكوة المغلقة، فجاءه دركي لم يخف الضوء الضعيف من تعابيره الغاضبة: صحيح؟.

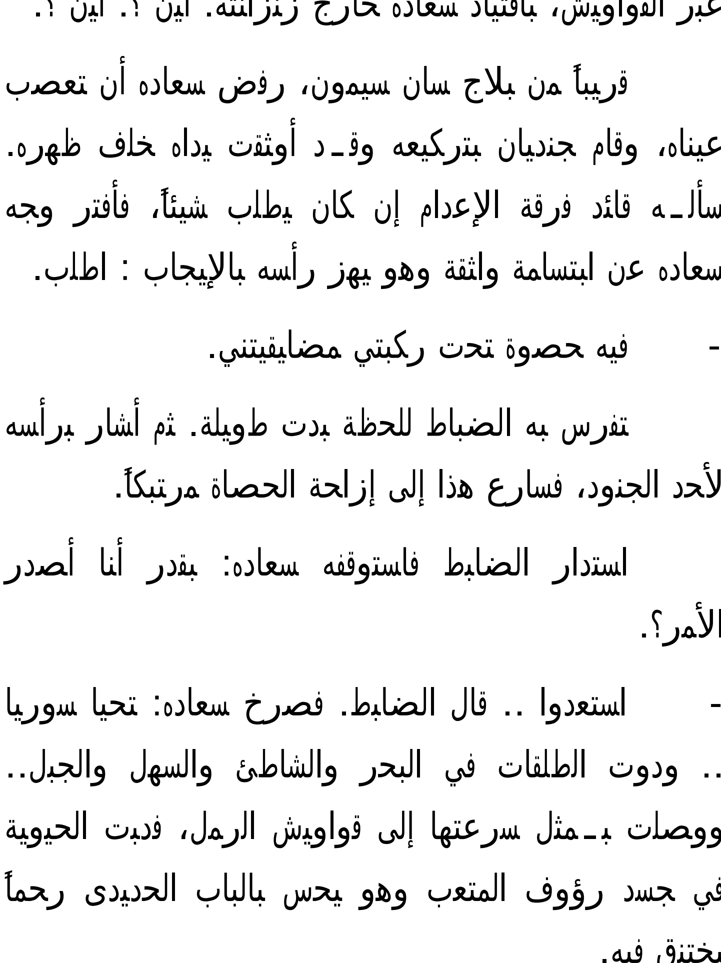
- شو الصحيح؟.. لشو بتدق على الباب ؟.

بلع ريقه وهو يكرر سؤالـه بغصة وألم: صحيح جابوا الزعيم.

- إي صحيح.. أضاف بفظاظة ساخرة : حابب تشوفه؟.

تفرس بوجه الدركي للحظة أربكته، فانسحب غطاء الكوة بعنف وعصبية.

ساد السكون القواويش كافة. بينما الأخبار تتوالى من الحرس المتعاطفين مع القوميين. أخبار مبهمة متناقضة تركت القوميين في حيص بيص. حسني الزعيم سلمه إلى درك لبنانين وصلوا على رأس قائدهم إلى دمشق. حسني الزعيم أمر بنقلـه إلى الحدود وقتلـه هناك بتهمة التسلل، إلا أن المجموعة التي نقلته آثرت تسليمه خشية الانتقام. رفض انطون أن يرد على القاضي عندما خاطبه باسم انطوان. ظل رابط الجأش طيلة المحاكمة ولم يرمش لـه جفن وهو يستمع إلى حكم الإعدام. أي إعدام هذا ؟!. إنه سعاده. ستتحول لبنان إلى بركة دماء لو نزفت منه قطرة دم..



كانت الساعة حوالي الثالثة صباحاً، عندما قفز الخبر عبر القواويش، باقتياد سعاده خارج زنزانته. أين ؟. أين ؟.

قريباً من بلاج سان سيمون، رفض سعاده أن تعصب عيناه، وقام جنديان بتركيعه وقـد أوثقت يداه خلف ظهره. سألـه قائد فرقة الإعدام إن كان يطلب شيئاً، فأفتر وجه سعاده عن ابتسامة واثقة وهو يهز رأسه بالإيجاب : اطلب.

- فيه حصوة تحت ركبتي مضايقيتني.

تفرس به الضباط للحظة بدت طويلة. ثم أشار برأسه لأحد الجنود، فسارع هذا إلى إزاحة الحصاة مرتبكاً.

استدار الضابط فاستوقفه سعاده: بقدر أنا أصدر الأمر؟.

- استعدوا .. قال الضابط. فصرخ سعاده: تحيا سوريا .. ودوت الطلقات في البحر والشاطئ والسهل والجبل.. ووصلت بـمثل سرعتها إلى قواويش الرمل، فدبت الحيوية في جسد رؤوف المتعب وهو يحس بالباب الحديدى رحماً يختنق فيه.

ضرب عليه بكل قوته وهو يتلوى بكل أعضائه، شاتماً لاعناً مهدداً كعادته بالثأر والانتقام، بينما المعتقلون يراقبونه ولا يشاهدونه، وهو يتهاوى ثقيلاً متعباً لاهث الأنفاس.

استند بظهره على الباب الصلد وراح يئن لوهلة ثم ابتدأ ينشد. في لحظات أخذ السجناء، قوميون وسواهم، يرددون من خلفه. حتى الحرس، ردد بعضهم بصوت خفيض النشيد، الذي رددت صداه الجدران:

صخب البحر ؟ أم الجيش السخي

أم بلاد تملأ الدنيا دوي

سوريا

يقظة ملء المدى بسمة ملء الربيع

سوريا فوق الجميع

تزرعينا

٤٧

قالت سميحة: كان قلقك لأنك مش قادر ليه، ولسـه مقلقك بعد ما سوى اللي ودك إياه.

- لازم الكل يقلقوا منّوه. لو كنت محلـه مـا أتجـرأ أسوي اللي سواه. تعرفي إنوه طلع أجرأ منا كلنا. دعس على سعاده وكسب لبنان. صار رياض الصلح صديقه بعدما كـان عدوه الأول.

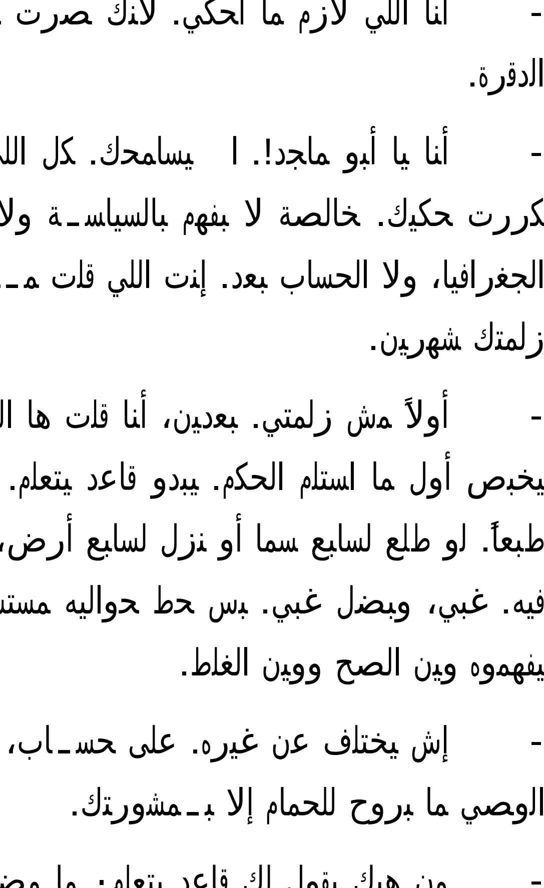
- يلا. قربت.

- شو اللي قربت.؟.

- ما انت قلت إنوه ما راح يطول أكثر مـن شـهرين هاي صار ماضي شهرين.

- إنت بتتخوتي .؟.

- كل ما أذكرك باللي قلته، تقـول عنـي بتخـوت ! الأحسن ما أحكي.



-        أنا اللي لازم ما أحكي. لأنك صرت توقفي لي على الدقرة.

-        أنا يا أبو ماجد!. ا   يسامحك. كل اللي قلتـه أنـي كررت حكيك. خالصة لا بفهم بالسياسـة ولا التـاريخ ولا الجغرافيا، ولا الحساب بعد. إنت اللي قلت مـا راح يسـتمر زلمتك شهرين.

-        أولاً مش زلمتي. بعدين، أنا قلت ها الحكي لما صار يخبص أول ما استلم الحكم. يبدو قاعد يتعلم. مش من راسه طبعاً. لو طلع لسابع سما أو نزل لسابع أرض، ما بغير رأيي فيه. غبي، وبضل غبي. بس حط حواليه مستشارين، قاعدين يفهموه وين الصح ووين الغلط.

-        إش يختلف عن غيره. على حسـاب، بتقـول إنّـوه الوصي ما بروح للحمام إلا بـمشورتك.

-        من هيك بقول لك قاعد يتعلم· ما مضى على انقلابه أربع شهور، وصار مصرصع الدنيا وطـالع مـن أربعـين مطب، مثل الشعرة من العجين· قلنا بـنخاص منّـوه ومـن

سعاده. خلصنا هو من سعاده، وصار صعب نخاص منّـوه بعد ما بلع لبنان .

بعد ثلاثة أيام من اعـدام سـعاده، انتـدب غبطـة البطريرك الماروني وفداً خاصاً حمل، فضلاً عـن السـلام والتحية والاحترام، تقديراً مادياً في شكل علبة تاريخية ثمينة قدمها الوفد هدية للزعيم بـمناسبة توليه رئاسة الجمهورية .

بعد يومين وصل وفد الكتلة الوطنية، لينفـتح بـاب التهاني على مصراعيه. سواء بإرسـال الوفـود أو بعـث البرقيات أو من خلال الصحف والمجلات، وكان الكتـائبيون من أكثر المطبلين، فسخروا صحفهم فـي لبنـان والمهجـر للإشادة بالزعيم وإنجازاته الوطنية والدولية، وتجنبـوا فـي تعليقاتهم طرح شعار " لبنان للبنانين "، مستبدلينه إلى حـين، بالتركيز على العلاقة التاريخية بين سوريا ولبنـان: ول .. قال أنور، وأضاف مأخوذاً: طول عمرهم المارونيين بنكروا عروبتهم وبطالبوا بوطن قومي قبل اليهود. صاروا هسه مع ابن الحرام اللي طلع لنا بالسحبة.

- أنا بطّلت قادرة أفهمك يا أبو ماجـد. لمـا ضـرب ضربته، مثل ما قلت. رحت ترقص من الفرح. وحمدت ربك

إنوه القضية انتهت. لويش رجعت مثل أول وأسخم. ما قاعد تخليني أنام وانت تهلوس بـابن الحـرام. صـرت تشـوفه بالصحن وبتحملـه بالمعلقة وتنغزه بالشوكه. بتلعنه قبل مـا تنام وبتهلوس بيه بالنوم والحمام. إش صار لك؟. عمرك مـا كنت هيك.

- راح يجنني. راح يجنني.

- ودي أقول لك ها الشغلة، بس ما تزعل.

- عارف إني راح أزعل. بس احكي.

- فيه بعمان..

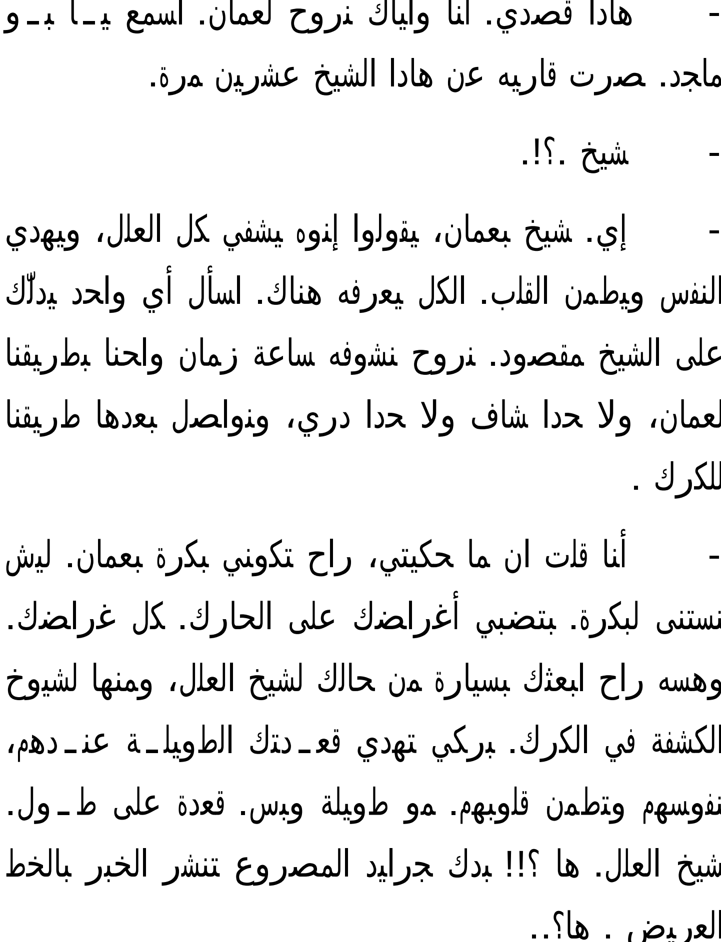
- شو فيه بعمان؟.

- شرط ما تزعل.

- إحكي... صرخ، وأضاف بحدة: شو فيه بعمان.

- هاي انت زعلت قبل ما أحكي.

- إن ما حكيتي، راح تكوني إنت بكرة بعمان. ومنهـا للكرك عند أهلك.



- هادا قصدي. أنا واياك نروح لعمان. اسمع يـا بـو ماجد. صرت قاريه عن هادا الشيخ عشرين مرة.

- شيخ .؟!.

- إي. شيخ بعمان، يقولوا إنوه يشفي كل العلل، ويهدي النفس ويطمن القلب. الكل يعرفه هناك. اسأل أي واحد يدلّك على الشيخ مقصود. نروح نشوفه ساعة زمان واحنا بطريقنا لعمان، ولا حدا شاف ولا حدا دري، ونواصل بعدها طريقنا للكرك .

- أنا قلت ان ما حكيتي، راح تكوني بكرة بعمان. ليش نستنى لبكرة. بتضبي أغراضك على الحارك. كل غراضك. وهسه راح ابعثك بسيارة من حالك لشيخ العلل، ومنها لشيوخ الكشفة في الكرك. بركي تهدي قعـدتك الطويلـة عنـدهم، نفوسهم وتطمن قلوبهم. مو طويلة وبس. قعدة على طـول. شيخ العلل. ها ؟!! بدك جرايد المصروع تنشر الخبر بالخط العريض . ها؟..

- ها... سأل حسني الزعيم وهو يتأمـل نفسـه أمـام المرآة، مزهواً بزي الماريشالية. فقالت زوجته وهي تتمعنـه بإعجاب: بتجنن.

- طول عمري بجنن.. قال بدلال. فنفضت بيدها على شراشيب كتفه المذهبة: أوعي يفلت منها شرشوبة.

- أنا بدي توصاية؟.. ونفضت ثانية: كل شي بلبق لك. القالب غالب.

- وانت كل شي بلبق لك. راح تصيري ملكة سـوريا. هادا وعد قدام ربنا ورسولـه.

- شو ما صرت أنا، بضل خدامة إلك. وانت عندي مو ملك وبس. ملك الملوك.

- إح. المهم شكلي منيح.

- قلت لك القالب غالب. اسمك زعيم وطـول عمـرك زعيم. المهم يا ابن عمي، ما تشرب كثير الليلة. بحـب لمـا ترجع لي تكون صاحي.

- قد ما أشرب، عمري رجعت لك مو صاحي.؟.

- ما قلت شي. بس أنا بوصيك منشان صـحتك. روح انبسط ابن عمي وما يهمك.

- مو رايح أنبسط يا بنت الحلال، والا أخذتك معي يـا ملكة. بس الضباط مسويين حفلة بـمناسبة ذكرى الثورة.

- قبل كم يوم سووا حفلة !.

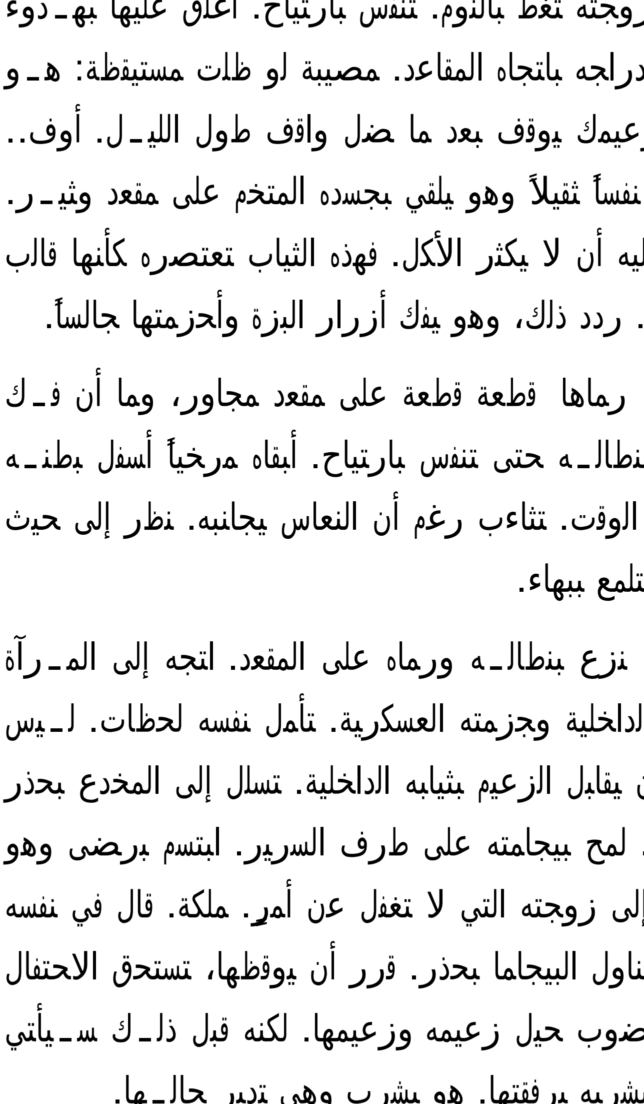
- شو كم يوم.؟. بآخر الشهر. وبكره أربع تعش.

- على حساب، بـحتفلوا فيها كل آخر شهر.

- شو أسوي إذا قرروا يصير الاحتفال كل نص شهر. مين بقدر يقول للضباط لا؟. أنا والا إنت؟. مو معقول يخلوا غيري يقطع كعكة الحفلة.

- يا ا ، شو الأيام بتطير طير. معقول صار ماضـي أسبوعين. روح. روح ابن عمي. بلا ما تتأخر عن أصحابك. يمكن منتظرينك تقطع الكعكة. بس مو تتأخر. أنا بدي احتفل فيك كمان.

عاد إلى القصر نحو الثالثة. اتجه مسرعاً إلى جنـاح النوم. لكنه أبطأ وهو يغلق الباب من خلفه بحرص وحـذر. عبر الصالة بخفة وهدوء، وتلصص من فتحة باب المخدع..



كانت زوجته تغط بالنوم. تنفس بارتياح. أغلق عليها بهـدوء وعاد أدراجه باتجاه المقاعد. مصيبة لو ظلت مستيقظة: هـو بقدر زعيمك يوقف بعد ما ضل واقف طول الليـل. أوف.. وأزفر نفساً ثقيلاً وهو يلقي بجسده المتخم على مقعد وثيـر. كان عليه أن لا يكثر الأكل. فهذه الثياب تعتصره كأنها قالب حديدي. ردد ذلك، وهو يفك أزرار البزة وأحزمتها جالساً.

رماها قطعة قطعة على مقعد مجاور، وما أن فـك حزام بنطالـه حتى تنفس بارتياح. أبقاه مرخياً أسفل بطنـه لبعض الوقت. تثاءب رغم أن النعاس يجانبه. نظر إلى حيث المرآة تلمع ببهاء.

نزع بنطالـه ورماه على المقعد. اتجه إلى المـرآة بثيابه الداخلية وجزمته العسكرية. تأمل نفسه لحظات. لـيس لائقاً أن يقابل الزعيم بثيابه الداخلية. تسلل إلى المخدع بحذر وروية. لمح بيجامته على طرف السرير. ابتسم برضى وهو يلتفت إلى زوجته التي لا تغفل عن أمرٍ. ملكة. قال في نفسه وهو يتناول البيجاما بحذر. قرر أن يوقظها، تستحق الاحتفال رغم نضوب حيل زعيمه وزعيمها. لكنه قبل ذلـك سـيأتي بكأسٍ يشربه برفقتها. هو يشرب وهي تدبر حالـها.

عاد إلى الصالة التي بدت لـه أكثر فخامة. ارتـدى بيجامته مبقياً الجزمة في ساقيه. اتجه إلى خزانـة الشـراب بجانب المرآة. تنازعتاه القطعتـان للحظـة، فحسـم الأمـر وأعطى الأولوية للمرآة.

كان الصمت طاغياً، فمنحه لحظة عظيمـة، أحـس خلالـها بأنه يقف بـجزمته على أنفـاس العـالم السـاكن المستكين. كان الكون برمته مأسوراً في بلورته السحرية التي تعكس عظمته بجلال وبـهاء. الزعيم. الزعيم. منـه وإليـه ومن خلالـه. انتابه إحساس في لحظته العظيمة بإنه مرسـل من السماء. هكذا الأنبياء. يختبرهم ا أولاً بالمعاناة، قبل أن يمنحهم مصائر العباد. عنـدها تصـبح أقوالـهم قـوانين وعاداتهم نواميس. لا أحد يفهم الزعامة مثلـه، ولا أحـد يحس بـها مثلـه، ولا يستحقها أبداً غيره. لقد انفتح عليـه باب السماء. فانفتح باب الصالة بعنـف وكأنـه يقتلـع مـن الجدار.

أجفل على الصوت واستيقظت زوجتـه مـذعورة. ساعدته الخمرة على التماسك، وهو يصرخ بالضباط الثلاثـة الذين سددوا إليه بنادقهم: شو هاد.؟.. قالـها بنبرة غاضـبة

حازمة، بينما وقفت زوجته في باب المخـدع مرتجـة الفـم والأطراف: جيبوه.. رد بكر بحزم وغضب ، وعيناه تقدحان شرراً.

- إرمي سلاحك إنت واياه.. قال الـزعيم، وأضـاف متشنجاً: راح أعدمكم كلكم. كيف بتدخلوا علي هيك .؟!.

لكن غضبه تلاشى تماماً مع تلاشي وقـع الخمـرة، عندما صفعه بكر صفعة قوية رنـحته إلى الجانب وصرخت زوجته وهي تصفق فمها براحتها: يا إمي..

عندها أحس الزعيم بأن الذي انفتح عليه، ليس بـاب السماء، وإنما بوابة الجحيم، وهو يساق موثق اليـدين إلـى ظهره. ومن خلفه بكر، يصفعه حيناً على رقبته، ويركلـه حيناً بكل قوته على قفاه ، أو يسدد لـه بعقب بندقيته ضربة بين كتفيه: وا ، ما يعدمك غيري يا ابـن الكلـب. إمشـي. إمشي.

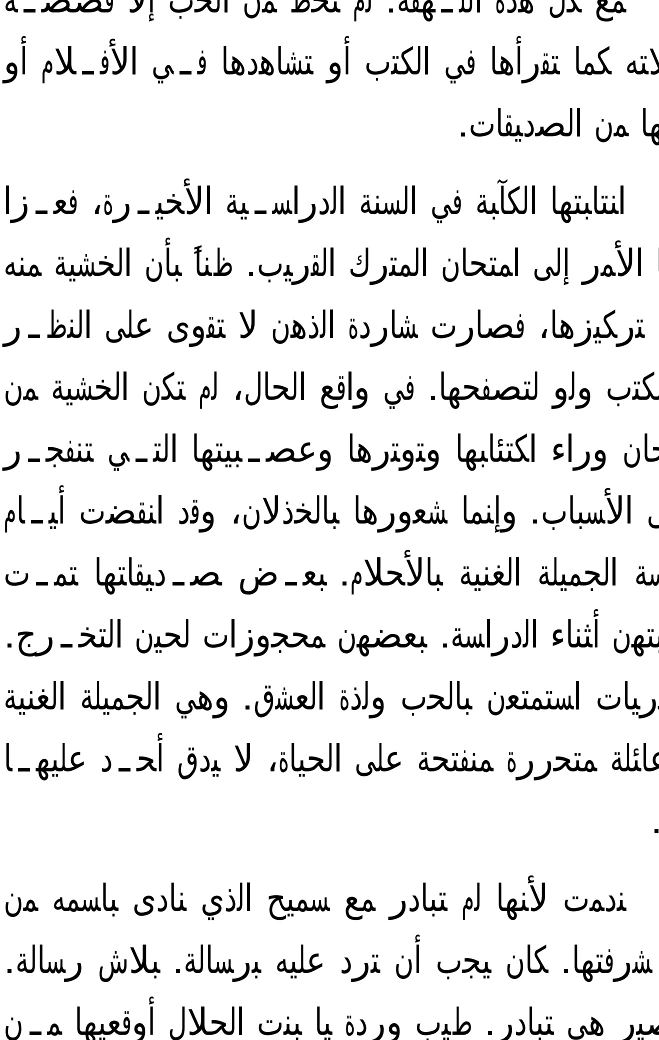
- لوين. لوين. ماخذيني.. سأل بذعر، فجاءه الجـواب سريعاً لطمة من الوراء على جانب وجهه. كأنها الصـاعقة تلاها هدير كالرعد مع صوت بكر: لعند ربك.

لما أغلق عليه باب المصفحة، أحس بها تابوتاً يحمله إلى مثواه الأخير. مجرداً من البهرجة العسكرية وزي الماريشالية، باستثناء جزمة جلدية. أهكذا تنقلب الأمور.

أعلن خبر الانقلاب من راديو دمشق في السابعة صباحاً، تلاه بيان تنفيذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص بالطاغية حسني الزعيم. وكان أنور أول المهنئين: قلت إنو ما راح يطول أكثر من شهرين.

٤٨

تخرجت نهايه من المدرسة دون أن تحظى بحبيـب. كان الغيظ من قصص الغرام التي تسمعها يجعلـها تختلـق قصصاً عن افتتان شبان المحطة بها وملاحقتهم لـها وتجرأ بعضهم على مراسلتها. فتصغي رفيقاتها لـها بفضول وهي تتوق أن يكون لـها بعض مغامراتهن. كان الحب بالنسـبة إليهن قيمة مقدسة، لا يجوز التشكيك بحقيقتهـا أو السـخرية منها. تماماً مثل أفلام السينما التي يشاهدنها ويتفاعلن معهـا. سروراً أو قنوطاً أو بكاء أو ضحكات. حتى اللواتي حظـين بالحب ولقاء الحبيب، كن يتلـهفن على المزيد، وهن يقـرأن لواعجهن في "ماجدولين، والحـب الضـائع، وشـهرزاد"، ويتطلعن للانعتاق من خلال " المرأة الجديدة، وحواء، وبنت الذوات". ويعشن أحلامهن في أغاني المطربات والمطربين، ولاسيما فريد الأطرش، الذي حفظت نهايه كلمـات أغانيـه وألحانها وأنغامها. ولم تكن تمل من مشـاهدة أفلامـه ولـو حضرت العرض الواحد عشرات المرات.



مع كل هذه اللهفة. لم تحظ من الحب إلا قصصه وخيالاته كما تقرأها في الكتب أو تشاهدها في الأفلام أو تسمعها من الصديقات.

انتابتها الكآبة في السنة الدراسية الأخيرة، فعزا أبواها الأمر إلى امتحان المترك القريب. ظناً بأن الخشية منه شتتت تركيزها، فصارت شاردة الذهن لا تقوى على النظر إلى الكتب ولو لتصفحها. في واقع الحال، لم تكن الخشية من الامتحان وراء اكتئابها وتوترها وعصبيتها التي تنفجر لأوهى الأسباب. وإنما شعورها بالخذلان، وقد انقضت أيام الدراسة الجميلة الغنية بالأحلام. بعض صديقاتها تمت خطوبتهن أثناء الدراسة. بعضهن محجوزات لحين التخرج. والأخريات استمتعن بالحب ولذة العشق. وهي الجميلة الغنية ابنة عائلة متحررة منفتحة على الحياة، لا يدق أحد عليها الباب.

ندمت لأنها لم تبادر مع سميح الذي نادى باسمه من تحت شرفتها. كان يجب أن ترد عليه برسالة. بلاش رسالة. ما بصير هي تبادر. طيب وردة يا بنت الحلال أوقعيها من

غير قصد فوق راسه، وإذا ما تطلع ناوليه قـوار الزريعـة، وخلي أبوك يخيط لـه راسه عشرين قطبة.

حتى هذا الفارس الذي يناسب رغبتها فـي الكبـار المرهوبين المهيوبين تبخر مع مـجيء هؤلاء المشردين.

ولكي لا تفوت فرصتها الباقية، أصرت على فرحان أن يصطحبها إلى القاهرة رغم احتجاج أبوهـا: ويـش وده يصير للمدرسة. راح تطير. ودها تيجي وإياي. يعني ودهـا تيجي واياي. كِلـها كم يوم.

هذه المرة سترضى بلقاء على علاته. المهم أن تودع المدرسة وفي جعبتها ذكرى حبيـب. لكنهـا وجـدت لقـاء ماطوشاً أكثر من السابق. يهتز كل شيء فيه وهـو يـروي كالمأخوذ مغامرته في غزة. حتى عمو فرحان الذي يوصيها دائماً به، بل يقدمه عليها في كثير من الأمور، أبدا اسـتياء، وهو يمسح بكوفيته وجهه من حين لحين بينمـا تنـدفع مـع حديث لقاء تفتفاته كالطلقات. والأنكى، عندما يتحـدث عـن الجامعة وفوزه برئاسة رابطة الطلبة الفلسـطينيين. يهـ ـتز عندها رأسه بخيلاء، وتترجرج ساقاه، كأن شيئاً يتحرك فـي

قفاه: ده أنا فرعطت كل الكتل، ونجحت كتلتي بس. أمال إيه. ده أنا أحرك الجامعة باصبعي ده.

مع هذا كانت ستقبل به حبيباً، لـو أعارهـا بعـض الانتباه. لكنه، كما عهدته، رث الثياب منفر الـهيئة متـأتئ اللسان. طويل الباع في كل شيء، لـيس لـ ـه ذراع، ولـو ادعاء، مع النساء.

تركهما فرحان ينفردان مراراً. بقصد أم بغير قصد، فهذا أمر لا يعنيها. المهم أن تعيش لحظة حب واحدة ولو مع ماطوش. بس إذا حظها هيك، شو تسوي؟. تقبـل رجرجتـه وتفتفاته وحكيه المصروع، لقاء أن يتخربط هذا اللقاء ويتفتف كلمة حبيبتي. وا ، وا ، مستعدة أنا اللي أقوم لـه وأبوسـه من شلاطيفه. بس معقول يرضى أبوسه. ما ظنيـت. أكيـد بعتبر البوس عيب. طيب والمجمجة اللي نازل فيهـا بعمـو فرحان على الفوته والطلعه، مش عيب؟!. غريب. يمكـن لا غريب ولا شي. بجوز كل الرجال هيك، وأنا اللي مشلّطه.

طلبت من عمو فرحان بدلال أن يسمح لـها بالذهاب مع لقاء إلى استوديو مصر لمقابلة فريد الأطرش.

طاش صواب لقاء، الذي فوجئ بالطلب مثـل عمـو فرحان: فـ. فـ. فـ. ريد إيه يا نهايه. عاوزه تنهي وجودي بالجامعة.؟.

- ليش أنهى وجودك. هو فريد الأطرش كخّه.

- ط. ط طبعاً. كـ كـ كخه. إحنا بإيه والا بإيـه يـا نهايه. الـبلاد ضـاعت، وعـاوزاني أقابـل د د ده بتـاع الرقّاصات. عاجبك الكلام ده عمو فرحان؟!.

- لويش الزيارة يا بنت. ما انت كِلّ يوم بالمسـخوطة السيما.

- كل يوم عمو فرحان؟!.

- بلاش كِلّ يوم. يوم بعد يوم. وما أحد ياخذ منك مليم.

- عاوزه إيه أكثر من كده.؟!.

- عاوزه أشوف فريد الأطـرش، وبـلاش حضـرتك تشوفه، هادا تبع الرقاصات. بس أنا ما أجيت لمصر، منشان أتفرج على جنينة الحيوانات.

- ا . ده احنا رحنا الـهرم كمان.

- بلا هرم بلا بطيخ. ناقص علي أشوف جبل احجار. عمان كلـها جبال.

- عاجبك عمو فرحان. بقى الـهرم حجارة.

- وبعدين يا قوم. لزوم كِلْ يوم هوشات.؟.

- أنا ما تـهاوشت. كل اللي قلته بدي أشـوف فريـد الأطرش.

- ما إنت بتشوفيه في السيما.

- لا تتدخل لو سمحت. أنا بحكي مع عمـو.. وإلـى جدها: عمو. إنت عندك مانع أقابلـه. كـل البنـات بتمنـوا يسلموا عليه، ويتصوروا معه. وأنا صرت واصلة القـاهرة، ما بطلع لي. والا حظي ناقص.؟!.

لم توفق بـمقابلته. كان مسـافراً إلـى الإسـكندرية لتصوير مشاهد من فيلم "عفريته هانم": شو متوقـع ألاقـى بطريقي غير العفاريت بعد ما شفت رئيس رابطتهم.

لم يعلق فرحان، ولا طلب منها الـهدوء والاتـزان كعادته، وهي لا تكف عن الشكوى طيلـة رحلـة الطـائرة، متمنية في قرارتها لو حملت معها الـهرم الأكبر، لترميه من

الجو كتلة واحدة فوق رأس لقاء. سيتخلص المصريون مـن تفتفاته، التي يمكن أن ترفع، في سـنوات، منسـوب النيـل ليغرق فيضانه المغرب والمشرق، وربـما يأخذ معه عمان.

الآن وقد تولت المدرسة مع تخرجهـا، فقـد ولـت أحلامها أيضاً. لم يعد خيالـها يحملـها من مكـان لمكـان، ويصنع على مزاجها الفرسان. ضاق عليهـا كـل شـيء. الفراش الذي تتنسم فيه رائحة الوحدة والخيبـة والخـذلان. البيت المحكوم بالرسميات، كأنها سجينة ورتابة العيش هـي السجان. والصاحبات تشتتن. بالأحرى، تفرعطن، حسب مـا تفتف لقاء: يلعن ابو هالعيشة. يعني أضل محبوسة بالبيت.

- ليش بتصيحي. مين حابسك.؟.

- وشو بتسمي قعدتي في البيـت. بـدك إيـاني آكـل وأشرب وأنام، وكل ما إجا ضيوف، أتهندم لـهم، وأضـل اسمع حكي العجايز. كلـه منشان أعجب وحدة، علـى ا ، تخطبني لابنها أو لقريبها أو لابن الجيران. أنا مش بضـاعة وبدي أعيش حياتي.

- وحياتك كل يوم والتاني في السينما.؟.

- شو أسوي لكان.؟. أضل سينما للضيوف.

- يا بنتي يا حبيبتي. ما حدا مانعك تروحي ويـن مـا بدك.

- هلأ قلت لي ما فيه روحه.

- يا نـهايه. يا روحي. الفيلم الواحد، قاعده بتروحيـه أكثر من مرة.

- وانتوا شو خسرانين. ما بياخـدوا منـي مصـاري كرمال عمو فرحان.

- ومين قال انوه المصاري بتهمنا. مستعدين نشـتري لك سينما. بس مش معقول تداومي فيها أكثر من صـحابها. شو بدهم يقولوا الناس عنك ؟!.

- اللي بحكي عنى كلمه، بقطع لـه لسانه عمو فرحان.

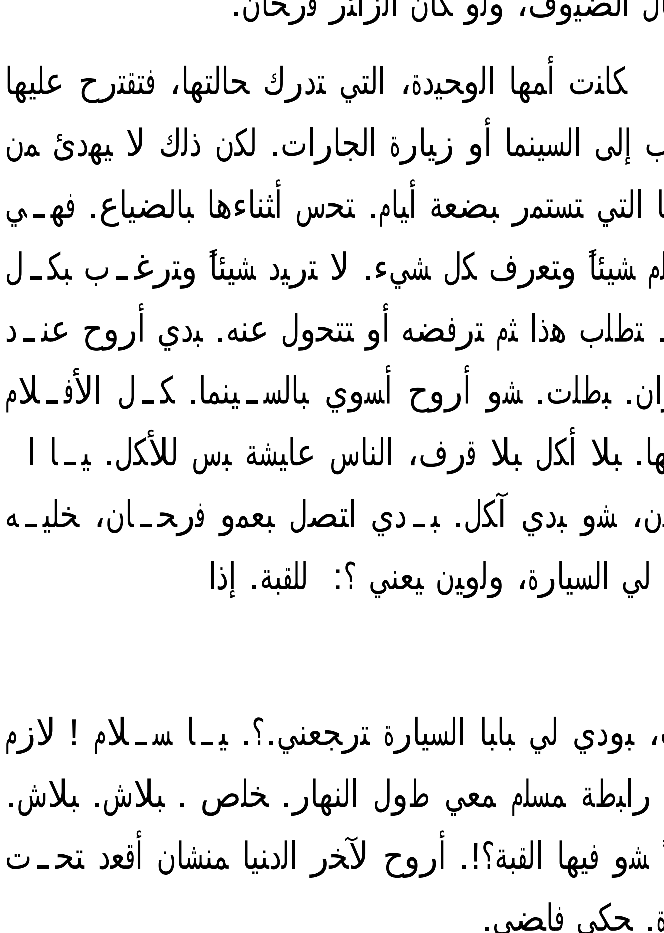
- أصلاً ما خرب أخلاقك غير دلال عمو فرحان.

كان يبهجه، عروجها على بيت السلاح بعد انتهـاء العرض في سينما الختّام. أما عروض الدور الأخرى فتـأتي إليه قبل الذهاب إليها، ومعها رفيقـة أو أكثـر مـن بنـات

الجيران. فينقدها مبلغاً دون أن تسأله، ولا تعود إليه بعد انتهاء الفيلم إلا إذ لاحقها الفتيان، الذين يتقهقرون مرتبكين بمجرد أن تنتصب البنادق أمام أعينهم، وقبل أن يلمحوا فرحان أو يلحظهم.

كان للعائلات والفتيات يوم محدد في الأسبوع السينمائي. أما باقي الأيام، فتصبح المتفرجات فرجة المتفرجين. يتسلل معظمهن، في العادة، قبل انتهاء العرض. باستثناء نهايه، التي وإن كانت تحب لفت الانتباه وتستمتع بجذب الأنظار وإشارات الفتيان، إلا أنها كانت تكره الملاحقة، إلى درجة توشك فيها أن تشكو الملاحقين لعمو فرحان: إذا كنتوا قد حالكم خليكم ورانا.. وتغذ السير، بينما يتراجع البعض أمام قسوة تعابيرها وحدة صوتها. ومن يواصل المشوار تقهقره البنادق والمسدسات المنتصبة في واجهة بيت السلاح.

أحياناً تحس بالضيق يخنقها، ولاسيما أثناء الحيض، فتغدوا عصبية المزاج لا تطاق. تخانق الخزائن والمتاع والأواني وقطع الأثاث،وترد بفظاظة على أبيها، وتصرخ



بأمها وتحتج على الأكل والشرب والأصوات، وترفض استقبال الضيوف، ولو كان الزائر فرحان.

كانت أمها الوحيدة، التي تدرك حالتها، فتقترح عليها الذهاب إلى السينما أو زيارة الجارات. لكن ذلك لا يهدئ من حالتها التي تستمر بضعة أيام. تحس أثناءها بالضياع. فهي لا تعلم شيئاً وتعرف كل شيء. لا تريد شيئاً وترغب بكل شيء. تطلب هذا ثم ترفضه أو تتحول عنه. بدي أروح عند الجيران. بطلت. شو أروح أسوي بالسينما. كل الأفلام شايفتها. بلا أكل بلا قرف، الناس عايشة بس للأكل. يا ا وبعدين، شو بدي آكل. بدي اتصل بعمو فرحان، خليه يودي لي السيارة، ولوين يعني ؟: للقبة. إذا

رحت، بودي لي بابا السيارة ترجعني.؟. يا سلام ! لازم أضل رابطة مسلم معي طول النهار. خلاص . بلاش. بلاش. أصلاً شو فيها القبة؟!. أروح لآخر الدنيا منشان أقعد تحت شجرة. حكي فاضي.

كانت تشـعر بالحاجة إلى صـديق يحـول حكيهـا الفاضي إلى مليان. صديـق وليس صديقة،شـاب مثلـها تتنفس أنوثتها ذكورته، ولو بالكلمات الجامـدة أو النظـرات الساكنة. ولو كان يتفتف الحروف ويذيب التعابير باللعـاب. فتتمنى لو تطول مسافة الطريق وهي فـي المقعـد الخلفـي للسيارة لا ترى من مسلم إلا مؤخرة رأسه. كان يكفيهـا أن تسمع صوته المرتبك وهو يجيب على أسـئلتها المتلاحقـة، دون أن يتجرأ على الحديث أو السؤال.

عندما تصل القبة ترمي بثقل جسدها وأثقال أنفاسـها فوق الخيول التي ترتاع من هيجانها وفـوران دمهـا وهـي تحثها بالرسن واليدين والمهماز، متنقلة فـوق هـذا الجـواد وذاك، وكأنها في سباق مع الـهواء للوصول إلـى أقاصـي القبة والتوغل في أرجائها. ولاسيما منطقة النخلـة، فتـرغم جوادها على الاندفاع بين النخيل، فـي مسـارات متعرجـة مضنية تضيع فيها الاتجاهات، وما أن يأتي المسـاء حتـى تكون في ذروة الإعياء. لم يكن يهدئها شـيء مثـل إنهـاك الخيول، وبخاصة الفحول : ا يكـون بعـون اللـي بـدوه يتجوزك.

- شوف مين بتحكي. بدال ما أنا أقول، ا يكون بعون بابا.

- اسمعوا يا ناس ليش شو عملت بأبوك؟.

- غيرتيه من بدوي لمدني.

- وهادا عيب.؟.

- لأ. بس قدرت تغيريه.

- وإنت. راح تقدري مثلي، تغيـري صـاحب الحـظ والنصيب؟.

- أنا ما بتجوز إلا فارس ما يتغير ولا يغيرني.

- ووين راح تلاقيه ها الفارس.

- في محل عمو فرحان.

٤٩

خضع الناس للواقع القائم. سواء في تأقلمهم مع الظروف الجديدة أو سلوكهم الخاص أو تعاملهم الاجتماعي وما نتج عنه من تغير الأحوال. أخذت خيام اللاجئين وشوادرهم تتحول شيئاً فشيئاً إلى مساكن من الطوب أو الصفيح أو ألواح الخشب أو ترقيع من كل هذا. كما صار المشردون، وقد طال انتظارهم للعودة إلى ديارهم يتحولون إلى عمال ومهنيين وبائعي بسطات. أما الذين هاجروا بأموالهم فتحولوا إلى أرباب أعمال، وكان حالهم في الأردن خير منه في مصر وسوريا ولبنان.

مع تدفق اللاجئين إلى عمان، تحركت مشاريع البناء لتلبية احتياجات السكان. فارتفعت الإيجارات بشكل كبير، كما ارتفعت أسعار الأراضي. فتشعبت الطرقات المعبدة، وتلاصقت البنايات الكبيرة، وتنوعت المحلات التجارية، وازدحمت المركبات في الشوارع والأزقة وعلى السفوح والهضاب والوديان.

ازداد عدد دور السينما والمقاهي والحانات، واستضاءت البيوت بالكهرباء وارتبطت بشبكة المياه واتصلت بأسلاك الهاتف ونشطت حركة البريد وتضاعفت أعداد السعاة.

افتتحت وكالة الغوث مراكزاً لتوزيع مؤن الإغاثة على اللاجئين التي غدت جزءاً من نشاط السوق. لها مشتروها وبائعوها والمتداولون بها. صار لكل شيء طبيعة تجارية. حتى الهواء الذي يطلبه الموسرون في المتنزهات القريبة من المدينة، حيث الأشجار الباسقة على ضفة نهر الزرقاء.

كان في عمان أثرياء وفقراء. كان فيها أميون ومتعلمون. كان فيها مدنيون وعسكريون. لكن كل هؤلاء لم يجعلوا منها مجتمع طبقات. أما وقد اكتسحت أفواج المهجرين هضابها وسفوحها ووديانها، فقد نشأ فيها للمرة الأولى مجتمعان. أصيلون ولاجئون. ومع أن معظم سكانها الأوائل جاؤوها مهجرين، إلا أن ذلك لم يجعلهم لاجئين. فالفرق شاسع بين الهجرة واللجوء. حتى متوسطي الحال من مهنيين وموظفين، صاروا يعتبرون أنفسهم أصحاب حق

في المدينة أكثر من اللاجئين الذين تعـرض الكثيـر مـنهم للمهانة والإذلال، وتعرضـت خيـامهم للنهـب ونسـاؤهم للاغتصاب. فانغلقت المخيمات على نفسها دفاعاً عن كيانـها لتتشكل فيها بؤر الإجرام وأسواق الممنوعات.

لم تعد تجارة السلاح حكراً على فرحان، بعد افتتـاح العديد من المحلات على امتداد شارع المهاجرين. أما أكبرها فقد افتتحه داوود تحت اسم " دار السلاح". حتى الاسم سرق من فرحان.

غدا المحل مركزاً لـه ومستقراً، بعدما ثقلت همتـه عن الذهاب إلى أراضي السيل أو متابعة فلاحي القبة. لم يكن العمر وحده سبب انكفائه واكتفائه. كما لم يكن السبب تـولي فريد واقتصار اطلالتـه على السلام والسؤال لدقائق قليلـة فحسب. صار وقته يحسب بالذهب ولـيس بقـروش بيـت السلاح. مع هذا، كان يمنح فرحان وقتاً أطـول مـن حـين لحين. ليس لأنه إقطاعي، ولكن لأنه بدوي. فالأدهم لم يكـن يختلف عن سواه من سكان عمان الذين صـاروا ينظـرون بفوقية إلى اللاجئين، بينما هم أعلى مقاماً باعتبارهم أصيلين. فيشكو لفرحان من هؤلاء المشردين الذي يستنـزفون موارد

البلاد، دون أن يحظى بكلمة تعليق من فرحـان الـذي كـان يعرف مثلما يعرف تجار الشارع عن الثراء الذي حققه فريد جراء النكبة. فلا يرتاح فرحان لتذمره وإن لاذ بالصمت. لا يدري هذا الفريد، أن فرحان ليس بدوياً، وإنما فلاحـاً تمتـد جذوره إلى الناصرة، التي تزوج ابنه مرزوق منها، لتختـتم الصليبية قصتها في هذه النهايه. لم يكـن فرحـان يعـي أن المنكوب يتحول إلى جيفة مقرفة بعـدما ينـال المفترسـون حصتهم منها. فالأدهم الذي رفعته النكبة إلى قمـة الثـراء، رفعت أيضاً من تعاليه، فصار يحس بالتميز على سكان البلدة الأصيلين، وهو واحد منهم، بالقدر الذي صار يحس بالفوقية في لقاءاته أو تعاملاته مع اللاجئين، سواء أكـانوا فقـراء أم موسرين. وغالباً ما يحس بالزهو وهـو يسـتغل حاجـاتهم ويستنـزف أموالـهم، بـمثل ما يحس بالجبروت وهو يلقي إلى الشارع المتخلفين عـن دفـع المسـتحق علـيهم. وإذا استرحمه أحدهم. يقول لـه: روح شوف غيري. أحمد ربنا، ما طلبت ليك البوليس. وإذا ما ذكر شيئاً من هذا لفرحـان، يزداد شعور فرحان بالاغتراب.

كان يعيش صدمة المدينة، التي لا يـجد نفسه فيهـا ولا يستطيع إلا أن يكون جزءاً منها، وهو يراقب مدهوشـاً انفجار السكان وتنوع الأعمال. يتفاقم إحساسه بالوحدة فـي القبة أو أراضي السيل، حيث يشعره سكونها بالموت بعـدما اعتادت أذناه الضجيج والزوامير والصفارات مثلمـا اعتـاد رائحة المطاعم ودخان العوادم والفضلات، فنسـي رائحـة الماء والتراب.

تشكلت عمان في ذاته وهو الذي كان يرى في القبـة زاده وملاذه ومهده وقبره وسجل إنجازاته.

لم تؤثر المدينة فقط على رغباته، بل بدلت كثيراً من نهج حياته. فنادراً ما يلتئم مجلس مضافته في القبة، ولا يدق بابه زائر إلا لحاجة أو إذا صادف مروره فيها، بينما كانـت نيرانه تجلب القاصي والداني. ذوى لهيب المواقـد وتـأجج جمر المناقل وعبق الجو بالـدخان مـن بـواري صـوبات الحطب. تراجعت أسرجة الزيت أمام قناديل الكاز ومصابيح الشمبر والكهرباء. هجرت المضافات العراء المفتوح علـى الـهواء، لتختنق مثل القبور داخل الجدران. لم يعـد يطيـق المرور بـمحاذاة النخلة التي غدت منطقة مهجورة إلا مـن

أقزام النخيل وما يتربص بها من مفترسين. ا يرحم أيام زعل ورجا وعواد.

في بيت السلاح يزوره العديد من أصحاب المحلات المجاورة. يوصى لهم من مقهى مجاور على الشاي والقهوة وما يبتدعه أهل المدينة من مشروبات غريبة تسبب الغثيان. أما الحديث، فغالباً ما ينغلق على المال والأعمال ومستحدثات الأسواق. يثيرون فضوله ودهشته بأخبار الاحتيالات والسرقات والوشايات وجرائم الجنح والجنايات. كان من الأقلة الذين يمتلكون سيارة بين أصحاب المحلات المجاورة، ومن الأقلة بينهم من يسمح له بإيقاف سيارته أمام المحل ولو أربكت حركة المرور. فقد اعتاد مراقبوا السير التواري عنده لشرب الشاي والقهوة وتدخين السجائر وأحياناً النرجيلة. من بينهم سميح، إذا صادفت خدمته قريباً من مبنى الأدهم، فيوقف دراجته أمام المحل، ويتوارى في الداخل، يدخن السجائر ويشرب القهوة والشاي، ويحدثه عن متاعب مهنته أكثر مما يسمع منه عن تجارة السلاح.

لم يدريا أن هناك قاسماً مشتركاً بينهما يمكن أن يقاربهما أو ينهي علاقتهما. فنهايه تأتي إلى المحل، غالباً في

المساء، يكون سميح خلالـها خارج الخدمـة. فـي البـار اليوناني يشرب البيرة مع الرفاق، أو في مقهى الفـواخيري، حيث الصعاليك يتحاورون بكل شيء إلا عن البذخ والثراء. أما في اجتماعاته الحزبية، فلم تكن تخلـو طروحاتـه مـن الوعيد والتهديد بالانتقام لنكبة الحزب والأمة. لكنه في بيـت السلاح شرطياً، يتوجس منه فرحان، ويثير فضـول مسـلم، الذي يصيخ إليه السمع حتى لو كان يقف أمـام الواجهـة أو يلمع زجاجها أو يشغل نفسه بتنظيف المـحل وأداواته.

كان مسلم يقوم على خدمة المحل، فهو الـذي يفـتح الباب ويغلقه، ويمسح الغبار ويكـنس الأرضـية ويشـطف الرصيف ، ويوصي على القهوة والشاي والكازوز. يغسـل السيارة عندما ينهشه الجوع، كي يتناول سندويتش فلافـل أو مقالي أو أي شيء. طالما الشيخ لا يتذكر الأكل ولو حوصر به أو اندلق عليه.

قلما استجاب للغداء عند مرزوق، رغم إلحاح ميسر كلما هاتفته أو استجداء نهايه كلما عرجت عليه. إنه لا يطيق العزائم، وسيأكل الموجود عندما يزورهم. وإذا استفزته ميسر

بإثارة حميته: إنت يا عمي أبو العزايم... يعلق بأسى : كـان زمان...

أحياناً تسألـه أن يرسل لـها مسلم ليحمل إليـه مـا رغبته لـه من طعام. فيتلقفه مسلم كأنه مأدبة مباركة نزلت عليه من السماء، ويرفض بإصرار أن يتناول منه شـيئاً إلا بعد انتهاء فرحان، كي لا تفقـده الشـهية، حملقـة الشـيخ ووجومه، وهو يتناول الأكل ببطئه المعتاد، ومضغه اللقمـة كأنها قطعة كاوتشوك ولو كانت من قشدة الحليب: تعال كـل يا ولد.

- سبقتك يا شيخ. أكلت سندويش سطحتني سطح.

- لعاد ماني مسطوح؟!.

ما أن ينفض يده، حتى يسارع مسلم بالأوعيـة إلـى خلفية المحل كي يأتي على ما تبقى منها ويمسحها بلسانه قبل أن يغسلـها ويعيدها نظيفة إلى بيت الدكتور.

فقد فرحان مع الأيام شهيته للطعام والشراب. كما فقد راحة البال وهدوء الأنفاس. بينما تجتاحه القشعريرة من حين لحين، ويحس بالارتخاء والتعب وانهداد الحيل، فيرمي رأسه

على ذراعيه المرتخيتين عل طاولـة المكتـب. لا يعـرف خلالـها إن كان نائماً أثناء النوبة أم مستيقظاً. وما أن يـدب فيه النشاط فجأة بـمثل ما تنقض عليه الحمى فجأة، حتى يبدأ التحرش بقطع السلاح. يغير مواضعها أو يتأمل ملامحها أو يفك قطعها.

تحركت عجلة البيع والشراء فـي المــحل أثنـاء الحرب، واقتصر النشاط على البيع فحسب بعدها. لكن مـذ حل اللاجئون في عمان تحركت أسـواق جميـع البضـائع باستثناء سوق السلاح رغم توالد متاجره. لم يؤرقـه ذلـك، فتجارة السلاح ما كانت يوماً مهنته. أما الآن، وهـو يحـس بتعب السنين تثقل حركته وتحول دونه والعمل في القبـة أو أراضي السيل، فقد غدا الدوام في بيت السلاح تسليته. يأتيـه التجار ليسمع منهم أكثر مما يسمعهم، ويزورونه أكثر ممـا يزورهم. وإذا ما انقضت عليه الحمى، يكابر للثبات أمامهم، لكنها تعجزه وتقهره : مبين عليك تعبان يا بو مرزوق.

- شوية برد.

- لو ترتاح.

- منوه قال إني تعبان. شوية برد ويزول...

حتى في الفراش الذي يلوذ إليه مثل صـديق يفهمـه ويسمعه ويدفئه، لم يعد يرتاح فيه، إذا ما انقضت عليه الحمى التي تجعل جسده برخاوة اللحاف: غطيني يا حرمة. البـرد ذابـحني.

إذا كان قادراً على المكابرة، فإن تمام لم تكن تصبر عليها. حتى لو انفجر في وجهها غضبه وزلزلـها تهديده.

جاء إليه مرزوق بزيه العسكري. يحمل لـه جنـدي حقيبته الطبية، بعدما طال أمد الحمى ليلتها، مما جعل فرحان يهلوس كالمخمور. " ويش اللي سواه أنور بي؟". " لو قدرت أفدي سيف بيك يا حرمة، ما قصرت". " لو سـمعت منـك وتجوزت، يمكن الرب أكرمني وأنطاني عيل غير مرزوق". " ما أريد تكتور. أريدك تخلّفي لي رجا". " رجـا يـا رب. رجا".

ارتاع مرزوق لـهزالـه واصفرار وجهه وارتخـاء جسده. فصرخ بأمه: لويش ما اتصلت بي بالحال.؟.

- ما هو. كل ليلة يصيبه برديه. بس ما هو مثل الليلة.

- ما بي شي يا ولد. بس أمك تهول كثير... قالـها برخاوة وهو يستسلم لمرزوق. يتحسسه ويقلبه ويعد نبضـه ويقيس ضغطه: لازوم آخذك للاسبيطار.

- إنت مجنون يا ولد.!.

- إي مجنون. وإن ما رحت واياي بخاطرك، آخـذك غصب عنك.

- قادر يا ولد. جرب زندك أشوف !.

قبل كلاهما التسوية، وتجرع فرحان مخفضاً للحرارة ومسكناً للآلام. على أن ينسى مرزوق قصة المستشـفى وأن يلتزم أبوه الفراش وسوف يأتيه للاطمئنان في الغد. لتخبـره أمه عصر اليوم التالي بأن أباه غادر منـذ الصـباح، فعـاد أدراجه إلى عمان واتجه من فوره إلى بيت السلاح.

- قلت ليك يا وليدي وعكة وتزول. هاي آني قـدامك مثل الرصاص.

قال مرزوق لميسر: ما قال لي وليدي من سنين.

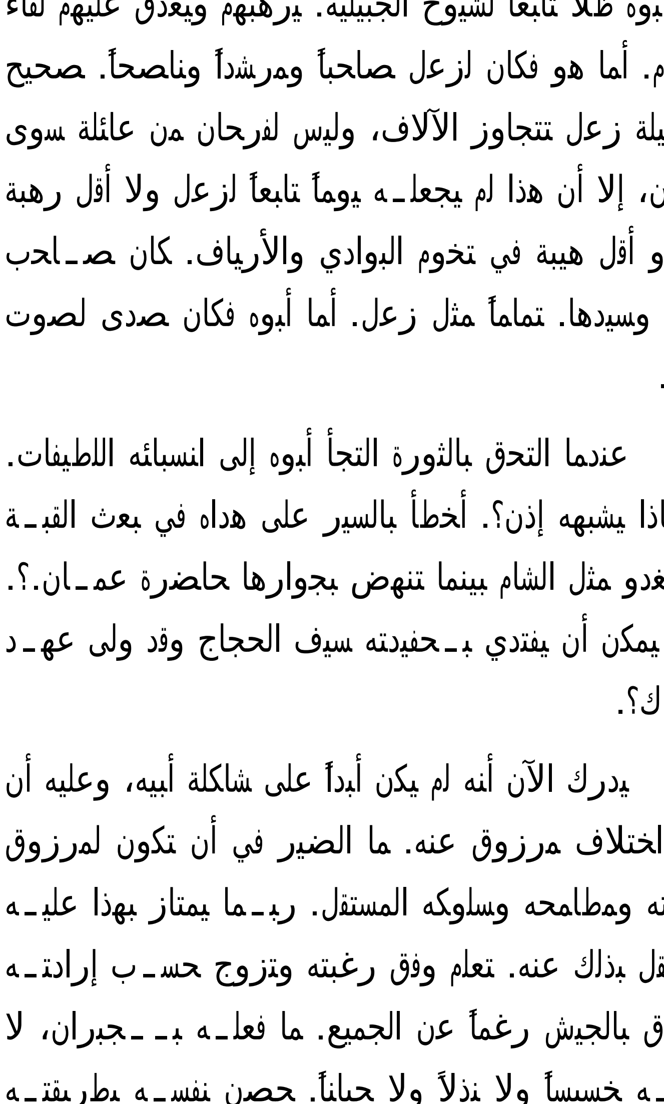
- يمكن من تأثير الدوا... قالت مازحة. فقال: أو مـن المرض...

قالت لـه تمام: مليح اللي عييت وصـرت تعـرف الرب.

- منوه قال إنوه بي عِلّة.؟. ومنوه قال إني ما أعـرف الرب. بعدين واياك يا أم مرزوق.

فعلت السنين فعلـها في فرحان ومرزوق. وسـواء أكان مرد ذلك إلى الأبوة التي نضجت في مرزوق، أو تذليل المرض لعناد فرحان، فإن مشاعر كل منهما شابـها تحـول ملحوظ. أدركا بعد وقـت طويـل أن التمـاهي الشخصـي والتوافق الذهني والتوازي المسلكي بينهما مستحيل.

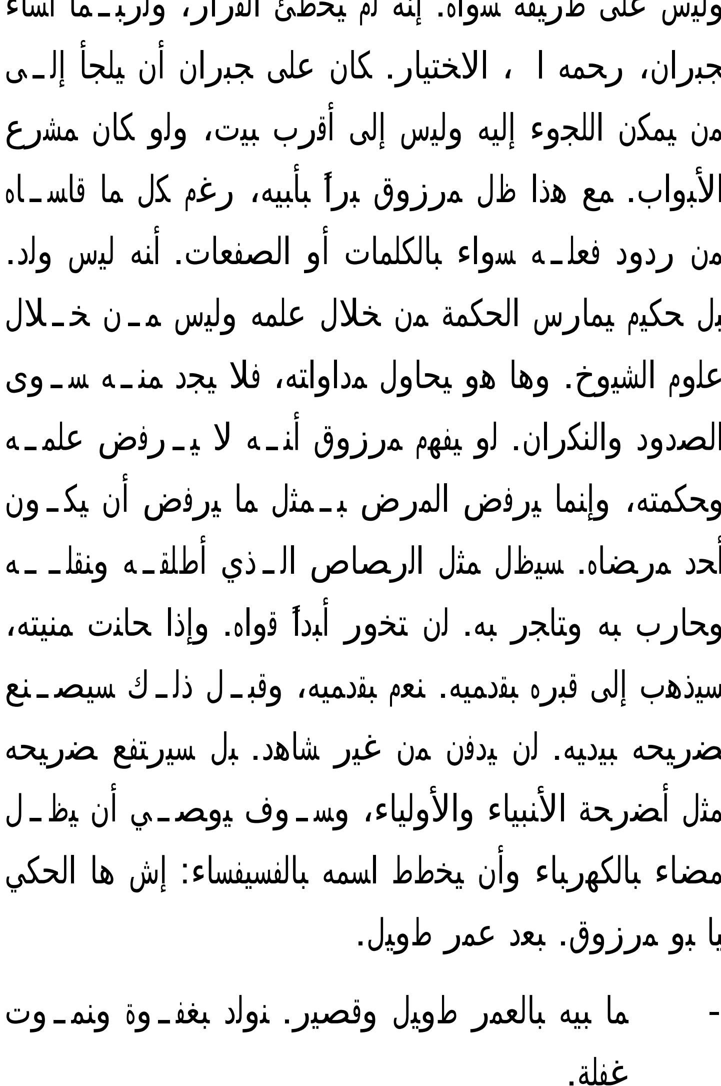
كان كل منهما يريد من الآخر أن يكون على شاكلته. لكن مرزوق وهو ينتبه إلى عنـاء التعامـل مـع الرؤسـاء والمرؤوسين، وإلى ذلك البون الكبير الذي يفصلـه عن عالم ابنته، صار يحس بأنه ظلم أباه ولم يفهمه. في الوقت الـذي صار فرحان يحس بأنه قسى على ابنه ولـم ينصـفه. كـان مفتوناً بأبيه، لكنه لم يكنه يوماً، وإن قاده واقتدى بـه وسـار على هداه. لم يكن يوماً على شاكلته وإن كـان يظـن بأنـه صورة عنه. ظل طيلة عمره يبحث عن جـذوره، ويحـاول اكتشاف أصولـه التي ظل أبوه طيلة عمره يكتمها ويخفيها.



كان أبوه ظلاً تابعاً لشيوخ الجبيلية. يرهبهم ويغدق عليهم لقاء حماهم. أما هو فكان لزعل صاحباً ومرشداً وناصحاً. صحيح أن قبيلة زعل تتجاوز الآلاف، وليس لفرحان من عائلة سوى فرحان، إلا أن هذا لم يجعله يوماً تابعاً لزعل ولا أقل رهبة منه أو أقل هيبة في تخوم البوادي والأرياف. كان صاحب كلمته وسيدها. تماماً مثل زعل. أما أبوه فكان صدى لصوت عواد.

عندما التحق بالثورة التجأ أبوه إلى انسبائه اللطيفات. فبماذا يشبهه إذن؟. أخطأ بالسير على هداه في بعث القبة كي تغدو مثل الشام بينما تنهض بجوارها حاضرة عمان.؟. كيف يمكن أن يفتدي بحفيدته سيف الحجاج وقد ولى عهد الأتراك؟.

يدرك الآن أنه لم يكن أبداً على شاكلة أبيه، وعليه أن يقبل اختلاف مرزوق عنه. ما الضير في أن تكون لمرزوق رغباته ومطامحه وسلوكه المستقل. ربما يمتاز بهذا عليه ولا يقل بذلك عنه. تعلم وفق رغبته وتزوج حسب إرادته والتحق بالجيش رغماً عن الجميع. ما فعله بجبران، لا يجعله خسيساً ولا نذلاً ولا جباناً. حصن نفسه بطريقته



وليس على طريقة سواه. إنه لم يخطئ القرار، ولربما أساء جبران، رحمه ا ، الاختيار. كان على جبران أن يلجأ إلى من يمكن اللجوء إليه وليس إلى أقرب بيت، ولو كان مشرع الأبواب. مع هذا ظل مرزوق براً بأبيه، رغم كل ما قاساه من ردود فعله سواء بالكلمات أو الصفعات. أنه ليس ولد. بل حكيم يمارس الحكمة من خلال علمه وليس من خلال علوم الشيوخ. وها هو يحاول مداواته، فلا يجد منه سوى الصدود والنكران. لو يفهم مرزوق أنه لا يرفض علمه وحكمته، وإنما يرفض المرض بمثل ما يرفض أن يكون أحد مرضاه. سيظل مثل الرصاص الذي أطلقه ونقله وحارب به وتاجر به. لن تخور أبداً قواه. وإذا حانت منيته، سيذهب إلى قبره بقدميه. نعم بقدميه، وقبل ذلك سيصنع ضريحه بيديه. لن يدفن من غير شاهد. بل سيرتفع ضريحه مثل أضرحة الأنبياء والأولياء، وسوف يوصي أن يظل مضاء بالكهرباء وأن يخطط اسمه بالفسيفساء: إش ها الحكي يا بو مرزوق. بعد عمر طويل.

- ما بيه بالعمر طويل وقصير. نولد بغفوة ونموت غفلة.

- بس لزوم تسمع كلمة مرزوق وتسوي الفحوصات.

- إش فحوصات يا حرمة. ما يصير غيـر المكتـوب على الجبين.

- لويش لعاد كان المسيح يحكّم الناس؟.

- ها الحين صار ولد فرحان حكيم مثل المسيح.

رفض بإصرار الذهاب إلى المستشفى، رغم تـدهور صحته وهزال جسده ووهن قوته، وإن صار يستجيب لفحص مرزوق لـه في البيت. كما استسلم لطبيب مختص جاء بـه مرزوق. فكان رأيه أيضاً ضرورة أجراء الفحوصـات فـي المستشفى، لكن فرحان رفض بعناد: ماني عيان يـا حكـيم. شوية برد ا العليم.

- يوبا ويش خسران. مسلم يـجيبك بالسـيارة لبـاب الاسبيطار ويـاخذك من الباب. وما راح يختلف الوضع عن هان.

- أعوذ با . آخرتها يقعد فرحان بين العيانين.

اقترح عليه مرزوق أن يأتي به مسلم بعـد انتهـاء الدوام. لن يكون هناك مرضى في

المستشفى، وسوف يتفرغ لإجراء فحوصاته الأطباء المختصون، فرفض بإصرار. سيارته لن تصل المستشفى إلا لإيصال مريض، ولن يكون المريض يوماً فرحان.

قالت ميسر: إنت مش فاهم إبوك يا مرزوق.

- ما ودي أفهمه. ودي أعالجه وبس.

- معناه خذه للمستشفى من غير ما حدا يعرف. عـازز عليه ينقال عنه مريض.

- وشو حكيت أنا؟. بقول، يـجيبه مسلم بعد الدوام.

- اثنين ما راح يقبل ينقال عنه قدامهم إنـه مـريض. مسلم واحد.

- والثاني .

- نهايه.

صارت سيارة مرزوق تأتيه إلى بيت السـلاح بعـد انتهاء دوام الأطباء. يكون المستشفى حينها هادئاً، والحركـة خفيفة، والعيادات مغلقة، باستثناء مركز الطـوارئ الـذي لا

يقترب منه فرحان. فيفتح السائق العسكري بـاب السـيارة، ويعتليها فرحان متصنعاً الثبات والصحة وهو يجلـس فيهـا بشموخ: ما تبعد عن المحل يا ولد. مشوار صـغير أشـوف ويش وده الحكيم.

- صار يقول عني حكيم... يقول جذلاً، مع أن الأسـى واضح في تعابيره ونبرته وهو يسترسل بإفاضة عن مـرض أبيه. حالته مستعصية بسبب تليف كبده الآخذ بالتضخم. ومع أنه بحاجة للراحة، إلا أن ذلك كان يستحيل على فرحان، وإن وافق على تجنب أكل اللحم والدهن والقهوة والشاي. وكلمـا تمكن الوهن منه، يلجأ مرزوق إلى نقـل الـدم إليـه مـن المتبرعين الجنود: صار في دمك جيش يوبا.

- لعاد كيف طلع من عقبي قايد ؟.

٥٠

كان على أعضاء الحلقات الماركسـية الأردنيـة أن يختاروا بين البكتاشية والشيوعية، بعدما تقرر انـدماج هـذه الحلقات مع عصبة التحرر الوطني الفلسطينية. قال مقصـود بأنه لم يكن يوماً شيوعياً وسيظل إلى الأبد بكتاشـياً، فكافـأه البابا قدري بتسميته خليفة لـه.

أما جرير، فقد اختير مع عشرة آخرين، بينهم بشارة، للمشاركة في مؤتمر العصبة الذي تمخض عنه تنظيم موحـد لشرق الأردن وغربه، أطلق عليه اسم الحـزب الشـيوعي الأردني.

انتخب المؤتمر لجنة مركزية، انبثق عنهـا مكتـب سياسي، أوكل إلى جرير مسؤولية فريق الدعاية والتحريـر، وإلى بشارة مسؤولية إدارة ممتلكات الحزب بإشراف مباشر من أمينه العام. فتحقق لكليهما أقصى ما يطمحان إليـه مـن انتمائهما الحزبي. توفر لبشارة إيراد شهري يعتمد استمراره ونموه على رضى الأمين العام. وكان ذلك أمـراً ميسـوراً

لشخص وديع، يجيد التمثيل. فقد منحه اقترابه مـن الأمـين العام، نفوذاً في اختيار الموفدين من أبناء الأعضاء للدراسـة في دول المجموعة الشيوعية التي ستعود على الحزب، مـع الأيام، بعوائد مالية، تفوق كثيراً مـا يقـدم لـهم الاتحـاد السوفياتي من مساعدات. إذ صار الإيفـاد مرهونـاً بقـدرة العضو على المساهمة المالية بالنفقات الحزبية. كـان هـذا الإجراء ينطبق على الأعضاء العاديين أو المغضوب علـيهم من قبل الأمين العام، إلا أنه لا ينطبق على المرضيين مثـل بشارة. فلم يجد ابنه فؤاد منافسة عندما رشحه أبوه لدراسـة الإخراج المسرحي في موسكو.

أقامت لـه العائلة حفلة وداع، أكثـر فيهـا الرفـاق الأكل والشرب والرقص والغناء. ازدادوا صخباً مع قصـيدة أشاد فيها جرير بستالين الفولاذي وأمين الحـزب الشـيوعي الفلسطيني، الذي ما أن وصلت مسامعه القصيدة، حتى أدرج اسم جرير ضمن

لائحة مرشحي الحزب للانتخابات النيابية المقرر إجراؤهـا في المملكة مع أوائل نيسان .

كان ذلك نهاية النهاية بين مقصود وجريـر. بعـدما شاب الفتور علاقتهما إثر استقلال جرير مع عائلته في بيـت خاص بهما، وإن ظل جرير يطل على مقصود مـن حـين لحين، عرفاناً لجميلـه ووفاء للأيام الحلوة التي قضياها معاً، كما يدعي. لكنه في واقع الحال، لم يكن يجد من يبث لـه الشكوى من هؤلاء اللاجئين، سوى مقصود. ليس لأنهم ملأوا شوارع عمان واحتلوا من غير استئذان أرجاءها، ونشـروا الأوساخ في أنحائها. لكن لأن الإدارة الحكومية، مع اتحـاد الضفتين صارت حكراً عليهم.وهو الشاعر الناري يرمى إلى الشارع كالنوري، بسبب سكرة نبيذ أفقدته وعيـه فـي ليلـة ليلاء. إنها القصة القديمة تنبعث دائماً في بواطنه كلما ضاق به الحال وصار يعوزه المال.

أنقذه اختياره عضواً في المكتب السياسي الشـيوعي، ليس بالطريقة التي دبر فيها بشارة حالـه، وإنما بالضغط من قبل متنفذي الحزب لإعادته إلى الوظيفة. لكن لـيس حـاكم مديريه كالسابق، وإنما أستاذ في المدرسة للغة العربيـة. لـم يكن أمامه إلا القبول، بعدما استنفد ما آل إليه من بيع حصته في أملاك العائلة، وصار وأسرته الصغيرة يعتاشـون علـى

راتب الوظيفة الزهيد، وما يكرم به أصحاب الجرائـد علـى مقالاته من حين لحين.

أما مقصود، فظل على عادتـه، تـراوده الشـكوك بزيارات جرير. فيبدأ الشكوى، بـ ـمجرد إطلالتـ ـه، مـن ضيق الحال وارتفاع الأسعار وخراب الديار بسبب هـؤلاء اللاجئين، وهو يصب اللعنات باسم المـردة والجـان علـى الفلسطينيين الذين لو قدر لـه لأمضى العمر، دون أكـل أو شرب أو نوم، يصليهم بقضبان الرمان. فهم لم يحتلوا مدينته ويملؤنـها بأوساخهم ويسرقون من أبنائها الأعمال والأموال فحسب، وإنما لأن كثيراً منهم صاروا يمتهنون الشعوذة ممـا أثر على تطبيبه السحري الفعال.

في البداية، وصل الإقبال عليه إلـى الـذروة، فقـد تسببت النكبة في عناء نفسي للمئات ممـن انقطعـت عـنهم أخبار عوائلـهم، وأولئك الذين غابت عـنهم مصـائرهم أو حرك الوضع أوجاعهم. فضاقت التكية على الـرواد الـذين امتدت طوابيرهم إلى البستان. ممـا تسـبب بنهـب الثمـار والدجاج، وكادت تصل أيديهم إلـى الأبقـار لـولا يقظـة المريدين. لكن هذه الخسائر التي كانت تجعل مقصود يصب

جام غضبه من خلال قضبان الرمان، لم تؤثر على وضـعه العام، سواء من حيث العطايا العينية التي تعيـد مـلء قـن الدجاج، أو تملؤ مستودع التموين. أما الأجور النقديـة، فقـد ظلت في تزايد، رغم ما يقتنصه المريدون الذين يسـاومون نيابة عنه، ويدفعون لـه أقل مما يقبضون.

هذا الإقبال لم يثر فيه تعاطفاً مـع اللاجئـين الـذين صاروا يمثلون الحجم الأكبر من زبائنه. غدا حالـه مثـل حال فريد الأدهم. فهو بالقدر الذي يستنـزفهم ويفرغ فـيهم شحنات غضبه، سواء بجلد رجالـهم أو التلذذ بنسائهم، فـإن بؤسهم فاقم من حقده عليهم وقرفه منهم، فـإذا كـان ينظـر باستعلاء إلى الوافدين، باعتبارهم غرباء سرقوا منه عمـان، فكيف بهؤلاء المشردين، سكان الخيام. إذا كانوا بنظر العرب أمثالـهم يستحقون العطف مع الاحتقار، فإنهم لا يسـتحقون بنظره إلا وقوداً للنار.

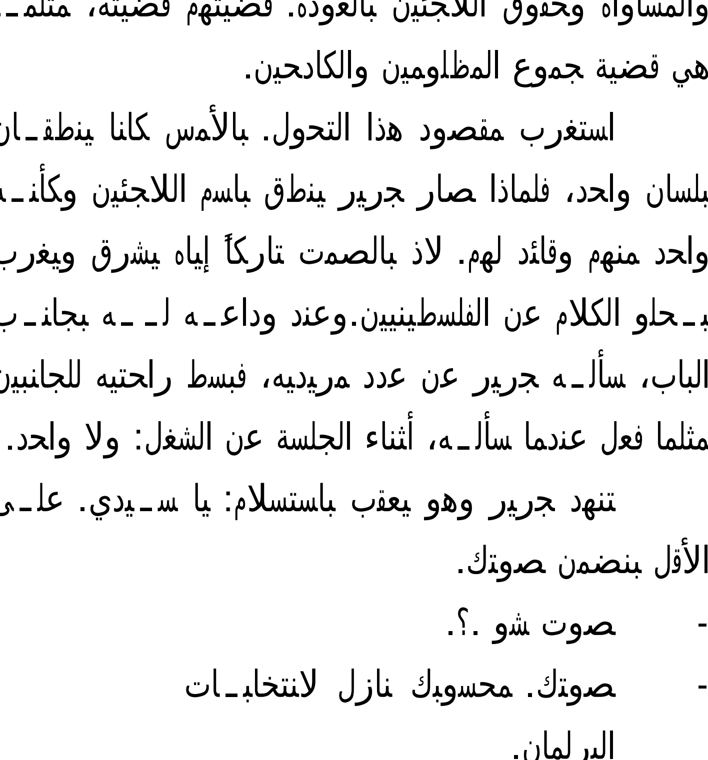
تفاقمت نقمته عليهم، بعدما تحولت شكاواه من سـوء الأحوال، تبريراً لتقتيره، إلى حقيقة واقعة.فالإقبال الذي حظي به مع بداية النكبة دفع الكثيرين، مـع تراجـع صـدمتها ، للاقتداء به والسير على هداه. لكن باحتراف أكثر وقدرة أكبر

على الشعوذة والتدجيل، فنبعت المخيمات والأحيـاء الفقيـرة بالمطببين من أصحاب الكرامات والمعجزات، القادرين على الشفاء وطرد الشياطين واستحضار الأرواح. لينحسر سـيل الزبائن عن التكية شيئاً فشيئاً، ولاسيما أن منافسيه كانوا أقدر منه على الترويج لأنفسهم والتشكيك بقدراته.

أحس بالكارثة مع نضوب الزبـائن، وصـار ينتبـه لاختلاسات المريدين من حولـه وتكسبهم من وراء ظهـره، فأقصاهم واحداً بعد الآخر، ليجد نفسه وحيداً وقد تخلى عنه الجميع، بـمن فيهم جرير.

لم يبال بالأمر لبعض الوقت، لا يحتـاج أحـداً ولا ينقصه شيء، ولو ظل وحيداً للأبد. لكنه في قرارة نفسه كان يحس بالوحشة تنهشه، فيشتاق إلى ازدحام الزبائن في التكية، مثلما يحن إلى صخب العائلة في البيت، وإلى ثرثرات جرير وخدمات ساره وصراخ ابنهما.

بادر لزيارتهما، فاستقبلـه جرير ببـرود وفتـور. حاول أن يحذو حذوه لتسخين اللقاء، فأخذ يصب اللعنات على اللاجئين الفلسطينيين دون أن يجد تجاوباً من جرير. بل على عكس ما توقعه، راح جرير يهدئ منه مشدداً علـى العدالـة



والمساواة وحقوق اللاجئين بالعودة. قضيتهم قضيته، مثلما هي قضية جموع المظلومين والكادحين.

استغرب مقصود هذا التحول. بالأمس كانا ينطقان بلسان واحد، فلماذا صار جرير ينطق باسم اللاجئين وكأنه واحد منهم وقائد لهم. لاذ بالصمت تاركاً إياه يشرق ويغرب بحلو الكلام عن الفلسطينيين.وعند وداعه له بجانب الباب، سأله جرير عن عدد مريديه، فبسط راحتيه للجانبين مثلما فعل عندما سأله، أثناء الجلسة عن الشغل: ولا واحد.

تنهد جرير وهو يعقب باستسلام: يا سيدي. على الأقل بنضمن صوتك.

- صوت شو .؟.
- صوتك. محسوبك نازل لانتخابات البرلمان.

٥١

انتهت مهمة حرس الحدود على امتداد النهر، وانفتحت الجسور فوقه للعابرين دونما تفتيش أو وثائق شخصية أو إجراءات جمركية. بعدما انضوت ضفتاه تحت علم واحد ودستور واحد ونظام حكومي نيابي واحد، وتولى الانضباط العسكري المعابر للتدقيق في مأذونيات الجنود وإجازاتهم فحسب. أما المدنيون فلا يسألون ولا يفتشون، باستثناء المطلوبين للعدالة بـموجب القوانين المدنية، وإن ظلت الأحكام العرفية سائدة جراء الحرب التي وقعت هدنتها دون تحديد لمدتها .

أعيدت قوة البوليس إلى المدن لتتولى مهمة الأمـن الداخلي للبلاد، فغدت عمان ملاذ سميح ومدينته الدائمة بعدما انغلقت الدولة العبرية داخل مناطقها بـما فيها حيفا.

عاد إلى عمان مراقباً للسير، يتجول في شـوارعها بدراجته النارية، وعلى كتفيه شرائط الشاويشية.

أفقدته الأحداث وما تمخض عنها، الكثير من حيويته. صار يحس بالخذلان بسبب استيلاء اليهـود علـى نصـف

فلسطين، وبكآبة بسبب إعدام سعاده. فلم يعد يمارس عملـه بشغف وحيوية واستعراض، كي يراقبه المشـاة بإعجـاب، وينصاع لـه السائقون بخشية وإذعان.

اكتفى من مسؤوليته الجديدة، بالتنقل في دراجته بين الشوارع التي تفرعت مـع تـدفق اللاجئـين مثـل سـيول المنحدرات التي تقوم عليها عمان. فيعطي تعليماته لمراقبـي السير، وفي بعض الأحيان يقدم المساعدة إذا استعصى تسهيل المرور أو حصل اصطدام أو تسبب في الازدحام العناد.

في المناسبات الرسمية، ينضم إلى فريق الـدراجات التي تعلن الاستنفار بزواميرها المألوفة الشـبيهة بزواميـر الإسعاف، لإبعاد المارة والسيارات من أمام المواكب الرسمية التي تصل أو تغادر مطار عمان.

تحول استعراضه البدني إلى اسـتعراض صـوتي. تتألق فيه الدراجة أكثر منه. هذه المناسبات على قلتها، كانت تستلزم الجهد في الإعداد وتسبب الضجر في الانتظـار. إلا أنها كانت تضفي مهابة وجلالاً على فريق الدراجات الـذي تنشد إليه الأنظار قبل أن تتوجه إلى السيارة الفاخرة من خلفه

التي تحمل الضيف الحكومي المبجل، وإن رد على التلويحات بالإشارات وعلى الـهتافات بالابتسامات.

لم يعد يكترث بتنظيف الشوارع أمام موكب جلوب. أو أن جلوب لم يعد يكترث بالبوليس، بعدما تولـت الـبلاد حكومة مدنية، وصار ظهور جلوب في الشوارع نادراً، إثـر نكبة فلسطين. كما أن شبكة الـهاتف صـارت تغنيـه عـن التنقل، مع ازدياد أعبائه المكتبية وتضخم الجـيش ودوائـره ومستلزماته.

في تجوالـه، أثناء الخدمة، يعرج سميح على بعض معارفه أو أصدقائه، ويوصل بدراجته منشورات الحزب إلى مواقع عمل الرفاق أو بيوتهم.

صار صلة الوصل بين قيادي مديريته التي تنتظـر التحول إلى منفذية مع استرجاع الحزب أنفاسه بتولي جولييت زوجة سعاده زعامته.

إذا وصل بدراجته إلى مبنى الأدهم، يعـرج علـى فرحان ليحدثه عن متاعب مهنته التي كانت من قبل انعكاسـاً لنرجسيته. لم يعد شغوفاً بالاستعراض أمام الناس ولا يكترث بلفت انتباه الفتيات. كان يربط عزمه على الزواج بعودته إلى

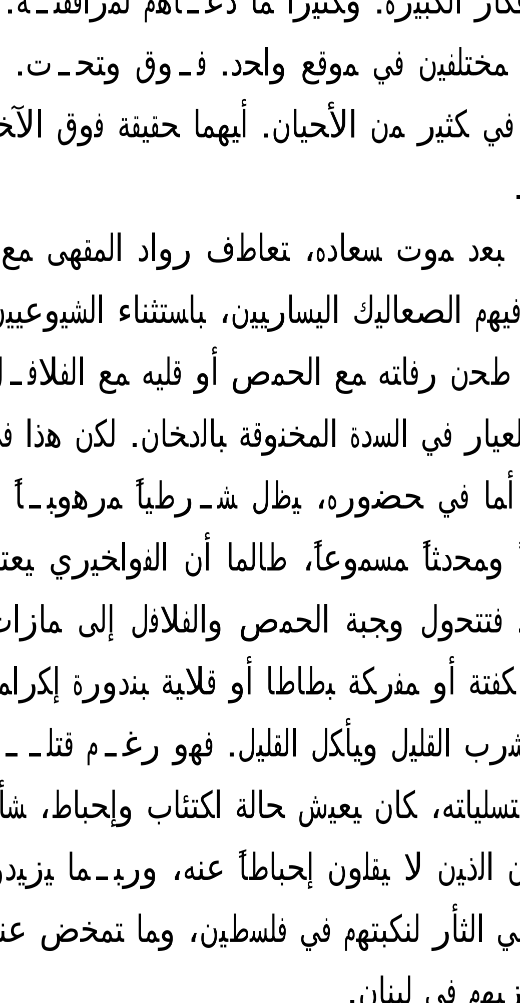
أهلـه في حيفا. بينما داخليته التواقة إلى التألق، تصدعت مع نكبته العائلية والوطنيـة والعقائديـة، ليغـدو عزوفـاً عـن الرغبات، ولاسيما النساء. كان يريد أن يصبح بطلاً، فبـات لاجئاً بثلاث شرائط ودراجة بخارية تتسـاوى مـن تحتهـا شوارع كل الأوطان.

غالباً ما تكون خدمته في الفتـرة الصـباحية، إلا إذا استلزم طارئ غير ذلك، مثل وصول وفد رسمي حكومي أو مغادرته، فينضم إلى الدراجات التي تتقدم الموكـب. يعـود بعدها إلى سكنه. يبدل ثيابه ويذهب للعب النرد فـي مقهـى النيل الذي يمتاز عن باقي المقاهي بجناح خاص تقدم فيـه المشروبات الروحية مما أغرى الجنود الانجليز على ارتياده. واعتبر فريد الأدهم افتتاحه لـهذا المقهى، مزدوج الخدمات، إنجازاً يضاف إلى إنجازاته التي جعلت من اسمه مفتاحاً لكل الأبواب وإشارة للرهبة والمهابة والنفوذ والثراء.

إذا أراد سميح اللقاء بأحد الرفاق يذهب إلـى البـار اليوناني، ملتقى القوميين السوريين، حيث يتحاورون جهـارة بـمبادئهم الحزبية.

أحياناً يذهب إلى مقهى الفواخيري في جسر رغدان، ملتقى المثقفين اليساريين. يدخن النرجيلة علـى الرصـيف، محملقاً بالمارة والطريـق والمركبـات. أو يرتقـي السـدة للانضمام إلى صاحب المقهى وزائريه.

كان صاحب المقهى شغوفاً بالثقافة، مما جعل سـدته مأوى للمتكسبين الذين لا يشبعون من القـراءة أو الأكـل أو الخمر أو الحوار. ومع أن الجلسة، في العادة، تنتهي صراخاً ومنازعات، إلا أنها إذا انضم إليها سميح تنشط ذهنـه وهـو يحاور اتجاهات متباينة، تتعارض على الدوام ولا تتوافق إلا مع الأكل. لكن قبل ذلك، يشرق الحوار ويغرب مع تلاطـم الأذهان بين كؤوس العرق وسحب الدخان، لتهـدأ النفـوس بعدها مع مجيء الطعام. كان ثـمناً بخساً بالنسبة لصـاحب المقهى الفواخيري كي يشاع عنه بأنه مثقف، وعـن مقهـاه، بأنه تجمع للمثقفين. يكفيه الزبائن من تحتـه الإنفـاق علـى هؤلاء الصعاليك. لم تكن المحاورات الساخنة سبب انجـذاب سميح للمقهى والسهر في سدته من حين لحين. بل الأجـواء التي يخرج فيها عن المألوف. إذ يحس فيه بالانعتـاق مـن الرتابة، كما يقول لرفاقه وهو يطري هذا المقهى البـائس إلا



من الأفكار الكبيرة. وكثيراً ما دعاهم لمرافقته. فالمقهى عالمين مختلفين في موقع واحد. فوق وتحت. ويتساءل ساخراً في كثير من الأحيان. أيهما حقيقة فوق الآخر، وأيهما تحته ؟.

بعد موت سعاده، تعاطف رواد المقهى مع القوميين، بمن فيهم الصعاليك اليساريين، باستثناء الشيوعيين، الذين يتمنون طحن رفاته مع الحمص أو قليه مع الفلافل، إذ ما أثقلوا العيار في السدة المخنوقة بالدخان. لكن هذا في غياب سميح. أما في حضوره، يظل شرطياً مرهوباً وشخصاً مرموقاً ومحدثاً مسموعاً، طالما أن الفواخيري يعتبر زيارته تشريفاً. فتتحول وجبة الحمص والفلافل إلى مازات تتبعها صينية كفتة أو مفركة بطاطا أو قلاية بندورة إكراماً لسميح الذي يشرب القليل ويأكل القليل. فهو رغم قتله للوقت بتنويع تسلياته، كان يعيش حالة اكتئاب وإحباط، شأن رفاقه القوميين الذين لا يقلون إحباطاً عنه، وربما يزيدون عليه رغبة في الثأر لنكبتهم في فلسطين، وما تمخض عنها من نكبة حزبهم في لبنان.

لكنهم في مجموعهم لم يحملوا حقداً لقاتلي سعاده ولا رغبة بالثأر لـه، مثل رؤوف كنعان، الذي أفرج عنه بعـد سنتين، رغم ثبوت عدم مشاركته بأية أعمال عنف، بل على العكس من ذلك، فقد هوجم ورفاقه فـي المنطقـة وأصـيب بجروح عديدة دون أن يتمكن من الدفاع عن نفسه والرد على مهاجميه.

أمضى في السـجن سـنتين تفاوتـت ضـغوطات قضبانـها قبل أن يستكين لـها وتسكت عليـه. اقتيـد إلـى السجن بعد إسعافات أولية في مستشفى الجيش، ولـم تلتـئم جراحه بعد. فوجد في القاووش الذي أنزل فيه عشرات مـن رفاقه القوميين.

أحاطوه بعنايتهم، كذلك حرس السجن المتعاطف مع الحزب، وفي اعتقادهم أنه سيفرج عنهم بين يوم وآخر. ليس بسبب براءتهم فحسب، وإنمـا لقـوة الحـزب الجماهيريـة وتغلغلـه في الجيش والدرك والبوليس. حتى المجلس النيابي ومجلس الوزراء لديهم هناك رفاق وأنصار. لم يـدركوا أن مقتلـهم في قوتهم إلا عندما وصلـهم خبر إعدام سعاده، ولم يفيقوا بعد من ذهول اعتقالـه.

ولكي تحول الحكومة رغبة الثأر عندهم إلى رغبـة بالنجاة، أعدمت منهم خلال أسبوعين عشرة قياديين اتـهمتهم بارتكاب أعمال عنف ومهاجمة المخافر وقتل الدرك. وفـي كل يوم جديد تنفتح أبواب القواويش لتستقبل أعداداً جديـدة منهم، حتى صار المكان الذي لا يكاد يتسع لثلاثين، يحشـر فيه سبعون، فكان لا بد من التنظيم. إلا أن ذلـك لـم يكـن ميسوراً مع حالة التوتر التي يعيشها القوميـون، إلا عنـدما بلغهم نبأ إعدام حسني الزعيم.

نسوا بلاءهم والحزن على إعـدام زعـيمهم وهـم يحتفلون بالأناشيد والأهازيج والـدبكات، ويصـنعون مـن الأوراق شعار الزوبعة، يعلقونـها بالخبز المعلـوك علـى الجدران،

ويشترون الحراس من خلال أهـاليهم لتزويـدهم بالأخبـار وقصاصات الجرائد والكتـب والأوراق والأقـلام. فتحـول قاووش رؤوف إلى مدرسة عسكرية، بعـدما اختارتـه إدارة السجن بطلب من السجناء، شاويشاً عليهم.

سيطر بمساعدة رفاقه على التنظيم والتنظيف وفك النزاعات، لتجد مشاعر الزعامة في ذاته طريقها ولو داخل السجن وعلى المساجين. يشير بعمل هذا أو يمنع ذاك. يدعو للنوم أو الاستيقاظ أو لملمة الفراش أو تنظيف المرحاض أو تنظيم الدور للاستحمام وغسل الثياب وتوزيع حصص الطعام. يقوم على خدمته خزمتشي خاص به، بينما يعمل آخران لخدمة القاووش لقاء سيجارة يومياً من كل سجين، حسب ما قرره رؤوف، واقتدى به شاوشية باقي القواويش.

ولكي يسيطر على أعصابه ولا تثور عصبيته، شأنه قبل الاعتقال، صار كلما أحس بالتوتر، يتربع مرخياً ذراعيه على ركبتيه. يتنفس ببطء وانتظام مغمضاً عينيه. وهو الشكل الوحيد الذي يعرفه عن رياضة اليوغا.

مع الأيام اعتاد هذه الحركة التي يقول عنها رياضة روحية يتوخى فيها الهدوء، بمثل ما يوحي لمن حوله بتوتره أو رغبته بالانزواء والتوحد. ولاسيما بعد زيارات أمه أو تسلم رسالة من ابنه الدكتور صبحي المر.

تلتئم في الأمسيات حلقات عديدة بين المساجين، تكون حلقة رؤوف أكثرها عدداً وانضباطاً. يتشارك مع رفاقه

في شرح تعاليم الزعيم بين باقي المساجين الـذين تجـاوزوا بإعدام سعاده تعاطفهم إلى المناصرة والتأييد. بعضهم أقسـم يمين الانتساب للحزب دونـما طلب مكتوب أو موافقة حزبية مركزية. غدا تجمعهم داخل السجن، حزباً قائماً بذاته، يشرح التعاليم ويطورها، ويعد الخطط ومن سينفذها. ساعدهم على ذلك درك الحرس المناصرين للحزب أو المنتظمـين فيـه. رافق ذلك تراخي قبضة الدولة الحديدية بسبب

الضربة الموجعة التي تلقتها الحكومة باغتيال حسني الزعيم. فالعديد من قادة الانقلاب في سوريا مؤازرين للحزب أو منتظمين فيه.

أفرج عن رؤوف في أواخر حزيران ، فاستقبلته أمه على بوابة السجن، دون أبيـه، الذي ظـل يعـيش هـاجس الاعتقال رغم انقضاء الوقت وهدوء الأوضاع. كان برفقـة مارغو العديد من النساء والرجال والصبيان الذين اسـتقبلوا المفرج عنهم بالزغاريد والعناق .

بعد يومين من الاسترخاء، حلـق رؤوف خلالـها شعره واستحم مراراً وأكل أطعمة أتخمته وأربكـت أمعـاءه وغيبت ذهنه، قرر أن يواجه الواقع الغائب عنه .

حذرته أمه من اللجوء للقوميين. من يدري، ربـما يكون تحت المراقبة وتحركاته بالمرصاد؟. فليبحث عن عمل في أي مكان بعيداً عن جلب الانتباه. وكان هذا رأيه أيضـاً ولم يتدخل أبوه بالحوار .

عرج على المطابع الصغيرة والكبيرة، وتقدم بطلـب عمل للجرائد التي يقرأها الجميع وتلك التـي لا يقرأهـا إلا محرروها ، لكن دونما نتيجة . فمرض السجن عضـال لا يحس بأوجاعه إلا مرضاه. قرر التداوي خارج لبنان.

صرخت مارغو بغضب، ثم ولولـت بحـزن، ثـم أجهشت بحسرة وألم: إشيا الشام يـا رؤوف. يعنـي بـدك يمنعوك ترجع للبنان .

- إمي، ما فيه شغل هوني. شو أعمل، أضـل قاعـد بالبيت .

- آ. ضل قاعد بالبيت. ما ناقصك شـي، ومـا راح تكلفنا قد ما كنت تكلفنا وإنت بالحبس.

- هيك شايفه؟!.

- قصدي لبين ما تلاقي شغل. آخرتـها راح تشتغل. ما صار لك مـدة طالع من الحبس.

- لا تضلي تذكريني بالحبس. ما قتلوا روحـي فيـه وبس. قتلوا حياتي ومستقبلي .

- مين قال؟!. بكرة بتشتغل. شوف كم واحد من اللـي كانوا معك اشتغلوا.

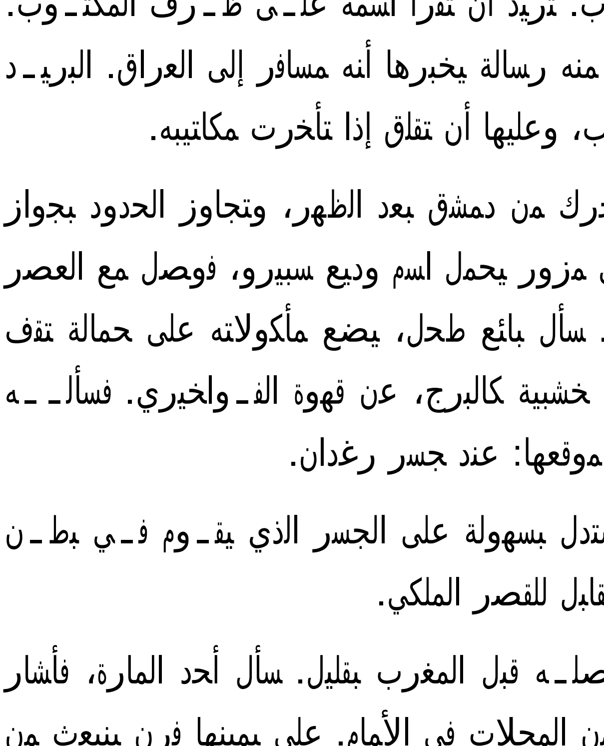
- وراهم عيلات كبيرة. وين أنا عيلتي ؟... وبسرعة إلى أبيه: ما قصدي بيي. أنا مكتفي فيك وبفتخر فيك. بـس الدنيا هيك. شو أعمل.؟. إنت معي والا لأ؟. أضل هـون استنى فرج ا ، والا أروح للشام اللي بتبعد خطوتين، ويمكن ألاقي شغل بعد ما أصل بيومين.

- وإذا ما لقيت.؟... سألت مارغو.

- شو بتفتكـري؟!... أضـل فيهـا اسـتنى فـرج ربي.!.ما اشتغلت برجع على طول.

لكنه لم يعد إلى لبنان، بل أبرق لأمـه من دمشق أنه وجد عملاً في عمان. فاستراحت مارغو، وتراجـع قلقهـا، ليتلاشى تماماً مع وصول برقيته من عمـان. تظـل الأردن

أكثر أمناً على القوميين من سوريا ولبنان. عشـرات مـنهم التجأوا إليها إثر نكبة الحزب ووجدوا فيها الأمـن والعمـل والاستقرار. الشيء الذي أزعجها أنه لم يضـمن تلغرافـه عنوان إقامته أو طبيعة عملـه.



ظلت تنتظر ملـهوفة رسالة منه. تريد أن تشـاهد خطه فحسب. تريد أن تقرأ اسمه علـى ظـرف المكتـوب. فوصلـها منه رسالة يخبرها أنه مسافر إلى العراق. البريـد هناك صعب، وعليها أن تقلق إذا تأخرت مكاتيبه.

تحرك من دمشق بعد الظهر، وتجاوز الحدود بجواز سفر لبناني مزور يحمل اسم وديع سبيرو، فوصل مع العصر إلى عمان. سأل بائع طحل، يضع مأكولاته على حمالة تقف على قائمة خشبية كالبرج، عن قهوة الفـواخيري. فسألـه البائع عن موقعها: عند جسر رغدان.

استدل بسهولة على الجسر الذي يقـوم فـي بطـن الوادي المقابل للقصر الملكي.

وصلـه قبل المغرب بقليل. سأل أحد المارة، فأشار إلى عدد من المحلات في الأمام. على يمينها فرن ينبعث من

بوري صدئ فوقه دخان الحطب. وعلـى يسـارها مخـزن مفتوح الواجهة، جلس أمامه عدد من الكهول فوق مقاعد قش واطئة يدخنون النرجيلة ويحملقون بعابري الجسر، من مشاة ومركبات وعجلات مجـرورة وبسـطات محمولـة، يـدلل أصحابها على حمولاتها من عرانيس الذرة والترمس والبليله، وهناك بائع سوس.

يقوم المبنى في صدر الجسر على قاعدة سفح كبير، يزداد انحرافاً في الغرب بـمحاذاة طريق ضيق وفي الشرق طريق آخر يلعب فيه عدد من الصبية بكرة قماشية. أما داخل المقهى فيعج بالزبائن الشبان، يلعبون بصخبٍ طاولة الزهـر والضامة والشدة.

انحرف رؤوف عن الجالسين في الخارج إلى طرف الواجهة، تلاحقه عيون الكهول ودخان نراجيلـهم. كذلك لفت مجيئه أنظار البعض من الداخل.

وقف بغير اكتراث معطياً ظهره للمقهـى، محملقـاً بحركة المركبات في الشارع وعابري الجسـر مـن مشـاة وبائعين متجولين بعرباتهم وبسطاتهم. كان معظمهم يتوقـف

أمام المقهى للحظات قبل أن يواصلوا غرباً بـمحاذاة الجرف باتجاه مركز المدينة.

وصل أحدهم يدفع عربة من ثلاثة إطـارات. فيهـا قازان يتصاعد منه البخار حاملاً رائحة الحمص المسـلوق، وصاحبه ينادي : بليله. بليله..

أسرع بعربته إلى رؤوف بعدما أشار إليـه. أنقـده رؤوف تعريفة، صفى لـه البائع مقابلها ملء غارفـة مـن البليله بـهرها لـه بالملح والكمون. فأخذ رؤوف يفتصـها واقفاً إلى أن جاءه القهوجي بكرسي قش واطئ، حـط عليـه بهدوء منشغلاً عمن حولـه بفص الحمـص، حتـى وهـو يوصي القهوجي على قهوة حلوة.

تحولت عنه الأنظار مع تحول القهوجي ودخولـ ـه المقهى. يحملقون أمامهم بكل شيء إلا القصر القـائم عـل الـهضبة التي يفصلـها عن الجسر شارع المحطة الـرئيس من خلفه سفح تتخللـه طريق لولبي يصل الـوادي بالقمـة حيث القصر، ومن حين لحين تظهر سيارة مدنيـة أو أكثـر صعوداً أو هبوطاً تتقدمها دراجة نارية أو أكثر، وأخريـات تتقدمها لاندروفر عسكرية أو تلحق بها.

جاءه القهوجي بفنجان قهوة على صينية تحمل أيضاً كوب ماء. وضعها أمامه على كرسي يماثل كرسـيه. أخـذ يرشف من فنجانه ببطء وهو يتأمل مع كـل رشـفة بـتمعن وتركيز الموقع أمامه، بكل ما فيه من بشر وشجر ومركبات دون أن يغفل التمعن بالقصر والطريق اللولبي الواصل إليه. ومن حين لحين يلتفت للصبية يتقاذفون الكرة القماشية بـين مرميين محددين بأحجار الدبش. وكلما استولى الشارع أمامه على تركيزه يعد الوقت بالأرقام بين مرور سيارة وأخرى.

انتهى من قهوته، فقلب الفنجان في صحنه، مما أثار انتباه من حولـه. ظل غريباً عـن المكـان رغـم سـلوكه الاعتيادي. خطر لـه التملص من النظرات الفضولية بطلب نرجيلة، فالتفت إلى الوراء لمناداة القهوجي، إلا أن وصـول سيارة هدسون عمومي أمام المقهى خطفت نظـره وأنظـار الجميع.

ما أن ترجل منها سميح، بثياب مدنية، حتى سـارع العديد إلى تحيته بالتلويح مع الترحيب. رد على التحيات وهو ينقل نظره، قبل أن يستقر على فنجان القهوة المقلـوب فـي

الصحن. فاتجه بثقة وهدوء إلى رؤوف، بينما غادرت سيارة الـهدسون عبر الجسر إلى الشارع العام.

ظل رؤوف يتمعن به وهو يتقدم نحوه، وما إن توقف بجانبه حتى نهـض واقفـاً : حضـرتك رؤوف؟... سـأل سميح... فسأل رؤوف بالـمقابل: وحضرتك سميح.

تصافحا بيسراهما: زمان وصلت؟.

- من شي نص ساعة... جاء القهوجي بكرسي لسـميح وغادر من فوره. جلسا باسترخاء، سميح شابكاً يديـه حـول ركبته، ورؤوف ينظر أمامه ويدير الفنجان في صحنه: شو. بتقرا الفنجان؟.

- لأ. عادة. بس بحب حدا يقرا لي اياه.

- أشوف ... تناولـه مع مجيء القهوجي يحمل صينية فيها قدح شاي كبير ممتلئ إلى منتصفه وكوب ماء. تناولـه سميح ووضعه على صينية رؤوف، مبقياً الفنجان في يسراه. نفض أصابعه، فعاد القهوجي بالصينية مع كأس الماء: قدامك طريق خضرا.

- طول عمرها طريقي حمرا.

- بس كل اللي صار معك لـهلأ، زوبعة بنفجان.

أشرق وجه رؤوف، وسأل بجذل: وبعدين.؟.

- ولا قبلين. بدي أورجيك البلد قبل ما تعتم، وبعـدين نروح نرتاح. ترى بكرة أنا عندي دوام ولازم اليوم تتعـرف على عمان.

غادرا مشياً على الأقدام إلى مدخل الجسـر. دون أن يبديا اكتراثاً بالشارع أو بعابريه أو بساكنيه. حثـا الخطـى شرقاً، فوصلا بعد نحو ربع ساعة إلى سكة الحديـد. عـادا أدراجهما غرباً إلى ساحة الميدان. نظر سميح مراراً، خلال الطريق، إلى شرفة بيت الضـابط متمنيـاً أن يشـاهد تلـك الصبية. ظل يلتفت إلى الوراء حتى بعد تجاوزهما المبنـى: بتدور على شي.؟... سأل رؤوف.

- أبداً ... قال سميح وتنهد..

اختار من بين سيارات الأجرة الواقفـة فـي سـاحة الميدان، سيارة الـهدسون التي جاءت به إلى المقهى. تجول السائق بتوجيه من سميح. شارع المحطة. سكة الحديد. شارع المطار. المستشفى العسكري.

في اليوم التالي، حملت سيارة مرزوق فرحان إلـى المستشفى العسكري في ماركا. ليتلقى وحدة دم يقـاوم بهـا وهن جسده ويعوضه عن فقدان شهيته، وكان الجـو حـاراً، فأوصى فرحان السائق بأن يترك أبواب السـيارة مشـرعة للـهواء، فأذعن السائق بعد أن حركها إلـى حيـث شـجرة مظلة، وغادر مقعده ليجلس قريباً منها في العراء.

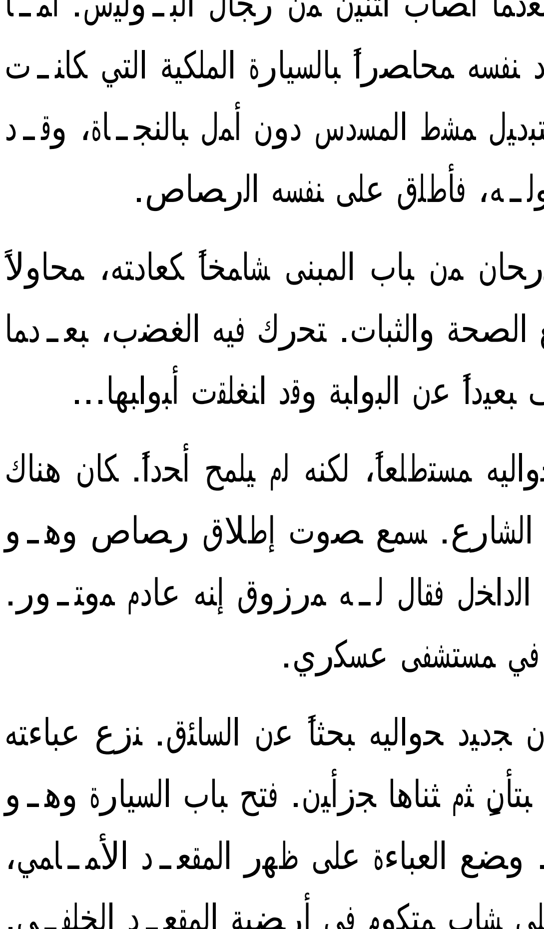
علت زوامير الدراجات النارية، قبل أن تظهر أمـام معبر جسر رغدان، تتبعها سيارة ملكية ومن خلفهـا سـيارة مرافقة أخرى، واصلت ببطء طريقها عبر الشارع المحطـة. بينما الزوامير تحث المركبات المتقدمة على الابتعـاد إلـى الجانبين مع ترويع عابري الشارع وتجمع الجمهـور علـى الأرصفة لرفع إيقاع التبجيل والتفخيم، حسب مـا تقتضـيه زيارة القادة. وما أن تجاوز الموكب معبـر الجسـر، حتـى تحركت سيارة الـهدسون من أمام مقهى الفواخيري.

قريباً من سكة الحديد ذات القضبان الناتئـة، خففـت الدراجات المسير، فتباطأت من خلفها سيارتا الموكب، لتتوقفا تماماً مع سقوط دراجة سميح.

في الوقت نفسـه انـدفعت مـن الـوراء، سـيارة الـهدسون، غير مبالية بالسيارات المتوقفـة علـى جـانبي الطريق، ولا بالمشاة المتفرجين. لتصـل بجانـب السـيارة الملكية بينما سميح وقد انتـزع مفتاح تشغيل دراجته يسـرع إلى الوراء وهو يحرر مسدسه من جرابه، مطلقاً الرصـاص عبر الزجاج الأمامي متوافقاً مع طلقـات أخـرى أطلقهـ ـا رؤوف من نافـذة سيارة الـهدسون.

أصابت الطلقات الـهدف إصابات قاتلة، وجرحـ ـت اثنين من مرافقيه. وقبل أن يتمكن سميح من القفز إلى سيارة الـهدسون، اندلع رصاص الحرس ورجال السير المرافقين. فصرخ سميح برؤوف: روحوا. روحوا... وتحول، محتميـاً بالسيارة الملكية للرد علـى اطـلاق النـار، بينمـا سـيارة الـهدسون تنطلق بأقصى سرعة، شرقاً على طريق المطار.

لمح السائق في المرآة السـيارة المرافقـة للموكـب تطارده مع ثلاث دراجات نارية تنهب الأرض خلفه، فقـال لرؤوف: إنت نط هون وأنا بدبر حالي... فقفز رؤوف قبـل وصولـهما بوابة المستشفى العسكري. لكن خروج سـيارة عسكرية منها قطعت على سيارة الـهدسون الطريق، فوصل



إليها الملاحقون، لتدور معركة قصيرة، سقط فيهـا السـائق مثخن الجراح بعدما أصاب اثنين من رجال البـوليس. أمـا سميح الذي وجد نفسه محاصراً بالسيارة الملكية التي كانـت هدفه، استطاع تبديل مشط المسدس دون أمل بالنجـاة، وقـد أحكم الطوق حولـه، فأطلق على نفسه الرصاص.

خرج فرحان من باب المبنى شامخاً كعادته، محاولاً التماسك وتصنع الصحة والثبات. تحرك فيه الغضب، بعـدما لمح السيارة تقف بعيداً عن البوابة وقد انغلقت أبوابها...

تلفت حواليه مستطلعاً، لكنه لم يلمح أحداً. كان هناك جلبة قريبة عند الشارع. سمع صوت إطلاق رصاص وهـو يرتدي ثيابه في الداخل فقال لـه مرزوق إنه عادم موتـور. هذا ليس غريباً في مستشفى عسكري.

تلفت من جديد حواليه بحثاً عن السائق. نزع عباءته وطواها عمودياً بتأنٍ ثم ثناها جزأين. فتح باب السيارة وهـو يتلفت من جديد. وضع العباءة على ظهر المقعـد الأمـامي، فوقعت عيناه على شاب متكوم في أرضية المقعـد الخلفـي. لينعكس الرعب في وجه الشاب إلى حيرة وارتباك في وجـه فرحان وهو يتفرس به عاجزاً عن السؤال أو الاسـتدارة أو

الاستقامة أو ولوج السيارة: عـم فرحـان ؟!. قـال رؤوف بلـهفة، وأضاف سريعاً: آني بعرضك.

تحولت حيرة فرحان إلـى ذهـول وارتباكـه إلـى ارتخاء. عم فرحان. عم فرحان. وقبل أن يسأل الشاب مـاذا يفعل في سيارته، وماذا فعل قبل أن يختبـئ فيهـا، وكيـف يعرفه، رمى عليه العباءة قبل أن يلج السيارة ويحط ثقيلاً في مقعده، بينما تنفجر في رأسه براكين التساؤلات مع تسـارع خفقان قلبه وضيق صدره ونقمة على السائق العسكري، الذي لم يفطن للذهاب إلى المرحاض إلا الآن.

لمحه يأتي مهرولاً من جهة مبنى الطـوارئ، فتهيـأ لتوبيخه. بل لتهديده وشكايته لمرزوق، لولا أن السائق بادره وهو يفتح الباب: الشرطة طخّت واحد، يا شيخ.

كان ذلك أقوى عذرٍ يقدمه لفرحان بـمثل مـا كـان لغماً تخترق شظاياه كل مسامات فرحان، لـم يكـن بحاجـة لوحدة الدم، طالما يحس بالدم يفيض من أذنيه وعينيه ويشعل الحرارة في أطرافه والحريق في دماغه: إش تقول.؟.

- وطخّ منهم اتنين.

- والقصد.؟.

- ما فيه قصد يا شيخ. من هيك رحت أشوف شو اللي صار.

- ما هو قصدي. أقصد ودهم يوقفونا ساعتين عالبوابة ها الحين؟.

- مين بقدر يوقف سايق عسكري يا شيخ.

- وريني همتك لعاد، لأني صار لي استنى بيك ساعة، وما أتحمل استنى دقيقة وحدة بعـد... أضـاف بصـرامة : سوق.

ما أن توقفت السيارة أمام بيت السلاح، حتـى قـال للسائق: إنزل، إنده مسلم. فانصاع العسكري من فوره، ومـا أن عاد ومسلم حتى كان فرحان يفرد عباءته ويضعها علـى كتفيه وقد وقف بجانبه رؤوف.

لاحظوا جميعاً تراكض بعض الناس، وإغلاق آخرين لمحلاتهم. بينما الشارع ما يزال على هيئتـه المألوفـة مـن صخب ورتابة.

استدارت سيارة مرزوق مبتعدة، فطلب فرحان مـن مسلم إقفال المحل. الضيف تعبان ويريد أن يرتـاح. تـولى مسلم القيادة على طريقته دون أن يتدخل بأمره فرحان: ويش يقول الراديو اليوم.؟.

- ما سمعت شي يا شيخ. بتحب افتحه؟.

لـم يعقب فرحان فأدار مسلم مفتاح التشغيل ، ليعلو صوت القرآن. هم بتغيير

المحطة، فنهره فرحان: خلـه. وإلا ما انت مسلم إلا بالاسم. استكان مسلم خجلاً، إلى أن توقف صوت المقـرئ ليتبعـه صوت المذيع الحزين: ينعى جلالة الملك عبد ا بن الحسين ملك المملكة الأردنية الـهاشمية إلى فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية والشعب اللبناني الشقيق، المرحوم دولة السيد رياض الصلح، رئيس الوزراء اللبناني، الذي تم اغتيالـه على أيـدٍ آثمة مساء هذا اليوم ١٦/تموز/١٩٥١م. وهو في طريقه إلى مطار عمان.

٥٢

بعد ثلاثة أيام اغتيل الملك عبد ا   وهو يؤدي صلاة الجمعة ظهراً داخل المسجد الأقصى في القدس.

كانت شوارع عمان شبه خالية، بعد انتهاء الصـلاة. معظم المحلات مغلقة في عطلتها الأسبوعية، والنـاس فـي منازلـهم مرتاحون من قيظ تموز. وما أن أعلن الخبر مـع نشرات الأخبار حتى فرغت الشوارع تمامـاً مـن النـاس، وسادت بينهم حالة من الترقب والخشية.

عرف فرحان بالخبر عصراً، وهو غارق بـالتفكير في كيفية التعامل مع الورطة التي حطت عليه من السماء. ما أن عرف بالخبر الجديد حتى أصيب بالارتيـاع. لا تقتصـر العملية إذن على مقتل رئيس وزراء لبنان.

لعن حينها الشيخة والأموال والأطيان والسلاح. لعن المرض ومرزوق ومستشفاه العسكري وسائقه المخبول. فلو لم يذهب الأبلـه للتفرج على إطلاق الناس، لمـا لاذ رؤوف بالسيارة، ولما أجاره وغطاه بعباءته وحملـه بسيارته كـي

يحظى بالأمان. أي أمان هذا وورطته مع الحكومـة.؟. مـع الحكومة يا مرزوق. وا الورطة مع عشائر الجبيلية أهـون ألف مرة. ماذا سيفعل الآن، إذا جـاءت العسـاكر تطالـب رؤوف؟. هل سيتصدى للجيش والبوليس وخفر الصـحراء؟. لا يستطيع أن يمنعهم عن رؤوف، كما لا يستطيع أن يسلمهم إياه. لقد استجار به وأجاره. لكن ممن؟. مـن الحكومـة يـا دكتور البلاوي؟!. لم يكن بحاجة للمستشفى، ولا لنقل الدم ولا سخام البين. كلـه من تحت راس مرزوق الـذي يريـد أن يجرب علمه به. ومن هو المستجير؟. حفيد الأب سـمعان.!. ويش وده يجينا من خلفة الأب سمعان غير خراب الديار.

قال لتمام: واياي ضيف.

أشرق وجهها، وقد انكمشت زيارات الضيوف وولى زمن الضيافات. لتقتصر بعد مرضه على عائلـة مـرزوق. قالت بإشراق: حيا ا ... أضافت وهـي تنـزاح للجانـب وتتمعن برؤوف : الضيف صاحب بيت.

تجاوزها فرحان، يحاذيـه رؤوف، فسـألت تقصـد الاستفسار عن شكل الواجب المطلوب: ومن ويـن واصـل ضيفنا يا بو مرزوق؟.

ذوت ابتسامتها ونطق وجهها بالخيبة عندما زجرها فرحان بحدة: من متى الضيف ينسأل وبعده ما عتّب الباب.

تساءلت بكفيها إن كانت تستحق زلّتها الإهانة أمام الضيف، وبعده ما عتّب الباب: حضري لينا لقمة ناكلها.

واكبه رؤوف إلى الليوان المفروش ببسط مخططه الألوان. تربع فرحان في الصدر أمام الجدار، وجلس رؤوف أمام جدار يحاذيه، يفصل بينهما مساند تبن سميكة.

أرخى فرحان ذراعيه على ركبتيه وهو يحملق بسكون في الأرض دون أن ترمش عيناه، فتذكر رؤوف تربعه عندما كان يتوتر خلف القضبان. الفارق، أن عيني فرحان تشعان رعباً، حتى رموشه مرتاعة من الانقباض: يمكن إنت ما متذكرني عم فرحان.؟. عندها نسي فرحان غضبه على السائق اللعين، واخترقت نظراته كيان رؤوف، فرمشت عيناه بتسارع، وكأنه يرمش عن كليهما، وظل فرحان على صمته.

- أنا رؤوف. ابن واصف كنعان.

بس. بس. قال فرحان في نفسه. لا تكمل : متذكرني لما زرتنا في الضهور، وأعطيتني ليرة ذهب... ود فرحـان لو يصفعه كي يسكت أو يخيط لـه شفتيه حتى ينخرس إلـى يوم الدين. إنه لا يريد أن يسمع المزيد: كنت صغير، ويمكن تغيرت ... وا لأنبش قبرك يا أبونا سمعان: بس إنت مـا تغيرت... منوه يتغير إلا اللي ما يتغير. آمنت بيك يا يسوع: بعدك مثل ما أنا متذكرك.

- كيف ؟... سأل بحدة ونسي تأنيبـه لزوجتـه علـى السؤال.

تلعثم رؤوف للحظة: قصدي، شيخ... ودك تضـحك مني منشان تتخبى بعبي ؟. ويش سويت ليك يا أبونا سمعان: شيخ بتخاف منوه نص البلاد.

- هيك شايف وإلا هيك متذكر.؟... مرة ثانيـة يـزل لسانه بالسؤال ولو ساخراً.

- اسمع. إش قلت إسمك؟

- رؤوف.

- اسمع يا ولد. آني شيخ علي ربعي. بس البلد كلـها، ما هو نصها، شيخها الحكومة، اللي إنت مطلوب ليها فهمت.

هز رؤوف رأسه: ها الحين ترتاح. تظل بجيرتي إن قدرت على جيرتك. إنت في الدار ضيف، والضيف صاحب دار. القبة مفتوحة لك، بس نصيحتي ما تبرحهـا، إن تبغـي السلامة لي وليك.

- ما راح أتحرك إلا بعلمك عم فرحان.

- لعاد كيف؟. اللي يدخل أتومبيلي من غير علمي، مـا يطلع منوه إلا بعلمي. أذكر ها الحكي ملـيح. واذكـر إنـوه لسانك ها الحين يورطك أو ينجيك... ويش صار بالأكل يا أم مرزوق.

استلقى على ظهره فـي الفـراش، وظـل محملقـاً بالسقف، بينما تتحسس لـه تمام جبينه من حين لحين بعـدما صار يهلوس كالمحموم: الرب خلـق الـدنيا بسـت أيـام، ومحاصرني بيها ها القد.

- بتهون يا بو مرزوق. كل الناس تمرض.

-	لو استعجل وخلقها بست سـاعات، جانـا مـرزوق جردون.

-	ول.

-	ولو طالت معه ستين يوم، كان إبليس حط الطاعـة لمرزوق، واشتغل عنده سايق أوتومبيل.

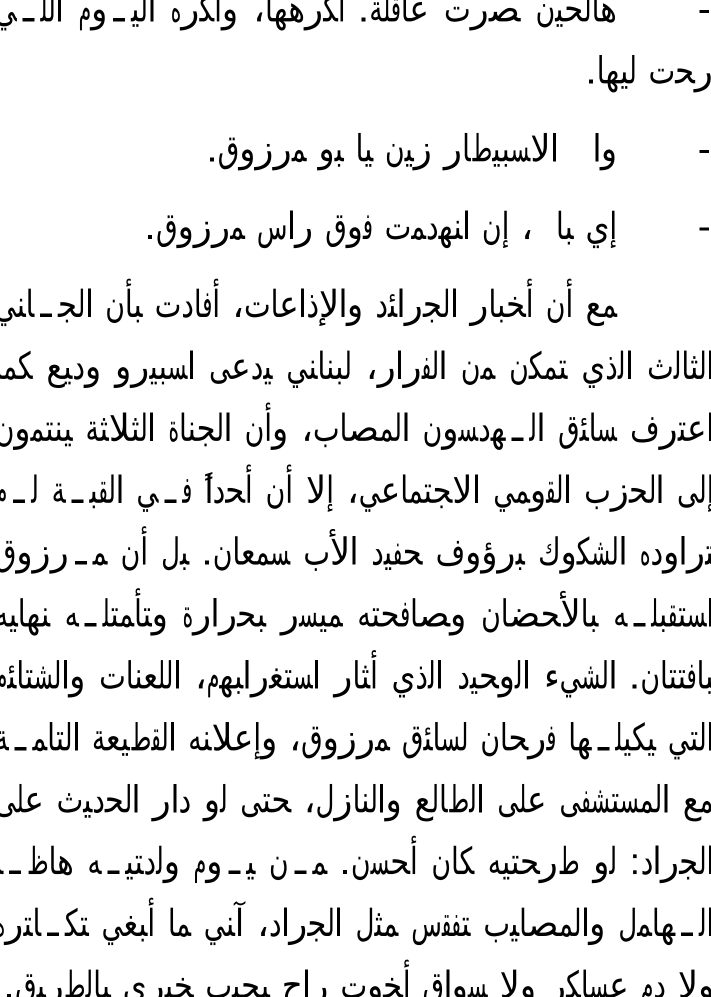
-	أمس كنت تقول عنه زينة التكاترة.

-	وبعدني بقول. ترى كلـهم أردى منوه. الردي بـس يسلم رقبة أبوه لسايق أخوث، لطعني بحريق جهنم سـاعتين. شغلـه وحدة يسويها الخاسي، تسر لي قلبي. لازوم كان يعمل ويا الجيش.؟.

-	ويش سوى؟. بدال ما تحمد ربك لأنه بالجيش. لوماه من وين يقدر ينقل ليك دم.

-	اللي يدري يدري. واللي ما يدري يقـول نقـل دم. قولي حمام دم. ماني داري لويش رديت عليه.

-	كلـه لأنك تكره الاسبيطار .

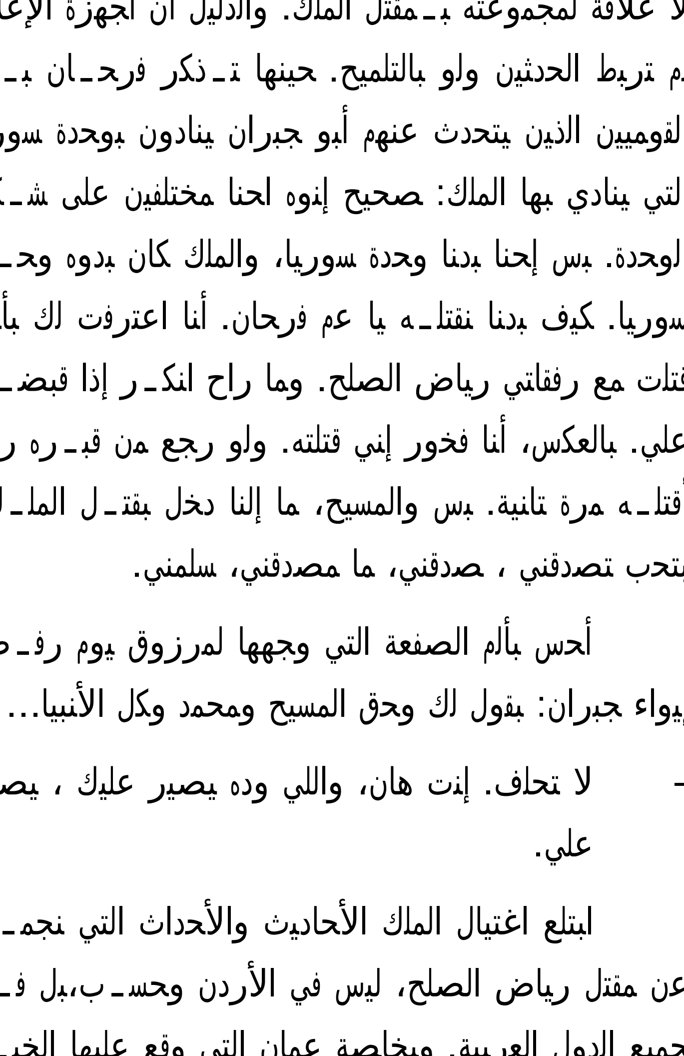


- هالحين صرت عاقلة. أكرهها، وأكره اليـوم اللـي رحت ليها.

- وا الاسبيطار زين يا بو مرزوق.

- إي با ، إن انهدمت فوق راس مرزوق.

مع أن أخبار الجرائد والإذاعات، أفادت بأن الجـاني الثالث الذي تمكن من الفرار، لبناني يدعى اسبيرو وديع كما اعترف سائق الـهدسون المصاب، وأن الجناة الثلاثة ينتمون إلى الحزب القومي الاجتماعي، إلا أن أحداً فـي القبـة لـم تراوده الشكوك برؤوف حفيد الأب سمعان. بل أن مـرزوق استقبلـه بالأحضان وصافحته ميسر بحرارة وتأملتـه نهايه بافتتان. الشيء الوحيد الذي أثار استغرابهم، اللعنات والشتائم التي يكيلـها فرحان لسائق مرزوق، وإعلانه القطيعة التامـة مع المستشفى على الطالع والنازل، حتى لو دار الحديث على الجراد: لو طرحتيه كان أحسن. مـن يـوم ولدتيـه هاظـا الـهامل والمصايب تفقس مثل الجراد، آني ما أبغي تكـاتره ولا دم عساكر ولا سواق أخوت راح يجيب خبري بالطريق.



حلف رؤوف أغلظ الأيمان الإسلامية والمسيحية، بأن لا علاقة لمجموعته بـمقتل الملك. والدليل أن أجهزة الإعلام لم تربط الحدثين ولو بالتلميح. حينها تـذكر فرحـان بـأن القوميين الذين يتحدث عنهم أبو جبران ينادون بوحدة سوريا التي ينادي بها الملك: صحيح إنوه احنا مختلفين على شـكل الوحدة. بس إحنا بدنا وحدة سوريا، والملك كان بدوه وحـدة سوريا. كيف بدنا نقتلـه يا عم فرحان. أنا اعترفت لك بأني قتلت مع رفقاتي رياض الصلح. وما راح انكـر إذا قبضـوا علي. بالعكس، أنا فخور إني قتلته. ولو رجع من قبـره راح أقتلـه مرة تانية. بس والمسيح، ما إلنا دخل بقتـل الملـك، بتحب تصدقني ، صدقني، ما مصدقني، سلمني.

أحس بألم الصفعة التي وجهها لمرزوق يوم رفـض إيواء جبران: بقول لك وحق المسيح ومحمد وكل الأنبيا...

- لا تخاف. إنت هان، واللي وده يصير عليك ، يصير علي.

ابتلع اغتيال الملك الأحاديث والأحداث التي نجمـت عن مقتل رياض الصلح، ليس في الأردن وحسـب،بل فـي جميع الدول العربية. وبخاصة عمان التي وقع عليها الخبـر

كالزلزال، وعاش أهلـها أوقاتاً عصيبة بسبب الـهلع الـذي دب في المخيمات، بعد مهاجمـة فرسـان جلـوب لمخـيم فيلادلفيا. لكن حظر التجول الذي جاء متوافقاً مـع انتشـار قوات الجيش النظامية، أعاد الأمن والاستقرار، وتم تشـييع الجثمان بهدوء إلى مثواه الأخير عند طرف التلة الملكية التي يقوم عليها قصر رغدان.

تابع فرحان يومياً الأخبار، وكان يستمع بإصغاء إلى ما يتردد بين أوساط التجار، وما يرويه زائروه من المدنيين العسكريين. تأمل طـويلاً ومـراراً صـورة قاتـل الملـك والمتورطين

معه، واحتفظ بنسخه من الجريدة في المحـل وأخـرى فـي البيت. حفظ أسماء المتهمين العشرة وهو يتابع يومياً إفاداتهم التي تنقلـها الجرائد. عند صدور الأحكام، بعد نحو الشـهر، أخبر رؤوف أنه تم تبرئة أربعة منهم وحكم بالإعـدام علـى الباقين، وإن نتائج المحاكمة تشـير بأصـابع الاتهـام إلـى معارضين فلسطينيين وأردنيين يقيمون في القـاهرة. علـق رؤوف قائلاً: صدقت كلامي عم فرحان؟.

- بشو؟... سأل فرحان بفظاظة.

-	ببراءتي.

-	من قتل الملك وإلا قتل الصلح.؟.

-	يا عم فرحان. الصلح صار بخبر كان، وما حدا هلأ بجيب سيرته أو متذكر قتلـه بعدما انقتل الملـك. صـدقني بقدر أرجع لبلادي وما حدا بيسأل في.

واظب فرحان على ما اعتاده من سـخاء تقتضـيه الضيافة، وحرص تحتمه تقاليد المجير تجاه المستجير. لكـن ذلك لم يخفف من جفاء تعابيره وجلافـة سـلوكه وفظاظـة حديثه، التي وإن ألفها أفراد عائلته، إلا أن ازدياد حدتها لـم تخف عليهم، وإن لم تثر تساؤلاتهم. ردوا الأمر إلى مرضه، بـما في ذلك نفوره من المستشفى وقطيعته معها. أما نهايـه فقد هيـّىء لـها أن السبب يعود إلى ملاطفة رؤوف لـها، وميلـها الواضح نحوه.

عندما ألم به المرض، صار يجاهد في استقبالـها، ويختصر في محادثتها ويحاول تقصير الجلسة معهـا. كـان يهرب من ضعفه وتعب وجهه ووهن جسده. لم يعـد يصـر

عليها للمجيء إلى القبة إلا عندما يسترد حيويته نتيجة العلاج أو نقل الدم أو لسبب مجهول يعجز عن تفسيره مرزوق.

كتمت العائلة عن نهايه أمر مرضه. السنين أتعبتـه بـمثل ما أتعبها. حتى تمام أخفى عنها مـرزوق خطـورة حالته. يحتاج فقط للراحة، أما نقل الدم فلأجل تعويضه عـن الغذاء الذي يفتقده بسبب الحمية. لكن مرزوق لم يكتم شـيئاً عن ميسر. يتوقف أجله على كبده. قد يميته في شـهر وقـد يمهلـه سنة في أحسن الأحوال.

ازداد وضعه سوءاً مع إحجامه عن المستشفى وتوقفه عن متابعة العلاج لتعويض دمائه التي تتبخر كالـهواء.

لولا هذا الرؤوف، لربـما تابع العلاج. وإن أحجـم، لظل في القبة قريباً من فراشه وذكرياتـه. لكنـه اعتقـد أن إغلاق المحل سوف يثير التساؤلات ولربـما يأتي بالشبهات بعد الحادثتين اللتين زلزلتا البلاد. إلا أن هـدوء الأوضـاع واتـجاه الأمور إلى الاستقرار، مع تتويج ولي العهـد ملكـاً للبلاد، في اليوم التالي لتنفيذ أحكام الإعـدام بقتلـة الملـك الراحل، طمأن فرحان بـمثل ما طمأن معظم الناس.

كان قد مضى على وصول رؤوف إلى القبة أربعين يوماً، أرسل خلالـها إلى أمه رسالة يتيمـة بعـد الحادثـة بأسبوع، أخبرها فيها أنه لم يوفق بالعمل في عمان بسبب ما جرى من أحداث وسوف يسافر إلى بغداد. سيكتب لـها حال استقراره بعمل فيها. وسواء أصدق أبواه ادعاءه أم لا، فإنهما فهما من مضمون الرسالة تجنب السؤال عنه أو التقصي عن مكانه.

في القبة لم يحس بأنه ملتجئ إليها أو مختبئ فيهـا. منحه اتساعها هواء الحرية الذي فقده لسنتين طـويلتين فـي سجن الرمل. وحركت فيه صلابة فرحان الإحساس بالأمان، وجعلـه حسن الضيافة يشعر بأنه صاحب مكان. اسـتجاب لتوصية فرحان بعدما تجاوز أطراف القبة، وأثبت لـه بثقته النفسية أنه ليس مكبلاً بالجريمة ولا مأسوراً بالـهواجس.

يغادر البيت منذ الصباح الباكر، قاطعاً الأميال مشياً على الأقدام. يتأمل الأشجار ويقطف الثمار ولا يتوانى عـن مشاركة الفلاحين تقليب التربة أو نزع الحشائش أو تحميـل الدواب. فيبـاغته فرحان فـوق صـهوة جـواد، وكأنـه السجان، ليرتد عنه مطمئناً إليه معجباً به.

في الأمسيات، يحرر رؤوف، بكثرة الأسئلة، لسـان فرحان. ويرتاح صدر فرحان وهو يسهب في الحديث عـن الذكريات. أعاده إلى البدايات التي انتهت إلى نهايـه. إلـى الصعوبات التي ذللـها انبعاث القبة. إلى السـلم والحـرب والـهزائم والانتصارات. إلى الصحراء والأرياف والسواحل والسهول والمرتفعات. إلى الشام وبيروت والقـدس وبغـداد وعمان. إلى نخلة القبة ومضـافات عـواد ورجـا وزعـل وفرحان. حتى النسوة الباهرات لم تخل منها الحكايات. شأن هند الجبيلية وابنتها زوجة سيف الحجاج.

أخيراً استعاد فرحان روح المضافة، ولو مـع هـذا الشاب الفتـي الذي يحسن السؤال بـمثل ما يحسن الجواب. عباراته بليغة عميقة، ولكنته لبنانية لذيذة. كم يختلـف هـذا الرؤوف عن أبيه واصف بـمثل ما يختلف عنه مرزوق.

هذه القناعات الجديدة تجدد فيه الحياة، لأنها تعطيـه أجوبة كانت عصية عليه قبل الآن، وكأنه طفل يطـل علـى الدنيا من نافذة المستشفى: إحكي لي الصحيح عمي فرحـان. كنت تحبها لـهند اللطيفات؟..

- آه، يا ولد. اللي مثلي يقدر يحب.؟.

- اللي مثلك ما بقدر يكره.

حتى وهو يراوغ، كان يثلج لـه صدره، ويرعاه في ألمه أكثر من مرزوق والأطباء وأدواتهم الصماء: لما كنـت جريح بالحبس، شفيت نفسي بنفسي. بتعرف ليش عم فرحان. لأني نسيت الموت وصرت بس بدي أعـيش. بـالقوة لازم أعيش. وقوتي خلتني أعيش واقتل اللي بدوه يقتلني. حلفـت وأنا بالحبس، أقتل الصلح، بتعرف شو اللـي كنـت خـايف منوه؟ ما إني أموت قبل قتلـه. خفت هو يموت قبل ما أصل إليه واستأصلـه.

هذا هو الجواب. هذا هو الحل. ما العجز إلا شعور، وما الألم إلا إحساس. أنت شيخ يا فرحان ولسـت عجـوزاً. أنت متألم ولست مريضاً: تدري. أثر بي كثير موت بوي.

- وأنا أثّر في كثير موت الزعيم.

وماذا يفرق.؟. الأب زعيم، والزعيم أب. ألا يـدري هذا الشاب كم هو بليغ: الكلام يجرح يا وادي.

- ويشفي كمان.

- ما تشبه أبوك بشي.

- ليش إنت بتشبه أبوك، عم فرحان.

- إي.

- بكل شي؟.

وهل هناك كل شيء سوى ا . أما الإنسان فبعضه. مثلما الأب بعض ابنه والابن بعض أبيه. مثلما البأس بعضه خوار، وبعض الضعف انتصار. مثلما الصحة لا تعـرف إلا بالمرض، والمرض لا يعرف من غير ألم: منوه علّمك هـا الحكي يا منحوس.

- قريت كثير وشفت كثير.

- علي اللي حكيته، إنت أكبر من اللي شفته وسويته.

- بتضل إنت عم فرحان، شفت أكثر وسويت أحسن.

- أنا اللي شفته، لو أقراه، ما تكفي ليه كلْ الآذان.

- يكفي إنك قريت مرزوق. من غيرك ما صار دكتور.

- ونسيت نهايه. منوه قراّها لعاد.

في كل جلسة، يتربص بأي ومضة لنهايه في عينـي رؤوف. وكان رؤوف يدرك ذلك تماماً. وبدلاً من الاختبـاء

في إخفاء ملامحه، يوضحه بالحديث. اختصر أم أسهب فيه. إنه أصلاً مفطور عل الصراحة مع الجميع، فكيف مع رجـل جليل نبيل، شيمته النخوة، ومفتاحه العزة. مـع هـذا ظـل، رؤوف حذراً، يخشى تغلغل الريبة إلى قلب فرحان. فالعلاقة بين الجنسين تفسر دائماً بارتياب، طالما أن الشرائع تحد منها وتعتبرها في معظم الأحيان محرمات. لـهذا كان يخبره عن جولاته مع نهايه في القبة. بـمثل ما يردد في أحيان كثيـرة أقوالـها، ويسألـه بثقة عنها إذا طالت غيبتها. أما إذا باتـت في القبة ليلتها، فإنه لا يتـرك مجالسـة فرحـان، إلا فـي حضورها. فإذا غادرت لأي سبب كان، فإنه لا يترك مجلسه ولو للذهاب إلى المرحاض. كانت تنام باكراً، لـتحكم عليـه بـمسامرة فرحان حتى الصباح.

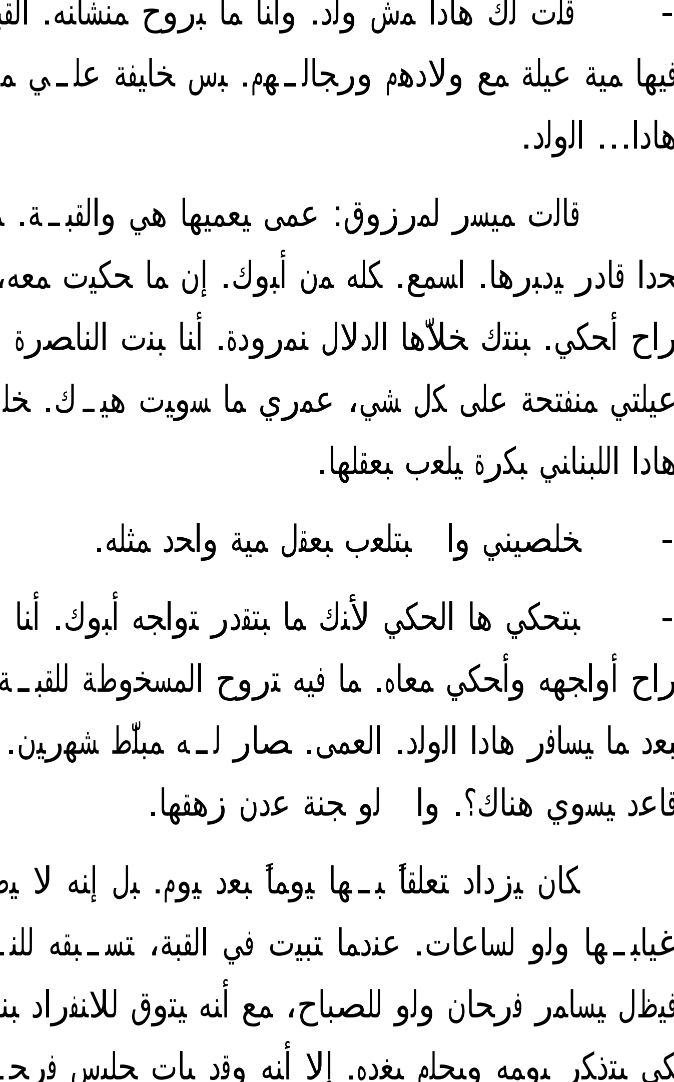
استوعب منذ لقائه الأول معها، شغف فرحان بـها، ومقدار رعايته لـها. إنه يلاحظ ذلك في وميض عينيه أكثر من حديثـه المقتضـب المـوزون، وحركاتـه القليلـة ذات الدلالات. ليس من أحد في القبة أو خارجها، إلا ويتعامل مع فرحان بإذعان دونما سؤال أو جواب، بما في ذلك تمام. على الأول أمام الناس. لكن لا أحد يدري ما يكـتم الفـراش مـن

أسرار. أما نهايه فكانت استثناء. لا يرد لها جدها طلبـاً ولا تخالف لـه أمراً . ومثلما تسمع لـه بتبجيل واحترام، فإنـه يصغي لثرثرتها ولو غلب عليها الترهات. كانـت الأغنيـة الوحيدة التي يطربه سماعها بمثل ما يسعده الترنم بها. لهذا، من يجرؤ على العبث بهذه الأيقونـة النفيسـة التـي يعتـز بامتلاكها فرحان وهي تسرح وتمرح في هذه الشجرية أو تلك الأكمة أو أمام البوايك أو فوق الربوة. عادت القبـة محجهـا بعدما انقطعت عنها وتحولت عن عبادتها. عادت لزياراتهـا المتعاقبة الطويلة التي تملؤ الدنيا صخباً وفتنة وحيوية. نهايه التي جعلت فرحان بالأمس القريب يضيق من كثرة ضـيقها، ويضجر من شدة ضجرها، ويمل مـن مللهـا. تعـود إلـى نضارتـها وكأنـها قبة رجا الصليبي أيام زمان. القبة التـي يطمع بـها البدو والفلاحـون والـولاة والسـلاطين. جنـة خضراء شهية الثمار نقية الهواء ثابتة في الأرض شامخة إلى السماء.

تأتي لزيارة القبة بين يوم وآخر. فإذا امتنع أبوها عن إرسالـها مع سائقه، لا تحتاج إلا لكلمة بسيطة تتحول إلـى

أمر نافذ عبر أسلاك الـهاتف: إن شاء ا بـدك تروحـي للقبة.

- وشو بدك أسوي.؟. أضل بالبيت.
- اسمعي نهايه. أنا مش مرتاحة لـهادا الولد اللبناني.
- ومين قال لك أنا رايحة عشانه. بعدين هـادا رجـال مش ولد.
- إنت بطّل حدا يدبرك يا عفريته، وأنا إلى حكي مـع جدك.
- حكي شو؟. إنت بتشكّي في.
- ما قلت هيك.
- لكان مين اللي قال؟ بابا ؟.
- بابا ما بدوه تروحي للقبة إذا جدك في المحل بعمان.
- يا سلام. طول عمري بروح لـها وعمو بالمحل.
- هادا قبل ما يجي هادا الولد اللبناني.



-       قلت لك هادا مش ولد. وأنا ما بروح منشانه. القبـة فيها مية عيلة مع ولادهم ورجالـهم. بس خايفة علـي مـن هادا... الولد.

قالت ميسر لمرزوق: عمى يعميها هي والقبـة. مـا حدا قادر يدبرها. اسمع. كله من أبوك. إن ما حكيت معه، أنا راح أحكي. بنتك خلاّها الدلال نمرودة. أنا بنت الناصرة اللي عيلتي منفتحة على كل شي، عمري ما سويت هيـك. خلـي هادا اللبناني بكرة يلعب بعقلها.

-       خلصيني وا   بتلعب بعقل مية واحد مثله.

-       بتحكي ها الحكي لأنك ما بتقدر تواجه أبوك. أنا اللي راح أواجهه وأحكي معاه. ما فيه تروح المسخوطة للقبـة إلا بعد ما يسافر هادا الولد. العمى. صار لـه مبلّط شهرين. شو قاعد يسوي هناك؟. وا   لو جنة عدن زهقها.

كان يزداد تعلقاً بـها يوماً بعد يوم. بل إنه لا يطيق غيابـها ولو لساعات. عندما تبيت في القبة، تسـبقه للنـوم فيظل يسامر فرحان ولو للصباح، مع أنه يتوق للانفراد بنفسه كي يتذكر يومه ويحلم بغده. إلا أنه وقد بات جليس فرحـان

وأنيسه. صار سهره معه تعبيراً عن الولاء. ولاسيما أن نهايه التي تشاركهما الجلسة لبعض الوقت تنسحب باكراً، لتستيقظ باكراً. فيهيم على وجهه من بقعة لأخرى باحثاً عنها، قبل أن يحظى بها وقد نال منه الإعياء، وتعب لسانه من السؤال هنا وهناك.

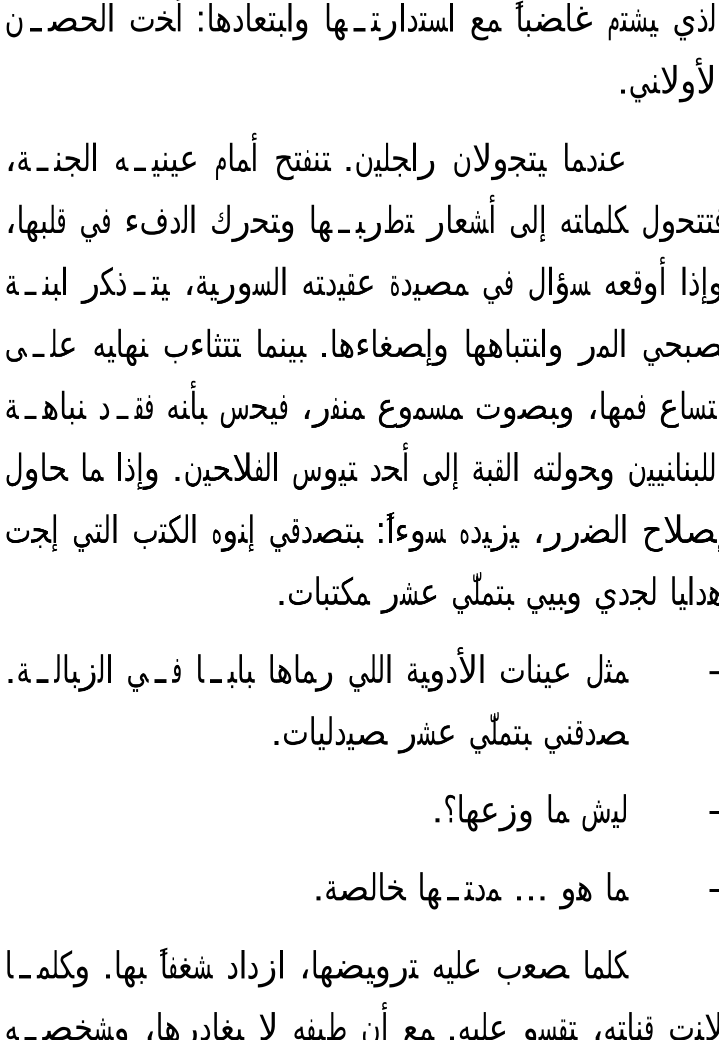
انتابه شعور بأنها تتعمد إرهاقه وهي تصل إليه ضاحكة، يتراقص الجواد من تحتها بخيلاء. لم يكن الخجل وحده يمنعه من استئذان فرحان باستخدام أحد الجياد، ولكن خشيته من امتطائها، بينما تطارد نهايه بها الهواء. قال لها بأنه سيسابقها عندما يجيد الركوب، فسألته ساخرة، أين سيتعلم، في القبة أم ضهور الشوير.؟.

كانت تحس بتميزها عليه، وتود لو يتميز عليها بشيء واحد: إنت بتتمسخري؟.

- ليش بدي أتمسخر.؟. هيك الناس بتعلموا.

- أنا أركب بغل، وإنت تركبي حصان؟!.

- بقول لك هيك الناس بتعلموا. يعني معقول تركب حصان من أول مرة.؟. يمكن يضل راكض فيك للبنان...



وتهمز جوادها بعنف تجعله يرفع قائمتيه فـي وجـه رؤوف الذي يشتم غاضباً مع استدارتـها وابتعادها: أخت الحصـن الأولاني.

عندما يتجولان راجلين. تنفتح أمام عينيـه الجنـة، فتتحول كلماته إلى أشعار تطربـها وتحرك الدفء في قلبها، وإذا أوقعه سؤال في مصيدة عقيدته السورية، يتـذكر ابنـة صبحي المر وانتباهها وإصغاءها. بينما تتثاءب نهايه علـى اتساع فمها، وبصوت مسموع منفر، فيحس بأنه فقـد نباهـة اللبنانيين وحولته القبة إلى أحد تيوس الفلاحين. وإذا ما حاول إصلاح الضرر، يزيده سوءاً: بتصدقي إنوه الكتب التي إجت هدايا لجدي وبيي بتملّي عشر مكتبات.

- مثل عينات الأدوية اللي رماها بابـا فـي الزبالـة. صدقني بتملّي عشر صيدليات.

- ليش ما وزعها؟.

- ما هو ... مدتـها خالصة.

كلما صعب عليه ترويضها، ازداد شغفاً بها. وكلمـا لانت قناته، تقسو عليه. مع أن طيفه لا يغادرها، وشخصـه

يستحوذ عليها. كانت تحس بقلبها يذوب وهو يـذيب قسـاوة جدها، ويفحم بالحديث أبويها. يتصرف بثقة وجرأة وكبريـاء مع الجميع إلا معها. يعجز عن الوصول إلى المفتاح الـذي يعتقه من داخل قلبها إلى كيانـها ويصبح عقلها ولسانـها بعدما سكن وجدانـها. لا تريده أن يستكين في قلبهـا هادئـاً مرتاحاً يثرثر واضعاً ساقاً على ساق. بل حمم بركان، فيهـا من الحريق بمثل ما فيها من الخصب والـدفء والثـروات. مبجل وهو نائم. معبود وهو مسـتيقظ . لـم تكـن تطلـب المستحيل طالما أنه صار يتنفس أنفاس جدها فرحان.

- يمكن تدق عنقك إن ما تمكنت من عنقها.
- وإن تمكنت .؟. إشيا تقول عني .؟.
- الفرس تقول.
- بقولوا الفرس من الفارس عم فرحان.

لـمعت عينا فرحان، فندم رؤوف على هذا التعقيب. كلاهما ومض في ذهنه نـهايه. اختفى الانشراح في وجـه فرحان. تلك الليلة نام رؤوف باكراً، واسـتيقظ أبكـر مـن نـهايه. سبقها إلى البايكة: تأمل الجياد بخشـية وارتيـاب.

تلمسها وهدهد على أعناقها، وكان يرتد سريعاً لأول حركـة منها.

وقع اختياره على أكثرها ضموراً، فقالت لـه نـهايه ضاحكة، بأنـها أكثرها ضراوة.

- بتضحكي علي.

- إركبها وشوف.

- إنت شوفي.

لحقته بجوادها بضع كيلو مترات، بينما يتخضـض فوق فرسه وينقذف في الـهواء ويهوي على السرج، وهـو يحس بأسنانه سقطت من ارتطـام فكيـه، وفقـرات ظهـره انخلعت من بين كتفيه، وقبضتيه المتشبثتان بالرسن والعرف معاً ليستا ملك يديه وقد توقفت عنها الدماء وتقفزتا بالصقيع. أما شعره المتطاير فقد غدا مع الـهلع أسلاكاً منتصبة فـي الـهواء. ومع هذا لم يستنجد بنهايه التي تلحق به مرتاعـة خشية عليه. ولا استجاب لنصائحها في لجم الفرس، بعـدما ولت إرادته وفقد حيلته وانـهد حيله. إلى أن هـدأ جمـوح البهيمة، وأبطأت من سيرها رويـداً رويـداً. بينمـا رؤوف

مصفر الوجه متعرق الجبهة لاهث الأنفاس. كأنه استيقظ من كابوس مرعب، تدحرج فيه من أعلى جبل في لبنـان إلـى أخفض غورٍ في الأردن. المهم أن تتوقف الرجرجـرة ولـو بالغوص إلى أعماق البحر الميت. فما أن انزلق عن السـرج مرتخياً مفكك الغضاريف متباعد العظام تتحرك كل مسـامة في جسده بالغثيان، حتى دبت فيه مشاعر الخلود وكأنه تجاوز بامتحانه الفناء. بينما تتلمس نـهايه جبهته وهي تنظر إليـه بحنان وافتتان: كنت راح تموت حالك.

- بس ما مت.

أحس بالموت يباغته، وقد ضاقت عليه الغرفة وهرب منها الـهواء. فطلبه في النافذة، بعدما تسارعت أنفاسه واشتد لـهاثه وكأن قطع الثياب القليلة التي تساعده تماما بارتـدائها كثبان رمال تسقطها الأمامية فوقـه. فـتح الـدرفتين علـى مصراعيهما واتكأ على الرفراف، بينما تراقبـه تمـام مـن الخلف. استراح قليلاً قبل أن يسـتدير وهـو يكـاد يتعثـر. أسرعت إليه، فأبعد يدها عن ذراعه بعصبية، لكـن بـوهن. حاولت ثانية، فأذعن وقادته إلى السرير. جلس على حافتـه

وهو يرتج من نوبة القشعريرة بينما الحمى ترخي مفاصلـه وتـهد حيلـه وتمتص قوته: بلاش عمان اليوم يابو مرزوق.

- لويش ؟... قال بصوت متقطع مع اصطكاك أسنانه.

- ما انت شايف حالك.

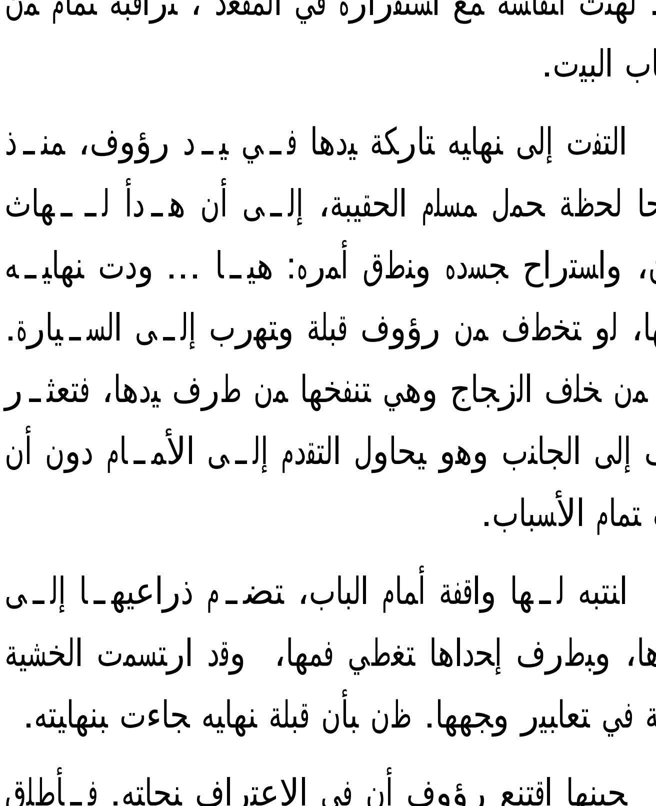
- ما بي شي.

- وا ما بيك حيل.

- لا تقولي وا . آني أدري باللي بي. كِلّه من البـرد. هاتي العباة وخلّي نهايه تواتيني بغراضها للأوتومبيل.

فاجأ الأمر نهايه. فهو لم يطلب منها يومـاً مغـادرة القبة، بل يسألها دائماً المجيء. كما تفاجأ أيضاً رؤوف.

كان قد أمضى ليلة لا تقل صعوبة عن ليلة فرحـان. لم يستطع النوم بسبب أوجاع مغامرته، كما لم ينج بسببها من الحمى أيضاً. كابد في الصباح ليبدو معافى متماسكاً مـع أن أرق الليل يحمل ظلاله الداكنـة حـول عينيـه الغـائرتين، ومفاجحته تفضح فروسية ساقيه، ولولا أن مسلم أسرع يحمل عنه الحقيبة الصغيرة التي نزلت بها نـهايه، لانكشف أمـره وخيب ظن كل من حوله. كأنه في تلك اللحظة مرآة لفرحان

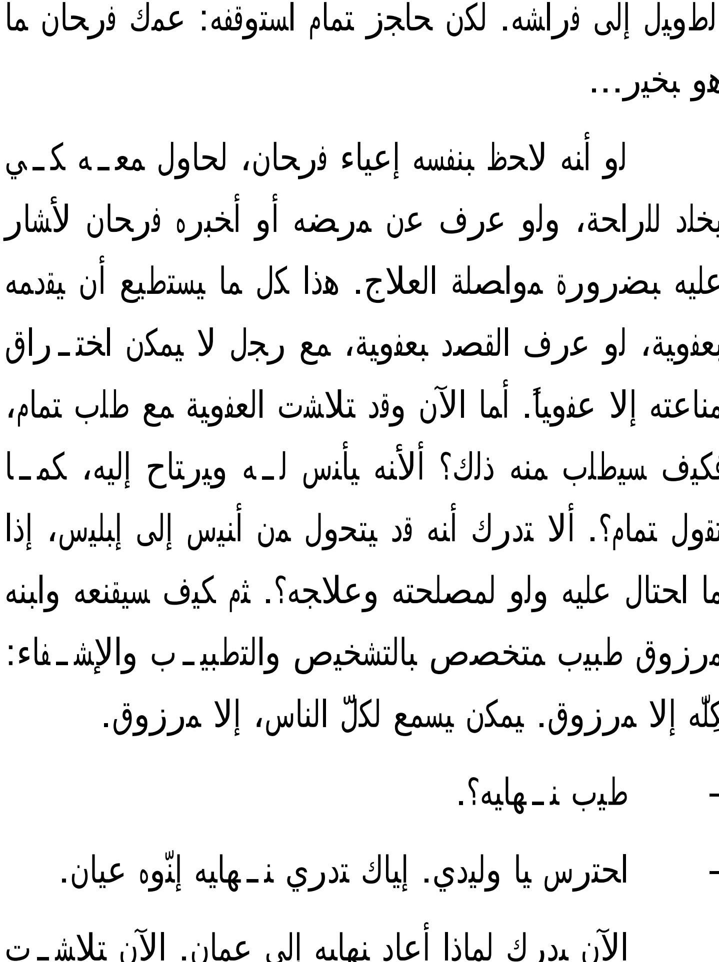


الذي قبض بيمناه على الطرف العلوي لفتحة الباب ضـاغطاً قدمه بالأرض كي يصل جسده المتعب إلى داخـل السـيارة بسلام. لهثت أنفاسه مع استقراره في المقعد ، تراقبه تمام من أمام باب البيت.

التفت إلى نهايه تاركة يدها فـي يـد رؤوف، منـذ تصافحا لحظة حمل مسلم الحقيبة، إلـى أن هـدأ لـهاث فرحان، واستراح جسده ونطق أمره: هيـا ... ودت نهايـه لحظتها، لو تخطف من رؤوف قبلة وتهرب إلـى السـيارة. فعلتها من خلف الزجاج وهي تنفخها من طرف يدها، فتعثـر رؤوف إلى الجانب وهو يحاول التقدم إلـى الأمـام دون أن تعرف تمام الأسباب.

انتبه لـها واقفة أمام الباب، تضـم ذراعيهـا إلـى صدرها، وبطرف إحداها تغطي فمها، وقد ارتسمت الخشية والنقمة في تعابير وجهها. ظن بأن قبلة نهايه جاءت بنهايته.

حينها اقتنع رؤوف أن في الاعتراف نجاته. فـأطلق العنان لأخأخاته، وترك الحرية لأعضائه بالترنح، ولسـاقيه المشي مفاحجة على هواها وهو يعود أدراجه فـي الطريـق



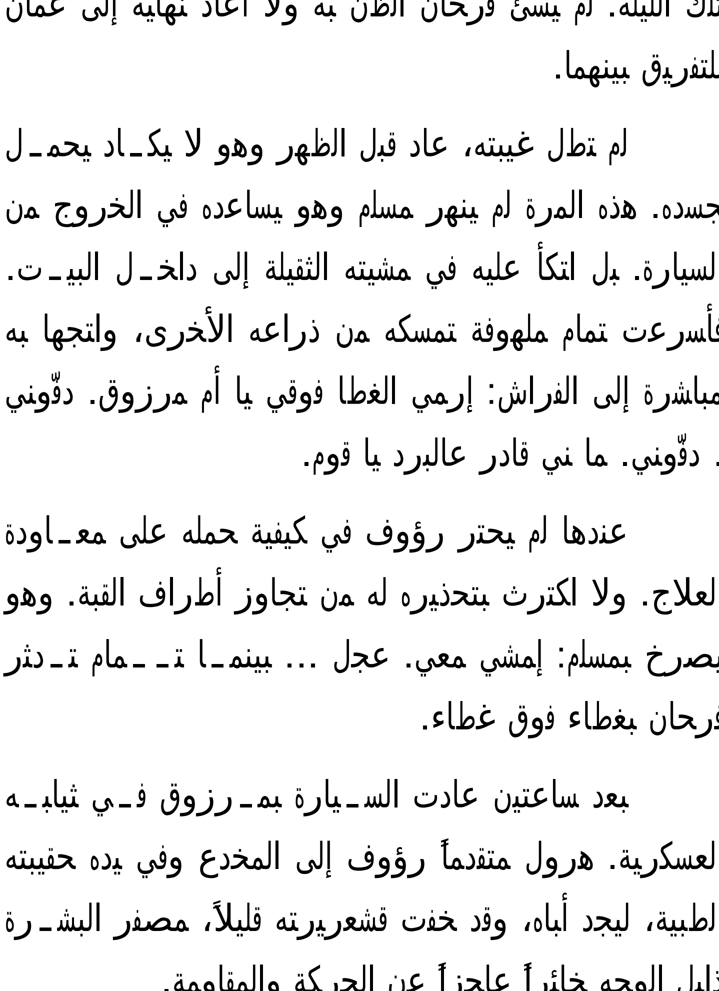
الطويل إلى فراشه. لكن حاجز تمام استوقفه: عمك فرحان ما هو بخير...

لو أنه لاحظ بنفسه إعياء فرحان، لحاول معـه كـي يخلد للراحة، ولو عرف عن مرضه أو أخبره فرحان لأشار عليه بضرورة مواصلة العلاج. هذا كل ما يستطيع أن يقدمه بعفوية، لو عرف القصد بعفوية، مع رجل لا يمكن اختـراق مناعته إلا عفوياً. أما الآن وقد تلاشت العفوية مع طلب تمام، فكيف سيطلب منه ذلك؟ ألأنه يأنس لـه ويرتاح إليه، كمـا تقول تمام؟. ألا تدرك أنه قد يتحول من أنيس إلى إبليس، إذا ما احتال عليه ولو لمصلحته وعلاجه؟. ثم كيف سيقنعه وابنه مرزوق طبيب متخصص بالتشخيص والتطبيـب والإشـفاء: كِلّه إلا مرزوق. يمكن يسمع لكلّ الناس، إلا مرزوق.

- طيب نـهايه؟.

- احترس يا وليدي. إياك تدري نـهايه إنّوه عيان.

الآن يدرك لماذا أعاد نهايه إلى عمان. الآن تلاشـت ظنونه تماماً عما اختلج في صدره بسبب ردة فعـل فرحـان



تلك الليلة. لم يسئ فرحان الظن به ولا أعاد نهايه إلى عمان للتفريق بينهما.

لم تطل غيبته، عاد قبل الظهر وهو لا يكـاد يحمـل جسده. هذه المرة لم ينهر مسلم وهو يساعده في الخروج من السيارة. بل اتكأ عليه في مشيته الثقيلة إلى داخـل البيـت. فأسرعت تمام ملهوفة تمسكه من ذراعه الأخرى، واتجها به مباشرة إلى الفراش: إرمي الغطا فوقي يا أم مرزوق. دفّوني . دفّوني. ما ني قادر عالبرد يا قوم.

عندها لم يحتر رؤوف في كيفية حمله على معـاودة العلاج. ولا اكترث بتحذيره له من تجاوز أطراف القبة. وهو يصرخ بمسلم: إمشي معي. عجل ... بينمـا تـ ـمام تـدثر فرحان بغطاء فوق غطاء.

بعد ساعتين عادت السـيارة بمـرزوق فـي ثيابـه العسكرية. هرول متقدماً رؤوف إلى المخدع وفي يده حقيبته الطبية، ليجد أباه، وقد خفت قشعريرته قليلاً، مصفر البشـرة ذابل الوجه خائراً عاجزاً عن الحركة والمقاومة.

استسلم لمرزوق وهو يقيس لـه الضغط ويقلبه ويتفحصه بسماعته التي لم تترك جزءاً فيه إلا تحسسته وتنصتت عليه: لازوم ننقله للمستشفى ها الحين.

فتح عينيه الذابلتين ونظر إلى مرزوق باسترحام وهو يقول بصوت خفيض ضعيف: لا تخلني أغضب عليك يا وليدي.

- يوبا حالتك خطيرة.

- ولدت في القبة وعشت بيها وأموت بيها واندفن بيها.

- يوبا ما راح تموت، بس لازوم تروح المستشفى.

- شو بدهم يسووا لـه في المستشفى... سأل رؤوف، فصرخ به مرزوق، مع إغماض فرحان لعينيه وولولة تمام: كيف إش يسووا له؟!. فحوصات، وإذا لازمه دم نعطيه.

- ما أروح الاسبيطار ... قالها بحزم، مخفياً ضعفه بإغماض عينيه.

- لكان نجيب المستشفى لـهون... قال رؤوف. فالتفت إليه مرزوق وتفرس في عينيه بدهشة.

سحب منه مرزوق عينة دم، وبضع قطرات من دم رؤوف. عاد بالنتيجة مع طبيبين آخرين وممرضين، وتم نقل الدم من رؤوف إلى فرحان. لكن الطاقم أجمع على ضرورة نقله إلى المستشفى لاستبزال السائل المتجمع في بطنه. وحذروا من تناوله الطعام أو الشراب قبل ذلك.

ظل رؤوف بجانبه بعد مغادرة الطاقم بمن فيهم مرزوق، بينما تراوح تمام بين المخدع وخارجه دون أن تدري ما تفعل سوى الإسراع لتخفيف الأغطية كلما ضاقت أنفاس فرحان وأعادتها فوقه كلما باغتته القشعريرة.

بعد العصر ارتاح قليلاً، مع تباعد فترات الحمى. ظل متردداً في الاستفسار إن كان ما شاهده وسمعه حقائق أم أحلاماً أم هلوسات. لكن وجهه الذي ومضت فيه بعض الحيوية، تغطى بالقتامة مع مجيء الزائرين. ليس لأن مرزوق بينهم، ولكن بسبب اندفاع نهايه إليه وهي تصرخ وتنشج وتولول وترمي نفسها فوقه. تقبله من وجنتيه وجبهته وأنفه وفمه، وتغمر وجهها في رقبته وهي تهتز وترتجف: إن شاء ا أنا ولا إنت عمو فرحان. وا بموت حالي. بموت حالي.

- آني مليح. مليح... قال فرحان وهو يحتويها بذراعيه .

أحس وهو يحتضنها بالبهجة والراحـة والانتعـاش، وهو الذي كان يخشى مثل هذا الموقف ويقاوم التفكير فيـه. كما احتضن من بعدها ميسر ومرزوق كأنـهم انتشلوه بعدما صارع الغرق. كم هو لذيذ ومنعش هواء الحياة.

عندها تصرف مرزوق تصرف طبيب مهيوب: يعني لو ما لقيني رؤوف بالمستشفى ، ويش كان صار لك .؟.

- إش مستشفى.

- ما حكى ليك .؟.

ظل يتفرس بوجه رؤوف، بينمـا يـروي مـرزوق حكاية ارتباكه ومغادرته المستشفى من غير استئذان بسـبب عجالته. مع أنه ليس طبيباً عادياً في مستشـفى مـدني. بـل عسكري. كل شيء فيه خاضع للأوامر، ويحظر نقل معداته إلا بموافقة قيادته. لكن كل شيء يهون فـي سـبيل عميـد الصليبية: وهسع كيف حاسس.

لم تنـزح عيناه عن رؤوف: رؤوف.

- إش رؤوف يوبا. بسألك إنت.

- يـم العساكر... وتبادل الجميع النظرات، باسـتثناء نـهايه، التي ابتسمت وهي تنشج وتتمخط، بينما يميل رؤوف على فرحان معانقاً: لو طلع بإيدي، جبت لك كل دكاترة لبنان ...

لم يعجب التعليق مرزوق. بينما فرحان يحيط رؤوف بذراعيه: إن انطاني الرب العمر، أزور وإياك قبر جدك أبونا سمعان.

نام ليلته مرتاحاً، فـانفض عنـه الجميـع باسـتثناء رؤوف. عاد مرزوق وميسر إلى عمان وآوت نـهايه إلـى غرفتها نـحو العاشرة، وتـهالكت تـمام على سـرير فـي غرفة مجاورة، منهكة خائرة القوى. تتفقده من حين لحـين، إلى أن استولى عليها النوم حتى الصباح.

عند منتصف الليل، وقـد أخفـض رؤوف ضـوء اللوكس في الممر خارج الباب، سأل دون أن يفتح عينيه: ما ودك تنام .؟.

- ما جاييني نوم.

- ونهايه ؟.

- راحت لغرفتها من شي ساعة.

- ...

- كانت تعبانة كتير.

- وإنت ما تعبت .؟.

- إنت اللي تعبت عمي.

- ودك تظل هان طول الليل .؟!.

- إذا متضايق من قعدتي بروح .

هز رأسه قليلاً للجانبين. وانقضت لحظة صـمت : تدري.

- ...

- خفت أموت ونـهايه بعيدة عني، مثل ما خفت تظل وأنا بحالتي قريبة مني.

هز رؤوف رأسه للأعلى والأسفل: تدري إنوه نهايه نهايتنا؟... وفتح عينيه، بينما رؤوف يهز رأسـه نفيـاً: مـا تدري.؟.

- أدري أنـها بداية يا عم فرحان ما نهايه.

انقضت لحظات وهما يتفرسان ببعضهما على هـدى الضوء المنبعث عبر الباب. أغمض فرحان عينيه وهو يزفر نفساً طويلاً : يا ريت.

- صدقني إنها بداية.

لاذ فرحان بالصمت، ولم يفتح عينيه حتى الصباح، دون أن يتيقن رؤوف إن كان نائماً أم مستيقظاً. حتى عنـدما جاءت تمام وطلب منها فرحان بنبرته المعتادة أن تعد الفطور للعيال.

- وانت يوبا مرزوق. ما جعت؟.

- ما سمعت التكتور ويش قال.؟.

بعد الإفطار التأموا جميعاً حوله. تلمس وجه نهايـه بحنان وهو يقول مبتسماً : صديقك اللبناني وده يسميك بداية بدل نهايه.

- ما حدا بقدر يغير الاسم اللي سـماني إيـاه عمـو فرحان... ومالت عليه معانقة، إلى أن أزاحهـا عنـه: ودي أنام. ترى ما نمت مثل الناس من زمان.

وافقته تمام ونهايه. بل شجعتاه علـى ذلـك، بينمـا يتفرس به رؤوف واجماً: اسمع يا الصاحب... فاقترب منـه رؤوف: ما ودي ڤروشه.تسرح ويا نهايه بعيد ومـا تقربـوا البيت . إي يا بنيه .

- إي يوبا مرزوق... قالت تمام.

- تعرفي النخلة يا نهايه.

- بعرف كل شي في القبة عمو.

- تسرحوا بيها. وإن ڤدرت ، الحق بيكم هناك. تـرى يالصاحب إن انطاني ا العمر، ارفع بيهـا مضـافتي يـوم عرسك. هناك قامت مضافات الشيوخ، عواد ورجا وزعـل وفرحان.

كانت أشجار النخيل صغيرة القامات، أما الأرومات الضخمة بينها فبدت مثل نتوءات صخرية. أهذه هي " النخلة " متاهة لا يعرف أولـها من آخرها. لا سبيل للخلاص منها إلا بالتوغل فيها. لكن إلى أين : للمضـافة... قالـت وهـي تتقدمه بثقة فوق جوادها.

انفرجت أقزام النخيل عن فسحة كبيرة، كأنها قلـب المنطقة. قلب متحجر مثل حفريات التاريخ. أوتـاد صـغيرة متفسخة، وأثافي تراكمت فوقها طبقات من الرمال والتراب. هنا قامت مضافات عواد ورجا وزعل.؟. هنا سيرفع فرحان مضافته يوم عرسه. ترجل عن فرسه بعدما سـبقته نهايـه، ممسكة باللجام وهي تدور بجوادها في الأنحاء.

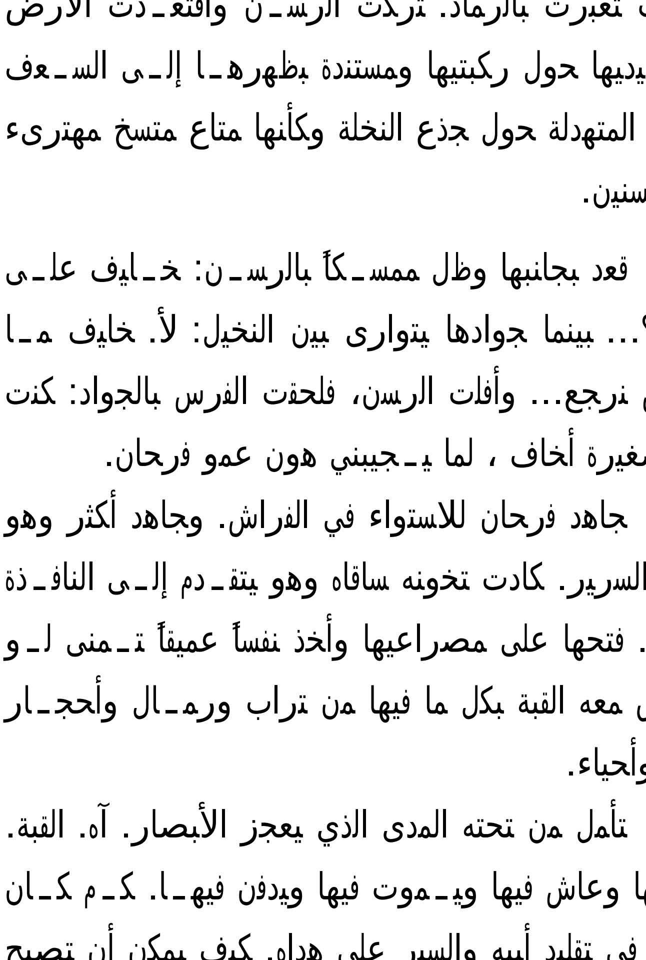
أحس بالرهبة وهو يتخيل أقزام النخيل طوابير جنودٍ مدججي السلاح. طوابير تحجب عنه الدنيا أو تصله بها. أما الأرومات المتحجرة بينها فلم تكـن تختلـف عـن أطـلال أوغاريت: ليش ما جبتيني هون من قبل .؟.

- شو بدك تشوف .؟!. أنا ما باجي لـ ـهون إلا يـوم أكون متضايقة.

- واليوم ، متضايقة.؟.

- اليوم منشانك. مثل ما طلب عمو فرحان.

بلع ريقه ولم يعلق. بعد لحظة، قال متلعثماً : هـون كانت المضافات ؟!.



لم تجب وواصلت التقدم إلى نخلة أكبر حجماً وأطول جذعاً من جاراتها، وقد تدلت من رأسها عناقيد البلح مثل جمرات تغبرت بالرماد. تركت الرسن واقتعدت الأرض شابكة يديها حول ركبتيها ومستندة بظهرها إلى السعف اليابسة المتهدلة حول جذع النخلة وكأنها متاع متسخ مهترىء أبلته السنين.

قعد بجانبها وظل ممسكاً بالرسن: خايف على فرسك؟... بينما جوادها يتوارى بين النخيل: لأ. خايف ما نعرفش نرجع... وأفلت الرسن، فلحقت الفرس بالجواد: كنت وأنا صغيرة أخاف ، لما يجيبني هون عمو فرحان.

جاهد فرحان للاستواء في الفراش. وجاهد أكثر وهو يغادر السرير. كادت تخونه ساقاه وهو يتقدم إلى النافذة المغلقة. فتحها على مصراعيها وأخذ نفساً عميقاً تمنى لو يستنشق معه القبة بكل ما فيها من تراب ورمال وأحجار ومياه وأحياء.

تأمل من تحته المدى الذي يعجز الأبصار. آه. القبة. ولد فيها وعاش فيها ويموت فيها ويدفن فيها. كم كان مخطئاً في تقليد أبيه والسير على هداه. كيف يمكن أن تصبح

قبته حاضرة مثل الشام. إنه لا يريدها مثل الشام ولا بيروت ولا القدس ولا عمان ولا بغداد . يريدها كما هي . بل كمـا كان هو. يريد أن تظل القبة قبة وأن يظل فرحـان فرحـان، وأن تظل نهايه نهايه " ما حدا بقدر يغير الاسم اللي سـماني إياه عمو فرحان". أصيلة. أصيلة. قولي ليه، إنت نهايه وراح تبقى نهايه، وإن يبغي بداية، يـجيبها.

انـحنى إلى الوراء شيئاً فشيئاً وارتـخت نهايـه بـجذعها إلى الأمام. وضعت رأسها على ركبتيها، متجهـة بوجهها نحوه. ابتسمت لـه وهو مستلقٍ مغمـض العينـين، شابكاً يديه تـحت رأسه.

- بدنا نتجوز .
- مين قال.؟.
- أنا.
- إنت حر.
- وإنت حرة.

اتسعت ابتسامتها مع ابتسامة عذبة رسمتها شفتاه وما يزال مغمض العينين. سادت لحظة صمت، شـاركته فيهـا الإغماض قليلاً قبل أن يتنحنح : شو؟. تمددت على جانبهـا

متكئـة بذقنها على قبضتها وهي تتأمل وجهه عن قرب: لأ. ما نمت، إنت اللي نايم... واقتربت بـجسدها منـه. تأملتـه قليلاً وهي تتردد في لمس وجهه.

أحس بأطراف أصابعها تدغدغ لـه جبهته، وسـمع كركرتها الخفيفة. هم بفتح أجفانه لكنه أرخاها تمامـاً وهـي تماس لـه غرته بنعومة. منتظرة أن ينقض عليها بذراعيـه ويضمها إلى صدره.

- ولا كأنك هون.
- قلت لك. أنا حر وإنت حرة.

أشرقت ابتسامتها، فمالت بـجسدها نحوه مكتفة يديها فوق صدره.

فتح أجفانه وتلاقت نظراتهما للمـرة الأولـى بهـذا القرب. أخذت تتأمل سحر قرص الشمس في عينيه: سـوف تنجبين لي الأبناء.

- كيف تريدهم .؟.
- أريدهم كباراً. أريدهم قسـاةً . أريـدهم أن يـدفنوا الحدود ويردموا الأسوار.
- كم واحد تريد ؟.

- أريدهم أكثر من السمك والنمل والجراد.

أخيراً فعلتها وتجرأت على اختطاف قبلة من شفتيه، فعاد لإغماض عينيه وهو يحرر من تحت رأسه يديه. ضمها إليه فاسترخت برأسها على صدره وهي تتمنى لو تظل على وضعها طيلة عمرها. تنهدت فاعتصرها إليه. صـدر عنهـا أنين وهي تحس بعظام ظهرها تنسحق بين ذراعيه. عبثـت أصابعها بالتراب. ثم تحسست الجذع الـهرم. هيـئ لـهـا أنـه اهتز تحت يدها. فتحت عينيها ونظرت إلى رطب البلح فوقها تتخلل السعف

الخضراء: أرضعيهم حليب المـجد، وذكريهم بيـوم الثـأر، واحكي لـهم كل يوم حكاية الأبطال، ولا تنسي حكاية العـم فرحان. وعندما تشرق شمسي الملتهبة ، انشدي معهم عهـد كنعان ، فشمسي الملتهبة لا تشرق لغير كنعان. عنـدها يـا رفيقة تتبخر قطرات الصدف، وتجف دمـوع المجـاملات، ويرسل السحرة إلى المحرقة. عندها سيعرفون بأن السليل لا

يندم ولا يدان. لا يغفر ولا يطلب الغفران. فأنجبـي أعظـم السلالات من أبناء كنعان.

زياد قاسم

خريف ٢٠٠٢